

رجال ريّا وسكينة

سيرة سياسية واجتماعية

صلاح عيسى



حكايات من دفتر الوطن

دار الأحمدي للنشر

رجال ريا وسكينة

سيرة اجتماعية وسياسية

صلاح عيسى

رجال ريا وسكينة

سيرة سياسية واجتماعية

المؤلف: صلاح عيسى

الطبعة الأولى/ القاهرة/ ٢٠٠٢

الغلاف تصميم: أحمد اللباد

التنسيق الداخلى: صلاح عيسى

الإخراج الفنى: أسامة زهير

عازف الربابة - من رسوم وصف مصر

الصور التاريخية: ملف الجناية ٣٢ لسنة ١٩٢٠ قسم شرطة اللبان/ اللطائف المصورة (١٩٢٠)/ الدنيا المصورة (١٩٣٢)/ المصور (١٩٣٧)/ الجيل (١٩٥٣)

صورة الافتتاح: شارع محمود فخر بالإسكندرية حيث يوجد المنزل الذى أقيم مكان البيت الذى كانت تسكنه «سكينة»

الصور المعاصرة: تصوير هالة عبد الله

الرسوم والمجسمات: الفنانة ريهام صلاح الدين

الناشر: دار الأحمدى للنشر

القاهرة: ٤٠ شارع طلعت حرب (سليمان باشا) - أمام سينما مترو

تليفاكس: ٥٧٥٥٢٠٩

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٣٠٤١
الترقيم الدولى	977-5887-50-X

صلاح عيسى

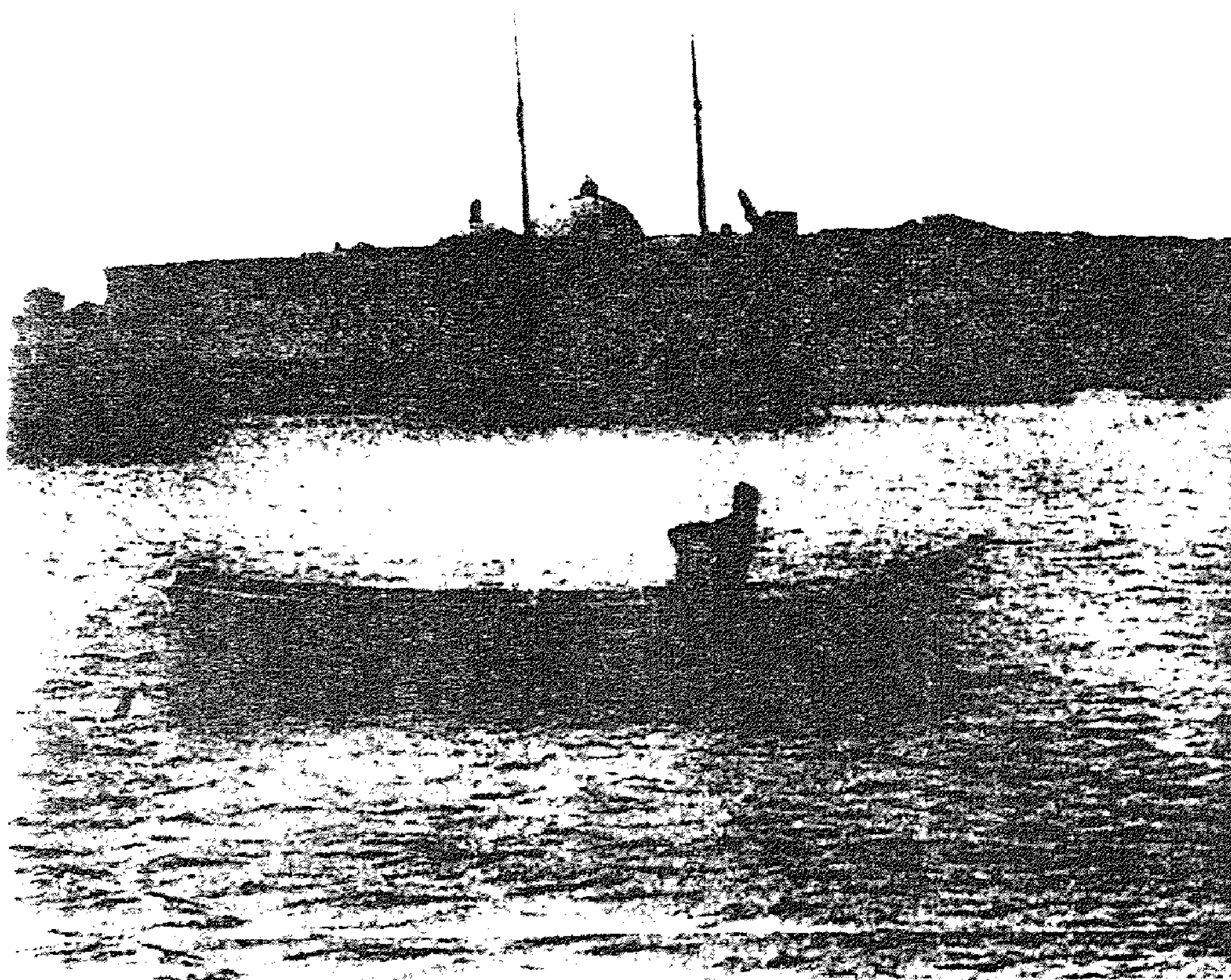
حكايات من دفتر الوطن

رجال ريا وسكينة

سيرة اجتماعية وسياسية

الطبعة الأولى . القاهرة ٢٠٠٢

دار الأحمدي للنشر



١٩٢٤ : قصر رأس التين : القارب المخصص للملك فؤاد

يقول الراوى

ثوار ولصوص وخونه











لم يعن أحد من علمـــاء الأنســـاب برسم شجرة «عائلة همـام» التى تنتسب إليهـا الشـقيقتان «ريـا بـنـت عـلـى همام» و«سكينة بنت على همـام»، حتى بعد أن فرضت الاثنتان نفسيهمـا على الاهتمـام العام، وحفرتا اسـمـيـهـمـا ـ بحروف من دم ـ فى ذاكرة النـاس، تتـداولهـمـا الألسن، ولاتكف عن ترديدهمـا الشـفـاه، ربما بأكثر مما كانت تردد اسماء الكبار ـ المحفورة فى ذاكرتهم بحـروف من نور ـ مـثل «سـعـد زغلول» و«عـدلى يكن» و«اللورد ملنر» الذين كـانوا يتفاوضون أيامهما حول مستقبل مصر، بعد الحرب، وبعد الثورة.

وحتى بعد أن انتقل هذا الاهتمام بهما من أحاديث السُمار فى عربات الترام وفى المقـاهـى والمنادر والبـارات، إلى هؤلاء الجـالسين على القـمـة، فطلب عظمـة السلطان «أحمد فؤاد» من رئيس وزرائه، ووزير داخليته «محمد توفيق نسيم باشا» أن يوافيه بتقرير شامل عن ابنتى «على همـام»، واسـتـحث رئيس الوزراء، زمـيـله «أحمد ذوالفقار باشا» ـ وزير الحقانية ـ على الإسراع بإنهاء التحقيق معهما، وعلى إبلاغه بنتائجه أولاً بأول، فإن أحداً من المتخصصين فى التراجم والسير، لم يشغل نفسـه ـ آنذاك أو بعـد ذاك ـ بالتـأريخ لحياتهما، بعيداً عن الأحساب والأنساب وشجـرة العائلة. ولم يجد فى ذلك حـافـزاً يدعوه لتقصى ماجرى لهمـا. خلال نصف القـرن الذى عـاشتـاه، قـبل ان ينفـجـر اسماهما فى سماء الوطن كالقنبلة، محاطاً بالدمـاء والأشـلاء والغـبـار، وبالدمـوع والصرخات والعار، ثم يرفع هذا التاريخ ـ كمـا كـانت العادة الشـائعـة ـ إلى «السدة السطانية المنيفة» وإلى «مقام نائب جلالة ملك بريطانيـا على مـصـر والسـودان» بعبارات إهداء يصف فيها صاحبتى السيرة بأنهما «بعض ماشتلته أياديكما الكريمة فى أرض الوطن من بذور، فـأثمـرت وأينعت وتضوعت بالروائح الزكية»، ويوقعها بصفته «الخادم الأمين».

ولو أن أحـداً من هؤلاء، أو أولئك قـد قام بواجبه، لتخلقت أمامنا صورة حية، لابنتى «على همـام» منذ كـانت كل منهـمـا نطفـة، ثم مـضـغـة، ثم علقـة، ثم اكتسـت عظاماً ولحماً، ثم خرجت إلى الوجود طفلة بلا ملامح أو ذاكرة، تبكى وتضحك، وتلهو، وتخـاف من الظلمـة، تلقم ثدى الأم وتلوذ بأحضانها، وتحبو فى باحة الداربين صغار الدجاج والأوز، وتكتشف الحياة من حولها بمرح ودهشة، وتتعثر على لسانها الكلمات.

ومـاتكاد تدرك الدنيا من حـولهـا حـتى تنتهى طفولتها فجأة فتستيقظ عند الفجر، لتـشـعل الفـرن، وتكنس الدار، وتحلب المواشى، وتقـدم الطعـام للدجـاج والبط، وتسحب الجاموسة إلى الحقل، وتستحثها على إدارة السـاقـيـة وتعـود عند الظهـر لتـحـمل الطعـام إلى أبيـهـا، فـإذا مـاجـاء الغروب سرحت وراء المواشى، تتلقى روثها

بين كفيها، لتعجنه بشىء من التبن وبكسر من الحطب ثم تنشره فى الشمس ليجف فيصبح وقوداً. إلى أن يأتيها «عَدَلها» فتخضّب كفيها وقدميها بالحناء، وتبيض وجهها بشىء من دقيق القمح، وتكحل عينيها وتصبغ شفتيها، وتغنى لها الصبايا فى ليلة الحنة، ثم تشيعها الزغاريد فى ليلة الدخلة، إلى بيت زوجها، ومعها صندوق أحمر، تضع فيه - ككل عروس - حاجياتها، فإذا مافتحت عينيها فى «يوم الصباحية» عادت لتدور - كالنحلة - طول اليوم، وطول السنة، وطوال الدهر، لايقعدها برد أو حر أو مرض أو ألم.

ولو أن أحداً من دارسى موجات الهجرة الداخلية، كان قد اهتم - قبل ذاك أو آنذاك - بـ«تغريبة بنى همام» لعرفنا متى.. ولماذا غادرت «ريا» و«سكينة» مسقط رأسيهما فى «الكلح»، فى أقصى الجنوب بالقرب من من «أسوان»، حيث الفقر والجدب والوباء ونقص القوت - ولتتبعنا خط سيرهما الطويل، بين القرى والعزب والكفور، والمدن الصغيرة المتناثرة على شاطىء النيل، تحلبان ضرع الأيام، وتبحثان عن لقمة تدفعان بها غائلة الجوع أو لحظة راحة يستتيم فيها ظهر كل منهما لحشية ناعمة، تكف بعدها سلسلة ظهرها عن ذلك التضاغط المؤلم، إلى أن تحط بهما التغريبة - دون إرادة منهما - فى «الإسكندرية»، حيث البحر والنسيم وأضواء الكهرباء والشوارع الواسعة النظيفة، والخبز الطرى، والطعمية الساخنة وعلب «البولوبيف» و«السردين» و«الحلاوة الطحينة»، وجحافل الأجانب من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين واليونانيين، فلا يزيد نصيبهما من المدينة الجميلة عن المقدر لهما منذ الأزل:

حجرات مظلمة ضيقة فى حوار وأزقة أكثر ضيقاً، تتلوى على نفسها كالثعابين، وتفوح منها نسائم الفقر وروائح العفونة تضيئها مصابيح من الصفيح الصدىء تشعل بالنفط. وينزوى فى ركن كل منها «زير» من الفخار يملأه السقاء بقربة ماء كل يومين أو ثلاثة. وتحتشد بآلاف من الجنوبيين من أمثالهما، قذفت بهم يد الله فى التجربة، وحملتهم التغريبة من قرى الصعيد المعلقة فى بطن الجبل، أو جزائره المتناثرة فى قلب النيل، إلى الإسكندرية، هرباً من ثأر أو فراراً من جوع، أو أملاً فى الاستمتاع بشىء من لين الحياة.. فتاهتا فى المدينة الواسعة، وطاردتهما التغريبة فى أزقتها الطينية الضيقة. واضطربتا طول سبع سنوات مريرة، بين «المسكوبيه» و«سوق الجمعة» و«زاوية العطش» وحين يحط بهما الرحال - أخيراً - فى «حارة النجاة» تجدان المقدر والمكتوب فى انتظارهما، وينفجر اسماها - كالقنبلة - فى سماوات الوطن. وتقودهما صدفة تعيسة إلى حبل المشنقة، وينتهى الحلم بلين الحياة، إلى موت بلا لين.

أما الناشر المجهول، الذى استغل اهتمام الناس الفائق عن الحد. بمعرفة صورتيهما، فطبع عشرات الآلاف منها، تخاطفها الناس فى أيام قليلة. وربح من توزيعها مئات الجنيهات، فقد اكتفى بذكر

اسم كل منهما تحت صورتها باللغتين العربية والافرنكية، ولم يضف إلى ذلك شيئاً، ربما لكى لايصادر على حق الناس فى أن يتخيلوهما كما أرادوا: مجرد وحوش هربت من الغابة، وظلت تعيث فى الدنيا فساداً، إلى ان وقعت فى المصيدة.

ومع ان الصحف التى عاصرت بروز اسمى «ريا» و«سكينة» لم تقصر فى اشباع فضول المصريين لمعرفة أنبائهما بل وخصصت كل منها زاوية يومية ثابتة فى مكان بارز لتلك الأنباء على امتداد شهرين كاملين، إلا أنها لم تقصر ـ كذلك ـ فى نشر كثير من الوقائع المغلوطة أو الناقصة أو المختلطة. ذلك أن إحساساً عميقاً بالعار، مما ارتكبته «ريا» و«سكينة» كان يغلل روايتها للوقائع، إذ بدا لها أنهما شاهدتان على نقص الرقى الاجتماعى للمصريين، وأن صدقها فى رواية الوقائع ربما يستغل للتدليل على عدم كفاءتهم لحكم أنفسهم بأنفسهم، وكانت المناظرة بين الوطنين المصريين المطالبين بالغاء الحماية البريطانية على بلادهم، وبين غلاة المستعمرين تدور آنذاك، حول هذا الموضوع تحديداً.

وهكذا تواطأ الجميع بالصمت أو بالجهل أو بسبب الاحساس العميق بالعار، على تحويل «ريا» و«سكينة» إلى رمز أسطورى للشر، لاصلة له بدوافع مافعلتاه، وأغمضوا عيونهم عن كل ماعدا ذلك، فقدكانوا فى حاجة إلى رمز للشيطان فوجدوه، وإلى صورة تجسد الشر المطلق الطليق فطبعوا عشرات الآلاف من صورتيهما وأخذوا يتبادلونها وينسجون حولهما قصصاً وأساطير مرعبة، جعلتهما فى النهاية، قرينتين لتلك الشخصيات المرعبة، التى طار صيتها فى زمانها وظل طائرا إلى أن أدرك زماننا، مثل «أمنا الغولة» و«فرانكشتين» و«دراكيولا».

وربما لهذه الأسباب كلها، دخلت الاثنتان التاريخ، دون أسانيد ـ أو تفاصيل ـ كافية، فلا شجرة أسرة، ولاشهادة ميلاد، ولاتاريخ اجتماعياً، ولاتقرير من قصاص أثر، حول مافعلتا أثناء التغريبة أو مافعلت بهما التغريبة، فاستباحهما الجميع، واتخذوا منهما رمزاً لما يريدون، وليس لما كانا يرمزان إليه بالفعل: الآباء الذين يريدون تخويف ابنائهم من النوم دون غسيل الأسنان، والأمهات اللواتى تردن إخافة بناتهم من شر السكك، ومؤلفى الأفلام السينمائية والمسرحيات الهزلية، الذين يربحون من وراء تسلية جمهورهم بشىء من مغامرات الشرطة فى مطاردة المجرمين، أو من محاولة دغدغتهم بشىء من كوميديا الرعب، فيضحكون على أنفسهم وعلى الآخرين مع أن الذى يستحق الضحك منه، هو مؤلفى تلك الأفلام والمسرحيات.



وكانت «ريا» و«سكينة» هما أول من تعرفت عليه الدكتورة «لطيفة الزيات» ـ أستاذة الأدب الإنجليزى

والروائية المعروفة ـ من صور الشر.

ومع أنها ولدت بعد إعدامهما بعامين. ولم تتعرف عليهما إلا بعد ذلك بثمانية أعوام أخرى، ولم تدل بشهادتها فى محاضر التحقيق التى أجراها «سليمان بك عزت» ـ رئيس نيابة القاهرة الذى حقق القضية ـ لأنه كان قد أغلق محضره، ونقل إلى عمل آخر.. ومع أنها «شاهد سماع» لا «شاهد رؤية» إلا أن ذلك لاينفى الأهمية التاريخية لأقوالها، إذا هى نموذج لتلك الرؤية الأسطورية، التى اغتالت الحقيقة، واهتمت بالرمز على حساب الواقع.

تقول «لطيفة الزيات»: «تعرفت على الشر، أول ماتعرفت بصورة غير مباشرة، أحالها خيال أمى، وخيالى إلى صورة مباشرة، وأنا طفلة فى الثامنة من عمرى. حكت لى أمى عصراً ـ وكانت بارعة الخيال وبارعة القدرة على الحكى ـ قصة أعتى قاتلتين فى مصر «ريا» و«سكينة».. وأوردت أمى طقوس القتل بالتفصيل وكأنها تتمثلها: اختيار الضحية. اصطحابها إلى البيت، خنقها، تمزيق جثتها إلى أجزاء، حرق الأجزاء فى الفرن الكبير ودفوف الزار التى كانت تغطى على أصوات الاستغاثة حتى لاتصل إلى نقطة البوليس أمام دار «ريا» و«سكينة». وأكدت أمى بالطبع فى نهاية الحكاية ـ التى أسرتنى تماما ـ أن الجريمة لاتفيد، وأن الأمر قد انتهى بإعدام «ريا وسكينة».

ذلك نموذج واحد لتلك المبالغات الخيالية التى تضيف للتاريخ مالم يحدث فيه، فلم يكن القتل يتم بمصاحبة دفوف زار تغطى على أصوات الاستغاثة، ولم يكن يتم بواسطة الخنق، إذا لم يعثر «الطبيبان الشرعيان» ـ «سيدني سميث» و«عبدالحميد عمار» ـ اللذان قاما بفحص جثث ضحايا «ريا» و«سكينة»، على أية كسور فى العظام اللامية، وهى عظام الرقبة التى يدل كسرها على أن الخنق هو سبب الوفاة. ورجحا فى تقريرهما أن القتل قد تم بطريقة كتم الأنفاس.. ولم يكن هناك تمزيق للجثث. فقد عثر الذين حفروا فى أرضية البيوت التى سكنتها ابنتا «على



د. لطيفة الزيات — إسماعيل صدقى باشا

همام» على الهياكل العظيمة لتلك الجثث وهى سليمة وكاملة، وعلى بعضها أجزاء من الأنسجة الرخوة فى حالة تحلل، وقد اشتبكت سيقان بعضها بالبعض الآخر لتوفير مساحة الدفن.

أما حرق الجثث فى الفرن بعد تقطيعها، فهو نموذج لتلك الرغبة فى ترميز «ريا» و«سكينة» بإضافة كل ماهو جريمة إلى صحيفة حالتهما الجنائية، ونسبة كل ماهو قسوة ولاإنسانية إليهما، ليسهل اتخاذهما كشاخصين للشر المجرد، يرجمهما كل من يسمع باسميهما، ويبصق على ذكراهما.. أما التاريخ ـ المفترى عليه ـ فيقول انهما كانتا أفقر من أن تملكا فرنا لتنضجا فيه رغيفاً من الخبز، أو مايكفى من المال لكى تشتريا دجاجة تشويانها فيه ويستطرد فيقول: إن الذين أضافوا اليهما تلك التهمة، قد اقتبسوها عن السفاح الفرنسى الشهير «هنرى لاندرو» الذى تجمعه بكل من «ريا» و«سكينة» مشابهات: منها أنه كان مثلهما متخصصا فى قتل النساء فقط. ومنها أنه كان معاصراً لهما، فقد اكتشفت جرائمه فى صيف عام ١٩١٩، وقبل شهور قليلة من دخول الاثنتين فى «الوعد» الذى قضى عليهما، بأن تشتركا فى جرائم القتل.

وكانت بداية الكشف عن جرائم «لاندرو» بلاغ تقدمت به إلى الشرطة الفرنسية ـ فى فبراير (شباط) ١٩١٩ ـ شابة فرنسية تتهم مهندساً اسمه «جورج فريميه» بأنه وراء اختفاء شقيقتها «مدام بويسن» قبل عامين. وقالت الشقيقة فى بلاغها أن اختها كانت قد خطبت للمهندس، واعطته توكيلا باستثمار أموالها، ثم اختفت بعد ذلك، فخطب «فريميه» صديقة لها، لكنها اختفت هى الأخرى، بعد أن أعطته ـ كذلك ـ توكيلاً باستثمار أموالها، مما جعلها تشك فى أن له يداً فى اختفاء الشقيقة والصديقة.

وبعد بحث طويل، اكتشفت الشرطة أن الاسم الذى خطب به المهندس المرأتين، هو اسم مستعار وأن اسمه الحقيقى هو «هنرى لاندرو» وانه لاصلة له بالهندسة، إذ هو من أصحاب السوابق ومعتادى الاجرام. وعثر المحققون بين أوراقه على قائمة وجدوا بها اسماء إحدى عشرة امرأة، بينهن مدام «بويسن» وصديقتها اللتين ابلغ باختفائهما. وكشف البحث عن ان بقية النساء اللاتى وردت اسماؤهن فى القائمة كن من بين خطيبات «لاندرو» ثم اختفين بعد قليل من خطبتهن له. واتسع نطاق البحث ليتضح أن «لاندرو» كان يحترف خطبة النساء الأرامل أو المتقدمات فى السن، ليستولى على أموالهن، وأنه خطب ٢٨٦ امرأة، تم التأكد من وجود ٢٧٥ منهن على قيد الحياة، بينما رفض «لاندرو» أن يبرر سبب اختفاء الإحدى عشرة امرأة اللواتى عثر البوليس على قائمة باسمائهن، مما دفع المحققين إلى اتهامه بقتلهن، خاصة بعد أن كشف تفتيش فيلا يستأجرها فى الضواحى، عن العثور على عظام آدمية محترقة، فى رماد الفرن، مما أكد انه يقتل ضحاياه، ثم يحرق جثثهن.

وقد ثبت بعد ذلك، أن جرائم «لاندرو»

بدأت فى عام ١٩١٤، عندما خطب أرملة اختفت بعد قليل هى وابنها ليتسلم التأمين على حياتهما، واختفى هو بعدها لعدة شهور، اشاع أنه كان أثناءها فى «تونس» ثم اتضح انه خطب - خلال ستة شهور - ثلاث أرامل فى ثلاثة أحياء مختلفة.. اختفت الواحدة بعد الأخرى. وقد أسرف فى استخدام إعلانات الزواج فى الصحف، حيث كان يشير إلى أنه أرمل فى الخمسين ولا ولد له، وأنه صاحب ثروة، ويريد الزواج من امرأة فى مثل سنه، وهى شروط مغرية مكنته من اصطياد ضحاياه بسهولة، حيث كان يستولى على مصاغهن أو على قيمة «بوليصة» التأمين على حياتهن.

وقد أنكر «لاندرو» ارتكابه لجرائم قتل النساء الإحدى عشرة، وطالب المدعى العام بأن يثبت أنه ارتكب الجرائم، بدلاً من مطالبته هو اثبات براءته. ورفض الكشف عن أماكن اختفاء النساء بدعوى أنه وعدهن بذلك، لكن المحاكم على اختلاف درجاتها لم تأخذ بدفاعه وأيدت الحكم الذى صدر فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١ بإعدامه، وبعد أيام قليلة من تنفيذ الحكم بإعدام «ريا» و«سكينة».

وليس المهم هو أن تلك المبالغات قد أساءت إلى سمعة «ريا» و«سكينة» ابنتى «على همام»: إذ كانت من السوء بدرجة لاتحتمل ولاتتأثر بالمزيد منه، لكن المهم هو رد الفعل الحقيقى الذى ترسب فى نفس الطفلة التى استمعت إلى هذا التاريخ الأسطورى.. تضيف «لطيفةالزيات»: «ولكن ماأكدته أمى فى نهاية الحكاية شىء. وما استقر فى كيانى شىء آخر.. استقرت كل من ريا وسكينة فى كيانى حيتين تمليان وجودهما على.. كالوجود الذى لاوجود عداه.. ولاإفلات منه.. وفى ظلمة الليل، وأنا أنام وأختى صفية التى تصغرنى بثلاث سنوات فى حجرة مستقلة عن حجرة أمى. داهمتنى كل من ريا وسكينة فى سريرى.. وتحولت وأنا أرقد فى سريرى إلى الضحية، تنزل بى طقوس القتل طقسا بعد طقس ووجدت نفسى أجرى مرعوبة إلى سرير أمى فى الحجرة المجاورة أحتضنها وأنا أرتجف.. أجد فى حضنها الملاذ من شرور الدنيا».

وفيما بعد اكتشفت «لطيفة الزيات» أن شرور الدنيا، أكبر من أن تحتمى منها بحضن الأم مهما كان واسعاً ودافئا. والتقت كثيرا بكل من «ريا» وسكينة»: مرة وهى فى الحادية عشرة وأخرى وهى فى الثالثة والعشرين وثالثة وهى على مشارف الستين. وايقنت أن قهر السلطة، وقهر اللصوص القتلة، هو ذات القهر. وأن شر عصابة «ريا» و«سكينة» لايقل عن شر رجال الشرطة الذين رأتهم فى عام ١٩٣٤ - وكانت فى الحادية عشرة من عمرها - من شرفة منزلها فى المنصورة، يردون برصاصاتهم أربعة عشر قتيلاً من بين طلاب المدارس الثانوية، الذين كانوا يتظاهرون ضد ديكتاتورية «إسماعيل صدقى». عدتهم قتيلاً بعد قتيل، ودماؤهم تفور حمراء قانية كالنافورة، فتعرفت على الشر مجسداً على مستوى الدولة.

ثم تعرفت بهما مرة أخرى، حين جلست

على شاطىء النيل، وكانت لاتزال طالبة جامعية فى الثالثة والعشرين من عمرها، تتابع الغواصين، وهم ينشلون جثث الطلاب الذين سقطوا فى مياهه - حين أمر رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» - فى ٩ فبراير (شباط) ١٩٤٦، بفتح «كوبرى عباس» وجموع المتظاهرين من طلاب الجامعات تحاول عبوره ليصلوا إلى قلب المدينة - يخرجون الجثة بعد الأخرى دون أن تستطيع أن تفعل شيئاً.

وذات صباح من بداية الثمانينات واثناء اعتقال «لطيفه الزيات» - التى كانت قد وصلت آنذاك إلى سنّ الستين - ضمن أسرى الحملة التى شنها نظام الرئيس السادات على المعارضين فى سبتمبر (أيلول) ١٩٨١، دهمت فرقة من السجانات عنبر السجينات السياسيات بسجن القناطر الخيرية للنساء، فحاصرته. وأخذت تقلب بأصابعها القذرة فى أخص خصوصياتهن. وطاردت سجانة منهن، فتاة صغيرة لتنزع منها خطابا تلقته من أبيها. فألقت به الفتاة فى المرحاض. وأسرعت السجانة تمد يدها إلى فوهته، لتعود بالخطاب ملوثاً بما كان يحيط به. وحين رأتها «لطيفة الزيات» لم تستطع أن تحدد ما إذا كانت ملامحها أقرب من إلى ملامح «ريا» أم إلى ملامح «سكينة» كما جسدتها الممثلتان «نجمة ابراهيم» و«زوزو حمدى الحكيم» فى فيلم «صلاح أبوسيف» الذى يحمل اسميهما، لكنها كانت واثقة أن السجانة كانت احداهما، وربما كليهما، وبدا لها ما تفعله طقسا من طقوس القتل التى تعرضت لها وهى طفلة، فجرت مذعورة تلوذ بأحضان أمها من شرور الدنيا.

وعلى تلك الحافة بين الكابوس والواقع، سقط من وعى «لطيفة الزيات» الحد الفاصل بين القهر الواقع من السلطة والقهر الواقع من عصابة اللصوص. وخاضت مع زميلاتها المعركة ضد فريق السجانات، وكأنها تصفى حسابا قديماً مع «ريا» و«سكينة» وتنتقم لعجزها حين رأتهما - على رأس عصابتهما - يردون بالرصاص أربعة عشر من طلاب المدارس، وهى جالسة إلى جانب «كوبرى عباس» وقد



سفاح النساء الفرنسى هنرى لاندرو يدافع عن نفسه

تحجرت الدموع فى عينيها تنتظر رفاقها الغرقى، رفيقاً بعد رفيق.. من دون قدرة على أن تفعل شيئاً..

وحين انتهت المعركة، استفتت زميلاتها فيما إذا كانت ملامح السجانة ـ الممسوحة الأرداف والاثداء ـ أقرب إلى ملامح «ريا» أم إلى ملامح «سكينة»، فتضاحكن من ذلك الخلط بين الأشخاص والأزمان، والأدوار والوقائع، فقد كانت الشقيقتان تنتميان إلى فريق «الحرامية» أما السجانة فهى تنتمى إلى فريق «العسكر». لكن «لطيفة الزيات» كانت واثقة بأنه لا خلط هناك بين العسكر والحرامية.. أو بين قهر «ريا» و«سكينة» وقهر شرطة عهد «السادات».

والحقيقة أن الخلط كان قد حدث فى ذلك الزمن البعيد غير السعيد، حين تحولت ابنتا «على همام» من حقيقة إلى أسطورة، ومن واقع إلى رمز، ومن امرأتين ضعيفتين مطحونتين إلى تجسيد للشر المطلق الطليق. ولو أن «لطيفة الزيات» كانت قد عرفت قصة «ريا» و«سكينة» من مصادرها التاريخية ـ وليس على لسان الرواة ـ لأدركت أنهما على الرغم من شرهما البادى وغير المنكور، لم تكونا سوى ضحيتين من ضحايا قهر دفعهما دفعا إلى تلك القسوة النادرة المثال، التى لاتغادر ذاكرة الناس إلى اليوم.

ولو أن هذه الحقيقة كانت قد عرفت آنذاك، لما أثرت الأسطورة الشائعة عن «ريا» و«سكينة» على نفس «فؤاد الشامى» تأثيراً يختلف تماما عن تأثيرها على شخصية «لطيفة الزيات». فهو على العكس منها، لم يخف منهما، ولم يجر إلى حضن أمه لكى يلوذ به من شرهما، إذ كان معجبا بهذا الشر المجرد الذى نسب إليهما، وشاع عنهما. مع أنه لم يكن مثلهما فقيراً يتكفف القوت ـ إذ كان والده تاجراً ميسور الحال ـ فقد كان «فؤاد» منذ حداثته مفتوناً بقوته البدنية المفرطة. يزهو بها على أقرانه، ويعتبرها رأس ماله الذى يحفظ له مكانته بينهم، فأغراه مانسب إلى ابنتى «على همام» من قسوة وغرق فى أحلام يقظة يتقمص خلالها شخصية الجلاد، لاشخصية الضحية.. وأخذ يفاخر زملاءه بجرائم لم يكن قد ارتكبها بعد، يصوغها على نسق ماكان يشاع من أساطير عن جرائم «ريا» و«سكينة»، ثم مالبثت الأكاذيب أن تحولت إلى حقائق، وأصبح «فؤاد الشامى» فتوة لشارع عماد الدين، يفرض الاتاوات على ملاهيه وباراته وراقصاته.. فإذا امتنع أحد عن الدفع، قامت عصابته بتحطيم البار أو الملهى، أو بضرب المتمرد على إرادته، إلى أن رفعت راقصة من الدرجة الثانية اسمها «امتثال فوزى» راية العصيان، وتوقفت عن الدفع، وأصرت على موقفها على الرغم من كل التهديدات ومحاولات الترويع والتخويف، فلم يجد أمامه وسيلة لوقف التمرد، إلا بقتلها فطعنها أحد أفراد عصابته، برقبة إحدى زجاجات البيرة.



لم يعد سراً تاريخياً، أن العرب ـ كغيرهم من شعوب العالم ـ قد يقدسون أحياناً، أشخاصاً ممن يصنفون عادة ـ فى الرؤية الشرطية ـ باعتبارهم مجرمين، وربما داعرين، ففى كثير من القرى العربية، تتناقل الأجيال ـ عن طريق التواتر ـ سيرة ابن من ابناء القرية، هو نموذج لكل الفضائل البشرية: فهو وسيم وذكى وشجاع وقوى وشديد الاعتزاز بكرامته، لايخاف من أحد ولايطأطىء رأسه لأحد، وهو فضلاً عن هذا مقاتل عنيد، لايهاب عدواً ولايهزم فى معركة حتى لو خاضها وحيداً بلا أعوان، لكنه ـ على الرغم من ذلك كله لايعتدى على فقير، أو ضعيف أو مظلوم، فهو يتصدى ـ فقط ـ للأقوياء والمتجبرين وظالمى العباد، وآكلى السحت، والذين يستحلون أموال اليتامى والثكالى والأرامل، فهو رمز لتمرد المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، لذلك يحيطه الناس بهالات من الاعجاب، ويحرصون على تلقين سيرته لأولادهم، ويختارون اسمه لأكبر هؤلاء الأولاد، وقد يدرجونه من دون حيثيات مقنعة بين أولياء الله الصالحين ويقيمون له ـ بعد موته ـ مقاماً (أي ضريح) يتلون حوله الأوراد والأذكار ويقدمون إليه النذور.

وليس لمعظم هؤلاء الذين يوصفون فى المصطلحات الشرطية بـ«الأشقياء» تاريخ مدون، نستطيع أن نعود إليه لكى نعرف الحد الفاصل بين التاريخ والخيال وبين الحقيقة وما أضفته عليهم الرؤية الشعبية من صفات عظيمة وأعمال باهرة، حولتهم إلي اسطورة. لكن المشترك بينهم، هو أنهم ـ فى الأغلب الأعم ـ ممن يشقون عصا الطاعة على السلطة المحلية فى القرية أو المحلة أو المنطقة، سواء كان ممثل هذه السلطة «عمدة» أو «مختاراً» أو «باش أغا» أو اقطاعيا يملك الأرض وماعليها من بشر ودواب، خاصة فى أثناء العصر التركى المملوكى، الذى خضعت فى ظله البلاد العربية، لحكم باطش، كان يستنزف أموال الناس بالضرائب والفرد والمكوس ويستحل انتهاك أعراضهم، واهدار آدميتهم وتعذيبهم وقتلهم، ثم فى ظل الحكم الأجنبى الذى كان يفعل بهم الشىء نفسه.. فكان منطقيا أن ينحاز الناس تلقائياً لكل من يشق عصا الطاعة على هؤلاء الحكام الظالمين، وأن يعتبروه بطلاً، وربما ولياً أو قديساً، بصرف النظر عن التصنيفات الشرطية، وأن يتواطأوا على اخفاء بعض ماطالهم من شره وظلمه. وأن ينتدبوا من بينهم ذلك الفريق من المؤرخين الفولكوريين، الذين يصوغون التاريخ فى صورة مواويل وسير وملاحم، تزدرى بحقائقه، لأن مايعنيهم هو أن يتركوا للأجيال القادمة، رمزاً للسوبرمان، الذى يتمرد على سلطة لايستقيم بين يدها ميزان العدل.

وقليلون من هؤلاء الأشقياء هم الذين

أدركوا عهد التوثيق أو المطبعة، فتركوا وراءهم شواهد تصلح أساساً للمقارنة بين الحقيقة التاريخية والخيال الشعبى. وقليلون بين هذا القليل، هم الذين تعدت شهرتهم النطاق المحلى لتبرز اسماؤهم على الصعيد القطرى أو القومى، وأحياناً الدولى.

ومن النماذج الأولى فى تاريخ مصر، «ياسين» ـ الذى دخل التاريخ عبر موال «بهية وياسين» ـ و«متولى» ـ الذى دخله عبر موال «شفيقة ومتولى» ـ وكلاهما رمز للدفاع عن حق الأخذ بالثأر والانتقام للعرض، و«أدهم الشرقاوى» الذى حوله التاريخ الشعبى من قاطع طريق إلى مقاتل ضد الاستعمارين التركى والانجليزى..



الشقى الشهير أدهم الشرقاوى

ومن هذه النماذج فى تاريخ لبنان «شاهين ومرعى» فقد طار صيت هؤلاء جميعاً من نطاق مناطقهم المحلية إلى نطاق اقليمى.

أما قصة البطل الشهير «روبن هود» الذى كان يختفى فى غابة «شيرودد» الانجليزية، ليقطع الطريق وينهب مال الأثرياء ليتصدق به على الفقراء، وكذلك قصة قاطع الطريق المكسيكى «زاباتا» ففضلاً عن أنهما نموذجان للبطل الشعبى الذى يخترق الحدود والأزمان، فهما شاهدان على أننا ـ نحن العرب ـ لم نبتدع هذا التقديس للأشقياء وقاطعى الطرق، وأن المقهورين على امتداد الزمان والمكان، كانوا ينتظرون ذلك الذى يأتى لكى يملأ الدنيا عدلاً ونوراً، بعدما ملئت ظلما وجوراً، وحين يطول انتظارهم، كانوا يتسلون بصنعه، فيخلطون ـ متعمدين ـ بين «الواقع» و«الخيال» وبين «التاريخ» و«الأسطورة» وبين «المجرمين» و«الثوار».

وتنفرد «ريا» و«سكينة» بمكانة خاصة فى هذا التاريخ الفولكلورى للجريمة، فقد تعود الناس ألا يحتفظوا فى ذاكرتهم الاّ بأسماء هؤلاء الأشقياء الذين استقر فى وجدانهم أنهم رمز لذلك الثائر الذى ينتظرونه لكى يعدل ميزان العدل المختل. وأن ينسوا اسماء الباقين. ويتنفسوا الصعداء حين يصلهم خبر القضاء عليهم. وقد فعلوا ذلك يوم نفذ حكم الإعدام شنقاً فى كل من

«ريا» و«سكينة» صباح يوم الاربعاء ٢١ ديسمبر (كانون الأول) - ١٩٢١، فقد احتشدت خارج جدران «سجن الحضرة»، فى هذا الوقت المبكر، وعلى الرغم من البرد القارس، جماعة كبيرة من نسوة الأحياء، الشعبية بالإسكندرية، جئن لكى يتأكدن بأنفسهن من اعدامهما، ولكى يعبرن عن فرحتهن بذلك، وظللن طوال الوقت يهتفن ويزغردن ويرقصن ويغنين خلف واحدة منهن، مطلع أغنية راقصة تقول: «خمارة يا أم بابين.. روحت السكارى فيه؟».. وبعد أن نكست إدارة السجن العلم الأسود المرفوع على ساريته دلالة على انتهاء تنفيذ الحكم بالإعدام، هتفن: عاش اللى شنق «ريا».. عاش اللى شنق «سكينة».

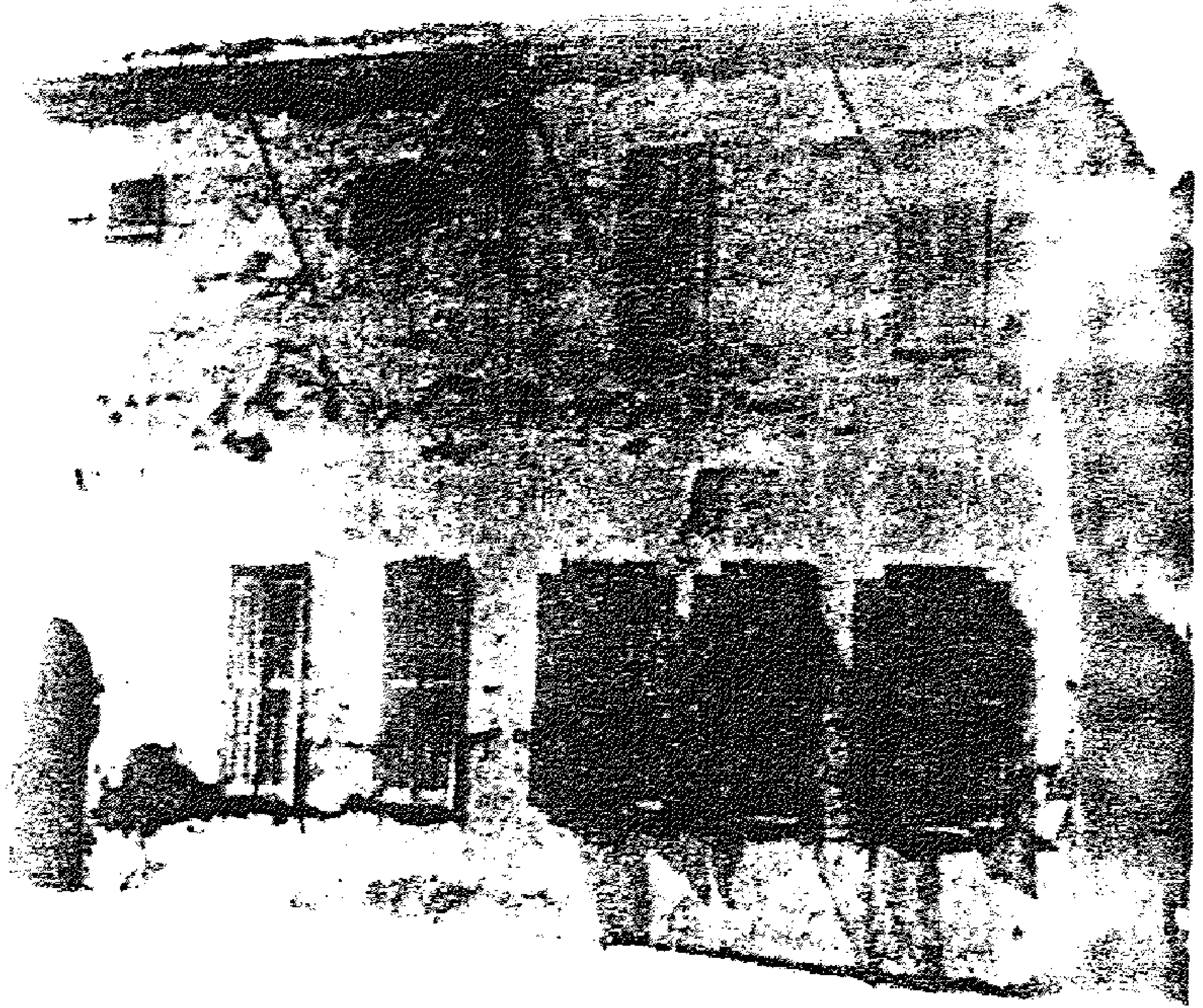
لكن الاسمين - استثناء من القاعدة الى وضعها المؤرخون الفولكلوريون لأنفسهم - ظلا فى ذاكرة الناس، فلم ينسوهما على الرغم من أن المعاصرين لهما قد شيعوهما باللعنات.

وتثير المفارقة بين المكانة التى احتلها فى نفوس الناس كل من «أدهم الشرقاوى» من جانب و«ريا» و«سكينة» من جانب آخر، الدهشة، وتلفت النظر بتباينها الشديد.. والحقيقة أن هناك مايدعو للمقارنة بين الطرفين، إذ كان «أدهم» معاصراً لهما، بل وبدأ نشاطه الإجرامى معهما فى السنة نفسها (١٩١٩)، ولقى مصرعه فى كمين نصبته له الشرطة يوم الأربعاء ١٢ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢١، قبل اعدامهما بحوالى سبعة أسابيع، فتلقى الناس الخبر بنفس الفرحة الى استقبلوا بها إعدام «ريا» و«سكينة»، وقال مندوب «الأهرام» أن خبر اقتناص البوليس له، ماكاد يتأكد حتى انطلقت الزغاريد فى انحاء القرى التابعة لمركز «ايتاى» البارود» و«كوم حمادة» التى كانت مسرحاً لنشاطه، ابتهاجاً بمقتل كبير الاشقياء الذى أدت جرائمه إلى ركود التجارة وتوقف سوق المعاملات.

وليس فى المعلومات التاريخية التى بين أيدينا ما يبرر ذلك التباين الشديد - الذى برز فيما بعد - فى مكانة كل من الطرفين فى نفوس الناس، بين الاحترام البالغ لـ«أدهم» والاحتقار البالغ لكل من «ريا» و«سكينة»، فهذه الحقائق تقول أن «أدهم» كان قاطع طريق، وقاتلاً يستأجر للقتل، وان بعض أعيان المنطقة التى اتخذها مجالاً لنشاطه الاجرامى، كانوا يستأجرونه لقتل خصومهم، وانه كان يفرض الاتاوات على التجار والأعيان، ويحكم على مخالفية بالإعدام، وينفذ جرائمه علنا فى وضح النهار. وقد وصفه مراسل «الأهرام» المتجول بأنه «كان يملك قلباً أقسى من الحجارة، لايعرف رحمة ولاشفقة، قتل عشرات الرجال والنساء ونهب وسطا سطوات عديدة على المال والعرض، ونشر الرعب فى انحاء مراكز «ايتاى البارود» و«كوم حمادة» و«الدلنجات».

وعلى العكس من «ريا» و«سكينة» اللتين لا نعرف عن أبيهما «على همام» شيئاً إلا اسمه الذى لايعنى - فى ذاته - شيئاً، فنحن نعرف أن الشيخ «عبدالحليم الشرقاوى» - والد «أدهم» - كان من أعيان قرية «زبيدة»

التابعة لمراكز «ايتاى البارود» أحد مراكز مديرية (محافظة الآن) البحيرة المتاخمة للاسكندرية وكان يملك ٥٠ فداناً، لو كان «على همام» يملك واحداً فى المائة منها، لما تغربت ابنتاه التعيستان من جنوب الوادى إلى شماله، وقدرهما فى إثرهما. ونعرف أن عمه «عبدالمجيد بك الشرقاوى» كان عمدة القرية، وأنه على العكس منهما، دخل المدارس، وتعلم وحصل على الشهادة الابتدائية فى زمن كانت الصحف تنشر فى صدر صفحاتها الأولى اسماء الذين يحصلون عليها، وقطع شوطاً فى دراسته الثانوية، ثم توقف عن استكمالها عام ١٩١٥ ـ وكان فى السادسة عشر من عمره ـ حين نشبت المشاكل بينه وبين عمه «عبدالمجيد بك الشرقاوى» فلفق له العم تهمتى سطو، وشروع فى قتل، وشهد ضده امام المحكمة، فحكمت عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات. وفى عام ١٩١٧ لحق به فى السجن أحد أتباع عمه، ممن شهدوا ضده، فقتل ادهم هذا التابع وحوكم مرة ثانية، وصدر ضده حكم آخر بالسجن المؤبد.. لكنه هرب بعد عامين عندما هاجم المتظاهرون - اثناء ثورة ١٩١٩ ـ «سجن ليمان طره» ومكنوا معظم المقيمين فيه من الهروب منه، ليختفى عن أعين السلطات التى تطارده فى زراعات الذرة الكثيفة، وليتربص بعمه وابن عمه لينتقم منهما، ومع أن هجماته الجريئة لاقتناصهما كانت تفشل عادة، بسبب حذرهما الشديد، فإنها قد لفتت إليه أنظار أشقياء المنطقة، الذين بهرتهم جرأته، فانضموا إليه. وتوحدوا تحت قيادته، ليشكل منهم العصابة التى اثارت الفزع فى شمال الدلتا على امتداد ثلاثين شهراً.



منزل أسرة أدهم الشرقاوى فى قريته زبيده بالبحيرة

ومع أنه كان رجلاً، فقد كان أكثر جمالا من «ريا» و«سكينة» اللتين أضاعت التغربية

كل ماكان لهما من ملامح وعلامات الأنوثة. فقد كان ـ والعهدة على مراسل «الأهرام» المتجول ـ «طويل القامة قوى العضلات، أشقر اللون، وكان إذا لبس الملابس الافرنكية والبرنيطة، لايستطيع أحد أن يفرق بينه وبين الرجل الفرنساوى أو الطليانى أو الإنكليزى».

ولو أننا اعتمدنا على الحقائق التاريخية وحدها، لجاز لنا أن نقول أن «أدهم الشرقاوى» ليس أكثر من إبن ذوات غرته قوته، وأفسده تدليل أسرته، وأبطره ثراؤها، وقاده إلى الجريمة، مابين أصولها وفروعها من منافسات وأحقاد، ولجاز لنا أن ندهش لتلك الصورة الغريبة التى صوره بها المؤرخون الفولكلوريون، حتى استقر ـ ومايزال ـ فى وجدان الناس بطلا ورمزاً لمقاومة الشر حتى تحولت سيرته إلى موّال يقول مطلعه، «منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه. شبه المؤيد أمنات إذا حفظوا العلوم وتلوه.. الاسم أدهم لكن اللقب شرقاوى.. واهلى فى البحيرة ناس... عايشين بالجد غير الجد لم يقولوه». بينما لايختلف مافعله، عما فعلته «ريا» و«سكينة» اللتان لم يفخر أحد بما فعلتا، بل ظل الجميع يطأطئون الرأس خجلا كلما سمعوا اسميهما، ويتمنون لو أنهما كانتا غير مصريتين، ولم يؤلف فيهما الشاعر الشعبى المجهول، سوى ذلك المطلع الساخر الذى كانت تغنيه نساء الإسكندرية فى احتفال زفافهما إلى المشنقة، وهو أبعد مايكون عن التقدير والاحترام.

فهل يجوز لنا أن نحكم بأن هناك «خياراً» و«فقوسا» فى دنيا الجريمة وعالم الأشقياء، وأن المؤرخين الفلكلوريين، كبعض المؤرخين الأكاديميين، يكيلون بكيلين ويزنون بميزانين، أو يطفقون فى الميزان. لترجح كفة أولاد الأعيان، كفة أولاء «على همام». وأنه لو كانت «ريا» و«سكينة» تحوزان شجرة عائلة، لوجدنا من يؤلف فيهما موالا يقول مطلعه «منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه.. شبه المؤيد أمنات على العلوم وتلوه.. الاسم ريا لكين اللقب همام.. وأهلى فى الكلح ناس عايشين للجد، غير الجد لم يقولوه؟» إقتباساً أو معارضة للموال الشهير الذى ألفه ـ فى الغالب ـ أحد أفراد عصابة «أدهم الشرقاوى» فى رثائه؟.. ربما يجوز ذلك.



أما المؤكد فهو أن التوفيق قد أخطأ مراسل «الأهرام» المتجول، حين تنبأ بأن التاريخ سيخلد اسم الخفير النظامى «محمود أبوالعلا» والجاويش «محمد خليل»: الأول لأنه، وهو صديق «أدهم» وتابعه وعينه على تحركات أعدائه، هو الذى خانه وتواطأ مع الشرطة ضده، واستدرجه إلى المكان الذى قتل فيه. والثانى لأنه كان على رأس اثنين من زملائه، تنكروا فى زى الفلاحين، وكمنوا فى الغيطان إلى أن ظهر «أدهم» فى المكان الذى حدده لهم صديقه الخائن، وكان يستعد لتناول عشائه حين شعر بحركة

خفيفة فى حقول الذرة؛ فمد يده لكى يتناول بندقيته الموزر، ولكن الجاويش «محمد خليل» عاجله برصاصتين سقط على إثرهما مضرجاً بدمائه.

وعلى عكس نبوءة مراسل «الأهرام» فقد اختفى اسم «الجاويش محمد خليل» فلم يعد أحد يذكره، أما «محمود أبوالعلا» فقد عاش فى ذاكرة الناس، كما عاشت «ريا» و«سكينة» رمزاً للخيانة والغدر، وتحول على لسان المؤرخ الشعبى، إلى طبعة من «يهوذا الاسخريوطى» الذى سلم السيد المسيح لاعدائه مقابل ثلاثين قطعة من الفضة. ومع أن مشهد تسليم أدهم لأعدائه، لايبتعد كثيراً عن الحقيقة التاريخية، إلا أن المؤرخ الشعبى المجهول، قد أضاف إليه اقتباسات واضحة من الإنجيل، وخاصة الحوار بين «أدهم اليسوعى» و«أبوالعلا الاسخريوطى» أثناء «العشاء الأخير»، الذى لم يشهده «أبوالعلا» فى الحقيقة، وقبل دقائق من هجوم الأعداء.

وهكذا اختار المؤرخ الشعبى المجهول من حياة «أدهم الشرقاوى» محوراً واحداً ركز عليه، واعتبره مبرراً لتقديسه والدفاع عن ذكراه، هو ثورته على خيانة صلات الرحم، وإهدار علاقات الصداقة والمودة، وعدم احترام علاقة أكل العيش والملح بين الناس. وربما لو لم يكن الاثنان من ذوى **قرباه**، الذين تربطه بهم صلة الدم وأواصر الرحم، لما ثار ضدهما كل تلك الثورة التى قادته إلى سلسلة جرائمه الأخرى، فأتاح بحياته وبموته، للمؤرخ الشعبى فرصة نادرة لكى يضيف اسمه إلى قائمة الأبطال التاريخيين الذى هزمهم «الولس» ـ الخيانة ـ ابتداء من «طومان باى» الذى شنقه الولس على باب زويلة، وحتى «أحمد عرابى» الذى هزمه الولس فى التل الكبير.

وربما لهذا السبب ثقلت مكانة «أدهم الشرقاوى» فى موازين التاريخ الشعبى، بينما خفت مكانة كل من «ريا» و«سكينة». وعلى عكس عشرات من أولاد الليل وبنات الليل الذين أقام لهم المصريون مقامات يزورونها، ويتبركون بها، ويقدمون إليها النذور، ويوقدون حولها الشموع فإن أحداً لم ينشىء لابنتى «على همام» مقاماً، أو يبنى باسمهما سبيلا، يرتوى منه العطاشى العابرون فيقرأون على روحيهما الفاتحة، ويطلبون لهما الرحمة.

أما السبب فلأنهما كانتا تنويعاً على شخصية «أبوالعلا الاسخريوطى» أكثر مما هما تنويعاً على شخصية «أدهم الشرقاوى»، انهما مجرمتان بلا قضية، وبلا معنى. وفضلا عن ذلك فإن ضحاياهما كن مثلهما، ضحية للفقر والجوع وافتقاد الأمن والراحة والطمأنينة: مومسات شعبيات ينتمين إلى تلك الفئات التى كانت صحف العشرينات تصفها بأنها «طبقات واطئة»، ليس لإحداهن شجرة عائلة، وليس لمعظمهن أهل يسألون عنهن إذا غبن، أو يغضبون لشرفهن اللواتى كن يبعنه بأبخس الاثمان، بنصف ريال، تحصل «ريا» على نصفه، بينما كانت «سكينة» تحصل عليه كله، مقابل إطعام المومس. لايعرف أحد من أين جئن، وإلى أين

يذهبن. يحولن عرق أفخاذهن، إلى غوايش وأساور من الذهب، تضعنها حول معاصمهن لعلها تجلب لهن احتراماً اجتماعياً يفتقدنه. والأهم من هذا وذاك، أنهن كن جميعاً من أصدقاء «ريا» و«سكينة»، أكلن معهما عيشاً وملحاً، وشربن معهما نبيذا وكونياكاً فلم يشفع ذلك لهن، واستدرجتهن السفاحتان إلى بيوت الهلاك الأربع التى كانتا تديرانها، لتقتلاهن، وهن يأكلن معهما العيش والملح ويشربن النبيذ، كما فعل كل من يهوذا - وأبو العلا - الاسخريوطيان.

وهكذا كان مالابد أن يكون: اختفى الاسمان من دفاتر المواليد، ومكاتب السجل المدنى، كما اختفى اسم «خايربك»، الذى تواطأ مع السلطان العثمانى «سليم الأول» على تسليم مصر والشام إليه. فسماه الناس «خاين بك»، وكما اختفى اسم الضابط «على بك يوسف» الذى والس على «عرابى» فى معركة التل الكبير فسماه الناس «خنفس بك». وأصبح نادراً أن تجد امرأة مصرية - ولدت بعد عام ١٩٢٠ - تحمل اسم «ريا» أو «سكينة»، مع أن الاسم الاخير هو اسم السيدة «سكينة»، بنت الإمام الحسين» وحفيدة «الامام على» رضى الله عنهما. ومع أن اسماء «آل البيت» كانت - ومازال - فى مقدمة الاسماء التى يفضل المسلمون من المصريين اختيارها لابنائهم على سبيل التبرك والقدوة.

وعلى الرغم من هذا الاختفاء، دخلت الاثنتان التاريخ كعلمين مفردين، لم يتكررا، ليظلا - كما أرادت لهما الأسطوة الشعبية، أن تكونا: رمزين لخيانة علاقات العيش والملح، التى هى أشر الشرور، وأكثرها مدعاة للاحتقار.

أما وقد دخلت الاثنتان التاريخ، بتلك الصورة الرمزية، التى اختزلت كل ملامحهما الإنسانية، لتبدو كتلك الصور



الجاويش محمد خليل واثنان من الفرقة التى قامت باقتناص أدهم الشرقاوى

التى ترسم بطريقة «السلويت». مجرد بقعة من السواد، تحدد الإطار الخارجى للوجه، فقد كان لابد من البحث عن اسانيد دخولهما إليه، ومن التفتيش عن شجرة الأسرة وشهادة الميلاد وشهادة الفقر، وتقارير قصاصى الأثر، وصحيفة الحالة الجنائية، لعلها تضىء تلك الصورة الغامضة وقد تكشف عن المجرم الحقيقى الذى لم يتضمنه قرار الاتهام فى قضية «ريا» و«سكينة».

وكان ذلك هو الواجب الذى دفعتنى مصادفة للقيام به.

فذات يوم من بداية عام ١٩٩٣، كنت أبحث فى فهرس ملفات القضايا السياسية الكبرى المودعة بـ«المركز القومى للدراسات القضائية» عن ملف قضية الحزب الشيوعى المصرى الاول، الذى تأسس فى العشرينيات. حين وقعت عينى فى الفهرس على عنوان يقول «ملف الجناية نمرة ٢٣ لسنة ١٩٢٠ قسم شرطة اللبان المتهم فيها ريا بنت همام وسكينة بنت همام وآخرين» فأثار فضولى ودونت على ورقة أمامى رقم الميكروفيلم الذى صورت عليه أوراقه، وانشغلت بما كنت أبحث عنه.

وبعدها بأسبوع، فكرت أن اشغل نفسى - خلال فترة الانتظار التى يتم خلالها استكمال تصوير ملف قضية الحزب الشيوعى - بالقاء نظرة على ملف «قضية ريا وسكينة». فطلبت الميكروفيلم الذى صورت عليه لكى اتصفحه، وفى ظنى ان الامر لن يستغرق سوى نصف ساعة، ألم أجد فيها بمحتوياته.

وماكدت استعرض البيانات الأولية عن القضية، حتى لفت نظرى أن المحامى الذى انتدب للدفاع عن ابنتى «على همام»، أمام محكمة جنايات الاسكندرية هو «أحمد أفندى المدنى» الذى ورد اسمه بوفرة فى وقائع قضية الحزب الشيوعى المصرى، إذ كان أميناً لصندوقه، ثم سكرتيرا عاما له، وكان كل مالدى من معلومات عنه، أنه كان محاميا متخصصا فى الدفاع عن العمال، ويتسم بنزعة اشتراكية معتدلة.

ومع أن الدافع الظاهر لى، لمواصلة تصفح الملف، كان البحث عن مزيد من المعلومات عن «أحمد افندى المدنى»، الا أن هناك دافعا آخر خفيا، لم أتبينه إلا فيما بعد، كان يغرينى بالتوقف امام بعض صفحاته، فعلى الرغم من ان ابنتى «على همام» ظلتا علمين، تستخدم الأمهات اسميهما لتخويف أطفالهن، وتكرر الصحف نشرهما فى عناوينها الرئيسية كلما كشفت الصدفة عن عصابة للقتل المقترن بالسرقة باعتبارهما صاحبتى مدرسة اجرامية متميزة، فقد كانت المعلومات القليلة المعروفة عنهما، تتسم بالتشوش الشديد، وتستند إلى مرويات شعبية اصطنعت الصحافة بعضها، ونقلت بعضها الآخر من أفواه المعاصرين، ثم ظلت - فيما بعد - تكرر نشرها، وتضيف إليها، وتعيد تصديرها إلى قرائها، ليضيفوا إليها ماتعيد الصحف نشره إلى أن قدم «صلاح أبوسيف» - فى عام ١٩٥٣ - فيلم «ريا وسكينة» مستنداً إلى جانب

من تلك المرويات الشعبية، ومضيفا إليها قصة لم تحدث من الأصل، استلهمها - فى الغالب - من أفلام الحركة الامريكية التى كانت شائعة فى ذلك الحين، هى قصة مغامرات ضابط الشرطة «أحمد يسرى» - وهو الدور الذى لعبه «أنور وجدى» - للكشف عن سر عصابة «ريا» و«سكينة». ليتخذ من تلك المغامرات محوراً للسيرة السينمائية التى قدمها لابنتى «على همام»، فاعتمدت منذ ذلك الحين، لدى كل الناس - باعتبارها سيرة رسمية لهما. بل وأصبحت - بسبب ماحققته من رواج جماهيرى - الاساس الذى استلهم منه أخرون افلامهم ومسرحياتهم عنهما.

وكان القليل الذى اتذكره، مما وقع عليه بصرى، وأنا أقلب فى الصحف المعاصرة لوقائع الكشف عن جرائم من وصفتهم صحف تلك الايام، بـ «رجال ريا وسكينة». يتسم بالتشوش نفسه. فقد كان تحقيق النيابة فى القضية - كما تبين لى بعد ذلك - سريا. وهو ماأضطر مندوبو الصحف المعاصرة إلى التقاط الأنباء، من أفواه كتبة النيابة، والشهود، وبعض اهالى المجنى عليهم، ومن جيران ابنتى «على همام»، وأرسلوها إلى صحفهم التى تلقفت كل ذلك ونشرته لاشباع فضول قرائها فى معرفة اسرار ماكان يجرى فيما سمته بـ«بيوت الهلاك».

ولم يكن فضولى لمعرفة الحقيقة، أقل من فضول أولئك المعاصرين، أو بعيدا عن شغفى - منذ عهد دراستى العالية - بالجانب الاجتماعى والنفسى والسياسى للظواهر الاجرامية، وهو شغف يعود جانب من الفضل فيه لاساتذتى الدكاترة «محمد خليفة بركات» و«محمد عبدالسلام» و«على فؤاد» و«امام سليم» الذين درست على ايديهم علوم النفس والاجتماع، ويعود الجانب الأكبر منه. لاستاذى وصديقى عالم الاجتماع البارز الراحل «د. سيد عويس» الذى كان أول مصرى يحصل على درجة الدكتوراة فى علم الاجتماع الجنائى.

ذلك شغف دفعنى من قبل، إلى محاولة التأريخ لظاهرة، أولاد الليل، التى فشت فى صعيد مصر، فى سياق موجة من العنف الجنائى والسياسى، شهدتها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وقد ألفت عنها كتابى «أفيون وبنادق» - الذى نشر مسلسلاً عام ١٩٧٩ على صفحات مجلة «٢٣ يوليو» التى كانت تصدر فى «لندن» - وهو يترجم لسيرة اشهر هؤلاء، وهو «محمد محمود منصور» الشهير بـ«الخُطّ» الذى لايزال اسمه يستخدم إلى الآن، كعلامة تجارية، على النمط الاجرامى الذى تخصص فيه، شأنه فى ذلك شأن «ريا» و«سكينة».

وقد بدا لى، وأنا اتصفح ملف قضيتهما، اننى وقعت على وثيقة تتعلق بالفصل الاول، من تلك الظاهرة، التى كان «الخُطّ» فصلها الثانى، يمكن أن تفيدنى فى فهم موجة العنف الجنائى والسياسى التى شهدتها مصر فى أعقاب الحرب

العالمية الأولى فطلبت تصويره كاملاً، ومن دون استثناء اية ورقة، حتى تلك الاوراق الى بدت لى، اوراقا ديوانية بحتة لاقيمة لهـا، وعلى الرغم من ضخامة الملف النسبية، الذى يصل عدد أوراقه إلى ٢٢٢٠ صفحة من قطع الفلوسكاب.

وماكدت اتسلم النسخة بعد اسبوع، حتى غرقت فيها تماما على امتداد ليلة كاملة ونصف نهار، كانت كافية لكى أكون فكرة عامة عن الموضوع، أجابت على عشرات من اسئلتى، لكنها طرحت على كذلك، عشرات من الاسئلة التى لم أكن قد فكرت فيها من قبل، وكان ذلك ماتكرر خلال الشهور التالية عشرات المرات، قرأت الملف فيها جملة، أو قرأت بعض أجزائه، وفى كل قراءة، كنت اكتشف معلومات جديدة عن رجال ريا وسكينة وضحاياهم

السير جون مكسويل: قائد جيش الاحتلال

وزمنهم.. تثير فضولى للبحث بين أوراقه عن المزيد.

والذين شغفوا مثلى ـ من غير رجال القضاء المحترفين - بقراءة الاوراق القضائية يعلمون مدى الصعوبة فى استخلاص الحقيقة من مثل هذه الاوراق، ليس فقط لانها تكتب بخطوط متنافرة، لايعنى أصحابها بتحسينها، وبلغة ديوانية، تحتاج احيانا لمترجم، أو لخبير بلغة العصر الديوانية، وقد تتضمن مصطلحات أو مفردات كانت مفهومة فى زمانها ثم اختفت من ألسنة الناس، أو لأنها تجمع بين الغث والثمين وبين الحقيقة والاكذوبة، فتزدحم بأوراق الاجراءات القضائية التى قد تحول بعضها إلى كومة من القش تتوه بينها الحقائق، ولكن ـ كذلك ـ لأن مادتها الأولية، وهى أقوال الشهود، واعترافات أو دفاعات المتهمين، تنطوى على رغبة طبيعية فى تغيير الحقائق، يشحذها نزوع الانسان للتهرب من مسئوليته عما ارتكب، خاصة اذا كانت القضية تتعلق بالقتل، واذا كانت المسئولية تعلق الرقبة فى المشنقة.

ومع أننى وجدت شيئاً من ذلك كله فى أوراق ملف قضية «ريا» و«سكينة» الاّ أننى وجدت فيها ـ كذلك ـ كثيرا من مزايا الاوراق القضائية كمصدر من أهم مصادر التاريخ، فالمحقق ينوب عن المؤرخ فى القيام بجانب لا يستهان به، مما يتوجب عليه أن يقوم به، بل وببعض ماقد يعجز عن القيام به، فهو يناظر

أشخاص المتهمين ويصف أجسامهم، ويعاين الاماكن ويرسم لها رسوما هندسية. ويأمر بالتقاط صور فوتوغرافية لها، ويضم إلى التحقيق كل مايضبط لدى المتهمين من أوراق ووثائق فيما يعرف فى المصطلح القضائى بـ«الاحراز» ويحيل جثث الضحايا إلى الطب الشرعى لتشريحها أو لفحصها، ثم هو يستنطق المتهمين والشهود، ثم يعود فيكرر المواجهة بينهم، ويقارن بين أقوالهم، ليرجح القول الأقرب إلى الحقيقة، فهو يجمع تفاصيل المشهد التاريخى، ويقارن بين الحقائق، ويرجح بعضها على الآخر، على نحو ييسر كثيراً من الأمور على المؤرخ.. وربما يعفيه من كثير من الجهد.

وقد وجدت ذلك كله، فى ملف قضية «ريا» و«سكينة».. كما وجدته كذلك يتميز عن غيره مما قرأته أو استعنت به من الأوراق القضائية، إذ بدا لى أن معظم الذين كان يحققون فى القضية من رجال النيابة العامة، وخاصة المحقق الرئيسى «سليمان بك عزت - رئيس نيابة القاهرة - كانوا يتمتعون بفضول تاريخى يمتزج بحس فنى غلاب. قادهم للسعى وراء أكبر قدر من المعلومات عن كل واحد من رجال «ريا» و«سكينة» وعنهما، سواء خلال استجوابهم له، أو استجوابهم لغيره، وهى معلومات قد لاتكون كاملة، لكنها كل مابقى لنا منهم، ولولا هذا الفضول التاريخى الممتزج بالحس الفنى، والذى لم يكن - فى أحيان كثيرة - من ضرورات التحقيق، لضاعت كل ملامحهم الانسانية.

وكان مفاجئا لى وأنا اكرر القراءة فى ملف القضية، ان اكتشف حقيقتين:

الأولى: أن كل رجال ريا وسكينة، كانوا ممن شاركوا فى الحرب العالمية الاولى، ودعموا جهود الحلفاء، بالخدمة فى الخطوط الخلفية لميادين القتال، فيما عرف بفيلق العمال المصرى، الذى ضم مايقرب من مليون من الفلاحين المصريين، وسكان المدن كانوا يساقون إلى ميادين القتال، ليقوموا بمد خطوط السكك الحديدية ويمهدون الطرق ويحفرون الخنادق وغيرها من الأعمال المدنية المتعلقة بالمجهود الحربى، وكان بعضهم يجبر على ذلك سخرة، بينما كان آخرين، ومنهم رجال «ريا» و«سكينة» يتطوعون لذلك، سعيا للحصول على عمل ولكى يعيشوا حياة أفضل، فى ظل شبح المجاعة التى عاشتها مصر خلال سنوات الحرب الكونية الأولى التى لم يكن لها فيها ناقة ولاجمل.

الثانية: ان شركة «رجال ريا وسكينة» كانت تنشط فى مجال اقتصادى محدد، هو تنظيم الدعارة السرية. وان معظم ضحاياهم، كانوا من الداعرات اللواتى يبعن اجسادهن، لكى يجدن القوت الذى يبعد عنهن، وعن أسرهن شبح الموت جوعا.

وحين قررت أن اقوم بالواجب الذى

عزف عن القيام به، السلف الصالح من المؤرخين، وان احتشد لكتابة هذه السيرة الاجتماعية السياسية لرجال ريا وسكينة، واجهتنى مشكلة التعامل مع الوثيقة الرئيسية التى أعدت لهدف آخر غير التأريخ، لاكتشف مدى صعوبة الاعتماد على الأوراق القضائية، كمصدر رئيسى شبه وحيد، للتأريخ، فأوراق القضية، كانت تتتالى ـ ككل الاوراق القضائية ـ طبقا لوقائع التحقيق، قبل أن يعيد خبراء مركز الدراسات القضائية ترتيبها، وتصنيفها وترقيمها لاغراض الدراسة القضائية، بحيث تنقسم إلى أربعة أقسام فتبدأ بالاوراق الشرطية، التى تشمل البلاغات التى تلقتها اقسام الشرطة ثم محاضر التحقيقات ومحاضر تفتيش الاماكن التى قامت الأجهزة الشرطية بتفتيشها تليها ـ على النسق ذاته ـ تحقيقات النيابة، التى كانت تجرى على التوازى، بحيث يستقل كل محقق بمحضرة، وتلحق بها محاضر التفتيش والمعاينة التى قامت بها النيابة العامة والتقارير الفنية التى طلبتها بما فى ذلك التقارير الطبية لينتهى ذلك كله بقرار الاتهام، أما القسم الثالث فكان مخصصا لكل مايتعلق بما دار فى جلسات المحاكمة، امام قاضى الاحالة، ثم امام محكمة الجنايات، ثم منطوق الحكم وحيثياته، ووقائع الطعن عليه امام محكمة النقض.. ثم وقائع تنفيذه.. بينما خصص القسم الاخير للاوراق والمستندات والاحراز المضبوطة فى القضية، ثم للمكاتبات المتعلقة بها اثناء كل تلك المراحل وبعدها.

ولما كانت مهمتى ـ كراوية لسيرة رجال ريا وسكينة، وسيرة ضحاياهم ـ تختلف عن مهمة المحقق والقاضى، فقد كان علىّ أن اعيد بناء سيرة كل شخصية من الشخصيات الرئيسية، بحيث تتسلسل بشكل زمنى مفهوم، إلى أن التقى بالآخرين وتعرف عليهم، ودوافع نشأة وتطور المشروع الاجرامى الذى جمع بينهم، والظروف التى أدت لفشله، إلى أن قادهم إلى أعواد المشنقة. وهو أمر لم يكن ممكناً اتمامه من دون أن اسيطر على الوثيقة الرئيسية، حتى استفيد من كل ماتتضمنه من حقائق. وهو مادفعنى لأن أعد لها فهارس خاصة بى، بعضها لتسلسل الوقائع والآخر للأعلام والثالث للاماكن، قبل أن اشرع فى جمع ذلك كله، على جزازات، ثم تصنيفه حسب موضوعه.

وكان لابد وأن أعود لمسح الصحف المصرية المعاصرة للوقائع، للاستفادة مما نشرته عنها، ومقارنته بغيره، سواء كان يتعلق بشخصيات القتلة أو شخصيات ضحاياهم، أو باتجاهات الرأى العام نحو هؤلاء وأولئك.. وقد شمل هذا المسح، كل الصحف المصرية اليومية والاسبوعية، وخاصة ماكان يصدر منها فى الاسكندرية، بحكم انها كانت فى موقع الحدث واكثر قربا منه، ومالبث ضرورات كتابة السيرة أن

اضطرتنى للعودة إلى هذه الصحف منذ بداية الحرب العالمية الأولى، لاستكمل البحث عن الخلفية الاجتماعية للحدث، كما اضطرنى للبحث فى صحف سنوات مختلفة تالية للأحداث بحثا عما نشرته عنها أو عمّا يتصل بها.

ثم مالبثت مكتبة الكتاب، ان اتسعت لمراجع ودراسات اخرى، شملت معظم مانشر عن أوضاع مصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال العقدين الثانى والثالث من القرن، وقد اشرت لاهمها فى السياق.

وقد انتهى ذلك كله إلى هذه السيرة الاجتماعية السياسية لرجال ريا وسكينة التى تستند إلى كل المصادر المتوفرة حتى الآن عن هذه الظاهرة، وعلى الرغم من بنائها الفنى، فليس فيها سطر واحد من الخيال، فكل ماورد بها، هو من حقائق التاريخ، من وصف الاشخاص إلى وصف الاماكن، ومن تواريخ الوقائع إلى جمل الحوار، وحين كان علىّ أن استنتج أو أن افسر، أو أن أرجع رواية على أخرى اشرت إلى ذلك بوضوح لايحتمل اللبس.

وكما تعودت فى هذه السلسلة من «حكايات من دفتر الوطن»، فقد بذلت مجهوداً ضخما للبحث عن صور فوتوغرافية للأشخاص والاماكن والوقائع لعلها تساهم فى إعادة تخليق زمن الواقعة، بمبانيه وأزيائه وتقاليده، وتحتفظ برسوم أبطالها المباشرين وغير المباشرين..

وبين يديك - ياعزيزى القارى - ثمرة تطوعى للقيام بواجب عزف السلف الصالح من المؤرخين عن القيام به، فإذا لم تسعدك النتيجة فلست بباخع نفسى على ذلك أسفا، ويكفينى أننى سعدت سعادة بالغة، وأنا أقوم بهذا الجهد المتواضع، فى التأريخ للسيرة السياسية والاجتماعية لرجال ريا وسكينة»، وهو جهد أرفعه بكل تواضع:

إلى مقام حضرة صاحب العظمة السلطان «فؤاد الاول» حفظه الله.

وإلى مقام حضرة اصحاب الجلالة ملوك الدول الاوروباوية الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الأولى دفاعا عن معانى الحرية والكرامة وحق تقرير المصير.

وإلى مقام حضرة صاحب الفخامة الجنرال السير أدمند اللنبى، نائب جلالة ملك بريطانيا، على مصر والسودان.

سدد الله خطاهم جميعا ولا حرمنا من عطاياهم، التى شملت عبيدهم من رجال ريا وسكينة.

اعترافا بما لهم جميعا من أياد بيضاء على أصحاب هذه السيرة، لولاها لما استطاع رجال ريا وسكينة ان يقوموا بما قاموا به من جلائل الاعمال.

والله من وراء القصد.

صلاح عيسى

أبريل ١٩٩٣ - يوليو١٩٩٥

يونيو ٢٠٠١ - يونيو ٢٠٠٢



٢٠٠٢: مدخل حي كوم بكير كما تبدو اليوم

الفصل الأول

تغريبة «بنى همام»








لو أن علماء الأنساب، كانوا قد قاموا بواجبهم فتتبعوا شجرة العائلة التى تنتمى إليها الشقيقتان «ريا» و«سكينة»، لما خلت هذه السيرة من أى ذكر للسلف الصالح الذى تنتميان إليه، ولما اختفت من بين سطورها شخصيات أساسية، لابد وأنها قد لعبت دوراً هاماً فى حياة كل منهما، وفى مقدمتها شخصية والدهما «على بن محمد همام» الذى لم يدل بأقواله فى التحقيقات، ولم ترد معلومات عنه فى تحريات الشرطة، ولم يجد أحد من ممثلى الدفاع أو الاتهام مبرراً لذكره، بل ولم يشر إليه أحد من أبنائه أو زوجته، فى أى دور من أدوار القضية، مما يؤكد أنه كان قد غادر الدنيا قبل سنوات طويلة، فنسيه الجميع، ولم يعترفوا له بفضل انجابهما من صلبه، أو بدور فيما وصلا إليه من علو الشأن ونباهة الذكر.

ولو أن قصاصى الأثر، كانوا قد قاموا بواجبهم فتتبعوا «تغريبة بنى همام» لما ضاع من الذاكرة، تاريخ معظم سنوات الطفولة والشباب والنشأة والتكوين فى حياة كل منهم، ولعرفنا الظروف التى قذفت بهم من قرية «الكلح» بأقصى الصعيد - حيث ولد شقيقهما الأكبر «أبوالعلا» فى عام ١٨٧٣ على وجه التقريب، وتلته بعد عامين الأخت الكبرى «ريا»، التى ولدت، على الأرجح، فى عام ١٨٧٥ - إلى «سوهاج» فى وسط الصعيد، حيث أمضيا جانبا من طفولتهما، انتقلا بعده - فى تاريخ غير معروف - إلى مسقط رأس أمهما فى «بنى سويف» وهناك ولدت الشقيقة الصغرى «سكينة» فى سنة قد تكون، فى الغالب، ١٨٨٥، ثم قفزت بهم التغريبة، فى تاريخ غير محدد هو الآخر، من «شمال الصعيد» إلى مدينة «كفرالزيات» فى وسط الدلتا، ليقيموا بها سنوات طويلة، تزوجت خلالها «ريا»، ثم ترملت، وتزوجت «سكينة» ثم طلقت، ثم أحبت وهربت مع الرجل الذى أحبته، فكانت أول أبناء «همام» الذين زحفوا إلى «الاسكندرية» فى أقصى الشمال، فى عام ١٩١٣. ثم تبعتها «ريا» بعد ذلك بثلاث سنوات، بينما ظلت الأم «زينب بنت مصطفى» تقيم مع ابنها الأكبر «أبوالعلا» فى «كفرالزيات».

ولو أن أحدا من أسلافهما من «بنى همام»، كان يتوقع أن تبلغ ابنتا «على همام» تلك الشهرة المدوية التى غلبت شهرة «اللورد ملنر» و«سعد زغلول» و«السلطان فؤاد» لاهتموا بتوثيق وقائع تلك السنوات الباكرة من حياتهما، ولكن الأرجح أن هؤلاء الأسلاف كانوا من النوع الذى لم يدخل عصر التدوين، لأنه لم يكن يتوقع أن أحداً من خلفه الصالح، سيكون من أبطال التاريخ الذى لم يكن يعنيه فى شىء، فلم يحرص على أن يدون اسمه، أو أسماء عائلته فى السجلات الرسمية، إلا لضرورة قصوى، لذلك لم يدونوا اسميهما فى شهادة ميلاد، ولم تهتم كل منهما بأن

تعـرف مـتى ولا أين ولدت على وجـه التحديد. وظل كل شيء في حياتهما يمضي على وجه التقريب. وحفلت الأوراق الرسمية بتقديرات متفاوتة لعمر كل منهما.. تعتمد أساساً على أقوالهما.

وكانت «ريا» أميل إلى الكذب في تقدير عمرها، إذ قدرته - عند القبض عليها في ١٦ نوفمبر (تشرين الأول) ١٩٢٠ - بما يتراوح بين ٢٥ و٣٥ سنة، وهو تقدير تكشف كل الشواهد عن عدم صحته، إذ لو أخذنا بالحد الأدنى له، لكان معنى ذلك أنها ولدت في عام ١٨٩٥، وتزوجت وحملت للمرة الأولى وهي في الحادية عشرة من عمرها، ولو أخذنا بالحد الأقصى لكان معنى ذلك أن شقيقتها «سكينة» - التي تصغرها بما يقل عن عشر سنوات - قد تزوجت وحملت وهي في الثالثة عشرة. والأرجح أن كلا منهما كانت تشعر بشيء من الخجل، لأن زوجها يصغرها، وخاصة «ريا» التي كانت أكبر من زوجها «حسب الله مرعي» بما يقرب من خمسة عشر عاماً، مما دفعها إلى الكذب عامدة في تقدير عمرها لتقليل الفارق بين عمرها وعمره.

أما «سكينة» - التي كانت تكبر زوجها بحوالي تسع سنوات فقد قدرت عمرها بما يتراوح بين ٢٥ إلى ٣٠ سنة، فإذا اعتمدنا ماذكره شقيقهما الأكبر «أبوالعلا» - الذي لم يكن لديه مبرر للتلاعب في تاريخ ميلاده - من أنه في السابعة والأربعين، فمعنى ذلك أن قرار الاتهام الصادر بحقهما، قد أصاب حين حدد عمر «ريا» بـ٤٥ سنة وإن كان قد أضاف إلى عمر «سكينة» خمس سنوات، فقدر بأربعين عاما، في حين أنها كانت على الأرجح في حدود الخامسة والثلاثين.

وكما خلطت «ريا» في تقدير عمرها فقد خلطت كذلك في تحديد مكان ميلادها.. إذ ذكرت أنها ولدت في قرية الكِلح - بكسر الكاف وسكون اللام - التابعة لمحافظة «سوهاج»، بينما لاتوجد بين قرى محافظة «سوهاج» قرية تحمل هذا الاسم وأقرب الأسماء إليه من بين قراها هو قرية «الكُشح» - بضم الكاف وسكون الشين - وهي من القرى التابعة لمركز «البلينا» كما لاتوجد في أي من المحافظتين المجاورتين لها شمالاً - وهي «أسيوط» - وجنوباً - وهي «قنا» - قرية تحمل هذا الاسم.. والاسم الوحيد الذي يقترب منه هو «الكلاحين» - بفتح الكاف - وهي أسماء، تختلف في نطقها مع «الكلح» التي لاصلة بينها وبين «محافظة سوهاج» إذ هي احد قرى مركز «إدفو» بمحافظة اسوان، وكانت في العصر العثماني - احدى ضواحي مدينة «إدفو» نفسها، إلى أن استقلت عنها إداريا، ثم توسع اهلها في الزراعة، فضموا إليها جزيرة تقع في وسط النيل، ثم اتخذوها معبراً إلى ضفته الشرقية، فاستزرعوا قسماً من الارض المواجهة لهم، مالبثت - عام ١٨٨٨ - ان استقلت باسم «الكلح شرق» بينما ميزت القرية الاصلية - التي تقع غرب النيل - باسم «الكلح غرب».

والحقيقة أنه لايوجد في التاريخ

اللاحق لابناء «على همام» شيء يدل على عمق صلتهم بالقرية التى نشأوا فيها، فلم يرد فى أقوالهم مايدل على أنهم كانوا يملكون بها أرضا، أو مايوحى بأن أحد منهم كان يعمل - لوقت طويل - بفلاحة الأرض.. ومع أن اسميهما قد طاف بانحاء البلاد على امتداد اكثر من عام، كانتا خلاله رهن التحقيق والمحكمة، فإن احداً من أقربائهما، فى «الكلح» أو «بنى سويف» لم يسأل عنهما، ولم يعن بزيارتهما، على العكس من بقية المتهمين معهما فى القضية الذين شد أقاربهم الرحال من أقصى الجنوب، ليكونوا إلى جوار أبنائهم وليشهدوا جلسات محاكمتهم.

ولعل عدم تمييز «ريا» بين قريتى «الكلح غرب» و«الكلح شرق» يكون دليلا على أنها غادرتها قبل سنّ التمييز.. كما أن اسم القرية ذاتها لم يرد على لسان «سكينة» فى كافة البيانات الرسمية التى أدلت بها، إذ أكدت فى كل مرة، وكل وثيقة، أنها ولدت فى «بنى سويف»، وهو مايفسر خلط «ريا» بين «الكلح» التى ولدت فيها، وغادرتها قبل أن تعى ماحولها، وبين محافظة «سوهاج» التى قضت فيها جانباً من طفولتها.

ولعل ذلك كله يكون مبرراً للظن بأن «أولاد همام» لم يكونوا من الفلاحين، إذ لم يكن شائعا عن الفلاحين فى ذلك الزمان كثرة الحركة والانتقال. ولعل أصولهم تعود إلى عائلة من البدو الرحل، الذين كانوا يعيشون فى الصحارى المصرية، شرق وغرب النيل، وتقوم فرق منهم باغارات دورية على القرى القريبة من مراكز تجمعاتهم، لتأديبها أو نهبها أو جمع الاتاوات منها، وقد ظلت الحروب بينهم وبين ممثلى السلطة المركزية فى القاهرة، تشتعل أحياناً وتهدأ حينا طوال العصر التركى المملوكى، وحتى بدايات القرن، إلى أن اجتذب العمران معظمهم، فتحولوا من الرعى إلى الزراعة، واستقر اغلبيتهم فى القرى المتناثرة على جانبى مجرى النيل.

والواقع أن الجموح الذى غلب على سلوك «ريا» و«سكينة» منذ فترة تسبق بكثير ارتكابهما لجرائمهما، يكشف عن أنهما قد نشأتا فى جو يخلو إلى حد كبير من الكوابح الخلقية والاجتماعية التى يتشربها الاطفال عادة من المجتمعات المستقرة، إذ كانتا - بالمقارنة مع غيرهما من نساء الصعيد المهاجرات مثلهما إلى الاسكندرية بل والمجاورات لهما فى السكن - شديدتى الجرأة على التقاليد والعادات الاجتماعية الموروثة، على نحو يدل على انهما لم تعرفا عنها شيء من قبل، كما أن سقوطهما الأخلاقى، وادارتهما، عدة منازل للدعارة السرية، لايمكن تبريره بالفقر وحده، الذى لم يدفع كثيرات أفقر منهن إلى الطريق نفسه، بل أن شقيقهما الأكبر «أبوالعلا» بدا من النوع المتساهل إلى حد التفريط، فى تلك الأمور التى تتميز بحساسية خاصة لدى الجنوبيين من ابناء الصعيد، حتى انه حين سئل عنهما، قال انه لايعرف عنهما شيئاً، وانهما «طول عمرهم ماشيين من دماغهم» مما يعنى انه

لم يكن صاحب سلطة عليهما. كما هو شائع فى العلاقة بين الرجال والنساء فى الصعيد.

ويلفت النظر بقوة ان «ريا» كانت ترفض احتراف الدعارة. وان «سكينة» - التى احترفتها لفترة قصيرة وحصلت على رخصة رسمية بممارستها - سرعان ما اعتزلت المهنة، لتحترف كلا منهما «تجارة الحرام» ولكن بشكل غير رسمى وفى بيوت سرية. وفى حين كانت «ريا» تحتفظ بجسدها لزوجها وحده. وتأبى أن تنزل إلى حضيض ممارسة الرذيلة. بل وتستعلى على اللواتى تمارسنها من النساء، ولو كن يفعلن ذلك تحت ادارتها وباشرافها، فإن «سكينة» - التى كانت تشاركها نفس الآراء - كانت تمنح نفسها لمن تختاره من الرجال. بل وتنفق على عشاقها من نقودها دون آن تجد فى ذلك شيئاً يكسر عينها أو يقلل من مكانتها بين جيرانها.

وهى كلها اشارات قد ترجح ان لهما أصولاً بدوية، لم يبق من فضائلها - مع تبدّل الازمان وتوالى المحن والكروب - الا الاعتزاز المبالغ فيه بالكرامة والانفة. بل لعل بعضا مما تبقى من تلك الفضائل قد اختلطت برذائل أخرى عديدة. اكتسبتاها من تغريبتهما الطويلة. ومما يرجح ذلك جرأتهما وسفورهما. وعلى نحو ما، استرجالهما. فعلى عكس نساء الفلاحين فإن نساء البدو - كما يلاحظ «كلوت بك فى كتابه «لمحه عامه إلى مصر» - كن يتمتعن بحرية لم تكن تتمتع بها آنذاك كثير من نساء المسلمين، فهن يبرزن سافرات الوجوه، ولايتنقبن إذا وقعت عليهن انظار الرجال، إذ كن يربين مع الذكور. فيتخلقن بأخلاقهم، كما أن البدو - كما يضيف - بسبب عزلتهم، وأميتهم وبدائيتهم، لم يكونوا من المتشددين فى الأخذ بالمحرمات الدينية. وهم لايمارسون شيئا من طقوس الدين الإسلامى، فهم لايصلون ولايصومون ولايزكون ولايعنون بالتفرقة بين الحرام والحلال فى تقاليدهم المتوارثة.

ولو صح هذا الاستنتاج لاكتسب



أحد أحياء مدينة جرجا مركز حكم شيخ العرب همام كما رسمها فنانو الحملة الفرنسية

ماذكرته «ريا» عن صلة الاسرة بـ«سوهاج»، فضلاً عن اسم والدها «على بن همام» دلالة مختلفة. ولكان مبرراً للظن بأن ابنتى «على بن همام» قد تكونان بعض ماتناثر على خريطة مصر من أحفاد شيخ العرب «همام بن يوسف» أمير قبلية «الهوارة» وقائد الثورة التى انتهت باستقلال محافظات «المنيا» و«أسيوط» و«سوهاج» و«قنا» و«أسوان» عن الحكومة التركية المملوكية فى القاهرة، وأقامت بها جمهورية مستقلة يحكمها شيخ العرب «همام»: يجبى الضرائب، ويعين الحكام ويحرس الطرق وتنفذ احكامه على كل من تظللهم سماء جمهوريته من البدو والفلاحين وحتى المماليك. وهى جمهورية استمرت قائمة لمدة أربع سنوات بين ١٧٦٥ و١٧٦٩ وانشأت نظاماً وصفه المعاصرون له، بأنه يشبه النظام الجمهورى الذى جاءت به الثورة الفرنسية بل ان «جمهورية همام» سبقت الثورة الفرنسية فى توزيع أراضى الملتزمين على من يزرعونها من الفلاحين.

لكن الأمير المملوكى «على بك الكبير» الذى دعم تمرد «همام» فى البداية، حين كان موجها ضد خصومه من أمراء المماليك، تخلى عنه حين انفرد دونهم بحكم مصر. وقرر تصفية دولته، وجرد عليه حملات عسكرية متتابعة، انتهت بتبديد شملها. فمات شيخ العرب «همام» - كما يقول «الجبرتى» - «مكموداً مقهوراً وزالت دولة شيخ العرب من بلاد الصعيد».

ومنذ ذلك الحين لم تتوقف محاولات اجتثاث الهمامية، خاصة حين كرروا محاولة التمرد على السلطة المركزية فى عهد «محمد على الكبير» الذى لم يكن يعرف المزاح فى مثل هذه الأمور، فشن عليهم حملات تأديبية ساهمت فى تشتيتهم إلى الجنوب من «جرجا» - بمحافظة «سوهاج» - التى كانت بمثابة مركز لهم، وإلى الشمال منها حتى محافظة «بنى سويف» بل واتجه بعضهم شمالاً نحو محافظة «البحيرة» حيث كانت تعيش بعض فروع قبيلة «الهوارة» منذ استقدمهم السلطان «الظاهر بيبرس» من المغرب، ليستعين بهم فى قمع قبائل البدو الآخرين، وخاصة فى الصعيد، فانتهى بهم الأمر إلى التمرد.. وإعلان الاستقلال.

ومع أن مسار هجرة أولاد «على همام» - من «أسوان» إلى «سوهاج» ثم إلى «بنى سويف» - يبدو متوافقاً مع المسار الذى اتخذته تغريبة كثيرين من الهمامية، بعد انهيار دولتهم، إلا أن الأسباب التى تقف وراء تلك الهجرة تتسع لاحتمالات لاحصر لها، إذ توافقت كذلك مع كسر حائط العزلة الذى ظل يحيط بجنوب مصر، طوال العصور الوسطى، بسبب وعورة المواصلات اذ كانت الملاحة النيلية وهى طريق المواصلات الرئيسى - تتعطل شهورا فى السنة، إما بسبب الجفاف أو الفيضان الذى كان يعزل كذلك كثيراً من قراه بعضها عن البعض الآخر، فظل الصعيد منطقة مغلقة على نفسها، وبعيدة عن التفاعل بما يجرى فى بقية أنحاء مصر، بل وبعيداً عن سلطة الحكومة المركزية التى كانت يدها تصل بالكاد إلى مناطق الدلتا.

بل وتكاد تقتصر فى أحيان كثيرة على القاهرة والمحافظات المتاخمة لها.

ويعود إلى «محمد على» وخلفائه، الفضل فى كسر عزلة الصعايدة تدريجياً فلم يكد القرن التاسع عشر، يصل إلى نهايته حتى كانت الطرق الترابية قد ربطت بين شمال مصر وجنوبها، ثم تبعتها شبكة من الترع والمصارف وخطوط السكك الحديدية، التى ربطت بين «القاهرة» و«أسيوط» ثم امتدت منها إلى «الأقصر» ثم «أسوان» لتسهل حركة انتقال الجنود أو البضائع.

وفضلاً عن التجنيد الإجبارى فقد نقلت السخرة عشرات الآلاف من أهل الصعيد، من قراهم التى استقروا فيها طويلاً إلى العمل فى المشروعات الكبرى، مثل حفر الترع والمصارف وحفر قناة السويس والعمل فى مد خطوط السكك الحديدية، وفى تمهيد الطرق الترابية فى ظواهر المدن، وفى تبليط الشوارع داخلها، وسرعان ماأثبت الصعايدة أنهم - بسبب قسوة المناخ الذى تربوا فى ظله - أكثر تحملاً للمشاق من سكان الدلتا والساحل، وأسرع انجازاً للأعمال التى تتطلب قوة بدنية فازداد الاعتماد عليهم فى أدائها.

وعلى الرغم من مشقة العمل، وقلة الأجور، فقد بدت الحياة فى المدن لمن لايملكون منهم أرضاً يزرعونها، أقل شقاء وأكثر رخاء من حياتهم فى قراهم التى يتهددهم فيها الفقر والجدب والأوبئة، وبعد أن كانوا يساقون قهراً لأداء تلك الاعمال، أصبحوا يبحثون عنها ويسعون إليها، ويستدعون أقاربهم، وأصدقاءهم لكى يلحقوا بهم كلما لاحت أمامهم فرص العمل يحتاج إليهم.

وضمن موجات الصعايدة المهاجرين كطوابير النمل هرباً من الفقر.. قفزت أسرة «على همام» ذات سنة من بدايات القرن، من «بنى سويف» إلى «كفر الزيات».



كانت «كفرالزيات» حتى منتصف القرن الماضى، قرية صغيرة، لاتمتاز عن غيرها من قرى الدلتا، إلا بوقوعها على فرع «رشيد»، وبوجود عدد كبير من معاصر الزيوت البدائية التى تعمل بالحجر وتديرها الماشية، إلى أن بدأت أهميتها، تبرز تدريجياً منذ أصبح خط السكك الحديدية الذي يربط بين القاهرة والإسكندرية يتوقف عندها، لتنتقل عرباته فوق معدية بخارية تعبر بها «فرع رشيد» ثم يعاد تجميعها لتسير فوق القضبان إلى هدفها، ثم تأكدت مكانتها بعد استبدال المعدية بكوبرى، اختصر زمن الانتقال بين القاهرة والإسكندرية بالقطار، من ٤٢ ساعة إلى سبع ساعات فقط.

ويسبب موقعها المتوسط بين القاهرة والاسكندرية، وكنقطة التقاء لطرق المواصلات، فقد تحولت من قرية إلى مدينة شبه صناعية، اجتذبت عددا، من

المستثمرين الاجانب انشأوا بها وابورات لحلج القطن. بفصل بذرته، لتقوم مصانع أخرى بتحويله إلى زيت للطعام، أو استخدامه فى صناعة الصابون، أو كبس مخلفات البذرة لتصبح علفاً للماشية، بينما يتم نقل القطن، المحلوج إلى الإسكندرية، حيث يجرى كبسه وتصديره إلى الخارج.

وككل المدن الصناعية الناشئة فقد اجتذبت «كفرالزيات» كثيرين من المهاجرين من القرى المجاورة لها، أو البعيدة عنها، كان من بينهم أسرة «على همام» الذى لايوجد مايدل على أنه كان على قيد الحياة آنذاك، ولعل وفاته كانت السبب فى رحيل أرملته «زينب بنت مصطفى» وأبنائه «أبو العلا» و«ريا» و«سكينة» من «بنى سويف» بحثاً عن مصدر للرزق.. إذ ماكادوا يصلون إلى «كفرالزيات» حتى دخلوا جميعاً إلى سوق العمل، فالتحق «أبوالعلا» و«سكينة» بأحد وابورات حلج القطن، بينما عملت «ريا» والأم ـ «زينب بنت مصطفى» ـ بائعتين جوالتين للخضروات. ثم مالبثت الأم، أن انشأت مقهى صغيراً، فى أحد الشوارع القريبة من مناطق تجمع عمال المحالج، تصنع لهم ـ فى الطريق العام ـ الشاى، وتعد لهم كراسى الدخان المعسل، وقد تبيع لهم بعض الباذنجان المقلى، أو حبات الطماطم المحشوة بالثوم، يتناولونها فى فترة الراحة من العمل.

ولأن «أبوالعلا» كان خاليا من المهارات اللازمة للعمل فى محالج القطن، فإنه مالبث أن تركه ليشترك مع أمه فى إدارة مقهى الرصيف. إلى أن أصبح العمل فى المقاهى هو حرفته التى يتعيش منها، بينما واصلت «سكينة» العمل فى المحالج، الذى كان فضلاً عن ضآلة أجرة، عملاً موسمياً ينتهى بانتهاء موسم حلج القطن، ويستمر أربعة أشهر فقط، تبدأ فى أكتوبر وتنتهى فى يناير من كل عام.

وخلال تلك الفترة تزوجت «ريا» للمرة الأولى من أحد الصعايدة المهاجرين مثلها للعمل فى «كفرالزيات»، ترجع أصوله إلى إحدى القرى الواقعة غرب النيل فى مواجهة «كوم أمبو» هى قرية «الرقبة» ـ وكانت آنذاك تتبع مركز «الدر» ثم انتقلت تبعيتها إلى مركز «أسوان» ـ ولابد أن الفقر الشديد كان أحد الأسباب التى دفعت أسرته إلى الهجرة من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، إذ لم تقتصر الهجرة عليه وحده، بل شملت كذلك والده «سعيد مرعى» وشقيقه الأوسط «حسب الله» اللذين هاجرا إلى «الإسكندرية» حيث كانا يقيمان ويعملان بها، بينما ظل الابن الأصغر «حسين» يقيم مع والدته فى القرية التى لم يكونوا يملكون فيها شيئاً، سوى منزل ضيق وصفه معاون بوليس مركز أسوان ـ فيما بعد ـ بأنه «منزل صغير مبنى بالطوب.. يشتمل على حوش صغير وأودة واحدة».

ومالم تكن هناك صلة سابقة بين الأسرتين، اللتين يبدو انتماؤهما إلى محافظة واحدة، هى محافظة «أسوان»، صدفة لافتة للنظر. فالغالب أن هذه الصلة قد نشأت عبر المجاورة فى السكن، إذ كان

تجمع المنتمين إلى مركز واحد، أو محافظة واحدة، فى منطقة سكنية واحدة، من التقاليد الديموجرافية التى حرص عليها المهاجرون الصعايدة إلى مدن الوجه البحرى، ليتقووا بعصبيتهم ويتساندوا فى مواجهة الغربة، ولكى يمارسوا تقاليدهم وعاداتهم بعيداً عن الأعين الناقدة والمقتحمة لسكان تلك المدن الأصليين، الذين كانوا يضيقون بهم وينفرون منهم، لما يحدثه احتشادهم من تلوث فى البيئة، وارتفاع فى الأسعار وفى ايجارات المساكن. وكانت هذه المناطق تقع غالباً فى أكثر أحياء تلك المدن فقرا ونقصاً فى المرافق وفى الخدمات.

والحقيقة أننا لانعرف أكثر من ذلك عن زوج «ريا» الأول، إذ لم تفض فى الحديث عنه، ولم تذكر له اسماً، والأرجح أنه لم يعش معها سوى سنوات قليلة أدركه بعدها مرض شديد أقعده عن العمل، لعله أحد الامراض «العفِنة» ـ أى الحميات ـ التى كانت حتى منتصف القرن العشرين تضرب انحاء مختلفة من مصر فى موجات متلاحقة ومتكررة الوقوع. وقد يكون المرض الذى أصابه من أمراض المهنة، إذ كان العاملون فى محالج القطن يتعرضون بكثرة للإصابة بالأمراض الصدرية، وخاصة «السل» بسبب ضعف تغذيتهم، وبدائية الآلات التى كانوا يعملون عليها، مما كان يعرضهم لاستنشاق كميات كبيرة من «الزغبار» الذى يتطاير من القطن أثناء عملية الحلج.

وكانت «ريا» حاملاً فى شهورها الأولى، حين ثقل المرض على الزوج، فأرسلت إلى «الإسكندرية» تستدعى شقيقه الأوسط «حسب الله»، وكان يعمل آنذاك بواباً وراعياً لحديقة أحد اليونانيين هو الخواجا «استاوروميخانليوس»، فاستأذن منه فى اجازة قصيرة، يعود فيها شقيقه المريض. لكنه ماكاد يصل إلى «كفرالزيات» حتى أخذت صحة الأخ تنتقل من سىء إلى أسوأ، فامتدت إقامته إلى جواره إلى شهر كامل، مات فى نهايته.

وأراد «حسب الله» أن يعود إلى مقره بالإسكندرية، ليستأنف عمله لدى الخواجا «استاورو» أو يبحث عن عمل بديل، إذا وجد الخواجا قد استبدل غيره به. لكن بلدياته من صعايدة «أسوان» المهاجرين إلى «كفرالزيات» لفتوا نظرة إلى انه قد يكون من الواجب عليه، أن يبقى حتى تضع أرملة أخيه حملها، لكى يكون فى استقبال المولود الذى سوف يصل إلى الدنيا ليجد أباه قد غادرها، فيقوم ـ نيابة عن أخيه الراحل ـ بالواجب نحوه ونحو أمه، خاصة وأنه يستطيع أن يجد خلال تلك الشهور ـ عملاً فى أحد محالج القطن المنتشرة فى المدينة. فلم يجد مبرراً للرفض، إذ كانت «ريا» حاملاً فى الشهر السادس، ولم يكن باقياً على الوضع سوى ثلاثةشهور، هى المدة التى يستغرقها موسم حلج القطن، فوافق على البقاء، ونجح ـ بمعاونة بلدياته ـ فى الالتحاق بعمل فى محلج كان يملكه أحد رعايا النمسا، هو «وابور الخواجة زرفودلكى».

وعندما انتهى موسم القطن فى يناير

(كانون الثانى) ١٩٠٩ كانت «ريا» قد وضعت ابنا ذكرا. وقام «حسب الله» بواجبه نحو ابن أخيه وارملته فاستأذن فى العودة إلى «الإسكندرية» واعداً بأن يرسل إلى «ريا» بعض المساعدات المالية بين الحين والآخر.. لكن بلدياته كشفوا النقاب هذه المرة عن هدفهم الحقيقى من استبقائه. وقالوا له بصراحة إن أرملة أخيه



سكينة بنت على همام/ نقلا عن «الدنيا المصورة» (١٩٣٥)

ماتزال شابة صغيرة، لايجوز أن تعيش وحيدة مدى العمر. وأنه من الأفضل لها وله. أن يتزوجا، لكى يتربى ابن أخيه فى أحضانه فلا يشعر باليتم. إذا اضطرت أمه إلى الزواج من رجل غريب. إذا لم يسىء معاملته. فسوف يميز فى المعاملة بينه وبين أبنائه.

ولم يجد «حسب الله» مايعترض به. ولم يهتم بفارق العمر بينه وبين «ريا» التى كانت آنذاك فى الرابعة والثلاثين من عمرها، بينما لم يكن هو قد تجاوز العشرين. فضلاً عن أن هذا الفارق فى العمر لم يكن محسوساً أو مؤثراً آنذاك. لأن «ريا» كانت فى ذروة نضوج انوثتها، فإنه لم يكن يستطيع أن يخرج على التقاليد السائدة بين المصريين عموماً، حين يموت أحد الاخوة ويترك أرملة وأولاداً صغاراً. وأخوة غير متزوجين. ولعله كان يحن إلى حياة أسرية افتقدها منذ اضطر إلى مغادرة قريته وهو فى الرابعة عشرة ليشد الرحالة إلى الاسكندرية بحثاً عن القوت، فوجد فى الزواج ما يؤنس غربته. ويقلل من وحشته. وأقبل عليه متحمسا. فلم يكد اليوم الأربعين على الوضع يمضى، حتى عقد قرانه على «ريا» فى صمت تام، إذ لم تكن فترة الحداد على الأخ الذى اغتاله «الزغبار» قد انتهت بعد.

وهكذا استقر «حسب الله سعيد مرعى» فى «كفرالزيات» على امتداد السنوات السبع التالية. ومع أن ابن الاخ الذى كان مبرراً لزواجه من «ريا» لم يعش سوى عام واحد مات فى نهايته. إلا أنه لم يفصم زواجه بها. إذ كان قد رزق منها بأول ابنائهما «بديعة» التى ولدت فى نهاية سنة ١٩١٠. وفضلاً عن ذلك فقد تعلق كل منهما بالآخر. على نحو يجعل علاقتهما تبدو لغزا صعب الفهم. خاصة حين اضطربت حياتهما. وحين واجها شبح المشنقة معاً. واثبتت «ريا» أنها

زوج ولود لكنها مع ذلك كانت سيئة الحظ، فلم يعش من الأبناء الخمسة الذين رزقت بهم من «حسب الله» خلال أحد عشر عاماً من الزواج، سوى «بديعة» أما الأربعة الآخرون ـ وهم «محمود» و«أبوالعطا» و«فاطمة» و«نبوية» ـ فقد ماتوا جميعاً وهم أطفال رضع، بسبب نقص التغذية وتدهور مستوى المعيشة فى الغالب.

وخلال سنوات اقامته السبع فى «كفرالزيات» كان «حسب الله» يعمل فى محالج القطن التى انتشرت فى المدينة، لكنه لم يبد حماساً شديداً لكى يتعلم أيه مهنة تتطلب مهارة فنية، أو عملاً شاقاً. وبدا وكأن مغادرته لقريته فى سن صغيرة، قد اكسبته طراوة اهل المدن من دون ان تكسبه بعض مهاراتهم الأخرى الكثيرة. والأرجح أن كان ـ ككثيرين من أبناء «أسوان» ذوى الأصول النوبية ـ يحتقر العمل اليدوى، ولايجد متعة فى العمل امام الآلة، ويفضل أن يقوم بالأعمال التافهة ذات المظهر البراق التى تعطيه اعتزازاً كاذبا بنفسه، وتتيح له أن يتحكم فى الآخرين، وتضفى عليه فيما يظن أهمية، كأن يكون «بوابا» أو «خفيرا». والحقيقة أن تاريخه المهنى اللاحق يكشف عن أنه كان منذ البداية من النوع الذى يفضل أن يكسب النقود من دون مجهود. وأنه كان ـ على نحو ما ـ طفلاً لم يتعود الاعتماد على نفسه، أو التحكم فى رغباته. ولما لم يكن قوى البنيان بصورة تجعله قادراً على العمل الشاق كغيره من أهل الصعيد، فإن حصوله على عمل دائم أو بديل، كان أحد المشاكل المستعصية على الحل، فالعمل فى محالج القطن، عمل موسمى لايستغرق سوى ثلث السنة، ولايغل دخلاً يكفى لنفقات الشهور الثمانية الأخرى التى تتعطل فيها المحالج. وهو لايقبل ولايستطيع أن يقوم بأعمال أخرى كحمل الاحجار أو شد السفن، مما اضطر «ريا» إلى مواصلة العمل كبائعة جوالة للخضروات، مع أختها «سكينة» لكى تقوم بنفقات الأسرة، وبنفقاته الشخصية، إذ كان قد تعود التدخين، وتعاطى الحشيش والمنزول ـ وهو خليط من الحشيش والداتورة وجوزة الطيب وغيرها من الاعشاب المنبهة والمخدرة ـ وشرب الخمر.. وزاد من تدهور الموقف، أن الكساد بدأ يحط على محالج القطن فى «كفرالزيات»، بسبب زيادة عددها ونقص المحصول، فأفلس بعضها وتوقف عن العمل، ومن بينها وابور «ذرفودلكى» الذى كان أول وابور عمل به «حسب الله».

وفى نهاية عام ١٩١٢ بدأ السير فى الطريق الذى قاده بعد ذلك إلى المشنقة. فقد ضبط وهو يسرق قطنا من «وابور بلنطة» الذى كان يعمل به خفيراً. فقدم إلى المحاكمة، وحكمت عليه محكمة استئناف طنطا بالحبس لمدة ستة شهور. كما حكمت عليه كذلك بالحبس لمدة خمسة عشر يوماً أخرى حبساً بسيطاً لتعديه باللفظ على شيخ الخفراء «فرج قطب» الذى ضبطه وهو يسرق. ومع أن هذا الحكم هو السابقة الوحيدة التى دونت فى صحيفة حالته الجنائية، إلا أن ذلك لايعنى أنها أولى السرقات التى ارتكبها، أو آخرها. والغالب انه استفاد من تجربة ضبطه، فأصبح أكثر حذراً وعدل عن السرقة من الأماكن التى تقع فى نطاق مسئوليته كخفير. أو الموضوعة تحت حراسة جيدة، واحترف

سـرقـة المحـلات التـجـارية الصـغـيـرة، المتناثرة فى الشـوارع الخلفـيـة، بعـيـداً عن أعين الحراس. ومالبث «أبوالعلا» ـ شقيق زوجتـه، الذى كـان يعـمل «قـهـوجيـاً» ـ أن انضم إليه، فى هذا النشاط الجديد.

ولم تحل ادانتـه فى قضيـة السـرقـة، دون التحـاقـه بالعـمل فى «وابور لندمـان» بعـد قضـائه مـدة العقـوبة. ولعل المسئولين عن المحلج، وجدوا أن أفضل وسـيلة لتأمينه ضد السـرقـة، هى تعيين لص معـروف لديهم من بين خفـرائه. لكنه لم يواصل العمل به. إذ لم تكد الحـرب العـالميـة الأولى تنشب فى اغسطس (آب) ١٩١٤، حـتى اعـتـقل «الهـر لاندمـان» صـاحب المحلج، باعتبـاره ألمانيا من رعايا الأعداء، ووضع المحلج تحت الحراسة. ولم يعـد إلى العـمـل مـرة أخـرى، إذ حط الكساد خـلال العامين الأوليين من الحـرب، على الصناعـات القطنيـة، بسـبب الارتبـاك الذى حـدث فى طرق التـجـارة الدوليـة، وأدى إلى تعثر عمليات تصديره إلى الخارج.

وبذلك عـاد «حـسب الله» من جـديد إلى ممارسة عمله الإضافى فى سرقة الدكاكين.



فى تلك السنوات كـانت «سـكينة» ماتزال تنتقل ـ خلال الموسم ـ بين وابورات حـلـج الـقـطـن بـ«كفـرالزيات»، التى كانت تفضل تشغيل النساء فى بعض عملياتها، لرخص أجورهن وندرة مايثرنه من مشاكل أثناء العمل، وبين بيع الخضروات أو البيض أو العمل فى قهوة الرصيف مع أمها، فى غير ذلك من شهور العام..

والغـالب فى ضـوء أحـداث السنوات التالية من عمرها أنها كانت ـ على العكس من «ريا» ـ أكـثـر جـسـارة، وأقل احـتـرامـاً للعادات والتقاليد، واكثر جرأة على الخروج عنهـا.. اكتسبتهـمـا من اختلاطها بالرجال سـواء اثناء عـملهـا بالمحلج، أو أثناء مساعدتها لوالدتها بالمقهى.

والحقيقة أنها كشفت ـ بعد ذلك ـ عن اهتمام زائد عن الحد، ورغبة تفوق ماهو عـادى، فى الجنس الآخر، مما يكشف عن أن زوجها الأول ـ وكان نوبيا أو سودانياً من رجـال الجـيـرة ـ لم يكن أول الرجـال فى حـيـاتهـا. ولعل ذلك هـو السـبب فى أن زواجهما لم يستمر طويلاً، إذ طلقها بعد عـامين، بعد أن أنجب منها ابنة سـمـتهـا «زينب»، تيمنا باسم أمهـا، لكنها لم تعش هى الأخـرى سـوى شـهـور قليلة، مـاتت بعدها، فوجدت «سكينة» نفسها مطلقة فى السابعة والعشرين من عمرها.

ويصـعـب تصـديق «سـكينة» التى قـالت فـيـمـا بعـد، إن بعض البنات قـد ضـحكن عليها بعد طلاقها، وأدخلنها «فى الوعد»، الذى قـادها لأن تسجل اسمهـا كـ«مومس» ضـمـن العـاملين فى «نقطة المومـسـات» بمدينة «طنطا» القريبة من «كفـرالزيات» وكانت من أشهر نقط المومسات فى مصر كلها. والغالب أن تلك كانت خطوة سبقتها خطوتان: صـاحبت «سكينة» ـ التى لم تكن فـيمـا يبدو تطيق البعد عن الرجال ـ فى

أولاهما عدداً من الرجال فى علاقات حرة غير مدفوعة الأجر. ثم انتقلت فى الثانية إلى ممارسة البغاء السرى فى مدينة «كفرالزيات» نفسها، فأصبحت تتقاضى أجراً عن ذلك العمل، إلى أن التقطتها إحدى «العايقات» ـ وهو الاسم القانونى لمن يرخص لهن، رسميا، بإدارة بيوت البغاء القانونية ـ فاضافتها إلى من يعملن لديها من «مقاطير»، وهو الاسم القانونى للغانيات المرخص لهم بممارسة المهنة.

وكان القانون المصرى يعترف آنذاك بالبغاء، وينظم ممارسته طبقاً للائحة تقضى بأن يحدد وزير الداخلية أو المحافظ، بقرار منه، الأماكن التى يجوز للمومسات العمل فيها، بحيث لاتزيد عن مكان واحد فى كل مدينة. على أن تقتصر إقامة اللواتى يمارسن البغاء عليه. فلا يتعدينه إلى غيره من أحياء المدينة. وتمنح الرخصة لصاحبة البيت أو مديرته التى تعرف باسم «العايقة» أو «الضامنة».. ويكون من حقها بمقتضى هذا الترخيص، أن تستخدم عدداً من «المقاطير» على ألا تكون بينهن قاصر أو متزوجة. ويخضع الجميع لكشف طبى مبدئى ـ يقوم به مفتش الصحة المختص ـ قبل الترخيص لهن بممارسة المهنة، وآخر دورى، يجرى مرة كل أسبوع، للتأكد من عدم إصابتهن بمرض من الأمراض السرية.

وهكذا انتقلت «سكينة» إلى الإقامة فى «طنطا»، حيث يوجد مقر عملها الجديد، من دون أن يثير اختيارها لهذا العمل، أو انتقالها للإقامة وحدها فى حى «الواسعة» ـ وهو منطقة البغاء فى «طنطا» ـ أى اعتراض من شقيقها أو من زوج شقيقتها. وهو ما يكشف عن مدى التدهور الذى كان قد لحق بأولاد «على همام» خلال السنوات القليلة التى أعقبت مغادرتهم لحدود الصعيد. والأرجح أن الفقر ونقص فرص العمل، كانا على رأس الأسباب التى دفعتهم إلى الصمت على ماكان يستحيل عليهم أن يصمتوا عليه.

ولم تستمر «سكينة» فى العمل طويلاً بنقطة المومسات، إذ ما لبثت أن أصيبت بعد فترة ـ تقدرها بتسعة أشهر، وإن كانت فى



إحدى المومسات العاملات فى نقطة مومسات طنطا فى العشرينيات

الغالب أكثر من ذلك ـ بمرض سرى، تطلب دخولها إلى مستشفى «طنطا» للعلاج.. وخلال الشهور التى أقامتها بالمستشفى، تعرفت على أحد الممرضين العاملين بها، وهو «أحمد رجب» فنشأت بينهما علاقة حب، كانت سبباً فى فصله من المستشفى.

ولم تكد «سكينة» تبرأ من مرضها حتى هرب الاثنان معاً من «طنطا» إلى «الإسكندرية».

وكانت حالة بقية «آل همام» الذين ظلوا يقيمون فى «كفر الزيات» بعد هجرة «سكينة» إلى «طنطا» ثم رحيلها إلى «الاسكندرية» برفقة صديقها الجديد «أحمد رجب» قد تدهورت. إذ ماكادت الحرب العالمية الأولى تنشب ـ فى أغسطس (آب) ١٩١٤ ـ حتى حط الركود على أسواق القطن نتيجة للارتباك الشامل الذى أحدثه إعلانها فى الطرق البحرية التى كانت تنقله إلى الأسواق العالمية.

وبسبب انخفاض طلب الغزالين والنساجين العالميين له، انتظاراً لما سوف يترتب على نشوب الحرب من آثار سياسية واقتصادية. فوصل المخزون الذى عجز زراع القطن عن بيعه إلى ٤٠٪ من محصول تلك السنة. وانخفض سعره من ١٨ ريالاً إلى عشرة ريالات فقط للقنطار. ولأنه كان ـ آنذاك ـ المحصول الرئيسى الذى يعتمد عليه الاقتصاد المصرى، فقد كان طبيعياً أن تؤدى الكارثة التى أصابته، إلى هزة اقتصادية عنيفة. مالبثت أن انتهت إلى ركود شامل فى الأسواق، فقد أسرع المودعون يسحبون أموالهم من البنوك، خوفاً من آثار الحرب على إيداعاتهم. فتوقفت البنوك عن اقراض زراع القطن بل وأخذت تطالبهم بما اقترضوه منها. فقبض هؤلاء ايديهم عن اقراض صغار الزراع فى انتظار بيع المحصول، الذى لم يجد من يشتريه حتى بثمن تكلفته.

وكان «موسم القطن» هو الموسم الذى ينتظره المصريون جميعاً، وخاصة الطبقات محدودة الدخل، لكى يُفرجوا عن أنفسهم، ويشعروا بشىء من متع الحياة. فخلال الشهور التى تعقب جنى المحصول وبيعه، كان الرخاء يسود أنحاء مصر جميعها، فتجرى النقود فى أيدى زراع القطن، وينساب جانب منها إلى أيدى هؤلاء الفقراء، فيجدون فرصاً لعمل أعلى أجراً مما يتقاضونه عادة فى بقية شهور العام. ولم يكن «الموسم» يضن برخائه حتى على هؤلاء الذين لايجدون عملاً فى أحد المجالات المتعلقة مباشرة بالقطن، كعمليات النقل والحلج والغزل والنسيج، إذ كان الجانب الأكبر من ثمن السلع والخدمات يؤجل دفعه إلى الموسم، فيحصل الجميع على المؤجل من ثمن عرقهم طوال العام، فضلاً عما كان يترتب على جريان النقود فى أيدى الزراع من رواج فى الأعمال الانشائية والمعاملات التجارية. ففى «الموسم» يشترى الناس خزين بيوتهم من أصناف البقالة، ويزوجون أبناءهم وبناتهم، وفيه يبنون أو يجددون بناء عمائرهم، أو يعيدون تأثيثها، ويقيمون فيه الأفراح والولائم، ويتنزهون فى عواصم الاقاليم أو

على شواطىء البحر. فتتسرب النقود من بين أصابعهم إلى الجميع: من أصحاب دكاكين البقالة إلى أصحاب المقاهي والبارات، ومن النجارين والمنجدين والحدادين إلى العوالم والراقصات والعاملين في بيوت البغاء.

ولأن شهر اغسطس (آب) هو الشهر السابق مباشرة على بداية الموسم، إذ يتم فيه جني القطن، فقد كان المصريون يسمونه «شهر الأزمة» ففيه تضيق انفاس الناس بسبب ارتفاع درجة الحرارة التي تزيد رطوبة الفيضان من وطأة احساسهم بها، وتضيق صدورهم من كثرة ماانفقوا - من دون عائد - على المحصول. لكنه مايكاد ينتهي حتى تبدأ الأزمة في الانفراج تدريجياً مع وصول بشائر المحصول إلى أيدي التجار، وحصولهم على جانب من ثمنه، يأخذ في التصاعد خلال الأسابيع التالية. آنذاك تلعلع الزغاريد في البيوت، وتعلق على أبوابها الزينات احتفالاً بزواج الأبناء، ويزداد الزحام في الأسواق، ويشتري الفقراء لزوجاتهم وأبنائهم كسوة السنة، ويجدون بين أيديهم مايستطيعون به سد جوعهم إلى اللحوم والدواجن، وغيرها ممايعز عليهم بقية العام.

لكن «شهر الأزمة» من ذلك العام - ١٩١٤ - امتد ليصبح أربع سنوات كاملة، هي السنوات التي استغرقتها الحرب العالمية الأولى، التي لم يكن للمصريين فيها ناقة ولاجمل، ولكنهم - كغيرهم من شعوب المستعمرات - دفعوا ثمن الصراع المسلح الذي نشب بين حيتان السياسة الدولية، إذ لم يسفر إعلان الحرب فقط، عن كارثة القطن التي أوقفت أحوالهم، فأجاعت الفقراء منهم، وهددت المستورين بالجوع. بل وأدى الاضطراب في طرق المواصلات الدولية - كذلك - إلى توقف وصول المواد الغذائية التي كانت مصر تستوردها من الخارج مقابل تصدير قطنها، ومن بينها اللحوم والدقيق والبترول والفواكه والمنسوجات، كما توقف وصول السلع التي كانت تستوردها من ألمانيا والنمسا وتركيا وحلفائهم، ممن كانوا يوصفون - آنذاك - بأنهم «أعداء، حضرة صاحب الجلالة ملك انجلترا وامبراطور الهند»، وكانت مصر بمجرد اعلان الحرب قد وضعت تحت حماية جلالته - ومن بينها الصابون والأدوات المنزلية والطرابيش والكبريت وزجاج المصابيح، فاختفت هذه السلع جميعها من الأسواق، وارتفعت اثمان المعروض منها، أو من بدائلها المحلية الأقل جودة، إلى أرقام فلكية. وساهم الأجانب المسيطرون على التجارة الداخلية في تأزيم الوضع بتخزين السلع، أو باحتكار بيعها..

ولم يكن نصيب «كفرالزيات» من المجاعة، أقل من نصيب غيرها من المدن المصرية، بل لعله كان أكبر، فقد أغلقت معظم محالج القطن التي كانت تعمل بها أبوابها، إما بسبب الكارثة التي أدت إلى بقاء المحصول دون بيع. أو لأن بعضاً منها كان يملكه رعايا الأعداء من الألمان والنمساويين، الذين وضعوا رهن الاعتقال، ثم طردوا من البلاد. ولأن النشاط الاقتصادي في المدينة كان يرتبط - أساساً

- بالصناعات القطنية - كعصر الزيوت وصناعة الصابون والكسب، فقد تفشت البطالة وخاصة بين صفوف الجنوبيين المهاجرين إليها، مما اضطر بعضهم إلى العودة مرة أخرى إلى قرى الصعيد التى جاءوا منها، بعد أن توقفت - بسبب الركود كذلك - الأعمال الأخرى التى كانوا يعملون بها فى غير موسم القطن، كأعمال البناء ونقل الأحجار وشق الطرق وحمل الأتربة.

لكن «حسب الله» لم يفكر فى الرحيل مرة أخرى إلى «الرقبة» إذا لم يكن يملك بها مايغريه على العودة. ولعله كان يدرك أنه مهما كان سوء الحال فى «كفرالزيات» فإن فرص الرزق - الحلال أو الحرام - المتاحة له فيها، أوسع بكثير من تلك التى قد تتاح له فى قريته. وكان - فضلاً عن ذلك قد شغف بحياة المدن، حيث لارقابة اجتماعية صارمة تحول بينه وبين إشباع مزاجه الحسى الغلاب، أو تقف بينه وبين التمتع بنصيبه من الدنيا فقرر البقاء على الرغم من سوء الحال. ولم يلبث أن عاد لاستئناف نشاطه فى سرقة الدكاكين بمعونة شقيق زوجته «أبوالعلا همام» وآخرين. وتركزت غزواتهم على محلات البقالة الصغيرة، ولم تكن غنائمهم تزيد على عدد من علب زيت الطعام، أو جوال من السكر، أو بعض اقراص الحلاوة الطحينية، أو عدة قطع من صابون الغسيل. لكنها - على الرغم من تفاهتها - كانت ذات فائدة كبيرة لهم، إذ كانت تسد عنهم وعن أسرهم غوائل الجوع. فإذا بقى



١٩٢٧: وفد من تجار الأقطان فى زيارة لمحلج كازولى بكفر الزيات

منها شيء ـ بعد ذلك ـ قامت «ريا» وأمها «زينب» ببيعه في مطعم ومقهى الرصيف، أو تجولتا به على أبواب البيوت. فإذا كان من بين الغنائم شيء مما يخشى تعرف أصحابه عليه إذا عرض للبيع، كالموازين والأطباق، سافر بها «حسب الله» أو «أبوالعلا» أو أحد شركائهما، إلى «طنطا» ليبيعه في أسواقها.

ولم يكن الحل الذى توصل إليه «حسب الله» لأزمته الاقتصادية فريداً. إذ كانت السرقة هى «العمل» الوحيد الذى أتيح لالآف العمال الذين أدركتهم الحرب، فسدت أبواب الرزق أمامهم، وخاصة الصعايدة منهم. يستوى فى ذلك من تعودوا أن يهاجروا إلى «مدن القطن» هجرة مؤقتة ليعملوا بها أثناء الموسم، ثم يعودون إلى قراهم بعد انتهائه، أو من كانوا قد استمرأوا حياة المدينة، وتمردوا على ركود الحياة فى قراهم المحرومة من أبسط شروط الحياة الحقيقية، فتوطنوا تلك المدن. فقد عز على الأولين أن يعودوا إلى أهاليهم بأيد خالية حتى من ثمن تذكرة القطار الذى اقترضوه عند رحيلهم، وأفسدت الحياة الطرية فى المدن الآخرين، فأصبحوا عاجزين عن التكيف مرة أخرى مع الأوضاع المعيشية الأكثر تعاسة فى قراهم.

وعلى عكس كثيرين من أمثاله من المتعطلين، فقد أثبت «حسب الله» أنه لص متواضع، تقصر جهوده عن شن الغارات العنيفة التى كانوا يقومون بها، ويعودون منها بغنائم كبيرة، كالسطو على المنازل، أو على مخازن الحبوب أو قطع الطريق على المارة ليلاً. والأرجح أنه لم يكن من النوع المهيأ نفسياً لممارسة العنف، أو الذى يملك الجسارة الكافية للمخاطرة بنفسه. ولعله كان يعتصم ببقية من قيم خلقية تلقاها فى نشأته، فاكتفى بتلك السرقات التافهة التى كانت تؤمن له ما يحتاج إليه لكى يعيش هو وأسرته، مع بعض الترفيه الضرورى، لم يكن يزيد آنذاك عن تدخين تعميرتين من الحشيش أو إحتساء كأسين من النبيذ الرخيص.

وربما لهذا السبب، فإنه ما كاد يغامر ـ فى ١٦ فبراير (شباط) ١٩١٦ ـ بتطوير نشاطه، وشن أول هجوم جرىء فى تاريخه الاجرامى فيشترك مع عصابته فى كسر أبواب أحد المقاهى، ويسرقون منه بعض المقاعد ورخام المناضد، حتى انكشف أمره كما ينبغى لمن يقوم بعمل يفوق قدرته ويخرج عن مجال تخصصه. لكن حظه الحسن، حال بينه وبين العودة مرة أخرى إلى السجن، ليقضى مدة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات، باعتباره لصاً عائداً، إذ كان قد تصرف فى المسروقات، وهرب وهو وصهره «أبوالعلا» إلى «طنطا». ومع أن تفتيش الشرطة للحجرة التى كان يقيم فيها مع زوجته وابنه الرضيع وابنته ـ «بديعة» ـ وللحجرة التى كان «أبوالعلا» يقيم فيها مع والدته، قد أسفر عن العثور على ماتبقى مما سرقاه ـ فى عملية سابقة ـ من دكان بقال يدعى «بولس جرجس»، إلا أن المرأتين تحملتا بشجاعة المسئولية عن حيازة المسروقات، فلم تشيرا أية إشارة إلى

اقامة الرجلين معها. وأصرتا على أنهما قد اشترتا ماعثر عليه فى حجرتيهما من باعة متجولين. وهو دفاع لم تأخذ به محكمة استئناف «طنطا» فعاقبت «ريا» بالحبس لمدة ستة شهور.

ولأن بقاء «حسب الله» فى «كفرالزيات»، بعد أن اتجهت إليه الشبهات، لم يعد باعثاً على الاطمئنان، فقد قادته خشيته من افتضاح كل ماشترك فيه من سرقات، إلى الرحيل، بينما ظل «أبوالعلا» يقيم فى «طنطا» ليرعى شئون السجينتين.

وذات يوم من مارس (آذار) ١٩١٦، فوجئت «سكينة» بزوج شقيقتها «حسب الله» يدخل عليها فى الحجرة التى كانت تقيم فيها بالإسكندرية، وبصحبته ابنته «بديعة» التى كانت آنذاك فى السادسة من عمرها.



كان أول مافعله «أحمد رجب» عندما وصل إلى «الاسكندرية» - فى صيف ١٩١٤ - هو عقد قرانه على «سكينة». ولم يحل دون ذلك علمه بأنها كانت تحترف البغاء، أو أنه تعرف عليها أثناء علاجها من أحد أمراض المهنة. فقد كان فلاحاً طيب القلب، غادر قريته «نكلا العنب» - القريبة من «كفرالزيات» - بعد أن ضاقت أمامه سبل الرزق. وكان، ككثيرين من أمثاله، يعرف بأن الفقر والجوع، هما اللذان يضطران كثيرات من البغايا لبيع أجسادهن. ويؤمن بأن ستر الأعراض، هو من أفضل الأعمال التى يتقرب بها العبد الصالح إلى ربه. وكان متخماً بالأمل فى أن يعيش معها - فى الحلال - حياة أسرية مستقرة فى الدنيا، وبأن يفوز - فى الآخرة - بثواب توبتها على يديه. وكانت «سكينة» مثله تدعو - بعد تجربة زواجها الأول الفاشلة - أن يسبل الله عليها ستره، وأن يخلف عليها بالذرية الصالحة.

وهكذا هجر الاثنان «طنطا» ليبتعدا عن نظرات الرثاء وإيماءات السخرية، إلى بلد يستطيعان فيه أن يواصلا حياتهما من دون أن يعيرهما أحد فيه بماضيهما.. وكانت «الإسكندرية» هى المهجر المثالى الذى ظنا أن باستطاعتهما أن يذوبا فى زحامه. فيقطعا كل صلة لهما بذلك الماضى.. فقد كانت مدينة ضخمة، يصل عدد سكانها - آنذاك - إلى ٤٣٥ ألفا، يتوزعون على اقسامها الإدارية الثمانية، التى تشغل شريطا من الأرض الرملية، يحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب «بحيرة مريوط». ولأن سكانها كانوا خليطاً من المهاجرين الذين اجتذبهم موقعها على شاطىء البحر. فقد كانت معرضاً فريداً للأجناس والعادات والتقاليد وأنماط السلوك، ففضلاً عن المهاجرين إليها من داخل القطر، كالصعايدة، والبحاروة والعربان، بحثا عن العمل أو فراراً من الثأر أو رغبة فى الترفيه، والمهاجرين إليها من أقطار السلطنة

العثمانية كالمغاربة والأتراك. فقد استوطنها - كذلك - العدد الأكبر من الأوروبيين المهاجرين إلى مصر، حتى زاد عددهم - فى تعداد ١٩١٧ - عن خمسين ألفاً، نصفهم من اليونانيين والنصف الآخر من الإيطاليين والبريطانيين والفرنسيين.

وربما لهذا السبب، فقد كانت أكثر مدن مصر تحضراً وتحرراً: تضىء فوانيس غاز الاستصباح شوارعها، وميادينها، وتسير فيها «الكهربائية» - أى الترام - وتزدحم بالأسواق وبالمتاجر التى تتاجر فى كل شىء، وتعرض سلعاً من مختلف بلاد العالم، كما تزدحم بالمقاهى والبارات والفنادق. وبها فضلاً عن ذلك ثلاثة دور للسينما توغراف، وثلاث صحف يومية، أحداها - وهى «البورص اجبسيان» - بالفرنسية، والأخريان - وهما «وداى النيل» و«الأهالى» - بالعربية.

ولم تكن أحلام «أحمد رجب» فى أن يجد فى مهجره الجديد، فرصاً للعمل أوسع مدى وأكبر أجراً من عمله السابق بمستشفى طنطا الأميرى، مبالغاً فيها. فقد كانت «ميناء البصل» - على شاطىء «ترعة المحمودية» التى تنقل إليها مياه النيل من فرع «رشيد» - هى مركز تجار الجملة فى المحاصيل المصرية كالبصل والسكر والحبوب والقطن. بينما كانت ٧٥٪ من عمليات التصدير والاستيراد تتم عبر «ميناء الاسكندرية»، حيث كان يجرى تفريغ وشحن عشر سفن فى المتوسط كل يوم، تسير فى خطوط ملاحية منظمة تربط المدينة بموانىء البحر المتوسط وموانىء جنوب أوروبا وشمالها.

وحول هذا النشاط كان كثيرون من المهاجرين من أبناء الريف - وخاصة الصعايدة منهم - يجدون فرصاً كثيرة للعمل كحمالين فى الميناء يقومون بعمليات شحن السفن وتفريغها، أو فى الوابورات - أى المصانع - التى كانت تجهز القطن للتصدير أو للتصنيع كوابورات الحلج والغزل والنسيج، أو كحرفيين فى المجالات المتعلقة بذلك كالحدادين والبرادين والصباغين والنجارين والنقاشين، أو فى المجالات الخدمية والسياحية المتنوعة.

لكن الحرب - التى نشبت بعد شهور قليلة من وصول «أحمد رجب» و«سكينة» إلى الاسكندرية - مالبثت أن أجهضت أحلامهما فى أن يجد الزوج عملاً يوفر لهما معاً حياة مستقرة. وبدا وكأن الامبراطور «غليوم» - امبراطور ألمانيا - والملك «جورج الخامس» - ملك انجلترا - يتآمران لكى يحولا بينهما وبين السعادة التى ينشدانها بقوة. فبعد أسبوع واحد من إعلان الحرب، أصدرت الحكومة المصرية - وكان يرأسها «حسين رشدى باشا» - قراراً بوقف تصدير المواد الغذائية إلى الخارج، فتوقفت بذلك عمليات الشحن فى الميناء.. بينما أدى الارتباك الذى احدثته الحرب فى خطوط الملاحة الدولية، إلى عودة السفن التى كانت محملة بالواردات إلى الموانىء التى قامت منها، فتوقفت كذلك عمليات التفريغ.

ومع أننا لانستطيع أن نجزم على وجه اليقين، ما إذا كان «أحمد رجب» واحداً من

بين المئـات من عـمـال الشـحن والتفـريغ الذين وجدوا أنفسـهم فجأة من دون عـمل أو أمل، أو لم يكن، إلا أن العمل الذى كان يقوم به. ليس مـهـمـا فى ذاته، لأن البطالة لم تقـتـصـر على عـمـال الشـحن والتـفـريغ، بل طالت الجميع. إذا كانت «الإسكندرية» ـ كـمـدينة تجـارية ـ أكـثـر المدن المصـرية التى زلزلهـا اعـلان الحرب. فقد خشى كبار التجار من المصـــدرين والموردين. والمستثمرين فى مجالات الصناعة المحـدودة، مما سـوف تحـدثه الحـرب من آثار على اسـتيـراد السلع الوسـيطة وعلى تصـدير الانتاج فبادروا بتطبيق سياسية الانكماش. إلى أن تتضح الأمور. وكان العمال هم أول ضحـايا هذا الجبن الرأسـمالى التقليدى فتم توفير معظمهم فانتشرت البطالة فى المدينة كالوباء. وخلال أسبوع واحد، كان اربعـة آلاف عـامل قـد طردوا من مـعـامل السـجائر وشـون البنوك ومـخازن التـجار. وبعد أسبوع آخر كان العدد قد ارتفع إلى عشرين ألفا بعـد أن شـمل التوفير عمال مخازن الاخشاب والفحم وعمال شركات المكابس، وجـمـيع عـمـال «مـينا البـصل» وعمال شركات البناء والعريجية. وشاهد مندوب لجـريدة «الأهالى» السكندرية، المئات منهم، ينتشرون فى شوارع الأحياء الشعـبية التى كانوا يقيمون فيهـا ـ مثل «باب سـدرة» و«كوم الشـقـافـة» و«القـبـارى» و«كفـرعشـرى» و«كـرموز» ـ يبـحثـون عمن يقـرضهم ثمن الطعام. يجلسـون على أبواب بيوتهم، وعلى وجوهم علامات الهم والكدر، لايعرفون ماذا يفعلون.



السلطان حسين كامل

وكان «أحمد رجب» و«سكينة» قد انفقا ماكانا قد حملاه معهما من مدخرات قليلة، على استئجـار غرفتـين ضيـقتين بأحد المنازل القديمة بحى «الازاريتو»، وفى شراء اثاث فـقـيـر لمسكن الزوجـيـة، يتكون من «حصـيـرة» و«طبلية» و«صندوق للمـلابس»، لغـرفـة الطعـام والاسـتـقـبـال، ومـرتبـة من القش، ولحـاف من القطن لغـرفـة النوم. وكان توفير ايجار احدى الغرفتين، هو أول القرارات التى اتخذاها فى أعقاب توفير الزوج من العـمل. وكـان القـرار الثـانى هو

نزول «سكينة» نفسها إلى سوق العمل لتقوم بأعمال متنوعة من النوع التافه، كان من بينها بيع القصب فى «الجنينة الصغيرة» بحى اللبان، على مشارف «كوم بكير» حى البغاء الرسمى فى الاسكندرية. بينما أخذ «أحمد رجب» يبحث عن عمل يلائمه، من دون أن يجد، بعد أن توقفت الأعمال جميعها، واضطر كثيرون من امثاله إلى التسول فى الطرقات، أو إلى احتراف السرقة. لكنه كان فيما يبدو خاليا من الصفات التى تجعله صالحاً لتلك الاعمال، كما كان خاليا كذلك من القدرة على التمرد التى دفعت زملاءه من العمال المتعطلين إلى التجمهر والطواف فى شوارع «الاسكندرية» يطلبون العمل والطعام ويشكون من ارتفاع الاسعار، مما اثار الذعر بين التجار فأسرعوا يغلقون متاجرهم، إلى أن توقف المتجمهرون أمام مبنى المحافظة - وكان يقع فى «ميدان المنشية» - فأخذوا يهتفون: «عاوزين ناكل.. عاوزين ناكل».

وماكادت المظاهرة تنتهى، حتى اتخذت المحافظة عدة اجراءات للحيلولة دون تكرارها، فقامت بترحيل أعداد كبيرة من العمال المتعطلين - وخاصة الصعايدة منهم - إلى قراهم، واستفادت بجزء من الباقين فى ازالة بعض تلال الأتربة فى «حى الشاطبى»، نظير أجور تافهة لاتزيد عن ثلاثة قروش للرجل وقرشان للمرأة، تخصم منها الجزاءات، مقابل ست ساعات من العمل الشاق.. وحين تظاهر العمال مرة أخرى، احتجاجاً على تفاهة الاجر وكثرة مايوقع عليهم من جزاءات زوّد الملاحظون الذين كانوا يشرفون عليهم بالكرابيج. ووضعت فى مواقع الحفر مجلدة، لتأديب المتكاسلين منهم.

والأرجح أن «سكينة» قد اضطرت - فى مواجهة تلك الظروف القاسية - إلى العودة لممارسة البغاء، ولكن من دون أن تسترد رخصتها، أو تلتحق بأحد البيوت المرخص لها بالعمل رسمياً، إذ كان الكشف الطبى الدورى الذى يوقع على المرخص لهن بممارسة البغاء من الأمور التى تنفر منها. والظاهر أن تجربة احتجازها فى «مستشفى طنطا» كانت تجربة مريرة، دفعتها للعزوف نهائياً عن تجديد الرخصة، وظلت منذ ذلك الحين، تفضل - إذا اضطرت إلى ذلك - أن تمارس البغاء السرى، أو أن تقوم بتنظيمه.

ومع أن الأزمة أخذت تنفرج تدريجياً، بعد أن ذهبت صدمة البداية المفاجئة للحرب، فاستأنف المستثمرون نشاطهم، بعد أن وفقوا أوضاعهم مع الظروف التى جاءت بها، وعادت سوق القطن للنشاط فى الموسم التالى، بعد أن ازدادت الحاجة إليه فى بعض الصناعات الحربية بل وأخذت ثروات كثيرة تتراكم لدى الفئات التى استفادت من الحرب. سواء بتوريد السلع إلى الجيوش المتحاربة أو باحتكار توزيع السلع الغذائية، إلا أن الاوضاع المعيشية للفئات الشعبية ظلت تتردى من سىء إلى أسوأ، فلم تنقص اعداد العاطلين الا قليلاً، وارتفعت اسعار الطعام إلى ارقام فلكية، جعلتهم يعيشون فى شبه مجاعة.

وكـمـا ان الحـرب هـى التى جـاءت بالازمـة، فـقـد كـانت هـى ذاتهـا التى أتت بالفرج.. فقد أدى اتساع ميادين القتال أمـام جـيـوش الحلفـاء إلى التـفـكيـر فى الاسـتـعـانة بالدواب المصـرية، وبالعـمـال المصريين، فى الأعمال غير القتالية التى يضطر جنودهم للقـيـام بهـا، لتـوفـيـر مجهودات هؤلاء الجنود للأعمال القتالية المبـاشـرة.. فـقـررت السلطة العـسكرية البـريطانيـة، تشكيل فيلقـين، أحدهمـا هو «فيلق الجمّالة» وكانت مـهـمتهم هـى نقل الذخائر والمهمات العسكرية الثقيلة، على ظهور جمالهم من القطارات الحـربية إلى الخطوط الامامية، والثانى هو فيلق العمال الذين يقومون بالاعمال اليدوية مثل تعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وحفر الآبار والخنادق ومد انابيب المياه واقامة اعمدة التلغراف والتليفون ومد اسلاكهما.

وفى البـدايـة تردد المصـريون فى الالتحاق بتلك الفيالق، إذ لم يكن العمل فـيهـا يعـرضـهـم لخطر الموت فى الغـربة وحسب، بل كان يدفعهم للمساعدة فى انتصار الحلفاء الذين كـانوا يتمنون لهم الهـزيمـة، إذ كـانت مـشـاعـرهـم فى الصف الذى يقف فيه خليفة المسلمين السلطان «عبدالحميد الثانى» وخديو مصر الشرعى «عباس حلمى الثانى» الذى عزله الانجليز عن العـرش، وعينوا مكانه عـمـه العـجـوز الضعيف الذى لاحول له ولاشأن، السلطان «حسين كامل» ولأن المجاعة تنسى الناس ـ عادة ـ كثيراً من مشاعرهم الطيبة، بما فى ذلك مـشـاعـر الانتـمـاء للوطن، فـقـد ظل ترددهم يتقلص إلى أن اختفى، فـاندفـعـت جـحـافلهم تبحث عن العمل فى «السلطة» وشجعت النتائج الباهرة التى حققوها فى أعمالهم هذه، السلطة العسكرية البريطانية على التوسع فى استخدامهم.

ولعل تردد «أحمـد رجب» فى الالتحـاق بالسلطة ـ كغيرة من العمال العاطلين ـ قد طال اكثر مما ينبغى.. إذ كان بطبيعته، غير ميال للمغامرة. لكن تعاسته لاجهاض حلمه فى أن يعيش مع «سكينة» ـ التى كان مغرماً بهـا ـ حـيـاة أسـرية مـسـتـقـرة، وحـزنه لاضطراره للموافقة على عودتها لممارسة البغاء، لكى يجدا مايسد رمقهما، دفعه ـ أخيراً ـ للسفر، لعله يعود بما يستطيع أن يكفل به لزوجته الستر.

وحـين وصل «حـسـب الله» ـ فى ذلك اليـوم من ربيع عـام ١٩١٦ ـ إلى الحـجـرة التى كانت «سكينة» تقيم فيها بـ«الازاريتو» كـانت اربعـة شـهـور قد مضت على سفـر «أحمد رجب» إلى السلطة.



لم يترك «أحمد رجب» لزوجته قبل سفـرة سوى جنيه واحـد، سـرعـان مـاتبـخـر بين أجـر الغـرفـة ونفـقـات الطعام، فعادت «سكينة» مرة أخرى إلى بيع القصب فى «الجنينة الصغيرة» بالقرب من «كوم بكير» أو تأجير غرفتها لواحدة من صديقاتها اللواتى يحترفن البغاء السرى،

لتلتقى فيها بأحد زبائنها، مقابل نسبة من أجرها لم تكن تزيد عن قرش أو قرشين. لكن دخلها القليل من تلك الأعمال لم يكن يكفيها، فاضطرت إلى الالتحاق بفريق من نساء الاسكندرية، كن يتاجرن - آنذاك - فى «لحم الانجليز» فيتسللن - فى الليالى المظلمة - إلى مخزن مكشوف، ملحق بأحد المعسكرات البريطانية التى تقع بصحراء «سيدى بشر» ليسرقن منه اللحوم التى افسدها سوء التخزين من تموين الجيش قبل أن تقوم إدارة المعسكر بحرقها، ثم يغمرنها بالماء الساخن لازالة رائحة التعفن، ويبعنها بسعر الأقة اربعة قروش، وهو ثمن مغر للكثيرين من الفقراء كانوا لايجدون غضاضة فى أكل اللحوم الفاسدة، أو الدواجن التى أدركتها السكين قبل أو بعد لحظات من نفوقها، طالما أن أسعارها مما يستطيعون دفعه، بعد أن ارتفع سعر الأقة من اللحم إلى اثنى عشر قرشاً.. ونجحت المحاولة مرة ومرتين، وحققت منها «سكينة» دخلاً طيباً، حتى فكرت فى أن تتفرغ للتجارة فى «لحم الانجليز». لكن سوء الحظ ترصدها فى المرة الثالثة فقبض عليها البوليس الحربى البريطانى. وظلت رهن الحبس الاحتياطى لمدة اسبوعين، إلى أن برأتها المحكمة.. فأفرج عنها.

لم يكن قد مضى على مغادرتها السجن سوى ايام قليلة، حين وصل «حسب الله» فاستقبلت - بفتور شديد - الأنباء التى حملها إليها عن الظروف الى أدت إلى سجن شقيقتها وأمها. ولم ترتح لقراره بأن ينتقل هو وأسرته من «كفرالزيات» - التى لم يعد باستطاعته العودة إليها - للاقامة فى الاسكندرية، ونفرت بقوة من اختياره حجرتها للاقامة بها، مع أن له معارف كثيرين فى المدينة منذ كان يعمل بها قبل الحرب. ومع أنه برر لها ذلك بأن «بديعة» فى حاجة إلى رعاية خالتها، إلا أنه لم يساهم بمليم واحد من نفقات ابنته. وبعد أسبوع من وصوله، استدعاها قسم الشرطة لتستلم ابنه الثانى «محمود» الذى كانت امه قد اصطحبته معها إلى السجن، فلما بلغ سن الفطام، أصرت ادارة السجن على تسليمه إلى أهلها طبقا للائحة السجون. فلم يدفع ذلك «حسب الله» لكى يعرض عليها أية مساهة فى الانفاق على الطفلين، حتى بعد أن وجد عملاً لدى متعهد كان يورد التبن للجيش البريطانى، وأصبح يتقاضى أربعة قروش فى اليوم، إذ كان ينفق الأجر على نفسه، ويعود كل مساء لكى ينام فى الحجرة الضيقة نفسها التى كانت «سكينة» تقيم فيها مع الأولاد.

ولأنها كانت مضطرة للخروج إلى العمل حتى تستطيع الانفاق على نفسها، وعلى أولاد أختها، فقد تركت الحجرة التى كانت تستأجرها بـ«الازاريتو» وانتقلت إلى حى أكثر شعبية، هو حى «اللبّان» وإلى حجرة أكثر تواضعاً بـ«الحارة الواسعة». وفضلاً عن أن ايجار الغرفة الجديدة، كان أقل من سابقتها فقد كان من بين جيرانها فى المنزل نفسه الذى كان يعرف بـ«بيت أم أحمد الكركو بيه» - صديقة لها هى «مريم الشامية» التى كان تدير مقهى فى مواجهة

المنزل. فتطوعت لترعى أطفال «حسب الله» أثناء غياب خالتهم التى كان الحظ الحسن قد ساق إليها عملا فى القطن كانت تتقاضى عنه أجراً يصل إلى تسعة قروش فى اليوم، كانت تنفقها على أولاد أختها.

وبعد أسابيع قليلة، وصلت «ريا» إلى الإسكندرية، بعد أن أمضت بسجن طنطا، مدة العقوبة المحكوم عليها بها. وظنت «سكينة» أن الأوان قد حان لكى تتخفف من رعاية أولاد اختها. لكنها فوجئت بانضمام «ريا» إلى المقيمين معها فى غرفتها، وباصرار «حسب الله» على أن يقيم معها فى معيشة مشتركة، ليتخفف من مسئوليته عن الانفاق على أسرته، فلم تجد حرجاً فى لفت نظره إلى أن الحجرة اضيق من أن تتسع لاقامتهم جميعاً، وطلبت إليه فى حسم أن يبحث له ولاسرته عن مسكن مستقل.. فانتقل للاقامة فى حجرة تقع بمنزل بنفس الحارة، على مبعدة خطوات قليلة من «بيت الكركوبية» الذى كانت تقيم به.

وعلى عكس ماكانت تتصور فإن هذا الانتقال لم يخفف من أعباء «سكينة» ولم ينه مسئوليتها عن رعاية أختها وابناء أختها. فمع أن «حسب الله» كان يعمل آنذاك بأجر يصل أحياناً إلى ستة قروش فى اليوم، إلا أنه كان ينفقها كلها على نفسه، ويترك زوجته وابنيه من دون طعام، فكانوا يلجأون إلى حجرة «سكينة» ليشاركوها طعامها.

وكانت تلك بداية التوتر فى العلاقة بين «سكينة» و«حسب الله» الذى استمر بعد ذلك وتصاعد. إذ أخذت عليه أنانيته وعدم قيامه بدوره باعتباره «رجل العائلة» المسئول عن زوجته وأبنائه، بل والمسئول عنها كذلك، باعتبارها شقيقة زوجته، التى تعيش فى حماه بعد سفر زوجها. كما أخذت عليه استغلاله للجوانب الطيبة فى نفوس الآخرين، بما فى ذلك تعلق «ريا» الشديد به، الذى كان يدفعها لالتماس الاعذار له، وللصبر على كسله، وتكبره على كل عمل لايحقق له ماكان يحلم به من أجر مرتفع، ومكانة محترمة، بينما لايجد حرجاً، ولايشعر بالخجل من أن يعيش على عرق امرأة مثلها.

ولاشك فى أن «سكينة» كانت تضيق أحياناً بأختها، لعجزها عن التصرف، وعدم قدرتها على القيام بأى عمل، وخضوعها لزوجها، وعجزها عن الزامه بالقيام بمسئولياته تجاهها وتجاه ابنائه، إلا أن ذلك لم يقلل من حبها لها، وتعاطفها معها، إذ كانت تدرك أن «ريا» ـ على العكس منها ـ لم تتعود على العمل خارج المنزل، وخاصة فى مدينة كبيرة كالاسكندرية ماتزال خبرتها بشوارعها وبأهلها محدودة، بل وتكاد تكون منعدمة.. وفضلاً عن أن «حسب الله» كان يصغرها بخمسة عشر عاماً، وكان قد تزوجها أداء لواجب تجاه شقيقة الذى مات، مما كان يشعرها دائما بالنقص تجاهه، والخوف من أن يتركها ليتزوج فتاة أصغر منه سناً وأوفر منها شباباً، فقد كان أب أولادها،

وكانت تصدق مايقوله من أن الأعمال القليلة الى تتوفر له، لاتعود عليه بأجر يوازى مايبذله فيها من مجهود.

وهكذا ـ وعلى الرغم من ضيقها بما كان يفعله «حسب الله» ـ واصلت «سكينة» الانفاق على أسرته باريحية وكرم كانتا من صفاتها الواضحة والطيبة.. وساعد وصول زوجها «أحمد رجب» فى أجازة من عمله بالسلطة، على صد غوائل الجوع من أسرة «حسب الله». إذ كان قد عاد ومعه ستة جنيهات وفرها من أجره، انفق معظمها على «ريا» وابنائها. وحين سافر مرة أخرى للعمل بالسلطة ـ بعد انتهاء أجازته التى لم تستمر سوى أسبوعين ـ ترك لزوجته جنيهين ونصف اعانتها على الانفاق على نفسها وعلى القيام بواجباتها العائلية. ومع أن موسم القطن كان قد انتهى ففقدت العمل الذى كانت ترتزق منه، إلا أنها لم تعدم وسيلة أخرى للرزق، فاشترت موقداً، وأقامت من مدخل «الحارة الواسعة» مطعماً على الرصيف، وأخذت تقلى أقراص الطعمية وشرائح الباذنجان لتبيعها للمارة وأصحاب الحوانيت.

ولأن القروش القليلة التى كانت تربحها من ذلك المطعم، كانت تكفى بالكاد نفقات الطعام وإيجار الحجرتين اللتين تسكنان فيهما، فإن الأسرة لم تجد لديها مدخرات، تكفى لتكفين ودفن «محمود» ـ ابن «ريا» الصغير ـ حين مات، فتطوعت صديقتها «مريم الشامية» بدفع تلك النفقات.. وحزنت «ريا» حزناً شديداً على وفاة الذكر الثانى الذى رزقت به من «حسب الله» إذ كانت توقن بأن انجابها طفلاً ذكراً منه، هو الوسيلة الوحيدة لمنعه من التفكير فى تطليقها أو فى الزواج من غيرها.. لذلك لم تحزن كثيراً، حين وضعت ـ بعد شهور من وفاة «محمود» ـ جنينا ميتا، بعد أن تبين لها أنها بنت وليس ولداً.

ولم تكد «سكينة» تتنفس الصعداء، لانها تخلصت من مسئولية أحد الأفواه التى يقع على عاتقها عبء اطعامها، حتى فوجئت ـ فى بداية عام ١٩١٧ ـ بوصول أمها وشقيقها «أبوالعلا» إلى «الإسكندرية». وكانت الأم قد قضت شهور الحبس الستة المحكوم عليها بها، ولم تستطع أن تعود إلى «كفرالزيات» التى كانت قد تحولت إلى منطقة محرمة على «آل همام» بفضل «حسب الله»، فلم تجد مكان تلجأ إليه إلا حجرة ابنتها «سكينة» فى منزل «أم أحمد الكركو بيه».

وأضاف وصول الأم والشقيق إلى «الإسكندرية» مزيداً من الأعباء على كاهل «سكينة» التى بات محتماً عليها أن تستضيفهما فى غرفتها الضيقة، وان تتحمل مسئولية اطعامهما، إلى أن يجد شقيقها «أبوالعلا» عملاً يعول به نفسه وأمه.. وهو أمل كان عسير التحقيق آنذاك، إذا كانت المدينة تزخر بآلاف من أمثاله، لايجدون عملاً.

وشاء سوء الحظ أن تمرض «ريا» فى أعقاب وضعها للجنين الذى نزل ميتاً، فأصبح عليها ـ كذلك ـ أن تتحمل نفقات علاج شقيقتها، خاصة وان «حسب الله» لم

يكن يعمل بانتظام. فإذا عمل يوماً، تعطل يومين، وإذا أخذ أجراً أنفقه على مزاجه. ومالبث عجز «أبوالعلا» عن العثور على عمل هو الآخر، أن قادهما للتفكير فى استئناف نشاطهما فى السرقة، الذى انقطع فى أعقاب الفارة التى قاما بها على مقهى كفرالزيات.. ولكنهما عجزا عن اكتشاف أهداف سهلة، وشل الخوف من العقاب ايديهما عن المغامرة، فلم يجدا امامهما هدفا يسرقانه سوى «سكينة».

وكانت «سكينة» مشغولة آنذاك، بالبحث عن مسكن آخر تجمع فيه شمل الأسرة، وتكون لها فيه غرفة خاصة، بعد أن اقترب موعد عودة زوجها «أحمد رجب» من عمله فى السلطة العسكرية البريطانية.. إذ لم يكن منطقياً أن يعود ليقيم معها ومع أمها وشقيقها فى غرفة واحدة.. وكانت قد عثرت بالفعل على شقة بالدور الأرضى بمنزل يقع بـ«شارع مالطة» بحى «كرموز»، تتكون من غرفتين وصالة عزمت على استئجارها لتستقل كل من الشقيقتين بغرفة مع زوجها، وتقيم الام - مع شقيقهما «أبوالعلا» - فى الصالة.. وقبل أيام من الموعد المحدد لانتقال الأسرة إليها، كانت قد اتمت استعداداتها لاستقبال زوجها الذى باتت عودته وشيكة، فغسلت ملابسه، ووضعتهم فى الصندوق الخشبى الذى يقوم مقام صيوان الملابس، مع ملابسها وكان من بينها معطف قديم، أهدته لها «مريم الشامية» - التى كانت تعطف عليها - فصبغته ورتقت ماأكلته القوارض من نسيجه.. لكنها عادت ذات يوم من الخارج، فوجدت نافذة الغرفة التى تطل على داخل المنزل مكسورة، واكتشفت اختفاء كل ماكان بالصندوق من ملابس،



حسب الله سعيد مرعى/ نقلا عن «الدنيا المصورة» (١٩٣٥)

بما فى ذلك الجنيه الذى كانت قد ادخرته من عرقها، لتعد به لزوجها فى يوم وصوله وليمة من اللحم والدجاج.

وماكادت «سكينة» تكتشف السرقة، حتى انطلقت إلى منزل «ريا» الذى يقع فى نفس الحارة، تسألها عما إذا كانت قد شاهدت غريباً يدخل المنزل، لكن «ريا» اعتذرت بمرضها الذى يضطرها لملازمة الفراش، وحين اشتمت من اسئلة شقيقتها انها تستريب فى أن يكون لـ«حسب الله» يد فيما جرى، موهت عليها، وزعمت بأنه خرج منذ الفجر إلى عمله، ولن يعود منه

قبل الغروب.. لكن اللغز مالبث أن انكشف بعد أسابيع من انتقال الاسرة للاقامة فى «بيت الخواص» بـ«شارع مالطة»، فقد تشاجر «حسب الله» و«أبوالعلا» معاً، وفضح كل منهما الآخر، لتكتشف «سكينة» مما تبادلاه من سباب، أنهما اللصان اللذان سرقاها، وأنهما تقاسما الجنيه الذى كان تدخره، ورهنا ملابسها وملابس زوجها لدى أحد محلات الرهونات مقابل ثلاثة ريالات، وانفقا قيمة الرهن، وحين حاولت استرداد الملابس المرهونة، رفض الرهوناتى، لأن الموعد المحدد لسداد القرض، كان قد فات، فأصبحت الملابس ملكاً له، وباعها بالفعل.

وازداد احساس «سكينة» بالمرارة، لأن شقيقها وزوج شقيقتها، لم يتخليا فحسب عن واجبهما فى اعالتها والانفاق عليها، بل ولم يعترفا ـ كذلك ـ بجميلها عليهما، هى التى تشقى من أجل اطعامهما، فغدرا بها وخاناها، وسعيا لحرمانها من التمتع بشىء من ثمار شقائها. لكن هذه المشاعر المريرة مالبثت أن تراجعت، حين تراجع شبح الفقر والجوع، فقد عاد زوجها «أحمد رجب» ومعه هذه المرة، ثلاثة عشر جنيهاً، فاستردت «سكينة» مشاعر العطف تجاه اسرتها البائسة. وعاودها كرمها واريحيتها، ولم تكتف بشراء ملابس لنفسها ولزوجها بديلاً عن التى سرقها اللصان. بل وابتاعت كسوة الشتاء، لكل أفراد الأسرة، فاشترت ملابس جديدة لشقيقتها «ريا» ولابنة شقيقتها «بديعة»، ولشقيقها «أبوالعلا».. ولأمهم.. بل وشمل كرمها حتى «حسب الله» ـ على الرغم من ضيقها الشديد به ـ فاشترت له قفطاناً جديداً ومنديلاً من الحرير لترضى رغبته فى أن يظهر فى صورة «المعلم».

وكان «أحمد رجب» قد ضاق بعمله فى السلطة العسكرية، إذ كان ـ فضلاً عن مشقته ـ يبعده عن زوجته التى يحبها، فقرر أن يستقر فى «الإسكندرية» وأن يبحث لنفسه عن عمل بها، وحين توالت الأسابيع من دون أن تلوح أمامه بارقة أمل فى العثور على عمل. واوشكت المدخرات التى عاد بها على النفاد. اقترحت عليه «سكينة» أن ينتقلا للاقامة فى قريته «نكلا العنب» لأن نفقات المعيشة، قد تكون أقل، كما أن فرص العمل قد تكون أكثر من «الإسكندرية». وكان الدافع الرئيسى وراء اقتراحها ـ الذى تحمس له «أحمد رجب» ـ هو ضيقها بأعباء الانفاق على أفراد أسرتها، الذين استمرأوا إلقاء مسئولية إعاشتهم على عاتقها وعاتق زوجها.

وبالفعل باعت «سكينة» محتويات غرفتها، إلى «ريا» بثلاثة ريالات فيما عدا لحاف ووسادتين، أخذتهم معها إلى «نكلا العنب» حيث أقامت مع زوجها أكثر من ثلاثة شهور، فى غرفة استأجراها بعيداً عن أقارب الزوج. الذى فضل أن يجنب زوجته، ماقد ينشأ عن المعيشة المشتركة مع أقاربه من احتكاكات. وسرعان ماعثر على عمل فى أحد مشروعات وزارة الاشغال، لتطهير الترع والمساقى، ولما كانت مثل تلك المشروعات، بطبيعتها موسمية، تنتهى بانتهاء موسم الجفاف، فإن العمل ماكاد

ينتهى، حتى اضطر الزوجان إلى العودة مرة أخرى إلى «الإسكندرية».



لم تطل اقامة «أحمد رجب» فى «الإسكندرية» سوى فترة قصيرة، عاد بعدها إلى الرحيل مع أحد فيالق العمال الذين يعملون فى خدمة السلطة العسكرية البريطانية، بينما عادت «سكينة» لتقيم مع أسرتها فى «بيت الخواص» فى نفس الغرفة التى كانت تقيم فيها من قبل، فعلى عكس ما كانت تتوقع، فقد ظلت الأسرة تحتفظ بها، وتدفع إيجارها، بل واستأجرت المنزل بطابقية لمدة ستة شهور لتحوله إلى منزل للبغاء السرى باستثناء غرفة واحدة فى الطابق الثانى، كانت تقيم فيها سيدة مريضة هى «نبيهة» بنت «عبدالعال الجزائرلى».

وربما كان رحيل «سكينة» - التى كانت تقوم بالعبء الأكبر فى نفقات الأسرة - أحد الأسباب وراء هذا الانقلاب فى حياة «آل همام».. لكنه لم يكن كل الأسباب، أو حتى أهمها، إذ الغالب، أن كل السبل للحصول على عمل مجز ومنتظم كانت قد سدت فى وجهى رجلى الأسرة «حسب الله» و«أبوالعلا» فاتخذا القرار الصعب، الذى كان البديل الوحيد له أمامها هو أن يموتا جوعا أو أن يسيرا فى طريق العنف الذى لم يكن أيهما مهيأ نفسيا لممارسته.

وجاء عزوفهما عن اختيار البغاء العلنى دليلاً على أن الضغوط الاقتصادية التى يرزحا تحت عبئها، لم تقض نهائياً على كل ماهو صعيدى فيهما، إذ كانت إدارة بيت رسمى للبغاء سبة وهو ماحرصا على أن يتوقياه، خجلاً من الناس، خاصة فى مجتمع الصعايدة بالإسكندرية. وعلى العكس من ذلك، فقد كان البغاء السرى بعيداً عن عيون الشائنين والشامتين. فضلاً عن انه أكثر أمناً، وأجزل ربحاً.. فاللواتى يحترفنه من البغايا، لسن - فى الغالب - من المتفرغات لهذا النوع من النشاط، فهن يمارسنه كعمل اضافى، بجانب أعمالهن الأخرى، كبيع الخضروات أو الخدمة فى البيوت، أو خياطة الملابس، فإذا كن ممن يعملن فى أعمال موسمية، كالمشتغلات فى القطن، مارسنه بعد انتهاء الموسم، وفى أحيان ليست نادرة، كانت البيوت السرية تقدم خدماتها لنساء تنتمين لأسرة مستورة، وتحتفظن بعلاقات خاصة مع رجال غير أزواجهن، وتبحثن عن مكان آمن للالتقاء بهم، من دون أن يعلم ذلك أحد.

وكانت البيوت السرية، تكتفى عادة بتأجير المكان للراغبين فى ملجأ آمن ليمارسوا فيه الخطيئة، من دون أن تلتزم بشىء غير ذلك، إذ كانت مسئولية تدبير هذه «الخطيئة» تقع على عاتق الزبون نفسه.. سواء كان رجلاً أو امرأة. لكن المنافسة الشديدة بين تلك البيوت - التى انتشرت خلال سنوات الحرب فى مختلف أحياء «الإسكندرية» - على إغراء الزبائن بالتردد عليها، دفعت بعض مديريها لمحاولة

التعاقد مع عدد ثابت من البغايا يكن فى خدمة زبائنها خاصة وأن معظم الذين يفضلونها من الرجال، كانوا من النوع الذى لديه أسباب تمنعه من الظهور علناً فى حى البغاء الرسمى فى «كوم بكير» خجلاً أو خوفاً على مكانتهم الاجتماعية، فلم تكن لديهم الجسارة الكافية لتوفير خطيئتهم بأنفسهم.

وهكذا عادت «سكينة» من «نكلا العنب» لتجد «آل همام» قد حولوا «بيت الخواص» إلى بيت للدعارة السرية.. تعمل فيه ثلاث من البغايا شبه المتفرغات، يسكن إلى جوار المنزل، أو يتخذن لهن متاجر على الرصيف القريب منه، يبعن فيها الخضروات أو الجبن، أو يقمن بقلى الباذنجان أو الطعمية. فإذا جاء زبون وحيد، استدعت «ريا» ـ وكانت بمثابة المديرة التنفيذية للبيت ـ واحدة منهن، لتدخل معه إحدى الغرف، وبعد انصرافه، تتقاضى منها النسبة المتعارف عليها، هى ٢٥٪ من الأجر، الذى كان يتراوح ـ فى هذا المستوى الشعبى من بيوت البغاء ـ بين خمسة وعشرة قروش، حسب مستوى الزبون، وطبقاً لمدى رضائه عن البضاعة.

ومع أن «سكينة» كانت أول من مارس البغاء الرسمى من «آل همام» كما أنها كانت صاحبة التجربة الأولى فى إدارة بيوت البغاء السرى من بين أفراد الأسرة إلا أن «ريا» ـ التى قالت فيما بعد انها وصلت إلى الاسكندرية وهى قطة عمياء لاتجسر على أن تفتح عينيها فى وجه رجل ـ سرعان ما تفوقت عليها، وأثبتت انها موهوبة فى إدارة هذا النوع من الاعمال. وعلى العكس من «سكينة» ـ الهوائية متقلبة المزاج التى كانت تعيش ليومها ولايعنيها، إلا أن تجد طعاماً جيداً، وبضعة كئوس من الخمر، التى مالبثت أن أدمنتها ـ فقد ركزت «ريا» كل اهتمامها على توسيع نشاط البيت، الذى أدركت أنه مصدر الدخل الوحيد الذى يمكن أن يحول بين أسرتها وبين الموت جوعاً، فى مدينة قاسية لاترحم ولا قيمة لإنسان فيها إلا بمقدار مافى جيبه من نقود.

وخلال شهور قليلة من دخولها إلى هذا المجال الجديد عليها من النشاط، كشفت «ريا» عن قدرة فطرية مذهلة، على التسلل إلى قلوب ذلك النوع التعيس من النساء اللواتى يسرحن فى الشوارع، أو يتجولن فى ساحات الأسواق، ليبعن سلعاً تافهة: أرامل فى مقتبل العمر أو منتصفه، مات الزوج وترك فى أعناقهن كوماً من اللحم يحترن فى أطعامه.. أو مطلقات غدر بهن رجالهن فسرحوهن من دون إحسان، ومن دون أن يتركوا لهن إلا نفقة قليلة لاتصد عنهن غائلة الجوع، أو زوجات عجز أزواجهن عن العمل، بعد أن سقطوا فريسة لوباء من تلك الأوبئة الغامضة، الى كانت تنتشر فى مصر آنذاك، ولاتنقشع إلا بعد أن تقتل من أبنائها عدة آلاف، بينما يعيش الناجون من آثارها كالأموات.. فخرجن إلى الشوارع، ليعُلن الزوج المريض، والأبناء الصغار، فى مدينة لايجد فيها أحد عملاً.

ولم يكن العثور على هذا النوع من النساء عسيراً على «ريا» فقد تخلصت

بسرعة من مشاعر الغربة والرهبة تجاه «الإسكندرية»، ولم تعد تنظر إليها باعتبارها مدينة كبيرة، يتوه فيها أمثالها من الريفيين القادمين من القرى أو المدن الصغيرة، ويعجزون عن التعامل مع أهلها المتحضرين، ذوى الألسنة الغريبة التى تضيف «واو الجمع» إلى أواخر كل الأفعال فى أحاديثهم.

ومع أن «حى كرموز» الذى انتقلت للإقامة به، كان أوسع أحياء الإسكندرية، وأكثرها ازدحاماً بالسكان، إلا أن حواريه لم تكن تختلف عن حوارى قريتها، فهى ضيقة مترية، تتلاصق منازلها التى بنى أكثرها بالطوب الأخضر، أو الخشب، ولايزيد ارتفاعها عن دورين. وتنتشر فى انحائه أكوام القاذورات ونفايات المنازل. وتنعقد فى أجوائه سحابات ثقيلة من الدخان المتصاعد من الأفران أو مواقد النفط، والروائح المتصاعدة من فضلات الإنسان والحيوان. فلم تشعر بالغربة وهى تتجول فى انحائها، أو تدلف منها إلى ساحات الأسواق الكثيرة التى تقود إليها لتلتقط بفراستها الفطرية ضحاياها، من بين النساء الفقيرات الباحثات عن اللقمة، فتبادلهن الحديث من دون معرفة سابقة، وتشجعهن يوماً بعد آخر، على أن يشكين لها همومهن، وتحصل منهن ـ بشكل غير مباشر ـ على مايهمها من معلومات تفيدها فى تقرير مدى استعدادهن للعمل معها، كأى باحث اجتماعى مدرب، أو ضابط شرطة موهوب. فإذا اطمأنت إلى توفر الشروط فيهن، أغرتهن باحتراف البغاء السرى، وقادتهن إلى «بيت الخواص» أو غيره من البيوت الكثيرة التى أدارتها فيما بعد، وأضافتهن إلى كوكبة النساء شبه المتفرغات اللواتى يقدمن خدماتهن للمترددين على تلك البيت.

وقد صقلت «ريا» مواهبها تلك بما اكتسبته ـ بعد ذلك من خبرات، جعلتها ـ بمصطلحات المهنة ـ «سحّابة» من الطراز الأول، تملك القدرة عن اختيار الفرصة الأكثر ملاءمة، لإلقاء الشبكة على ضحيتها من دون اندفاع يفزعها ويدفعها إلى الهرب، ومن دون قطع لما بينهما من صلات انسانية، كانت تحرص على تعهدها، لتظل على علم بتطورات الحالة.

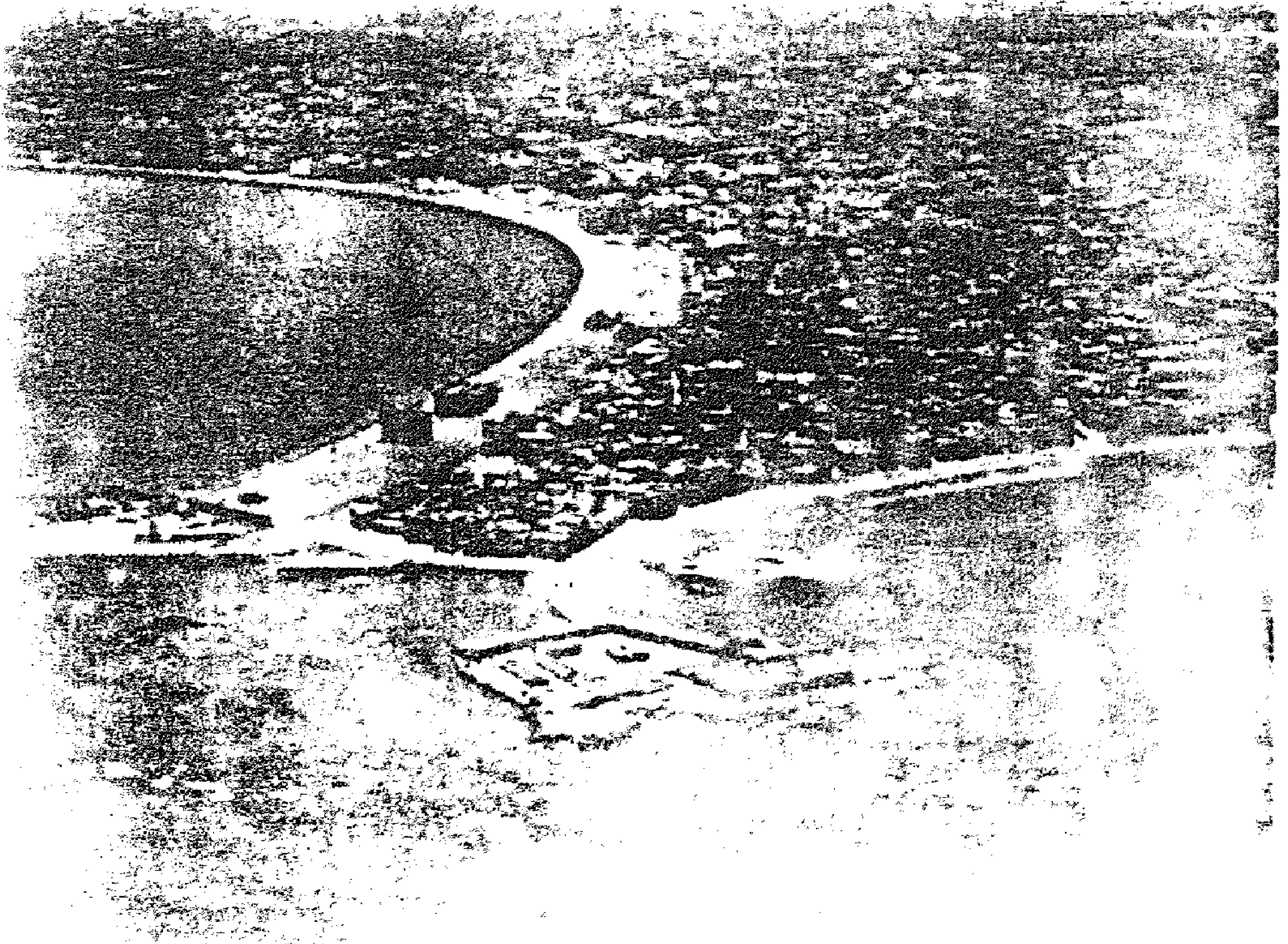
وكان من بين اللاتى تعرفت عليهن فى «بيت الخواص» شابة فى أواخر العشرينات من عمرها، هى «عديلة الكحكية» التى كانت تتردد على البيت لزيارة شقيقتها «نبيهة الجزائرلى»، الساكنة الوحيدة التى كانت تشارك «آل همام» الإقامة فيه. ومع أن «ريا» تمنت منذ اللحظة الأولى لتعرفها على «عديلة» أن تضمها إلى فريق النساء اللواتى يقدمهن البيت لرواده، إذ كانت اكثر جمالاً منهن جميعاً، فضلاً عن أنها كانت ـ بحكم بياض لونها ـ بضاعة نادرة، من النوع الذى يرتفع بمستوى رواد البيت، إلا أنها ادركت بفراستها أن الوقت الملائم لذلك لم يحن بعد، إذ كانت «عديلة» متزوجة، فضلا عن أن شقيقتها «نبيهه» كانت على فراش الموت. لكنها لم تغفل عن أن الاسرة من النوع الذى توحى ظروفه بامكانية نجاح المحاولة إذا قامت بها فى وقت أكثر

ملاءمة، إذ كانت «نبيهه» من بين البغايا المرخص لهن بممارسة النشاط فى «كوم بكير»، إلى أن أثبت الفحص الطبى اصابتها بمرض من أمراض المهنة. فأدخلت إلى مستشفى مخصص لعلاج أمثالها، وخرجت منه لتمضى أيامها الأخيرة فى الغرفة التى استأجرتها فى «بيت الخواص» بينما تزوجت الأخت الصغرى من «طبال» دفع بها للعمل كراقصة فى الأفراح والموالد.

أما وقد توهجت مواهب «ريا» الفطرية، باعتبارها «سحابة» من طراز فريد، فقد صمد «بيت الخواص» بفضلها، فى المنافسة مع غيره من البيوت السرية الأخرى، وتخلى لها الجميع عن إدارة البيت بطيب خاطر، بينما تفرغت الأم للقيام بالأعمال المنزلية التقليدية، وتفرغ الرجلان - «أبوالعلا» و«حسب الله» - لانفاق الايراد على مزاجهما، حريصين على أن يتظاهرا - أمام جيرانهما - بأنهما لايعلمان شيئاً عما يجرى فى منزلهما..

وعادت «سكينة» من «نكلا العنب» لتفاجأ بهذا الانقلاب الذى قضى على سلطتها التقليدية فى الاسرة، إذ لم تعد أكثر الجميع خبرة بالاسكندرية، ولم يعد لسبقها فى الاستثمار فى مجال الدعارة

صورة عامة لمدينة الإسكندرية كما كانت تبدو فى العشرينيات التقطت من الجو



أهمية.. ومع أنها انضمت إلى شقيقتها فى إدارة البيت، إلا أن هذا الانضمام لم يضف الكثير إلى موارده، وإن كان قد أضاف الكثير إلى نفقاته ـ ومالبث «حسب الله» أن جأر بالشكوى بسبب ماكان يصفه بأنه اسرافها فى الإنفاق على متطلبات الاسرة، وتعلله هى بطمعه فى الاستيلاء على الجانب الأعظم من دخل البيت لانفاقه على نفسه، فلم يكن يمر يوم من دون أن تشب بينهما ملاسنة أو مشاحنة تأخذ خلالها «ريا» موقفاً حيادياً مريباً، كانت «سكينة» تعتبره انحيازاً ضدها.

والحقيقة أن ايراد البيت لم يكن بالوفرة التى تشبع احتياجات خمسة من «آل همام» أو تحول دون اختلافهم حول القاعدة التى يقسمون على أساسها ايراده، إذ كان معظم المترددين عليه من الفقراء الذين يزحمون حى «كرموز» ممن لايطلبون خدماته إلا إذا توفرت لهم بعض القروش الزائدة عن حاجتهم، تدفعهم للبحث عن لذة رخيصة. وفى أحيان ليست كثيرة كان يتردد عليه. بعض العائدين فى اجازات ممن يعملون مع السلطة العسكرية البريطانية. وكان هؤلاء أفضل زبائن البيت، إذ لم تكن عدد مرات ترددهم أكثرفحسب. بل وكان مايدفعونه ـ فى كل مرة ـ أكثر مما يدفعه غيرهم.

لم يحل ذلك كله دون ضيق «حسب الله» بمشاركة الآخرين له فى ايراد البيت، بعد أن أدرك أن هذا الايراد ثمرة مجهود «ريا» دون غيرها. واقتنع بأنه صاحب الحق الوحيد فى التصرف فيه باعتباره زوجها. ولم تكن الأم أو «أبوالعلا» يمثلان له مشكلة، إذ كانا يرضيان بما يتفضل به عليهما من دون مناقشة، بل وكانا يتعففان عن مد يدهما إليه إذا ماعثر «أبوالعلا» على عمل يدر عليه دخلاً يكفيه هو وأمه. وعلى العكس منهما فقد رفعت «سكينة» راية العصيان، ورفضت الاعتراف بحقه فى الاستيلاء على ايراد ابيت، وتوزيعه طبقاً لمزاجه، إذ كانت تعتبر نفسها صاحبة افضال قديمة عليه وعلى زوجته وأسرته.. وترى أنها عاملته بكرم، يجب أن يرده لها.. وفضلاً عن أنها كانت «السحابة» الثانية فى البيت، مما يعطيها حق النصف فى إيراده، فقد كانت تعلم أن «حسب الله» ينفق معظم الايراد على نفسه، ولايترك لزوجته ولابنته إلا مايكفى ضروراتهما، ومع أن «ريا» كانت فى أعماقها سعيدة لتصدى «سكينة» لطغيان «حسب الله» إلا أنها كانت أعجز من أن تشاركها فى المواجهة.

وكان لابد وأن تنتهى المشاحنات التى استمرت شهرين، بين «سكينة» و«حسب الله» إلى النهاية المتوقعة منذ البداية. ففى أعقاب مشادة عنيفة بينهما، توجه «حسب الله» إلى «مريم الشامية» ـ صديقة الأسرة ـ فى مقهاها بـ«الحارة الواسعة»، ليطلب إليها أن تبلغ «سكينة» بأن استمرار الحال على ماهو عليه فى «بيت الخواص» قد أصبح من المحال، وأنه يخيرها بين أمرين لاثالث لهما: إما أن تنفرد هى بإدارة البيت لحسابها، فيرحل هو وزوجته إلى بيت آخر. أو أن يحدث العكس فترحل هى وتترك لهما المنزل.

واختارت «سكينة» الرحيل. فاستأجرت لنفسها غرفة بشارع «عبدالمنعم» القريب.. نقلت إليها محتويات غرفتها فى «بيت الخواص» واضطرت أن تبيع بعض ملابسها لكى تشترى موقداً للطهى، وبعض الأدوات المنزلية الأخرى التى لم تكن فى حاجة إليها، حين كانت تعيش فى معيشة مشتركة مع أسرتها.



بعد خروجها من «بيت الخواص» اتخذت «سكينة» من مقهى «مريم الشامية» محلاً مختاراً لها. حيث كانت تقوم ببعض الأعمال غير الثابتة، كغسيل الملابس، أو بيع الأطعمة. وفى أحيان ليست كثيرة، كانت تصطحب أحد الرجال إلى غرفتها، أو تؤجرها لعدة ساعات لمن يرغب فى ذلك من طلاب المتعة الذين يصطحبون خطاياهم فى أذرعتهم. وعلى الرغم من انفضاض الشركة بينها وبين شقيقتها، فإن الصلة بينهما لم تنفض، فظلت تتردد عليها فى «بيت الخواص» تمضى معها بعض الوقت، حريصة على ألا ترى «حسب الله» حتى لا تصطدم به.

وسرعان ماأدركت مدى الخطأ الذى وقعت فيه، حين اختارت الرحيل. فقد ماتت «نبيهة» بعد مغادرتها للبيت بأيام، وخلت الغرفة التى كانت تقيم بها. فأجرتها «ريا» من الباطن لصديقة لها، ولما كانت «روما» - المستأجرة الجديدة. وهى امرأة فى الاربعينات من عمرها - «سحابة» من مستوى رفيع، فقد أسفر تعاونها مع «ريا» عن ازدهار شديد فى «بيت الخواص». وتنبهت «سكينة» - بعد فوات الأوان - إلى أنها لم تحصل - عند القسمة - على تعويض عن نصيبها فى الاسم التجارى الذى تحقق له، وأصبح يجلب إليه الزبائن دون مشقة.. ووجدت صعوبة شديدة فى تحويل غرفتها إلى مؤسسة منافسة، فضلاً عن الاسم التجارى، فقد كان «بيت الخواص» يملك موجودات بشرية تتمثل فى ثلاث بغايا شبه متفرغات وسحابتين مقتدرتين. كما كان بيتا مستقلاً ومخصصا بطابقيه وغرفه الخمس للنشاط فى هذا المجال، مما كان يرفع الحرج عن المترددين عليه، بعكس غرفة «سكينة» التى كانت تجاور حجرات أخرى، تسكنها أسر محافظة، من النوع الذى يكثر من التطفل على جيرانه، خاصة إذا كان هؤلاء الجيران امرأة وحيدة.. ماتزال مطمعاً للرجال.

وكانت منازل «الإسكندرية» تنقسم فى ذلك الحين - من الناحية الديموجرافية الأخلاقية - إلى قسمين، الأول هو «منازل البغايا» المصرح لهن رسمياً بممارسة المهنة فى أماكن متناثرة من المدينة، سواء كن من بنات البلد، أو من الاجنبيات اللواتى ازدادت هجرتهن إلى مصر بسبب ظروف الحرب، والثانى هو «منازل الاحرار» وهى الصفة التى

كانت تطلق على بقية أحياء المدينة. غير المصرح فيها بممارسة البغاء. وهى تسمية تلفت النظر، لانها تنطوى على رؤية تنظر لمن يمارسن البغاء باعتبارهن من غير الأحرار، فهن «عبيد» أو «إماء»، وتتسق مع التسمية الموحدة.. والساخرة ـ التى اطلقها المصريون على أحياء البغاء الرسمى فى المدن المصرية جميعها، بصرف النظر عن اسمائها الأصلية، وهى تسمية كانت تتراوح بين «الخبيزة» و«الواسعة» دلالة على اختلاط الأمور وتداخلها، واختلاط القيم وانعدام الحياء.

وقد ظل الالتزام بهذا التقسيم قائماً، مع بعض التجاوزات القليلة، حتى نشوب الحرب التى مالبثت أن دفعت بآلاف من النساء اللواتى عضهن الجوع بأنيابه، إلى أسواق البغاء، وفضلت الكثيرات منهن، البغاء السرى، حفاظاً على ماكان قد تبقى لهن من حياء وأملاً فى أن تتحسن الأحوال فيعتزلن العمل، ويجدن أزواجاً يعشن فى كنفهن وينجبن منهم أبناء، لايعايرهم أحد فى المستقبل، بأن أمهاتهم كن بغايا. ويدلل على ذلك، باشهار «رخصة رسمية». تحمل اسمها الرباعى. وقد دون فيها امام خانة المهنة أنها «مومس»، ودون أمام خانة أخرى، اسم «العايقة» ـ أى القوادة ـ التى كانت تعمل معها.

وفى البداية صمت «الاحرار» على زحف «البغايا» على مساكنهم واستئجارهن لغرف تجاور الغرف التى يقيمون فيها، أو لمنازل تواجه منازلهم سواء من باب التسامح الخلقى، الذى كان شائعاً فى «الإسكندرية»، باعتبارها مجتمعاً تختلط فيه العادات والتقاليد، بحكم تنوع الجنسيات التى تقيم فيها، أو من باب العطف على نساء تعيسات اضطرتهن ظروفهن الصعبة إلى السير فى هذا الطريق الشائك، أو لأن الذين يديرون تلك البيوت كانوا يحرصون على شىء من التكتم، ويمارسون نشاطهم فى الخفاء بما لايجرح مشاعر جيرانهم، أو يخدش حياء نسائهم.. واكتفى المتزمتون من «الاحرار» بالانتقال من مساكنهم، كلما اكتشفوا بين جيرانهم من تمارس البغاء، فراراً من الوباء، أو عزوفاً عن الدخول فى مشاكل مع نساء مكشوفات الوجه عديمات الحياء، لايتورعن عن فعل شىء.. أو قول شىء.

وكان تأخر المواجهة سبباً فى تزايد أعداد البغايا اللواتى زحفن كالنمل الأبيض على بيوت الأحرار.. فغضلاً عن مئات النساء اللواتى كان الجوع والإغواء يدفعان بهن إلى سوق البغاء السرى كل يوم، ويتخذن من منازل الأحرار مكانا لنشاطهن، فقد انضمت إليهن ـ كذلك ـ البغايا المرخص لهن بممارسة البغاء رسمياً، بعد أن لاحظن انصراف قسم من زبائنهن إلى «السوق الحرة» طلباً للستر، أو حرصاً على

اللواتى نجحت فى تجنيدهن للعمل فى مجال البغاء السرى. فتجمع - بذلك بين دور «العاملة» التى تعمل ليلا لحساب واحدة من «معلمات» حى البغاء ودور «المعلمة» التى تعمل لحسابها الخاص نهاراً.

وحين تنبه الجميع لخطورة الظاهرة، وبدأت أقسام الشرطة بالإسكندرية تتلقى عشرات البلاغات كل يوم عن انتشار البغاء السرى بين بيوت الاحرار، كانت المشكلة قد تعقدت



ريّا بنت على همام، نقلا عن مجلة «الدنيا المصورة» (١٩٣٥)

الخصوصية أو رغبة فى تنويع اللذة، فقررن النزول إلى تلك السوق لمنافسة الدخيلات من ممارسات البغاء السرى. واستأجرت كل منهن لنفسها حجرة خاصة فى بيت من بيوت الأحرار، لتقيم فيها نهاراً، وتزعم - أمام السلطات الرسمية - أنها «بيت حر» لها لاتمارس فيه المهنة طبقاً لشروط الترخيص التى تحظر عليها ذلك. فى حين أنها استأجرته خصيصاً لكى تستقبل فيه زبائنها الذين يستحقون معاملة خاصة، ممن يعزفون عن التردد على حى البغاء الرسمى، لتقدم لهم نفسها، أو واحدة من النساء

بصورة لم يعد فى استطاعة الشرطة أن تتصدى لها. ففضلاً عن أنها كانت تعانى من نقص كبير فى أعداد العاملين بها، ومن انفلات شديد فى حبل الأمن العام، وانتشار كبير لجرائم اكثر خطورة وإلحاحاً، مثل القتل والسرقة بالإكراه، والمعارك اليومية بين الفتوات، وانتشار الأوبئة، وجرائم اخفاء السلع ورفع اسعارها وغيرها من جرائم الحرب التى كانت أكثر التصاقاً بالأمن العام، فقد كان عدد البلاغات كبيراً. وكان الكثير منها كيدياً أو يصعب ضبطه فى حالة تلبس. فما لبث نشاطها فى مطاردة الذين يديرون تلك البيوت، أو يعملون فيها، أن تقلص

تدريجياً، ليقتصر على شن حملات مفاجئة على البغايا اللواتي يحرضن على الفسوق فى الطرقات العامة، أو مهاجمة المقاهى اللائى تعودن الجلوس عليها للقبض عليهن واحالتهن للكشف الطبى، فإذا تبين أصابتهن بأحد الأمراض التى تدل على ممارسة البغاء أودعن بـ«استبالية ـ أو مستشفى ـ المومسات» لمعالجتهن.

وشاء سوء حظ «سكينة» أن تقع فى واحدة من تلك الحملات، بعد أسابيع قليلة من خروجها من شركة «بيت الخواص»، إذ كانت تجلس فى إحدى المقاهى، القريبة من منزلها ومن مبنى قسم شرطة كرموز، لتحتسى كوباً من النبيذ، آملة أن تجد زبوناً تصحبه إلى غرفتها، حين فوجئت بحملة تفتيش يقودها الصاغ ـ الرائد ـ «بشارة افندى نصحى» مأمور القسم بنفسه، قامت بالقبض على كل من كان يجلس بالمقهى من النساء، فى أعقاب بلاغ بأنه من الأماكن التى تعودت محترفات البغاء السرى التردد عليها.. ولم ينقذها من الإحالة إلى الكشف الطبى الذى كانت ترتعب منه، سوى «مريم الشامية» التى استشهدت بها، فشهدت لصالحها، وأكدت أنها تقوم بعمل شريف هو غسل الملابس فى البيوت.. فأطلق «بشارة أفندى» سراحها، وهددها بأنه لوضبطها مرة أخرى تجلس على تلك المقاهى المشبوهة فلن ينقذها منه أحد.

وزلزل ماحدث أعصاب «سكينة» التى ظلت تسكر طوال اليوم التالى. وتمز بمرارتها، وهى تستعيد تاريخ علاقتها بشقيقتها وزوجها، وتقارن بين كرمها معهما وتضحيتها من أجلهما، وبين بخلهما عليها ونذالتهما معها، وسوء خلقهما فى معاملتها. وتتذكر كيف استقبلت «حسب الله» حين جاء من «كفرالزيات» هارباً من وجه الشرطة التى كانت تطارده، فآوته وأطعمته، وباعت جسدها، لكى تنفق على أولاده، وبددت عليه هو وعائلته، معظم النقود التى ادخرها زوجها من تغريبته فى بلاد الخواجات يحفر الخندق، ويتعرض لمخاطر الموت، ويتحمل عذاب فراقه لها. بل وكانت صاحبة الفضل فى لفت نظر «حسب الله» إلى العمل فى مجال البغاء السرى، فما كادت النقود تجرى فى يده، حتى بخل بها عليها، ولم يفكر فى ان يرد لها ماتدينه به وهو كثير. بل وأبى أن تشاركه فى دخل المشروع الذى وضعت حجر أساسه، وأكرهها على الانسحاب منه، واضطرها إلى ممارسة المهنة فى حجرة ضيقة تحيط بها نظرات الريبة من الأحرار الذين يجاورنها فى السكن، وأوقعها أخيراً بين براثن الشرطة، التى كادت تحولها إلى الاستبالية، لولا شهامة «مريم الشامية».

ومع أن «سكينة» كانت تفرط فى الشراب، إلا أنها لم تكن تفقد وعيها،

أو سيطرتها على نفسها، إلا إذا قررت ـ لغرض فى نفسها ـ أن تتظاهر بالسكر. وهو ماقررته فى تلك اللحظة التى استأذنت فيها من «مريم الشامية»، لكى تتوجه إلى «بيت الخواص» فتبدى لشقيقتها، ولزوجها رأيها الحقيقى فى سلوكهما معها. وحاولت «مريم الشامية» أن تثنيها عن الفكرة، مؤكدة لها أن الكلام معهما لافائدة منه، وأن تلك هى طباعهما، من المفيد لها أن تعرفهما على حقيقتهما بدلاً من أن تتعلق بأوهام، تدفعها للتضحية فى سبيلهما، ثم الندم على ذلك، حين يتنكران لجميلها، ويجازيان إحسانها بالاساءة لكن «سكينة» كانت فى حالة من الغضب الشديد، جعلتها تصم أذنيها عن نصائح صديقتها، وتندفع فى طريقها لاتلوى على شىء.

وماكادت «سكينة» تصل إلى «بيت الخواص» حتى وجدت ثلاثة من الزبائن، يجلسون فى صالة المنزل، ويتناولون الطعام بصحبة النساء الثلاث العاملات فيه. واستقبلتها «ريا» بترحيب مصطنع، وعرض عليها أحد الزبائن كوباً من النبيذ، بينما لم يستطع «حسب الله» أن يوارى امتعاضه. وفى تلك اللحظة تذكرت «سكينة» نصيحة «مريم الشامية» وأدركت أن ماكانت تنوى أن تقوله لهما على قسوته، ليس العقوبة الحقيقية التى يستحقانها فاعتذرت لشقيقتها بأنها كانت تظنها وحدها، ووعدت بأن تمر عليها فى اليوم التالى، وانطلقت بسرعة إلى مبنى «قسم شرطة كرموز».

وأمام باب القسم، ارتدت «سكينة» قناع المرأة المخمورة، وأخذت تنادى بصوت جمهورى، على «بشارة أفندى».. الرجل الجدع الذى انقذها ممن أرادوا اتهامها زوراً بأنها «تمشى فى السر» فافرج عنها لتطالبه بأن يكبس الآن فوراً على «بيت الخواص» وسوف يعرف من هم «الذين يمشون فى السر» ويزرعون «الخبيزة» بين بيوت الاحرار.

واستدعاها «بشارة أفندى» إليه، وأخذ يحاورها ومع أنها كانت حريصة على أن تبدو أمامه وكأنها مخمورة لاتعى ماتقول، إلا أنها كانت واعية تماماً بما أرادت أن تبلغه له.

وبعد دقائق، كانت حمله من ضباط قسم شرطة «كرموز» تهاجم «بيت الخواص» لتضبط النساء الثلاث مختفيات فى الدور الأرضى، والرجال الثلاثة فوق سطحه، وتقبض عليهم، وعلى «ريا».

وكان «حسب الله» قد طار من القفص قبل وصول الحملة بدقائق.

وبعد ساعة واحدة من مهاجمة الشرطة لمنزل الخواص، كان «حسب الله» يقف أمام «بشارة أفندى نصحى» ـ مأمور قسم شرطة كرموز ـ الذى

واجهه بالواقعة، فأنكر أن المنزل الذى يسكن به يدار للدعارة السرية، واستبعد أن يكون أحد من أهل المنزل، قد أدار البيت لهذا الغرض من وراء ظهره واستنكر مجرد الاشتباه فيه، واعتبره ماساً بشرفه كرجل صعيدى، وبكرامته كأحد المعلمين الذين يعملون فى البحر كما ادعى. وعندما سأله المأمور تبريراً لوجود النساء والرجال فى منزله، ولمحاولة زوجته اخفائهم عن عيون الشرطة، انطلق «حسب الله» يؤلف أقاصيص - أملاها عليه خيال ركيك - يدفع بها التهمة عن أسرته، فلما اكتشف صعوبة ذلك، ركز على الدفاع عن نفسه، وحاول بكل نذالة أن يتنصل من مسئوليته عما كان يجرى فى المنزل، حتى كاد يعلق فأس الاتهام فى رقبة زوجته «ريا».

وكان من حسن حظ «آل همام» أن «بشارة أفندى» لم يكن لديه مايكفى من الوقت أو الجهد للتفرغ لمثل هذا النوع من القضايا، ليس فقط لأن بيوت الدعارة السرية» كانت تنتشر فى أنحاء كثيرة من «حى كرموز» وأحياء المدينة الاخرى، لكن لأنه كان يدرك - بمرارة - أنه ليس باستطاعته أن يهاجم بيوت الدعارة السرية، المعروفة باسم «بيوت الحماية» - التى يديرها الأجانب المتمتعون بحماية الامتيازات لذلك كان - كمعظم ضباط الشرطة فى الإسكندرية - يتساهل مع البيوت التى يديرها المصريون ، خاصة وأن معظمهم كانوا من الفقراء الذين لجأوا إلى هذا الطريق حين لم يجدوا غيره، لكى يحصلوا على ماينفقونه على أنفسهم وأسرهم.

وهكذا أفرج عن الرجال الثلاثة الذين ضبطوا فى المنزل، وأحال النساء إلى الكشف الطبى، وعنف «حسب الله» وخيره بين أن تتقدم زوجت «ريا» بطلب رسمى لادارة بيت للدعارة العلنية، وتستصدر تراخيص لمن يعملن لديها من البغايا، فيخضعن - كغيرهن - للفحص الطبى الدورى، وبين أن يرحل من «حى كرموز» فلا يرى المأمور وجهه، أو وجه زوجته، أو يسمع عنهما خبراً.

ولأن «حسب الله» كان مايزال حريصاً على ألا يسجل على نفسه أو على زوجته - رسمياً - عار العمل فى مجال الدعارة، فقد إختار - دون تردد - الرحيل خارج حدود قسم شرطة كرموز.

وحين طرق باب غرفة «سكينة» فى تلك الليلة. يخطرها بما جرى، تظاهرت بالانزعاج الشديد، وأبت إلا أن تقوم بالواجب، تجاه الكارثة التى أصابت الأسرة، بما عرف عنها من شهامة وكرم فانطلقت معه إلى «بيت الخواص» لتساعد «ريا» وأمها فى نقل الأمتعة القليلة التى كانت بالمنزل، إلى غرفتها.. حتى تقرر الأسرة خطوتها التالية، فى ضوء الانذار الذى وجهه لها «بشارة أفندى».

وبعد أيام، كانت «تغريبة بنى همام»

قد امتدت لتشمل «قسم كرموز» فغادرته الأم وإبنها «أبوالعلا» إلى «كفرالزيات» ليعودا إلى نشاطهما فى إدارة المقاهي ومطاعم الرصيف، بعد أن انهار ماوضعته الأسرة من استثمارات فى «بيت الخواص».. وأذابت الأزمة الثلوج التى كانت قد تراكمت بين الأختين، بعد أن فقدت «ريا» كل ما كانت قد استولت عليه بغير وجه حق، مما تعتبره «سكينة» ثمرة كدها وشقائها، وعلى رأسه الإسم التجارى للبيت الذى لم تعد له قيمة فى السوق بعد إخلائه. ومع أن «ريا» لم تشك ـ آنذاك ـ فى أن «سكينة» وراء «كبسة» الشرطة على البيت، إلا أنها فضلت، أن تستعين بها فى تأسيس بيت بديل، يقوم بنفس النشاط، خاصة وأنها كانت تعلم أن «حسب الله» رجل مثل عدمه، وأن دوره سوف يقتصر ـ كالعادة ـ على انفاق دخل البيت على مزاجه.

وهكذا أسفر البحث عن مسكن جديد عن انتقال الفرع السكندرى من «آل همام» من «حى كرموز» إلى «مينا البصل»، فاستأجرت الشقيقتان غرفتين علويتين بمنطقة «كفرالغاطس» القريبة من «كوم الشقافة» أقامت «ريا» وزوجها فى واحدة منهما، بينما اقامت «سكينة» فى الثانية.

واستأنفت الاثنتان نشاطهما فى المسكن الجديد، ولكن فى تكتم شديد، حتى لاتلفتا نظر الشرطة، أو نظر جيرانهما ـ وكان معظمهم من الصعايدة المهاجرين مثلهما إلى الإسكندرية ـ إلى طبيعة النشاط غير الاخلاقى الذى تقومان به سراً.. ولم يكن قد تبقى معهما من الموجودات البشرية لـ«بيت الخواص» سوى فتاة فلاحة، تسمى «أمينة» كان تمضى النهار معهما فى البيت على أن يتسلل زبون إلى المنزل، مدعياً أنه من أقربائهما، فيختلى بالفتاة، فى إحدى الغرفتين، بينما تتظاهران بأنه يجلس معهما فى الغرفة الأخرى.

ولأن دخل البيت لم يكن كبيراً، فضلاً عن ارتفاع ايجار الغرفتين، الذى كان يصل إلى سبعين قرشاً فى الشهر، فقد عادت مشاكل «توزيع الأرباح» بين الشركاء تطل برأسها مرة أخرى، واشتعلت الحرب من جديد بين «حسب الله» و«سكينة»، وأخذت شكل الخلاف حول نفقات المعيشة المشتركة، التى أصرت «سكينة» على أن تقتطعها من الدخل يوماً بيوم، مماكان مثار ضيق زوج شقيقتها الذى حاول أن يشكك فى أمانتها. ولما جابهته بأن كل مليم ينفق على المنزل، يخضع لإشراف «ريا» ورقابتها، اتهمها بالاسراف، وقال إنها تعودت أن تنفق بلا حساب منذ سافر زوجها «أحمد رجب» للعمل مع السلطة العسكرية البريطانية، لكثرة ماكان يرسله إليها من نقود أثناء سفره، أو يعطيه لها عند عودته فى الإجازة، وأنه لا يستطيع ـ وهو رب عائلة ولا يعمل بانتظام ـ أن يتحمل

تبديد النقود بهذا الشكل، وطالبها بأن تترك له مسئولية الإنفاق على المنزل.

لكن «سكينة» التى كانت تدرك أن هدفه، هو الاستيلاء على النصيب الأكبر من دخل البيت لينفقه على مزاجه، ويتركها هى وشقيقتها جائعتين، رفضت بعناد. ولأنها كانت قد تعلمت بما فيه الكفاية مما حدث فى «بيت الخواص»، فقد تجاهلت استفزازاته المتوالية لها، وتلويحه المستمر بأن الأوان قد آن لفض «الشركة» بينهما، وأبت أن تغادر البيت والغالب أن «حسب الله» لم يكن جاداً فى هذا التهديد، إذ كان وجود «سكينة» ضرورياً للتعمية على نشاط الشركة، ولإقناع الجيران بأن السكان الجدد، أسرة محترمة فضلاً عن أنها كانت تبذل نشاطاً ملحوظاً فى جلب الزبائن وفى «سحب» بعض الفتيات إليه، من خلال ترددها المستمر على الخمارات.



ولعل إدراك «سكينة» بأن عدم وجود رجل معها، يضعف من موقفها فى الشركة، كان من بين أهم الأسباب التى دفعتها لاتخاذ «رفيق» ثابت لها. هو «محمد سدّاد» الذى دخل المنزل ذات مرة، مع زميل له. يعمل «ربِّيطاً» فى شركة المكابس المصرية. فأعجبته «سكينة» وعرض عليها أن تكون رفيقته، فوافقت على ذلك. وأصبح يتردد على حجرتها فى معظم أيام الأسبوع، بعد انتهاء عمله، القريب من منزلها فى «كفرالغاطس».

ولم يحل زواجها من «أحمد رجب» بينها وبين الارتباط بـ«محمد سداد»، إذ كان غياب الزوج فى عمله بالسلطة العسكرية، قد طال إلى درجة نفدت معها قدرة «سكينة» المحدودة على الصبر.. ومع أنه كان يرسل لها بين الحين والآخر، بعض النقود، إلا أن زواجهما كان قد تحطم منذ اضطرت إلى العدول عن توبتها، والعودة إلى ممارسة البغاء، فى أعقاب وصولهما إلى «الإسكندرية» لتصد عن نفسها، وعنه، غائلة الجوع، بعد أن تعذر عليه الحصول على عمل.

ومالبث «حسب الله» أن اعترض على تردد «محمد سداد» المنتظم على «سكينة» لما يثيره ذلك من شبهات حول البيت، لكنها لم تحفل باحتجاجه. ونظرت إليه ضمن السياق العام لحرص زوج شقيقتها على أن تظل بلا رجل يحميها، ويدافع عن مصالحها، ويؤنس وحدتها، ويحول بينه وبين الاستيلاء على عرقها. وعلى العكس منها فقد أدرك «سدّاد» نفسه، أن اعتراض «حسب الله» لايخلو من أسباب منطقية، فحاول أن يقلل من كثرة زياراته، ومن الانتظام فى مواعيده، لعل ذلك يخفف من حد التوتر فى العلاقات بين «سكينة» وزوج شقيقتها.. فأصبح يمضى جانباً من

السهرة - بعد خروجه من العمل - على أحد المقاهى، مع بعض زملائه، ثم ينصرف مع أحدهم فى مواعيد غير ثابتة. وما أن يصل إلى مقربة من منزل «سكينة» حتى يستأذن من صديقه، ليتسلل إلى المنزل، محاذراً أن يراه أحد.

وكان «محمد عبدالعال» من بين زملائه العاملين فى شركة المكابس المصرية، ولأنه كان أقربهم إلى قلبه، فضلاً عن أنهما كانا يسكنان فى شارعين متجاورين، فقد كان أكثرهم مصاحبة له بعد انتهاء السهرة فى المقهى، حيث لفت تكرار دخول «سداد» إلى البيت نظر «عبدالعال»، ولم يصدق زعمه بأن المقيمين فيه من أقاربه. وأخذ يتقصى الأخبار إلى أن عرف أن البيت يدار للدعارة، وأن «سداد» ينسلل إليه ليلتقى فيه برفيقته، وعندما رأى «سكينة» شغف بها حباً، وقرر أن ينافس صديقه على رفقتها، فكان يتركه أحياناً فى المقهى ويتسلل إلى البيت.

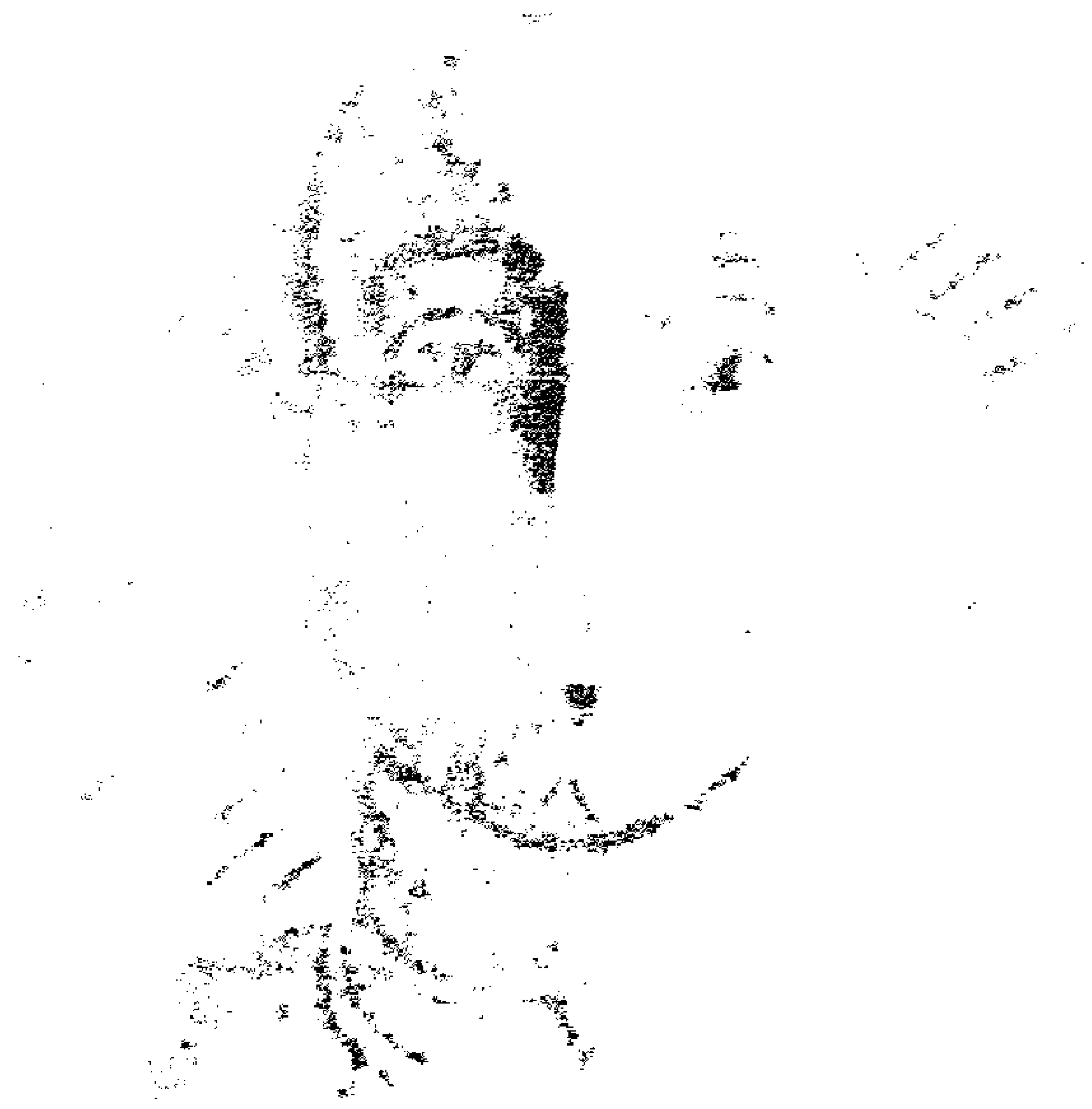
وبعد أسابيع، كان قد اجتذب «سكينة» إليه، فضاقت ذرعاً بمحمد سداد» وصارحته بأنها لم تعد راغبة فى استمرار العلاقة بينهما، ولما تأكد أنها جادة فى ذلك انقطع عن التردد على البيت، ليحل محله «محمد عبدالعال».

وكان «محمد عبدالعال» شاباً أسمر اللون، متوسط القامة، مستدير الوجه، أسود العينين، قوى العضلات حليق اللحية، ذا شارب خفيف، يرتدى - كأمثاله - جلبابا ومعطفاً. وكان آنذاك - ١٩١٧ - فى الثانية والعشرين من عمره، أمضى منها خمس سنوات بالإسكندرية. منذ لحق بأبيه وعمه اللذين تركا قريتهما الصغير «موشا» - إحدى قرى محافظة «أسيوط» - ورحلا شمالاً، بحثاً عن القوت. فعمل الأب حمالاً فى ميناء البصل، وعمل العم بواباً فى قصر «عبدالحميد بك الديب» فى الرمل.. فلم يجد «محمد» - عندما وصل مع شقيقه الذى يصغره بعامين إلى الاسكندرية فى عام ١٩١٢ - صعوبة فى الحصول على عمل من النوع الذى يصلح له أمثالهما من الجنوبيين، فعملا - فى البداية - مع أبيهما حمّالين فى «ميناء البصل» ثم أخذ ينتقلان - أثناء موسم القطن - بين المحالج والمكابس، يقومان دائماً بأعمال تعتمد على قوتهما الجسمانية، وبعد انتهاء الموسم كانا يعملان فى عمليات الشحن والتفريغ فى «ميناء البصل» أو «ميناء الإسكندرية».

وخلال الأعوام الثلاثة الأولى من إقامتهما بالإسكندرية، نجح الشقيقان فى ادخار النقود التى مكنتهما من شراء عربة يجرها حمار، كانا يستخدمانها فى نقل البضائع والأثاث بين أسواق المدينة واحيائها المختلفة، أو يعمل أحدهما عليها فى نقل الأسماك من محطة السكك الحديدية، إلى سوق السمك، فأتاحت لهما أن يجدا عملاً بعد انتهاء موسم القطن -

ومالبث الأخ الأصغر «محمود» أن تزوج من إحدى فتيات الإسكندرية فرأى شقيقه أن يترك له العربة، لكى يعول أسرته من العمل عليها، خاصة وأنه لم يكن منذ البداية متحمساً للإنضمام إلى طائفة «العربجية».. فضلاً عن أن فرص العمل الأخرى فى المهن الأكثر احتراماً، كانت سانحة آنذاك، فقد كانت أضواء الإسكندرية قد اجتذبته، فعرف الطريق إلى الخمارات وبيوت البغاء، واتسعت أمامه أبواب الطموح لكى يعيش حياة مختلفة، غير الحياة القاسية التى عاشها فى طفولته فى قريته «موشا»، التى لم تكن اسرته تملك فيها شيئاً غير منزل طينى صغير، ولم يترك فيها أحداً سوى والدته العجوز، التى كان شديد الحب لها. حريصاً على أن يرسل لها بين الحين والآخر، بعض النقود لتنفق منها على نفسها. ولتدخر له بعضاً منها.

والحقيقة أن مشاعر الحب التى كان يكنها لأسرته، كانت قوية، فلم يبخل على شقيقه «محمود» ـ الذى كان على العكس منه أقل طموحاً وأكثر عملية ـ بمساعدته، حين قرر أن يشترى منزلاً ريفياً صغيراً، يتكون من حجرتين، بمنطقة «غيط العنب ليقيم فيه.. واعترافاً بجميله، أقام له «محمود» كوخاً صغيراً بجوار البيت لكنه لم يكن يبيت فيه إلا نادراً، إذ كان يفضل أن يسكن بالقرب من الأماكن التى يعمل ـ أو يسهر ـ بها.



محمد عبد العال/ نقلا عن مجلة «الدنيا المصورة» (١٩٣٥)

وجاء ظهور «سكينة» فى حياته. ليكون خطاً فاصلاً بين ماضيه ومستقبله، فقد تعلق كل منهما بالآخر، تعلقاً مرضياً، لعب فارق السن فيه دوراً أساسياً. إذ كانت تكبره بعشر سنوات. وتفوقه ـ بحكم ظروف حياتها ـ خبرة بالحياة وبالناس، فبدت له، أقرب إلى أمه التى كان يحبها ويخشاها ويخضع لإرادتها.. فضلاً عن خبراتها الواسعة بالرجال، فقد كانت فى ذروة توهجها كأنثى، فبدت له مرفأ دافئاً لغربته، يمنحه بسخاء كل مايريد ويشبع عواطفه وغرائزه، من دون أن يتحمل أية مسئولية.. ففضلاً عن أن «سكينة» كانت من ذلك النوع من النساء اللواتى يشغفن بالرجال الذين يصغرونهن فى

العمر، وهى الميزة الرئيسية التى جعلتها تفضل «محمد عبدالعال» على صديقه، فقد كانت ـ ككثيرات من البغايا ـ لاتضن على من تعشقه بشىء وعلى العكس من «محمد سداد» الذى كان ينفق عليها، بحكم أنه رفيقها، ويحوزها لنفسه ويمنعها من مخالطة الآخرين، فقد أصبحت هى التى تنفق على «محمد عبدالعال» وكأنها تعى بأن علاقتها به، هى الدليل الوحيد على انسانيتها، فهو الرجل الذى اختارت بإرادتها الحرة، أن تمنحه نفسها من دون أن تجبرها على ذلك حاجة، أو يدفعها إليه جوع.

وهكذا ترك «محمد سداد» مكانه فى فراش «سكينة» لصديقه «محمد عبدالعال»، فأخذ، منذ ذلك الحين، يتردد بانتظام على بيت «آل همام» بـ «كفرالفاطس» ليصبح تلقائياً ـ هدفاً لمضايقات «حسب الله» الذى كانت فترة تعطله عن العمل قد طالت، فتزايد اعتماده على نصيبه من دخل المنزل.

وفضلاً عن أن تردد «محمد عبدالعال» المنتظم على البيت، قد لفت نظر الجيران إلى أن هناك نشاطاً مريباً يجرى فيه من خلف ظهورهم، مما أدى إلى انخفاض الدخل، فقد أدرك «حسب الله» أن علاقة «سكينة» بـ «عبدالعال» تختلف عن علاقتها برفيقها السابق، وأنها تنفق عليه، بدلاً من أن ينفق هو عليها، فأثاره ذلك، إذا كان يعتبر أنه أحق بهذا المال، وازداد خشونة فى معاملة الاثنين، لكن «سكينة» لم تحفل به، وأصرت على انها حرة فى أن تنفق نصيبها من دخل المنزل، كما تشاء، وعلى من تشاء.

وكان لابد من أن تتعقد مشاكل الإقامة المشتركة مرة أخرى، إذ وجدت «سكينة» نفسها ـ فجأة مركزاً لريبة الجيران، الذين استنتجوا ـ من تردد «محمد عبدالعال» على حجرتها. أن كل الرجال الغرباء الذين يدخلونه، إنما يقصدون غرفتها، بل ويمضون وقتهم معها، من دون أن تتجه شبهاتهم نحو غرفة «ريا»، مما جعلها تشك فى أن شقيقتها، وزوج شقيقتها، يتعمدان توجيه الشبهات نحوها، باعتبارها المسئولة ـ أصلاً ـ عن إثارة ريبة الجيران، وليصرفا ـ من جانب آخر ـ انظارهم عما كان يجرى فى غرفة «ريا» فيستطيع البيت مواصلة نشاطه، فضلاً عن أن تركز شكوك الجيران فيها، سوف يدفعهم ـ بالقطع ـ إلى مضايقتها، مما يضطرها إلى الرحيل، فينفردان دونها بإدارة الشركة.. وهذا هو المهم.

وسواء كانت شكوك الجيران التى أحاطت بـ«سكينة» قد تولدت بإيحاء خفى من «ريا» و«حسب الله» أو كانت النتيجة المنطقية لاندفاعها فى الإعلان عن علاقتها بـ«محمد عبدالعال» على سبيل العناد معهما، أو للسببين معاً، فإن هذه الشكوك مالبثت أن طالت الجميع، من دون تفرقة، فقد ازداد ضيق الأحرار من الجيران بوجود بؤرة

للبغاء السرى بين مساكنهم، وبالقرب من نسائهم وبناتهم، فأعلنوا الحرب على «آل همام»، بوسيلة كانت شائعة آنذاك، لاجلاء الذين يديرون تلك البؤر، بعيداً عن مساكن الاحرار، فقد حرضوا ابناءهم الصغار على تجريس كل من يدخل إلى المنزل من الرجال الغرباء، بالدق على الطبول وانشاد الاغانى الساخرة، ففقد ميزته الأساسية، كبيت سرى مستور وانصرف عنه الزبائن، مما اضطر الشقيقتين إلى استئناف تغريبتهما والرحيل عن «كفر الغاطس».

واثارت الطريقة المهينة التى تم بها إجلاء الأسرة عن «كفرالغاطس» غضب «حسب الله» الذى حمل «سكينة» المسئولية عما أصاب شرف الأسرة من إهانات، وأصر على ألا يشاركها أى مسكن بعد ذلك. وعلى عكس ماكان يتوقع، فقد رحبت «سكينة» بالانفصال، بتحريض من «محمد عبدالعال» الذى كان قد ضاق بما يفرضه زوج شقيقة رفيقته على علاقتهما من قيود. كما ضاق بالتنقل بين الكوخ الذى بناه له شقيقه «محمود» بجوار بيته فى «غيط العنب» وبين الحجرات التى كان يستأجرها ليقيم فيها بالقرب من أماكن عمله. وأصبح شديد الرغبة فى أن يستقر مع «سكينة» ـ التى كان قد شغف بها بقوة ـ فى منزل مستقل يتاح لهما فيه أن يعيشا حياة أسرية. آمنة ومستقرة. وبعيدة عن تطفل الجيران ومضايقاتهم أو نظراتهم التى تشى بالاحتقار.

وهكذا غادر الاثنان «كوم الشقافة» إلى «باب سدره» واستأجرا غرفة اقاما فيها، وقدما نفسيهما لاصحاب المنزل وللجيران بصفتهما زوجين، وتعامل الجميع معهما على هذا الاساس، ولم يقصّر كل منهما فى تأكيد ذلك كلما سنحت لهما مناسبة. كما تعاملا مع المسكن باعتباره من «بيوت الاحرار» خاصة وأن «محمد عبدالعال» كان يعمل آنذاك بشكل شبه منتظم، فلم تجد «سكينة» مايجبرها على العودة لممارسة هوايتها فى تنظيم البغاء السرى.

ولم يكن البيت الذى استأجره «حسب الله» بعيداً. إذ كان يقع بزقاق ضيق بمنطقة «المسكوبية» القريبة. وقد ظل يقيم به ـ مع زوجته وابنته ـ اكثر من اربعة أشهر، طار صيته خلالها فى الحى، كأحد بيوت البغاء السرى التى يشار إليها بالبنان، وفى الشهر الأخير من اقامتهم، انتقلت «سكينة» و«محمد عبدالعال» للاقامة معهما فيه.

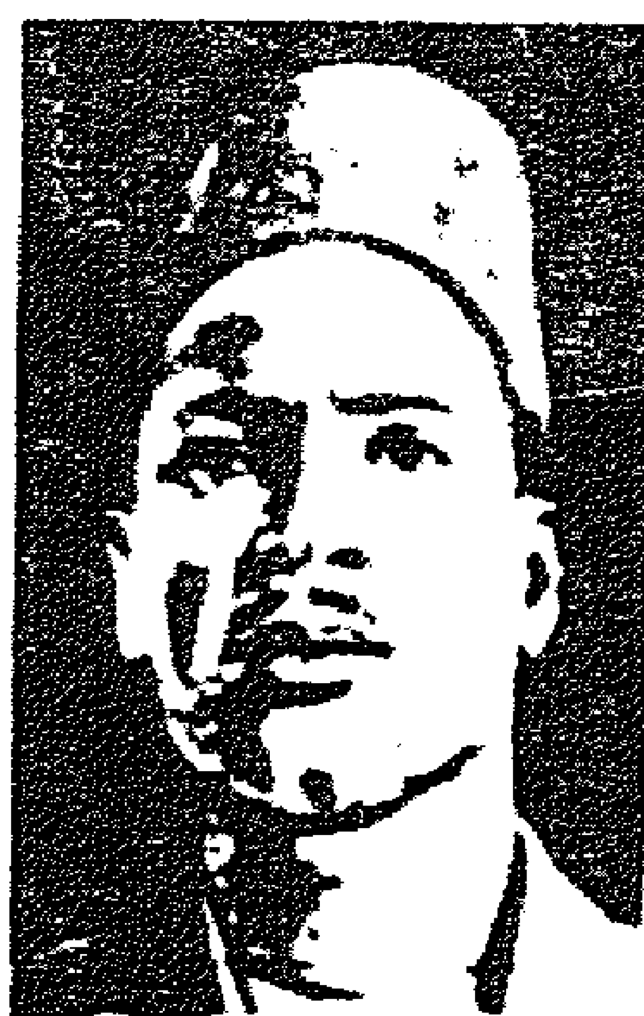
وفى هذا البيت تعرف «آل همام» وأقربائهم وانسبائهم ورفقائهم، على عدد من الرجال والنساء الذين قدر لهم أن يلعبوا أدواراً هامة فى حياتهم وفى مصائرهم بعد ذلك بسنوات قليلة.



١٩٢٤: أحد أحياء الإسكندرية الشعبية

الفصل الثانى

جنرالات وقوّادون وفتوات





كان «عرابى حسان» أول الذين عرفهم «حسب الله» من جيرانه الجدد فى «المسكوبية». وهو شاب قصير القامة، أسود الشعر عسلى العينين، قمحى اللون، وكان آنذاك ـ ١٩١٧ ـ فى الخامسة والعشرين من عمره، أى فى مثل عمر «حسب الله». وكان مثله من أبناء الجنوب، فقد ولده قرية «أبنوب الحمام» إحدى قرى محافظة أسيوط ـ وأمضى بها فترة من طفولته، إلى أن قذفت به التغريبة ـ فى مطلع مراهقته ـ إلى «الإسكندرية» بحثاً عن القوت، كما قذفت بعشرات الآلاف من أمثاله الجنوبيين.

وقد ذكر فيما بعد، أنه ورث واخوته عن أبيهم، أربعة أفدنة، لكنه تنازل عن نصيبه منها لأمه ولاخوته الصغار، الذين كانوا يزرعونها، ليستعينوا بها على أمور معاشهم، وفى مقابل ذلك كانوا يرسلون إليه مؤونه منزله من المسلى والحبوب. لكن أحداً لم يحاول أن يتحقق من صحة هذه المعلومات، التى لاتتناسب مع المسار الذى اتخذته حياته فى «الإسكندرية»، فقد عرف فيها باعتباره «فتوة» يتبجح بقوته الجسدية، ويتباهى بشجاعته، ويفاخر بأنه «عرابى الصوامعى» ـ نسبة إلى قرية «الصوامعة» ـ إحدى قرى محافظة «أسيوط» التى يضرب بأبنائها المثل فى الشجاعة، وهم ينتسبون إلى «بنى سميع» أحد بطون القبائل العربية التى توطنت مصر ـ ويتحدى الجميع بأنه يستطيع بمجرد رفع عصاه أن «يقفل» شارعاً بأكلمه، فلا يبقى فيه ـ من الذعر ـ سائر إلا واحتمى بمدخل منزل، ولاتظل أبواب دكان مفتوحة.

وكان يمكن تصديق مازعمه «عرابى حسان» لو أنه كان ينتمى إلى عصر نشأة، وازدهار جماعات الفتوة، التى اسسها ـ فى العصر الجاهلى ـ فريق من فتيان العرب الاثرياء، عرفوا بالكرم والنخوة، ونجدة الضعيف وحمايته من عدوان القوى، ثم انتقلت إلى مصر وغيرها من البلاد التى فتحها العرب، وازدهرت فى العصر المملوكى، وطالها ماطال التشكيلات الأخرى فى المجتمعات العربية، من تفكك وانحلال، فضاعت معالمها الأصلية، واختفت أهدافها النبيلة، وتحولت من تشكيلات تهدف إلى نجدة الضعفاء، وصد عدوان الأقوياء عليهم، وتسترد مااغتصبه المتجبرون من حقوقهم، إلى عصابات من المجرمين، تستغل ضعفهم، وتفرض عليهم الاتاوات.. وتسرق عرقهم.

وهكذا التحق «عرابى حسان» بتشكيلات الفتوة، وهى تمر بالطور الأخير من حياتها، بعد أن بسطت الدولة قبضتها على المدن الرئيسية، وقسمت كلا منها إلى ثمانية أقسام إدارية، وانشأت فى كل قسم مقراً للشرطة، كان يعرف ـ لذلك ـ بـ«الثمن». ولأن الفتوات كانوا يقومون ببعض مهام الشرطة فى حماية السكان المقيمين فى دوائر نفوذهم من العدوان

الذى قد يشنه عليهم سكان الأحياء المجاورة. والتحكيم فيما قد ينشأ بينهم من خلافات تجارية أو زوجية، أو مشاكل تتعلق بالإرث. ويتقاضون مقابل ذلك إتاوات يفرضونها على التجار، وبقية أهل الحى. تتفاوت طبقاً لمدى مايحققه كل منهم من أرباح، فقد أدى إنشاء أقسام الشرطة إلى القضاء على جانب كبير من نفوذهم، الذى لم يتلاش تماماً، إذ كان يستند إلى عرف اجتماعى له قوته وتأثيره.

فضلاً عن ذلك فقد كان الفتوات وأتباعهم ـ بعكس قوات الشرطة ـ يقيمون بين السكان، ويعرفونهم، ويستطيعون إلحاق الأذى بهم أو دفع الضر عنهم، بأسرع مما تستطيع الشرطة أن تفعل، ولأن عدد قوات الشرطة، ومستوى كفاءتها كان يعجزها عن السيطرة الكاملة، على مدن تزدحم بالسكان وبالمشاكل، فقد كان المصريون ـ وربما مايزالون ـ يفضلون عدم اقحام حكامهم فى أى شىء من شئون حياتهم، ولايثقون، ولايحترمون مايسنه هؤلاء الحكام من قوانين أو ما ينشئونه من مؤسسات، ويفضلون الاستناد إلى تقاليدهم وأعرافهم وتشكيلاتهم الاجتماعية، حتى لو لم تكن عادلة أو مستقيمة، عن الشر الذى يجلبه تدخل الحكام فى شئونهم.

ومع أن قوات الشرطة، كانت تشن أحياناً معارك عنيفة ضد الفتوات، بل وتقدم بعضهم للقضاء وتستصدر ضدهم أحكاماً بالسجن، إلا أنها قصرت مجهودها فى هذا الصدد، على المعارك الكبرى التى كانت تنشب فيما بينهم، وتسفر عن وقوع قتلى بين انصارهم، وكانت تجد صعوبة فى إثبات الجريمة ضد القاتلين، لصعوبة تحديدهم فى معارك ضارية يشتبك فيها الجميع، وتنهال فيها العصى الضخمة على رؤوس الجميع، فتغطيها، ولأن المتعاركين أنفسهم من الفتوات وأنصارهم كانوا يعتبرون إقحام الحكومة فيما ينشب بينهم من عراك.. عار لايفعله إلا الجبناء العاجزون عن الثأر لأنفسهم، أما بقية أهل الجهة من غير الفتوات وأنصارهم، فقد تعودوا أن ينسحبوا من ميدان المعركة بمجرد نشوبها، خوفاً على أنفسهم، فإذا تصادف واضطرت الظروف أحدهم على البقاء فى ساحتها، فإن الخوف من انتقام الفتوات كان يدفعه عادة للادعاء بأنه لم يشاهد شيئاً، أو يعرف أحداً ممن كانوا يتعاركون.

وخلال سنوات الحرب العالمية الأولى، كانت معظم الأحياء الوطنية فى المدن المصرية الرئيسية، وخاصة القاهرة والإسكندرية، ماتزال تخضع للسلطة العرفية للفتوات، إذ كان لكل حى من أحيائها الشعبية، فتوة أو أكثر، يبسطون سلطانهم على سكانه، ويفرضون حمايتهم عليه، وينفردون بما يدخل فى اختصاصاتهم من شئون ويعتبرون كل تدخل من الفتوات الآخرين أو من غيرهم فى تلك الشؤون، عدواناً يقومون برده بمثله، لردع الذى قام به، حفاظاً على هيبتهم، وصيانة لما يعتبرونه حقوق الولاية. التى كانوا يحصلون عليها، إما بالوراثة عن

آبائهم، أو بانتزاعها قسراً، بالقوة من الفتوة السابق. بعد معركة ينهزم فيها، أو يموت، أو ينسحب ويتقاعد.

ففى «القاهرة» كانت منطقة «باب اللوق» تتقسم بين أثنين من الفتوات هما «عبده الجياشى» و«مرجان السقا» بينما تقاسم «أبوطاجن» و«حسن الأسود» النفوذ فى منطقة الناصرية وطار صيت آخرين من الفتوات كان من بينهم «حسن جاموس» فتوة الحنفى و«ابراهيم عطية» فتوة الحسينية و«عفيفى القرد» فتوة بولاق و«محمود الفلكى» «فتوة باب الخلق» و«محمود الحكيم» «فتوة الكحكيين». بينما توزع النفوذ فى منطقة الأزهر والحسين بين ثلاثة من الفتوات هم «حسن كسله» و«بدوى العلاف» و«فهمى الفيشاوى» ـ مؤسس المقهى المعروف باسمه حتى الآن فى «حى الحسين» ـ ولم يكن نادراً أن تكون بين الفتوات امرأة، إذا كانت «عزيزة الفحلة» هى «فتوة المغربلين» وفضلاً عن أن الصفة التى تلحق باسمها تدل على انها امرأة ذات قوة بدنية خارقة، فقد كانت تستعين فى حكم منطقتها بابنها «محمد» الذى كان يقاسمها النفوذ.

ولم تكن سيطرة الفتوات على احياء الاسكندرية الشعبية تقل عن سيطرتهم على احياء القاهرة، إذ كان لكل حى أو قسم من حى «أبوأحمد» ـ وهو اللقب الموحد الذى كان السكندريون يطلقونه على الفتوات ـ وربما أكثر من «أبوأحمد» وقد اشتهر من بينهم آنذاك بعد ذلك «زغلول» فتوة «انسطاسى» ـ وهى أحد المناطق التى كانت «ريا» تمارس نشاطها فيها ـ و«أبوخطوة» فتوة «رأس التين» و«السيالة» و«سالابو» فتوة حى «اللبان».. وكانوا يتميزون عن فتوات القاهرة فى ملابسهم إذ بينما كان هؤلاء يرتدون ـ عادة الجلباب واللاسة فان «الابو أحمدات» كانوا يرتدون السروال الأسود الواسع، وفوقه صديرى بلدى وجاكتة وطربوش، ويجيدون برم شواربهم، ويحرصون على تثبيتها فى هذا الوضع باستخدام مثبت كان يعرف بـ«الكوزماتيك»، وعلى حبك الطربوش على رؤوسهم.

وكانت تقاليد الفتونة وعاداتها ماتزال قائمة من ناحية الشكل، فالفتوة هو قائد جيش الحى، ورافع اعلامه، والمدافع عن كرامة سكانه، وانتصاراته على فتوات الاحياء المجاورة، هى التى ترفع هامة الناس وتدعوهم للفخر بمكانة حيهم، وبما يتميز به من شجاعة وقوة وقدرة على التصدى للاعداء، وهزيمة المغيرين، فهو رمز للحى الذى تحول إلى «وطن» صغير يتعصب سكانه له، ضد سكان الأحياء المجاورة، الذين يتحولون فى هذه الحالة إلى رعايا دول أجنبية، ينبغى الحفاظ على استقلال الحى من تدخلهم فى شئونه أو من محاولة فتوتهم القضاء على استقلال الحى، وضمه إلى مناطق نفوذه.. فإذا تعرض الحى إلى اهانة من «دولة أجنبية» كأن يعتدى أحد رعايا الحى المجاور، على أحد ابنائه أو أن يغازل احدى نسائه، أو يهضم حقاً من حقوقه شكى المعتدى عليه للفتوة، الذى يتوجب عليه أولا أن يحل

المشاكل بالطرق الدبلوماسية. فيلتقى بفتوة الحى التابع له المعتدى، ويبلغه الشكوى ويترك له الوقت المناسب للتحقيق فيها. وإصدار الحكم المناسب، سواء برد الحق المغتصب. أو الاعتذار للمعتدى عليه، أو دفع الغرامة. وقد يشترك بنفسه فى هذا التحقيق باعتباره ممثلاً للمجنى عليه.. فإذا رفض الفتوة ـ ممثل المعتدى ـ القيام بدوره فى تأديبه، جاز له أن يؤدبه بنفسه، وأن يقسرة على رد مااغتصبه حتى لو ادى ذلك إلى اعلان الحرب بين الفتوتين وبين الدولتين.


محمد أبو حظوة فتوة رأس التين

وفضلاً عن دورة ذلك فى ادارة السياسة الخارجية والعسكرية للحى، فقد كان «الفتوة» يدير الشئون الداخلية لرعاياه، ابتداء من فض الخلافات إلى تحصيل الضرائب والرسوم على المبيعات.

وكانت جماعات الفتونة، ماتزال تقوم ـ من الناحية التنظيمية ـ على آساس هرمى يقف الفتوة على قمته، باعتباره حاكماً فرداً، وصاحب سلطة مطلقة. لايرد له أحداً كلمة، أو يعارض له رأى. لأن أحداً لم ينتخبه أو يختره لدوره، فهو قد ورث سلطته، أو انتزعها بقوته الجسدية وشجاعته، ومخاطرته بحياته، وعلى من يريد أن ينازعه سلطته، أو أن يخرج على طاعته، أن يبرهن على أنه أكثر قوة، وأوفر جرأة وشجاعة. ويلى الفتوة، الطبقة الأولى من اعوانه، وهى تضم «الصبوات» وهم الذين يشتركون معه فى التخطيط للمعارك، ويقودون الفصائل اثناء الهجوم، فهم بمثابة هيئة أركان الحرب فى الجيوش المعاصرة.. أما الطبقة الثانية فتضم «المجدع» وهم الجنود الذين يشتركون فى المعارك، ويخوضونها بالنبابيت الخشبية، أو بالسلاح الأبيض، وكان يطلق على هاتين الطبقتين صفة «المشاديد» أى انصار الفتوة، الذين يؤازرونه، ويتشددون له، أما الطبقة الثالثة، فكانت تضم «المقاطيع» الذين يقومون بالأعمال الخدمية، فى بلاط الفتوة ومشاديده، فيعدون لهم مجالس شرب الخمر، أو تدخين المخدرات، ويضفون على سهرات البلاط، جواً من الفكاهة بما يلقونه من نكت ونوادر وحكايات وقفشات.

ولم يكن «عرابى حسان» واحداً من هذه الطبقات الثلاث، بل كان فى طبقة أدنى من ذلك بكثير من سلك الفتوات.



والحقيقة أننا نظلم «عرابى حسان» إذا لم نضع فى اعتبارنا مدى التدهور الذى كانت قد وصلت إليه حالة الفتونة فى تلك السنوات التى كانت تمر فيها بصحوة الموت. وكان من بين مظاهر هذا التدهور، حرص عدد الفتوات على التنصل من جنسيتهم المصرية، واستبدالها بجنسية إحدى الدول الاوروبية الخمس عشرة التى كان رعاياها يتمتعون بالامتيازات الأجنبية، فتمسك بعضهم بجنسية أجداده من رعايا الدولة العثمانية، حين أصبحت بلادهم مستعمرات واحدة من تلك الدول الاوروبية، كالمغارية الذين كانوا يعتبرون فرنسيين. وسعى آخرون لشراء إحدى هذه الجنسيات بوثائق مزورة، وهو أمر لم يكن عسيراً آنذاك، ليتمتعوا بكل ما كانت تكفله الامتيازات الاجنبية لرعايا هذه الدول من حقوق وما تقدمه لهم من ضمانات كان على رأسها أن الشرطة المصرية لم تكن تستطيع أن تطولهم، أو أن تقبض عليهم إلا بعد ابلاغ قنصلية بلادهم، لتوفد مندوباً عنها، يحضر عملية الضبط، وهو ماكان يتيح لهم فرصاً واسعة للتهرب من الإجراءات القضائية المصرية، بحكم أنهم «حماية أجنبية».

وكان محتماً على الفتوات أن يدفعوا ثمن تلك «الحماية الأجنبية» من مكانتهم بين مواطنيهم، ومن الدور الاجتماعى الذى نشأت فرق الفتونة لكى تؤديه، وحازت بسببه مكانتها وهيبتها، فبعد ان كان مواطنوهم ينظرون إليهم باعتبارهم «جيش وطنى» يسخر قوته لحماية الضعفاء والفقراء من المصريين من تجبر وتسلط الأقوياء والأغنياء من المصريين والأجانب، أصبحوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى فرق من المرتزقة تعمل لحساب الأجانب، وتسخر قوتها فى خدمة الصراعات العنيفة بين فصائلهم، وتدافع عن مصالحهم ضد المصالح المصرية ذاتها، فإذا أصدرت إحدى المحاكم الأهلية المصرية حكماً يعتبره الأجانب ماساً بما كانوا يعتبرونه مصالحهم، حركوا أتباعهم من الفتوات المشمولين بالحماية الأجنبية، ليحتجوا عليه، ويقاوموا تنفيذه، بما يحوزونه من قوة ومكانة، وبما يتبعهم من «مشاديد».

ومالبثت الصلات القوية التى نشأت بين الأجانب والفتوات وخاصة بينهم وبين «أبوأحمدات» الاسكندرية - حيث كانت الجاليات الأجنبية الأكثر عددا والأقوى نفوذاً - أن قادتهم للتعاون من حثالة الاوروبيين الذين هاجروا إلى مصر، ليمارسو الجريمة، وليصدروا إليها أنماطاً جديدة منها، لم تكن معروفة من قبل، مثل «النشل» فى زحام الشوارع والمواصلات العامة، و«غش الخمور» و«تهريب الكوكايين»، فسخروا قوتهم البدنية ونفوذهم الاجتماعى لحماية تلك الانشطة من تطفل المصريين، أو احتجاجهم عليها

لأسباب أخلاقية، وللحيلولة بينهم وبين إبلاغ الشرطة عمن يقومون بها، ولمنعهم من التقدم للشهادة ضدهم أمام المحاكم، بل وأغرتهم هم أنفسهم على النشاط فى بعض مجالاتها، وهو ماكان يتعفف عنه معظم الجيل السابق من الفتوات.

ويكاد «محمود الحكيم» يكون نموذجاً لأثر هذا التزاوج بين الفتوات المصريين، وبين حثالات الاجانب، على تدهور تقاليد الفتونة ومكانة الفتوات.. فمع أنه كان - هو وشقيقه «عبدالحكيم» - مصريان بالمولد والإقامة، بل وورثا الفتونة عن أبيهما، إلا أنهما سعيا للحصول على الجنسية الفرنسية، باعتبارهما من أصول لبنانية. وماكادا يحصلان عليها حتى أصبحت القنصلية الفرنسية تتدخل لإنقاذهما من كثير من المآزق التى كانا يتعرضان لها. وأغراهما الاطمئنان إلى أنهما حماية أجنبية إلى محاولة تصفية نفوذ بقية الفتوات فى «حى الكحكيين» اللذين كانا من بين فتواته، ثم بالتصدى لبقية فتوات القاهرة لفرض زعامتهما على كل فتوات العاصمة.

وكان الدور الذى يقوم به الفتوات فى الحياة الاجتماعية المصرية، قد انكمش وأصبح أبرز مابقى منه هو حماية مواكب الزفاف. وكان من تقاليد ذلك الزمان، أن يتحرك العريس من الحى الذى يسكن فى موكب يتجه به إلى من الحى الذى ينتمى إليه إلى الحى الذى تسكنه العروس، ليعود بها فى مسيرة تطوف بالأحياء المجاورة، كتقليد من تقاليد إشهار الزواج.. فإذا تحدد موعد الزفاف، توجه العريس بصحبة عدد من أقربائه وأصدقائه إلى فتوة الحى الذى ينتمى إليه، ليدعوه إلى حضور الحفل وتمنى عليه أن يكرمه بقيادة مركب الزفة لتكون فى حمايته فلا يجسر أحد على مهاجمتها. ويقدم إليه - بهذه المناسبة - هدية تليق بمقامه وبمقام العريس.

وفى الموعد المحدد، يشرف الفتوة الحفل بصحبة مشاديده، وبعد أن يتناولوا العشاء مع المدعوين يبدأ موكب الزفاف، فيسير الفتوة وأعوانه من الصبوات والمجادع فى المقدمة منه، وقد ارتدوا جلابيبهم البيضاء التى تكشف عن صديرياتهم المزخرفة المنقوشة، وتعمموا على طواقيهم باللاثات الحريرية، وحملوا فى أيديهم العصى الغليظة، والنبابيت الضخمة ويسير العريس خلفهم بين نفر من أصدقائه، ثم بقية المدعوين، وعلى هذه الصورة يسير الموكب من شارع إلى شارع، ومن حى إلى آخر، تتصاعد من بين صفوفه الأغانى والأناشيد التى تشيد بمزايا العريس، وبين الحين والآخر يتوقف الموكب لكى يتبارز الفتوات فيما بينهم بالعصى فيما يعرف بلعبة «التحطيب». وكلما وصلوا إلى حدود حى من الأحياء، خرج لهم فتوتة فى نفر من مشاديدة فأوقف الموكب، وحيّاه، وتحدث إلى الفتوة الذى يقوده، داعياً الجمع الكريم لتناول العشاء فى منزله، ويدور حوار متفق عليه سلفاً، يعتذر خلاله حامى الزفة وقائدها، بأنهم قد تناولوا العشاء فى منزل

العريس. ويلح الفتوة الاخر عليهم فى قبول دعوته. ويتواصل الإلحاح والاعتذار. حتى يكاد يتحول إلى ملاسنة كلامية يتبادل خلالها الطرفان بعض الألفاظ الخشنة. اذ يعتبر الداعى رفض دعوته استكبارا على أهل الحى الذى يمثله. بينما يعتبر الفتوة القائد الإصرار على الدعوة إكراهاً لايقبله على كرامته. وقبل أن تنقلب تلك الملاسنة إلى معركة حقيقية، يتحاطب الاثنان أمام الموكب، فى مبارزة استعراضية تحية للمناسبة السعيدة، تنتهى بالتعادل، ليواصل الموكب مسيرته، إلى أن يصل إلى حدود حى آخر. فيتكرر السيناريو بكل تفاصيله.

ومع تدهور تقاليد الفتونة، تحول هذا الطقس من طقوس الأفراح من تعبير عن ؟ فى جميع أحياء المدينة. فإذا وصل الموكب إلى النقطة التى يكمنان فيها، خرجا عليه فى نفر من مشاديدهما. وأوقفاه، وطلبا من أهل العريس أن يدفعوا لهما أتاوة حتى يسمحا بمرور الموكب سليماً. ومع ان أهل العريس كانوا يميلون عادة لقبول شروطهما إيثاراً للسلامة. إلا أنهمم كانوا يقعون بين مطرقة «الحكيم» وسندان فتوة حيهم الذى كان يرفض الطلب، ويرى فيه افتئاتا على مكانته باعتباره قائد الموكب وحاميه، الذى لايليق به أن يسمح لأحد بأن يعتدى عليه، بأى شكل من الأشكال. وسرعان ماتنشب معركة حقيقية بين المشاركين فى الموكب، ويهرب الباقون. وترتفع خلالها النبابيت فى الهواء. وتبرز من بينها «الحاجة فاطمة» - وهو اسم أطلقه «محمود الحكيم» على عصاه الخشبية المتينة ذات الرأس الضخم،



المعلم سلامة [illegible]

الذى حشى بالرصاص المذاب - فتتحطم رؤوس وتكسر اضلع. ويمضى العريس ليلة زفافه فى غرفة الانعاش.

وسواء كان النصر فى تلك المعارك قد عقد لواءه لـ«محمود الحكيم» ومشاديده، أو كانت الهزيمة من نصيبه فقد أدرك كل عريس فى القاهرة. أن سلامة موكب زفافه رهينة بحصول «الحكيم» على الإتاوة التى فرضها على مواكب الأعراس فى كل أنحاء المدينة. فكان يرسل إليه المطلوب قبل خروج الموكب لكى لايعترضه، فضلاً عن الإتاوة التى كان يدفعها إلى فتوة الحى الذى يقيم فيه.

ولم يكن منطقياً أن تمضى محاولة

«محمود الحكيم» لفرض نفوذه وهيمنته من دون اعتراض من بقية فتوات المدينة الذين تصدوا له بقوة، ونشبت بينهم وبينه معارك ضارية، سقط فيها عشرات من الضحايا، انتهت بإذعان بعضهم لشروطه، بينما ظل آخرون يقاومون حتى النفس الاخير، وعلى رأسهم المعلم «عبدالغنى» - فتوة «سوق السلاح» - وكان عملاقاً جباراً ذا قوة بدنية هائلة يقود فريقاً من أقوى صبوات المدينة ومجادعها، ويعتبر نفسه أجدر بزعامة الفتوات، فنشبت الحرب بين الطرفين إلى أن حسمتها الحاجة «فاطمة» بضربة قاضية، وجهتها يد «محمود الحكيم» القابضة عليها إلى رأسه فحطمت جمجمة «عبد الغنى» وسمع الشهود قعقعة تحطيمها، واستأذنت الشرطة المصرية، القنصلية الفرنسية فى القبض على «محمود الحكيم» من منزله الذى عاد إليه بعد انتهاء المعركة، فأذنت لها بذلك بعد تردد مكنه من إخفاء الأدلة والقرائن التى تدينه، وتدبير الشهود الذين أقسموا بأنه كان معهم فى مكان يبعد عشرات الكيلو مترات عن المكان الذى قتل فيه فتوة «سوق السلاح» فتمسك بإنكار التهمة، وزعم أن مأمور قسم «شرطة الدرب الأحمر» هو الذى أمر جنود القسم بأن يضربوا «عبدالغنى» حتى الموت ثم يتهموا «محمود الحكيم» بقتله، وبذلك يتخلصون من الإثنين معاً. وأصرت «القنصلية الفرنسية» على استخراج جثة «عبدالغنى» واعادة تشريحها بواسطة طبيب فرنسى جاء تقريره مناقضاً لتقرير الطبيب الشرعى المصرى، إذ قال بأن الوفاة قد حدثت بسبب إفراط القتيل فى الخمر، وأن الضربة التى حطمت جمجمته قد أصابته وهو ميت بالفعل ولم تكن سبباً فى الوفاة.

واعتبر «محمود الحكيم» الإفراج عنه إذناً له بمواصلة البطش بمن يشاء، وباستخدام «الحاجة فاطمة» استخداماً طليقاً من كل قيد، ودعوة للاستهتار بكل القوانين، بما فى ذلك قوانين «الفتونة» نفسها، وفشلت كل محاولات «حكمدارية شرطة القاهرة» لإقناع القنصلية الفرنسية، بنفيه من مصر لخطورته على الأمن العام.. وفى ظل الحماية الأجنبية التى كان يتمتع بها، والنفوذ الذى أصبح له، سعت إليه عصابات جلب «الكوكايين» و«الهروين» و«الحشيش» و«الأفيون» وكان معظمها يتشكل من الأجانب، فتعاون معها فى جلبها من خارج البلاد، وفى توزيعها على متوسطى التجار، ثم أغرته الأرباح التى حققها من تلك التجارة، بإنشاء مقهى ضخم من ثلاثة طوابق، خصصة لأصحاب المزاج من مدمنى الحشيش والأفيون والكوكاكيين وغيرها من المخدرات والمنبهات، كانوا يترددون عليها، باعتبارها أكثر الأماكن التى يستطيع أمثالهم التردد عليها، أماناً.. فمع أن المقهى كان يعمل جهاراً أمام أعين ضباط وجنود قسم شرطة

«الدرب الأحمر» إلا أن أحداً منهم لم يكن يستطيع مهاجمته قبل استئذان القنصلية الفرنسية، فإذا حصل على الأذن، وهاجم المقهى، لم يجد فيه أى دليل على أن أصحابه يديرونه لعمل مخالف للقانون.



وكان من الطبيعى وقد أصاب التحلل جماعات الفتونة، فاقتربت من عصابات المجرمين التى تستغل قوتها البدنية وجرأتها فى ارتكاب الجرائم الصغرى والكبرى، أن يقتحم الساحة مدعون لا صلة لهم بالفتونة، ولم يتربوا فى سلكها أو يترقوا فى مراتبها، ليفرضوا نفوذهم على الآخرين لمجرد أنهم يملكون شيئاً من القوة، وبعض القدرة على المخاطرة.

وكان «عرابى حسان» من هؤلاء، فهو لم يرث الفتونة عن والده، ولم يأخذها ـ كمعظم الفتوات ـ بقوة ساعده، أو بطش نبّوته، ولم يترق من مرتبة «مَجْدع» إلى مرتبة «صَبِّوه» بل ولم يكن من أبناء الاسكندرية الأصليين الذين كانت أدوار «الفتونة» تقتصر عليهم، بل كان مهاجراً صعيدياً فقيراً انتصر فى عدد من المشاجرات التى كانت تنشب بين جماعات الصعايدة المقيمين فى «حارة الفراهدة» ـ حيث كان يقيم ـ فأصبحت له مكانة بين أهل الحارة، سرعان ماتعدتها إلى الحارات والأزقة المتفرعة منها.. ولأن القوة مسألة نسبية، ولأن المنطقة ـ وهى من شياخات قسم شرطة اللبان ـ كانت تكتظ بالمهاجرين من الصعايدة الفقراء، والضعفاء الذين تعودوا ألا يدخلوا مع الأقوياء فى معارك كانوا يعرفون بأنها سوف تنتهى بهزيمتهم، فقد أخذت قوة «عرابى» حجماً أكبر من حجمها الحقيقى، إذ كانت قوة دعائية أكثر منها فعلية، فشاع عنه أنه رزيل و«شُضُلى» إلى أن أصبح يحصل على مايريد استناداً إلى ماإشتهر عنه ولمجرد أن الآخرين كانوا أضعف من أن يحتجوا أو أن يقاوموا.

ولعل «عرابى حسان» كان أكثر الجميع معرفة بمدى قوته الحقيقية، لذلك توقى بذكاء أن يدخل معارك ضد من يفوقونه، أو حتى يساوونه فى القوة، ولم يجسر على مجرد التفكير فى تحدى المعلم «سلامة سالم سلابُو» فتوة الفراهدة واللبان آنذاك، أو حتى واحد من صبواته ومجادعه، ولأنه كان أجبن من أن يمارس «رزالته» ضد الأثرياء الذين يمتزون بثروتهم ويحتمون بأتباعهم، فقد قصر فتونته على من هم أضعف منه، ممن ذهب الفقر بكل ما تبقى لهم من نخوة تدفعهم للتصدى لعدوانه، أو لأنهم أفراد بلا عصبية أسرية أو جغرافية تستطيع الدفاع عنهم، أو لأنهم يمارسون أعمالاً من النوع الذى يقع تحت طائلة القانون أو يهدر الهيبة والمكانة فى المجتمع، ممن لا يتحمس أحد عادة للدفاع عنهم أو لمنعه من العدوان عليهم، فإذا كان المقهى من النوع الذى يبيع خموراً مغشوشة، دخله



المعلم جاد فتوة شارع انسطاسى

«عرابى حسان» فى مظاهرة من أصدقائه. فما أن يراهم صاحب المقهى حتى يصيبه الذعر، ويسرع لخدمتهم بنفسه، فيقدم لهم خموراً حقيقية، ومزات فاخرة. فيسكرون كما يشاءون، وينصرفون من دون أن يطالبهم أحد بالحساب لأن مطالبتهم به. ستدفعهم للصياح بأن المقهى يقدم لزبائنه خموراً مغشوشة، وقد تسفر عن مشاجرة تتحطم فيها ألواح الزجاج والمقاعد وبراميل الخمر المغشوش. وإذا كان الدكان «محششة» دخلوه وحششوا فيه، واعتبروا ذلك تشريفاً لصاحبه الذى لايستطيع أن يعترضهم أو يرفض لهم طلباً وإلا أثاروا ضجيجاً ينتهى بحضور الشرطة لتقبض على الجميع، واذا كان البيت يدار للدعارة السرية اقتحمه بجسارة من يعرف أن أحداً لن يعترضه واختار من البغايا اللواتى يخصصهن البيت لرواده، من تعجبه، ثم غادروه من دون أن تطالبه الفتاة بثمن جسدها. أو يطالبه أصحاب البيت بإيجار الغرفة التى شغلها بعض الوقت.

كان «عرابى حسان» ـ باختصار ـ فتوة من منازلهم. وواحد من عشرات من أمثاله من الفقراء والمطحونين، استغلوا حالة التحلل التى كانت قد وصلت إليها ظاهرة الفتونة. ليزعموا لأنفسهم دوراً لولا ذلك التدهور لما كانوا مؤهلين له. فتظاهروا بقوة لم يكونوا يملكونها، ليعيشوا على حساب أمثالهم من الفقراء، والمطحونين، وليستلبوا عرقهم ويخطفوا اللقمة من أفواههم.

وبحكم معرفته السابقة بالبيوت التى تنشط فى مجال الدعارة السرية كان «عرابى» هو أول من أدرك أن السكان الجدد الذين سكنوا فى الزقاق الموازى للزقاق الذى يقع فيه منزله، يعملون فى هذا المجال.. فسعى للتعرف إلى «حسب الله»، ثم إلى «ريا».. ومالبث أن دخل ذات يوم إلى البيت، وبعد دقائق، وبناء على اتفاق سابق، كانت «نظلة أبوالليل» ـ رفيقته ـ تدلف إلى البيت.

كانت «نظلة أبوالليل» فتاة قمحية اللون، نحيفة الجسم، مقرونة العينين، متوسطة الطول. ومع أنها لم تكن فائقة الجمال. فإن رشاقتها كانت تلفت النظر فى وقت كان المتوسط العام لأجساد النساء المصريات يميل إلى السمنة. كما كانت

فضلاً عن هذا فتاة مرحة، ضاحكة السن، مما كان يضفى عليها جاذبية خاصة لفتت أنظار الشبان فى حى «باب سدره الجوانى» الذى ولدت فيه، وعاشت بين أزقته وحواريه كل سنوات عمرها.

وكانت فى السادسة عشرة من عمرها، حين تزوجت لأول مرة. لكن الزواج لم يستمر سوى عامين، ثم انتهى بالطلاق بعد أن عجزت عن تحقيق رغبة الزوج فى أن تنجب له طفلاً، فعادت إلى منزل أمها فى حارة «راغب باشا» ـ بنفس الحى ـ لكنها لم تبق فيه طويلاً، إذ ماكاد خبر طلاقها يشيع فى أنحاء «باب سدرة» حتى تصارع على الفوز بها ثلاثة من فتيان الحى:

كان أولهم هو «عبدالرحيم محمود» وهو من أبناء الصعيد، كان يعمل فى الصيف بائع عرقسوس جوال، أما فى الشتاء فكان يعمل ـ كمعظم الصعايدة من أمثاله ـ بالتصدير والاستيراد، على الطريقة الصعيدية التى كانت شائعة آنذاك، فينتقل بين «الإسكندرية» وبين قريته «أم دومة» ـ إحدى قرى مركز طهطا ـ ليبيع فيها بعض مايستطيع حمله من البضائع الأجنبية المتوفرة فى الأسواق السكندرية، ثم يشترى بثمنها عددا من صفائح السمن والعسل يعود بها إلى الإسكندرية ليبيعها فيها..

وكان الثانى هو «عرابى حسان» الذى كان يعمل آنذاك حمالاً فى جمرك البضائع، ويقوم بنشاط مماثل لما يقوم به «عبدالرحيم» فى مجال التصدير والاستيراد. ولكن بحماس أقل، فضلاً عما كان يشوب معاملاته من غش وسرقة. ومع أن «عرابى» كان أصغر من «عبدالرحيم» بحوالى خمس سنوات، وكان أكثر شهرة ولمعاناً منه، باعتباره «فتوة الحتة»، كما كان كلاهما متزوج من أخرى، فقد فضلته «نظلة» عليه، ربما لأنه كان أكثر عملية. وأقل شراسة وربما لأن زوجته الأولى وأولاده منها كانوا يقيمون بالصعيد، بعكس زوجة «عرابى» التى كانت تقيم فى الإسكندرية، فأرادت أن تتوقى ماقد يترتب على وجودها مع ضرتها فى مدينة واحدة بل وفى حى واحد من مشاكل وتعقيدات.. وقبلت خطبة «عبدالرحيم».

لكن الخطوبة لم تستمر طويلا وكانت «نظلة» هى التى فصمتها هذه المرة، حين اكتشفت مدى التباين بين طباعهما، فقد كانت فتاة سكندرية تربت فى مناخ متحرر نسبياً من القيود، وتعودت على ذلك، بينما أراد «عبدالرحيم» ككل صعيدى حريص على التقاليد، متزمت فى كل مايتعلق بالنساء، أن يفرض سيطرته عليها، فلاتخرج من المنزل إلا بإذنه، ولا تتكشف على الرجال الغرباء، فضلاً عن خشونته فى التعامل معها.. وكانت «نظلة» ـ التى حرمت مبكراً من حنان الأب وتدليله ـ تتوق ـ كما قالت لـ«سكينة» فيما بعد ـ لزوج يعاملها برقة وعطف، ويدللها، ويصون كرامتها.. وربما لهذا السبب، رفضت ـ كذلك ـ أن تخطب إلى «عرابى» بعد فصم خطبتها من «عبدالرحيم» على الرغم من أنه أبدى استعداده ـ فى لحظة طيش غلبته فيها عاطفته نحوها ـ لكى يطلق زوجته،

إذا وافقت على الزواج منه، إذ كانت قد اقتنعت بأن الصعايدة، بسبب خشونتهم - لا يصلحون أزواجاً لها.

وهكذا فاز بها الطرف الثالث فى الصراع، وتزوجت من شاب سكندرى من جيرانها هو «ابراهيم سعيد»، وكان يعمل «عربجياً». وانتقلت لكى تقيم معه، فى «جنينة العيونى» فى حجرة بمنزل كانت تملكه «فاطمة بنت على متولى» الشهيرة بـ«توتة» وهى أرملة فى الخامسة والثلاثين، مات عنها زوجها، وترك لها أولاداً، وثروة قليلة، سرعان ما أغرت «عبدالرحيم» - خطيب «نظلة» السابق - بالاقتران بها.

ومع أن «إبراهيم» كان شاباً هادئاً طيب القلب، إلا أن «نظلة» الهوائية متقلبة المزاج - أو «الخفيفة» بتعبير «سكينة» - سرعان ما شعرت بأنه أعجز من أن يملأ فراغ قلبها.

وسرعان ما ندمت على فصمها لخطبتها لـ«عبدالرحيم»، ورفضها لخطوبة «عرابى» وبدا لها هدوء زوجها خمولاً، وطيبته استكانة. وخاصة حين اصبح ينقطع عن العمل لفترات طويلة، بسبب تشكيلة من الأمراض اصابته وهو فى هذا السن المبكرة.. وفضلاً عن أنهما لم ينجبا أبناء يدعمون الرابطة الزوجية بينهما، فقد اضطرت «نظلة» للنزول إلى السوق لتعمل فتمول زوجها المريض، وتعول نفسها، مما أجهض - للمرة الثانية - أحلامها فى أن تعيش حياة أسرية هادئة، فلم تلبث - بعد عام من الزواج - أن استجابت لمغازلات «عرابى» الخشنة، وقبلت أن تكون «رفيقته».

ومع أن «نظلة أبوالليل» كانت ماتزال حين ظهرت لأول مرة فى «بيت المسكوبية» - ١٩١٧ - فى الرابعة والعشرين من عمرها، فقد كانت زوجة منذ ثمانى سنوات، وكانت رفيقة لـ «عرابى حسان» منذ أربع سنوات، كان أسمها قد لمع كحائكة مقتدرة للثياب، تلجأ إليها نساء «المسكوبية» و«حارة الفراهدة» لكى تخيط لهن ملابسهن، وملابس أزواجهن وأولادهن الداخلية، فإذا ما اطمأنن إلى مستوى العمل، كلفنها بحياكة ملابس نومهن. أو الجلاليب التى يخرجن بها، ويرتدينها تحت ملاءاتهن السوداء.



نظلة أبو الليل/ نقلا عن صورتها الفوتوغرافية بملف التضحية

ومنذ اللحظة الأولى، بدأ منزل «حسب الله» و«ريا» مكاناً

مـثـاليـاً للقـاءات «عـرابى» و«نـظلة» إذ كان يتـوسط منزليـهـمـا . ولـم يكن تدبيـر اللقـاء يتطلب سوى أن ترسل «ريا» ابنتها الصغيرة «بديعة» ـ وكانت فى السابعة من عمرها ـ إلى منزل «نظلة» الذى لم يكن يفصله عنها سوى شـارع واحـد، لتطلب إليهـا الحـضـور لأن هناك زبونة تريد أن تكلفهـا بخـيـاطة بعض الملابس، فـتـرتدى «نظلة» مـلاءتهـا على جلباب المنزل، وتمضى معها أو تلحق بها، حيث تجد «عرابى» فى انتظارها.

ومع أن «ريا» قد ضاقت ـ فى البداية ـ لأنهـا لم تجـسـر على مطالبـة «عـرابى حـسان» بمقابل مـادى لما تقـدمـه له من خدمـات، لم تكن تقـتـصـر على لقـاءاته مع رفيقته «نظلة»، بل تعدت ذلك إلى اختياره لمن يشـاء من النساء المترددات على المنزل لتـقـديم خدمـاتهن لرواده، أو اصطحـابه لغيرهن من نساء الطريق اللواتى استجبن لمغـازلاته، من دون أن يدفع شـيـئـاً فى كل الحـالات، إلاّ أنهـا سـرعـان مـا أدركت أن الفوائد التى تجنيها من ارتباط اسمه باسم المنزل، اكثر بكثير من قيمة ماتقدمه له من خدمـات.. إذ كـان اسـمـه الذى يدوى فى انحـاء الحارة، باعتبـاره «فتوة» كافياً لكى يردع كل من تحـدثه نفـسـه بالتـدخل فى شئونها، أو إبلاغ الشرطة عنها ـ كما كان تردده المستمر على المنزل كفيل بأن يردع ذلك النوع الشـائع من الزبائن الذين كـانوا يدخلون المنزل، فيحصلون على خدماته ثم يرفضـون دفع الثـمن، أو ينتـقـصـون منه، بدعوى أن البضاعة التى قدمت لهم رديئة، أو أقل من المستوى، ويحاولون ابتزاز ادارته برفع اصواتهم مهددين باحداث فضيحة، وهى أمور كانت كفيلة من قبل بأن تسارع «ريا» إلى مـراضـاة الزبون، بالتنازل عن حقـهـا . أما وقد أصبح مـعـروفاً أن البيت تحت حمـاية «عـرابى» ـ فـتوة الفـراهدة ـ فقد التزم الجميع جادة الأدب، وأصبحوا يدفـعون ثمن السلع التى يحـصلون عليـها، من دون تردد أو مساومة، فإذا كان الزبون ممن يتـرددون على المنزل لاول مـرة، ولايعـرفون أن له فتوة يحـمـيه، وهيـأت له الخمـر أنه قادر على أن يفوز بالغنيمة من دون غـرم، فـإن بضع كلمـات من «عـرابى» كفيلة أن تفيقـه، وتطير الخمـر من رأسـه فيدفع الثمن وهو صاغر.

وكـان ذلك التـزاوج بين بيـوت البـغـاء، وبين الفـتـوات من أهم مظاهـر تدهـور أحوال الفتونة فى ذلك الطور الأخيـر من أطوارها، إذ كان الفتوة فى فترات ازدهار الفتونة، وهـو حامى حمى الأخلاق العامة، وهو المسئول عن الدفاع عن أعراض «بنات الحتة» اللواتى يقمن فى دائرة نفوذه، وكان يعـتـبـر تعـرض احـداهن للمـلاحـقـة أو اسمـاعهـا مـايخدش حياءها عدواناً على «شـرف الحـتـة» فإذا كان المعتدى من أبناء نفس الحى، أدبه أدباً يجعله يترد ألف مرة قبل أن يكرر عدوانه، وإذا كان أجنبياً ـ من سكان حى آخر ـ أبلغ فتوة الحتة التى يقيم فيها لكى يقوم بتأديبه، وما أكثر المعارك التى كـانت تنشب بين الفتوات دفـاعـاً عن شرف الحتة، فتسيل فيها الدماء أنهاراً.

ومع الوهـن الذى أصـاب نفـوذ الفتـوات وأدى إلى تـراجـع كـثـيـر من أدوارهـم

الاجتماعية، أخذ دورهم فى حماية شرف «بنات الحتة» يتقلص تدريجياً إلى أن انتهى بالدخلاء على جماعاتهم إلى المتاجرة بهذا الشرف وإدارة بيوت البغاء، خاصة بعد أن صدرت ـ فى عام ١٩٠٥ ـ «لائحة العاهرات» التى اعترفت بتلك البيوت ونظمت شئونها ووضعتها تحت حماية الشرطة، مما اضطر الفتوات إلى التنازل عن حقهم فى مقاومتها أو الاعتداء على الذين يترددون عليها حتى لايوسعوا من ميادين الحرب بينهم وبين الشرطة، ثم بدأ بعضهم يحصل على خدماتها من دون ثمن. ثم وضعها تحت حمايته مقابل ثمن عينى ونقدى، بينما لم يجد آخرون منهم ـ مع تواصل الإنحطاط فى مستوى المهنة ـ



مصطفى الحكيم فتوة الكحكيين

حرجاً فى أن يديرونها بأنفسهم ويستثمرونها لحسابهم.. وبذلك أصبحت الاتاوات التى يفرضها الفتوات على بيوت البغاء من أهم مصادر دخلهم، وأصبح الصراع حول حمايتها من أهم أسباب الحروب بينهم.

وعلى عكس بيوت البغاء القانونية التى كان مصرحاً لها بالنشاط رسمياً، والتى كان نفوذ الفتوات عليها أقل، فإن بيوت البغاء السرى اصبحت مجال نفوذهم لأكثر إتساعاً، إذ كان باستطاعتهم أن يبتزوا الذين يديرونها أو يترددون عليها من الرجال والنساء سواء بالهجوم المباشر عليها، أو بإثارة السكان ضدها، مما كان يضطر أصحابها إلى الاستعانة بأحد الفتوات لكى يحميهم من شغب الزبائن أو من تهديد غيرة من الفتوات.

ومع أن الفتوات كانوا يبررون هجومهم على تلك البيوت، بترديد شعارات العهد الذهبى للفتونة عن حقهم فى حماية شرف بنات الحتة، والحفاظ على الأخلاق العامة، إلا أن الابتزاز وتقاضى الإتاوات كان هدفهم من المتاجرة بتلك الشعارات البراقة.. وكان أسلوبهم فى إجبار تلك البيوت على دفع ما يحددونه من إتاوات، يبدأ بتهديد روادها لمنعهم من التردد عليها، حتى أن «زغلول» ـ فتوة «شارع انسطاسى» بالاسكندرية الذى كان يقع فيه بيت «ريا» الأول، المشهور بـ«بيت الخواص» ـ كان يكتفى إذا ما امتنع أحد تلك البيوت عن دفع الإتاوة، بالجلوس على مقعد أمام الزقاق الذى يقع فيه، فإذا مارأى وجهاً

غريباً عن وجوه سكانه، عرف أنه يقصد إلى البيت، فعنفه، وهدده، مما يضطره للانسحاب، ويضطر أصحاب البيت لدفع الإتاوة، إذا لم يكن الفتوة الذى يحميه قادراً على التصدى لـ«زغلول» أو الدخول معه فى معركة.

وكان هذا الصراع بين الفتوات، على حماية بيوت البغاء، سبباً فى مقتل واحد من أشهر فتوات القاهرة فى حادث كشف عن مدى التدهور المريع الذى لحق تقاليدها، هو «محمود الفلكى» فتوة «باب الخلق» وكان عملاقاً جباراً شديد البطش مرهوب الجانب، غاظه أن يدير أحد زملائه من الفتوات المتقاعدين بيتاً للبغاء السرى فى «شارع الخليج المصرى» - بورسعيد الآن - الذى يقع داخل حدود دولته، من دون أن يدفع له الإتاوة، فاتخذ من مقهى مواجه للبيت مركزاً له ولاتباعه من المشاديد، وأخذوا يتلقفون كل زبون قبل ان يدخل البيت، أو بعد أن يخرج منه، فيشهرون به، ويجرسونه، ويهددونه بالضرب إذا عاد مرة أخرى.. واضطر صاحب البيت للاستعانة بـ«مصطفى الحكيم» فتوة «الكحكيين» ليمنع «الفلكى» من مواصلة تهديداته للزبائن التى انتهت بانصرافهم عن البيت، ودارت بين الاثنين معركة عنيفة نجح «الفلكى» فى الجولة الأولى منها، فى هزيمة «الحكيم» فطرحه على الأرض، وخلع حذاءه وانهال به على وجهه فلم يجد «الحكيم» مفراً من الخروج على أصول الفتونة التى تمنع الغدر والاغتيال وجرد مدية حادة، كان يربطها تحت ساقه، وطعن بها «الفلكى» فى صدره وبطنه ورأسه طعنات عديدة، سقط بعدها «الفلكى» مضرجاً بدمه، ومات بعد ساعات قليلة، لكن «محمود الحكيم» خرج من هذه المعركة برىء الساحة إذ تكفلت الامتيازات الاجنبية - كالعادة - بتطويل الاجراءات القضائية، فلم يقم دليل واحد ضده.



منذ ذلك الحين أصبح «عرابى حسان» هو الضلع الخامس فى مربع «ريا» و«حسب الله» و«سكينة» و«عبدالعال».. وبات معروفاً للجميع فى «باب سدرة» و«الفراهدة» و«سوق الجمعة» وغيرها من حارات «قسم شرطة اللبان» أنه «فتوة آل همام» وحامى البيوت التى يديرونها للمتعة المحرمة: يؤدب الزبائن المشاكسين، ويرهب الجيران المعترضين، ويكفل للبيت استقراراً يمكنه من أداء دوره، من دون أن تضطر الشرطة للتدخل فى شئونه.

وفضلاً عن أن مجرد اقتران البيت باسمه، كان يشجع كثيرين على التردد عليه، وهم مطمئنون إلى أنهم لن يتعرضوا لمضايقات الجيران، أو لتجريس الأطفال، فقد كان «عرابى» يمد البيت بوارد من الزبائن، من بين معارفه، واصدقائه، يصطحبون إليه نساء من رفيقاتهم الدائمات، أو ممن اصطادونهن عبر جولاتهم اليومية فى شوارع المدينة،

فيسهلون بذلك على «ريا» و«سكينة» الجانب الأكبر من مجهودهما لسحب النساء إلى المنزل، إذ كان نادراً أن تغادر واحدة منهن البيت، قبل أن تعقد معها إحداهما - من خلف ظهر الرجل الذى جاءت معه - اتفاقاً سرياً، بأن تعود مرة أخرى لتنضم إلى النساء اللواتى يقدمهن البيت لرواده.

وكانت «نظلة أبوالليل» هى أولى النساء اللواتى عقدت معهن «ريا» هذا النوع من الاتفاقات السرية، إذ نشأت بينهما - بحكم الجيرة فى المسكن - صداقة، ساعدت «ريا» على تمتيتها بسرعة، بما كانت تضفيه على «نظلة» من رعاية أمومية، وبما كانت تفتحه أمامها من سبل الرزق، بتقديمها إلى معارفها وجيرانها، باعتبارها خياطة ماهرة، تؤدى عملها بسرعة وإتقان، ولاتتغالى - مع ذلك - فى أجرها. وفى ظل هذه الصداقة، استطاعت «ريا» أن تتعرف إلى الظروف القاسية التى تحيط بالفتاة الهوائية متقلبة المزاج.. فقد طال رقاد الزوج على فراش المرض.. ولايليق بها أن تتخلى عنه وهو فى تلك الحالة، خاصة وقد تقلصت فرصتها فى الحصول على زوج بديل، بعد أن تزوج «عبدالرحيم الشريتلى» من صاحبة المنزل. وفضلاً عن أن معظم ماتريحه من خياطة الملابس، كان يضيع على نفقات العلاج، فقد كان «عرابى» رفيقاً من النوع الذى يتشدد فى الحفاظ على حقوق الرفقة. ومع أن غيرته الشديدة عليها، كانت تسعدها، إلا أنها كانت تضيق بعدم قيامه بواجبات تلك الرفقة.. فهو يحوزها ويرفض أن تحوزه، ويمنعها من أن تخالط غيره من الرجال إلى حد ضربها أحياناً إذا رآها تتحدث إلى أحدهم بطريقة غير لائقة، بينما كان يعطى نفسه الحق فى أن يخالط غيرها من النساء، وأحياناً أمام عينيها. ثم إنه لم يكن يقوم بأهم واجباته - كرفيق - تجاهها، وهو أن ينفق عليها، بل وكان - على العكس من ذلك - يمد يده أحياناً إلى نقودها، إذا ما طالت فترة تعطله عن العمل بالميناء أو قلت إيراداته من عمله كفتوة لبيت «آل همام» لأى سبب من الأسباب.

ولم يكن عسيراً على «ريا» أن تتظاهر بالرثاء لحال «نظلة» التى تعيش فى الدنيا وحيدة، من دون دخل يقيها من عواصف الزمان، فالزوج مريض لايكسب، والعشيق متلاف لايعطى، بل يأخذ، ثم تنتقل من ذلك إلى تذكيرها بأن واجبها تجاه نفسها يفرض عليها أن تقوم بعمل إضافى يدر عليها ماتستطيع أن تدخره لتواجه به تقلبات الأيام، وتقترح عليها دوراً لاضرر فى القيام به ولايثير غضب «عرابى» الذى كانت ترتعب منه، ولايتطلب منها مجهوداً استثنائياً وهو أن تساعدها فى سحب النساء إلى البيت، إذ كانت - بحكم عملها كخياطة - على صلة بكثيرات منهن، وعلى معرفة كافية بظروفهن، وعلى علم بأسرارهن وتستطيع أن تقدر مدى استعدادهن للعمل، فإذا تأكدت من هذا الاستعداد، فما عليها إلا أن تعرفهن إلى «ريا» لتقوم بالخطوة الأخيرة، وتفاتحهن صراحة فى الانضمام إلى العاملات فى بيتها.

ولم تعارض «نظلة» فى القيام بهذا الدور، يتردد وتكتم فى أول الأمر، ثم باندفاع وفى علانية بعد ذلك، إذ كان سر «بيت المسكوبية» قد ذاع فى أنحاء الحى، لم يعد أحد من سكان «حارة الفراهدة» ومايحيط بها. ويتفرع عنها من حارات وأزقة، يجهل أنه يدار للبغاء السرى، لكثرة من كانوا يترددون عليه من الرجال والنساء الغرباء فى أوقات متعددة من الليل والنهار. وكانت أمها «زينب بنت حسن» هى أول من تنبه إلى كثرة ترددها على هذا البيت المشبوه، وتشككت فى ادعائها بأنها تذهب إلى البيت لتلتقى بمن تجلبهن إليها «ريا» من نساء يرغبن فى تفصيل ملابس لهن أو لازواجهن، مما اضطرها للاعتراف لها بالحقيقة، ولم تعارض الأم فى أن تساعد ابنتها «ريا» فى سحب النساء، إلى البيت، وإن كانت قد حذرتها من التمادى إلى ما هو أبعد من ذلك، ذلك أن الأم نفسها، كانت تقوم بهذا الدور، ولكن على نطاق ضيق، وعلى مستوى من النساء أرفع بكثير من مستوى اللواتى كن يترددن على بيت «ريا» التى قالت فيما بعد إن «زينب» سحابة مثلها، ولكنها لاتشتغل «إلا على النسوان اللى معلقين شنط فى دراعاتهم».

وبعد الأم، عرف «ابراهيم سعيد» زوج «نظلة» ـ بنبأ تردد زوجته على بيت «ريا» سىء السمعة. وقد نقلته له امه عن ألسنة الناس، وحين أكدت له «نظلة» انها تكتفى بسحب النساء إلى المنزل ولاترفع ذيلها لأحد، صدقها، ولم يعترض إذ كان المرض الطويل قد افقده كل قدرة على الشك أو الاعتراض، واصطدم ماشيع عن وجود علاقة بينها وبين «عرابى» بما كانت قد نقلته هى نفسها لامها ولزوجها من قبل، حول مضايقاته لها، واعتراضه لطريقها، ومطاردته اياها، واغرائه لها بأن تطلب الطلاق من زوجها ليتزوجها بعد أن يطلق زوجته ونفورها من كل ذلك، فلم يصدق أحد منهما تلك الاشاعات، وتظاهر الاثنان بتصديق ادعاءات «نظلة» بأنها ترفض كل عروض «عرابى» بل وتشتمه علنا، وأمام الناس، كلما قطع عليها الطريق. ولم يكن فى استطاعتهما إلا أن يتظاهرا بتصديقها، إذ كان تكذيبها، يعنى أن يدخلا فى معركة مع «فتوة الحتة» الرهيب وهو الامر المستحيل.

أما وقد اطمأنت «نظلة» إلى عدم اعتراض أحد ممن كانت تخشى اعتراضهم، وخاصة «عرابى» الذى لم يجد فى انضمامها إلى فريق «السحابات» فى البيت افتئاتاً على حقوقه كرفيق لها، بل اعتبره مساهمة فى زيادة دخل المنزل، الذى كان يحصل على نسبة منه، فقد أدركت ان مخاوفها كانت بلا اساس، وانتقلت ـ بدفعة أخرى من «ريا» ـ إلى المستوى الثانى، وقبلت أن تقدم جسدها للرجال، وأن تنضم إلى فريق النساء اللواتى يقدمهن البيت لرواده، إذ كان الدخل الذى يتحقق لها من هذا الانتقال، يبلغ اضعاف ماكانت تحصل عليه من السحب، وكان شرطها الوحيد، هو الا تدخل مع رجل من اصدقاء «عرابى» أو ممن يعرفون علاقتها به، وأن يظل الأمر

سراً بينها وبين «ريا» و«سكينة».. وهى شروط لم يكن من العسير تنفيذها. إذ كان الاحتفاظ بأسرار الزبائن - من الرجال والنساء - من آداب المهنة المحترمة فى بيوت البغاء السرى.

وفى المرات القليلة التى كان «عرابى» يفاجىء فيها البيت بزيارته، بينما تكون «نظلة» فى خلوة مع أحد الزبائن، كانت «ريا» و«سكينة» تتصرفان بلباقة وتستعينان بـ«حسب الله» أو «محمد عبدالعال» لصرف نظره عما يدور فى البيت، إلى أن تتسلل «نظلة» إلى الخارج من دون أن يراها، أو يعرف بوجودها.

والحقيقة أن «ريا» و«حسب الله» لم يتنبها إلى مدى أهمية الدور الذى كان «عرابى حسان» يلعبه فى استقرار وازدهار البيت إلا حين خضع لاغراء بعض اصدقائه، بأن يلتحق بأحد فرق عمال التراحيل الذين كانت السلطة العسكرية تشحنهم فى البواخر الحربية، ليعملوا فى خطوط القتال الخلفية، بعد ان اتسعت ميادين الحرب العالمية الاولى، إذ ماكاد ظله يختفى من «حارة الفراهدة» حتى استرد الجيران شجاعتهم، واستأنفوا اعتراضهم على وجود بيت سرى بين بيوت الاحرار. وحاول «حسب الله» أن يستعيد ثقة الجيران، وأن يضفى على البيت مظهراً عائلياً يبعد عنه الشكوك، فعرض على «سكينة» و«عبدالعال» - اللذين كانا قد انفصلا عن الشركة منذ اضطرت الاسرة للجلاء عن «بيت مينا البصل» - أن يعودا للإقامة معهم فى «بيت المسكوبية» فقبلا بعد تردد.

لكن ذلك لم يحل المشكلة.. بل زادها تعقيداً.. ولم يبدد الشكوك حول البيت.. بل أدى إلى تكثيفها.



ماكادت «سكينة» و«عبدالعال» ينتقلان للإقامة فى «بيت المسكوبية» حتى وصل زوجها «أحمد رجب» إلى «الإسكندرية» قادماً - فى اجازة قصيرة - من «جزيرة مودوروس»، حيث كان يعمل فى خدمة السلطة العسكرية للحلفاء، ليكتشف أن زوجته قد استطالت غيبته، فاتخذت لها رفيقاً يقيم معها. لكنه لم يغضب بالدرجة التى تليق برجل عاد من السفر ليجد رجلاً آخر فى فراش زوجته التى ماتزال فى عصمته. ففضلاً عن أن سنوات طويلة، من معاناة الفقر والجوع، كانت قد علمت أمثاله من المصريين ألا يغضبوا، فقد كان شديد التعلق بـ«سكينة» التى ردت على عتابه لها، لاتخاذها رفيقاً فى غيبته، بطلب الطلاق.. فكان منطقياً ألا يتصاعد عتابه إلى غضب، بل أن يتدنى إلى توسل ذليل لها، بأن تترك رفيقها لتعود إليه..

ولأن اجازة الزوج كانت أقصر من أن تكفى لكى تحسم هذه المشكلة، فقد ظلت معلقة، إلى أن يعود «أحمد رجب» فى اجازته القادمة. لكن تردده عليها واقامته معها فى بيت «المسكوبية» أثناء تلك الفترة، ثم عودة «عبدالعال» إلى البيت بعد سفره، أفشلت الخطة التى رسمها «حسب الله» لكى يبدو البيت - فى نظر الجيران - مسكناً

لعائلة محترمة تليق بها السكنى فى منازل الاحرار، بعد أن انفضح سر العلاقة بين «سكينة» والرجلين، واكتشف الجيران أنها تعيش مع «عبدالعال» من دون زواج شرعى، فتكثفت الضغوط لطردهم من المنطقة.

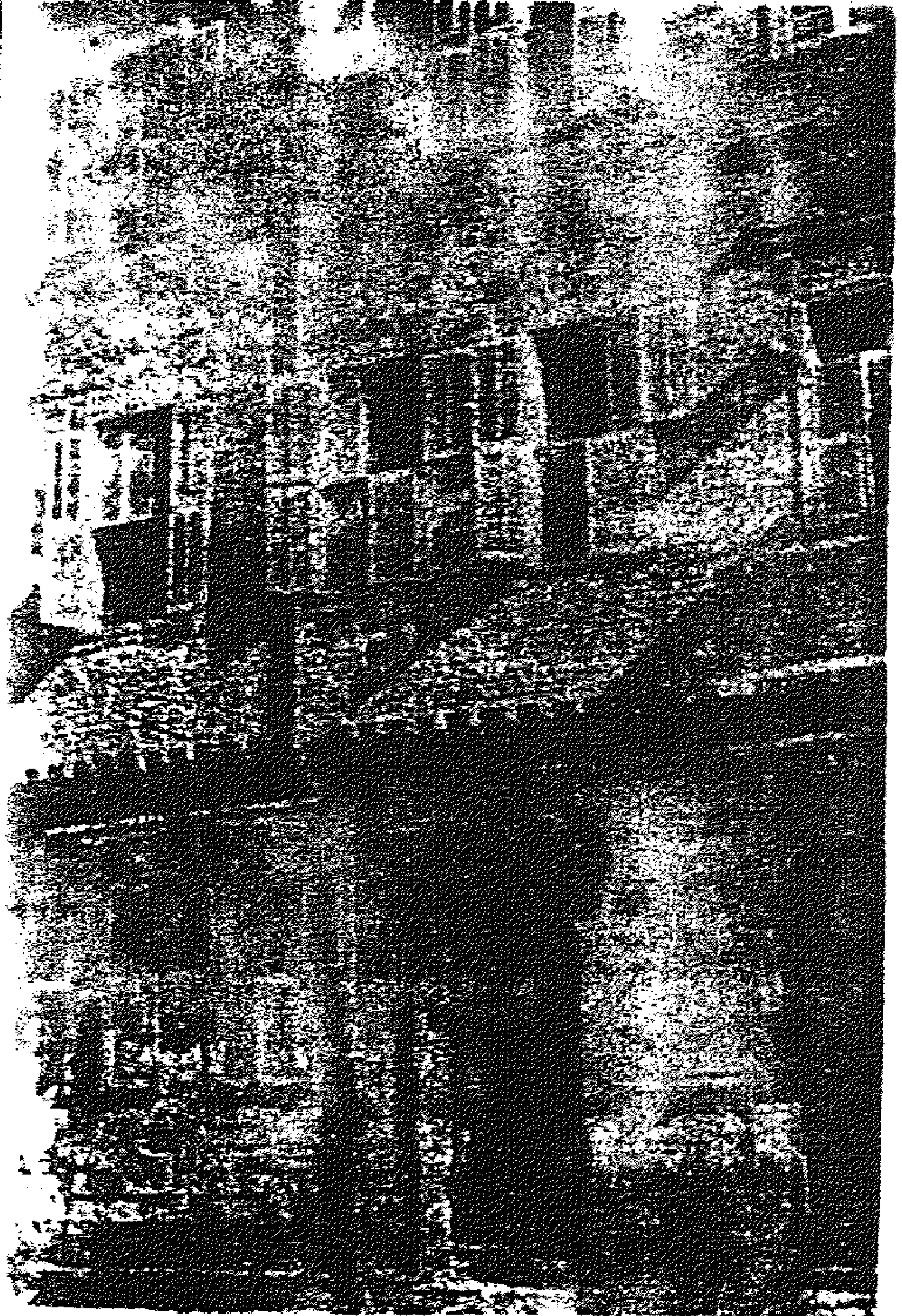
وهكذا بدأ «آل همام» يبحثون عن بيت آخر، يقع ضمن الحدود الإدارية لقسم شرطة «اللبان» الذى اقتنعوا بأنه أكثر اقسام «الإسكندرية» ملاءمة لنشاطهم الاستثمارى، فهو الحى الذى تقع فيه منطقة «كوم بكير» ـ أشهر مناطق البغاء الرسمى فى المدينة ـ والذى تعود سكانه على رؤية البغايا وهن يصعدن الطريق إلى دكاكينهن الواقعة فوق الكوم، ليستقبلن زبائنهن بين العصر والفجر، ثم يهبطن إلى بيوتهن الحرة. التى يقمن فيها مع أزواجهن وأبنائهن.. فكانوا بشكل عام أكثر من سكان الأحياء الأخرى تقبلاً لهن، وأقل ضيقاً بمجاورتهن، بل أن كثيرين من أحرار اللبان كانوا يرحبون بالتعامل معهن ومع زبائنهن، بعد أن أصبح وجود نقطة المومسات فى حيهم، مصدر انعاش اقتصادى للمناطق المتاخمة لها، والقريبة منها، فى وقت كانت الأزمة الاقتصادية تأخذ فيه برقاب الجميع. فلم يجد ملاك العقارات غضاضة فى تأجير حجراتها للعاملين والعاملات فى النقطة، من دون أن يهتموا باعتراض الاحرار من المستأجرين الآخرين، وانتعشت المقاهى والبارات ومحلات العصير والشربات والمطاعم، ودكاكين البقالة فى الشوارع المحيطة بها، ووجد كثيرون من الصبية والفتيات الصغيرات من أبناء المنطقة، أعمالاً متنوعة، كخدم فى النقطة، أو باعة يتجولون بين أزقتها بأنواع لاحصر لها من السلع من البطاطا المشوية، إلى المياه الغازية، ومن اللبان إلى الأمشاط والفلايات ومن مناديل الرأس إلى الكحل وبنس الشعر واربطة الضفائر، كما أصبحت ـ كذلك ـ أهم مراكز تجارة الممنوعات، كالحشيش والافيون والمنزول والكوكاكين والمنشطات الجنسية.

ولأن «آل همام» كانوا ـ كغيرهم ممن ينشطون فى المجال نفسه ـ يدركون من تجربتهم، مدى أهمية وضرورة أن تكون بيوت البغاء السرى قريبة من نقطة البغاء العلنى، حيث تتراخى قبضة التقاليد الاجتماعية، وتتسع الفرصة للتمويه على نشاطهم غير القانونى، مما يكفل لهم استقراراً نسبياً.. والأهم من ذلك أن تلك المناطق ومايتاخمها ويجاورها، هى السوق الطبيعية التى يعرفها طلاب المتعة، ويتردد عليها المستهلك الراغب فيها، مما يوفر عليهم نفقات استدراجه، فقد كانوا حريصين على أن يجدوا مسكناً قريباً من مسكنهم فى «المسكوبية».. لكن رائحتهم التى كانت قد فاحت، وسمعتهم السيئة التى كانت قد ذاعت، خاصة خلال الفترة التى ارتبط فيها اسمهم باسم «عرابى» حالت بينهم وبين تحقيق هدفهم، فاضطروا إلى استئناف التغريبة، وعادوا مرة أخرى، إلى «مينا البصل».

وكانت «ريا» قد التقت مصادفة فى «سوق الجمعة» بعديلة الكحكية». ولم

تكن قد رأتها منذ ماتت شقيقتها «نبيهة» التى كانت تشارك «آل همام» السكن فى «بيت الخواص».. وبعد أن تبادلت الاثنتان ذكرياتهما عن الأخت الراحلة، وذرفت «ريا» بعضا من دموع التماسيح على جارتها التى قصف الموت عود شبابها.. أدارت الحديث بمهارة إلى أحوال «عديلة» إذ كان «سحبها» من بين مشروعاتها القديمة التى لم تتح لها الظروف فرصة تنفيذها. وكانت المعلومات التى حصلت عليها باعثة على التفاؤل، فخلال العام الذى انقضى على آخر لقاء بينهما، انقلبت أحوال «عديلة» الاجتماعية، انقلاباً تاماً. فقد مات زوجها، فأصبحت وحيدة، وهى على مشارف الثلاثين، وترك لها ثلاثة صبيان أكبرهم فى الثانية عشرة من عمره، مما اضطرها إلى بيع نصيبها فى المنزل الذى ورثته هى وشقيقاتها الست عن أبيهن، لتستطيع أن تنفق على تربية أبنائها، ولأن الأب كان متزوجا من أخرى غير أمها، أنجب منها إبناً وابنة. فإن ماحصلت عليه مقابل بيع حصتها فى المنزل، كان أتفه من أن تعتمد عليه وحده، فدفعت بأكبر ابنائها لأحد معامل السجائر، ليعمل قصاصاً للدخان، والحقت الإبن الأوسط بأحد المطاعم ليعمل صبياً لدى صاحبه، أما الإبن الأصغر، فهى تبحث له عن ورشة أو دكان لتلحقه بالعمل به.

لم تفت دلالة هذه البيانات على «ريا» التى تشبثت بالفرصة السانحة، حين تطرق بهما الحديث إلى بحث «آل همام» عن منزل يستأجرونه، فأشارت «عديلة» إلى أن هناك منزلا من طابق أرضى يقع فى حارة قريبة، من المنزل الذى تقيم فيه، وفى مواجهة المقهى الذى يستأجره زوج شقيقتها بـ«مينا البصل» يعرضه اصحابه للإيجار. وفى خلال أيام كان «آل همام» يغادون «حارة المسكوبية» ليعودوا مرة أخرى للإقامة فى «مينا البصل» التى لم يكن قد مضى على مغادرتهم لها سوى أقل من عام.



نموذج من المساكن التى كانت تقيم بها الطبقات الوسطى بالإسكندرية فى العشرينيات

وعلى الرغم من أن «حسب الله» كان يحمل «سكينة» المسئولية عن اضطرار الأسرة لمغادرة «حى اللبان» والابتعاد عن السوق الطبيعية لتصريف بضاعتها، بسبب حماقتها وعدم انضباطها، ومايثيره الرجال المتصارعون عليها من مشاكل، إلا أنه لم يعد إلى رفع شعار الانفصال، خاصة وأنه كان يعلم أن فرصة بقائهم فى بيت «المسكوبية» أخذت تتضاءل منذ سافر «عرابى» للعمل مع «السلطة العسكرية» وأن الفضيحة التى أثارتها عودة «أحمد رجب» لم تؤد إلا إلى الإسراع بترحيلهم.. وفضلاً عن أنه كان ما يزال يؤمن بأن إقامة «سكينة» معهم تكفل لمسكنهم ساتراً معقولاً، فقد كان البيت الذى دلتهم عليه «عديلة الكحكية» بيتاً فسيحاً يتكون من طابق واحد، يضم أربع غرف وفناء، مما اضطره إلى قبول شراكة «سكينة» ورفيقها، باعتبارها اقل ضرراً من شراكة الغرباء، الذين سيتطفلون - بالقطع - على مايجرى فيه، فيعرقلون نشاط البيت، وقد يسعون لغلقه.

لكن قبول «حسب الله» لمشاركة «سكينة» و«عبد العال» فى المسكن، لم يمتد لقبول مشاركتهما فى إدارته أو فى أرباحه، أو حتى فى الأمور المعيشية التقليدية، وساعده على ذلك أن البيت نفسه كان ينقسم إلى جناحين، يتكون كل جناح من غرفتين، فضلا عن مدخل مستقل لكل منهما، ويفصل بيهما باب داخلى أغلقه، وحرم على «سكينة» و«عبد العال» استخدام مدخل الجناح الذى يقيم فيه فى الدخول أو الخروج.. وميز نفسه عليهم بالاستحواذ على الجناح الذى تدخله الشمس ويطل على الفناء، وترك لهما الجناح المظلم من المنزل، وبرر ذلك كله، بأنه لايريد أن يتحمل امام الجيران المسئولية عما قد تجلبه «سكينة» من مشاكل وكوارث، فيضطر للرحيل مرة أخرى عن الحى.

ومع أن إقامة الأسرة فى هذا البيت قد امتدت إلى ثمانية شهور، إلا أن نشاطها الاستثمارى فيه، كان يدور فى نطاق ضيق، بحكم الانكماش الشديد فى سوق الطلب، بالمقارنة إلى ماكانت عليه السوق فى «المسكوبية» و«الفراهدة» إذ كان يقتصر على الحمالين الذين يعملون فى «مينا البصل» ومعظمهم من أهل الصعيد، الذين يتقاضون أجوراً ضئيلة، لاتدع لهم فائضاً ينفقونه على ملذاتهم، وبحكم تدهور مستوى السلع التى يقدمها البيت لرواده إذ لم يكن قد تبقى به من البغايا شبه المتفرغات سوى فتاة واحدة، هى «هانم الفلاحة» التى عملت مع «ريا» منذ كانت تدير «بيت الخواص» - بينما كانت الاخريات من فتيات الطريق اللواتى يعملن بعض الوقت وحسب الظروف، مما جعل كثيرين من رواده يكتفون بزيارة واحدة لايكررونها إلا فيما ندر.

ولأن سحب «عديلة الكحكية» إلى العمل معها، كان من بين المغريات التى دفعت «ريا» لاستئجار المنزل، لكى تكون قريبة

منها، فقد حرصت على توثيق علاقتها بشقيقتها الكبرى «ستيتة» وكانت تقطن فى المنزل المواجه لمنزل «آل همام» فوق المقهى الذى كان يديره زوجها «أبوالشام».. وبعد شهور قليلة نجحت فى مهمتها، فأصبحت «عديلة» تغادر منزل شقيقتها بمجرد أن تتلقى إشارة متفق عليها بينها وبين جارتها «ريا» لكى تلتقى بالزبون سعيد الحظ.

ورفع انضمام «عديلة» إلى النساء اللواتى يقدمهن البيت لرواده، من نسبة الطلب على خدماته، وشجع عدداً منهم على العودة إليه لكى يطلبوها بالاسم، إذ كانت ـ على الرغم من قصر قامتها ـ بيضاء الوجه ملفوفة القوام. جميلة التقاطيع، لاتوحى هيئتها أو سلوكها بأنها من محترفات البغاء.. ومع أنها كانت ـ بسبب حساسية فى عينيها ـ «شوحة» أى تكثر من فتح واغلاق عينيها، إلا أن ذلك كان يفيض عليها جاذبية خاصة، جعلتها ـ مع مزاياها الأخرى ـ أكثر السلع التى يعرضها «بيت آل همام» اجتذاباً للمشترين وإغراء لهم على الشراء.

لكن هذا الإقبال الشديد على «البنت الشوحة»، مالبث أن أثار مشاكل عديدة، إذا كانت «عديلة» تشترط الا تختلط بأحد من الرجال الذين يعرفونها أو يحتمل أن يتعرفوا على شخصيتها الحقيقة فيما بعد، مما يضطر «ريا» إلى منعها من التداول اذا كان الزبون من سكان الحارات القريبة. كما كانت تتغالى فى طلب النقود، وقد ذكرت «ريا» فيما بعد أنها لم تكن تقبل بأقل من ريال ونصف.. ومع أن النسبة التى كانت تحصل عليها «ريا» كانت ترتفع فى هذه الحالة إلى ربع ـ وأحياناً نصف ـ ريال مقابل قرش أو قرشين، هو أقصى ماكانت تحصل عليه. من تقديم «هانم الفلاحة» وغيرها من الفتيات اللاتى وصفتهن بأنهن «بنات ركش» إلا أن الزبائن المستعدون لدفع هذا المبلغ كانوا قليلين للغاية، فضلاً عن ان اقبال الزبائن على «عديلة» على الرغم من ارتفاع ثمنها مالبث أن أثار احتجاج الاخريات، بعد أن انصرف عنهن الزبائن، فرفعت «هانم الفلاحة» راية العصيان، واستقالت من البيت.. وغادرته إلى غير عودة.

وفى هذا الجو الملبد بالغيوم، عاد «أحمد رجب» مرة أخرى فى اجازة.. ليتكرر ما حدث من قبل، إذ لفتت اقامته فى المنزل مع «سكينة» وانقطاع «محمد عبدالعال» عن التردد عليه، نظر «ابوالشام» ـ زوج شقيقة «عديلة الكحكية» ـ إلى أن هناك شيئاً مريباً يجرى فى البيت المواجه لمقهاه. وعندما فاتح «حسب الله» فى الأمر، اشتاط الأخير غضباً وعنفَ «سكينة» وهددها باجلائها عن المنزل إذا عاد رفيقها للاقامة معها فيه. وجاءه ردها على تهديداته، بأسرع مما توقع، ففى الليلة نفسها، عاد «عبدالعال» إلى المنزل، وتوجه «أحمد رجب» إلى «حسب الله» شاكياً من انها طردته، وأصرت على ان يطلقها فصاح فى وجهه:

ـ انت مش راجل.. انا لو كنت منك.. كنت قتلتها.

ولأن «أحمد رجب» كان أعجز من أن

يقتل ذبابة، فقد صمت حائراً، بينما كان «حسب الله» يفكر فيما قاله وبدا وقعه فى تلك اللحظة غريباً على أذنه.. ولعل «أحمد رجب» لم يصدقه، إذ لو كان غاضباً مما تفعله «سكينة» لغضب مما تفعله «ريا». والحقيقة أن اعتراض «حسب الله» الدائم على سلوك «سكينة» غير المنضبط أخلاقياً، يلفت النظر، لتناقضه مع الصورة التى وصلتنا عنه، كرجل لم يثبت فى أية مناسبة أنه من النوع الذى تعنيه أمور الأخلاق فى حد ذاتها، ومع أن هناك دوافع مصلحية واقتصادية وراء مشاحناته المستمرة معها، إلا أن ذلك لا ينفى أن جانباً من غضبه كان يعود إلى أسباب أخلاقية، ولكن فى إطار نظرة خاصة للأخلاق، كان قد توصل إليها بعد تغريبة استمرت عشر سنوات قطع خلالها آلاف الكيلومترات من أقصى الجنوب عند أسوان إلى أقصى الشمال عند الإسكندرية، تعرض خلالها جهاز قيمه الأخلاقية للعديد من الاختبارات والاهتزازات، وقع أخطرها تأثيراً خلال سنوات الحرب العالمية الأولى.

ولم يكن «حسب الله» هو الوحيد الذى تعرض لمحنة الحرب التى هزت كثيراً من القيم الأخلاقية الثابتة للمصريين، وخاصة بين الطبقات الوسطى والفقيرة، بعد أن دفعهم الارتفاع المتوالى فى أسعار احتياجاتهم الأولية من طعام وشراب ووقود وملابس، إلى حافة المجاعة، بل واضطرهم لأكل لحوم الخيول المريضة أو الشائخة التى لم يكونوا قد تعودوا من قبل على أكلها، إلى أن طرحها الجيش البريطانى للبيع بسعر رخيص، بدلاً من حرقها.. وأصبحت زوجته «ريا وشقيقتها «سكينة» من الوجوه المعروفة فى «سوق الفطيس» حيث كانت تباع لحوم الحيوانات والطيور غير الصالحة للاستهلاك الآدمى.

وإذا كان وقوفه الطويل على حافة المجاعة، قد دمر الجانب الأكبر من جهاز القيم الأخلاقية التى جاء بها من قريته بعد أن اكتشف أنها لن تستطيع أن توفر له عملاً، أو تكفل له قوتاً، أو تضمن له مكاناً ليدفن فيه.. فقد ظل - على الرغم من عمله فى مجال تنظيم البغاء - يرفض أن تبتذل نساء أسرته أجسادهن، أو تبعن أعراضهن، حريصاً على أن يظل فى نظر الناس فى صورة الصعيدى الذى يغار على عرضه ولا يقبل أن يفرط فيه، بعد أن توصل إلى نظرية أخلاقية تفرق بين تنظيم البغاء - وبين ممارسته.. وتنظر إلى «القوادة» باعتبارها عملاً مشروعاً أو على الأقل مقبولاً.. على عكس ممارسة البغاء فهو عمل مذموم وغير أخلاقى.. وهى نظرية تتميز بدرجة عالية من البراجماتية، لابد وأن «حسب الله» وأمثاله ممن اضطرتهم حافة المجاعة إلى العمل فى مجالات كانوا يعتبرونها بحكم نشأتهم الصعيدية - مما يزرى برجولة الرجال، كانوا فى حاجة إليها، لكى يبرروا لأنفسهم، أمام أنفسهم، ما يفعلونه، فيتوازنون نفسياً، على نحو يحول دون سقوطهم من تلك الحافة، إلى جُبِّ الجوع.. بل إن حرص

«حسب الله» على صورته الصعيدية كان يتجاوز الغضب من فضائح «سكينة» إلى محاولة التظاهر بأن كل ما يجرى فى بيوت البغاء السرى التى كان يتعيش منها.. يتم من وراء ظهره، وهو ما كانت «ريا» تساعد على إشاعته عنه، بإيهام الذين يترددون على بيتها بأنها تستضيفهم من دون علمه، كان يصل إلى درجة من المبالغة، تدفعها لتحذيرهم من أن تفلت من أحدهم كلمة تفضحها أمامه.

لكن نظرية «حسب الله» الأخلاقية، لم تكن الدافع الوحيد وراء محاولته لتحريض «احمد رجب» على الغضب لكرامته كزوج، إذ كان صاحب مصلحة فى أن تعود «سكينة» إلى زوجها، الأقل قوة، والأكثر سخاء بعكس رفيقها «محمد عبد العال» الذى كان وجوده إلى جانبها يدفعها للتمرد، ويحرضها على الاستقلال، ويقودها إلى التشدد فى محاسبة زوج شقيقتها عن نصيبها فى إيراد البيت..

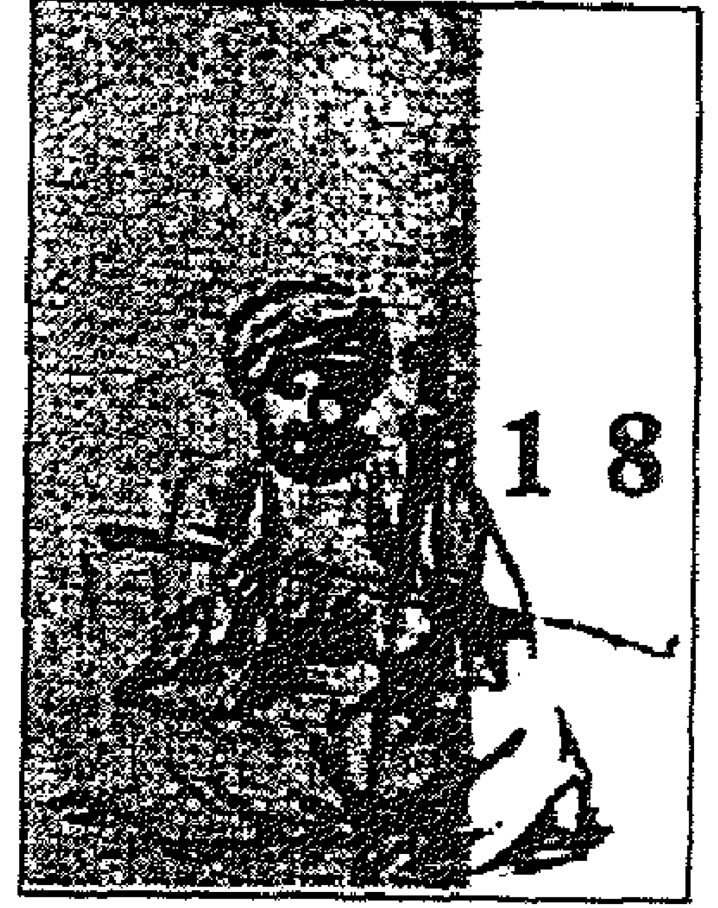
وكانت العلاقة بين «سكينة» و«عبدالعال» قد تطورت بسرعة لتصبح عشقاً حقيقياً، دفع الاثنين إلى محاولة تخليده بالاسلوب الذى كان شائعاً بين عشاق ذلك الزمن وخاصة بين أبناء الريف، وهو وشم اسم كل من الحبيبين على جسد الآخر، وهى عملية مؤلمة يجرى خلالها كتابة الاسم على أعضاء الجسم عن طريق الوخز بالابر تحت الجلد بسائل ملون - بأحد اللونين الأخضر أو الأزرق - غير قابل للذوبان فى الماء.. وكانت «سكينة» قبل أن تتعرف إلى «عبدالعال» تزين وجهها - ككثيرات من نساء الصعيد - بوشم على شكل نقط على جانبى وجهها وأسفل شفتها، وأخرى تتوزع على ظاهر أصابع كفيها.. أما بعد أن عرفته، وعلى الرغم من أنها كانت ما تزال زوجة لـ«أحمد رجب»، فقد وشمت باطن كفها اليمين بعبارة «محمد عبدالعال حبيب قلبى».. أما هو فكان جسده يخلو - على عكس كثيرين من أبناء الصعيد - من أى وشم، إلى أن عرفها، فوشم على مقدمة ساعده الأيمن صورة لأمرأة تمسك باحدى يديها سكيناً وبالأخرى وردة، وتحتها اسم حبيبة القلب «سكينة بنت على».. وهو ما يدل على أن العاشق المتيم كان يتمتع بروح مرحة، لا تخلو من نفاذ البصيرة، دفعته إلى هذا التلاعب اللفوى، الذى قلب اسم الحبيبة من مصدر يرمز إلى السكينة والهدوء، إلى اسم لسلاح أبيض يرمز إلى القتل، وأن يجمع بين المعنيين المتناقضين فى رسم مركب، يرمز إلى حب دموى يجمع بين الوردة والسكين، وبين الهدوء والعاصفة.

ولأن «حسب الله» كان يدرك أن «أحمد رجب» ليس من النوع المؤهل لكى يخوض حرباً من أجل الدفاع عن شرفه، وأن اقصى ما يستطيع أن يفعله هو أن يتذلل إلى «سكينة» لكى تترك رفيقها وتعود إليه، كما أنه هو نفسه، لم يكن على استعداد لكى يخوض تلك الحرب، فقد اتخذ من اعتراضه وسيلة للدعاية لنفسه، وللبرهنة على أنه - على عكس ما قد يظن الناس - من الرجال ذوى الدم الحامى، المتشددين فى أمور الأخلاق، خاصة بعد أن بدأ

«أحمد أبو الشام» - زوج شقيقة «عديلة الكحكية» وصاحب المقهى المواجه للمنزل - ينبه الجيران إلى ما يجرى فى منزل «آل همام» من «خبص» سوف يفسد أخلاق «نسوان الحته» من الحرائر، ومنع «عديله» من التردد على المنزل.. ولأنه كان يدير مقهاه للقمار، من دون تصريح رسمى بذلك، فقد كان حريصاً على أن يجلس على رصيفها لكى يراقب الطريق، حتى لا يفاجأ بهجوم من الشرطة، فإنه لم يبذل مجهودا استثنائيا حين أضاف بيت «آل همام» إلى الأهداف التى يراقبها، وأخذ يعترض طريق كل إمرأة أو رجل يقترب من بابه ليسأل كل منهم عن صلته بأصحاب البيت، وهدفه من الدخول إليه، إلى أن أحكم الحصار تماماً حوله.. فتوقف البيع والشراء.. وحط الركود.

وفى مواجهة ذلك، تصاعدت غضبة «حسب الله» الأخلاقية إلى ذروة غير مسبوقة، ولم يجد مفراً من اللجوء إلى العنف ليحول بين «محمد عبدالعال» وبين التردد على المنزل.. لكنه لم يمارس ذلك العنف بنفسه، بل استأجر عدداً من بلدياته الصعايدة، استطاع ان يوهمهم بأن «عبدالعال» يعتدى على حرمة بيته، وأن تأديبه واجب قومى لابد وأن يشاركوه فى أدائه، فتكررت محاولات التحرش بـ«عبدالعال» فى أماكن متعددة مما كان يتردد عليها، إلى أن وصلت إلى الاعتداء عليه أكثر من مرة، ولأن «سكينة» كانت تعرف زوج شقيقتها، وتحفظ أساليبه، وتدرك دوافعه، فقد شكت فى أن تكون تلك المحاولات من تدبيره، وعندما تيقنت من ذلك، قررت أن تؤدب «حسب الله» بنفس الطريقة التى أدبته بها من قبل، فطلبت من «محمد عبدالعال» أن يكف عن التردد على المنزل وظلت تتربص بسكان الجناح الآخر منه، إلى أن تسلل إليهم ذات ليلة زبون دخل الغرفة المخصصة للعمل مع فتاة تسمى «بديعة» كانت آخر ما تبقى فيه من بضاعة بعد الحصار الذى فرضه «أبو الشام» عليه. وعلى الفور، غادرت «سكينة» حجرتها، وأبلغت قسم شرطة «مينا البصل» الذى أرسل قوة هاجمت المنزل، وأخرجت «بديعة» من صندوق الملابس الذى أخفتها «ريا» فيه، وعثرت على الرجل فوق سطح المنزل.

وعلى عكس ما كان متوقعاً.. فقد وضعت الحرب أوزارها بين «آل همام» ليس فقط لأن «حسب الله» كان قد منى - للمرة الثانية - بهزيمة منكرة أمام «سكينة» فاضطر لمغادرة «بيت مينا البصل» ولكن - كذلك - لأن الرجال الثلاثة الذين كان الصراع يدور بينهم حولها، ماليثوا أن غادروا «الإسكندرية» ليلتحقوا بفيلق العمال التابع للسلطة العسكرية للحلفاء.. وكان «أحمد رجب» هو أول الذين انسحبوا، بعد أن انتهت اجازته.. ثم تبعه - بعد أسابيع - «محمد عبدالعال».. وأخيراً وبعد تردد شديد، حزم «حسب الله» أمره، وقرر أن يجرب حظه مثل الآخرين، وأن يمد خطوط تغريبته لتصل إلى «البسفور» و«الدردنيل».



القاسم المشترك الأعظم في سيرة حياة كل الذين عرفوا فيما بعد باسم «رجال ريا وسكينة» بعد «التغريبة» هو «الشغل في السلطة». وهو مصطلح شاع استخدامه على ألسنة المصريين خلال سنوات الحرب العالمية الأولى وما بعدها.. ليشير إلى ما يقرب من مليون ومائتى ألف من الفلاحين المصريين، تطوعوا بإرادتهم، أو سُخروا على الرغم منهم، لكى يقوموا - نيابة عن جنود قوات الحلفاء - بكل ما ليس عسكرياً فى المجهود الحربى: يحفرون الخنادق.. ويمدون الأسلاك الشائكة، ويقيمون أعمدة التليفون والتلغراف ويزيلون تلال الرمال، ويمهدون الطرق، وينشئون خطوط السكك الحديدية، ويحملون الذخائر، ويجرون المدافع، ويكنسون المعسكرات، ويحملون الطعام، وينظفون الدواب، ويغسلون الأوانى والملابس، ويعيدون ترتيب الأسِّرة.

والحقيقة أننا لا نعرف التواريخ الدقيقة أو الوقائع الكاملة للأعمال البطولية التى قام بها «رجال ريا وسكينة» لدعم المجهود الحربى للحلفاء، ليس فقط لأنهم كانوا من ذلك النوع من البشر الذين لا يعنيهم التاريخ، ولا يسعون إلى تدوين أسمائهم بين صفحاته، أو لأنهم كانوا من التواضع بحيث لم يعتبروا ما فعلوه بطولات لولاها لما انتصر الحلفاء فى الحرب.. بل لأن الغموض، يشوب كل الوقائع التى تتعلق بما حدث لهؤلاء المليون ومائتى ألف فلاح، الذين ظلوا على امتداد معظم سنوات الحرب، يدخلون فى جوف السفن العسكرية البريطانية لتنقلهم من الإسكندرية أو من بورسعيد، إلى أماكن مجهولة من ساحات القتال التى اتسعت لتشمل ثلاث قارات هى أوروبا وآسيا وإفريقيا.. فيعود بعضهم، ولا يعود الآخرون، بعد أن طمرتهم الثلوج، أو دفنتهم الانهيارات الرملية، أو ذهبت بهم الأوبئة، ولا يعرف أحد ماذا جرى لمن عادوا منهم، إذ لم يعن أحدهم بتدوين ذكرياته، أو يهتم بذكر بطولاته، فلم يبق من «الشغل فى السلطة» سوى معلومات قليلة، ومطلع أغنية حزينة، ما يزال المصريون يرددونها إلى اليوم يقول «بلدى يا بلدي.. وأنا بدّى أروح بلدى.. بلدى يا بلدى.. السلطة حدت ولدى».

وكان «الشغل فى السلطة» قد بدأ داخل مصر ذاتها، وبمجرد دخول انجلترا الحرب فى أغسطس (آب) ١٩١٤، حين قررت القيادة العامة لقوات الاحتلال تحصين الشواطىء المصرية، وخاصة حول ضفتى «قناة السويس» باعتبارها الطريق الرئيسى لمواصلات الامبراطورية، فطلبت متطوعين من العمال المصريين للقيام بأعمال الحفر، وإزالة مخلفاته، وفى مقدمتهم الجمالة الذين كان عليهم أن يتعاقدوا على العمل مع جمالهم.. ومالبث انضمام تركيا إلى أعداء بريطانيا فى الحرب، أن رفع من درجة الخطر على «قناة السويس» إذ

أغـراهم وجـود جيـوشـهـم فى فلسطين القريبة منها، بتكرار محاولاتهم للاستلاء عليـهـا، ليضـربوا مـواصلات الحلفاء فى مقتل.

ومع آن المحـاولتـين اللتـين خـاضـهـمـا الأتراك لاختراق القناة قـد فـشلتـا، إلا آن السلطة العـسكرية البـريطانيـة حـرصت علي إقامة تحصينات دفاعية قوية لتواجه أية محاولة تركية أخرى، وهو مـا ترتب عليـه احتيـاجها الدائم إلى مـدد لا ينقطع من العمال المصريين لإقامة التحصينات وحفر الآبار وتشييد مخازن الذخيرة والمؤن وغيرها من الأعمال التى لم تتوقف طوال سنوات الحرب، وما لبثت التطورات في الأوضـاع العـسكرية، أن امتدت بالخطوط التى كان هؤلاء العمال يعملون فيها من «شبه جزيرة سيناء» إلى «فلسطين» ثم إلى «سـوريا» و«لبنان». ثم نشأت الحاجة لأن يكون هناك خط بحرى لهـذه الفيـالق حـين اتخـذ الحلفـاء من الاسكندرية مركزاً للحملة البريطانية على شرق البحـر المتوسط، التى كـانت تهدف إلى قطع الشـريان الرئيـسى لمواصـلات الأعداء بالاستيلاء على العاصمة التركية. وأثناء الإعداد لتلك الحـملة - فى صـيف ١٩١٥ - أعلنت قيادتها عن حاجتها إلى ٥٠٠ عامل من أبناء الصعيد، لكى يسافروا إلى جـزيرة مـودوروس». لكى يقـومـوا بالأعمال المساعدة للمجهود الحربى. وعلى



شارع فى إحدى قرى شبه جزيرة جاليبولى التى شارك حسب الله فى احتلالها

الرغم من ضـعـف أجـورهم التى لم تكن تزيد فى المتوسط عن ثمـانيـة قـروش فى اليوم، فضلاً عن نفقات الطعام وهى ستة قـروش، فقـد قـامـوا على امـتداد الشهـور الستـة التى قـضـوها فى الجـزيرة، بعـمل وصفـة السير «أرشيبالدمرى» القائد العام للحملة فى تقرير قدمه إلى وزير الحربية البـريطانيـة بأنه «معـجـزة انجزوها تحت وابل مستمر من القنابل»، مما شجعه على التـوسع فى طلب المزيد منهم حتى وصل عددهم - عند جلاء القوات البريطانية عن شبه الجزيرة - إلى ثلاث آلاف عامل..

وما كاد قادة جيوش الحلفاء ينتبهون إلى الفوائد الجمة التى تعود على جيوشهم من استخـدام هؤلاء الصعـايدة القـادرين

على القيام بأكثر العمليات مشقة فى أصعب الظروف المناخية من دون تذمر أو شكوى، الموهوبين فى عمليات الحفر، حتى أخذوا يتنافسون لكى يكون لكل قائد منهم نصيبه من مساعدتهم التى لا تقدر بثمن، فلم يعد «الشغل فى السلطة» مجرد عمليات متفرقة، أو مؤقتة تتم عند الحاجة إليها، بل أصبح أشبه ما يكون بسلاح جديد من أسلحة الحرب، لا تستطيع جيوش الحلفاء أن تواصل القتال من دونه.. مما اضطر القائد العام للقوات البريطانية فى مصر إلى إنشاء مصلحة دائمة لتنظيم مشاركة «سلاح الصعايدة» فى الحرب.. تتلقى الطلبات من جبهات القتال المختلفة، وتعلن عن الأعداد المطلوبة منهم، وتجرى الفحوص الطبية على المتطوعين، وتتعاقد معهم، ثم تشرف بعد ذلك على ترحيلهم.

وبعد «شبه جزيرة سيناء» و«شبه جزيرة جاليبولى» سافر أكثر من ثمانية الاف من الصعايدة إلى «العراق» لكى يدعموا المجهود الحربى للحملات البريطانية التى تحركت من الهند فاحتلت «البصرة» ثم أخذت تزحف نحو «بغداد» لانتزاع ما كان يعرف آنذاك بـ«بلاد ما بين النهرين» من بين أيدى الأتراك.. وسافر ١٥ ألفاً آخرون منهم للعمل وراء خطوط القتال فى الجبهة الغربية بفرنسا.. وباتساع جبهات القتال لم تعد أعداد «المتطوعين» من الصعايدة كافية لسد حاجة جيوش الحلفاء منهم، خاصة بعد أن روى العائدون من «الشغل فى السلطة» من الصعايدة ما تعرضوا له من أخطار مميتة وأمراض قاتلة ومعاملة سيئة، وهم يعملون تحت وابل من سياط المشرفين عليهم.. ومن نيران الأعداء. ومع ازدياد الحاجة إلى المتطوعين، وقلة الإقبال على التطوع، حولت القيادة العامة للجيش البريطانى «الشغل فى السلطة» من «عمل اختيارى» إلى «تجنيد إجبارى» ومن تطوع إلى سخرة ومن الصعايدة إلى كل الفلاحين، فعينت فى كل مركز من مراكز الشرطة فى الريف ضابطاً بريطانياً ليعاون مأمور المركز فى جمع «المتطوعين». وفرضت الحكومة المصرية على كل «عمدة» أن يختار عدداً محدداً من شباب الفلاحين فى قريته لكى «يتطوعوا» للشغل فى السلطة والا جوزى أو عزل من وظيفته، فكانوا يختارون خصومهم أو الذين يعجزون عن افتداء أنفسهم بدفع الرشاوى لهم، فإذا قل عدد المتطوعين عن العدد المحدد او تقاعس بعضهم عن تسليم نفسه، حاصرت قوات الشرطة القرية، وهاجمت قوافل الفلاحين العائدة عند الغروب من الحقول وأسرتهم وربطت كل مجموعة منهم بحبل طويل لتقودهم ـ بين بكاء الأطفال وولولة النساء ـ الى «كامب ـ أو معسكر ـ التوزيع» فى «الاسماعيلية» فيجبرون على التوقيع على طلب بالتطوع يسافرون بعده إلى جحيم الحرب، حيث لا يعرف أحد على وجه التحديد ـ وحتى اليوم ـ ماذا جرى لهم هناك.

ومع أنه من الثابت أن «رجال ريا

وسكينة» الذين انضموا إلى فيلق العمال، وساهموا ـ مع مئات الآلاف من المصريين ـ فى تحقيق النصر للحلفاء فى الحرب العالمية الأولى، كانوا تحت السلاح خلال النصف الثانى من عام ١٩١٧، ومع بداية الانتقال من «سياسة التطوع» إلى «سياسة التسخير» إلا أن ذلك لا يعنى أنهم اجبروا على ذلك.. ففضلاً عن أنهم كانوا يقيمون آنذاك فى «الإسكندرية» حيث لم تكن السلطة العسكرية تستطيع تجريد حملات التطوع الإجبارى فى المدن الكبرى، فمن الثابت كذلك أنهم كانوا من بين عشرات الألوف من سكان تلك المدن، وخاصة المهاجرين الصعايدة منهم، الذين رحبوا بالتطوع للشغل فى السلطة وتنافسوا عليه، بعد أن تفشت البطالة بينهم، ودفع بهم التصاعد المستمر فى نفقات المعيشة إلى الوقوف على حافة المجاعة. فلم يبد لهم الشغل فى السلطة مجرد فرصة متاحة لعمل لا يجدونه أصلاً فى بلادهم، بل وجدوا فى شروطه إغراءً لم يستطيعوا مقاومته فمتوسط الأجر اليومى لمن يسافر منهم إلى «العراق» و«مودروس» و«سالونيك» و«فرنسا» هو ثمانية قروش، يستطيع ـ لو شاء ـ أن يدخرها بالكامل إذ كان الجيش يصرف لهم كسوتهم، وهى بدلة عسكرية من ملابس الميدان التى يرتديها الجنود، وبالطو، وحذاء وثلاث بطانيات وقميصين وطاقمين من الملابس الداخلية. وهو يتعهد كذلك بنفقات تغذيتهم بطعام يتعذر على الكثيرين منهم الحصول على مثله فى بلادهم، بصرف النظر عن أنه كان مما نهبه الجيش البريطانى من المحاصل المصرية خلال سنوات الحرب، إذا كان يصرف لكل منهم جراية يومية تتكون من ٣٢ أوقية من الخبز البلدى و٢٤ أوقية من البقسماط وثلاث أوقيات من اللحم وأربع من العدس ومثلها من البصل وأوقيتان من الأرز فضلاً عن السمن والملح والشاى واللبن فى بعض الأحيان.

والحقيقة أن الجدول الزمنى لتحركات «رجال ريا وسكينة» على خريطة الشغل فى السلطة يبدو شديد الغموض فنحن لا نعرف ـ على وجه التحديد ـ متى سافر كل منهم أو عاد أو إلى أين ذهب في كل مرة.. لكن المؤكد أن «أحمد رجب» كان أول الذين سافروا منهم، كما كان أكثر الجميع مداومة على السفر، ولعل مدة شغله فى السلطة استغرقت معظم سنوات الحرب، وهذا ما يفسر ظهوره المتقطع على شاشة الأحداث. والأرجح أنه كان بحكم خبرته السابقة فى العمل فى حفر الترع وتطهير المصارف، كان فى طليعة الذين تطوعوا فى بدايات



الجنرال أرشيالد مرّى

الحرب للعمل فى إقامة التحصينات على الضفة الغربية لقناة السويس، وهو ما يكشف عنه إيقاع عودته إلى «الإسكندرية» فى إجازات قصيرة متلاحقة لزيارة زوجته «سكينة» مما يدعو للاستنتاج بأنه كان يعمل - آنذاك - داخل مصر، وليس خارجها.. ومن المرجح - كذلك - أنه كان من بين الذين سافروا الى أحد الميادين الحربية البعيدة، بعد أن فشلت محاولته للاستقرار مع «سكينة» فى قريته «نكلا العنب» فمنذ ذلك الحين تباعدت المسافات بين إجازاته. ومع أن نظام الشغل فى السلطة، كان يقوم على أساس ألا تزيد مدة عمل المتطوع عن فترة تتراوح بين أربعة وستة شهور، يعود بعدها ليحل محله غيره، أو يسافر هو نفسه إذا كان ما يزال راغباً فى التطوع، إلا أن تطورات المعارك الحربية كانت تدفع قادة الجيوش إلى تجاهل هذه الضمانات، وإبقاء المتطوع قسراً فى العمل، فضلاً عن أن بعض المتطوعين كانوا يفضلون البقاء خشية إلا تتاح لهم الفرصة للعودة مرة أخرى، فيفقدون عملاً مضموناً، ويعودون إلى التشرد.

ولا أحد يعرف الظروف التى دفعت «أحمد رجب» إلى مواصلة العمل فى السلطة بشكل دائم، ولعله - ككثيرين غيره ممن سافروا معه - كان يطمع إلى أن يدخر قدراً من المال، ليعود - بعد إنتهاء الحرب - إلى قريته فيشترى دكاناً يتاجر فيه، أو قطعة أرض صغيرة يزرعها، ويتوطن إلى جوارها مع زوجته «سكينة» التى لا شك فى أنه كان يحبها ويحرص على الإبقاء على حياتهما الزوجية على الرغم من أنها لم تكن تبادله الحب بنفس الدرجة، ولم تبد أى حرص على مواصلة الحياة معه.

وكان غياب «أحمد رجب» الدائم طوال سنوات الحرب عن زوجته، هو السبب الرئيسى فى فتور عواطف «سكينة» نحوه وفى انهيار حياتهما الزوجية فيما بعد بالطلاق، فقد طالت غيبته حتى نسيت «سكينة» أنها متزوجة، فاتخذت لها رفيقاً ثم آخر.. وحين عاد كان الأوان قد فات لإصلاح الأمر.

ولم يكن «أحمد رجب» الوحيد من المشتغلين فى السلطة الذى قضت الحرب على حياته الزوجية، ولم تكن «سكينة» الوحيدة بين الزوجات التى استطالت غيبة زوجها فاتخذت لها رفيقاً، إذ كان التفكك الأسرى، والتحلل الجنسى، أحد الأعراض الجانبية لوباء الحرب الذى قضى على جانب كبير من القيم الأخلاقية الراسخة للمصريين.. فضلاً عن الفقر الذى فضح معظم المستورين، والجوع الذى هدد الفقراء، فقد أدى غياب الرجال الطويل فى ساحات القتال وانقطاع أخبارهم، إلى بقاء كثير من النساء المصريات - وخاصة فى المدن الكبيرة - وحيدات بلا أب ولا زوج ولا ابن فى ظروف من القلق والفقر تنعدم معها المقاومة الداخلية، فتسربت كثيرات من نساء الأسر الفقيرة، والمستورة، إلى بيوت البغاء - وخاصة السرية منها - بحثاً عن ثمن الطعام، أو عن الترفيه، أو لمجرد الرغبة فى التمرد..

وكان «محمد عبدالعال» هو الثانى من «رجال ريا وسكينة» من حيث طول المدة التى أمضاها فى الشغل بالسلطة إذ قضى بها ستة عشر شهراً متصلة ـ طبقاً لما ذكره فى محضر استجوابه أمام «على بدوى» وكيل نيابة الإسكندرية ـ ومع أن هناك عوامل كثيرة تدعونا للتحفظ على ما قاله، إذ كان ادعاؤه الغياب عن مسرح الأحداث، أهم العناصر التى يستند إليها فى إنكار التهم الموجهة إليه، فضلاً عن تناقض التواريخ التى ذكرها لسفره وعودته، مع تواريخ وقائع اخرى وردت على لسانه هو نفسه، وأثبتتها وثائق رسمية، إلا أنه من المرجح أنه سافر للشغل فى السلطة خلال الفترة بين نهاية عام ١٩١٧، والشهور الأولى من عام ١٩١٩، سواء لمرة واحدة أو لمرات متتابعة كان يعود خلالها فى إجازات قصيرة، إلى أن استقر فى «الإسكندرية» حوالى ربيع عام ١٩١٩ حيث إنتقل للإقامة مع «سكينة» فى حجرة ضيقة بالمنزل رقم ٥ بشارع «ماكوريس» ـ المعروف باسم «بيت الجمال» ـ الذى يقع خلف مبنى «قسم شرطة اللبان» وهو منزل قدر له فيما بعد أن يدخل التاريخ.

والإشارة الوحيدة التى وصلتنا من ميدان القتال الذى سافر إليه «محمد عبدالعال» خلال تلك الفترة، هى غطاء للرأس هرمى الشكل يسمى «عراقيه» كان من بين ما ضبط فى الدرج الخاص به فى صيوان ملابس شقيقه «محمود» بعد القبض عليه، وحين سئل عنه، قال إنه اشتراه حين كان يعمل بالسلطة، ولأن هذا النوع من أغطية الرأس، كان ـ وما يزال ـ شائع الاستخدام فى «العراق» فلابد أن «محمد عبدالعال» كان من بين جحافل العمال المصريين الذى التحقوا بخدمة الحملة البريطانية الهندية التى قامت بمهمة انتزاع «العراق» من بين أيدى «الاتراك» وإن كانت التواريخ التى ذكرها تدل على أنه كان بين الذين سافروا بعد سقوط «بغداد».

ويشغل «عرابى حسان» المرتبة الثالثة من حيث طول المدة التى أمضاها فى الشغل بالسلطة، إذ نلاحظ غيابه المتكرر عن الأحداث، فعلى الرغم من أن «حسب الله» قد جزم بأنه كان بمثابة الفتوة الدائم لبيوت البغاء السرى المملوكة لآل همام، وأنه ظل طوال الفترة بين نهاية عام ١٩١٦ ـ تاريخ تعرفهم به ـ ونهاية عام ١٩٢٠، يضعهم تحت حمايته، إلا أن ما ورد على لسان المؤرخين الذين رووا سيرة تلك البيوت ـ ومن بينهم «حسب الله» نفسه ـ يدل على أن «آل همام» قد أجبروا على الجلاء عن بعضها، من دون أن يظهر «عرابى» فى الصورة، أو يقوم بواجبه فى الحماية. بل إن فتوة آخر اسمه «عطية الشرنوبى» قد حل محله فى القيام بواجب حماية أحد تلك البيوت، وخاض معركة شرسة ضد المهاجمين، انتهت بالحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات.. وهو ما يدل على أن «عرابى» كان يغيب عن «الاسكندرية» لفترات كان خلالها يعمل فى السلطة خاصة إذا ما علمنا أنه كان ـ على الرغم من أميته ـ يحاول تعلم اللغة الإنجليزية وكان من بين الذين استعان بهم

ويكاد «حسب الله» يكون أقل «رجال ريا وسكينة» حماساً للعمل فى السلطة، أو رغبة فى السفر والغالب أن كلفه بالمظاهر وكسله، واعتزازه الكاذب بنفسه، كان وراء تفضيله للبقاء فى مصر، ليعيش من ايراد بيوت البغاء التى كانت تديرها زوجته، عن أن يتحمل عذاب السفر إلى بلاد بعيدة، ليعانى من قسوة الغربة، ومشقة العمل فى ظروف مناخية غير ملائمة، لمن تعود مثله على أعمال لا تتطلب منه مجهوداً مثل العمل في حراسة المنازل أو خفارة المحالج، فضلاً عن أنه لم يكن من النوع الذى يستسيغ أن يتحمل على كرامته المدعاة، أن يضرب بالسياط أو يهان بكلمات السباب. أو يصفع على وجهه، وهو الاسلوب الذى كان سائداً فى التعامل مع المشتغلين فى السلطة.


فريق من الجنود فى جزيرة لمنوس حيث كان يخدم «حسب الله»

ولعل تجربته الأولى فى العمل لدى السلطة، كانت مريرة، إذ كان من بين الطلائع الأولى لفيلق العمال الذى شارك فى حملة «جاليبولى» فسافر إلى «ليمنوس» - عاصمة جزيرة «مودروس» - بعد شهور قليلة من هربه «من كفر الزيات» واستقراره بالإسكندرية وامضى بها اربعة أشهر ونصف الشهر، ويقول «حسب الله» أنه حين عاد من «ليمونس» وجد زوجته على ذلك، جار لـ«سكينة» و«محمد عبدالعال»، فى أحد المساكن المستقلة التى كانوا ينتقلون للإقامة فيها، كلما تجددت المشاحنات بينهم وبين «ريا» و«حسب الله».

وإذا كنا لا نعرف - على وجه الدقة - متى ظهر «عرابى» على خريطة الشغل فى السلطة - أو عدد مرات سفره، أو ميادين القتال التى عاش فيها، فنحن نعرف على وجه اليقين، أنه كان من بين الذين شاركوا فى المرحلة الأخيرة من الحرب فى الجبهة الشامية، وكان من بين اللذين زحفوا خلف الجنرال «ألنبى» فاتح الشام، فقد ضبطت لديه - عند القبض عليه - ساعة قال إنه اشتراها من شخص بالشام، وملابس من الحرير الشامى قال إنه اشتراها من بيروت الشام، التى عاد منها فى النصف الأول من عام ١٩١٩، وبصحبته شهادة كتبها لها الصاجن الانجليزى بأنه أدى عمله بكفاءة.

وشقيقتها قد انتقلتا إلى «بيت الخواص» وشرعتا فى إدارته كبيت للبغاء السرى.. أما ريا فتقول:

ـ ولما رجع «حسب الله» وشاف الرجالة والنسوان داخله خارجة.. ماقالش حاجة.. لا قال اتلموا ولا اختشوا.. ولا مد يده على راجل.. ولا فكر ياخدنى يقعدنى فى بيت بعيد عن الحالة دى. وكانت الفلوس اللى بتيجى من الشغل ياخدها.. لأنه كان إذا اشتغل يوم.. يبطل عشرة.. ولما وجدته ساكت.. استمريت فى الشغل.

ولم تقتصر مشاركة «حسب الله سعيد» فى المجهود الحربى للحلفاء، على حملة «جاليبولى»، إذ من الثابت أنه قد شارك ـ كذلك ـ فى الحملة الإنجليزية الهندية التى قامت بالاستيلاء على العراق.. إذ كان من بين ما ضبط معه عند القبض عليه، محفظة للنقود من الجلد الشامواه، قال إنه اشتراها بخمسين قرش صاغ، من أحد أسواق «البصرة» عندما سافر إليها أثناء عمله فى خدمة السلطة العسكرية.. كما سافر ـ فيما بعد ـ إلى «يافا» ضمن فيلق العمال الذى كان يعمل فى الخطوط الخلفية لحملة الجنرال اللنبى التى قامت بالاستيلاء على «فلسطين» ثم زحفت منها إلى بقية أنحاء الشام.. وليس لدينا ما يدل على أن «حسب الله» قد التقى خلال تلك السفرات بـ«محمد عبدالعال» ـ الذى شارك فى حملة العراق ـ أو بـ«عرابى حسان» الذى شارك هو الآخر فى حملة الشام.

ولم يكن «حسب الله» وحده. هو الذى عاد من الشغل فى السلطة، ليجد زوجته تدير بيتاً للبغاء السرى، فلم يحتج أو يغضب، أو يتصرف كما ينبغى لصعيدى تفرض عليه تقاليده، أن يقطع ـ بالفأس ـ كل رأس تلقى عيناه نظرة عابرة على واحدة من «حريماته». فقد عاد «أحمد رجب» ليجد زوجته ترافق رجلاً غيره، فلم يغضب، ولم يفكر فى تطليقها حتى بعد أن طلبت ذلك بلسانها، بل اكتفى بالتذلل إليها لكى تستأنف حياتها معه، واستعطف «محمد عبدالعال» لكى يهجرها فتعود إليه فلم يقبل، وصفعه على وجهه طالباً إليه أن يتصرف كرجل، وألا يفرض نفسه على امرأة لا تريده..

والأمر المؤكد أن شيئاً غامضاً قد حدث لهؤلاء الرجال الذين عاشوا محنة «الشغل فى السلطة» خلال سنوات الحرب العالمية الأولى ساهم فى القضاء على ما تبقى من تقاليدهم الريفية الراسخة، وحطم منظومة القيم الخلقية التى تربوا عليها، فجعلهم يمارسون أشياء كان مستحيلاً على أكثر الناس سوء ظن فى نخوتهم أن يتنبأ بقدرتهم على ممارستها، أو مجرد رضاهم عنها، قبل أن تهب العاصفة فتهز المجتمع المصرى هزاً عنيفاً.. وكانت مصر ـ بحكم مرور قناة السويس بين أراضيها ـ قد تحولت فور نشوب الحرب، إلى قاعدة لتجميع المحاربين، يساقون إليها من مختلف بلاد المستعمرات التابعة للتاج البريطانى فى «نيوزيلاندا» و«استراليا» و«الهند» وغيرها من المستعمرات الآسيوية،

ليقيموا فى معسكرات خاصة يستكملون فيها تدريباتهم قبل توزيعهم على ميادين القتال، حتى تحولت دلتا النيل إلى معسكر مسلح، وأصبح سكان المدن - حتى الصغيرة منها - يرون جنود الحلفاء فى كل ميدان وفى كل شارع يعسكرون، أو ينتقلون بين المعسكرات أو يعودون من ميادين القتال فى إجازات قصيرة، يرفهون خلالها عن أنفسهم، فيسكرون ويعربدون، كما ينبغى لرجال يعيشون فى ظلال الموت.

ولم يكن الارتباك الذى حدث فى أوضاع مصر خلال تلك السنوات، قاصراً على وضعها الدولى ونظامها السياسى الذى تحول من «خديوية» ذات استقلال ذاتى يحكمها الخديو «عباس حلمى الثانى» نيابة عن سلطان تركيا، إلى «سلطنة» تحت الحماية البريطانية، يحكمها عمه السلطان «حسين كامل»، بل تعدى ذلك إلى حصار كامل للحركة الوطنية، التى كانت تطالب - قبل الحرب - بجلاء الاحتلال البريطانى، وبإصدار دستور يتيح للأمة أن تحكم نفسها بنفسها، فهاجر معظم زعماء «الحزب الوطنى» - الذى كان يقود تلك الحركة - إلى تركيا، أو إلى البلاد الأوروبية المحايدة.. وحالت الأحكام العرفية والمعتقلات المفتوحة، بين الذين ظلوا منهم داخل البلاد، وبين القيام بأى نشاط، وتوقفت معظم الصحف الوطنية عن الصدور بعد أن وجدت أن الموضوع الوحيد الذى تسمح لها الرقابة العسكرية البريطانية بالكتابة عنه هو التنويه بانتصارات الحلفاء.. والحط من شأن أعداءهم وفى ظل استعراضات القوة التى كانت قوات الحلفاء تقوم بها فى شوارع المدن، وقرارات النفى الإدارى والاعتقال التى كانت السلطة العسكرية تتخذها بحق المشاغبين والمعارضين، وحملات الخطف التى كانت تشنها على القرى لجمع الأنفار المطلوبين لفيلق الشغل فى السلطة، وإجبارهم على التطوع لذلك، أو تلك التى خصصت للاستيلاء على المحاصيل والمواشى وحيوانات الجر التى كانت فى حاجة إليها لتموين جيوشها، والتدهور المتواصل فى مستوى المعيشة الذى فضح المستورين من الناس.. تفاقم إحساس المصريين بأنهم يعيشون فى بلد لا حول له ولا قوة، ويساقون إلى المشاركة فى حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، بل ويجبرون على معاداة خليفة المسلمين الذين كانوا يقدسون مركزه الدينى، من دون أن يستطيعوا مقاومة شىء من ذلك كله، فاستسلموا له وهبط إحساسهم بكرامتهم القومية والشخصية إلى حدوده الدنيا.

وكما يحدث عادة، فى مثل هذا النوع من الحروب، فقد تفككت اللحمة التى كانت تربط كيان المجتمع وتعطيه شيئاً من التماسك، وتحلل - بالتالى - نظامه الخلقى وأصبح الهم الأساسى لكل فرد، هو أن يحافظ على حياته، أو حياة الذين يمتون إليه بصلة مباشرة، وأن يدبر لهم - بأية وسيلة - مجرد احتياجاتهم الأساسية، من الغذاء والكساء والسكن ففقدت الضوابط الأخلاقية العامة تأثيرها، بعد أن أصبح الجميع فى الهم مصريين، ولم يعد لدى

أحد دافع لكى يلوم الآخر.

ولابد أن تأثير تلك الظروف على الذين التحقوا بـ«فيلق العمال المصرى» كان أكثر من تأثيرها على غيرهم من المصريين حتى ولو كانوا من هؤلاء الذين «تطوعوا» فعلاً للشغل فى السلطة، ولم يخطفوا من قراهم ويجبروا على توقيع طلبات تطوع لكى تحفظ الامبراطورية البريطانية ماء وجهها، فلا يتهمها أحد أنها أعادت السخرة، وهى التى كانت تدعى أنها احتلت مصر لكى توقف السخرة والكرباج، مثل «أحمد رجب» و«حسب الله» و«عبدالعال» و«عرابى»، إذ لم يكن «تطوعهم» كما يبدو من ظاهر معنى الكلمة، تعبيراً عن رغبة حرة فى خدمة المجهود الحربى للحلفاء، أو اقتناعاً بعدالة الحرب التى يخوضونها، أو عملاً اختاروه من بين فرص العمل العديدة المتاحة فى سوق العمل، بل كان قراراً اضطروا إليه اضطراراً، فلم يكن حالهم يختلف عن حال هؤلاء الذين سيقوا بالإكراه إلى التطوع.. إذ كان البديل الوحيد المتاح أمامهم، هو أن يموتوا جوعاً، ولولا ذلك لما امتدت خطوط تغريبتهم من «الإسكندرية» التى أحبوها واستقروا فيها، وتوهموا أنها المرفأ الأخير الذى سوف يحقق لهم حلمهم فى حياة أقل جدباً. وأكثر ليناً من تلك التى كانوا يعيشونها فى قراهم الجنوبية الفقيرة.. فإذا بهم يكرهون على الرحيل شرقاً إلى صحراء سيناء ثم إلى بلاد الشام والعراق، وغرباً إلى شبه جزيرة «جاليبولى» وإلى «فرنسا» يقطعون صحارى تمتد فيها الرمال بلا انتهاء، وتتساقط فوقها الثلوج فى الشتاء، أو يعيشون فى جزر تقع فى وسط البحر المالح، بين جنود وضباط لا يعرفون لغتهم، ويتلقون أوامر كان يصعب عليهم فهمها، أو يشق عليهم تنفيذها من دون أن يستطيعوا السؤال أو الاحتجاج، إذ كانوا يخضعون لنظام عمل عسكرى صارم، يقضى بقيادة المتمرد إلى المجلدة، لتتولى السياط تأديبه، حتى لا ينتقل وباء التمرد منه إلى زملائه.



الجنرال مود قائد معركة بغداد

ومع أن المشتغلين فى السلطة، لم يكونوا يحملون السلاح، أو يشاركون فى القتال، إلا أنهم كانوا يعيشون على مسرح الحرب، ويعملون تحت القصف المتوالى لرصاص البنادق ودانات المدافع، بل وكان إخلاء الميدان من القتلى والجرحى من واجبات بعضهم، فتعودوا على رؤية الدماء والأشلاء، وأصابهم ما يصيب كثيرين ممن يشاركون فى الحروب وخاصة المدنيين منهم: تبلدت أحاسيسهم تجاه الموت، ولم يعد مشهد الدماء يخيفهم، أو قتل الآخرين يرعبهم، ولم يعد لقوانين المجتمع المدنى

الذى جاءوا منه نفس التأثير الذى كان لها فى نفوسهم، قبل أن يعيشوا فى مجتمع الحرب، حيث قتل الآخرين هدف فى حد ذاته.

والغريب أن الجانب الذى يمكن اعتباره سعيداً من التجربة، لم يقل فى تأثيره السلبى على منظومة القيم الخلقية للمشتغل بالسلطة، عن الجانب غير السعيد منه. فقد تعودوا على عادات يمكن اعتبارها مرفهة بالقياس الى حياتهم قبل العمل بها، وعرفوا معنى أن يعمل الإنسان عملاً منتظماً بلا توقف، وجربوا رفاهية أن يأكلون ثلاث وجبات منتظمة فى اليوم، وحازوا فخر أن يكون اللحم والبقسماط والمربى من بين الأطعمة التى يتناولونها كل يوم، وتعودوا على استبدال ملابسهم بأخرى نظيفة قبل أن تتراكم عليها القذارة وأتاحت لهم الحرب فرصاً للاختلاط بآخرين، وللتجول فى أسواق المدن المفتوحة وللاستمتاع برؤية مالم يسبق لهم رؤيته من مشاهدها، فعز عليهم - بعد عودتهم - أن يقبلوا واقع الحياة فى القرى والمدن التى خرجوا منها، وفقدوا فضيلة الرضا بالواقع التى كانت تميزهم قبل أن يضطروا إلى معاناة تلك التجربة القاسية.

ومن سوء الحظ أن أحداً من المؤرخين، لم يعن بالربط بين «الشغل فى السلطة» وبين نمط الجريمة الذى ساد فى مصر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، مع أن هذا «الشغل» كان القاسم المشترك الأعظم بين المتهمين فى قضية «ريا» و«سكينة»، وفى عدد آخر من الجرائم التى تتسم مثلها بدرجة عالية من التوحش لم تكن معهودة من قبل فى تاريخ الإجرام المصرى.

ومن الشهادات النادرة التى وصلتنا عن الصلة بين الظاهرتين، ما رواه القاص والناقد الراحل «عباس خضر» فى سيرته الذاتية - التي نشرت بعنوان «خطى مشيناها» - عن «هريدى» أحد فلاحى «الفيوم» الذى احترف القيام بغارات ليلية لسرقة المواشى أو احراق الزرع أو غيرها من الأعمال التى كان يكلف بها نظير أجر، أو يقوم بها لحسابه. وكان يستعين على ذلك، ببندقية «مقروطة» - أى قطع معظم ماسورتها ليسهل إخفاؤها فى طيات الثياب - ويضيف «عباس خضر» أن «هريدى»، قد عاد من الشغل فى السلطة وعلى جلده آثار ضرب بالسياط، قيل إن الإنجليز قد أوقعوه به، عقاباً له على سرقة علبة بولوبيف، فعاد إلى القرية بعد أن سرحوه، حانقاً ساخطاً على كل شىء: العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفراء الذين تواطأوا على إرساله للعمل فى السلطة رغماً عنه، والإنجليز الذين أذلوه وضربوه بالسياط، وقيل إنه تعود على أكل البولوبيف، ولم يعد له صبر على أكل «البتاو» و«المش» وسفح العرق فى أراضى الآخرين، ورعى مواشى الغير، ونقل سباخ الغير، فرفع مقروطته فى وجه الذين استضعفوه، وساقوه إلى الشغل فى السلطة، وفى مقدمتهم شيخ البلد والعمدة، فأصبح مهاباً فى البلد بعد أن كان ملطشة للجميع.

ولعل تغييراً مماثلاً لذلك الذى حدث لـ«هريدى» كان وراء صمت «حسب الله»

حين عاد من سفرته الأولى للشغل فى السلطة فوجد زوجته تدير بيتاً للبغاء السرى، وحين عاد من سفرته الثانية، فوجدها قد فتحت «بيت الكامب».



كان «بيت الكامب» هو أكبر مشروعات «ريا» و«سكينة» الاستثمارية فى مجال البغاء السرى، وأكثرها استقراراً وازدهاراً، ولم تكن الفكرة وراء إنشائه بعيدة عن التوسع الشديد فى حشد العمال المصريين للشغل فى السلطة، إبتداء من النصف الثانى من عام ١٩١٧، إذ اختارت قيادة الجيش البريطانى بالإسكندرية، أرض «شوادر البطيخ» ـ التى كانت تستخدم خلال شهور الصيف كمركز لتوزيع البطيخ على تجار التجزئة ـ لتقيم عليها معسكراً لتجميع المتطوعين للشغل فى السلطة، يقيمون فيه لعدة اسابيع، يجرى خلالها توقيع الفحوص الطبية عليهم، وتطعيمهم ضد الأوبئة، وعلاجهم من الأمراض المتوطنة، وتزويدهم بما يلزمهم من اوراق قبل توزيعهم على ميادين القتال المختلفة.

وكان وجود هذا «الكامب» هو الذى ألهم «ريا» فكرة استئجار بيت فى «سوق الجمعة» القريب منه، ليكون بمثابة مركز للترفيه عن المتطوعين للشغل فى السلطة إذ كانت تدرك بخبرتها أن الظروف النفسية القلقة التى يمر بها المقيمون فى هذا المعسكر، تدعوهم لطلب الترفيه إذا ما وجدوا السبل إليه ميسرة والأسعار معقولة.

وعندما عرضت الفكرة على «سكينة» تحمست لها، واستأجرت غرفة فى الطابق الثانى من المنزل، بينما استأجرت «ريا» مندرة فى الطابق الأرضى منه، وكان من حظهما أن العدد القليل من السكان الذين شغلوا بقية الغرف فى هذا المنزل الذى اشتهر فيما بعد باسمه التجارى «بيت الكامب» لم يكونوا من «الأحرار» الذين يغضبون لأن جيرانهم ينشطون فى مجال البغاء السرى. كما كان سفر «حسب الله» و«محمد عبدالعال» قبل تأسيسه بقليل، من علامات التوفيق التى أدت لاستقراره وازدهاره، إذ بدأ نشاطه بعيداً عن التوتر الدائم الذى كان وجودهما يشيعه فى العلاقات بين الشقيقتين. وبفضل تعاونهما الوثيق فى إدارته حقق البيت نجاحاً فاق كل تصور، واستطاع خلال شهور قليلة، أن يجعل الطلب على خدماته أحد التقاليد التى يحرص عليها معظم الصعايدة الذين يفدون للإقامة فى «كامب السلطة».

وحين عاد «حسب الله» من «الشغل فى السلطة» فوجد البيت مزدهراً بالنشاط، لم يعترض.. وعلى عكس ما حدث فى ظروف سابقة، لم يتشاحن مع «سكينة» ولم تثر بينهما مشاكل حول توزيع دخل البيت، إذ كان نصيبه من هذا الدخل، فضلاً عن المدخرات التى عاد بها من فترة عمله بالسلطة كافياً لنفقاته الشخصية على الرغم من أنه كان ـ كما لاحظت «ريا» ـ يسرف فى الإنفاق على مزاجه، ويرفض كل مشروعات زوجته بأن يدخر جانباً من

دخل المنزل ليقيما به مشروعاً يدر عليهما دخلاً ثابتاً، ويحميهما من الآثار الضارة للتقلبات المفاجئة وغير المضمونة فى سوق البغاء السرى.

والحقيقة أن «حسب الله» الذى توحى سيرة حياته القصيرة العاصفة بأنه كان شريراً من النوع البارد الدم، الذى يشيع ظهوره فى أفلام السينما المصرية، لم يكن من ذلك النوع من البشر الذين يتمتعون بذهنية عملية فيخططون لمسار حياتهم، ويعرفون أهدافهم بوضوح، بل كان أقرب ما يكون إلى إنسان بدائى ساذج تتواضع أهدافه عند مجرد إشباع رغباته الحسية المباشرة، فهو يغرم بالطعام الجيد وبالخمر والحشيش، وفيما بعد كشف عن رغبة عارمة فى النساء، واهتمام فائق عن الحد بالملابس الأنيقة، طبقاً لمفهوم الأناقة بين أمثاله من مهاجرى الصعيد فى الإسكندرية. والغالب أن إحساسه القوى بمدى القبح الذى يحيط به، كان وراء نزوعه المستمر للسعى وراء اللذات الدانية القطوف، وافتقاده للصبر على العمل الشاق الذى كان يعتبره مهيناً لكرامته، وكان جوعه للطعام وللنساء وللخمر وعدم صبره على اجتناء اللذة، وراد إسرافه ورفضه لأن يدخر من موارد شهور الرخاء، ما يستعين به على الحياة فى شهور القحط.

وعلى العكس من ذلك كان «محمد عبدالعال» أكثر عملية وواقعية، فقد عاد من «الشغل فى السلطة» ليقيم مع «سكينة» فى «بيت الكامب» لكنه لم يكن يشارك فى إدارة المنزل أو يقيم فيه سوى ساعات قليلة من الليل، إذ سرعان ما وجد عملاً آخر تابعاً للسلطة العسكرية كذلك، ولكن فى الإسكندرية نفسها، فكان يغيب فى معظم ساعات اليوم ولا يعود إلا فى ساعة متأخرة من الليل، فقلت الاحتكاكات بينه وبين «حسب الله» إلى حين. وبعودة «عرابى» هو الآخر من الشغل فى السلطة، استكمل «بيت الكامب» أركانه فتوسع فى تقديم خدماته، ونوّع فى السلع التى يعرضها على رواده، حتى وصل عدد النساء اللاتى يخدمن فيه إلى ٢٢ امرأة خلال شهور قليلة. ومع أن مستواهن لم يكن يختلف عن المستوى الذى تعود «آل همام» على تقديمه إلى رواد البيوت السابقة، إذ كن غالباً من النساء المهاجرات من القرى المحيطة بالإسكندرية، أو من أحد أحيائها الشعبية فقد كان ذلك هو المستوى المطلوب للمترددين على البيت ومعظمهم من الصعايدة، فضلاً عن عدد من فتوات الدرجة الثالثة من أصدقاء «عرابى» الذين عادوا للتردد على البيت ليمضوا سهراتهم معه.. ولم يكن نادراً أن يتردد على «بيت الكامب» عدد من الهنود أو النيوزيلانديين أو الاستراليين، بل والإنجليز أحياناً، من جنود الحلفاء الذين يحرسون المعسكر القريب منه، إما لرخص أسعار البضائع التى يبيعها بالقياس إلى بيوت الحماية، التى تقدم لروادها البغايا من الأفرنجيات، أو لمجرد الرغبة فى التنويع والحرص على التمتع بالبضائع الوطنية.

وكان نظام الحماية والأمن فى «بيت

الكامب» أكثر إحكاماً من أى بيت آخر من البيوت التى أدارها «آل همام» قبل ذلك حتى خلال الفترات التى كان على «ريا» و«سكينة» أن تنفردا خلالها بإدارته بسبب سفر الرجال للشغل فى السلطة. فقد استطاعتا بسهولة أن تخترقا جهاز الأمن فى المدينة، وأن تجندا «عبدالموجود عبدالرحيم» الخفير الذى شاء حظه الحسن أن يعينه قسم شرطة اللبان مسؤولاً عن الأمن فى المنطقة التى يقع فيها البيت، فكانتا تتكفلان بطعامه وشرابه وثمن ما يدخنه من سجائر، أو ما تنازعه إليه نفسه من متع أخرى. وفى مقابل ذلك لم يتغاض «عبدالموجود» - فحسب - عن القيام بواجبه فى إبلاغ رئاسته عما يجرى فى المنزل، بل وأصبح يقوم بجانب من الدور الذى كان «عرابى» يقوم به قبل سفره إلى السلطة، فكان يتكفل بأى زبون يحدث شغباً أو يحاول التسلل من المنزل من دون دفع ثمن ما تلقاه من خدماته، وكان زيه الرسمى كفيلاً بإرهاب كثيرين من الزبائن، وخاصة الصعايدة منهم، الذين كانوا يحرصون على عدم الوقوع بين يدى الشرطة، حتى لا يتعرضوا لمخاطر ترحيلهم إلى بلادهم.

ولم تجد «ريا» مبرراً للاستغناء عن خدمات «عبدالموجود» بعد عودة «عرابى» ليقوم بوظيفته السابقة فى حماية البيت، إذ كانت تدرك أهمية الدور الذى يقوم به فى الحيلولة دون وصول أنباء نشاطها إلى الشرطة، بشكل يدفعها للهجوم على البيت وإغلاقه، فضلاً عن انه كان يحل محل «عرابى» فى الفترات - أو الليالى - التى يغيب فيها عن المنزل لأى سبب. وعلى العكس من ذلك، فقد استجابت لطلب «عبدالموجود» بأن تقدم بعض العطايا، لنقيب الخفراء «عبدالعال» - وهو رئيسه المباشر - حتى لا ينقله من النقطة التى يقع فيها «بيت الكامب» إلى غيرها. وبذلك


الجنرال اللنبى.. والجنرال ونجت

ضمنت ولاء الإثنين، وكفلت للبيت درجة من الأمن مكنته من ممارسة نشاطه، وساعدت على ازدهار هذا النشاط، إذ كان تأمين بيوت البغاء السرى، ضد الهجمات الشرطية من أهم عوامل نجاحها، فضلاً عن أن روادها من الرجال، كانت لديهم عادة أسباب تدعوهم للتستر، فإن العاملات بها من البغايا كانت لديهن نفس الأسباب إذ كانت معظمهن يمارسن هذا النوع من النشاط من دون علم المحيطين بهن من الأقارب والجيران أحياناً الأزواج

والأبناء، ولم يكن يرعبهن شىء، أكثر من أن تضبطهن الشرطة فتحيلهن إلى الكشف الطبى، فينفضح هذ الجانب الخفى من حياتهن.

وكانت «نظلة أبوالليل» فى مقدمة النساء اللواتى كن يترددن على المنزل، ويقدمن خدماتهن لرواده منذ تأسيسه. ولم تنقطع عن ذلك حتى بعد أن عاد رفيقها «عرابى» من الشغل فى السلطة، واستأنف تردده على البيت، إذ كان ما يزال يتوهم أن دورها يقتصر على سحب النساء دون ممارسة النشاط، وأنها ما تزال مخلصة لرفقته، فضلاً عن أن كلاً من «ريا» و«سكينة» قد التزمتا بوعدهما لها، فلم تفشيا سرها لـ«عرابى» وساعدتاها دائماً على التخلص من المآزق الحرجة التى كانت تتعرض لها حين يفاجىء «عرابى» البيت بالزيارة فى وقت غير متوقع بينما تكون هى برفقة غيره من الرجال.. وقد توثقت العلاقة بينهما وبين «ريا» و«سكينة» خاصة بعد أن اشتد المرض على زوجها «إبراهيم سعيد» وانتقل للإقامة مع أمه لتقوم على رعايته بنفسها، فأصبحت «نظلة» تقيم بشكل شبه دائم فى «بيت الكامب» واتخذت منه مركزاً لممارسة نشاطها العلنى كحائكة للثياب، ونشاطها السرى، كبغى..

ولم تكن «نظلة أبوالليل» هى المرأة الوحيدة من بين نساء «بيت الكامب» التى تعيش هذه الحياة المزدوجة، وتخفى عن أمها وزوجها حقيقة النشاط الذى كانت تمارسه فى هذا البيت.. بل لعل التناقض بين الظاهر والباطن فى سلوكها كان أقل بكثير مما كان عند غيرها من نسائه، إذ الفارق بين سحب النساء وممارسة البغاء مجرد فارق فى الدرجة.

والحقيقة ان البغاء السرى كمهنة قد نشأ على الرغم من وجود البغاء العلنى الذى ينظمه القانون، لكى يستجيب لحاجة هؤلاء الذين يعيشون حياة مزدوجة، ويرغبون فى إسدال ستار كثيف على هذا الجانب السرى وغير المشروع من حياتهم.. وكما كان فيلق النساء اللواتى كن يعملن فى «بيت الكامب» يضم نساء كن يعملن من قبل فى نقطة البغاء الرسمى فى «كوم بكير» ثم اعتزلن العمل بها، بسبب مرض أدى إلى سحب ترخيصهن، فلما شفين فضلن العمل فى المجال السرى، حتى لا تقف الاصابة السابقة أمام مستقبلهن أو تحول دون الإقبال عليهن، أو بسبب زواج، دفعهن لتوبة لم تطل، لانتهائه بالطلاق أو لأن الازواج لم يستطيعوا أن يعولهن بعد الاعتزال، فقد كان يضم كذلك، عدداً من ربات البيوت، من أسر مستورة لهن أزواج وأبناء، ولا يعرف أحد على وجه التحديد الدوافع التى قادتهن إلى هذا المسلك الغريب.

ومن هذا النوع من المومسات الفاضلات اللواتى كن يترددن على «الكامب» برز فيما بعد اسم «نبوية بنت جمعة» التى لم يكن أحد من أهلها أو جيرانها فى «كوم الشقافة» يتخيل أنها تعيش حياة سرية تختلف تمام الاختلاف عن حياتها العلنية، أو أن تكون هناك أية

صلة بينهـا وبين امـرأتين من نوع «ريا» وسكينة» إذ لم تكن شابة صغيرة السن أو طائشـة بل كـانت قـد تجـاوزت ـ آنذاك ـ منتصف الحلقـة الرابعـة من عـمـرهـا.. وكانت متزوجة منذ ربع قرن على الأقل، من الحاج «حسين الزيات». وفـضـلاً عن أنها كانت قد أنجبت خلال تلك الفترة، ثلاثة من الأبناء الذكور، تجـاوز أكـبـرهم العشرين من عمره، بينما لم يصل عمر الأصغر إلى العاشرة، فقد كان زوجها رجلاً مستور الحال، يملك دكاناً للبقالة، يديره بمعاونة أولاده، ويدر عليـهم دخـلاً مكنهم من شراء البيت الذى كانوا يسكنون فى شقة منه.. ومع أن الأسرة لم تكن فى حاجة إلى عمل الأم، إلا أنها ـ بعد أن كبر أبناؤها ـ ولم يعودوا فى حاجة إلى رعايتها ـ أصبحت تضيق بالبقاء وحيـدة فى المنزل، إذ كان الأب يعمل مع بقية الأبناء فى الدكان، منذ الصباح الباكر إلى ما بعد العشاء، وعندما فقدت ابنتها التى ماتت محترقة، بعد أن انفجر فيها موقد الكيروسين أثناء إعدادها للطعام، أصبحت تكثر من الخروج من المنزل، لتزور قبرها، ثم أصرت على أن تخرج كل يوم جمـعـة إلى السوق لتتاجر فى الملابس أو النحاس.. فتشترى أو تبيع.

وفى إحدى جولاتها فى السوق.. تعرفت «نبوية بنت جمعة» إلى «ريا». وبعدها بقليل، عرفت الطريق إلى «بيت الكامب» وانضمت إلى فيلق النساء اللواتى يقدمهن البيت لرواده من الصعايدة والهنود والإنجليز. واقتصر ترددها عليه ـ فى البداية ـ على يوم الجمعة، وهو يوم الموعد الأسبوعى الذى تقام فيها السوق الذى يطل البيت على ساحتها، وقد خصصته «نبوية» لهذا الجانب من نشاطها الذى ظل مجهولاً على المحيطين بها. وأصبح من عاداتها أن تستيقظ فى الصباح المبكر من يوم الجمعة، لتعد طعام العشاء ـ وهو



نبوية بنت جمعة: نقلا عن الصورة الفوتوغرافية التى قدمها زوجها للشرطة عقب اختفائها

الوجبة الوحيدة التى تتناولها الأسرة فى المنزل، إذ كان من عادة الحاج «حسين» أن يتناول الإفطار والغداء فى الدكان.. فما يكاد يغادر المنزل بصحبة ابنيهما «على» و«سعيد» حتى تغادر هى الأخرى إلى السوق.. أو إلى «الكامب» فلا تعود إلا بعد غروب الشمس، وقبل قليل من عودة الزوج والأبناء..

ولم يتنبه الحاج «حسين الزيات» فى أى يوم من الأيام، وعلى امتداد ما يقرب من عامين، إلى غياب زوجته من المنزل، ولم يعرف بأنها تتردد على «سوق الجمعة» إلا بعد ذلك بزمن طويل، إذ كان يتركها فى بيته عند الصباح، ويعود - عند المساء - فيجدها فيه. ولعلها أنبأته بخروجها فى حديث عابر بينهما، لتحتفظ لنفسها بخط الرجعة إذا ما عرف به مصادفة، فلم يتوقف أمامه طويلاً، فقد كان شديد الانهماك فى عمله كثير الغياب فى دكانه، الذى كان العمل يتواصل فيه ليلاً نهاراً فى المواسم والأعياد.. مما شجع «نبوية» على تخصيص أيام أخرى غير «يوم» الجمعة لـ«بيت الكامب» بل إنها ملكت الجرأة على المبيت به فى بعض الليالى.

والحقيقة أن «نبوية» كانت تملك غطاء قوياً لنشاطها الخفى ففضلاً عن أن زوجها كان يثق بها، كما ينبغى لامرأة اقترن بها منذ ربع قرن، وأنجب منها ستة أبناء، فقد كانت تقيم وحدها فى المنزل معظم ساعات النهار، بعد أن أصر الزوج على إيداع أصغر بناتها لدى والديه لكى تؤنس وحدتهما فى شيخوختهما. وكان الساكنان اللذان يستأجران الطابق الأرضى من المنزل الذى يملكه الزوج ويقطن مع اسرته فى طابقه الوحيد، زوجين عجوزين ضعفت حواسهما عن التلصص على الآخرين.. ولم يكن الزقاق الضيق الذى يقع فيه المنزل، يضم غيره، سوى بيت آخر تقطنه «فرارجية» تطوف فى الشوارع طوال اليوم لبيع بضاعتها من الدواجن والبيض.. بينما تشغل «شونة» القطن بقية مساحة الزقاق.. ثم ان «نبوية بنت جمعة» كانت قد تعودت - منذ وفاة ابنتها - على المبيت إلى جوار قبرها، وخاصة فى الأعياد والمواسم الدينية.

وإذا كان سحب امرأة فى مثل هذه الظروف للعمل فى «بيت الكامب» يشهد بقدرات «ريا» الفائقة فى هذا المجال، فإن دوافع «نبوية بنت جمعة» لممارسة البغاء الرسمى، تبدو شديدة الغموض.. صحيح أن الصورة التى وصلتنا عنها، تشير إلى أنها كانت امرأة معجبانية تدل بجمالها وتعتنى به.. وقد قال «محمد عبدالعال» - فيما بعد انها كانت امرأة «لونه» - أى حلوة - ووصفتها «ريا» بأنها كانت أميل إلى البياض، وإلى الطول، متناسقة الملامح، ملفوفة القوام، مع شىء من الامتلاء، لم يحل تقدمها فى السن - كما قال زوجها - دون حرصها على أن تتزين داخل البيت وخارجه، إذ كان الكحل لا يغادر عينيها، كما كانت حريصة على الاحتفاظ بنقاء بشرتها، وعلى ارتداء كل مجوهراتها ومع أنها كانت ترتدى ملابس الحداد منذ فجيعتها فى ابنتها إلا أنها كانت تزين

ملابس الخروج السوداء.. بزخارف زرقاء أو حمراء عند الصدر، أو فى الذيل.

والغالب أن وفاة ابنتها الشابة فى ذلك الحادث الفاجع قد وضعها فى حالة نفسية وعقلية غير ملائمة.. خاصة وأن حياتها الأسرية، وإن كانت تبدو ظاهرياً سعيدة.. إلا أن التفاصيل القليلة التى وصلتنا عنها، تدل على أن موت الابنة، لم يكن الظل الوحيد للتعاسة التى تخيم عليها، إذا كان الابن الأكبر مسجوناً فى إحدى القضايا، وكان الابن التالى له - كما قال الأب فيما بعد - «قهوجى داير على كيفه.. مالوش صلة بينا». ولو كان الحاج «حسين الزيات» قد تنبه إلى أن زوجته تشعر أكثر منه بخيبة الأمل، وتحتاج مثله إلى ما يشغلها عن إحساسها بتعاسة حياتها، لما هرب من همومه إلى العمل فى الدكان، وتركها لوحدتها، أو على الأقل لدعاها لمشاركته فى ذلك العمل، لتتعزى معه. وربما لو كان ذلك قد حدث لما تعرفت إلى «ريا»، أو على الأقل لما استطاعت «ريا» أن تسحبها إلى «بيت الكامب» الذى ظلت تمارس نشاطها الخفى فيه، وفيما تلاه من البيوت التى انتقل إليها «آل همام» من دون أن يعرف أحد - حتى «ريا» - اسمها الحقيقى، إذ كان الجميع يعرفونها باسمها المستعار «فهيمة»..

ومن المؤكد أن «نبوية بنت جمعة» لم تكن الوحيدة التى تعيش حياة مزدوجة بين النساء اللواتى عملن فى «بيت الكامب» وغيره من المؤسسات الترفيهية التى انشأها «آل همام». فعلى الرغم من صعوبة «سحب» هذا النمط من النساء المحصنات، الذى كان يتطلب عادة صبراً طويلاً، وعمليات استطلاع معقدة، وأساليب متغيرة من التأثير على كل واحدة طبقاً لظروفها. فقد كانت «ريا» تدرك مدى الأهمية البالغة لوجود نوعهن النادر بين البضاعة التى تقدمها لروادها إذ لم يكن الطلب عليهن - وبالتالى المكسب من ورائهن - كبيراً فحسب، بل كان وجودهن يشكل - كذلك - اغراء كبيراً للزبائن، ويعطى البيت الذى تديره ميزة على منافسيه، تزيد من الاقبال عليه، بحكم أنه يعرض بضاعة نظيفة ومضمونة، ينعدم وجودها فى بيوت البغاء الرسمى، ولا توجد إلا فى القليل والمتميز من البيوت السرية: إمرأة من الأحرار، تمارس الدعارة لرغبتها فى الجنس لا فى النقود.

وهكذا استقر «بيت الكامب» وأصبح نموذجاً للمشروع الاقتصادى المزدهر، بعد أن لمع اسمه واشتهر ذكره، فدار دولاب العمل به من دون حاجة إلى مجهود استثنائى لجلب الزبائن الذين عرفوا مكانه، ونظامه أو لسحب البضائع، بعد أن أصبحت النساء - على حد تعبير «سكينة» فيما بعد - «تنحدف على البيت حدف». وشجع ازدهار المشروع «ريا» و«سكينة» على أن تستدعيا أمهما وشقيقهما الأكبر «أبوالعلا» من «كفر الزيات» لينضما إلى بقية أفراد الأسرة فى إدارة البيت.

لكن المشاكل عادت تطل برأسها من جديد فى بدايات عام ١٩١٩، عندما عاد «حسب الله» من الشغل فى السلطة ليستقر فى «الإسكندرية» عاجزاً - كالعادة -

عن الحصول على عمل مستقر، يوفر له دخلاً. ومع أنه كان سعيداً بازدهار العمل فى «بيت الكامب»، وبوفره إيراداته التى كانت تكفل له نصيباً يكفى احتياجاته، إلا أنه لم يكن سعيداً بما حققه البيت من شهرة فضحت ما كان يحرص على كتمانه من أموره. فلم يعد باستطاعته أن يتظاهر بأنه واحد من المعلمين الصعايدة المحترمين، ميسورى الحال، بعد أن أصبح معروفاً أنه وزوجته قوادان يديران بيتاً للدعارة السرية، بل إن محاولاته للظهور بهذا المظهر، الذى كان شغوفاً به بقوة، كانت تثير لدى الآخرين عادة، نظرات أو عبارات السخرية الصريحة أو المقنعة.

وما لبث «حسب الله» أن ضاق بإقامة أسرة زوجته فى البيت وبدأ يتشكى من كثرة النفقات ويعترض على إقامة «محمد عبدالعال» مع «سكينة» من دون زواج.. مبرراً ذلك بأنه المسؤول عن «سمعة البيت» باعتباره المستأجر الذى بصم على عقد الإيجار بخاتمه.

وظلت المشكلة تتصاعد حتى كادت تهدد «بيت الكامب» بالانهيار. ولما كان «حسب الله» أول الحريصين على عدم تعرض البيت للاهتزاز باعتباره أكثر المستفيدين منه، فقد وافق على الحل الذى توصلت إليه كل أطراف المشكلة بعد مناقشات مضنية، وهو يقوم على الفصل بين نشاط أفراد الأسرة الاقتصادى، الذى لا يوجد ما يحول دون اشتراكهم فيه وبين المعيشة المشتركة التى لا توجد ضرورة لاستمرارها، لما تثيره عادة من احتكاكات وتوترات. وتطبيقاً لهذا الاتفاق تقرر أن يظل «بيت الكامب» قائماً كمؤسسة اقتصادية تديرها الأسرة، وتتقاسم دخلها، على أن تقيم فيه الأم مع الأخ الأكبر «أبو العلا» بينما ينتقل «حسب الله» وأسرته للإقامة فى مسكن مستقبل، وتنتقل «سكينة» و«عبدالعال» إلى مسكن آخر. وفضلاً عن أن هذا «الفصل بين القوات» قد حقق لكل زوجين هدف الإقامة فى بيت خاص، بعيداً عن احتكاكات المعيشة المشتركة، فقد اصبح لـ«حسب الله» أخيراً «بيت حر» يستطيع أن يدعم به مزاعمه بأنه «معلم» وليس «قواداً».



انتقلت كل من «ريا» وزوجها، و«سكينة» ورفيقها للإقامة فى غرفتين مستقلتين، تقعان فى منزلين متجاورين بحى «المسكوبية» القريب، وهو ما كان يتيح لكل من المرأتين الفرصة للتردد بين مسكنها وبين «بيت الكامب» حيث كانتا تمضيان معظم ساعات اليوم فى ادارة شئونه فلا تعود كل منهما إلى بيتها الحر إلا فى وقت متأخر من الليل.. وكان مما ساعد «سكينة» على ذلك، أن «عبدالعال» - الذى لم يكن يشارك فى إدارة البيت - كان قد وجد عملاً فى الميناء يستغرق معظم ساعات النهار. ومع أنه لم يكن متحمساً لنشاط «سكينة» فى هذا المجال، إلا أنه - شأنه فى ذلك شأن «حسب

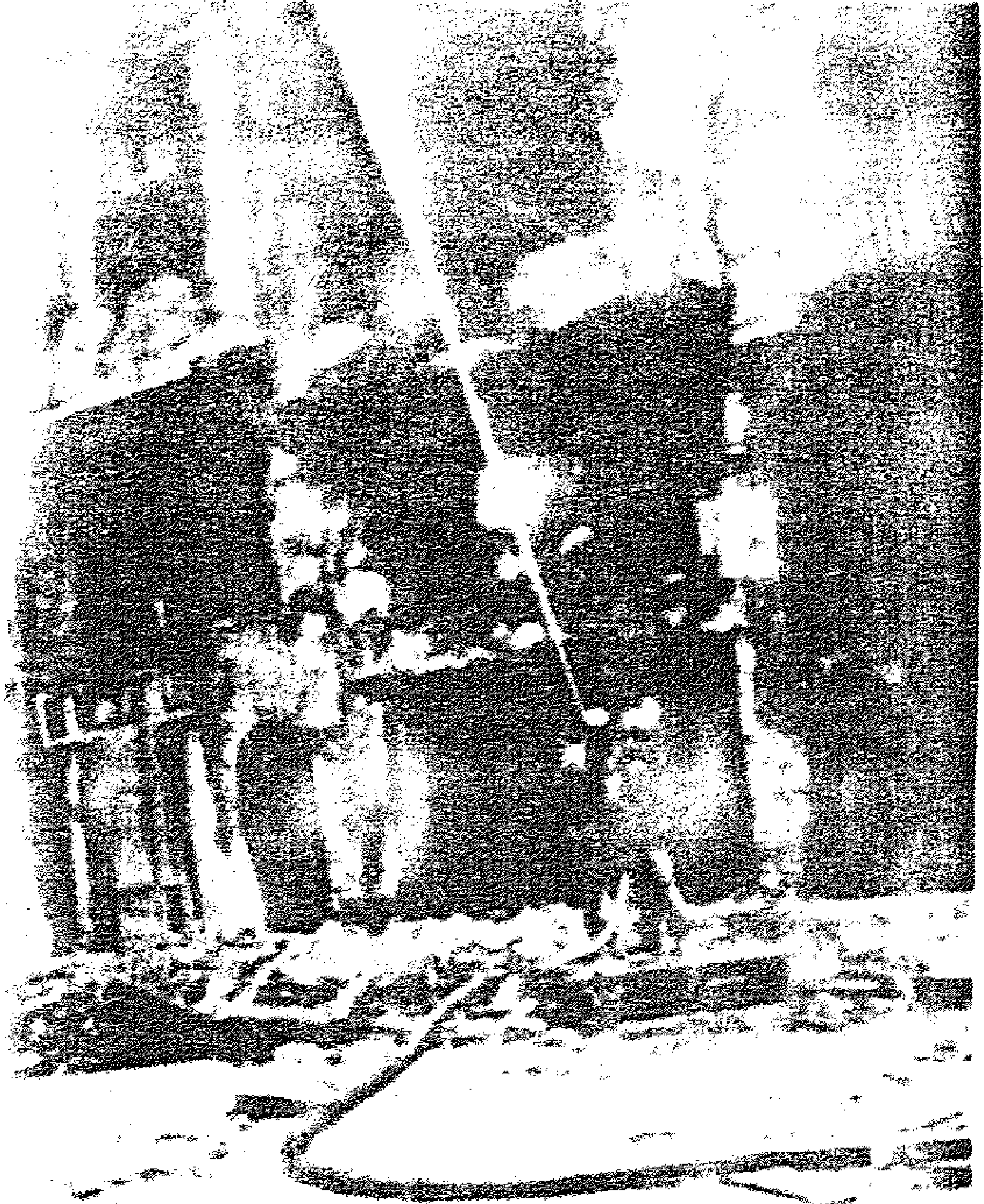
الله» الذى كان أسوأ حالاً بسبب تعطله - لم يعترض بقوة، إذ لم يكن ما يتقاضاه من أجر، يزيد على «روبية»، أى ما يوازى ستة قروش ونصف فى اليوم، لا تكفى نفقات طعام كليهما.

وخلال تلك الفترة، نشبت ثورة ١٩١٩، وانقطعت المواصلات بين «الإسكندرية» و«القاهرة»، بعد أن اقتلع الثوار خطوط السكك الحديدية، التى تربط بين أنحاء كثيرة من البلاد، وعلى عكس «القاهرة»، وكثير من مدن الصعيد والدلتا والمدن الساحلية، التى أخذت فيها الثورة أشكالاً بالغة العنف، وصلت إلى حد الصدام اليومى المسلح بين الثائرين وبين قوات الاحتلال، فإن الحالة فى «الإسكندرية» كانت أهدأ نسبياً، وخاصة فى الأسابيع الأولى من الثورة، إذ كان نفوذ الجاليات الأجنبية وقوة الحامية الإنجليزية فيها كبيراً، فضلاً عن أن قيادة الثورة كانت تتركز فى العاصمة.

وكان لواء القيادة السياسية فى الإسكندرية، معقوداً - فى بداية الثورة - لشخصيات من بقايا «الحزب الوطنى» كانت تتعامل مع قيادة «الوفد المصرى» للثورة بمنطق المنافسة. لكن الوضع تغير بعد ذلك، ونجح «الوفد» فى أن ينظم مبادرات أهل «الاسكندرية» الذين خاضوا معارك ضارية مع قوات الاحتلال فى المدينة، وخاصة فى الأحياء الشعبية. ولم يكن الأمر برمته من الأمور التى يمكن أن تشغل «آل همام» أو أمثالهم من الفئات الهامشية، التى كانت قد طحنت تماماً، وخاصة خلال سنوات الحرب، فلم تعد لديهم رغبة أو قدرة، على الاهتمام بما يتجاوز معركتهم الضارية من أجل الحصول على ما يمكنهم من البقاء أحياء حتى الصباح التالى.. ولعلهم كانوا ضمن تلك الجحافل من الهامشيين الذين استغلوا ظروف الثورة، ليطلقوا طاقة العدوان المكبوتة داخلهم.. ويقوموا بأعمال العنف العشوائية التى لا هدف من ورائها سوى التنفيس عما يعانونه من قهر، بالحرق والتدمير، أو اشباع حاجتهم بالسلب والنهب.

والغالب أن الثورة وخاصة فى أسابيعها الأولى، قد أثرت تأثيراً سلبياً على مجمل الأنشطة الترفيهية فى البلاد بما فى ذلك نشاط «بيت الكامب». ففضلاً عن أن موجة الحماس العارمة التى اشتعلت فى صدور الناس كانت قد شغلتهم عن طلب الترفيه، فقل الإقبال على البارات والمقاهى وصالات الغناء ودور البغاء، فقد اضطرت سلطات الاحتلال لاتخاذ إجراءات أمنية للحيلولة دون انتشار الثورة، مثل حظر التجوال وإقامة نقاط للتفتيش فى بعض الشوارع، ساهمت فى عزوف الناس عن الخروج من بيوتهم ليلاً، لكن الضربة الحقيقة التى تلقاها «بيت الكامب» وغيره من بيوت البغاء، حتى المصرح لها رسمياً بالعمل، جاءت بسبب انقطاع جنود جيوش الحلفاء من الانجليز والهنود والأفغان والنيوزيلنديين عن التردد عليها، لانشغالهم فى إجهاض الثورة، ولخشيتهم على حياتهم.

شارع «وجه البركة» بوسط العاصمة. بعد أن اختلف فريق من الجنود الأستراليين مع بعض البغايا العاملات فى أحد البيوت المرخص لها بالعمل، فقاموا بالقائهن من النوافذ ثم اشعلوا النيران فى البيت لتمتد منه إلى ما يجاوره من البيوت، ونشبت بينهم وبين جنود البوليس الحربى البريطانى الذين خفوا إلى مكان الحادث للقبض عليهم، معركة تبادل خلالها الطرفان إطلاق النار، وأسفرت عن إصابة أربعة من الجنود والقبض على خمسين منهم، قدموا لمحاكمة عسكرية وأسفرت الأزمة عن إنشاء نقاط للشرطة العسكرية فى مداخل حى البغاء بالقاهرة



قوات الإطفاء تتعامل مع النيران التى أشعلها جنود الحلفاء فى حى البغاء بشارع وجه البركة

وغيرها لتحول بين الجنود وبين التردد عليها، وكان إنشاء هذه النقاط، أحد الأسباب التى أدت لازدهار بيوت البغاء السرى، بعد أن انتقل القسم الأعظم من جنود الاحتلال إليها، ليبتعدوا عن رقابة نقاط الشرطة العسكرية، المقامة عند مداخل أحياء البغاء الرسمى، لكى تمنعهم من الدخول إليها أو تراقب سلوكهم لكى لا يقوموا بأى شكل من أشكال الشغب.

وكان تردد هؤلاء الجنود على مثل هذا النوع من البيوت أحد أهم الأسباب فى نشوئها، بحيث أصبح وجود أى معسكر من معسكرات جيش الاحتلال فى احد أحياء المدن الكبرى، يشكل إغراء كافياً لإنشاء بيت من بيوت الدعارة السرية إلى جواره كما حدث عندما افتتحت «ريا» و«سكينة» مشروعهما المعروف بـ«بيت الكامب»، الذى يبدو أنه لم يكن الوحيد الذى يحمل هذا الاسم.. وكانت القيادة العامة لجيش الاحتلال البريطانى قد منعت الجنود من التردد على منطقة البغاء الرسمى فى

أما وقد أدى الركود المؤقت فى أحوال «بيت الكامب» إلى نقص شديد فى نصيب «حسب الله» من إيراده، فقد كان منطقياً،

أن يعود إلى اسلوبه التقليدى فى إثارة المشاكل مع شركائه، لينفرد هو وزوجته بإدارته وإيراداته، وأن يتبع فى ذلك نفس التكتيكات التى إتبعها فى الحالات المشابهة، فيثير قضية هجر «سكينة» لزوجها، وإقامتها مع «عبدالعال» من دون زواج.. وساعده على ذلك أن «أحمد رجب» كان قد عاد من العمل فى السلطة، واستأنف إلحاحه على «سكينة» لكى تهجر رفيقها وتعود إليه، وطلب إلى «حسب الله» أن يتوسط لديه عندها.

لكن «سكينة» نجحت فى إقناع «أحمد رجب» بأن «حسب الله» يخدعه، حين يحرضه على التمسك باستمرار زواجهما، لأسباب لا صلة لها بحرصه عليهما، وبأنه يخدع نفسه بوهم كاذب حين يصر على عدم تطليقها آملاً فى أن تعود إليه ذات يوم.. لأنها لا تفكر فى أن تستأنف حياتها الزوجية معه، حتى لو تركها «عبدالعال». ولو حدث ومالت نفسها إليه، فسوف تعود له من تلقاء نفسها ليعقدا زواجهما من جديد.. فاقتنع بمنطقها، وقام بتطليقها. ومع أن اللطمة كانت قوية، إلا أن «حسب الله» لم ييأس ولم يتراجع، ولم يخلع عباءة حامى حمى الأخلاق فى بيت «آل همام» واعتبر الطلاق تصحيحاً لنصف الخطأ، وطالب «سكينة» بتصحيح النصف الآخر، وعقد زواجها على «محمد عبدالعال»، او طرده من منزلها لأنه لا يستطيع أن يقبل على رجولته. وهو زوج شقيقتها ورجل العائلة. هذا الوضع المعوج.

ومع أن «سكينة» اعتبرت مطلب «حسب الله» تدخلاً فيما لا يعنيه، وتظاهرت بعدم الاكتراث به، ولم تمنحه تأييدها أثناء المناقشات التى كانت تدور بينها وبين شقيقتها وأمها اللتين كانتا تتوسطان بينها وبين زوج شقيقتها، إلا أن «عبدالعال» - الذى كان طرفاً فى هذه المناقشات - كان يملك من الذكاء والخبرة، ما جعله يدرك أن تظاهرها بعدم الاهتمام بالأمر، هو رسالة صامتة إليه بأن يعبر لأهلها عن مدى اعتزازه بها، وحبه لها، وإحترامه لعلاقتهما التى كانت قد استمرت آنذاك لمدة تقترب من ثلاث سنوات ضحت فى سبيلها بزوج ظل يلح عليها لكى تبقى على زواجهما حتى آخر لحظة.

ولم يكن قرار الزواج من «سكينة» سهلاً على «عبدالعال» صحيح أنه كان يحبها حباً ملك عليه كل حواسه، بحيث لم يعد قادراً على الاستغناء عنها، خاصة بعد أن تمسكت بعلاقتها به، وتصدت فى أكثر من مناسبة لزوج شقيقتها الشرس حفاظاً عليها، بل وضحت بعلاقتها بزوجها، وبرفيقها الأول، واختارته دونهما. لكن قرار الارتباط بها لم يكن يتعلق بإرادته وحده، بل كان يتعلق كذلك بإرادة أسرته.. فعلى العكس من «حسب الله» الذى كان يستطيع أن يتصرف بحرية نسبية، إذ لم يكن أحد من أقربائه يقيم فى «الإسكندرية» فقد كان والد «عبدالعال» وشقيقه وعمه يقيمون بالمدينة ويعملون بها، ولم يكن أحدهم خالى الذهن عن طبيعة علاقته بـ«سكينة» أو نوع العمل الذى كانت تعمل به، قبل أن يتعرف إليها، فمنذ توقف عن الإقامة فى الكوخ الذى أنشأه له شقيقه «محمود»، وأصبح يبيت خارج المنزل، أدرك الجميع أن

فى الأمر امرأة. وحين سألوه. لم ينكره ومع أنهم لم يرحبوا، إلا أنهم لم يعترضوا طالما أنها «رفيقة» وليست زوجة. وبهذه الصفة قدمها إلى شقيقه الأصغر «محمود» الذى عرف كذلك نوع الحياة التى تعيشها هى وأسرتها، بحكم تردده على المساكن التى كانا يقيمان بها كلما استدعت الضرورة اتصاله بشقيقه. ولو كان «عبدالعال» يتوقع أنه سوف يضطر يوماً للزواج من «سكينة» لحرص منذ ذلك الحين على أن يخفى الكثير من الحقائق التى يمكن أن تثير اعتراض أسرته على زواجه منها.

ولم يترك له «حسب الله» وقتاً طويلاً للتردد أو للتفكير. ففى اليوم التالى مباشرة لانتهاء مدة العدة الشرعية التى أعقبت طلاق «سكينة» فوجئت بأمها تزورها، لتخطرها بأن زوج شقيقتها يخيرها بين إتمام زواجها برفيقها وبين قطع علاقتها به. وينذرها ـ فى حالة استمرار «محمد عبدالعال» فى الإقامة معها من دون زواج ـ بابلاغ الشرطة بأنها تدير منزلها للدعارة السرية، وأحدث الانذار الأثر الذى كان «حسب الله» واثقاً من وقوعه، فقد تزلزلت «سكينة» التى لم يكن يخفيها إلا أن تضبطها الشرطة فتحيلها إلى الفحص الطبى فى مستشفى المومسات.

لكن الانذار لم يؤد إلى النتيجة التى كان يتمناها «حسب الله» وهى انتهاء العلاقة بين الطرفين، إذ ماكاد يصل إلى مسامع «عبدالعال» حتى حسم تردده، وقرر أن يعقد قرانه على «سكينة» فى اليوم نفسه.

وكان التوتر الشديد فى العلاقات الداخلية للأسرة خلال تلك الأسابيع القلقة من حياة البلاد. وحياة «آل همام» من بين الأسباب التى دفعت «ريا» و«حسب الله» إلى الانتقال من منزلهما الحر فى «المسكوبية» إلى حجرة فى الطابق الارضى من المنزل رقم ٣٨ب «حارة على بك الكبير» ليبتعدا عن المنزل الذى يقيم فيه «سكينة» و«عبدالعال» ويتنصلا من المسئولية الاجتماعية عن سلوكهما الفاضح.. وماكادت المشكلة تحل، ويعقد الاثنان قرانهما، حتى قررت «سكينة» أن تترك «المسكوبية» هى الأخرى، وانتقلت مع زوجها للإقامة فى حجرة بالطابق الارضى من المنزل رقم ٥ بـ«حارة ماكوريس» ـ وكان يعرف بـ«بيت الجمال» نسبة إلى الأسرة التى تملكه ـ على مبعدة شارعين فقط من المنزل الذى تقيم فيه شقيقتها.

ومع أن «بيت الكامب» كان لايزال قائماً، إلا أن الركود كان قد حط عليه، بسبب الظروف العامة التى تمر بها البلاد، والظروف الخاصة التى تمر بها الأسرة.. حتى أصبح أقرب مايكون إلى بيت حر تقيم فيه الأم «زينب بنت مصطفى» والأخ «أبوالعلا همام».

لكن الأمور مالبثت أن هدأت على كل الجبهات، فقد اضطرت السلطات البريطانية ـ أمام ثورة المصريين العارمة ـ للافراج عن الزعماء المنفيين والسماح لهم بالسفر إلى «باريس» لعرض قضية



صورة زفاف سكينة وعبد العال

مصر على مؤتمر الصلح، مما خفف إلى حد كبير من أعمال العنف التى كان يقوم بها الثوار، وأعمال العنف المضاد التى كان يقوم بها جيش الاحتلال، فانتهت الأوضاع الاستثنائية الى ترتبت على نشوب الثورة، وانتهى التوتر بين فروع «آل همام» بعد زواج «سكينة» من «عبدالعال» ليستعيد «بيت الكامب» استقراره، فتستأنف البغايا المقيدات على قوائمه، العمل ويعود الزبائن الذين يعرفونه إلى التردد عليه إلى أن استرد حالة الازدهار التى كان عليها قبل نشوب الثورة.

على أن «سكينة» لم تعد لممارسة نشاطها فى البيت بنفس الروح التى كانت تمارس بها العمل فيه قبل الأزمة. ومع أن المشكلة التى أثارها «حسب الله» قد انتهت بتحقيق ماكانت تتمناه، وليس ماكان يخطط له، فلم يهجرها «عبدالعال» بل تزوج منها.. إلا أنها لم تكن تخل من شعور بالمرارة، لأن «عبدالعال» لم يتزوج بها، إلا استجابة للانذار، يمتزج بغضب وضيق لاصرار زوج شقيقتها على فرض هيمنته عليها.

ولعل هذا، هو مادفعها - بمجرد انتقالها للإقامة بـ«بيت الجمّال» فى «حارة ماكوريس» - للتفكير فى إقامة مشروع اقتصادى مستقل تديره بنفسها، من دون مشاركة من أحد. وكان مما شجعها على ذلك، أنها عثرت على دكان صغير يواجه المنزل الذى تقيم به، يقع فى مكان بدا لها ملائما تماماً لاقامة مقهى صغير: فهو يواجه مباشرة مبنى قسم «شرطة اللبان» المزدحم بالجنود والضباط والكتبة، فضلا عن مئات من أهالى الحى يترددون عليه كل يوم لانهاء مصالحهم، أو لزيارة أقاربهم المحبوسين فى تخشيبة القسم على ذمة التحقيق فى إحدى القضايا، أو لمجرد الاشتباه وسوف يكون هؤلاء جميعاً من زبائن المقهى الدائمين، فضلا عن العابرين والمقيمين فى الحارة ومايتفرع عنها من أزقة.

ومع أن يديها كانتا خاليتين من أية امكانيات حقيقية للبدء فى مثل هذا المشروع، فقد اندفعت لتذليل العقبات التى واجهتهابارادة قوية، ورغبة عارمة فى تغيير حياتها.. فاستأجرت الدكان، واكتفت من الأثاث الذى تتطلبه المقهى، بدكة خشبية وبعض المقاعد المستعملة.. وساعدتها صديقتها القديمة «مريم الشامية»، بخبرتها كقهوجية عريقة، بل وأجَّرت لها بعض مايفيض عن حاجة مقهاها من الأدوات المستعملة.. ولأن العمل فى المقهى، كان يقوم أساساً على توصيل الطلبات إلى العاملين فى قسم الشرطة من الجنود والكتبة والمترددين عليه من المواطنين وهو ماكانت تقوم به بنفسها، فإنها لم تكن فى حاجة إلى أكثر من ذلك لتبدأ العمل.

وشجعها «محمد عبدالعال» بقوة على

القيام بالمشروع، ودعمه ببعض ما استطاع توفيره من النقود، ليس فقط بسبب المشاكل الكثيرة التي يثيرها عملها مع شقيقتها وزوج شقيقتها في مجال تنظيم البغاء السري، ولكن ـ كذلك ـ لأنه كان حريصاً ـ منذ تزوج بها ـ على قطع صلتها بهذا النوع من النشاط، ليستطيع أن يعلن زواجهما لأسرته، التي لم تكن قد عرفت به حتى ذلك الحين. ومع أن «سكينة» سعدت بتشجيعه لها، إلا أنها رفضت فكرة الانسحاب من العمل في «بيت الكامب»، إذ كان ذلك ـ في رأيها ـ تنازلاً عن حقوقها المشروعة، باعتبارها شريكة في تأسيس البيت، وفيما اكتسبه من سمعة، وحققه من ازدهار.. وهكذا ظلت تتردد عليه، وتطالب بنصيبها من أرباحه، وتحصل على القليل منها، بعد مشاحنات بينها وبين «حسب الله» و«ريا».

.. ولم يكن قد مضى على زواجها، من «عبد العال» سوى أربعة أشهر، حين وقع المحظور الذي لم يتنبها منذ البداية إلى خطورته.. فذات ظهيرة وبينما كان «عبد العال» في عمله بوابور القطن الذي يملكه المسيو «خوريمي» زاره شقيقه «محمود» لكي يخطره بأن أمهما قد جاءت من «موشا»، وأنها تقيم في منزله، وتطلب أن تراه.



لم يستقبل «محمد عبد العال» خبر وصول والدته «ليلى بنت عبيد» بارتياح، على الرغم من أن تلك كانت هي المرة الأولى التي يجتمع فيها شمل الأسرة، منذ غادر الرجال «موشا» قبل عشر سنوات، وتركوا الأم بالقرية، واقتصرت صلتهم بها، على ما كانوا يرسلونه إليها من خطابات يرفقون بها حوالات بريدية بمبالغ ضئيلة من المال يقتطعونها من أجورهم.

ومنذ الوهلة الأولى التي دهمه فيها الخبر، أدرك أن أمه لم تتجشم عناء، ونفقات السفر، لمجرد أن تطمئن على أحوالهم وأن هناك صلة بين وصولها المفاجىء وبين زواجه من «سكينة».

ولأنه لم يكن يستطيع أن يتجاهل رغبتها في رؤيته، أو يجسر على دعوتها لزيارته، أو الإقامة معه، في منزل الزوجية التي لم تكن قد علمت بها بعد، فقد جمع ملابسه وقرر أن يغادر المنزل لكي يقيم مع شقيقه في «غيط العنب» خلال الفترة التي ستمضيها الأم بالإسكندرية.. وكان منطقياً أن تعارض «سكينة» في قراره، الذي لم يكن له معنى، إلا أنه يخجل من إعلان زواجه بها أمام أسرته، وأن تصرخ في وجهه بغضب عنيف أنها على استعداد لاستقبال الأم، والقيام بواجب الضيافة نحوها إذا رغبت في أن تقيم معهما، وعلى استعداد لكي تزورها كل يوم وتطوف معها بالأسواق ومزارات الأولياء، إذا فضلت الإقامة بمنزل شقيقه ولكنها لاتقبل أن يتجاهلها أحد، ولا توافق على منحه اجازة من حياتهما الزوجية طوال المدة التي تقيمها الأم بالإسكندرية، أو ترضى بتنصله منها، وكأنها وباء يفر منه، أو عار يتستر عليه.

وتطلب الأمر مجهوداً عنيفاً ومناقشات مطولة، حتى استطاع «محمد عبدالعال» اقناعها بأنها فهمت مبررات قراره على نحو خاطىء فهو لايتنصل منها، ولايخجل من زواجه بها، لكنه يهدف - بإقامته المؤقتة مع أمه - إلى اقتناص الفرصة لكى يمهد الأمور لإعلان زواجهما إليها.. لكن «سكينة» لم تسمح له بمغادرة المنزل، إلا بعد أن وعدها بأن يقدمها إلى أمه، خلال يومين، وأقسم لها أن الأم لن تعود إلى «موشا» إلا بعد أن تعلم بخبر زواجهما وتباركه.

وفى انتظار عودته ليصحبها إلى منزل شقيقه ويقدمها إلى أمه، واصلت «سكينة» العمل فى مقهاها إلى وقت متأخر من الليل، تغادره بعدها إلى «بيت الكامب». ومع أن أحداً من المحيطين بها، لم يلحظ عليها تغيراً ظاهراً، إلا أن الزيادة المفاجئة فى كمية ماتتناوله من خمور، دلت على أنها كانت تعانى من توتر داخلى عنيف، زاد من وطأته أنها لم تكن تستطيع أن تبوح بأسبابه لأحد من أهلها، حتى لايشمتوا فيها.. إذ كانت تشعر بمهانة بالغة، وثورة عنيفة، حين تقارن بين نظرتها إلى علاقتها بزوجها، ونظرته إلى علاقته بها، وبين الطريقة التى تعاملت بها معه، والطريقة الى يتعامل بها معها.. فقد ضحت بزوجها، ثم برفيقها الأول من أجله.. وخاضت بسببه معارك عنيفة مع أسرتها، وصلت إلى حد إبلاغ الشرطة ضد زوج شقيقتها حين تحرش به، فإذا بها تكتشف - بعد هذا كله - أنه ينظر إليها باحتقار وتعال، ويتعامل معها باعتبارها امرأة دون المستوى. يخجل من إعلان زواجه منها. ولأنها كانت تحبه حباً جارفاً فقد بدا لها موقفه حكما قاسياً بعدم اهليتها لكى تحبه، وحال هذا الحب بينها وبينه أن تتخذ الموقف الذى يتواءم مع طبيعتها العنيفة المندفعة، فأفرطت فى تعاطى الخمر، لتغرق فيها أحزانها وتوترها.

وذات ليلة حارة من صيف ١٩١٩، وفى أعقاب تناولها لعدد كبير من أكواب النبيذ الذى كانت تفضله على غيره شعرت «سكينة» بظمأ شديد.. فتوجهت إلى نافذة من نوافذ الطابق الثانى من «بيت الكامب» لتشرب من إحدى القلل الموضوعة على قاعدتها، لتبريد المياه، وبينما هى ترفع القلة إلى فمها شاهدت أحد العابرين امام المنزل وهو يرفع رأسه نحوها على سبيل الفضول، فاستفزها ذلك، ونازعتها - فى خبال السكر - رغبة فى العبث فوجهت فوهة القلة نحوه، مصحوبة بألفاظ سباب فاحش وفوجىء الرجل - الذى تبين فيما بعد أن أسمه «محمد أبوطلبة» - بسيل الماء وسيل الشتائم، فرفع عقيرته يرد على سبابها بأقذع منه، خاصة وأنه لم يكن يجهل - كغيره من سكان المنطقة - طبيعة النشاط الذى يجرى فى المنزل. وتواصلت المعركة لدقائق هم خلالها الرجل أن يقتحم المنزل لكى يؤدب «سكينة» لولا أن اصوات المشادة الكلامية كانت قد أدت إلى ظهور آخرين فى النافذة، عرف من بينهم «عطية الشرنوبى» أحد فتوات المنطقة - وكان

يتولى آنذاك مهمة حماية «بيت الكامب» - فضلاً عن أنها كانت قد اجتذبت - كذلك - الخفير «عبدالموجود» الذى خرج له من البيت نفسه، ولم يبد أى حماس لشكواه، بل عنفه بشدة لما يثيره من ضجيج، وهدده من طرف خفى بأن الأمور لن تكون فى صالحه، إذاوصلت المسألة إلى قسم الشرطة.

وأدرك «أبوطلبة» أن ميزان القوى - فى تلك اللحظة - لايسمح له بأن يخوض معركة مع تلك المجموعة من «الفواحش» فانسحب من الميدان.. وهو يكظم غيظه.

لكنه لم يسلم بالهزيمة، ولم يقبل أن يهان علنا من امرأة، بل ومن الفواحش أيضاً. فعاد إلى الميدان مرة أخرى فى اليوم التالى، بعد أن استعان بعدد من زملائه العاملين معه فى الميناء. وكان الوقت ظهراً، وقد جلست أسرة «الكامب» - «ريا» و«حسب الله» و«سكينة» - يتناولون الغداء فى الطابق الثانى من المنزل، حين اقتحم «أبوطلبة» البيت وتبعه أعوانه وكانوا ثلاثة. وشاء سوء حظ «أبوطلبة» - الذى اختار توقيت الهجوم فى هذا الوقت من النهار ليواجه «رجال الكامب» فى غياب الفتوة والخفير - أن يكون «عطية الشرنوبى» موجوداً على غيرالعادة، فى البيت.. لكنه لم يتنبه لذلك، إلا بعد أن دخل إلى المصيدة بقدميه، فقد حرص «الشرنوبى» على ألا يكشف عن هذا الوجود، حتى لاينسحب «أبوطلبة» من المعركة. كما فعل فى الجولة الأولى منها.. فما كادْ يسمع صوته وهو يوجه قذائف من السباب إلى أصحاب «الكامب» أثناء صعوده السلم إلى الطابق الثانى، حتى هبط من سلم جانبى إلى الطابق الأرضى، ليغلق باب القفص على «أبوطلبة» وأعوانه، وينفرد وحده - مع معونات قليلة من «حسب الله» والمرأتين - بصد هجوم الرجال الأربعة، فى معركة انتهت بفقد «أبوطلبة» لإحدى عينيه، وبالحكم على «عطية الشرنوبى» - فيما بعد - بالحبس مع الأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات.

ولم تكد «سكينة» تغادر قسم شرطة اللبان مع شقيقتها وزوج شقيقتها، بعد أن تحمل «عطية الشرنوبى» - بكل شهامة - المسئولية كاملة عن جريمة فقأ عين «أبوطلبة»، حتى وجدت زوجها «محمد عبدالعال» ينتظرها ليصحبها معه إلى بيت أخيه، ويقدمها إلى أمه.

وكانت الأم قد استقبلته عندما دخل عليها وهو يحمل صرة ملابسه، بفتور واضح، وبدأت على الفور استجوابها له. فسألته وهى تشير إلى الصرة، عن المكان الذى يحتفظ فيه بملابسه، ومن الذى يغسلها له، وأين يبيت طالما أنه لا يقيم مع شقيقه، ولاتقوم زوجه الشقيق بغسل ملابسه.. ولأنه كان واثقاً من أن أمه قد عرفت - من شقيقه - بأنه على علاقة بامرأة، فإنه لم يحاول أن يكذب عليها، بل وجد السؤال - رغم لهجة الشك التى ألقته بها الأم - فرصة لكى يحاول تمهيد الطريق لتقديم «سكينة» لأمه.. فاعترف بأن الملابس كانت عند «رفيقة» له.. ثم أفاض فى ذكر أياديها عليه، فقال إنها تخدمه

وتطهو له طعامه، وتغسل له ملابسه، وترعاه إذا مرض، وأنه يرغب فى أن يقدمها لها، ويتمنى أن تحسن استقبالها وأن ترد لها بعض جمائلها الكثيرة عليه.

وشعر «عبدالعال» براحة شديدة ليس فقط، لأن أمه استقبلت خبر علاقته بـ«سكينة» بهدوء لم يكن يتوقعه ولم تعترض على رغبته فى أن يقدمها رليها، بل ـ كذلك ـ لأنها لم تسأله عن زواجه بها، مما يدل على أنها لاتعرف الأمر، وهو ما قد يساعده فى تنفيد خطته.. وكان كبير الأمل فى أن يسفر اللقاء بينهما عن نتائج إيجابية، وأن تتقبل الأم «سكينة» بما يسهل عليه ـ بعد ذلك ـ الحصول على مباركتها لزواجه منها. وعلى عكس ماكان «محمد عبدالعال» يتوهم فقد كانت أمه تعرف الكثير عن طبيعة علاقته بـ«سكينة» بل إنها جاءت إلى «الإسكدرية» خصيصاً بعد أن وصلها خطابان، أحدهما من ابنها الأصغر «محمود»، يحمل إليها نبأ الزواج، والثانى من زوجها يطلب فيه إليها الحضور لأنها الوحيدة التى تستطيع أن تفصم عرى الزواج. لكنها ـ رغم علمها بكل شىء ـ تصرفت بحكمة وأخفت ما تعلمه حرصاً على علاقته بأبيه وأخية ومهدت له ـ بمكر ـ السبيل لكى يعترف لها بالحقيقة.

ومع أن «ليلى بنت عيد» كانت امرأة صعيدية تكاد تكون على الفطرة، أمضت أعوامها الستين فى قريتها الفقيرة الجدباء، فى أقصى الجنوب، التى يعزلها الفيضان فى تلك الشهور من السنة، حتى عن القرى المجاورة لها، ولم تغادرها إلا فى هذه الرحلة، إلا أنها لم تكن تخلو من حكمة فطرية، فضلاً عما أضافته إليها السنون من خبرة، جعلتها تدرك أن «سكينة» ليست المرأة التى تستطيع ان تطمئن إلى مستقبل ابنها إذا تزوجها.. ولم يكن اعتراضها على الزواج، ينصب على أنها من بنات البندر، أى المدينة، فقد تزوج ابنها الأصغر «محمود» من فتاة سكندرية، فلم تعترض على ذلك ولم تصر على تزويجه من إحدى بنات القرية، ثم إن «سكينة» نفسها لم تكن من بنات الإسكندرية، بل كانت صعيدية الأصل ـ كان الاعتراض الأساسى الأول هو فارق السن الكبير بين الزوجين، إذ كانت «سكينة» تكبر «عبدالعال» بما يقرب من عشر سنوات، وهو أمر لم يكن معهوداً فى الصعيد، كما كان نادر الحدوث فى المجتمع المصرى بشكل عام، لأسباب تتعلق بانتهاء سنوات خصوبة المرأة قبل مثيلها عند الرجل، وكان الاعتراض الأساسى الثانى هو المهنة التى تتعيش منها «سكينة» وأسرتها، والتى لم تكن الأم تستبشعها دينياً وأخلاقياً فحسب، بل وكانت تدرك أنها سوف تقود ابنها إلى دنيا فاسدة، غير مأمونة العاقبة.

وفى الطريق بين «اللبان» و«غيط العنب» أحاط «عبدالعال» زوجته علما بما درا بينه وبين أمه مزهوا بأنه استطاع أن ينفذ وعده لها، ولحرصه الشديد على نجاح اللقاء بين الاثنتين، فقد تمنى على «سكينة» أن تعتصم بالصبر، وألا تتوقف عند التفاصيل، وأن تبذل كل مافى وسعها

لاكتساب اعجاب امه بها، وثقتها فيها، حتى يستطيع أن يواصل بقية خطته ويحصل على مباركتها للزواج.. ومع أن «سكينة» كانت ماتزال تعانى من إحساسها الشديد بالاهانة، وترى فى اصراره على اخضاعها للامتحان الذى ستعقده لها أمه مواصلة لتلك الاهانة، فقد وعدته بأن تنفذ كل مايطلبه.

ومن سوء الحظ، أن «سكينة» كانت فى ذلك اليوم، فى اسوأ حالاتها النفسية بعد النتائج المؤسفة التى ترتبت على معركة «أبوطلبة» فقد طلب مأمور قسم شرطة اللبان من «حسب الله» و«ريا» مغادرة «بيت الكامب» إلى بيت آخر، فنفذا الأمر من دون تردد، إذ كانا يعلمان بأن الإخلال بالأمن العام، ووقوع مشاجرة تنتهى بإصابة مواطن بعاهة مستديمة، هو الخط الأحمر الذى يتوقف عنده تساهل الشرطة فى تطبيق القانون على تجارتهما غير المشروعة، وأن طلب مغادرة البيت هو البديل عن عقوبة الحبس التى سيتعرضان لها، إذا أصر المأمور على تنفيذ القانون بحذافيره، وقدمهما إلى المحاكمة بتهمة ادارته للدعارة بدون ترخيص.

وفوجىء الاثنان بمجرد دخولهما البيت بأن لجنة الامتحان لم تقتصر على الأم وحدها، بل ضمت كذلك الأب، والعم وزوجته، فضلاً عن شقيقه الأصغر وزوجته.. وبدا واضحاً أن الأم الماكرة، قد دعت مجلس العائلة لجلسة طارئة للنظر فى أمر علاقتهما. ومع أن ذلك قد رفع من درجة توتر «سكينة» التى أدركت أنها استدرجت إلى كمين لم تستعد له، إلا أنها استطاعت أن تتحكم فى غضبها طوال الوقت الذى قضته فى المنزل فريسة لنظرات ستة أزواج من عيون «آل عبدالعال» ظلت تتفحصها وتتبادل التعليق الصامت على ماتقول وماتفعل.

وماكاد العشاء ينتهى فى العاشرة، حتى شكرت «سكينة» آل عبدالعال على كرم ضيافتهم، واستأذنت فى الانصراف فلم يلح عليها أحد بالبقاء، كما تقضى بذلك تقاليد الضيافة، بل وقف الجميع ليصافحوها، ولم يكن لديها شك، وهى تصافحهم، فى أنها قد رسبت فى كشف الهيئة.. وفى أن «محمد عبدالعال» سيتعرض - بمجرد خروجها من البيت - لضغوط عنيفة من مجلس العائلة لكى يهجرها، وكان كل مالديها من صبر وقدرة على الاحتمال قد نفدا، حين وصلت إلى باب الخروج لتجد زوجها يمد إليها يده مصافحها ومودعاً كما فعل الآخرون، فقالت له فى صوت حاولت أن تتحكم فى نبراته، لكى لايفضح غضبها العنيف:

- لأ.. أنت تروح معايا.

ذهل «عبدالعال» لخروجها المفاجىء عن النص الذى اتفقا عليه، فهمس فى أذنها مذكرا إياها بانه لايستطيع أن يترك أمه التى لم يمض على وصولها إلى «الإسكندرية» سوى يومين، ليبيت خارج المنزل، خاصة وأنها لاتعرف بخبر زواجهما، كما أن الآخرين لايعرفون عنها إلا الصفة التى قدمها بها إليهم

باعتبارها شريكته فى المقهى.. لكن «سكينة» لم تحرص على أن ترد عليه بصوت هامس، وكررت أمرها له بإحضار ملابسه لكى ينصرفا معاً. وأدركت الأم أن الانطباع الذى كونته عن زوجة ابنها صحيح، وأنها من نساء الشوارع اللواتى لايستنكفن عن إثارة الفضائح، وأن الاستمرار فى تجاهل موضوع المشاحنة ليس موقفاً حصيفاً.. فتدخلت فى المناقشة، لتسأل المرأة بلهجة باردة، ومتعالية، عن الصفة التى تخول لها مطالبة ابنها بأن ينصرف معها، ورفضت «سكينة» أن تجيب الأم مباشرة على سؤالها، وطلبت من الشقيق الأصغر «محمود» أن يصحبها إلى خارج الغرفة لكى تبلغه باجابتها عليه، لكن الأم اعترضت على ذلك وقالت لها بلهجة حاسمة، أن ماسوف تبلغه لـ«محمود» سوف يصلها، وأنه من الأفضل أن تجيبها على ماتسألها عليه، وعلى الفور ردت «سكينة» على التحدى. بتحد مماثل، فقال وهى تشير إلى «محمد عبدالعال».

ـ إذا كان مفيش حاجة ح تستخبى.. يكون فى علمكم إن ده جوزى.. وأنا مراته على سنة الله ورسوله.

ولم يكن الخبر جديداً على «آل عبدالعال» الذين تلقوه صامتين، ومن دون تعليق، أو تدخل فى المناقشة. وكان واضحاً أنهم قد فوضوا الأم فى الحديث نيابة عنهم.. وكان اعتراف «سكينة» بالحقيقة، هو الفرصة التى تنتظرها «ليلى بنت عيد» لكى تحسم الموقف، فتجابه زوجة ابنها، بأنها جاءت خصيصا لكى تراها بصفتها المرأة التى أفسدت ابنها، وأتلفت آماله، وبددت أمواله، وجعلته يقسو على أمه، منذ تعرف إليها قبل ثلاث سنوات، فلم يعد يصلها منه قرش واحد، وأن زواجها منه، هو غلطة يستحيل أن تستمر، ولابد من أن يطلقها الآن.. وفى هذه اللحظة.

ومالبث نطاق الملاسنة الخشنة بين المرأتين أن اتسع، ليتحول إلى حرب كلامية عنيفة وشاملة، استخدمت خلالها «سكينة» مواهبها الفائقة فى سلاطة اللسان ودفعت إلى ساحة المعركة بكل مايضمه قاموسها الضخم من ألفاظ سوقية وبذيئة، جمعتها من الشوارع والأزقة، لكى تواجه نساء «آل عبدالعال» الذين انضموا إلى الأم فى المعركة، ولم تستثن «سكينة» أحدا من شتائمها التى تدافعت كرصاصات مدفع سريع الطلقات، حتى زوجها «محمد عبدالعال» الذى فوجىء بالتدهور السريع فى الموقف، وفشل فى إيقاف «سكينة» عن مواصلة الاشتباك مع أسرته بعد أن انفجر غضبها المكتوم كالبركان ولم تعد تهتم بشىء إلا بالانتصار على الذين يتعالون عليها بلا مبرر، ويتشامخون بلا سبب. وكان آخر ماسمعه، حين نجح اخيراً فى دفعها إلى خارج المنزل هو تهديد أمه له بأنه إذا لم يطلقها فى هذه الليلة فسوف تقطع كل صلة لها به إلى يوم الدين.



(١٣٢)

منزل سكينة رقم ٤ حارة ماكوريس

وكان الليل قد أوشك على الانتصاف حين خرج «عبدالعال» بصحبة «سكينة» من منزل شقيقه فى «غيط العنب» وسارا صامتين. وكانت الشوارع ماتزال تزدحم بالناس، إذا كان اليوم التالى هو أول أيام «عيد الاضحى». لكنه - على العكس منهم - كان يشعر بتعاسة بالغة، إذ كان عليه أن يتخذ فى الليلة نفسها قراراً صعباً، وأن يختار بين أمه التى يحبها ويهابها وبين زوجته التى يعشقها ويرغب فى الاحتفاظ بها. أما «سكينة» التى كانت تتنفس بصوت مسموع من اثر المعركة العنيفة التى خاضتها، وانتهت بانتصارها على كل صعيد: فقد جابهت اسرته بحقيقة علاقتهما، وانتصرت عليهم فى حرب الشتائم، وانتزعته منهم على غير ارادتهم، والأهم من ذلك كله، أنها ثأرت لنفسها، وتخلصت من كل الضغوط التى كانت ترزح على صدرها منذ وصلت الأم إلى الإسكندرية.

ولم يكد «عبدالعال» يبدأ عتابه لها لخروجها عما اتفقا عليه قبل الزيارة، مما أدى إلى افشال خطته للحصول على موافقة اسرته على زواجهما، ويعرض عليها أن تركب «الكهربة» - أى الترام - لتعود إلى حجرتهما بـ«شارع ماكوريس»، وتتركه ليعود إلى أسرته، ويحاول تهدئة ثورة أمه ضدها، على أن يعود إليها فى الصباح ليصحبها مرة أخرى إلى أمه لكى تهنئها بالعيد، وتعتذر لها عما وجهته إليها من سباب أثناء المشاجرة، حتى ثارت «سكينة» فى وجهه ثورة عارمة، واعتبرت العرض بمثابة إعلان لهزيمتها فى المعركة قبل أن تفرح بالانتصار، ورضوخ لتهديد الأم، مما دفعها لأن تضعه فى اختبار مماثل فأصرت على أن يبيت معها فى منزل الزوجية هذه الليلة، وإلا فليطلقها الآن.. وفوراً..

وكانا قد وصلا إلى مبنى «قسم شرطة كرموز»، حين تحول العتاب إلى مشاجرة عنيفة بينهما، أصرت خلالها «سكينة» على أن تقوده إلى داخل القسم، لكى تشكوه إلى الضابط النوبتجى.

وكان من حسن حظ «سكينة» أن الضابط النوبتجى فى تلك الليلة، كان «بشارة أفندى» مأمور القسم الذى كان يعرفها منذ أبلغته - قبل ثلاث سنوات - بأن شقيقتها «ريا» تدير «بيت الخواص» للدعارة غير القانونية، ولذلك استقبلها، واستمع إلى شكواها، مع أن الموضوع لم يكن مما يدخل فى نطاق اختصاصات قسم الشرطة، وأدرك المأمور أنه أمام خلاف زوجى، قد يفيد التأجيل فى حله، فلفت نظر «سكينة» إلى أنها لن تجد مأذونا شرعياً لكى يوثق طلاقهما فى هذا الوقت المتأخر من الليل، ونصح «محمد عبدالعال» بأن يستجيب لطلب زوجته، فيمضى ليلته فى منزل الزوجية، فإذا ظلت تصر على الطلاق حتى الغد، فليطلقها.

ومع أن «سكينة» كانت تبدو فى صباح يوم العيد سعيدة، لأنها هزمت حماتها المتسلطة، وأثبتت لها أن نفوذها على «محمد عبدالعال» أكبر من نفوذ أمه عليه، وأجبرته على أن يعود إلى منزل الزوجية الذى كان قد هجره، إلا أنها لم تكتف

بذلك بل وأصــــرت على طلب الطلاق احتجاجا على سلوك «عبدالعال» وأسرته، وتأكيدا بأنها هى الى ترفضه وتتعالى عن أن تكون زوجة له. فاصطحبها «عبد العال» إلى مــأذون قـريب قـام بتـوثيق الطلاق.. وعـاد الزوج إلى أحـضان أمـه، يزف إليـهـا بشرى طلاقه.



لم يجـد «حـسب الله» فـى المشـــادة التى جــــرت بين «سكينة» و«أبوطلبة» مايدعوه للاعتراض عليها فـى حينها، إذ اعتبـر تصديها له، واجبا ماكان يجوز لها أن تتـقـاعـس عن أدائه، بل وشـاركـهـا فى مواجهته. دفاعاً عن هيبة «بيت الكامب» ومكانتـه. لكنه عـاد ـ بعـد التداعيـات التى ترتبت على المشادة وانتهت بإغلاق البيت ـ ليحملها المسئولية عن الخراب الذى حل بآل همـام. وأفـقـدهم أكـثـر مـؤسـسـاتهم الاقـتـصـادية ازدهاراً، وليـضـيـف ذلك إلى كشف سيئاتها الكثير فعاد الجليد يكسو العلاقات بين «ريا» و«سكينة» التى لم تجد إلى جـوارها أحد يسـاعـدها على اجتـيـاز محنه طلاقـهـا من «محـمـد عـبـدالعـال» خاصة بعد أن تقرر ترحيل أمها وشقيقها إلى «كفر الزيات» بمجرد إغلاق البيت.

ولم يكن تأسيس بيت بديل أمراً صعباً على «ريا» الى كانت تجد متعة خاصة فى ادارة هذا النوع من النشـاط، لكن الحكمـة كانت تقتضى بأن تكف عن النشاط لفترة، حتى لا تستـفـز الشـرطة ضـدها، بعـد آن تكرر ضبط البيوت التى تديرها، وانذارها بضرورة تصحيح أوضاعها القانونية. واتباع الإجـراءات الإدارية للتـرخيص لهـا بالعـمل فى مجال الدعارة، وهو ماكانت ترغب فيه بقـوة، لما يكفله لهـا من استـقـرار، ويبـعـده عنها من مخاوف وضـغـوط تضطر للخضوع لها بحكم عدم قانونية النشـاط الذى تقـوم به، لولا أن «حـسـب الله» كــان مـــا يـزال يعـارض فى ذلك ويعتـبـر العمل فى مـجـال الدعــارة القــانونيـة، عــار لايليق بمكانتـه الاجتماعية.

ومع أن البيت الحر الذى كانت تقيم به «ريا» ـ بحارة «على بك الكبير» كان يتمتع ببعض الصفات التى تجعله صالحاً لممارسة النشـاط، من بينهـا أن الظلام كـان يخـيم عليه، مما دفع «بديعة» ـ ابنة «ريا» الوحيدة ـ للقـول فـيـما بعد بأنها كانت تضع قطعـة الملح فى كفهـا، فلا تستطيع أن تراها فى رابعـة النهـار، واضطر أمهـا إلى أن تحـتـفظ بمصباح النفط مضاء ليلاً ونهاراً، فضـلاً عن أن مـعظم جيـرانهم فى الغـرف الاربع الأخرى التى يضمـهـا الدور الارضى كـانوا من النوبيـيـن غـيـر المتـزوجـين، يغـادرون البـيت فى الصـبـاح المبكر، وقـبل شـروق الشـمس إلى أعمـالهم، ولايعـودون إليـه إلا بعـد العـشـاء، إلا أن ذلك لم يكن كـافـيـاً لتأمينه، بحيث تستأنف «ريا» نشاطها فيه، من دون أن تثـيـر اعـتـراض سكان الدور الثـانى منه، أو تلفت نظر صـاحـبـة المنزل «خـديجـة نورالدين» ـ التى كـانت تقـيم بالدور الثالث منه ـ إذ كان الجميع يتميزون

بدرجة من التزمت الخلقى، وصلت إلى حد أن أحد سكان الدور الثانى، كان إذا غادر غرفته إلى عمله أغلق بابها على زوجته، إلى أن يعود. وفضلا عن ذلك فقد كان «حسب الله» مازال يتمسك بسياسة الفصل بين مكان المعيشة ومكان العمل، وبين «البيت الحر» و«البيت السرى».

وعلى العكس من بيت «ريا» الحر، فقد كان بيت «سكينة» المناظر له بـ«شارع ماكوريس» القريب منه، أكثر ملاءمة لممارسة النشاط، إذ كان معظم الذين تبدلوا على الإقامة فى الحجرات الثلاث الأخرى بالطابق الارضى الذى تقع فيه غرفتها من البغايا اللواتى يعملن بـ«نقطة المومسات» بـ«كوم بكير» ممن تعودن على أن يستأجرن غرفاً يتخذنها مساكن حرة لهن. وكان ممايغريهن على ذلك أن البيت كان قريباً من النقطة مما ييسر عليهن الانتقال بين مكان العمل ومكان الإقامة، وفضلاً عن أن الطابق الأعلى من المنزل كان مؤجراً لأسرة يونانية، لا تهتم - كمثيلاتها من الأجانب - بالتطفل على الجيران أو التدخل فى شئونهم، فقد كن يستأجرن الغرف من المستأجر الأصلى للطابق الأرضى، وهو سائس للخيول. يدعى «محمد أحمد السمنى» مما كان يجنبهن اعتراضات أصحاب العقارات الذين كانوا يرفضون عادة تأجير مساكنهم لامثالهن من الخطايا.

وعلى الرغم من تلك المزايا جميعها، فإن «سكينة» لم تحاول خلال الشهور السبعة التى أقامتها فى هذا المنزل. أن تديره للدعارة السرية، أسوة بجاراتها ففضلا عن أن «بيت الكامب» كان مايزال قائما آنذاك، فقد كانت تنظر إلى «بيت الجمّال» بـ «حارة ماكوريس» باعتباره بيت الزوجية التى لايليق بها أن تبتذله لكل عابر سبيل، كما أنها كانت قد افتتحت آنذاك بمشاركة زوجها مقهاها القريب من المنزل.. ولم يغير إغلاق «بيت الكامب» أو طلاقها من «عبدالعال» من موقفها، وحالت الثلوج التى عادت لتتراكم على علاقتها بشقيقتها وزوج شقيقتها، بين «ريا» وبين مفاتحتها فى اتخاذ البيت قاعدة لاستئناف النشاط.

ولم تطل فترة انقطاع «آل همام» عن النشاط، إذ كان معنى ذلك - كما قالت «ريا» فيما بعد - أن يموتوا جوعاً، بعد أن بدد «حسب الله» أرباح «بيت الكامب». وهكذا اضطرت على الرغم من كل المحاذير - إلى أن تتخذ من حجرتها فى حارة «على بك الكبير» مركزا لنشاط محدود، كانت تمارسه بحذر بالغ وتكتم شديد، وكان لايزال باستطاعتها أن تستعين بعدد قليل من النساء اللواتى كن يعملن معها فى «بيت الكامب» بعد أن انتقل معظمهن إلى العمل لدى غيرها فى أعقاب ضبط البيت واغلاقه.

ولم تستطع «سكينة» أن تواصل أجازتها من العمل، إذ كانت فى حالة نفسية سيئة بسبب طلاقها جعلتها تفرط فى تناول الخمر وتهمل فى ادارة المقهى، وتعجز عن تحمل مضايقات جارتها «السيدة بنت سليمان» زوجة المستأجر الأصلى «محمد

السمنى» التى لم تكن تكف عن الشجار معها، بدعوى أنها تسىء استخدام مرافق البيت أثناء اعدادها لما تقدمه إلى رواد مقهاها من مشروبات، وفى واحدة من تلك المشاحنات، اتخذت «سكينة» قراراً باغلاق المقهى، وبمغادرة المنزل إلى آخر.

أما القرار الذى لم تعلنه.. فهو أن تعاود الاتصال بطليقها «محمد عبدالعال».

لم يكن قد مضى على وقوع الطلاق سوى ثلاثة أسابيع فقط، حين فوجىء «محمد عبدالعال» أثناء انهماكه فى عمله.. بأحد خفراء المحلج يبلغه بأن هناك امرأة تقول بأنها قريبته تقف عند الباب الخارجى، وتطلب رؤيته لأمر هام.. وكانت المرأة هى «سكينة» التى عاتبته لأنه لم يفكر فى الاتصال بها، أو الاطمئنان على أحوالها، طوال تلك المدة.. وقالت له إنها ستكون فى انتظاره بقهوة «مريم الشامية»، عقب انتهائه من العمل، لكى يصفيا الأمور المعلقة بينهما، ولأن الظروف لم تكن تسمح بالرفض أو حتى بالأخذ والرد، فقد وعدها بأنه سوف يحضر فى الموعد الذى حددته.

وعلى مائدة العشاء، الذى دعتهما إليه «مريم الشامية» بدا وكأن دعوة «سكينة» له للمناقشة فى تصفية الأمور التى مازالت معلقة بينهما، هى مجرد ذريعة، وأن اللقاء كان مطلوباً لذاته، وهو ماعبرت عنه صراحة، بعد أن احتست كوبين من النبيذ، فقالت له. أنها نسيت كل مافعله بها، وأن عليه هو الآخر أن ينسى كل مافعلته به، واعترفت بأن زواجهما كان خطوة لا ضرورة لها، لم تسفر إلا عن الإساءة إلى علاقتهما، وعرضت عليه أن يرجعا بهذه العلاقة إلى المستوى الذى كانت عنده قبل الزواج، لأنها ماتزال ـ على الرغم من كل ماجرى ـ تحبه، وتحرص على استمرار علاقتها به.

وهكذا انتهت الجلسة، بانصراف الاثنين معاً إلى منزل «الصابونجية» القريب، الذى كانت «سكينة» قد انتقلت للإقامة به، بعد أن تركت حجرتها بـبيت الجمَّال» بـ «حارة ماكوريس» :

لكن الأوضاع لم تعد إلى ما كانت عليه قبل الطلاق، إذ كانت أمه لاتزال تقيم بالإسكندرية مما كان يضطره إلى العودة ليلا إلى منزل شقيقه ليبيت به، واستمر الحال على ذلك لعدة أسابيع، إلى أن عادت الأم إلى قريتها، فأخذ «عبدالعال» يتحرر تدريجياً من التزامه بالمبيت بمنزل شقيقه، إلى أن انتقل نهائياً للإقامة مع «سكينة».

ولم يثر تردد «محمد عبدالعال» على «سكينة» اعتراض جيرانها فى «بيت الصابونجية» ففضلاً عن أنه كان شديد القرب من مسكنها السابق، حيث يسود الاعتقاد بين أهل الحى، بأنهما زوجين، فقد كان الجيران فى هذا البيت، من نوع جيرانها فى «بيت ماكوريس»، ممن يعملون فى نقطة البغاء بـكوم بكير»، ولايشغلون أنفسهم بسلوك الآخرين، بل وكان من بين المترددات عليه، إحدى النساء اللواتى كن يعملن معها فى«بيت الكامب»، وهى «خضرة محمد اللامى» التى أغرى ظهورها فى المنزل بين الحين والآخر، «سكينة»

بالعودة إلى استئناف نشاطها فى مجال البغاء السرى، ولكن فى نطاق ضيق، اقتصر على «خضرة» وعلى عدد آخر قليل من بقايا فرقة البغايا التى كانت تعمل فى «بيت الكامب».



فى تلك السنة ـ ١٩١٩ ـ كانت «خضرة محمد اللامى» قد تجاوزت منتصف العقد الرابع من عمرها، أمضت أكثر من نصفه زوجة، وأنجبت من زوجها ـ الذى كان مايزال على قيد الحياة على الرغم من مرضه الطويل ـ ثلاثة أبناء، تزوج اثنان منهم، وأنجبا أطفالاً صغاراً فأصبحت جدة، ومع أنها كانت تميل إلى البياض، وتتميز بعينين خضراوين، إلا أنها ـ بسبب تقدم عمرها ـ لم تكن شديدة الجاذبية للرجال الذين يترددون على «بيت الكامب» ولكنها كانت تجد مع ذلك من يطلبها، خاصة فى الفترات التى يشتد فيها الطلب، ويقل المعروض.. ولم يكن أحد من أسرتها يعرف أنها تعمل فى مجال الدعارة السرية، على الرغم من أنها كانت قد تعودت أن تخرج من بيتها كل يوم لتغيب عنه طوال النهار، بل وتعودت أن تبيت خارجه فى بعض الليالى.. وكان الابن الأكبر قد تزوج منذ سنوات، وانتقل للاقامة فى حجرة مستقلة، وانشغل بعمله كـ«كواء طرابيش» أما الابن الأصغر ـ الذى يقيم معها ـ فقد كان عمله كـ«عربجى حانطور» يستغرق معظم ساعات الليل والنهار، وكان من حسن حظها، أن ابنتها الوحيدة، قد تزوجت وأقامت فى نفس الحارة، مما مكنها من رعاية الأب المريض، خلال الفترات التى كانت الأم فيها تغيب عن المنزل.

وكان اللقاء الذى جمعها بـ«سكينة» فى «بيت الصابونجية» مصادفة سعيدة لكل منها.. إذ كان البيت يشكل غطاء محكماً لنشاط «خضرة» التى كانت تتردد عليه لزيارة صاحبته، وهى تمت إليها بصلة مصاهرة بعيدة، مما مكنها من أن تتعاون مع «سكينة» من دون أن يثير ترددها على المنزل أو اقامتها فيه، ريبة من أحد، بل إن أحدا لم يكتشف أن هناك علاقة وثيقة بين الاثنتين، ولم يربط بين هذه العلاقة، وبين اختفاء «خضرة» بعد ذلك بشهور قليلة.

ولعل «أمينة بنت منصور» كانت الوحيدة من جيران «سكينة» التى أدركت بذكائها ودقة ملاحظتها طبيعة العلاقة بينها وبين «خضرة» ونوع العمل الذى تقوم به جارتها فسعت إلى التعرف إليها، ووثقت علاقتها بها، إلى أصبحتا صديقتين حميمتين..

ومع أن «أمينة بنت منصور» كانت فى الستين من عمرها، إلا أنها كانت امرأة وافرة النشاط شديدة الحيوية، بالغة الجاذبية، وكان اسمها يدوى فى المنطقة، ليس فقط لأنها اقامت بها مع أسرتها لسنوات طويلة، قبل أن تتفرق بهم السبل ـ بل لأنها ـ كذلك ـ كانت تعمل «دلالة» وتتردد على البيوت لتعرض على نسائها

عينات الأقمشة والملبوسات وتقوم نيابة عنهن بشرائها لهن نظير عمولة تحصل عليها من أصحاب محلات الأقمشة التى تستعين بها فى ترويج بضاعتها، وتتوسط بين الراغبات فى بيع - أو المبادلة على - ماليديهن من حلى أو ملابس مستعملة، والراغبات فى شرائها، وفى أحوال ليست نادرة كانت تقرض بعضهن نقوداً، أو تؤجل لهن الدفع، مقابل فائدة قليلة.. وبحكم طبيعة الحى، فقد كانت معظم زبوناتها من البغايا اللواتى يقمن فى «كوم بكير» أو فى الحارات المحيطة به.

لكن حياة «أمينة بنت منصور» الزوجية، لم تكن تخلو من التعاسة.. ولعلها كانت فى ذلك أقرب إلى «سكينة» مع اختلافات قليلة، إذ كانت قد تزوجت عدة مرات انتهت بالفشل، من دون أن ترزق بأطفال. وكان زوجها الأخير «محمد على القادوسى» عربجياً ميسور الحال، يملك حصاناً وعربة يعمل عليها، مما جعلها تتفاءل باستمرار حياتها الزوجية واستقرارها. لكن الأحوال مالبثت أن تغيرت بعد مرض الزوج، فاضطر لبيع الحصان والعربة، لينفق على علاجه، واضطرت «امينة» لكى تنزل إلى السوق لتعمل بالخدمة فى بيوت الأجانب، لكى تعول أسرتها. وعندما استرد الزوج عافيته، وانتقل إلى العمل كبائع جوال للطيور، حاول أن يعيدها إلى المنزل، ويجبرها على البقاء به إلى جوار أطفالها، لكنها رفضت بإصرار، إذ كانت قد وجدت متعة خاصة فى العمل، كما أنها لم تكن واثقة من أن زوجها سيصمد فى عمله الجديد. ومالبث الخلاف بينهما أن اتسع. عندما وافقت على الرحيل إلى القاهرة، مع أسرة من اليهود الأجانب كانت تخدم فى منزلهم، وأمضت بها ستة شهور، عادت بها لتنشب بين الزوجين مشاجرة دموية، انتهت باصابتها بجروح شديدة، وبطلاقها طلاقاً بائناً لارجعة فيه.

وتدخل أبناء الحلال بين الزوجين، فتنازلت «أمينة» عن شكواها ضد زوجها، ووافقت أن تترك الخدمة فى البيت لتتفرغ لتربية ابنيها، وتعهد الزوج بأن ينفق عليهما وعليها، مع بقائها مطلقة، بعد أن أصبح مستحيلا أن تعود العلاقة الزوجية بينهما.. وتنفيذاً للاتفاق، انتقلت «أمينة» للإقامة فى «بيت الصابونجية» - الذى يقع على ناصية «حارة النجاة» - لتكون قريبة من المنزل الذى يقيم مطلقها فى إحدى حجراته، ويستأجر أحد دكاكينه ليبيع فيه الطيور.

لكن الأيام مالبثت أن كشفت عن عجز «أبو أحمد النص» وهو الأسم الذى كان «محمد على القادوسى» يعرف به فى الحارة نسبة إلى ابنه وإلى قامته القصيرة - عن الوفاء بتعهداته. إذ كان يفضل أن يقضى وقته فى تدخين الحشيش، ليغيب فى أحلام يقظة كانت تتركز دائماً حول أمله فى أن يصبح صاحب «عربخانة» تضم عدداً من الخيول والعربات، يعمل عليها - تحت امرته ورهن إشارته - جيش من العربجية. ومالبثت تجارته فى الطيور أن بارت، فقلب الدكان إلى مطعم شعبى، كان

يبيع فيه السمك المقلى والكشرى والباذنجان والمحشى. ومع أنه كان يعتمد على مطلقته فى طهى الطعام الذى يبيعه لزبائنه إلا أن الخسائر مالبثت أن حاصرته بعد قليل، فاضطر إلى تغيير نشاطه من بيع الطعام إلى بيع الخمور والمياه الغازية، متذرعاً بأن موقع الدكان لايلائم بيع الطعام.. وهو ماأثبتت الأيام عدم صحته، أذ قامت «ستوتة بنت منصور» ـ شقيقة مطلقته ـ بافتتاح مطعم فى منزل يجاور المنزل الذى كان يقع فيه دكانه، فراج رواجاً شديداً، بينما حط الكساد على دكان «النص» حتى بعد أن قلبه إلى تجارة الخمور، خاصة بعد أن شاع عنه بأنه يغش الكونياك الذى يبيعه.

وعلى العكس من «النص» فقد كانت مطلقته «أم أحمد» أكثر عملية وواقعية، لذلك انتهزت فرصة عجزه عن الوفاء بتعهداته نحوها، لتتحلل من الاتفاق بينهما، وتنزل مرة أخرى إلى سوق العمل الذى كانت تجد فيه متعةخاصة. لكنها لم تعد للخدمة فى البيوت، بل استأنفت نشاطها كدلالة، لكى تظل بالقرب من ابنيها. وكان «شعبان عبدالرازق» ـ صاحب المنزل رقم ٨ بحارة النجاة» الذى يقيم فيه طليقها ـ عجوزاً تجاوز السبعين من عمره، أقعدته الشيخوخة عن العمل، ولما كان يقيم فى حى بعيد عن الحارة، فقد كان يجد صعوبة شديدة فى البحث عن سكان يؤجر لهم غرف المنزل، وإذا وجدهم عجز عن تحمل مماطلاتهم فى الدفع وعن مطاردتهم لتحصيل الإيجار فضلا عن أن بعضهم كان يسبب له مشاكل كثيرة فى «قسم شرطة اللبان» نتيجة لاستخدامهم المنزل فى أمور غير قانونية.. وفى واحدة من مشاجراته الكثيرة معهم، تدخلت «أم أحمد» لتعرض عليه أن يعينها وكيلة عنه، تقوم بتأجير غرف المنزل، وتحصيل الإيجارات على أن يعطيها إحدى الغرف لتقيم بها مجاناً.. ووافق الرجل على الفور.. وبذلك انتقلت «أمينة منصور» لكى تقيم فى المنزل نفسه الذى يقيم فيه طليقها، الذى مالبث أن ترك الغرفة التى كان يشغلها به، توفيرا للنفقات ليصبح الدكان هو مقر عمله، ومحل اقامته.

وفى تلك الفترة، كانت «ريا» قد استأنفت نشاطها فى مجال الدعارة السرية، بعد ان هدأت الضجة التى اعقبت إغلاق «بيت الكامب»، ولكن بسياسة جديدة، تستفيد من خبراتها السابقة، وتقوم على استبدال «بيت الكامب» بعدد من المراكز الصغيرة المتناثرة، تمارس فيها نشاطها، فلا تلفت الأنظار إليه، ولاتستثير الشرطة للهجوم عليه، فإذا قاد سوء الحظ الشرطة إلى أحد تلك المراكز، لم تضطر للتوقف عن النشاط تماماً، كما حدث عقب إغلاق «بيت الكامب»، فتفقد زبائنها وتضيع من يدها النساء، اللواتى بذلت مجهوداً فى سحبهن وفى تدريبهن على العمل.. وتطبيقاً لتلك السياسية، استأجرت «ريا» غرفة بأحد المنازل القريبة من «سيدى عماد» واتفقت مع صديقتها «روما» ـ التى كانت تشاركها السكن فى «بيت الخواص» من قبل ـ على أن تشاركها

فى ادارتها كبيت سرى للبغاء، على أن تتقاسما أرباحها.. ولما كانت الغرفة قريبة من بيت «ريا» الحر. بحارة على بك الكبير»، فقد كان سهلاً عليها أن تنتقل بين الغرفتين كلما كانت هناك ضرورة لذلك، ومع أنهما اضطرت إلى بذل نشاط استثنائى لإعلان زبائن «بيت الكامب» من الرجال والنساء، بالعنوان الجديد للشركة، إلا أن الأمور استقرت بعد قليل، مما دفعها للتفكير فى افتتاح فرع آخر، فوقع اختيارها على حجرة بالطابق الارضى من المنزل رقم ٩ بحارة النجاة» المواجه للمنزل الذى تقيم فيه «أم أحمد النصّ».

وبمجرد افتتاح البيت الجديد، أدركت «ريا» مدى خطورة العواقب التى قد تحيق بهـا، إذا ظلت «سكينة» بعيدة عن مشاركتها، إذ كانت ماتزال تقيم فى «بيت الصابونجية» ـ الذى يقع على ناصية الحارة نفسها ـ وتدير حجرتها لنفس النوع من النشاط مما يضعهما موضع المنافسة، فضلاً عن أنها كانت فى حاجة حقيقية إلى «سكينة» لكى تشاركها فى إدارة الفرع الجديد، لتتفرغ هى للإشراف على الفرعين معاً. لكن «سكينة» التى كانت ماتزال تحتفظ بذكريات سوداء لتاريخ علاقتها بشقيقتها وزوج شقيقتها، رفضت قبول العرض.

وكان ظهور «محمود أبوزكاك» فى «حارة النجاة» هو الذى حسم تردد «سكينة».. فذات مساء شاهد سكان الحارة شاباً فى العشرين من عمره، يحمل على ظهره حصيرة ومرتبة من القطن وصرة من الملابس الملوثة بالدماء. ويسير فى خطوات متعثرة، بسبب عرج خفيف فى أحد قدميه تولد عن إصابته بشلل الاطفال. ولم يكن الشاب غريباً عن الحارة، فقد أمضى بها جانباً من طفولته وصباه، مع أمه ـ وهى إحدى شقيقات «أمينة بنت منصور» ـ قبل أن يغادر الجميع الحارة ليسكنوا فى منزل للأسرة أقامته فى «حارة الفراهدة». وفى الصباح علموا أن الشاب الذى يعمل جزاراً ـ قد تشاجر مع أمه. فترك منزل أسرته، وجاء ليقيم مع خالته «أم أحمد النصّ» التى رحبت به. وخصصت له إحدى غرف المنزل الخالية من السكان، والتى كان من حقها ـ باعتبارها وكيلة عن صاحبه، أن تستضيف فيها من تشاء.

وبعد أيام من وصول «أبوزكاك» دخلت «أم أحمد النص» طرفاً فى المفاوضة الدائرة بين «ريا» و«سكينة» حول استئناف العلاقات الاقتصادية بينهما. فعرضت عليهما مشروعاً يقضى بتحويل الغرفة التى تستأجرها «ريا» فى الطابق الأرضى من المنزل رقم ٩ بالحارة إلى «محششة» يقوم بإدارتها ابن شقيقتها، على أن تترك «سكينة» الحجرة التى تستأجرها بـ«بيت الصابونجية» وتنتقل للإقامة بغرفة بالطابق الثانى من المنزل نفسه. تخصص للراغبين فى المتعة الحرام.. بينما يواصل الدكان الذى يديره مطلقها «أبوأحمد النص» فى المنزل المقابل، نشاطه فى بيع الخمور. وبذلك تتكامل المشروعات الثلاثة اقتصادياً ويستطيع كل منها أن يستفيد من زبائن الآخر بحكم الصلة التقليدية بين ثلاثية الخمر

والحشيش والجنس.

ولم تستطع «سكينة» مقاومة العرض، فضلاً عن أن المشروع كان يعد بأرباح طائلة، فإن التوسع فى عدد الشركاء، كان كفيلاً بتخفيف الضغوط التى تتعرض لها، إذا كان الطرف الآخر فى الشركة هو «حسب الله» الذى أدمن هضم حقوقها فأعلنت موافقتها عليه ونفذت الجانب الذى يخصها منه، وانتقلت بالفعل للإقامة فى الطابق الثانى من المنزل رقم ٩ بـ«حارة النجاة» فى النصف الثانى من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٩.



لم تمض سوى أسابيع قليلة على افتتاح «مركز آل همام وشركائهم للتحشيش والسكر والعربدة» بالمنزلين رقم ٨ و٩ بـ«حارة النجاة» ـ حتى طار صيته، واتسعت شهرته، واجتذب إليه كثيرين من يشغفون بهذا النمط من الحياة.

وكانت «المحششة» هى حجر الزاوية فى نشاط المركز.. إذ كان تعاطى الحشيش شائعاً على نطاق واسع بين الطبقات الدنيا والوسطى من العمال والفلاحين والحرفيين وصغار الموظفين والتجار، يستعينون به على الهروب من احساسهم بالفراغ والخواء.. وفضلاً عن أن تعاطيه لم يكن سلوكاً اجتماعياً محتقراً، أو حتى منتقداً، فإن العقوبة القانونية على التعاطى أو ادارة مكان له، لم تكن تتجاوز الغرامة. وكان مما شجع ـ كذلك ـ على انتشار المحاشش بين مساكن الأحياء الشعبية، أن أسعار الحشيش كانت رخيصة بسبب تعدد المنافذ التى كان يمكن تهريبه منها إلى مصر، وعجز قوات حرس الحدود عن السيطرة على نشاط المهربين الذين يجلبونه من مناطق زراعته، وكان معظمهم من الأجانب المتمتعين بالحماية.

لكن إزدهار «محششة آل همام» كان يعود بالدرجة الأولى إلى موهبة مديرها «محمود أبوزكاك» وقد أطلق عليه هذا الاسم، لانه كان يزك فى مشيته بسبب ساقه المهيضة ـ وعشقه الشديد لعمله.. فلم تمض أيام على افتتاحها حتى أثبت أن أهله قد أخطأوا خطأ فاحشاً حين حاولوا توجيهه للعمل بالجزارة، فهجرها ليمضى أوقاته فى أماكن تعاطى الحشيش، مما كان سبباً فى الخلاف الذى نشب بينه وبين أمه وانتهى بهجره لمنزل الأسرة، ليقيم مع خالته التى وضعت الرجل المناسب فى المكان المناسب.

وكانت المحششة تشغل أوسع غرف الطابق الأرضى من المنزل رقم ٩ بـ«حارة النجاة» إذ كان طولها يزيد عن خمسة أمتار، وفى أقصى يمين الداخل إليها، نصبت صندرة خشبية تعلو عن الأرض بارتفاع متر، ويبلغ طولها حوالى ثلاثة أمتار وهو عرض الغرفة. وفوق تلك الصندرة فرش «محمود» مرتبته القطنية، فقد كان ينام بها بعد انتهاء العمل.. إذا لم

تطرأ ظروف تضطره للانتقال إلى البيت المقابل لينام فى أية غرفة خالية به. وكان يشغل الفراغ أسفل الصندرة بأدوات العمل ومتطلباته من المناقد - أى أواني الفخار التى تستخدم لإعداد النار - وأكياس الفحم وعدد كبير من «جوز» تدخين الحشيش من أنواع وأحجام مختلفة، وما قد يحتاجه العمل من قطع غيارها.. أما الحصيرة التى أحضرها معه، فكان يفرش بها أرض الغرفة التى كانت تتكون من الحجر الجيرى المدكوك بالحصى من دون بلاط.. وفيما عدا الزير الذى كان يضعه فى ركن الغرفة الأيسر، وعدد قليل من المساند القطنية كان الرواد يستعينون بها على الرطوبة التى تنشع من الحائط، لم يكن فى الغرفة أى شيء آخر.

فى الضحى يستيقظ «أبوزكاك» من نومه، وبعد أن يتناول إفطاره، ينهمك فى إعداد المحششة لاستقبال روادها، فيكنس الغرفة، والصالة التى تفصل بينها وبين الباب الخارجى للمنزل، وينفض التراب عن المرتبة والحصيرة والمساند، وينشرها فى ضوء الشمس لكى يتخلص من الحشرات التى يجلبها الزبائن معهم، ويرش ماتبقى من مياه فى الزير امام باب المنزل تثبيتاً للغبار وجلباً للهواء الرطب، فإذا جاء السقا بقربه الماء الجديدة، انهمك فى تنظيف الجوز وتسليكها، واستبدال ما بها من ماء بآخر، وقص الدخان وأضاف إليه العسل الأسود، وكسّر الفحم إلى قطع صغيرة، ثم استقبل التاجر الذى يزوده بجراية المحششة اليومية من أصناف الحشيش.

وعند الظهر يبدأ توافد الزبائن، فيشعل الفحم وتدور الجوزة ويجتمع المجلس وينفض عشرات المرات، ويظل منعقداً حتى الساعات الأولى من الصباح وتدوس أقدام عشرات من الناس مدخل البيت فى كل ساعة، ويتردد بعضهم عليه، أكثر من مرة فى اليوم الواحد.. أما الزبون الدائم فهو «محمود» نفسه، فهو يسامر الجميع، ويشاطرهم مايدخنونه، ويقوم نيابة عنهم بشد الأنفاس الأولى من كل «تعميرة» يقدمها إلى الزبون، ليخفف عنه المجهود الذى يتطلبه اشعال النار فى الدخان، وغالباً مايترك له الزبون الأنفاس الأخيرة كذلك. وعلى الرغم من كمية الحشيش الهائلة التى كان يدخنها على امتداد اليوم، فإنه لم يكن يفقد وعيه، أو اتزانه، أو يخرج عن التقاليد المرعية فى التعامل مع الزبائن، الذين كانوا يقدرون له اخلاصه فى خدمتهم، فيحرصون على التردد عليه، ويتخذون من المحششة التى يديرها محلاً لمسامرتهم.

ومن هذا العدد الهائل من الزبائن الذين يترددون على المحششة، كان مركز الدعارة - الذى أقيم فى الحجرة التى استأجرتها «سكينة» فى الطابق الثانى من البيت نفسه - يجد زبائنه.. وكان إشعار الزبون الجديد باستعداد المحششة لتقديم خدمة اضافية من هذا النوع، لايتطلب أكثر من دخول إحدى النساء إلى المحششة، لتتبادل مع «محمود أبوزكاك» الحديث، إذا كانت من النوع الذى يستحى، أو لتجلس بين الرجال وتطلب تعميره إذا كانت من النوع الجسور فيصر أحد الجالسين على

أن يدفع ثمن الطلب وفى الحالتين كان «أبو زكـاك» ينوب عن الزبون فى إبلاغ طلبه إلى «ريا» أو «سكينة» ثم يشير له على سلم المنزل الداخلى الذى يقود إلى الطابق الثانى، ليجد الزبون بمجرد انتهائه من تدخين الحشيش، طلبه فى انتظاره. وفيما بعد اصبحت الأمور أيسر من ذلك، إذ كانت «ريا» تكثر من دخول «المحششة»، إذا لاحظت أن من بين المترددين عليها، وجوهاً جديدة، أو تنتمى إلى مستوى اجتماعى أكثر رقياً من المستوى الذى تعود أن يطلب خدماتها لكى تقوم بمهمة الترويج للجانب الآخر من النشاط بأسلوبها الناعم.

ومالبثت فكرة مركز الترفيه المتعدد الأنشطة، أن اعطت ثمارها الكثيرة، فازدهر العمل فى كافة أفرع النشاط، وفضلاً عن رواج العمل فى المحششة، فقد كانت غطاء جيداً لكثيرين ممن يعتبرون التردد على بيوت البغاء عاراً لايليق بهم، ويخشون أن يراهم من يعرفونهم وهو يترددون على بيت سىء السمعة، فاتخذوا من التردد على المحششة ـ وهو أمر لم يكن يثير انتقاداً كبيراً من الناحية الاجتماعية ـ ساتراً يخفى هدفهم، مما أدى إلى ازدياد الإقبال على فرع البغاء السرى، حتى أن «ريا» اضطرت فى بعض الأحيان، إلى تحويل عدد من الزبائن إلى بيتها الحر بحارة على بك الكبير» أو ارسالهم إلى الفرع الآخر، الذى كانت تشترك فى إدارته معها، جارتها السابقة «روما» وكان مما ييسر عليها ذلك أن البيوت الثلاثة كانت تقع فى نفس المنطقة.

ولأول مرة منذ أفلس «أبوأحمد النص» وباع حصانه وعربته، نجت تجارته من الإفلاس، اذا ازداد الإقبال على طلب الخمور والمرطبات التى يبيعها، وأخذ كثيرون من رواد المحششة يترددون عليه، قبل دخولهم إليها، ليعدوا أنفسهم لحالة النشوة التى يحلمون بالوصول إليها، أو بعد خروجهم منها لتثبيت تلك الحالة.. فضلاً عن الخمور التى كانت يطلبها الذين يصعدون منهم إلى الدور الثانى، ليتعاطوها مع جليساتهم من النساء. بل وشمل الرواج كذلك مطعم «ستوتة بنت منصور» ـ شقيقة «أم أحمد النص» ـ فلم يعد نشاطها يقتصر على صنع شوربة العدس، بل أضافت إليها بعض الأطعمة الحريفة التى يستحب أكلها أثناء شرب الخمر أو الحلوة التى يستحب أكلها بعد تدخين الحشيش،، مما أسرى «سكينة» بأن تضيف متعة الطعام الشهى إلى المتع التى يقدمها المركز لرواده، فكانت تشترى الدجاج والبط، وتقوم بطهيها لمن يطلب ذلك. وكان الربح الذى يعود عليها من هذا النشاط ـ الذى تقوم به لحسابها الخاص بعيدا عن الشركة ـ كبيراً، إذ كانت «سوق الفطيس» هى المصدر الرئيسى لما تطهوه من طيور نافقة، أو على وشك النفوق.

ولأن «آل همام» كانوا أحصف من أن يديروا مركزاً متعدد النشاط كهذا المركز من دون، أن يكلفوا له الحماية اللازمة فقد اتخذ «حسب الله» من دكان «أبوأحمد النص» محلاً مختارا يمضى به معظم

ساعات النهار، جالساً على مقعد أمامه، بحيث يستطيع أن يتابع مايجرى داخل المركز وخارجه، توقياً لأى هجوم مفاجىء تقوم به الشرطة أو شغب ينشب بين الزبائن، بسبب لطشة الخمر، أو ثقل وطأة الحشيش، أو الإفراط فى الجمع بينهما.

وكان يدخل إلى المنزل بين الحين والآخر فيطوف بالمحششة، وقد يجلس قليلاً إذا مادعاه أحد الزبائن إلى تعميرة، ثم يصعد إلى الطابق الثانى ليتبادل حديثاً قصيراً مع زوجته أو شقيقتها، وهدفه فى الحالتين هو ان يراه المترددون على البيت، فيعرفون أن الغابة لاتخلو من الأسود، ويلتزمون جادة الصواب. ويدفعون ثمن مايحصلون عليه من خدمات، من دون تردد أو مساومة أو محاولة للابتزاز بإثارة الضجيج.

وفى بداية المساء كان «محمد عبدالعال» يعود من عمله فى «وابور القطن» فإذا كانت الغرفة التى يقيم فيها مع «سكينة» خالية من الزبائن، صعد إليها فتناول طعامه، واستراح قليلاً، وإذا كانت مشغولة بهم وهو ماكان يحدث فى كثير من الأحيان، انضم إلى مجلس «حسب الله» أمام «دكان النص» وتناول الطعام الذى أعدته له رفيقته، وشاركه فى الحراسة، وفى تناول أكواب الكونياك التى كان «النص» يكرمهما فيقدمها لهما من الصنف غير المغشوش، ويحاسبهما عليها ـ باعتبارهما زبونين دائمين ـ بأثمان مخفضة، إلى أن ينتصف الليل، وينقطع سيل الزبائن الذين يترددون على المركز، ويطفىء «محمود أبوزكاك» الفحم المشتعل فى المواقد، ويأوى إلى فراشه، فيصعد «محمد عبدالعال» إلى غرفته، وينصرف «حسب الله» إلى منزله الحر بحارة على بك الكبير».

وفيما عدا استثناءات قليلة، كان المركز يستقبل فيها بعض جنود جيش الاحتلال أو بعض بحارة السفن، التى ترسو فى ميناء الإسكندرية، يقودهم أدلاء محترفون إليه، لكى يذوقوا «اللحم الوطنى» فقد كان معظم زبائن البيت من العمال الفقراء، ومن الصعايدة المهاجرين. وكانوا ـ كمعظم مدمنى الحشيش ـ من النوع الهادىء الخانع، الذى يفتقد لأية نوازع عداونية ولايثير أى ضجيج، وعلى الرغم من ذلك فقد ارتفع عدد افراد قوة الامن التى تقوم بحماية المركز إلى ثلاثة رجال، بعودة «عرابى حسان» من العمل فى السلطة ليأخذ مجلسه أمام «دكان النص» إلى جوار «حسب الله» و«محمد عبدالعال».

وذات مساء حدث ما كانوا يخشونه، فقد خرج «محمود أبوزكاك» خلف أحد الزبائن ليستوقفه امام البيت ويطالبه بخمسة قروش، وعندما أحاط بهما الرجال الثلاثة، قال «الزكاك» إن الرجل قد دخن خمس تعميرات من الحشيش، ثم رفض أن يدفع الثمن وما كاد ينتهى من عرض شكواه على «مكتب الأمن»، حتى قال الرجل وهو ينظر إلى الثلاثة بتحد بالغ:

ـ مش دافع.. ح تعملوا إيه يعنى؟!



١٩٠٠: شارع فؤاد. قلب الحي الأفرنجي بالاسكندرية

الفصل الثالث

زمن القســاوة











لم يكن الرجل مجهولا من ثلاثتهم، وقد عرفوه بمجرد اقترابهم منه، وتبينهم لملامحه. ولو أن أحدا غيره، كان قد امتنع عن دفع ثمن مادخنه من حشيش لتبادلوا ضربه، وحصلوا على حقهم منه عنوة، أو خلعوا عنه جلبابه، وأبقوه رهنا لديهم إلى أن يعود بالنقود... أما وقد اتضح لهم أن الذى فعل ذلك هو «عبد الرازق يوسف» أحد فتوات الحى - فقد عقلوا غضبهم، وقرروا - من دون مناقشة مسبقة فيما بينهم - معالجة الأمر بالحسنى.... فطلب «عرابى» - بحكم معرفته به ومسؤوليته كحام للبيت- من «الزكاك» أن يعود لعمله، ويترك لهم الأمر، واصطحب الرجال الثلاثة «عبد الرازق» إلى دكان «أبو أحمد النص» الذى لم يدهش للانقلاب المفاجىء فى معاملتهم للزبون المشاكس واستجاب لطلبهم بأن يقدم له كوبا من الكونياك بحماسة بالغة.

منذ ذلك الحين- خريف ١٩١٩- انضم «عبد الرازق يوسف» إلى «رجال ريا وسكينة». وأصبح لايكاد يفترق عنهم، وتوطدت علاقته بـ «عرابى حسان» حتى تحولت إلى صداقة عميقة، وكان الاخير هو صاحب الاقتراح باستمالة «عبد الرازق» بدلا من التصدى له. ولم يكن السبب فى ذلك خوفه من مواجهته، أو جبنه عن التصدى له، بل تقديره لمدى مايمكن أن يجلبه عليهم من متاعب، إذا مادخلوا معه فى معركة، سوف تستتبع - بالقطع- سلسلة من ردود الأفعال. يمكن أن تعرقل نشاطهم.

ولم يكن «عبد الرازق» صاحب قوة يخشى بأسها، أو عصبية يكثر عددها، أو مال يصطنع به الأعوان، بل كان مجرد «عربجى» لايملك شيئا، حتى العربة التى يعمل عليها، فهو يعمل- اذا عمل- أجيرا لدى عدد من أصحاب «العربخانات» الذين يتعاقدون مع المستوردين وتجار الجملة على نقل البضائع من مخازنهم فى الميناء إلى مخازنهم فى المدينة، أو من هذه المخازن إلى مخازن تجار نصف الجملة..

وكان يأخذ قوته من جسارته، وانعدام حيائه واستضعافه للآخرين واستعداده لاثارة الفضائح، وسجله الجنائى المزدحم بعدد كبير من الجنح والمخالفات وأحكام الحبس والغرامة، تدل على أنه لم يكن يخاف من الشرطة، أو يحرص على توقى الحبس والحقيقة أن هذا السجل يلفت النظر بتنوع الجرائم التى يضمها، والتى بلغت ١٩ سابقة تجمع بين السرقة والضرب وبين التجمهر واحراز الحشيش، وتختلف العقوبات التى حكم عليه بسببها بين الغرامة والحبس لمدد تتراوح بين اسبوع وثلاثة أشهر، وكان آخرها هو الحكم عليه- فى ١٢ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٩- بتغريمه مائة قرش لادارته بدون اخطار لمحل لحرق الحشيش.

وعلى العكس من الثلاثة الآخرين، فإن «عبد الرازق» لم يكن من المهاجرين

الصعايدة. بل كان من أهل الاسكندرية الاقحاح. وفضلا عن ذلك فقد كان من مواليد «جنينة العيونى»، وفيها قضى طفولته وصباه، فهو من ابناء حى اللبان الأصلاء، ولو صح تقديره لعمره عند القبض عليه بأنه فى الثلاثين- وهو تقدير أقره عليه الاطباء الذين قدروا عمره بين الخامسة والعشرين والثلاثين... وأخذ به قرار الاتهام- لكان معنى ذلك أنه ولد فى عام ١٨٩٠، وبدأ نشاطه الإجرامى وهو حدث فى حدود العاشرة من عمره، وربما أصغر من ذلك، إذ كان فى الحادية عشرة من عمره حين ضبط لأول مرة فى ٨ أغسطس (آب) ١٩٠١، وهو يحاول سرقة بعض أوانى الطبخ ـ صينية وحلة ـ من مسكن «لطيفة بنت عبد الله» إحدى جاراته بـ«جنينة العيونى»، وقضت عليه محكمة الجنح المستأنفة بالاسكندرية بالحبس لمدة خمسة عشر يوما.

وبعد أقل من أربع سنوات ـ وكان فى الخامسة عشرة ـ بدأ الضرب والتعدى يبرز فى سجله الاجرامى، وهو مايدعونا للشك فى مدى دقة تقديره لعمره، إذ الغالب أنه كان قد تجاوز الثلاثين بخمس سنوات عند القبض عليه، وأنه كان فى العشرين من عمره، عندما برز اسمه- عام ١٩٠٥ - كفتوة، وتتالت أحكام الحبس والغرامة ضده لقيامه بالاعتداء على الأفراد ومشاركته فى معارك واسعة النطاق ينضم إليه فيها آخرون، مما جعل سلطة الاتهام تضيف تهمة التجمهر إلى التهم التى يقدم بسببها إلى المحاكمة. ومع أن معظم معاركه- وجرائمه الاخرى- كانت تدور فى نطاق «حى اللبان» الذى ولد ونشأ فيه، إلا أنه كان يوسع نطاق نشاطه فى بعض الأحيان إلى أحياء أخرى مثل «محرم بك» «والمنشية» و«كرموز». ومن بين المعارك التى اشترك فيها فى عام ١٩٠٥ معركتان تدخلت فيهما الشرطة، وحوكم بسببهما، وقعت الأولى فى ١١ فبراير (شباط) بناحية «حارة الفراهدة» بقسم شرطة اللبان وعوقب عليها بالحبس لمدة شهر، وجرت الثانية بجهة «الابراهيمية» التابعة لقسم شرطة محرم بك، فى ٢٠ أغسطس (آب)، وكانت أوسع نطاقا، لذلك عوقب على مشاركته فيها، ومشاركته فى تجمهر يضم اكثر من خمسة افراد بالحبس لمدة ثلاثة أشهر.

وفى عام ١٩٠٧ عادت السرقة لتقترن بالضرب فى سجل جرائمه، إذ قام - فى ١٧ فبراير (شباط) ١٩٠٧ ـ بسرقة كتينة ذهب وضرب صاحبها. فعوقب على الجريمتين، بالحبس لمدة ثلاثة أشهر وبغرامة مائة قرش لتعديه على موظفين عموميين، اثناء تأديتهما لوظيفتيهما، لعلهما من رجال الشرطة الذين قاموا بضبطه. والغالب أنه كان يتعاطى المخدرات منذ فترة تسبق ظهور تهمة احراز الحشيش فى سجل سوابقه الاجرامية سنة ١٩١٠ ففى تلك السنة قدم - لأول مرة- للمحاكمة مرتين، بعد أن ضبط معه فى كل مرة درهم من الحشيش، وعوقب فى المرتين بغرامة مائة قرش، وفى عام ١٩١٢ حوكم مرتين بالتهمة نفسها، وارتفعت

الغرامة إلى ثلاثة جنيهات فى كل مرة، بعد أن ارتفع المضبوط معه فى المرتين إلى درهم ونصف درهم من الحشيش. ومع أن أحكام السجن والغرامة التى صدرت ضده بسبب فتونته، لم تتوقف، إذ حكم عليه فى عام ١٩١٤ بالحبس لمدة ١٥ يوما بتهمة الضرب والسكر، وبغرامة قدرها خمسون قرشا عام ١٩١٥ وأخرى قدرها مائة قرش عام ١٩١٩بتهمة التعدى، وحبس مرتين فى عام ١٩١٨ لمدة شهرين فى كل مرة، بالتهمة نفسها، إلا أن تهمة احراز الحشيش قد اختفت من سجل جرائمه خلال السنوات الست السابقة على ذلك.

والظاهر أنه كان قد التزم الحذر منذ تتالت أحكام الغرامة ضده.. وقد قال فيما بعد، فى سياق الدفاع عن نفسه، إن تهم احراز الحشيش التى كانت توجه ضده، هى من اصطناع الخفراء ورجال الشرطة السريين، الذين تعودوا ابتزاز الذين يترددون على المحاشش، والتدخين على حسابهم، فإذا امتنعوا عن اعطائهم ما يطلبونه، قاموا بضبطهم، وأن ذلك هو السبب فى تعدد أحكام الغرامة التى صدرت ضده. وإذا صح ماقاله - وهو غالبا صحيح- فيمكن القول بأنه كان ينشط فى مجال فتح محلات احراق الحشيش وإدارتها طوال هذه الفترة، فى حماية الخفراء وصغار رجال الشرطة، الذين كانوا يتواطأون معه ولايبلغون ضده، مقابل ماكان يدفعه لهم من إتاوات.... ولعل خطأ التقدير، هو الذى دفع هؤلاء الخفراء إلى الابلاغ عنه، فأغلقت المحششة التى كان يديرها، قبل أسابيع من ظهوره المفاجىء فى محششة «آل همام» و«آل النص» بـ «حارة النجاة»...

ولم يكن تاريخ «عبد الرازق يوسف» يخلو من النساء..... ولعل جانبا من المعارك التى خاضها والقضايا التى اتهم فيها كان بسبب علاقاته بذلك النوع من النساء الذى يكثر ظهوره فى حياة أمثاله، ممن كن يعرفن بـ «الصَّبْوات» إذ كان الصراع عليهن، من مظاهر «الفتونة» التى لاتكتمل إلا بها.

وقد ذكر فيما بعد، أنه عرف امرأة تدعى «نظيمة بنت محمد على» وعشقها واتخذها رفيقة له لعدة سنوات، ووشم اسمها إلى جوار اسمه على مقدم ساعد يده اليسرى. وحدد تاريخ معرفته بها بثمانية عشر عاما قبل القبض عليه، وهو ما يؤكد أنه أخطأ حين قدر عمره حينذاك بثلاثين عاما فقط، إذ يستحيل أن يكون قد عرف «نظيمة» ورافقها وهو غلام فى الثانية عشرة من عمره.... والغالب أنه كان فى السابعة عشرة، وفى عنفوان مراهقته حين عرفها، وهو مايفسر قوله بأنه لم يحب-أو يرافق- امرأة غيرها. والحقيقة أنه لم يقاطع النساء بعد انفصالهما الذى لانعرف له سببا، بل تزوج على إثر ذلك من امرأة وصفها «عرابى حسان»: أنها فائقة الجمال، وانجب منها ثلاثة ابناء، لكن اسلوبه فى التعامل مع النساء الفواحش، اللواتى كن يعملن مع «ريا» و«سكينة»، قد اتسم بدرجة من الخشونة والفظاظة تصل إلى حد الرغبة فى التمثيل بهن، قد تكون من بين الآثار التى تولدت عن علاقته -

وهو فى سن مبكرة - بامرأة كانت - بالقطع - اكبر منه سنا.... واوفر خبرة...

وتلفت شخصية «عبد الرازق يوسف» النظر، بسبب الدور الهام الذى قام به فى مصائر بقية الشخصيات، إذ كان - فيما يبدو- أكبر رجال الحلقة الضيقة التى تحيط بكل من «ريا» و«سكينة» من حيث السن والخبرة والسجل الاجرامى السابق. ومع أن «عرابى حسان» كان يسبقه فى العمل كـ «فتوة» عند «آل همام»، فقد كان سجل جرائمه يقتصر على خمسة جنح ضرب وقعت بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٩، حكم عليه بالسجن فى ثلاث منها لمدة لاتزيد عن شهر فى كل مرة، وبالغرامة فى اثنتين، فى حين خلا هذا السجل من أعمال الفتونة الأكثر عنفا كالمشاجرات الجماعية المقرونة بالتجمهر، كما خلا من جرائم السرقة والاعتداء على الموظفين العموميين، التى يزدان بها سجل سوابق «عبد الرازق»... وتدل شواهد أخرى عديدة، على أن ظهور «عبد الرازق يوسف» ضمن حلفاء «آل همام» كان الانعطاف التاريخى الاكثر أهمية، الذى علق الجميع فيما بعد على أعواد المشانق.

ولايعنى ذلك أن «عبد الرازق» قد احتل مكان القيادة بين «آل همام» وحلفائهم، أو أصبحت له مكانة متميزة فيما بينهم، إذ الواقع أن توزيع السلطة داخل المؤسسة كان يستند إلى توازن فائق الحساسية، بحيث يصعب القول بأنه كان بينهم من يملك سلطة اتخاذ القرار، أو القدرة على فرض إرادته على الآخرين، فقد جاء ازدهار العمل ليحل مشكلة الصراع بين «سكينة» و«حسب الله» الذى كف عن محاولة فرض ارادته عليها، واعترف بعلاقتها بـ «عبد العال» الذى أصبح الآن صديقا مقربا إليه. ومع أن «عرابى حسان» كان مايزال يشغل ظاهريا، منصبه كمدافع عن البيت وفتوة له، إلا أن ذلك لم يكن يعطيه مكانة اكثر من مكانة الصديق، خاصة وأن مبررات تدخله قد قلت، حتى كادت تتلاشى، إذ كان جلوس الرجال الأربعة معا، أمام دكان «أبو احمد النص» بصورة تكاد تكون دائمة، يتناولون الطعام أو يحتسون الخمور، أو يمصون القصب، كافيا لكى يضفى على البيت «هيبة» تلزم جميع الزبائن حدودهم، فلا تصبح هناك ضرورة لتدخل «عرابى» لتأديبهم أو تهديدهم..

وأدى التوزيع الدقيق للعمل إلى توزيع السلطة بين الجميع، فوقعت مسؤولية إدارة العمل داخل البيت على عاتق «ريا» و«سكينة» و «أبو زكاك» كل فيما يخصه، وأصبحت مراقبة الطريق للتحذير من هجوم الشرطة، من مسؤوليات «أم أحمد النص» التى لم تكن تغادر مجلسها على عتبة منزلها إلى جوار دكان زوجها، وهو موقع استراتيجى، كان يتيح لها القيام بأعمال متعددة، إذ كانت تستطيع أن ترعى طفليها، وأن تطهو لهما الطعام، وأن تراقب مدخل الحارة، وتتعرف على شخصية من يدخلون البيت، وهى مهام كان الرجال الجالسون إلى جوارها، ينشغلون عن اداء مايخصهم منها باحتساء الخمر، أو بالثرثرة، أو بمغادرة المكان ليجلسوا فى المقهى القريب...

وبنفس الدرجة من الدقة، كان البيت يدار على أسس اقتصادية سليمة، وثابتة، قبل بها الجميع، مما سد كثيرا من الثغرات التى كانت ريح الخلافات تنفذ منها فى مشروعات «آل همام» السابقة، إذ كانت النساء الثلاث تتقاسمن الأرباح الصافية التى تتبقى بعد خصم نفقات إدارة المحششة وبيت البغاء، وتحصل كل منهن - فضلا عن ذلك- على أجرها عن كل عمل تقوم به لصالح البيت... فإذا سحبت زبونا أو امرأة إلى البيت أو إلى المحششة، حصلت على الأجر الذى يحصل عليه من يقوم بنفس العمل من الغرباء.

وطبقا للاتفاقية التى قام عليها المشروع فقد ظل لكل منهن الحق فى أن تقوم بأعمال اضافية بمفردها. أو بالتعاون مع غيرها، وفى أن تحتفظ لنفسها بما تدره عليها تلك الاعمال من دخل،

فقد ظلت «ريا» تحتفظ بمركز الدعارة التى كانت تشارك فيه جارتها السابقة «روما»، وواصلت «أم أحمد» عملها كـ «دلالة»، ونشطت «سكينة» فى مجال اعداد الوجبات الساخنة من الطيور لزبائن البيت...

وفى هذا المناخ من النجاح والثقة، وجدت المشاكل القليلة التى نشبت بين الشركاء حلولا سريعة.... فذات عصر، ازدحمت المحششة بروادها، حتى لم يعد بها موطئا لقدم، مما اضطر «ريا» إلى نقل الرواد الزائدين إلى غرفة «سكينة» المخصصة لفرع النشاط الآخر، وفى اثناء ذلك وصل إلى البيت ترجمان ممن كانوا يعملون فى الميناء ويتعاونون مع البيت، وبصحبته أحد بحارة الأسطول البريطانى، جاء ليمضى بعض الوقت مع إحدى الفتيات...

فعرضت عليه «ريا» ماكان متوفرا لديها من بضاعة ساعتها، فاختار فتاة صغيرة السن تدعى «عائشة» كانت قد انضمت حديثا إلى فريق الفتيات اللواتى يقدمهن البيت لرواده، واستأذنت لدقائق تقوم خلالها باعداد مسكنها الحرّ فى شارع «على بك الكبير» لاستقبالهما، لكنها حين عادت بعد أقل من نصف


بنات الشوارع: الجيش الاحتياطى لبيت شارع النجاة

ساعة لم تجدهما، إذ كان «أبو أحمد النص» قد استضافهما فى دكانه الذى كان يحتوى على صندرة تصلح كسرير، وأغلق عليهما بابه، واعتذر لها «شعبان الترجمان» بأن «النص» قد ألح عليه الحاحا شديدا حتى اضطر لقبول دعوته لاستخدام دكانه، خاصة وأن غيابها قد طال عما كان متفقا عليه، وكانت ماتزال تعاتب «شعبان» حين خرج البحار وبصحبته «عائشة»، فأعطى للترجمان نصف جنيه فاحتجز منه عشرة قروش، وأعطى ريالا لصاحب الدكان، ومثله للفتاة، ولم تترك «ريا» الأمر يمر دون أن تضع قاعدة لمثل تلك الحالات، لكنها لم تخاطب «أبو أحمد» مباشرة، بل خاطبت الفتاة بصيغة الجمع قائلة:

- ياعيشة.. انتم أخدتم ريالين... وأنا ماأخدتش حاجة.

وأدرك «النص» أنه المخاطب بهذا التنبيه... فرد عليها على الفور قائلا:

- ليه.... هو دخل فى بيتك؟!

ومع أن الخسارة لم تكن قليلة، فقد سعدت «ريا» باجابته التى كانت تتوقعها، إذ أصبح من حقها منذ ذلك الحين، أن تقود الزبائن الذين يضيق بيت «حارة النجاة» عن استيعابهم، إلى بيتها الحر بـ «حارة على بك الكبير» أو إلى بيتها الآخر فى «حارة سيدى عماد»، من دون أن تترتب على ذلك أية حقوق لشريكاتها الأخريات...

وكان ظهور «عبد الرازق يوسف» فى الأفق، بعد أن استقر النظام المؤسسى لـ «بيت حارة النجاة» أهم الاسباب التى دفعت الرجال الثلاثة إلى الرد على خشونته فى التعامل مع «أبو زكاك» بمحاولة استيعابه، ليس خوفا منه، بل لمجرد توقى مضايقاته الصغيرة التى قد تعكر مزاجهم. لكن انضمامه إليهم لم يحدث تغييرا فى توزيع السلطة فى البيت، ليس فقط لأن هذا التوزيع كان من بين العناصر المستقرة لذلك النظام، بل كذلك لأن تلك السلطة لم تكن بطبيعتها قابلة للتقسيم، إذ لم يكن أحدهم يقوم بعمل تنفيذى فى الادارة، كما كان كل منهم يتقاضى نصيبا من أرباح البيت مما تتقاضاه زوجته أو رفيقته أو مطلقته، فيما عدا «عرابى» الذى كان يحصل على مكافأة تحسب ضمن النفقات الجارية. مما جعل سلطة الرجال تبدو أقرب مايكون إلى افتراض نظرى، أو مظلة حامية، تضفى على البيت هيبة وتعطيه مكانة، ولايمارسها أحد بذاته، لينازعه الآخرون عليها.

والحقيقة أن «عبد الرازق» لم يثر أية مشاكل فى هذا الصدد، بل إنه لم يطالب بأجر كالذى كان يحصل عليه «عرابى» إذ كان كل مايعنيه هو أن يبدو فى صورة الرجل مرهوب الجانب، الذى يفرض على الآخرين احترامه، أو يضطرهم للتظاهر بالخوف منه، لذلك اكتفى بصحبة هذا الفريق المرموق ممن كان يعتبرهم مجادع الحى، ولم يقصر فى الاعلان عن صلته بهم، وفى ارهاب من يسىء إليهم، أو يتدخل فى شؤونهم، أو يحاول الاعتراض

على سلوكهم، لكنه لم يفعل ذلك تعففا أو استغناء، إذ كان - على العكس من ذلك - أكثرهم رغبة فى المال وحاجة إليه. وكان الوحيد من بينهم الذى أصبحت السرقة مزاجا خاصا لديه.... لكن حرصه على أن يبدو فى صورة الفتوة المجدع، كان السبب وراء اكتفائه بالحصول على أجره عينا لانقدا، ولم يكن خروجه من المحششة دون أن يدفع ثمن التعميرات الخمس التى دخنها سوى بداية استمرت بعد ذلك، إذ أصبح يحشش ويسكر ويضاجع فتيات البيت من دون أن يدفع شيئا.....

وكان يحتفظ فى الوقت نفسه بعلاقة معرفة وثيقة، مع شاب آخر من فتيان الحى هو «محمد خفاجة» الذى لم يكن يجمعه به شىء، سوى أن كليهما يغرم بالحياة اللذيذة: يحب النساء ويقبل على شرب الخمر، ويهوى مجالس الطرب، وفيما عدا ذلك، فقد كان كل منهما ينتمى إلى عالم مختلف.

ففضلا عن أن «خفاجة» كان يصغره بحوالى عشر سنوات، فقد كان معدودا كذلك من أعيان الحى، إذ كان تاجرا للألبان يملك حظيرة تضم عدداً كبيراً من رؤوس الماشية، تقع فى «حارة النجاة» نفسها، ويعمل بها- تحت اشرافه- عدد من العمال يعتنون بالماشية، ويشرفون على تغذيتها، وعلى حلبها، ليقوم «خفاجة» بتوزيع ألبانها- وما قد يتجمع لديه من ألبان أخرى باعها له الفلاحون القادمون من الاقسام الريفية للاسكندرية- إلى عدد من المقاهى ومحلات صنع الحلويات وبيع الجيلاتى تعاقد معها على توريد الألبان اليها.

ومع أن العلاقة بين الاثنين، كانت تبدو فى الظاهر علاقة صداقة، إلا أن التباين بين اوضاعهما الاجتماعية لم يكن خافيا على كل منهما، أو على المحيطين بهما، إذ لم تكن مكانة «عبد الرازق» - العربجى الذى يعمل أجيرا لدى الغير - تزيد عن مكانة أحد «الكلافين» الكثيرين الذين يعملون فى حظيرة «خفاجة»... وهو ماكان يدفع «عبد الرازق» إلى كثير من التصرفات الحمقاء، تنطلق من احساسه الشديد بالنقص، وتهدف إلى تأكيد ذاته أمام صديقه، الذى كان يتلقاها بكثير من التسامح، واثقا من أن الكلمة الأخيرة ستكون له، بحكم أنه الذى يتحمل العبء الأكبر من نفقات جولاتهما المشتركة بين الحانات والمباغى وجلسات الطرب، حريصا مع ذلك - على ألا يجرح احساس «عبد الرازق» أو أن يجابهه - صراحة-

اللورد ملنر

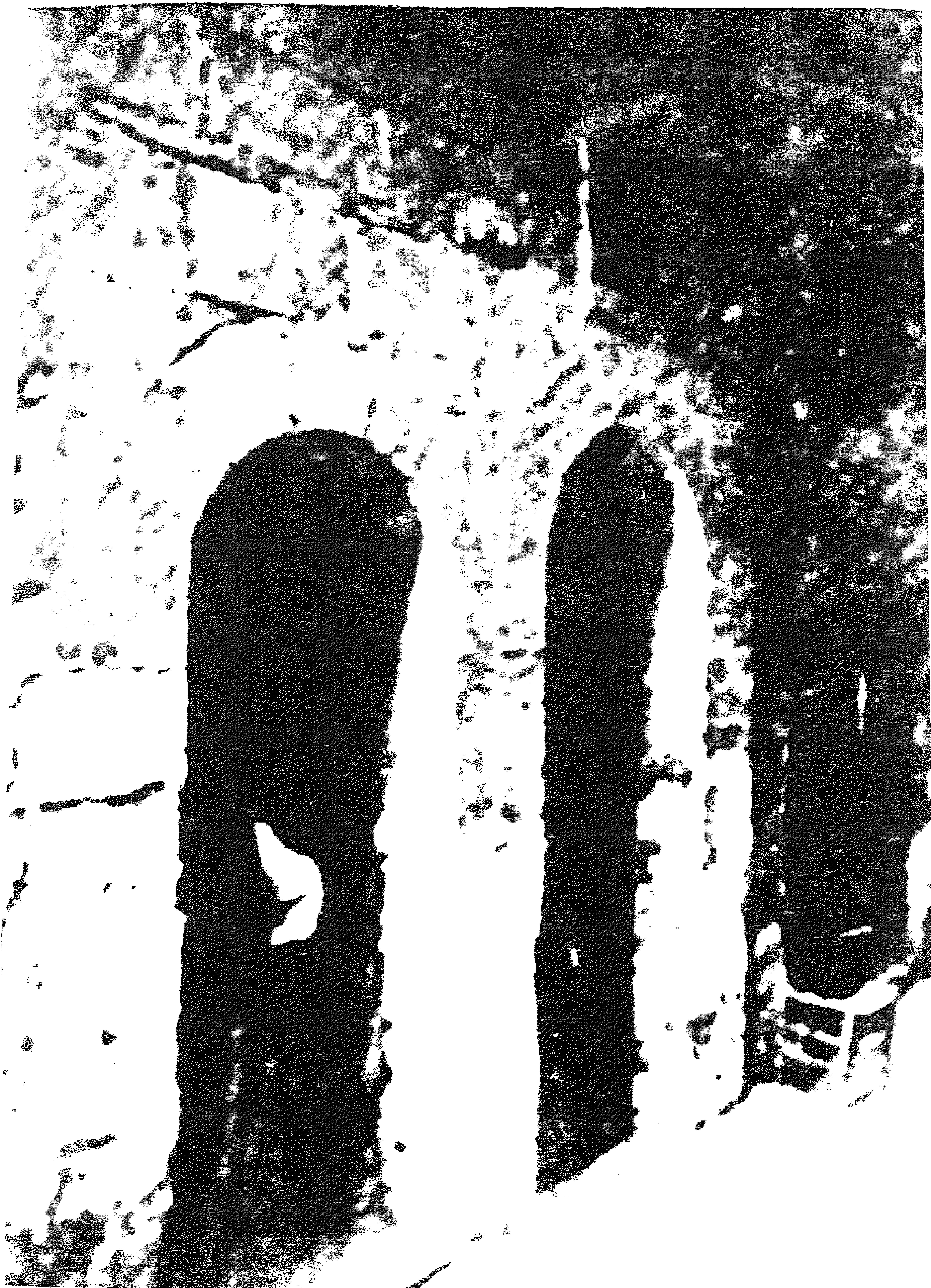
بالحقيقة التى كان كلاهما يعرفها تمام المعرفة، فهو ليس ندا ليكون صديقا، ولكنه مجرد «تابع» أو «محسوب».

ولم يكن «خفاجة» فى حاجة ماسة إلى قوة «عبد الرازق» البدنية، أو إلى سمعته باعتباره فتوة ممن يتوقى الآخرون شره، إذ كان هو الآخر معدودا من صبوات الحى، بحكم الهيبة التى يضفيها عليه شبابه وثروته واتباعه، فضلا عن أنه لم يكن يتردد عن خوض المعارك دفاعا عن نفسه واستردادا لحقه، وان كان لايفعل ذلك إلا عند الضرورة القصوى، وبوقار كفل له - على الرغم من حبه للنساء والخمر- احتراما اجتماعيا، كشاب قوى وكريم ومتزن وعاقل وفوق ذلك كله ابن حظ.

وكانت صلته بـ « عبد الرازق» من القرائن التى اتخذها معظم الناس فى «حارة النجاة» دليلا على تواضعه، لذلك لم يحمله احدهم المسؤولية عما كان يرتكبه صديقه . أو محسوبه . «العربجى» من حماقات كثيرة، بل كانوا يشكونه إليه إذا ما انفلت عيار «عبد الرازق» فاعتدى على بائع متجول، أو اختطف بعض ثمار الفاكهة من بائعة مسكينة، أو اتخذ من رجل عجوز هدفا لسخريته، فأهان شيبته، وغيرها من التصرفات الصغيرة، التى كان يندفع إليها تحت وطأة مايحتسيه من خمر، ومايدخنه من حشيش، وما يذيبه تحت لسانه من أفيون.

وبحكم الطبيعة الخاصة للعلاقة بين «خفاجة» و «عبد الرازق» فإن صداقته له، لم تمتد لتشمل اصدقاءه الجدد من «آل همام» و «آل النص» فكان يكتفى بتحية عابرة يلقيها على من يقابله منهم، وهو فى طريقه إلى حظيرته، فيحيونه بأدب تقديرا لمكانته فى الحارة.... ومع أنه كان على معرفة سابقة بـ «أم أحمد النص» وزوجها وشقيقتها «ستوتة» - بحكم جيرتهم الطويلة له- إلا أنه لم يسع لتطوير علاقته بهم، ولم يبد أية رغبة فى أن يستفيد من خدمات المحششة ودكان الخمور وبيت البغاء، إذ كان يلتزم بتقاليد صارمة، تقضى بألا يخلط بين العمل وبين الترفيه، فالنهار للأول والليل للثانى، وفضلا عن أنه لم يكن يدخن الحشيش، فقد كان ذوقه فى الخمر وفى النساء، يتناسب مع مكانته، كأحد الاعيان، فهو لايشرب الخمر إلا إذا كانت «كونياك» أو «ويسكى» وفى زجاجات مغلقة - وكان «النص» يبيعها من براميل أو زجاجات مفتوحة، تتيح له أن يقوم بغشها بالماء أو بالكحول الاحمر - ولايقبل - كما قالت «ريا» فيما بعد- إلا على النساء اللواتى تعلقن الحقائب فى أذرعتهن أى نساء العائلات المستورة، أو البغايا الافرنجيات، أو اللواتى تتشبهن بهن من البغايا الوطنيات.

وكانت «ريا» قد نجحت فى جمع شمل ماتبقى من فريق النساء اللواتى كن يعملن معها، فى مرحلة الازدهار . الكبرى التى شهدها «بيت الكامب»، وأضافت إليهن فتاتين شابتين يقل عمر كل منهما عن العشرين، بعد أن لاحظت تفضيل بعض الزبائن، وخاصة البحارة الأجانب، للفتيات



مدخل منزل شارع النجدة (مركز الترفيه متعدد الأغراض)

فى هذا السن.

وكانت أولاهما «عائشة عبد المجيد» فتاة سكندرية يتيمة من أبناء الحى، تعمل مع أمها بائعتين متجولتين للبيض وعندما مرضت الأم مرضا ألزمها الفراش وأعجزها عن العمل، انتقلت «عائشة» للعمل كخادمة لدى أسرة ايطالية مقابل أجر شهرى ضئيل لايزيد عن ريالين، لم يكن يكفى نفقاتها هى وأمها المريضة، مما اضطرها إلى ترك العمل لتعود إلى بيع البيض..

وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها حين «باظت فى السكك» - كما قالت فيما بعد- لكن ماحدث لها لم يحل دون زواجها - وهى فى الخامسة عشرة- من شخص يدعى «منصور مرسى»، مالبث أن طلقها بعد شهور، فعادت مرة أخرى لتبيع البيض، وفى دكان «زنوبة بنت عليوة» الفرارجية التى كانت تشترى منها البيض، الكائن بـ«حارة ماكوريس»، حيث كانت «سكينة» تقيم من قبل، تعرفت إليها، ثم إلى شقيقتها «ريا»، التى ماكادت تراها حتى نشطت مواهبها الغريزية لسحب النساء، فوثقت علاقتها بها، ثم بدأت تفاتحها صراحة، فى أن تلتحق بفريق النساء اللواتى تقدمهن لرواد بيوت البغاء التى تديرها. لكن الفتاة التى كانت ماتزال - على الرغم من زواجها وطلاقها- طفلة، ترددت فى قبول العرض، خوفا من أسرتها، فاستعانت عليها بفتاة فى مثل عمرها هى «نعمت بنت عبدالواحد» كانت قد سبقتها فى التعاون مع «ريا»، نجحت فى اقناعها بأن ماسوف يتحقق لها من دخل عن هذا الطريق، سوف يبلغ اضعاف ماتربحه من بيع البيض، من دون حاجة إلى أن تدور فى الشوارع وتتحمل المشقة، وأن سرها سيظل مكتوما عن الجميع، وأن كل ماهو مطلوب منها، هو أن تظل تتجول بالبيض الذى تبيعه، فى الحارات المحيطة ببيت «ريا» لتستطيع أن تجدها حين يقبل أحد الزبائن، فتتسلل معه إلى البيت من دون أن يتنبه أحد إلى أنها غيرت وظيفتها... فقبلت العرض بعد ممانعة شديدة...

ولم يمض وقت طويل، حتى اكتشفت «عائشة» أن مخاوفها مما قد يفعله بها أهلها إذا عرفوا أنها تمارس البغاء وهى فى هذه السن الصغيرة التى لاتتجاوز السادسة عشرة، بلا أساس، إذ كان الفقر قد طحنهم، فلم يكن لدى أحد منهم قدرة على أن يعولها، أو أن يغضب من أجل اغتيال طفولتها، فأصبحت تمضى معظم أوقاتها بـ «حارة النجاة» وكفت عن التظاهر ببيع البيض... وجمعت بين العمل كبغى، وكخادمة، فإذا لم يطلبها أحد الرجال الذين يترددون على البيت، كلفتها «ريا» أو «سكينة» بشراء ماقد يحتاج إليه الرواد من أطعمة أو مشروبات أو شاركتهما فى اعداد وطهى الدواجن النافقة، أو اغتصبها «عرابى» أو «عبد الرازق» حين تضغط عليهما رغبة طارئة تولدت عن افراطهما فى شرب الخمر.

ولم تكن ظروف الفتاة الثانية «عزيزة بنت عبد العزيز» تختلف كثيرا عن ظروف «عائشة» التى كانت تصغرها بعام واحد. لكن كليهما لم تكونا من النوع الذى يمكن أن يغرى شابا مثل «محمد خفاجة» إذ كانتا تعتبران، فى رأى أمثاله، من بنات الشوارع. ومع أن بيت «شارع النجاة» كان يتعاون -آنذاك - مع اثنتين من ربات البيوت، اللواتى يشغف بأمثالهن نوع «محمد خفاجة» من الرجال، هما «نبوية بنت جمعة» «وخضرة محمد اللامى» إلا أن تجاوز كل منهما للحلقة الرابعة من عمرها، كان عائقا كبيرا يحول دون عرضهما عليه.

وكانت «ريا» ماتزال تخطط لمحاولة إغراء «محمد خفاجة» بالاستفادة من خدمات مؤسستها، حين تعرضت المؤسسة لكارثة اقتصادية جديدة، لم يكن لأحد ممن يديرونها يد فيها، فقد اشتعل الغضب ليعم كل أحياء الاسكندرية، بعد أن نشرت «دار الحماية البريطانية» بيانا تعلن فيه، عن قرب قدوم لجنة برئاسة اللورد «ألفرد ملنر» -وزير المستعمرات البريطانى- لكى تحقق فيما سماه البيان، أسباب الاضطرابات التى وقعت فى مصر خلال شهرى مارس وابريل (آذار ونيسان) ١٩١٩، فإذا بهذه الاضطرابات تتكرر مرة أخرى، وبصورة أعنف، وإذا بـ «بيت حارة النجاة» يتعرض بسبب «لجنة ملنر» للكساد الذى تعرض له «بيت الكامب» بسبب ثورة ١٩١٩.



وكانت الثورة قد عادت للاشتعال فى القاهرة والاسكندرية فى أعقاب الاعلان الرسمى عن تشكيل «لجنة ملنر» إذ لم يكن لتشكيل اللجنة معنى، إلا أن المحتلين مايزالون يصرون على التعامل مع مصر باعتبارها «محمية بريطانية» وأنهم يرفضون التفاوض مع الوفد المصرى - الذى يرأسه «سعد زغلول» - ويتجاهلون أن المصريين قد وكلوه نيابة عنهم، بأن يسعى فى سبيل الحصول على الاستقلال التام، وينظرون إلى الثورة باعتبارها مجرد «اضطرابات» نشأت بسبب بعض التجاوزات، وتتطلب مجرد تحقيق إدارى. لا مفاوضة سياسية تدور حول إلغاء الحماية البريطانية، لكى تستعيد مصر شخصيتها الدولية، كدولة مستقلة، وذات سيادة.

وهكذا ظلت المظاهرات تطوف فى أحياء الاسكندرية خلال الأسابيع التى أعقبت الاعلان عن تشكيل اللجنة. وكانت - فى البداية- مجرد مواكب سلمية تطوف بشوارع الأحياء الوطنية ويقتصر الذين يشاركون فيها على التعبير عن آرائهم بالهتافات، وتكتفى خلالها الشرطة بمراقبة الموقف من دون تدخل، إلى أن تنفض المظاهرات من تلقاء نفسها. وكان مما ساعد على ذلك، أن موسم الصيف كان مايزال مستمرا، وكان « السلطان فؤاد»

مـايزال يقـيم بمقـره الصـيـفـي بـ «قـصــر المنتزه». كـمـا كـان رئـيس الوزراء «مـحـمـد سـعيد باشـا» - وهو من أهل الاسكندرية - يقـيم بقـصـره بهـا، مما جـعل السلطات المحليــة فـي المدينة، تحــرص على عــدم تصـعـيـد المواجـهـة مع المتظاهرين، لكى لاتقلق خواطرهما....

لكن الموقف مــالبث أن تدهـور، حــين خرجت إحدى تلك المظاهرات من مسـجـد «أبى العـبـاس المرسـى» عـقب صــلاة يوم الجمعة ٢٤ اكتوبر - تشرين الاول - ١٩١٩، تهتف بالاستقلال. وبسقوط لجنة ملنر، وبعد قليل من بدايتها لاحظت قوات الامن فى المدينة - وكانت تحت قيادة ضباط من الانجليز - أن عدد الذين انضموا إليها قد زادوا على خمسة عشر ألفا، فلجأت إلى القوة لتفريقها، مما اضطر المتظاهرين إلى الدفـاع عن أنفـسـهم بقـذفـهـا بالاحـجـار والقلل... وعندمـا اتسع نطاق الاشـتـبـاك بين الطرفين، استنجدت قوات الشـرطة بفصيلة من جيش الاحتلال، استخدمت الرصـاص لتـفـريق المتظاهرين، فـسـقـط خمسة منهم قتلى وأصيب أربعون بجراح بليغ، كما جرح من قوات الشرطة أربعة وعـشـرون جنديا وأربعـة ضـبـاط، فى مقدمتهم مأمور قسم شرطة الجمرك.

وبهـذا التـصـعـيـد للمـوقف، انـتـقل المتظاهرون من التعبير السلمى عن آرائهم، إلى العنف، دفاعا عن أنفسهم، واحتجاجا على مصادرة حريتهم فى التعبير عن هذه الآراء، فـأقـامـوا المتـاريس فى الشـوارع، واقـتـلعـوا بلاطهـا الذى أثبت أنه سـلاح دفـاعى فـعـال، وحـفـروا الخنادق لعـرقلة تحـركات الشـرطة والجيش البـريطانى اثناء الليل. وردت قــوات الاحـتــلال على ذلك باطلاق الرصاص عشوائيا على المواطنين، حـتى من دون أن تكون هناك تظاهرات أو اضطرابات تتطلب ذلك، ونصـبـوا المدافع فوق البنايات المرتفعة، ووجهوا فوهاتها إلى الشـوارع، وأخـذت السـيـارات المصـفـحـة تجـوب أحـيـاء المدينة، وعليـهـا المدافع الرشاشة.

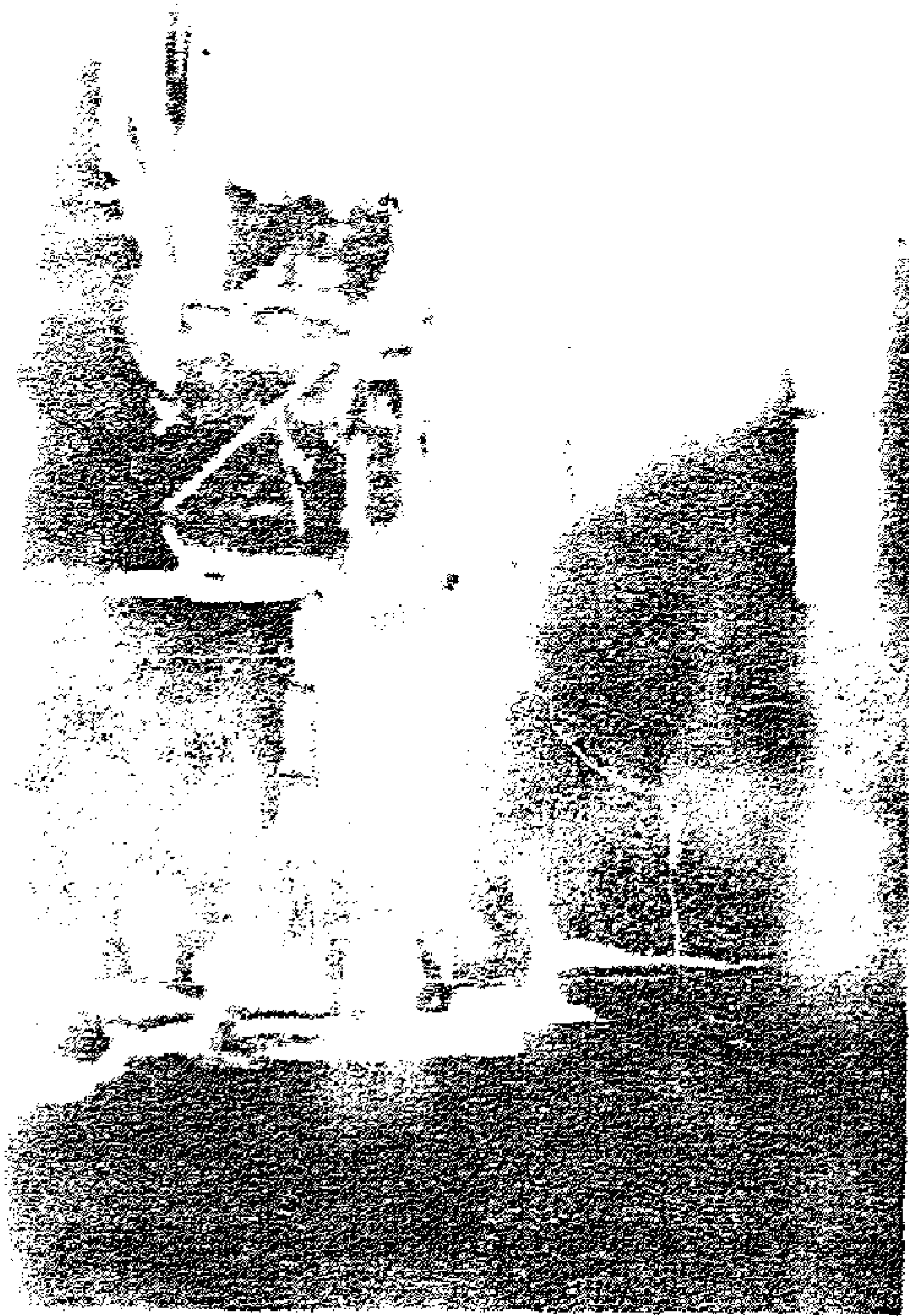
وانتقلت السلطة فى المدينة عمليـا إلى أيدى سلطات الاحتلال، وفشلت المحاولة التى قام بها محـافظ المدينة «حسن عبد الرازق باشـا» لوقف التـدهور فى الموقف، حـين التـقى بوفـد من أعـيــان المدينة، فاشترطوا سحب قوات جيش الاحتلال من الاحياء الشعبية. كبادرة حسن نية، يمكن لهم بعدها التدخل لتهدئة الجـمـاهـيـر الثائرة، ومع أنه وعدهم بذلك، إلا أنه عجز عن تنفـيـذ وعـده. وتهـرب رئيس الوزراء «محمد سعيد باشا» من لقائهم لادراكه بأن الأمــر قــد خـرج من يده. وبأن سلطات الاحتلال تصر على إخضاع المدينة الثائرة التى واصل أهلها احتجاجاتهم العنيفة على الرغم من عشرات الجرحى والقتلى الذين كـانوا يسـقطون كل يوم فى المعـارك غـيـر المتكافـئــة بين الطرفـين، بل إن جنازات الشـهـداء من هؤلاء تحـولت إلى مـواكب سياسية يسير فيها عشرات الألوف من أهل المدينة.

ومع أن الحــالة فى المدينة، قــد هدأت نسـبـيـا فى الاسـبـوعـين الاولين من شـهـر

نوفمبر . تشرين الثانى . إلا أنها عادت للتفجر مرة أخرى فى النصف الثانى منه، بعد أن أصدرت دار الحماية البريطانية - مساء يوم ١٤ نوفمبر (تشرين ثانى) - بلاغا رسميا يبشر المصريين بالمشاركة فى ادارة شؤون بلادهم. فاشتعلت البلاد غضبا وصل إلى ذروته فى الاسكندرية التى غادرها «السلطان فؤاد» بعد انتهاء مصيفه بها، والمظاهرات تسير فى كل احيائها، ليصل إلى القاهرة فإذا بها تموج كذلك بمسيرات احتجاج عنيفة ، صاحبت موكبه من محطة القطار فى «باب الحديد» إلى مقره فى قصر عابدين، ولم تنصرف إلا بعد معركة عنيفة بينها وبين قوات الشرطة- التى استعانت بقوات من جيش الاحتلال- اسفرت عن ١٣ شهيدا و٧٩ جريحا.

وتصاعد الموقف فى الاسكندرية خلال الايام التالية، وتوالى سقوط الجرحى والشهداء. كانت جنازاتهم تتحول إلى مظاهرات اكثر عنفا يسقط فيها مزيد من الجرحى والشهداء... وللمرة الثانية فشل «حسن عبد الرازق باشا» فى اقناع قوات جيش الاحتلال بايقاف اطلاق النار على المتظاهرين. مما اضطره إلى تقديم استقالته بعد أن حمل المتظاهرون جثة أحد الشهداء إلى دار المحافظة. لكن رئيس الوزراء طلب إليه البقاء لمحاولة انقاذ مايمكن انقاذه، فسحبها....

وبتصاعد المواجهة، أقام المتظاهرون المتاريس فى أحياء «الجمرك» و«باب سدره» و«سوق الطباخين» و«العمود» و«باب عمر باشا». فاقتلعوا الاشجار واحجار الارصفة ودعموها بعربات الكارو ليسدوا بها مداخل الحارات ومنافذ الشوارع... ووصلت المواجهة إلى ذروتها مساء يوم الثلاثاء ١٨ نوفمبر . تشرين الثانى . ١٩١٩، إذ ارتفع عدد الشهداء إلى تسعة وعدد الجرحى إلى ثلاثين. وخشيت الحامية البريطانية مما سوف يحدث فى اليوم التالى، فأمر قائدها باحتلال كل احياء المدينة وأصدر أمرا بحظر التجوال بعد الساعة التاسعة مساء فى جميع انحائها، وأمر باغلاق المتاجر والمحلات العامة، ونفذ الامر بصرامة وصلت الى حد اطلاق



١٩٢٠: مسجد سيدى المرسي أبو العباس

الرصاص على الذين خالفوه.

كما أصدر أمرا آخر بتحديد عدد الذين يقومون بتشييع جنازات الموتى، بما لايزيد عن مائة شخص، حتى لاتتخذ الجنازات ذريعة للتظاهر، خاصة بعد أن تبين له، أن قادة الثورة في المدينة كانوا - في بعض الاحيان- يخدعون قواته، ويحملون نعشا فارغا ويسيرون به، إلى أن يحتشد حولهم الناس، فإذا وصل الموكب إلى منطقة تزدحم بالجماهير، ألقوا بالنعش الفارغ، وبدأوا في ترديد الهتافات المعادية.

وظلت الاوضاع في «الاسكندرية» وفي غيرها من المدن المصرية، على امتداد الشهور الثلاثة التالية، التي قضتها «لجنة ملنر» في مصر، تتراوح بين العاصفة والهدوء الذي يسبق العاصفة التالية، وفي هذا المناخ من التوتر وعدم الاستقرار، تعرض «بيت حارة النجاة» لقلاقل اقتصادية،وكادت تنتهي حالة الرواج التي لقيها عند تأسيسه.. صحيح أنه لم يغلق أبوابه، بل واستعاد -فيما بعد- جانبا من الرواج المفقود، إلاّ أن اطمئنان «آل همام» إليه كمصدر ثابت ومضمون للرزق.. كان قد اعتوره كثير من الشك، دفعهم للتفكير في عمل إضافي يتعيشون منه، إلى جوار عملهم في إدارة بيوت البغاء السرية.

في تلك الأيام نشأت فكرة قتل النساء البغايا اللواتي يعملن في البيوت الخاضعة لإدارة «آل همام» لسرقة ما يعلقنه في آذانهن، وما يحيط رقابهن ومعاصمهن وأقدامهن من أقراط وقلائد وأساور وخلاخيل فضية وذهبية، ليكون ذلك هو العمل الإضافي الذي يستعينون به على موجات الركود التي كانت تصيبهم بين الحين والآخر، وتكاد تقصم ظهورهم.

وبعد أكثر من ثمانين عاما على ذلك التاريخ، ما تزال المسؤولية عن ذلك القرار تائهة بين كل الأطراف التي شاركت في تنفيذه، خلال أحد عشر شهرا، بين ٢٠ ديسمبر - كانون الأول - ١٩١٩، تاريخ مقتل «خضرة محمد اللامي» أولى الضحايا، و١٢ نوفمبر - تشرين الثاني - ١٩٢٠، تاريخ مقتل «فردوس بنت فضل الله» الضحية السابعة عشرة والأخيرة.

وما يدعو للدهشة. أن أربعة من هؤلاء المنفذين - هم «ريا» و«سكينة» و«حسب الله» و«عبدالعال»- قد أدلوا فيما بعد - باعترافات تضمنت أدق- وأبشع - التفاصيل عن عمليات القتل التي شاركوا فيها، ومع أن الاعتراف بالمسؤولية عن اتخاذ هذا القرار التاريخي بالانتقال من المتاجرة بأجساد البغايا إلى قتلهن وسرقة حليهن، لم يكن ليضيف كثيرا، إلى سجل الجرائم التي اعترفوا بارتكابها فعلا، والتي لم يكن لدى أيّ منهم ذرة من الشك في أنها ستقودهم إلى المشنقة، فقد حرص كل منهم في أقواله، على أن يتنصل من مسؤولية اتخاذ هذا القرار، وأصر على أن يبدو في صورة الحمل الوديع الذي سيق إلى المشاركة في الجرائم على الرغم منه، وتورط فيها من دون إرادته، مما يدل على أن الحرص على سمعتهم التاريخية، وليس

الخوف من العقاب، كان الدافع الرئيسى وراء استبسالهم فى نفى تلك التهمة، التى تبدو - بالقياس إلى ما اعترفوا به فعلا - مجرد تحصيل حاصل.

ولابد أن عوامل كثيرة ومعقدة ، تقف وراء ذلك التطور المفاجيء فى نشاط «آل همام» الإجرامى، وتبرر فقدان الذاكرة المؤقت الذى أصابهم أثناء التحقيق معهم، فلم يستطع أحد منهم، استرجاع الظروف التى اتخذوا فيها قرار البدء بقتل النساء.. إذ الغالب أن أحدا منهم -على وجه اليقين- لم يتخذ -بمفرده- أو وهو فى وعيه الكامل ذلك القرار.. إذ كان اتخاذه يتطلب قسوة نفسية لم تعرف عنهم خلال عشر سنوات اقتصر فيها نشاطهم الإجرامى على ارتكاب جرائم تافهة، أو خفيفة، لا تتطلب لارتكابها قدرة أوفر من المعتاد على المغامرة، أو جسارة ومقامرة بالنفس أعلى من المتوسط العام لما هو شائع بين الأفراد العاديين فى المجتمع، فهى -بالمصطلح القانونى- مجرد مخالفات وجنح، كبيع المأكولات والمشروبات الفاسدة أو المغشوشة، وسرقة الدكاكين وإخفاء المسروقات، وإحراز المخدرات وإدارة محلات لحرقها، يعاقب عليها بالغرامة أو بالحبس البسيط لمدد تتراوح بين أسابيع وشهور، بل إن بعضا من تلك الجرائم التافهة، كان فى جانب منه، عدوان يتوجه إلى الذات، أكثر مما يتوجه إلى الآخرين، كإدارة بيوت البغاء السرى، بدليل أن كلاً من «حسب الله» و«عبدالعال» ظلا حتى آخر لحظة - يشعران بالعار، لاضطرارهما للاعتراف بأنهما كانا يمارسان مهنة القوادة، لأن فى الاقرار بذلك انتقاصا من رجولتهما - كصعيديين- يأنفان من الاعتراف به.

وإذا كان صحيحا- كما يقول المتخصصون فى علم الجريمة- أن نمطا معينا من الجرائم، يمكن أن يقود المتخصصين فيه من المجرمين، إلى ارتكاب انماط أخرى، اكثر تعقيدا وعنفا، فمن الصحيح كذلك- كما يقولون هم أنفسهم- أن ذلك يحدث فى أحوال استثنائية وتحت ضغط ظروف عامة وخاصة، إذ أن التخصص فى نمط معين من الجرائم، بما يتطلبه ذلك من صفات نفسية، وخبرات سابقة، هو القاعدة العامة التى يسير عليها الخارجون على القانون.. فالتخصص فى السرقة غير التخصص فى القتل، بل إن هذا التخصص قد يصل إلى تفريعات عديدة داخل النمط الواحد للجريمة، فالسرقة من داخل المساكن تتطلب استعدادا وخبرة تختلف عما تتطلبه السرقة من فوق اسطح المنازل، أو من المحلات التجارية، أو من المواصلات العامة، أو قطع الطريق على المارة ليلا، ونادرا ما يغامر أحد المتخصصين فى فرع من هذه الفروع بارتكاب جريمة تنتمى إلى فرع آخر، إلا تحت ضغط ظروف قاهرة، تنتهى عادة بوقوعه فى خطأ يؤدى إلى القبض عليه.

فماذا حدث لينتقل «آل همام» فجأة، من التخصص فى الجنح الناعمة، التى لاتتعدى أمور المزاج والحظ والفرفشة ولا

يعاقب عليها القانون إلا بالغرامة أو بالغلق، إلى التخصص فى الجنايات الخشنة التى تقود إلى المشنقة.

ومن أين جاءوا بكل تلك الوحشية التى لم نعرفها عنهم خلال تاريخهم السابق؟!

الشيء المؤكد أن شيئا محددا لم يكن قد حدث ليقودهم -فى ذلك الوقت تحديدا - إلى ذلك الانقلاب الذى لم يكونوا فى الواقع مؤهلين له لا بحكم الصفات النفسية، ولا بطبيعة الخبرة السابقة ولكنها تراكمات تلك السنوات الطويلة التى مضت منذ بدأ كل منهم تغريبته، بحثا عن حياة أفضل مما كان يعيشها فى تلك القرى الجنوبية الفقيرة الجدباء المعلقة فى بطن الجبل، حيث القيظ الشديد والذباب الكثير والأوبئة والطواعين، والطعام الذى يتراوح بين «البتاو»- وهو خبز جاف من دقيق الذرة- «والمش»، وبين « البتاو» و «المخلل»، لعله - بعد طول الترحال- يذوق طعما، أقل ملوحة، واكثر حلاوة، للحياة.

ولعل سوء حظ وطنهم، هو الذى قضى بأن يكون فى تلك السنوات بلدا مستعمرا، متخلفا وفقيرا ومدينا بمئات الألوف من الجنيهات، تحكمه بريطانيا العظمى، منذ احتلته جيوشها عام ١٨٨٢، نيابة عن دول أوروبا مجتمعة، وتدير اقتصاده وماليته، حتى يستطيع الوفاء بما اقترضه «الخديو اسماعيل» من حكوماتها ومصارفها، إذ لولا ذلك لما تعرضت مصر لما جرى لها خلال سنوات الحرب العالمية الاولى من أحكام عسكرية، وأوضاع استثنائية شتتت قادة حركتها الوطنية بين أنحاء العالم، وزجت بالباقين فى المعتقلات والسجون، وحولتها إلى محمية بريطانية لاتملك من أمر نفسها شيئا، مع أنه لم يكن لها فى تلك الحرب ناقة لها ولا جمل..

وربما كان من سوء حظهم أنهم ولدوا جميعا على مشارف الاحتلال البريطانى، أو بعده بسنوات، ونشأوا فى مناخ الاحباط العام الذى عاشه المصريون بعد أن تحالفت دول أوروبا، لتحطم جيشهم الوطنى وتقوم بتسريحه مرتين، خلال اربعة عقود.. فاستكنت الهزيمة فى تلافيف قلوبهم، وانشغل الجميع بتضميد جراحهم، وبدا التمرد على ارادة الخواجات الذين يحكمون الدنيا - ومصر من بينها- خطل فى الرأى وحماقة لا تليق بالعقلاء ووصل التحلل إلى النخبة المصرية، التى انشغل كل فرد منها بنفسه، فكان منطقياً أن ينشغل بنفسه كذلك، رجال مثل «حسب الله» و«عبد العال» و «عبد الرازق» ونساء مثل «ريا» و «سكينة» و «أمينة بنت منصور» وهم مجرد بشر من سواد الناس، لايكتبون ولا يقرأون ولايحتفظون بشهادات ميلاد، أو وثائق زواج، وليست لهم أية حيثية، تدفعهم للاعتداد بأنفسهم. أو. للحفاظ على كرامتهم، وأن يعيشوا داخل قمقم أنانيتهم، يبحثون عن اللذة .. ويتوقون الألم مااستطاعوا..

والحقيقة أن الانحلال الخلقى، كان قد وصل الى أقصى مدى. خلال سنوات الحرب، على نحو طفت معه على سطح

المجتمع - خلالها وفى أعقابها - ظواهر اجتماعية واجرامية لم تكن معروفة من قبل على نطاق واسع، كالتجارة فى اعراض الغلمان، واستخدامهم فى سرقة الاقطان من وسائل النقل التى تقوم بنقلها من المنتج الى المحلج ومنه الى موانىء التصدير، كالسفن والسيارات والقطارات.

و من بين ماكانت تنشره صحف تلك الأيام، تلفت النظر، أنباء العثور على أطفال حديثى الولادة - بعضهم حىّ والآخر ميت - على شواطىء الترع وفى الشوارع والأزقة، و أمام أبواب أقسام الشرطة، أو المستشفيات، لكثرتها من ناحية، ولأن معظم الأماكن التى كان يعثر فيها على هؤلاء الأطفال اللقطاء، كانت تقع فى الأحياء الشعبية، مما يكشف المدى الذى وصل اليه التحلل من الضوابط الاجتماعية التى تنظم ممارسة الجنس فى ظل الفوضى الاجتماعية والاقتصادية التى نتجت عن الحرب. ولم يكن نادراً - كما تقول صحف تلك الأيام - أن تتقدم فتيات فى الرابعة عشرة، أو دون ذلك إلى قلم «حفظ الآداب» بطلب لمنحهن ترخيصا رسميا للعمل بالدعارة، فإذا ما أحالهن القلم إلى الطبيب لتقدير أعمارهن، تبين أنهن مازلن عذراوات ودون السن القانونية التى تسمح بإدراجهن ضمن قوائم العاهرات، فيرفض قلم حفظ الآداب طلبهن ويأمر بتسليمهن إلى أسرهن، ويأخذ تعهداً على هؤلاء الأهل بأن يحافظوا على بناتهم، ويمنعونهن من السير فى الطرقات العامة.

ومع أن مصر كانت بعيدة عن ميادين القتال الفعلية، ولم تتعرض إلاّ لبعض الآثار الجانبية لها. كان من أهمها عدد من الغارات الجوية قامت بها المناطيد - فى بداية الحرب - ثم الطائرات فى نهايتها.. فقد عاش أهلها - طوال أربع سنوات -



مظاهرات الإسكندرية الصاخبة ضد لجنة ملنر

يتبادلون أخبار الدماء التى تسيل أنهاراً فى ميادين القتال، كما عاش مئات الآلاف من المصريين، ممن اشتغلوا فى السلطة العسكرية وعملوا فى الخطوط الخلفية لجيوش الحلفاء، فى جو القتال الحقيقى، تتطاير من حولهم الرؤوس وتسيل الدماء وترخص الحياة.. ويعاينون عن قرب، الإنسان وهو يتحول الى وحش محاصر، لا يجد أمامه مفراً من الاختيار بين حياته وحياة عدوه، وقد طبع ذلك كله المصريين جميعاً بطابع من القسوة، تولد عن قسوة الحياة، واختلفت درجته باختلاف ماتعرض له كل منهم من ظروف قاسية، كما اختلف تعبيرهم عنه، باختلاف الطبائع والعادات ودرجة الوعى والثقافة.

وكانت الثورة المصرية فى مارس (آذار) من ذلك العام - ١٩١٩- أرقى أشكال التعبيرعن تلك القسوة، وقد أدهشت البريطانيين الذين كانوا يعتقدون بأن لين الطبع، والقدرة على التحمل والعزوف عن العنف، من الصفات الثابتة التى لاتتغير فى الشخصية المصرية، فأغراهم ذلك بما ارتكبوه فى حق المصريين خلال سنوات الحرب، وماكادت تنتهى، حتى عادت الروح إلى المصريين، فاكتشفوا أن لهم أصواتا يستطيعون رفعها بالمطالبة وبالاحتجاج على إهمال المطالب، ومدّوا فى حبال قدرتهم على التحمل إلى أن واجهت قوات الاحتلال احتجاجاتهم السلمية، بهراواتها ورصاصاتها، فلم يجدوا مفرا من اللجوء إلى العنف، الذى مارسوه بقسوة بدت غريبة للجميع، فهاجموا القطارات ليقتلوا ضباط جيش الاحتلال وجنوده، وتربصوا لهم فى الأركان المظلمة ليطلقوا عليهم رصاصاتهم، وتشكلت عشرات الجمعيات السرية، أخذت تخطط لاغتيال الموظفين الإنجليز الذين كانوا يحتكرون المناصب الإدارية العليا فى الحكومة المصرية، والذين يتعاونون معهم من المصريين الذين وصفهم «سعد زغلول» بأنهم من «برادع الإنجليز».

والحقيقة أن الطريقة الفظة التى واجهت بها قوات الاحتلال ثورة المصريين، لم تترك لهم قدرة على التحمل، ولم تمارس بطريقة تتوقى رد فعلهم ليحتفظوا بلين الطبع الذى تميزوا به، ولم تحرص على أن يظل احتجاجهم فى إطاره السلمى، بل تعمدت أحيانا أن تستفزهم إلى الغضب، فتختلق الذرائع لتأديبهم. وهى مغامرة كانت نتيجتها - دائما - وبالا على المحتلين.

فعندما تكرر زعم قادة فصائل قوات جيش الاحتلال بالإسكندرية، بأن المتظاهرين هم الذين يبدأونها بالعدوان فتضطر لمعاملتهم بالعنف، قررت السلطات المصرية المحلية بالمدينة، أن تشارك بنفسها فى المظاهرات، للحفاظ على سلميتها، والحيلولة دون وقوع صدام دموى. وهكذا قاد الصاغ (الرائد) «كمال الطرابلسى» - أحد كبار ضباط الشرطة، والمسؤول عن الأمن السياسى- مظاهرة خرجت من مسجد «أبو العباس المرسى» - بعد صلاة يوم الجمعة ٣١ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٩- وسارت منه إلى «ميدان محمد

على» ثم إلى شوارع «شريف» و«السلطان فؤاد» و «النبى دانيال»، دون أن يتجاوز المتظاهرون حدود الهتافات ضد «لجنة ملنر» على الرغم من أعدادهم الكبيرة، التى كانت قد تعدت آنذاك، ثلاثين ألفا.

وفى «ميدان محطة الرمل»، فوجىء الجميع بسيارة بريطانية مسلحة، تندفع من أحد الشوارع المتفرعة من الميدان لتقتحم جموع المتظاهرين بكل قوتها، فتدوس عليهم وتطلق عليهم الرصاص، ليسفر الاقتحام المسلح عن سقوط أربعة من القتلى، وأربعين من الجرحى من بين المتظاهرين.

وكانت أمثال تلك التصرفات، هى التى جعلت صفوف الثورة تتسع لعشرات الالاف من الفئات الهامشية التى طحنتها ظروف الحياة القاسية، فوجدوا فى قسوة المحتلين، وعدم احترامهم لأى قانون، وفى اهتزاز قبضة السلطة نتيجة لمعارك الثوار ضدها، الفرصة التى كانوا ينتظرونها، والشرارة التى تشعل نوازع العدوان المكبوتة فى نفوسهم، بسبب ما عانوه من جوع وإذلال وامتهان خلال سنوات الحرب وما قبلها، واندفعوا - فى ظل الفوضى التى ترتبت على الثورة - إلى التخريب والتدمير وإلى السلب والنهب والحرق، وإلى القتل والاغتصاب.

وكان فى الطليعة من هؤلاء، جيوش من الاطفال المشردين الذين لا أهل لهم، أولهم أهل لا يهتمون بأمرهم، ممن يبيتون فى الشوارع ويعملون فى جمع بقايا السجائر من بين أقدام الجالسين فى المقاهى والبارات. أو فى بيع السلع التافهة فى المواصلات العامة. وينطلقون من الاحياء الشعبية فى «باب سدرة» و «كرموز» و «كوم الشقافة» و«القبارى» - حيث يقيمون بين خرائبها- لينضموا ، بأقدامهم الحافية واجسادهم الهزيلة التى لاتسترها سوى ملابس ممزقة، إلى المتظاهرين... فإذا مابدأ الصدام، تحولوا إلى رماة ماهرين للاحجار ، يقذفون بها كل مايصادفهم، من قوات الشرطة إلى مصابيح الاضاءة، ومن مركبات الترام إلى واجهات المحلات التجارية التى كانوا يتسللون إلى بعضها فينهبون كل ماتصل إليه ايديهم من بضائعها أو ينتهزون فرصة الفوضى التى تعم بعض الشوارع ، ليتسللوا إلى بعض البيوت فيسرقون مابها..

فى هذا المناخ، الذى كان فيه مجتمع ماقبل الثورة، يتفكك ويفتقد لأى سيطرة، كان منطقيا أن تطرح سنوات التغريبة التعيسة، كل ثمارها المرة، وأن يغير «آل همام» نمط نشاطهم الاجرامى على الرغم من كل نظريات علم الاجرام...

وهكذا بدأت فكرة قتل البغايا بملاحظة عابرة... ثم بمعاتبة عابرة:

كانت صاحبة الملاحظة هى «ريا» التى كانت بحكم دورها - كسحابة للبيت - أوثق العاملين به، صلة بالنساء اللواتى تسحبهن إليه، ومعرفة بأسرارهن، بل وكانت - كذلك- موضع ثقتهن، يستشرنها فى مشاكلهن الاسرية ويستمعن إلى نصيحتها... ولما كانت الحاجة إلى المال، أو إلى المزيد منه، هى أقوى الدوافع التى

تدفع بالنساء إلى الوقوع بين براثنها، فقد كانت على معرفة كاملة بالظروف الاقتصادية لمن تتعامل معهن من النساء. فإذا كانت فتاة فقيرة ممن تسرحن فى الشوارع- مثل «عيشة» و«نعمة» و«عزيزة» - أغرتهن بعمل يجنبهن مشقة التجوال فى الشوارع طوال اليوم، ويوفر لهن دخلا يكفل لهن الستر، فيجدن ما ينفقنه على

حسن عبد الرازق باشا محافظ الإسكندرية

إطعام انفسهن، ومن تقمن باعالتهم من أطفال وأمهات مات عنهم عائلهم أو سقط - قبل الأوان بين براثن المرض أو تحت مطارق الزمن، أما إذا كانت امرأة ممن يسكن فى منازل الأحرار، تسعى للعمل معها، إشباعا لرغبتها، فقد كانت تغريها بأن تدخر لنفسها بعض المال الذى يقيها تقلبات الزمن... لتخلق لديها دافعا للاستمرار فى العمل، إذا ما خمدت الشهوة، أو ناوشتها مشاعر الاحساس بالذنب، فدفعتها للتفكير فى التوبة..

ولأن الخوف من المستقبل كان من بين الهواجس الثابتة لدى المشتغلات بالبغاء، اللواتى كن يدركن أنهن يبعن بضاعة قصيرة العمر، سريعة التلف، فإن التحوط لتقلبات الأيام بادخار جانب من دخلهن، كان نمطاً سلوكيا شائعا بينهن جميعا، يتمثل فى تحويل الفائض إلى رصيد ذهبى، على شكل مشغولات ذهبية وفضية يتحلين بها، ولا يخرجن إلى الطريق إلا بها، بل ويمارسن العمل من دون أن يخلعنها، وفى وهمهن أنها تضفى عليهن احتراما اجتماعيا لدى من يجهل طبيعة عملهن من الناس، وترفع من قدرهن لدى زبائنهن، إلا أنها مالبثت أن تحولت إلى مايشبه شارة يعلقنها فى معاصمهن لتدل على مهنتهن بدلا من أن تعمل على إخفائها، بعد أن تخلق لديهن ذوق خاص فيما يتزين به من مشغولات ذهبية، فعلى العكس من النساء الاحرار اللواتى كن تفضلن الاساور، والغوايش الرفيعة والمليئة بالزخارف، فقد كانت «الفواحش» - كما قال صائغ استمعت سلطات التحقيق فيما بعد إلى اقواله على سبيل الاستدلال-تفضلن المشغولات العريضة ثقيلة الوزن التى تخلو من أية زخارف، ترتفع بأثمانها عند الشراء وتتخفض به عندما يقمن ببيعه أو استبداله..

ولعل «ريا» و«سكينة» كن الوحيدتين من بين العاملات فى مجال البغاء.. اللتين لم تكونا تحملان تلك الشارة، على الرغم من تاريخهن العريق فى العمل بالقوادة، بسبب حالة عدم الاستقرار، التى احاطت بكل

ماقامتا بتأسيسه وادارته من بيوت للبغاء، والاهم من ذلك بسبب معارضة الرجال الذين كانوا يحوزونهن فى الظهور علنا بمظهر القوادين، فضلا عن تعطلهم شبه الدائم، واسرافهم المستمر الذى بدد كل مدخراتهم، فما كادت حالة عدم الاستقرار تعود فى الأسابيع الاخيرة من عام ١٩١٩، بسبب تجدد الثورة احتجاجا على قدوم لجنة «ملنر»، حتى عادت المجاعة لتهدد «آل همام».

وذات يوم فى بدايات ديسمبر ـ كانون الأول ـ ١٩١٩، كانت «ريا» تجلس فى بيتها بـ «حارة النجاة» وبصحبتها «خضرة محمد اللامى» فى انتظار أن تقود الظروف زبونا، عندما حانت منها التفاتة إلى معصم «خضرة» فإذا بها تتحلى بعدد من الغوايش، وزوجين من «المباريم» الذهبية ثقيلة الوزن والعيار، مع أنها كانت قد رأت مثل تلك المشغولات فى معاصم النساء اللواتى يعملن معها من قبل، ومنهن «خضرة» نفسها، إلا إنها فى تلك اللحظة تحديدا، تنبهت لأول مرة، إلى أن هؤلاء النساء قد تصيغن بسببها ومن ثمرة نشاطها، بينما لاتكاد هى تجد ثمن طعام اليوم.

ولابد أن «ريا» قد همست بملاحظتها تلك لزوجها «حسب الله» فى سياق حديث بينهما، أرادت أن تحفزه به، على أن يكف عن إسرافه، ويدخر بعضا مما يربحانه فى أيام الرخاء ليكون سندا لهما فى أيام الجفاف، وتمنت عليه فيه أن يأذن لها بأن تتقدم إلى «قلم حفظ الآداب» بطلب لافتتاح مبغى قانونى، يجنبها ما يضطرها إليه العمل السرّى من تستر يفقدها بعض الزبائن، ونفقات تدفعها إلى خفراء وجنود قسم شرطة اللبان، لكى يتغاضوا عن نشاطها غير المشروع، وهو اقتراح لم تكن تكف عن تقديمه إليه، على الرغم من إصراره على رفضه.

ومن المؤكد أن الملاحظة قد انتقلت - عبر «حسب الله» - إلى بقية الرجال الذين كانوا يمضون نهارهم بين دكان «أبو أحمد النص» ومحششة «محمود أبو زكاك» يحتسون الخمر ويمزون بأنفاس الحشيش، فإذا غربت الشمس، اختاروا واحدة من الخمارات العديدة التى تتناثر بين الحارات الكثيرة المحيطة بالبيت، ليمضوا بها سهرتهم. والغالب أن «عرابى حسان» و«عبد الرازق يوسف» كانا أول من عرف بالملاحظة، إذ كان «محمد عبدالعال» قد عاد -آنذاك- للإقامة مع شقيقه «محمود» فى منزله بـ «غيط العنب» لكى يطمئن أهله على سلامته، بعد أن اضطربت الأحوال فى المدينة، وصدرت قرارات حظر التجوال ، وأصبح كثيرون يسقطون قتلى أو جرحى فى المظاهرات، أو يقعون أسرى بين براثن قوات جيش الاحتلال، فاقتصر ظهوره بينهم على أيام متفرقة كان يمضى فيها الفترة بين العصر والعشاء، مع «سكينة» فى حجرتها بمنزل «حارة النجاة» التى عادت لتصبح بيتا للزوجية، بعد ركود الأشغال وانصراف الزبائن.

ولم تكن «سكينة» نفسها، فى حالة تتيح لها الاهتمام بملاحظة «ريا» ففضلا عن أن

أحـدا من الرجـال الذين كـانوا يتناقلون الملاحظة فـيـمـا بينهم ككرة الثلج، لم يقل لها، أو لرفيقها شيئا حولها، فقد كانت تعـاني من آلام شـديدة، بدأت حـين استيقظت ذات صباح، لتشعر بألم كلما داست على مشط قدمها اليسرى، ثم أخذ يتزايد في الأيام التالية، على نحو جعلها تعجز عن تحمله، وأقعدها عن الحركة بحرية، ودفعها إلى الاستناد إلى كتف شقيقتها «ريا» أو واحدة من النساء العاملات بالبيت، كلما أرادت التحرك، واضطرها إلى استدعاء أحد حلاقي الصحة، الذي أبلغها -بعد الكشف عليها- أن بالقدم خُراجا، ونصحها بتجنب المشي في الشمس، أو تقريب قدمها من الحرارة، وبوضع «لبخة» من بعض البذور، على مكان الألم حتى ينضج الخراج فيستطيع فتحه وتنظيفه.

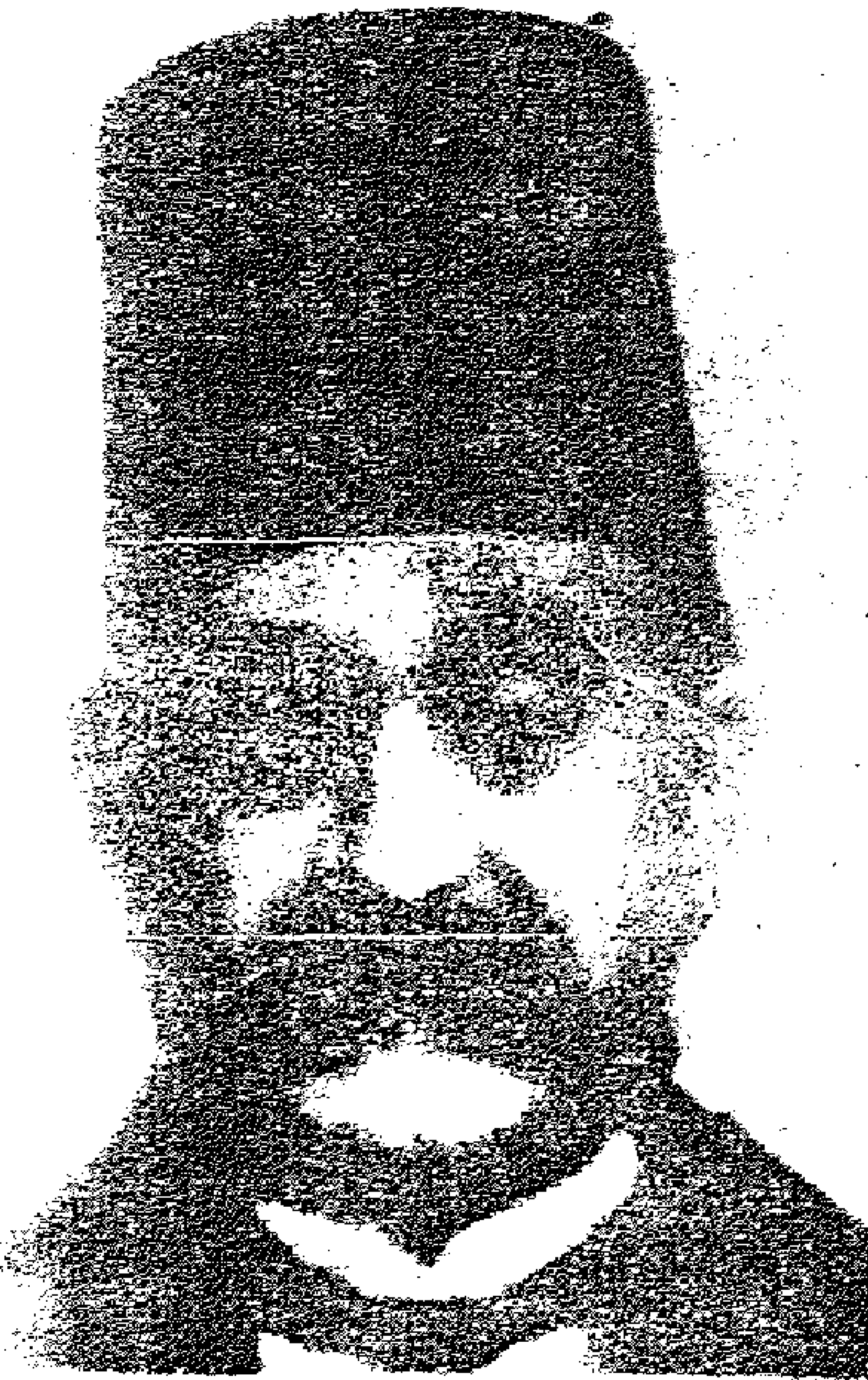
والغالب أن «عبدالرازق يوسف» كان صاحب المبادرة بنقل المناقشة حول ملاحظة «ريا» العابرة، من مستوى التحسر على سوء الحظ وسوء التصرف، الذي قضى بأن تحمل امرأة من الفواحش مثل «خضرة» على جسدها، كل هذا الذهب، بينما لا يجد الرجال الصّبوات، ما ينفقونه على مزاجهم، إلى مستوى آخر، هو البحث في مدى أحقية «خضرة» في تملك تلك المجوهرات. ولعله كان أول من أفتى بأن لـ «حسب الله» - وبالتالي له هو نفسه - حقا فيها، فهم أصحاب المؤسسة التي تعمل فيها «خضرة»، وهم الذين يستأجرون البيوت، ويديرونها ويحمونها ويتحملون مخاطر التعامل مع الشرطة، ويواجهون سخافات الزبائن، بل هم الذين يجلبون هؤلاء الزبائن، ولولاهم لما وجدت امرأة في خريف العمر مثل «خضرة»، رجلا يقبل أن يضاجعها، ويدفع لها أجرا على ذلك لتكتنزه على معصميها وحول رقبتها.. صحيح أنها - ككل البغايا اللواتي يعملن في البيت - كانت تدفع لهم من أجرها النسبة المتعارف عليها، إلاّ أن نجاحها في اكتناز كل هذا الذهب، يقطع بأنها كانت تكذب عليهم وتسرقهم، وتخفي جانبا مما كانت تتقاضاه من الرجال، لتهبط بقيمة نصيبهم، وإلاّ فكيف اغتنت.. وافتقروا. وحازت الذهب بينما تكاد جيوبهم في بعض الأيام تخلو من ثمن تعميرة. أو كوب نبيذ.

وبصرف النظر عن الخلل الواضح في هذا المنطق، فقد كان الأساس الذي انطلقت منه «عصابة ريا وسكينة» في ارتكاب جرائم القتل المتتابعة التي احتفظت لهما بمكانة في التاريخ، مع بعض الإضافات والتهويمات الأخرى، التي أضافوها فيما بعد، لتبرير ما كانوا يفعلونه سواء أمام أنفسهم، حين كان العلم به قاصرا عليهم، أو أمام الآخرين، حيث انفضح أمرهم، وتم القبض عليهم، وصلت إلى ذروتها بادعائهم أنهم كانوا يقتلون النساء الفواحش بدوافع دينية وأخلاقية واجتماعية لأن بعضهن كنّ يمارسن البغاء استجابة لشهوة جنسية يعجزن عن التحكم فيها أو السيطرة عليها، وكانت أخريات يخن أزواجهن، ويفرطن في شرفهن من دون علم أسرهن، ولأنهن جميعا كنّ يبعن أنفسهن. وهو ادعاء لا يحتاج إلى تكذيب، لكنه

– مع غيره من الادعاءات التى استندوا إليها فى تبرير قتلهم لكل امرأة على حدة -يكشف عن أنهم كانوا يفتقدون إلى القدر الضرورى من نوازع العدوان والتوحش، التى تدفعهم للقتل بلا مبرر ، أو للاعتراف -حتى أمام أنفسهم- بدوافعهم الحقيقية لهذا القتل، فأخذوا يفتعلون لذلك الذرائع، بادعاء أن لهم حقا مسلويا يسعون لاسترداده أو هدفا أخلاقيا ساميا يعملون على تحقيقه، لكى يتوازنوا نفسيا أمام أنفسهم، ويجدوا الجسارة لقتل الآخرين.

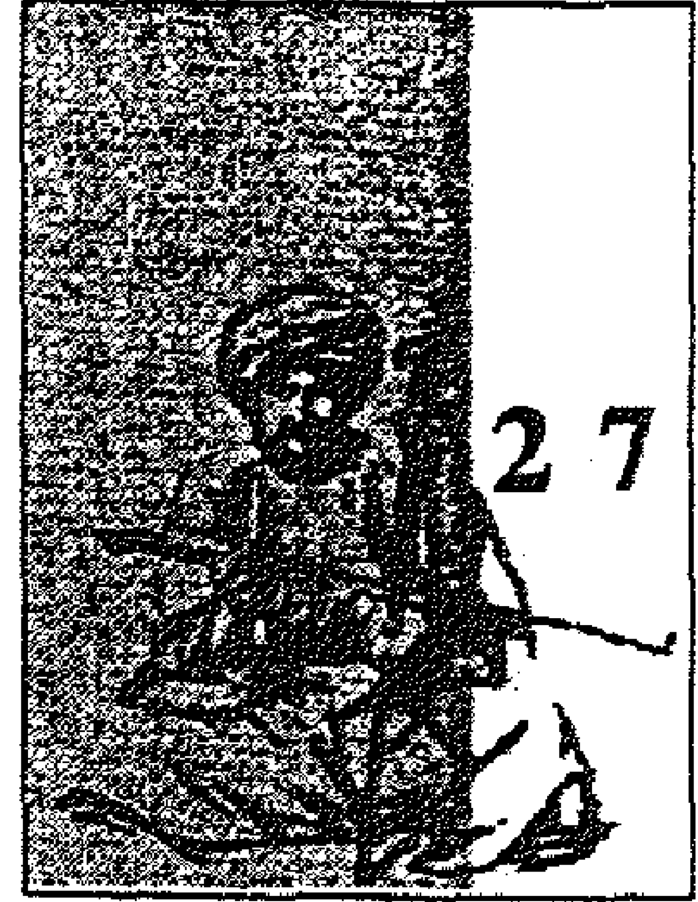
ولعل تنصل الجميع من المسؤولية عن اتخاذ قرار القتل، دليل إضافى على خطأ الانطباع السائد عن هذه العصابة التعيسة التى دخلت التاريخ مشيّعة باللعنات، إذ لا معنى لهذا التنصل، إلاّ أنهم كانوا يشعرون بالعار الشديد مما فعلوه، ويأبى كل منهم أن يتحمل مسؤوليته أمام نفسه، أو أمام التاريخ، لكن الشواهد التى تبقت لدينا عن حياتهم العاصفة، تشير بأصابع الاتهام إلي «عبدالرازق يوسف» باعتباره المسؤول عن اتخاذ هذا القرار، ليس فقط لأن سجله الجنائى، بما يحويه من سوابق إجرامية كثيرة، يفوق سجلات الآخرين، أو لأن التغير فى نمط الجرائم التى كان «آل همام» يقومون بها. قد حدث بعد شهرين من ظهوره بينهم. ولكن – كذلك – لأن ما وصل إلينا من معلومات عن سلوكه تجاه النساء يكشف عن أنه كان يتعامل معهن بقسوة وفظاظة واحتقار ورغبة فى امتهان كرامتهن وأنوثتهن، وعلى عكس أمثاله من «الصّبوات» الذين كانوا يحرصون على التعامل مع رفيقاتهم الدائمات أو عشيقاتهم المؤقتات، بأسلوب الفرسان، فيغدقون عليهن العطايا والهدايا، فقد كان «عبدالرازق» من النوع الذى يجد متعته فى اغتصاب المرأة، حتى لو كانت من النوع السهل المباح له، كنساء بيت «حارة النجاة» ويجد لذّة ، فى اهتضام حقوق المحترفات من النساء اللواتى يغتصبهن، حتى حين تتوفر له النقود، ولا تكتمل لذته، إلاّ بالحصول على أجر من المرأة، مقابل مضاجعته لها، وهى رغبة كان يعبر عنها بسرقة أى شىء تحمله المرأة، مهما كانت تفاهته.

وإذا كنا لا نملك ما يكفى من المعلومات عن الظروف الاجتماعية، التى شكلت شخصية «عبدالرازق» على تلك الصورة التى قد لا تبدو حالاتها المتقدمة غريبة على الذين يمارسون العلاج النفسى، فليس من العسير أن نتصور الآثار التى يمكن أن تتركها مسيرة حياة، كالحياة التى عاشها، على سلوك رجل تشرد منذ طفولته فى



محمد سعيد باشا : رئيس الوزراء

الشوارع، وبدأ حياته وهو صبى بسرقة جيرانه، وقضى مراهقته فى المحاشش والخرائب والمعارك.



بعد أسبوع واحد، كانت الملاحظة التى أبدتها «ريا» قد تحولت إلى خطة اقترحها «عبدالرازق» لسرقة مصوغات «خضرة محمد اللامى».

وكانت الخطة تقوم على إغراء المرأة، باحتساء كمية كبيرة من الخمر حتى تفقد وعيها. وآنذاك، ينزع «عبد الرازق» أو غيره من الرجال من معصمها أحد «المباريم» - وهى أساور سميكة على هيئة ثعابين يلتف كل منها على الآخر - أو يفك مشبك اللبّة - أى الكردان - من حول عنقها. وعلى الرغم من بساطة الخطة، وربما بسبب هذه البساطة، فقد تشكك «حسب الله» و«عبدالعال» فى إمكانية نجاحها، تخوفاً من المخاطر التى يمكن أن تترتب على تنفيذها فى حالة النجاح.. فقد ترفض المرأة أن تحتسى الخمر، وقد تحتسيها ولا تفقد وعيها، وقد تصرخ فتلم عليهم الناس فى «حارة النجاة» فتفضحهم وتسوىء سمعة البيت، الذى يعتمد -كأمثاله من البيوت- على الأمان والكتمان فى اجتذاب زبائنه.. وقد يصل بها الأمر إلى إبلاغ قسم الشرطة بمحاولتهم سرقتها ، فتكون النتيجة القبض عليهم والتحقيق معهم وإغلاق البيت والمحششة.

كشفت تلك الهواجسّ عن أن كلا من «عرابى» و«حسب الله» كانا - حتى ذلك الحين- يفتقدان للجسارة التى تدعوهما لارتكاب الجرائم الصغيرة، ولكنها لم تحل دون إصرار «عبدالرازق» على تنفيذ الخطة، ولم تهز يقينه بنجاحها، إذ كان يستبعد تماما، أن تثير امرأة من نوع «خضرة محمد اللامى» تمارس البغاء السرّى من دون علم أسرتها، أى ضجيج على أى مستوى.. أو أن تقوم بإبلاغ الشرطة ضدهم، لأن ما يصيبها من ضرر - إذا فعلت ذلك- سيكون أفدح مما سيصيبهم، إذ ما هو المبرر الذى ستسوقه لزوجها المريض، ولابنها المتزوج، وابنتها المتزوجة، وأحفادها وأصهارها فى «بيت الصابونجية» وجيرانها، لتفسر به سبب وجودها فى بيت يدار للبغاء السرى؟!. وما هى طبيعة العلاقة التى تربطها بأصحابه، وما الذى يدعوها لكى تسكر مع رجال ينتهزون الفرصة لكى يسرقوا مصاغها؟.

ومع أن منطق «عبدالرازق» كان قويا، إلاّ أنه أمام تردد زميليه، اضطر إلى أن يعلن استعداده بأن يقوم بالمغامرة، ويتحمل مسؤوليتها وحده، ووافق على اقتراحهما، بأن ينفذ الخطة بطريقة تحفظ له ولهما خط الرجعة فى حالة فشلها، بحيث يبدو وكأن الأمر كله، مزاح بينهم وبينها.

وكان لابد أولا من إذابة الجليد، الذى كان يحط على العلاقات بين «عبدالرازق» و«خضرة» إذ كان دائم السخرية منها،



(١٧٢)

منزل ريا بشارع على بك الكبير

والتنديد بتقدم سنها، ومع أنها كانت ما تزال تحتفظ بآثار جمال غارب، فقد كان يبدى دهشته لأن بعض الصعايدة الذين يترددون على البيت كانوا يختارونها دون بقية النساء، ويبشرها بأن أمثالها سيظلون أحياء بسبب كثرة «البهائم» من الرجال. الذين يتحملون مشقة مضاجعتها. ومع أن «خضرة» كانت تضيق بتعليقاته التى تجرح اعتزازها بأنوثتها، إلا أنها كانت تتعمد مداراته، توقيا لسخافاته من ناحية، ولكى لا تثير مشاكل تحول دون تعاملها مع البيت الذى كانت قد اطمأنت إليه كمركز لنشاطها، فكانت تكتفى بأن ترد عليه، قائلة:

- كل واحد على قدّ حاله.. وكل فولة.. وليها كيّال.

ولم تتطلب إذابة الجليد عن العلاقات بين الاثنين مجهودا كبيرا من «عبدالرازق» إذ لم يكد يبدى رغبته فى أن ينفرد بـ «خضرة» ويدعوها إلى تناول كوبين من النبيذ فى غرفة «سكينة»، حتى اعتبرت الدعوة، رداً لاعتبارها، واعترافا منه بأنوثتها التى كان ينكرها، فقبلتها على الفور.. ومع أنها كانت تعرف أنه تعود ألا يدفع أجرا للنساء اللواتى ينفرد بهن، فقد تبعته إلى الطابق الثانى من «بيت النجاة» بحماس يلفت النظر.

وبعد نصف ساعة من ذلك، فتح «عبدالرازق» باب الغرفة، وزعق على «ريا» طالبا منها أن ترسل إليه زجاجة من «الكونياك» من دكان «النص»، وكانت تلك هى الإشارة التى صعد على إثرها «حسب الله» و«عرابى» وخلفهما «ريا» و«الكونياك»، لينعقد مجلس الأنس، على شرف «خضرة»، ويستمر أكثر من ساعتين، بدا فى نهايتها أن المرأة قد فقدت وعيها نهائيا، وكانت تلك هى اللحظة التى ينتظرها «عبدالرازق»، فانتقل من مكانه، ليجلس إلى جوارها على الكنبة، وأحاط كتفها بذراعه، وأخذ يتحسس بأصابعه زوج «المباريم» الذى كانت تضعه فى معصم يدها اليسرى، وبحركة خاطفة، حاول أن ينزعه منها. وعلى الرغم من سكرها البيِّن، فإن المفاجأة لم تشل قدرتها على التصرف السريع، فاستطاعت فى الوقت المناسب أن تتنبه إلى هدفه، وأن تبتعد عنه، بينما تظاهر هو بأنه كان يعابثها، ويمزح معها، وبالغ فى الضحك والقهقهة.

ولم تستمر الجلسة بعد ذلك طويلا، ولم يكرر «عبدالرازق» المحاولة، فقد أشارت إليه «خضرة» أثناء انصرافهم وقالت لـ «ريا»:

- الراجل ده خاين.. وكان عاوز ياخد منى الأساور بالعافية.

ومع أن «ريا» هوّنت عليها قائلة : ياختى ده بيهزر. إلا أن إدراك «خضرة» لما كان يراد بها، أثبت أن المرأة ليست من النوع الذى تفقده الخمر يقظته.. وقضى على التفكير فى تكرار المحاولة التى بات مؤكدا أنها ستفشل فى كل مرة، إذ كان نجاحها يتوقف بالدرجة الأولى على غفلة الضحية، وعلى ثقتها فى الجناة.

على أن المحاولة فى حدّ ذاتها، كانت قد وضعت أقدام الرجال على بداية الطريق الذى ساروا فيه بعد ذلك، وحطمت الحواجز النفسية التى كانت تحول بينهم

وبين المغامرة في السير فيه، صحيح أنها فشلت، لكن من الصحيح كذلك أنها كان يمكن أن تنجح. وصحيح أن «خضرة» قد تنبهت إلى ما يراد بها، لكنها لم تصرخ ولم تثر فضيحة، ولم تنقطع عن التردد على البيت.. أو تخلع المباريم عن معصميها واللبّة من عنقها.. بل ظلت -على الرغم مما جرى- تخايلهم بما تتزين به من ذهب - وهو ما يدل على أن «عبدالرازق» كان على صواب، حين استنتج أن نوع «خضرة» من النساء اللواتي يمارسن البغاء، من دون علم أهلهن، لا يمكن أن يثير فضيحة، أو يفتح فمه بكلمة مهما جرى له ، حتى لو وصل الأمر إلى حدّ القتل.

وكان خلو جيوبهم من النقود، يدفعهم إلى معاودة تقليب الأمر على وجوهه، بحثا عن حيلة أخرى، تمكنهم من استرداد ما باتوا الآن مقتنعين تماما بأنه حقهم الذى سلبته «خضرة» وحولته إلى مصوغات تتخايل بها أمامهم، حين برزت فكرة «القتل» لتبدو حلا لابديل عنه.. لأن مجهود تنفيذه لا يزيد كثيرا عن المجهود الذى سوف يبذلونه للتحايل على انتزاع المصوغات منها، خاصة وأن افتضاح المحاولة الأولى، سيدفعها إلى مزيد من الحذر.. وفضلا عن أن حصولهم على الغنيمة الذهبية، سيكون مؤكدا، فإن احتمال أن تفضحهم أو أن تشكوهم للشرطة، سينتفى تماما بموتها.

لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة.. إذ كانت هناك مشاكل لابد من العثور على حلّ لها، وأسئلة لابد من الإجابة عليها، كان من بينها:

فى أى مكان يتم القتل؟.

وكيف يمكن استدراج «خضرة» إليه من دون أن تتشكك فترفض الذهاب، ومن غير أن يعرف أحد من المحيطين بها وبهم فيتحول -فيما بعد- إلى شاهد إثبات على صلتهم بجريمة القتل؟.

وماذا يفعلون بالجثة بعد تجريد صاحبتها مما تحمله من مصوغات؟.

وبماذا يجيبون إذا استدعتهم الشرطة لاستجوابهم عما يعلمونه عن ظروف اختفاء «خضرة» أو قتلها، باعتبارهم ممن يعرفونها ويخالطونها؟.

وكانت الإجابات المختلفة لتلك الأسئلة. هى التى جعلتهم يستبعدون التفكير فى ارتكاب الجريمة فى مكان ناء على حدود المدينة، أو فى إحدى خرائبها، لأن احتمالات تدخل عوامل خارجية تحول دون التنفيذ تصبح واردة بقوة، فى مثل تلك الأماكن المكشوفة، وفضلا عن أن استخدام وسائط المواصلات المتعددة للانتقال إليه، سوف يعرضهم لأنظار كثيرين مما قد يشهدون بذلك إذا تم التحقيق فى الأمر، فقد كان عسيرا عليهم العثور على مبرر منطقى، يقنع «خضرة» بمصاحبتهم إليه فى التوقيت الملائم، الذى لابد وأن يكون فى وقت متأخر من الليل.

وقادتهم تلك الإجابات كذلك، إلى التفكير فى إخفاء الجثة، لأن العثور عليها يحول الأمر إلى جريمة قتل، ويدفع الشرطة إلى الاهتمام بالأمر، بالتحقق من شخصية القتيلة، ومعرفة سبب وفاتها، ثم

التحرى عن علاقاتها وسؤال الذين تعرفهم وتتعامل معهم، وهى أمور قد تدخلهم فى دائرة الاتهام أو على الأقل الشك.. بينما يفتح إخفاؤها الباب أمام أهل القتيلة، لكى يمنوا أنفسهم بأنها ما تزال على قيد الحياة، وأنها ربما تكون قد سافرت إلى بلدة أخرى، ويدفع الشرطة -المكدورة بالأعمال- للتراخى فى التحقيق فى الأمر، طالما أنه - فى الظاهر - لا يشير إلى وقوع أية جريمة تتطلب منها التدخل..

وكانت ظاهرة اختفاء المصريين قد شاعت فى تلك السنوات، نتيجة للتزايد الكبير فى الهجرة من الريف إلى المدن، بحثا عن العمل، أو هروبا من الثأر، أو احتجاجا على معاملة الأهل، أو سعيا إلى مجاورة أولياء الله الصالحين أو انجذاباً نحو اقطاب المتصوفة وسيراً فى ركابهم أو حرصا على الإقامة فى مزاراتهم.. أو نتيجة لما أحدثته الحرب من قلقلة شديدة فى المجتمع دفعت عشرات الآلاف من المصريين للسفر إلى ميادين القتال والشغل فى السلطة، ودفعت عشرات غيرهم للهروب من قراهم حتى لا يساقوا سخرة، وعلى غير رغبتهم، إلى تلك الميادين.. فضلا عما واكب الثورة من قطع للمواصلات العامة، أدى إلى انقطاع الصلة بين أقسام البلاد، ومن تظاهرات عنيفة، سقط فيها كثيرون من المجهولين قتلى، أو أسرى بين قبضة جنود جيش الاحتلال. وما لبثت حدّة القلق الذى كان يعتور أهل هؤلاء الغائبين أن خفت تدريجيا، بحكم اتساع حجم الظاهرة التى كانت تقودهم للتعزى ببعضهم البعض.. ومرور الزمن الكفيل بمداواة الجراح، ولأن عددا ليس قليلا منهم كان يعود بعد الغياب، أو تلقى به صدفة ليست نادرة فى طريق أحد أقربائه أو معارفه، مما كان يطيل حبال الأمل فى أن يعود الآخرون، مهما طال الغياب.

ومع أن عدد النساء اللواتى كن يختفين كان أقل بكثير من عدد الرجال، إلاّ أنه كان يثير قلقا أوسع، إذ كانت مبررات اختفائهن أضيق نطاقا، وكان غيابهن لا يشير إلاّ إلى احتمالات معدودة، على رأسها أن يكن قد قتلن، أو رحلن وراء رجل، أو هربن لكى تعيش كل منهن «على كيفها» بعيدا عن سلطة الأسرة، وضوابط المجتمع..

وكانت بيوت البغاء العلنية والسرِّية، هى أول الأماكن التى يقوم الأهل بالبحث فيها عن بناتهن ونسائهن المتغيبات، على الرغم من الهم الشديد الذى كان يشغلهم وهم يضعون هذا الاحتمال محل البحث.. أما أقسام الشرطة، فقد كان ذلك الاحتمال هو الغالب على تفكير العاملين بها إذا ما وصلهم بلاغ عن اختفاء فتاة أو امرأة، لذلك لم يكونوا يبذلون مجهودا جديا فى البحث عنها، خاصة مع كثرة هذا النوع من البيوت، وانتشاره فى مختلف المدن، وكثرة التنقلات بين العاملات فيه من البغايا، بين بيت وآخر، ومدينة وأخرى..

وهكذا انتهى التفكير بالرجال الثلاثة - «عبدالرازق» و«حسب الله» و«عرابى» - إلى اختيار - حجرة «ريا» بـ «حارة على بك الكبير» مكانا لقتل «خضرة».. إذ لم يكن

استدراجها إلى هناك أمرا يحتاج إلى إقناع، أو يثير فضول أحد في «حارة النجاة»، أو في الحارة التي يقع فيها بيت «ريا» الحر.. فقد تعودت «خضرة» أن تتردد على البيت لتلتقي ببعض الزبائن حين يكون المكان المخصص لذلك في بيت «حارة النجاة» مشغولا، كما تعودت أن تتبع إجراءات الأمن المتفق عليها عند الدخول إليه، حتى لا يستريب أحد من الجيران في أن البيت يدار للدعارة السرية، فتلتف بملاءتها بطريقة تخفي وجهها، فلا يستطيع أحد أن يميزها أو يعرف شخصيتها، ويتبادر إلى ذهن الجميع، أنها امرأة من الأحرار جاءت لتزور قريبة لها من سكان المنزل. وفضلا عن أن الظلام الحالك كان يخيم على البيت ليلا ونهارا، بما لا يسمح لأحد بأن يتعرف على الذين يترددون عليه، فقد كانت غرفة «ريا» تقع في أقصى الزاوية الجنوبية منه، وكان النوبيون الذين يستأجرون الغرف المجاورة لغرفتها، من العزاب الذين لا يعودون من أعمالهم إلا في وقت متأخر من الليل.. وبذلك استكملت الغرفة كل شروط الأمان المطلوبة لتشييع «خضرة» إلى الدار الآخرة، من دون أن يعرف أحد.

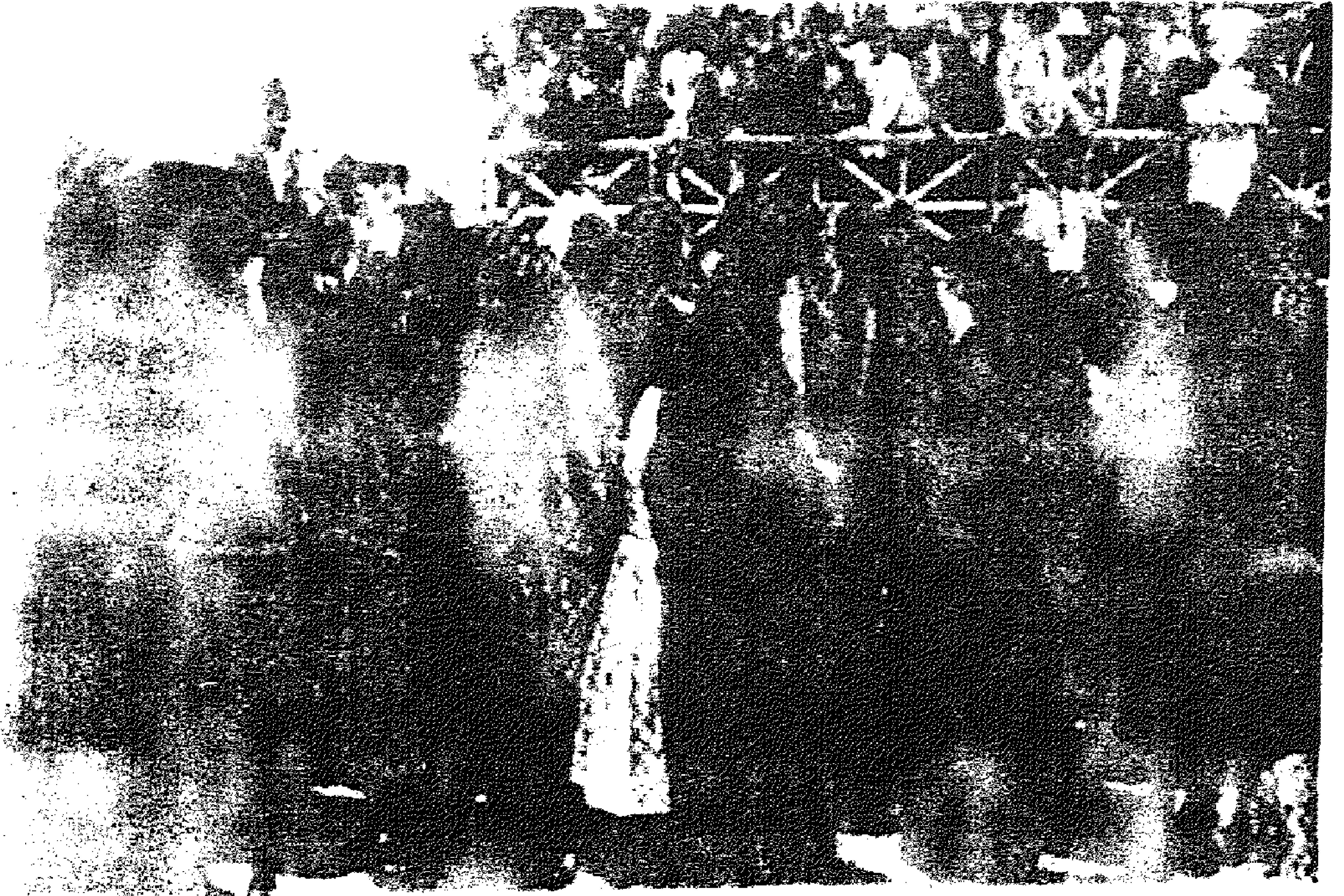
ولم يكن هناك مفر وقد اختاروا الغرفة مكانا لإتمام القتل، أن يختاروها كذلك مكانا لدفن جثة الضحية، إذ لم يكن منطقيا -أو عمليا- أن يقوموا بنقلها لتدفن في مكان بعيد، لما ينطوي عليه ذلك من صعوبات ومخاطر، ليس أولها استحالة العثور على مكان قريب يصلح لذلك، وليس آخرها احتمال اكتشاف الأمر أثناء التنفيذ.

وكان موقع حجرة «ريا» في الطابق الأرضي أحد أهم الأسباب التي دفعتهم لتفضيلها على غرفة «سكينة» بـ «حارة النجاة» التي كانت تقع في الطابق الأول بعد الأرضي، حيث لا يوجد أرض يمكن الحفر فيها وطمر الجثة تحت ترابها. وفضلا عن ذلك، فقد كانت غرفة «ريا» ككل غرف البيت وأمثاله من البيوت التي تقع في أحياء الإسكندرية الشعبية، ويستأجرها المهاجرون الصعايدة والعمال ومن هم في مثل مستواهم الاجتماعي، مزودة بـ «صندرة» خشبية تقع عادة على الحائط المستعرض البعيد عن الباب، ويتم تثبيتها عليه وعلى الحائطين الطوليين المتعامدين عليه، على ارتفاع يسمح باستخدامها في عدة أغراض: فهي كنبة للجلوس نهارا، وسرير للنوم ليلا، بينما يستخدم الفراغ الواقع تحتها ليكون مخزنا لأواني وأدوات ومواد الطهي، أو لتخزين الزائد عن الحاجة من الأغطية والملابس إلى أن يأتي أوان الحاجة إليها. وقد تستخدم لنوم الأطفال إذا كان المستأجر كثير العيال، ومساحة الغرفة ضيقة، أو لغير ذلك من شؤون الحياة.. وكان أصحاب الأملاك في الأحياء الشعبية، يحرصون على تزويد كل حجرات بيوتهم بتلك «الصندرة» لتكون من عوامل إغراء المستأجرين بالإقبال على استئجار تلك البيوت، إذ كانوا يعلمون جميعا أنهم من الفقراء الذين لا يملكون أثاثا، ولا يستطيعون شراءه.

ولم يأت اختيار الغرفة التى تقيم فيها «ريا» لدفن الضحية الأولى، ثم التالية، من فراغ.. صحيح أن مصر كانت قد عرفت - منذ الحملة الفرنسية- نظام تسجيل المواليد والوفيات، والقواعد التى تنظم إنشاء الجبانات والتصريح بدفن الموتى، وتعاقب على مخالفتها، إلاّ أن ضعف الجهاز الإدارى للدولة، فضلا عن الجهل وقوة العادة والتقاليد ، وعزف الناس عن إقحام الحكومة فى التدخل فيما يعتبرونه من شؤونهم الخاصة، كان يدفع كثيرين إلى دفن الأعزاء من موتاهم فى بيوتهم، من دون أن تعرف السلطات المعنية، أو أن يجسر أحد على الإبلاغ عنهم.. ولأن تسجيل المواليد كان يفرض على المصريين أعباء يسعون للتهرب منها. وخاصة التجنيد فى الجيش. والعمل سخرة فى الأشغال العامة، كتقوية جسور النيل أثناء الفيضان، فضلا عن تقييدهم فى كشوف الضرائب والمكوس، فقد كانوا يتعمدون عدم إدراج أسماء مواليدهم فى السجلات الرسمية، فإذا مات لهم طفل رضيع أو صغير، دفنوه فى أرضية البيوت التى يسكنونها، بعد أن يقوموا بالواجبات الدينية فى هذا الصدد..

كما لم يكن اختيار الرجال الثلاثة، للأرض التى تقع تحت الصندرة، لتكون مدفنا لـ «خضرة» مصادفة هو الآخر، إذ كانت أرض الغرفة، مبطنة بنوع من البلاط المالطى، بحيث كان محتما عليهم، أن

١٩٢٢: لفيف من النساء المصريات يقفن أمام كازينو بورسعيد في انتظار المشاركة في توديع أم المصريين ويرتدين الزي السائد بين المصريات آنذاك



يقوموا بنزعه، ثم الحفر تحته، ثم إعادة تثبيته مرَّة أخرى بعد دفن الضحية، وهى عملية كان يستحيل عليهم أن يقوموا بها بالدقة والاتقان التى تعيد البلاط إلى ما كان عليه من استواء وانتظام قبل نزعه، على نحو كان لابد وأن يلفت أنظار الذين يترددون على الغرفة، إلى وجود أمر غير طبيعى، وراء عدم انتظامه واستوائه.. من هنا كان اختيار المنطقة التى تقع تحت الصندرة، للحفر فيها أكثر أمانا وأدعى إلى عدم إثارة الريب والشكوك.

وحتى ذلك الحين ، كانت خطة قتل «خضرة» قد استكملت كل أركانها.. ولم يكن قد تبقى قبل الشروع فى التنفيذ، سوى سؤال واحد، بدت الإجابة عليه عسيرة جدا.. هو: هل يشركون معهم «عبدالعال» أو لا يشركونه؟.. وهل يشركونه من دون أن تعلم «سكينة» أم أن ذلك مستحيل؟.

وكانت هناك عوامل متعددة، تقف وراء اهتمام الرجال الثلاثة، بمناقشة الموقف من مشاركة «عبدالعال» و«سكينة» فى خطة قتل «خضرة»، إذ لم يكن تنفيذ المشروع على وجه يحول دون افتضاحه، يتطلب -فحسب- دورا يقوم به رجل رابع، كان من المنطقى أن يكون «عبدالعال» هو المرشح لأدائه، بحكم صلته الوثيقة بهم.. بل إن هذه الصلةذاتها كانت -كذلك- مبررا إضافيا لتفكيرهم فى ضمه إليهم، إذ كان على معرفة كاملة، بكل ما يجرى فى البيت، وعلى صلة يومية بهم، تتيح له أن يلاحظ ويستنتج، على نحو قد يقوده لاكتشاف الأمر.. فيجدون أنفسهم فى حرج شديد.. وربما فى خطر شديد..

ولأن الفصل بين الموقف من اطلاع «سكينة» على السر، ومعرفة «عبدالعال» به، بدا لهم مستحيلا بحكم علاقة الوسادة الواحدة التى تجمعهما، والتى سوف تؤدى -بالقطع- إلى تسرب السر من أحدهما إلى الآخر، فقد أعادوا مناقشته باعتباره موقفا واحدا، ليتضح لهم، أن المشكلة تكمن فيها وليس فيه، وأنها مصدر الخطر الرئيسى الذى يهدد بافتضاح المشروع سواء أخفوه عنها، أو أطلعوها عليه، فهى التى تستطيع بدقة ملاحظتها أن تكتشف غياب «خضرة» وأن تثير علامات التعجب حوله، وهى التى تملك عقلا متشككا - خاصة تجاه زوج شقيقتها «حسب الله» - بمقدوره أن يلفت نظر «عبدالعال» إلى ما قد يفوت عليه التنبه إلى دلالته من ظواهر وأحداث.. أما الوجه الآخر من المشكلة، فكان يكمن فى إدمانها للخمر، الذى جعلها تعجز عن التحكم فى لسانها، وتكثر من الثرثرة - وتذيع فى أوقات سكرها المتواصلة- كل الخبايا.. وتفضح كل الأسرار، مما يشكل خطورة عليهم جميعا.. سواء أخفوا عنهم سرها.. أو أطلعوها عليه.

وكانت «ريا» - التى دخلت دائرة الذين يعرفون بالمشروع بعد أيام قليلة من فشل محاولة انتزاع المصوغات من معصم «خضرة» - هى التى حسمت تردد الرجال الثلاثة، إذ كان من رأيها أن اطلاع كل من «عبدالعال» و«سكينة» على السر، أمر لا

مفر منه، لأنهما سيعرفان ما جرى مهما حاول الآخرون التكتم عليه.. وآنذاك فإن خطر ثرثرة «سكينة» به، وهى تحت تأثير الخمر، أو استخدامها له لابتزازهم، بل واحتمال قيامها بإبلاغ الشرطة ضدهم على سبيل الانتقام - عند أول خلاف ينشب بينها وبين أحدهم، كما فعلت من قبل حين كانت الصراعات تحتدم بينها وبين «حسب الله» حول تقسيم أرباح بيوت البغاء التى يتشاركون فى إدارتها، سيكون خطرا مؤكدا، أما حين تكون، هى ورفيقها، شريكين فى التنفيذ، فسوف تدخل بأقدامها دائرة الخطر.. وتحرص على أن تصون السر، الذى قد يقودها افتضاحه إلى أعواد المشنقة. وكان من رأيها أن يفاتحوا هم «عبدالعال» بالأمر، على أن يترك الجميع توقيت اطلاع «سكينة» عليه، ومفاتحتها فيه، لتقوم به «ريا» فى الوقت الذى تراه مناسبا.. وفى التوقيت الذى تجده أكثر ملاءمة.

ومهد «عبدالعال» الأرض أمام مفاتحته فى الأمر، حين ظهر فجأة فى منزل «ريا» و«حسب الله» بعد غياب استمر اكثر من أسبوعين ، ليعود «سكينة» التى علم من «مريم الشامية» بأنها مريضة، وتكاد تلازم الفراش، بغرفة شقيقتها، بسبب الخراج الذى أصابها فى قدمها اليسرى.. وبعد أن اطمأن إلى أنها قد غادرت الفراش، وإن لم تشف تماما، اصطحبه «حسب الله» إلى خمارة «سبيرو» التى تقع على رأس الحارة، وساق إليهما الحظ الحسن اثنين من زملاء «عبدالعال» فى وابور حلج القطن، تكفلا بدعوتهما إلى كوبين من النبيذ، ومهدا السبيل بفتح الموضوع الذى استكمل «حسب الله» المناقشة فيه مع عديله فى أعقاب انصرافهما ، بعد أن تبين له، مما دار بين الزملاء الثلاثة، أن الوابور الذى يعملون به، قد استغنى عن عدد كبير من العمال، وتوقف عن دفع الأجور الكاملة للباقين، بمن فيهم «عبدالعال» وأن احتمال الاستغناء عنه هو الآخر، أصبح واردا، إن لم يكن مؤكدا.

والتقط «حسب الله» طرف الخيط، ليبدأ بالحديث عن سوء أحواله المالية هو الآخر، ثم يقارن بين ما آلت إليه حالتهما، وبين حالة «خضرة» وأمثالها من النساء الفواحش، ويسوق الدوافع الفلسفية و«الأخلاقية» التى جعلتهم يقومون بمحاولة إسكارها وانتزاع الذهب من معصمها، والفشل الذى يدفعهم للتفكير فى قتلها.. وقد ذكر «عبدالعال» - فى اعترافاته التى أدلى بها فيما بعد- أنه عارض الفكرة بقوة، وقال لـ «حسب الله»: «مش حرام نقتل نفس علشان شىء زى ده»؟.. «ده طمع فى الدنيا». وأنه رد عليه قائلا: «إذا كنت معانا ح تاخد نصيبك.. وإذا حصل خطر رايحين نتهموك معانا». ويضيف أنه فكر فى الأمر.. ثم قال لنفسه: «مادام تهمة بتهمة.. خلينى معاهم أحسن». وهى رواية مصطنعة، تؤكد أن «عبدالعال» كان - كما يقول المؤرخ «هيرولد»- يتمتع بتلك الموهبة الفذة التى يتصف بها كل صناع التاريخ، وهى روايته بصورة تختلف تماما عن الصورة التى وقع بها.



استيقظت «خضرة محمد اللامى» فى وقت مبكر من صباح يوم الأحد ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٩.. لتقوم بتنظيف الشقة الضيقة التى تقيم فيها بـ «شارع عبدالمنعم»، القريب من مسرح الأحداث.. والتى لم يعد يشاركها السكن بها سوى ابنها الأصغر «شعبان»، بعد أن غادر زوجها الدنيا قبل أسابيع قليلة. وعندما استيقظ الابن -فى وقت متأخر نسبيا، قدمت له الإفطار، على عكس ما كان يحدث عادة، إذ كان -كأمثاله من العمال والحرفيين- قد تعود أن يتناول الوجبات الثلاث فى المحل الذى كان يعمل كوّاء به، بحكم امتداد ساعات العمل بين الصباح المبكر.. والليل المتأخر.. لكن اليوم - الأحد - كان يوم الإجازة الأسبوعية لمحلات إصلاح وغسيل وكى ورفى الطرابيش التى كان يعمل بواحد منها، إذ لم يكن منطقيا أن تغلق أبوابها يوم الجمعة، وهو اليوم الذى يزداد إقبال الناس فيه على طلب خدماتها.

وكان قد انتهى من وضع الفحم المشتعل على حجر الجوزة، وبدأ يشدّ أنفاس «الاصطباحة» حين بدأت أمه الحديث، حول برنامجها فى ذلك اليوم، الذى كانت قد حددته لجولة بين بعض الأسواق القريبة، تشترى خلالها ما تبقى من مفروشات وأدوات قبل الاحتفال الوشيك بزفافه، الذى جاءت وفاة أبيه لتؤجله إلى ما بعد مرور ذكرى أربعين يوما على مغادرته الدنيا..

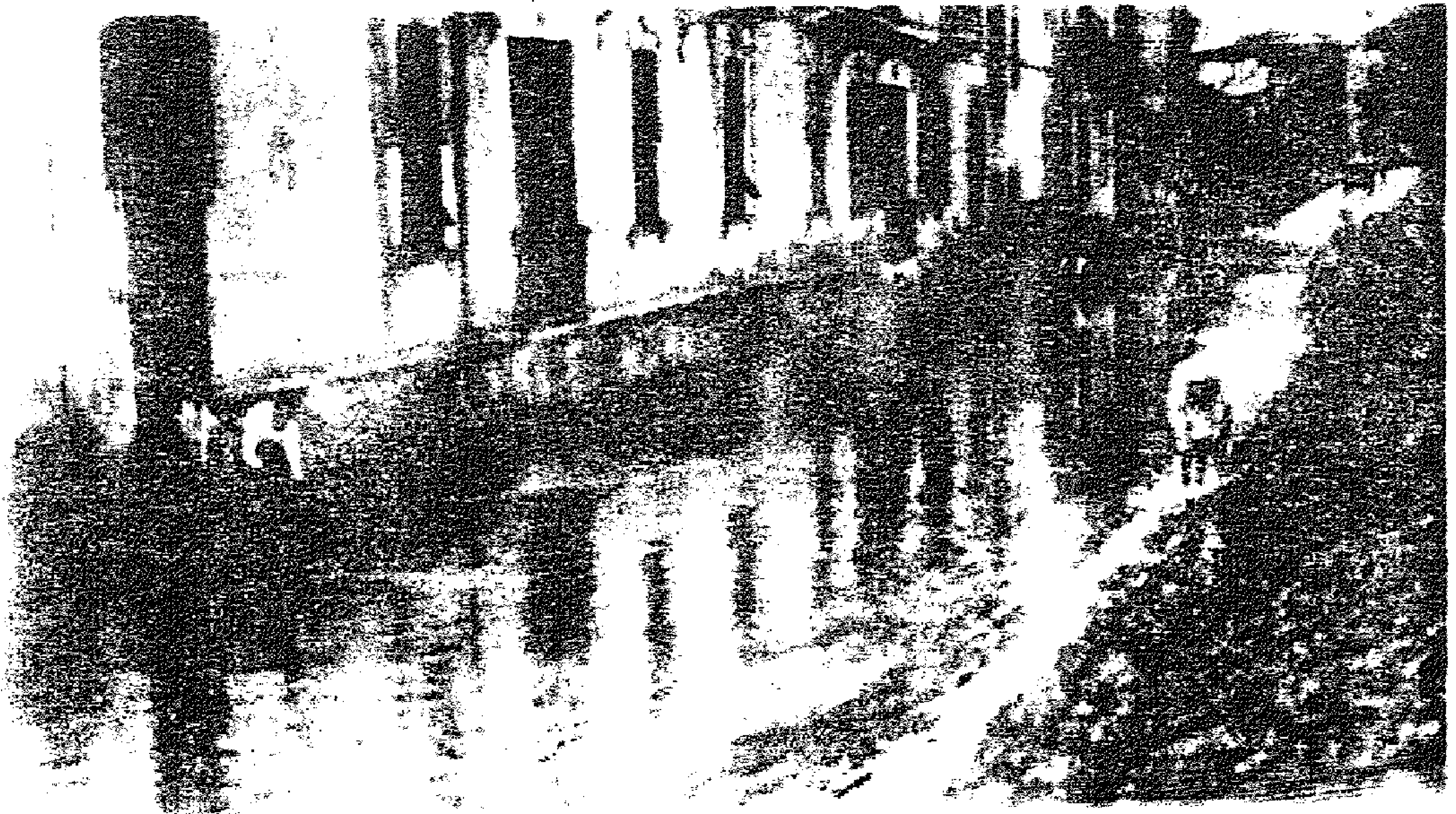
ولعل مرض الأب الطويل، كان السبب فى نفاد الحزن عليه بسرعة أوفر من المعتاد، فلم يرد له ذكر فى الحديث بينهما، إلاّ عندما أخذا يستعرضان بنود الإيرادات والمصروفات التى تتطلبها جولة الشراء، وما يتلوها من استعدادات الزفاف، إذ كانت الأم قد تسلمت قبل أيام خمسة عشر جنيها، هى كل ما كان يستحقه المرحوم لدى صاحب العمل الذى كان يعمل عنده، أنفقت منها ستة جنيهات، وأضاف «شعبان» إلى ما تبقى معها ثمانية جنيهات أخرى، أعطاها لها وهى تناوله كوب الشاى، بعد أن انتهت من ارتداء ملابس الخروج، لتستطيع أن تدرك شقيقه الآخر، «عبدالمطلب» -العربجى- قبل أن يغادر منزله.. وقد ذكر «عبدالمطلب» -فيما بعد- أنه أعطاها ثلاثة جنيهات، مساهمة منه فى نفقات زواج أخيه، وبذلك ارتفع ما كانت تحمله معها من نقود إلى عشرين جنيها.. ولاحظت زوجته -واسمها أيضا «خضرة»- أن حماتها لا تتزين إلاّ بزوج من «المباريم» تضعه حول معصميها، فأقرضتها الحلق الذى كانت تضعه فى أذنيها، واللبة التى كانت تحيط عنقها، لكى تظهر بالصورة اللائقة بأم العريس أمام أهل العروس.. والجيران.

ولا أحد يعرف ماذا فعلت «خضرة» خلال الساعات الثلاث التى أعقبت خروجها من منزل ابنها الأكبر.. ربما تكون

قد تجولت فى بعض الأسواق، فلم تجد ما يعجبها لتشتريه، ولعلها عثرت عليه، ودفعت ثمنه كاملا أو جانبا منه، وتركته لدى البائع حتى تعود فى مساء اليوم نفسه، أو فى صباح اليوم التالى فتتسلمه.. لكن المؤكد أنها عندما ظهرت - عند منتصف النهار- لتبدأ عملها فى بيت «ريا» و«سكينة» بـ«حارة النجاة» ، لم تكن تحمل شيئا من المشتروات التى خرجت من منزلها فى الصباح بهدف شرائها، كما أن أبناءها لم يجدوا شيئا من تلك المشتروات فى منازلهم، حينما عادوا ليفاجأوا باختفائها.

وفضلا عن أن الجو كان شديد البرودة فى ذلك اليوم من نهاية ديسمبر (كانون الأول)، فقد كان المناخ المحيط بالبيت، حين وصلت «خضرة» إليه، يوحى بأن اليوم - كسابقه- سيمضى من دون عمل، فمع أن «محمود الزكاك» كان قد انتهى من إعداد المحششة لاستقبال الزبائن، إلاّ أن الوقت الذى كانوا يبدأون فيه بالتوافد، مضى من دون أن يظهر سوى عددٌ قليل منهم، مما جعله يتردد فى إشعال مزيد من الفحم، توفيرا للنفقات.. وكانت هناك امرأة من القبارى، ممن يقدمهن البيت لرواده، تنتظر مثلها زبونا يطلبها.. أما «عائشة» فقد رأت أن تستثمر وقت الانتظار فى عمل يدر عليها بعض القروش، حتى لا تعود فى نهاية اليوم خالية الوفاض، فقبلت عرض «ستوتة بنت منصور» - صاحبة دكان الطبيخ المجاور للبيت - وشقيقة أم أحمد النص - بأن تقوم بتنقية جوال صغير من العدس، مما به من شوائب. وتطوعت المرأتان بمساعدتها من دون أن تطالبا بنصيب من الأجر الذى كان أتفه من أن يقبل القسمة، بل إن «ريا» التى كانت تجلس إلى جوارهن، تناولت بعض العدس، وأخذت فى تنقيته، لكنها لم تواصل العمل،

كانت الأمطار الغزيرة تغرق شوارع الإسكندرية حين بدأ رجال ريا وسكينة مشروعهم التاريخى



إذ سرعان ما دبّ إليها الملل، فتناولت ملاءتها، والتفت بها، وغادرت الحارة إلى حارة «سيدى اسكندر» القريبة، لتزور صديقتها «روما» وتتفقد أحوال الحجرة التى كانت تشتركان فى إدارتها كمركز للبغاء السرى، لكن الرحلة استغرقت وقتا أطول مما كانت تستغرقه عادة.

وحين عادت ، بعد أن اكتشفت أن الوضع هناك، ليس أقل سوءا من الوضع فى «حارة النجاة»، كانت الساعة قد جاوزت الثالثة، وكانت «خضرة محمد اللامى» قد ملت من مواصلة العمل فى تنقية العدس، وحبكت ملاءتها الكريشة السوداء، على جلبابها ـ وكان من التيل الأسود هو الآخر ـ استعدادا للرحيل. وأصرت على الانصراف على الرغم من إلحاح «ريا» عليها بأن تبقى بعض الوقت لعل الحظ الحسن يقود إليها زبونا.. وكانتا ما تزالان تتجادلان، حين تحققت نبوءة «ريا» وظهر الزبون المنتظر، وكان صعيديا فى مقتبل الشباب، أشار إلى «خضرة» فلحقت به إلى حجرة المحششة، بالطابق الأرضى من البيت، وكانت خالية فى ذلك الوقت، بعد أن همست «ريا» فى أذنها، بألاّ تتصرف قبل أن تعود إليها..

فى لحظة ما، خلال تلك الساعات الثلاث، تم الاتفاق على تنفيذ خطة مقتل «خضرة محمد اللامى» فى ذلك اليوم.

ومع أن الجميع تعمدوا فيما بعد. ـ وفى سياق حرصهم على التنصل من مسئولية اتخاذ قرار القتل ـ أن يسدلوا أستار النسيان على الجانب الأهم من الأحداث التى جرت فى ذلك اليوم، إلاّ أن الشواهد القليلة التى وردت فى أقوال المعترفين منهم، تكفى للجزم بأن تحديد ذلك اليوم موعدا للتنفيذ، كان اقتراح «ريا» التى كانت أولى من التقى بـ «خضرة» عند وصولها إلى «حارة النجاة» ولاحظت أنها تتزين بزوج المباريم الذى تملكه، فضلا عن الحلق واللبة اللذين كشفت متابعتها لما تتزين به «خضرة» عن أنها اقترضهما من إحدى جاراتها أو قريباتها. ولما كان احتمال نجاحها فى اقتراض تلك المصوغات الإضافية مرة أخرى، ضئيلا، واحتمال ظهورها بها فى «حارة النجاة» أكثر ضآلة، فقد تقرر أن يتم الاستيلاء على كل ما تتزين به من مصوغات، قبل أن تعيد جانبا منه إلى أصحابها.

وشاء سوء حظ «ريا» ألاّ تجد على مقربة منها فى تلك الساعات الحاسمة، أياً من الرجال الأربعة، التى لم يكن ممكنا دونهم تنفيذ الخطة.. إذ كان استمرار حالة الركود، قد دفعهم إلى الانفضاض عن المنطقة المحيطة بالبيت، فتركوا مجلسهم المختار أمام دكان «أبو أحمد النص» ليبحث كل منهم عن عمل يعود عليه ببعض النقود.

والغالب أنها كانت تبحث عن أحدهم خلال الفترة التى زعمت أنها قضتها تتفقد أحوال بيت «سيدى اسكندر»، وربما تكون قد نجحت خلالها فى ترك رسالة لـ «عبدالرازق» بأن يتوجه إليها بمجرد ظهوره.. وقد ذكر «حسب الله» -فيما بعد- أنه لم يغادر حجرته بمنزل «على بك

الكبير» فى ذلك اليوم، إذ لم يكن فى جيبه سوى خمسة عشر قرش تعريفة، وأن «ريا» عادت فى حوالى الساعة الثالثة فطلبت منه نقودا. فلم يرد عليها.. فكررت عليه قولها: أنا عايزة مصروف.. فتجاهلها تماما، وارتدى ملابسه وغادر المنزل. والغالب أن «ريا» طلبت إليه أن يساعدها فى البحث عن بقية الرجال.. فاتجه إلى خمارة «سبيرو» ليجد «عبدالعال» هناك.

وحين عادت «ريا» مرة أخرى إلى «حارة النجاة» وجدت «خضرة» تغادر غرفة المحششة، وفى أعقابها الشاب الصعيدى، الذى أعطاها خمسة قروش، تقاضت «ريا» نصفها، وواصلت إلحاحها على المرأة -التى شرعت من جديد فى ارتداء ملاءتها استعدادا للانصراف- بالبقاء، لعل الريح الطيبة التى جاءت بهذا الزبون تأتى بغيره، لكن «خضرة» -التى كانت مشغولة البال باستعدادات زفاف ابنها - أصرت على الانصراف قائلة إنها أمضت سحابة نهار الأيام الأربعة السابقة، فى انتظار الزبائن، فلم يأت منهم أحد إلا ذلك الرجل.. وأنها لن تعاند حظها.

وإزاء إصرار «خضرة» على الرحيل، وعدم ظهور «عبدالرازق» الذى كان يستحيل البدء فى التنفيذ، من دون وجوده، قامت «ريا» بآخر محاولة لكى تستبقى الضحية وقتا يكفى للعثور على الرجال، فاقترحت عليها أن تبيت معها الليلة، كما كانت تفعل من قبل، ووعدتها بأنها كفيلة بأن تعثر لها على عدد من الزبائن، يعوضها عن الركود الذى شهدته خلال الأيام الماضية ولكن «خضرة» لم تعدل عن إصرارها على الرحيل.

وفى اللحظة التى بدا فيها أن تنفيذ المشروع، قد تأجل إلى أجل غير مسمى، ظهر «عبدالرازق» فجأة على باب البيت.. ليلتقى بها عند المدخل، ويسألها عن وجهتها.. وبطريقة تجمع بين الهزل والجد، اعترض على رحيلها، مؤكدا لها أن عليها أن تستعد لسهرة تمتد حتى الصباح، لأنه اختارها لتمضى الليلة معه، فى «فندق جوانى» بميدان الرمل.

وكان الخبر مفاجأة سارة للمرأة التى لم تصدق أن الرجل الذى تعود على السخرية منها، والهزؤ بها، وتجريح أنوثتها، قد اختارها دون غيرها، لكى يمضى ليلة كاملة معها، ليس فى حجرة «سكينة» الكالحة، أو فى حجرة المحششة التى اختلت فيها بالشاب الصعيدى منذ قليل، ولكن فى الفندق الذى كانت شهرته ذائعة آنذاك فى الإسكندرية. باعتباره المكان الذى تعود العشاق المحترمون أن يختلوا فيه برفيقاتهم من البغايا.

ومع أنه لم تكن قد مضت سوى عشرة أيام فقط على محاولته انتزاع الإسورة من معصمها، فضلا عن أنها كانت تعرف - كغيرها من نساء البيت- أنه لا يدفع أجرا لمن يختلى بهن، إلا أنها قبلت على الفور، ومن دون تردد ولم تؤيد اعتراض «ريا» الشكلى بأنها أولى بالنقود التى سوف يدفعها إيجارا للغرفة فى «فندق جوانى». لعلها كانت قد نسيت ما فعله معها، أو تعمدت أن تنساه.. ولعلها عللت نفسها بأنه

ينوى هذه المرة أن ينفق عليها كما يليق برجل يعشق امرأة عشقا جارفا.

والحقيقة أن قبولها لدعوته، يظل أحد ألغاز النفس الإنسانية العصية على التفسير.. وقد أثار فضول «سليمان بك عزت» - رئيس نيابة الإسكندرية الذى كان يتولى التحقيق فى القضية -فسأل «ريا» عن تفسيرها لقبول «خضرة» أن تبيت مع «عبدالرازق» بعد محاولته سرقتها قالت:

- المرة من دول مهما كانت.. علشان واحدة بعشرة.. تروح فى أى جهة.. وفوق كده، فـ «عبدالرازق» ولد حيلى وابن سوق!

وفى طريقهما للخروج من «حارة النجاة» سار «عبدالرازق» فى المقدمة، وتبعته «خضرة» على مبعدة خطوات قليلة، وقد أخفت وجهها بملاءتها، حتى لا يتعرف عليها أحد ممن يعرفونها، أو يشاهدها بصحبة رجل غريب.. وما كادا يدلفان إلى الشارع العام، حتى توقف «عبدالرازق» إلى أن لحقت به، فهمس فى أذنها أنه سوف يسبقها إلى بيت «ريا» بـ«حارة على بك الكبير»، على أن تلحق به.. ولأن الظروف لم تكن تسمح لها بالتساؤل عن مبرر هذا التعديل المفاجىء فى الهدف الذى يتوجهان إليه، فقد أومأت برأسها، وعبرت الشارع إلى الطوار الآخر، وسارت فى طريقها ببطء، من دون أن تحاول التعرف على مكانه من الطريق الملتوى الذى تعمدت أن تسير فيه، لتتيح له وقتا يصل فيه قبلها إلى البيت.. ومع أن جانبا من فرحتها باللقاء، كان قد باخ بذلك الهبوط فى مستوى المكان الذى سيتم فيه، إلا أنها لم تتوقف حينذاك لتتساءل عن المبرر الذى يدعو «عبدالرازق» لاصطحابها إلى بيت «على بك الكبير» بينما لا يوجد زحام فى «بيت النجاة» -بل ولا يوجد به زبائن بالمرة- يتطلب استبدال غيره به..

وعلى الطوار الذى يواجه «حارة على بك الكبير»، توقفت «خضرة» قليلا، لتلقى نظرة طويلة على مدخل الحارة، شملت باب البيت رقم ٣٨ الذى تسكن فيه «ريا»- وكان يقع على مبعدة ثلاثة أمتار فقط من المدخل- وتنهدت براحة حين اتضح لها أن المكان خال تماما من البشر، بل إن الزوجين العجوزين اللذين تعودا أن يجلسا على عتبة منزلهما المواجه لمنزل «ريا» ليبيعا القصب وقطع الحلوى الصغيرة للأطفال، لم يكونا - لحسن الحظ - يجلسان فى مكانهما المعتاد.. أما وقد اطمأنت إلى أنه لا توجد عيون يمكن أن ترصدها، أو أن تعترضها، فقد عبرت الطوار بسرعة شديدة، من دون أن ترفع عينيها عن مدخل الحارة، وفى مثل لمح البصر.. كانت قد انفلتت إلى داخل البيت.. حيث كان مستحيلا -وسط الظلام الدامس- أن يتعرف عليها أحد..

ولعلها دهشت قليلا، حين شاهدت ضوء «المسرجة» يبدو من باب غرفة «ريا» الذى كان مفتوحا على غير ما كانت تتوقع، لكنها ما كادت تدلف إليها حتى اكتشفت أن الذين ينتظرونها هم أربعة رجال لا رجل واحد -كان «عبدالرازق» يجلس فوق «الصندرة» وإلى جواره «عرابى»، بينما كان «حسب الله» و«عبدالعال» يجلسان على

الأرض فوق حشية من القطن، ويسندان ظهريهما إلى الحائط.

واستقبلها الرجال الأربعة بترحاب شديد، دهشت له، وسعدت به، إذ لم يسبق لأحدهم أن عاملها برقة، أو احتفى بها، أو رفع الكلفة بينه وبينها، حتى وهى بين أحضانه. وما لبث «عبدالرازق» أن طمأنها أنه لم يعدل عن مشروع قضائهما الليلة معا فى «أوتيل جوانى»، وأضاف «عرابى» قائلا إنهم يصرون على الاحتفال بهذه المناسبة بدعوتهما إلى عدّة كؤوس من الخمر، ليصلا إلى الأوتيل وهما فى حالة من النشوة تليق بهذه الليلة العظيمة.

وكان «عبدالرازق» و«خضرة» ما يزالان على مبعدة أمتار قليلة من بيت «حارة النجاة» حين طلبت «ريا» من «سكينة» - التى كانت قد انضمت إلى فريق تنقية العدس- أن تصحبها إلى «بيت على بك الكبير».. فبدا الطلب لها غريبا.. لكن نظرة واحدة من شقيقتها جعلها تدرك بأن هناك أمرا ما لا تريد «ريا» أن تناقشه معها أمام الآخريات.. فعدلت عن الاعتراض بعد أن كان على طرف لسانها.. وناولت الإناء الذى كانت تنقى فيه العدس إلى «أم أحمد النص» وقامت فاستندت إلى كتف شقيقتها، وسارتا ببطء، واختارتا أقصر الطرق بين البيتين إذ كانت «سكينة» ماتزال تتحرك بصعوبة بسبب الخراج الذى أصاب قدمها.. وكانت «بديعة» -ابنة «ريا» هى الوحيدة من بين الجالسات التى اهتمت للأمر، وحاولت أن تصحبهما، لكن نظرة زاجرة من أمها، أعادتها إلى مكانها بين فريق تنقية العدس.

ولم تكونا قد غادرتا «حارة النجاة» بعد، حين بدأت «ريا» فى إبلاغ شقيقتها بالمشروع الذى كانت «سكينة» آخر من عرف به، وقبل أقل من ساعتين على تنفيذ الخطة، فاستهلت حديثها بالشكوى من حالة الإفلاس التى تهددهم بألاّ يجدوا ثمن الطعام الذى يأكلونه، مما اضطر «حسب الله» إلى البقاء بالمنزل، بعد أن عجز عن أن يجد عملا، وخلا جيبه حتى من ثمن شراء كوب شاى، يسوغ له قضاء بعض الوقت فى المقهى، وأسهبت فى ذلك حتى غلب على ظن «سكينة» أنها ستطلب منها -كالعادة- قرضا، فبالغت هى الأخرى فى الشكوى من كثرة النفقات التى اضطرت لدفعها لحلاق الصحة كى يعالج قدمها المريضة.. لكن الحديث انتقل بعد ذلك إلى «هانم» -وهو الاسم المستعار الذى كانت «خضرة» تتعامل به فى عالم البغاء السرى، ولم يكن أحد من «آل همام» يعرف لها اسما غيره- وطبقا لرواية «سكينة» ذاتها، فقد قالت لها «ريا»:

- شوفى يا أختى المره المومس «هانم» اللى كانت تقول لى كل مرة، إنها لا تأخذ من الراجل غير ربع ريال.. أتاريها كانت بتاخد منهم أكثر.. وتخبى الفلوس مننا. وتحوشهم من ورانا.. وتروح تشترى بيهم جوز «مباريم».

وما لم تكن «سكينة» قد اصطنعت العبارات التى ذكرت فيما بعد أنها ردت بها على تلك الملاحظة من شقيقتها على سبيل التنصل من المسؤولية التاريخية عن اتخاذ

قرار القتل، فإنها قد ردت عليها قائلة:

- وإيه يعنى يا أختى.. مش ده من شقا فخدها.. دى غلبانة ويتعرق برضه.

وجاء ردّ «ريا» عليها، ليكشف عن أن الخطة منذ البداية، لم تكن تقتصر على قتل «خضرة» وحدها، فقد قالت لشقيقتها:

- أبدا.. كل واحدة جت عندنا فى «بيت الكامب»، وعملت مصاغ، لازم نوروها ونزعلوها ونموتوها.. وهانم بنت الكلب دى، كانت تيجى عندنا بالأساور، وتغطيهم علشان مانشوفهمش.

ومع أن أشعة شمس العصر، كانت ما تزال تضىء جانبا من واجهة بيت «ريا» إلاّ أن الظلام كان يطبق على مدخل البيت وباحته، الذى التزمت «سكينة» الصمت وكفت عن المعارضة، أثناء عبورهما لها، وكان دخول الشقيقتين مفاجأة سارة لـ«خضرة» التى تخففت من بعض قلقها حين رأتهما.. وكانت الرغبة فى طمأنتها أحد أسباب حرصهما على الحضور، حتى تضفيا على الجلسة طابعا عائليا يزيل توترها، ويقضى على حذرها وتوجسها، ويزيل كل أثر لمحاولة «عبدالرازق» الاستيلاء على أساورها، فضلا عن أهميته كعنصر من عناصر تأمين العملية، إذ كان كفيلا بأن يوهم من يسمع من الجيران إلى صوت امرأة بأنه صوت صاحبة الغرفة، أو صوت شقيقتها، لذلك تعمدت كل منهما أن تتحدث بصوت عال، بما يوحى للجميع بأن «آل همام» يتناولون الطعام مع بعض أصدقائهم، وتظاهرت «ريا» بأنها فوجئت بوجود «عبدالرازق» و«خضرة»، وسألته:

- انت مش قلت إنكم رايحسين عند «جوانى»؟.

فقال لها: ح نسكر هنا وبعدين نروح.

واختارت «سكينة» لها مجلسا فوق صندوق للملابس كان يقع فى مواجهة باب الغرفة، فى الزاوية المقابلة للزير الذى كان يعلو حمالة خشبية، وتبادلت حديثا قصيرا مع رفيقها «عبدالعال» الذى انتقل للجلوس إلى جوارها، ومدّ يده إلى جيبه فأخرج خمسة قروش، طلب من «ريا» أن تشترى بهما نبيذا.. وأخرج «عرابى» خمسة قروش أخرى طلب منها أن تشترى بها طعاما.. وبعد قليل عادت «ريا» بما طلبوه، وتركته أمامهم لتصعد إلى الدور الثالث من المنزل، لتقترض من صاحبته «أم رجب» بلطة صغيرة، كانت تحطم قطع من خشب الأشجار الذى تستخدمه فى التدفئة..

ولم تتنبه «خضرة» إلى النظرات التى تبادلها الرجال، حين عادت «ريا» بالبلطة، فوضعتها بإهمال إلى جوار الزير، إذ كان مفعول الخمر، قد بدأ يتسلل إلى رأسها، فلم تدرك -كذلك- أنهم لا يكادون يشربون، وأنهم ملأوا كوبها حتى الحافة، بينما اكتفى كل منهم بكمية قليلة، وضعها فى كوبه من دون أن يشرب شيئا. بل إن «عرابى» سكب نصيبه فى كوبها قائلا أنه احتسى كمية كبيرة من الخمر قبل حضوره. وبدا لها طعم النبيذ مختلفا عما تعودت، كما بدا أنه أقوى وأكثر تأثيرا من الأنواع التى تحتسيها عادة، وكان الرجال يتكلمون مع بعضهم البعض، لكنها لم تكن

تدرك جيدا ما يقولونه. كما لم تلاحظ النظرات التى كانوا يتبادلونها، ولم تتوقف طويلا أمام بعض العبارات التى بدت لها بلا معنى مما يدور بينهم من أحاديث ولم تتنبه إلى أن «ريا» و«سكينة» قد غادرتا الغرفة وأغلقتا الباب خلفهما . .

وكان آخر ما رأته وسمعته هو مشهد «عرابى» وهو ينزل من فوق «الصندرة» ليطلب إليها أن تقوم لتجلس مكانه إلى جوار «عبدالرازق»، وأخذت تترنح حتى بعد أن وقف «حسب الله» -الذى كان يجلس إلى جوارها على الأرض- ومدّ لها يده ليساعدها على الوقوف، وفى اللحظة التى كانت تهم فيها بالصعود إلى الصندرة، فوجئت بشىء يقبض على قدميها بقوة، وحين نظرت إلى أسفل وجدت «عبدالعال» يحيط كاحلى قدميها بكفيه، وكأنهما حبل متين قيدها به، ومن مجلسه فوق الصندرة، أحاط «عبدالرازق» الذى كان يجلس خلفها صدرها بذراعيه القويتين، فشل ذراعيها عن الحركة. وللوهلة الأولى بدا لها وكأن الأمر مزاح ثقيل، فحاولت أن تستغيث، لكن كف «عرابى» التى امتدت إلى فمها وأنفها لتسدهما بمنديل مبلل بالماء سرعان ما أعجزتها عن الكلام وعن التنفس، وحتى عن مجرد تحريك رأسها بعيدا عن المنديل، إذ كان «حسب الله» يشد رأسها إلى الوراء ليمنعها من ذلك..

وكان الصمت يحط على المكان.. حين سقط جسد «خضرة محمد اللامى» على أرض الغرفة. وقد فارقت الحياة.

لم يضيع الرجال الاربعة وقتا. ولم يتبادلوا كلمة، فما كاد جسد «خضرة» يسقط على الارض، حتى انحنى «حسب الله» عليها، ليتأكد من أن قلبها قد توقف عن الخفقان، وماكاد يتثبت من موتها، حتى مد يده لينزع زوج المباريم من معصميها، والحلق من أذنيها والخلخال من قدميها، فيلفهم فى منديل أخرجه من جيبه، ويضعهم فوق رف معلق على جدار الغرفة، ثم طوى المرتبة فوق الجثة، ليخلى المكان أمام الصندرة للعمل الشاق الذى كان عليهم أن يقوموا به...

وكانت الخطوة الاولى فى مراسم دفن «خضرة» هى نزع مساحة من بلاط الغرفة تحت الصندرة، يصل طولها إلى مترين وعرضها إلى متر، وقد استعانوا فى ذلك بسن البلطة التى كانت «ريا» قد اقترضتها من «أم رجب» حريصين على أن يظل البلاط سليما ليستطيعوا إعادته بعد الدفن إلى المكان الذي ينزع منه، وعلى أن ينقلوه إلى أحد أركان الغرفة بنظام يتيح لهم حرية الحركة اثناء العمل، وكان تفتيت الطبقة السميكة من الحصى المدكوك بالجير - التى تلى البلاط-هو أصعب مراحل الحفر، إذ كانوا حريصين على ألا يصدر عنهم، أو عن الأدوات التى يعملون بها، صوت يدل على وجودهم، أو يثير الريبة فيما يفعلون.. وللمرة الثانية اثبت سن البلطة أنه ذو فائدة كبيرة، إذ ساعدهم على انجاز تلك الخطوة بأقل قدر ممكن من الضجيج، لتتكشف - بعد ذلك- الأرض الطينية، التى استعانوا على تجريفها باطباق من الصاج وجدوها بين الأوانى

المنزلية التى كانت «ريا» تخزنها تحت الصندرة.. ووضعوا التراب المتخلف عن الحفر فى مقطف مايكاد يمتلىء حتى يحمله أحدهم ليفرغه فى أحد أركان الغرفة...

وكان الليل قد اقترب من منتصفه، حين عادت «ريا» و «سكينة» إلى بيت «على بك الكبير» مرة أخرى، لتجدا العمل فى إنشاءمقبرة «خضرة» قد أوشك على الانتهاء بعد ست ساعات من العمل المتواصل... وبدا الرجال الاربعة - فى ظلام الغرفة الواسعة- كالأشباح، تتفصد جباهم بالعرق، رغم برودة الجو، خاصة وأنهم كانوا قد وضعوا المسرجة تحت الصندرة، لكى يتوقوا تسرب الضوء إلى الخارج.. ولكى يستطيع «حسب الله» و«عرابى» - وكانا يقفان فى الحفرة التى وصل عمقها إلى مايزيد عن متر- مواصلة العمل فى تسوية أركانها من الداخل، بينما كان «عبد الرازق» يستخدم سن البلطة فى تسوية حافتها الخارجية... ليقوم «عبد العال» بحمل الأتربة المتخلفة عن ذلك كله، إلى مكانها فى ركن الغرفة وما كاد العمل فى حفر القبر ينتهى حتى حمل الأخيران جثة «خضرة» ليناولاها إلى زميليهما اللذين وسداها التراب. وكانت «سكينة» هى آخر من رأها من مجلسها إلى جوار شقيقتها فوق الصندوق، وعلى ضوء المسرجة التى كانت تستقر على حافة القبر... وقد قالت فيما بعد «كانت مليانة وبيضة وحلوة - ومفيش عليها إلا لباس أحمر مخطط وفانلة بيضة منفبشة... وكانت عنيها مفتوحة ع الآخر».

ولم تستغرق إهالة التراب من جديد فوق جسد الضحية وقتا طويلا، خاصة بعد أن شاركت المرأتان فى العمل، بملء المقطف «والفقاعة» والقفة به، ونزل «حسب الله» إلى الحفرة ليقوم بدكه بأقدامه حتى يستعيد تماسكه الأول.. ثم اشترك مع زملائه فى إعادة صف البلاط فوق سطح الحفرة، وضغطوا عليه بأجسادهم حتى يستقر ويتساوى بقدر الإمكان.. ولم يكن التخلص من كمية الأتربة القليلة -التى شغلت جثة «خضرة» مكانها فى الحفرة- صعبا.. إذ قامت «ريا» بإسقاطها من النافذة الوحيدة فى غرفتها، التى كانت تطل على منور البيت..

وفى أعقاب ذلك مدّ «حسب الله» يده إلى الرفّ، ليعود بالمنديل الذى يضم مصوغات «خضرة» فيفتحه، ويحصى ما به أمام الجميع ثم يعود فيطويه ويسلمه إلى زوجته وشقيقتها، لكى تقوما ببيعه فى الصباح.

وكان الليل قد انتصف حين تسلل «عبدالرازق» و«عرابى» و«عبدالعال» من المنزل واحدا إثر الآخر.. وبعدها بدقائق، غادرته «ريا» و«حسب الله» و«سكينة» إلى منزلهم فى «حارة النجاة».. إذ لم يكن أحدهم يملك - حتى ذلك الحين - بلادة الحس التى تجعله ينام فى غرفة واحدة، مع جثة المرأة التى قتلوها..

....

فى العاشرة من صباح اليوم التالى..

اصطحبت «ريا» شقيقتها إلى الصاغة الجديدة. ومع أن المكان لم يكن يبعد كثيرا عن بيتها فى «حارة النجاة»، إذ كان يقع فى الشارع الموازى للشارع الذى يقع فيه قسم شرطة اللبان، ويقود إلى مقام سيدى الطشطوشى، فإن «سكينة» لم تستطع أن تتحمل الضغط على قدمها المريضة، مما اضطر الشقيقتين إلى استئجار إحدى عربات الحانطور..

ولم تكن العلاقة بين «ريا» و«على الصائغ» -الذى غادرت وشقيقتها العربة أمام دكانه الصغير بالصاغة- قوية إلى الدرجة التى تدعوها للثقة به، أو تدفعها لاختياره -دون غيره- لكى تبيع له مصاغ «خضرة» الذى سرق من صاحبته بعد قتلها.. بل إنها لم تكن قد عرفته إلاّ منذ شهور قليلة، أو ترددت عليه سوى مرات معدودة، صاحبت أثناءها صديقات أو جارات لها، جئن ليشترين أو يبعن أو يبادلن على قطع من مصاغهن.. ومع أنها لم تكن تشترى أو تبيع، فقد لفتت نظره إليها بسبب المساومة المجهدة التى كانت تنحاز فيها إلى صديقاتها ولفت نظرها إليه بقوة، أنه كان يختبر النساء الراغبات فى بيع ما لديهن من مصاغ، بشكل غير مباشر، فإذا أدرك أن ما يعرضنه للبيع، ليس ملكهن، لم يتعفف عن الشراء، بل سعى لكى يبخس ثمنه إلى الحد الأدنى، فأدركت بفراستها الفطرية، أنه الصائغ المناسب الذى يمكن أن يشترى منها مصوغات المرأة التى لم يكن اليوم الأول على رحيلها عن الدنيا قد انقضى بعد.

وكان على «حسن نصر» - وهو اسمه الكامل - شابا فى السابعة والعشرين من عمره، ولد فى «حارة البلقطرية» - التابعة لقسم شرطة الجمرك- حيث كان مايزال يقيم فى منزل متواضع من طابقين ورثه عن أبيه، واستقل بالطابق الأرضى منه، هو وزوجته وأطفاله، بينما أقامت أمه بالطابق الأول، والأخير. كما ورث عن الأب كذلك، دكان المصوغات الذى كان يعمل به، بمساعدة اثنين من الصبيان.. ولأن الدكان لم يكن كبيرا على نحو يكفل له المعيشة الرغدة التى يحلم بها، فضلا عن موجات الركود التى كانت تحط على الصاغة، وخاصة خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، فقد كان - ككثيرين غيره من تجار المصوغات- يتحايل بقدر الإمكان على المقررات التى أصدرتها الحكومة لتنظيم تجارة الذهب والمعادن النفيسة، ليقلل من قيمة الرسوم التى كان عليه أن يقتطعها من أرباحه إذا ما التزم التزاما صارما بتنفيذ التعليمات الرسمية.

ولأن كثيرات من المتعاملات مع الصاغة الصغيرة، كن من البغايا، إذ كانت أقرب إلى مكان عملهن فى نقطة المومسات بـ «كوم بكير»، وأماكن إقامتهن فى حوارى «حى اللبان» من الصاغة القديمة - والكبيرة - فى حى المنشية، فقد كانت عمليات الشراء والمبادلة تغلب على نشاط الدكان، إذ كانت البغايا تكثرن من بيع ما تشترينه من مصوغات إذا ما حط عليهن الركود، أو مبادلته بأكبر أو أصغر منه، طبقا لأحوال سوق البغاء المتقلبة.

ومع أن نشاط «على الصايغ» فى شراء المصوغات مجهولة المصدر، قد أوقعه فى ورطة، أدت إلى الحكم عليه بالحبس -مع الشغل- لمدة ثلاثة شهور فى عام ١٩١٣، لشرائه كردانا وخاتم ذهب، مع علمه بسرقتهما، إلا أنه لم يستطع أن يقاوم رغبته فى شراء هذا النوع من المصوغات، الذى كان ينتهز الفرصة فيبخس ثمنه، إلى النصف أو أقل من النصف، لكنه لم يقصر فى اتخاذ إجراءات الأمن التى تحول دون وقوعه فى ورطة أخرى، فكان يتخلص من تلك المصوغات المسروقة بمجرد وصولها إلى يده، بأن يبيعها إلى غيره، أو يقوم بتحطيمها ثم صهرها فتتحول إلى أشكال أخرى، فيستحيل على أصحابها التعرف عليها، أو اتخاذها دليلا على إدانته.

وكان النظام المتبع فى الصاغة. منذ عام ١٩١٣. يقضى بوجود مجموعة من الوزانين. يتخذون لهم مكانا فى أحد أركانها، ويعملون تحت إشراف شيخ لهم، يقومون بوزن المصوغات التى يشتريها الزبائن، أو يعرضونها للبيع، ويسجلون -فى دفاتر رسمية معتمدة بخاتم المحافظة التى كانت بمثابة رئاستهم العليا- اسم كل من البائع والمشترى ومواصفات المصاغ، ويقدرون ثمنه طبقا لأسعار سوق الذهب فى ذلك اليوم، ثم يعطون الزبون صورة رسمية معتمدة من تلك البيانات تعرف بـ «علم خبر عن الوزن» يتعامل بها مع الصائغ فى تقدير الثمن، وتعتبر سندا للملكية مع فاتورة الشراء أو بدونها..

أما وقد رفضت «ريا» أن تزن المصاغ الذى تعرضه للبيع لدى شيخ الوزانين، وأن تحصل على «علم وزن» بثمنه الحقيقى، ووافقت على أن يزنه الصائغ على ميزانه وفى دكانه، وأن يقدر ثمنه بنفسه، من دون أن تساورها الشكوك فى أنه قد يغشها فى الميزان أو يبخسها حقها فى تقدير الثمن، فإن «على» لم يخدع بكلماتها المعسولة، التى حاولت بها أن توهمه بأنها تفعل ذلك ثقة منها فى ذمته، بل أدرك على الفور أن الزبونة قد سرقت المصوغات التى تعرضها عليه، وأنها تخشى أن تسجل مواصفاتها



حنفية ... مركز توزيع الغنائم..

فى السجل الرسمى، حتى لاتتجه نحوها الشبهات، إذا ما أبلغت صاحبتها الشرطة عن سرقتها، فقامت بالبحث فى دفاتر الوزانين عمن باع مصاغا بنفس الوزن والمواصفات..

وهكذا وزن «على» مصاغ «خضرة»، وقدر ثمنه بثمانية عشر جنيها، تكاد تكون أقل من نصف ثمنه الحقيقى، إذ كانت قد اشترت زوج المباريم وحده - طبقا لفاتورة قدمها ابناؤها فيما بعد - بما يقرب من اثنين وثلاثين من الجنيهات، ولم يكن قد مضى على شرائها له، سوى شهرين وعدّة أيام، فقد اشترته فى ١٥ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٩، وهو ما يعنى أنه كان ما يزال جديداً، ولم يكن ثمن الذهب قد انخفض بنسبة تهبط بثمنه إلى تلك الدرجة .. ولم يدهش «على» حين قبلت «ريا» تقديره، ولم تناقشه فيه، ولم تلتفت إلى كلمات الاعتراض التى همست بها فى أذنها المرأة التى كانت تصحبها والتى ظلت صامتة طوال الوقت، بل مدّت كفها إليه، وتناولت منه النقود بسرعة، فوضعتها فى نفس المنديل الذى كانت تحفظ فيه المصوغات، ودستها فى صدرها، ثم انصرفت مع زميلتها التى كانت تتوكأ على كتفها بسرعة لافتة للنظر.

ومع أن الاتفاق كان قد تم بينهم على أن تعود الشقيقتان بالنقود، إلى بيت «ريا» بـ «حارة على بك الكبير» لتجدا الرجال فى انتظارهما .. إلا أنهما ما كادتا تدلفان من الصاغة وتقتربان من الحنفية العمومية التى كانت بلدية الاسكندرية قد أقامتها لتوزيع المياه النقية على فقراء الاسكندرية بالمجان .. حتى فوجئتا بالرجال الأربعة يجلسون أمام «مقهى الصاوى» المواجه لها، وما إن وصلتا إلى «حنفية الصدقة» حتى أحاطوا بهما، وسألوهما همساً عن الثمن الذى باعتا به المصاغ، وتناوله «حسب الله» من زوجته، فأحصاه، ثم أعطى «سكينة» نصيبها، وقال لزوجته:

أنا ح أبقى أحاسبك بعدين.

وانصرفت الاثنتان. وعاد الرجال الأربعة إلى المقهى ليقتسموا الثمن طبقا للقاعدة التى كانوا قد اتفقوا عليها، وهو تجزئة الغنائم إلى ستة أنصبة متساوية، دون تمييز بين رجل وامرأة، أو بين من اشترك فى القتل والدفن، ومن اقتصر دوره، على مجرد سحب الضحية.

وينفرد «عبدالعال» بين جميع الرواة، بالقول بأن مصاغ «خضرة» كان يقتصر على زوج المباريم، وبأنه بيع بثمن يصل إلى ثمانية وعشرين جنيها، كان نصيبه فيها - الذى يوازى السدس - أربعة جنيهات ونصف، وينكر اتفاق أقوالهم جميعاً على أنها كانت تتزين كذلك بـ «حلق» وهى رواية لايمكن الأخذ بها، لأن معنى ذلك أن «على الصائغ» قد اشترى زوج المباريم بما يقترب من ثمنه الحقيقى .. لكنها قد تكون دليلاً على صحة أقوال ابنى «خضرة»، اللذين أصرا على أنها اقترضت من زوجة ابنها قبل خروجها فى ذلك اليوم، «لبة» - أى كردانا - لم يرد لها ذكر فى إحصاء الغنائم، وقد يكون الفارق بين ثمن البيع الذى ذكره الجميع، والثمن الذى ذكره «عبدالعال»هو ثمن بيع تلك «اللبة» التى تجاهلوا جميعا وجودها.

وقد ثبت فيما بعد، أن الدقة فى إحصاء الغنائم والعدل فى توزيعها، لم تكن من فضائل العصابة، فعلى الرغم من أنهم كانوا قد تعاهدوا على أن يقتسموا الغنائم بالتساوى، وأن يحتفظوا حتى للغائب الذى تحول ظروفه دون المشاركة فى التنفيذ، بنصيبه، إلا أن كل الدلائل تدل على أن المنفذين الأساسيين - وهم الرجال الأربعة- كانوا يخفون بعض الغنائم ويقتسمونها فيما بينهم من دون علم المرأتين. فقد اختفى المبلغ النقدى الذى كانت «خضرة» تحمله معها فى ذلك اليوم واستبعد من القسمة العامة. وفضلا عن أن «حسب الله» كان يحصل عادة على نصيب «ريا» واعدا إياها بأنه سوف يحاسبها، من دون أن يفعل، فإن نصيب «سكينة» من غنائم الضحية الأولى لم يزد على ثلاثة جنيهات.. ولعلها تكون قد حصلت على الفارق فى صورة غنائم عينية، إذ كان الاتفاق بينهم قد تم على أساس اعتبار الملابس التى ترتديها الضحايا، من بين الغنائم التى تجرى عليها القسمة.. وقد ذكر «عبدالعال» أن «خضرة» كانت ترتدى جلبابا من التيل الأسود، وملاءة كريشة سوداء، وثبت فيما بعد أن «سكينة» هى التى حصلت عليهما، فضلا عن الخلخال الذى كان يحيط كاحلى قدمى «خضرة»، وقد رفض الصائغ أن يشتريه، فاحتفظت به «سكينة» ثم أهدته فى نوبة كرم وأريحية، كانت خلالها تحت تأثير الخمر، إلى «أمينة بنت منصور» فكاد ذلك يقودها إلى حبل المشنقة.

وربما يكون الأسلوب الذى بددت به «سكينة» نصيبها من الغنيمة، نموذجا لأسلوب الجميع فى إنفاق ما كانوا يحصلون عليه من ضحاياهم التعيسات، إذ كان التخلص من الآلام الممضة التى تكاد تعجزها عن السير، هو أول ما سعت لتحقيقه بعد أن فشلت كل محاولاتها السابقة للعلاج بسبب عجزها عن تدبير نفقاته، فما كادت تعود إلى البيت حتى أرسلت فى استدعاء حلاق الصحة، وما كاد يدرك أنها على استعداد للإنفاق على العلاج حتى استأنفه بنشاط، وأصبح يتردد عليها كل يوم ليتابع الحالة التى كانت فيما يبدو معقدة، حتى استطاعت بعد شهر كامل أن تعود للمشى على قدميها، ولم تحزن كثيرا حين اكتشفت أن نفقات العلاج قد التهمت الجانب الأكبر من الأجر الذى حصلت عليه، مقابل اشتراكها فى قتل «خضرة» فلم يتبق منه، إلا ما يكفى لمسرات قليلة، كان من بينها أنها احتست - لأول مرة منذ فترة ليست قليلة- عدّة كؤوس من النبيذ غير المغشوش، وبرّت نفسها بعدة أزواج من الدجاج، الذى كانت تفضله على اللحوم والأسماك..

والحقيقة أن مقتل «خضرة محمد اللامى» قد مضى من دون أن يثير أية ضجة، أو يجلب ما يدعو للخوف أو القلق، أو ما يجبر العصابة على التوقف عن النشاط، أو يدعوها لمزيد من الحيطة عند اختيار الضحايا أو تنفيذ القتل، بل إن أبناءها لم يتنبهوا إلى أهمية أن يبلغوا الشرطة بغيابها إلا بعد مرور اثنى عشر يوما على اختفائها وقتلها، إذ كانوا قد

تعودوا على مبيتها -فى بعض الليالى- خارج المنزل، كانت تدعى بأنها تقضيها فى المقابر إلى جوار الأعزاء الراحلين، أو لدى أصهارهم فى بيت الصابونجية.

وعندما طال الغياب، أبلغ ابنها «عبدالمطلب» قسم شرطة اللبان عن غيابها فى الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم الجمعة ٢ يناير (كانون الثانى) ١٩٢٠، فحرر الصول - المساعد - «محمد المصرى» -ضابط نوبتجى القسم فى ذلك اليوم- محضرا بأقواله ذكر فيه الابن أن والدته قد غادرت منزلها فى «المسكوبية» منذ اثنى عشر يوما، ولم تعد، وأنه بحث عنها كثيرا فلم يعثر عليها. وردا على الأسئلة التقليدية التى وجهها إليه الصول لكى يستكمل محضره طبقا للتعليمات، قال «عبدالمطلب» إنه ليس له ولا لأمه أعداء، وأنه لا يشك فى أن هناك «شىء بطال» وراء غيابها، وأنه لا يعتقد أنها قد سافرت إلى أى جهة، إذ ليس لهم أقارب أو معارف فى أى مكانٌ غير الإسكندرية..

ويلفت النظر فى هذا المحضر، أن «عبدالمطلب» قد ذكر أن أمه غادرت المنزل فى يوم اختفائها إلى الجبانة لتزور الأموات، وهو سبب لم يذكره فيما بعد عند العثور على جثتها، فضلا عن أنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى ما كانت تتزين به من مصاغ أو تحمله من نقود، واكتفى -حين سأله الصول عن أوصافها- بذكر ما كانت ترتديه من ملابس، مما يؤكد أنه كانّ خالى الذهن تماما عن أية شكوك فى أن يكون هناك «شىء بطال» وراء اختفائها.. ولابد أن ذلك قد أسعد الصول «محمد المصرى» المكدود بالعمل، فاتبع الإجراءات الروتينية التى تعودت أقسام الشرطة أن تتبعها فى البلاغات المماثلة، وأخطر محافظة الإسكندرية بصورة من المحضر، لكى تنشر إعلانا عن غيابها، يتضمن اسمها وسنها وأوصافها، فى القسم الخاص بالغائبين من النشرة الجنائية، التى تصدرها وزارة الداخلية، وتوزع على مراكز وأقسام الشرطة فى جميع أنحاء البلاد، لكى يقوم كل منها بالبحث عنها، أو الإبلاغ عن وجودها إذا عثر عليها صدفة، ونبه على «عبدالمطلب» -كما دون فى نهاية المحضر- بأن يحضر إلى القسم عند عودة والدته للإبلاغ عن ذلك، ثم أقفل المحضر، وعرضه على مأمور القسم، الذى أرسله -فى ٨ يناير (كانون الثانى) ١٩٢٠- إلى وكيل نيابة اللبان الجزئية، وبعد أربعة أيام أعاده وكيل النيابة مرة أخرى، بعد أن أشر عليه بعبارة تقول «يعاد للقسم مرة أخرى لاستمرار البحث والتحرى عن الغائبة وإفادتنا بالنتيجة».

وبعد خمسة أسابيع أخرى -وفى ٢٣ فبراير (شباط) ١٩٢٠- نجد على المحضر ثلاثة تأشيرات، تدل على مدى الاستهتار وعدم الاعتناء الذى تعامل به الجميع مع الواقعة، الأولى بختم شيخ الحارة تقول «المذكورة لم تعد لمنزلها للآن».. والثانية بتوقيع البوليس السرى -أو المخبر- «حسن خليل» تقول «بالبحث عنها لم يستدل عليها».. والثالثة بتوقيع مأمور قسم شرطة اللبان تقول «يحفظ».

وفى ذلك التاريخ.. كان عدد الذين انضموا إلى «خضرة محمد اللامى» فى مقبرتها تحت الصندرة التى تنام عليها «ريا» و«حسب الله» قد ارتفع إلى خمس نساء.



وقد يبدو اختيار «نظلة أبو الليل» لتكون الضحية الثانية، فى قائمة القتل، باعثا على شيء من الدهشة، إذ كانت على علاقة صداقة وثيقة بكل أفراد عصابة «ريا» و«سكينة» وفيما عدا «عبدالرازق» الذى لم تتعرف به إلا عندما تعرفوا عليه جميعا قبل شهور قليلة، فقد كانت علاقتها بالآخرين تعود إلى سنوات ثلاث حين اصطحبها رفيقها «عرابى» إلى بيت «ريا» لأول مرة.. فمنذ ذلك الحين، وهى تتردد بانتظام وبشكل يكاد يوميا، على البيوت التى يتنقل بينها «آل همام».. وهو ما اعترفت به «ريا» التى قالت إن الفتاة كانت شديدة التعلق بها، وأنها كانت تمضى معظم أوقاتها معها، بل إنها انتقلت للإقامة معها فى أحد المنازل التى كانت تسكنها لمدة شهور متصلة.. وأضافت أنها كانت تعاملها باعتبارها ابنتها، إلى الحد الذى كانت فيه تنام معها ومع زوجها «حسب الله» وابنتهما «بديعة» فى حجرة واحدة فى بعض الليالى!

وفضلا عن ذلك فقد كانت «نظلة» الرفيقة المفضلة لـ«عرابى حسان» ـ حامى البيت وفتوته وأهم أركان العصابة ـ طوال سبع سنوات، لم تتقطع خلالها علاقتهما، على الرغم مما كان يشوبها أحيانا من فتور.

ومع أن ظواهر الأمور كانت توحى بأن وفاة «إبراهيم سعيد» -الزوج الثانى لـ «نظلة»- سوف تحدث انقلابا فى علاقتهما قد ينقلها من مستوى «الرفق» إلى مستوى «الزواج الشرعى»، إلاّ أن بواطن هذه الأمور ذاتها، كشفت عن انقلاب مفاجئ فى عواطف «عرابى» تجاهها، دفعته - طبقا لما ذكرته «سكينة» فيما بعد- لأن «يعطى الرموز لقتل نظلة».

والغالب أن «عرابى» قد اكتشف - آنذاك- ما ظل غائبا عنه طوال سنوات، وعرف -بالمصادفة أو بوشاية مقصودة -أن «نظلة» لم تكن مخلصة له كما كان يتوهم، ولم تكن متبتلة فى حبه كما كان يظن، وأنها كانت تبادله خديعة بخديعة، وخيانة بخيانة، فسمحت لنفسها -وهى رفيقته- بأن تضاجع رجالا آخرين، سواء فى الفترات التى كان يسافر فيها للشغل فى السلطة، أو حين يكون بالإسكندرية، بل وكانت تفعل ذلك أحيانا فى الغرفة المجاورة، للغرفة التى كان يختلى فيها بغيرها من النساء، فى «بيت الكامب» وما سبقه وما تلاه من بيوت «آل همام».

ومع أن أحدا من «آل همام» لم تكن له مصلحة فى استفزاز «عرابى» بنقل هذه المعلومات إليه، خاصة وأنهم كانوا جميعا متورطين فى تحريضها على خيانته، ومتواطئين معها على خديعته، لكى يربحوا من وراء ضمها إلى فريق النساء اللواتى كانوا يقدمونهن لرواد بيوتهن.. إلا أنهم قد استفادوا فى الغالب من ثورة «عرابى» العنيفة عليها، حين علم بأنها قد خانته مع «عبدالرحيم الشريتلى» -منافسه القديم

على قلبها - فسافرت إلى القاهرة، وأقامت لمدة ستة شهور فى شقة استأجرها لها، وأخذ يتردد عليها فيها، فيقيم معها لفترات ليست قصيرة، زاعما أمام زوجته أنه يسافر إلى قريته فى الصعيد، لكى يزور زوجته الأولى وأم أولاده، ويشترى الحبوب والمسلى والعسل وغيرها مما كان يتاجر فيه خلال موسم الشتاء، فلم يجد «آل همام» آنذاك بأسا من أن يزيدوا ناره اشتعالا فيضيفوا إلى سجل خيانة «نظلة» ما كانوا يعرفونه، بل ويدفعونها إليه من سلوك، بعد أن يصوروه على نحو يبعدهم عن المساءلة، ويخرجهم عن نطاق ثورته.

وإذا لم تكن قصة اكتشاف «عرابى» لخيانة «نظلة» -التى انفرد «حسب الله» بروايتها، ولم يؤيدها مصدر آخر - هى الدافع وراء اعطائه الرموز لقتلها، فمن المؤكد أن عواطفه نحوها كانت قد خمدت تماما قبل أن يعطى تلك الرموز بوقت طويل، ولأسباب مختلفة، قد تكون الخيانة الحقيقية أو المتوهمة من بينها، وقد ذكر هو نفسه، أنه بدأ يفقد اهتمامه بها منذ انتقلت إليها -من زوجها المريض- العدوى، مما أدى إلى سقوط شعرها وتغير شكلها، على نحو جعله ينفر عنها، ويقطع علاقته بها..

والحقيقة أن عواطف الصداقة والمعرفة واحترام علاقات العيش والملح، لم تكن من بين الصفات الأخلاقية التى يتمتع بها، أو يتمسك بها أفراد العصابة، بل لعلها كانت من أهم المبررات لترشيح الضحية للانضمام إلى قائمة القتل، ذلك أن المخطط الرئيسى للعمليات كان يشترط فى الضحية، أن تكون ممن يثقن فيهم، ويأمن إليهم، ويترددن على بيوتهم، وهو ما كانت «نظلة» تتصف به، على نحو ربما يتسم بالمبالغة الشديدة، أما الأهم من ذلك فهو أنها قد استطاعت على مدى السنوات التى كانت تجمع فيها بين العمل فى البغاء السرى والعمل فى حياكة الملابس أن تدخر ما مكنها من أن تقتنى ثمانية غوايش وحلقا وخاتما من الذهب، فضلا عن خلخال ودلايتين من الفضة.

وكان ذلك كله كافيا لكى تحتل المرتبة الثانية فى قائمة القتل.

فى تلك الأثناء كانت «نظلة» قد عادت لتقيم مرة أخرى فى «جنينة العيونى» التى كانت قد غادرتها بعد وفاة زوجها لتقيم مع أمها فى «باب سدرة» . لكن الإقامة مع الأم لم تطب لها بسبب كثرة تدخلها فى شئونها، واعتراضها المتواصل على غيابها الطويل خارج المنزل، فلم تمكث معها سوى أسابيع قليلة، غادرت «باب سدرة» بعدها إلى نفس المنطقة التى كانت تسكن فيها مع زوجها، وإلى منزل يواجه منزل «توتة» الذى كانت تقيم بغرفة منه قبل رحيله عن الدنيا.

ولعل ذلك كان من بين العوامل التى دفعت كثيرين للشك بأنها كانت على علاقة غرامية بـ «عبدالرحيم الشريتلى» . زوج «توتة» . وللجزم بأنها اختارت السكن فى هذا المنزل لتكون قريبة منه، وفى متناول يده .. والواقع أن المنزل كان يبدو مكاناً

مثالياً يصلح للقاء العاشقين، ففضلاً عن قربه الشديد من منزل العاشق، فقد كان يكاد يخلو من المتطفلين، إذ كان يتكون من طابق واحد يضم ثلاث غرف تسكن «نظلة» فى إحداها، وتسكن فى الثانية سيدة صعيدية غير متزوجة، كانت تخرج من المنزل فى الصباح المبكر، إلى بيت بعض أقاربها، فلا تعود إليه إلا فى وقت متأخر من الليل، وهو ما كانت تفعله الجارة الثالثة، أما صاحبة البيت «ستيتة أم محمد» ـ التى كانت تقيم فى غرفه فوق سطحه ـ فقد كانت تعمل دلالة، وتمضى ساعات اليوم فى التردد بين الأسواق، وبين بيوت عميلاتها .. وهو مايجعل تسلل «عبدالرحيم» إليه فى أية ساعة من ساعات النهار والليل ممكنا، وبعيداً عن أى مخاطرة تفضحه أمام زوجته التى كانت تلعب دوراً هاماً فى حياته، بحكم أنها كانت أكثر منه ثراء.

وسواء صحت هذه الشكوك أو لم تصح، فإن «توتة» لم تلاحظ على سلوك زوجها مايدعوها إلى الاسترابة فى أن هناك علاقة خفية بينه وبين غيرها، سواء خلال الفترة التى كانت «نظلة» تقيم فى بيتها، أو عندما عادت لتقيم فى المنزل المواجه له، بعد ترملها بشهور .. ومع أنها كانت تعرف ـ من زوجها ـ بأنه شرع فى الزواج من «نظلة» بعد طلاقها من زوجها الأول، وقبل زواجه بها، فقد اعتبرت ذلك ماضياً لايثير الاهتمام، بعد أن فضلت «نظلة» الزواج من «ابراهيم سعيد» وفضل «عبدالرحيم» الاقتران بها.

وكانت «زينب بنت حسن» ـ والدة «نظلة» هى أكثر الجميع ضيقاً باصرار ابنتها على أن تستقل عنها بمسكن خاص بعد ترملها، إذ كانت تعتقد أن اقامتها معها، أصون لها، وأدعى لأن تفتح أمامها باب الأمل فى العثور على زوج ثالث، تعيش فى كنفه، وتحت حمايته .. وتخشى أن تغريها اقامتها فى بيت مستقل على أن تتمادى فى سلوكها مع الرجال، على نحو يسىء إلى سمعتها، ويفقدها نهائياً فرصة الزواج من جديد. والغالب أن «نظلة» لم تكن تشارك أمها تفاؤلها، وأنها كانت تعرف أنها استنفدت فرصتها فى الزواج، خاصة بعد أن تزوجت مرتين ولم تنجب أطفالاً .. لكن الأم لم تكن تعتبر ذلك عقبة تحول دون زواجها من جديد، فقد يغرى شبابها أرملاً أو مطلقاً لديه أولاد، بالزواج منها .. وفضلاً عن أنها كانت صاحبة مهنة تكسب منها الكثير، فقد كانت كذلك صاحبة مصاغ يغرى كثيرين.

وكانت الرغبة فى وجود مكان مناسب، تمارس فيه مهنتها كخياطة، وتستقبل فيه زبوناتها، أحد أهم الأسباب التى دفعت «نظلة» إلى الاستقلال بمسكن خاص، كما كان الخوف على ما تحمله من مصاغ أحد أهم أسباب معارضة الأم فى ذلك، فقد كانت تدرك أن ابنتها فتاة هوائية متقلبة المزاج، يسهل خداعها، لذلك كانت تخشى دائماً من أن تقع بين براثن رجل يستولى على تلك المصوغات .. والحقيقة أن الأم كانت شديدة التعلق بابنتها، بالغة التعاسة بسبب مالقيته فى حياتها من عثرات،



أحياء الإسكندرية الشعبية كما رسمها الفنانون المصاحبون للحملة الإنجليزية ١٨٨٢.

دائمة القلق على ماينتظرها بعد أن تغادر هى الدنيا وتتركها فيها وحيدة، بلا أب ولا أخ.. وبلا خال أو عم .. فكانت تحرص على أن تراها كل يوم، فإذا لم تزرها «نظلة» عرجت عليها فى منزلها لتتفقد أحوالها..

وفى واحدة من تلك الزيارات كانت «زينب» تساعد ابنتها فى تنظيف الحجرة التى تقيم فيها، عندما عثرت فى أحد أركانها على صينية من الخشب والبلاستيك لم تكن قد رأتها قبل ذلك، فلما سألت «نظلة» عنها، قالت لها إنها صينية «ريا» وأنها تطوعت بأن ترسلها لخواجا تعرفه، ليقوم بإصلاحها وإعادة طلائها.. ولأن الأم لم تكن تستريح لعلاقة ابنتها بـ «ريا». التى لم تكن تجهل مهنتها. فقد قالت لابنتها:

ـ أنا خايفه عليكى من المرة دى تخسرك !

وارادت «نظلة» أن تسد باب المناقشة.. فقالت:

ـ ماتخافيش .. أنا مش هبلة..

ولم يكن قد مضى على مقتل «خضرة» سوى أقل من أسبوعين، حين اكتشف الرجال أن نصيب كل منهم من ثمن بيع مصوغاتها قد نفد، وأن جيوبهم قد خلت مرة أخرى من النقود، فاستجابوا بحماس لاقتراح «عرابى» بقتل «نظلة»، واعتبروا ذلك جزاءً عادلاً تستحقه لخلاعتها، وعملاً من أعمال الجدعنة يقومون به لحساب صديقهم، انتقاماً من رفيقته التى خانته ونكثت بعهده.

.. وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة من صباح يوم الأحد ٤ يناير (كانون الثانى) ١٩٢٠، حين غادرت «سكينة»

منزلهـا فى «حـارة النجـاة» إلى منزل شقيقتها بـ«حارة على بك الكبير» ، ولم تكن رؤية شقيقتها هى التى دفعتها إلى تكبد مشاق قطع المسافة بين البيتين سيراً على الأقدام، إذ لم يكن قد تبقى سوى وقت قليل على انتقال «ريا» إلى «حارة النجاة» لتتابع العمل فى المحششة وبيت البغاء، لكن حلاق الصحة كان قد نصحها بأن تدرب أقدامها على السير، لتستعيد مرونة عضلاتها، بعد أن أوشك الخراج الذى كان قد أصابها فى القدم اليسرى على الاندمال.. فـفـضلت أن تمضى إلى بيت «ريا»، ثم تعود معها ـ على الأقدام كذلك ـ إلى «حارة النجاة».

فى مدخل الحارة، وتحت فانوس غاز الاستصباح الذى يضيئها فى الليل، كان «محمد عوف» يجلس أمام القفص المقلوب الذى اتخذ منه منضدة يعرض عليها بضاعته من القصب والبرتقال وقطع الحلوى، ويهش بعصاه على عدد من الأطفال كانوا يلعبون فى نهر الحارة، حتى لايصطدم أحدهم أثناء هروبه من مطاردة الآخرين، بالمنضدة فيضيع مجهوده فى تنسيق البضاعة .. ولأن الرجل كان طاعناً فى السن ولايكاد يرى، فقد تجاهلته «سكينة» وهمت بدخول منزل شقيقتها، حين ظهرت فجأة زوجته «فاطمة» على باب البيت المقابل الذى تقطن فيه مع زوجها، لتحييها وتسألها عن صحتها .. وكانتا ماتزالان تتبادلان الحديث، حين خرج «حسب الله» من باب بيته، فألقى عليهما تحية مقتضبة، بطريقة جعلت «سكينة» تدرك أنه ليس فى أحسن أحواله.. وأسرعت ابنته «بديعة» ـ التى كانت تلعب مع بقية الأطفال ـ خلفه، تطلب إليه أن يعطيها مليمين لكى تشترى قطعة من الحلوى من «عم عوف» فنهرها بضيق، وصاح فى وجهها : إمشى يابنت الكلب.

وكانت «ريا» قد أشعلت موقد النفط، ووضعت فوقه صفيحة ملأتها إلى نصفها بالماء .. وجلست أمام طشت تغسل فيه ملابسها وملابس زوجها وابنتها، حين دخلت سكينة لتجلس على مقربة منها، فوق الحصيرة، وتمد ساقيها إلى الأمام لكى تريحهما من المشى، ثم تفك رباط الشاش الذى يحيط بالقدم المصابة، وتدفع به إلى شقيقتها لتغسله، لكى يكون نظيفاً حين يأتى حلاق الصحة فى الغد ليعاين الجرح، ويضع عليه طبقة جديدة من مرهم الأكتيول.

ولم يكن قد مضى وقت طويل على وصول «حسب الله» إلى المقهى، حين ظهر «عبدالرازق» ثم تبعه «عرابى» وعندما مر الوقت من دون أن يظهر «عبدالعال» ـ الذى كان مايزال يقيم بمنزل شقيقه فى «غيط العنب» ـ غادر الثلاثة المقهى إلى «وابور خوريمى» ـ حيث كان يعمل أيامها ـ وأرسلوا له رسالة مع أحد خفراء المحلج، بأنهم يريدونه فى أمر هام .. وجاءهم الرد مع الرسول بأنه أوشك على الانتهاء من عمله، ولم يبق أمامه سوى عشرين بالة، سوف يقوم بتحزيمها ثم يلحق بهم على المقهى المواجه للوابور.

وكانت الساعة قد اقتربت من الواحدة

ظهراً، حين انضم إليهم «عبدالعال» ليعرف بأنهم قد حددوا اليوم موعداً لقتل «نظلة أبو الليل» واتخذوا الترتيبات لاستدراجها، وأنهم سيجدونها فى بيت على بك الكبير، عند عودتهم إليه.. وفيما بعد، زعم «محمد عبدالعال» أنه تردد فى الموافقة وحاول أن يثنيهم عن موقفهم، فغضبوا منه وأنبوه.. بل وهددوه، وكان من بين ماقالوه له «إحنا دكينا خالص»، أى افتقرنا تماماً، ولم يعد معنا نقود.

أما المؤكد فهو أنه، قد صحبهم إلى البيت.

وعند الظهر كانت «ريا» قد انتهت من غسيلها، وقامت بنشره فوق سطح المنزل عبر السلم الخارجى، الذى يقود إليه.. وقبل أن تعود إلى غرفتها نادت على ابنتها «بديعة» - التى كانت ماتزال تلعب فى الحارة - فلما لحقت بها، طلبت إليها بصوت خافت أن تذهب إلى بيت «نظلة» القريب، لتبلغها بأن تمر على أمها، ومعها الصينية التى أخذتها منها لتصلحها وتعيد طلاءها.. وأن تمر فى طريق عودتها على أبيها فى المقهى الذى يقع على رأس الحارة، لتبلغه بما تقوله لها «نظلة». ولم تعلق «سكينة» التى تابعت الحوار من مجلسها على الحصيرة، بشىء على ماسمعته، لكنها أدركت أن تنفيذ «الرموز» التى كان يعطيها «عرابى» لقتل «نظلة» سوف يتم فى هذا اليوم، ولم يتطرق الحديث- الذى تواصل بعد ذلك بينها وبين شقيقتها- إلى الموضوع من قريب أو بعيد..

وشاء سوء الحظ، أن تختار «نظلة أبو الليل»، اليوم نفسه، لكى تغسل ملابسها، وتغمر بعض قطع القماش التى تركتها لديها زبوناتها فى الماء البارد، لتتكمش فتضمن دقة المقاسات لدى تفصيلها. وكانت تقف فوق سطح المنزل لتنشر هذه القطع، قبل أن تعود لاستئناف العمل، حين وصلت «بديعة» لتسأل عنها، فنادتها جارتها «بخيتة» ثم عادت إلى حجرتها، لتستمع إلى الحوار الذى دار بين «نظلة» وبين الطفلة - التى لم تكن تعرفها - عبر بئر السلم... قالت «بديعة»:

- أمى بتقول لك هاتى الصينية وتعالى.

فردت عليها قائلة:

- قولى لها أنا مش فاضية.. والصينية لسه عند الخواجه..

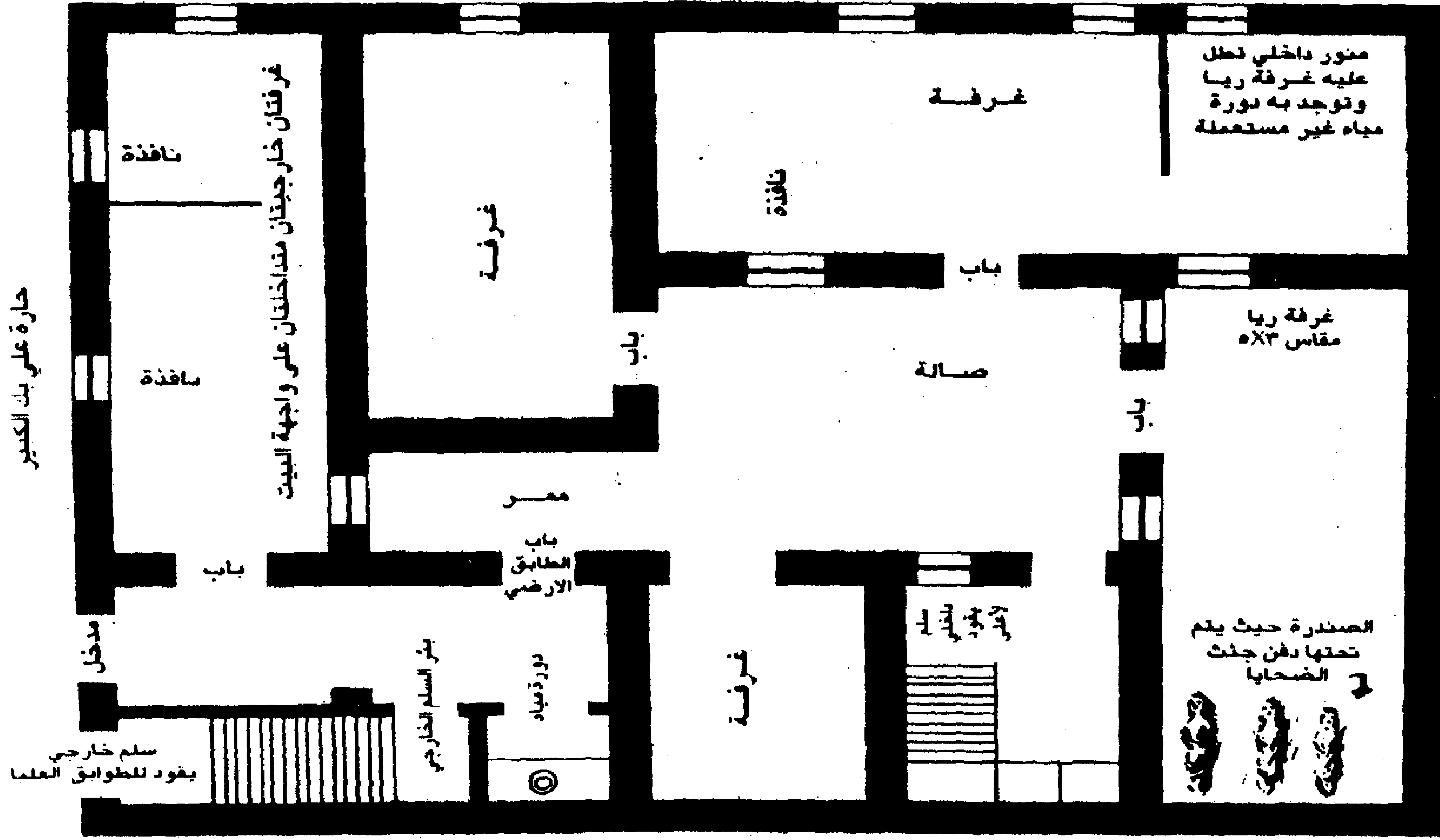
ولأن «بديعة» - ككل الاطفال - كانت تجد متعة خاصة فى مشاغبة الكبار ومعاندتهم، فقد تصرفت من تلقاء نفسها فى النص الرسمى للرسالة التى طلبت منها أمها... وقالت لها:

- احنا مانعرفش خواجا.. لازم تجيبى الصينية.

وضاقت «نظلة» ذرعا بالفتاة وأمها فصاحت فيها قائلة:

- ملعون أبوكى ... وأبو أمك... وأبو الصينية كمان.

وانطلقت «بديعة» تجرى وهى تشعر بسعادة بالغة لأنها استفزت «نظلة» وبسعادة اكثر، لأنها سوف تقوم بنقل شتائمها لأبيها الذى لم يكن يكف عن شتمها وضربها ويرفض أن يعطيها مليما



رسم تخطيطي للطابق الأرضي من المنزل رقم ٣٨ بحارة علي بك الكبير الذي كانت ريا تقيم مع حسب الله في إحدى حجرات الطابق الأرضي منذ شهر نوفمبر ١٩١٨، وفي تلك الحجرة جرت ١٢ جريمة قتل.. وتم دفن الضحايا في أرض الغرفة نفسها.. الرسم قام بإعداده أحد مهندسي بلدية الإسكندرية بناء على تكليف من النيابة العامة

لكى تشترى به حلوى أو عقلة من القصب من «عوف» العجوز.. ومع أنها لم تجده على المقهى، فقد كانت بهجتها غامرة، وهى تنقل الشتائم إلى أمها، ثم تعود لتواصل لعبها فى الحارة.

ومع أن تطاول «نظلة» قد استفز «ريا» بعض الشىء، إلا أنها لم تهتم بالشتائم، قدر اهتمامها بالحظ السيء الذى قضى بألا تشغل الضحية بالغسيل إلا فى اليوم المحدد للتنفيذ، وألا تعثر «بديعة» على أبيها فى المقهى لتبلغه بذلك فيخطر الرجال بتأجيله إلى موعد اكثر ملاءمة، ولأنها كانت المسؤولة وحدها عن سحب الضحايا، من دون مشاركة حتى من «سكينة» التى كانت تحصل على نصيبها - حتى ذلك الحين- ثمنا لسكوتها، ورغبة فى توريطها، فقد أخذت تقدح ذهنها بحثا عن حيلة أخرى تسحب بها «نظلة» إلى المنزل.

ولم تكن قد توصلت إلى شىء، حين فوجئت بدخول «حسب الله» و «محمد عبد العال» معا.. وانتهزت «ريا» فرصة انشغال الاخير بالحديث مع «سكينة»، لتهمس فى أذن زوجها بالموقف الذى أسفرت عنه محاولتها لاستدراج الضحية، وما كاد يسمع ذلك حتى غادر المنزل على الفور، ليعود إلى المقهى فيخطر «عرابى» و«عبد الرازق» بالامر، فقد باتا حريصين، منذ مقتل «خضرة»، على الا يظهرا علنا فى بيت «ريا» على عكس ماكانا يفعلان قبل ذلك، إذ كانا وجهين معروفين فى الحى، باعتبارهما من فتواته، وكان الاتفاق بين الرجال الاربعة، قد انعقد على أن يتقدم «عبد العال» و«حسب الله»، ثم يتسلل الآخران، كل على حدة، حتى لايلفت دخول أربعتهم المنزل معا انتباه أحد، وحتى لايتعرف أحد على الفتوتين اللذين كانا- بحكم خبراتهما السابقة- اكثر حذرا من الآخرين.

ويبدو أن «عرابى» كان شديد الغضب على «نظلة»، واللهفة على التخلص منها... إذ لم يستغرق الامر منه تفكيرا طويلا، حسم بعده المناقشة، وقرر الاستمرار بالتنفيذ، وتعهد بأن يقوم بنفسه، باستدراج «نظلة». وعلى أثر ذلك عاد «حسب الله» إلى بيته.. وبعد قليل لحق به «عبد الرازق» الذى ماكاد يقترب من البيت، حتى تظاهر بمسح وجهه بكم جلبابه، حتى لايراه «عوف العجوز»، مع أنه كان يعلم أن الرجل، فضلا عن ضعف بصره، كان يغفو كثيرا فى جلسته، تحت وطأة الشيخوخة والملل.

وعلى الرغم من لهفته الشديدة على التنفيذ، فإن «عرابى» لم يغامر بالدخول إلى بيت «نظلة»، وظل يرصده من بعيد حتى لاحت له فرصة للتسلل من دون أن يتنبه إليه أحد.. وفوجئت «نظلة» به يقف على باب غرفتها، فأشارت باصبعها إلى غرفة «بخيتة»، التى كانت قد عادت إليها وأغلقت بابها، عليها لتحذره من رفع صوته. وكان ذلك هو مايتمناه، فهمس لها بسرعة، بأنه ينتظرها فى بيت «ريا»، وهمست له بأنها سوف تمر عليه وهى فى طريقها إلى «زنقة اليهود». القريبة من «حارة على بك الكبير» - لتشترى بعض ماتحتاجه من «كُلَف»

للملابس التى تقوم بتفصيلها بمجرد انتهائها مما بيدها... وتوقيا لاحتمال أن تكون «بخيتة» قد سمعت صوت قدميه أو طرقاته على باب الغرفة، فقد رفعت صوتها، وتظاهرت بأنها تخاطب امرأة.. وقالت:

- طيب يا أختى.. قولى لها إن إحنا ح نفوتوا عليها بعد شوية.

وكانت هذه العبارة التى نقلتها «بخيتة» إلى «أم نظلة»، هى التى جعلت الأم - فيما بعد - تستريب بقوة، فى أن هذه المرأة هى «ريا» وتجزم بأن لها دورا فى اختفاء ابنتها..

ولابد أن «عرابى» لم يكن واثقا تماما بأن «نظلة» سوف تفى بوعدها، إذ ما كاد يتسلل إلى «بيت على بك الكبير»، بعد أن اتخذ إجراءات أمن مشابهة لتلك التى اتخذها «عبدالرازق»، حتى أشار إلى «ريا» التى لحقت به فى فناء البيت المظلم، وأثار ذلك فضول «سكينة»، التى تكشفت ريبتها فيما يجرى من حولها، ولم يفت عليها أنها المقصودة بتلك السرية، وأن الآخرين يتعمدون أن يكتموا عنها كثيرا من التفاصيل، فأغاظها ذلك، ودفعها لكى تلحق بهما لتقف بينهما فى تحد.. ولم يجد «عرابى» مفرا من أن يواصل حديثه، الذى فهمت منه أنه يطلب من شقيقتها أن تترصد «نظلة» وهى فى طريقها إلى «سوق البصمة» فى «زنقة اليهود» القريبة، خشية أن تكون قد كذبت فى وعدها له.

ولم تشأ «ريا» أن تنفذ المهمة بنفسها، ودفعها خوفها من أن تكون آخر من يشاهد بصحبة «نظلة» قبل اختفائها، إلى تكليف ابنتها «بديعة» بذلك. وقد سعدت الفتاة بالمهمة، واعتبرت نجاحها فى قيادة «نظلة» إلى بيتهم، رد اعتبار لها بعد سفارتها الفاشلة فى الصباح، فظلت تترصدها على ناصية الحارة، إلى أن رأتها تقبل من بعيد، فاندفعت نحوها قائلة:

- أمى بتقول لك «عرابى» عندنا.. وعاوز يشوفك.

وحاولت «نظلة» أن تصرفها عنها قائلة لها بأنها فى طريقها لتشترى أشياء من «الزنقة» وسوف تمر عليهم فى طريق عودتها، إلا أن الفتاة ظلت تطاردها بعناد، وهى تكرر اسم «عرابى» على نحو اضطر «نظلة» إلى تغيير خط سيرها، والبدء بزيارة «ريا» وليس بالذهاب إلى السوق، تخلصا من إلحاح الفتاة، التى ظلت تتابعها إلى أن دخلت من باب البيت، فعادت لتلعب مع غيرها من الأطفال.

وما كادت «نظلة» تظهر أمام باب الغرفة، حتى استقبلها الجميع بحماس لم تنتبه إلى دلالته. وكانت ترتدى تحت ملاءتها السوداء -التى خلعتها بمجرد دخولها- جلبابا منزليا بلا أكمام.. واعتذرت عن ذلك، وعن تأخرها فى الحضور، بأنها كانت تغسل ملابسها.. ثم جلست على الحصيرة بين «عرابى» و«عبدالعال» وناولتها «ريا» مسندا لكى تقى ظهرها من رطوبة الحائط.. وتناولت منها قطعة قماش سوداء، كانت تحملها إلى «الزنقة» لكى تستبدلها بلون آخر يكون أكثر انسجاما مع ما تقوم بحياكته من ملابس..

جرت عيون الجميع بلهفة حول معصميها لتتفقد ما تتزين به من مصوغات، وعندما تأكدوا من أنها تحيط معصمها الأيمن بأربع غوايش عريضة من الذهب، بينها اثنتان مزينتان بدلايتين، وتحيط المعصم الأيسر بثلاث أخرى، فضلا عن الحلق الذى يتدلى من أذنيها والخلخال العريض الذى يحيط كاحليها، أدركوا أن الغنيمة تستحق ما بذل فى سبيل استدراجها من مجهود.. وطاب لهم السمر معها..

وأخرج «عرابى» من جيبه نصف «ريال» مدّ يده به نحو «سكينة»، لكى تشترى لهم أقة من النبيذ، وطعاما، وزجاجة «كونياك» صغيرة من أجل «نظلة»، التى لم تكن تشرب من الخمور غيره. لكنها اعتذرت عن القيام بالمهمة بسبب الإصابة التى فى قدمها، فتطوعت «ريا» للقيام بها، وتناولت «نصف الريال» وملاءتها.. وقبل أن تنصرف عاد «عرابى» يذكرها بألاّ تنسى «الكونياك» ولم تنتبه «نظلة» - لسعادتها البالغة بحرصه على أن يطلب لها مشروبها المفضل -إلى دلالة قيامه بلف كفه المبسوطة فى حركة دائرية وهو يتحدث إلى «ريا».. لكن الآخرين كانوا يعرفون ما يقصد إليه، إذ كانت الإشارة من بين الرموز المتفق عليها فى قاموس اللغة السرية التى يتبادلونها فيما بينهم، وكانت تشير إلى كوكتيل من الخمور الرديئة، يصنعه أصحاب الحانات الشعبية، مما يتبقى فى كؤوس الذين يرتادونها، وتضم مزيجا من الويسكى والكونياك والنبيذ وعرق البلح، وتعرف بين الذين يقبلون على شرائها باسم تجارى هو «الاسكولانس»، وهى خمر قوية المفعول، تكفى كمية قليلة منها، لكى يفقد الإنسان وعيه.. وكان ذلك هو المطلوب.

وعادت «ريا» بعد قليل، ومعها -فضلا عن زجاجتى الخمر- علبة من السردين، وما يكفى من أرغفة الخبز، أضافتها إلى كمية من السمك، كانت قد قامت بشيها بعد انتهائها من الغسيل، ووضعتها فوق الطبلية فى ركن من أركان الغرفة.. ومدّ كل منهم يده فتناول رغيفا حشاه بشىء من الطعام، وكوبا من النبيذ ناولته إياه «ريا» التى كانت تقوم بدور «البارمان»، ليعود بهما إلى مجلسه.

أما «نظلة» فقد اختصوها بنصيب وافر من الطعام، وبزجاجة «الاسكولانس» كاملة..

وكان الوقت يمضى، وهم يتسامرون ويتضاحكون، وبدت «نظلة» فى ذلك اليوم فى أحسن حالاتها، ولم تمانع كثيرا -تحت تأثير الخمر- فى الإجابة عن الأسئلة التى وجهوها إليها، واندفعت تقارن بين فتوة كل زوجيها، وبين سلوك رفقائها من الرجال، وإن كانت -رغم وطأة الخمر- قد توقت أن تشير إلى «عرابى» الذى كان ما يزال يجلس إلى جوارها على الحصيرة. وجاءت «بديعة» من الخارج وأخذت نصيبها من الطعام، وحاولت أن تواصل الجلوس معهم، لكن «حسب الله» نهرها، وطلب إليها أن تعود إلى اللعب فى الحارة، وحين عادت مرة أخرى، فازت بتأنيب أبيها، ولم تجد مزيدا من الطعام، فتناولت كوزا من

الصفيح، وشربت من الزير ثم عادت مرة أخرى إلى الحارة.

وكان «حسب الله» يجلس على الصندوق وإلى جواره «عبدالرازق» فى مواجهة «نظلة» التى وقفت آنذاك وتناولت ملاءتها استعدادا للانصراف، وهى تعتذر بأنها تركت غسيلها منشورا فوق سطح المنزل ولابد من عودتها لكى تجمعه.

ووقف «عرابى» محاولا إثناءها عن الخروج.

وكانت «سكينة» تهم برفع كوب النبيذ الثالث إلى فمها حين فوجئت بـ «عرابى» يحيط المرأة من الخلف بساعديه القويين فيشل حركتها تماما، فى اللحظة التى أحاط «عبدالعال» ساقيها فوق الكاحلين بكفيه القويتين. كما يليق برجل يعمل «ربيطا» فى «وابور خوريمى» بينما نزل «حسب الله» بسرعة من فوق الصندوق، ليسد فمها وأنفها بمنديل مبلل بالماء، وشد «عبدالرازق» رأسها إلى الخلف ليحول بينها وبين الإفلات من المنديل الذى كان يكتم أنفاسها.

ولم تستطع «ريا» أن تتحمل المشهد، فغادرت الغرفة. أما «سكينة» فقد وقع كوب النبيذ من يدها، لينكسر، ولم تستطع أن تنهض لتغادر المكان من فرط ما أصابها من ذعر، وأتاح لها ذلك، أن تحتفظ لنا بالمشهد الأخير من حياة «نظلة أبو الليل»، وقد قالت فيما بعد «كانت البنت بترغرغ زى ما يكون فى بقها مية، أو بتغرق، وكانت بترتعش لأنها مش مالكة ترفّص لكونها ممسوكة بأربعة رجالة.. وفضلوا ماسكينها كده لحد ما قطعت النفس».

وكان الرجال الأربعة يوسدون جثة «نظلة» فوق الحصيرة، حين بدأت «سكينة» الزحف على الأرض لتغادر الغرفة بعد أن عجزت عن أن تملك أعصابها لتقف على قدميها، ولم تتنبه -إلاّ فيما بعد- إلى أنها قد تبولت على نفسها -بشكل لا إرادى- من فرط الخوف، ولم تعرف من من الرجال الذى فتح لها باب الغرفة ثم أغلقه خلفها، لتجد نفسها فى ظلام دامس تكاثفت بين طياته مخاوفها إلى أن استمعت إلى صوت شقيقتها «ريا»، فاستطاعت أن تميز شبحها فى الظلام يقف إلى جوار باب الغرفة.

وكان قد مضى وقت طويل، حين ساعدتها شقيقتها على النهوض، وصعدتا معا إلى الطابق الثالث من المنزل لتمضيا بعض الوقت مع صاحبته.

كان أول ما فعله الرجال الأربعة، بعد سقوط «نظلة» هو تجريدها من مصوغاتها، وقد قام بذلك «حسب الله» الذى لم يجد ضرورة، لنزع ملابسها عنها، إذ كان أثمن ما فيها، هو الملاءة «الكريشة» التى كانت قد خلعتها عند دخولها.

وكانت المقبرة - بعد المجهود الذى بذل فى حفرها لدفن «خضرة» - مهيأة للاستخدام بشكل أقل مشقة، فالبلاط الذى يغطيها مصفوف دون ملاط يلصق كل واحدة منه بالأخرى، وطبقة الحصى المدكوك بالجير التى تتلوه ما تزال مفككة، وذرات التراب أسفلها أقل تماسكا مما كانت عليه عند حفرها لأول مرة. ولما لم

يكن هناك ضرورة لكى يشتركوا جميعهم فى الدفن، فقد انصرف «عبدالرازق» ثم تبعه «عبدالعال» ليبدأ «عرابى» مع «حسب الله» فى القيام بالمهمة، فدخل أحدهما إلى تحت الصندرة، وأزاح البلاط، وقام بالحفر إلى عمق تعمد ألا يكون كبيرا، حتى لا يكشف عن جثة «خضرة» التى كانت قد دفنت على عمق يزيد على متر. وساعده الآخر بنقل الأتربة فى مقطف إلى ركن الغرفة، ثم تبادلا المواقع، إلى أن وصل الحفر إلى عمق نصف متر، فجلسا يستريحان قليلا، قبل أن يقوما بالخطوة الأخيرة.

فى تلك اللحظة تحديدا، عرفت «بديعة» - بالصدفة المحضة -بالسر الذى كان الجميع يتكتمونه، وكانت ماتزال تلعب فى الحارة أمام المنزل، حين رصدت خروج «عبدالرازق» ثم «عبدالعال».. وبعد قليل- وبسبب ما كانت قد تناولته فى الغداء من سمك- شعرت بظمأ شديد.. فتركت اللعب، ودخلت إلى صالة المنزل.. ولما لم تشاهد بصيص الضوء الخافت، الذى يتسرب عادة من باب الغرفة التى تقيم فيها مع أمها وأبيها، حين يكون الباب مفتوحا، أدركت أن الذين بداخلها قد أغلقوا الباب عليهم، وبدلا من أن تطرقه عليهم، نازعتها رغبة صبيانية، بأن تفاجئهم وتدهشهم، فاتجهت نحو يسار الصالة، حيث يوجد المنور الداخلى، الذى تقع به دورة المياه المهجورة، وتطل عليه - كذلك- إحدى نوافذ الغرفة التى يقيمون فيها. وهى نافذة كانت أمها تغلقها بورق سميك لعدم حاجتها إليها من ناحية، ولكى تتوقى -من ناحية أخرى- تسرب الروائح الكريهة إلى الغرفة، من دورة المياه المهجورة. لكن «بديعة» كانت قد نجحت فى إحداث ثقب صغير فى هذا الورق المقوى، يتيح لها حين تغادر أمها البيت وتغلق الغرفة، أن تمد يدها الصغيرة منه، وتفتح النافذة، وتباعد بين مصراعيها مسافة تكفى لكى تتناول إحدى القلل الموضوعة على قاعدتها الداخلية، فتشرب منها، وتعيد إغلاق النافذة، وتعود إلى اللعب مع صويحباتها.

لكن «بديعة» لم تمد يدها فى هذه المرة، لكى تفتح مصراع النافذة، بل وضعت عينيها أمام الثقب، فاستطاعت أن ترى ما يجرى فى الداخل، على ضوء المصباح الذى كان موضوعا آنذاك تحت الصندرة، لكى لا يتسرب منه الضوء إلى الخارج.. بينما كان «عرابى» يساعد أباها على حمل جثة امرأة مفتوحة العينين عن آخرهما لم يكن لديها شك فى أنها «نظلة» فيوسدانها الحفرة أسفل الصندرة، ثم يأخذان فى ردم التراب المتكوم فى أحد أركان الغرفة، فوق الجثة.. ويميدان صف البلاط إلى ما كان عليه.

والحقيقة أن ما رأته بديعة لم يثر رعبها، أو يدعوها للصراخ، أو حتى لمغادرة المكان، ليس فقط لأنها لم تفهم تماما خطورة ما رأته، أو لأن أباها هو الذى كان يقوم به، بل لأنها كانت -كذلك- أكبر سنا من أن يدهشها ما تراه. وكانت قد أمضت السنوات العشر التى انقضت من عمرها، تتنقل بين بيوت تدار للبغاء، وتمضى أوقات

فراغها فى الشوارع. وكانت أمها هى التى انزعجت، حين نقلت إليها «بديعة» -فى اليوم التالى - مارأته، فحاولت أن تضللها، لكن الفتاة أصرت على أقوالها، ودللت عليها برواية مزيد من تفاصيل مارأته، فاضطرت «ريا» إلى أن توصيها بكتمان الأمر عن كل انسان، وبألا تتحدث مع أحد عن «نظلة» أو تعترف لأحد بأنها قد ذهبت إليها فى ذلك اليوم. وهو ما كرر «حسب الله» التأكيد عليه، عندما نقلت إليه الأم الواقعة، واضاف إلى ذلك تهديده لابنته بأن يدفنها كما دفن «نظلة» إذا باحت بما رأته لأى انسان.

وبمجرد الانتهاء من الدفن، فتح الرجلان باب الغرفة، ونادى «حسب الله» على زوجته، فنزلت من الطابق الثالث وفى أعقابها «سكينة» لتلقيا نظرة شاملة على المكان، وتتأكدا من أن كل شىء قد عاد إلى مكانه... وما كادت «ريا» تنتهى من كنس الغرفة، وإزالة التراب المتخلف عن عملية الدفن، حتى سلمها «عرابى» المصاغ، وأحصاه لها أمام الاخرين: سبع غوايش... ودلايتين وحلق وخلخال... ثم انصرف إلى حيث كان «عبد الرازق» و«عبد العال» ينتظرانه فى «خمارة الصاوى» أمام حنفية الصدقة القريبة من الصاغة الجديدة..

وعلى الرغم من أن «سكينة» كانت ماتزال تجد صعوبة فى المشى على قدميها، فقد أصرت على مصاحبة شقيقتها إلى الصاغة، بعد أن تزايدت شكوكها فى أن الرجال لايوزعون الغنائم بالعدل، ويتواطأون مع بعضهم البعض، ومع شقيقتها «ريا» على إخفاء الثمن الحقيقى الذى يبيعون به المصاغ، خاصة مع عدم وجود علم الوزن الذى يحدد ثمن البيع، وهى شكوك كانت تناوش الرجال الذين انتدبوا «حسب الله» لكى يرافق المرأتين إلى محل «على الصايغ»، حتى لا تتفقا معا على إخفاء جانب من الثمن واقتسامه فيما بينهما.

وأسفرت المساومة مع الصائغ على شرائه الغوايش السبع باربعة عشر جنيها- بواقع جنيهين لكل غويشة- وعلى تثمين الخلخال بثلاثة جنيهات، والحلق بستة ريالات والدلايتين بثمانية ريالات... وبذلك وصلت القيمة النقدية للغنيمة إلى تسعة عشر جنيها وثمانية ريالات... عاد بها الوفد الثلاثى إلى حنفية الصدقة، لينضم إليهم الثلاثة الآخرون، وبعد عملية حسابية سريعة، تم خلالها اضافة ثمن الملاءة الكريشة التى كانت ترتديها «نظلة»، التقطت «سكينة» نصيبها، وكان أربعة جنيهات. وفيما بعد قالت «...رحت للمزين... وأعطيته نصف ريال، وغير لى ع الجرح... واشتريت جوز فراخ بثلاثة ريال ورحت الخمارة قعدت... اشرب وانبسط وروحت ومعى ثلاثة جنيه».



مضى يوم الأحد ٤ يناير (كانون الثانى)١٩٢٠، من دون أن تمر «نظلة أبو الليل» على منزل أمها، كما تعودت أن تفعل كل يوم..

لكن الأم - «زينب حسن» - لم تسترب فى الامر، أو تدهش له، إذ لم يكن نادرا أن تنشغل الابنة فى أحد الايام بعملها، فتؤجل زيارة امها إلى اليوم التالى. وحين غربت شمس يوم الاثنين دون أن تظهر «نظلة» فى «باب سدرة» بدأ القلق يناوش الأم... لكن الظلام والمطر المنهمر، حالا بينها وبين مغادرة منزلها إلى «جنينة العيونى» لكى تطمئن على أحوالها، وتعرف سبب انقطاعها عن زيارتها لمدة يومين متتالين.

وفى الصباح المبكر من يوم الثلاثاء ٦ يناير (كانون الثانى)١٩٢٠، كانت «زينب» تطرق باب غرفة ابنتها... وحين تواصل الطرق من دون أن يفتح لها أحد، تزايد قلقها، إذ لم يكن من عادة الابنة أن تغادر المنزل فى هذا الوقت المبكر من النهار.

ومع تواصل الطرق أطلت صاحبة المنزل «ستيتة أم محمد» من فوق السطح لتسأل الطارق - عبر بئر السلم - عن شخصيته، ولما عرفت أنها «زينب» رحبت بها، وسألتها باهتمام بدا لها غريبا، عن أحوالها الصحية، ولما سألتها الأم عن «نظلة» أبدت دهشتها من السؤال، وقالت لها : هىّ مش عندك؟. وفى البداية ظنت «زينب» أن الابنة قد غادرت المنزل فى طريقها إلى «باب سدرة» بينما كانت هى فى طريقها إلى «جنينة العيونى»، إلى أن دهمتها «ستيتة» بالنبأ الفاجع : فقد غادرت «نظلة» البيت من يومين، ولم تعد إليه منذ ذلك الحين، بل وتركت غسيلها منشورا فوق سطحه، فجمعته صاحبة المنزل واحتفظت لها به، بعد أن تبادر إلى ذهن الجميع أن «نظلة» قد خرجت من المنزل مسرعة بسبب حادث أو مرض طارىء، تعرضت له أمها، واستنتجوا أنها تقيم معها لترعاها.

وخلال الساعة التالية تجمعت أمام «زينب» شواهد عديدة ، تدل على أن هناك أسبابا تدعو للريبة وراء اختفاء ابنتها، إذ ما كادت تفتح باب غرفة «نظلة» - بالمفتاح الذى اعطته لها «ستيتة» - حتى أدركت من حالتها أن الفتاة غادرتها إلى مكان قريب، وأنه لم يكن فى نيتها أن تغيب طويلا. ففضلا عن أنها وجدت الملابس التى تعودت أن تخرج بها كاملة مما كشف عن أنها خرجت بجلباب منزلى، فقد كانت احدى قطع القماش التى تقوم بتفصيلها على ماكينة الخياطة، كما وجدت حلة مملوءة إلى نصفها بالمياه، فوق موقد الكيروسين الذى لم يكن مشتعلا، وعلى «البوريه» وجدت صابونة من زيت الزيتون، وإلى جوارها ضفيرة مستعارة، وهى شواهد جعلت الام تجزم بأن ابنتها كانت تنوى، بعد عودتها أن تستكمل عملا محدودا فى تفصيل قطعة القماش، ثم تقوم - بعد ذلك- بغسل شعرها كآخر واجبات يوم الغسيل.

ووجهت البيانات التى أدلت بها جارة «نظلة» أنظار أمها إلى الاتجاه الصحيح الذى تبحث فيه عن ابنتها، إذ روت لها «بخيته» ما تذكره عن الحوار الذى دار بين الفتاة الغائبة والطفلة الصغيرة التى جاءت تطالبها بزيارة أمها. ومعها الصينية، وقالت

أن امـرأة جـاءت بـعـد ذلك بقليل فغادرت معها «نظلة» المنزل ولم تعـد منذ ذلك الحـــين. وهـكذا ربطت «زينب» بين اختفاء ابنتها، وبين «الصينية» التى كانت تعلم أنهـا ملك «ريا» ولم يكن لديهـــا شك فى أن الطفلة الصـغـيـرة التى حملت رسالة أمـهـا، هـى «بديعة».

وبمجـرد وصـولهـا إلى هذا الارتبـــاط، حـــتى غـادرت حجـرة ابنتهـا إلى منزل «ريا» القـــريب ولم تكد تتقدم قليلا فى صالة الطابق الارضى المظلمـة، حـتى شـاهدت الضوء يتسرب من الغرفة التى تقيم فيها، مما يدل على أن بابها كان مفتوحا... إلا أنهـا تحرجت من الدخول عليهـا خشية أن يكون زوجهـا معهـا، فـتوقفت على مـبعدة قليلة من باب الغرفة ونادت على «ريا» التى خرجت إليها، ورحبت بها- بعد أن عرفتها من صـوتهـا - ودعـتهـا للدخـول، لكن الأم قـالت باقـتـضـاب، وبلهـجـة لا تخلو من الاتهام:

ـ أنا جاية أسألك عن «نظلة».

وأصـــرت «ريا» على أن تـدخـل «زينب» أولا وقبل أى حديث....

وكـــان «حـــســب الـلـه» يـجـلس عـلى الحـصـيرة. وإلى جواره ابنتـه «بديعة». أمـا الضيـفـة، فـقـد جلست على الصـندوق على بعـد قليل من المكان الذى لم تكن حـتى ذلك الحـين تعـرف أن ابنتـهـا قـد دفنت فـيـه... وواصلت «ريـا» طهى «الفـريك» الذى كـانت تضعه فوق موقد الكيروسين... وهـى تسأل «زينب» عن الحـكاية، فلمـا عـرفتهـا أنكرت تماما أنها تعرف شيئا عن «نظلة»... وحين واجهتها الأم بواقعة ارسالها لابنتها «بديعة» لكى تسـتـدعى «نظلة» لمقـابلتـهـا ومـعـهـا الصينية، نفت «ريا» الواقعة، واقسمت أنها لم ترسل أحـدا، وأيدتهـا «بديعـة» وقلدتهـا فى قـسـمهـا الكاذب ولأن «زينب» كـانت على يقين من صحة هذه الواقعة تحـديدا، فقـد استفزها الانكار والقسم وزاد من ريبـتهـا، فقالت بتحد:



«بديعة» الابنة الوحيدة التى عاشت من بين أبناء «ريا» و«حسب الله»

- أنت عليك شهود.

ولما سألتها «ريا» عنهم قالت:

-... النسوان الصعايدة اللى ساكنين فى بيت «أم ستيتة» شافوا «بديعة» ساعة ماجت تاخد الصينية.

وامتقع وجه «ريا» حين تنبهت إلى خطورة هذه الشهادة، فارتفع صوتها وهى تقسم بقبر ابنها، بأنها لم ترسل أحدا إلى «نظلة» فى ذلك اليوم، وتؤكد بأن واقعة ذهاب «بديعة» لاحضار الصينية، قد وقعت قبل ذلك التاريخ بأكثر من عشرة أيام، وأن النسوان الصعايدة، قد خلطوا بين التواريخ. واستشهدت على صحة أقوالها بـ «بديعة» التى اندفعت تؤيد رواية أمها وتكررها من دون أن تضيف إليها شيئا... ومع أن عبارات القسم المغلظة التى اندفعت من فم «ريا» وابنتها، قد شككت «زينب» فى صحة الرواية، خاصة وأن «بخيتة» لم تكن قد رأت «بديعة» بل سمعتها فقط... إلا أن ذلك لم يهز يقينها بأنه يستحيل أن تختفى «نظلة» من دون أن تعرف «ريا» مكان اختفائها إن لم يكن لها صلة مباشرة بالاختفاء... فقامت لتغادر المكان، وهى تقول فى لهجة تهديد:

- إذا «نظلة» مارجعتش... أو جرى لها حاجة .. أنا ألزمها منك.

وسألتها «ريا» باستنكار:

- ملزومة منى ليه؟

فقالت الأم:

- لأن انت اللى مخايلاها... وكل يوم والتانى تقولى لها تعالى فصلّى... والناس كلها عارفه إنها دايما عندك.. وأنا راح أبلغ الحكومة تشوف شغلها.

وكانت «أم نظلة» قد غادرت الغرفة بالفعل من دون أن تلقى السلام على أحد، حين قفز «حسب الله» من مجلسه، فى أعقاب استماعه إلى العبارة الأخيرة، وجرى خلفها إلى أن استطاع – فى ظلام الصالة– أن يمسك بطرف ملاءتها، وهو يقسم عليها بـ «غلاوة نظلة» أن تعود معه، لأنه يريد أن يقول لها كلمتين... وكان توتر الأم قد وصل إلى ذروته، فسالت دموعها، وهى تعود معه إلى الغرفة متسائلة:

- ح تقول ايه؟.

ولابد أن «حسب الله» لم يكن آنذاك فى حالة طبيعية، مع أن الوقت كان مايزال فى بداية النهار، ومع أنه لم يكن قد غادر البيت بعد إلى الخمارة، إذ ما كاد يدلف إلى الغرفة من جديد، وقد أطبق بكفه على كف المرأة، حتى طلب من «ريا» أن تشعل له شمعة، أخذ يتجول بها فى أنحاء الغرفة المظلمة، وهو يسحب المرأة خلفه، قائلا لها:

- تعالى ياخالتى أم أحمد... بصى فى الأوضة... أحسن تقولى دول مخبينها منى..

وحين وصل إلى الصندرة، توقف أمامها، ودعا الأم لكى تتفحصها، فلم تجد فوقها شيئا، ثم انحنى ليضع الشمعة تحت الصندرة، طالبا منها أن تدخل لتبحث عن ابنتها... ولابد أن الأم – التى لم تكن تعرف أن ابنتها مدفونة فعلا تحت الصندرة – قد دهشت لما يفعله «حسب الله» ولعلها ظنت أن بعقله مسا.. ولذلك رفضت اقتراحه قائلة:

ـ هو انتم رايحين تخبوها منى تحت الصندرة؟!.

ثم اسرعت تغادر الغرفة.

والشيء المؤكد أن «حسب الله» لم يكن ساذجا إلى الدرجة التى يتصور فيها أن مافعله هو الوسيلة المثلى لكى يبدد اشتباه المرأة فى أن له ولزوجته، يدا فى اختفاء ابنتها. ولا تفسير لسلوكه الغريب، إلا بأحد ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون قد أراد أن يسخر من المرأة، وأن يهزأ بها، وأن يجيب عمليا على سؤالها عن مكان ابنتها فيقودها إلى القبر الذى لم يكن قد مضى على دفنها به سوى أقل من يومين. وهى حالة من القسوة النفسية تدل على مدى التدهور الذى لحق بشخصيته خلال أقل من اسبوعين فقط على بدء العمليات، وحوله إلى وحش بليد، لا يكتفى بالقتل، بل ويجده كذلك موضوعا للسخرية.

والثانى: أن يكون قد أراد أن يثبت لنفسه، ولزوجته أن «زينب» مهما فعلت، فلن تستطيع أن تثبت عليها التهمة أو تجد دليلا يؤكد شبهتها فيهما طالما أنها لن تصل إلى مكان الجثة.

أما الاحتمال الثالث، فهو أن يكون قد فكر لوهلة فى أن يقتل المرأة نفسها، خاصة بعد تهديدها بأن تبلغ الشرطة ضد زوجته، وبعد اشارتها إلى أن لديها شهود بأن «ريا» هى التى استدعتها إليها قبل اختفائها بقليل لكنه عدل عن تنفيذ الخطة فى اللحظة الاخيرة، عندما تنبه إلى أنه ليس بمقدوره أن يقوم بتنفيذها وحده دون أن يفتضح الامر، خاصة وأن آخرين- من بينهم جيران «نظلة»- يعرفون أنها فى طريقها إلى منزله.

والغالب أن «عرابى» - الذى توجهت الأم للقائه بعد أيام قليلة - كان هو الذى وضع خطة التعامل مع «أم نظلة»، وهى الخطة التى أثبتت - منذ ذلك الحين - فعاليتها، وضللت الأم عن الجناة الحقيقيين وهو على رأسهم، فطاشت خطواتها على الرغم من المعركة الباسلة التى خاضتها لكى تعثر على ابنتها الضائعة. ولم يكن «عرابى» فى حاجة إلى من ينبهه إلى أن الاتهام سيوجه إليه بمجرد شيوع نبأ اختفاء «نظلة» حتى لو لم يكن له يد فى ذلك الاختفاء، بحكم معرفة الناس بالصلة الوثيقة التى تربطه بها، والأساطير التى تروى عنه باعتباره «قتال قتلة». وهو ماحدث بالفعل، إذ ما كاد النبأ يصل إلى الناس، حتى توجهت الشكوك نحوه. وأخذت النساء العاملات فى نقطة المومسات بـ «كوم بكير» يتناقلن تفاصيله ويضفن إليها، ثم تهمس كل منهن فى أذن الاخرى بأن «عرابى» هو الذى قتلها، وتوصيها بألا تقول شيئا حتى لا تلقى نفس المصير.

ومع أن «عرابى» قد سعد - على نحو ما- بتلك الأقاويل، التى كانت تساهم فى تدعيم صورته امام الناس، باعتباره فتوة مرهوب الجانب، واثقا بأن أحدا ممن يتهامسون بها لن يجسر على ابلاغ الشرطة عنه، فضلا عن أنه لايعرف شيئا لكى يشهد به ضده، إلا أنه لم يسع لتأكيدها ... وعلى العكس مما فعلت



حارة متفرعة من شارع السطاسى الذى بدأ منه نشاط «ريا»

«ريا» و «حسب الله» فقد تلقى «عرابى» الخبر حين نقلته إليه أمها، باهتمام بالغ، وأخذ يسألها عن التفاصيل، ليتأكد من أنها لم تجد شيئا أو تعرف حقيقة يمكن أن تكون أساسا لاشتباه جدى فيه... وليوحى لها بتعاطفه معها... ثم وعدها بأن يبذل كل جهده فى البحث عن ابنتها... وكانت كلما لقيته بعد ذلك، وقفت معه، يسألها عن أخبار «نظلة» وتسأله عن اخبارها، فيتهدج صوته، ويجفف دموعا وهمية فى عينيه، وهو يقول لها: الله يجازى اللى حرمنى منها.

وكان «عرابى» - فى الغالب- هو صاحب فكرة القيام بحملة همس، توجه نظر الأم، ونظر الناس إلى أن «نظلة» ربما تكون قد هربت مع رجل يهواها، وربما تكون قد انتقلت للاقامة معه فى بلد آخر.... ولما كان ترويجه لهذه الاشاعة بنفسه، أمر لايليق به، بصفته رفيقها، كما كان يتناقض مع تظاهره بالحزن لغيابها، فقد ترك هذه المهمة لـ «ريا» التى بثتها لعدد من الفتيات اللواتى يعملن معها فى بيت «حارة النجاة» باعتبارها من الأقاويل التى يرددها الناس، فانتشرت إلى أن وصلت إلى «زينب» فتشبثت بها، كما يتشبث الغريق بقشة... ولأن شكوكها كانت ما تزال قوية فى أن لـ «ريا» يد فى اختفاء ابنتها، فقد ربطت بين الأمرين، خاصة بعد أن علمت أنها مصدر الاخبار التى تتحدث عن هروب الفتاة مع أحد الرجال.

ولم يكن قد مضى على اختفاء «نظلة» سوى أسبوع واحد، حين توجهت «زينب» - للمرة الثانية- إلى منزل «ريا» بـ«حارة على بك الكبير»، ولما علمت من «فاطمة» - زوجة بائع القصب عوف العجوز - أنها غادرته إلى منزلها الآخر بـ «حارة النجاة» واصلت السير إليه، لتجد «حسب الله» يجلس على درجات السلم القليلة التى تقود إلى عتبة المنزل،

وإلى جواره «ريا»، فسألتهما عما إذا كانا قد عرفا خبرا جديدا عن «نظلة» فنفيا ذلك... وحاولت «ريا» طمأنتها بالحديث عن وقائع متداولة عن اختفاء فتيات أو نساء لأسابيع أو شهور ثم عودتهن بعد ذلك... وهو ما قاد الام للإفصاح عن شكوكها فقالت لها:

- يكونش حد حبها... وسلطك تروحى تجيبها له من البيت وتخبيها... بس قولى لى إنها طيبة وبخير.

ونفت «ريا» التى أسعدها اتجاه ذهن الام إلى هذا المسار، نفيا تاما، كل صلة لها بغياب «نظلة».... وعادت «زينب تلح على سؤالها، إلى أن قطع «حسب الله» المناقشة بينهما، سائلا الأم عما إذا كانت قد ابلغت الشرطة عن غياب ابنتها، فلما اجابت بالايجاب، ثار فى وجهها ثورة عارمة، قائلا:

- انتوا تدلعوا ولادكم... ويطلعوا مدلعين.... وماتعرفوش تحكموهم.... ولما يهجوا هنا أو هنا... تعيطوا وتتوحوا... وتتهموا فى الناس...

وفوجئت «أم نظلة» بعصبية «حسب الله» فى الرد عليها، فسألته بدهشة:

- وانت ياابنى اتغيرت كده ليه؟... واتاخدت كده ليه؟!

فأدرك أنه قد بالغ فى التعبير عن انزعاجه، حتى كاد يجدد شكوك المرأة فيه، فقال بنبرات خافتة، وبصوت مفعم بالحزن والرثاء للذات:

- لأ.. بس الواحد لسه صغار... ورايحين تتهموه بتهمة وحشة...

وبهذه العبارات نجح «حسب الله» فى ابتزاز عواطف المرأة، التى كان القلق على غياب ابنتها يضنيها، فتعاطفت معه عندما رأته أمامها ضعيفا خائفا، واهتاجت عواطف الامومة فى صدرها، فمسحت دموعها من عينيها وهى تقول له بشهامة:

- حد الله بينى وبين الظلم... أنا حتى إن شفت بنتى مذبوحة فى بيتك... أدوس عليها برجلى ولا يمكن أرمى شبابك فى ضيقة.

وحتى ذلك الحين، لم تكن «زينب» قد أبلغت الشرطة عن غياب ابنتها، إذ كان الامل مايزال يراودها فى أن تفاجأ ذات يوم بعودتها... ونجحت خطة المشاركة الوجدانية التى اتبعها «عرابى»، - وأوصى «ريا» و«حسب الله» باتباعها معها - فى دفعها لاستبعادهم من البلاغ الذى قدمته إلى «حضرة صاحب السعادة حكمدار بوليس الاسكندرية» وأملته على احد الكتبة العموميين فى ١٤ يناير (كانون الثانى) ١٩٢٠، وبعد عشرة أيام من غياب ابنتها...

وعلى العكس من أبناء «خضرة محمد اللامى»، الذين لم يشيروا فى بلاغهم للشرطة إلى ما كانت تتزين به أمهم من مصوغات، فقد حرصت «زينب حسن» على أن تشير فى بلاغها إلى أن ابنتها كانت تتزين بـ «ثمانية غوايش ذهب وحلق ذهب وخاتم ذهب وسنة ذهب وخلخال فضة»، وعلى أن تشير صراحة إلى أنها تخاف على حياة ابنتها «أن تكون قد قتلت بيد فاعل سرق منها الذهب الموجود معها» - لكنها - كما فعل أبناء «خضرة» لم توجه الشبهات نحو أحد معين، واكتفت بالقول بأنها علمت من الجيران أن

«حرمة حضرت لها وأخذتها من محلها» لتطالب - فى نهاية البلاغ- بـ«صدور الامر لمن يلزم بالتحرى عن المذكورة».

واتخذ البلاغ نفس المسار الذى يأخذه أمثاله من بلاغات الغياب، فأحالته الحكمدارية- مديرية الأمن - فى اليوم التالى، إلى قسم شرطة اللبان «لاتخاذ اللازم». وفى يوم الاحد ٨ يناير (كانون الثانى) ١٩٢٠- وبعد أسبوعين كاملين من اختفاء «نظلة»- استدعى الصول - المساعد - «محمد المصرى» الأم، فكررت ماقالته فى مذكرتها، من دون أن تشير فى أقوالها إلى ماكانت تحمله الابنة معها من مصوغات... وقد تكون قد اشارت إلى ذلك فلم يدون الصول أقوالها، حتى لا يتحول المحضر من بلاغ عن غياب، إلى بلاغ عن جريمة قتل تزيد من عدد الجنايات التى تقع فى دائرة القسم، وهو مايدل عليه حرصه على أن يسألها السؤال التقليدى عما إذا كانت تظن أن هناك سوءا قد اصاب ابنتها، وأن يدون نفيها لذلك... وبعرض المحضر على مأمور القسم فى اليوم التالى، أحاله على «المصرى افندى» نفسه «للتحرى والبحث عنها»، فاستدعى «المصرى» شيخ الحارة «على زيد» وكلفه بالمهمة، كما استدعى جارتى «نظلة» - اللتين ذكرت الأم أنها عرفت منهما بأن امرأة مرت على ابنتها واصطحبتها معها، ولم تعد بعد ذلك وسألهما عن الواقعة فأنكرتا ماقالتاه لها. وقالت «بخيتة» إنها فى حالة حداد وحزن بسبب وفاة ابنتها ولا تخرج من غرفتها، ولا تعرف شيئا... وقالت «عزيزة» إنها غادرت المنزل فى الصباح الباكر، كما تعودت أن تفعل كل يوم، وتركت «نظلة» به، وحين عادت فى المساء لم تجدها، ولم تعد منذ ذلك الحين. وأحيل المحضر إلى نيابة اللبان التى أمرت بنشر صورة وأوصاف واسم «نظلة أبو الليل فتح الباب» بقسم الغائبين بالنشرة الجنائية، وحفظ التحقيق.

لكن فجيعة «زينب حسن» فى اختفاء ابنتها كانت أقوى من أن تدفعها لليأس. وكانت قد تركت بيتها وانتقلت لتقيم فى الغرفة التى كانت تسكنها «نظلة»، لتكون فى انتظارها حين تعود... أما فى النهار فكانت تمضى معظم الوقت فى دكان «خضرة بنت على «بائعة البرتقال على ناصية الحارة، تنقل نظراتها الملهوفة بين مدخل الحارة، ومدخل البيت من دون أن تكف عن البكاء... فإذا فرغت بائعة البرتقال - التى تعرفت إليها منذ انتقلت للاقامة فى غرفة ابنتها ، وتعاطفت مع مأساتها - من مشاغلها أخذت فى تعزية الام المكلومة، وبعث الأمل فى نفسها، بأن الله سوف يسوق إليها ابنتها الغائبة ذات يوم قريب.

وبينما كانت تقول لها ذلك، ذات يوم، قابلت فتاة كانت تشترى شيئا من «خضرة» فلما عرفت أنها «أم نظلة» التى غابت بعد أن تركت غسيلها فوق السطح، قالت لها:

- اعطينى اثنين جنيه وأنا اجيبها لك من «الجيزة».

ولما سألت الام ملهوفة، عن مصدر علمها بأنها قد سافرت إلى «الجيزة» قالت الفتاة:

- دى بعتت لـ «عرابى» جواب قالت له فيه إن «عبد الرحيم الشريتلى» خطفها.... وحابسها هناك.

تشبثت «أم نظلة» بأقوال الفتاة، كما يتشبث

الغريق بقشة، إذ كانت تلك أول بادرة أمل تدل على أن ابنتها ما تزال على قيد الحياة، وتشير إلى المكان الذى تقيم فيه، فكفت عن البكاء، وسألت الفتاة -التى علمت بأن اسمها «شفيقة بنت فتيان نمر»- باهتمام ولهفة - عما تعلمه عن غياب ابنتها، وعن مصدر هذه المعلومات. وببساطة شديدة قالت «شفيقة» إن «نظلة» صديقتها واختها، وأن كل منهما كانت موطن سر الأخرى، وأن خبر غيابها قد أحزنها، فأخذت تتحسس الأخبار، إلى أن عرفت من «عرابى» أنها أرسلت له خطابين، شكت له فيهما من أن «عبدالرحيم الشريتلى» طلب منها أن تلقاه فى بيت كانا يترددان عليه سويا فى الإسكندرية، فلما ذهبت إليه، حبسها فيه لمدة يومين، وأنها لم تدر بنفسها -بعد ذلك- إلا وهى فى قطار الصعيد..

ولأن القصة كانت مليئة بالثقوب، ولا تتسق مع الشواهد التى تدل على أن «نظلة» غادرت غرفتها بجلباب منزلى، وتركتها فى حالة تدل على أنها اتجهت إلى مكان لا يبعد عنه سوى خطوات، فإن «زينب» لم تطمئن تماما إلى صحة ما سمعته، وطلبت من الفتاة أن تطلعها على الخطابين، فضربت «شفيقة» بكفها على صدرها، قائلة إن «عرابى» يضع الخطابين فى محفظته، إلى جوار صورة ابنه. وأنها لا تستطيع أن تأخذهما دون علمه، لأنه «قتال قتلة». لكنها وعدت الأم، بأنها سوف تحتال لكى تحصل على الخطابين من «عرابى» فتطلعها عليهما، ثم تعيدهما إليه، وطلبت إليها أن تمهلها يومين لتعود إليها بهما..

البلاغ الذى قدمته أم نظلة أبو الليل بعد عشرة أيام من اختفائها

ولأن القصة التى روتها «شفيقة» كانت -على الرغم من عدم منطقيتها- تتسق مع أوهام الأم التى قادتها للظن بأن ابنتها قد هربت مع رجل ما، فإنها لم تنتظر حتى تطلع على الوثائق التى وعدت «شفيقة» باطلاعها عليها، بل غادرت على الفور دكان صديقتها «خضرة» -بائعة البرتقال- إلى بيت «عبدالرحيم الشريتلى»، فى مواجهة بيت «ستيتة» الذى حلت محل ابنتها فى الإقامة به، فلم تجده بالمنزل، ولا فى أى مكان آخر فى «الإسكندرية»، وعلمت من زوجته «توتة» -التى استقبلتها بترحاب ودعتها للدخول- أنه سافر إلى الصعيد، لإحضار السمن كعادته فى موسم الشتاء من كل عام، فاتخذت من هذا الاعتراف دليلا على صحة الرواية التى سمعتها، وقامت بتصرف يدل على مدى ما كانت تعانيه من توتر عصبى أعماها عن التصرف السليم، إذ واجهت «توتة» بشكوكها، من دون أن تشير إلى «عرابى» أو «شفيقة»، وأكدت لها أن «كل الناس» يقولون بأن زوجها «عبدالرحيم» هو الذى أغوى «نظلة» وخطفها وهرب بها إلى الصعيد، وهددتها بإبلاغ الشرطة ضدها، إذا لم تخبرها بالبلد التى سافر إليها، واستفزت الواقعة، والطريقة التى كانت تتكلم بها «زينب» الزوجة التى فوجئت تماما، بالاتهام الجارح لأنوثتها الموجه إلى زوجها.. فصاحت فى وجهها:

- يا ستى.. إذا كان أخذها يبقى يستحق التأديب.. وعشان تستريحى.. بلده اسمها «طما».. روحى بلغى عنه.. وأنا مش ح أزعل - حتى لو شنقوه.

وفى مساء اليوم نفسه، مرّ عليها فى غرفتها، الجاويش «أحمد حسين» - الشرطى السرى الذى كلفه قلم المباحث الجنائية بمحافظة الإسكندرية بإجراء التحريات عن اختفاء «نظلة» - ليسألها عما إذا كانت قد وصلتها أنباء عن ابنتها. فلما أبلغته بما سمعته من «شفيقة»، نصحها بتأجيل البلاغ إلى أن تحصل من الفتاة على الخطابين، لتؤكد بهما اتهامها لـ«عبدالرحيم».

لكن الموعد الذى حددته «شفيقة» للعودة بالخطابين انقضى دون أن يظهر لها أثر.. فترصدت لها «زينب» إلى أن مرت أمام منزل «ستيتة» فى طريقها إلى منزلها الذى كان يقع فى الحارة نفسها.. فدعتها إلى تناول الغداء والقهوة معها، وأعطتها «نصف فرنك»، لكنها لم تظفر منها -مقابل ذلك- بالكثير، فمع أنها عادت تؤكد أن «عرابى» قد قرأ الخطابين أمامها، وأنها أخذتهما منه، وأعطتهما لمن قرأهما لها، إلاّ أنها اعتذرت عن تكرار المحاولة، أو الكشف عن اسم القارىء، وعن رواية الواقعة أمام الشرطة، قائلة:

- أنا مش قد «عرابى» ولا «عبدالرحيم» يا خالة «زينب».. دول قتالين قتلة.

وفى مواجهة انسحاب «شفيقة» المفاجىء، اقترح الجاويش «أحمد حسين» على «زينب» أن تستدرجها فى الحديث لتكرر - أمامه - ما قالته لها، وبذلك تحل شهادته محل شهادتها التى ترفض الإدلاء بها.

وفى ضحى اليوم التالى وبينما كانت «شفيقة» تتبادل الحديث مع «أم نظلة» أمام دكان بائعة البرتقال، وقف المخبر «أحمد حسين» فجأة عند الدكان، وادعى بأنه

يبحث عن دكان خال فى الحارة ليستأجره، وتظاهرت «أم نظلة» بأنه جار لها فى «باب سدرة» ولما سألها عن أخبار «نظلة» روت له تفاصيل قصة اختفائها، وحيرتها فى البحث عنها.. إلى أن وصلت إلى الفصل الأخير، فأشارت إلى «شفيقة» وقالت لها:

- قولى له يا اختى ده مش غريب.. ده مننا.

فاضطرت الفتاة إلى رواية قصة الخطابين، وإن كانت قد تعمدت إغفال اسم «عرابى».

وفى أعقاب هذه المقابلة قال المخبر «أحمد حسين» لـ «زينب»: قدمى عرض حال للمحافظة.

فى اليوم التالى - الأربعاء ٢٥ فبراير (شباط) ١٩٢٠- قدمت «زينب حسن» بلاغها الثانى عن اختفاء ابنتها «نظلة أبو الليل فتح الباب».. ويبدو أنها تصورت أن تحريره باللغة الإنجليزية، سوف يحدث تأثيرا أبلغ مما أحدثه البلاغ الأول، بحكم أنها تتقدم به إلى قومندان بوليس الإسكندرية- وكان إنجليزيا هو البكباشى «الكسندر جوردون انجرام» - فاختارت عرضحالجيا يلم بالإنجليزية، كتبه لها بلغة ركيكة، ومع أنها ذكرت فى البلاغ أنها علمت من سيدة تدعى «شفيقة» أن ابنتها "Is Kild from Abdel Rahim Mahmoud After Three Days".

إلا أن الصول «محمد عبيد» -ضابط نوبتجى قسم شرطة اللبان- الذى أحيل إليه البلاغ فى اليوم نفسه، فاستدعى الأم ليسألها عن أقوالها، لم يهتم بسؤالها عما ورد فى البلاغ من أن «عبدالرحيم» قد قتل ابنتها بعد غيابها بثلاثة أيام، بل إنها هى نفسها لم تشر إلى ذلك، واكتفت بالقول بأن «شفيقة» قد اعترفت لها أمام المخبر «أحمد حسين» بأن «عبدالرحيم» قد أخذ ابنتها وسافر بها إلى الصعيد.

وأنكرت شفيقة فى التحقيق كل شىء، وقالت «أنا لا أعرف نظلة ولا أمها ولا أعرف عنهم شىء ولا قلت لأحد منهم شىء». ومع أن بائعة البرتقال والمخبر قد أيدا رواية «زينب» إلاّ أن الصول «محمد عبيد» - الذى كان مكدودا بالعمل، وواثقا من أن البنت قد هربت مع رجل، لم يعد استجواب «شفيقة» خاصة بعدما أنكر



البكباشى إنجرام بك قومندان بوليس الإسكندرية

«عبدالرحيم» التهمة تماما، بل أعاد استجواب المبلغة.. فسألها: هل بنتك الغائبة تحب «عبدالرحيم محمود»؟ فقالت له: نعم.. يحبون بعضهما من زمان.. وبهذا الاعتراف الموحى بأن المسألة كلها «شغل نسوان» أغلق الصول «عبيد» محضره، وأحاله مرة أخرى إلى «نيابة اللبان».

وكان المخبر «أحمد حسين» - كالصول عبيد- يعتقد أن وراء اختفاء «نظلة» قصة حب، ولكنه -على عكس ما كانت تصر الأم- كان يعتقد بأن «عرابى حسان». وليس «عبدالرحيم محمود» - هو الطرف الآخر فى تلك القصة.. وكان قد بدأ تحرياته بسؤال الجيران عما يعرفونه عن «نظلة»، وعلى الرغم من أن معظمهم قد تهرب من الإجابة على أسئلته، فقد عثر أخيرا على «مزين» يقطن فى نفس الحارة التى كانت تقيم فيها الفتاة الغائبة، وعده بأن يجمع له ما يردده الناس من إشاعات، ثم عاد له بحصيلة ضخمة، استعان فى جمعها ببائع فلافل صديق له، خلاصتها أن «نظلة» كانت سيئة السلوك، وأن «مشيها كان بطالا» وأنها كانت رفيقة لـ «عرابى» منذ سنوات طويلة، وأن علاقتهما ظلت قائمة إلى الوقت الذى اختفت فيه.. وحين حاول المخبر أن يلفت نظر الأم، إلى أنها باتهامها لـ «عبدالرحيم محمود» تسير فى الاتجاه الخطأ، وأن الاحتمال الأرجح أن تكون لـ «عرابى» يد فى اختفاء ابنتها، قالت له:

ـ أنا مقدرش أجيب سيرة «عرابى» لأنه مشهور فى الحتة بأنه شقى وشرز (أى شرس).

ولم يفت ذلك فى عضد المخبر النشيط، الذى قرر أن يدخل عرين الأسد بقدميه.. وحين عرف بأن «عرابى» تعود أن يجلس على أحد مقاهى «سوق السبتية» التى يتخذها الصعايدة العاملون مثله فى الميناء، محلا مختارا لجلسات سمرهم بعد انتهاء العمل.. توجه إليها ذات مساء وجلس إلى أحد المناضد، وطلب شايا.. وحين جاء به النادل سأله عن «عرابى الصوامعى» - وهو الاسم الذى كان مشهورا به- فأشار إلى رجل قصير القامة، يتصدر عددا من الصعايدة يتحلقون حول منضدة قريبة. فنادى عليه، ودعاه للجلوس معه، وقدم له نفسه باسمه الحقيقى ووظيفته الحقيقية، وأطلعه على صورة «نظلة أبو الليل» التى كانت أمها قد سلمتها إلى الشرطة مع بلاغها الأول، وسأله عما إذا كان يعرفها. ولم ينكر «عرابى» معرفته بالفتاة، أو أنها كانت رفيقته، لكنه أكد بأنه قطع علاقته بها منذ مرضت وسقط شعرها وذبل جمالها. وقال له المخبر -بصراحة- إن أهل الحى جميعا يؤكدون بأن علاقته بها لم تنقطع، وبأنه الوحيد الذى يعرف هذا المكان، وأنه من الأفضل له أن يرشد عن مكان اختفائها، إذ مهما فعل فلن يستطيع أن يخفى الفتاة إلى الأبد.. فلا فائدة من أن يتعب نفسه، ويتعب الحكومة، وفى مقدورها أن تتعبه.. لكن «عرابى» أصر على الإنكار.. وقال للمخبر:

ـ دى بنت ماشية على كيفها.. ويمكن راحت عند المومسات.. أو عند مشايخ المخدمين.

وعاد المخبر إلى محافظة الإسكندرية، ليقدم تقريرا شفهيا بما أسفرت عنه تحرياته إلى رئيسه المباشر «الباشجاويش يوسف أبو رياح» الذى شاطره شكوكه فى أن لـ «عرابى» يد فى اختفاء «نظلة» وكلفه بأن يواصل البحث وراء ذلك الخيط. فلعله يصل إلى نتيجة.. لكن جهوده فى البحث اصطدمت بإصرار «أم نظلة» على ألا تتهم «عرابى» أو تشير إلى اسمه، ليمكن القبض عليه، فيشجع ذلك الشهود على الإدلاء بأقوالهم. ولم تصر فحسب على اتهام «عبدالرحيم» بل وتعمدت كذلك أن تغفل فى أقوالها عما سمعته من «شفيقة»، كل إشارة إلى ادعاء الفتاة بأن «نظلة» قد أرسلت إلى «عرابى» خطابين تروى فيهما قصة اختطافها.

ولم يكن الخوف وحده هو السبب فى إصرار الأم على استبعاد «ريا» و«حسب الله» و«عرابى» من دائرة الاشتباه، إذ الواقع أنها كانت قد خضعت لعملية «غسيل مخ» أوقعتها فى براثن فخ متقن لخديعة النفس، وقامت على تظاهر الثلاثة أمامها بأن حزنهم على غياب «نظلة» لا يقل عن حزنها، إلى درجة البكاء أحيانا، وعلى نشر موجة من الإشاعات المنظمة، اختارت «عبدالرحيم» لتوجه الشبهة نحوه، بحكم أن حبه للفتاة الغائبة، ورغبته فى الزواج بها، كانت من المرويات التاريخية للحى.

وكانت «شفيقة بنت فتيان نمر» واحدة ممن ساهموا - دون قصد - فى تضليل الأم بالقصة الوهمية التى روتها لها حول الخطابات التى بعثت بها «نظلة». والحقيقة أنها -على عكس ما زعمت فى محاضر الشرطة- كانت تعرف «نظلة» معرفة وثيقة. كما كانت تعرف كذلك بقية أفراد العصابة. إذ كانت من بين الفتيات اللواتى يقدمن خدماتهن للمترددين على بيت «ريا» و«سكينة» فى «حارة النجاة».. وكانت معرفتها بـ «عرابى» - الذى كان يضاجعها بين الحين والآخر- وثيقة. وبحكم ذلك فقد كانت شديدة الفضول لمعرفة مصير «نظلة»، وكانت تنقل إلى «ريا» ما تسمعه فى أنحاء الحى من أقاويل، تجزم بأن «عرابى» هو الذى أخفاها، أو قتلها. فتكتفى بالاستماع إليها، وإبداء الدهشة مما تسمع، وفى إحدى هذه المرات أومأت «ريا» إلى أنها سمعت الناس يذكرون -كذلك- أن الفتاة قد سافرت مع «عبدالرحيم» إلى بلدة بالصعيد.. وذات يوم وكانت «شفيقة» تتجول فى سوق السبتية، وجدت نفسها أمام «عرابى»، فسألته بجسارة عن «نظلة» ومع أن السؤال قد فاجأه، إلا أنه قال لها: دى سافرت الصعيد.. فقالت له: ابقى سلم لى عليها.. وكانت تلك هى الواقعة التى استنتجت منها وأضافت عليها كل التفاصيل التى نقلتها إلى «زينب حسن» فتشبثت بها الأم، وضللت نفسها، وضللت المخبر «أحمد حسين» الذى ما لبثت الأوامر أن صدرت له بالكف عن التحرى عن «نظلة» ليتحرى عن قضية أخرى.



لم تحل الشكوك والأقـاويل التى قرنت أسماء «ريا» و«حسب الله» و«عرابى» باختفاء «نظلة أبو الليل» بين العصابة وبين مواصلة العمليات، خاصة وأن الفريسة الثالثة كانت نموذجا مثاليا لما يجب أن تكون عليه الفرائس، إذ كانت امرأة وحيدة من النوع الذى يوصف عادة بأنه «مقطوع من شجرة» والذى يموت فى سكون من دون أن يولول عليه أحد، أو يذرف أحد دمعة فى وداعه، أو يهتم أحد بالبحث عنه، أو إبلاغ الشرطة عن غيابه.

كانت «عزيزة» - وهذا هو اسمها الذى عرفت به دون إشارة إلى أب أو لقب- واحدة من النساء اللواتى اكتشفت «ريا» مواهبهن أثناء إدارتها لـ«بيت الكامب»، ولم تبذل مجهودا فى سحبها أو فى تجنيدها، إذ كانت تحترف البغاء السرى فى الطرقات العامة، عندما اصطادت أحد الرجال ممن يترددون على «بيت الكامب» فجاء بها إليه، وفى مرات تالية، اقتادت هى إليه رجلا ثم آخر.. ثم ثالث.. واستراحت إلى «ريا» التى شجعتها على أن تقود الرجال الذين تصطادهم من الشوارع إلى البيت على أن تخفض لها النسبة التى تحصل عليها من أجرها، فوافقت «عزيزة» على العرض، الذى كان يحقق مصلحة الطرفين، فيزيد من عدد الرجال الذين يترددون على البيت ويطلبون خدماته، ويكفل لها ممارسة العمل فى جو من الألفة، يزيد من إحساسها بالأمن. ويغنيها عن التنقل مع الرجال بين بيوت سرية، لا تعرفها، ولا تطمئن على نفسها فيها..

ولم يكن قد مضى على مقتل «نظلة» سوى أقل من ثلاثة أسابيع، حين ظهرت «عزيزة» فجأة عصر يوم الثلاثاء ٢٠ فبراير (شباط) ١٩٢٠، أمام منزل «ريا» فى «حارة على بك الكبير» فلم تجد أحدا به سوى «بديعة»، التى كانت تلعب مع عدد من الأطفال فى مدخل المنزل، فأرسلتها لتعود بأمها من منزلها الآخر بـ «حارة النجاة»..

واستنتجت «ريا» أن «عزيزة» قد اصطادت زبونا اشترط عليها أن تقوده إلى مكان بعيد عن أنظار المتطفلين، وإلا لجاءت وحدها أو بصحبته.. إلى «حارة النجاة».

وما كادت تلتقى بها، حتى تأكدت من صحة استنتاجها، ففتحت الغرفة، وأشعلت اللمبة، وفى انتظار عودة «عزيزة» التى انصرفت لتأتى بالرجل من مكان قريب كان ينتظرها فيه، قامت «ريا» بتسوية الفراش فوق الصندرة، وما كادت «عزيزة» تعود. ويلحق بها الرجل بعد قليل، حتى انسحبت «ريا» قائلة لهما، إنها ستذهب إلى مكان قريب، وتعود بعد ساعة، ثم أغلقت باب الحجرة عليهما.. وفى طريق عودتها إلى «حارة النجاة» كانت فكرة قتل «عزيزة» قد نضجت فى رأسها، بعد أن لاحظت أنها تتزين بمصوغاتها: كردان ذهب من دور واحد، وزوج من الأساور الرفيعة على شكل ثعبان.. وحلق.. وخلخال من النحاس المطلى بالفضة.

وخلال الساعة التى قضتها «عزيزة» مع الزبون.. كانت الفكرة قد انتقلت من «ريا» إلى «حسب الله» و«عبدالعال» اللذين كانا يجلسان - كالعادة - أمام دكان «أبو أحمد النص» يواصلان احتساء أكواب النبيذ.. ويلمان بالمحششة بين حين وآخر ليمزان بأنفاس الحشيش. وعلى الفور بدأ البحث عن «عرابى» و«عبدالرازق». وكانت «سكينة» هى آخر من عرف بالأمر.. ليس فقط خوفا من انفلات لسانها، بل لأنها لم تكن كذلك فى حالة صحية أو مزاجية تغرى بالاستفادة من جهودها.. إذ كانت الرغبة فى الشفاء السريع، وفى توفير نفقات العلاج، قد دفعتها إلى الاستغناء عن حلاق الصحة، فاندمل الجرح على صديد، وعادت قدمها لتؤلمها من جديد. وكانت تجلس إلى جوار «أم أحمد النص» على مدخل باب منزلها، تتبادلان الحديث، وتتابعان العمل فى المحششة.. حين طلبت إليها «ريا» أن تصحبها إلى بيت حارة على بك الكبير، فلم تسألها عن السبب، وقامت تتمكز على كتفها.. وفى الطريق علمت بأن الحكم بإعدام «عزيزة» قد صدر.

وقبل أن تدلفا من مدخل البيت.. شاهدتا «عبدالعال» يجلس مع «عرابى» على المقهى الذى يقع على قمة الحارة.. ووجدتا باب الغرفة مفتوحا، والرجل الذى كان مع «عزيزة» يستعد للانصراف، بعد أن دفع لها نصف ريال، أخذت «ريا» نصفه. وهمت «عزيزة» بالانصراف معتذرة بأنها تريد أن تذهب إلى الصاغة الصغيرة قبل أن يحل الغروب وتغلق محلات الصائغين أبوابها، لكى تدفع ثلاثة ريالات ادخرتها من عملها خلال اليومين السابقين إلى صائغ اتفقت على أن تشترى منه زوجا من الغوايش، حجزه باسمها، على أن تدفع ثمنه على أقساط، ولا تتسلمه إلا بعد اكتمال الثمن. ولأن المهمة التى جاءت من أجلها الشقيقتين، كانت محاولة إغواء «عزيزة» بالبقاء، إلى حين اكتمال شمل الرجال الذين سيقومون بالتنفيذ، فقد قالت لها «ريا»:

- يا ختى لسه بدرى.. اقعدى معانا شوية.. إحنا بقى لنا زمان ماشفناكيش.

وعادت «عزيزة» تعتذر بأنها لم تمر على الصائغ منذ فترة طويلة، وأنها تخشى أن يتبدد القسط كما تبدد غيره، فيبيع زوج الغوايش إلى غيرها، وقد لا يرد لها قيمة الأقساط التى تسلمها منها.. فلجأت «ريا» إلى استثارة طمعها بعد أن فشلت فى استثارة عواطفها، وعرضت عليها أن تبقى للمبيت قائلة أنها تتوقع زحاما من الزبائن، ووعدتها بأنها ستختصها دون غيرها من النساء اللواتى تعملن معها بأفضلهم وأكثرهم كرما، وأن تترك لها غرفتها لتبيت فيها مع زبائنها، وتنتقل هى -مع زوجها وابنتها- ليبيتوا بمنزلهم بـحارة النجاة»، ولو أن الظروف خدمتها، فأمضت الليلة مع ثلاثة أو أربعة من الزبائن، لارتفعت قيمة القسط من ثلاثة ريالات إلى أربعة، وربما إلى جنيه كامل، تستطيع أن تدفعه فى الصباح..

وبهذا المنطق تغلبت «ريا» على تردد المرأة، التى عادت تخلع ملاءتها، وتجلس

على الحـصـيـرة إلى جـوار المرأتين.. ولاحظت «سكينة» -التى كـانت تهـتم اهتماما خاصا بملابس الضحايا، وكانت أول من لفت النظر إلى تثمينها وإدخالها ضمن الغنائم التى يجرى تقسيمهـا- أنه فيما عدا الملاءة - التى لم تكن جديدة - فإن الملابس التى كانت ترتديها «عزيزة» لم تكن ذات قيمة كبيرة، إذ لم تكن تتعدى جلبابا من الفوال الأسود، وحذاء قديما، لم تكد المرأة تخلعه، حتى أخذت «سكينة» تقلب فيه لكى تثمنه، فاكتشفت أنه ملىء بالرقع، وبمحاولات الإصلاح المتعددة..

وبينما كانت «ريا» تواصل أحاديثها مع «عزيزة» وتنتقل بها من موضوع إلى آخر، حريصة على ألا تلفت نظرها إلى مرور الوقت، كانت «سكينة» تغادر الغرفة بين الحين والآخر، لتذهب إلى الخمارة القريبة، فتحتسى كوبا من النبيذ، وتنصرف من دون أن تدفع ثمنه، مؤكدة لصاحب الحانة، بأنها ستكون قادرة على الدفع فى الغد.

وكانت تحرص عند خروجها من المنزل على التأكد من عدم وجود «عبد الرازق» على المقهى، خشية أن يتم التنفيذ أثناء غيابها فى الخمارة فلا تحصل على نصيبها من الغنائم.. وعندما شاهدته يجلس على طوار المقهى إلى جوار «عرابى» وهى فى طريق عودتها للمنزل، ولم تجد «حسب الله» أو «عبد العال» توهمت أن التنفيذ قد تم، وندمت على افراطها فى الخمر الذى جعلها لا تحسن تقدير الوقت، فتمكث فى الخمارة وقتا أطول مما ينبغى... وكان الظلام قد بدأ يزحف على الحارة التى خلت من المارة، وقد تحلق الاطفال - ومن بينهم «بديعة» - حول عامل البلدية الذى كان يسند السلم إلى جدران أول بيوتها ليشعل فانوس غاز الاستصباح الذى يضيئها بنوره الخافت فى الليل، بينما انشغلت «فاطمة» باعادة السلع التى تبيعها إلى داخل الحجرة التى تقيم فيها مع زوجها «عوف العجوز»...

وحين رأت «سكينة» - فى ظلام صالة المنزل- الضوء يأتى من باب غرفة «ريا» اطمأنت إلى أن التنفيذ لم يتم فى غيابها... وما كادت تدلف إلى الغرفة، حتى أدركت أنه قد بات وشيكا، إذ كان «حسب الله» و«عبد العال» يجلسان على الحصيرة، وبينهما «عزيزة»... وبيد كل منهم كوب من الخمر... وكان واضحا أن «الاسكولانس» قد لطش المرأة القصيرة الرفيعة، التى كانت تتبادل الضحك مع الرجلين بصوت عال، وبصورة أكدت أنها باتت عاجزة تماما عن السيطرة على نفسها... وقبل أن تستقر «سكينة» فى جلستها على الصندوق إلى جوار «ريا»، دخل «عرابى» فقام الجميع للسلام عليه، فيما عدا «عبد العال» الذى ظل جالسا فى مكانه على الحصيرة، واسترد «حسب الله» يده بعد المصافحة، لتتجه بسرعه إلى صينية القلل على قاعدة النافذة فتسترد منديله الذى كان قد غمره فى مياهها ...

وكان «عرابى» مايزال يحتفظ بكف «عزيزة» التى أخذت تتطوح من السكر وهى تصافحه، حين دخل «عبد الرازق»،

وقبل أن تلفظ «عزيزة» كلمة ترحيب واحدة به، جرت الامور بسرعة لاهثة، إذ استدار «عرابى» ليحيطها من الخلف بذراعيه القويتين فيشل ذراعيها عن الحركة، بينما أغلق «عبد العال» كفيه، كالكلابتين على قدميها، وفعل «عبد الرازق» ذلك برأسها، وقبل أن تصرخ ، كان «حسب الله» يكتم انفاسها بمنديله المبلل بالماء...

وبعد أقل من دقيقتين... كانت «عزيزة» قد فارقت الحياة.

وكان التنفيذ هذه المرة سريعا، ومحكما، بعد أن تدرب كل واحد من الرجال الأربعة - فى عمليتى قتل «خضرة» ثم «نظلة» . على اتقان دوره، واكتسب المهارة المطلوبة، للتناغم بين ما يقوم به، وما يقوم به الآخرون، بحيث تتم مباغتة الضحية، وشل حركتها، ومنعها من الاستغاثة، ثم كتم انفاسها، فى وقت واحد، وبسرعة فائقة . وجرت الامور - بعد ذلك - بطريقة آلية ، وعلى نفس النسق الذى تعودوه، جلس ثلاثة منهم يلتقطون انفاسهم، بينما كان «حسب الله» يجرد المرأة من مصاغها، ليسلمه إلى «ريا» و «سكينة» ويحصيه لهما أمام الجميع....، ولأن الوقت كان قد تأخر ، وحل الظلام وأغلقت محلات الصاغة أبوابها، فقد تقرر تأجيل البيع لليوم التالى...

ولم يكن تأجيل دفن «عزيزة» ممكنا، أو سهلا،،، صحيح أن البلاط كان مايزال مرصوصا إلى جوار بعضه البعض، كما كان الحال عند دفن «نظلة»... إلا أن المقبرة كانت فى حاجة إلى توسيع مساحتها، التى قدرت عند حفرها، على أساس أن تدفن كل ضحية فوق الاخرى، فلم تزد على مترين طولا، وأقل من متر عرضا...

فأصبحت - بعد تعدد الضحايا- فى حاجة إلى الامتداد بعرضها ليمكن دفن الجثث أفقيا ورأسيا، مواجهة لاحتمالات التوسع فى المستقبل... وهى المشكلة التى طرحها «حسب الله» على الرجال الأربعة مقترحا أن يمضوا ليلتهم فى انجاز عملية توسيع المقبرة، وكان الوحيد الذى تحفظ على اقتراحه هو «عبد الرازق» الذى أبدى استعداده لمساعدتهم فى العمل، لكنه اعتذر عن المبيت خارج منزله، واقترح أن ينجز نصيبه من العمل حتى منتصف الليل، فينصرف إلى بيته، ويكمل الثلاثة الباقون العمل... وعندما وافق الجميع على ذلك، انصرفت «ريا» و «بديعة» بصحبة «سكينة» إلى بيت حارة النجاة ... وواصل الرجال العمل الذى انتهى عند الفجر..

وفى العاشرة من صباح اليوم التالى عادت الشقيقتان إلى المنزل فوجدتا «عبد العال» نائما.. أما «حسب الله» فكان مايزال يغسل وجهه... وكان «عرابى» قد تسلل من البيت فى الصباح المبكر، حتى لايراه أحد من الجيران وهو يغادر المنزل.

وكانت الساعة لم تصل بعد إلى الحادية عشرة، حين ظهر وبصحبته «عبد الرازق» على المقهى الذى يقع عند ناصية الحارة.... وبعد قليل انتقل الاربعة إلى «بوظة الصاوى» فى الطريق إلى الصاغة الصغيرة. وما كاد «عرابى» يشاهد «ريا» و«سكينة» وهما فى

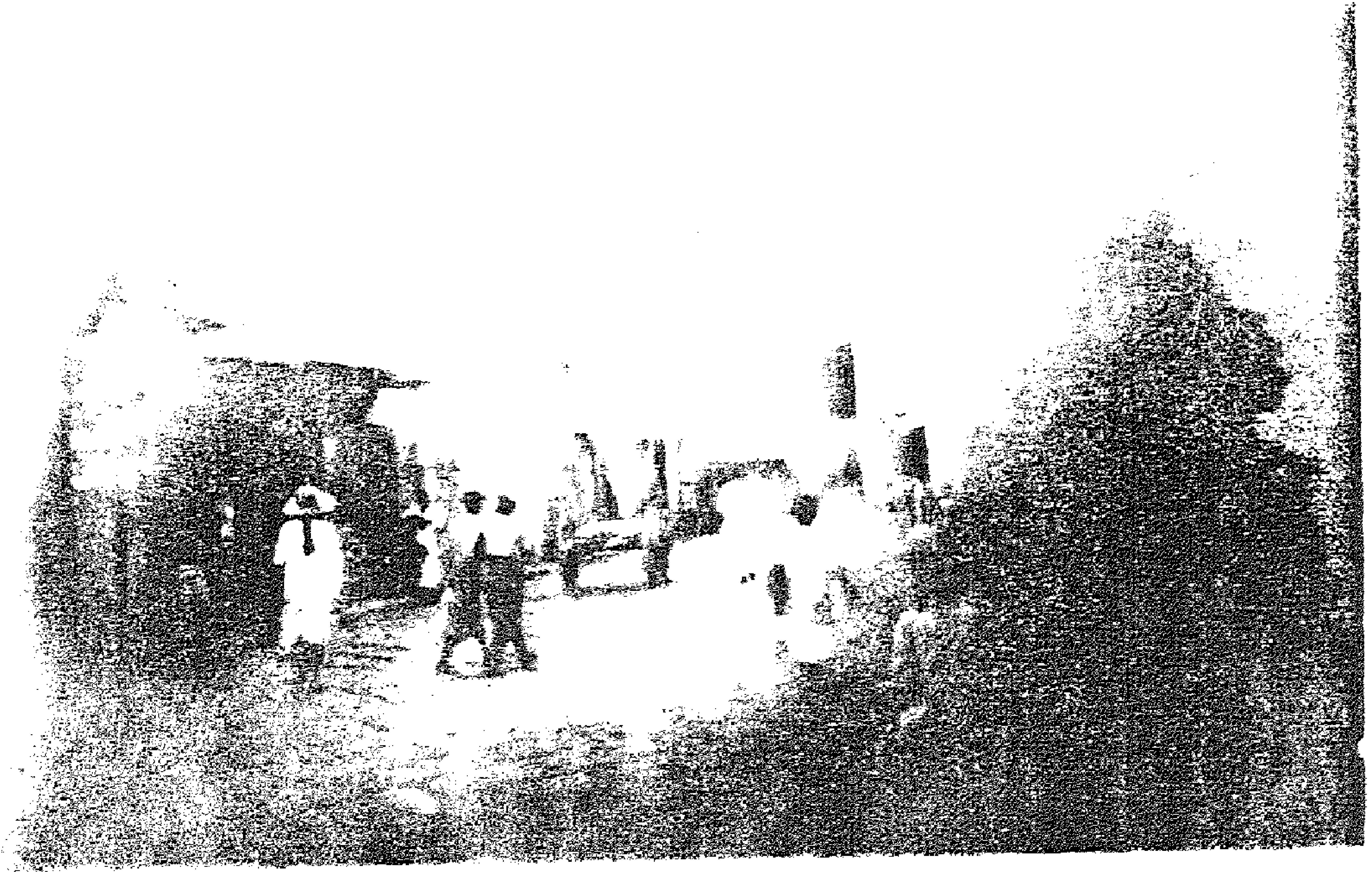
طريقهما لبيع الغنيمة، حتى لحق بهما ليتأكد بنفسه من أنهما لا تخفيان شيئا من الثمن الذى تبيعان به المصاغ.... لكنه تردد فى اللحظة الأخيرة ، وجبن عن مواصلة السير إلى دكان «على الصائغ»، أو الظهور امامه، حتى لايشتبه فيه، فاكتفى بالوقوف فى ركن لا يتيح للصائغ التعرف عليه، بينما يتيح له رؤية المرأتين، اللتين أخذتا تترددان بينه وبين الصائغ، لتحيطانه علما بما يعرضه عليهما، إلى أن انتهت المساومة إلى بيع مصاغ «عزيزة» بثمانية عشر جنيها، عاد الثلاثة بهم إلى حنفية الصدقة، لينضم إليهم الآخرون، فيقتسمون «جثة» المرأة التى قتلوها.

ولم يكن حرص الرجال الاربعة على أن يوفدوا أحدهم ليراقب عملية البيع، سوى اجراء احتياطى، يهدف إلى تحذيرهما من اخفاء جانب من الثمن، إذ كانوا واثقين بأن الصائغ يشترى المصوغات بثمن بخس، وبأنه ليس باستطاعتهم إجباره على زيادة ما يعرضه عليهما إلا فى حدود هامش ضئيل... وقد قالت «سكينة» فيما بعد أن «على الصائغ» كان يخوزقنا فى الثمن... النص... بالنص... لأنه كان فاهم إننا بنسرق المصاغ.. وماكانش فاهم إنه مصاغ نسوان مقتولة..



وكما توقعت العصابة، لم يثر مقتل «عزيزة».. التى وصفت بعد ذلك فى قرار الاتهام بأنها «عزيزة مجهولة اللقب» -أى رد فعل، فلم يتقدم أحد بإبلاغ الشرطة عن اختفائها، ولم يضطر الصول «محمد المصرى» أو زميله الصول «محمد عبيد» إلى تحرير محضر بأقوال المبلِّغ، يحيله على النيابة، فتأمر بالتحرى عن أسباب غيابها، وبإدراج اسمها فى قسم الغائبين بالنشرة الجنائية، وبالتنبيه على المبلغ بإخطار قسم الشرطة فى حالة ظهورها، ثم ينتهى الأمر -كما انتهى فى حالتى «خضرة محمد اللامى» و«نظلة أبو الليل»- بحفظ التحقيق فى البلاغ.

ولعل ذلك ما أغرى العصابة، لمواصلة العمل بنشاط، وبإيقاع سريع يلفت النظر، فبعد أسبوعين فقط من مقتل «عزيزة مجهولة اللقب» -وفى يوم الأربعاء ٩ فبراير (شباط) ١٩٢٠- كانت «ريا» و«سكينة» تجلسان - كالعادة- أمام باب منزلهما بـ «حارة النجاة» تتابعان العمل فى المحششة، حين توقفت «فاطمة» - زوجة «عوف العجوز» بائع القصب- فى طريقها من السوق إلى منزلها المواجه لمنزل «ريا» بـ«حارة على بك الكبير» لتخطر كبرى الشقيقتين، بأن اثنين من الصعايدة، قد سألا عنها. فلما علما بأنها فى منزلها الآخر بـ «حارة النجاة» اعتذرا بأنهما لا يعرفانه، وانصرفا على الرغم من إلحاحها عليهما بالانتظار قليلا حتى تستدعى زوجها من داخل المنزل، ليحل محلها فى إدارة تجارتهما، ثم تصحبهما إلى «حارة



١٩٢٤: شوارع الاحياء الشعبية بالإسكندرية

النجـــاة».. وأدركت «ريا» أن الرجلين من الزبائن القدامى الذين لا يعرفون عنوان البيت الجديد، وأن المرأة تعرض عليها خدماتها، وتطلب أجرا مقابل القيام بها. فطلبت إليها أن تقود كل من يأتى للسؤال عنها إلى مقرها فى حارة النجاد، ووعدتها بأنها سوف تعطيها «ثمن الدخان».

ولم تكد «فاطمة» تغادر «حارة النجاة» حتى عادت إليها مرة أخرى، بصحبة «نبوية» أول من ظهر بعد أن كلفتها «ريا» بمهمتها الجديدة.

وكانت «سكينة» قد غادرت الحارة لتشرب كوبا من النبيذ.

ولم تكن «نبوية» غريبة عن الشقيقتين، إذ كانت من أوائل الفتيات اللواتى ظهرن فى «بيت الكامب»، ومن أصغرهن سنا.. وقد ظلت تمارس نشاطها به، إلى أن بلغت سن الرشد -الثامنة عشرة- فأصبحت مؤهلة قانونيا للعمل فى مجال البغاء الرسمى، فاستصدرت رخصة بذلك. وانتقلت إلى «كوم بكير»، لكنها لم تنقطع عن «بيت الكامب» إلاّ عندما تابت وتزوجت من أحد الصيادين الفقراء، وأنجبت منه طفلا صغيرا.

لكن الزوج ما كاد يستدعى إلى التجنيد، حتى عجزت عن الإنفاق على نفسها، ولم تستطع الاستغناء عن الرجال، فاستجابت بسهولة -لإغواء «ناصيف أفندى»- أحد كتبة «قسم شرطة اللبان»- وأصبحت رفيقته..

وبعد فترة قصيرة من ذلك، هجرته لتعود إلى ممارسة البغاء مرة أخرى. ولكنها لم تجدد الرخصة، ولم تعد إلى «كوم بكير» إذ كان القانون يحظر على المتزوجات العمل فى مجال البغاء الرسمى. فضلاً عن أنها كانت حريصة على ألا تفقد زوجها الذى انقطعت أخباره منذ تم تجنيده. وكان تجديد علاقات العمل بينها وبين الشقيقتين، هو الذى قادها إلى قضائها المحتوم فى ذلك اليوم، وفضلا عن ذلك، فقد كانت تربطها بـ «سكينة» صلة صداقة عميقة، إذ كانتا تسرحان سويا فى الشوارع، فتصطادان الرجال وتقودانهم إلى أحد الفنادق، التى تؤجر غرفها لراغبى المتعة.

وكان أول ما لفت نظر «ريا» وهى تستقبلها بترحاب، هو التغير الذى لحق بمظهرها ، خلال الفترة التى انقضت على آخر لقاء لهما، ودل على أنها تعلمت الحكمة وعرفت مزايا الادخار.. إذ كانت ترتدى جلبابا من الكريشة البيضاء المبرقشة باللون الأزرق، فيما عدا الأكمام التى كان اللون الأحمر يبرقش أرضيتها. وفضلا عن ذلك فقد كانت تحيط كل معصم من معصميها بثلاث غوايش، وتحيط رقبتها بلبّة، وتعلق فى أذنيها حلقا.. ومع أن الغوايش كانت من النوع الرفيع، كما كانت اللبة (الكردان) من فرع واحد.. تتناثر فيه «كريات ذهبية متناهية فى الصغر» مما دلّ على أن المصاغ لم يكن ثميناً، فإن «ريا» ما كادت تراه، حتى اتخذت قرار القتل على الفور.

ولما لم تكن «نبوية» غريبة عن «حسب الله» أو «عرابى» ـ اللذين كانا يعرفانها منذ العهد الذى كانت فيه، شبه مقيمة بـ «بيت الكامب» ـ فقد نادت عليهما «ريا» لكى يرحبا بها، وبإيماءة خفيفة، لفتت نظرهما إلى ما تتزين به المرأة من مصاغ.. ومن دون كلام، تبادل الثلاثة نظرات خاطفة، أسفرت عن تصديق الرجلين على الحكم بإعدام «نبوية»، وعلى الفور شرعت «ريا» بالتنفيذ، فلم تدعها إلى دخول البيت، واعتذرت بأن المكان مزدحم، ودعتها إلى العودة معها إلى «حارة على بك الكبير» لكى ترحب بها كما يليق بصديقة قديمة لم ترها منذ فترة غير قصيرة..

وكانت «سكينة» تحتسى الكوب الأخير من زجاجة النبيذ التى طلبتها، حين وجدت «ريا» تجلس على المقعد المواجه لها فى «خمارة كرياكو» لتبلغها بأن «نبوية» قد جاءت لتزورهما، وأنها تلح على رؤيتها.. وأسعد الخبر «سكينة» ـ التى قالت فيما بعد إن البنت «كانت عزيزة علىّ قوى.. وغالية عندى ع الآخر» ـ فعدلت عن مواصلة السُّكر.. ودفعت للخواجة ستة قروش ثمنا لثلاثة أرباع أقة من النبيذ احتستها خلال جلستها، وانصرفت مع شقيقتها.

وفى الطريق قالت لها «ريا» إن «نبوية» ظلت تسأل عنها منذ وصولها، وحين أجابتها بأنها فى الخمارة، استأذنت منها لكى تلحق بها إلى «حانة كرياكو»، لولا أنها أقنعتها بخطورة ذلك عليها، إذ كانت شرطة الآداب العامة، تقوم بحملات تفتيش مفاجئة على هذا النوع من الخمارات الشعبية، وتلقى القبض على من تجده بها من النساء، لاشتباهها فى أنهن ممن يمارسن الدعارة السرية، وتحيلهن إلى استبالية - أى مستشفى - المومسات للكشف عليهن طبيا، والتأكد من خلوهن من الأمراض السرية..

وفى لطشة السكر أعلنت «سكينة» ترحيبها بالفكرة، وقالت إنها ستدعو صديقتها لكى تحتسى معها أقة أخرى من النبيذ، مما اضطر «ريا» لأن تقول لها بحزم، إنها جاءت بها على الرغم من سكرها الذى يجعلها غير ذات فائدة، لكى تقوم بمهمة واحدة، هى أن تحول دون انصراف «نبوية» قبل أن يظهر بقية الرجال، و«يشوفوا شغلهم معاها».

وهكذا أدركت «سكينة» -لأول مرة- أن صديقتها العزيزة، سوف تكون الضحية الرابعة فى قائمة القتل وأنها تجلس الآن إلى جوار المقبرة التى سوف تضمها إلى جوار «خضرة محمد اللامى» و«نظلة أبو الليل» و«عزيزة مجهولة اللقب» فأحزنها ذلك أشد الحزن، ولعلها تمنت لحظتها، لو أن الفتاة لم تلح على رؤيتها، ولو أن الرجال كانوا قد «شافوا شغلهم» فقتلوها من دون أن تعرف أو تشارك حتى لو خسرت فى سبيل ذلك النصيب الذى سوف ترثه من تركتها.. ولأنها كانت تعلم أنه لا فائدة من اعتراضها، فقد سارت إلى جوار شقيقتها التى كانت تحمل فى يدها زجاجة صغيرة، اشترتها من الخمارة، أدركت «سكينة» أنها تحتوى على «اسكولانس» فارتجف جسدها..

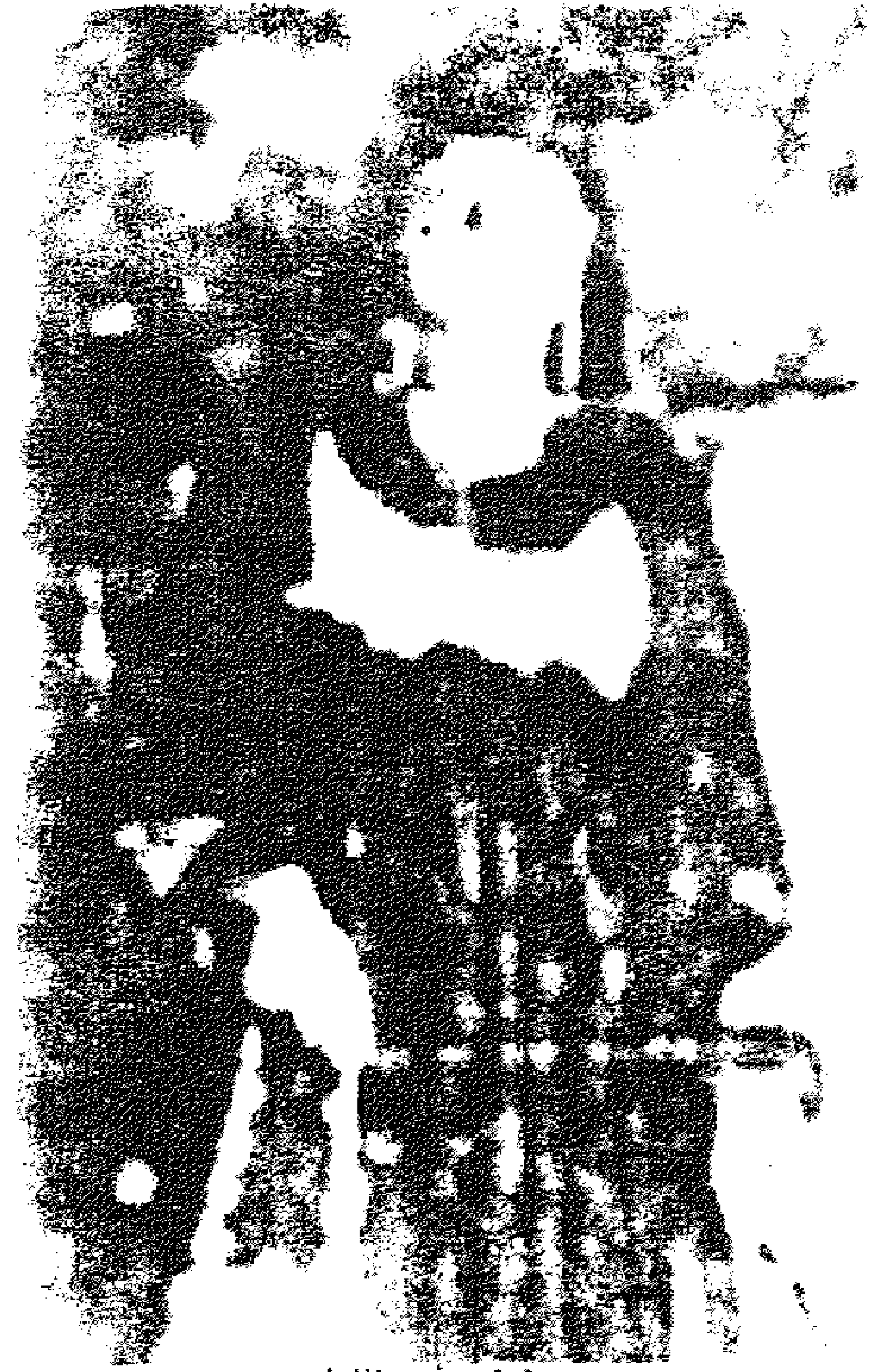
ولأن مشاعر الحزن كانت قد قهرتها حين دخلت الغرفة، لتجد «نبوية» تجلس على الحصيرة، بين «عرابى» و«حسب الله»، فقد أقبلت عليها، تحتضنها وتقبلها، وهى تقول لها:

- «نبوية.. إنت جيتى يا أختى».

بنبرات يكاد البكاء يخنقها، حتى بدت أقرب إلى نواح الوداع منها إلى الترحيب.

ولأن «نبوية» كانت قد احتست مع الرجلين بعض أكواب النبيذ فإنها لم تسترب فى الأمر، ولم تتنبه إلى اللوعة التى كانت تلون صوت «سكينة» أو إلى الحرارة التى احتضنتها بها فاستقبلتها بمرح، ودعتها للجلوس بينها وبين «حسب الله» الذى أفسح لها مكانا بينهما، لكنه فوجىء بـ «سكينة» تدعو الفتاة للخروج معها إلى الخمارة، لكى تدعوها إلى كأس، ولأن لديها «كلام سر» تريد أن تقوله لها.

وبسرعة خاطفة تدخلت «ريا» لتوحى بأن العرض الذى تقدمه شقيقتها هو مجرد مزحة، فتشير إلى زجاجة «السكولانس» قائلة بمرح مصطنع أن «الولية السكرانة» هى اللى اشترتها خصيصا من أجل «نبوية» وأسرع «حسب الله» يصب للفتاة كأسا، مما زعم بأنه «كونياك مفتخر» أحضرته صديقتها لها وحدها احتفاء بزيارتها، فلم تتنبه إلى أن «ريا» قد رفعت «سكينة» إلى خارج


نظلة أبو الليل

الغرفة، لكى تطلب إليها هامسة أن تفيق من سكرها، وأن تراقب تصرفاتها حتى لا تفسد الأمر، فلم ترد عليها، ولم تعد مرة أخرى إلى الغرفة استجابة لنداء «نبوية». وغادرت المنزل كله إلى «خمارة كرياكو» لتحتسى كوبين آخرين من النبيذ..

وأدرك الرجلان أن «سكينة» فى حالة من السكر البين، تهدد المشروع كله بالفشل، إذا لم يسرعا بالتنفيذ. من دون انتظار لظهور «عبدالرازق» و«عبدالعال» اللذين بات واضحا أن لديهما ما يشغلهما، وإلاّ لما تأخرا كل ذلك الوقت الذى انقضى منذ تركا لكل منهما رسالة بضرورة المرور عليهما.

وكان مما شجعهما على اتخاذ قرار الانفراد بالتنفيذ، ان «نبوية» كانت فتاة قصيرة رفيعة، يسهل عليهما - دون مساعدة من الآخرين- شل مقاومة جسدها الضئيل، خاصة بعد أن لعب «السكولانس» برأسها، فأفقدها كل سيطرة على نفسها. وكان الكوب الأخير منه، ما يزال بيدها، حين عادت «سكينة» مرّة أخرى، لتجدها تجلس على حجر «حسب الله»، وقد فكت العصابة التى كانت تحيط بشعرها الأسود الطويل، فانسدل على كتفيها، بينما كان «عرابى» يتظاهر بالشرب من إحدى القلل، ليعود بالمنديل الذى كان مغمورا فى مياه الصينية.. فغادرت الغرفة على الفور، حتى لا تشهد مصرع الفتاة التى أحبتها وصادقتها وسرحت معها فى الشوارع بحثا عن الرزق..

وكان آخر ما سمعته -وهى تقف فى الباحة الحالكة الظلام أمام باب الغرفة- صوتها وهى تقول لها:

ـ أنت فين يا «سكينة».. ما تيجى يا أختى تقعدى معانا.

إذ لم تكد «نبوية» تنتهى من عبارتها، حتى أحاط «حسب الله» جسدها الضئيل، بذراعيه القويتين، ومكنه جلوسها على حجره من السيطرة على حركتها بصورة أفضل مما لو كانت واقفة، كما كان يحدث مع الضحايا الثلاث السابقات، بينما زحف «عرابى» ليجلس على قدميها وساقيها، فى اللحظة ذاتها التى كان يكتم فيها أنفاسها بمنديله المبلل بالماء.

ومرة أخرى فرّت «سكينة» إلى حانة «كرياكو» لكى تغرق أحزانها على صديقتها. فلم تشاهد ما جرى بعد ذلك، بل ورفضت أن تصحب -فى اليوم التالى- شقيقتها «ريا»، إلى دكان «على الصائغ» لكى تبيعا مصوغاتها، احتجاجا على الغدر بالحبيبة الغالية، فصحبها زوجها «حسب الله»، وعاد الاثنان ليقولا بأنهما قد باعاها بأربعة عشر جنيها. وكانت أحزان «سكينة» قد وصلت إلى الدرجة التى دفعتها لعدم التدقيق فى محاسبتهم، فتقبلت من دون اعتراض قول شقيقتها وزوجها بأنهما قد اقتطعا جانبا من الثمن لشراء أسمنت وجبس، يستخدمانه كملاط يلصقون به البلاط الذى يغطى سطح المقبرة. بعد أن ازدحمت بالجثث، وأصبح من الضرورى إحكام غلقها، حتى لا تتسرب منها الروائح إلى أنوف الجيران، أو يلفت عدم استواء البلاط تحت الصندرة. نظر أحد ممن يترددون على الغرفة. وصدقت من دون تعليق، إدعاءهما بأنهم سيحتفظون للرجلين الغائبين بنصيبيهما، على الرغم من عدم مشاركتهما فى العملية، تنفيذا لما اتفقوا عليه، عندما بدأوا العمل معا.. بل ولم تعتن بسؤالهم، عن العملية الحسابية التى انتهت بتقلص نصيبها من إرث صديقتها إلى جنيه ونصف الجنيه فقط.

ولعل «سكينة» كانت الانسان الوحيد فى ذلك العالم الواسع، الذى حزن على وفاة «نبوية». فمع أنها - طبقا لأقوال «سكينة» نفسها- كانت زوجة وأم ورفيقة سابقة، لأحد كتبة «قسم شرطة اللبان»، إلا أن احدا من هؤلاء لم يقلق لغيابها، ولم يسع للبحث عنها، ولم يقدم لأية جهة رسمية بلاغا باختفائها. ولابد أن السبب فى ذلك، يعود إلى أنها كانت مومسا تائبة. فغلب على ظن الجميع، بأنها تابت عن توبتها، واستأنفت نشاطها. وهجرت الاسكندرية لتعمل فى مدينة أخرى. قد تكون القاهرة... وقد تكون اسيوط.

ولابد أن ذلك قد اسعد الصول «محمد المصرى» الذى كان واثقا بأن كل النساء اللواتى تختفين، يهربن مع رجال، أو يهاجرن إلى احدى نقط المومسات العديدة فى انحاء القطر.





زيارة القبور: لوحة للفنان السكندري محمود سعيد

الفصل الرابع

ربّات الصون والعفاف











كانت الساعة تقترب من الثامنة من ليل الاربعاء ١١ فبراير (شباط) ١٩٢٠، حين غادر «سعيد» - الابن الاصغر للحاج «حسين على وفيق» تاجر البقالة- دكان ابيه فى «سوق عمود السوارى»، عائدا إلى منزل الاسرة القريب. وبعد نصف ساعة أخرى، كان الأب قد انتهى - بمساعدة ابنه الاخر «على» - من ادخال اجولة البضائع المعروضة على الرصيف، ومراجعة حساب اليوم، فأغلق دكانه، وغادر الاثنان السوق، وهما يحاذران من الخوض فى البرك الصغيرة التى تملأ الشوارع من أثر الامطار المتفرقة التى ظلت تتساقط طوال ذلك اليوم.

وكان «شارع ابن العوام» الذى يقود إلى المنزل يكاد يخلو من المارة بسبب البرد الشديد، والصمت يحط على محلج القطن الذى يقع على ناصية يتفرع عندها - من الشارع - الزقاق الضيق، الذى يقيمون فى أحد منازله الثلاثة، لذلك بدا غريبا وباعثا على الدهشة، أن يشاهد «الحاج حسين»- على ضوء الفانوس ذى الضوء الخافت المعلق على باب منزله، رجلا يقف على مبعدة امتار قليلة من الباب، كأنه قد خرج منه، أو يشرع فى الدخول إليه، وزاد من دهشته أن الرجل ما كاد يراه هو وابنه حتى بوغت وارتبك، ثم تراجع عائدا إلى «شارع ابن العوام»- إذ كان الزقاق مسدودا من الطرف الآخر- فأتاح ذلك للحاج «حسين» رؤيته عن قرب، وكان يرتدى جلبابا من اللون البنى الداكن، وفوقه معطف، ويضع على رأسه طربوشا.... وكان «على» هو الذى بادر بتفسير ارتباك الرجل، تفسيرا يليق بخيال مراهق فى الثالثة عشرة من عمره، فقال لأبيه:

- الظاهر الراجل افتكرنا حرامية.

ولما لم يكن لدى الأب - آنذاك - تفسير آخر، فقد رد عليه قائلا:

- يمكن يكون خفير من بتوع المحلج.

وقبل أن يصل الاثنان إلى الشقة التى تقطن بها الأسرة، تسللت إليهما روائح الطعام الشهية، فتأكد لهما أن «سعيد» قام بالواجب، وأبلغ الأم «نبوية بنت جمعة» بقرب وصولهما، فشرعت فى اعداد العشاء.. وما كادوا يدخلون حتى تحلقوا حول الطبلية، وتناولوه بشهية، بعد يوم بارد من العمل الشاق فى الدكان... وعندما أوى «الحاج حسين» إلى فراشه فى تلك الليلة، كان قد نسى كل شىء عن ذلك الرجل الغريب، الذى وجده يحوم حول منزله، والذى لم يلتق به مرة أخرى، إلا بعد تسعة شهور، ليكتشف أن اسمه هو: حسب الله سعيد مرعى.

ولم يكن صباح يوم الجمعة ١٣ فبراير (شباط) ١٩٢٠يوحى بأن اليوم سوف يختلف عن غيره من الايام، فقد بدأ بنفس الايقاع الرتيب الذى تمضى به حياة «الحاج حسين» وأسرته، منذ سنوات طويلة،

فاستيقظ الرجل مبكرا. وبينما كان يحتسى شاى الصباح، استمع من دون اهتمام إلى ثرثرة زوجته التى كانت تطلب من ابنهما الصغير «سعيد» أن يترك لها حذاءه لكى تذهب به إلى من يصلحه، وهى فى طريقها للاطمئنان على أحوال أبناء شقيقتها «جليلة» الذين سافرت أمهم إلى السويس، ثم وهى تشير إلى أنها سوف تطبخ لهم صينية فريك بالحمام.

وفى أعقاب ذلك غادر المنزل بصحبة ابنيه إلى «سوق العامود»، ليفتح الدكان.... ويستغرق فى مشاكل كل يوم...

فى العاشرة صباحا، غادرت «نبوية بنت جمعة» البيت... وكانت ترتدى جلبابا من الحرير الاسود، مشغولا - عند الصدر وفى الأطراف- بزخارف من الحرير الأزرق.. وفوقه ملاءة سوداء، وتغطى وجهها ببرقع تتوسطه قصبة من الذهب، تستقر فوق أرنبة أنفها... وعلى مبعدة عشرين مترا من منزلها، تركت حذاء ابنها «سعيد» لدى اسكافى يجلس على طوار الزقاق، لكى يقوم باصلاحه، ثم عرجت على منزل شقيقتها المسافرة، فجلست مع أبنائها بعض الوقت، وتفقدت أحوالهم... ثم غادرتهم، لتدرك السوق قبل صلاة الجمعة.

ولم يتتبع أحد خطوات «نبوية» التالية لذلك، أما المؤكد فهو أنها ظهرت فى بيت «ريا» و «سكينة» بـ «جارة النجاة» حوالى الساعة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم، حيث كان المترددين على البيت يعرفونها باسم «فهيمة»، وبهذا الاسم المستعار كانت «نبوية»- التى يعرفها الناس فى «كوم الشقافة»، حيث تسكن، وفى «العامود» حيث يوجد محل زوجها، كزوجة فاضلة لرجل محترم ومستور الحال، وأم لخمسة ابناء - تمارس البغاء السرى منذ سنوات فى البيوت التى يديرها «آل همام».

وكما هو الحال فى ذلك الوقت من النهار، فقد كان العمل فى المحششة يدور على قدم وساق، فما تكاد الغرفة الواسعة التى تحتلها، تخلو من الرواد حتى تمتلىء برواد جدد... وكان ثلاثة من الرجال يجلسون كالعادة أمام دكان «أبو أحمد النص»- هم «عرابى» و«عبد العال» و«حسب الله» - يحتسون الخمر، ويمزون بأنفاس الحشيش، ويستمتعون بدفء الشمس التى ظهرت بعد اختفاء أيام.. ويشدون المسخرة على أوهام «النص» الذى لم يكن - تحت وطأة الخمر والحشيش- يكف عن الزعم بأنه يبحث عن مكان واسع لكى ينشىء فيه «عربخانة» ضخمة، تضم عددا كبيرا من الخيول ومن الحمير، وأسطولا من عربات الحانطور، وعربات الكارو ويعمل فيها تحت إمرته، عشرات من العربجية، يلتزمون جادة الصواب، وإلا فسوف يعلمهم الأدب، إذ ليس عنده، لمن يسوق العوج منهم، إلا الضرب بالجزمة القديمة.

ولم يكن حظ بيت البغاء من اقبال الزبائن، أقل من حظ المحششة فى يوم الجمعة ذاك... صحيح أنه يوم مقدس، تستحب فيه العبادة، لكن الخطائين من أصحاب المزاج كانوا ينظرون إليه باعتباره

يوم الاجازة الذى يوفر لهم وقتا لكى يمارسوا فيه خطاياهم وهم متحررين من ضغط العمل الذى يمارسونه بقية ايام الاسبوع... وكان قسم من الفتيات اللواتى يعملن فى البيت، ومنهن «عزيزة» و «عائشة» و «سمارة» يجلسن فى الحارة، إلى جوار دكان الطبيخ الذى تديره «ستوتة بنت منصور»، يستمتعن بدفء الشمس، ويثرثرن، إلى أن يرسلهن أحد سكان الحارة لشراء شيء من السوق، أو تخرج «ريا» من داخل المنزل، فتطلب احداهن لكى تصعد مع أحد رواد المحششة إلى غرفة «سكينة» بالطابق الثانى، حيث المقر الرسمى لبيت البغاء، فإذا كان الزبون من اصحاب المزاج اصطحبت البنت معها قنينة من الكونياك، يحرص «النص» على أن يملأها لها من البرميل المغشوش بالماء والسبرتو الاحمر....

ولأن «فهيمة» لم تكن من النوع الذى يتجاسر على الجلوس فى الحارة، حتى لايراها أحد ممن يعرفونها، فقد ظلت- كعادتها- تجلس مع «ريا» فى صالة المنزل، تتسامران فى ركن بعيد عن المسار الذى يتحرك فيه المترددون على المحششة... ومع ذلك فقد أغرى مظهرها المحترم والمحتشم أكثر من زبون من زبائن بيت البغاء فى ذلك اليوم، فطلب الاختلاء بها... لكنها اكتفت باثنين منهم، أكرمها كل منهما، فأرسل «ريا» لتشترى له أقة من براندى «النص» المغشوش... وقد أسعدها هذا التكريم، لكنه لم يدفعها للتنازل عن أجرها، صحيح أن الرغبة هى التى كانت تدفعها إلى السير فى هذا الطريق الشائك، فضلا عن أنها لم تكن فى حاجة ملحة إلى المال، إلا أنها كانت تصر على أن تحصل على أجرها من الرجال الذين يختلون بها، كأى مومس محترفة إذ كانت تعتبر الاجر مقياسا لمدى رغبة الطرف الآخر فيها.

وكان الوقت قد اقترب من العصر، وثقل رأسها من كثرة، ما شربته من براندى مغشوش ملأ معدتها الخاوية من الطعام، فاستأذنت لكى تعود إلى بيتها.... وأخذت «ريا» تلح عليها فى البقاء، لعل الظروف تسوق إليها زبونا ثالثا، بينما تحركت «سكينة» بسرعة - بعد أن تلقت إشارة بذلك من شقيقتها- نحو باب البيت لتعود وفى أعقابها «عبد الرازق» الذى تظاهر بأنه فى طريقه إلى المحششة، ثم توقف ليحيى «ريا» و «سكينة» ويتفحص «فهيمة» قبل أن يقول لـ «ريا»:

- أنا عاوز الست دى.

ولم تكن «فهيمة» تجهل المكانة التى يحتلها «عبد الرازق» فى «حارة النجاة» وقد اعتبرت اختياره لها- وهو من صبوات الجهة- شهادة لأنوثتها التى كانت تطارد بقوة آخر فلولها الهاربة، فلم تعارض فى البقاء للاختلاء به، وإن كانت قد تحفظت بأنها لا تريد أن تتأخر كثيرا... وكان هذا الطلب هو الذى أتاح لـ «ريا» الفرصة التى تنتظرها، فاعتذرت بأن غرفة «سكينة» بالطابق الثانى، مشغولة بزبون يختلى فيها باحدى الفتيات، ولن تخلو قبل ساعة، وبأن الزحام فى المحششة قد وصل فى تلك

الساعة إلى ذروته، واقترحت عليها - إذا كانت تريد ألا تتأخر- أن تتسلل بصحبة «سكينة» إلى بيت «أم أحمد النص» المواجه لمنزل الشقيقتين، حيث المكان أكثر هدوءا، وأقل زحاما.. وحيث توجد غرفة خالية بالطابق الأرضى.. يمكن استخدامها على الفور..

ولم يلفت خروج «سكينة» من منزلها بصحبة امرأة تتلفع بملاءتها، ليدخلا إلى المنزل المقابل - الذى يقع فيه «دكان «النص» وتسكن فيه «أم أحمد» - نظر الرجل الذى كان مايزال يحدث الجالسين عن مشروع المريخانة، ولكنه لفت نظر زوجته، التى أدركت أن الزحام قد دفع الشقيقتين إلى الاستعانة بالغرفة الخالية فى المنزل الذى كانت وكيلة عن صاحبه فى تأجيره، لكى يختلى فيها أحد الرجال بالمرأة التى رأتها بصحبة «سكينة». ومع أنها لم تكن تشك فى أنها ستتقاضى ايجار الغرفة طبقا للقواعد التى اتفقوا عليها فيما بينهم عندما أسسوا مركز الترفيه متعدد الاغراض قبل شهور، فقد ألمحت بذلك لـ «ريا» التى عبرت الحارة، لكى تلحق بالمرأتين، وهى تحمل كوبا من عصير القصب، اشترته من دكان «النص»، فأشارت بأصبعها إلى عينيها، كضمان لحقوقها المشروعة فى الحصول على إيجار الغرفة.

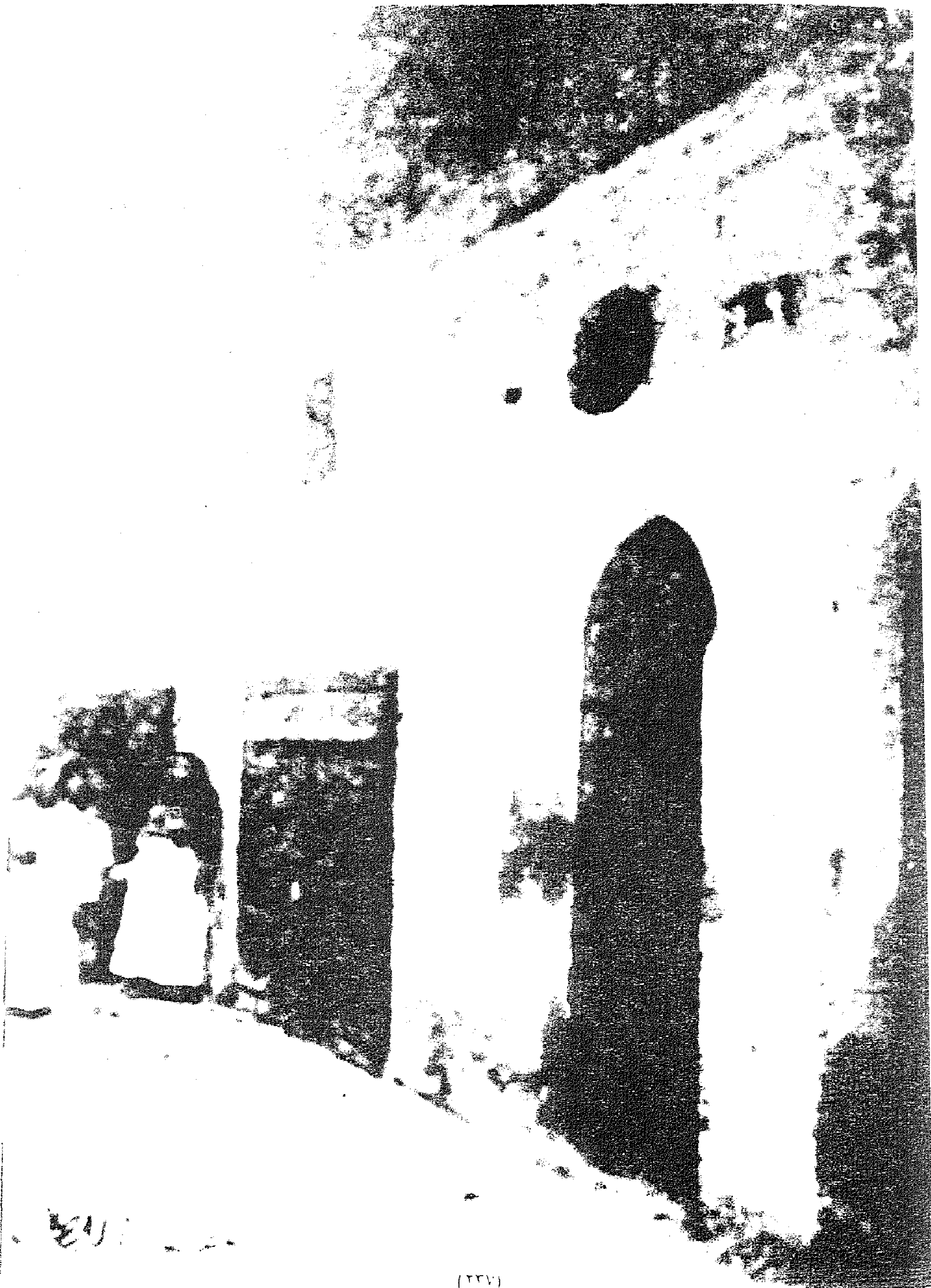
وكان «عبد الرازق» هو أول من ترك مجلسه أمام دكان «النص»، ليدلف من باب المنزل الملاصق له، فيعبر الصالة الواسعة، التى تفتح عليها أبواب الغرف الأربع التى يتكون منها الطابق الأرضى، وكانت ثلاثة منها مغلقة، أما الباب الرابع - الذى يقع على يمين الداخل- فكان مفتوحا.. وحين دلف منه، وجد «فهيمة» تجلس على الصندرة، وإلى جوارها «ريا»، وفى اعقابه دخلت «سكينة» بلحاف قطنى جاءت به من المنزل الآخر، لتفرشه على الصندرة، إذ كانت الغرفة خالية من الأثاثات والمفروشات، كما هى خالية من السكان، وعندما خلعت «فهيمة» ملاءتها وبرقعها، استطاع «عبد الرازق» أن يتفحص مفردات الفنيمة، فقد كانت المرأة، تزين اصابعها بأربعة خواتم، ومعصميها بزوج من المباريم، وعنقها بكردان، وأذنيها بقرط. وفضلا عن قصبة البرقع الذهبية، فقد كانت تحيط أحد كاحليها بخلخال من الفضة، مزين كذلك، بجلاجل من الفضة.

وأسعدت نظرته المرأة، بقدر ما أخجلتها، إذ ظنته يتأمل مفاتن أنوثتها... أما هو فقد وجد أن الغنيمة تستحق الانفاق عليها بسخاء، فسألها برقة:

- نجيبوا إيه نتغدوا؟!.

فقالت: اللى تجيبوه.

فأخرج نصف ريال من جيبه، ناوله لـ «سكينة» وطلب إليها أن تشترى فسيخا وبصلا، وكلف «ريا» بأن تشترى نصف أقة كونياك من دكان «النص». وحين عادت به، ملأ «عبد الرازق» الكوب لـ «فهيمة» واكتفى بكمية ضئيلة، معتذرا بأنه قد شرب كثيرا. ولأن الكونياك الذى كان يبيعه «النص» كان - طبقا لأقوال «سكينة» - من النوع الذى يلطش بسرعة، فقد بدأ أثر السكر البين



منزل أحمد أم بشارع النجاة

على المرأة، التى كانت تلك هى المرة الثالثة التى تحتسى منه كمية غير قليلة خلال ساعات.

وكانت «سكينة» نفسها، فى ذلك اليوم «متبرجلة» بسبب وفرة ما شربته من كونياك «النص» اللعين. وكان عليها بعد أن عادت بالفسيخ أن تعود لتجلس إلى جوار «أم أحمد» فتشغلها عن مراقبة باب المنزل، حتى لا تكتشف أن المرأة التى دخلته، لم تخرج منه، ولم يغادر الرجال الثلاثة الآخرين مجلسهم أمام دكان «النص»، حتى لا يلتفت إلى شىء مما يجرى حوله.

وانتهز «عرابى» فرصة سانحة فدخل إلى المنزل، فوجد باب الغرفة مفتوحا، و«عبد الرازق» يتناول الطعام مع المرأة، ويشجعها على احتساء مزيد من الكونياك، فجلس معهما بعض الوقت، تناول فيه قطعة من الفسيخ. وجاءت «ريا» فحملت صينية الطعام وانصرفت بها. واثناء انصرافها غمزت للرجلين الآخرين، فانتهزا فرصة انشغال «النص» ببيع الخمور لبعض زبائنه وتسللا إلى المنزل، ليجدا المرأة ترقد على الصندرة وهى مخمورة تماما، وعاجزة عن ادراك ما يجرى حولها.

وكانت بين اليقظة والنوم، حين تقدم الرجال الاربعة، فشل أحدهم حركة قدميها، وشل الآخر حركة ذراعيها، وتكفل الثالث بتثبيت رأسها، وكتم الرابع انفاسها بطرف اللحاف.

وعلى هذه الصورة لفظت «نبوية بنت جمعة» أنفاسها الأخيرة، ورحلت عن الدنيا، وهى تحمل على جسدها كل آثار خطاياها التى كانت ترتكبها سرا... وتظن أنها لن تفتضح أبدا.

ولم يستغرق دفن «نبوية بنت جمعة»، وقتا طويلا.. فعلى العكس من المقبرة الواقعة فى غرفة «ريا» بـ «حارة على بك الكبير» - التى أعيد تبليطها حديثا، مما اضطرهم إلى اغلاقها مؤقتا والبحث عن بديل لها- فإن أرضية الغرفة التى قتلت فيها الضحية الرابعة، لم تكن مغطاة بالبلاط، وهو مايسر على الرجال الأربعة، حفر طبقة الجير والحصا التى كانت تغطيها، ثم تركوا «عبد الرازق» ليستكمل وحده، حفر طبقة التراب فى المدفن البديل، الذى اختاروه - كالعادة- تحت الصندرة.

وبعد أقل من ساعة، كان قد انتهى من كل شىء، وانضم إلى الآخرين فى جلستهم، أمام دكان «النص» الذى لم يتنبه إلى شىء مما يجرى حوله، إذ كان مشغولا طوال الوقت بالحديث عن مشروع العربخانة.

لكن زوجته ـ التى لم تغادر مجلسها أمام البيت رقم ٨ بـ «حارة النجاة» ـ لم تكن قد رفعت عينيها عن باب البيت المقابل له، منذ اللحظة التى عبرته فيها «فهيمة» إلى اللحظة التى بدا فيها، وكأن جلسة الفرفشة قد انتهت، إذ كف الرجال الاربعة عن حركتهم البندولية، بين البيت والدكان وعادت «ريا» وهى تحمل اللحاف والملاءة، وإلى جوارها «سكينة» تضع تحت إبطها كومة من الملابس، لم تكن «أم أحمد» فى حاجة إلى ذكاء كبير، لتدرك أنها ملابس

«فهيمة» إذ كان ذيل الجلباب الاسود المطرز بزخارف زرقاء، يطل من أحد جوانب الكومة، وعلى باب البيت استوقفتهما لتسأل «سكينة» عما تحمله تحت إبطها، وتمد يدها لتتناول كومة الملابس، فتقلب فيها، ثم تسألها بمكر:

- هى «فهمية» راحت فين؟!

واندفعت «ريا» لترد نيابة عن شقيقتها التى كانت - كالعادة - فى حالة سكر بين، خشيت معه، أن ينفلت لسانها، فقالت إن «فهيمة» قد انصرفت منذ اكثر من ساعة، ثم دست يدها فى صدرها، لتعود بربع ريال قيمة ايجار الغرفة، وقد ظنت أنه الهدف من سؤال المرأة عن «فهيمة»... لكن «أم أحمد» تجاهلت يدها الممدودة، وواصلت الحديث مبدية دهشتها، لأنها لم تر «فهيمة» تخرج من باب البيت.

آنذاك لم تستطع «سكينة» أن تتحكم فى لسانها، ونازعتها رغبة فى العبث عجزت عن مقاومتها، فقالت لها: دورى عليها تحت الصندرة. فلم تلق إليها بالا، وعادت لتقلب فيما بين يديها من ملابس، قبل أن تواصل حديثها مع «ريا» قائلة:

- الملاية والبرقع دول شبه اللى كانت لابساهم «فهيمة».

ولما لم ترد عليها الاخرى... أضافت:

- أنا آخدهم... ومانيش عاوزة فلوس.

ودون أن تنتظر اجابة من إحداهما وضعت الملابس تحت ابطها، وانصرفت.

ولم يعد هناك شك لدى الشقيقتين فى أن «أم أحمد «النص» قد استنتجت أن «فهمية» قد قتلت فى الغرفة الخالية بالطابق الارضى من المنزل الذى كانت وكيلة عن صاحبه الحاج «شعبان عبد الرازق» فى تأجيره، وتحصيل الايجارات ممن يسكنون به، وأنها قدرت نصيبها من الغنيمة - كشريك سابع - بما يوازى خمسة جنيهات، هى قيمة الملاءة الحرير، وقصبة البرقع، فلم تعارضا فى هذا التقدير، لكن حديثا صريحا ومباشرا حول ذلك، لم يدر بينهما وبينها آنذاك، أو بعد ذاك... وباعت «أم أحمد» الملاءة، لكنها احتفظت بالقصبة، بعد أن تبين لها أنها من النحاس المطلى بالذهب، لتكون - بعد خلخال «خضرة محمد اللامى» التى أهدته إليها «سكينة» - الدليل الثانى، الذى عثرت عليه الشرطة لديها، فكاد يقودها إلى المشنقة.

وقد ثبت - فى اليوم التالى - أن تقدير «أم أحمد» لما كانت تتزين به «فهيمة» من مصاغ، وحسبت على أساسه نصيبها من الغنيمة، كان تقديرا دقيقا يليق بامرأة تعمل «دلالة»، تشترى وتبيع، وتعرف تحركات الاسعار فى السوق... إذ اشتراه «على الصائغ» بما يقرب من ثلاثين جنيها، دفع منها ثمانية عشر جنيها ثمنا لزوج الاساور، وستة ثمنا للكردان، وأربعة جنيهات ثمنا لكل من الحلق والخلخال والخاتمين... فخص كل منهم من الغنيمة خمسة جنيهات...

وكان اختفاء «نبوية بنت جمعة» مفاجأة مذهلة، وغير متوقعة لزوجها الحاج «حسين على وفيق»، إذ ما كاد يعود من

دكانه فى التاسعة من مساء ذلك اليوم، فلا يجدها - كعادته كل يوم - فى البيت، حتى بدأ رحلة شاقة للبحث عنها، لم تتوقف لحظة واحدة، خلال الشهور الثمانية التالية. وعلى العكس من بقية أسر ضحايا عصابة «ريا» و«سكينة» فقد كانت «نبوية بنت جمعة» هى الضحية الوحيدة، التى أبلغت اسرتها الشرطة عن غيابها فى نفس اليوم بعد أن استبعد زوجها أن تكون قد قررت المبيت فى مدافن العمود إلى جوار قبر ابنتها، إذ كانت قد زارت القبر، يوم الخميس السابق على اختفائها، وبعد أن تأكد أنها غادرت بيت اختها قبل صلاة الجمعة، فتوجه من فوره إلى «قسم شرطة مينا البصل» ثم إلى «قسم شرطة اللبان» ليبلغ عن اختفائها، وظل يجوب الشوارع فى الانحاء المتطرفة، بصحبة شقيقه، وابنه «على» إلى أن طلع عليهم الصباح، فتناولوا افطارهم، وكلف الأب شقيقه بأن يفتح الدكان ويديره،نيابة عنه، بينما واصل هو البحث فى مختلف مستشفيات الاسكندرية.

ولم يكن القلق على حياة الزوجة الغائبة، هو الدافع الوحيد الذى جعل الحاج «حسين» يهتم، كل هذا الاهتمام بالبحث عنها، إذ لم تلبث شكوك أهل الزقاق، بأن وراء اختفائها رجل، أن انتقلت إليه، وبدأ يتنبه مثلهم إلى أنها كانت تهتم بزينتها اهتماما مبالغا فيه، بالقياس إلى من هم فى مثل سنها... ولما لم يكن سهلا عليه أن يصدق أن المرأة التى عاش معها ربع قرن، وانجب منها ستة ابناء يمكن أن «ترافق» أحد الرجال، وتهرب معه، وقد يكون قد ألحقها بأحد بيوت الدعارة السرية أو العلنية، فقد أهمل تجارته، وهجر دكانه، واندفع يبحث عنها، لا لكى يعثر عليها، بل لكى يكتشف ماخفى عليه من اسرار حياتها معه، فلم يترك وسيلة لذلك إلا ولجأ إليها، بما فى ذلك اللجوء إلى الرمالين وقراء الطالع.

وحين لجأ أخيرا إلى أحد العرافين، فتح له «المندل» على يد ابنه الصغير «على»، الذى نظر إلى كفه، وقال إنه يرى فيه امرأة ترتدى الملابس الافرنجية وإلى جوارها امرأة ترتدى ملابس بلدية، تشبه ما كانت ترتديه أمه، استنتج «الحاج حسين» أن امرأة قد أغوت زوجته وضمتها إلى أحد بيوت البغاء، وجزم بصحة الشكوك التى تنهشه، واندفع يبحث عنها فى مختلف احياء البغاء فى الاسكندرية.

ولما كان البحث فى البيوت التى تتردد عليها البغايا من بنات البلد، أكثر يسرا فقد أخذ يتردد عليها، بما فى ذلك حى «كوم بكير» القريب من المكان الذى قتلت فيه، ثم انتقل ببحثه، إلى البيوت المشابهة فى «طنطا» و«المنصورة» وغيرها من محافظات الدلتا، فلما لم يجدها بها ركز اهتمامه على بيوت البغاء المشمولة بالحماية الاجنبية فى الاسكندرية، حتى خيل إليه ذات ليلة من شهر يونيو (حزيران) ١٩٢٠، أنه شاهدها تدخل بيتا من تلك البيوت، يقع فى النطاق الادارى لقسم شرطة العطارين، فأصر على ابلاغ القسم، لكى يهاجم البيت.

ومع أن مهاجمة هذا النوع من بيوت البغاء كان يتطلب اجراءات معقدة، من بينها ضرورة ابلاغ قنصلية الدولة الاجنبية التى يحمل صاحب البيت جنسيتها، لكى يرسل مندوبا عنه، يحضر اجراءات التفتيش والضبط، فقد استجاب قسم الشرطة لطلبه، وانتقلت قوة منه بقيادة أحد ضباطه، ومندوب عن القنصلية بمصاحبته إليه، ولم يسفر التفتيش - بالطبع- عن شىء.

وكان منظر الرجل الذى رآه يقف فى الزقاق قبل ليلتين من اليوم الذى اختفت زوجته فى صباحه، يتخايل أمام عينيه، طوال الوقت. بجلبابه ومعطفه، باعتباره القواد الذى رافق زوجته، ثم اغراها بالهروب معه، فيدفعه إلى التردد على أقسام شرطة الاسكندرية، التى ما لبث الشك فى صحة قواه العقلية، أن ناوش العاملين فيها من الضباط والجنود، فكفوا عن الاهتمام به، وكان الدكان الذى يديره فى سوق العمود قد أفلس، بسبب إهماله له، حين أتيح له ذات يوم من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، أن يعرف أن الرجل ذا الجلباب والمعطف، اسمه «حسب الله سعيد»، وأن يكتشف السر وراء اختفاء زوجته، فإذا به اكثر بشاعة من كل ما تخيله.

....

....

خلال الاسابيع الخمسة التالية على مقتل «نبوية بنت جمعة» أعيد فتح المقبرة الأصلية، فى غرفة «ريا» بـ «حارة على بك الكبير» لدفن الضحية السادسة، وهى امرأة مجهولة الاسم واللقب، إذ لم يتذكرها أحد ممن رووا تاريخ العصابة. والأرجح من التواريخ التقريبية التى ذكروها، أنها قتلت فى يوم الخميس ٤ مارس (آذار) ١٩٢٠، وبعد ثلاثة اسابيع من مقتل «نبوية بنت جمعة».

وكان «محمد عبد العال» هو الوحيد الذى تذكر بعض التفاصيل عما حدث فى ذلك اليوم، إذ كان فى عمله بالمحلج، حين وصلته رسالة، بأن الثلاثة الآخرين ينتظرونه على المقهى المواجه له. وحين انتهى من عمله، حوالى الساعة الرابعة، اصطحبوه إلى البيت... وفى الطريق عرف منهم أن «ريا» قد استدرجت امرأة تقطن بشارع ١٢ بحى كرموز الشعبى الفقير، وأنهم فى حاجة إليه لكى «يشوفوا شغلهم» معها. وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب، حين دخل عليها بصحبتهم، فوجدها امرأة بيضاء فى حوالى الثلاثين من عمرها، متوسطة الطول والسمنة، ترتدى جلبابا أسود، ولا تتزين إلا بزوج من الأساور فى معصمها وحلق فى أذنيها، وتحيط كاحلها بخلخال....

وانضم الرجال الأربعة إلى النساء الثلاث اللواتى كان واضحا أنهن يشربن النبيذ منذ وقت ليس قصيراً. وبعد فترة من المسامرة، حانت اللحظة المناسبة، فـ «ضربوا الرموز» فيما بينهم، وأحاطوا بها طبقا للتقسيم الثابت للأدوار عند التنفيذ وكتموا أنفاسها، ودفنوها فى طبقة تالية للطبقة التى دفنت فيها الضحية الاولى.

وفيما بعد كان احساسهم بالخيبة ثقيلا، حين تبين لهم أن زوج الأساور، ليس ذهبا حقيقيا، بل هو مطلى فقط بقشرة من الذهب، وأن أثمن ما فى الغنيمة، هو الحلق والسلسلة، وقد باعوهما بثلاثة جنيهات كان نصيب «محمد عبد العال» منها خمسين قرشا.

ولا أحد يعرف الظروف التى حالت دون ابلاغ أحد من أفراد أسرتها عن اختفائها، لتندرج فى قائمة الضحايا باعتبارها «مجهولة الاسم، مجهولة اللقب»، مع أنها كانت تصطحب معها - كما ذكر الرجال الثلاثة لـ«محمد عبد العال» - ابنة لها فى الثامنة من عمرها، تحايلت «ريا» حتى اقنعتها بتسريبها قبل أن تسحبها إلى البيت، ولابد أنه كان لتلك الطفلة أب، ولابد أنه كان لأمها اقارب آخرون. أما المؤكد فهو أن الحياة فى مصر، كانت قد هانت فى تلك السنوات القلقة على كثيرين ممن كانوا يعيشون فى قاع المجتمع، حياة هى أقرب إلى الموت، ووجود هو أقرب إلى العدم، بحيث بدا لهم أن اختفاء ذوى رحماهم، أمر لايستحق الاهتمام..



ولم تحل ضآلة التركة التى ورثتها العصابة عن المجهولة بنت المجهولة، بينهم وبين قتل الضحية السابعة «زنوبة بنت محمد موسى» بعد ذلك التاريخ باسبوعين فقط، مع أنها لم تكن تتزين إلا بخاتمين وحلق من الذهب.. والغالب أن القتل كان قد بدأ يصبح أحد أمزجتهم الحسية الكثيرة، كالخمر والجنس والحشيش وأكل اللحوم، وادارة بيوت البغاء.. وأغراهم بذلك أن العمليات قد تتالت من دون أن يكتشف أحد أمرهم، أو تلحقهم شبهة فى أن لهم يدا فيها. وكانت النظرية الأمنية التى يستندون إليها فى مواصلة العمل، تقوم على تحليل صحيح يقول بأن ضحاياهم من النساء ذوات الشرف المعدوم، ممن لا أسر لهن، أو تقاطعهن أسرهن فلا تهتم بأمرهن، وتتعدد الاحتمالات وراء اختفائهن وفضلا عن ذلك، فقد كان «رجال ريا وسكينة» جماعة مغلقة، يقومون بكل الخطوات بأنفسهم، ابتداء من اختيار الضحية، إلى سحبها ثم قتلها ودفنها، وبيع مصاغها واقتسام ثمنه، فليس هناك احتمال لافتضاح أمرهم، إلا إذا قام أحدهم بابلاغ الشرطة عن الباقين، وهو أمر مستحيل، لأنه سيكون أول الذين يقادون إلى المشنقة...

وكانت «حجازية» - وهو الاسم المستعار الذى عرف به القتيلة «زنوبة محمد موسى»- امرأة فى الثامنة والعشرين من عمرها، وصفها زوجها «حسن زيدان» فيما بعد، بأنها كانت «قمحية اللون، سوداء الشعر، عسلية العينين، متوسطة القامة». وقد ظهرت على شاشة «آل همام» مع تأسيس مركز الترفيه متعدد الأغراض بـ «حارة النجاة». والحقيقة أنها لم تكن - كمعظم المتعاملات مع البيت- مومسا

محترفة بالمعنى الدقيق للمصطلح، بل كانت امرأة عاشقة، ممن يقودهن العشق إلى حتفهن..

ومع أن زوجها لم يكن يكبرها سوى بعامين فقط، ومع أن زواجهما كان قد مضى عليه مايزيد على عشرة أعوام، أنجبا خلالها أربعة اطفال، فقد تعلق قلبها بشاب فى مثل عمرها هو «محمود يوسف» الذى لم يكن عمله - كصائد سمك - يختلف كثيرا عن عمل زوجها كسائق لاحدى عربيات الحنطور، لكن العشيق الصياد كان معروفا فى الملاّحة، بشجاعته وفتونته، وبأنه صاحب كلمة مسموعة، باعتباره من صبوات الصعيد، الذين هاجروا إلى الاسكندرية ليعملوا بمختلف المهن، ومنها الصيد.

والغالب أن ابنة خالتها وصديقتها منذ الطفولة «حفصة حسن الصعيدى» هى التى يسرت لها سبل التعرف على «محمود السمَّاك»، إذ كانت قد تعرفت على صديق له، وسمَّاك مثله، هو «على حسونة» ورافقته، مع أنها كانت هى الاخرى متزوجة، وذات أولاد...

ولأن «حفصة» كانت تسكن مع زوجها فى «جنينة العيونى» القريبة من «كوم بكير»، وما يحيط به من حارات تتناثر بينها بيوت البغاء السرية، ومن بينها «حارة النجاة»، فسرعان ما اكتشف الرباعى العاشق المزايا التى يتمتع بها مركز الترفيه متعدد الاغراض، الذى أقامه «آل همام»، فاصبحوا يترددون عليه معا، يلمون بالمحششة ويشربون خمر «النص» المغشوشة، ثم يختلى كل رجل برفيقته، وتعود كل من المرأتين إلى زوجها، فتدعى أنها كانت بصحبة الاخرى...

ولا أحد يعرف الظروف التى دعت «حجازية» لكى تظهر وحدها فى «حارة النجاة» قبل غروب شمس يوم الجمعة ١٩ مارس - آذار - ١٩٢٠، دون أن تصحبها - كالعادة ابنة خالتها «حفصة» أو رفيقها السماك - لكن «عبد العال» الذى كان قد أمضى القيلولة بغرفة «سكينة»، ثم نزل عند العصر لينضم إلى «حسب الله» أمام دكان «النص»، يقول أن الشقيقتين «ريا» و«سكينة» غادرتا المنزل عقب ذلك، ثم عادتا - بعد ساعة - وبصحبتهما «حجازية»، والغالب أنهما التقتا بها صدفة، اثناء تجوالهما بأحد الأسواق، فعادتا بها.. وقد تكونان قد أغرتاها بأن رفيقها «محمود» هو الذى يطلب لقاءها فى منزلهما - وهى الطريقة التى استدرجت بها «نظلة أبو الليل» من قبل - أو أغوتاها بأن تكسب بعض المال، بقضاء بعض الوقت مع أحد الزبائن...

ولما كانت المحششة - فى ذلك الوقت من اليوم - خالية من الرواد، فقد اتجهت إليها النساء الثلاث. حيث جلسن بعض الوقت بصحبة ثلاث نساء أخريات ممن يتعاملن مع البيت... كان بينهن «عائشة» و «سمارة». وكان وجود «حجازية» وحيدة، من دون أن يصحبها رفيقها الرهيب، هو الذى استثار حماس «محمود أبو زكاك» - مدير المحششة- للترحيب بهن، إذ لم يكن - كما قالت «سكينة» فيما بعد - «يعتق واحدة من

النساء اللواتى يترددن على البيت دون أن يحصل على نصيبه منها»، فدار بينهن بالجوزة عدة مرات، ولم تتنبه الفتاة إلى مغادرة الشقيقتين للمكان، إلا عندما بدأ رواد المحششة يتوافدون، فغادرتها إلى الصالة، لكى تستأذن منهما فى الانصراف، لكنهما اقتادتاها إلى غرفة «سكينة» بالطابق الثانى، حيث وجدت «حسب الله» و«عبد العال» اللذين دعياها، إلى احتساء كوب من كونياك «النص» المغشوش، الذى أثبت أنه لا يقل قوة، أو تأثيرا عن «الاسكولانس».

ولا أحد يعرف من الذى اتخذ قرار قتل «حجازية»، أو لأى سبب اتخذه، إذ لم تكن تتزين إلا بخاتمين وحلق من الذهب وخلخال من الفضة. أما زوج الأساور فى معصمها، والسلسلة التى تعلقها فى عنقها، فكانت من المعدن المطلى بالذهب. وفيما بعد أدعت كل من «سكينة» و «عبد العال» أنهما لاحظا ذلك، واعترضا بقوة على قتلها لتفاهة ما سوف يعود عليهم من عملية قتلها. وبالغ «عبد العال» فى تصوير اعتراضه، فذكر أنه لم يكد يفاجأ بالقرار، حتى جابه الآخرين باعتراضه، وغادر غرفة «سكينة» غاضبا، إلى أن لحق به «عبد الرازق» فى باحة الدور الأرضى من المنزل، فعاد به.

ولعل هذه المبالغة فى تصوير ..تراض، التى وصلت إلى اقحام اسم «عبد الرازق» و «عرابى» باعتبارهما ممن شاركوا فى قتل «حجازية» وهو ما انكره الجميع، بما فى ذلك «سكينة» نفسها، هى التى توحى بصحة الرواية المناقضة لها، التى وردت على لسان «حسب الله» وهى تؤكد أن قرار قتل «حجازية» قد طق فى دماغ «سكينة» فى وقت ما، بين دخول المرأة إلى المحششة، وقتلها... وأنه فوجىء باصرارها على ذلك، فلما قال لها:

ـ ودى معاها إيه؟.. عايزة تموتيها ليه؟

قالت له:

ـ أنا متغاظة منها.

ومع أن «ريا» و«محمد عبد العال» كانا يؤيدان رأيه اثناء المناقشة العاصفة التى دارت فى غرفة «سكينة» بينما كانت المرأة ماتزال تجلس فى المحششة، إلا أن كلا منهما قد عاد فغير رأيه، أمام اصرار «سكينة» التى كانت تتحدث بعصبية، افقدتها سيطرتها على نفسها، مما اضطر «ريا» لأن تقول:

ـ موتوها احسن تفضحنا.

وقال عبد العال باستسلام:

ـ مادام «سكينة» محكمة رأيها ياللا نموتها.

ومع أن الفتاة قد قبلت الدعوة لشرب كوب من الكونياك، إلا أنها كانت تتعجل الانصراف حتى لا تتأخر على أولادها وكان تنفيذ العملية وسط الزحام الذى يملأ البيت، ومع النقص فى عدد الرجال الذين يستطيعون شل حركة الضحية دون أن تصرخ أو تلفت الانظار، بسبب غياب «عبد الرازق» و«عرابى»، مغامرة محفوفة بالمخاطر.. لكن الظروف ما لبثت أن ساعدتهم حين دخل ضباط قسم شرطة

اللبـان إلى الحـارة، علـى رأس قـوة من الجنود لتفتيش أحد البيوت فانتهزت «ريا» الفرصة وصاحت: كبسة؛ وخلال دقائق قليلة كان الجمع الذى يزحم البيت، قد انفرط: هرب رواد المحششة وفى مقدمتهم «محمود أبو زكاك»، وهربت الفتيات اللواتى يعملن به، خشية القبض عليهن واحالتهن إلى الكشف الطبى.. ومع أن حملة التفتيش لم تقترب من البيت، فقد كان وجودها فى الحارة، مبررا مقنعا لكى تبقى «حجازية» بعض الوقت، حتى لاتعترضها اثناء انصرافها..

ولم يكن أحد من الرواد الذين هربوا فى أعقاب صيحة التحذير التى أطلقتها «ريا»، قد جرؤ على العودة إلى المحششة، حين وقفت «حجازية» لتستأذن فى الانصراف، فلم يلح عليها أحد فى البقاء، سوى «عبد العال» الذى كان متحمسا لتنفيذ قرار «سكينة» باعدامها... أما «حسب الله» الذى كان يجلس على صندوق الملابس فى ركن الغرفة، فكان قد عزم على ألا يشترك فى العملية، فلم يبد حماساً لاستبقاء المراة التى كانت قد همت بالتحرك فعلاً. حين استوقفها «عبد العال» ليقول لها:

- يصح يا «حجازية» لما أهزر مع «سكينة» كده، وأمسكها من هنا.. تزعل.

وتركته المرأة، يحيط رقبتها بكفيه ويضغط عليها ضغطة خفيفة وهو يمثل لها طبيعة المزاح الذى أغضب زوجته منه، وقبل أن تنتبه انقلب المزاح فجأة إلى جد فتحول الكفان الى كلابتين أطبقتا على رقبتها بعنف شديد.... وكان آخر ماسمعه الآخرون مما قالته هو عبارة:

- إخص عليك يا «محمد».

والغالب أنها كانت حتى ذلك الحين تظن الأمر كله مزاحاً.. لكنها.. بالقوة الغريزية للبقاء أخذت تدفعه عنها، وتحاول ابعاد عنقها عن كفيه، فاصطدم رأسها أثناء ذلك بالحائط، وسال الدم منها، فلوث أرض الغرفه، ولم يغادر «حسب الله» مجلسه فوق الصندوق إلا بعد أن صاح فيه «عبدالعال»:

- ساعدنى يا بارد.

فانضم إليه، وشل حركة ذراعى المرأة التى لم تستطع مواصلة المقاومة.. فهمدت حركتها تماما.. ولفظت أنفاسها الأخيرة.

فى تلك الليلة - وبعد أن تناقل الجميع أنباء حملة التفتيش التى قامت بها الشرطة على الحارة - لم يعد أحد من رواد المحششة اليها، بما فى ذلك «محمود أبو زكاك» الذى أمضى هو الآخر ليلته على غير العادة فى مكان آخر.. فاتيحت للرجلين وزوجتيهما فرصة هادئة لحفر قبر للضحية السابعة، فى أرضية غرفة المحششة المدكوكة بالجير والحصى من دون تبليط، وهو ما يسر عليهم المهمة. وبعد إتمام الحفر، تعاون «حسب الله» و«عبدالعال» فى حمل الفتاة من المكان الذى قتلت فيه بالطابق الثانى الى المقبرة التى هيئت لها تحت صندرة المحششة، ثم أهالوا عليها التراب. وأعادوا كل شىء الى ماكان عليه، وانصرفت «ريا» مع زوجها الى

بيتهما بـ«حارة على بك الكبير».. أما «عبد العال» ـ الذى كانت تلك أول ليلة يمضيها فى بيت «سكينة» منذ انفصلا بالطلاق قبل شهور ـ فقد قضى شطراً كبيراً من الليل يكحت بسكين آثار الدماء التى سالت من رأس «حجازية»، وتركت بقعاً حمراء على أرض الغرفة، وكان ـ كذلك ـ من الحصى المدكوك والجير.

ولم يعرف «محمود أبو زكاك» حين عاد فى صباح اليوم التالى، ليستأنف عمله فى المحششة، أن جسد «زنوبة محمد موسى» ـ التى عرفها باسم «حجازية»، وكان يخطط لاقتناصها فى الليلة السابقة ـ يثوى تحت أرض المحششة وفوقه الجوز والدفايات والماشات ومقطف الفحم وبرطمانات العسل الأسود، وعلب الدخان، وغيرها من الادوات التى يستخدمها فى عمله، ولم يلاحظ شيئا غريباً فى نظام الغرفة، إذ كان قد ترك كل شىء فى مكانه بغير نظام حين فر مع الآخرين، ومع أنه لاحظ أن الأرض تحت الصندرة، تبدو أقل تماسكاً مماكانت عليه من قبل، إلا أنه فسر ذلك بوجود فئران بالغرفة، وعزم على مطاردتها.

وجاء ثمن بيع تركة «زنوبة» فى الحدود التى توقعها «حسب الله» حين عارض فى قرار قتلها، وقد ذكر «عبد العال» أنهم باعوا مصاغها بثلاثة جنيهات ونصف، اقتسموها فيما بينهم، بينما ذكرت «سكينة» أنها لم تنل من تركتها سوى ريال واحد، ولعلها تكون قد حصلت على ثيابها، إذ كانت الفتاة ترتدى عند قتلها جلباباً كحلياً من الفوال وملاءة كريشة سوداء، وهو مايرفع قيمة التركة الى مايتراوح بين ستة وسبعة جنيهات.

وعلى الرغم من تفاهة الغنيمة، فقد كانت «حجازية» هى أول ضحية تقود «آل همام» الى أقسام الشرطة، بل وتجبرهم ـ كذلك ـ على المثول بين يدى النيابة العامة. أما السبب فلأن الفتاة على عكس معظم الضحايا لم تكن مقطوعة من شجرة، فقد كان لها ـ فضلا عن زوجها وأبنائها ـ شقيقان، أثارهما اختفاؤها المفاجىء، فأخذا يجدان فى البحث عنها لكنهما لم يلجآ الى الشرطة فى البداية.. ربما لتقديرهما بأنها لن تبذل مجهوداً جديا، إلا اذا قدما لها خيوطاً تستطيع ان تحدد أمامها المجال الذى تبحث فيه، والمنطقة التى تتجه إليها شبهاتها.. فأخذا يتحريان بنفسيهما عن علاقات «زنوبة» وتحركاتها. وكان منطقيا أن يتركز البحث حول ابنة خالتهم «حفصة» باعتبارها الصديقة اللصيقة بأختهم الغائبة، التى خرجت من منزلها فى يوم اختفائها، بزعم أنها ستذهب إلى زيارتها...

ومع أن «حفصة»، كانت قد أدركت منذ اللحظة الأولى، أن وراء اختفاء «زنوبة» رجل، إلا أنها لم تكن تستطيع أن تعترف بذلك، حتى لا تفتضح وقائع الجولات السرية التى كانتا تقومان بها معا... بصحبة رفيقيهما، أمام افراد الاسرة، بما فيهم زوج الغائبة، والأهم من ذلك كله، زوجها هى نفسها... فأنكرت معرفتها بأى شىء وتظاهرت بالمشاركة مع أفراد الاسرة

فى البحث عنها، وأخذت تخرج بصحبة «زكية» ـ الأخت الكبرى لـ «زنوبة» ـ فى جولات إلى المستشفيات والأسواق وبيوت المنجمين وقارئى الرمل والفنجان لعلهم يعثرون لها على أثر من دون جدوى.

ولأن «زنوبة» كانت صديقتها التى تربت معها منذ الطفولة، فضلا عن قرابتها لها، فإنها لم تكتف بتلك الجولات التى كانت تعرف أنها لن تقود إلى شيء، ولكنها كانت تشارك فيها لتتوقى نظرات الشك فى عيون أفراد الاسرة الذين كانوا يوقنون بأنها الوحيدة التى تعرف سر غياب الفتاة... بل سعت بمفردها لكى تتقصى الأمر، بسؤال رفيقها «على حسونة»، الذى سأل بدوره «محمود السماك» رفيق «زنوبة» فأنكر الاخير أنه التقى بها فى اليوم الذى غابت فيه، الأمر الذى جعل شبهات «حفصة» تتركز حول «ريا» و«سكينة»، وتطول كذلك «محمود السماك» الذى كان قد انهال ضربا على الفتاة الغائبة بـ «زعزوعة» أحد أعواد القصب فى آخر لقاء ضمهم ببيت «حارة النجاة».

وتحت وطأة احساس طاغ بالفجيعة لاختفاء صديقتها، وبالذنب لأنها تضلل اسرتها، حاولت «حفصة» أن توجه انظارهم إلى ميدان البحث الحقيقى، فاعترفت لابن خالتها «محمود» ـ شقيق «زنوبة» الأكبر ـ بأنها كانت تتجول فى منطقة وسط المدينة بصحبة الفتاة الغائبة، حين التقت بهما امرأتان علمت فيما بعد أنهما الشقيقتان «ريا» و«سكينة»، وأنها سمعتهما يطلبان إليها أن تمر عليهما بمنزلهما بـ «حارة النجاة» لحاجتهما إليها فى «أشغال ضرورية» فوعدتهما بالمرور عليهما، وأنها كانت تقف أمام منزلها فى «جنينة العيونى» حين شاهدت المرأتين تعبران الطريق بصحبة فتاة تشبه «زنوبة» عصر اليوم الذى اختفت فيه، واعتذرت عن عدم ذكر تلك الوقائع منذ البداية، بتوترها بسبب غياب الفتاة وبأنها استبعدت أن تكون لهاتين المرأتين المعروفتين بسوء السمعة، صلة بابنة خالتها تدفعها لزيارتهما.

وكان الذى اهتم بهذه الوقائع، وسعى لتحقيقها، هو الجناينى «محمد موسى» ـ شقيق «زنوبة» الاصغر ـ الذى أخذ يسأل اصدقاءه ومعارفه عما يعرفونه عن المرأتين، إلى أن عثر باثنين منهم أحدهما نقاش هو «ابراهيم الشكلاوى»، والآخر خضرى هو «سليمان مصطفى»، يعرفان البيت، ويترددان على المحششة، فاصطحباه إليه، لكى يقدمانه إلى اصحابه، ولكى يحول وجودهما معه، دون اعتداء فتوات البيت عليه...

وامضى الثلاثة بعض الوقت فى غرفة «المحششة» وبين روادها، إلى أن جاءت «ريا» لمقابلتهم فلم تفاجأ بالسؤال، ولم تنكر معرفتها بـ «حجازية»... وببديهة حاضرة، استدعت خبرتها السابقة فى التعامل مع اهالى الضحايا، وخاصة الطريقة التى نصحها «عرابى» باتباعها مع «أم نظلة»، فتظاهرت بالأسف لغياب الفتاة، ثم جابهت الاخ المكلوم - فى حضور اصدقائه- بالحقيقة المرة... وقالت له إن

الفتاة، لم تتردد على منزلها سوى مرتين أو ثلاثة، مع «رفيق» لها هو «محمود السماك»، ولم يمكثا - في كل مرة - سوى ثلاث ساعات، يمضيان جانبا منها في المحششة. ثم يصعدان إلى الغرفة العليا، ليتناولا طعاما كانا يحضرانه معهما، ويحتسيان مايشتريانه من كونياك «النص»، ثم يعطيانها ثمن ايجار الغرفة وينصرفان، وختمت حديثها قائلة لهم : إذا كنت ح تشتكوا... اشتكوا «محمود السماك».

وكانت «ريا» تتوقع - وقد فضحت سر «حجازية» - أمام شقيقها واصدقائه، أن يتبادر إلى ذهنه، أنها قد هربت مع رجل، أو هاجرت إلى مدينة أخرى لتتضم إلى احدى نقط البغاء الرسمية، فلا يتقدم ببلاغ إلى الشرطة. حتى لا يفضح التحقيق في وقائعه سر الغائبة،، أو أن يتصرف كما تصرفت «أم نظلة» فيتهم «محمود السماك» باختطافها أو اخفائها...

لكن توقعاتها خابت هذه المرة، فبعد هذه المقابلة بايام قليلة، وفي ٩ مايو (آيار) ١٩٢٠، تقدم «محمود موسى» ـ الشقيق الاكبر ـ ببلاغ إلى قسم شرطة «كرموز» ـ الذي كانت الغائبة تسكن في احدى شياخاته ـ عن اختفاء شقيقته «زنوبة محمد موسى» منذ سبعة اسابيع واتهم فيه صراحة «الحرمة ريا» بأنها هي التي أغرتها على الخروج والتوجه لـ «المحلات البطالة» وبأن لها يدا في اختفاء شقيقته.

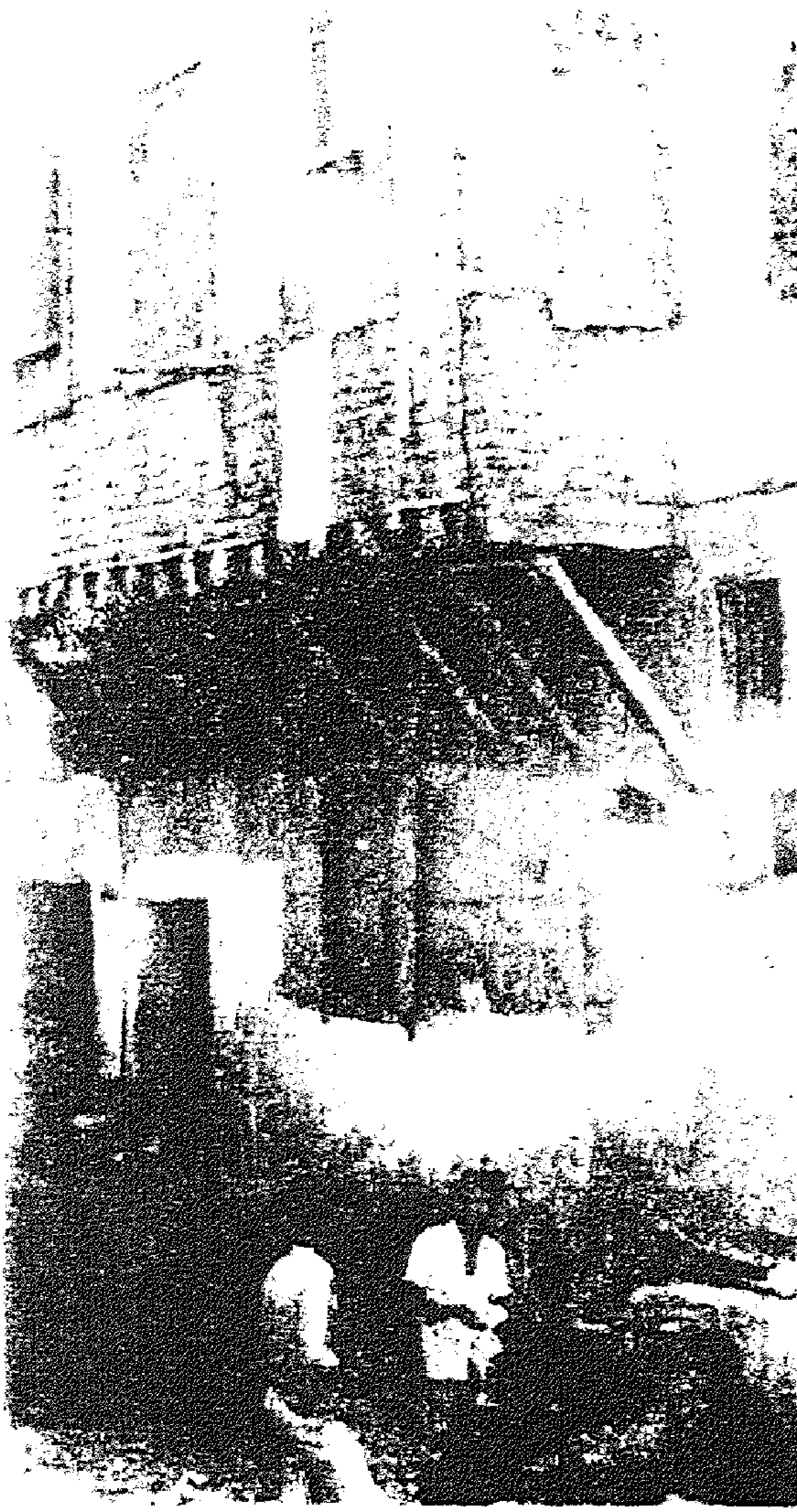
وكان ذلك أول بلاغ تتلقاه الشرطة، يشير إلى أن «ريا» لها يد في ظاهرة اختفاء النساء.



لم يلق البلاغ الذي تقدم به «محمود محمد موسى» - شقيق الضحية السابعة- إلى «قسم شرطة كرموز»، واتهم فيه «الحرمة ريا» بأن لديها يدا في اختفاء شقيقته «زنوبة» ما يستحقه من اهتمام. ليس فقط لأنه قدم بعد ما يقرب من شهرين على اختفائها، أولأن أقسام الشرطة كانت قد تعودت على التعامل بعدم اكتراث مع هذا النوع من البلاغات، ولكن -كذلك- لأن «حسن زيدان» -زوج الغائبة- كان يشارك الشرطة شكوكها في أن زوجته قد هربت مع رجل آخر، ويشترك معها في عدم الاكتراث بالبحث عنها، الذي قدر أنه لن يفضي إلى شيء، إلا لمزيد من الأقاويل التي تلوث سمعته وتطعن في رجولته، لذلك لم يتقدم بالإبلاغ عن غيابها، إلا تحت ضغط عنيف من صهره، الذي ألح عليه بأن يدعم الشكوى التي تقدم بها، بشكوى أخرى يقدمها باسمه، وبصفته زوج الغائبة، لعل ذلك يحفز الشرطة على القيام بواجبها في البحث عنها.

ومع أنه قد استجاب للإلحاح، إلا أن البلاغ الذي تقدم به في ١٧ مايو (أيار) ١٩٢٠، إلى الملازم أول «فضل أبو زيد» - الضابط بقسم شرطة كرموز- بدا أقرب ما يكون إلى تكذيب للبلاغ الذي تقدم به صهره قبل ذلك التاريخ بأسبوع.. فقد نفى

فى أقواله أن تكون زوجته قد غادرت المنزل بعد مشاجرة بينهما. واستبعد أن تكون قد سافرت إلى أحد من أقاربها، إذ لا أقارب لها فى الإسكندرية أو فى غيرها، سوى والدتها، التى نقل عن لسانها أقوالا تدل على أنها كانت تحاول خداعه. والتمويه على سبب اختفاء ابنتها، إذ ذكرت له أنها قد دخلت «مستشفى الشاطبى» لتعالج من أحد الأمراض. لكنه لم يجدها هناك.


نموذج من مساكن الطبقات الوسطى فى إسكندرية العشرينيات.. البيت الذى ولد فيه سيد درويش

وأنكرت الأم الواقعة، حين سألها عنها المحقق. ولأن كلا من الزوج والأم، لم يتهما أحدا بالمسؤولية عن إختفاء «زنوبة»، ولم يشيرا -كما فعل الأخ- إلى أن «الحرمة ريا» قد أغرتها بالتردد على «المحال البطالة»، فقد اتخذ البلاغ مساره التقليدى، فتقرر تحرير «أورنيك بحث» عن الغائبة. وإحالة المحضر إلى المحافظة للنشر عن غيابها، وإلى النيابة للإحاطة، ثم حفظ مؤقتا فى ٢١ مايو (أيار) ١٩٢٠.

لكن «محمد موسى» ـ شقيق زنوبة الأصغر ـ كان قد تلقى تأكيدا جديدا على صحة ما لديه من معلومات، إذ نجح أصدقاؤه فى الاتصال بـ «على حسونة» - رفيق ابنة خالته «حفصة الصعيدى» - الذى أكد له أن الفتاة كانت تتردد على بيت «ريا» و«سكينة» بـ «حارة النجاة» بصحبة صديقه «محمد السماك» وأنه شاهده فى آخر مرة، وهو يضربها بـ «زعزوعة القصب».

ومع أنه رفض أن يشهد بهذه الوقائع، أمام أية جهة من جهات التحقيق، إلا أن هذه المعلومات، ما كادت تصل إلى «محمود موسى» -شقيق «زنوبة» الأكبر - حتى أسرع- فى ٢١ يونيو (حزيران) ١٩٢٠. وبعد ثلاثة أسابيع من حفظ البلاغ الأول - يتقدم ببلاغ جديد وجهه

هذه المرة. إلى «حضرة صاحب العزة رئيس نيابة الإسكندرية» مباشرة، وتعمد أن يضيف اسم زوج شقيقته فيه. على غير رغبته، لكى يستكمل البلاغ شكله القانونى. بحكم أن الزوجة المختفية كانت تقيم مع زوجها، لا مع شقيقها. وفى البلاغ الجديد، اتهم «محمود موسى» صراحة «الحرمة سكينة شقيقة ريا» و«الحرمة ريا زوجة حسب الله» بأنهما التقتا بشقيقته فى اليوم الذى غابت فيه، وكانت بصحبة ابنة خالتها فى البلد لشراء لوازم منزلية -وتحايلتا عليها «بقصد أنها تذهب لحلهما لأشغال ضرورية منزلية». فذهبت ولم تعد، وأنه «مما يدخل فى ذهن العاقل أن المذكورتين تحايلتا على إخفائها. لأنها كانت لابسة مصاغ له قيمة عظيمة. وربما تكون المبّلغ ضدهما قد فعلتا بها أمرا أماتها أو قتلتاها فى وقتها لتأخذا مصاغها. وختم البلاغ ملتمسا «صدور الأمر لنيابة اللبان لاستحضارهما أمامها، لأن كثرة الإلحاح عليهما فى التحقيق ضمان وقوعهما فتظهر الحقيقة».

لكن رئيس نيابة الإسكندرية لم يُحل البلاغ على الفور. إلى «نيابة اللبان»، بل أحاله - ومعه «محمود موسى» نفسه - إلى قسم شرطة اللبان ليقوم بالتحقيق الابتدائى.. وهناك تعامل الجميع معه، بنفس طريقة عدم الاكتراث، وما كادوا يعرفون أنه سبق له أن تقدم ببلاغ سابق إلى قسم شرطة كرموز عن الموضوع نفسه، حتى أسرعوا يتخلصون منه. ومن بلاغه. وأحالوه إليه. وبحث العاملون فى قسم شرطة كرموز عن البلاغ السابق، فلم يجدوه، إذ كانوا قد أحالوه على النيابة. وحين استردوه منها. كانت قد مضت ثلاثة أسابيع أخرى فلم يبدأ «الصاغ - الرائد - على عمر» -مأمور القسم- التحقيق فيه - إلا فى يوم ١٠ يوليو (تموز) ١٩٢٠. وفى هذا التحقيق أضاف «محمود موسى» إلى المتهمتين «ريا» و«سكينة» - اثنين آخرين هما «محمود يوسف» السماك. الذى كان رفيقا لشقيقته، و«على حسونة» زميله وصديقه، قائلا إن «زنوبة» قد خرجت من بيتها ومن دون علم زوجها. لكى تلقى الأول، وكان الثانى بصحبته. وطلب حبسهما حتى تظهر أخته.

واستدعى «الصاغ على عمر» الاثنين. فأنكرا تماما معرفتهما بالفتاة الغائبة، أو بكل من الشقيقتين «ريا» و«سكينة».. ولم تمثل «ريا» -فى ذلك اليوم- أمام المحقق، أما «سكينة» فقد أنكرت معرفتها بالفتاة، أو بالرجلين. لكنها كادت توقع نفسها فى مطب، حين حاولت أن توجه نظر المحقق بعيدا عنها وعن شقيقتها فأضافت أنها تسمع أن الفتاة الغائبة «ماشية على كيفها».. مما دفع المأمور إلى سؤالها عن مصدر معلوماتها. فقالت:

- أخوها بيقول إنها كانت عند أختى «ريا».. وأختى كانت فاتحة بيت سر.. لكنها عزلت منه وتابت.

ومرة أخرى أحيل محضر تحقيق الشرطة فى البلاغ إلى نيابة كرموز. ومع أن «محمود موسى» كان يستجيب لكل

استدعاء ترسله له النيابة لكي يدلي بأقواله أمامها.. ويصطحب معه كل مرة شقيقه الأصغر وصديقيه اللذين حضرا لقاءه مع «ريا»، لكي يشهدا بما سمعاه منها، حول صلة الفتاة الغائبة بـ «محمود السماك»، فقد ظل التحقيق يتأجل، بسبب انشغال وكلاء النيابة. وأثناء انتظاره للتحقيق -في إحدى المرات التي تأجل فيها- التقى «محمود موسى» بـ«على حسونة» الذي عاتبه على إقحام اسمه في الاتهام، مؤكدا له أن ما قاله لشقيقه الأصغر صحيح، وأن «زنوبة» كانت رفيقة لصديقه وزميله «محمود يوسف السماك»، ولكنه لا يستطيع أن يشهد بذلك أمام النيابة، لأن له شباكا لصيد السمك في الملاحة، لا يأمن عليها من التخريب إذا شهد ضد صديقه وهو صاحب نفوذ، وله عصبية بين الصمايدة من أمثاله، تستطيع أن تطرده من الملاحة، أو على الأقل تقوم بتمزيق شباك الصيد التي يلقيها في الماء، فتقطع رزقه، وتجيع أولاده.

وهكذا ما كاد «رياض عبدالعزيز» - وكيل نيابة قسم كرموز - يبدأ التحقيق في ١٠ أغسطس (آب) ١٩٢٠ -حتى كان «محمود موسى» قد عثر على أربعة شهود، يؤيدون أقواله حول الصلة بين المتهمين الأربعة، وشقيقته الغائبة.. أكد اثنان منهما أنهما سمعا «ريا» تعترف بتردد الفتاة على بيتها - وقد وصفاه بأنه يضم بيت سر ومحششة - بصحبة «محمود السماك».. وأكد الآخران بأنهما سمعا «على حسونة» يعترف بذلك في مبنى النيابة.

لكن «ريا» كانت قد نسقت دفاعها مع «محمود السماك» وأقنعته بأن رفيقته الغادرة، قد هربت مع رجل آخر، وبأن من مصلحته ومصلحتها، أن ينكرا كل صلة لهما بها، حتى لا يفتحا على نفسيهما الأبواب التي تأتي منها الريح، في تحقيق لن يسفر إلا عن فضحه - وهو متزوج ورب أسرة - فأصر على إنكاره، وأصر عليه «على حسونة» الذي كان الخوف مما قد يفعله به صمايدة الملاحة يسيطر عليه..

وفضلا عن أن «حسن زيدان» - زوج «زنوبة» - كان قد تخلى عن صهره، ورفض أن يدلي بأقواله في التحقيقات حتى لا يضطر للاعتراف في محضر رسمي بأن زوجته كانت ترافق غيره، وبذلك سحب توقيعه على البلاغ عمليا، وأضعف من مصداقية الاتهام، فقد تكفلت «حفصة الصعيدي» -ابنة خالة «زنوبة»- بنسف كل ما تبقى له من مصداقية، إذ كانت شاهد الرؤية الوحيد، الذي زعم «محمود موسى» -في بلاغه- بأنها حضرت واقعة تحايل «ريا» و«سكينة» على استدراج الفتاة الغائبة إلى منزلهما، لكنها ظلت تتهرب من الإدلاء بأقوالها لمدة ستة أسابيع بعد ذلك، وحين أدلت بها يوم ١٨ أغسطس (آب) ١٩٢٠، نفت كل ما ذكره ابن خالتها في بلاغه، وقالت إنها لم تشاهد ابنة خالتها الغائبة أبدا عند الحرمة «ريا بنت على»، ولو كانت تعرف شيئا عن اختفائها، لما أجهدت نفسها في البحث عنها، لمدة شهرين متواصلين بعد اختفائها..

وقبل أن يغلق المحقق ملف التحقيق،

سأل «ريا» التى أنكرت معرفتها بالغائبة:

- وإذا عادت «زنوبة» وأكدت أنها كانت تتردد على منزلك.. فماذا يكون كلامك؟!

فقالت بلهجة الواثق من أن «زنوبة» لن تعود إلى الأبد:

- إبقى اقطع رقبتى بالسكينة.



لم توقف التحقيقات فى اختفاء «زنوبة محمد موسى» نشاط العصابة، وإن كانت قد أدت -فى الغالب- إلى جو من التوتر فى العلاقات بين أفرادها، خاصة وأن العملية كانت قد تمت فى غياب كل من «عبدالرازق» و«عرابى» وعلى غير إرادة «حسب الله» و«ريا» اللذين أذنا بها، أمام إصرار «سكينة» على ضرورة قتل الفتاة على الرغم من تفاهة قيمة ما كانت تحمله من مصاغ، وتعدد الأشخاص الذين كانوا يعرفون بترددها على بيت «حارة النجاة»..

وكان طبيعيا أن تحمل «ريا» شقيقتها. المسؤولية عن الشبهات التى أحاطت بهم، وربطت بين اسميهما وبين غياب النساء فى محاضر الشرطة والنيابة، لأول مرة. منذ بدأوا نشاطهم قبل ستة شهور، ولعل هذا هو السبب فى تخلف «ريا» عن حضور التحقيق الأول الذى أجراه مأمور قسم شرطة كرموز، لكنها اضطرت إلى حضور التحقيق الذى أجرى أمام النيابة، ليس فقط لأنها لم تكن تستطيع التخلف، ولكن كذلك لكى توقف من تدهور الأمر، وتسيطر على شقيقتها حتى لا ينفلت لسانها، الذى لم تكن تستطيع التحكم فيه، بسبب ادمانها للخمر، بأقوال لا ضرورة لها.. وما ذكرته عن أن شقيقتها «ريا» كانت تدير بيتا للبغاء، وهو ما صححته بعد ذلك فى أقوالها أمام النيابة، إذ ذكرت أنها - لا شقيقتها - هى التى كانت تدير بيت البغاء، وأنها أغلقته بعد زواجها.

وكان منطقيا أن ينظر كل من «عرابى» و «عبد الرازق» إلى انفراد «آل همام» باتخاذ وتنفيذ قرار قتل «زنوبة» وتقسيم تركتها فيما بينهم، باعتباره حماقة كبرى فضلا عن أنه خيانة عظمى، إذ كانت العملية بمجملها - وبما أحاط بها من ظروف - مغامرة غير محسوبة النتائج، لم يلتزم الذين نفذوها بأى اجراء أو احتياط من احتياطات الأمن المتفق عليها فيما بينهم، سواء فى اختيارهم ضحية تتردد على بيت «حارة النجاة» دائما بصحبة ثلاثة آخرين، مما يوجه شبهاتهم إلى اصحاب البيت ومديريه، أو فى اختيار طابق علوى مكانا للقتل، ونقل الجثة إلى الطابق الارضى، وهى مخاطرة كان يمكن أن تؤدى إلى فضحهم، ثم دفنها بعد ذلك فى مكان مطروق، هو غرفة المحششة، مما يحمل مخاطر ظهور دلائل على وجودها، أمام أحد من السابلة ممن يترددون عليها وفضلا عن ذلك كله، فقد خرجوا عن الاتفاق الذى تواصوا عليه، بأن تقسم الغنائم فيما بينهم بالتساوى، فهضموا

نصيبيهما، وأخفوا الامر كله عنهما، إلى أن فضحه أهل الضحية.

ولابد أن تلك التوترات جميعها، كانت وراء حالة الكمون التى لجأت إليها العصابة، خلال الشهرين التاليين، التى لم يقتلوا خلالها سوى امرأة واحدة، وهو ايقاع بطىء، بالقياس إلى ايقاع العمليات السابقة التى كانت تقع بمعدل عملية كل ثلاثة اسابيع، واحيانا كل اسبوعين.

وكانت الضحية الثامنة «فاطمة» واحدة من البغايا المرخص لهن رسميا بالعمل من نقطة البغاء، ومع أنها كانت تقيم فى الدكان الذى تمارس فيه العمل بـ«كوم بكير»، إلا أنها تعودت أن تهبط إلى «الحارة الواسعة» التى تقع اسفله، لتمضى جانبا من أوقات فراغها، أمام دكان صديقتها الفرارجية «زنوبة بنت عليوة» تتسامر معها، ومع ابنتها «أم ابراهيم»، أو مع غيرهما من نساء الكوم والحارات المحيطة به. وكان دكان «زنوبة الفرارجية» ملتقى كثيرات من النساء، ممن تعودن أن يشترين منها، ما كانت تبيعه من دجاج، ومن بينهن «ريا» و«سكينة»، إذ كانت «زنوبة» من اوائل اللواتى تعرفت عليهن «سكينة» عند وصولها إلى الاسكندرية قبل سبع سنوات.. وعن هذا الطريق تعرفت إليها «ريا» وفضلا عن أن النساء الثلاث كن يجتمعن كثيرا فى «خمارة كرياكو» وغيرها من الخمارات، ليحتسين النبيذ اللواتى كن يفضلنه على غيره من الخمور، مما خلق بينهن صداقة وثيقة. فقد كانت «زنوبة الفرارجية» هى المورد الخاص، الذى يقوم بتوريد الدجاج النافق - أو الذى على وشك النفوق- إلى صديقتها «سكينة» فتقوم بطهيه وتقدمها إلى المترددين على بيوت البغاء السرية المتعددة، التى أنشأها وأدارها «آل همام».

ولابد أن «ريا» كانت قد أدرجت اسم «فاطمة» فى قائمة القتل منذ لاحظت أنها تتزين بحلق وتحيط معصميها بزوج من الأساور، اختارته - كغيرها من البغايا - من النوع العريض، والأثقل وزنا... فظلت تتحين الفرصة التى تتيح لها سحبها إلى بيتها من دون أن يلحظ أحد، ومهدت لها «فاطمة» السبيل حين أخذت تتحدث - ذات ظهيرة - عن حاجتها لعرّاف يحسب لها نجمها، فالتقطت «ريا» طرف الخيط وزعمت لها بأن من بين جيرانها عرافا اسمه «الحاج حسين» سبق له أن قرأ طالعها وطالع غيرها، وتحققت كل نبوءاته، فوافقت الفتاة على أن تصحبها إليه، بدلا من انتظار «زنوبة» التى كانت قد تركت دكانها لابنتها «أم ابراهيم» لتطوف على بعض زبائنها.

وفى الطريق لم تتنبه «فاطمة» إلى أنهما ما كادتا تمران أمام ثلاثة رجال كانوا يجلسون على طوار المقهى الذى يقع على رأس حارة «على بك الكبير» حتى حركت رأسها بطريقة خاصة، فغادروه على الفور، ولم تعرف أن الكحة العالية، التى صدرت عن امرأة كانت تجلس فى مدخل خمارة «كرياكو» هى كحة «سكينة» ولم تلاحظ كف «ريا» وهى تشير إليها من خلف ظهرها، بأن تلحق بهما.

ولم تكد «فاطمة» تأخذ مجلسها على الحصيرة فوق أرض الغرفة المظلمة إلا من ضوء المسرجة الخافت حتى استأذنت منها «ريا» لكى تستدعى جارها العراف... وبعد قليل عادت ومعها رجل قدمته لها باعتباره «سى عبد العال» زوج شقيقتها، ثم دخل فى اعقابه رجلان قدمت لها الأول - وهو «عرابى»- باعتباره زوجها، أما «حسب الله» فقد قدمته لها بصفته «الحاج حسين العراف».

ولما لم يكن منطقيا أو لائقا، أن يحتسى أحد الخمور فى حضور رجل صالح وعلى صلة بعالم الغيب مثل «الحاج حسين»، فقد كانت تلك أول مرة تتنازل فيها العصابة عن واحدة من أهم طقوس القتل، وهو احتساء الخمر. وبذلت «سكينة» - التى كانت فى حالة سكر شديد، مجهودا كبيرا لكى تسيطر على نفسها، حتى لا تضحك، وهى تتابع حماس «حسب الله» لأداء الدور الذى اختير لتمثيله، وقد بدأ بسؤال الفتاة عن اسمها، واسم أمها كما يفعل المخضرمون من قراء الطالع، ومع أن عقل «فاطمة» كان - كمقول غيرها من العوام - مليئا بكثير من الخزعبلات، إلا أنها - بحكم عملها - لم تكن غافلة عن أن من بين الذين يدعون القدرة على قراءة الطالع، كثيرين من النصابين. فأجابت على اسئلة «الحاج حسين» ثم أردفت:

- إن كنت منجم صحيح قولى لى على اللى أنا عاوزاه... أنا أحب جدع تعرف هو فى أى بلد؟!

ولم يرتبك «حسب الله» من السؤال الذى كشف عن أن «فاطمة» لم تقتنع بصدق تمثيله، بل ضحى راضيا برغبته فى مواصلة التشخيص ليتخذ من الواقعة موضوعا للتفكه فى جلسات المزاج بعد ذلك... وانتقل إلى العمل فطلب منها أن تنام على ظهرها لكى يستطيع أن يقيس طولها، فيحسب - على أساسه- نجمها ويقرأ طالعها. وترددت الفتاة لبرهة، ثم استجابت للطلب، ووضعت رأسها على فخذ «ريا» التى كانت تجلس إلى جوارها، ومدت ساقيها على استقامتهما. لكن «حسب الله» الذى كان قد أخرج من جيبه خيطا طويلا، ليقيس به، اعترض قائلا أن الطريقة التى تنام بها ستؤدى إلى عدم دقة القياس، وطلب من «ريا» أن تبتعد عن المكان، وأن تضع رأس الفتاة على الارض، وجلس «عبد العال» عند قدمى الفتاة، ممسكا بطرف الخيط، بينما كان «حسب الله» يمتد به إلى أن وصل إلى نهاية رأسها، وفى اللحظة التى تناول فيها المنديل المبلل من يد «ريا» أطبق به على فمها وانفها، بينما شل «عبد العال» حركة قدميها، وتقدم «عرابى» فثبت رأسها، وبعد دقيقتين، كانت قد قرأت طالعها، وحسبت نجمها، وتعرفت على مستقبل حياتها: ماتت.

وفى اليوم التالى توجه وفد يضم «ريا» و «سكينة» وبصحبتهما «حسب الله» إلى دكان «على الصائغ» الذى اشترى منهم مصاغ «فاطمة» - حلق وزوج من الاساور- بثمانية عشر جنيها، قسمت على خمس حصص متساوية، إذ لم يعترض «عرابى»

هذه المرة، على الخروج عن الاتفاق الذى يقضى بحفظ نصيب الغائب، ووافق على اخفاء العملية عن «عبد الرازق» الذى لم يشترك فيها، وعلى تقسيم حصته فيما بينهم.

ومع أن «فاطمة» كانت مومسا من المرخص لهن بالعمل، ومع أن اسمها - تبعا لذلك - كان مدونا فى كثير من السجلات الحكومية الرسمية، ومع أنها كانت تحمل رخصة بمزاولة المهنة، ذات رقم مسلسل، تزينها صورتها، وتحمل بيانات باسمها واسم ابيها ولقب اسرتها وتاريخ وموطن ميلادها، فإن احدا لم يهتم بالبحث عنها، أو يبلغ الشرطة عن غيابها.... وتجاهلها الجميع، حتى بعد أن اكتشفت جثتها فى مقبرة «آل همام» بعد قتلها بسبعة شهور... ومع أن التوصل إلى اسم ابيها ولقب اسرتها لم يكن يتطلب إلا مجهودا يسيرا، فإن جهة واحدة من الجهات الكثيرة التى كانت تبحث وتتحرى لم تعن بالتحقق من شخصيتها، أو استكمال البيانات الاولية عنها، فدخلت قرار الاتهام - ثم التاريخ- باسم «فاطمة مجهولة اللقب»!

ومع أن أحدا من مؤرخى «ملحمة آل همام» لم يحدد بدقة تاريخ مقتل «فاطمة مجهولة اللقب» إلا أنها قتلت فى الغالب خلال الاسابيع الستة، التى فصلت بين مقتل «زنوبة محمد موسى»، المعروفة باسم «حجازية» - فى ١٩ مارس (آذار) ١٩٢٠، وتقديم شقيقها «محمود محمد موسى» للبلاغ الاول الذى اتهم فيه (ريا) بالمسؤولية عن اختفائها فى ٩ مايو (آيار) ١٩٢٠، وقبل أن تنشأ حالة التوتر فى العلاقات بين أفراد العصابة نتيجة للاخطاء التى وقعت فى تنفيذ عملية «حجازية» والتى أعقبتها فترة كمون، توقفت خلالها عمليات القتل ما يقرب من شهرين، إلى أن قتلت الضحية التاسعة «أنيسة محمد رضوان» فى ٣٠ يونيو «حزيران» ١٩٢٠.



فى تلك السنة - ١٩٢٠- كانت «أنيسة رضوان» فى الخامسة والعشرين من عمرها، تلفت النظر بجمالها الذى كان أوفر من المعتاد، اذ كانت طويلة القامة، رشيقة القد، بيضاء البشرة، ذات عينين عسليتين واسعتين، تحرص على ابراز جمالهما الأخاذ باطار من الكحل، وشعر أشقر ذهبى تتفنن فى تضفيره، وتلفه أحيانا حول رأسها على شكل تاج ينعكس على ملامح وجهها الدقيقة، فيزيدها جمالا...

وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها، حين تزوجت - عام ١٩١٤ - من ابن عمها «احمد عزب» الذى كان يعمل تاجرا صغيرا للغلال والاعلاف بـ «مينا البصل»، لكن الخلاف مالبث أن دب بين الزوجين حين فكر الزوج بعد قليل فى أن يصفى تجارته، وأن يعود إلى مسقط رأس الاسرة، باحدى قرى «محافظة المنيا» بشمال الصعيد، بعد الركود الذى حاق بها نتيجة للحرب العالمية

الاولى، فرفضت «أنيسة»- التى كانت قد ولدت فى الاسكندرية وتعودت على الحياة فيها - الرحيل معه. وتصاعد الخلاف بينهما. فانتهى بطلاقها وكانت حاملا آنذاك فى ابنتها الوحيدة «هانم». ومع أن الزوج قد عاد بعد ذلك التاريخ بعام واحد إلى الاسكندرية، واستأنف فتح دكانه بعد أن انتهت مرحلة الركود، لكنه عاد وبصحبته زوجة اختارها من قريته ولم يفكر فى اعادة طليقته المتمردة إلى عصمته. وبحكم صلة القرابة بينهما، فقد سعى للتفاهم مع اشقائها، الذين قبلوا عرضه، بأن يدفع لها، ولابنتها نفقة شرعية، قدرت بثمانية ريالات كل شهر.

انتقلت «أنيسة» بعد طلاقها، لتقيم فى منزل شقيقها الأكبر «السيد»، لكن الاقامة لم تطب لها، إذ ما لبثت المشاحنات أن دبت بينها وبين زوجة الأخ، فغادرتهما لتقيم مع شقيقها الثانى «عزب». ولما كان يعمل - كشقيقه- فى الميناء، ويغيب -هو الآخر- عن منزله معظم ساعات النهار. فقد فشل فى السيطرة على الاحتكاكات اليومية بين شقيقته وزوجته، وعجز عن تحملها. ولما كان مستحيلا أن تقيم «أنيسة» مع شقيقتها الكبرى «نميسة» التى كانت، فضلا عن كثرة عيالها وضيق مسكنها وتزمت زوجها، تستضيف أمهما، فقد وافق الجميع مرغمين على أن تستقل «أنيسة» بمسكن تقيم فيه مع ابنتها. واشترطوا عليها أن تقيم الأم معها. وانتهزوا الفرصة. فتخلصوا من ابن شقيق لهم، كان قد مات وتركه وحيدا، فأضافوه إلى قائمة الحراس الذين أحاطوا بهم الابنة الجميلة المطلقة.

وما لبثت «أنيسة» أن اثبتت لأسرتها أهليتها للاستقلال الذى منحوها إياه. فابتعدت عما يثير الشبهة فى سلوكها باعتبارها امرأة مطلقة تعيش وحيدة، بلا رجل يصد عنها الغواية، فكفت عن الاهتمام بجمالها الذى كانت شغوفة به. ولم تعد تتزين داخل منزلها أو خارجه، بل أنها نزعت الجلاجل التى كانت تتدلى من خلخالها، فتلفت إليها انظار الناس اثناء تجوالها فى الاسواق، وحرصت على اداء الفروض الدينية. وفضلا عن ذلك فقد سعت لكى تعمل لتعول نفسها، واستثمرت متجمد النفقة التى دفعها لها طليقها فى شراء ماكينة خياطة. وخلال عامين، كانت قد انتقلت من تفصيل الملابس بالقطعة للافراد، إلى التعامل مع عدد من الخياطين كانوا يوردون لها ما يقومون بقصه من ملابس، لتقوم بالمرحلة الاخيرة، وتضيف إليه كل ما يتطلبه من اكسسوارات...

وفى بداية عام ١٩١٩، حدث التحول الثانى الخطير فى حياة «أنيسة رضوان»، بعد أن توثقت صلتها بامرأة تكبرها باعوام قليلة، وتمت إليها بصلة قرابة بعيدة، هى «عديلة الكحكية»، كان من نتيجتها أن تركت «أنيسة» المنزل الذى كانت تستأجره بالقرب من «عمود السوارى» لتنتقل للاقامة فى «مينا البصل» وتستأجر الطابق الارضى من المنزل الذى تملكه «عديلة» وتقيم - مع زوجها وابنائها- فى الطابق



(٧ د ٢)

حسب الله فى قيافته الكاملة

الثانى منه.. وكانت الحجة التى استندت إليها «أنيسة» فى هذا الانتقال، هى قرب المسكن الجديد، من دكان ابن عمها وطليقها «أحمد عزب»، مما يتيح له فرصا أوفر للمرور عليها وتفقد أحوالها وأحوال ابنتها ورعاية شؤونهما.

لكن ذلك لم يكن السبب الوحيد، لهذا الانتقال، إذ كانت العلاقة بين الفتاتين قد توثقت لدرجة اصبحا معها لا يفترقان، والغالب أن ما جمع بينهما هو رغبة مشتركة فى العبث وجنوح للتمتع بطيبات الحياة. ولا أحد يعرف من فيهما التى قادت الاخرى إلى هذا الطريق الشائك الذى انتهى بقتل احداهما، وكاد يقود الاخرى إلى حبل المشنقة.

وفيما بعد قالت «عديلة» أنها كانت زوجة وأما لا تغادر باب منزلها، حين انتقلت «أنيسة» للاقامة معها، ولأنها كانت مطلقة، فضلا عن أنها كانت امرأة عاملة، فقد كانت تكثر من الخروج، وتتعامل مع كثيرين من الرجال، فأخذت تغريها بالخروج معها، وهو أمر انزعج له زوجها وكان مثارا لخلافات متعددة بينهما. ولما رفضت طلباته المتكررة بطرد «أنيسة» من المسكن خيرها بينه وبينها، فاختارتها من دون تردد. وهى رواية كان يمكن تصديقها لو لم تكن «عديلة الكحكية» تنتمى لأسرة ليس التزمت الاخلاقى من فضائلها، إذ كانت واحدة من شقيقاتها تعمل راقصة فى الموالد وقد تزوجت من طبال، وكانت الثانية زوجة لـ «أبو الشام» الذى يدير مقهاه للعب القمار، أما الثالثة فقد عملت سنوات مومسا بـ «كوم بكير» قبل أن تمرض، وتعتزل، وتقيم فى «بيت الخواص»أول البيوت التى افتتحت بها «ريا بنت على همام» نشاطها فى مجال الدعارة السرية...

وعلى العكس من ذلك، فإن أقارب «أنيسة» يؤكدون أن «عديلة» هى التى أتلفت حالها. وقد قالت شقيقتها «نميسة» فيما بعد، «أنها كانت تصلى، وتصوم لحد ما سكنت مع عديلة. ما اعرفش عملوا إيه مع بعض»، وهو تحليل وافقها عليه زوجها «حافظ سلامة» الذى أكد أنه لم يكن مستريحا منذ البداية لسكن شقيقة زوجته عند امرأة مثل «عديلة»: «تخرج من الصبح ولا ترجع إلا المغرب.. وتتكحل وتمشى تتشخلع»، وأنه لاحظ بعد فترة من انتقالها للسكن معها، أن «أنيسة» قلدت صديقتها واستبدلت أحد اسنانها بسنة من الذهب، فأثاره ذلك، وهاجمها بعنف أمام زوجته، التى دافعت عن شقيقتها مما كان مثار خلاف حاد بينهما، إذ هو يعتقد «إن الست اللى تحط سنة ذهب. تبقى مش كويسة». وأضاف أنه عندما لاحظ ذلك، ازداد استياؤه من بقاء «أنيسة» من دون زواج، بعد ست سنوات من طلاقها، فكثف إلحاحه عليها، قائلا لها أنه بحكم عمله، كمزين، وصاحب صالون للحلاقة، يعرف كثيرين يمكن أن يرحبوا بالزواج منها، لكن اصرارها على الرفض - كما أضاف - ازداد بعد توثق صلتها بـ «عديلة»، وكانت حجتها أنها تربح من عملها كخياطة ريالا فى اليوم، وتحصل على نفقة شهرية، رفعها

طليقها إلى عشرة ريالات، وسوف تفقد ذلك كله، مقابل زواج لا تستطيع أن تضمن استمراره.

وفى ذلك اليوم من ربيع ١٩٢٠، خرجت الفتاتان من المنزل الذى تقيمان به فى «مينا البصل» إلى «سوق الجمعة» لتشترى «أنيسة» بعض بكرات الخيط، والاكسسوارات للملابس التى تقوم بخياطتها، أما «عديلة» فقد اكتفت بالتجول معها بين الدكاكين، فلم تجد ما يغريها بالشراء، وكانتا على وشك الخروج من السوق، حين فوجئت «عديلة» بامرأة تناديها باسمها الذى كانت تعرف به «أم محمد»، فالتفتت إلى الخلف، لتجد نفسها وجها لوجه، أمام «ريا» التى كانت تصطحب معها ابنتها «بديعة» لتشترى لها جلبابا من السوق...

ولم تكن «عديلة» قد التقت بها منذ غادرت المنزل الذى كانت تستأجره فى مواجهة مقهى «أبو الشام» زوج شقيقها، سوى لقاءات عابرة، فأخذتا تثرثران وتتبادلان الاخبار عن الصحة والاحوال والاولاد والازواج والاخوة. وبالمناسبة تذكرت «ريا» صديقتها «نبيهة» - أخت «عديلة» التى ماتت فى مستشفى المومسات - وذرفت دمعتين كاذبتين تظاهرت بمسحهما بمنديلها، ثم سألتها وهى تتفحص المرأة الاخرى التى كانت تقف صامتة طوال الوقت:

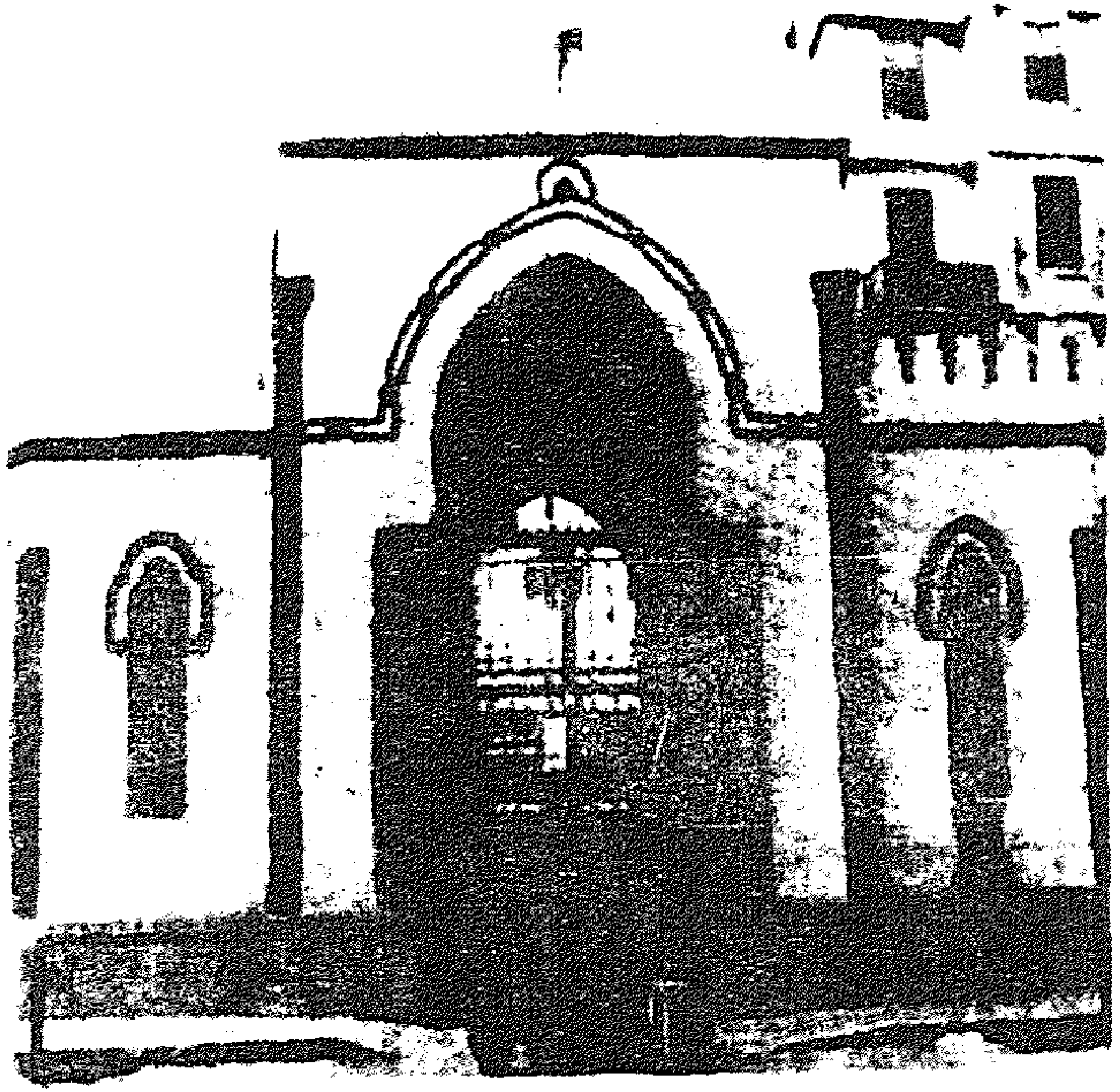
- ومين الست الحلوة اللى معاكى دى؟!

وكان جمال «أنيسة» الملحوظ، قد شحذ الحاسة المهنية، لدى «ريا» التى لم تكتف بمعرفة اسمها بل أصرت على أن تعرف كل ما يمكنها من تقييم الموقف، فأخذت تواصل السؤال عن أحوالها، حتى عرفت أنها مطلقة ولها ابنة وحيدة، وتعيش وحدها مع صديقتها، فمصمصت بشفتيها أسفا على العمى الذى أصاب الزوج الذى طلقها، والرجال الذين لم يتخاطفوها بعده... وكان الحديث مايزال يتواصل بينهن، حين وصلوا إلى «شارع ابى الدرداء»، فألحت عليهما «ريا» بأن يصحباها إلى منزلها.. ولكن الفتاتين اعتذرتا، إذ كانت «أنيسة» على موعد لا تستطيع أن تتخلفه، مع أحد الترزية الذين تتعامل معهم، وأمام اصرارهما على الانصراف، وصفت «ريا» موقع بيتها فى «حارة النجاة»... وقالت لهما وهى تودعهما:

- لازم تيجوا يوم نفسحوكم ونغدوكم غدوة حلوة عندنا.

ويومها بدا لهما أن الطريق إلى «حارة النجاة» قصير جدا، لكنهما لم تدركا إلا فيما بعد، أن الطريق إلى النجاة نفسها، كان قد أصبح مسدودا.

ولم يكن محتما، أن يسفر لقاء المصادفة الذى جمع بين «ريا» وكل من «عديلة الكحكية» و«أنيسة» رضوان فى «سوق الجمعة» عن صلة مستمرة، أو أن يؤدى إلى انضمام الفتاتين إلى فيلق النساء اللواتى يعملن فى «بيت حارة النجاة».. صحيح أنهما كانتا ترغبان بقوة فى مصادقة الرجال، وتستجيبان لغزلهم، وتختليان بهم، بل وتتقاضيان ثمنا لتلك



ضريح سيدى أبى الدرداء

مخاطر مجهولة تشعران بها كلما قامتا بواحدة من مغامراتهما المشتركة.

ومع أن «ريا» لم تترك الفرصة تمر من دون أن تحصل من «عديلة الكحكية» على عنوان منزلها، إلا أنها فعلت ذلك على سبيل الاحتياط، إذ لم يفت عليها، أن مستوى الفتاتين الاجتماعى أعلى بكثير من مستوى الزبائن الذين يترددون على بيت «حارة النجاة»، إذ كان معظمهم -كما وصفهم «أبو أحمد «النص» فيما بعد- «شحاتين وجرابيع وهلافيت»، من المهاجرين الصعايدة الذين لا يقدرون على تكاليف مرافقة امرأتين بهذا المستوى بل وقد يفضلون عليهما واحدة من «النسوان الركش» اللواتى يتعاملن مع البيت مثل «عائشة» و«عزيزة» و«نعمة»، وغيرهن من بائعات أوراق اليانصيب، والطماطم والبطاطا، وجامعات أعقاب اللفائف!

وكانت واحدة من هؤلاء اسمها «بُرج» هى السبب المباشر الذى جعل «ريا» تبذل مجهودا استثنائيا لاستدراج «عديلة» و«أنيسة» إلى «بيت حارة النجاة».

فبعد أسبوع من ذلك اللقاء العابر، كان «عبدالرازق» يجلس ذات غروب، فى خمارة قريبة من الحارة، حين رأى «برج» تجمع

الخلوات.. إلا أنهما كانتا تفعلان ذلك على سبيل الهواية لا الاحتراف، وبدافع الشهوة لا الارتزاق، فلا تستجيبان لكل عابر سبيل، بل تتخيران ممن يغازلونهما، من تميلان إليه، وتقدران أنه يتلاءم مع مكانتهما الاجتماعية، وتشترطان أن يكون مكان اللقاء نظيفا وأنيقا وبعيدا عن العيون المتلصصة، كما كانتا تصران على أن تكونا معا، وتفرضان على الرجل الذى يختار إحداهما أن يحضر معه صديقا له، يختلى بصديقتها. ففضلا عن أن كلا منهما كانت تتخذ الأخرى ذريعة لكى تخرج من المنزل، وتغيب عنه، من دون أن يثير ذلك اعتراض أحد من أفراد الأسرة، فقد كانتا تجدان فى وجودهما معا، حماية من

بقايا لفائف السجائر من تحت أقدام الرواد، فى كوز من الصفيح الصدىء، لتبيعها بعد ذلك إلى معلم يصنع منها نوعا من الدخان الرخيص. ومع أنه كان يعرف الفتاة من قبل، ويراها كثيرا فى بيت «حارة النجاة» ومع أنها كانت - كما وصفتها «ريا» بعد ذلك - «وحشه ونتة وما تتنظرش»، فقد كان «عبدالرازق» فى حالة من السكر البين، جعلت الرغبة فيها تطق فى رأسه فجأة، فسحبها من يدها، وظل يتجول بها بين الحانات والمحاشش المنتشرة فى «حى اللبان»، واستسلمت له الفتاة، التى توهمت أنها وجدت -فى تلك الليلة- عملا أقل مشقة من جمع أعقاب اللفائف، وأكثر ربحا منه.

وما كاد الليل ينتصف حتى دخل بها «حارة النجاة» وهو يسوقها أمامه بعصا طويلة، وينهال عليها بسباب مقذع، مذيعا، على من وصفهم بالقوادين والعاهرات من سكان الحارة، بصوت عال أفقدت الخمر والحشيش صاحبه كل قدرة على اختيار كلماته، برنامج ليلته، إلى أن دخل بالفتاة الدكان الخالى الذى يتوسط دكان «أبو أحمد «النص»، ودكان «ستوتة بنت منصور»، وأغلقه عليهما، لتتصاعد صرخات الفتاة، وتظل تتوالى حتى الفجر من دون أن يجسر أحد من أهل الحارة على التدخل لإنقاذها مما كانت تعانيه.

وفى الصباح المبكر، فتحت «ستوتة بنت منصور» دكان الطبيخ الذى تديره، وما كادت تبدأ فى إعداد شوربة العدس لمن تعودوا أن يفطروا عليها من أهل الحارة والحارات المجاورة، حين فوجئت بباب الدكان المجاور لها، يفتح لتخرج منه «برج» وخلفها «عبدالرازق» الذى استأنف ضربها بالعصا، لأنها طالبته بأجرها عن الليلة التى قضتها معه، وأخذ يسبها بعبارات فاحشة مؤكدا لها أنه هو الذى يستحق أجرا على قضائه ليلة سوداء مع فتاة نتنة الرائحة مثلها، وعلى الرغم من قسوة الركلات والكلمات، فقد أصرت «برج» على مطلبها، وأخذت تكرره بآلية وهى تتمترس فى الأرض وتصر على عدم الانصراف، وهو يواصل ضربها بوحشية، تحولت إلى جنون، ولولا أن «ستوتة» -وغيرها من رجال ونساء الحارة- فصلوا بينهما، وأقنعوا «برج» بالصمت، ووعدوها بأن يستردوا لها حقها، لماتت تحت وطأة الضرب العنيف.

وعند الضحى ظهرت «ريا» -التى كانت قد أمضت ليلتها فى تفقد أحوال بيت الدعارة الثالث الذى كانت تشترك مع «الحرمة روما» فى إدارته -فى «حارة سيدى عماد» لتسمع شذرات من القصة على كل لسان فى «حارة النجاة».. أما التفاصيل الكاملة، فقد سمعتها من «برج» نفسها، التى اصطحبتها إليها «ستوتة بنت منصور»، وبيدها صحن من العدس، تبرعت لها به، ورفعت «ستوتة» ذيل الجلباب الذى كانت ترتديه الفتاة، لتشاهد «ريا» بنفسها الكدمات الزرقاء التى انتشرت فى كل مكان من جسد الفتاة المسكينة. وعلى الرغم من كل ما حاق بها، فقد كانت «برج» ما تزال تصر على أن تأخذ أجرها. ولم تدهش «ريا» لما فعله

«عبدالرازق»، إذ لم تكن تلك أول مرة يتصرف فيها على هذا النحو السخيف، الذى يثير القيل والقال، ويسىء إلى «سمعة» البيت.. ويربك العمل.. ولأنها لم تكن تستطيع -أو تجسر- على أن تفعل له شيئا، كما لم تكن مسرفة إلى الحد الذى يجعلها تدفع أجر الفتاة، وتحل المشكلة، فقد اكتفت برفع كفيها إلى السماء، داعية الله أن يقصف عمره، وأن يريها فيه يوما، ووعدت «ستوتة» بأن تنقل شكواها منه، ومطلب الفتاة، إلى «سى حسب الله» بمجرد ظهوره فى الحارة.

ومع أن «حسب الله» كان يضيق عادة، بهذا النمط من تصرفات «عبدالرازق»، ويرى أنها مما ينتقص من رجولة الرجال، ويعتبرها غلاسة زائدة.. ومع أنه لم يكد يستمع إلى الواقعة، حتى وعد بأن يكسر دماغه، إلا أن «ستوتة» التى كانت قد تبنت قضية «برج» وتعهدت لها -أمام الجميع- باسترداد حقها، كانت تدرك -منذ البداية- أن ما سمعته من «ريا» وزوجها، هو مجرد كلام، لن يتحول إلى فعل، وأن كليهما أعجز من أن يفرض شيئا على «عبدالرازق»، أو أن يتجاسر على مجرد مفاتحته فى الموضوع، وكان هدفها من اللجوء إليهما، هو تبرير لجوئها إلى الرجل الذى كانت تعلم أنه الوحيد -بين رجال الحارة- القادر على كبح جماح «عبدالرازق» والذى يملك من النفوذ الأدبى والمادى عليه، ما يجعل الآخر ينصاع إلى أوامره، وينفذ طلباته دون لجاج.. وهو «محمد خفاجة».



بنات الشوارع.. اللواتى كن يعملن بالبغاء السرى

وهكذا ما كاد «محمد خفاجة» يظهر فى مدخل الحارة، قبل العصر بقليل، ويدلف إلى «حظيرة المواشى» التى يملكها، ليتفقد أحوالها، حتى وجد «ستوتة بنت منصور» تقف على باب الحظيرة، وتستأذنه فى أن يستمع إلى شكواها من «عبدالرازق». ومع أنه لم يكن يحب الاختلاط بسكان الحارة، إذ كان يعتبرهم أقل من مستواه الاجتماعى، إلا أنه ما كاد يسمع أن موضوع الشكوى هو الرجل الذى كان معروفا أنه من أصدقائه، أو بمعنى أدق من مجالسيه، فضلا عما كان يحمله لجوء المرأة إليه من

اعتراف بمكانته، حتى رحب بها واستمع إلى ما لديها، واستاء مما سمعه استياء شديدا بدت اماراته على ملامح وجهه، إذ لم يكن يتصور أن الصغائر التى تعود «عبدالرازق» على ارتكابها، يمكن أن تصل إلى هذا المستوى من الانحطاط..

ولعل ذلك هو الذى دفعه إلى محاولة التحقق من صدق الرواية بنفسه، فانتقل مع «ستوتة بنت منصور» إلى البيت رقم ٩ بالحارة، ودلف لأول مرة عتبة بابه، ليجد «برج» تنام فوق حصيرة فرشتها لها «ريا» على الأرض بجوار باب المحششة، وهى تئن من آثار الضرب العنيف الذى تعرضت له. واستمع واجما إلى شكواها، التى برهنت على صحتها بالكشف عن جانب من الكدمات التى تنتشر على جسدها، وأضافت إليها تفاصيل مخزية عما جرى بينها وبين «عبدالرازق»، ولم تجد حرجا أو تستشعر خجلا فى روايتها، إذ كان منطقها واضحا، وبسيطا وصريحا، فهى لم تسع إلى «عبدالرازق»، ولم تفرض نفسها عليه، بل هو الذى أجبرها على أن تترك عملها، وانتزعها منه، لتنام معه، وهى غير مسؤولة عن عدم إعجابه بها، أو استمتاعه بجسدها، ثم أنها لم تفرط فى عرضها له، إعجابا به، أو رغبة فيه، ولكن لأنها تريد أن تأكل، أما وقد قامت بالعمل الذى كلفت به فقد أصبح من حقها أن تنال أجرها كاملا غير منقوص.

ولم يعلق «محمد خفاجة» على القصة سوى بهمهمة لا تبين.. أخرج على أثرها «ربع ريال» وضعه فى كف الفتاة، باعتباره أجرا لها عن ليلة العمل لحساب «عبدالرازق».

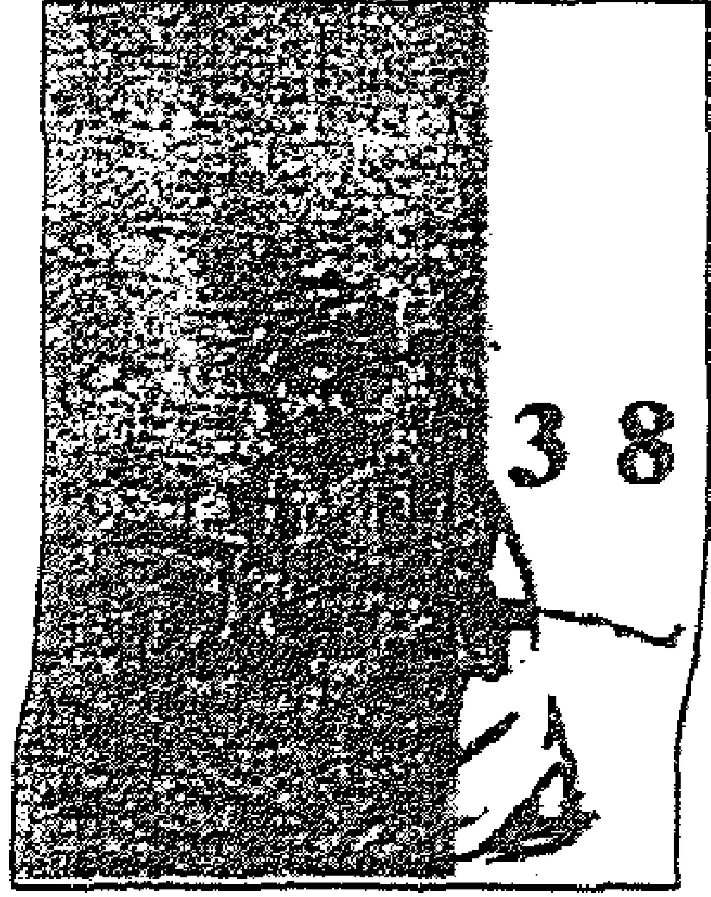
ولم تكن واحدة من النساء اللواتى أحطن بفراش الفتاة، وتابعن مناقشته معها -ومنهن «ستيتة» وشقيقتها «أم أحمد» و«ريا» وعدد آخر من الفتيات العاملات بالبيت - تتوقع أن تنتهى الزيارة بهذه النهاية السارة وغير المسبوقة، إذ كان منتهى أملهن أن يعد «خفاجة» بمفاوضة صديقه فى الأمر، وبإجباره على أن يدفع أجر «برج»، أما أن يستمتع واحد، ويدفع الآخر، فقد كان نمطا من «الجدعنة» لم يسبق لإحداهن أن سمعت عنه. وكانت «ريا» أسعد الجميع بتلك النهاية السعيدة، التى لم تسدل - فحسب - الستار على تداعيات الفضيحة، التى جعلت سمعة البيت مضغة فى أفواه سكان الحارة، بل وأتاحت لها كذلك، أن تتعرف مباشرة على واحد من أعيان الحارة، هو «سى محمد خفاجة» الذى لم يسبق له، أن بادلها حديثا، أو طلب منها خدمة، أو تردد على بيتها، مع ما كان شائعا عنه من أنه «صاحب مزاج» و«ابن حظ»، وأن تعاين عن قرب نموذجا لجدعنته وكرمه وأريحيته.. فتوهجت حاستها المهنية، وقررت على الفور أن تعتبر هذا اليوم السعيد، فاتحة لعهد يرتقى فيه عملاؤها، من مستوى «الهلافيت» و«الجرابيع» و«الشحاتين» إلى مستوى «محمد خفاجة» وأمثاله من الأعيان ومياسير التجار.. وهرولت خلفه تدعو له بالفلاح والنجاح، وبأن يبارك الله فى ماله وعافيته، ولا يحرم أمثالها من بره

وكـرمـه، وحـين أدركـتـه عند باب البـيت، همست له:

- أنى عارفه إن البنات إللى عندى دول مش من مقامك.. لكن إحنا لازم نخدموك ونشوفوا كيفك ونجيبلك مره عال.

وابتسم «محمد خفاجة» ولم يعلق..

وكانت «ريا» تفكر -آنذاك- فى «عديلة الكحكية»..



بعد يومين من ذلك، قادت صدفة مقصودة، «عديلة الكحكية» و«أنيسة رضوان» إلى «حارة النجـاة». ومع أن «عديلة» كانت قد أدركت -بحكم صلاتها السابقة بـ «ريا»- ما وراء إلحاحها فى دعوتهما لزيارتها فى بيتها، وخمنت أن البيت يدار للدعارة السرية، إلا أنها لم تتحمس فى البداية لقبول الدعوة، إذ كانت تخشى أن يكون الزبائن الذين يترددون على البيت من نفس المستوى الوضيع الذى كان يتردد على «ريا» حين كانت تقطن - قبل عامين- فى المنزل المواجه لمقهى زوج شقيقتها «أبو الشام» بـ«مينا البصل».. لكنها عادت بعد أيام قليلة، فرأت أن تتفقده، على سبيل الاحتياط، فقد تكون «ريا» قد ارتقت بمستوى البيوت التى تديرها، وقد تحتاج هى يوما إلى خدمات بيت ليس من مستواها..

وكانت قد صحبت «أنيسة» -عصر ذلك اليوم من أواخر إبريل (نيسان) ١٩٢٠- إلى مركز للصيانة، يتبع «شركة سنجر» لماكينات الخياطة، لكى تصلح الماكينة التى تملكها.. وكان من حسن حظهما أن العطل كان بسيطا، لم يستغرق إصلاحه وقتا طويلا، وما كادتا تخرجان من المركز إلى شـارع «أبى الدرداء» الذى يقع به، ويصحبتهما عامل يحمل الماكينة، حتى اقترحت على «أنيسة» أن تعطياه قرشا لكى يستقل الكهربة -أى الترام- إلى المنزل، على أن تلحقا به، بعد أن تقوما بزيارة خاطفة إلى منزل «ريا» القريب، ثم تستقلان الترام فتصلان إلى البيت قبل وصوله، إذ سوف يذهب فى الغالب ماشيا، *لكى يوفر القرش لنفسه..*

ووافقت «أنيسة» -التى كان لديها شعور مبهم بأن «ريا» ليست مجرد دلالة كما ذكرت لها صديقتها «عديلة»، وأن بين المرأتين من الأسرار ما كانت تتوق إلى معرفته، بعد أن استنتجت أنه يتعلق بعالم الرجال الساحر -فعبرت معها إلى الطوار الآخر، وتنقلتا من حارة إلى أخرى، إلى أن وصلتا إلى ساحة «كوم بكير»، وتوقفتا أمام دكان صغير لبيع الدجاج، لتسألا صاحبته عن «حارة النجاة»، فإذا بهما تسمعان صوت «ريا» -التى كانت تتسامر مع صديقتها «زنوبة الفرارجية»- ترحب بهما وهى تقسم غير حانثة أنها كانت تنوى زيارتهما فى اليوم التالى، ثم تقوم فتتقدمهما إلى مدخل الحارة.

ومنذ اللحظة الاولى التى وضعتا فيها أقدامهما على أرضها، أدركت «عديلة» أن

الحارة تكاد تكون امتدادا لحى «كوم بكير»، وأنه ليس بين سكانها واحدة من النساء الأحرار، وأن الرجال الذين يترددون عليها أو يسكنون بها، يتعاملون مع أى امرأة تظهر فيها باعتبارها بغيا.. خاصة إذا كانت تسير مع «ريا» التى كان واضحا أن الجميع فى الحارة، يعرفون أنها «قوادة» ويتوقعون أن كل امرأة تسير بصحبتها جاءت لتمارس الفحشاء.

ومع أن كلا منهما كانت تحبك ملاءتها على جسدها، وهو أمر غير شائع بين البغايا، إلا أن جمال وجهيهما، وتأود جسديهما الرشيقين، وفخامة الملابس التى كانتا ترتديانها تحت الملاءتين، لفتت أنظار الرجال الذين تدافعت عبارات الغزل الداعرة من أفواههم، ومشى بعضهم خلف النساء الثلاث، يتابعون الغزل بألفاظ جنسية مكشوفة. ومع أن «ريا» كانت ترد على بعضهم بعبارات تقريع غير مجدية، إلا أنها كانت ترد على الآخرين بألفاظ تنتمى إلى نفس النوع الداعر من الكلمات.. وكانت روائح الخمر المتصاعدة من أفواه الرجال، وسحب الحشيش المتصاعدة من نوافذ البيوت تكاد تكتم الأنفاس.

ولم تتنبه «عديلة» إلا فيما بعد، إلى أن «ريا» قد توقفت أمام باب حظيرة للمواشى لتسأل عن شخص اسمه «سى خفاجة»... وحين اقترب الموكب من الطرف الآخر للحارة... حيث يوجد منزل «ريا»، شاهدت «عديلة» عددا من الرجال يجلسون أمام دكان يبيع الخمر، عرفت منهم «حسب الله» زوج «ريا» التى نادت على فتاة اسمها «عائشة» كانت تجلس على عتبة البيت المجاور للدكان، وهمست لها بكلمات لم تتبين منها سوى اسم «خفاجة»، هرولت الفتاة على أثرها فى اتجاه مدخل الحارة، وسألت «عديلة» - بمزيج من الفضول والريبة - «ريا» عما كانت تهمس به للفتاة، لكن المرأة الماكرة تجاهلت السؤال وقالت:

- دى كانت بتسألنى مين الستات الحلوين دول... قلت لها انكم قرايبى!

وفى تلك اللحظة ظهرت فى مدخل الحارة، امرأة متوسطة القامة، ترتدى جلبابا أبيض، وتعصب رأسها بشملة صوفية، ذكرتها بها «ريا» قائلة إنها أختها «سكينة»... وقبل أن تتقدم «عديلة» لتحييها، فوجئت بها تنهال على شقيقتها بشلال من الشتائم البذيئة، بلسان وشى بأنها قادمة لتوها من الخمارة، وفتحت عباراتها شهية الرجال الذين كانوا يسيرون خلفها ويحيطون بها، لمزيد من العبارات والحركات الفاضحة، وصلت بتوتر «عديلة» إلى الذروة، فرفضت أن تقبل دعوة «ريا» للدخول إلى منزلها، لكى تتباحث معها فى زار تعد لاقامته، واعتذرت بأنهما لا تستطيعان أن تتأخرا لأن العامل قد سبقهما بماكينة الخياطة، وليس بالمنزل أحد ليتسلمها منه، ثم قالت لها معاتبة:

- حد يعمل زار فى حتة زى دى... انت عملتينا زى حلاوة الموسم... وفرجت علينا الناس.

وعلق أحد الرجال الذين كانوا يحيطون بهم، على ما قالته بصوت بذىء أخرجه من

أنفه، مصحوبا باشارة بذيئة من اصبعه، فنتشت «عديلة» ملاءتها من يد مضيفتها التى كانت ماتزال تلح عليها لدخول المنزل، وحثت السير فى طريقها نحو مدخل الحارة، وإلى جوارها «ريا» التى حذرتها من الاشتباك مع أحد من الرجال الذين وصفتهم بأنهم «بلطجية وفتوات».. وكانت «أنيسة» قد سبقتهما بخطوات، حين همست «ريا» فى أذن «عديلة» بأن لديها زبون من مقامها، تريد أن تقدمها إليه، وأنه سيكون فى انتظارها قبل غروب اليوم التالى.

ومع أن «عديلة» لم تكف طوال الطريق، عن ابداء ضيقها بما حدث، واظهار ندمها على أنها صحبت «أنيسة» إلى ذلك المكان المشبوه، إلا أنها غادرت المنزل بمفردها بعد عصر اليوم التالى، بزعم أنها ستذهب لزيارة بعض اقاربها، وهو ما تشككت فيه «أنيسة»، إذ كانا قد تعودا على الخروج معا، لكنها لم تعترض، خاصة وأن العمل كان قد تراكم عندها، فضلا عن أن أمها - التى كانت تقيم نصف الأسبوع لدى شقيقتها «نميسة» ونصفه الآخر معها - كانت قد عادت فى ذلك اليوم.

وفى هذه المرة، حرصت «عديلة» على أن تدلف إلى حارة النجاة من مدخلها القريب من منزل «ريا» حتى لا تسير مسافة طويلة تلفت إليها انظار المارة، كما حرصت على أن تضم طرفى الملاءة على وجهها إلا من فرجة ضئيلة تتيح لها بالكاد أن ترى الطريق.. وما كادت تدلف إلى المنزل حتى صحبتها «ريا» - التى كانت فى انتظارها على بابه - إلى حجرة «سكينة» فى الطابق الثانى.

وحتى ذلك الحين كانت المخاوف ماتزال تناوش «عديلة» من المستوى الذى سوف تعامل به، فقالت بلهجة تجمع بين التحذير والأمل:

- أنا مش زى النسوان اللى عندك.

ومع أن روح التعالى فى العبارات قد استفزت «ريا» إلا أنها تحكمت فى نفسها وهى ترد عليها:

- دلوقتى تشوفى.

ثم استأذنت منها، لترسل «عائشة» إلى حظيرة «محمد خفاجة» فتخطره بأن الموضوع الذى كلمته «ريا» بشأنه فى الصباح قد وصل.

وبعد قليل كان «خفاجة» يقف أمام باب الحجرة، ليتفحص المرأة التى زعمت «ريا» بأنها قد استوردتها من أجله خصيصا. وحين تأكد أنها بضاعة من نوع يختلف عن النوع الذى تورده «ريا» لزبائنها عادة، رحب بها، وجلس إلى جوارها على الصندرة وأخذ يتحدث إليها بمودة. ومع أن «عديلة» لم تكن تخلو من إحساس بالخجل والحرج، فقد تأكدت من النظرة العابرة التى ألقتها عليه ومن الطريقة التى يعاملها بها، أن المرأة لم تخدعها، وأنه بالفعل زبون يليق بها... وتدخلت «ريا» لكى تذيب ثلوج الغربة فيما بينهما، فقالت تخاطب «عديلة»:

- انت مختشية منه؟... ده زى أخوك... ومش زى غيره من الجدعان يدور يتكلم


(٢٦٧)

ريا بنت علي همام

ع النسـوان اللى يعـرفـهم..ده يخـاف ع الولية زى عنيه... ولا عندوش كلام... هوّا فيه منه الله يعمر بيته.

ثم التفتت إليه، قائلة له إن «أم محمد» لم تتناول غداءها بعد، فهز رأسه واستأذن منها أن يغيب قليلا، لكى ينهى ما تبقى أمـامـه من عـمل، ثم يعـود بالطعـام والشراب..

ودهش «عـبـد الرازق» - الذى كـان يتحدث إلى «سكينة» أمام دكان «أبو أحمد «النص» - حين رأى صـديقـه «مـحـمـد خـفـاجـة» يخـرج من بيت «ريا»... إلا أنه اشاح بوجهه عنه، حتى لايبادله التحية، إذ كانت عبارات التقريع العنيفة، التى وجهها إليه، بسبب سلوكه الاحمق مع البنت «برج» مـا تزال تحـز فى نفـسـه... وبادله «خـفـاجـة»... الذى كـان قـد تعـود على تصرفاته الصبيانية- تجاهله بمثله، ونادى «سكينة» فناولها نصف ريال، وطلب إليها أن تقـوم بشـراء الطعـام الذى تطلبـه «أم محمد» إلى أن يعود.

ومـا كـاد عـبـد الرازق يعـرف - من «سكينة» - سـبب وجـود صـديقـه فى بيت «ريا» حتى صعد إلى الطابق الثانى ووقف على باب الغرفة، يتفحص «عديلة» لعدة ثوان، قبل أن ينسحب لتلحق به «ريا» التى أدركت أن تداعـيـات الأزمـة بين الرجلين بسبب مشكلة «برج» توشك أن تتفاقم. ومع أنهـا كـانت واثقـة أن «عـبـد الرازق» لا يستطيع أن يتجاوز الحدود مع «خـفـاجـة» إلا أنهـا كـانت واثقـة كـذلك... من أنه يسـتطيع أن يتـجـاوز كل الحـدود مـعـهـا.

وكانت ماتزال تحاول استرضاءه، حين عاد «خفاجة» ليجدهما واقفين فى ركن مظلم من الممر الذى تعلوه الغرفة، فلم يخاطبها بكلمـة، ودلف إلى حـيث كـانت «عـديلة» تنتظره وبصـحـبـتـهـا «سكينة» التى عـادت بالطعام، ثم خـرجت إلى المـمـر لتطلب إلى المتفاوضين خفض صوتيهما حتى لا تستمع «عـديلة» إلى مـا يقـولون، ثم عـادت إلى الغرفة بعد قليل، لتخطر سى «خفاجة» بأن هناك من يريده بالخارج.

ولم يكد «خـفـاجـة» ينضم إلى طاولة المفاوضة فى الممر المظلم، حتى وجد «عبد الرازق» يمـارس واحـدة من الاعـيـبـه الصبيانية، ويعنف «ريا» لأنها لم تضعه فى الحسبان، فتدعو المرأة الاخرى، التى كانت بصحبة «عديلة» أمس، كما علم بذلك من «سكينة»، لكى تلتـقى به، وكـأنه أقل من غيره، أو كأن مستواه هو مستوى جامعات أعقاب اللفائف، مصرا على أن تصطحب «ريا» المرأة التى بالداخل، الآن وفـــورا، لتعودا ومعهما تلك المراة، مؤكدا أنه مستعد لدفع كل النفقات من جيبه.

وأدرك «خـفـاجـة» أن «عـبـد الرازق» يحاول أن يثبت لنفسه، وله، أنه ليس مجرد محسوب من محاسيبه، ولكنه ندّ له، وأنه رغم سماجة تصرفه، يتمحك به، ويسعى لكى يصالحه، فلم يتوقف أمام التفاصيل، وعرض عليه نفس الحل الذى عرضته عليه «ريا» فـقـبله من دون مناقـشـة، وعـاد إلى قواعده أمام «دكان «النص».

ولم تعـرف «عـديلة» سـبب الازمـة، التى صدت شهية «خفاجة» عن تناول الطعام،

مما اضطرها إلى الاعتذار عنه هى الاخرى، لتفوز به الشقيقتان. إلا بعد أن انتهت الخلوة بينهما، فقد شرح لها، خلفيات المشكلة وطلب إليها أن تحاول اصطحاب صديقتها فى المرة القادمة، لأنه وعد «عبد الرازق» بذلك، وهو صديقه، ولا يريد أن يغضبه.

وكان الطلب مفاجأة سارة لـ «عديلة» إذ أكد لها أن لقاءها مع «خفاجة» لن يكون الاخير، مما يدل على أنها قد اعجبته كما أعجبها، فضلا عن أنه سوف يسهل عليها الخروج من المنزل بصحبة «أنيسة» التى كانت تشعر بشىء من الاسف، لأنها كذبت عليها، وتحمل هم اضطرارها لتكرار ذلك، فوعدته بحماس بأنها ستبذل كل مافى وسعها، لكى تحقق له ما طلب. وعندما عرفت «ريا» - بعد انصرافه- أنه اعطاها ريالا كاملا. طلبت إليها أن تحتفظ به لنفسها، على أن تحاسبه هى على ايجار الغرفة فيما بعد.

والحقيقة أنها كانت قد تقاضت منه نصف ريال فضلا عن الطعام والشراب الذى دفع ثمنه، ثم تنازل عنه لها ولشقيقتها. ولكنها أرادت بهذا التظاهر بالكرم، أن تغرى «عديلة» لكى تقوم بسحب «انيسة» إلى البيت، لا لكى تتوقى سماجة «عبد الرازق» فحسب، ولكن - كذلك - لكى تستثمر الاثنتين، بعد أن اكتشفت أنهما دجاجتين سوف تبيضان لها ذهبا، وترفعان من مستوى الزبائن الذين يترددون على البيت.... ومع أن «عديلة» اعتذرت عن مفاتحة «أنيسة» فى الموضوع، لأنها لم تخطرها بحضورها اليوم، إلا أنها أكدت لـ «ريا» أنها لو فاتحتها فيه، فلن ترفض... وكان فى ذلك ما يكفى... ويزيد.

بعد ثلاثة أيام فقط من ذلك اليوم طرقت «ريا» باب البيت الذى تسكنه الفتاتان فى «مينا البصل» وعندما فتحت لها «أم أنيسة»الباب، زعمت لها أنها جاءت لكى تقوم ست «أنيسة» بتفصيل جلباب. لها، وآخر لابنتها «بديعة» التى كانت تصطحبها معها. ودهشت الام لان «انيسة» كانت قد توقفت عن التفصيل بالقطعة، منذ تعاقدت مع الترزية الكبار على العمل معهم، ومع ذلك فقد قادت الضيفة الى صالة المنزل، ثم اخطرت ابنتها بحضورها،وعادت لترتدى ملابس الخروج.

وفوجئت «أنيسة» بزيارة «ريا» التى لم تكن تتوقعها فارتبكت وعجزت عن مجرد الاعتذار لها بانها اعتزلت العمل الذى جاءت تكلفها به، واخذت تستمع الى ضيفتها التى تصرفت كما هو متوقع من ربة منزل مصونة، جاءت لتفصل ملابس أسرتها لدى حائكة محترمة. وحتى صدقت «أنيسه» بالفعل ان هذا هوالسبب الحقيقى لزيارة «ريا» فاستدعت «بديعة» التى كانت قد شرعت فى اللعب مع ابنتها «هانم» لكى تأخذ مقاساتها. وفى تلك اللحظة فقط، همست «أم بديعة» فى أذنها بعبارات اضطربت لها، ولم تعرف كيف تجيب عليها، فنزلت الى الطابق الارضى لتبلغ «عديلة» التى كانت مشغولة بطهو الطعام بان «ريا» جاءت لتصحبهما الى بيتها.

وادركت «عديلة» ان «ريا» قد اخطأت

فجاءت مبكرة عن الموعد الذى حددته لها بعدة ساعات، ولو انها قد التزمت به، لما التقت بـ «ام انيسة» لكنها لم تهتز لذلك، بل تظاهرت بالدهشة من الزيارة والطلب ووعدت صديقتها بان تلحق بها بعد ان تنتهى من عصر الطماطم، واضافتها الى الطعام، ووضعه على النار.. ولانها كانت حريصة على ألا تعرف الام بان لها صلة بالزائرة الغامضة فقد اخذت تتابع الموقف، الى ان استمعت الى صوت «انيسة» وهى توصى امها بألا تنسى تسليم الملابس التى اعطتها اليها للترزى الذى تتعامل معه، ورأت الام وهى تغادر المنزل الى منزل ابنتها «نميسة» لكى تمضى معها بقية ايام الاسبوع، فصعدت الى الطابق الاعلى، لترحب بـ «ريا» وتتظاهر بانها خالية الذهن تماما عن الموضوع الذى جاءت من اجله، فتسأل : ايه الحكاية؟.

وقالت «ريا» ببساطة:

ـ الجدعين اللى كانوا واقفين قدام البيت لما جيتوا الحارة.. شافوكم، وح يتجننوا عليكم.. ودول فتوات وعصايتهم طويلة.

ولم تعقب «عديلة» بشىء أما «أنيسة» التى فاجأها الخبر، فقد حاولت ان تسترجع وجوه الجدعان الذين أحاطوا بهما فى ذلك اليوم. وهمت بان تستعين بـ «ريا» على تحديد المعجبين اللذين أرسلاها لكنها خجلت من ذلك، فاكتفت بسؤالها عما إذا كانت الدعوة تشملها، فلما تلقت تاكيدا بذلك، نظرت الى «عديلة» التى ردت على نظرتها بنظرة محايدة، وكأنها تفوضها فى اتخاذ القرار.. وتعلن التزامها بما سوف تقرره، وبعد لحظات من التردد. قالت «أنيسة».

ـ بس «عديلة» لسه بتطبخ. وانا نشرت الغسيل. واحنا مانقدرش نتأخر برة عشان الولاد.

وادركت «ريا» ان الفتاة قد اقرت المبدأ وتجاوزته لتناقش فى التفاصيل، فقالت بتوكيد:

ـ برقبتى.. زى ما استلمتكم.. اسلمكم.. بس سلكونى من الجماعة دول.

وخلال ساعة واحدة، تعاونت النساء الثلاث فى إنهاء أعمال المنزل، ثم غادرنه معاً، وبصحبتهم «بديعة» و«هانم» التى كانت أصغر من ان تدرك شيئاً، او تترك وحدها فى المنزل. اما «محمد» ـ اصغر ابناء «عديلة» ـ فقد كان يلعب فى الشارع.

وكان الوقت بعد العصر بقليل، حين وصل الحانطور الذى يقلهن الى «حارة النجاة» وبعد دقائق كان الخبر قد وصل الى «محمد خفاجة» فصعد اليهما، ورحب بهما، وتظاهر بانه يلتقى بـ «عديلة» لاول مرة. ثم اصطحب معه «سكينة» الى احد محلات البقالة الاوروبية فاشترى «فياسكة نبيذ» من النوع الجيد، وكمية وافرة من السجق الفاخر، وتشكيلتين من الاجبان والمخللات واقة من الخبز، عادت بهم الى المنزل، بينما اخذ يبحث عن «عبد الرازق» الى ان وجده يجلس على مقهى قريب، فأخطره بان الفتاتين ينتظرانهما فى بيت «ريا» ودعاه الى قضاء السهرة معه، وختم

كلامه قائلاً انه سيعود الى الحظيرة لينهى بقية عمل اليوم، وسيكون هناك فى الساعة السابعة.

ومع ان «عبدالرازق» تلقى الخبر بفتور مصطنع، لكى يوحى لصديقه بانه ليس متكالبا على قبول دعوته، فانه ما كاد يختفى عن عينيه، حتى حث خطواته نحو «حارة النجاة» لكى يتفحص المرأة التى اختارها له «خفاجة»، وقد عزم على الا يحضر السهرة، اذا وجدها اقل جمالا من المرأة التى اختارها صديقه لنفسه. وبعد دقائق كان يقف على باب الغرفة، يجيل عينيه فى النساء الاربع اللواتى كن يقمن باعداد الطعام، الى ان جمدت نظراته على «انيسة» التى فوجئت بنظراته العارمة تتفحصها، فاطرقت برأسها الى الارض خجلا، وانقذت «ريا» الموقف، فدعته للدخول، وقدمته للفتاتين باعتباره احد فتوات الحتة، وقدمت له «ام محمد» و«ام هانم» باعتبارهما صديقتين لها من جهة بحرى.

أما وقد اطمأن «عبدالرازق» الى ان حظه من النساء لايقل عن حظ صديقه، فقد عاد ينتظره امام دكان «ابو احمد النص» الى ان انهى عمله، فصعدا معا لتبدأ السهرة التى استمرت ساعتين، اختلطت خلالها ضحكات الرجلين الخشنة بالضجيج المتصاعد عن رواد المحششة، وضحكات الفتاتين الناعمة، بقهقهات «ريا» و«سكينة» اللتين كانتا فى ذروة السعادة، لان الزمان قد عاد فجاد عليهما اخيرا بزبون يدعوهما الى تناول الطعام والشراب معه..

وحين آن الاوان، انفض الجميع، واغلقت غرفة «سكينة» على «خفاجة» و«عديلة» ولان الوقت كان صيفا - بداية مايو (ايار) ١٩٢٠ - فقد دعت «ريا» كل من «عبدالرازق» و«انيسة» لكى يلحقا بها الى سطح المنزل، حيث كانت قد اعدت لهما فراشا مناسبا.. ومع انه همس فى اذنها محتجا على تمييز «خفاجة» عليه، واختصاصه بالغرفة دونه، الا أنه كف عن الكلام وتبعها الى السطح، حين لكزته فى ظهره.

وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، حين استوقف «خفاجة» احدى عربيات الحانطور، التى عبرت امامهم فى مدخل الحارة، واتفق مع سائقها على ان يقل المرأتين الى منزلهما فى «مينا البصل»، ودفع له اجره وكانت العربة تهم بالتحرك حين وضع «عبدالرازق» قطعة نقود فى كف «انيسة» قائلا لها بصوت عال :

- خدى الريال ده عشانك.

ثم نظر الى «خفاجة» بتحد.. كأنه يقول له: هل عرفت الان.. أننى لست من المتخصصين فى جامعات أعقاب السجائر. وأن مستواى من مستواك.

لم يعلق «خفاجة» على ما فعله «عبدالرازق» ساعتها، وإن لم تخف عليه دلالته، لذلك عنفه فيما بعد، ووصف تصرفه بأنه «شغل عيال» لا يليق بالمتمرسين من العشاق، إذ كان من واجبه، طالما هو حريص كل هذا الحرص، على أن يعطى المرأة أجرها، أن يفعل ذلك فى الخفاء، ومن دون هيصة أو إعلان.. وقبل

لشخصه بالذات، وليس لنوعه المطلق، ولكن - كذلك- لأن مصاحبتها له، كانت تعطيه الإحساس بأنه ليس أقل من صديقه «خفاجة» الذى تجمعه به، منذ كانا طفلين يلعبان معا فى «حارة الفراهدة» مشاعر معقدة، يختلط فيها الحب العميق، بالكراهية غير المحسوسة، بسبب الفوارق الاجتماعية التى كانت تفصل بينهما ..



شاطئ البحر فى العشرينيات قبل إنشاء كورنيش الإسكندرية

أن يغادر المكان الذى اختلى بها فيه.. أما وقد قرر أخيرا دفع أجور لمن يضاجعهن من النساء، فقد تمنى عليه -ساخرا- أن يعامل «برج» وأمثالها من فتيات الحارة المفضلات لديه، نفس المعاملة الكريمة.

ولم يتنبه «خفاجة» -الذى لم يكن يخلو من إحساس بالتعالى على «عبدالرازق» لا يحرص على إخفائه- إلى أثر كلماته عليه.. ولم يلاحظ المكانة التى أخذت «أنيسة» تحتلها تدريجيا فى قلبه، إذ بدت له امرأة من نوع يختلف عن النساء اللواتى تعود على معاشرتهن من قبل، ليس فقط لأنها كانت فتاة من الأحرار، وربة منزل من النوع الذى يوصف بأنه «درة مصونة وجوهرة مكنونة» والذى يكمن إغراؤه الجنسى فى حياء طبيعى -أو مصطنع- يعطى الرجل الإحساس بالتفوق، وبأنه يقودهن إلى اكتشاف عالم المتعة الذى تجهلن -أو تتظاهرن بجهل- كل شىء عنه، أو لأنها بدت له راغبة فيه، مقبلة عليه،

وكانت المصادفة هى التى رتبت اللقاء الثانى الذى جمع بين العشاق الأربعة، بعد اللقاء الأول بأيام قليلة، ليكون خاتمة ليوم عاصف بدأ فى المقابر، وانتهى فى بيت «حارة النجاة»، على عكس الترتيب الذى انتهت إليه حياة «أنيسة» بعد ذلك بشهرين..

وكانت أنيسه قد خرجت فى صباح ذلك اليوم -الأربعاء ٥ مايو (آيار) ١٩٢٠- فى حشد من نساء الأسرة، يضم زوجات أشقائها، لكى يزرن المقابر بمناسبة الاحتفال بنصف شعبان. وعند العصر عادت معهن إلى بيت حماة شقيقها الأكبر، لتأخذ ابنتها التى كانت قد تركتها فى رعايتها، فوجدت الفتاة تبكى، بعد مشاجرة بينها وبين بقية أطفال الأسرة، ولم يلبث العتاب بينها وبين حماة شقيقها، أن تحول إلى معركة واسعة النطاق، ساهمت ذكريات الأيام السوداء التى أمضتها «أنيسة» فى بيت شقيقها عقب طلاقها، فى إشعال

أوراها، ولم تخمد إلا عندما اكتشفت، أنها فقدت كردانا كان يحيط رقبتها، وإحدى فردتى الحلق من أذنها، فاستجابت لمشورة «عديلة الكحكية»، وتوجهت بصحبتها إلى قسم شرطة اللبان، لتتهم -فى بلاغ رسمى- حماة شقيقها بسرقة الكردان وفردة الحلق.

ولم تكد «ريا» تغادر الخمارة -القريبة من القسم- بعد أن تناولت كوبا من النبيذ.. حتى عادت بعد دقائق لتبلغ شقيقتها بأنها رأت «عديلة» تقف فى حشد من النساء داخل «قسم شرطة اللبان»، فقالت «سكينة»:

- لازم ضبطوها فى بيت سر.

ومع أن الاحتمال كان واردا إلا أن «ريا» أصرت على بحث الأمر بنفسها.. لكنها -على سبيل الاحتياط- لم تدخل إلى مبنى قسم الشرطة، إلا بعد أن عرفت طبيعة القضية من النساء المحتشدات أمام بابه، فلما اطمأنت أنها ليست من النوع الذى يمكن أن تلحقها بسببه شبهة، انتظرت حتى انتهت «عديلة» و«أنيسة» من الإدلاء بأقوالهما، فاستقبلتهما بترحاب، وهى تقسم أنها كانت فى طريقها إليهما، حين شاهدتهما تدخلان القسم.. ثم سألتهما عن التفاصيل باهتمام وما كادت تسمعها حتى وجهت خطابها إلى «عديلة» متسائلة فى عتاب:

- إزاى يا أم محمد الحاجات دى تروح وأنت معاها؟!

فقالت «عديلة»:

- ح نعملوا إيه.. إذا كانت مرات أخوها.. وحماته.. وقراييهم كانوا بيعاركوا فيها؟!

ونفذت «ريا» إلى هدفها مباشرة فقالت:

- دول ما يسلكش معاهم إلا واحد فتوة يفز عليهم. يجيب منهم الكردان وفردة الحلق... واحد كده زى جوزى «سى حسب الله» أوالجدعين اللى كانوا معاكم... تعالوا نروح لهم نتكلموا معاهم....

ولأن «أنيسة» و«عديلة» لم تكونا فى حالة مزاجية تسمح لهما بقبول العرض، بعد يوم ملىء بالتوتر بدأ فى المقابر وانتهى فى قسم الشرطة،فقد اعتذرتا عن الاستجابة للدعوة، لأنهما متعبتان، فضلا عن أنهما لم تكونا بعيدتين عن أعين الحراس، إذ كان بصحبتهما «هانم»- ابنة «أنيسة» التى ثارت بسببها المعركة- وابن «عديلة» الذي لحق بهما فى قسم الشرطة، ولكن «ريا» لم تيأس، ولم تكف عن المحاولة فاقترحت عليهما أن تعود احداهما بالاولاد إلى البيت، لترعى شؤونه، على أن تصحبها الثانية لطلب المعونة من الجدعين واستفز الاقتراح «عديلة» التى أدركت دلالته الخبيثة، فقالت بغضب:

- ازاى يا «أم بديعة» نبقى مع بعض... وترجع واحدة لوحدها... يقولوا إيه؟... مش يمكن حد من العيال يقول دى راحت مع حد؟!

وببساطة متناهية أخرجت «ريا» نصف فرنك من جيب جلبابها، واعطته للطفلين

لكى يستقلا «الكهربة» - الترام - ويعودا إلى المنزل...

وما كادت النساء الثلاث تغادرن مبنى قسم الشرطة، حتى طلبت «عديلة» من «ريا» أن تتقدمهما بعدة خطوات، حتى لايراهما أحد من رجال «حارة النجاة» بصحبتها... فقالت المرأة بعتاب:

- أنتم مستعرين منى؟!.... انى باعمل كده عشان خاطر المسكينة الغلبانة اللى راح كردانها... إياك حد يقدر يجيبه لها!

ومع أن «عديلة» كانت قد اقترحت ذلك، لكى تتوقى تكرار زحام الرجال والالفاظ البذيئة التى احاطت بهما، يوم دخلت الحارة لأول مرة، بصحبة «ريا» فقد كانت - كذلك - تفكر فى ابعاد المرأة عنهما، لعلهما تستطيعان التزويغ منها فى الزحام، لكنها كفت عن المحاولة، عندما لاحظت أن «سكينة» تتبعهما عن قرب، فأدركت أن «ريا» قد اتخذت احتياطاتها، ووضعتهما بين فكى كماشة.

وعندما رأت «محمد خفاجة» يجلس على المقهى الذى يقع على رأس «حارة النجاة» أدركت أن خبر وجودهما فى قسم الشرطة، قد وصل إلى من يعنيهم الامر فى حينه... وصعدت بهما «ريا» إلى سطح المنزل حيث فرشت لهم - فى أحد أركانه حصيرة وفوقها حشية من القطن- معتذرة بأن غرفة «سكينة» مشغولة بآخرين... وكانت «ريا» تقول لهما...

- بالكم.... دول ايديكم اليمين... وكل واحد يخاف منهم... لأنهم فتوات الجهة....

حين ظهر «خفاجة» على باب السطح فانضم إليهم. واستمع إلى تفاصيل الواقعة... وقبل أن يعلق بشىء ظهر «عبد الرازق».... فما كاد يرى صديقه حتى قطب وجهه، ولم يبادله - بعد السلام - كلمة واحدة وضحك «خفاجة» فى استخفاف... ولم يمكث «عبد الرازق» سوى ثوان قليلة، همس خلالها فى أذن «ريا» بشىء وما كاد ينصرف، حتى طلبت «ريا» من «أنيسة» أن تصحبها إلى الخارج، لأن «سى عبد الرازق» يريدها فى كلمتين وما كادتا تنصرفان، حتى اكفهر وجه «خفاجة» وقال لـ «عديلة».

- أنا عارف إن «ريا» دى قوادة وبنت كلب.... قومى نروح.

ومع أن «عديلة» أدركت أن الازمة بين «عبد الرازق» و«خفاجة» قد تجددت إلا أنها استجابت لطلبه، من دون أن تسأل عن التفاصيل... وكانا يهمان بالانصراف حين عادت «ريا» فأزعجها الأمر، وأخذت تلح على «خفاجة» بالبقاء مؤكدة أنه لم يحدث ما يدعو لغضبه، وكل ما هنالك أن «عبد الرازق» أراد أن ينفرد بـ «أنيسة» فى غرفة «سكينة» التى خلت الآن، فإذا كان يريد الغرفة، فهى تحت أمره، ولم يهدأ «خفاجة» إلا بعد أن انضمت «أنيسة» إلى مجلس السطح، فاصطحب معه «عبد الرازق» وغابا نصف ساعة، عادا بعده وقد تصافيا، وبعد قليل وصل طاجن السجق الذى كانا قد أوصيا بصنعه فى الفرن، وجاءت «سكينة» بـ «فياسكة» النبيذ.... وأعيد تقسيم الاماكن طبقا للمقامات، ولمصادر الانفاق،

فكانت الغرفة المغلقة من نصيب «خفاجة» و«عديلة» وكان السطح المكشوف من نصيب «عبد الرازق» و «أنيسة».

وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة، حين تجمع الرباعي العاشق في صالة الطابق الارضى من المنزل، وابتعدت «عديلة» خطوات عن «خفاجة» حتى ينتهى من محاسبة «ريا».... وباقترابها من المكان الذى تقف فيه «أنيسة» مع «عبد الرازق» سمعتها تقول له بالحاح لايخلو من ضيق:

- هات المنديل...

وحين كررت الطلب غاضبة اكثر من مرة، اقتربت منهما، لتسأل صديقتها:

- خير إيه؟..

وضايق تدخلها «عبد الرازق» فدفعها إلى الخلف قائلا:

- هو دا ذوق... خليكى مع اللى معاك.

وما كاد «خفاجة» يعرف بما حدث، حتى تجهم وجهه، وبدا الضيق على ملامحه، وأمر صديقه بصوت زاجر، أن يعيد المنديل إلى صاحبته، فاستجاب له، متظاهرا بأنه كان يمزح مع «أنيسة»، وأنه يشك فى أنها قد سحرت له على هذا المنديل، لذلك أراد أن يأخذه منها لكى يفك عنه السحر.

والحقيقة أن «خفاجة» كان يشعر على نحو ما بأنه مسؤول عن «أنيسة»، وعن سلوك «عبد الرازق» معها بحكم أن العلاقة بينهما قد نشأت، بطلب وبتمويل منه، واعتمادا على الثقة فيه، لذلك غضب لأن «ريا» سحبتها من الجلسة التى كانت تضمهم فوق سطح البيت... وشك فى أن تكون قد تواطأت مع «عبد الرازق» لتقديمها لأحد زبائن البيت، وأراد بتهديده بالانسحاب أن يخطر الجميع بأنه المسؤول عن الفتاتين، وبأنه لن يسمح لأحد من «آل همام» وحلفائهم، بأن يخدعه ويضع فوق رأسه قرونا، ويضم امرأة تحت رعايته، وفى حمايته، إلى فريق الفتيات اللواتى يعملن فى البيت، ولأنه كان يعرف أن صديقه لا يتعفف عن التصرفات الصغيرة، وأنه يجد متعة خاصة فى أن يسرق من النساء اللواتى يضاجعهن أى شىء مهما كان تافها فقد انزعج من محاولة الاستيلاء على منديل الفتاة، فأراد باحتجاجه أن يوقف اندفاعه فى هذا الطريق.

ومع أن شكوكه لم تبعد عن الصواب كثيرا، إلا أن «أنيسة» - التى كانت قد بدأت تميل إلى «عبد الرازق» - لم تفهم واقعة المنديل على النحو الذى فهمها به، إذ كانت تظن - كما قالت لصديقتها «عديلة» فى اليوم التالى- أنه أخذه منها ليطلع عليه اصدقاءه من الشبان على سبيل التفاخر بعلاقته بها، لذلك أصرت على استرداده منه. ولعل «خفاجة» قد فوجىء حين اقترب منه «عبد الرازق» بعد دقائق قليلة من اعادته للمنديل، ليقترح عليه - باسمه وباسم «أنيسة» - أن يستكملوا السهرة فى «فندق جوانى»، لكن «عديلة» اعتذرت عن قبول العرض، مما اضطر «أنيسة» إلى الانسحاب هى الاخرى، إذ لم تكن تستطيع أن تتأخر وحدها فى الخارج.

ومنذ ذلك الحين، أدركت «عديلة» أن

«أنيسة» تخفى عنها بعض اسرارها، فقد أخذت فى اليوم التالى تندد بـ «ريا» وتعلن بأنها لن تذهب إليها مرة أخرى، إذ رفضت التدخل لاسترداد المنديل من «عبد الرازق» رغم الحاحها عليها بذلك، بل ظلت تهون عليها الامر قائلة لها: ياأختى... مابين الخيرين حساب.

ولأن درجة غضب «أنيسة» كانت تتجاوز حجم الواقعة التى ترويها، وتختلط ببعض الحيرة، فقد استنتجت «عديلة» أن هناك وقائع أخرى تخفيها... لكنها لم تحاول الالحاح عليها لكى تفضى بها إليها ولم تجد الشجاعة لكى تحذرها من «ريا» أو تروى لها ماتعرف عنها.

وما لبثت الايام التالية أن برهنت لـ «عديلة» على أن «ريا» قد فتحت قناة اتصال جانبية للاتصال بـ «أنيسة» بعيدا عنها... إذ أخذت تتردد عليها فى البيت اثناء غيابها فى الخارج، متذرعة بالسؤال عن الجلبابين اللذين كانت قد جاءت بهما فى زيارتها الاولى... وحين طلبت منها «عديلة» أن تعيد إليها القماش، وتعتذر بأنها لا تقوم بهذا النوع من العمل، أبدت «أنيسة» ميلا لمجاملتها لا يتناسب مع حملتها ضدها، وعزمها على مقاطعتها. وقررت أن تعطى القماش لشقيقتها «نميسة» لتقوم بتفصيلها، على أن تنوب هى عن «ريا» فى دفع أجر التفصيل.

والغالب أن «ريا» كانت قد أدركت أن «أنيسة» تتميز فضلا عن جمالها الأخاذ، وأنوثتها الفياضة ومظهرها المحتشم، بدرجة عالية من السذاجة ونقص الخبرة، دفعتها لمحاولة اغوائها وسحبها للعمل خاصة أنها لم تكن تربح من ورائها شيئا، إذ لم يكن «عبد الرازق» يدفع لها ايجارا للسطح، باعتباره من الشركاء المتضامنين فى البيت وملحقاته... والارجح أن «ريا» قدرت أن «خفاجة» سوف يطير من يدها، ومن بيتها، ويطير معه كرمه الحاتمى، إذا ظل يأكل من نفس الطعام وملّ من «عديلة». فعرضت عليه أن تسحب إليه - كذلك - «أنيسة».

ولأن «خفاجة» كان يشعر بالملكية تجاه الفتاتين، بل وتجاه «عبد الرازق» نفسه، فقد وافق على العرض، إذا تم التنفيذ بسرية تامة ومن دون مشاكل مع «عديلة» أو مع «عبد الرازق». لكن «أنيسة» - التى أرضى غرورها بلا شك، أن تكون موضوع اشتهاء «خفاجة» الاكثر وجاهة وسخاء، رفيق صديقتها الاكثر خبرة والاوفر أنوثة - لم تقبل العرض، ليس فقط لأنها رفضت أن تخون صديقتها ولكن - كذلك - لأنها كانت قد تعلقت بـ «عبد الرازق»، الذى لم يكف عن تحريضها على الاستقلال عن «عديلة» وعن «خفاجة» ليلتقيا بعيدا عن عيونهما، وعن محاولاتهما المستمرة للهيمنة عليهما... ولأنه كان مستحيلا على «أنيسة» أن تنقل انباء هذه المفاوضات إلى «عديلة» فقد اكتفت بموجات من الهجوم المتقطع على «ريا» لأسباب لم تكن تعنى بأن تكون منطقية.

وكان ايقاع المقابلات قد تعرض لبعض الارتباك خلال الاسبوعين التاليين... لأسباب متعددة، كان على رأسها انفضاض الشركة التى تجمع بين «آل همام» و«آل النص»، وتوقف النشاط فى «بيت حارة

النجاة» بعد سبعة شهور من النشاط المتواصل.

وكانت البداية توترا فى العلاقات بين «سكينة» و «أم أحمد «النص» بسبب فتاتين ممن يعملن بالبيت، أغرتهما «أم أحمد» بشراء بعض ما كانت تبيعه من ملابس وبراقع وخلاخيل، على أن تدفعا لها الثمن على أقساط... فلما عجزتا عن الدفع، استردت ما تبقى من السلع التى باعتها لهما، ثم قررت بيع الفتاتين إلى صديقة لها كانت تدير بيتا للبغاء الرسمى فى دمنهور هى «حسنة العايقة» مقابل ما بددتاه، وما استهلكتاه من البضائع.

لكن «حسنة» لم تستطع الحصول على ترخيص للفتاتين بالعمل معها، إذ كانتا أقل من الثامنة عشرة، فأعادتهما إلى الاسكندرية، لتعيد «أم أحمد» بيعهما إلى عايقة أخرى، هى «باسقة» التى كانت تدير بيتا للبغاء فى حى «الهماميل»...

ولأن واحدة من هاتين الفتاتين، هى «عائشة عبد المجيد»، المقطورة الوحيدة التابعة لـ «سكينة» التى كانت تحميها وتدافع عنها، فقد استفزها سلوك «أم أحمد» الذى يخلو من الرحمة ومن العدل، فضلا عن أنه لم يراع مصالح شركائها، وحرم «بيت حارة النجاة» من نشاط الفتاتين، فشنت عليها حملة عنيفة سرعان ما تطورت إلى مشاجرة.

ومع أن «ريا» - التى لم تهتم بالأمر- قد تدخلت لتصفية الخلاف، إلا أن التوتر الخفى ظل الطابع الغالب على العلاقة بين الاثنتين. وفى هذا الجو المتوتر تعرضت المحششة لحملة تفتيش من قسم شرطة اللبان، أسفرت عن القبض على مديرها «محمود الزكاك»، الذى اعتزل العمل بعد الحكم عليه بغرامة، وهجر منزل خالته «أم أحمد» وعاد للاقامة فى منزل والدته وللعمل فى دكان الجزارة....

ثم هل شهر رمضان الذى ينصرف فيه معظم الخطائين عن ممارسة خطاياهم،. ويتفرغون لاداء فريضة الصوم تكفيرا عما ارتكبوه منها... وتتوقف بيوت الخطيئة عن العمل، وينصرف العاملون فيها إلى طلب المغفرعما ارتكبوه، وسيواصلون - بعد العيد - ارتكابه من آثام... وبدأ التحقيق مع «ريا» و«سكينة» فى البلاغ الخاص باختفاء «زنوبة محمد موسى»، فكان منطقيا أن تنفض الشركة، وأن يصدر القرار باغلاق «بيت حارة النجاة»، بعد أربعة ايام من بداية شهر رمضان، وفى ٢٤ مايو (آيار) ١٩٢٠.

وجاء مرض «عديلة» ليكون أهم اسباب ارتباك ايقاع المقابلات بين الرباعى العاشق، وكان الطبيب قد نصحها بتقليل ما تبذله من مجهود، بل ونبهها إلى أنها فى حاجة إلى عملية جراحية عاجلة، فضلت أن تؤجلها إلى ما بعد انتهاء شهر رمضان والتزمت بيتها وهو ما شجع «أنيسة» على الخروج بمفردها.

والغالب أنها التقت - خلال تلك الفترة - بـ «عبد الرازق» مرة أو مرتين، سواء عن طريق «ريا» أو بناء على اتفاق مسبق بينهما.

وبعد منتصف رمضان بأيام قليلة، ظهرت «ريا» مرة أخرى فى بيت الفتاتين بدمينا البصل» لتطلب إليهما - باسم صديقيهما- مصاحبتها إلى «حارة النجاة»... ولما اعتذرت «عديلة» بمرضها... تظاهرت بالانزعاج الشديد، وقالت إنها لا تستطيع أن تعود إلى الحارة من دونهما... ثم اضافت:

- فى عرضكم... ولو واحدة منكم.

واستفز الاقتراح «أنيسة» التى فهمته على ضوء ما كان يجرى معها من مفاوضات سرية... فقالت:

- يعنى إيه واحدة منكم... إفرضى راحت... وجدت صاحب الثانية... يبقى ازاى الحال؟!

ولما تيقنت «ريا» من أن «أنيسة» ما تزال عند موقفها الذى أعلنته فيما كان يجرى بينهما من اتصالات جانبية، همست فى أذن «عديلة» بأنها جاءت من أجلها وحدها، وبأن «محمد خفاجة» هو الذى أرسلها إليها، وهددها بالضرب إذا عادت من دونها.... وأضافت... أن «عبد الرازق» لايكف عن الدوران فى الحارة طوال اليوم، زى المكوك فإذا جاءت «أنيسة» فسيكون من السهل العثور عليه.

ولم تعرف «أنيسة» - التى صاحبتهما - بأن الدعوة لا تشملها، إلا فيما بعد.

وكانت «عديلة» تشعر بشىء من التوتر بسبب اخفائها الامر عن صديقتها وعندما اقتربوا من باب الحارة، اقترحت على «ريا» أن تسبقهما بخطوات حتى لا تفضحهما وتلفت نظر الرجال إليهما كما حدث فى أول زيارة لهما، فردت باستهانة:

- وانتوا ايش تكونوا فى الناس... ياما ناس.

كانت المفاجأة أنها قادتهما إلى منزل يواجه المنزل الذى تعودتا أن تلتقيا فيه بصاحبيهما... وتركتهما فى فنائه الداخلى، وصعدت إلى أعلى. وبعد قليل نزلت إليهما امرأة لا تعرفانها رحبت بهما ودعتهما للصعود إلى إحدى غرف الطابق الاول، وكانت «عائشة» تقوم بصنع طبق من السلاطة الخضراء.... وقالت «ريا»:

- السلطة دى لكم... والاكل جاى

وسألتها «عديلة»:

- انتم نقلتم هنا؟

فردت بغموض:

- ده بيتنا.... وده بيتنا.

ثم اضافت مطمئنة بعد أن لاحظت قلقهما:

- انتم خايفين من إيه؟ ده هنا أحسن... البيت التانى فيه دوشة.

وبعد قليل جاءت صينية السمك... وزجاجة النبيذ ودخل «محمد خفاجة» وفى أعقابه المرأة التى استقبلتهما فى البداية... ثم عاد فوقف معها على باب الغرفة، وأخذا يتهامسان. وكانت المرأة تشوح بيدها فى غضب. وعاد القلق يساور «عديلة» فسألت «خفاجة» الذى قال:

- دى «أم أحمد» صاحبة البيت... سيبوكم منها.

وعندما انتهوا من تناول الطعام خرجت «ريا» بالصينية وطلبت من «أنيسة» أن تخرج معها... وسألها «خفاجة» بقلق:

- على فين؟

فقالت: انتوا عايزين واحدة تالتة؟... أنا عايزاها فى كلمة.

ولم يطمئن ذلك الرد «خفاجة» الذى خرج خلفهما ثم عاد ليقول لـ «عديلة»:

- أنا خايف المرة دى تلبسنا قرون.

ولم يكن قلق «عديلة» بلا مبرر، إذ كان اللقاء محاطا بجو من التوتر ليس فقط، لأنه تم فى ظروف توقف النشاط، بسبب شهر رمضان، واغلاق بيت «ريا» فى «حارة النجاة»، مما اضطرها إلى استئجار غرفة «أم أحمد» التى غالت فى الايجار بدعوى أنها لا تؤجر غرفتها الخاصة التى تقيم فيها مع أولادها لمثل هذه الاغراض... ولكن كذلك لأن زوجها «أبو أحمد «النص» ثار عليها ثورة عنيفة، لأنها أجرت الغرفة للعاشقين، وتركت أحد ابنائهما ينام على سلم المنزل.

ولم تكن مخاوف «خفاجة» بعيدة عن الحقيقة، إذ لم يظهر «عبد الرازق» فى ذلك اليوم، وعندما انتهت خلوته مع «عديلة»، وجدا «أنيسة» تجلس فى منتصف السلم الذى يقود للطابق الارضى... وقالت لهما إن «ريا» كانت تريد أن تأخذها إلى بيت آخر، ولكنها رفضت، فغضب «خفاجة» وقطب وجهه... واثناء انصرافهم اقتربت «ريا» من «أنيسة» وهمست فى أذنها:

- ابقى تعالى تانى لوحدك... أحسن «عبد الرازق» لو عرف ح يزعل قوى.

وكان التفسير الوحيد الذى توصلت إليه الفتاتان، وهما تعيدان تحليل حوادث ذلك اليوم، وخاصة ما همست به «ريا» فى أذن «أنيسة» فى نهايته، هو أن الخلافات قد تجددت بين «خفاجة» و«عبد الرازق» فحالت دون حضور الضلع الرابع، وكان الأمل يناوشهما فى أن يعود الصفاء إلى العلاقة بين رجليهما لكى يجتمع الشمل مرة أخرى.



بعد ذلك اللقاء بأقل من اسبوعين، اجتمع شمل العشاق الاربعة للمرة الاخيرة....

حدث ذلك فى مساء يوم الجمعة ١٨ يونيو (حزيران) ١٩٢٠ الذى كان يوافق أول أيام عيد الفطر.

عند المغرب وصلت «ريا» إلى منزل الفتاتين بعربة حانطور يقودها زوج من الخيول البيضاء، لتقول لهما إن «خفاجة» و«عبد الرازق» قد أرسلاها لكى تدعوهما للنزهة معهما احتفالا بالعيد، وللمرة الثانية اعتذرت «عديلة الكحكية» بمرضها... وطلبت من «ريا» أن تصحب معها «أنيسة» لكى تعوضها عن المرة السابقة.

ولأن «أنيسة» كانت تعلم أن الذى ينفق على لقاءاتهم المشتركة، هو «خفاجة»،

ولأنها خشيت أن تذهب فلا تجد «عبد الرازق» فقد ربطت قبولها للدعوة بقبول «عديلة» لها، وكثفت «ريا» ضغوطها على المرأة المريضة، حتى لا يؤدى اصرارها على الاعتذار، إلى فشل المهمة التى كلفت بها، فأكدت لهما أنها لا تدعوهما إلى جلسة فى غرفة مغلقة، ولكن نزهة فى أماكن مفتوحة... وأن العربة الحانطور الفخمة التى جاءت بها ستكون فى خدمتهما طوال

جلالة الملك فؤاد

السهرة التى ستقضيانها تتنقلان بين شوارع المدينة ومقاهيها ومنتزهاتها وأن سى «خفاجة» قد خطط لهذه النزهة خصيصا لكى يرفه عن «عديلة» عندما علم بأنها مريضة... ثم استعانت بالمخزون من مواهبها المهنية، واندفعت فى حديث طويل، يحمل فى ظاهره ذما وتأنيبا، وفى باطنه مدحا واغراء، بدأته متشكية من أنها لا تستطيع أن تعود من دونهما وإلا حطم الشابان البيت على رأسها، معبرة عن دهشتها من تعلقهما الشديد بالفتاتين، وعدم صبرهما على البعد عنهما، مع أنها لا ترى فيهما ما يدعو إلى هذا الجنون، ومع أن الفتيات يرتمين على الشابين من كل حدب وصوب..

ثم أضافت أنها لا تعرف ماذا فعلت «عديلة» مع «خفاجة» حتى أصبح لا يطيق بعادها... ولا يكف عن الشوق إلى وصالها، مع أنه رجل ملول، يحب التغيير، ولا يلتقى عادة بأى امرأة، سوى مرة واحدة ولا تعرف ماذا فعلت «أنيسة» لـ«عبد الرازق» حتى يترك من أجلها رفيقته الجميلة الثرية التى تضع فى كل معصم من معصميها دستة من الغوايش، ولعنت اليوم الذى عرفت فيه الشابين بهما، فلم تجن من ذلك سوى وجع القلب.

وكما توقعت «ريا» فقد حسمت هذه العبارات التى عابثت اعتزاز الفتاتين بأنوثتهما كل تردد... فغادرتا معها المنزل على الفور.

وكان «خفاجة» ينتظرهما مع «عبد الرازق» فى محل لبان من الذين يورد لهم اللبن يقع بالشارع البرهامى، فما كادت العربة الحانطور تصل، حتى نزلت منها «ريا» ليصعدا إليها. وفى الطريق استكمل «خفاجة» معدات السهرة فاشترى زجاجتين من «الويسكى» ومر على منزل مطرب كفيف هو «الشيخ أحمد» الذى اتخذ مكانه إلى جوار السائق فى مقدمة العربة، التى انطلقت إلى شاطئ البحر وأمام مقهى الاسماعيلية المجاورة لمحل «بترو» توقفت ليغادرها «خفاجة» وحده... ثم يعود بعد أن دبر له الجرسون مكانا بعيدا عن أعين المتطفلين فيقودهم إليه، وبعد قليل من بداية السهرة، انضم إليهم ضيف آخر، هو «محمود عبد الرحيم» ومع أن الرجل - الذى كان يملك دكانا للعطارة فى «جنينة الميونى» - لم يكن غريبا عن «عبد الرازق» إلا أن وجوده قد ضايقه بشدة، حتى بعد أن اعتذر له «خفاجة» بأنه قد تورط فدعاه على سبيل المجاملة، ففوجئ بقبوله الدعوة.

ومع تقدم السهرة، خف التوتر وذابت الأزمة فى طوفان الخمر والطعام وأنغام الغناء، وكان المقهى يزدحم بمئات من الرجال والنساء جاءوا مثلهم ليحتفلوا بالعيد بتعويض صومهم عن المعاصى، ونامت «هانم» ابنة «أنيسة» على مقعدين متجاورين فى ركن المكان، الذى كان اشبه بغرفة خاصة بلا باب... وتبادل الجميع الانخاب.

وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، حين طلب إليهم صاحب المقهى أن يتفضلوا بالانصراف، لأن الشرطة قد نبهته إلى حلول الموعد الرسمى للاغلاق... وفوجئ «عبد الرازق» بالضيف المتطفل يصعد معهم إلى «الحانطور» وأدى صعوده إلى اختلاف ترتيب الجلوس عما كان عليه فى رحلة القدوم... فقد اختص «خفاجة» نفسه بالمقعد الرئيسى، وانحشر فيه بين المرأتين... بينما جلس «عبد الرازق» إلى جوار العطار المتطفل على المقعد الفرعى المواجه له..

وفضلا عن أن الجلسة كانت غير مريحة، فقد كان ترتيبها باعثا على ضيق «عبد الرازق» الذى نهشته الغيرة، واستفزته معاملة صديقه الذى انحشر بين المرأتين اللتين كانتا قد فقدتا وعيهما بتأثير الخمر، وشك فى أنه قد احضر صديقهما العطار المتطفل لكى يختلى بـ «أنيسة» فقرر ان ينسحب بها من السهرة.

وكان السهارى والسكارى الذين يحتفلون مثلهم بالعيد، يملأون عربات الحانطور، التى تسير أمامهم ومن خلفهم، فانتظر حتى مرت إلى جوارهم عربة خالية، فأوقفها، وأمر «أنيسة» بأن تنتقل إليها فاعترضت الفتاة.. واعترضت «عديلة».. وطلب إليه «خفاجة» الانتظار لأنهم أوشكوا على الوصول إلى هدفهم.. فقال له:

- لأ ياسيدى.. هو انا اشاركك فى اللى معاك.

وحمل الطفلة النائمة على كتفه وتبعته «أنيسة» إلى العربة الجديدة، التى ظلت

تسير إلى جوار العربة الاولى إلى أن فقد سائق كل منهما أثر الآخر فى الزحام.

وعند دكـــان اللبـــان الذى بدأت منه الرحلة، توقفت العربة التى يستقلهـا «خفـاجـة» و «عـديلة» ليغـادرها العطار المتطفل. وبعدها بقليل توقفت مرة أخرى ليغادرها «خفاجة» إلى دكان دخاخنى يعرفه لكى يقترض منه بعض النقود. وحاولت «عـديلة» أن تغرى العربجى أن يقودها إلى منزلها... ولكن المطرب الاعمى اعترض... ورفض السائق. وعاد «خفاجة» لتواصل العربة سيرها بحثا عن غرفة خالية فى أحد الفنادق المخصصة للقاء العشـاق يمضيان بها الليلة... لكن «عـديلة»التى كانت فى حالة من السكر البين، أصرت على الانصراف، حتى لا تعود «أنيسة» إلى المنزل قبلها، فيكشف ذلك عن غيابها... فانتهزت فرصة مغادرة «خفاجة» للعربة ليسأل عن غرفة خالية فى أحد الفنادق... لتقفز منها وتجرى فى الشارع... ولما عاد ليكتشف هروبها، قاد العربة بنفسه، وأخذ يطاردها إلى أن أعادها إليها مرة أخرى...

وكانت السـاعة قد بلغت الرابعة صباحا، حين عادت العربة ثانية إلى «أوتيل جوانى»، ليكرر «خفاجة» الدق على بابه. ولأن الفندق كان يزدحم بالعشاق فى مثل تلك المناسبات، فقد رفض البواب أن يفتح له، أو يرد عليه، فانهال عليه بالسباب، إلى أن أطلت عليه من إحدى نوافذ البيت المقابل، امرأة نادته باسمه، وسألته عن حاجته، ودعته للدخول فى بيتها... ومع أن بيت الدعارة الذى كانت تديره «فاطمة القرعة» لم يكن غريبا عليه إذ كان قد تردد عليه من قبل عدة مرات، إلا أنه كان قد تجاهله إذ لم يكن من المستوى الذى يفضل أن يحتفل فيه مع «عديلة» بالعيد،، أما الان فلم يعد أمامه مفر من قبول الدعوة التى وجهتها إليه المرأة....

وما كاد يدلف إلى الغرفة، بعد أن صـرف العـربجى... والمغنى الضـرير واشترى ورقة بقلاوة، حتى ارتمى على الفراش ليروح فى نوم عميق.

ولم يتنبه «خفاجة» و «عديلة» وهما يدلفان إلى بيت «فاطمة القرعة» إلى أن الطفلة الصغيرة التى تنام على كنبة فى أحد أركـان الصـالة هى «هانم» ابنة «أنيسة»، ولم يعرفا أن الثنائى الآخر، ينام فى الغرفة المجاورة لهما، إذ لم يضيع «عبد الرازق» الوقت فى البحث عن أوتيل مناسب ينفرد فيه بصاحبته، ولم تكن أمامه مهام كالتى شغلت «خفاجة»، فما كاد يغادر الحانطور، حتى توجه مع «أنيسة» إلى بيت «فاطمة القرعة».

وكانت «عديلة» ماتزال تفكر فى ايقاظ «خفـاجـة» لكى تعود إلى منزلها، حين استيقظت «أنيسة» من النوم، وايقظت «عبد الرازق»... استعدادا للانصراف... وعندما عادت من الحمام، وشرعت فى ارتداء ملابسها، اكتشفت أن كيس نقودها، الذى كانت قد وضعته تحت الوسادة، قبل أن تنام قد اختفى. وكان الكيس يحتوى على أربعة ريالات ونصف، وعلى فردة

الحلق الذى ضاعت فردته الاخرى اثناء المشاجرة بينها وبين حماة شقيقتها. وقبل أن تسأل وجدته فى يد «عبد الرازق» الذى أخذ يخايلها به، على سبيل المعابثة، وبعد قليل تركته له، وفى ظنها أنه سيعيده إليها، قبل افتراقهما.

وفى أثناء ركوبهما للعربة الحانطور، طلبته منه مرة أخرى، فواصل المزاح معها، ومخايلتها به، ولما ألحت أعطاها الكيس وليس به سوى ربع ريال فقط، فعادت تطالبه ببقية ما كان به من نقود.. وبفردة الحلق، وكانت ما تزال تلح عليه فى ذلك حين اقتربت العربة من «حارة الفراهدة» حيث يسكن، فقفز منها فجأة، واختفى فى الزحام.

وفى البداية توهمت أنه يعابثها، ويمزح معها، وتوقعت أن يظهر بعد قليل، ومعه فوق محتويات الكيس هدية يقدمها إليها، كما يفعل العشاق.

لكن الوقت طال من دون أن يظهر له أثر... وضاق سائق الحانطور بالانتظار... فأمرته بمواصلة السير..... بعد أن أدركت الحقيقة المرة... فقد تقاضى منها «عبد الرازق» أجر الليالى التى قضاها معها بما فى ذلك أجر الحانطور.

لم تعرف «عديلة الكحكية» بأن «أنيسة» قد أمضت الليلة فى الغرفة المجاورة لها، إلا عندما ضاقت -فى الصباح- بإصرار «خفاجة» على مواصلة النوم، فغادرت الغرفة، لتستعين بصاحبة المنزل على إيقاظه، وجرى بينهما حديث، استطردت من خلاله «فاطمة القرعة» فذكرت أن فتوة من «حارة الفراهدة» هو الذى كان يشغل الغرفة المجاورة وأنه وصل إلى المنزل قبلهما بساعتين، وهو يحمل على كتفه طفلة صغيرة، ويجر خلفه أمها.. فلما وصفت الأم -ردا على سؤال من «عديلة»- أدركت أنها «أنيسة».

وما كاد «خفاجة» يستيقظ حتى أصرت على أن تمر على بيت «ريا» أولا، لاحتمال أن تكون «أنيسة» فى انتظارها هناك، متذرعة بأن إحداهما لا يمكن أن تعود إلى المنزل من دون الأخرى..

وعلى الرغم مما كان يعانيه من إجهاد من أثر السهرة الصاخبة التى انتهت إلى لا شىء، فقد تصرف «خفاجة» كما يتوجب على عاشق «جنتلمان» واستدعى حانطورا استقله معها إلى «حارة النجاة».. وهناك عرف أن «ريا» أغلقت المنزل، وعادت للإقامة الدائمة بمنزلها الحر ووصفت لهما «أم أحمد «النص» موقع المنزل من حارة «على بك الكبير»..

وكانت الساعة قد بلغت التاسعة، حين دلفت «عديلة» إلى البيت لتجد «ريا» ماتزال نائمة إلى جوار زوجها «حسب الله» الذى لم يكد يعلم بأنها قد جاءت بصحبة «خفاجة» لكى تسأل عن أخبار «أنيسة» و«عبدالرازق» اللذين انفصلا عنهما فى منتصف الليل، حتى تذمر، وقال لزوجته مؤنبا:

ـ عشان يعجبك.

وقبل أن ترد «ريا» دخل «خفاجة» الذى كان قد ضاق بالانتظار فى العربة، فازداد

ارتباك «ريا»، التى اعتذرت له عن فقر أثاث الغرفة وظلامها الدامس، مدعية بأن لها شقة مؤثثة بالطابق الثانى، هجرتها بسبب حزنها على ابن لها مات بها.

ومع أنها قدمت له مقعدا اقترضته من جارة لها، إلا أنه لم يستطع أن يواصل الجلوس فى الغرفة المقبضة وأصر على الانصراف، وحين لاحظ أن «عديلة» تميل إلى الاستجابة لإغراء «ريا» بالبقاء، لاحتمال أن تظهر «أنيسة» رفض أن يتركها، وأصر على أن تتصرف معه، ليوصلها إلى منزلها، مؤكدا لها أن الفتاة قد عادت فى الغالب إلى البيت.

وصح ما توقعه «خفاجة» إذ كانت «أنيسة» قد عادت بالفعل إلى المنزل الذى تقيم فيه الفتاتان بـ «مينا البصل»، لكنها كانت تبدو أقل سعادة بالسهرة.. ولم تفهم «عديلة» سر نظرة الحسرة التى بدت فى عينيها وهى تستمع إلى روايتها عن وقائع الرحلة التى قامت بها مع صاحبها بحثا عنها.. أو مغزى قيامها بتقليب ورقة البقلاوة التى عادت بها معها.. أو دلالة تكرارها لأسئلة ساذجة، كما لو كانت تريد أن تتأكد أن «خفاجة» هو الذى اشتراها لها، أو تشك فى أنه استأجر لها حانطورا طاف بها فيه، بين «حارة النجاة» و«حارة على بك الكبير» ثم صحبها فيه إلى أن أوصلها إلى باب بيتها.

ولأن «عديلة» كانت قد شرعت فى اتخاذ إجراءات دخولها إلى المستشفى لكى تجرى العملية الجراحية، التى نصحها الطبيب بإجرائها فإنها لم تتنبه إلى دلالة عبارة «الله يجازيكى يا ريا» التى كانت «أنيسة» تكررها بين الحين والآخر خلال اليومين التاليين، ولم تتوقف أمامها، إلا عصر ثالث أيام العيد، حين ورد اسم «ريا» فى حديث عابر بينهما، فإذا بـ «أنيسة» تنفجر قائلة فى غضب:

- «المره دى أنا زعلانة منها وكارهاها.. وإذا جت هنا تانى.. أنا رايحة أشتم ريحتها».

وحين سألتها دهشة عن سبب التغير المفاجىء فى مشاعرها تجاه «ريا» اعترفت لها بما حدث، وروت لها -بصوت مختنق بالدموع- واقعة استيلاء «عبدالرازق» على النقود وفردة الحلق، واعتذرت عن إخفائها للأمر بأنها أمضت ليلتين كابوسيتين لم يغمض لها فيهما جفن، بسبب إحساسها بالمهانة، وأنها خجلت من أن تعترف لها بالطريقة الفظة التى عاملها بها الرجل الذى أمضت الليلة بين أحضانه، فهرب منها، دون أن يهديها شيئا يعبر به عن تقديره لها، ولم يترك لها من نقودها سوى أجرة الحانطور الذى أقلها هى وابنتها إلى البيت.

وعلى العكس من «أنيسة» الضعيفة، المستسلمة، التى لم تجد سوى الدموع تواجه بها الموقف، فقد كانت «عديلة الكحكية» امرأة قوية، جريئة، وصاحبة تاريخ عريق فى المشاجرات، وكان المعروف عنها فى دوائر الأسرة، أنها امرأة «غجرية». وفضلا عن شعورها بمدى المهانة التى تعرضت لها صديقتها وقريبتها، فقد كانت تشعر -كذلك-

بالمسؤولية عن علاقتها بـ «عبدالرازق»، فما كادت تسمع بما جرى حتى أقسمت أن تسترد الغنيمة من اللص حتى لو طارت فى سبيل ذلك رقاب.

وكان الوقت عند الغروب، حين وصلت الاثنتان إلى بيت «ريا» بـ «حارة على بك الكبير» لتتعرف «أنيسة» -لأول مرة- على المكان الذى سوف تموت وتدفن فيه بعد أسبوع واحد من ذلك التاريخ.. وما أن سمعت «ريا» بما حدث، حتى ضربت صدرها بكفها.. وقالت بأسف بالغ:

- «يا ندامة.. الله يغلبه وينيله.. هو كده دايما».

ولفتت العبارة نظر «عديلة» التى قالت لها بدهشة:

- «لما أنت عارفة أنه كده.. كنتى قولى لنا.. ونورى علينا».

ثم استطردت تحملها المسؤولية عما جرى، بحكم أنها الوسيط الذى عرفهما به، وضمنه لهما، وطلبت إليها -بلهجة حازمة- أن تقودهما لمحل عمله، أو مكان سكنه، لكى يستعيدا منه ما سرقه.. وحاولت «ريا» أن تتخلص من المأزق الذى وضعها بين مطرقة المرأتين وسندان «عبدالرازق»، قائلة إنها لا تعرف له مكانا.. وأن الوحيد الذى يمكن أن يقودهما إليه هو «خفاجة». لكن «عديلة» سدت أمامها سبل التهرب مرتين.. حين أصرت -أولا- على أن تصحبهما إلى «خفاجة» لتشترك معهما فى عرض الأمر عليه، وحين تنبهت -ثانيا- إلى محاولة قامت بها «ريا» للتسلل بعيدا عنهما.. فحاصرتها وقالت لها بلهجة تهديد صريحة:

- أنا ح استبيع معاه.. هو ده ذوق رجالة.

وحسمت هذه العبارة موقف «ريا» التى أدركت أن «عديلة» قد تصعد الأزمة إلى ما هو أكثر من ذلك. فقررت أن تبالغ فى التظاهر بمساندة حق المرأتين فى استرداد المسروقات حتى لا تطولها شبهاتهما، إذا ما أبلغتا قسم الشرطة عن الواقعة، وكفت عن محاولات التهرب منهما، وقادتهما على الفور إلى دكان لبان ممن يتعاملون مع حظيرة «خفاجة» كانت تعرف أنه يتردد عليه بعد انتهاء عمله.. واستأذنت منهما لكى تبحث عنه، ثم عادت بعد قليل، لتقول لهما: إنه فى الطريق، وأضافت:

- أنا كمان قابلت «حسب الله» وحكيت له ع اللى حصل.. ولما يشوف «عبدالرازق».. راح يرعشه.

وفى تلك اللحظة وصل «خفاجة» ليستمع إلى قصة «أنيسة» التى أضافت إليها بعض الرتوش، لكى تستثير حماسه.. وما كادت تختم روايتها قائلة، بانها قد دفعت ربع الريال الذى تبقى معها لسائق الحانطور أجرا عن المسافة التى قطعتها بصحبة «عبدالرازق»، واضطرت إلى مواصلة السير على قدميها، والبنت على كتفها، حتى وصل ضيقه إلى منتهاه.. ولكنه حمل الفتاة المسؤولية عما جرى لها، إذ لو لم تغادر العربة الحانطور التى كانت تجمعهما معا، لما حدث ذلك، واعتذرت

«أنيسة» بأنها لحقت به حتى لا يثير ضجة.. وأضافت مسترضية:

- واشمعنى أنت ما أخدتش الأربعة جنيه اللى كانوا فى جيب «عديلة»؟.

ومع أن الثناء قد أرضاه، إلا أن المقارنة ضايقته.. فقال لها:

- أنا مش زى «عبدالرازق».. ده واحد أجرى بيشتغل باليومية.. وأنا واحد مبسوط.

وحين عرفت منه، أن «عبد الرازق» يعمل عربجيا فى أحد الاسطبلات، طلبت منه أن يصحبهما إليه.. لكنه اعتذر عن ذلك قائلا إن مثل هذا اللقاء لن يسفر إلا عن مشاجرة بينه وبين «عبدالرازق».. الذى سينكر - بالطبع - كل شىء، وقد يشتمهما، وهو أمر لا يستطيع السكوت عليه، وأبدى استعداده لأن يسدد لـ«أنيسة» ما سرقه منها صديقه وأن يشترى لها حلقا بديلا.. باعتباره المسؤول عن تعرفها به. وهو حل تحمست له «ريا» التى كانت ترغب بقوة فى إنهاء الأزمة خوفا من تداعياتها المحتملة. لكن «أنيسة» التى كانت تعانى من الطعنة التى وجهها العاشق اللص إلى كرامتها كأنثى، رفضت بشدة.. وقالت:

- وإنت تغرم ليه؟.. ورينى الاسطبل وأنا أروح أتخانق معاه.

وهو حل انزعج له «خفاجة» الذى طلب إليها أن تترك الأمر له ليتصرف فيه قائلا إنه لا يحبذ أية مواجهة بينها وبين رجل من نوع «عبدالرازق» لا يردعه إلا من هو أقوى - أو أغنى - منه.

وصح ما توقعه «خفاجة» إذ ما كاد يلتقى بـ«عبد الرازق» ظهر اليوم التالى، مصادفة فى الطريق، ويبلغه بشكوى «أنيسة» حتى أنكر إنكارا تاما، وثار ثورة عارمة لما اعتبره طعنا فى شرفه، وصاح قائلا:

- دى مره بنت كلب.. هاتها وأنا أضربها بالجزمة قدامك.

وقال «خفاجة» بتأفف:

- أهو ده الكلام الفارغ اللى ما يصحش.. إذا كنت رهنت الحلق. تعالى معايا للرهوناتى وأنا أخلصه من جيبى.. لأنى ماشى وياك.. ومش عايز حد يفتكر إنى شريكك.. أو يبلغ عنك البوليس.

واستثار التهديد موجة جديدة من غضب «عبدالرازق» فاندفع يسب «أنيسة» بألفاظ بذيئة، قائلا إن ادعاء امرأة من الفواحش لا يمكن أن يكون حجة عليه، وأن عليها أن «تروح مطرح ماتروح» ولم يجد «خفاجة» جدوى من مواصلة المناقشة معه، فتركه.. وانصرف.

وكان افتضاح أمر «عبدالرازق» - هذه المرة، شديد الوطأة على نفسه، ليس فقط.. لأنها كانت المرة الثالثة، خلال أسابيع قليلة، التى يجد فيها نفسه، واقفا كالتلميذ البليد، أمام صديقه، ليؤنبه على تصرفاته الصغيرة، ويفتخر عليه- من دون أن يقول ذلك صراحة - بأنه أشرف محتدا وأسمى أخلاقا، وأكثر ثراء.. ولكن - أساسا - لأنه كان قد أوهم نفسه، بأن «أنيسة» قد

عشقته لشخصه، وتعلقت به تعلقا مرضيا، يجعلها تقبل كل ما يفعله بها، من دون اعتراض أو احتجاج.. بل ويبدأ يتصرف تجاهها باعتبارها رفيقته، وليست مجرد امرأة يلم بها بين الحين والآخر.. وأشاع ذلك فى داخل الحلقة الضيقة التى كانت تعرف بعلاقتهما، ولابد أن الفتاة قد أوحت له بذلك، بل وكذبت عليه، فأوهمته بأنها متزوجة، وكان هذا التوصيف للعلاقة هو الذى دفع «خفاجة» إلى دعوتهما معا لسهرة العيد، بعد أن ذكر له أن «أنيسة» تحبه، وأنها تنوى أن تفترق عن زوجها الذى لا تحبه لكى ترافقه.. وكان ذلك كله، من بين ما شجعه على سرقة النقود وفردة الحلق، واثقا أن المرأة المتيمة به، لن تحتج..

والحقيقة أنه لم يكن يستطيع أن يقاوم نزوعه المستمر، لكى يضاجع البغايا من النساء، من دون أن يدفع لهن -كغيره من الرجال- أجرا.. إذ كان يعتبر دفعه للأجر دليلا على أنه لا يستطيع أن يمتعهن. والغالب أنه لم يكن يختلف عنهن من الناحية النفسية.. إذ كان فيه جانب من «سيكلوجية البغايا» يدفعه إلى الحرص على الحصول منهن على أجر، مقابل استمتاعهن بما كان يظن أنه فروسيته الجنسية، وكانت شهوة الحصول على الأجر، هى التى تدفعه إلى سرقة كل مايقع بين يديه من نقودهن أو حليهن... أو حتى مناديلهن..

ومع أن «أنيسة» لم تكن أول امرأة تفضح سرقاته، إلا أن اللطمة التى وجهتها إليه، كانت أكثر سخونة إذ جاءت تكذيبا صريحا لكل ما أشاعه عن حبها له، وتعلقها الهيستيرى به، إذ لو كانت رفيقته كما أدعى، لأنفق عليها وقدم إليها الهدايا بدلا من أن يسرقها، ولتسترت على سرقته لها، بدلا من أن تشهر به. أما وقد كان مستحيلا أن يظل ماحدث طى الكتمان، بعد أن عرفته «ريا» وعرفه «خفاجة»، وعرفه الصديق الذى كان بصحبته عندما فاتحه فى الموضوع، فقد وجد «عبد الرازق» نفسه - خلال اليومين التاليين- فى موقف دفاع لا يحسد عليه... ولولا ما اشتهر عنه من شراسة ورزالة، لتحولت التلميحات المصحوبة بنظرات الاستخفاف إلى سخرية صريحة منه.

وحين ضبط نظرة سخرية تبادلها «حسب الله» مع «عرابى» اثناء جلوسهما معه فى إحدى خمارات «شارع الفحام» قرر أن ينتقل من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم.. وقال يخاطب الأول:

- شفت المرة رفيقتى قالت لـ «ريا» إيه عنى؟!.

ومع أن «حسب الله» كان سكرانا، إلا أنه أدرك أن أفضل وسيلة للسخرية من «عبد الرازق» هى أن يتظاهر بأنه يجهل كل شيء عن الموضوع من الاساس، فسأله:

- رفيقتك مين؟.

فقال:

- اللى بتيجى مع الكحكية..

وعاد «حسب الله» يسأل ببرود.

- دى رفيقتك؟.

فقال «عبد الرازق»:

ـ أيوه رفيقتى وبتحبنى موت... لكن بنت الكلب بتقول إنى أخذت منها فردة حلق وأربعة ريال.

وبلهجة لم تستطع براءتها أن تخفى ما تتضمنه من استرابة، سأله «حسب الله»:

ـ وإزاى بتحبك وتتهمك؟!

وأدرك «عبد الرازق» من سياق الاسئلة أن «حسب الله» يستدرجه لكى يكشف التناقض فى أقواله، فآثر الانسحاب من المناقشة، وتظاهر بأن الموضوع لا يهمه... ولا يشينه... وقال:

ـ سيبك.. يلعن أبوها.. هوا أنا بتاع حب.. لكن أنا مش ح أفوتها لها.

والغالب أن العبارة الاخيرة، كانت موضوع مناقشة تالية بينه وبين «عرابى» الذى لم يشترك فى الحديث، انتهى بالاتفاق بينهما على ادراج اسم «انيسة» فى قائمة القتل، انتقاما منها لتشهيرها برفيقها، أسوة بما حدث مع «نظلة أبو الليل» رفيقة «عرابى» الذى كان تأديبها على خيانتها، فضلا عن قيمة ما كانت تتزين به من مصاغ - وراء ادراج اسمها فى نفس القائمة.



فى صباح يوم الثلاثاء ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٢٠ .... غادرت «عديلة الكحكية» بيتها فى «مينا البصل» إلى المستشفى الأميرى بالاسكندرية، لتجرى العملية الجراحية، بعد أن حذرها الطبيب من تأجيلها أكثر من ذلك... واصطحبتها «أنيسة» إلى المستشفى، وظلت معها إلى أن انتهت اجراءات تسجيلها وتسكينها بين نزلائه... وقبل أن تتصرف أعطتها «عديلة» الكردان الذهبى الذى تزين به رقبتها، لكى تحتفظ به معها، وجنيهين لكى تنفق منهما على أولادها وترعى شؤونهم... وغادرت «أنيسة» المستشفى، على أن تعود فى اليوم التالى لزيارة صديقتها المريضة.

وعصر اليوم نفسه، وبينما كانت «نميسة» - شقيقة «أنيسة» الكبرى- فى زيارة لها، جاءت فتاة صغيرة، ترتدى جلبابا تعرفت عليه «نميسة» على الفور، إذ كان هو ذاته الجلباب الذى قصته بنفسها، بناء على طلب من شقيقتها... وهمست الفتاة بشىء فى إذن «أنيسة»، لم تهتم بسؤالها عنه، إذ تصورت أن الفتاة ممن يعملن لدى الخياطين الذين تخيط لهم شقيقتها الملابس، جاءت بشأن من شؤون العمل.

وفى ضحى اليوم التالى ظهرت «أنيسة» وبصحبتها ابنتها «هانم» بمنزل «صديقة» - شقيقة «عديلة» - بالقرب من جامع «سيدى قره»... وكانت ترتدى جلبابا من القطيفة الزرقاء وجونلة حمراء... وتزين معصميها بسبعة غوايش من الذهب، فضلا عن زوج من الاساور من معدن مطلى بالذهب. وتحيط كاحليها بخلخال من الفضة، وتضع فى أذنيها حلقا من الذهب على شكل وردة، كانت قد اقترضته من زوجة عمها لكى تتزين به، بعد أن ضاعت فردتا حلقها فى المشاجرة، وسرق «عبد الرازق» الاخرى.

وكان المرور على زوجة العم، لإعادة الحلق إليها ثم المرور على «عديلة» فى

المستشفى، هو العذر الذى ساقته «أنيسة»، وهى ترجو «صدِّيقة» بأن ترعى ابنتها «هانم» إلى أن تعود لكى تأخذها فى المساء، وكانت تلك أول مرة تعرف «صدِّيقة» بأن شقيقتها مقبلة على اجراء عملية جراحية، وحز فى نفسها أن تخفى عنها «عديلة» نبأ دخولها المستشفى بسبب خلاف طارىء بينهما... وأصرت على أن تقوم بزيارتها فى اليوم نفسه، فوعدتها «أنيسة» بأن تمر عليها قبل العصر، لكى تصطحبها معها إلى المستشفى لتزورا المريضة العزيزة.

ومع أن دكان الحلاقة الذى يملكة الأسطى «حافظ سلامة» - زوج «نميسة» - يقع فى البيت نفسه الذى تسكن به «صديقة» إلا أنه لم يشاهد شقيقة زوجته، وهى تدخل إلى البيت، أو تخرج منه، إذ كان مشغولا بعمله، ولم يعرف بالأمر إلا قبل المغرب بقليل، حين نادت عليه «صديقة» من نافذة شقتها، فلما صعد إليها أبلغته بما حدث، وطلبت إليه أن يأخذ الفتاة الصغيرة معه، إلى خالتها «نميسة» لكى ترعاها، إلى أن تعود أمها، التى أخلفت وعدها، ولم تحضر فى الموعد الذى حددته، خاصة وأن الفتاة كانت تبكى بشكل متواصل.

ولما عاد الصبى الذى أرسله «الاسطى حافظ» إلى بيت «أنيسة» ليقول له، أنه لم يجدها به، كلفه بأن يصحب الطفلة الباكية إلى بيته، وأن يسلمها إلى زوجته «نميسة»... وعندما عاد إلى منزله فى منتصف الليل، لم تكن «أنيسة» قد ظهرت بعد، وكانت زوجته تجلس مع أمها فى صالة المنزل، تقلبان جميع الاحتمالات على وجوهها...

وفى الصباح صحبهما معه إلى منزل «صِّديقة» - شقيقة «عديلة الكحكية» - لكى تعيدا سؤالها، باعتبارها آخر من رأى الفتاة المختفية من أفراد الاسرة، لكنهما لم تخرجا من اجاباتها على اسئلتهما بشىء جديد، فقررتا أن تقتفيا أثرها، وأن تتبعا البرنامج الذى زعمت «أنيسة» أنها ستقوم به.

لكن تتبع الأثر لم يسفر عن شىء: فقد نفت زوجة عمها أنها زارتها، أو أنها أعادت لها الحلق الذى اقترضته منها.. ودهم الخبر «عديلة الكحكية» التى ما كادت تسمعه حتى قالت:

ـ هى باتت بره؟!

ومع أنها نفت أن تكون الفتاة قد زارتها أو باتت معها فى المستشفى الذى لا يسمح نظامه بذلك، فقد ظلت المرأتان تجلسان إلى جوار سريرها آملتين أن تظهر «أنيسة» فى العنبر الذى ترقد فيه صديقتها فى أية لحظة... وكانت «نميسة» تعيد رواية ما سمعته من شقيقتها اثناء زيارتها لها، فى الليلة التى اختفت فى صباحها، حين توقفت «عديلة» أمام الجزء المتعلق بالفتاة الصغيرة التى مرت على «أنيسة» وهمست فى أذنها، فلم تشك فى أنها «بديعة» - ابنة «ريا» - وغلب على ظنها أن الفتاة الغائبة ربما تكون قد أمضت مع «عبد الرازق» سهرة، كالتى أمضتاها ليلة ثانى أيام العيد،



ضريح سيدى الزهرى: أحد معالم المنطقة التي كان يقطن بها عرابي

ولم تستطع أن تعود فى الموعد المناسب إلى بيتها، ولأنها لم تكن تستطيع أن تفضى لأم «أنيسة» وشقيقتها بما تعلمه، فقد اكتفت بأن تؤكد لهما، حين همتا بالانصراف، بأنهما ستعودان فتجدانها بالمنزل، وطلبت إليهما أن يرسلاها إليها، أو أن تأتى احداهما فى اليوم التالى لزيارتها، وابلاغها بآخر أخبارها.

وعندما مر اليوم التالى من دون أن تظهر «أنيسة» فى المستشفى، أو أن تسمع «عديلة» خبرا يطمئنها إلى عودتها، قررت أن تغادره على الفور، وأن تؤجل اجراء العملية الجراحية إلى موعد لاحق. ولكن الطبيب عارض فى ذلك، ولم يقتنع بادعائها بأنها كانت تعتمد على احدى قريباتها فى رعاية أولادها، ولكنها اختفت، مما يضطرها لمغادرة المستشفى فورا لكى ترعاهم بنفسها... والحقيقة أن اختفاء «أنيسة» كان قد أربكها وأقلقها، فقد كانت تشعر بالندم وبتأنيب الضمير، وتعتبر نفسها شريكة فى المسؤولية عن ذلك الاختفاء... وفضلا عن ادراكها بأن الشبهات سوف تلحق بها، باعتبارها صديقة الغائبة وموطن سرها وشريكتها فى المسكن، فقد كانت تخشى أن يؤدى بحث اشقاء «أنيسة» عنها إلى الكشف عن الجانب السرى من حياتهما المشتركة.

وكان أول ما فعلته عندما غادرت المستشفى، بعد ثلاثة أيام فقط من دخولها له... أن قامت بزيارة شقيقتها «صديقة» لتستمع إلى روايتها لما دار بينها وبين الفتاة، ولأن الأسطى «حافظ سلامة»، كان يعتقد أن مفتاح لغز اختفاء شقيقة زوجته مع «عديلة»، وإن كل ما جرى هو خطة متفق عليها فيما بينهما، فإنها ما كادت تدلف من باب البيت، حتى لحق بها ليستجوبها استجوابا قاسيا، حول ظروف دخولها للمستشفى... ومبررات اخفائها للخبر عن شقيقتها، وتفسيرها للتلازم بين دخولها المستشفى واختفاء «أنيسة» ولما ضاقت بأسئلته المتشككة، صاحت فى وجهه:

- أنا مش خفيرة عليها... واللى أعرفه قلته.

فكف عن استجوابه لها، حتى لا يتعرض

لسلاطة لسانها.. وقال لها بلهجة تهديد:

ـ أنا رايح أبلغ الحكومة...

فردت عليه بتحد: اعمل زى ما يعجبك!

ولم تمكث «عديلة» طويلا فى بيت شقيقتها التى لم تضف إلى ما تعرفه شيئا، وغادرته للتوجه على الفور إلى حارة «على بك الكبير». واستقبلتها «ريا» بدهشة، لأنها خرجت من المستشفى بتلك السرعة، واعتذرت عن عدم زيارتها قائلة أنها كانت قد اتفقت مع «أنيسة» على أن تمر عليها فى اليوم التالى لدخولها إلى المستشفى، لكى تزوراها، وأنها استعدت للزيارة، وذبحت أوزة سمينة، كانت تربيها، لكى تقدمها إليها، ولكن «أنيسة» لم تحضر فى الميعاد، فكانت الأوزة من نصيب «حسب الله» و«بديعة».

وبتلك الضربة المحكمة، أفشلت «ريا» مهمة المرأة قبل أن تبدأ... لكن «عديلة» لم تستسلم بسهولة، إذ كان لديها يقين بأن «ريا» وراء اختفاء «أنيسة»... لكن ظنونها لم تتطرق إلى حد الشك فى أن تكون الفتاة قد قتلت، بل توقفت أمام احتمال واحد: أن تكون «ريا» قد باعتها إلى أحد بيوت الدعارة المرخص لها بالعمل، ولأنها كانت فى موقف حرج أمام نفسها، وأمام أسرتها، فقد جابهت «ريا» بالحقيقة قائلة بأن «أنيسة» قد اختفت، وبأن لدى أخوتها شواهد على أن ابنتها «بديعة» هى التى جاءت لتأخذها من بيتها...

ولم تنكر «ريا» واقعة ذهاب ابنتها إلى بيت «أنيسة» لكى تذكرها بموعد زيارتهما المشتركة لها.. وواجهت التهديد بمثله قائلة:

ـ اللى رايح ييجى هنا احنا ح نجرسوه... ونلفوه فى ملاية.

وفى مواجهة هذا التهديد المضاد، الذى أدركت «عديلة» أنه موجه إليها، وليس لغيرها، اضطرت إلى التراجع وانتقلت من الاتهام إلى الاستعطاف، وغيرت «ريا» هى الاخرى من أسلوب تعاملها معها... إذ كانت توقن بأنها الوحيدة التى تعرف صلة الفتاة الغائبة بها، فلم تواصل استفزازاتها لها حتى لا تدفعها إلى تصرف أحمق، تكشف به عن هذه الصلة، فتدخل دائرة الاتهام، وانتقلت بمهارة من تهديدها إلى التظاهر بالتعاطف معها، وبالرغبة فى مساعدتها، ووجهت شبهاتها إلى «عبد الرازق» قائلة أنه ربما يكون قد استغل حب الفتاة له، فأغواها بالهرب لكى تقيم معه، واقترحت عليها أن تتوجه لمقابلة «محمد خفاجة» ليساعدها فى البحث عنه، ونصحتها بأن تركز على المطالبة باسترداد الجنيهين وزوج المباريم التى اعطتهم لـ «أنيسة»، حتى لا يخفى «عبد الرازق» علمه بمكان الفتاة، إذا شعر بأن الهدف هو انتزاعها منه، لكى تعود إلى أسرتها..

ولم تقنع القصة «خفاجة» الذى نفى أن يكون «عبد الرازق» قد روى له شيئا عن اتفاقه مع «أنيسة» على أن تهرب من بيتها لتقيم معه، أو أحاطه علما بالمكان الذى اسكنها فيه، وأبدى تشككه فى أن يكون قد فعل شيئا من ذلك، لأنه متزوج وله

ابناء، وليست لديه موارد تمكنه من الانفاق على رفيقة، واستئجار مسكن خاص لها.

وهو منطق بدا لـ «عديلة» محبوكا، وكشف لها عن أن «ريا» قد ضللتها، فحاولت توجيه شكوك «خفاجة» نحوها، إذ كانت توقن بأنه - على العكس منها- أقدر على الضغط الفعال عليها لكى تعترف بالحقيقة، وسألتها أمامه:

- هى ما جاتش عندك يا «أم بديعة»؟.

لكن الطلقة طاشت، لتصيب شكوك «خفاجة» المرأتين، إذ بدا له أنه من المنطقى أن تكونا قد تناقشتا فى هذا الامر قبل حضورهما إليه، فلا معنى للسؤال إلا أن القصة بجملها وهمية، وأنهما تمثلان عليه، وتريدان احراجه، وابتزاز كرمه، فيعرض عليها تعويض «عديلة» عن خسارتها الوهمية من «جيبه»، كما فعل قبل أيام، حين عرض على «أنيسة» العرض نفسه..!

وفى تلك اللحظة، ظهر «حسب الله» فجأة، فى دكان «عبد القادر اللبان» - الذى كانوا يجلسون أمامه - ليهش على زوجته «ريا» بعصا طويلة كانت معه، ويصيح فيها:

- يامره يابنت الكلب... انتى ما بقاش عليكى إلا قعدة الدكاكين؟.

وضاق «خفاجة» بذلك التهجم على مجلس يتصدره، فقال له:

- هى الدكاكين مش زى الخمارة؟

وتراجع «حسب الله» معتذرا بأنه شرب كأسين وعاد إلى المنزل فلم يجد به طعاما. وقال له «خفاجة»:

- الخمرة هى اللى شارياك مش أنت اللى شاربها.

- وقالت «عديلة»:

- احنا فى مسألة البنت اللى غايبة.

وقال «حسب الله»:

- احنا مالناش دعوة بحاجة... ولا نعرف حاجة... قومى ياولية عشينى.

وهكذا حقق «حسب الله» هدفه، فانفضت الجلسة التى ثار عندما علم بانعقادها، إذ كان لديه من الاسباب ما يدعوه للاعتراض بقوة على مشاركة «ريا» فى جهود البحث عن «أنيسة» واكد المشهد الاخير منها شكوك «خفاجة» فى أن الموضوع كله، هو مجرد محاولة للاحتيال عليه، وكان مما اكد له ذلك أن «عبد الرازق» - الذى التقى به فى مساء اليوم التالى - قد تظاهر بالدهشة الشديدة، لغياب الفتاة، وأنكر أن له صلة بالامر قائلا أنه ليس منطقيا أن يكافىء امرأة افترت عليه، واتهمته بسرقتها، بالابقاء على علاقته بها، وباستئجار مكان لها لتقيم فيه معه.

وهو ما قاله لـ«عديلة» التى ظلت تبحث عنه إلى أن عرفت أن الحظيرة التى يعمل بها، تقع فى «حارة النجاة» نفسها، ودهشت لنظرات السخرية والاستهزاء التى قابل بها أهل الحارة سؤالها عن «عبد الرازق» بصفته «معلم عربيات»، وكانت تلك أول مرة تكتشف عمله الحقيقى... ومكانته الفعلية فى الحارة... وعلى عكس ما كان يحدث فى جلسات الحظ التى كانت تجمعهما،

فقد خرج إليها من باب الحظيرة، وقد خلع رداء التظاهر بالتهذب والرقى، ليتعامل معها بالطريقة التى كانت شائعة عن امثاله من العربجية... وأمام النساء اللاتى احتشدن حولهما... قال لها:

- «أنيسة» مين يا أختى؟!... ما اعرفهاش؟.

فقالت له:

- إذا كنت عاوز تتجوزها... أجوزها لك... بس دلنى عليها عشان اخذ حاجتى منها.

فالصق طرف لسانه بسقف حلقه، وأصدر صوتا بذيئا وهو يقول لها:

- جواز إيه وهباب إيه؟ هو أنا خالى... أنا عندى مرة وعيال مش قادر أوكلهم.. روحى شوفى لافت على مين.. يمكن راحت تاكل لحمة.

وكما كف «خفاجة» عن الاهتمام بالموضوع بعد أن التقى بـ «ريا» التى أكدت له أن «عديلة» تكذب وأن الفتاة المختفية لم تأخذ منها شيئا، فقد كفت «عديلة» هى الأخرى عن الاهتمام به، بعد أن أثار الاسطى «حافظ سلامة» أسرة «أنيسة» ضدها، ثم نشب الخلاف بينها وبينهم، عندما جاءوا لينقلوا أثاث ابنتهم الغائبة من الشقة التى كانت تستأجرها بمنزلها، إذ أصرت «عديلة» على الاحتفاظ بجزء منه مقابل الجنيهين وزوج المباريم التى أخذتهم منها، واختفت بهم، وعارضت الأسرة فى ذلك.. وانتهى الخلاف بانقطاع العلاقات بين الطرفين، وفقدت أسرة «أنيسة» معونة الشاهدة الوحيدة التى كان يمكن أن تقودهم إلى معرفة مكان اختفاء ابنتهم، ولم يسفر التحقيق فى البلاغ الذى تقدموا به إلى الشرطة، عن شىء.

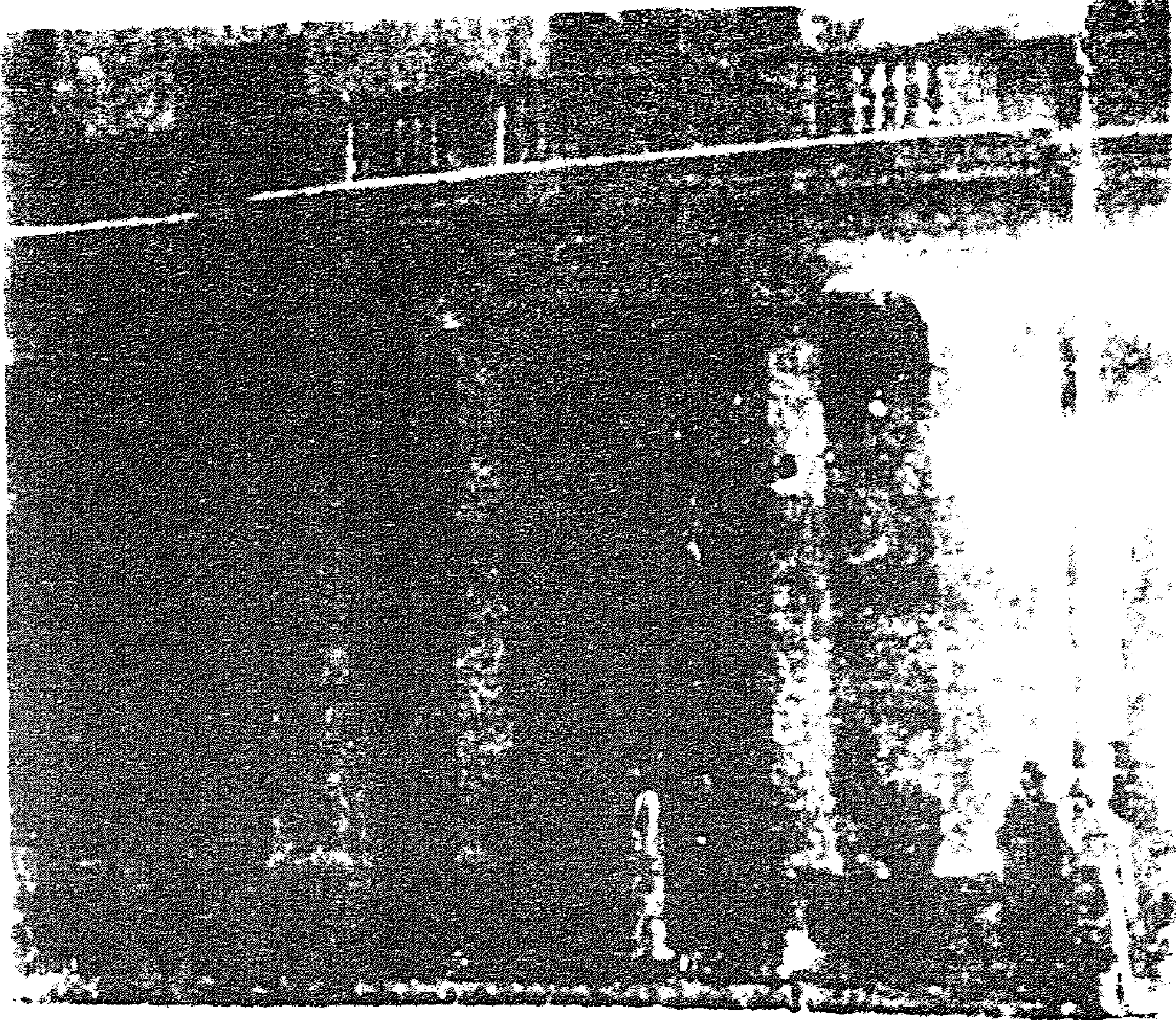
ومع ذلك فقد ظل الجميع يأملون فى أن تعود «أنيسة» ذات يوم.

وكانت «أنيسة رضوان» - آنذاك- ترقد فى مقبرة «آل همام» تحت سندرة الغرفة التى تستأجرها «ريا»... إذ كانت قد غادرت بيت «صُديقة»- ضحى يوم الاربعاء أول يوليو «تموز» ١٩٢٠ - إلى «حارة على بك الكبير» لكى تلتقى بـ «ريا»، التى أوهمتها - فى الغالب - بأن «عبد الرازق» سيكون فى انتظارها، لكى يرد لها نقودها... وفردة الحلق اللذين أخذهما منها، لكى يضمن أن تعود إليه مرة أخرى... وأنها ستصحبها - بعد ذلك- إلى المستشفى لزيارة «عديلة».

وما كادت تدلف إلى البيت حتى لحق بها «عرابى» و«حسب الله» وجاء السكولانس، والطعام. وبعد قليل ظهر «عبد الرازق» وبدأ العتاب بين العاشقين، فى حضور الرجال الثلاثة، إذ كان «عبد العال» قد سافر إلى قريته «موشا» قبل اسابيع... وفى اللحظة المناسبة أطبقوا عليها، وكتموا انفاسها...

وفى عصر اليوم نفسه، كانت «ريا» تقف أمام دكان «على الصايغ» الذى اشترى مصاغها - ٦ غوايش والحلق الذى كانت قد اقترضته من زوجة عمها وزوج المباريم المطلى بقشرة الذهب الذى أخذته من «عديلة» والخلخال الفضة - بعشرين جنيها، قسمت على خمسة أقسام متساوية إذ احتفظوا لـ «سكينة» بنصيبها من الغنيمة على الرغم من أنها لم تشترك فى العملية، ولم تعلم شيئا عنها...





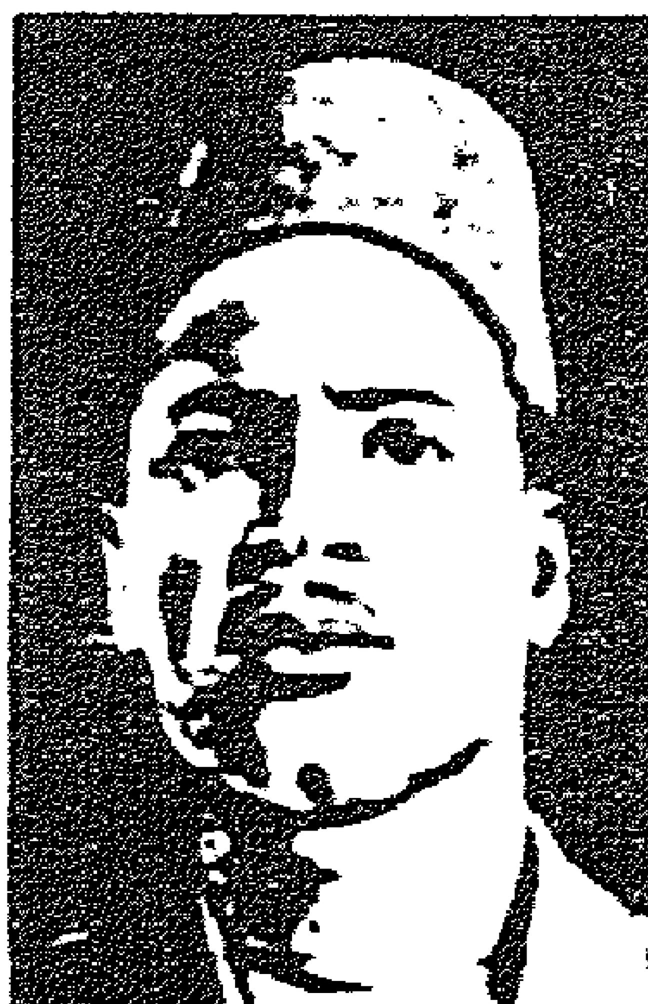
مبنى قسم شرطة اللبان فى العشرينيات

الفصل الخامس

بيت أبو المجد وبيت الجمَّال











لم يكن قد مضى على سفر «محمد عبد العال» إلى قريته بأقصى الصعيد، سوى أسبوعين، حين تركت «سكينة» الغرفة التى كانت تسكنها فى «حارة النجاة» لتعود مرة أخرى إلى «بيت الجمال» - أو المنزل رقم ٥ بـ «حارة ماكوريس» - الذى أقامت فيه معه، لمدة خمسة شهور، حين كانا زوجين سعيدين.

لكنها لم تعد إليه وحيدة، إذ لم تكن تحب الوحدة، أو تطيق البعد عن الرجال، بل اصطحبت معها إليه، رفيقا جديدا، يصغرها - هو الآخر- بأكثر من عشر سنوات. وكان الرفيق الجديد «سلامة محمد خضر» شابا فى الثامنة والعشرين من عمره، متوسط القامة، قمحى اللون، أسود الشعر، مصابا بحول ملحوظ فى إحدى عينيه، يضفى على مظهره جهامة، ويعمل شيالا على عربة كارو يملكها أخوه الأكبر، ويغادر منزله بـ «العطارين» - كل صباح - إلى إحدى محطات السكك الحديدية الثلاث - «سيدى جابر» و«القبارى» و«محطة مصر» بـ «ميدان الرمل» - فإذا وصل أحد قطارات البضاعة يحمل الاسماك النيلية من محافظات الدلتا إلى «الاسكندرية» اشترك مع امثاله من الشيالين فى تفريغ حمولتها لينقل كل منهم جانبا منها على عربة الكارو التى يمتلكها ويتوجه بها إلى دكان الحاج «درويش مصطفى خوجة» - تاجر الاسماك الذين يعملون لحسابه بـ «حلقة» - أو سوق - السمك، ثم يعودون بالفوارغ إلى المحطة، وينتظرون وصول القطار التالى، أو يتوجهون إلى محطة أخرى لانتظاره.

ولم يكن متوسط الأجر الذى يحصل عليه من هذا العمل، يزيد عن ريال واحد فى اليوم، إلا فى موسم الفيضان، الذى ترتفع فيه كميات السمك الواردة من الاقاليم، وفضلا عن أنه لم يكن يعمل بانتظام، فقد كان يسهم بنصف هذا الأجر فى نفقات المنزل الذى يقيم فيه مع أمه واشقائه. وكان متزوجا وذا أولاد، مما جعل المتبقى من أجره، لا يكاد يكفى نفقاته الشخصية، إذ كان كأمثاله - فى ذلك الحين - لا يستغنى عن «الكيوف» ويجمع بين ادمان الخمر، وتدخين الحشيش، ومص فصوص الافيون، وهو ما جعله لا يتورع عن السرقة، إذا لاحت له فرصة مأمونة... ولعل حذره الطبيعى هو السبب فى اقتصار سجل سوابقه على سابقتين فقط، احداهما جنحة سرقة، سجن بسببها شهرا، والأخرى جنحة ضرب عوقب عليها بغرامة طفيفة.

والغالب أن «سكينة» قد تعرفت عليه فى واحدة من الخمارات الثلاث التى كانت تتردد بينها، قد تكون «خمارة ايدابكونو» بـ «شارع بحرى بك»، وأن افراطها فى شرب الخمر، وكرمها فى دعوة المحيطين بها من رواد الخمارة، إلى شرب كأس أو تناول الطعام على حسابها، خاصة فى الايام التى كانت تستلم فيها نصيبها من ثمن بيع

مـصـوغـات إحـدى الضـحـايا، كـان أهم الاسباب التى دفعته للسعى لتوثيق علاقته بهـا، لكى يسكر ويأكل ويستمتع بطيبات الحياة على حسابها، إذ كان من ذلك النوع من العشاق الذين يجدون لذة خاصة فى العيش على حساب عشيقاتهم، وخاصة إذا كن ممن يكبرونهم سنا، ويسعين إلى التمتع بشبان يصغرونهن، قبل أن يدركهن الخريف. والأرجح أن هذه العلاقة قد بدأت مع بداية تحلل علاقة «سكينة» العاطفية بـ «محمد عبد العال»، وبعد أن تحولت فى الاسابيع السابقة على سفره، إلى مجرد زمالة فى عصابة لقتل البغايا، ولكنها لم تتوثق، إلا بعد سفره.

ومع أن «سكينة» كانت قد أخفت خبر طلاقها من «محمد عبد العال» عن جيرانها فى «حارة ماكوريس»، فظل يتردد عليها فيها بعد طلاقهما، وإلى أن غادرتها إلى «حارة النجاة»... فإنها لم تجد حرجا فى أن تصحب معها رفيقها الجديد «سلامة» حين ذهبت لكى تستأجر من جديد، غرفة فى منزل «حارة ماكوريس»، من «محمد أحمد السمنى» المستأجر الأصلى للطابق الأرضى من المنزل، ولم تخجل من تردده عليها، ومبيته فى معظم الليالى بغرفتها، إذ لم يكن ذلك مما يهم «السمنى» ولم يكن جيرانها فى المنزل من النوع الذى يهتم بمثل هذه الاسئلة الاخلاقية، إذ كانوا جميعا، كما وصفهم - فيما بعد الشيخ «أحمد مرسى» ابن صاحبة البيت - «ناس بطالين... وبيدخل عندهم ستين راجل... وستين مرة فى اليوم».

وكانت سمعة سكان البيت السيئة . وخاصة سكان الطابق الأرضى . وراء خلو بعض حجراته من المستأجرين لشهور، مما أعجز «السمنى» - الذى كان يستأجر هذا الطابق لحسابه، ويؤجر حجراته من باطنه - عن دفع ايجاره لأصحاب المنزل، واضطره للبحث عن مستأجرين ليعرض الغرف الخالية عليهم... وكانت «سكينة» من بين من سعى إليهم، فلم يكن منطقيا أن يتطفل على علاقتها بـ «سلامة»، خاصة وأنها لم تشر أثناء المفاوضات، إلى المضايقات التى لقيتها قبل ذلك، من زوجته «سيدة سليمان» مما اضطرها إلى الرحيل عن المنزل... وعن الحارة....

والحقيقة أن «سيدة» كانت المسؤولة عن التعامل مع السكان، إذ كان زوجها يبيت فى بعض الليالى بـ«سيدى جابر» حيث يقع اسطبل «خليل باشا خياط» الذى كان «السمنى» يعمل سائسا لخيول السباق التى يقتنيها، أما هى فكانت تدير مطعما للرصيف يقع أمام مدخل المنزل، تبيع فيه الفلافل وتقلى الباذنجان والفلفل، فضلا عن المياه الغازية، وقطع الشمام والبطيخ... فإذا تعطل زوجها عن العمل، تركت له ادارة تجارتهما الصغيرة، وسرحت فى الشوارع لتبيع البيض. لكنها لم تكن تقصر - فى كل الاحوال- فى ممارسة نفوذها على المقيمين بالبيت وكانت تتحصر فى سكان الطابق الأول، إذ كان البقال اليونانى «ينى دى بولو» . الذى يقيم مع أسرته فى الطابق الثانى . قد استأجره من اصحاب المنزل

مباشرة، فهى التى تحصل من كل منهم ايجار الغرفة التى يقيم فيها، وتشرف على المرافق المشتركة للطابق فتكنس صالته، وتمنع العابرين فى الحارة، من استخدام دورة المياة الواقعة فى فنائه الخارجى، وتثير المشاكل كلما ضبطت رجلا يتخذ من الرغبة فى دخول دورة المياه، ذريعة للتسلل إلى إحدى غرف المنزل لكى يختلى فيها، بإحدى البغايا.

ولم يكن التزمت الاخلاقى هو الذى يدفع «سيدة» إلى اثارة المشاكل مع سكان المنزل، إذ لم يكن الدفاع وأن من بين ما يعنيها، لكنه كان يعنى أصحاب المنزل الأصليين، خاصة وقد كان من بينهم أحد قراء القرآن الكريم فى المآتم والموالد، هو الشيخ «محمد عبد السلام» وأحد طلاب العلم الشريف بمعهد الاسكندرية الدينى التابع للأزهر المعمور، هو ابن شقيقة «أحمد مرسى عبده»، وقد استفزهما أن تسوء سمعة المنزل الذى يشاركان فى ملكيته، وأن يشاع فى الحارة أنه قد تحول إلى وكر لارتكاب المعاصى والذنوب التى نهى الله عز وجل عنها، من ممارسة الزنا واللواط، إلى شرب الخمر وتدخين الحشيش، ومن ايواء اللصوص والنصابين، إلى إفساد اخلاق الفتيات والغلمان، فحمّلا «محمد السمنى» . مستأجر الطابق الأرضى . المسؤولية عن ذلك، وأخذا يتربصان به لكى يجليانه، عنه، ويفسخا عقد الايجار الذى أبرماه معه. وتحقيقا لذلك انتهزا فرصة عجزه عن تسديد ايجار بعض الأشهر، وأقاما دعوى قضائية ضده، يطالبانه فيها باخلاء المنزل، وتدعيما لتلك الدعوى أمطرا «قسم شرطة اللبان» - الذى كان البيت يقع خلفه مباشرة . وعلى مسافة لا تزيد عن خمسين مترا من بابه الرئيسى . بوابل من البلاغات لعله يضبط واحدة من المخالفات القانونية والأخلاقية العديدة التى يرتكبها السكان، فتكون مبررا اضافيا لرحيلهم.

وفضلا عن أن العاملين بقسم الشرطة، كانوا مكدودين باعمال كثيرة، فقد أدركوا - بعد قليل - أن كثيرا من تلك البلاغات كيدية، فأهملوا شأنها . ولأن «أحمد مرسى عبده»، كان قد ترك دراسته بمعهد الاسكندرية الدينى، فقد تفرغ لمضايقة السكان، واتخذ له محلا مختارا على مقعد بمقهى صغير يواجهه، تملكه امرأة تدعى «زكية جعفر» وأصبح يمضى النهار كله . بين السابعة صباحا والسابعة مساء . فى تفقد أحوال المنزل، وسؤال الداخلين إليه - من غير سكانه- عن وجهتهم.

ومع أن الرقابة التى فرضها على المنزل كانت تسبب بعض الازعاج لسكانه، إلا أنها لم تكن فعالة، إذ كان «الشيخ أحمد» . المشهور فى الحارة باسم «أحمد العاجز» . ضعيف البصر إلى حد يكاد معه يكون كفيفا، فكان كثيرون من الصعايدة والهنود والخواجات يتسللون إلى المنزل من دون أن يراهم، أما بسبب ضعف بصره، أو فى أوقات القيلولة، التى كان يصعد خلالها إلى غرفتين فوق سطح المنزل يحتفظ فيهما ببعض ملابسه وكتبه، وأوراقه.

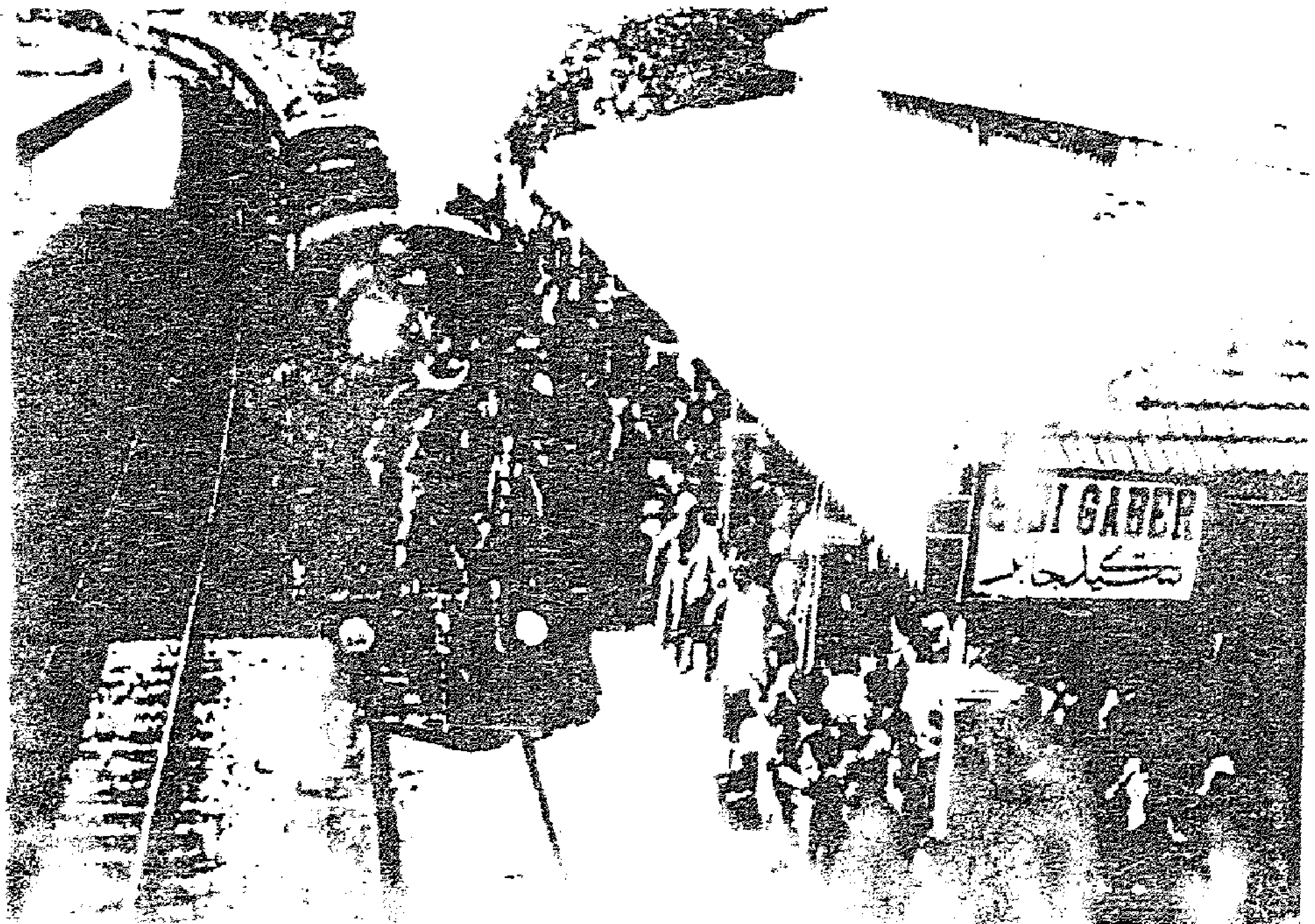
ولم يكن سوء سمعة البيت والرقابة

التى فرضها اصحابه على سكانه، هى السبب الوحيد فى عزوف كثيرين من المستأجرين عن سكناه، بل كان سوء هندسة وتصميم غرف الطابق الأول من أهم تلك الاسباب، فقد كانت أربع من غرفة تتصل ببعضها البعض، ومع أن الابواب الداخلية التى تفصل بين تلك الغرف كان يمكن اغلاقها، فقد كان بينها واحدة ليس لها باب خارجى، مما كان يحتم ضمها إلى واحدة من الغرفتين الملاصقتين لها، ويفترض أن الذى يستأجرهما رب أسرة له أطفال صغار، يملك ترف تخصيص غرفة نوم لهم، داخل غرفة نومه، وهو شرط كان يصعب تحقيقه.

والواقع أن سكان الطابق الأول من المنزل رقم ٥ ب «حارة ماكوريس» كانوا تشكيلة غريبة من الهامشيين الذين يندر أن يجتمعوا فى مكان واحد.

وحين عادت «سكينة» لتسكن بإحدى حجراته، كان معظم جيرانها السابقين به، قد غادروه، لكن الذين حلوا محلهم لم يكونوا أفضل أخلاقا أو أرقى مستوى، بل كن - كذلك - من المومسات العاملات فى حى «كوم بكير» اللواتى تستأجرن غرفا اضافية، لكى تقدن إليها الزبائن الذين يتحرجون من الظهور فى الحى... وبعد اسابيع من عودتها إليه، كان عدد سكان الطابق، قد استقر على ثلاثة، غير «محمد السمنى» وزوجته وابنه الذين كانوا يخصون أنفسهم بغرفة ذات مدخل مستقل تطل على الحارة.

وكانت «سكينة» تشغل غرفة مظلمة فى أقصى الجنوب الغربى للبيت... ليس بها سوى نافذة واحدة تطل على منور ملىء بالمهملات، وفى مواجهتها كان يسكن أحد بحارة السفن، هو «صالح العدنى»، وهو يمنى يحمل الجنسية الانجليزية بحكم



محطة سيدى جابر بضواحى الإسكندرية

مولده فى ميناء «عدن» الذى كان آنذاك محمية بريطانية. وفضلا عن أنه كان معروفا فى دوائر الشرطة بأنه يمارس النصب على نطاق واسع، ويبيع سلعا مغشوشة يزعم أنه يشتريها من الموانىء التى تمر بها السفينة الانجليزية التى كان يعمل بها «عطشجيا»، فقد اتهمه «أحمد العاجز» بعد ذلك بأنه يجلب إلى البيت عددا كبيرا من الغلمان.

وحل «محمد سليمان شكير» - وهو قهوجى بـ «حى كوم بكير» مشكلة الغرفتين المتداخلتين، فاستأجرهما وانفق على طلاء حوائطهما، لكنه لم ينتقل للاقامة بهما، إذ كان يقيم فى منزل آخر مع زوجته التى تعمل «مومسا» بالحى. ولكنه كان قد استأجرهما لكى يخصصهما لرفيقته - وهى زميلة لزوجته - لم يكن قد تبقى على انتهاء مدة العقوبة التى تمضيها فى السجن - بسبب السرقة - سوى شهر واحد. وكان «شكير» فضلا عن عمله فى مجال الدعارة صاحب سجل إجرامى حافل، يتضمن عشر سوابق، سرقة وضرب، افضى إحداها إلى اصابة الضحية بعاهة مستديمة. وبسبب تلك السوابق أمضى فى السجن أربع سنوات على فترات متقطعة.

.. وربما لذلك كله، بدا بيت الجمال فى «حارة ماكوريس» - الذى عادت «سكينة» للاقامة به منذ بداية يونيو (حزيران) ١٩٢٠ - أكثر ملاءمة لكى تستأنف العصابة نشاطها فيه، بعد أن توقفت عن القتل لمدة ستة أسابيع، فى أعقاب قتل الضحية التاسعة «أنيسة محمد رضوان»، فى أول يوليو (تموز) ١٩٢٠، ليس فقط لأن جيران «سكينة» كانوا ممن لا تعنيهم أمور الاخلاق، ولا تزعجهم أنباء الجرائم، أو لأنهم كانوا لا يمضون بالبيت سوى ساعات قلائل من اليوم، ولكن - كذلك - لأن المقبرة الأصلية فى غرفة «ريا» بـ «حارة على بك الكبير» كانت قد ازدحمت بالجثث على نحو اضطرهم إلى اعادة اغلاقها مؤقتا.



وكانت الضحية العاشرة، هى أول استثناء من قاعدة اختيار الضحايا من بين النساء المتعاملات مع بيوت البغاء التى تديرها العصابة، أو من بين اللواتى تحترفنه فى نقطة البغاء الرسمية بـ «حى كوم بكير»، إذ لم تكن «سليمة ابراهيم الفقى» - وهذا هو اسمها - بغيا، بل ولم تكن تصلح - من الناحية الشكلية - لأن تكون كذلك، فقد كانت على مشارف الستين من عمرها، ولعلها كانت قد جاوزتها: قصيرة القامة، نحيفة الجسم، قمحية اللون، مع ميل إلى الاسمرار، مربعة الوجه. تعود الناس فى «حى اللبان» أن يروها دائما فى جلباب أسود، وطرحة سوداء، ومنديل أسود تعصب به جبهتها. تتنقل حافية القدمين بين الحارات والأزقة والبيوت، لكى تبيع لأصحاب الدكاكين وربات البيوت كميات قليلة من البترول تكفى لاستعمال يومين أوثلاثة، من

صفيحتين يتدليان من طرفي عصا غليظة تضعها على كتفيها وتنوء بحملها.

وكانت «سليمة» تقيم وحيدة في غرفة بالطابق الارضى بأحد منازل «حارة الغزالي»، تتخذ منها دكانا ومسكنا... إذ كانت قد ترملت منذ زمن طويل، مات عنها زوجها، وترك لها ابنا وحيدا هو «فرحات» الذي ما لبث أن مات هو الآخر وترك لها اسمه، فاصبحت تعرف بين الناس باسم «أم فرحات» ولم يكن لها في الاسكندرية، أو في الدنيا كلها سوى احفادها الثلاثة، الذين كانوا يقيمون مع أمهم في «رأس التين»، وابنة أخ واحدة هي «فاطمة دسوقي» تقيم بالقرب منها في «باب سدرة»... لكن العلاقات بين الاطراف الثلاثة لم تكن طيبة، إذ كان الابن الراحل «فرحات» يعيش - في حياته- في مسكن مستقل مع زوجته وأولاده، فلما مات - في مايو (أيار) ١٩١٩- أصرت أمه على أن تأخذ نصيبها في عربتي الكارو والحصانين وهما كل تركته، لينشأ بسببه خلاف شديد بينها وبين أرملة الابن، التي اعتبرت ذلك اعتداء على حق أولادها، خاصة وأن «أم فرحات» لم تكن في حاجة إلى ما اقتطعته من نصيب الايتام لتعيش، فلديها عمل يدر عليها دخلا، ادخرت منه، ومما ورثته عن زوجها، نقودا اشترت منها مصاغا كانت تتزين به.

وكما كان الظن بأن «أم فرحات» تكتنز أموالا سائلة، غير ما ترتديه من مصوغات، شائعا بين أهل الحارة والحارات المتجاورة، فقد كان ما تعتبره طمع أقاربها فيما تملكه، سببا في فتور العلاقة بينها وبين ارملة ابنها، وبينها وبين ابنة اخيها «فاطمة» التي كانت تصغرها بسنوات قليلة، والتي كانت تحتاج إلى معونة عمتها بين الحين والآخر، خاصة بعد أن حكم على زوجها بالاشغال الشاقة المؤبدة، لقيامه بقتل شقيقته، لكن «أم فرحات»، التي كانت شحيحة بما تملك، لم تتحمس لاعانتها إلا بالقليل.

وكان برنامج «أم فرحات» اليومي ثابتا لا يتغير، فهي تغادر منزلها في السابعة من صباح كل يوم، بعد أن تغلق باب غرفتها من الخارج بقفل... ثم تتوجه إلى دكان لبيع البترول يقع في الشارع نفسه، إلى جوار «جامع الفحام» ويملكه المعلم «سالم هيكل»، فتشترى منه صفيحتين، وتبدأ التوزيع بمقهى صغير يقع بالقرب من منزلها، وتتناول افطارها، وتشرب فنجانا من القهوة، وتدخن كرسيا من الدخان المعسل، وتتسامر - اثناء ذلك - مع صاحب المقهى «مرسي السيد صيام»، لكنها لا تطيل الجلسة، إذ كان من بين زبائنها عدد من اصحاب دكاكين كي الملابس والطرابيش والمطاعم ممن يحتاجون إلى ما توردہ لهم في الصباح المبكر من بترول ليبدأوا عمل اليوم.

فإذا ما انتهت من توزيعه عليهم، بدأ التوزيع على البيوت التي تتعامل معها، وكان معظم اصحابها من الفقراء الذين يكتفون بملء خزان الموقد مرة كل يومين أو ثلاثة، فكانت تستخدم في ذلك قمعا وكوزا من الصفيح، فإذا تبقت معها بعد ذلك كمية

من البترول. جالت بها فى الشوارع البعيدة تنادى عليها. وعند العصر- وبعد أن تنتهى من بيع ما تبقى فى الصفيحتين، تعود مرة أخرى إلى «شارع الغزالى» فتجلس أمام دكان للكفتة، يملكه أحد زبائنها، فتتناول الغداء مما يصنعه، ثم تنتقل منه إلى «مقهى مرسى» فتحتسى فنجانا آخر من القهوة، وتدخن كرسيا آخر من الدخان المعسل، ثم تبدأ جولتها لتحصيل ثمن ما باعته من أصحاب الدكاكين الذين تعودوا على تسديد ثمنه فى نهاية اليوم... ومن بعض اصحاب البيوت - من زبائنها الثابتين - الذين تعودوا على التسديد مرة كل اسبوع.

وكانت «أم فرحات» تحتفظ بنقودها - كما قالت أرملة ابنها فيما بعد - «على قلبها»... فتخفى النقود الورقية فى جورب قدم تضعه بين ثدييها، وتضع النقود المعدنية فى كيس من القماش، تربطه فى حمالة صدرها، وتخرجه بين الحين والآخر، لتدفع لزبائنها! بقية النقود أو لتضيف إليه أثمان كميات البترول القليلة التى كانت تبيعها لربات البيوت.

ولأن المكان الذى كانت تكتنز فيه نقودها، كان يعلن عن نفسه على شكل بروز ثالث فى صدرها، فإنه لم يكن مجهولا لدى أحد ممن يتعاملون معها، أو من اصدقائها، الذين تمضى سهراتها معهم، بعد أن تنتهى تماما من العمل، وتورد ثمن صفيحتى البترول إلى «المعلم سالم»، ثم تعود إلى «قهوة مرسى» لتقضى ساعة أو ساعتين، تثرثر مع اثنين من جيرانها، أحدهما يملك دكانا لبيع السجائر والدخان يقع أمام المنزل الذى تسكن فيه. والآخر عامل بمقهى يقيم فى الطابق الثانى من نفس المنزل، قبل أن تعود إلى غرفتها فتغلق بابها عليها حتى الصباح. لتبدأ دورة حياة كل يوم...

وفضلا عن هؤلاء فقد كان اقرباؤها القليلون، يعرفون أنها «صاحبة قرش ومبسوطة»، ولعلهم كانوا يبالغون فى ظنهم ازاء حرصها على الا تستجيب لطلباتهم فى الاقتراض منها بالحماس الذى يتوقعونه... ويبدو أن علاقتها بأرملة ابنها، لم تكن طيبة حتى قبل أن يغادر الابن الدنيا، وازدادت سوءا حين قاضتها لكى تحصل على نصيب من إرثه، فاقتصرت الصلة بينهما على لقاءات جافة، كانت تجمع بينهما حول قبره، فى المناسبات الدينية التى توجب التقاليد فيها زيارة المقابر، وكان آخرها صباح يوم عيد الفطر - ١٨ يونيو (حزيران)١٩٢٠- حين أخرجت «أم فرحات» كيس النقود الذى تربطه فى حمالة صدرها، وأعطت لاكبر أحفادها ربع ريال، ولأخويه الصغيرين كل واحد قرشا، كعيدية، وعلى العكس من ذلك، فقد ظلت علاقتها بابنة أخيها «فاطمة دسوقى» قوية، بحكم تقاربهما فى السن، فكانتا تتزاوران، وأتاح ذلك لجيران «أم فرحات» الذين كانوا يحبونها ويعتبرونها «أم البيت» الفرصة لكى يتعرفوا بابنة الأخ، ويعرفوا بيتها فى «باب سدرة».

وكانت «أم فرحات» جزءا من ايقاع حياة «ريا» و«سكينة» اليومى، منذ انتقلتا -

قبل عامين- للاقامة فى المنطقة المحيطة بمبنى قسم شرطة اللبان، إذ كانت حوارى «على بك الكبير» و «النجاة» و«ماكوريس» من بين المناطق التى توزع البترول على سكانها. وبذلك أتيح لهما أن تعرفاها، وتتعاملا معها، إذ كانت تمر عليهما فى الصباح، مرتين أوثلاثا فى الاسبوع لكى تملأ لكل منهما موقد البترول الذى تستخدمه فى طهى الطعام... ثم تعاود المرور عليهما - بين الحين والآخر- لكى تتقاضى المتجمد عليهما من ثمنه، وكانتا تعرفان - كغيرهما من أهل الحى - أن «أم فرحات» - على الرغم من جفاء مظهرها وقدم ملابسها ورائحة البترول التى تفوح منها - تكسب كثيرا وتنفق قليلا، وقد وصفتها «سكينة» فيما بعد، بأنها كانت «مرة عجوزة وشايبة وناشفة ومش بتاعة خبص مع الرجالة... ولكن دائما شايلة فلوسها على قلبها... وعاملين لها عب... وظاهرين»... وكان القسم الاكثر ظهورا من ثروة «أم فرحات» هو مصوغاتها التى لم تكن كثيرة أو كبيرة القيمة، إذ كانت تتكون من كردان رفيع، وحلق، وعدد من الغوايش البلاستيكية وخلخال من فردتين، كانت تحيط بهما كاحلى قدميها، لكنها كانت دليلا على أن ما تحوزه من مال، أكثر مما يدل عليه مظهرها الفقير..

والغالب أن «سكينة»، التى كانت أكثر اختلاطا بـ«أم فرحات» من الآخرين، هى التى لفتت نظر العصابة إلى أنها تصلح لكى تضاف إلى قائمة القتل، بعد أن لاحظت أن الوقت الذى تمر عليها فيه، لكى تبيع لها بضاعتها - فى حدود الساعة التاسعة صباحا- يكاد يكون الوقت الوحيد الذى يكون فيه، الطابق الأرضى من المنزل، خاليا من سكانه الآخرين، إذ يكون «صالح العدنى» قد خرج إلى عمله بالميناء، بينما تكون «سيدة» فى طريقها إلى بائع البيض، لكى تستلم حصتها، وتبدأ رحلتها لبيعها فى الشوارع.. فلا تعود إلا فى الضحى، لكى تبدأ اعداد الطعام الذى تبيعه فى مطعم الرصيف... أما «محمد سليمان شكير» فإنه لم يكن يبيت فى حجرته بالمنزل، أو يظهر فيه. إلا فى فترة القيلولة، ولا يمضى فيه إلا ساعتين أو ثلاثا، قبل أن يصعد - عند المغرب - إلى «كوم بكير» لكى يستأنف عمله فى المقهى الذى يديره هناك..

ومع أن «سكينة» قد زعمت فيما بعد، أن بقية أفراد العصابة، هم الذين اتخذوا قرار قتل «أم فرحات» بعد أن لاحظوا «الصرة اللى على قلبها»، وأنهم اختاروا منزلها مكانا للتنفيذ، لأسباب كان من أهمها - فى رأيها- أنهم أرادوا أن «يوسخوا بيتى ويشبكونى معهم عشان لا أخرج عن طوعهم»... فإن كل الشواهد تدل على إنها إن لم تكن صاحبة الخطة، فقد كانت - على الأقل - على علم بها، إذ كان يستحيل تنفيذها فى التوقيت الصحيح، من دون مشاركتها فى ذلك... وصحيح أن الحرص على توريط «سكينة» فى كل عمليات القتل، كان واضحا فى سلوك «ريا» و «حسب الله» منذ البداية، إذ كانا يعرفان من خبراتهما القديمة معها، أنها

لن تتورع عن الابلاغ عنهما، عند أى خلاف بينهـا وبينهـمـا مـا لم تكن شـريكة، بل ومتـورطة مـعـهـمـا، إلا أنه من الصـحـيح كذلك، أن «سكينة» نفسها، كان لديها دافع قوى، لكى تتحمل نصيبا أوفر من المسؤولية عن العمليات، بعد أن لاحظت أن الآخرين دأبوا على اخـفـاء الخطط عنهـا، وعلى التعامل معها باعتبارها عنصرا غير فاعل وغير مؤثر، وغير محل للثقة، ويتخذوا من ذلك كله ذريعة لهضم حقوقها، وتقليص نصيبها..

والحقيقة أن وقائع مقتل «أم فرحات» - كما روتها «سكينة» نفسـهـا- تكشف بوضوح، عن أنه كان يستحيل تنفيذ العملية من دون مشاركتها فى وضع الخطة.

ففى السابعة من صباح يوم الاربعاء ١٨ أغسطس (آب) ١٩٢٠، وكعادتها كل صباح، خـرجت «أم فـرحـات» من باب منزلهـا فى «حـارة الغزالى» وتوجهت إلى دكان «المعلم سـالم هيكل»، وعـادت بالصـفـيحـتين إلى «مـقـهى مـرسى» لتتناول افطارها وفنجان القهوة وكرسى الدخان، ثم بدأت فى توزيع البترول على المطاعم والمقاهى التى تتعامل مـعـهـا إلى أن انتـهت من ذلك، فـبـدأت التـوزيع على سكان البـيـوت.... وفى التـاسـعـة...إلا دقـائق، دلفت إلى «حـارة مـاكوريس»، ولم يثر ذلك - لعاديته- انتباه أحـد، إلا «عـرابى» و«حـسب الله» اللذين كانا يجلسان على مقهى «زكيـة جعفر» - فى مـواجـهـة المنزل رقم ٥ - فـمـا كـادا يريانها، حتى تركا المقهى على الفور، إلى غـرفـة «سكينة» فى أقـصى الجنوب الغربى... وكمنا بداخلها... وبعـد دقـائق عبرت «أم فرحات» المدخل الرئيسى للبيت، وصـعـدت إلى الطابق الأعلى عـبـر السلم الذى يقع فى الفناء الخـارجى، فـمـلأت للساكنة اليونانية الموقد، وعلبة صغيرة من الصفيح، ثم هبطت مرة أخرى، لتقف على مدخل باب الطابق الأول، فتصيح:

- انت عـاوزة جـاز النهـارده يا «سكينة»؟!

ولما أجـابتـهـا بالايجـاب، تقـدمت نحـو غرفتها، لتفاجأ بوجود «عرابى » الذى كان يجلس فوق صندوق الملابس و«حسب الله» الذى كان يجلس تحت قدميه، يصنع قهوة على مـوقـد صـغـيـر يعـمل بالكحـول.... وناولتـهـا «سكينة» الموقـد الآخـر، وطلبت إليـهـا أن تملأه إلى أن تعـود إليـهـا... وفى ثوان كانت قد اختفت من أمامها.... وقال «حسب الله».

- ما تيجى تشربى قهوة؟!

وعاتبته «أم فرحات» قائلة:

- قهوتك المشروبة؟!

فقال لها:

- تعـالى لغاية «سكينة» مـا تجـيب لك الفلوس من فوق؟

وكانت المرأة قد انتهت من وضع نصف لتر من البترول فى الموقد، فدخلت به إلى عـمق الغـرفـة، وانحنت تضـعـه فى مكانه المعهود بين الصندوق والصندرة، وما كادت ترفع قامتها حتى تبادل الرجلان النظرات، وانقضـا عليـهـا فى نفس اللحظة فـأطبق «حسب الله» على قدميها بكفيه، ليشل

حركتها، فى الوقت الذى كان فيه منديل «عرابى» المبلل بالماء، يطبق على فمها وانفها، ولم يستغرق الأمر سوى دقيقتين، إذ كانت المرأة، فضلا عن تقدم سنها، ضئيلة الجسم فلم تقاوم... ولم تتحمل.

وهبطت «سكينة» من الطابق العلوى، بعد أن شغلت جارتها اليونانية بالبحث عن ابرة وابور الجاز التى زعمت أنها جاءت لتقترضها منها، لكيلا تلاحظ شيئا مما يجرى حولها... فوجدت «ريا» تدخل من باب البيت الرئيسى... طبقا لموعد كان متفقا عليه، إذ لم تكادا تدلفان إلى الغرفة، حتى وجدتا «عرابى» يقطع الكيس الذى كانت المرأة العجوز تحتفظ فيه بثروتها، وتربطه بحمالة صدرها، وكانت رائحة الجاز تشع منه، حين أفرغوا مافيه، واشتركوا فى احصائه، فى حضور كل الاطراف المعنية، ليكتشفوا مدى المبالغة فيما كان يردده الناس من ثراء المرأة، إذ لم تكن مفردات ما تكتنزه فوق قلبها، تزيد على ورقتين من فئة الخمسة جنيهات، وورقتين من فئة الجنيه، واربعة ريالات من الفضة، ثم خمسة عشر قرشا هى مجموع قيمة عشرات القطع المعدنية الصغيرة من فئة المليم والنكلة... فضلا عن الحلق الذى اشتراه «على الصائغ» بتسعة ريالات والخلخال الذى قالت «سكينة» أنه اشتراه بثمانية ريالات، ومع أن فيه - كما قالت - أقة فضة !!، وهكذا اتضح أن قيمة «كنز أم فرحات» - التى بالغت الاقاويل إلى حد القول بأنه يزيد على مائة جنيه - هى خمسة عشر جنيها ، وخمسة وخمسين قرشا، فقدت من أجلهم حياتها.

ويلفت النظر فى احصاء «سكينة» للغنيمة، أنها تجاهلت ذكر ثمن بيع الكردان الذى كانت الضحية تضعه فى عنقها عند اختفائها، وأنها قدرت نصيبها بثلاثة جنيهات ونصف فقط، وهو ما لايستقيم مع اصرارها - فى مرحلة متقدمة من اعترافاتها - على اتهام رفيقها «سلامة خضر» بأنه كان شريكا فى قتل «أم عرفات» وحدها وأنه لم يشترك فى قتل غيرها مع أن علاقته بها ظلت قائمة، ومع أن الغرفة التى كان يقيم فيها، قد شهدت عمليتى قتل أخريين بعد مقتل الضحية العاشرة ودفنها فيها.

وطبقا لما ذكرته، فإن «سلامة» كان بالغرفة حين نادت عليها «أم فرحات» تسألها عما إذا كانت فى حاجة إليها، إذ كان قد استيقظ من النوم ليجد «حسب الله» و«عرابى» فوق رأسه، فنهض ليرحب بهما، وجلس إلى جوار الثانى على الصندرة، لكنه لم يكن يعرف قبلها شيئا عن نيتهما، وحين فوجىء بانقضاضهما على المرأة، لم يستطع أن يتدخل، إذ لم يكن قد تخلص بعد من آثار النوم، وظل جامدا فى مكانه، إلى أن بدأ احصاء الكنز، فانضم إليهم وأخذ نصيبه منه... ثم اشترك معهم فى حفر قبر لها فى أرضية الغرفة، تحت النافذة التى تطل على المنور المهجور...

وفضلا عن أن الواقعة تدخل فى سياق زعم «سكينة» نفسها، بأنها لم تكن تعلم شيئا عن خطة قتل «أم فرحات» وتبدو

مثلها غير معقولة، إذ لم يكن منطقيا أن يقوم «عرابى» و«حسب الله» بقتل امرأة، أمام «سلامة» من دون أن يضعها فى اعتبارهما، أنه قد يقوم بفضحهما، أو الابلاغ عنهما، إن لم يكن اثناء التنفيذ، ففى اعقابه، فقد تمسك «سلامة» باصرار لا يلين على انكاره فى كل أدوار التحقيق، لكن ذلك لا ينفى أن هناك شواهد تؤكد بأن الواقعة ليست مخترعة من الاساس، أما الحقيقة المتيقن منها، فهو أن «سلامة» كان على وشك أن يفضح سر العصابة، حين قررت فى اليوم التالى، أن تقوم بعمل غير مسبوق، وأن تنفذ عمليتى قتل فى يومين متتالين.



فى تلك السنة، كانت الضحية الحادية عشرة «نبوية بنت على» فى الخامسة والاربعين من عمرها، امرأة قمحية اللون، متوسطة الجسم والقامة، مع ميل للنحافة. وكانت نموذجا شائعا بين جارات «سكينة» اللواتى يقمن فى الأزقة المتفرعة من حارة «ماكوريس» منذ حطت رحالها بها قبل عامين، قادمة من دمنهور التى كانت تعمل مومسا بحى البغاء بها، لتواصل نفس العمل بـ «حى كوم بكير» وتفتح مقهى به.

وكانت «سكينة» قد تعرفت إليها، خلال الفترة الاولى التى أقامت فيها بالحارة، مع زوجها - آنذاك - «محمد عبد العال»، بحكم الجيرة أولا، وبحكم الاشتراك فى المهنة ثانيا، إذ لجأت إليها لتستعين بخبرتها... وعلاقاتها فى ادارة المقهى، الذى افتتحته فى تلك الفترة ثم اضطرت لاغلاقه بعد شهور... وحين عادت لتقيم فى الحارة، كانت تلتقى بها كثيرا على المقهى المقابل للمنزل الذى تسكن به، إذ كانت صاحبته «زكية جعفر» صديقة حميمة لها.

وفى عيد الفطر - ١٨ يونيو (حزيران) ١٩٢٠ - استخارت «نبوية بنت على» الله، وقررت أن تقدم على خطوة كانت تفكر فيها منذ زمن طويل، فتعتزل المهنة، وتتوب إلى الله عن الخطيئة، وتتزوج وتعيش فى الحلال، ووجدت رجلا طيبا يشجعها على ذلك، ويقبل الزواج منها على الرغم من مهنتها، أملا فى الجزاء الذى يثيب به الله من يشجعون الخطاة من عباده على التوبة عن خطاياهم، وكان «حسن الشناوى» - وهذا هو اسمه - يكبرها بأكثر من خمس سنوات، ويعمل فلاحا فى حديقة للفاكهة والخضروات، يملكها أحد الاثرياء بـ «حى القبارى»، ويقيم فى كشك بأحد اركانها... فلما تزوج من «نبوية» - بعد عيد الفطر بأيام - انتقل للاقامة معها، بالغرفة التى تستأجرها بأحد الازقة المتفرعة من «حارة ماكوريس».

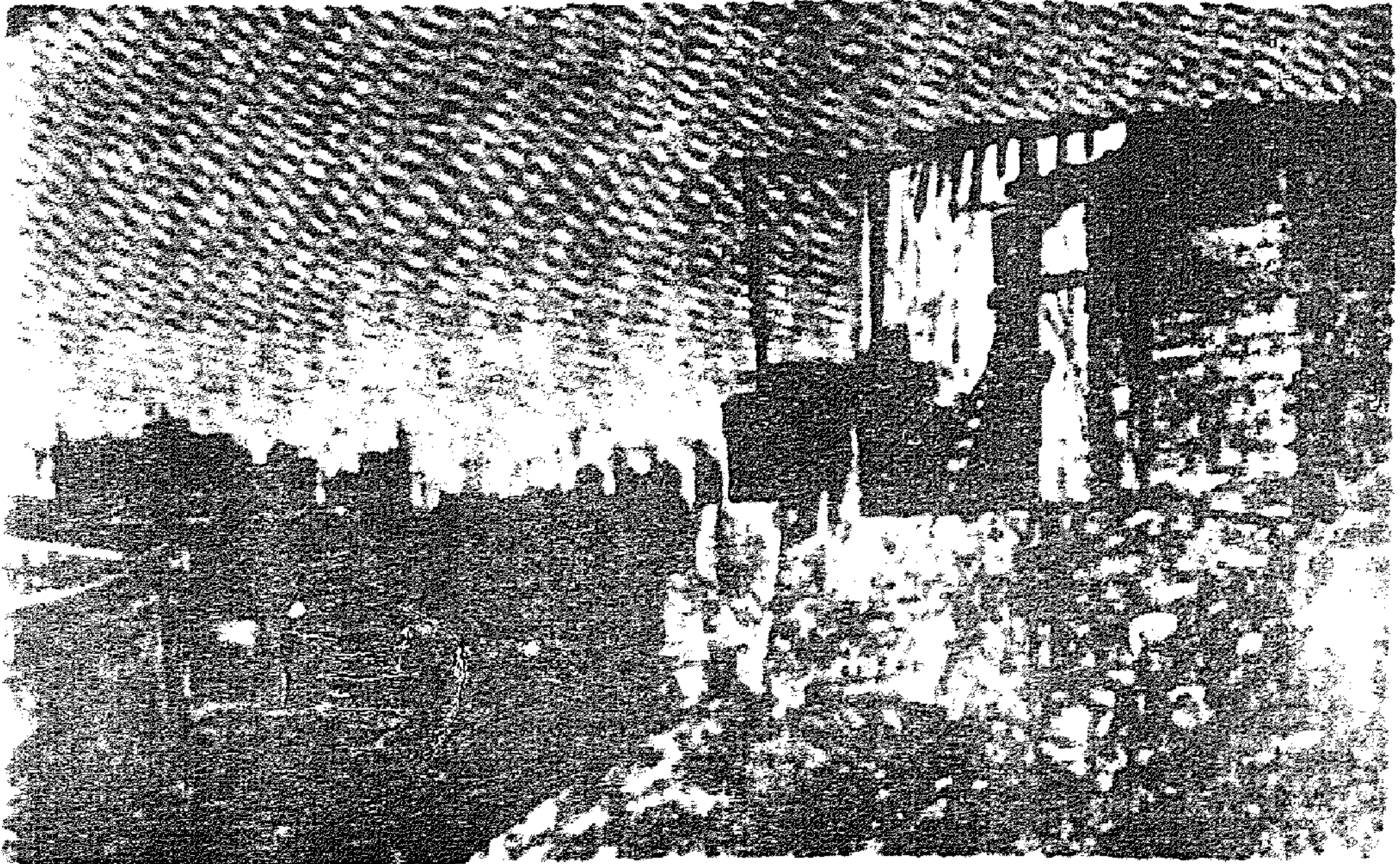
ولم يقم الزوجان بأى طقوس للاحتفال بزواجهما، فيما عدا جلباب جديد، اصطحبت «نبوية» معها صديقتها «زكية» لتساعدها فى اختيار لونه، فاختارتاه من

قماش الفوال الاسود الخفيف، المزين بنقوش بيضاء، وزينته الخياطة التى قامت بتفصيله بزخارف من القطيفة المضلعة البيضاء، عند الصدر وتحت الحزام.

ولم يغير الزواج من ايقاع حياة الزوجين، إذ كان «حسن الشناوى» يغادر المنزل فى الصباح المبكر إلى الحديقة التى يعمل بها، فلا يعود إلا بعد العشاء... ولأن «نبوية» - على الرغم من توبتها - لم تكن تستطيع بعد، أن تستغنى عن الايراد الذى يدره عليها المقهى المتواضع الذى كانت تديره بـ «حى كوم بكير»... فقد واصلت العمل به، وان كانت قد أوقفت نشاطها فى مجال البغاء، والغت فترة العمل الليلية، فكانت تغلقه قبل الغروب، وتهبط إلى بيتها. لتعد لزوجها طعام العشاء...

وكان نجاح اسلوب القتل الخاطف الذى اتبع مع «بائعة الجاز» هو الذى أغرى العصابة بأن تكرره فى نفس المكان، وفى اليوم التالى مباشرة. بل إن خطته ولدت بينما كانت «ريا» و«سكينة» فى طريق عودتهما من الصاغة، بعد أن باعتا مصاغ «أم فرحات»، حين ذكرت «سكينة» لشقيقتها - فى حديث عابر - ولكن بعبارات موحية، بأنها قد اتفقت مع «نبوية بنت على» على أن تمر عليها فى اليوم التالى - بعد نزولها من «كوم بكير» - لكى تكسّر لها على ظهرها وصدرها، بسبب اصابتها بلفحة برد.. فلم تعلق «ريا» على الخبر الذى كان محملا بايحاءات لم تفت على ذكائها اللماح، وبرموز متفق عليها فى التعامل بينها وبين شقيقتها «ريا» أما وقد فهمت أن «سكينة» ترشح «نبوية» للقتل، فقد بدأت سلسلة من الاسئلة، بدا الهدف

حى القبارى كما كان يبدو.. إبان الحملة الإنجليزية على مصر عام ١٨٨٢



الظاهر منها، هو مجرد المسامرة... لكن الطرفين كانا يعلمان، أنها تدور حول قيمة الغنيمة المتوقعة من العملية، ونسبة الأمان التى يمكن ضمانها اثناء التنفيذ... وخاصة الوقت الذى يغادر فيه «شكير» المنزل بعد القيلولة، والوقت الذى تترك فيه «زكية جعفر» مقهاها، لتطوف بأبريق الشاى وصينية الاكواب على العاملين بالنوبة الليلة فى قسم شرطة اللبان...

وقبل غروب شمس اليوم التالى - الاربعاء ١٨ اغسطس (آب) ١٩٢٠ - انتظرت «سكينة» حتى غادر «شكير» المنزل، وغادرت زكية المقهى فى طريقها إلى القسم، ثم توجهت إلى بيت «نبوية» القريب، فذكرتها بالموعد لكنها لم تنتظرها حتى تصطحبها معها، خشية أن يراهما أحد فى الطريق معا.

وكان «حسب الله» و«عرابى» يجلسان على الطوار أمام «خمارة كرياكو» فى مكان أتاح لهما رؤية شاملة لمسرح العمليات... وبعد مضى عدة دقائق على دخول «نبوية» البيت، تسللا إليه واحدا بعد الآخر، وكانت «سكينة» تنام على بطنها، وقد عرت ظهرها، بينما وقفت «نبوية» إلى جوارها تشعل قطعة من الورق، فتضعها داخل كوب فارغ، تضغط فوهته على أماكن متفرقة من جسد مريضتها، وتتركه لفترة، حتى تحرق النار ما به من هواء، فيستعيض عنه بهواء يشفطه من جسد المريضة، حين دفع الاثنان باب الغرفة فجأة، وتظاهرا بالدهشة لما كان يجرى بها... وغطت «نبوية» وجهها بطرف الطرحة التى كانت تضعها على رأسها، واسدلت «سكينة» جلبابها على جسدها العارى، وقامت نصف قومة، وهى تقول موضحة:

- دى بتعمل لى كاسات هوا.

واعتذر «حسب الله» - الذى كان سكرانا - بأنه جاء يبحث عن زوجته... وعاتب «نبوية» قائلا:

- أنا شارب كاسين كونياك ونفسى فى كاسين هوا.. ما تيجى تكسرى لى على ضهرى..

وشوحت المرأة فى وجهه بكفها مهددة بابلاغ «ريا»... فغادر الغرفة مع صديقه، بعد أن عاينا مكان التنفيذ، لكنهما كمنا إلى جوار بابها فى الظلام، ولم تكن قد مرت سوى ثوان، دفعاه بعدها وقبل أن تتنبه «نبوية» إلى ما يجرى، كان أحد الرجلين يقبض على كاحلى قدميها، وكان الآخر يكتم انفاسها...

ولولا أن «سكينة» لم تكن تطيق مشاهدة التنفيذ، مما اضطرها إلى الهرب من الغرفة، لافتضح الأمر أمام «سلامة» الذى كان يدلف فى تلك اللحظة تحديدا من باب البيت الرئيسى، متقدما عن الموعد الذى كان يظهر فيه عادة، بحوالى ساعتين، فأدركته قبل أن يتقدم فى الصالة، وتمالكت نفسها لتقول له بسرعة، أن أختها معها فى الغرفة، وأن عليه أن ينتظرها بـ «خمارة كرياكو» وسوف تلحق به بعد أن تتخلص منها... ولكنها لم تستطع أن تلحق به إلا بعد أن انتهى الدفن. وكان وجوده بالقرب من المكان مبررا للتعجل بدفن

«نبـوية» فى نفس المكان الذى دفنت به «أم فـرحـات» ومن دون تعـمق فى الحـفـر... اخـتـصـارا للوقت... وكان ذلك هو الخطأ المميت الذى لولاه... لما افتضح - بعد ذلك التاريخ بثلاثة شهور - سر عصابة رجال «ريا» و«سكينة».

ولم تكن قيمة الغنيمة التى خرجت بها العصابة من مقـتل «نبوية بنت على» يزيد كثيرا عن قيمة الغنيمة التى خرجت بها من مقتل «أم فرحات» ، فقد كانت تتزين بأربع غوايش عريضة وكردان رفيع وحلق وخاتم، كلها من الذهب، اشتراها جميعا «على الصايغ» بخمسة عشر جنيها....

ولم يثر اختفاء الاثنتين ضجة أكثر من المعتاد، لكنه لم يمض من دون أثر..

فقد مضت ثلاثة أيام لم تظهر فيها «أم فرحات» فى «حارة الغزالى» ولم تمر على زبائنها، ولم تعد إلى «المعلم سالم» كعادتها كل يوم منذ أربع سنوات، ولما لاحظت احدى جاراتها أن القفل الذى تغلق به الغرفة لم يغادر مكانه من الباب... قلقت على غيابها، وتوجهت على الفور إلى «باب سدرة» ظنا منها بأن المرأة ربما تكون قد اصيبت بمرض، وفضلت أن تقيم بمنزل ابنة شقيقتها لترعاها. وعندما علمت «فاطمة دسوقى» بالامر، اهتمت به، وقدمت بلاغا بغيابها إلى قسم شرطة اللبان، واضافت فى أقوالها أن عمتها كانت تملك ثروة تقدر بـ «نحو مائة جنيه... ومصاغ»، ومع أنها نفت احتمال أن تكون قد سافرت إلى الارياف، قائلة بأنه لا أحد لها هناك، فإنها لم تشكك فى أن وراء غيابها جريمة، وقالت «دى مرة مسكينة ومالهاش عدوين... وزى النسمة»...

واستمع المساعد «الصول» «محمد عبد العليم» - الذى كان يحقق فى البلاغ- إلى اقوال جيران «أم فرحات»، فلم يضيفوا كثيرا إلى أقوال ابنة الاخ... ثم اصطحبها معه إلى غرفة الغائبة، فوجدها مغلقة بالقفل، وفتحها عنوة، وفتشها، فلم يجد بها سوى كنبة خشبية عليها مرتبة من بقايا قطع القماش وصندوق صغير فوقه بعض الادوات المنزلية، وعددا من صفائح البترول الفارغة... ولم يجد أى أثر للعبث بمحتويات الغرفة، أو مايدل على اسباب الغياب، فاستحضر نجارا، وقام باغلاق الباب بقطعتين من الخشب، وختم عليه بالشمع الاحمر بخاتم المخبر «محمد زيان» الذى صاحبه فى المهمة... واحيلت الاوراق إلى «نيابة اللبان» التى أمرت - فى ٥ سبتمبر (ايلول) ١٩٢٠ - بحفظ البلاغ اداريا...

لكن الابلاغ عن غياب «نبوية بنت على» تأخر لمدة ثلاثة اسابيع.. وكان زوجها «حسن الشناوى» قد عاد من عمله فى اليوم الذى قتلت فيه، وأخذ يدق باب الغرفة، فلما لم تفتح له الباب، غلب على ظنه أنها ستمضى الليلة لدى احدى صديقاتها، فعاد مرة أخرى إلى «القبارى» لينام فى الكشك الذى خصصه صاحب الحديقة له، لكى يبيت فيه...

وعندما تكرر الأمر فى اليوم التالى، وعرف من الجيران أنها خرجت ولم تعد، أخذ يبحث عنها فى «حى كوم بكير» حيث كانت تعمل، فلما لم يجدها أيقن - كما قال فيما بعد - أنها ربما تكون «قد طفشت منه، وتابت عن توبتها، وعادت مرة أخرى لتندمج فى المومسات».

وكانت «سكينة» - الحادة الذكاء - هى أول من لفت نظر صديقتهما المشتركة «زكية بنت جعفر» إلى غياب «نبوية»، حين سألتها عنها فى صباح اليوم التالى لمقتلها... فلما ردت عليها قائلة بأنها لم ترها، من دون أن تضيف إلى ذلك كلمة... اطمأنت إلى أنها لم تعرف شيئا عن الموعد الذى كان متفقا عليه بينها وبين المرأة الغائبة... وأنها لم تلاحظ أو تسمع شيئا عن دخولها إلى منزلها...

على أن ذكاءها قد خانها حين ظهرت - بعد اسبوع من ذلك - على باب منزلها وهى ترتدى الجلباب الاسود المبرقش ببقع بيضاء، فلفت ذلك نظر «زكية» التى سألتها بمكرعن المكان الذى اشترت منه قماشه، فزعمت لها بأنه جلباب قديم اشترته، منذ أكثر من سنة من مكان لا تذكره... وحين جابهتها «زكية» بالحقيقة قائلة بأنه جلباب «نبوية» الذى تعرفه، لم تنكر ولم ترتبك، بل قالت ببساطة أنها قد بادلتها عليه.. وشككت «زكية» فى صحة ذلك قائلة:

ـ تبادلك ازاى؟ دى جديدة!!.

فقالت «سكينة» بنفس البساطة:

ـ بكره ترجع.... وبيان الجمل والجمال!

ولولا أن شقيقة «نبوية» جاءت لزيارتها بعد اسبوعين من غيابها، لما تنبه أحد إلى ذلك الغياب، إذ كانت صديقتها «زكية» تتوهم أنها ربما تكون قد انتقلت للاقامة مع زوجها فى مقر اقامته بالحديقة التى يعمل بها بينما كان زوجها يظن أنها قد طفشت منه لتقيم لدى شقيقتها، أو عادت إلى دمنهور، فلما التقى الثلاثة فى مقهى «زكية» اكتشفوا الحقيقة، فقدم الزوج - فى ٣ سبتمبر (ايلول) ١٩٢٠، وبعد ثلاثة اسابيع من غيابها - بلاغا إلى محافظ الاسكندرية قال فى مقدمته «أحيط شريف سعادتكم أنه يوجد حرمة تدعى نبوية بنت على.... كانت سابقا قهوجية بدمنهور... وحضرت للاسكندرية ومكثت بين النسوة العاهرات بصفة قهوجية ايضا... وقد حصل لى القسمة بزواجها بعدما تابت عن الوعد، «ثم روى قصة اختفائها، وختم البلاغ مطالبا المحافظ بأن يصدر أمره بالبحث عنها «حيث لم يعلم لى إذا كانت الآن على قيد الحياة.. أو فقدت الوجود».

وأحيل البلاغ كالعادة، إلى قسم شرطة اللبان... وربما تكون اقوال الزوج، أهم الاسباب التى دفعت الشرطة المحلية إلى التعامل بالاهمال نفسه الذى تعاملت به مع غيره، إذ كان «حسن الشناوى» مقتنعا تماما بأن «نبوية» قد هربت لتعود إلى ممارسة مهنتها فى مكان لا يعرفه... وقد ذكر فى أقواله أنها كانت تكثر فى الايام السابقة على غيابها من تكرار عبارة «أنا

عايزة أغير هوا» ... وحين سأله المحقق «هل تعلم أنه كان لها رفيق منذ كانت تعمل بين العاهرات؟» قال «طبعا.. كان لها رفيق... ولا أعرف من هو».... وبذلك حصر شكوك رجال الشرطة فى النطاق الذى يعطيهم ذريعة للتخلص من البلاغ بحفظه، إذ كانوا مكدودين باعمال لا تترك لهم وقتا للبحث عن عاهرة تزوجت، ثم هجرت زوجها لتعود إلى رفيقها.

وهكذا مضت عمليتا قتل الضحيتين العاشرة والحادية عشرة من دون أن تثير مزيدا من الشبهات حول العصابة، فيما عدا واقعتى التسرع فى دفن «نبوية» من دون تعمق فى الحفر.. وظهور «سكينة» بجلبابها أمام صديقتهما المشتركة «زكية»، وهما واقعتان سيكون لهما أثر كبير فيما بعد.

وفى هذا السياق نفسه، جاءت واقعة المشادة الكلامية العنيفة بين «حسب الله» و«سلامة»، التى جرت فى بداية شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠ وبعد اسبوعين من مقتل بائعة الجاز... وبسبب الخلافات حول نصيب «سلامة » فى تركتها.

وطبقا لأقوال «سكينة» فإن «سلامة» كان قد حصل على نصيب من تركة «أم فرحات» من دون أن يقوم بدور فى سحبها أو قتلها أو دفنها. ولكن فى مقابل كتمانه لما دار أمامه. وأنه اشترى بهذا النصيب قفطانا من الغزل، إلا أنه عاد بعد أيام لكى يثير مشكلة حول عدالة التوزيع، مطالبا «حسب الله» بأن يدفع له مبلغا إضافيا. وفضلا عن أنها قد كذبت جانبا من هذه الرواية حين ذكرت فى موقع آخر من أقوالها بأنها هى التى اشترت له القفطان الغزلى من نقودها، ضمن الكثير الذى كانت تنفقه على طعامه وشرابه وكيوفه، باعتباره رفيقها الذى يعيش على حسابها. فإن الجوانب الأخرى منها، تبدو غير منطقية، إذ لو كان «سلامة» قد رأى عملية قتل بائعة الجاز وحصل على نصيبه من تركتها، لما كان هناك مبرر لعدم مشاركته فى قتل النساء التاليات اللواتى قتلتهن العصابة، خاصة وأن قوتها البشرية كانت قد نقصت بسبب سفر «محمد عبدالعال» ولما كان هناك مبرر لقيام «سكينة» بإبعاده عن البيت، حين وصل إليه فى اللحظة التى كان يجرى فيها قتل «نبوية» .

والغالب أن «سلامة» كان قد عرف شيئا ما، وربما يكون قد استنتجه من هذيان «سكينة» وهى تحت تأثير الخمر، لكنه لم يعرفه بكل تفاصيله، إذ لم تكن «سكينة» -على الرغم من إفراطها فى شرب الخمر- من النوع الذى يفقد - تماما- كل سيطرة له على لسانه..

والأرجح أن ما عرفه كان يدور فى إطار أن المسألة لا تخرج عن كونها قضية سرقة، حصل على نصيبه منها، مقابل تكتمه عليها، ثم عنّ له أن يطالب بإعادة تقييم الأنصبة، فلما فاتح «حسب الله» فى الموضوع، أحاله على «عرابى» متذرعا بأن حسابه معه، وحين ضاق بمماطلاتهما، احتد على «حسب الله» ذات ليلة كانا

يسكران فيها معا فى إحدى خمارات العطارين، وتدخل آخرون من السكارى، الذين كانوا يحيطون بهما فى المناقشة التى تحولت بسرعة إلى مشاجرة بين «حسب الله» وبينهم.

وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلا، حين وقفت إحدى عربات الحانطور أمام بيت «ريا» بـ «حارة على بك الكبير» لينزل منها «سلامة» وهو يحمل «حسب الله» على كتفه، ليقول لها:

– خدى جوزك كانوا ح يموتوه فى العطارين.

وكان النوبيون الذين يشاركونهما السكن فى الطابق الأرضى من البيت، يقيمون فى تلك الليلة «حضرة ذكر»، وشاهد كل الذين كانوا قد احتشدوا للمشاركة فيه «حسب الله» وهو يدخل محمولا على كتف «سلامة». لكنه ما كاد يستقر فى غرفته، حتى أفاق من سكره، ليلح على «سلامة» بالبقاء معه قليلا. لكى يشرب معه كأسا آخر، تقديرا منه لشهامته، ودفاعه عنه، ضد المتطفلين الذين تدخلوا فى المناقشة بينهما، وأرادوا الاعتداء عليه، فقبل «سلامة» الدعوة، وبعد قليل من عودة «بديعة» بزجاجة الكونياك، التى أرسلها أبوها لشرائها، استأنف الرجلان العتاب، وما لبثت العاصفة أن اشتعلت من جديد فارتفعت أصواتهما حتى علت على أصوات الذاكرين العالية، وفقد «سلامة» السيطرة على نفسه، ففلتت منه عبارات كان من حسن الحظ أن أحدا لم يتبينها، وإلا لافتضح كل شىء.

وكان «حسب الله» يحاول كتم فمه، لكى لا يواصل الكلام، حين أطل أحد الجيران محاولا أن يصلح ذات الأمر بينهما، وفى تلك اللحظة فقط، تنبه الاثنان إلى خطورة ما كانا يتلفظان به، وأثارهما تدخل الرجل، وظنا أنه ربما يكون قد سمع شيئا وأرادا أن يوهماه بأنهما كانا يمزحان معا، فانهالا عليه ضربا. وحين تدخل الآخرون للفصل فيما بينهم، طاحا فيهم، وتعالت صرخات النساء.

وبعد قليل كان خفراء الليل يقودون الجميع إلى قسم شرطة اللبان.

أما وقد طارت السكرة. وجاءت الفكرة، فقد اتفق الاثنان أثناء انتظارهما للإدلاء بأقوالهما، على قصة روياها بعد ذلك فى محضر التحقيق، إذ زعم «سلامة محمد خضر» أن اسمه هو «محمد عبد العال» وأنه عديل «حسب الله» وأن زوجته «سكينة» قد غضبت منه، وتركت بيت الزوجية إلى منزل شقيقتها «ريا» وأنه ذهب لكى يستعيدها، فاحتدمت المناقشة بينه وبين زوج شقيقتها، وتطورت إلى مشادة، تدخل فيها الجيران، فوقع اشتباك بين الجميع، أسفر عن اعتداء الجيران عليه، وعلى عديله.

وأيده «حسب الله» فى زعمه أن اسمه هو «محمد عبدالعال» وأنه زوج شقيقة زوجته، وصادق على بقية تفاصيل القصة. ولأن الذين أصيبوا فى المشاجرة، كانوا من الجيران، فقد أسرعت «سكينة» إلى شيخ الحارة، تطلب منه أن يضمن «زوجها» وزوج شقيقتها، لكى يفرج عنهما، إلى أن تقدم

القضية للمحكمة. وعندما اكتشف الشيخ أن الرجل الذى طلبت منه أن يضمنه ليس زوجها، ولكنه رفيقها، جابهها بذلك. فتوسلت إليه، ألا يذكر تلك الحقيقة، حتى لا تقحم فى القضية، فتحال إلى مستشفى المومسات. لكى يكشف عليها طبيا، لضمان خلوها من الأمراض السرية. وغمزته بنصف ريال قائلة له:

- أستر علىّ.. الله يستر عليك.

وستر عليها شيخ الحارة..

وبعد أيام حكمت محكمة اللبان الجزئية بتغريم كل من «سلامة» و«حسب الله» خمسين قرشا، بتهمة الاعتداء على الجيران، فاضطرت «سكينة» -التى كانت مفلسة آنذاك- إلى اقتراض المبلغ من «الخواجا كرياكو» لكى تدفع نصيب «سلامة» من الغرامة، ورهنت لديه مقابل ذلك «وابور الجاز» الذى كانت تملكه.

ولما عجزت عن دفع القرض فى الأجل المحدد انتقلت ملكية الوابور إلى الخمارة.

ولم يتبق من ذيول ذلك كله، سوى أمر واحد كانت له خطورته البالغة فيما بعد، هى الأوراق الرسمية التى تضم بصمة «سلامة» بصفته زوجا لـ«سكينة». ومن بينها محاضر الشرطة. وصحيفة الحالة الجنائية التى استخرجت له باعتبار أن اسمه هو «محمد عبدالعال». وتستعيض عن الصورة الفوتوغرافية له، التى لم تكن تستخدم آنذاك فى مثل هذه الصحائف، بتسجيل الوشم الذى وجد منه على ظاهر كفه اليسرى ما يختلف تماما عما كان معروفا عن «محمد عبدالعال» الحقيقى، الذى كان ظاهر كف يده اليسرى يخلو من أى وشم.



وكان البحث عن «أم فرحات» قد كف أو كاد. حين أخذ الجميع فى الحارات المحيطة بقسم شرطة اللبان، يتبادلون خبرا مثيرا. هو العثور على جثتها فى مكان لا يبعُد عن مسكنها إلا بعدّة مئات من الأمتار هو الخرابة التى تتوسط شارع «الواسطى» وتصل بين شارعى «الفراهدة» و«أبى الدرداء».

وكانت الخرابة فى الأصل منزلا صغيرا، انهار وعجز أصحابه عن إعادة بنائه، فاكتفوا بإزالة أنقاضه، وسوروا الأرض بألواح من صفائح الزنك، حتى لا يستولى عليها أحد. لكن وجود تلك الأسوار، أغرى بقية سكان الشارع وأصحاب الورش، والدكاكين بالمنطقة، على إزالة جزء منها، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت الأرض الخالية تقوم بوظيفتى مقلب لقمامة ومخلفات ما يحيط بها من ورش ودكاكين وبيوت. ومرحاض عمومى للمترددين عليهم، وللعابرين بكل الشوارع التى تحيط بها. وكان الاستعمال الأخير، هو الذى أغرى «حمامة» -وهو غلام صغير فى الثانية عشرة من عمره يعمل صبيا فى ورشة نجارة تقع بالشارع- بأن يدلف إليها، وهو فى طريقه إلى عمله -فى السابعة من

صباح يوم السبت ١١ سبتمبر (ايلول) ١٩٢٠- لكى يزيل ضرورة لم يستطع الصبر عليها.

ولم تثر الرائحة الكريهة التى كانت تتصاعد من الخرابة دهشته، ولم يلتفت فى البداية إلى أنها قد تكاثفت أكثر مما تعود فى المرات السابقة التى كان يلم بها فيها. وكان يجلس القرفصاء وأمامه طشت غسيل قديم من الصاج الصدىء حين خيل إليه أن الرائحة النتنة التى يشمها تتصاعد من أمامه، فرفعه بقطعة من الخشب وجدها تحت قدميه، ليفاجأ بأنه أمام بقايا رأس آدمية، وبينما هو يتأمل فيها بذهول، دخلت إلى الخرابة، من مدخلها المطل على شارع «أبى الدرداء» فتاتان تقودان سربا من المعيز، دخلتا به إليها لكى يقتات من نفايات الخضروات التى يلقيها السكان. ولأنهما كانتا أكبر منه، فقد أدركتا على الفور بأنهم أمام جثة بشرية. أو بالتحديد أمام جثة امرأة، إذ كانت الجمجمة تلتصق بشعر طويل أشارتا إلى أجزاء أخرى من اللحم الملتصق بهيكلها العظمى.

وعندما عاد «حمامة» -بعد دقائق قليلة - بـ «محمد اسماعيل» - شرطى الدرك بشارع الدرداء- لم يجد الفتاتين اللتين آثرتا فى الغالب ألا تقحما نفسيهما فى الموضوع. وفى التاسعة والنصف صباحا وصل اليوزباشى . النقيب . «إبراهيم حمدى» - نائب مأمور «قسم شرطة اللبان» - إلى الخرابة، ليجد زحاما من البشر يملؤها، وطبقا لما دونه بعد ذلك فى محضره، فقد وجد الجثة عبارة عن «بقايا هيكل عظمى لجثة امرأة، بدليل وجود شعر طويل بعظام الجمجمة وجميع أعضاء الجسم منفصلة عن بعضها. ولم يكن بالعظام شىء من اللحم سوى القليل جدا. رغم أن بعض أجزاء الجسم مفقودة. والجثة موضوعة فى ورق أصفر من النوع المعد للف البقول. وبجانبها طرحة شاش سوداء وعراقة -أى حمالة صدر- تيل أصفر مقلمة بأسود. وفردة شراب سوداء مقلمة بأبيض، وأخرى بنى. والأعضاء مطوية على بعضها، وغير ظاهر من الجسم شىء بالمرة، يمكن الاستدلال منه على شىء. لتآكل اللحم».

وخلال الساعات الاربع، التى فصلت بين اكتشاف الجثة. ووصول «رياض عبدالعزيز» . وكيل نيابة اللبان . الى مكان العثورعليها، كان الخبر قد انتشر بسرعة البرق ، فى كل الحارات والازقة الضيقة المتداخلة ، الملتصقة ببعضها البعض، التى تحيط بمبنى «قسم شرطة اللبان» فأثار اهتماما واسعا بين الناس، ودفع كثيرين منهم، وخاصة هؤلاء الذين اختفى اقارب لهم ، الى الاحتشاد حول الخرابة، التى ظلت الجثة بمكانها، حتى عاينها مأمور «قسم شرطة اللبان» الصاغ . الرائد . «كمال نامى» ثم عاينها وكيل النيابة الذى اصطحب معه الدكتور «فهيم عبد السيد» . مفتش الصحة . لكى يوقع الكشف الطبى الظاهرى عليها، وقد أيد المفتش الاستنتاج القائل بان الجثة لامرأة، إلا انه طلب نقلها الى المستشفى لتشريحها، لمحاولة معرفة

اليها كانت تقف امام الجثة، وما أن ألقت نظرة عليها . حتى ولولت صارخة بصوت عال:

- عمتى «ام فرحات» يادهوتى.

كانت المرأة، هى «فاطمة دسوقى» التى سمعت - أثناء تجوالها بالسوق - الناس يتداولون خبر العثور على جثة لإمرأة مجهولة. بخرابة بـ «شارع الواسطى» - فأسرعت إلى هناك، كما فعل غيرها من أهالى الغائبات، لكى تراها عن قرب، آملة ألا تكون لعمتها التى كانت شديدة الارتياب بأن وراء غيابها جريمة، وبأنها لا يمكن أن تختفى بتلك الطريقة. إلا إذا كانت قد قتلت. فما كادت تصل إلى مكان الجثة، حتى تحولت هذه الريب إلى يقين، فرأت ما أمامها بعيون شكوكها لا بعيون الحقيقة.. وأطلقت صرختها التى سرعان ما تحولت إلى خبر أخذ الناس يتبادلونه، بأن الجثة التى وجدت فى الخرابة هى «جثة بائعة الجاز»..



اليوزباشى إبراهيم حمدى نائب مأمور قسم شرطة اللبان

وحين سألها المحقق فى اليوم التالى، عن الشواهد التى تجعلها تجزم بأن الجثة لعمتها، مع أن ما تبقى منها لم يكن يزيد على كمية من الشعر الملتصق بجمجمة زالت كل ملامحها، قالت أنها تعرفت عليها من ملابسها، وأن منديل الرأس البنى والصديرية هى لعمتها، وأن فردة الجورب البنية التى كانت ملقاة إلى جوار الجثة،

المدة التى مضت على وفاتها، وتحديد سبب الوفاة، هل هو جنائى ام طبيعى، وكشف سبب تمزق الجثة، هل هو بسبب التعفن الرمى، ام ان الحيوانات المنتشرة بالخرابة هى التى نهشتها.

وكان الطبيب مايزال يتحدث مع ضباط الشرطة ووكيل النيابة ، حين اخترقت امراة فى الحلقة الخامسة من عمرها ، صف الجنود الذين كانوا يحاصرون المكان، وقبل ان ينتبه احد

هى نفسها التى كانت عمتها تحتفظ فيها بالنقود الورقية، وتضعها داخل كيس من القماش الأبيض تعلقه فى حمالة صدرها، وأنها رأتها وهى تخرجها من مكانها ذاك، لكى تعطى أحفادها العيدية، أثناء زيارتهم للمقابر يوم عيد الفطر.. وحين عرض عليها المحقق، منديل الرأس والطرحة شمتهما وأضافت دليلاً آخر على صحة ادعائها، قائلة أن رائحة البترول تنشع منهما..

أما وقد جزمت «فاطمة الدسوقى» بأن الجثة لعمتها، فقد كان منطقيا أن يسألها المحقق إذا كانت تشتبه فى أنها قتلت، وكان طبيعيا أن تجيبه بالإيجاب.. لكن الغريب، أنها استطردت لتتهم الرجال الثلاثة الذين تعوذت «أم فرحات» على أن تمضى سهرتها معهم، بعد انتهاء يوم العمل، بأنهم الذين قتلوها.. وكانت أدلتها على ذلك أقاويل متناثرة، أسندت بعضها إلى عمتها الغائبة، واسندت البعض الآخر، إلى مصادر مجهولة من نساء الحارة، والحارات المجاورة.. وقرأتها بعقل مستريب ومنحاز، إذ كانت تسمع من «أم فرحات» - قبل اختفائها - أن هؤلاء الثلاثة، هم «الذين يأخذون بالهم منها» ويتابعون حركتها، وأنها أمضت سهرتها معهم - «فى مقهى مرسى» - فى الليلة التى غابت فيها، وأنها سمعت أن زوجة أحدهم قد هربت من منزله، بعد اختفاء عمتها .. وأنها حين ذهبت لتسأل عنها، قالت لها إحدى جاراتها «روحى دورى على جثتها ... وادفنيها»..

ولم يكن المحقق فى حاجة إلى مجهود كبير، لكى يكتشف أن تعرف «فاطمة دسوقى» على الجثة، واتهامها لأصدقاء «أم فرحات» الثلاثة لا يقوم على دلائل حقيقية، فقد كذبت أم الأحفاد ادعاءها، بأن جدتهم الغائبة، قد أعطتهم العيدية من كيس معلق فى صدرها، وقالت أنها أخرجت تلك النقود من جيبها، ونفت تماما أن تكون قد سمعت من «أم فرحات»، أو من غيرها شيئاً، يدعوها للإشتباه فى الرجال الثلاثة الذين تتهمهم «فاطمة»، التى عجزت عن أن تقدم شاهداً واحداً ممن زعمت أنها تنقل عنهم اتهامها.. ونفى المشتبه فيهم التهمة بقوة، وبأدلة عصية على التكذيب..

واتسع نطاق التحقيق ليستمع المحقق - فضلا عن جيران «أم فرحات» - إلى أقوال بائع الكفتة الذى كانت تتناول طعامها عنده، والمعلم «سالم هيكل» - الذى كان يورد لها البترول - وعدداً آخر من زبائنها، فلم يضيفوا جديداً ، وان كان المحقق قد لاحظ أنهم جميعا، قد ذكروا بأنها كانت تضع دائما فى عنقها كردانا من فرع واحد، مما جعله يشتبه فى أن اتهام «فاطمة دسوقى» غير القائم على أية أسانيد أو أدلة، هو مجرد محاولة لإبعاد الشبهة عن نفسها، خاصة بعد أن لاحظ أنها هى الأخرى تزين عنقها بكردان من نفس الطراز، وبعد أن علم منها، أن زوجها محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، لقتله شقيقته، وهكذا أمرها بأن تخلع الكردان، وحجزها فى غرفة بعيدة، وعرضه على

بقية الشهود، وكان من حسن حظها أن معظمهم قد ذكر أن كردان «أم فرحات» كانت تتناثر به صفائح ذهبية مضلعة على شكل عملة برونزية، كانت متداولة آنذاك، هى «النكلة» بينما كان الكردان المعروض عليهم يخلو من أية إضافات.

وحين قامت الهيصة التى أعقبت العثور على الجثة فى الخرابة لم تتحرك «سكينة» من مكانها فى «خمارة كرياكو» ولم تذهب كما ذهب غيرها لكى تشاهدها أو تتقصى أخبارها، وقد اعترفت فيما بعد بأنها ضحكت فى كمها حين سمعت الناس يجزمون بأنها جثة بائعة الجاز، وفى خيال السكر، فكرت فى أن تعود لتطمئن على أن جثة «أم فرحات» ما تزال تثوى تحت نافذة غرفتها، إذ ربما تكون المرأة قد ضاقت بالحر والظلام فغادرت القبر لكى تشم الهواء، واختارت أن تدفن نفسها فى الخرابة..

وكما كانت متيقنة بأن الجثة ليست لبائعة الجاز فقد كانت متيقنة بأنها ضحية جديدة، من ضحايا العصابة قتلت -دون علمها أو مشاركتها- بمنزل شقيقتها بـ «حارة على بك الكبير».

ولم يكن الاستنتاج الذى توصلت إليه «سكينة» يبعد كثيرا عن الحقيقة، إذ كانت العصابة قد قتلت بالفعل الضحية الثانية عشرة، وهى امرأة من النوع الذى عرف بين أفراد العصابة، وفى الأوراق القضائية بأنه «مجهول اللقب». أما اسمها الأول فكان «خديجة». وكانت البداية لقاء عابرا بين «ريا» و«أم أحمد النص» التى قالت لها بأن «عبدالله الكوبجى» قد ظهر بعد فترة طويلة من الغياب، أمضاها فى الشغل بالسلطة العسكرية البريطانية، وأن آثار النعمة تظهر بوضوح على ملابسه وطريقة إنفاقه، واقترحت أن تسعيا لاستدراجه، لكى تكسبا من ورائه بعض النقود، خاصة وأنه سألها عنها، واهتم بأن يعرف ما إذا كانت ماتزال تمارس نشاطها فى مجال البغاء السرى أم أنها كفت عن ذلك. .

ولأن «ريا» كانت تعرف «الكوبجى» - وهو نجار فى الخامسة والعشرين من عمره - منذ العهد الذى كان يتردد فيه- مع صديقه «عرابى» - على بيت «الكامب»، فقد تحمست لاقتراح «أم أحمد » وفوضتها فى أن تدعوه إلى منزلها بـ «حارة على بك الكبير» لكى تحتفل بعودته من الشغل فى السلطة، و«تشوف مزاجه» وتقدم له امرأة من نوع خاص لن ينساه، كبادرة لتعاون وثيق سوف يضطرد بعد ذلك.

وفى الموعد المحدد اصطحبته «أم أحمد النص» إلى البيت -الذى لم يكن قد تردد عليه قبل ذلك- ليجد «ريا» تنتظره ومعها المرأة الموعودة. وكانت «سكينة» تجلس فى الخمارة مع رفيقها «سلامة» واثنين من أصدقائها، حين شاهدت شقيقتها تعبر الطريق، وهى تحمل بعض الأطعمة وفياسكة من النبيذ. فأثار ذلك ريبتها، وشكت فى أن يكون هناك تخطيط لعملية قتل جديدة، سيجرى تنفيذها من

وراء ظهرها لكى يقتسم الآخرون نصيبها، فأسرعت إلى منزل «ريا» لكى تتفقد الأحوال.. وحين وجدت «الكوبجى» و«أم أحمد» و«خديجة» ـ التى كانت تعرف أنها ممن يمارسن البغاء السرى فى «سوق الجمعة» ـ ولم تجد واحدا من أعضاء فرقة التنفيذ، أدركت أنه لا أساس لشكوكها، واكتفت بأن تتناولت معهم كأسا، قبل أن تعود إلى أصدقائها فى «خمارة كرياكو».

ولم تعلم «سكينة» -إلا فيما بعد- أن ما كانت تشك فيه قد وقع، وأن «الكوبجى» ما كاد ينصرف، بعد أن اختلى بالمرأة، حتى أقنعتها «ريا» بالبقاء لأن لديها زبونا آخر يريدها، وبعد قليل توافد أعضاء فرقة التنفيذ الثلاثة. وكان «حسب الله» هو أول من ظهر منهم، وتبعه «عبدالرازق» ثم «عرابى».

وقبل الغروب، بقليل كانت «خديجة مجهولة اللقب» قد انتقلت متسربلة بخطاياها إلى رحاب الله، لتترك لفرقة التنفيذ مشكلة معقدة، إذ ما كادوا يعيدون خلع البلاط الذى يغطى سطح المقبرة، حتى اكتشفوا أنها قد امتلأت عن آخرها بالجثث، فلم يعد بها مكان يصلح لدفن الجثة الجديدة، وفوجئوا بأن عليهم أن يحفروا ملحقا لها، وهو أمر كان يصعب تنفيذه ومغامرة غير مأمونة العواقب لم يجسروا على القيام بها، حتى لا يتنبه جيران «ريا» -الذين أزف موعد عودتهم من أعمالهم- إلى الأصوات الغريبة التى سوف تصدر عن محاولة خلع قسم آخر لم يسبق خلعه من البلاط، ثم محاولة إزالة طبقة الجير المدكوكة بالحصى التى تتلوه. وبعد دراسة سريعة للموقف، أخرجوا إحدى الجثث القديمة، المدفونة فى القبر، ووضعوها فى جوال ربطوه بالحبال، ودفنوا جثة الضحية الجديدة فى المكان الذى كانت تشغله.

ومع أن «سكينة» لم تعلم بتنفيذ عملية قتل «خديجة مجهولة اللقب» فقد دعيت للمشاركة فى حل المشكلة التى ترتبت على دفنها، ولكن من دون أن يحيطها أحد علما بشىء مما يجرى، حتى لا تطالب بنصيبها من تركتها. وكانت ماتزال تواصل السمر مع أصدقائها فى الخمارة، حين عادت إليها «ريا» عند الغروب لتسألها عن «عزيزة»، ، فلما علمت أن الفتاة تختلى بأحد الرجال فى غرفة شقيقتها بـ «حارة ماكوريس» طلبت منها أن ترسلها إليها بمجرد عودتها، لكى تساعدها فى التخلص من جوال من «لحم الإنجليز» اشترته، ثم تبين أنه فاسد.

ومع أن «عزيزة» كانت مجهدة بعد يوم من العمل الشاق، فإنها لم تكن تستطيع أن ترفض طلبا لـ «سكينة» التى كانت قد تبنتها فى أعقاب إغلاق بيت «حارة النجاة» فأخذتها لتعمل لديها بصفة «مقطورة» تقدمها للرجال، وتحصل على أجرها كاملا، مقابل إطعامها وإيوائها. فما كادت تعود إلى الخمارة، وتعطى المعلمة ربع الريال الذى أخذته من الرجل، حتى كلفتها بالمهمة الجديدة، فتحاملت على نفسها، وتوجهت إلى بيت «ريا» بحارة «على بك الكبير».

وفى أحد أركان الغرفة، وجدت «عائشة» جوالا محكم الغلق، تتصاعد منه رائحة عفونة لا تطاق. قالت لها «ريا» إنه يحتوى على كمية من لحوم الخيل التى يبيعها الجيش الإنجليزى بـ «سيدى بشر» بأسعار مخفضة، لكى يساعد المصريين على مواجهة ارتفاع أسعار اللحوم، وأنها اكتشفت بعد شرائه، أن الفساد قد دب إليه بأسرع مما كانت تتوقع، وتريد - لذلك- أن تتخلص منه، بإلقائه فى مكان بعيد عن البيت. ومع أن رائحة العفونة الزاعقة، كانت توحى بأن اللحم قد فسد منذ زمن طويل، إلا أن «عزيزة» لم تناقش فى الأمر. وساعدها «حسب الله» على رفع الجوال إلى أن استقر على رأسها، وقد دهشت قليلا لاصراره على أن يصحبها لكى يدلها على المكان الاكثر ملاءمة للتخلص منه... ولكنها لم تعلق، وهكذا سار أمامها، وهى خلفه تكاد تنوء من ثقل ما تحمله... ومن الرائحة النتنة التى كادت تكتم انفاسها.... وكان الجو حارا، والشوارع مزدحمة بالناس، فى تلك الفترة التى يعود فيها الجميع من أعمالهم، ولكن الفضول لم يدفع أحدا منهم لكى يسألها عما تحمل، حتى هؤلاء الذين اقتربوا منها فزكمت انوفهم الرائحة التى تتصاعد من الجوال الذى تحمله، اكتفوا بحث الخطو بعيدا عن مصدرها...

ومع أنهما عبرا بأماكن كثيرة خيل لـ«عزيزة» أنها تصلح للتخلص من حملها الثقيل.... الكريه الرائحة... إلا أن «حسب الله» واصل السير بخطوات بطيئة تتواءم مع ايقاع خطوتها، حريصا على ألا تطول المسافة بينهما، فتفقد أثره، أو تتلاشى فيتحمل مسئولية الجريمة التى تحملها فوق رأسها إذا ما وقع حادث مفاجئ، وربما لهذا السبب تجنب السير فى الازقة والحوارى الضيقة حتى لا تتركز انظار الفضوليين وأنوفهم على الجريمة التى تسير خلفه، وظل يتقدمهما فى الشوارع الواسعة المزدحمة، إلى أن وصلا إلى منطقة خلوية فى أطراف «شارع أبى الدرداء» كانت مخصصة لرعى الخراف والماعز، وكان الطريق خاليا تماما من المارة، حين توقف «حسب الله» وأشار إلى الخرابة التى تقود إلى «شارع الفراهدة» - عبر «شارع الواسطى»- فعبرت «عزيزة» السياج المصنوع من صفائح الزنك، وألقت بجوال «لحم الانجليز» فى أقرب مكان صادفها... ثم خرجت وهى تتنفس بعمق، لكى تزيل آثار الروائح الكريهة التى ظلت تجثم على أنفاسها طوال الرحلة...

وكانت آخر المفاجآت التى أدهشت «عزيزة» فى تلك المهمة الغامضة، هى حالة الكرم غير المسبوقة، التى دفعت «حسب الله» لكى يعطيها قطعة نقود فضية من فئة «ربع الريال» لكى تعود إلى المنزل بـ «عربة حانطور»... ومع أنها كانت مجهدة من أثر الرحلة الشاقة، فقد آثرت أن تحتفظ بالنقود لتأكل بها، وواصلت السير باقدام منهكة فى الطريق، إلى أن شاهدت عربجيا عجوزا من جيرانها، يقود عربته فى الطريق إلى «شارع ماكوريس»، قبل أن

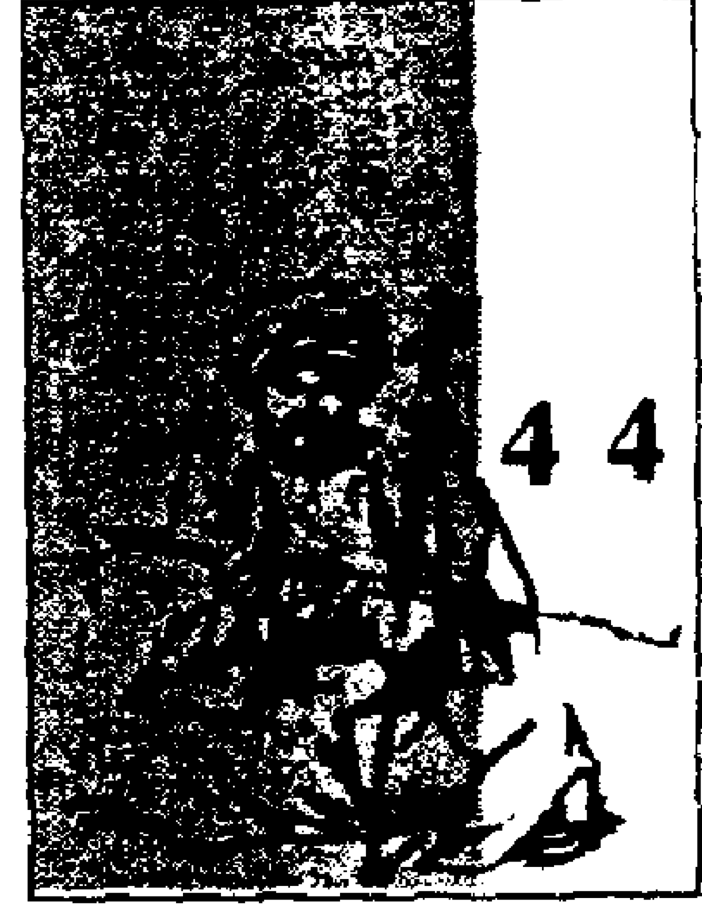
يصحبها معه بلا مقابل... من باب الشفقة.

ومع أن الجثة التى عثر عليها فى خرابة «شارع الواسطى» لم تكن بالقطع جثة «أم فرحات» بائعة الجاز، إلا أن أحدا لم يستطع - آنذاك أوبعد ذاك - أن يحدد شخصية صاحبتها، أو التاريخ الدقيق لقتلها، أو لنقلها من مقبرتها إلى المكان الذى عثر عليها فيه، وفيما بعد قالت «ريا» فى تحقيقات النيابة، أن الجثة لواحدة من النساء السبع الاوائل، اللواتى دفن فى مقبرة مسكنها بـ «حارة على بك الكبير» وحددت تاريخ نقلها إلى الخرابة باليوم الذى قتلت فيه «أنيسة رضوان» - ٢ يوليو (تموز) ١٩٢٠- إذ لم تجد فرقة التنفيذ مكانا بالمقبرة لدفنها، فاضطروا لاخراج جثة فتاة صعيدية، لم تتذكر إذا كان اسمها «خديجة» أو «آمنة» لاخلاء مكان لها... وهى رواية مضطربة يستحيل تصديقها، إذ لو صحت لكان معنى ذلك أن الجثة ظلت ملقاة بالخرابة لمدة تزيد على سبعين يوما، منذ مقتل «أنيسة» فى بداية يوليو (تموز) إلى العثور عليها فى ١١ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠، من دون أن يكتشف أحد وجودها... وهو أمر غير منطقى، إذ الارجح أن الجثة قد اكتشفت بعد أيام قليلة من القائها بالخرابة، وأن أول المكتشفين، هو الذى أخرجها من الجوال الذى كانت به، وذعر حين تبين له أنها جثة بشرية، وأعاد تغطيتها بطشت الصاج الصدىء التى عثر عليها، «حمامة» تحته وفر هاربا خوفا من المسئولية...

وكان يمكن الجزم بأن العكس هو الصحيح، وبأن الجثة هى جثة «أنيسة رضوان»، وأنها اخرجت من مدفنها بعد أكثر من شهرين على مقتلها لكى تخلى مكانا لجثة الضحية الثانية عشرة، - وهى «خديجة»- عندما قتلت فى الاسبوع الاول من سبتمبر (ايلول)، استنادا إلى تقرير الطبيب الشرعى، الذى قدر عمر صاحبة الجثة بأكثر من ثلاثين عاما، وتاريخ وفاتها بما يزيد على شهرين، فهى صفات تنطبق على «أنيسة»، لولا شىء واحد هو أن الشعر الذى وجده الطبيب ملتصقا بجمجمة الجثة التى عثر عليها بالخرابة كان أسودا، بينما كانت «أنيسة» شقراء ذهبية الشعر.

والواقع أن «سكينة» كانت على حق، حين أعادت تجميع الشواهد التى تتالت فى الاسبوع الاول من سبتمبر (ايلول) منذ اللحظة التى رأت فيها فتاة سوق الجمعة فى منزل شقيقتها بصحبة «عبد الله الكويجى»، والتفاصيل التى سمعتها من «عزيزة» حول المهمة الغامضة التى قامت بها لحساب «ريا» و«حسب الله» فى مساء اليوم نفسه، ثم العثور - بعد ذلك بأيام - على الجثة فى الخرابة، واستنتجت من ذلك كله، أن فتاة سوق الجمعة، قد قتلت بعد انصراف «الكويجى» وأن بقية أفراد العصابة قد أخفوا عنها الخبر، ليهتضموا نصيبها، ويقتسموه فيما بينهم، وجابهت «ريا» بما استنتجته، فأصرت على القول بأن ما أرسلت «عزيزة» لالقائه فى الخرابة هو «لحم انجليز» وأنه لا علاقة لها بالجثة

التى عثر عليها بها، ونفت تماما أن تكون العصابة قد قامت بأية عمليات من وراء ظهرها، لكن «سكينة» لم تصدق تأكيداتها، واتهمتها بالخيانة، وعادت العلاقات للتوتر من جديد بين الاثنين.



كانت «زنوبة بنت عليوة» طفلة فى السادسة من عمرها، حين رحلت مع أسرتها من مسقط رأسها فى «ديروط الشريف» - إحدى مدن محافظة اسيوط- فى واحدة من موجات الهجرة المتعاقبة التى حملت الجنوبيين نحو الشمال بحثا عن فرص العمل، أو فرارا من القحط أو « الوباء»، إلى أن انتهت بهم التغريبة إلى الاسكندرية، حيث أقاموا وتوطنوا... ولأن أباها كان تاجرا متعدد الزوجات، كثير العيال، فقد كان الفارق بين عمرها وعمر اخواتها واشقائها شاسعا...وحين وصلت إلى العشرين من عمرها، كان أبوها قد مات، وتركها فى كفالة اثنين من إخوتها الذكور، يكبرانها بأكثر من ثلاثين سنة، ولكل منهما زوجات وأولاد... ينوء بأعبائهم... لذلك زوجاها لأول من تقدم لخطبتها لكى يتخففا من الاعباء الاضافية. وكان الزوج - «على الحيشى» - من أهل «ديروط الشريف» الذين قادتهم تغريبة تالية إلى الاسكندرية، حيث عمل مع أكبر أخويها فى تجارة الطيور... ثم استقل عنه بعد الزواج الذى لم يستمر سوى سنوات قليلة، مات الزوج فى أعقابها، وترك لها طفلة واحدة، هى «أم ابراهيم»، وترك لها - كذلك- دكانه الصغير وزبائنه...

ولم يعارض أحد من إخوتها، حين نزلت إلى السوق لتتاجر فى الطيور، ليس فقط لأنها كانت تساعد زوجها فى تجارته، ولكن أساسا لأن أيا منهما، لم يكن يملك ثمن تلك المعارضة، ولم تكن ظروفه تسمح بإعالتها هى وطفلتها.

فى تلك السنة - ١٩٢٠- كانت «زنوبة بنت عليوة» أرملة فى الاربعين من عمرها، ذات وجه مستطيل يميل إلى السمرة، ينتهى بذقن مدببة، متوسطة الطول، تحتفظ - على الرغم من تقدمها نحو الكهولة - برشاقتها وبالتفاف قوامها، ربما لأنها لم تتزوج بعد وفاة زوجها، ولم تنجب غير ابنتها الوحيدة، وربما لأنها كانت تدور كالنحلة طوال النهار، بجلبابها الأسود، توزع بضاعتها على زبائنها اللواتى كن ينتشرن فى دائرة واسعة من المدينة، ممن تعرفت بهن خلال عملها الطويل، فوثقن بها، ووثقت بهن، واشتهرت بينهن بحسن الاخلاق وبالامانة، وبأريحية دفعتها دائما إلى الصبر على من لا تستطيع الدفع منهن إلى حين ميسرة، وإلى التطوع بتقديم مساعدات لهن، لا تدخل فى نطاق عملها، استجلابا لمحبتهن، واحتفاظا بمودتهن، فتتوسط بينهن فى مبادلة ما تستغنين عنه من ملابس ومصوغات وأدوات منزلية، أو ترهنها لهن..وكان المقام قد استقر بها فى دكان يقع فى ميدان صغير يتوسط «الحارة

الواسعة» وتصب فيه عدد من الحارات والأزقة الاخرى، وعلى الرغم من أن الدكان لم يكن شديد الاتساع، فقد اتخذت منه مسكنا لها، ولابنتها «أم ابراهيم» وفصلت بين مقدمته التى كانت تصف فيها اقفاص الدجاج، وخلفيته التى كانتا تنامان فيه وتحتفظان بأدوات معيشتهما المشتركة، بستارة من الخيش...

وكانت «زنوبة الفرارجية» من أوائل النساء اللواتى تعرفت إليهن «سكينة» - بعد قليل من وصولها إلى الاسكندرية فى عام ١٩١٣ - فى أحد الاسواق التى كانت تتردد عليها، حين كانت تعمل مثلها، بائعة متجولة... وخلال السنوات السبع التالية، كانت المصادفات تكثر من الجمع بينهما، فى سوق أو فى خمارة أو فى حى سكنى واحد... إذ كانتا تتحركان فى مساحة محددة من المدينة تضم الاحياء التى يتركز فيها امثالهما من المهاجرين الصعايدة، مثل «كرموز» و«باب سدرة» و«اللبان»،... ومع أن «زنوبة» لم تكن - كما قالت «سكينة» فيما بعد- «تخبص مع الرجالة أو تكشف ذيلها لهم»، فإنها لم تكن - كذلك - شديدة التزمت فى مسألة الاخلاق، لذلك نظرت إلى «سكينة» وإلى «ريا» - التى لم تكن تجهل بالطبع المهنة التى تتعيشان منها- باعتبارهما ممن تجريان على أكل عيشهما... ولم تعترض حين اتخذتا من دكانها أحد المراكز الذى تسحبان منه النساء للعمل فى بيوت البغاء اللواتى تديرانها، ولم تضن عليهما بالمعلومات التى قد تساعدهما فى إنجاز مهمتهما، باعتبارهما صديقتين حميمتين لها، وجارتين لصيقتين بها، ولكن فى الحدود التى لا تسمح للناس بالخلط بين عملها ، وعملهما، إذ كانت تضع فى اعتبارها دائما مستقبل ابنتها التى كانت شديدة الحب لها، والحرص على مستقبلها .... وكانت تفعل ذلك كله، من دون مقابل، اللهم إذا اعتبرنا تطوع الاثنتين - وخاصة «سكينة» - بشراء ما ينفق أو يوشك على النفوق من دجاجاتها، بثمن بخس لتقدمانه إلى المترددين على بيوت البغاء التى تديرانها، ردا لجمائلها الكثيرة عليهن.

ولم يكن هناك كثيرون - فى الحى الذى تسكن به- يعرفون أن «زنوبة الفرارجية» صاحبة قرش، وأنها ادخرت من تجارتها على مدى عشرين عاما، عدة عشرات من الجنيهات كانت تحتفظ بها، لكى تنفقها على زواج ابنتها، حين يأتى ذلك اليوم السعيد، الذى كان يقلقها بعض الشىء أنه قد تأخر... إذ كانت- على الرغم من كرمها واريحيتها - تنفق بحساب، ومع أنها كانت تحب شرب الخمر، وخاصة الكونياك، وتلتقى مع «سكينة» وشقيقتها عادة، فى احدى الخمارات العديدة القريبة من الحارة الواسعة، فقد كانت تشرب باعتدال يجعلها من هذه الناحية، أقرب إلى «ريا» منها إلى شقيقتها التى لم تكن تفيق من السكر.

والحقيقة أنها لم تكن تميل إلى التظاهر بالثراء، ولم تشغف ككثيرات من نساء طبقتها بتحويل مدخراتها إلى ذهب تتفاخر به، فاقتصر ما تتزين به من



الصاغ كمال ناعى مأمور قسم شرطة اللبان

مصوغات ذهبية، على حلق رفيع وكردان من دور واحد، بينما كانت الغوايش التسع التى تضعها حول معصميها من الفضة، أما الخلخال الذى كان يحيط كاحليها فكان من النحاس المطلى بالفضة، لا يزيد ثمنه على خمسة وعشرين قرشا، طبقا لأقوال «سكينة» التى كانت بصحبتها عندما اشترته.

ومع ذلك، فقد كانت حريصة على نظافة مظهرها، تمارس مهنتها وهى ترتدى عادة جلبابا من القطيفة السوداء وتحرص على أن تنتعل فى قدميها ما يقيها من حر الاسفلت وأوحال الطريق... وعندما عرضت عليها «سكينة» - فى ذلك اليوم الذى اشترتا فيه الخلخال - أن تشترى منها «شبشبا» من نوع كان يعرف آنذاك بـ «التونسى»، ساومتها على ثمنه مساومة مجهدة، ثم اشترته منها بخمسة وعشرين قرشا، وأرسلته إلى دكان لاصلاح الاحذية، قام بخياطة ما كان بوجهه من رتوق، وأضاف إليه رقعة صغيرة من الجلد، تخالف لونه الأصلى، فأصبحت تلك «اللوزة» علامة مميزة له، أثارت تحقيقات موسعة فيما بعد.

على أن معاملات «زنوبة الفرارجية» مع زبائنها، لم تكن كلها على هذا المستوى المتدنى، ولعلها كانت تتعمد أن تقتصر عليه فى تعاملها مع أهل حارتها والحارات المجاورة، حتى لا يطمعوا فيها، أو يحسدوها... أما فى غيرها من الاحياء التى كانت لها فيها زبائن من المستوى الاكثر ثراء ورقيا، فقد كانت كثيرات من زبوناتها يعرفن أنها صاحبة قرش، بل ويستعن بمدخراتها على مواجهة بعض ما يعترضهن من أزمات طارئة، نتيجة لمشاكل مع أزواجهن أو لرغبتهن فى شراء اشياء لا يوافق هؤلاء الازواج على شرائها، أو لغير ذلك من الاسباب.

ومع أن «فرهودة بنت الحدينى»، لم تكن من السيدات الأحرار، أو من بنات الناس المحترمين، إذ كانت بغيا محترفة، فقد كانت على رأس القسم المستور من زبائنها... وكانت الدنيا قد ضحكت لها، حين عشقها تاجر يهودى من أصل مغربى، هو الخواجا «ابراهام دهان» واتخذها رفيقة له، فاعتزلت المهنة، وأقامت مع ابنتها «ناهد» - وكانت شابة فى العشرين من عمرها - فى منزل استأجره لهما بالابراهيمية، ومع أن «الخواجا دهان» كان يقيم مع أسرته فى منزل آخر، فقد كان يتخذ من مسكن رفيقته مكانا لقضاء سهراته، سواء اقتصرت السهرة عليها، أو

انضم إليها بعض أصدقائه مع رفيقاتهم، وكان منزل «فرهودة» من بين المنازل التى تورد لها «زنوبة» الدجاج، وقد تعودت أن تمر عليها مرة على الاقل فى الاسبوع، لتعرض بضاعتها، أو لتسترد ثمن ما قد تكون قد باعته لها بالأجل بسبب نفاد المرتب الشهرى الذى كان الخواجا يدفعه لها ولا يزيد عليه، إلا فى أحوال طارئة... ولأن «فرهودة» كانت تثق بأمانتها وبقدرتها على شراء السلع الجيدة بأثمان غير مغالٍ فيها، فقد كانت تكلفها أحيانا بشراء بعض ما قد يتطلبه البيت من خزين، كالعدس والسكر والعسل والسمن، أو تتطلبه الولائم التى يقيمها الخواجا - فى المناسبات- لأصدقائه، كاللحوم والديوك الرومية...

ويتطور العلاقات بين الاثنين إلى صداقة، أصبحت «فرهودة» تستعين بمدخرات صديقتها الفرارجية، لتواجه بعض الازمات المالية، إذ كانت تضطر أحيانا إلى رهن قطع من مصاغها مقابل قرض تحصل عليه من أحد محال الرهونات، فإذا ما اقترب موعد سداد الرهن دون أن تكون معها سيولة نقدية، تكفى لسداده، وخشية أن تنتقل ملكية المصاغ إلى صاحب المحل، لجأت إلى «زنوبة»، وأرسلتها مع ابنتها «ناهد» إلى «الرهوناتى»، فتقوم بتسديد القرض، وتحتفظ بالمصاغ معها، إلى الوقت الذى تتسلم فيه «فرهودة» مرتبها الشهرى من الخواجا، فترد إليها نقودها، وتستعيد مصاغها، وقد تكررت هذه العملية عدة مرات، وكان موضوعها فى كل مرة، غويشتين ذهبيتين من النوع العريض الذى تفضله البغايا عادة، تتدلى منهما جنيهات ذهبية.

وحين هل شهر اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٠، كانت الغويشتان فى حيازة «زنوبة» التى فكت رهنهما بنقودها فى منتصف الشهر السابق.

فى صباح يوم الاحد ٣ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠، لاحظت «زنوبة الفرارجية» أن علامات المرض التى ظهرت فى اليوم السابق على دجاجتين مما تحتفظ به فى دكانها، قد تفاقمت واشتدت... وايقنت من خبرتها - أنها إذا لم تدركهما بالسكين، فسوف تنفقان ولكن بعد أن تنقلا العدوى إلى غيرهما... فذبحتهما ونظفتهما وتركتهما لابنتها «أم ابراهيم» لكى تسلقهما، حتى لايدب إليهما الفساد سريعا.

وكانت فى طريقها إلى الحمام القريب، حين شاهدت «سكينة» تجلس - كالعادة - على مدخل «خمارة كرياكو».... فعرضت عليها شراءهما. ولم تكن «سكينة» فى حاجة إلى ايضاح لتعرف أن الدجاج المذبوح الذى تعرضه «زنوبة» للبيع، يكون عادة من النوع المريض، الذى أدركته السكين قبل أن ينفق، وأحيانا بعد أن يكون قد مات بالفعل.... ومع ذلك فقد وافقت على شرائهما بلا تردد، إذ كانت تعرف - كذلك - أن «زنوبة» تبيع هذا النوع من الدجاج بثمن أقل بكثير، وبتسهيلات كثيرة فى الدفع....

وبعد ساعتين أمضتهما «زنوبة» فى

الحمام، وتنقلت خلالهما بين مغطس الماء الساخن الذى يتصاعد منه البخار، ويد المدلكة القوية التى رممت عضلاتها المجهدة من كثرة السير والوقوف، خرجت وهى تشعر بنشاط شديد، دفعها للتفكير فى أن تتوجه إلى «الابراهيمية» لكى ترد إلى «فرهودة» غويشتيها، وتسترد نقودها، خاصة وأن الشهر ما يزال فى بدايته، قبل أن تتعرض المرأة لأزمة مالية أخرى، أو تنفق المرتب الذى اعطاه لها الخواجا فى شؤون أخرى، فتؤجل الدفع إلى الشهر القادم.

وكانت الساعة تقترب من الثانية، حين عادت إلى الدكان لتجد ابنتها تجلس على الطوار المقابل له، مع «عائشة عبد المجيد» مقطورة «سكينة» التى كانت قد امتنعت عن التعامل معها قبل أيام، احتجاجا على تمييزها فى المعاملة بينها وبين زميلتها «عزيزة» فى فرص العمل، وانضمت إلى عدد من الفتيات يُقمن بشى وبيع كيزان الذرة الخضراء، ويتخذن من الطوار المقابل لدكان الفرارجية مركزا لهن....

وكانت «زنوبة» تختفى فى القسم الخاص باقامتها من الدكان، حين ظهرت «سكينة» فى الطرف الآخر من الميدان الصغير.... ولاحظ الجميع - وقالت هى فيما بعد- أنها كانت فى حالة تدل على أنها قد «سكرت سكرة جامدة»، وما لبث العتاب الذى بدأته -`بصوت حنون هادىء - مع «عائشة» بسبب ما سمته «قلة الأصل وانعدام الوفاء» اللذين دفعاها للانسحاب من العمل - والاقامة - معها، أن تحول إلى زعيق، ارتفع فيه صوتها ليذكر الفتاة، بما فعلته من أجلها، وبالحرب الضروس التى خاضتها، لكى تخلصها من براثن «أم أحمد النص» حين باعتها إلى «حسنة العايقة» فى «دمنهور»، ثم اعادت بيعها إلى «باسقة». عايقة الهماميل . لولا أنها تحملت عنها - وعن زميلتها «عزيزة» - ما كانت «أم أحمد» تداينهما به... وقالت الفتاة:

- أنا ماأجيش و«عزيزة» عندك... وأنا غرضى نروح كرخانة كويسة نشتغلوا فيها، عشان أقدر أوكل أمى.

وفى تلك اللحظة ظهرت «زنوبة» على باب الدكان، بعد أن أنهت استعداداتها للخروج، وكانت ترتدى جلبابها القطيفة الاسود، وتنتعل الشبشب التونسى الذى اشترته من «سكينة»، وقد أضافت غويشتى «فرهودة» إلى ما كان يحيط معصميها من غوايش فضية، وتحيط جسدها بملاءة تركت قمتها تنزلق على كتفيها على سبيل العياقة، وبظهورها، تغير مجرى الحديث، إذ أمرت ابنتها بأن تحضر الدجاجتين وقالت وهى تمد يدها لها، بهما:

- انتى مش ح تعطينى فلوس من اللى عليكى يا «سكينة»؟

تجاهلت «سكينة» السؤال، كما تجاهلت يد «أم ابراهيم» الممدودة بالدجاجتين، واخرجت مفتاح غرفتها من جيب جلبابها، وأعطته إلى «عائشة»، وبلهجة آمرة، طلبت إليها أن تتجه بالدجاجتين إلى غرفتها، وتقترض موقد «الخواجاية» التى تقطن بالدور الأعلى من المنزل، وتقوم باستكمال طهيهما عليه، إلى أن تعود إليها... فتناولت

الفتاة المفتاح من دون أية معارضة.

وعادت «زنوبة» تكرر سؤالها، فقالت «سكينة».

- تعالى نروحوا لكرياكو... إذا كان يسلفنى نص ريال.... نعطوه لك.

ومع أن «سكينة» كانت من عملاء الخمارة الدائمين، وكانت تنفق فيها ما يصل - فى بعض الايام- إلى ريالين وأحيانا ثلاثة، ثمنا لما تحتسيه من خمر، وما تدعو إليه اصدقاءها، فقد رفض «كيرياكو» أن يقرضها ما طلبته. وحين اشارت إلى «وابور الجاز» الذى انتقل إلى ملكيتـــه بأقل من نصف ثمنه، أبدى استعداده لكى يعيده إليها، إذا أعادت له نصف الجنيه الذى دفعه لها رهنا له، وحسم المناقشة قائلا أنه لن يقرضها نقودا، وإن كان لا يمانع فى أن يقرضها بضع كؤوس من الخمر... وهكذا أضافت «سكينة» إلى «سكرتها الجامدة» كأسين آخرين من الكونياك، وقدمت مثلهما إلى «زنوبة» التى لم تنتبه إلى أن مضيفتها قد غمزت لـ «كرياكو»، فصب لها الكونياك من زجاجة أخرى غير التى ملأ منها كوب «سكينة»، ولأنها لم تكن تفرط فى الشراب، فقد بدا لها غريبا أن قوة تأثير كوبى الكونياك، تفوق بمراحل ما تعودته، ولم تعرف أن ما احتسته لم يكن كونياكا بل كان «سكلانس»، إلا عندما وجدت نفسها فى حالة من السكر دفعتها للانصراف قـــائلة إنهـــا تريد أن تذهب إلى «الابراهيمية» لتستطيع العودة قبل الغروب... وكان الوقت عصرا، عندما خرجتا من الخمارة، وهما تتخبطان، وقالت «سكينة»:

- ياشيخة بلا «ابراهيمة» بلا «فرهودة» بلا بتاع... مش بتقولى «ريا» عندها ليكى نص جنيه، النهار ده الاحد ... «وحسب الله» هناك..... تعالى نروح لها ... نهزءوها يمكن يعطوك فلوس.

ولأن «زنوبة» كـــانت فى حـــالة «سكلانسية» متقدمة، فقد سارت معها من دون اعتراض، وأغرى تقاربهما فى طول القامة وسحبة الوجه، بعض السائرين بمغازلتهما باعتبارهما شقيقتين... وكادت «سكينة»- فى خبال السكر - تشتبك مع أحدهم فى مشاجرة، لولا أن أحد جيرانها تدخل لفض الاشتباك بينهما .... وحين وصلتا إلى بيت «ريا» فى «حارة على بك الكبير»، وجدتا جلسة المسامرة منعقدة.... وكانت «ريا» تجلس على الارض فى أحد أركان الغرفة، وأمامها «وابور الجاز» تشوى عليه سمكا، تقدمه إلى الرجال الثلاثة «حسب الله» و«عرابى» و«عبد الرازق» الذين تحلقوا حول طبلية خشبية، وأمامهم أطباق الطعام، وقاموا جميعا ليرحبوا بالمرأتين وأفسحوا لـ «زنوبة» مكانا بينهم... واثناء ذلك فرت «ريا» من الغرفة، لكى لا تطالبها «زنوبة» بما تراكم عليها من ديون، وتركت لـ «سكينة» مهمة قلى الباذنجان التى كانت قد شرعت فيها، ولم يكن قد تبقى مما أمامهم من خمور سوى كأس واحد، قدموه إلى «زنوبة» التى حاولت أن ترفضـــه، ولكنهـــا لم تستطع أمـــام اصرارهم... وحينذاك فقط، تنبهت إلى

فرار «ريا» وأدركت سببه، فصاحت تناديها، قائلة وهى تضحك....

- تعالى ما تخافيش.. ما يصحش ناكلوا أكلكم ونطالبوكو بالفلوس... وأنا حتى مش ح نروحوا «الابراهيمية» خلاص...

وعادت «ريا» إلى الغرفة، لتحتضن «زنوبة» بامتنان، وجلستا متجاورتين، بينما واصلت «سكينة» قلى الباذنجان وكان الجميع سكارى وفى حالة من السعادة بالمودة التى سرت فى جو الغرفة، كنسمة صيف منعشة، وتعالت الضحكات والقهقهات... وكانوا مايزالون يواصلون سمرهم ويتناولون طعامهم، حين عنّ لـ «زنوبة» أن تقوم بحركة صغيرة غير محسوبة، دفعت حياتها ثمنا لها قبل أن ينفض حفل السمر.... فقد شمرت أكمام جلبابها الأسود، ولم يعرف أحد السبب الذى دفعها إلى ذلك، ربما لأنها خشيت أن يمس طرف الكم حافة أحد اطباق الطعام، وربما لأن الجو كان حارا، بينما كانت الجلسة طرية. وربما لأنها تحت وطأة السكر فكرت فى أن تتعايق أمام الرجال، وهو التفسير الذى قالته «سكينة» فيما بعد، أما المؤكد فهو أنها بما فعلته، كشفت أمام عيون الجميع عن غويشتى «فرهودة» المريضتين اللتين تتدلى منهما الجنيهات الذهبية.

بحاستهم المهنية - كقتلة - تنبهوا على الفور إلى الحقيقة المذهلة التى تكشفت أمامهم فجأة: إن مصاغ الفرارجية لا يقتصر على الحلق واللبة الرفيعين، أو الفوايش الفضية التسع وخلخال النحاس المطلى بالفضة... الذى لا يزيد ثمنه عن خمسة وعشرين قرشا، فقد أضيفت إليه غويشتى «فرهودة» اللتين لو لم يستولوا عليهما الآن، فسوف تعودان إلى صاحبتهما، فتضيع منهم إلى الأبد فرصة الحصول عليهما.... ولو لم تكن «سكينة» قد سكرت سكرة جامدة، لتنبهت إلى أن جو الجلسة قد اختلف، وإلى أن مكانة «زنوبة» قد تغيرت منذ اللحظة التى شمرت فيها كُمَّيها فتحولت من صديقة حميمة إلى زبونه مرشحة للقتل، ولوجدت تفسيرا آخر لخروج «عبد الرازق» من الغرفة غير ذريعة أنه سيفك حصره التى تعلل بها، ولارتابت فى لحاق «عرابى» به إلى دورة المياه التى تقع بالفناء الخارجى للمنزل... ثم فى عودته ليعطيها ربع ريال، لكى تشترى نصف أقة من النبيذ، ولترددت فى قبول المهمة، التى تحمست لأدائها، تحت وطأة الرغبة فى تثبيت سكرها، والحفاظ على مستوى النشوة فى رأسها.

وفى طريقها للخروج رأت «عبد الرازق» يتهامس مع «حسب الله» فى ركن الفناء... ولكن «بديعة» التى كانت تلعب أمام باب البيت، ظهرت أمامها فجأة، فتشتت ذهنها، ولم تستطع أن تستنتج مما رأته شيئا يقعدها عن المضى فى سبيلها....

أما الذى شغلها بمجرد خروجها إلى الطريق، فهو الاختيار بين شراء النبيذ من «خمارة كرياكو» القريبة، فتضيف بذلك إلى مآثرها الكثيرة على خمارته، مأثرة جديدة، لعله يذكرها فتدفعه إلى اعانتها فى أيام

الافلاس، وبين شرائه من «خمارة رجب»، التى تبيع صنفا جيدا غير مخلوط من النبيذ، على الرغم من أن السير إليها قد يتطلب عشر دقائق اضافية. وكان الخوف من أن يصادر «كرياكو» ربع الريال، ويعتبره قسطا مما يدينها به، هو الذى حسم اختيارها فحثت السير نحو «رجب».

وحين عادت كانت أربعون دقيقة قد مرت... وكانت «بديعة ما تزال تلعب فى الحارة.

وما كادت تدلف إلى صالة البيت، حتى فوجئت بصوت وابور الجاز يتصاعد من وسطها.... وباقترابها منه، أدهشها أن تجد «ريا» تجلس أمامه وتضع فوقه اناء مليئا بالماء القراح، وكانت تهم بالتقدم نحو باب الغرفة المغلق، حين شدتها شقيقتها من ذيل جلبابها فأجلستها إلى جوارها.

وعلى وهج الضوء الضئيل المتسرب من الموقد المشتعل، تبادلت المرأتان نظرات أدركت بعدها «سكينة» أن المهمة التى أرسلوها إليها كانت وهمية، وأن الهدف الحقيقى منها، كان ابعادها عن المكان حتى يقتلوا صديقتها «زنوبة بنت عليوة»، فدقت بكفها على صدرها وقالت:

- «يامصيبتى.

حركت «ريا» سبابتها أمام شفتيها بشكل عصبى وهى تشير لها بالصمت حتى لا تفضح ما كان يجرى فى الغرفة آنذاك. وهدأت «سكينة» فجأة، وشردت ببصرها فى الضوء الخافت الذى تسرب من الموقد مصحوبا بأزيزه العالى... ولأول مرة تتنبه إلى أن الهدف من اشعال الموقد، هو التغطية على الأصوات التى قد تخرج من الغرفة... وبعد قليل شعرت بظمأ شديد إلى الشراب، فرفعت الزجاجة التى اشترتها إلى فمها وتجرعت كمية كبيرة منها... وفى الظلام مدت «ريا » يدها فانتزعت الزجاجة منها، لترفعها هى الأخرى إلى فمها وتأخذ منها جرعة كبيرة... وحين نفثت الخمر حرارتها فى رأسها، اشتعلت من جديد بالغضب، وبصوت خفيض حاولت أن تتحكم فى طبقته، همست لشقيقتها:

- ازاى أكون أنا اللى جايباها من دكانها، وبنتها تعرف.. والناس فى الخمارة وفى الحارة كلهم شافونا ماشيين سوا... وتعملوا فيها كده؟.... ما انتظرتوش ليه لحد ماتيجى عندكم لوحدها ويعملوا فيها ما بدا لكم؟.. إيه؟.. عاوزين تثبتوا التهمة علىّ... طيب أنا ح أطريقها على دماغ الكل... وأقول كل حاجة.

وبهدوء وحكمة.... قالت «ريا»:

- خلاص... السهم نفذ.... وإذا اتكلمت على «زنوبة»، رايحين يبانوا التانيين... وتبقى فضيحتنا بجلاجل... وساعتها ح يطلعوا اللى مدفونين عندك... وكلنا ح نتعك فيها... ومحدش ح يقدر يقول ماليش دعوة.

ولأن الكلام كان منطقيا، فقد ابتلعت «سكينة» غضبها، والتزمت الصمت، إلى أن فتح الرجال الباب بعد أكثر من ساعة أخرى، احتست خلالها ما تبقى فى الزجاجة..

وحين دخلت إلى الغرفة، كان كل شيء فيها قد عاد إلى مكانه، فيما عدا آثار التراب المتخلف عن الحفر، التي كانت تتكوم في أحد الأركان.

وحدود القبر الذي دفنت فيه «زنوبة» إلى جوار الصندوق، في المكان الذي كانت المرتبة توضع فيه، تحددها آثار إعادة صف البلاط ولصقه بالجبس.

وسلمهما «عرابي» الغنيمة وعدها لهما بحضور الآخرين، ثم انصرف الرجال... وتعاونت مع شقيقتها في نقل التراب وإلقائه في المنور، وفي استكمال مهمة اعادة كل شيء إلى ما كان عليه.

في اليوم التالي حمل وفد يضم الشقيقتين ومعهما «حسب الله»، مصوغات «زنوبة بنت عليوة» إلى الصاغة الصغيرة. وبعد مساومة لم تطل، اشتراه «علي نصر» - صائغ العصابة الخاص - بأربعة وعشرين جنيها.

وبعد أربعة أيام، وعلى الرغم من أن «سكينة» كانت ما تزال موضعا لشبهات الذين يعرفون أن «زنوبة» قد غادرت دكانها بصحبتها، فإن احساسها بالفجيعة للطريقة الغادرة التي قتلت بها صديقتها، لم يكن قد زايلها بعد... وفي ذلك اليوم، قالت لشقيقتها التي كانت تعد لها فنجانا من القهوة:

- انتوا خاينين قد كده؟! حتى اللي بتاكل معانا عيش وملح بقى لها سنين؟!. يعني أنا لو كان معايا حسبة عشرة.. اتناشر جنيه... توالسي عليّ انت وجوزك.... وتقتلوني.

وعقبت «ريا» قائلة أنها فوجئت مثلها بما حدث، وأنها كانت تجلس في ركن الغرفة تواصل قلي الفلفل، حين شرعت «زنوبة» في القيام لكي تنتقل إلى جوارها وتساعدها، فانقض الرجال عليها وارقدوها على الأرض، واضافت:

- بنت الكلب كانت جامدة عليهم.... وقوية.... وبقت ترفص وتفلفص... وكانت ح تفضح الدنيا... فأنا ما قدرتش اطيق كده... أخذت الوابور بتاعي وخرجت بره الأودة.

وبعد لحظة صمت أضافت:

- ليلة امبارح... لقيت البلاط اللي دفنوها تحته قب وانشال.. وانخلع... صحيت «حسب الله» م النوم، شال البلاط من تاني... وجاب تراب كبسه فوق الجثة برجليه... ومع كده... كل ما احط إيدي ع البلاط... أحس بصهد طالع منه.

وبعد لحظة صمت ... قامت «سكينة» إلى المكان الذي دفنت فيه «زنوبة» وتحسسته بكفها، فإذا بحرارة شديدة تتصاعد منه.

....

....

عندما غربت شمس يوم الأحد ٣ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٠، ومرت خمس ساعات من دون أن تعود «زنوبة بنت عليوة» إلى دكانها، بدأ القلق يناوش إبنتها «أم ابراهيم»، التي كانت ما تزال تجلس على الطوار المواجه للدكان مع بعض

صويحباتها. وعندما إنقضت ساعة أخرى، اشارت عليها «عائشة عبد المجيد» - التى كانت قد انضمت إليهن بعد أن قامت بطهى الدجاجتين - أن تذهبا لسؤال «سكينة» عنها، فأغلقت الدكان وصحبتها إلى خمارة «كرياكو» لتجداها تتوسط ثلاثة رجال، من بينهم رفيقها «سلامة». وأبدت «سكينة» دهشتها الشديدة لعدم عودة زنوبة، وقالت انها لم تمكث معها سوى نصف ساعة، ريثما إحتستا عدة كؤوس من الكونياك، ثم صحبتها إلى محطة الترام، وأعطتها نصف ريال مما تدين به لها، وانتظرت حتى أستقلت «زنوبة» الكهربة فى طريقها إلى «الإبراهيمية» لكى تحصل ما لها من نقود فى ذمة «فرهودة»، ثم عادت مرة أخرى إلى الخمارة، فلم تغادرها..

ومع أن الليل كان قد دخل، وبلغت الساعة الثامنة، فقد اصطحبت «أم ابراهيم» صديقتها «عائشة» معها، واستقلتا «الكهربة» إلى الإبراهيمية. لكنها لم تستطع أن تتعرف فى الظلام على بيت «فرهودة» الذى لم تكن قد ترددت عليه قبل ذلك بصحبة أمها، سوى مرات قليلة، وفى النهار.. فعادت مرة أخرى إلى الحارة الواسعة، وقبلت دعوة إحدى جاراتها للمبيت فى حجرتها، حتى لا تمضى الليلة بمفردها فى الدكان..

وفى الصباح، نجحت فيما فشلت فيه ليلاً، فوصلت إلى بيت «فرهودة». لكنها لم تجد به سوى ابنتها «ناهد» التى نفت أن تكون «زنوبة» قد مرت على أمها بالأمس، وقالت لها إنهما كانتا تتوقعان زيارتها لهما اليوم الاثنين، لكى يصفيا الحساب فيما بينهما.. ومع أن الأمل كان ضعيفا فى أن يكون لدى «فرهودة» معلومات تخالف ما ذكرته إبنتها، فقد إنصرفت «أم ابراهيم» إلى حيث زارت منجمة كانت تتردد عليها مع أمها فى حارة قريبة، وأعطتها أثرا من ملابس أمها، وقالت لها المنجمة بعد أن بخَرت على الأثر وقرأت عليه بعض التعاويذ:

ـ أمك منحاشة.

وحين عادت مرة أخرى إلى «الإبراهيمية»، إلتقت بـ «فرهودة» وهى تهم بركوب الترام، فلم تجد لديها جديداً غير ما قالته ابنتها، ونصحتها - بعد أن أعطتها جانباً من مستحقات أمها - بأن تبلغ «القره قول» - أى قسم الشرطة - عن غيابها.. معتذرة بانشغالها عن مصاحبتها إليه.

وهكذا عادت «أم ابراهيم» من «الإبراهيمية» إلى «قسم شرطة اللبّان»، لتبلغ - فى العاشرة من مساء يوم الاثنين ٤ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٠ - عن غياب أمها. وفى إجابتها على الأسئلة التقليدية التى وجهها إليها الصول (المساعد) «محمد عبد العليم»، اكتفت بوصف ملامح أمها، وما كانت ترتديه من ملابس وتتزين به من مصوغات عندما رأتها لآخر مرَّة. وذكرت أن الأم كانت تحتفظ معها - فضلاً عن المصوغات - بثلاثين جنيها من أوراق البنكنوت، وأضافت انها بحثت عنها لدى «فرهودة» التى خرجت لكى تمر عليها، وفى عموم المدينة فلم تجدها، وأنه لا أقارب لها فى الاسكندرية غير أخوين

«أم إبـراهـيـم» - ولـو للحظة واحـدة - في صداقة «سكينة» لأمها. وتعاطفها معها هي نفسها، إذ كانت تحرص -كلما رأتها -على أن تسألها عن أخبار الصديقة الغائبة. وتبدى أساها لحالها. وتدعو الله أن يرد غربتها ويعيدها سالمة إلى إبنتها وأحبائها.. ولم يبد عليها أىّ وجل، حين علمت أن الفتاة قد أبلغت الشرطة عن غياب أمها، بل أثنت على هذه الخطوة. وقالت لها بشهامة:



محمد عبد العال يقف أمام مدخل قسم اللبان بعد القبض عليه

- لما تيجى تحطى كلامك.. اطلبينى وأنا أشهد إنى ركبتها «الكهربة».

وبلعت «أم ابراهيم» الطعم، فقدمت بلاغاً آخر- بعد ثلاثة أيام - إلى «وكيل نيابة اللبان»، روت فيه الواقعة مع إختلافات يسيرة مع بلاغها الأول. فقد رفعت كمية أوراق البنكنوت التى كانت تحملها أمها إلى أربعين جنيها بدلاً من ثلاثين. وعلى عكس البلاغ السابق، فقد ربط البلاغ الجديد بين ما كانت الأم تحمله من نقود، وبين غيابها، وعبرت فيه الابنة عن خشيتها من أن يكون «حصل لها شيء فى الطريق». ومع أنها طلبت فى

عجوزين لا يعلمان شيئاً عن غيابها، وأنها لم تكن تعرف أحداً من أقاربها الآخرين فى «ديروط الشريف» وليس هناك أى مبرر، أو أدنى إحتمال لأن تكون قد سافرت إلى هناك.. ومع ذلك فقد نفت أنها تشتبه فى أن تكون هناك جريمة وراء غيابها، والغريب أن اسم «سكينة» لم يرد فى أقوالها باعتبارها آخر من رآها قبل إختفائها..

والحقيقة أن «سكينة» كانت قد تلاعبت بعواطف الفتاة صغيرة السن، قليلة الخبرة، التى كانت أمها هى كل حياتها. فلم تشك

نهاية البلاغ الإستماع إلى أقوال «الحرمه سكينة» صديقة والدتها التى أركبتها الترامواى لأجل التوجه إلى الإبراهيمية» و«الحرمه فرهودة بنت الحدينى».. المقيمة مع الخواجا «ابراهام دهان» الإسرائيلى التى توجهت إليها لتخليص فلوسها منها»، إلا أنها لم تثر أى شك فيهما، وقالت أنها تطلب الإستماع إلى أقوالهما «على سبيل الإستدلال فقط، للوقوف على محل وجود والدتى إذا أمكن ذلك، وإنى مرتاحة الضمير من جهتهما، فقط لكونى بنت بكر، حديثة السن، ولا ملجأ لى.. ولا جاه بعد الله سوى عزتكم».

ولم تتنبه «أم ابراهيم» إلى أنها بالطريقة التى أملت بها البلاغ الجديد، على العرضحالجى - أو الكاتب العمومى - الذى صاغه لها، قد أغرت - كغيرها من الضحايا السابقين - العاملين فى «قسم شرطة اللبان» بإهماله، والتخفف من عبء العمل الذى يتطلبه، إذ ما كاد وكيل النيابة يحيله إلى قسم الشرطة، حتى تسلمه الصول (المساعد) «محمد عبد العليم» الذى وجد تناقضاً بين ما ورد به، وما سبق للمبلغة أن قالته له من قبل، فضلاً عن أنها كانت قد سردت فيه أقوال الحرمتين اللتين تطلب الإستماع إلى شهادتهما «على سبيل الإستدلال»، من دون أن توجه إليهما - أو إلى أحداهما - إتهاما واضحاً بأن لهما يدا فى إختفاء أمها.

فلم يجد مبررا لكى يستدعيهما لأخذ أقوالهما، وأرفق البلاغ الجديد، بالتحقيق الذى سبق له أن أجراه.

وما لبثت «أم ابراهيم» أن قدمت - بعد أربعة أيام أخرى وفى ١١ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠- إلى حكمدار بوليس الاسكندرية، بلاغها الثالث، خلال أسبوع واحد، وقد اسقطت منه مطلب الاستماع إلى شهادة «سكينة» و« فرهودة»، ورفعت قيمة أوراق البنكنوت التى زعمت أن أمها كانت تحملها معها إلى خمسين جنيها، وعدلت طلباتها إلى «البحث عنها بمعرفة رجال البوليس، وعمل نشرة، إذ لربما عمل فيها أحد مكيدة». ولأن ذلك هو ما كانت الشرطة قد قامت به بالفعل، فقد أرفق البلاغ الثالث، بالبلاغين السابقين عليه، ليسير الجميع فى المسار التقليدى الذى تعودت الشرطة أن تتعامل به مع بلاغات الغياب.

ولم يكن قد انقضى على غياب «زنوبة بنت عليوة» سوى عشرة أيام، حين نشب الصراع بين الأحياء من اسرتها، على ما تبقى من تركتها، فأعطوا المسؤولين بالشرطة مبررا اضافيا للضيق بالموضوع كله:

ففى ١٣ اكتوبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، قدم «حسن عليوة» - شقيقها الاكبر وهو بائع حرير فى الثانية والسبعين من عمره - بلاغا إلى وكيل نيابة اللبان، أشار فيه إلى اختفاء شقيقته التى وصفها بأنها كانت «مستورة جدا» وأضاف بأنه علم من بعض أهالى «الحارة الواسعة» حيث يقع دكانها - بأن ابنتها «أم ابراهيم» قامت - فى صباح ذلك اليوم نفسه - بفتح دكان والدتها المغلق منذ غيابها، واستولت على ما كان به من

نقود ... فى حين أنها تعلم أن للغائبة ورثة آخرين غيرها، من بينهم هو نفسه.

ولما لم يهتم أحد بهذا البلاغ الذى أرفقته النيابة - على سبيل الخطأ - بالبلاغات السابقة عن غياب «زنوبة الفرارجية»، عاد «حسن عليوة» - بعد اسبوعين ليقدم فى ٣٠ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠، بلاغا ثانيا أكثر تحديدا وتفصيلا، اتهم فيه أخاه غير الشقيق، «الحاج عبد الله على حمد» - وهو بائع طيور فى السبعين من عمره - بأنه الذى أوعز إلى «أم ابراهيم» بكسر باب الدكان، وبأنها «اغتالت منه مبلغ ١٣٠ جنيها أوراقا نقدية، وزوجا من الغوايش الذهبية يقدر ثمنه بمبلغ ١٦٠ قرشا.... فضلا عن الملابس والمنقولات». وختم بلاغه قائلا «وحيث أن شقيقتى اطلعتنى على جميع ما تركته بالدكان تعلقها من نقود وخلافه، ومن حيث أنه ليس لها وارث خلافى وابنتها المذكورة، فبناء عليه، ألتمس صدور الامر باستحضار البنت البكر أم ابراهيم والحاج عبد الله على حمد واجراء التحقيق اللازم».

وكان الصول (المساعد) «محمد عبد العليم» - الذى احيلت إليه الشكوى - باعتباره محرر محضر غياب «زنوبة الفرارجية». هو الذى لفت نظر رؤسائه إلى أنه ليست هناك علاقة بين موضوعها، وبين محضر الغياب، فأحيلت إلى الملازم ثان «أحمد نصار» - أحد ضباط قسم شرطة اللبان - الذى استدعى «حسن عليوة» ليستمع إلى شكواه، كما استدعى المشكو فى حقها. وما كاد يشرع فى أخذ أقواله، حتى أدرك أن أولاد الحلال قد تدخلوا بين ورثة «زنوبة بنت عليوة»، ولاموا شقيقها لاهتمامه بما سوف يرثه عنها، أكثر من اهتمامه بغيابها، ولطمعه - وهو الذى تجاوز السبعين - فى أن يقاسم البنت المسكينة فيما تركته لها أمها، مما جعله ينكر تماما كل ما جاء على لسانه بالشكوى، وينفى أنه يعلم شيئا عن ثروة شقيقته، ويحمل العرضحالجى الذى أملى عليه الشكوى المسؤولية عن تحريف ما جاء بها على لسانه، ويسحب اتهامه لأخيه، ولابنة شقيقته، ويقول بخجل:

«أنا كان غرضى إذا كانت اختى زنوبة تركت شيئا، ابنتها أم ابراهيم لا تتصرف فيه الآن، حتى يظهر شيء بخصوص والدتها».

وصححت الفتاة فى أقوالها، ما ورد بشكوى خالها من معلومات خاطئة، فقالت أنها لم تدخل الدكان ولم تبت به منذ غياب أمها. ثم اضطرت، بعد اتساخ ملابسها، إلى فتحه بالمفتاح الذى تركته معها الأم، لكى تغيرها بأخرى نظيفة، وأعادت اغلاق. إلى أن ارسل لها صاحب العقار الذى يقع به الدكان انذارا قضائيا باخلائه، وإلا اضطر للحجز عليه إداريا، وفاء لايجار شهرين سابقين لم تكن الأم قد سددتهما قبل غيابها، فاعادت فتحه، ونقلت محتوياته إلى الدكان الذى يعمل به خالها «عبد الله على حمد» وهو أخ غير شقيق لوالدتها - وسلمت مفتاح الدكان إلى صاحب العقار. واضافت أنها وجدت من

بين المحتويات محفظة جلدية بها أوراق بنكنوت يبلغ مجموعها خمسة وثلاثين جنيها، وعملات فضية تبلغ قيمتها ثلاثة جنيهات ونصف، وغويشة ذهب واحدة بفص أحمر، فلما أرادت أن تسلم ذلك كله، إلى خالها «عبد الله»، ليحتفظ به عنده إلى أن تظهر والدتها، لم يقبل أن يتسلم منها شيئا إلا أمام شهود، بل إنه عرض عليها أن يكتب لها ايصالا بقيمة ما تسلمه منها لكنها اكتفت بالشهود، إذ هو خالها الذى يرعاها، وتقيم - منذ غياب امها - فى بيته... وهو الذى يقوم بالانفاق عليها...

وبذلك انتهى التحقيق فى الشكوى التى نظرت إليها النيابة باعتبارها بلاغا فى قضية مدنية لا صلة لها بمحضر الغياب، فحفظته فى ٥ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، ولم يستفد أحد من تقديمها سوى «سكينة»، التى تكشف فى ذلك اليوم ، دليل جديد على أن لها صلة باختفاء «زنوبة الفرارجية».

وكانت «سكينة» قد كررت الخطأ الذى وقعت فيه، عندما ارتدت الجلباب الذى كانت «نبوية القهوجية» ترتديه يوم مقتلها، وظهرت به - بعد اسبوع من اختفائها، أمام صديقتهما المشتركة «زكية القهوجية» فانتعلت الشبشب التونسى الذى كانت «زنوبة الفرارجية» تنتعله يوم اختفائها وظهرت به فى «خمارة سبيرو».

وكانت مقطورتها «عائشة عبد المجيد» هى التى تعرفت عليه، من الرقعة الجلدية - أو «اللوزة» - التى رمم بها صانع الاحذية مقدمته، فسريت الخبر إلى «أم ابراهيم» التى أرسلتها فى اليوم التالى لتستدعى «سكينة» لمقابلتها. والتقى الثلاثة بالقرب من «قره قول» - قسم شرطة اللبان وفى البداية، أنكرت «سكينة» أنها تحوز شيئا من متعلقات الغائبة، لكنها تراجعت عندما عرفت أن لدى «أم ابراهيم» شهودا كثيرين رأوا التونسى فى قدميها، فقالت:

- «ايوه عندى واشتريته من امك... قدام ناس.

وبعد جدال طويل احتدت فيه اصواتهما، ونفت خلاله ابنة «زنوبة» علمها بأن أمها قد اعادت التونسى إلى صاحبته الاصلية قائلة إنها كانت قد اشترته لها، ولو كانت قد تصرفت فيه لابلغتها، وأصرت خلاله «سكينة» على زعمها، قالت الفتاة:

- تحلفى ع «البخارى» و«سيدى عماد» بأنك اشتريته من أمى؟.

ولكن «سكينة» اعتذرت عن القسم قائلة:

- أنا ما نحلفوش وأنا سكرانة وعلىّ الحرمانية؟.

وواصلت « أم ابراهيم » تحديها فقالت:

- تعالى الصبح وانا ادفع نص فرنك فى «سيدى عماد»... واحلفى.

وردت المرأة على التحدى بمثله قائلة:

- ح أحلف... واقلب الحلفان على عنيكى.

وخافت «أم ابراهيم» من أن ينقلب القسم عليها، فيكشف عن عدم ثقتها فى

صحة ما بلغها من أنباء...وقالت:

ـ تحلفى ع التونسى وعلى ثمن الفراخ.

وبذكاء هداها إلى محاولة التخلص من أخطر التهمتين، والاعتراف بالتهمة الاخرى، ردت «سكينة»:

ـ أحلف على التونسى بس... وأما الفراخ، فأمك أخذت من ثمنهم نص ريال بس، وليها فى ذمتى نص ريال كمان....

واخرجت من جيبها نصف ريال، وناولته للفتاة التى لم تكن تتوقع أن تخرج من المواجهة بشىء، فنسيت أن أمها كانت تتعل التونسى، حين خرجت مع «سكينة» فى اليوم الذى غابت فيه، وأنه ليس منطقيا أن تخلعه من قدميها، وتعيده إليها، ثم تتوجه إلى «الابراهيمية» حافية، وكانت قد ضاقت بكثرة ما تقدمت به من شكاوى وبلاغات وبعدم جدواها، فأخذت نصف الريال، واعتبرت الموضوع منتهيا...



انقطع «محمد عبد العال» عن التردد على «بيت حارة النجاة» فى الاسبوعين السابقين على اغلاقه، إذ كان قد اصيب فى قدمه، أثناء عمله فى تخريم اكياس القطن، فاعتكف ببيت أخيه فى «غيط العنب».

ولما تحسنت أحوال قدمه، قرر أن ينفذ الوعد الذى قطعه على نفسه، أمام أمه، فيسافر إلى قريته بالصعيد لكى يمضى بها شهور الصيف التى تقل فيها أمام أمثاله من المشتغلين بالقطن، فرص العمل بالاسكندرية، وتتوقف فيها المحالج عن العمل فى انتظار جمع المحصول الجديد. وكان قد تعود على ذلك، منذ وصوله إلى المدينة فى عام ١٩١١، إلى أن تعرف إلى «سكينة» فانقطع عن السفر إلى قريته، وأصبح يمضى الصيف إلى جوارها، فأقلق ذلك أمه، التى جاءت إلى الاسكندرية خصيصا فى سبتمبر (ايلول) ١٩١٩، لكى تتفقد أحواله، ولم تغادرها، إلا بعد أن أجبرته على تطليق «سكينة». وبعد أن أقسم أمامها على المصحف الشريف، بأنه سيعود إلى القرية بمجرد انتهاء موسم القطن، لكى يتزوج ممن تختارها له من فتيات القرية، لكى تطمئن إلى أنه قد استقام، وصلح حاله.

ولم تكن «سكينة» تعرف شيئا عن ذلك الاتفاق حين تمنت عليه - بعد ثلاثة اسابيع من طلاقهما - أن يعود للإقامة معها من دون زواج. ولم تعرف أن «عبد العال» كان يرسل - خلال الشهور الستة التى سبقت سفره - جانبا من النصيب الذى يحصل عليه من ثمن مصوغات النساء الثمانى اللواتى شارك فى قتلهن، إلى «منوشا» بحوالات بريدية باسم أمه، لكى تدخر له منهر الفتاة التى تنوى تزويجها له، حتى بلغ مجموع ما أرسله إليها خمسة جنيهات.

وعندما وصل إلى قريته فى منتصف رمضان - اوائل يونيو (حزيران) ١٩٢٠ - لم يكن يحمل معه سوى ملابسه المستعملة



سكينة تعصب رأسها باللائة

الجلباب الكشمير... وسروالين من البفتة أحدهما ابيض والآخر أزرق... وفانلة واحدة من القطن وثلاثة من القمصان... وأربع صديريات من الغزل. ومع أن «سكينة» قالت - فيما بعد- أنه كان قد ادخر عددا من الجنيهات أخذها معه عند سفره، إلا أن أمه نفت ذلك، وقالت أنه وصل إلى القرية، وليس معه من النقود «ولا عشرين فضة»، أما هو فقال أنه كان يحتفظ معه بجنيه آخر، غير الجنيهات الخمسة التى أرسلها إلى أمه بالبريد.

ولم يكن «محمد عبد العال» يعرف شيئا عن «نور بنت عبد الفتاح سويفى»، العروس التى اختارتها له أمه، ولم تكن الفتاة تعرف عنه شيئا. وقد قالت فيما بعد، إنها لم تره إلا بعد أن زفت إليه. وبررت ذلك بأن منزل اسرتها يقع فى اطراف القرية، بعيدا عن منزله. ولم يتم الزواج إلا بعد اكثر من شهر ونصف الشهر على وصول العريس، ففضلا عن أنه كان عليه أن ينتظر انتهاء شهر الصيام، فقد كان عليه كذلك أن يعاود علاج قدمه التى اكتشف وجود ورم فى ظاهرها، قال له حلاق الصحة، أنه نتج عن رطوبة أدت إلى احتباس المياه فيها. ولما كان قد اتفق مع والد العروس على أن يكون المهر تسعة جنيهات، منها جنيهان مؤخر للصداق تدفع عند حلول أحد الأجلين، ولم يكن قد أدخر سوى خمسة فقط، فقد تبرعت له أمه «ليلة بنت عيد» بالفارق بين ما أدخره وبين مقدم الصداق الذى دفعه فى مجلس العقد وهو سبعة جنيهات.

ولم تجد «نور» التى انتقلت إلى بيت زوجها فى اغسطس (آب) ١٩٢٠، اختلافا بينه وبين بيت أبيها، إذ كان مبنيا مثله بالطوف - أى بالطين المضاف إليه قطع من الاحجار غير المتساوية - ولم يكن يحتوى سوى على غرفة واحدة، مزودة بمصطبة من الطين تستخدم للنوم، أقامت فيها مع زوجها الذى كانت تصغره بحوالى عشر سنوات، إذ كانت فى السابعة عشرة من عمرها - بينما انتقلت حماتها للاقامة فى الباحة المواجهة للغرفة، حيث يوجد «الكانون» الذى يطهون عليه الطعام، والفرن الذى ينضجون فيه الخبز، ومصطبة أخرى، اتخذت منها سريرا لها. ولم يكن بالبيت - قبل انتقالها إليه - سوى غطاء من صوف الغنم، أخذته الأم لنفسها، بعد أن نقلت «نور» جهاز عرسها إلى البيت، وكان يتكون من مرتبة ولحاف... ووسادة من القطن... ولا شىء آخر...

ولأن «محمد عبد العال» لم يمض مع زوجته، سوى شهر واحد، لحق فى نهايته بأبيه وعمه وشقيقه، إلى ما كان الجنوبيون يسمونه آنذاك بـ«البحرة»، - أى الاتجاه شمالا إلى الاسكندرية - فإنها لم تتعرف إليه، بل إنها لم تستطع - فيما بعد أن تتذكر ملابسه. التى كانت تقوم بغسلها، إلا بصعوبة. ولا شك فى أنه قد سافر تاركا وراءه علامات استفهام ظلت تلح على عقلها الصغير، من دون أن تجد لها إجابة، كان فى مقدمتها سؤال عن ذلك الإطار الزجاجى الذى أصر زوجها على أن يعلقه على حائط غرفتهما، ويضم صورة له وهو

يجلس على مقعد، وإلى جواره امرأة ترتدى فستان زفاف. وتحمل باقة ورد.

وكان متوقعا أن يتوجه «محمد عبدالعال» -بمجرد وصوله إلى الإسكندرية فى أحد أيام النصف الأول من سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠- إلى منزل مطلقته «سكينة»، التى لم يجد حرجا فى أن يعلق صورة زفافه إليها على حائط الغرفة التى قضى بها شهر العسل مع زوجته الجديدة. لكنه أجل ذلك، إذ كان عليه أن يسلم الزيارة التى حملته أمه، أمانة تسليمها إلى شقيقه، وهى قفة من الخبز ومقطفا يحتوى على كشك وبلح وملوخية. ثم كان عليه بعد ذلك أن يطمئن إلى إمكانية أن يعود -مع بداية الموسم- للالتحاق بعمله فى مكبس القطن الذى كان يعمل به قبل سفره.

وبعد خمسة أيام من عودته، كان فى طريقه إلى محطة القطارات الرئيسية لكى يتسلم صفيحة من السمن، كان قد اتفق مع والد زوجته على أن يشحنها فى القطار باسمه، لكى يبيعها ويستفيد من فارق السعر. وبينما هو يعبر من «باب سدرة»، وجد نفسه وجها لوجه أمام «حسب الله» فكانت أحضان، وقبلات وكان سلام، وكان عتاب. ودعاه عديله السابق إلى بوظة قريبة لكى يشربا قرعتين، ويواصلا الحديث.

وبنظرة واحدة أدرك «عبدالعال» أن أحوال «حسب الله» المالية، قد تحسنت بشكل بدا له مذهلا، وقد قال فيما بعد «شفته ما شاء الله. لابس زى واحد كان عنده بيت ملك وباعه. دبل ذهب فى صوابعه. وخاتم بمحبس. وجلابية سكروتة وبنش وبالطو وطربوش. وفى رجليه جزمة تفصيل. حاجة هيئة خالص..».

فلما سأله عن مصدر ذلك كله قال له «حسب الله»:

- والله أنا كنت نزلت القمار لعبت. فكسبت.

ثم أضاف دون أن يسأله أحد:

- أنا رايح أتجوز إن شاء الله بعد جمعتين تلاتة. تبقى تيجى عندى تشرب قهوة.

ولم تكن تفاصيل الخبر. التى استطرد «حسب الله» يرويها باستمتاع - أقل إثارة من عنوانه فقد رأى العروس- وهى فتاة يتيمة فى التاسعة عشرة - تسير فى أحد شوارع «باب سدرة». وكانت نظافتها البادية، هى أول ما لفت نظره إليها، قبل أن يجذبه جمالها وشبابها. فسار خلفها إلى أن وصلت إلى حيث تسكن مع أمها فى زقاق خلف «جامع سلطان»، ومنذ ذلك الحين اتخذ من إحدى الخمارات التى تقع فى الطريق إليه، مركزا للمراقبة، ينطلق منه فى أثرها كلما خرجت لتتسوق أو لتزور إحدى قريباتها. فلما أبت أن تستجيب لمغازلاته -على الرغم من المطاردة التى استغرقت شهرا- أيقن من متانة أخلاقها وتقدم بالفعل ليطلب يدها من خالها، لولا أن أمها ماتت بعد أسبوعين من إتمام الخطبة، مما اضطره لتأجيل الزواج عدة أسابيع.

وختم «حسب الله» حكايته، راجيا من «محمد عبدالعال» أن يتكتم على الخبر، وألا ينقله إلى «سكينة» حتى لا ينتقل منها إلى زوجته «ريا»، التى ما يزال ينتظر فرصة ملائمة لكى يخبرها به، تجنبا لوجع الدماغ قبل الأوان.

وفى جو الالفة والمصارحة الذى شاع بين الرجلين، وبمعونة فعالة من قرعتى البوظة، اعترف «محمد عبدالعال» بأنه قد تزوج هو الآخر من إحدى فتيات قريته، وأبلغه «حسب الله» بأن «سكينة» قد اتخذت من «سلامة» رفيقا لها بعد سفره، وأنها تنفق عليه نفقات طائلة، وتكاد تقيم إقامة دائمة فى «خمارة سبيرو» التى تمضى فيها معظم ساعات اليوم، وتتناول فيها وجبات الطعام الثلاث، مع ثلاثة رجال آخرين، ترافق اثنين منهم، بالإضافة إلى «سلامة». فحسم «عبدالعال» أمره، وقرر أن يقطع علاقته بها نهائيا. واتفق الرجلان فى نهاية الجلسة على أن يلتقيا بعيدا عن الشقيقتين، وشدد كل منهما على الآخر بأن يكتم سره. ووعد «حسب الله» عديله السابق، بأنه سيحترم رغبته، ويخفى خبر وجوده فى الإسكندرية عن «سكينة».

ولم يكن «عبدالعال» وحده، هو الذى أدهشه ذلك الانقلاب فى هيئة «حسب الله». إذ كان التغير فى مظهره ملحوظا، وباعثا -كذلك- على ذهول، وفضول جيرانه من سكان «حارة على بك الكبير» الذين فوجئوا بالتطور الغريب الذى لحق به. وفيما بعد قال «عوف العجوز» -بائع حلوى الأطفال الذى يسكن فى المنزل المواجه لمسكنه- إنه كان «فى الأول يلبس لبس الناس الفقرا اللى زى حالاتنا. يعنى جلابية. . وطاقية. وحتة مداس فى رجليه. لكن بعدين اتقيّف ولبس جزمة أستك. وجلابية غزلى. واشترى بالطو. وطربوش». وأضافت زوجته -التى كانت تشاركه فى إدارة تجارته على الرصيف المقابل- ان مظهر الثراء الذى بدا به «حسب الله» خلال صيف ١٩٢٠ . قد أثار الأقاويل عنه بين سكان الحارة، إلى أن أشاعت «ريا» بينهم، أن زوجها قد عين خفيرا فى أحد البنوك، وأن ارتداءه للجلاليب الغزلى والسكاروتة والبالطو والطربوش هو من متطلبات الوظيفة التى يتقاضى عنها أجرا طيبا.

ولا شك فى أن رغبة «حسب الله» فى أن يتظاهر بالثراء والاحترام، أمام أصهاره الجدد لكى يلقى القبول لديهم، لم تكن السبب الوحيد فى اعتنائه البالغ بمظهره، الذى أثار الأقاويل حول مصدر ثرائه، إذ كان منذ البداية جائعا إلى الاحترام الاجتماعى، راغبا بقوة فى التمتع بطيبات الحياة، وشبقا إلى الحياة النظيفة المريحة. وربما لهذا السبب كانت نظافة الفتاة التى كان بسبيله للزواج منها، هى أول ما لفت نظره إليها، إذ كانت «زنوبة بنت أحمد هلال» -وهذا هو اسمها- قد عملت لمدة ثلاث سنوات سابقة «لوانجية» -أى خادمة حمام- لدى إحدى السيدات الفرنسيات اللواتى يقمن بالإسكندرية، فاكتسبت من مخالطتها لها، عادات افرنجية، كان من

بينها اعتناؤها -رغم فقرها- بمظهرها، فضلا عن رقتها وخفوت صوتها..

والحقيقة أن «حسب الله» كان قد ضاق ذرعا بحياته مع «ريا» التى استمرت حتى ذلك الحين، ما يزيد على عشر سنوات، فشلت فى أن تنجب له خلالها ولدا ذكرا. على الرغم من حملها المتكرر الذى كان ينتهى بالإجهاض، أو بنزول الجنين ميتا، فضلا عن أن عبء فارق العمر بينهما كان قد بدا يثقل كاهله، إذ كانت قد تجاوزت الأربعين، وبدأت أنوثتها تغيض، بينما كان هو فى ذروة فتوته، ولم يبلغ الثلاثين بعد، وفضلا عن هذا فقد كان يعتقد -كغيره من العوام- أن مضاجعة النساء المتقدمات فى السن تسرع بالشيخوخة إلى الرجال.

ولأن «ريا» كانت تدرك مدى الخلل فى علاقتهما الزوجية، بسبب فارق السن، فإنها لم تكن تضيّق عليه أو تحاسبه على علاقاته المتعددة بغيرها من النساء، سواء كن من البغايا اللواتى يعملن فى البيوت التى تديرها، أو من غيرهن. وقد ذكرت فيما بعد، أنها كانت تعرف طوال الوقت أنه «كان يحب دى ويرافق دى. وكانت الناس تيجى تقول لى. فكنت أقول لهم: بخاطره... هوا فى حاله. وأنا فى حالى».

ولم يكن «حسب الله» يحرص على التستر على تلك العلاقات التى ما لبثت أن أصبحت من تقاليد زواجهما، حتى أنه لم يكن يتورع عن استئذان شقيقتها «سكينة» فى استخدام غرفتها للاختلاء بإحدى النساء.. بل إن «ريا» نفسها قالت -فيما بعد- إنها استأجرت الحجرة التى يقيمان بها بـ «حارة على بك الكبير» خصيصا من أجله «بحيث إذا استنظف واحدة. أو شاف واحدة حلوة عندى ياخذها فيها».

ولم يكن يقلقها من تلك العلاقات سوى إسرافه -أحيانا- فى تبديد دخل الأسرة الذى كانت تحققه بجهدها وبنشاطها المتواصل فى إدارة «بيوت البغاء» فيصادره لنفسه، ويبدده على مزاجه. وقد ذكرت بمرارة أنها دقت عليه ذات ليلة باب «كرخانة» -أى بيت للبغاء- كان يمضى بها ليلته، لتطالبه بنقود تطعم بها طفلتهما «بديعة» فخرج إليها ثائرا وضربها وطردها.

وكان احتجاجه الدائم على زيادة ما تضيفه إلى الطعام من توابل حريفة. كالشطة والفلفل الأسود -الذى يتحول عادة إلى مشاجرة، حتى فى الأيام التى كان الطعام فيها يخلو من أيهما، سوى تعبير عن ضيق شديد بحياته معها، ورغبة فى الانفلات من أسرها، كانت تحول دونه عوامل معقدة، كانت «بديعة» أهونها شأنا. أما أكثرها خطورة فكانت الجثث التى تثوى تحت الصندرة التى ينامان عليها كل ليلة. ولابد أنه احتاج إلى حسابات طويلة ومعقدة، قبل أن يتخذ قراره بالزواج من غيرها، ويستبعد احتمال أن تدفع الغيرة «ريا» إلى الإبلاغ عنه وقيادته إلى المشنقة عقابا له على تخليه عنها.

والحقيقة أن «حسب الله» لم يرض يوما عن مهنة زوجته، ولم يوافق إلا مضطرا على مواصلتها للعمل الذى نظر

إليه دائما باعتباره مما لا يليق بكرامة رجل صعيدى مثله، فضلا عن أنه يحبط آماله فى أن يصبح وجيها.. مرهوب الجانب، يحترمه الناس، ويوقرونه، ويعملون له ألف حساب. وعلى العكس من إحساسه الداخلى العميق بالعار من الصفة التى عرف بها هو وزوجته بين جيرانهما باعتبارهما من «الكرخانجية» فقد ناوشه إحساس بالفخر والكبرياء، عندما بدأت عمليات قتل النساء والاستيلاء على مصوغاتهن، إذ بدا له أنها المهنة التى تليق بالرجال الشجعان الذين يملكون قلبا صلبا، وجرأة لا تهاب الموت.



وحتى ذلك الحين، وعلى الرغم من الزيادة المفاجئة فى دخله، التى تحققت نتيجة تعدد عمليات قتل النساء، وبدت آثارها على مظهره، فإن «حسب الله» كان ما يزال عاجزا عن اتخاذ قرار يجبر به زوجته على اعتزال مهنتها، ليس فقط لأنها كانت مصدر الدخل الذى تنفق منه على البيت، بعد أن خصص المصدر الآخر للإنفاق على مظهره ومزاجه، بل لأن «الكرخانة» كانت -كذلك- المصدر الذى ترد منه الضحايا اللاتى يقومون بقتلهن.

وهكذا كان عليه أن يتحمل عار تلك الصفة التى لصقت به، فى الوقت الذى كان يتوهم فيه أنه قد صعد خطوة فى مدارج الرقى الاجتماعى، وأن يتعرض لمضايقات جيرانه الذين كان مستحيلا أن يظلوا جاهلين لطبيعة النشاط الذى يجرى فى الحجرة التى يقيم فيها مع زوجته، والتى يتردد عليها رجال غرباء ونساء مشبوهات فى أوقات متفرقة من اليوم. وخاصة بعد إغلاق بيت «حارة النجاة» وانتقال النشاط الرئيسى إلى بيت «ريا» الحر، فى حارة «على بك الكبير».

ومع أن الجيران القدماء - وكان معظمهم من النوبيين الذين ينغلقون على أنفسهم ولا يتدخلون فى شؤون غيرهم - قد آثروا السلامة، والتزموا الصمت، إلا أن بعض الذين حلوا محلهم فى السكن بالبيت.. بدأوا يحتجون على ما يجرى فيه، وكان أعلاهم صوتا، هو «عبدالمحسن بخيت» السقاء الذى كان يسكن فى أحد الأزقة المتفرعة عن الحارة قبل أن يتشاجر مع زوجته فيترك لها مسكن الزوجية، ويشاء سوء حظ «ريا» و«حسب الله» أن ينتقل لكى يسكن وحيدا فى إحدى حجرات الطابق الأرضى، بالمنزل رقم ٣٨ بـ «حارة علي بك الكبير»، ليصبح بذلك جارا لهما.

وبعد أيام قليلة، كان قد أدرك أن الغرفة المجاورة لمسكنه هى «كرخانة» وأن النساء اللواتى يتسللن إليها من الفواحش، وأن الرجال الصعايدة الذين يتسكعون حول «عوف العجوز» ينتظرون فرصة سانحة للتسلل خلفهن. فساءه ذلك، وبدأ بالاحتجاج لدى «ريا» و «حسب الله» لافتا نظرهما إلى أن ما يجرى فى حجرتهما، لا يجوز فى بيت يسكنه أحرار.... فأهملا أمره، وعاملاه باستخفاف، وطلب إليه

«حسب الله» ألا يتدخل فيما لا يعنيه، مما اضطره إلى التربص بهما، فكان يظهر أحيانا فى أوقات غير متوقعة، ليثير ضجة تنتهى باخراج رجل وامرأة من غرفتهما... أو يجلس - فى أحيان أخرى -على مقهى قريب، لينقض على الرجال الذين يتسكعون أمام البيت. فى انتظار خروج من سبقهم، لكى يتسللوا إليه، فيطردهم. وشجعه بقية الجيران- بتأييدهم الخفى- على مواصلة مضايقاته، خاصة وأن «حسب الله» عزف عن الاشتباك معه لكى لا يثير ضجة حول نفسه.

وهكذا تصاعد «محسن السقا» - وهو الاسم الذى كان مشهورا به - بمضايقاته، وكمن فى أحد الايام بصالة البيت المظلمة، لرجل صعيدى، كان يختلى بإحدى النساء فى غرفة «ريا».... وما كاد يخرج منها حتى انهال عليه ضربا.... وصمم على أن يقوده هو والمرأة التى كانت بصحبته إلى قسم الشرطة، ولولا أن الجيران الذين احتشدوا من حولهم، أقنعوه بأن الله أمر بالستر، وبأن المذنب الذى يستحق التأديب هم اصحاب المكان، الذين يهيئون سبل الخطيئة، لا الذين يمارسونها، لما تركهما.

وفى عصر اليوم نفسه طلبت «ريا» من «عرابى حسان» - الذى كان يجلس كعادته بمقهى «محمد سلامة»، على رأس الحارة- أن يتدخل لايقاف هذا التصعيد الذى سوف ينتهى بانفضاض الزبائن عن البيت، فلم يكد «محسن السقا» يمر بعد قليل أمام المقهى، حتى استدعاه «عرابى» إليه، وقال له بلهجة حاسمة:

- «ريا» و«حسب الله» دول قرايبى.... وأنت مالكش دعوة بيهم.... تشوف رجالة... تشوف نسوان... مالكش صالح أحسن بعدين أزعلك.

وبعد ساعتين - وعند غروب شمس اليوم نفسه - جاء رسول يطلب «محسن السقا» للقاء عاجل مع «عبد الرازق» الذى كان ينتظره فى إحدى خمارات «شارع الفحام»... وما كاد يدخل إلى الخمارة ويرى «حسب الله» إلى جواره، حتى تعامل معه باحتقار وأبى أن يسلم عليه، ورفض أن يجلس معه لولا اصرار «عبد الرازق» الذى سأله باستنكار:

- انت مزعل «حسب الله» ومراته ليه؟.

فقال «محسن»:

- دى ممشية البيت سر... وكل يوم أطلع من عندها مرة وراجل... وده بيت أحرار وجوزها ساكت وراضى...

وقال «حسب الله»:

- دى مطلقة وماليش عليها حكم...

وقال «عبد الرازق» بحسم:

- وانت مالك... هو انت حكومة؟!. أوعى تتعرض لها... انت مش عارف أن أنا فتوة الحتة؟!

وزلزل التهديد الثانى، الذى تلقاه «محسن» خلال أقل من ساعتين، أعصابه.. ولكن الغضب كان يفترسه فتوجه على الفور، إلى منزل شيخ الحارة، الذى استمع إلى شكواه، ثم قال له بلهجة أبوية ناصحة:

- الحكومة عارفه وساكتة... واهو كل

حاجة تحت عنيها.... مالك انت ومال كده.... تجيب لنفسك وجع الدماغ ليه؟!

ولعلها مصادفة لا تخلو من القصد، أن «محسن السقا» قد تصالح مع زوجته فى اليوم التالى، وعاد للاقامة معها بـ «درب الناصر» القريب.



حسب الله سعيد

واثناء الاحتفال بجلاء «محسن السقا» الذى أقامه «آل همام» فى خمارة «كرياكو»، ودعوا إليه حلفاءهم، وفى زهو الاحساس بالانتصار - الوهمى- وكأثر من آثار الخمر التى كان قد أفرط فى احتسائها - تحدث «حسب الله» عن الخطة التى زعم بأنه قد اشترك فى وضعها مع «محمد عبد العال» لتأديب المعتدى الاثيم. لولا أن تدخل «عرابى» و«عبد الرازق» -الحميد قد أجبره على الانسحاب من دون حاجة إلى اهدار الدماء.

وهكذا عرفت «سكينة» - التى شاركت فى الحفل- أن زوجها السابق، ورفيقها الدائم قد عاد إلى « الاسكندرية». ومع أن «حسب الله» لم يضف إلى ما قاله شيئا. سوى بعض التفاصيل عن لقائه العابر به، إلا أن الخبر بقدر ما أسعدها، كان قد استفزها، فلم تعلق عليه، ولم تشارك الآخرين فى سؤاله عن تفاصيله، إذ كانت تشك فى أنه تعمد أن يذيع الخبر بهذه الطريقة، ليجرحها، وليعلن أمام الجميع أن رفيقها لا يهتم بها، ولا يكترث لرؤياها... بدليل أنه عاد من السفر منذ اسبوعين، ولم يفكر حتى بأن يخطرها بعودته.

ومع أن شكوك «سكينة» لم تكن تخلو من بعض المبالغة، إلا أنها كانت تنطلق من تاريخ طويل من الصراع بينها وبين «حسب الله» لعل أهم اسبابه، أنهما كانا شخصيتين متماثلتين، ممن يدفعهما التماثل إلى التنافر لا إلى التجاذب. والحقيقة أنها كانت تكاد تكون

صورة منه، فى استهانتها بالعقبات، وعدم تقديرها للعواقب، واستهتارها، وشرهها للتمتع بطيبات الحياة، بما فى ذلك الافراط فى شرب الخمر، والتكالب على الجنس الآخر، والاقبال على الطعام الجيد والملابس الانيقة، والرغبة فى التظاهر. وربما لذلك بدت عليها خلال - تلك الفترة - نفس الاعراض التى بدت عليه، ولفتت إليها الانظار، التى التفتت إليه...

وكان التجوال بين الخمارات، قد انتهى بها - آنذاك - إلى «خمارة سبيرو» بـ «شارع البرهامى».... وكان من بين الاسباب التى قادتها إليها، أن «خمارة ايدابكو» بـ «شارع بحرى بك» - التى كانت تتردد عليها قبل ذلك -- كانت تتعرض بين

الحين والآخر، لهجمات من الشرطة، تنتهي بالقبض على كل النساء اللواتي يجلسن بها، واحالتهن إلى الكشف الطبي للاطمئنان إلى خلوهن من الامراض السرية، فضلا عن أن الخمر الذى كان يقدمه «كرياكو» بدا لها أقل تأثيرا مما تريد.

لكن العامل الحاسم فى انتقالها إلى «خمارة سبيرو» كان اغراء وجود «فهمى الطباخ» الذى كان أحد معالمها الثابتة والمميزة.

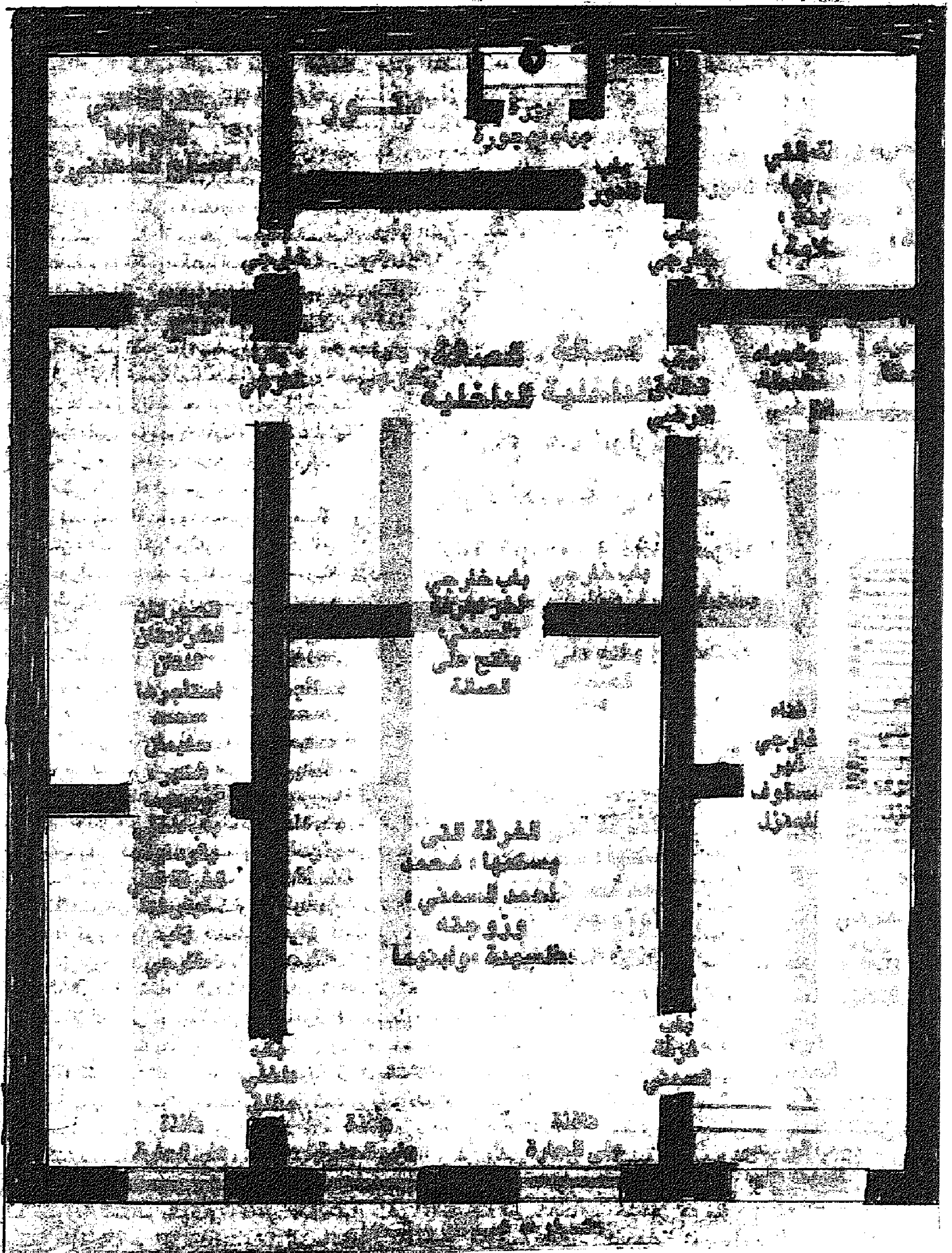
ولم يكن «فهمى» من العاملين بالخمارة، لكن صاحبها، أدرك أن وجوده، سوف يجذب إليها كثيرين من الزبائن الذين لا يستطيبون شرب الخمر، من دون أن يتناولوا معها طعاما ساخنا ودسما. فسمح له، بأن يستخدم مرافق المكان، مقابل ايجار بسيط، على أن يقوم بطهى بعض الأطعمة، كالاسماك أو اللحوم أو الطيور المشوية أو المقلية، طبقا لرغبات الزبائن، الذين كان بعضهم يحضر معه المواد الأولية، بينما يكلف آخرون «فهمى» بشرائها لهم.

وكان «فهمى» هو الذى استدرج «سكينة» للانتقال الى «خمارة سبيرو» وحرص على ان يضيف ذلك الفضل الى قائمة افضاله فى جلب الزبائن الى الخمارة، لكى يؤكد مكانته عند مديرها القبرصى «قسطنطين بكسس» فلا يفكر فى الاستغناء عنه، او استبداله بغيره، فذكر له انها كانت من زبائن «خمارة كرياكو» ولكنه اقنعها بالانتقال الى خمارته، عندما لاحظ انها من النوع الذى يشرب البحر.

وما لبثت الايام التالية ان اثبتت للخواجا صدق اقواله. اذ برزت «سكينة» كواحدة من وجهاء زبائن «خمارة سبيرو» واصبح مجلسها يضم - غير «فهمى الطباخ» - اثنين آخرين من اصدقائه ومن زبائن الخمارة، وكان اولهما - وهو «شعبان ابراهيم» عربجى حمار، وفتوة فى الثلاثين من عمره، اما الثانى - «خميس سليم» - فكان منجداً يصغره بعدة سنوات.

وطبقا لما قاله «المستر بكسس» - فيما بعد - فقد كانت «سكينة» تظهر فى الخمارة - عند ظهر كل يوم - وهى ترتدى جلبابا من الحرير، وتعصب رأسها بـ«لاثة» او «شملة من الحرير» وتزين عنقها بـ«لبة» رفيعة من الذهب واصابعها بخاتم او خاتمين من الذهب وتضع فى معصمها ساعة، وتمضى فى الخمارة معظم ساعات النهار من الظهر، وحتى موعد الاغلاق فى منتصف الليل، ولا تقتصر على نوع واحد من الخمور فهى تشرب البيرة والكونياك والنبيذ وعرق البلح والبراندى، وتنتقل من نوع الى آخر، وتشرب من كل نوع كميات كبيرة تصل احيانا الى خمسة عشر كوبا من النبيذ فى الساعة، واربعين كأسا من الكونياك، وثلاث زجاجات من البيرة.

فاذا ما حان وقت الغذاء انصرفت الى دكان «عديلة ام مرسى» - تاجرة الطيور - بـ «سوق الجمعة» التى انتقلت للتعامل معها بعد مقتل «زنوبة» الفرارجية - لتعود بعد



... حارة ماكوريس ... وكان يقع خلف قسم شرطة اللبان.. ولا يبعد بابه الرئيسي أكثر من خمسين مترا .. وقد أقامت ... مايو وأكتوبر ١٩١٩ ، وقد تزوجت خلالها . ثم طلقت . من «محمد عبد العال» .. ثم غادرته لتعود إليه بعد ثمانية ... التي تقع في الجنوب الغربي منه. بين يونيو وأكتوبر ١٩٢٠م، وخلال تلك الفترة تحولت حجرتها إلى مقبرة ثالثة ... النساء .. ويلاحظ من الرسم أن «سكينة» كانت تكاد تنفرد بالسكن في الطابق الأرضي وحدها، لأن محمد سليمان ... ذلك صالح العدبي . أما «السمني» وزوجته، فكانا يستخدمان باب غرفتهما المطل على الفناء الخارجي..

قليل ومعها زوج من الدجاج او اقة من اللحم او من السمك ، تسلمه لـ«فهمى» ليقوم بطهيه ، ويتحلق الاربعة حول مائدة الطعام والشراب فاذا ما تبقى من الطعام شيء لفه لها «فهمى» فى ورقة ، لتأخذه معها عند انصرافها ، ومنذ ظهورها فى الخمارة كف جلساؤها الثلاثة عن دفع ثمن مايشربون ، اذ كانت تصر على ان تتحمل ثمن كل الطلبات التى تقدم على المائدة التى تتصدرها ،وهو يتراوح بين ثلاثين وخمسين قرشا فى اليوم ، غير ثمن المأكولات الذى كان يصل الى مايقرب من ذلك المبلغ.

ومع ان علاقتها بـ«سلامة» ،، كانت ماتزال قائمة، وكان ينضم فى بعض الاحيان الى مجلسها فى «خمارة سبيرو» الا انها لم تكن تمانع - فى بعض الليالى التى يغيب فيها عنها - عن الانصراف من الخمارة مع «شعبان العربجى» الى احد الفنادق التى تؤجر غرفها للعشاق ، لتمضى معه فيها عدة ساعات ، اما «خميس المنجد» فكانت تبيت معه فى بعض الليالى بدكانه الذى يتخذ منه مسكناً اذ كان كلاهما يرفضان الذهاب معها الى منزلها ،احتراما لعلاقتها بـ«سلامة»، وحرصا على عدم الدخول فى مشاكل معه.

وكان لابد وان يلفت ذلك الاسراف فى الانفاق ، انظار كثيرين من رواد الخمارة، بما فى ذلك اصدقاؤها الذين استغلوا كرمها اسوأ استغلال خاصة وانه لم يكن لها عمل معروف، غير تأجير غرفتها للعشاق بين الحين والاخر ، وهو عمل لايمكن ان يدر عليها كل هذا الدخل، فلم يجدوا له مبرراً، إلا انها لا تتعب فى الحصول على تلك النقود ، واستنتجوا انها تسرقها . وحين لفت ذلك الاسراف نظر الخواجا «بكسس» فسأل «فهمى» عن المصدر الذى تحصل منه «سكينة» على النقود التى تبددها على الخمر .قال له :

- دى حرامية .. بتنط فى الترامواى .وتنشل فلوس من الركاب.

وعلى العكس من «حسب الله» الذى كان حريصاً على عدم التفريط فى مظاهر ثرائه، مما جعل الأقاويل المستريبة فى مصدر هذا الثراء، تستمر من حوله، فإن الاشاعات عن مصدر ثراء «سكينة» كانت تتصاعد أحياناً، وتخفت فى أحيان أخرى، بسبب ما كانت تتعرض له من نكسات مالية، نتيجة لاسرافها فى الانفاق على شرب الخمر، مما كان يضطرها إلى رهن بعض أدوات منزلها، أو ساعتها أو ما تتحلى به من مصاغ، بل إن أحوالها المالية كانت تتدهور أحيانا إلى الحد الذى يضطرها إلى رهن بعض جلابيبها الحريرية.. مقابل قروض صغيرة، لكنها كانت تكفى لإشباع شهوتها التى لا تنطفىء لشرب الخمر..

ومع أنها كانت تنجح - فى بعض الأحيان - فى تسديد القرض، وفوائده الباهظة، واسترداد الأشياء المرهونة، إلا أن كثيرا من مظاهر ثرائها، التى كانت تتباهى بها، انتقلت إلى ملكية «خريستو مورجان» - صاحب محل الرهونات اليونانى فى «باب

الكراستة» ـ الذى تعودت أن تتعامل معه.. فلم تكن تأسف على ذلك، أو تتردد عن شراء غيرها، بمجرد حصولها على نصيبها من تركة الضحية التالية..

وكانت ماتزال تحتفظ بتلك المظاهر، حين نجحت أخيرا فى الوصول إلى «وابور القطن» الذى انتقل «محمد عبدالعال» للعمل به بـ«القبارى»، بعد بحث استغرق عدة أيام، وعاونها فيه عدد من زملائه القدامى، ممن كانوا يعملون معه ـ قبل سفره ـ فى «وابور خوريمى» الذى كان قد أغلق أبوابه.. ولعلها مجرد مصادفة، أنها وصلت إلى الوابور فى عصر نفس اليوم الذى قبضت الشرطة فى فجره على رفيقها الجديد «سلامة محمد خضر» بتهمة السرقة فانطوت بذلك صفحة علاقتها معه..

وكانت حرارة الجو الشديدة، فى تلك الليلة من أوائل اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٠، هى المبرر الذى تذرع به «سلامة» لكى يقترح على «سكينة» أن يتركا الغرفة، ويناما فى الفناء غير المسقوف للبيت. حيث تعودت أن تنام مقطورتها «عزيزة عبد العزيز»، فقبلت الاقتراح على الرغم من ضيقها بالروائح النفاذة التى كانت تتصاعد من دورة المياه التى تقع به، وهيأت لهما فراشا فى المكان الذى تنام فيه «عزيزة»، بينما انتقلت الأخيرة إلى الركن القريب من دورة المياه.

وكانت الاثنتان تغطان فى النوم، عندما قام «سلامة» ـ بعد الفجر بقليل ـ ليتناول عمودا من الحديد، كان يخفيه أسفل السلم الذى يقود إلى الدور الثانى، وفتح باب الفناء وغادر المنزل.. ومع أنه كان يتحرك بحذر، خشية أن يوقظهما، فإن الصرير الذى أحدثه فتح الباب، ايقظ «عزيزة» التى توهمت أن لديه عملا يتطلب خروجه فى هذا الوقت المبكر، فأعادت اغلاق الباب من الداخل.

وكانت ماتزال فى «دورة المياه» حين سمعت صوت أقدام تجرى فى الحارة، ثم تتوقف أمام الباب، ليدقه صاحبها، بطريقة دلت على أنه يبحث عن ملجأ يختفى فيه ممن يطاردونه، ومالبثت أن سمعت «سلامة» وهو يقول بصوت لاهث يحاول قدر الإمكان أن يجعله خافتا: افتحى يا «سكينة»، وعندما استجابت «عزيزة» لندائه، دخل وأغلق الباب خلفه، ووضع اصبعه على فمه، مشيرا لها بالصمت، وبأن تعود إلى فراشها، ثم ألقى بالعمود الحديدى الذى كان بيده فى بئر السلم، واندس إلى جوار «سكينة»، التى كانت ماتزال تغط فى النوم.

وبعد لحظات قليلة، وعلى إثر الدقات العنيفة التى تتالت على نافذة الغرفة المطلة على الحارة، والتى يسكنها «محمد السمنى» وزوجته «سيدة سليمان»، استيقظ الجميع. وكان الطارق هو «قاسم حسن» ـ نقيب الخفراء ـ الذى سأل عن سكان البيت، وأبلغهم بأن لصا كان يحاول كسر القفل الذى يغلق به «الخواجا عزوزى» باب دكانه الواقع فى الزقاق المجاور، بعمود من الحديد، فرأته بائعة جاز تسكن فى البيت المجاور، وابلغت الخفير الذى ظل يطارده

إلى أن رآه يدخل هذا البيت. ومع أن «سلامة» حاول أن يتظاهر بأنه قد استيقظ لتوه من النوم، وخرج لشيخ الخفراء وهو بملابسه الداخلية، فقد تعرفت عليه بائعة الجاز، وتعرف عليه الخفير، الذى عثر على أداة الجريمة فى بئر السلم، فاقتاده نقيب الخفراء إلى قسم الشرطة.

فى ظهر اليوم التالى، فوجىء «محمد عبدالعال»، حين وجد أن المرأة التى تقف على باب المحلج الذى يعمل به بـ«القبارى» ليست زوجة شقيقه، كما أبلغه بذلك زميله الذى حمل إليه رسالتها.. لكنها «سكينة»، التى بدت له، لأناقتها امرأة أخرى غير التى يعرفها.. وحين لحق بها إلى المقهى القريب، بعد أن انتهى من عمله، قالت له معاتبة:

ـ هو مش عيش وملح؟.. ازاى تيجى من السفر ولا تجيش تسلم علىّ؟!

وقال «عبدالعال» وهو يلقى بنظرة فاحصة على جلبابها الحريرى، ويستعرض بتأن المصاغ الذى كانت تزين به رقبتها وأصابعها:

ـ أنا لا عاوز أسلم عليكم.. ولا أشوف وشكم.

ومع أن «سكينة» كانت تتخوف من أن يكون «حسب الله» قد نقل إليه جانبا من أسرارها، فقد تظاهرت بالبراءة، وضربت على صدرها بكفها، وقالت بدلال:

ـ الشر برة وبعيد.. ايه اللى حصل؟!

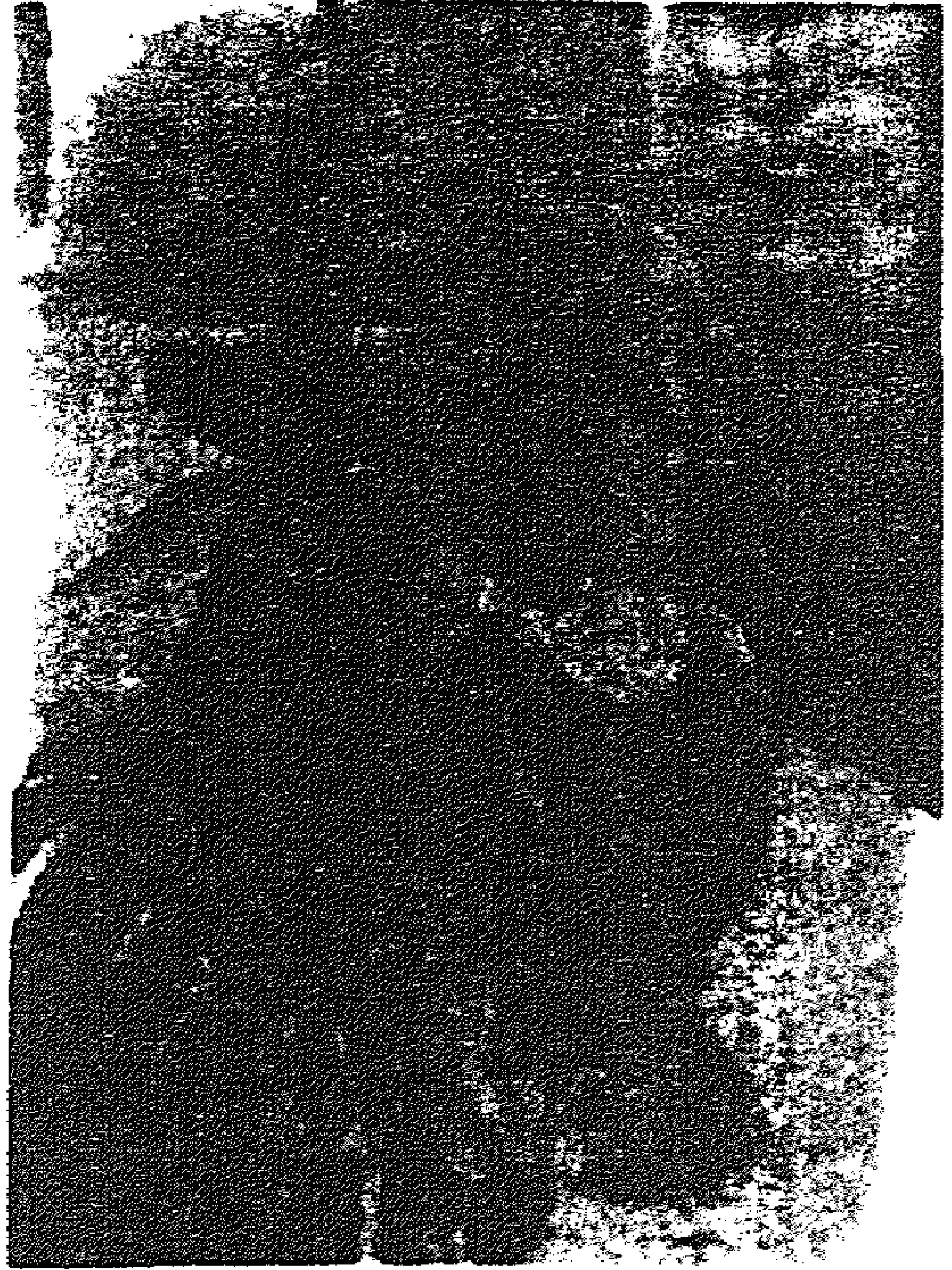
وقال «عبدالعال» وهو يقارن فى ذهنه بين ما تتزين به، وما كان يتزين به «حسب الله»:

ـ انتوا ناس عضيتم فى الرمة قوى.. وبقيتم أصحاب صيغة وأغنيا.. وأنا مش بتاع كده.

ولم يطل الحوار بين الاثنين اكثر من دقائق قليلة، حاول كل منهما خلالها أن يكتشف مدى ما يعرفه الآخر من أسراره منذ افتراقهما.. وبعد قليل من بدء الجلسة، اعتذر «عبدالعال» عن مواصلتها بأن لديه موعدا مع بعض أقاربه، ولما ألحت عليه فى لقاء آخر، واعدها على أن يلتقيا فى مساء اليوم التالى بمقهى «مريم الشامية» القريب من منزلها.. لكنها لم تأت فى الموعد، إذ كانت قد استدعيت إلى «قسم شرطة اللبان» لكى تدل بأقوالها فى محضر تحقيق النيابة مع «سلامة» فى تهمة الشروع فى سرقة دكان «الخواجا عزوزى».

وبعد انتظار لم يطل، استمع خلاله إلى تفاصيل كثيرة، عن علاقة «سكينة» بـ«سلامة» كان رواد المقهى يتداولونها، استأذن «عبدالعال» من «مريم الشامية» فى الانصراف، وطلب إليها أن تبلغ «سكينة» بأنه حضر فى الموعد، فوجدها مشغولة بما هو أهم لديها منه. وحاولت المرأة إن تثنيه عن عزمه لكنه رفض، وانصرف وقد عزم على ألا يعاود الاتصال بها..

ومع أن شيوع خبر علاقتها بـ«سلامة» الذى أخذ رواد المقهى يتداولونه، كان قد جرح اعتزازه برجولته، إذ كان يتوهم أنها لا تستطيع



مومس أفرنجية في العشرينات

الاستغناء عنه، ولا تقدر على استبدال غيره به، إلا أنه اقنع نفسه بأن الأمر لا يدعو للابتئاس، فهى لم تعد - منذ زمن بعيد - زوجته، وهى لم تعد - كذلك - رفيقته، بل لعلها - بما فعلته - تعطيه ذريعة لكى يخفى عنها خبر زواجه، ولكى يقطع صلته بها، وهو ما ألمح به لصديقتها «مريم الشامية» عند انصرافه..

لكن «سكينة» لم تكف عن محاولاتها لاسترداده، فبعد اسبوعين من ذلك التاريخ، كانت فى طريقها من الملاحة - حيث اشترت كمية من السمك - إلى منزلها، حين توقفت أمام باب المحلج الذى يعمل به، وأرسلت إليه مقطورتها «عزيزة» لكى تستدعيه للقائها فى المقهى القريب منه. وحين لحق بها قالت له:

- خبر إيه.. ماجتش ليه؟.

ولما أعاد على مسامعها الرسالة التى تركها لها مع «مريم الشامية» قالت:

- ده «سلامة» قال فى التحقيق إنى مراته.. وإنه ساكن معايا.. وطلبنى زى شاهدة.. رحت «القرة قول» صدقت على كلامه، ورجعت قالوا لى إنك مشيت.

فقال ببرود:

- ربنا يهنيكوا ببعض.

وقالت بحرارة:

- ده محبوس.. وأنا مفيش بينى وبينه مودة.. ولا عادش لى غرض فيه.

فقال بنفس البرود: لا مودة ولا غير مودة.. انتى مش على ذمتى.

وقالت بنفس الحرارة: والعيش والملح لازم تبات عندى الليلة دى.

ولأن كلا منهما كان يشعر بضعف شديد تجاه الآخر فإن «عبد العال» لم يستطع أن يواصل المقاومة.. وفى الليلة نفسها ظهر فى «خمارة سبيرو» حيث أمضى السهرة مع «سكينة» واصدقائها الذين عرفوه - كما عرفه المستر «بكسس» - صاحب الخمارة - باعتباره زوجها..

ولم تثر عودته للتردد على بيت «سكينة» - فى «حارة ماكوريس» - دهشة أو اعتراض أحد من سكان الحارة، إذ كان الجميع يعرفونه بصفته زوجا لها، منذ العهد الذى كان يقيم فيه معها، بالبيت نفسه..

لكن الاعتراض انصب على تردد «سلامة» عليها.. وكان قد غادر السجن - بعد ثلاثة أسابيع قضاها رهن الحبس الاحتياطى بعد أن برأته

المحكمة من تهمة الشروع فى السرقة، بسبب الضغوط والاجراءات التى تعرض لها شهود الواقعة، وأسفرت عن تغيير أقوالهم لصالحه.
وظل، لعدة أيام، يتردد على «سكينة» فى أوقات غير التى يتردد عليها فيها «محمد عبدالعال»، وهو الأمر الذى غضب له جارها «محمد سليمان شكير»، وذات عصر ـ وبينما كان فى طريقه من قهوته فى «كوم بكير» إلى المنزل ـ رآهما يجلسان معا على مدخل دكان نجار يعرفه، فاتجه إليهما .. وقال لـ«سكينة» بصراحة:

ـ دلوقتى انتى متجوزة.. و«سلامة» بيخش عندك.. فلازم تختارى واحد من الاثنين.. يا «سلامة».. يا «محمد»؟.

فردت عليه من دون تفكير:

ـ أنا ما نستغنوش عن جوزى.

وحسم «شكير» الموضوع، فقال: لـ«سلامة»:

ـ يبقى انت مافيش لزوم لدخولك عندها.

وكانت المناقشة بمجملها، مفاجأة مذهلة لـ«سلامة» الذى لم يفتح فمه بكلمة، إذ لم تكن الظروف تسمح له، باللجاج أو بإثارة المشاكل، أو حتى بمجرد المناقشة.. خاصة وأن النيابة كانت قد استأنفت الحكم ببراءته، وكان مايزال فى حاجة إلى شهادة «عزيزة عبدالعزيز» و«سيدة بنت سليمان» فضلا عن «سكينة» التى كانت قد ضمنت له ـ كذلك ـ شهادة المرأتين، فوافق على التسوية من دون مناقشة، ولم يعد إلى البيت، ولو حتى ليأخذ قفطانه الذى تركته له فى «قهوة شكير»، فمر فى اليوم التالى وأخذه، وانقطع منذ ذلك الحين عن التردد على الحارة، أو الظهور فى الخمارة، ولم يتلق بأحد من «آل همام» إلى أن ضمهم السجن جميعا بعد أسابيع قليلة.



كان دكان شيخة المخدمين «فاطمة بنت عبدربه» من المعالم المعروفة فى «الشارع البرهامى»، إذ كان يحتشد فى معظم ساعات النهار بعشرات من الفتيات والنساء اللواتى ترغبن فى الالتحاق بالعمل كخادمات فى البيوت، وبكثيرين ممن يبحثون عن خادمة تساعد فى أعمال المنزل ورعاية الأطفال والتسوق.

وكانت «فاطمة العورة» ـ وهو الاسم الذى عرفت به بسبب فقدها لعينها اليمنى على إثر حادث وقع لها فى طفولتها ـ محل احترام وثقة زبائنها ، الذين كانوا يقدرون لها دقتها فى عملها، وحسن اختيارها لمن ترشحهن للعمل طبقا لحاجة كل أسرة.. كما كانت كذلك موضع تقدير العاملين فى «محافظة الاسكندرية»، التى تكثر من التردد عليها، لكى تنهى أعمالها وتستخرج التراخيص لمن تلحقهن بالعمل كخادمات فى البيوت. إذ كانت، فضلا عن التزامها الصارم بالقوانين واللوائح التى تنظم مهنتها، سخية اليد مع الذين يساعدونها فى انجاز أعمالها..

ومع أن العمل فى الدكان كان يتواصل من الصباح حتى المساء، إلا أنها كانت تغيب

عنه فى كثير من الأحيان، وتتركه لمساعدتها «أم السعد» ريثما تذهب إلى مبنى المحافظة، أو أحد أقسام الشرطة، لانهاء بعض الأوراق، أو تصحب إحدى الخادمات لكى تسلمها العمل، وتعرفها إلى «أسيادها» الجدد..

وفى أحيان ليست نادرة، كانت تظهر فى «حارة على بك الكبير» حيث يقع «دكان النجارة» الذى يملكه زوجها «محمد أحمد رمضان»، فتمضى معه بعض الوقت، أو تناقش معه بعض الأمور ثم تمضى إلى حال سبيلها.

وكان «رمضان النجار» هو آخر أزواجها، بعد عدة زيجات فاشلة، انتهت من دون أن تترك ذيولا، إذ كانت «فاطمة العورة» عقيما لا تنجب.. ولعل ذلك هو ما شجع «رمضان» على أن يتزوجها، على الرغم من تقدم عمريهما، إذ كان فى الخمسين من عمره، وكانت فى الخامسة والأربعين عندما تم الزواج قبل سبع سنوات.

ولأنه لم يكن فى حاجة إلى مزيد من الذرية، إذ كان متزوجا من غيرها وأبا لعدة أبناء كبار، فإنه لم ينظر إلى عقمها باعتباره عيبا كما فعل أزواجها السابقون. بل اعتبره ميزة من ميزاتها الكثيرة، فبسببه احتفظت برشاقة جسدها الذى خلا من الترهل الذى يترتب على كثرة الحمل والولادة، خاصة وأنها كانت طويلة القامة، وكان وجهها - ذو اللون القمحى الفاتح - مايزال يحتفظ بجانب كبير من ملاحة الصبا، على الرغم من فقدها لإحدى عينيها. وفضلا عن ذلك كله. فقد كانت تحرص على الاعتناء بزينتها داخل المنزل وخارجه، فترتدى ملابس ذات ألوان زاهية، وتخرج عادة وهى ترتدى ملابس ثمينة تضفى عليها مهابة واحتراما لدى زبائنها وأمام الجهات الرسمية الكثيرة التى كانت تتعامل معها، فتلف جسدها بملاءة فاخرة من قماش الكريشة، ترتدى تحتها جلبابا من الفوال الملون، وتنتعل صندلا.

أما أهم ميزاتها - فى نظر زوجها - فهو الدخل الثابتُ الذى كانت تحققه من مهنتها، والذى ادخرت جانبا منه على مدى السنوات، فى صورة مشغولات ذهبية كانت تحرص على أن تتزين بها اثناء عملها، استكمالا للهيبة واستجلابا لاحترام الشخصيات التى كانت تتعامل معها، والتى لم تكن تنظر إليها باعتبارها مجرد مخدمة كغيرها ممن يمارسون تلك المهنة، بل بصفتها سيدة ثرية من أولاد الناس الطيبين تتسلى بالعمل فى هذا المجال.

والحقيقة أن مصاغ «فاطمة العورة»، كان من الكثرة بصورة أذهلت «سكينة» حين رأتها تتزين به فى دكان زوجها الذى لم يكن يبعد عن بيت شقيقتها «ريا» بـ«حارة على بك الكبير» بأكثر من ثلاثين مترا.. فعجزت عن احصائه. واكتفت بوصفه بأنه «حاجة مهولة» إذ كانت الغوايش الذهبية تمتد فى إحدى يديها من معصم الكف.. إلى ثنية المرفق..

وكان «رمضان النجار» قد استعان بمدخرات زوجته فى توسيع دكان النجارة

المتواضع الذى كان يملكه عند زواجه منها. حتى أصبح. خلال سنوات قليلة - ورشة صغيرة، يعمل معه فيها عدد من الصنايعية، استقر به، وبها المقام أخيرا على رأس «حارة على بك الكبير».


بنات بحرى: لوحة للفنان السكندرى محمود سعيد

ولأنه لم يكن - رغم حسه العملى الزائد - من ذلك النوع من الرجال الذين يستمرؤون الحياة على حساب زوجاتهم، فقد أعاد إلى زوجته كل ما اقترضه منها، بعد أن أدت التوسعات إلى زيادة أرباح الورشة، وهو موقف أدى إلى تثبيت أركان زواجهما، بعد أن اكتشفت «شيخة المخدمين» مدى تعففه عن الرغبة فى الاستيلاء على أموالها، فلم تتردد فى مساعدته كلما احتاج إلى نقود لتمويل العمل، خاصة وأنه لم يكن لها أقارب غيره، سوى ابنة أخت وحيدة. كانت تقيم بعيداً عن الاسكندرية..

والحقيقة أن «محمد أحمد رمضان» لم يكن يخلو من ميزات أخرى كثيرة، دفعت زوجته إلى الحرص على زواجهما، على الرغم من أنه بنى على أسس عملية محضة.. إذ كان نجارا ماهرا، يحب عمله، ويسعى لإنجاحه، وكان فضلا عن هذا يعرف القراءة والكتابة، ويكثر من قراءة الكتب والصحف والمجلات، مما كون له ثقافة خاصة، ربما أثارت سخرية المتعمقين فى شئون الفكر، لكنها اكسبته نوعا من الاحترام الاجتماعى، ورفعت من مكانته بين العوام والأميين فى المحيط الذى يتحرك داخله، إذ كانوا يلجأون إليه، لكى يكتب لهم بعض الخطابات، أو يقرأ عليهم أخبار الصحف، ويجدون فى حديثه جدة

وطرافة، ويثقون بآرائه فى المسائل السياسية التى كانت مثار اهتمام واسع آنذاك، بسبب تصاعد الحركة الوطنية..

وهكذا شهد دكان «رمضان النجار» فى تلك الأيام من اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٠، مناقشات واسعة، حول مشروع المعاهدة، الذى عرضه «اللورد ملنر» على «الوفد المصرى» بعد محادثات طويلة جرت بين الطرفين فى «باريس».. وهو مشروع اختلف اعضاء الوفد فيما بينهم حول الموقف منه، فأرسلوا إلى «القاهرة» أربعة منهم - هم «محمد محمود باشا» و«عبداللطيف المكباتى بك» و«أحمد لطفى السيد بك» و«على ماهر بك» - لكى يشتركوا مع ثلاثة آخرين من اعضائه كانوا بمصر - هم «مصطفى النحاس بك» و«ويصا واصف بك» و«حافظ عفيفى بك» - فى عرض المشروع على الأمة، وإدارة حوار حول صواب قبوله أو رفضه. وكان «رمضان النجار» هو محور تلك المناقشات، والمصدر الموثوق به، لكل ما يتداوله المجتمعون من آراء وأفكار ومعلومات..

والواقع أنه كان يجد متعة فى تلك الجلسات التى كانت ترفع من مكانته بين جيرانه فى حارة «على بك الكبير». لكن ثقته المبالغ فيها بنفسه، كانت من أسباب نفور جاره «حسب الله» منه، فضلا عن انه لم يكن يستطيع أن يجاريه فيما كان يسميه «فلسفته الفارغة» فقد ناوشه احساس خفى، وقوى، بأن الرجل يتعالى عليه، بمهنته الشريفة، وبثراء زوجته وبلسانه الذرب، وباحترام الناس له، مع أنه كان يعتقد أنه مجرد نجار تافه الشأن، يعيش على أموال زوجته.

وعلى العكس من «ريا» التى كانت حريصة على أن تحتفظ بعلاقات مودة بكل جيرانها، فكانت تلجأ إلى «رمضان النجار» بين الحين والآخر، فى شأن من شئون مهنته، فيكلف أحد صبيانه، بأن يصنع لها رفا تعلقه على الحائط، أو يصلح لها قبقابا أو بابا، ويتساهل معها فى الأجر، وقد يتنازل عنه، فإن «حسب الله» كان يقتصر على القاء السلام عليه، كلما مر على ورشته فى طريقه إلى منزله.. فيرد الرجل السلام بفتور، إذ كان يبادله الاحتقار، وينظر إليه باستهانة، بسبب مهنته، التى كان يقبل - مع بعض التجاوز - أن تمارسها امرأة مثل «ريا» أما أن يتعيش من ورائها رجل طويل وعريض مثل «حسب الله» فهو أمر لم يكن يستطيع إلا أن يزدريه.

وكان الازدراء المتبادل بين الرجلين وراء اهتمام «رمضان» المبالغ فيه، بالانقلاب الذى حدث فى مظهر «حسب الله» إذ أخذ يتابع تطوراته، ويلفت نظر الجالسين معه فى الدكان إلى تنوع الجلابيب التى أصبح يرتديها، وإلى المعطف والطربوش وخواتم الذهب والحذاء الذى حل محل المداس فى قدميه، وأخيرا إلى الكتينة الذهبية، التى تدلت من جيبه. ويثير الشبهات والمناقشات حول مصدر ذلك كله..

ولابد أن شيئا من ذلك قد وصل إلى «حسب الله»، أو انه كان قد استنتجه من نظرات الاستخفاف التى كان النجار يتعمد

أن يوجهها إليه. والواقع أنه لم يكن فى حاجة إلى مبرر، لكى يرفع من درجة تعاليه على من كان يعرفهم فى سنوات فقره وذله، إذ كان هذا التعالى، جزءا من عملية التعويض النفسى التى دفعته للاهتمام بمظهره. وكان هؤلاء تحديدا هم الذين تعمد ان يخطرهم بأن زمن الفقر قد انتهى، وبأنه قد انتقل إلى طبقة أخرى، أعلى وأعز وأكثر احتراما من طبقتهم، وأن تبسطهم فى التعامل معه، باعتباره صديقا أو ندا لم يعد مقبولا، وأن عليهم أن يعاملوه بما يليق بمكانته الجديدة، وإلا فلن يتعامل معهم..

ونتيجة لذلك، أصبح «حسب الله» يتعمد أن ينتقل إلى الطوار الآخر، كلما اقترب من دكان النجار، لكى يتجنب القاء السلام عليه، وعلى الجالسين معه. وهى حركة لم يفت مغزاها على «رمضان»، إذ كان الطوار الذى يفتح عليه باب دكانه، هو الطريق الطبيعى إلى بيت «حسب الله» الذى كان يقع فى نفس الصف، فضلا عن أن عرض الحارة - الذى لا يتجاوز المترين - لم يكن ليحول بينه وبين تحيته.. ومع أنه صبر على ذلك التصرف الذى لم يجد له مبررا إلا رغبة جاره فى اعلان احتقاره له، إلا أنه لم يستطع أن يواصل هذا الصبر، حين أصبح «حسب الله» يمر من أمام باب الدكان مباشرة، فلا يلقى عليه السلام، ووجد فى ذلك استفزازا، دفعه لأن يترصد له يوما، فما كان يمر عليه، حتى قال له بسخرية:

- اللى أعطاك يعطينا ياسى «حسب الله افندى»... يا عم السلام ده صدقة..



نبوية بنت جمعة.. الضحية الرابعة

إرميه واحنا ندوك ثمنه.. واللا ما عدناش قد المقام؟.. الله يرحم أيام اللبدة والمداس..

واستفزت سخريته، التى تعالت فى أعقابها قهقهات الجالسين معه، «حسب الله أفندى» الذى قال له بتعال:

- يعنى ح أسلم ع البرنس ياخى.. ايش تكون بين الناس عشان استعنى بك وأسلم عليك.. مش نجار ومراتك مخدّمة؟!

ولأن سلاطة اللسان لم تكن تنقص «رمضان» فقد رد عليه على الفور قائلاً:

- وايش تكون انت بين الناس؟.. مش كرخانجى؟.. ومراتك معرّصة «قوادة»؟!.

وهكذا تبعثرت كرامة «حسب الله أفندى» على الطوار، ولولا تدخل المحيطين

بهما، من الجالسين فى الدكان، والعابرين ورواد الدكاكين المجاورة، ليحولوا دون اشتباكهما، لتحول الأمر إلى معركة عنيفة.

ومع أن «حسب الله» استجاب لإلحاحهم، وقبل حكمهم بأن يسترضى كل منهما الآخر، ويعتذر له، باعتبار أن الخطأ متبادل ومشترك بينهما، لأنه كان أعجز من أن يخوض المعركة، فقد عاد إلى بيته وهو يتميز غيظا وغضبا بسبب الاهانة التى وجهها إليه النجار، أمام الناس، وهو فى أوج احساسه بالعظمة، فأفسد مشروعه لوضع حواجز بينهم وبينه، ولانتزاع اعتراف منهم بتميزه عليهم.

ومع أن «ريا» كانت أول من عرف منه بما حدث، إلا أنها لم تسمع نص ما قاله «رمضان» إلا من الجيران، الذين أخذوا يتداولون الواقعة فيما بينهم.. فتلقتها ببساطة واعتبرتها مجرد سوء أدب من النجار، ودعت زوجها إلى التغاضى عما جرى، حرصا على العلاقات الطيبة بينهم وبين جيرانهم، التى لا غنى لهم عنها إذا أرادوا أن يواصلوا العمل بعيدا عن التدخلات والمنغصات.. وحتى لا يستفزوا «رمضان» فيثير من حولهم فضائح أخرى، بينما لم تكن اصداء الفضيحة التى أثارها «محمد السقا» قد خفتت بعد.. وهو موقف أشعل غضب «حسب الله» الذى كان ينظر لما فعله النجار باعتباره أذى لحق بشرفه الرفيع، لا تغسله إلا الدماء، فوجه عدوانه نحوها، إذ لولا مهنتها المحتقرة، لما جرؤ نجار تافه الشأن على التطاول عليه..

وكانت «سكينة» هى التى نظرت للأمر من وجهة نظر «حسب الله» وشجعته على البحث عن وسيلة لتأديب النجار، وانضم إليهما فى ذلك «عرابى»، وبعد مناقشة طويلة، استبعد الثلاثة، فكرة تأديبه عن طريق العراك معه، بسبب ردود فعلها السيئة على نشاط البيت وعلى ما يجرى فيه، ولابد أن «سكينة» كانت تضع فى اعتبارها ذلك القدر المهول من الغوايش التى كانت تمتد من معصم «فاطمة شيخة المخدمين» إلى ثنية مرفقها، حين اقترحت أن يجرى تأديب زوجها.. عن طريقها واقترح «حسب الله» اقتراحا يليق برجل من نوعه، لا يملك قدرة حقيقية على المواجهة، ورأى أن الوسيلة الوحيدة للثأر من إهانة «رمضان» له، هى استباحة جسد زوجته، واغتصابها، لكى يكسر عينه، ويبرهن له على أن القوادة زوجة الكرخانجى، أشرف منه، ومن زوجته، إذ لا يجرؤ أحد على استباحة جسدها.

والغالب أن المشروع كان يهدف منذ البداية، إلى ضرب عصفورين بحجر واحد، وأن التخطيط لاستدراج «فاطمة العورة» لم يكن يهدف فقط إلى كسر عين زوجها، بل كان يهدف كذلك إلى قتلها والاستيلاء على مصوغاتها.. بل لعل الهدف الثانى، قد تحول إلى هدف وحيد قبل أن ينتهى وضع الملامح الأخيرة للخطة، التى أصبحت جاهزة للتنفيذ فى الأسبوع نفسه الذى جرت فيه الملاسنة بين «حسب الله» و«رمضان».

وكان منطقيا أن يستبعد المخططون بيت «ريا» بـ«حارة على بك الكبير» كمكان

للتنفيذ لأسباب تتعلق بالملاءمة.. إذ كان من غير المعقول أن تتم عملية «كسر العين» فى منزل «ريا» وعلى فراشها، على الرغم من أنها لم تبد اعتراضا على ذلك، كما لم يكن معقولا أن يستدرجوا «فاطمة» ليقتلوها فى منزل يقع على مبعدة ثلاثين مترا فقط من دكان زوجها الذى لم يكن يفارقه طوال اليوم.. إذ كان احتمال مرورها على الدكان، قبل وصولها إلى البيت.. لتصطحب زوجها إلى جلسة المصالحة التى اتفقوا على أن يتخذوها ذريعة لاستدراجها، احتمالا واردا بل يكاد يكون مؤكداً.

وحين غادر «محمد أحمد رمضان» منزله فى السادسة والنصف من صباح يوم الأربعاء ٢٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠، لم يكن يعرف أن تلك هى اللحظة الأخيرة التى يرى فيها زوجته بعد سبع سنوات عاشها معها.. فقد جرت الأمور كما تعودت أن تجرى كل صباح. وكان يرتدى ملابسه، حين وجد فى جيب المعطف الذى تعود أن يرتديه أثناء العمل، أربعة وخمسين جنيها كان قد تسلمها من أحد الزبائن فى الليلة السابقة، فأعطاها لها، لكى تحتفظ له بها، واكتفى بما كان معه من نقود أخرى، قدر أنها قد تكفى لتسيير العمل، ثم انصرف إلى ورشته.

وبعد أكثر من ساعتين على خروجه كانت زوجته قد استكملت استعدادها للتوجه إلى دكانها، وغادرت البيت وهى ترتدى جلبابها الفوال البنى، تحت ملاءتها الكريشة، وتنتعل صندلا أحمر، وتزين يدها اليمنى بزوج من الأساور وست غويشات ذهبية، ويدها اليسرى باثنتى عشرة غويشة.

وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة صباحا، حين غادرت «سكينة» الخمارة، إلى منزل شقيقتها «ريا» بينما كان «حسب الله» مايزال فى فراشه. وقد قال فيما بعد انه استيقظ على مشاجرة حادة بين الشقيقتين حول نقود كانت «سكينة» قد أقرضتها لشقيقتها وجاءت لتستردها منها لكى تسدد ما عليها من ديون للخمارة، فاعتذرت «ريا» بأنها لا تملك قرشا واحدا. وأضاف بأن المناقشة فيما بينهما تطورت إلى أن انتهت باقتراح «سكينة» بأن يقوموا بتنفيذ عملية «شيخة المخدمين» على الفور.. وأنه فوجىء بدخول «عرابى» الذى اصطحبه معه إلى المقهى، إلى أن تقوم المرأتان بسحب «فاطمة العورة» إلى بيت «سكينة» الذى اختير لتنفيذ العملية به.

وبعد قليل من خروجهما، غادرت «سكينة» منزل شقيقتها إلى الشارع «البرهامى».. وتطبيقا لاجراءات الأمن التى كان عليها أن تتخذها لكى لا تلحق بها الشبهات بعد ذلك، فإنها لم تدخل مباشرة إلى دكان شيخة المخدمين، بل وقفت على الطوار المواجه له فترة قصيرة، أتاحت لها أن تأخذ فكرة عامة عما يجرى به، ثم عبرت أمامه بسرعة خاطفة مرتين، أتاحتا لها أن تلم ببعض التفاصيل الدقيقة، التى حالت الرؤية عن بعد، بينها وبين الإلمام بها.



عمال البحر علي المقهى الذى تعودوا الجلوس عليه بالقرب من الميناء

وكانت النتيجة على وجه الإجمال طيبة، إذ كانت «فاطمة العورة» تجلس أمام مكتبها وهى تدخن النرجيلة خلف الحاجز الزجاجى الذى يفصل بين المكتب الذى تعودت أن تلتقى فيه بالمحترمين من زبائنها من أرباب الأسر.. وبين المكان المخصص لطالبات العمل من الخادمات، وكانت المشكلة الوحيدة، هى خشية «سكينة» من أن يتعرف عليها أحد سواء بين النساء اللواتى احتشدن فى المكتب بحثا عن عمل، أو بين الذين قد يرون المرأة معها وهما فى الطريق من الدكان إلى بيتها.. فعادت مرة أخرى إلى بيت شقيقتها.. وبعد تقدير سريع للموقف، صعدت «ريا» إلى الطابق الثانى من المنزل، حيث تسكن صديقتها «أم رجب» فاقترضت منها برقعا.

ولأن «سكينة» كانت تظهر عادة سافرة، ولا تستخدم الملاءة إلا نادرا، فإن أحدا لم يتعرف عليها، حين غادرت بيت شقيقتها وهى تلتف بملاءة «ريا» وتغطى وجهها ببرقع «أم رجب».. ولم يلفت دخولها إلى دكان «فاطمة العورة» بصحبة ابنة شقيقتها «بديعة» نظر واحدة من النساء المحتشدات فى الدكان، إذ كانت كثيرات منهن يصطحبن معهن أطفالهن، لتبحثن لهم عن عمل.. لكنها وصلت بعد دقائق قليلة من مغادرة شيخة المخدمين، إلى منزلها، لكى تتناول غداءها، وتعد طعام العشاء لزوجها، وهى الوجبة الوحيدة التى كانا يتناولانها معا.. وبعد نصف ساعة من الانتظار، غادرت «سكينة» الدكان لتعود مرة أخرى إلى منزل «ريا» التى ثارت فى وجهها وقالت لها:

- انت يا بنت الكلب ماتعرفيش تجيبى حاجة.. سيبى «بديعة» والبرقع وروحى بيتك، وأنا أروح أجيبها وأحصلك..

تنكرت «ريا» بالملاءة وأخفت وجهها بالبرقع، واصطحبت معها ابنتها «بديعة» إلى بيت شيخة المخدمين بالشارع البرهامى نفسه، فاستقبلتها المرأة بترحاب، وصنعت لها فنجانا من القهوة، واستمعت إلى شكواها من الطريقة الفظة التى تعامل بها الأسطى «رمضان» مع زوجها، ولم تمانع فى الاستجابة إلى طلبها بأن تشارك فى جلسة صلح تمهيدية تعقد فى منزل شقيقتها «سكينة» ويحضرها «حسب الله» لتستمع إلى روايته لما جرى، ثم تحكم - بعد ذلك - بما تراه ملائما لحفظ علاقات المودة بين الجيران.

وكانت الساعة قد جاوزت الثالثة والنصف، حين وصلتا معا إلى بيت «سكينة» بـ«حارة ماكوريس». ودهشت «سيدة سليمان» التى كانت تقف آنذاك بنافذة غرفتها المطل على الحارة، حين رأت «ريا» على غير عادتها تخفى وجهها ببرقع.. وأثار فضولها الذى كان حادا وحاضرا فى كل وقت، مظهر المرأة العوراء التى كانت بصحبتها، إذ بدت لها أكثر أناقة واحتراما من النساء اللواتى تتعامل معهن الشقيقتان عادة..

والواقع أن «فاطمة العورة» لم تقصر فى تأكيد تميزها، إذ ما كادت تدخل حجرة «سكينة» حتى قالت بتأفف:

- دى ضلمة قوى..

وتحملت «ريا» نبرة التعالى التى ساقت بها المرأة ملاحظتها بصبر. أما «حسب الله» فإنه ما كاد ينتهى من مصافحتها حتى خلع لوحى الخشب اللذين تتكون منهما الصندرة، ووضعهما فى ركن الغرفة، فاتسعت بذلك لمرتبة اضافية من القطن، فرشت فى المكان الذى كانت تشغله الصندرة، لتجلس عليها المرأتان، فى مواجهة «عرابى» و«حسب الله» اللذين استندا بظهريهما إلى الحائط المقابل.

ولم يستغرق العتاب سوى وقت قليل، وقد بدأه «عرابى» بخطبة تمهيدية تافهة حول مكانة الجيرة وحقوق الجيران، مدح فيها الطرفين بما ليس فيهما، وشهد - زورا - بما يعرفه عن عواطف المودة الصافية التى يكنها صديقه المحترم «حسب الله»، وزوجته المصون «ريا»، للست «فاطمة» وزوجها الأسطى «رمضان»، ثم ترك الحديث لـ «حسب الله» الذى أكد شهادة «عرابى» عما يحمله وزوجته من مودة لآل رمضان، ثم روى الواقعة من وجهة نظره، وحين جاء دور «فاطمة العورة» للتعليق على ما سمعته، بادلت الجميع عواطفهم الكاذبة بمثلها، لكنها لم تقصر فى تصحيح الوقائع الناقصة التى رواها مضيفها، ودافعت عن زوجها قائلة بأن ما نسبه إليه كان رد فعل، لا فعلا، ودفاعا لا هجوما، وأن «حسب الله» هو الذى بدأ بتعيير سى «رمضان» بمهنته، وبمهنتها هى زوجته، مع أنه لا عيب إلا العيب... وليس فى اشتغالها كمخدمة، ما يشينها، أو يخدش شرفها.

وقبل أن تواصل الحديث، فتقول ما يعكر جو الجلسة، انتقل «حسب الله» ليجلس بينها وبين زوجته، وقال لها بصوت مشحون بالعاطفة:

- خلاص... مادام جيتى هنا... يبقى حكمك ماشى... حتى لو حكمت إنى أذبح «بديعة» بنتى... ح ادبحها لك... ولازم تتغدى معانا...

ولم تجسر المرأة على الاعتذار عن قبول الدعوة التى شفعها «حسب الله» بقسم مغلظ بالطلاق... وبناء على طلبه خرجت «سكينة» إلى مدخل البيت، ونادت «بديعة» التى كانت تلعب فى الحارة، وناولتها كوبا زجاجيا وثلاثة قروش طلبت منها أن تشترى بها سمنا من بقال قريب... بينما اتجهت إلى «خمارة كرياكو» لتعود بعد قليل وفى يدها زجاجة من النبيذ وطلبت من «سيدة» - التى كانت ما تزال تقف فى النافذة - أن تبيعها بيضا بربع ريال، فأعطتها ست بيضات، ثم أضافت إليها واحدة، بعد أن ذكرتها «سكينة» بأنها جارتها... وكانت «ريا» قد اشعلت الموقد، وفتحت علبة «بولوبيف» وجدتها بحجرة شقيقتها... وساهم النبيذ والطعام فى تسليف جو الجلسة، التى كانت قد انتقلت للنقاش حول امكانية تشغيل «بديعة» خادمة فى أحد البيوت المحترمة....

وكان إصرار «سيدة» على البقاء بنافذة غرفتها المطلة على الحارة، حيث تستطيع أن تراقب مدخل البيت، قد أثار بعض القلق فى صفوفهم، مما دفع «ريا» لمغادرة الغرفة، لكى تتابع الموقف... فلما وجدتها ما تزال تقف ببرج المراقبة، تظاهرت بأنها جاءت لتشترى منها مزيدا من البيض، وبعد قليل من عودتها، قامت «سيدة» بتصرف دل على عجزها عن التحكم فى فضولها لمعرفة ما يجرى فى غرفة «سكينة»، إذ فتحت باب غرفتها الذى يقود إلى الصالة الداخلية، والذى لم تكن تستخدمه عادة، وعبرتها إلى المنور الداخلى، وكانت النظرتان العابرتان اللتان ألقتهما فى ذهابها وعودتها، كافيتين لكى ترى المرأة وتعرف أنها عوراء، ولكى ترى رجلا قصيرا يميل إلى الامتلاء، ويرتدى جلبابا أزرق، لم تعرف إلا فيما بعد، أنه «عرابى حسان»...

وبسبب الظلام الذى كان يطبق على الصالة، فإن أحدا لم يرد سوى «سكينة» التى كانت - بحكم جيرتها لها - تعرف مدى بشاعة فضولها... فألمحت بذلك إلى شقيقتها، التى تنبهت إلى أن شيخة المخدمين توشك على الاستئذان، وفى محاولة لاستبقائها بعض الوقت، طلبت من شقيقتها أن تشترى نصف أقة أخرى من النبيذ... وحذرتها بلهجة خاصة أن تتأخر، أو تقف مع «سيدة»، لكى تتسامر معها كعادتها، فأدركت «سكينة» أن الوقت قد حان، وأن من المفيد أن تقوم بما نهتها عنه شقيقتها، فتشاغل «سيدة»، حتى لا تكرر عبورها إلى صالة المنزل اثناء التنفيذ.

وهى مهمة قامت بها باستمتاع، فخرجت إلى الحارة، ووقفت تحت النافذة التى كانت تطل منها «سيدة» واستدرجتها إلى الحديث فى موضوع كانت تعلم أنه سيلهيها عن كل ما حولها، وهو تفاصيل المعركة القضائية التى كانت تدور منذ شهور بين اصحاب المنزل، وزوجها «محمد أحمد السمنى»، باعتباره مستأجر الطابق الأرضى. وكانت المعركة قد وصلت إلى

ذروتهـا، قـبل ثلاثة أيام، بصـدور حكم يقـضى بفـسخ عـقـد الإيجـار وبطرد «السمنى» لعدم تسديده القيمة الإيجارية لمدة ستة شهور، وبالحجز على منقولاته مـقـابل الايجـار المتـراكم عليـه. ومع أن السكان الذين كـانوا يسـتـأجـرون غـرف الطابق من البـاطن، ومن بينهم «سكينة» نفسـهـا كـانوا قـد رفـضـوا التـضـامن مع «السـمنى» أو مـشـاركـتـه فى دفع رسـوم الاستشكال فى الحكم، فقد بدأت «سكينة» الحـديث مع «سـيـدة» بالاعـلان عن استعدادها لدفع نصيبها من تلك الرسوم، إذا شرحت لها المسألة....

فظلت «سيـدة» تواصل الشـرح إلى أن خـرجت «ريا» ... ثم تبعهـا - بعد أكثر من نصف ساعة- «عرابى»، فأدركت «سكينة» أن «شيـخة المخدمين» قد غادرت الدنيا، وأن مهمتها فى إلهاء «سيدة» عن المراقبة قد انتهت.

وكانت تبحث عن ذريعة تنسحب بها من المناقـشـة، حين أطلت من أحـدى نوافـذ الطابق الأول للمنزل المقـابل، إحـدى الجـارات، لتطلب من «سـيـدة» أن تصـعـد إليها بعشر بيضـات... فانتهزت «سكينة» الفرصة، وهربت إلى «خمارة كرياكو»، فلم تعرف إلا فيما بعد أن «سيدة» أبت إلا أن تشبع فضولها فحملت البيض، وتعمدت أن تخرج - للمرة الثانيـة - من باب غرفتهـا الذى يقـود إلى الصـالة الخـارجـيـة، لكى تتأكد مما كان يجرى فى غـرفـة «سكينة»، فلما وجدت بابها مغلقا، تسللت إلى المنور المهجور، وقربت وجهها من زجاج نافذتها التى تطل عليه.. ومع أن العتمة كانت تلف كل شىء داخل الغـرفـة فـقـد رأت «المرأة العـوراء»، ترقـد على ظهـرهـا فوق مـرتبـة «سكينة» القطنيـة، وهى لا تـرتدى سـوى مـلابسهـا الداخلية. أما «حسب الله» الذى لم يكن يرتدى هو الآخـر غـيـر مـلابسـه الداخلية - فكان يجلس عند قدميها، ويهم بالانحناء عليـهـا فـيـمـا توهمت أنه يهم بمضـاجعتهـا فذعرت مما رأته وأسـرعت إلى البيت المقابل فأعطت جارتهـا البيض الذى طلبتـه... ووقفت تتسامر معهـا، من دون أن ترفع عـينيهـا عن باب المنزل الذى تسكن فـيـه، فى انتظار أن تخـرج المرأة العـوراء، فتلقى عليهـا نظرة أخـرى، لعلهـا تتعـرف على شخـصيـتهـا، بعـد أن اطلعت على سرها...

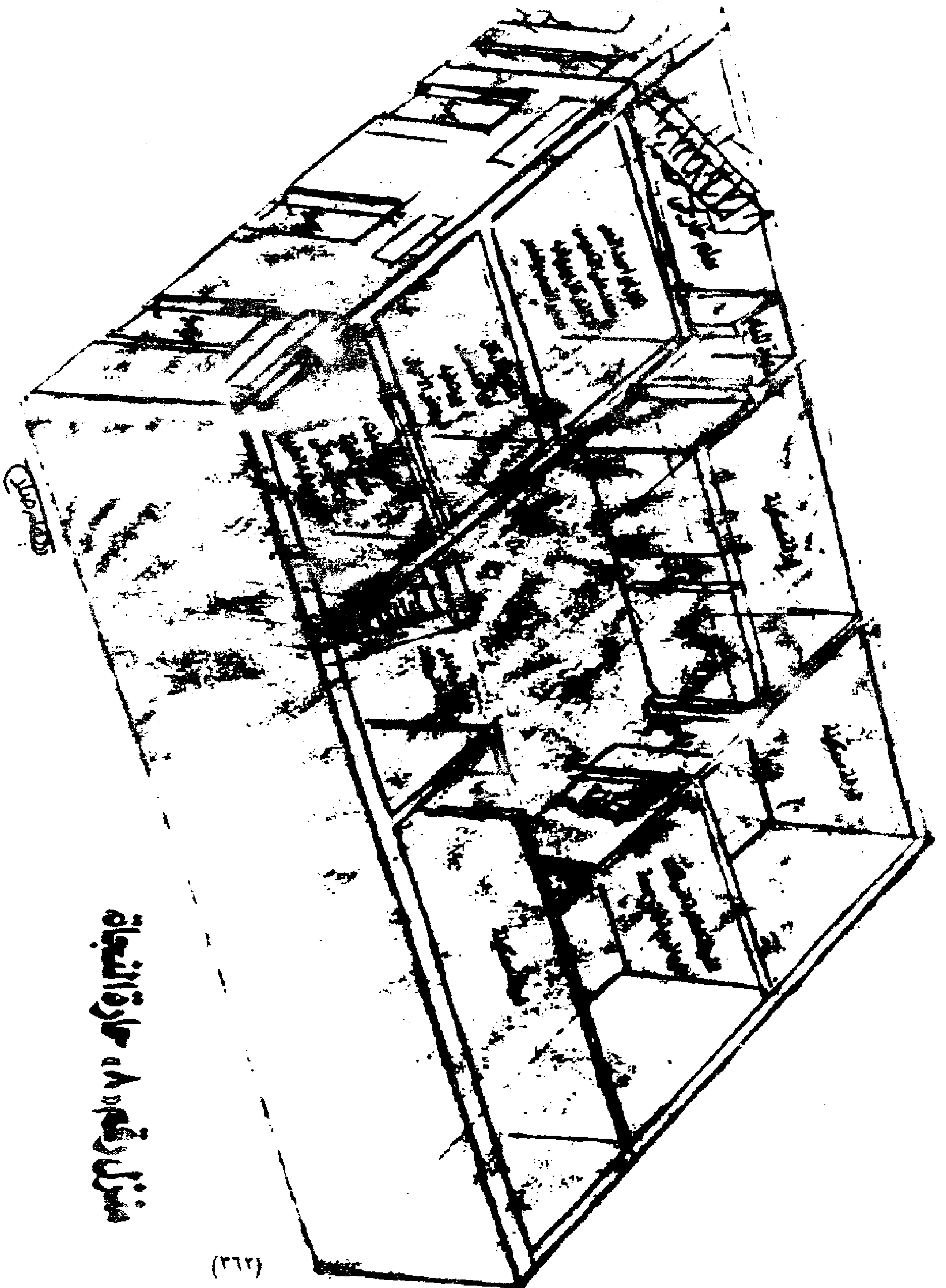
ولم تدهش حين عـادت «سكينة» بعـد قليل لتجلس على مقـهى «زكيـة جـعـفـر» المواجـــه للمنـزل.. من دون أن تفكـر فى دخـول حجـرتها.. ولم تغادر المقهى إلا حين ظهر «حسب الله» على باب المنزل، فاتجهت إليه... وكانا يتهامسان حين وجدا «سيدة» تقف بينهما، لتسأل «سكينة» بريبة شديدة:

- الحـرمـة اللى كـانت جـوه راحت فـين يا«سكينة»؟!

ومع أن السـؤال قـد فـاجـأهـمـا، إلا أن «حسب الله» تمالك نفسه بسرعة... وقـال لها بصوت حاول أن يجعله طبيعيا:

- دى خرجت من بدرى مع «ريا».

لكنهـا تجـاهلتـه... وعـادت لتـخـاطب «سكينة» قائلة:



منزل أم أحمد بحارة النجاة حيث قتلت نبوية بنت جمعة

- أنا شفت «ريا» وهى خارجة... ما كانش معاها حد.

وفى محاولة أخيرة للتموية... قالت «سكينة»:

- لازم خرجت ساعة ما رحت بالبيض لمرات «حسن أفندى».

لكن «سيدة» أصرت على أنها لم ترفع عينيها عن باب منزلها، طوال الوقت الذى قضته تتسامر مع جارتها... وأنها لم تر المرأة تغادر المنزل... ثم سحبت «سكينة» خطوات، وقالت لها بصوت متوتر، لم تستطع أن تتحكم فيه، فسمعه «حسب الله»

- أنا شفت كل حاجة.

وكان الدم قد انسحب من وجه «سكينة» - على الرغم من حالة الجسارة المؤقتة التى كانت الخمر تنفثها فى عروقها - حين اقترب منها «حسب الله» ليساعدها فى مواجهة الموقف، ويسأل «سيدة» بسذاجة متعمدة، عما رأته ،ولولا بقية من صحو، دفعتهما للتظاهر بالجدية الشديدة، لقهقه الاثنان تعليقا على ما قالته المرأة التى واجهتهما بأنها رأت «حسب الله» وهو ينام مع المرأة، مما دل على أنها، وأنها أخطأت تفسير المشهد الوحيد الذى رأته من واقعة شيخة المخدمين... وكان من حسن حظهما أن النظرة التى ألقتها على ما يجرى داخل الغرفة المعتمة، كانت خاطفة، أوحت لها بأن «حسب الله» يرتكب الفحشاء مع المرأة العوراء، فخجلت من مواصلة التلصص عليهما، وغادرت المكان بسرعة، ولو أنها دققت النظر لرأت القبر المفتوح الذى كان «عرابى» قد شارك - قبل انصرافه- فى حفره، تحت النافذة التى كانت تختلس النظر من خلف زجاجها، ولو أنها كانت قد أطالت الوقوف خلفها قليلا، لعرفت أن «حسب الله» كان يوشك على حمل جثة المرأة التى كانت ميتة آنذاك، لكى يوسدها قبرها، ولرأته وهو يهيل عليها التراب، ثم يدكه بقدميه، ويعيد صف البلاط فوقه، ثم يفتح النافذة التى كانت تقف وراءها، لكى يلقى بما تخلف عن عملية الدفن من أتربة، بالمنور المهجور..

أما وقد اكتشف «حسب الله» أن شكوك المرأة، قد أخذت مسارا بعيدا عما كان يخشاه، فقد أحاط كتفيها بذراعه، وسار بها إلى داخل المنزل، وهو يقول هامسا:

- أنا ح نقولوا لك على اللى حصل... وانت كلك نظر... الست دى رفيقتى ومتجوزة واحد صاحبى... وليها كيف منى... وأنا ما نحبوش إن أى حد يعرف شىء عن ده... وع العموم أنا أخذت منها عشرة جنيه... لك منهم اثنين جنى...

ولم تصدق «سيدة» عينيها، حين وضع «حسب الله» يده فى جيب صيديرته، واخرجها وبها جنيهان، ناولهما لها، فتلقفتهما بفرح، وأسرعت تدسهما فى صدرها، خشية أن يغير رأيه فيستردهما منها... وحين عادت تكرر القول بأنها لم تشاهد المرأة العوراء وهى تغادر المنزل، قالت ذلك بصوت افتقد لكثير من ثقته، وبنبرة تخلو من التهديد، وكانت «سكينة» هى التى ردت عليها قائلة:

- دى شـربت كـتـيـر... وطرشت... وأخذتها «ريا» تروحها...

وأيدتهـا «ريا» التى كـانت قـد عـادت آنذاك من بيـتـهـا فـى «حـارة على بك الكبيـر»، بعد أن أخفت به مـلابس شيخة المخدمين، بل ودخلت إلى غـرفـة «سكينة» فسـاعـدتهـا فى كنس مـا تبـقى من أتربة، نتيجـة للحفـر، وألقته أمـام باب الغرفـة، قائلة إنه التراب الذى استخدم فى تغطية قىء المرأة. وطلبت من «سيدة» أن تلقيه فى المنور، وكـانت زوجـة «السـمنى» فى حـالة نشوة بالثـروة الهـائلة التى هبطت عليـهـا، ووفـرت لهـا رسـوم الاستشكال فى تنفـيذ الحكم الذى يقـضى بطردها من المسكن، أعـمتـهـا عن التـفكيـر فى أى شىء آخـر، واسقطت كل شكوكها، مما جعلها تتطوع بحماس لكى تكنس صالة المنزل، وتلقى بما تخلف عن دفن شـيـخـة المخـدمـين إلى الشار[illegible]..

و[illegible] بعد، اختلفت التقديرات حول احـصـاء الغنيـمـة التى حـصلت عليـهـا العصابة من عملية قتل شيخة المخدمين، إذ ذكـر زوجـهـا فى البـلاغ الذى قدمـه إلى مدير مديرية الاسكندرية - فى ٢٣ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠... وبعد ثلاثة أيام من غيابها - أنها كانت تحمل مصاغا يتكون من ١٨ غـويشـة وزوجـين من المبـاريم (الأسـاور) ولبّـة (كـردان رفـيع) وحلق قـدر ثمنها جميعا، بمائة جنيه، فضلا عن ٥٤ جنيـهـا من أوراق النقـد... وهو تقـدير يقترب من تقدير «سكينة» التى أضافت أن بقـيـة شـركـائهـا، قد أخـفـوا عنهـا مـعظم مـفـردات الغنيـمـة، ولم يظهـروا لهـا منهـا سـوى ١٦ غـويشـة وزوج المبـاريم، وقـد اشتراهم «على الصائغ» بثلاثين جنيها، كان نصيبها منهم هو خمسة جنيهات فقط... وأن بقـيـة الغـوايش واللبّـة والحلق وأوراق النقد لم يظهر لها أثر عند التقسيم.

ومع أن مـبـالغـة أقـارب الضـحـايا فى تقدير قيمة ما كنّ يتزيّن به من مصاغ، أو يحملنه من [illegible]قود، عند غيابهن، ظاهرة تكاد تكون عـ[illegible]ـة فى الشكاوى التى كـانوا يرفعونها إلى السلطا[illegible]، سواء بسبب عدم معرفتهم لمفرداتها الدقيقة أو لتوهمهم بأن تلك المبالغة قد تحفز السلطات للاهتمام بتلك الشكاوى، أو لرغبتهم فى الاحتفاظ بحقوقهم فى إرثهن، أو فى طلب التعويض عـن وفـــاتهن، إلا أن ذلـك لا ينفـى أن «سكينة» - وهى الوحيدة من افراد العصابة التى اهتمت فى اعترافاتها باحصاء الغنائم - ربما تكون قد تعمدت أن تقلل من القيمة الحقيقية لنصيبها من غنيمة شيخة المخدمين. إذ لو صحت روايتها بأن الذين شاركوا فى العملية كانوا أربعة فقط، وبأن المصـاغ قـد بيع بثـلاثين جنيـهـا، لارتفع نصيبها إلى سبعة جنيهات ونصف، أما وقـد هبط هذا النصـيب إلى خـمـســة جنيـهـات، فـلا مـعنى لذلك إلا أن أفـراد العـصابة السـتة - بما فـيهم «عبـد الرازق يوسف» و«محمد عبد العال» - قد اشتركوا فى التنفيذ، أو على الاقل احتفظ المنفذون للغـائب منهم بنصيبه. ولا تفسـيـر لكرم «حسب الله» المبالغ فيه مع «سيدة»، إلا أن غنيمة «شيخة المخدمين» كانت تضم فضلا

عن المصاغ نقودا ورقية، كما ذكر زوجها. وهو ما تؤكده شواهد أخرى من بينها أن «حسب الله» قد اشترى فى اليوم التالى لقتل «شيخة المخدمين» - وهو ٢١ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠ - حلق «ذهب غوازى» يبلغ ثمنه ٢٨٧ قرشا، وخاتما ودبلة فضة وحجر ياقوت يبلغ ثمنهم ٥٣٥ قرشا، كما أرسل حوالة بريدية بمبلغ جنيهين إلى شقيقه «حسين سعيد مرعى» على عنوانه بقرية «دراو» مركز أسوان... وقد ضبطت فواتير شراء تلك الاشياء فى محفظة نقوده عند القبض عليه، فكشفت عن أنه انفق فى ذلك اليوم وحده ما يزيد على أحد عشر جنيها.

ومن بين تلك الشواهد كذلك، أن «سكينة» عادت لتستأنف جلساتها فى «خمارة سبيرو»، بعد انقطاع استمر لعدة أيام، وانضم «محمد عبد العال» إلى اصدقائها الذين وصفت علاقتها بهم بأنها «صحبية خمامير»، وعادت مظاهر الاسراف فى انفاقها على الجميع للبروز من جديد.

والأرجح أن العصابة كانت قد بدأت آنذاك، تكتشف مزايا هؤلاء الضحايا اللواتى يحملن «على قلوبهن» نقودا ورقية... صحيح أن المصوغات الذهبية لم تكن قد فقدت قدرتها على اغوائهم باعتبارها الدليل الظاهر الوحيد الذى يمكن الاطمئنان منه، إلى أن الغنيمة تستحق المغامرة، بارتكاب جريمة قتل... إلا أن احتفاظ الضحية بنقود معها، اصبح اكثر اغواء حتى لو ظل فى اطار الاحتمال غير المؤكد، إذ كان يجنبهم مغامرة عرض المصوغات للبيع، ثم أنها كانت - فضلا عن خطورتها - تباع بنصف ثمنها... وتمكن «على الصائغ» من الحصول على نصيب من الغنيمة، يكاد يساوى مجموع أنصبة المشتركين فى التنفيذ بينما كانت النقود الورقية تخلو من أية مخاطرة فى تصريفها... وتخلص لهم وحدهم من دون شريك، ولذلك لم تكن مصادفة، أن مظاهر الانفاق السفيه على الوجاهة الاجتماعية، لم تظهر على افراد العصابة إلا منذ أضيفت ثلاث من النساء اللواتى يكتنزن نقودهن على قلوبهن، إلى قائمة القتل، هن «أم فرحات» بائعة الجاز، ثم «زنوبة» الفرارجية، ثم «فاطمة العورة» شيخة المخدمين.

ولابد أن انخفاض عدد الافراد الذين يقومون بالتنفيذ كان من بين العوامل التى رفعت متوسط التصيب الذى يحصل عليه كل واحد من الذين اقتصر التنفيذ عليهم. فقد اختفى اسم «عبد الرازق» - أو كاد - من بين اسماء فرقة التنفيذ منذ مقتل رفيقته «أنيسة محمد رضوان» فى أول يوليو (تموز) ١٩٢٠، ومع أن «آل همام» اصروا - فيما بعد- على اتهامه بالمشاركة فى قتل الضحايا الخمس، اللواتى قتلن خلال الشهور الأربعة التالية، فإن تضارب أقوالهم، يوحى بعدم صحتها، ويشى بأن وراء اصرارهم عليها، رغبة فى الثأر من «عبد الرازق» باعتباره صاحب مشروع القتل منذ البداية.

والغالب أن التحقيق الواسع الذى قامت

به «عديلة الكحكية» بحثا عن صديقتها المختفية «أنيسة» كان قد أثار حول العصابة، شبهات وأقاويل، اسفرت عن فتور صلتهم بـ «عبد الرازق»، فلم يشترك فى كل - أو فى معظم - العمليات التالية.

وكان منطقيا كذلك ألا يشترك «عبد العال» فى العمليات التى نفذت بين سفره إلى قريته فى أوائل يونيو (حزيران) وعودته فى أوائل سبتمبر (ايلول) ١٩٢٠، وأن يؤدى الفتور الذى حط على علاقته بـ «سكينة» إلى عدم دعوته للمشاركة فى عملية قتل «زنوبة النرارجية» التى نفذت فى ٣ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠، وما يلفت النظر أنه لم يشارك كذلك فى تنفيذ عملية قتل شيخة المخدمين، مع أن الصفاء كان قد عاد إلى علاقته بـ «سكينة» ومع أنه كان قد عاد إلى التردد عليها فى منزلها... ويبدو أن الظروف التى حتمت دفن «فاطمة العورة» فى الحجرة التى كانا ينامان فيها، كانت وراء حرص «سكينة» على اخفاء الأمر عنه، حتى لا ينفر من البقاء فى الغرفة، أو الاقامة معها فيها.

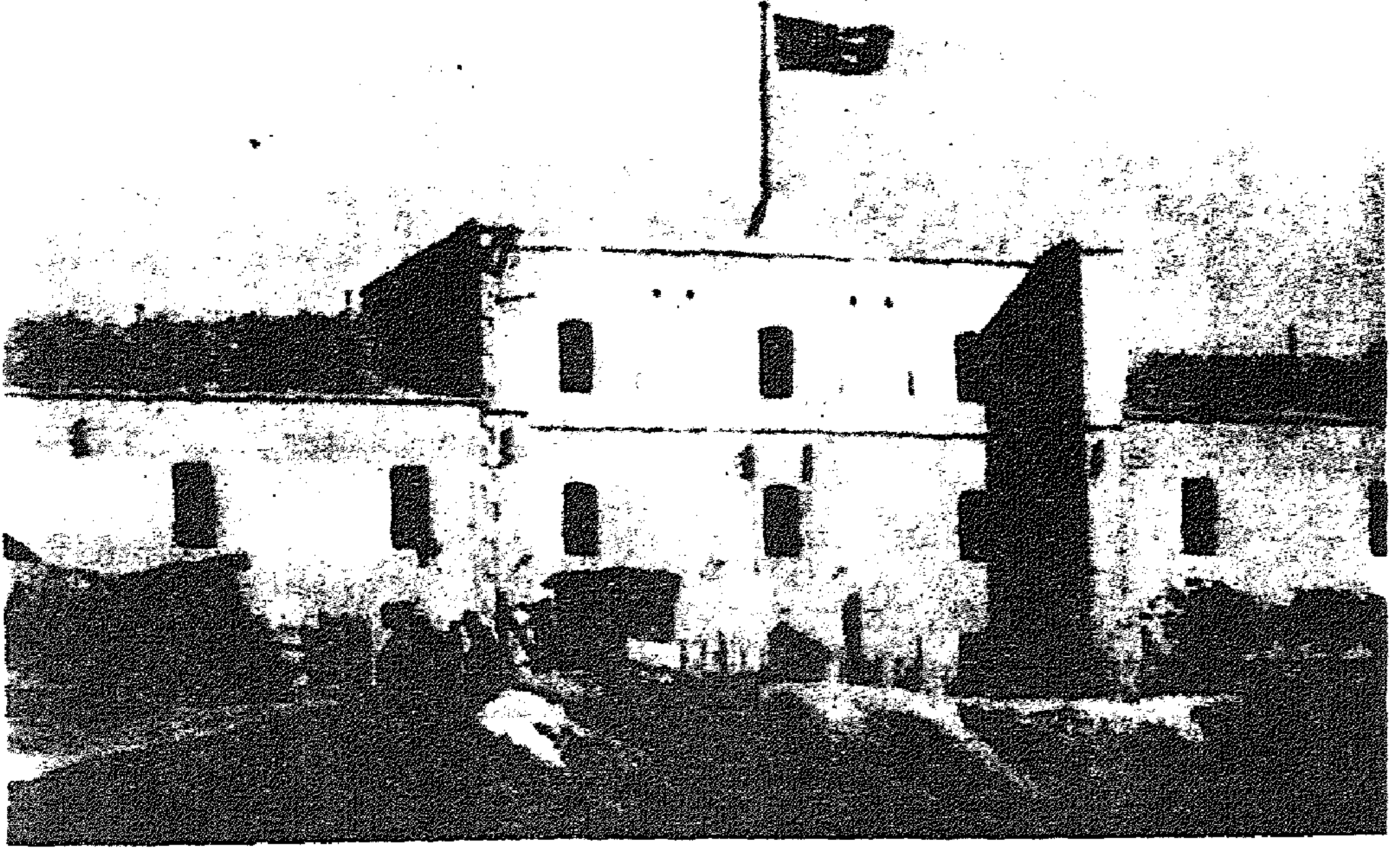


فى الرابعة والنصف عصرا، وقبل قليل من مقتل شيخة المخدمين، وصلت مساعدتها «أم السعد» إلى دكان زوجها على رأس حارة «على بك الكبير» لتسأله عنها، قائلة أنها غادرت دكانها فى الواحدة ظهرا على أن تعود بعد ساعة، ولما تأخرت سألت عنها فى المنزل فعلمت أنها غادرته منذ أكثر من ساعة. ولم يقلق الخبر «محمد أحمد رمضان»، إلا عندما غربت الشمس ولم تظهر زوجته فى أى مكان. فبدأ البحث عنها.

وبعد ثلاثة أيام - وفى ٢٣ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠ - تقدم ببلاغه الأول عن اختفائها إلى مدير مديرية الاسكندرية، ومع أنه حرص على أن يسجل فيه، كل ما كانت تتزين به من مصاغ مهول، وعلى الاشارة إلى أن لها اعداء كثيرين يمكن أن يفترسوها طمعا فى النقود والمصاغ الذى معها، إلا أنه عندما أدلى بأقواله التفصيلية أمام اليوزباشى (الرائد) «ابراهيم حمدى» - معاون قسم شرطة اللبان الذى احيلت إليه الشكوى لتحقيقها - لم يشر إلى أحد من هؤلاء الأعداء، وانصب اهتمامه كله، على التأكيد بأن النقود التى كانت معها هى نقوده، وأنه اعطاها لها «بصفة أمانة»، وأنه هو الذى اشترى لها المصاغ الذى كانت تتزين به من نقوده.

ومع أنه كان يقصد - فى الغالب - أن يسجل فى وثيقة رسمية، حقه فى أن ينفرد بميراث زوجته، إلا أن اصراره ذاك جعل المحقق يتصور أنه يتهمها بأنها سرقته وهربت بنقوده، فاتخذ من ذلك الظن ذريعة للتعامل مع بلاغ غياب «فاطمة عبد ربه» بنفس الطريقة التقليدية، فجرى النشر عنها فى قسم الغائبات بالنشرة الجنائية، وأحيل البلاغ إلى النيابة التى أعادته لقسم الشرطة لعمل التحريات الدقيقة لمعرفة أقارب الغائبة والاستعلام منهم عنها، مع التحرى عن أسباب الغياب.....

وفى ٨ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠،



العلم البريطانى يرفرف علي طابية كوم الدكة

أعاد قسم الشرطة سؤال زوجها، الذى أكد «بأن زوجته لم تعد.

وفى اليوم التالى، أحيل البلاغ إلى الجاويش «أحمد البرقى» - البوليس السرى بقسم شرطة اللبان - لاجراء البحث عنها. فلم يقم بأى مجهود فى هذا الصدد، بل استدعى زوجها، وذكر له بأنه رآها - فى الوقت الذى سبق غيابها مباشرة - تمر أمام باب قسم شرطة اللبان وبصحبتها امرأة رفيعة طويلة القامة، تخفى وجهها ببرقع، وسأله عما إذا كانت زوجته تعرف امرأة بهذه الأوصاف. ولما كان مستحيلا أن يتعرف الزوج على اسم المرأة اعتمادا على هذه الاوصاف العامة التى ذكرها الجاويش، فقد اعتذر بأن زوجته تتعامل - بحكم مهنتها - مع مئات من النساء لا يعرف معظمهن... ومع ذلك فقد وعد الجاويش بأن يبحث الأمر، وأن يعود إليه بالنتيجة.

لكن «رمضان» النجار لم يبحث ولم يعد.

فكما اتجهت شبهات الشرطة إلى أن سبب الغياب، هو خلافات زوجية، انتهت بأن هجرت شيخة المخدمين زوجها، بعد أن أخذت معها نقوده والمصاغ الذى زعم بأنه اشتراه لها... فقد اتجهت ظنون الزوج إلى الاتجاه نفسه الذى كانت تتجه إليه - عادة - ظنون أزواج الضحايا من الغائبات... فتلبسته شكوك قوية بأنها هجرته مع رجل أغواها بذلك، أو لكى تمارس البغاء، على إثر تلميحات واقاويل بدأت تتردد على ألسنة الناس. فانشغل بالبحث عنها فى المكان الخطأ، وأخذ يتردد على احياء البغايا بالاسكندرية

والمدن القريبة منها، واصابته حالة كالتى اصابت الحاج «حسين على وفيق» حين غابت زوجته «نبوية بنت جمعه»، فلم يعد يطيق البقاء فى المنزل، واصبح يغادره إلى دكانه فى الخامسة من صباح كل يوم... وقل حماسه للعمل، وانفضت المجالس التى كان يعقدها فى الدكان للمناقشة فى السياسة.

ولعل «ريا» - الماهرة فى الدعاية وفى تنظيم حملات الهمس - كانت المصدر الذى أشاع خبر هرب شيخة المخدمين مع رجل آخر، لتضرب بذلك ثلاثة عصافير بحجر واحد، فتنتقم من تشهير «رمضان النجار» بها وبزوجها، وتشغله عن الربط بين مشاجرته مع «حسب الله» وغياب زوجتـه، وعن الربط بين أوصافها، وأوصاف المرأة المجهولة، التى شاهدها الجاويش «أحمد البرقى» مع شيخة المخدمين قبل اختفائها مباشرة... إذ لم تكن هذه المرأة سوى «ريا» نفسها.

وقد حققت حملة الهمس كل أهدافها... فتسلطت فكرة هروب المرأة المختفية مع رجل آخر، على ذهن زوجها، فلم تتطرق شكوكه نحو «ريا» التى تظاهرت - فضلا عن ذلك- بتعاطفها معه، وحرصت على أن تتردد على دكانه، لتطمئن عما أسفرت عنه جهوده فى البحث، وعن المدى الذى وصلت إليه شكوك الجاويش، ولتبعث الثقة فى نفسه بأن زوجته ما تزال على قيد الحياة، وبأنها لابد أن تعود فى يوم قريب... وحين طلب إليها - ذات مرة - أن تساعده فى البحث عنها، قالت له بحرارة:

- من عنيا الجوز.

والغالب أن «سكينة» - التى انفردت فيما بعد باتهام «شيخة المخدمين» بأنها كانت «تروح مع الرجالة» - قد ساهمت بمجهود وافر فى حملة الهمس، التى كانت من أساليب العصابة الدائمة، لابعاد الشكوك عنها... وكانت الشائعات التى تتهم النساء بممارسة الفحشاء، تجد - عادة - آذانا مستعدة لتصديقها، وألسنة جاهزة لترديدها فى ذلك المجتمع الذى يتكون من البغايا والعاملين بالبغاء، ممن تتوشهم الرغبة فى تلويث الآخرين، كوسيلة للتخلص من احساسهم بالنقص... وبالذنب...

ومع أن «عملية شيخة المخدمين» كانت من العمليات النظيفة التى قامت بها العصابة، إذ لم تثر حولهم أية شكوك، فقد تكاثفت مخاوف «سكينة» من البقاء فى غرفتها، بعد أن ارتفع عدد الموتى اللواتى دفن فى أرضيتها إلى ثلاث، ولعل افراطها فى شرب الخمر كان وراء البروز المفاجىء لتلك المخاوف، ولعل اشباح الموتى قد شوشت على استمتاعها بلقاءاتها الحميمة مع «محمد عبد العال» - إذ كانت تتم فوق قبورهن - فقللت من نشوتها.

أما المؤكد فهو أنها أصرت - بعد يومين من مقتل «شيخة المخدمين» - على أن تستبدل غرفتها بالغرفة المواجهة لها، التى يستأجرها «صالح العدنى» - عطشجى البواخر بالميناء - على الرغم من أن

ايجارها الشهرى كان يزيد خمسة قروش على الايجار الذى كانت تدفعه لغرفتها - وهو ريال - لوجود نافذة بها تطل على الحارة... ووافق «صالح» ولم تعترض «سيدة» على الاتفاق.

لكن اقامة «سكينة» فى الغرفة الجديدة، لم تستمر طويلا، فبعد ثلاثة أيام من انتقالها إليها - وفى ٢٥ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠ - رفضت المحكمة الاستشكال الذى أقامه «محمد أحمد السمنى» - المستأجر الأصلى للطابق الأرضى من المنزل رقم ٥ بـ «حارة ماكوريس» - فى تنفيذ الحكم الصادر بطرده، وبالحجز على منقولاته، وبذلك أصبح تطبيق الحكم مؤكدا... مما اضطره، هو وبقية المستأجرين الذين يؤجرون غرف الطابق من باطنه إلى تهريب منقولاتهم، خارج البيت، خوفا من توقيع الحجز الادارى عليها...

وفى هذا الظرف العسير، اثبتت «صحبة الخمامير» فائدتها، فقد قام «خميس المنجد» و«شعبان العريجى» بمساعدة «سكينة» على اخراج منقولاتها من الغرفة، حيث أودعتها - بوساطة من «فهمى الطباخ» - فى ركن من أركان مخزن «خمارة سبيرو»، ومع أن الخواجا «بكسس» لم يعترض صراحة، إلا أن امتعاضه البادى، انتهى بتطوع «شعبان» لتخزين المنقولات فى دكانه...

وواصل السكان.. وبينهم «سكينة». اقامتهم بالمنزل، فى انتظار المحاولة الاخيرة، التى كان «السمنى» يقوم بها للبحث عن ذريعة قانونية لعرقلة تنفيذ الحكم.... إلى أن بوغت الجميع، فى ٣٠ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠ - وبعد عشرة أيام من قتل شيخة المخدمين، بأحد موظفى المحكمة - وبصحبته عدد من جنود قسم شرطة اللبان، ينقض عليهم، ويقوم بطردهم من المنزل تنفيذا للحكم.

ولما كان البقال اليونانى «ينى دى بولو» مستأجر الطابق الثانى من المنزل، قد غادره فى منتصف الشهر، وانتقل للاقامة فى منزل آخر، فقد أغلق المنزل رقم ٥ بـ «حارة ماكوريس» أبوابه. على جثث الضحايا الثلاث اللواتى دفن فيه... وساد الظن بأن الجناة قد افلتوا من العقاب إلى الأبد.



لم يكن «بيت أبو المجد» الذى انتقلت «سكينة» للاقامة به، يبعد كثيرا عن البيت الذى طردت منه، إذ كان يقع فى الحارة نفسها وفى الصف المقابل له. وكان مثله يتكون من طابقين تقيم صاحبة المنزل «نظلة أبو المجد» فى إحدى شقق الطابق الثانى مع زوجها وأولادها، وتؤجر الثانية لأسرة افرنجية. ولم تكن الغرفة التى استأجرتها «سكينة» بالطابق الأرضى، تختلف عن غرفتها التى طردت منها، إلا فى موقعها، إذ كانت تقع تحت السلم الذى يقود إلى الطابق الثانى، فأضاف ذلك إلى

مساحتها ملحقا ذا سقف منحدر يتطابق مع الأرض، ويصنع «حَنِيــــة» على شكل مثلث، استخدمتها «سكينة» كمخزن وضعت به جانبا من منقولاتها.

ولم يكن جــيــران «سكينة» الجــدد يختلفون كثيرا عن جيرانها القدامى، إذ كن أربعا من البغايا تقطن كل واحدة منهن فى غرفة مستقلة من الغرف الخمس التى يتكون منها الطابق... بل وكانت إحداهن - وهى «بطة محمد العزب» - قد شاركتها لفترة... السكن فى «بيت السمنى».

ولم تكن «بطة» هى الوحــيــدة بين ساكنات الطابق الأرضى التى تعمل مومسا بـ «كوم بكير»، وتتخذ من غرفتها بـ«بيت ابو المجد» مقرا لسكنها الخاص - أو الحر - إذ كانت «سنية» و«بهية» تزاملانها فى العمل بالنقطة، ويستأجرن غرفا إلى جوارها بالمنزل نفسه يحتفظن فيها باثاثاتهن ومفروشاتهن المتواضعة، حتى لا يبليها سوء الاستخدام، إذا ما أبقينها فى الدكاكين التى يمارسن فيها مهنتهن... وكانت ثلاثتهن يمضين سحابة النهار وشطرا كبيرا من الليل بدكاكينهن.. ولا يعدن إلى «بيت أبو المجد» إلا عند منتصف الليل....

وفى بداية تلك السنة كان المطاف قد استقر بالساكنة الرابعة «فردوس بنت فضل عبد الله» بالاسكندرية...

وكانت أمها جارية سودانية، خطفها النخاسون فى طفولتها، وجاءوا بها إلى مصر، ولأنها لم تكن تعرف لها أبا أو لأسرتها لقبا فقد استبدلتهما بجنسيتها واصبحت تعرف باسم «خديجة السودانية». وبعد قليل من وصولها إلى مصر، صدر قانون يلغى الرق ويعاقب على الاحتفاظ بالرقيق، فأعتقها اسيادها. ولأن «شهادة العتق» التى حصلت عليها منهم، لم تكن تقبل التداول فى الاسواق، أو تصلح لكى توفر لها طعاما أو مأوى، فقد ظلت - كغيرها من الرقيق - تقيم مع اسيادها، إلى أن تزوجت من شاب مصرى من اصول شركسية هو «فضل عبد الله»، هجرها بعد قليل من حملها فى ابنتها الوحيدة «فردوس»... فخسرت بذلك حق العودة إلى بيت أسيادها، الذين كانوا قد ناءوا بثقل مؤونتها، ولم يجدوا فائدة كبيرة فى عودتها وعلى كتفها طفلة رضيعة، واضطرت إلى النزول إلى سوق العمل لتعول نفسها وابنتها.. إلى أن انتهى المطاف بالاثنتين إلى نقطة المومسات بمدينة طنطا.

وعلى الرغم من ذلك، فقد وضعت الاقدار فى طريقهما رجلين ممن يؤمنون بأن تمهيد سبل التوبة أمام البغايا هو أفضل الاعمال للتقرب إلى الله، فتزوجت الأم من خفير يعمل بمخازن شركة قطارات الدلتا... وتزوجت الابنة من عامل لدى أحد محلات بيع المصوغات... مالبث أن انتقل بها إلى القاهرة ليبحث عن عمل أفضل لكنه لم يجده، فاضطرت «فردوس» إلى العمل كخادمة فى البيوت، لكى تساهم فى نفقات المنزل.

وبعد شهور من المشاحنات الزوجية طلقها الزوج، ففضلت الاستمرار فى عملها بالقاهرة عن العودة إلى «طنطا» لتكون



عــالة على زوج أمــهــا، وبعــد شــهــور أخــرى عــدلت عن توبتــهـــا، وتركت الخــدمـــة فى البـيـوت، وعــادت إلى الالتحـاق بسلك البـغـاء من جديد.

وفى إحدى عمليات التبـادل التى كانت تتم بين مديرى بيوت البغاء، انتـقلت «فــردوس» من القاهرة إلى الاسكندرية لتـعـمل فى بيت كـانت تديره «عــايقـــة» - أى قوادة - يونانية، وجدت فى سـمـرتهـا الرائقـة - التى كـانت مـزيجـا من لون بشـــرة أمــــهـــا الأبنوسى ولون بشـــــرة ابيها الشاهقة البياض

فردوس بنت فضل الله/ نقلا عن الصورة الفوتوغرافية المودعة بملف القضية

- تنويعـا على كـوكبـة البـغـايا اللواتى يعـملن ببيتها، قد يغرى رواده - ومعظمهم من جنود جيش الاحتلال الذين يفضلون السمراوات - بالتردد عليه. ولم تلبث الايام أن أثبـتت صدق فـراسة العايقـة اليونانيـة، إذ جذبت «فـردوس» بقـامـتـهـا الطويلة، وجـسـدهـا الرشيق، وسمرتها الجذابة، وأناقتها البادية، اهتمام كثيرين من الجنود الانجليز الذين كـانوا يتـرددون على بيـتـهـا بـ «شـارع مـارسـيليـا»... وبعـد شـهـرين فـقـط من التحـاقهـا بالعمل، اختارها أحدهم رفيقة دائمة له، فغادرت البيت لكى تقيم معه...

وكـان «الكابورال وليم جـولدن» شـابا انجليزيا فى الثالثة والعشرين من عمره. وكـان كغيـره - من جنود جيش الاحتـلال البـريطانى فى مصـر - يشعر بالحنين إلى وطنه الذى غـادره منذ أكـثـر من ثلاث سنوات - تنقل خلالها بين كثير من البلاد والمدن، إلى أن اسـتـقـر به المقـام فى الإسكندرية. ولأنه لم يكن متزوجا، فـقـد كـان إحساسه بالوحدة فى الغربة شديد الوطأة على نفسه فمـا كـاد يتـعـرف إلى «فـردوس»- التى كـانت تكبـره بأكـثـر من خـمس سنوات - حـتى اندفع نحـوهـا

بعواطف مراهقة، ظامئة للحب وللرفقة، تجمع بين الرغبة المشبوبة والحب الرومانتيكى، فأصر على أن تتفرغ له وحده، ووعدها بأن يوفر لها دخلا يعوضها عن اعتزال مهنتها، واستأجر لها غرفة فى «شارع انسطاسى» لتقيم بها. ومع أنه كان يقيم بمنزل آخر، إلا أنه لم يكن يتردد عليه إلا نادرا، فما يكاد ينهى عمله، حتى يتوجه إلى المنزل الذى تقيم رفيقته فيه، ليمضى معظم أوقاته معها.

ولم يكن «الكابورال وليم جولدن» يحمل على ذراعه من علامات الرتب العسكرية، سوى شريطين يدلان على تواضع مكانته داخل جيش الاحتلال، لكنه كان يعمل فى وظيفة من النوع الذى لا يحول تواضع مكانتها، دون حصول الذين يشغلونها على دخل كبير غير منظور، يزيد كثيرا على الأجر الرسمى الذى يتقاضونه، إذ كان يعمل أمينا للمخازن بادارة تموين جيش الاحتلال بالاسكندرية، وهى وظيفة كانت تتيح له، أن يشترى - بأسعار مخفضة - كثيرا من السلع التى يستوردها الجيش من الخارج لتوزيعها على جنوده وأسرهم، ومنها الملابس والأطعمة المحفوظة، فضلا عما كان يحصل عليه من «اكراميات» من التجار المحليين - مصريين وأجانب - الذين كانوا يوردون السلع المصرية لمخازن الجيش... وقد مكنه هذا من أن ينفق على رفيقته بسخاء، تعبيرا عن عواطفه المشبوبة تجاهها.

وخلال شهور قليلة، كانت «فردوس» تتزين بمشغولات ذهبية يقترب ثمنها من مائة جنيه، اشتراها لها بنفسه، أو اشترتها بنقود حصلت عليها منه، تشمل زوجا من الأساور المجدولة - التى تعرف بـ «المباريم» -وخمس من الفوايش الرفيعة، وسلسلة يتدلى منها قلب، وستة خواتم، كان أحدها أول ما أهداه إليها، صديقها الكابورال، الذى طلب إلى الصائغ أن ينقش على سطحه الحرفين اللاتينيين الأولين من اسمه واسمها (F.G) بشكل يتداخلان فيه، رمزا لحب خالد بلا فراق، وارتباط دائم بلا انفصال...

ومع أن متوسط الأجر الشهرى الذى كانت «فردوس» تحصل عليه من «الكابورال جولدنج» كان يتراوح بين خمسة عشر وعشرين جنيها، فضلاً عما كان يهديه لها، أو ينفقه عليها، فإنها لم تدخر كثيراً من النقود بخلاف تلك التى حولتها إلى ذهب. والواقع أنها كانت جائعة لكل مسرات الحياة، لذلك كانت تسرف فى الإنفاق على نفسها، وعلى أمها، التى كانت شديدة الحب لها، والتعلق بها، فكانت ترسل إليها فى «طنطا» جانبا من دخلها، بل واشترت لها - كذلك - زوجاً من «المباريم» يصل ثمنه إلى خمسة وعشرين جنيها.

وفضلاً عن أنها كانت منذ البداية، حريصة على أناقتها، فقد اغرتها حالة الرخاء، بالتوسع فى الاهتمام بها، فجمعت فى ملابسها بين الأزياء الأوروبية، كالبلوزة والجونلة والمعطف،وبين الأزياء الوطنية كالجلاليب - التى كانت تستخدمها أحيانا كبلوزات - والملاءة اللف.. مع ميل غالب، لأن تبدو فى صورة ربات البيوت المصونات كان يدفعها إلى وضع الياشمك الأسود-

وهو برقع من حرير شفاف - عند خروجها للتسوق وحدها،أو مع إحدى صديقاتها.. فإذا خرجت مع «الكابورال» إلى إحدى دور السينما، في يوم اجازته الأسبوعية، حرصت على أن ترتدى الملابس الأوروبية.

والحقيقة أن «فردوس» قد التزمت بعلاقتها بالخواجا، فلم تكن تخرج من البيت، أو تغادر المدينة، من دون إذنه. وخلال الفترة التى عاشتها معه، وتجاوزت ثمانية أشهر، لم تغادر الاسكندرية سوى أربع مرات، قضت في كل منها أسبوعاً بالقاهرة لتزور صديقات لها.

والغالب أنها قد صدت - ولكن من دون خشونة - كثيرين ممن جذبهم إليها جمالها المميز، كان من بينهم «سيد عبد الرحمن»، وهو شاب في العشرين من عمره، كان يشترك مع شقيقه الأكبر في إدارة محل لغسل الملابس بالبخار وكيها، يقع أسفل المنزل الذى تقيم فيه مع الخواجا في «شارع انسطاسى»، فتعرف عليها، وحاول أن يوثق صلته بها.. ولكنها لم تشجعه على تجاوز الحدود معها، ولم ترفض - كذلك- مجاملاته الكثيرة التى أغرقها بها، إذ كان عسيراً عليها، كأنثى، أن تفرط في أحد المعجبين بها، حتى لو لم تكن تريده.. وكان آخر ما كلفته به، قبل أن تنتقل - في أول أكتوبر (تشرين) ١٩٢٠ - من الغرفة التى تسكنها فوق دكانه، إلى «بيت أبو المجد» بـ «حارة ماكوريس»- هو صباغة ورفى معطفها الصوفى، ومع أن المهمة لم تكن تدخل في اختصاص الدكان، فقد تحمس لها، وأرسل المعطف إلى صاحب مصبغة ممن يتعامل معهم..

وكانت «فردوس» هى أكثر اللواتى لفتن نظر «سكينة» من جيرانها الجدد.. ليس فقط لأنها الوحيدة بينهن، التى لم تكن تعرفها من قبل، بسبب حداثة انتقالها للإقامة في الحارة، أو لأنها كانت الوحيدة التى تمضى بالبيت معظم ساعات اليوم، بينما تكون الأخريات في عملهن بـ «كوم بكير»، ولكن- قبل ذلك وأهم منه- بسبب مظاهر الثراء النسبى التى كانت تبدو عليها، والمصاغ الكثير الذى كانت تتزين به..

والغالب أن فكرة إضافة اسم «فردوس» إلى قائمة القتل، قد قفزت إلى رأس «سكينة» منذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها قدماها «بيت أبو المجد»، وربما منذ انتقلت الفتاة ورفيقها الإنجليزى إلى الحارة. ولعلها قد حادثت في ذلك رفيقها «محمد عبد العال» الذى كان قد انتقل للإقامة معها في مسكنها الجديد فأقرها على ترشيحها.. لكن التنفيذ كان يتطلب مرور بعض الوقت، الذى يسمح بتوثيق الصلة بين الاثنتين ويخلق الذريعة المناسبة التى تشجع الفتاة على القيام بزيارة لبيت «ريا» بـ «حارة على بك الكبير».

وفضلاً عن ذلك فإن الحاجة إلى سرعة التنفيذ لم تكن ملحة، إذ لم يكن كنز شيخة المخدمين قد نفد بعد، بل إن الظروف، كانت قد ساقت إليهم الضحية الخامسة عشرة، بعد أيام قليلة من مقتل شيخة المخدمين، وهى بائعة متجولة، التقى بها «عرابى» في «سوق السبتية»، وساومها على قضاء وقت معها.. فلما وافقت

اقتادها إلى «حارة على بك الكبير». وكانت تحمل معها -فى سلة- بضاعتها من الفلفل الأخضر. وتتعجل أداء عملها الإضافى لكى تعود إلى السوق فتبيعها ، لكن «عرابى»، لكى يحول دون انصرافها اشتراه منها، واستمهلها حتى يهيء المناخ لجلسة الحظ، فأتاح بذلك لـ«ريا» الوقت الضرورى لجمع فرقة التنفيذ فجاء «حسب الله» ثم «عبدالرازق» - وعادت «سكينة» بالنبيذ وبزجاجة «السكولانس» الصغيرة، فأخذوا يشربون ويمزون بالفلفل والملح إلى أن حان أوان التنفيذ، فغادرت الشقيقتان الغرفة، وعادتا بعد ساعة لتجدا المرأة قد دفنت، ولتتسلما تركة بائعة الفلفل الراحلة، التى لم تكن تزيد على خمس غوايش وحلق ذهب، وخلخال من الفضة.

لكن ذلك - على أى حال - لم يوقف الخطوات التمهيدية الضرورية لاستدراج «فردوس» إلى «بيت الهلاك»، فنشطت «سكينة» لتوثيق صلتها بالفتاة، واعتمدت فى ذلك على معرفتهما المشتركة بكثيرات ممن كن يعملن بـ «نقطة المومسات» بمدينة «طنطا»، بحكم أن كلا منهما بدأت حياتها العملية بها... وكان من بينهن صديقة مشتركة لهما هى «جميلة فرج» التى كانت زميلة لـ «فردوس» بنقطة طنطا، ولما انتقلت للعمل بـ «نقطة كوم بكير» تعرفت إلى «سكينة» بـ «خمارة كرياكو»، وتحول هذا التعارف إلى صداقة حميمة، لعبت دورا فى توثيق صلات «سكينة» مع «فردوس». ولم تكتف «سكينة» بذلك، بل سعت إلى اكتساب ثقة الفتاة، وحرصت على أن تصاحبها إلى الاسواق، لتشترى بعض احتياجاتها..

وأخذت «ريا» - التى انتقلت إليها الفكرة فتحمست لها - تكثر من التردد على مسكن شقيقتها، وتختلق الذرائع لكى تتحدث إلى «فردوس»، فتغمرها بدلائل المودة، وتدفع الحديث - فى كل مرة- نحو الموضوعات التى كانت - بحكم خبراتها السابقة - تعلم أنها قد تغريها بالتردد على بيتها فى «حارة على بك الكبير»، ومن بينها قصة المنجم الماهر، المكشوف عنه الحجاب، الذى يقرأ الطالع ويتنبأ بالمستقبل، ويظهر الخبيء، وقصة «المطرح» - أو الحجرة الواسعة، ذات الشرفة التى تطل على الحارة، وتدخل منها الشمس، التى تقع فى الطابق الثانى من المنزل الذى تسكن فيه، ويوشك سكانها أن ينتقلوا منها إلى غيرها... وقصة الاقمشة الممتازة التى اشترتها جارة لها، ولم تخطها بعد، وتريد أن تبيعها بثمن رخيص، وهى كلها قصص وهمية - لكن «ريا»- العليمة بسيكولوجية هؤلاء النساء القلقات، الخائفات من الحاضر ومن المستقبل، الباحثات عن مظاهر تعلى من مكانتهن الاجتماعية، وعن نبوءات تدفعهن إلى التفاؤل بالغد، كانت واثقة من أنها تشكل اغراء لا تستطيع الفتاة مقاومته، مما يسهل عليها مهمة سحبها إلى «المقتلة» فى الوقت المناسب.

وكانت «خديجة السودانية» هى التى حددت موعد تنفيذ قرار قتل ابنتها «فردوس» حين قررت أن تستجيب للرسائل المتوالية التى كانت ابنتها ترسلها إليها،

فتزورها فى الاسكندرية، فردت عليها بخطاب تحدد لها فيه موعد وصولها... لكنها وصلت إلى محطة قطارات الاسكندرية - فى الثامنة من مساء يوم الاربعاء ١٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠- فلم تجدها بانتظارها بالمحطة.. ولما كانت لا تستطيع التعرف على عنوان ابنتها التى لم يسبق لها التردد عليه، فى ظلام الليل.. فقد أمضت الليلة لدى زميلة لها من «عايقات طنطا» كانت قد انتقلت إلى الاسكندرية لتدير منزلا للبغاء فى شارع قريب من المحطة..

وفى الثامنة من صباح اليوم التالى - الخميس ١١ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠- وبعد ساعة من انصراف «الكابورال وليم جولدنج» إلى عمله فى الميناء، كانت «فردوس»، تجلس أمام طشت الغسيل بصالة بيت أبو المجد، حين فوجئت بأمها تدخل عليها فتركت ما بيدها، وقامت لتستقبلها بترحاب. وكشف العتاب بين الاثنتين، عن أن الابنة لم تتسلم بعد الخطاب الذى حددت فيه الأم موعد وصولها إلى المحطة.

ولأن «فردوس» كانت سعيدة بوصول أمها التى لم ترها منذ أن استقرت بالاسكندرية قبل ثمانية أشهر، فقد قررت أن تؤجل غسيل ما تبقى من الملابس لكى تتفرغ للحديث معها... لكن الأم رفضت الفكرة، بل وتطوعت لمساعدتها... وكانت الاثنتان تواصلان غسل الملابس وتبادل الاخبار، حين استيقظت جارات «فردوس» الثلاث، العاملات بـ «كوم بكير»، فقدمتهن - واحدة بعد الأخرى - إلى أمها، فرحبن بها، وهنأنها بسلامة الوصول، وطلبت إليهن «خديجة» أن يبلغن زميلتهن «جميلة فرج» بوصولها، وبأنها تحمل معها رسالة إليها، عليها أن تأتى لكى تتسلمها....

وعند الظهر، وصلت «جميلة فرج» لكى تزور «خديجة السودانية» وتتسلم صفيحة صغيرة من السمن، أرسلتها إليها أمها من «طنطا»..

وكانتا تتبادلان الاخبار حين استيقظت «سكينة» من النوم، فانضمت إلى المهنئات بوصول الأم، واستأنفت النساء الثلاث الحديث الذى قطعنه بدخولها، وكان يدور حول آلام روماتيزمية تعاود المرأة العجوز بين الحين والآخر فى معصميها، وخاصة إذا غمرت يديها فى المياه لفترة طويلة، واقترحت «جميلة» عليها أن تلف حولهما خيطا من الصوف، واستخرجت بالفعل خيطين طويلين من غطاء صوفى وجدته على سرير «فردوس» لفت واحدا منهما على كل معصم... وبسبب ذلك خلعت «خديجة» زوج الاساور من معصميها، وناولته إلى ابنتها لكى تضيفه إلى ما تتزين به، على أن تسترده منها عند سفرها بعد أيام، وكانت هذه الواقعة - التى جرت على مشهد من «سكينة» - هى التى حتمت أن يتم قتل «فردوس» خلال الفترة التى ستمضيها أمها بالاسكندرية، وقبل أن تسترد الأم زوج الأساور الاضافى وتسافر به.

وما لبث حضور الأم أن فتح أبوابا اضافية للاغراء، أمام «سكينة»، إذ ما كادت «جميلة» تنصرف حتى اصطحبتها

«فـردوس» إلى دكان صائغ قـريب، أعطتـه قصبتين فضيتين، من قصبات البراقع، إحداهما لها. والأخرى لأمها طلبت إليه أن يطليهما بالذهب، واعطته كذلك، الخاتم المضلع، الذى كان الخواجا قد نقش على سطحه الحرفين اللاتينيين الأولين من اسمه واسم «فردوس»، لكى يقوم بتنظيفه وتلميعه..

وعند العصر، حملت «سكينة» تقديرها للموقف إلى بيت «ريا» حيث عرضته عليها، وعلى «حسب الله» فأقراها عليه، واتفقا معها فى الرأى على ضرورة تنفيذ العملية فى أسرع وقت، وقبل أن تسافر الأم فتنقص الغلة، واختار الثلاثة اليوم التالى - الجمعة - موعدا أوليا لذلك، فى ضوء توقع «سكينة» بأن تعود الأم إلى طنطا يوم السبت وبذلك تنقص الغنيمة بمقدار الثلث.

ولم يكن تطبيق القرار سهلا، إذ كان يتطلب سرعة الاتصال بأفراد فرقة التنفيذ، ليرابطوا - طوال اليوم التالى - فى مركزهم المعتاد، على المقهى الذى يقع فى مدخل «حارة على بك الكبير»، إلى أن تسنح أمام إحدى الشقيقتين الفرصة الملائمة - والبعيدة عن الشبهات - لاستدراج «فردوس» إلى المنزل، فإذا دلفت إليه، تبعوها ليقوموا بدورهم فى الخطة... وهى مهمة لم يكن «حسب الله» يستطيع أن يشترك فيها، إذ كانت الليلة، هى ليلة زفافه إلى زوجته الثانية «زنوبة بنت أحمد أبو هلال» التى كان قد عقد قرانه عليها - فى ٣١ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠.

وكان النصيب المزدوج الذى حصل عليه «حسب الله» من غنيمة شيخة المخدمين، هو الذى مكنه من تحديد ميعاد عقد القران، فاتفق مع خال العروس، على أن يدفع له عشرة جنيهات كمقدم صداق لها... وقبل أن يحل الموعد المتفق عليه بينهما لعقد القران، فاتح «ريا» فى الموضوع، مؤكدا لها أن زواجه بغيرها لن يؤثر على مكانتها فى قلبه، أو مركزها فى حياته. ومع أن الخبر قد اتعس «ريا» التى توقعت أن يكون بداية النهاية لعلاقتها به، إلا أنها كانت قد وطنت نفسها - منذ زمن طويل - على قبول الوضع الذى تشاركها فيه امرأة أخرى، أكثر شبابا منها، وأصغر عمرا منه. وهو ما مكنها من التظاهر بقبول الأمر، والاكتفاء بما قطعه «حسب الله» على نفسه من تعهدات بأن يقوم بواجبه تجاهها، باعتبارها زوجته الأولى وأم ابنته... خاصة بعد أن برهن لها على عزمه على تنفيذ تلك التعهدات، فاشترى لها - لأول مرة - حلق غوازى، كما اشترى لزوجته الجديدة خاتما بمحبس.

ولأن رصيده النقدى كان قد تأثر بما دفعه ثمنا لهاتين الهديتين، فقد اضطر - فى اليوم السابق على عقد القران - للاعتذار لأصهاره الجدد، عن عدم قدرته على تدبير مقدم الصداق الذى وعد به. ومع أن خال العروس، الذى كان يتفاوض معه، قد وافق - بعد ممانعة قليلة - على تخفيض المقدم إلى سبعة جنيهات، حرصا منه على تزويج الفتاة، التى كانت يتيمة الأبوين، فإن «حسب الله» لم يدفع فى

مجلس العقد. سوى ستة جنيهات فقط....

وعندما حل الغروب من دون أن يظهر أحد من افراد فرقة التنفيذ، اضطر «حسب الله» إلى الانصراف إلى حفل زفافه بعد أن اتفق مع «ريا» على أن ترسل له ابنتهما «بديعة» فى أى وقت من نهار اليوم التالى تظهر فيه أية دلائل على أن هناك أملا فى تنفيذ الخطة... وعلى عكس ما كانت «سكينة» تتوقع، فقد ظهر الكابورال «وليم جولدنج» فى «بيت أبو المجد» وأمضى ليلته به، وتركت له «فردوس» السرير الوحيد فى الغرفة، ونامت إلى جوار أمها على الأرض.

أما الذى لم يظهر، فهو «محمد عبد العال» الذى لم يمض ليلته فى حجرتها، كما تعود منذ انتقلت للاقامة فى البيت..

وحتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى، لم تكن قد ظهرت أية دلائل جدية، على امكانية تنفيذ الخطة، فقد غادر «الكابورال وليم» المنزل إلى عمله مبكرا، وتبعته الفتيات الثلاث اللواتى يعملن فى «كوم بكير»، بينما انشغلت «فردوس» وأمها فى تنظيف الغرفة، واعادة ترتيبها، وانهمكتا فى ذلك على نحو يوحى بأنها قررت البقاء فى البيت وعدم مغادرته طوال اليوم.

وبعد العاشرة بقليل، رأتها «سكينة» - التى كانت تراقب الموقف من مجلسها على الطوار المقابل لـ «خمارة كرياكو» - تغادر البيت إلى مدخل الحارة لتستوقف بائع سمك كان يدفع أمامه بضاعته على عربة يد صغيرة... فلحقت بها، وساعدتها فى انتقاء ما تريده، وفى مساومة البائع الذى أصر على رفض الثمن الذى عرضتاه. فصرفته «سكينة» واقترحت على «فردوس» أن تصاحبها إلى الملاحة، لشراء سمك أكثر طزاجة وأقل ثمنا... لكن الفتاة - التى لم تكن تهمها النقود كثيرا - فضلت الانتظار إلى أن يمر بائع آخر، عن تحمل مشاق الذهاب إلى الملاحة البعيدة...

وفى تلك اللحظة مرت على الطوار الآخر «قنوع بنت عبد الموجود» - بائعة البطاطا وخادمة «فردوس» السابقة - فنادت عليها، وكلفتها بأن تمر، اثناء تجولها لبيع بضاعتها، على دكان «سيد عبد الرحمن» - المكوجى بـ «شارع انسطاسى» - لتتسلم منه المعطف الذى كانت قد تركته له، عندما انتقلت من مسكنها الذى يعلو دكانه - قبل شهر ونصف - لكى يصبغه ويرفوه...

وكانت «سكينة» تعاون «فردوس» وأمها فى تنظيف السمك، حين عادت «قنوع» بعد قليل، ولكنها لم تكن تحمل معها شيئا سوى رسالة شفهية من «سيد عبد الرحمن» يطلب إلى «فردوس» أن تقابله الساعة الواحدة ظهرا بـ «خمارة على الفرنساوى» القريبة من دكانه، لكى يذهبا معا، ويتسلما المعطف من المكان الذى أودعه به.

وما أن سمعت «سكينة» الرسالة، حتى اعتبرتها اشارة للتحرك السريع، فاستأذنت من «فردوس» وأمها، فنورته بأنها فى حاجة لكى «توزن دماغها» بكأسين فى الخمارة لتتوجه على الفور إلى بيت

شقيقتها «ريا» بـ«حارة على بك الكبير».. وبعد مداولة قصيرة مع «ريا»، صحبت «سكينة» معها ابنة شقيقتها «بديعة» إلى المنزل رقم ٨ بـ «حارة العمرى» - خلف جامع سلطان - حيث استأجر «حسب الله» غرفة لكى تكون مسكنا له، ولزوجته الجديدة..

وطرقت الفتاة باب الغرفة التى يقطنها أبوها بالبدروم، فما كاد يراها، حتى أدرك أن البشائر التى كان ينتظرها لابد وقد ظهرت، فاستأذن من أصهاره، الذين جاءوا يهنئونه بـ «يوم الصباحية» وخرج مع ابنته ليجد «سكينة» فى انتظاره. وبعد مناوشة صغيرة، اعتذرت له فيها عن اقلاق راحته وهو عريس لم يمض من شهر العسل سوى ساعات... ابلغته بما لديها من أخبار... ولما عرف منها أن «ريا» توجهت للبحث عن «عرابى» وأن «عبد العال» لم يبت بالمنزل... قادها إلى محطة الترام المتجه نحو «القبارى» حيث يقع المحلج الذى يعمل به «عبد العال». لكنه تراجع عن مصاحبتها فى اللحظة الاخيرة، وفضل أن يعود - وبصحبته ابنته - لكى ينتظرهما بـ «حارة على بك الكبير»

وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة صباحا. حين فوجىء «عبد العال» بأحد زملائه، العاملين معه فى المحلج، يقول له:

- فيه حرمة عند البوابة بتقول لك بنت عمك فى الخطر.

وكانت «سكينة» - كما توقع - هى التى تقف عند البوابة، ولم يكن فى حاجة، لكى يسألها تفسيرا للرسالة الغامضة، إذ فهم - على الفور - معناها، فطلب إليها أن تعود لمتابعة الموقف. على أن يلحق بها. واستأذن من المعلم، وغادر المحلج إلى حارة «على بك الكبير» ليعرف تفاصيل خطة قتل «فردوس» من «حسب الله»، الذى برر له العجلة فى التنفيذ قائلا:

- دى معاها جوز مباريم بتوع أمها... ولو فات النهارده.. أمها ح تأخذه وتسافر.

وكانت «سكينة» قد عادت إلى «بيت أبو المجد»، وظلت تتردد بينه وبين «خمارة كرياكو»، وفى آخر مرة دعتها «فردوس» إلى تناول الغداء معها ومع أمها، وإزاء الحاحها تناولت قطعة من السمك ولقمة وسألتها:

- انت مش ح تروحى تجيبى البالطو بتاعك؟.

وفى الثانية عشرة والنصف ظهرت «فردوس» على باب «بيت أبو المجد» وهى فى قمة اناقتها، إذ كانت ترتدى جلبابا من الكريب الاسود مزينا بزهور بيضاء، استخدمته كبلوزة. وارتدت فوقه فانلة بيضاء من الصوف الانجليزى كان الكابورال قد اهداها إليها، وتحته جونلة سوداء مزخرفة ببقع بيضاء وتنتعل حذاء أسود فوق جورب حريرى، وتغطى وجهها بـ«يشمك» أسود شفاف، وتلف جسدها كله بملاءة من الحرير، وتزين معصميها بزوجين من الأساور، وأذنها بحلق وأصابعها بخاتمين. وتعلق فى رقبتها

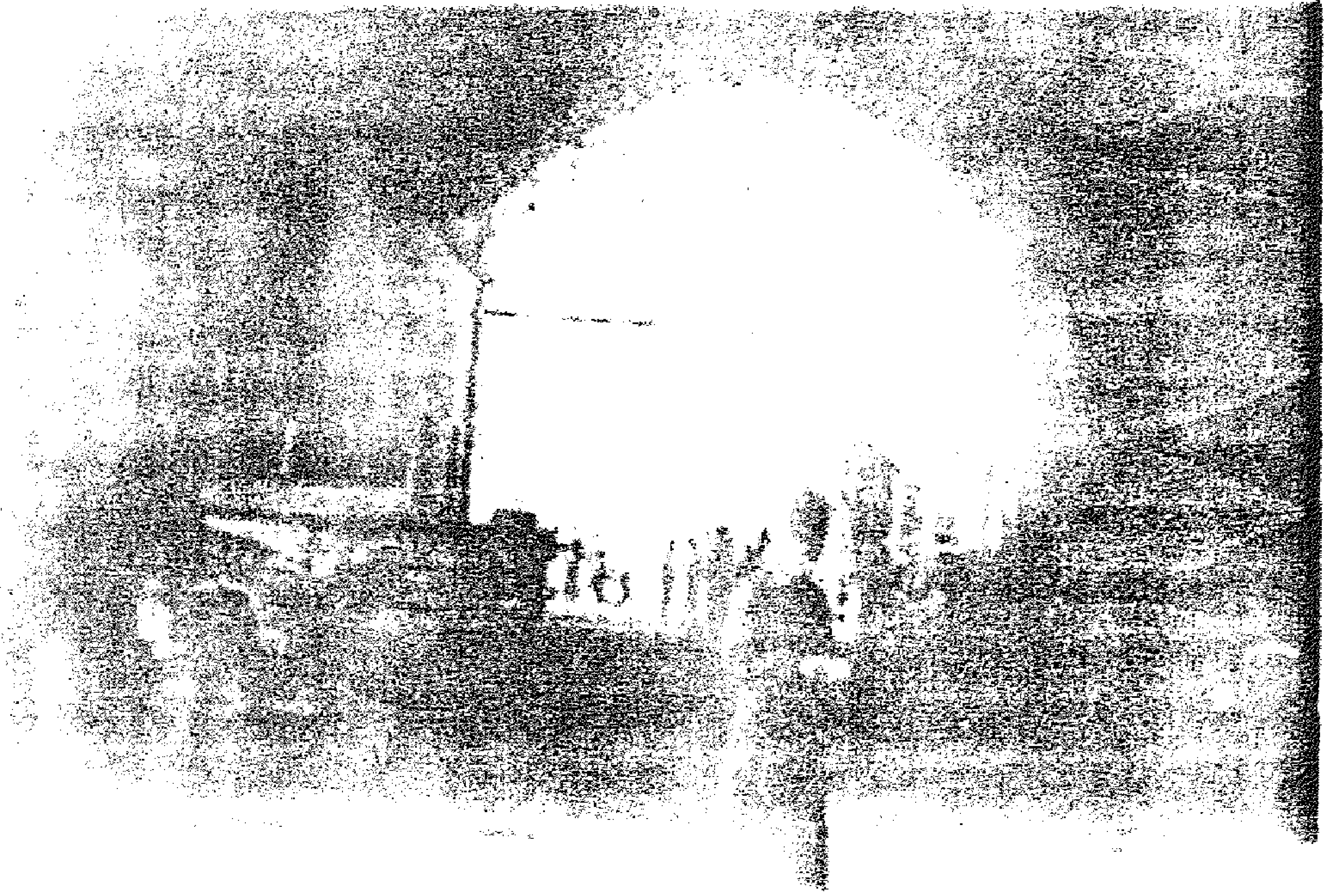
السلسلة الذهبية التى يتدلى منها القلب... وظلت تقف على الباب قليلا، ثم تذكرت أنها نسيت أن تأخذ نقودا معها، فعادت إلى غرفتها، وفتحت أحد أدراج منضدة الزينة وأخذت منه ثلاثة جنيهات كانت به، ثم عادت - مرة أخرى- إلى الباب، لتجد «قنوع» قد جاءت فى الموعد الذى حددته لها، فصحبتها معها إلى خمارة «على الفرنساوى».

والحقيقة أن «فردوس» كانت حريصة على ألا تلتقى بـ «سيد عبد الرحمن» على انفراد، حتى لا يغريه ذلك باستئناف مغازلاته لها. وكانت قد ادركت من الرسالة التى تلقتها منه، أنه يربط بين اعادته للمعطف، وبين لقائه بها، فغامرت بقبول اللقاء لأنها لم تكن تستطيع أن تستغنى عن المعطف أكثر من ذلك، خاصة بعد أن دخل الشتاء، ومع أنها كانت قد تعمدت أن تأخذ «قنوع» معها، لتكون حاجزا يحول بينه وبين التمادى فى أطماعه، فإنها لم تكن واثقة أن الفتاة التى لا تتعدى الثالثة عشرة، تصلح للقيام بهذه المهمة... فما كادت تغادر الحارة، وتدلف إلى الشارع البرهامى، فتشاهد «سكينة» تقف على الطوار الآخر حتى أشارت إليها، وعبرت نحوها، وختمت شرحها للمشكلة التى تواجهها قائلة:

- فى عرضك تيجى معايا.

ومع أن «سكينة» - كانت تقف فى ذلك المكان، استعدادا لاقتفاء أثر «فردوس»- وانتهاز الفرصة لاستدراجها إلى بيت «ريا»، فقد ترددت فى قبول العرض، لتنافيه مع ضرورات الأمن التى توجب

الباب الرئيسى للجمرك بميناء الإسكندرية حيث كان الكابورال «جولدنج» يعمل



عليهـا ألا تكون آخـر من يشـاهد مع الضحية قبل اختفائها... لكنها عادت فوافقت. بعد أن قدرت أن رفضها لنجدة الفتاة، سوف تصعب عليها محاولات استدراجها بعد ذلك.... فسارت إلى جوارها، إلى أن اقتربتا من الخمارة فأرسلتا «قنوع» لكى تتأكد من أن «سيد» فى انتظارهما، حتى لا تظهرا فى الخمارة من دون رجل، فتتعرضا لسخافات السكارى... وعرجتا على دكان محل طلاء الذهب، الذى تركتا له الخاتم والقصبة فى اليوم السابق، فوعدهما بأن ينتهى منهما قبل الغروب..

ومع أن «سيد عبد الرحمن» - الذى كان قد اختار مكانا خاصا بعيدا عن عيون المتطفلين لينفرد فيه بـ «فردوس» - قد فوجىء بالحراسة التى جاءت بها معها، فقد استقبلهما بترحاب.. وألح على «سكينة» - التى كان يتعرف عليها لأول مرة - بأن تقبل دعوته لها لاحتساء كأس من الخمر التى تفضلها، لكنها اعتذرت بأنها شربت بما فيه الكفاية، وطلبت زجاجة كازوزة، وهو ما طلبته أيضا «قنوع». وفضلت «فردوس» أن تشرب كوبا من «الكينا»، أما هو فقد طلب كأسا من «الزبيب».

وكانت «فردوس» سعيدة بالمناورة التى أفسدت بها ترتيبات «سيد» للانفراد بها، لكنها لم تضن على الشاب المتيم ببعض ما كان يرجوه فتركت النصف الأعلى من ملاءتها يتدلى باهمال متعمد على ظهر المقعد الذى كانت تجلس عليه، وشدت اليشمك إلى ما تحت ذقنها، فبدت سافرة الوجه... وما كادت «قنوع» تنتهى من احتساء زجاجة الكازوزة حتى أخرجت «فردوس» من جيبها قروشا أعطتها لها، وطلبت منها أن تشترى أقة من البطاطا، وتعطيها لأمها بالمنزل... وحاول «سيد» أن يبرر اصراره على لقائها، فقال إنه فقد الايصال الذى سلم به المعطف لأحد الفروع القريبة لشركة الصباغة الفرنسية، فاضطر لاخطار الفرع بعدم تسليمه لأحد سواه، وأبدى استعداده، لأن يذهب معها - بعد أن ينتهيا من الشراب - لاحضاره.

وكان كأس الزبيب قد أصبح اربعة، وكأس الكينا قد أصبح ثلاثة، من دون أن يفكر أحد منهما فى مغادرة المكان.... وقلقت «سكينة» التى خشيت أن يستبطئها المنفذون فينصرفون. فأخذت تستحثهما على القيام، فاعتذر «سيد» بأن الفرع لن يفتح أبوابه قبل الساعة الثالثة، وأضاف:

- إذا كنت مستعجلة... اتفضلى بالسلامة... وأنا ح أوصلها.

فأدركت أنه يريد أن يتخلص منها... ولم تعلق «فردوس»، التى كانت آثار الكينا قد بدأت تظهر على تصرفاتها، فمدت يدها، وتناولت كف «سيد»، وأخذت تداعبه، ثم خلعت من أحد اصابعه خاتما ومحبسا نقلتهما إلى أحد اصابعها، وأخذت تتأمل فيهما. ثم قالت:

- أنا ح أخذ الخاتم ده لغاية ما تجيب لى البالطو.

وقال «سيد» الذى أدرك أن «فردوس»

تريد أن تحتفظ بهما كضمان لعودة البالطو:

- إذا كان كده... بلاش البالطو النهارده... وخلينا قاعدين مع بعض..

وعادت «سكينة» تستحث «فردوس» للقيام، فقال لها:

- روحى انت... هى مش مروحة.

فقالت بلهجة تجمع بين الهزل والجد:

- اسمع... المره دى جات معايا.. ولازم تروح معايا... وإلا بعدين الخمرة بتاعتى تطلع فى نافوخى ما يحصلكشى طيب.

وقبل الثالثة بدقائق، وأمام اصرار «سكينة»، استدعى «سيد» صاحب الخمارة، لكى يدفع له حسابه. وبينما كانت «فردوس» تعيد اليشمك إلى مكانه، وتضبط ملاءتها، قالت لها «سكينة» إنها ستنتظرهما فى الخارج، وتعمدت أن يراها «على الفرنساوى» وهى تغادر المكان قبلهما... وبذلك حصلت على دليل بأنها لم تكن آخر من شوهد مع «فردوس» التى خرجت مع «سيد» بعد دقيقتين.

وعندما وصل ثلاثتهم إلى فرع الشركة الفرنسية للصباغة، وجدوه مغلقا وعرفوا بأنه لن يفتح قبل الخامسة. ولأن «سيد» كان قد تجاوز فترة راحته، وجار على جانب من فترة راحة أخيه، فقد تواعد مع «فردوس» على أن يلتقيا أمام باب الفرع فى الخامسة، وعرج على دكانه القريب.

ولم يتطلب اقناع «فردوس» بالتوجه إلى بيت «ريا» مجهودا أوفر مما اعتادته «سكينة»، فما كادت تنفرد بالفتاة، حتى ذكرتها بوعودها لشقيقتها بأن تمر عليها، لكى يقرأ لها جارها المنجم طالعها، واقترحت عليها بأن تصحبها إلى هناك، فلما ترددت الفتاة، قائلة بأنها تأخرت على أمها، طمأنتها «سكينة» بأن الامر لن يستغرق سوى دقائق، وأضافت:

- إذا ما كانش معاكى فلوس... أنا سدادة.

فأصابت الرمية الهدف الذى قصدته، وعز على «فردوس» أن تفسر الاخرى ترددها بالفقر أو بالبخل... فقالت بدفعة:

- الفلوس كتير... حتى لو طلب نص ريال... أنا أعطيه له..

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف عندما عبرت الفتاتان باب بيت «ريا» بـ «حارة على بك الكبير».... وفوجئت «فردوس» بوجود رجل غريب فى الغرفة مع «محمد عبد العال»- الذى كانت تعرف أنه زوج «سكينة» - لكن «ريا» التى استقبلتها بترحاب، قدمته إليها باعتباره زوجها... وأفسح الرجلان لها مكانا بينهما على الحصير الذى كان يجلسان فوقه، وأكرماها بوضع مسند من القطن خلف ظهرها ليحميها من رطوبة الحائط.

وتعثر الحديث فى البداية ، وبدا واضحا أن الفتاة لم تسترح لوجود رجال آخرين غير المنجم الذى دعيت للقياه، فقد رفضت باصرار كل عروض «ريا» بأن تصنع لها كوبا من الشاى، معتذرة بأنها لا تستطيع أن تتأخر، ومتسائلة - بالحاح لا

يخلو من ريبة - عن المنجم الذى جاءت من أجله... بل وهمت بالانصراف بعد دقائق قليلة من دخولها، مقترحة تأجيل اللقاء إلى موعد آخر، لولا أن استمهلتها «سكينة» حتى تصعد إلى الطابق الثانى فتعود بالرجل..

وما كادت تغادر الغرفة، و«ريا» فى إثرها، حتى انقض «حسب الله» على «فردوس» فكتم انفاسها بمنديله المبلل بالماء، ثم ترك هذه المهمة لـ «محمد عبد العال» وتفرغ هو للضغط على رقبتها بالبشمك الحريرى، وظل الاثنان يواصلان الضغط حتى فقدت الفتاة الوعى .... ثم فقدت الحياة..

وكانت «سكينة» تطل من الطابق الثانى على فناء المنزل، حيث كانت تقف شقيقتها التى أشارت إليها بأن التنفيذ قد بدأ، حين ظهر «عرابى» فجأة عند المدخل، لكن «ريا» أدركته قبل أن يتقدم، وهمست فى أذنه بكلمات جعلته يعود من حيث أتى... ولأن الذرائع التى يمكن أن تدفع «عرابى» - المتشدد فى الحرص على اجراءات الأمن - للتراجع، كانت كثيرة، فإن «سكينة» لم تعن بأن تسأل شقيقتها عما قالته له، لكنه لم يكن الحقيقة على أية حال، إذ لم يظهر «عرابى» عند تقسيم التركة، ولم تشر «ريا» إلى معرفته بالعملية، ولم تطالب بالاحتفاظ له بنصيب من غنائمها.

وحين عادت الشقيقتان إلى غرفة التنفيذ كان «حسب الله» قد انتهى من خلع مصاغ «فردوس» فأحصاه، وسلمه إليهما، لتخرجا به على الفور، إلى دكان «على الصائغ». بينما أخذ الرجلان يبحثان عن مكان فى المقبرة يصلح لدفن الضحية السادسة عشرة.... وحين أزاح «حسب الله» التراب عن سطح قسم منها، فكشف عن جثتين، لاحظ «عبد العال» أن إحداهما جديدة، فلما سأله عنها.... قال له:

- دى واحدة جبناها وانت مسافر..

ثم أخرجها ووضعها فى مقطف، وأعاد ترتيب أوضاع الجثة الأخرى، إلى أن استطاع أن يخلى مكانا أتاح له دفن جثة «فردوس» بين أقدام هاتين الجثتين.

وقبل الغروب بقليل، انتهت عملية الدفن، وعادت الشقيقتان من الصاغة، لتقولا بأن الصائغ قد قدر ثمن مصاغ «فردوس» بخمسة وأربعين جنيها. ولما اعترضت «سكينة » على تقديره الذى يبخسهما حقهما، اعتذر بأنه لا يملك نقودا سائلة تمكنه من الدفع، واعطاهما جنيها واحدا كعربون للصفقة، وطلب إليهما أن تمرا عليه فى الصباح، لمواصلة التفاوض واتمام الاتفاق النهائى..

واقترحت «سكينة» أن يقيموا فيما بينهم مزادا على ملابس «فردوس» على أن يدفع المشترى، أنصبة الباقين من الثمن الذى يرسو به المزاد عليه، وقسمت الملابس إلى ثلاثة أقسام، ضم الأول منها الجلباب والجونلة والجورب والحذاء والمنديل، وقد رسا مزاده على «حسب الله»، الذى اشتراه بخمسين قرشا، دفع نصفها لـ «سكينة» وزوجها. واقتصر القسم الثانى على الفانلة الصوفية البيضاء، وقد رسا مزادها على «عبد العال» بخمسة وعشرين قرشا، دفع

نصفها لـ «حسب الله» وزوجته... أما الملاءة الحريرية فقدر رسا مزادها - بثلاثة جنيهات - على «سكينة»، التى وعدت بأن تدفع خمسة وسبعين قرشا لكل واحد من الثلاثة الآخرين، بمجرد أن تتسلم نصيبها من ثمن المصاغ...

ولما لم يكن من الحصافة أن تعود «سكينة» إلى «بيت أبو المجد» ومعها ملابس «فردوس»، فقد ترك الجميع الملابس أمانة لدى «ريا». وعاد «حسب الله» فى أعقاب ذلك إلى مسكنه الجديد، ليستأنف شهر العسل مع عروسه الشابة.

وكانت «خديجة السودانية» تجلس فوق حصيرة فرشتها أمام باب غرفة ابنتها، التى انقطعت عنها اخبارها منذ عادت البنت «قنوع» إليها بالبطاطا قبل أكثر من ثلاث ساعات، حين أقبلت «سكينة» من الخارج، بعد الغروب بقليل، فسألتها عنها بلهفة، لكنها ردت عليها باقتضاب، وبلهجة تشى بضيقها بالمناقشة:

- أنا سبتها مع المكوجى فى الخمارة.... وكانوا رايحين يجيبوا البالطو.

وبعد قليل غادرت الغرفة إلى «خمارة سبيرو» حيث كان «عبد العال» ينتظرها.

وفى السابعة مساء، جاء الكابورال «وليم جولدنج» فلم يجد «فردوس» وأدهشه ذلك، إذ كانت دائما حريصة على أن تكون فى استقباله عند عودته من عمله... وظل ينتظرها لمدة تزيد على ساعة، غادر بعدها البيت إلى مقر اقامته الآخر ليبيت به.

وكان القلق قد افترس الأم التى كانت واثقة أن الخطر الشديد، هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يشغل ابنتها عنها فى مثل هذه الظروف، فوقفت على عتبة البيت تبحث عمن يعينها، إلى أن مرت «جميلة فرج» - مواطنتها الطنطاوية - التى ما كادت تعلم بالخبر حتى تحمست لمساعدتها، وأخذت تبحث عن «سكينة» فلم تجدها، ولكنها التقت بـ «ريا» أمام مبنى قسم الشرطة، فسألتها عنها، وعن «فردوس». وخلال الساعات التالية تناقل رواة الاخبار فى الحارة والحارات والأزقة المتفرعة عنها والمتاخمة لها، رواية تقول بأن «فردوس» خرجت مع «سكينة» فى أعقاب صلاة الجمعة، فلم تعد منذ ذلك الحين.

وكانت جارات «فردوس» فى «بيت أبو المجد» من العاملات بـ «كوم بكير» من بين اللواتى سمعن الخبر ورددنه... وفى منتصف الليل عادت «سكينة» لبيتها، لكن الأم - التى كانت ما تزال تجلس فى الظلام أمام غرفة ابنتها - لم تجسر على تكرار سؤالها، إذ كان زوجها «محمد عبد العال» معها.....

وحرصت «بطة» - التى عادت من عملها فى «كوم بكير» فى أعقاب ذلك - على أن تمر على الأم، وتحاول طمأنتها بأن الفتاة ستعود قبل الصباح.

وحين استيقظت فى صباح اليوم التالى - السبت - ولم تجد نبوءتها قد تحققت طرقت باب غرفة «سكينة» لكى تسألها عن الفتاة، وتستثير عطفها على أمها التى

أمضت الليل ساهرة تبكى، فطالعتها «سكينة» بعيون مثقلة بآثار الخمر، ولم تضف - فى اجاباتها الباردة على اسئلتها - جديدا إلى روايتها المعتمدة. وعندما اقترحت عليها «بطة» أن تصحب «خديجة» إلى دكان «سيد عبد الرحمن» لتسأله عن الفتاة الغائبة، اعتذرت بأنها لا تعرف مكانه.

ولم يحل مناخ الأقاويل الذى كان يحيط بـ «سكينة» بينها وبين القيام بما كان محتما عليها أن تقوم به فى ذلك اليوم - السبت ١٣ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩٢٠ - ففى العاشرة صباحا كانت تقف مع شقيقتها أمام دكان «على الصائغ»، الذى بدأ المساومة، بتكرار العرض الذى قدمه لهما فى مساء اليوم السابق، لكنهما أصرتا على الرفض، مما اضطره إلى زيادة الثمن إلى خمسين جنيها، فتجاهلت «سكينة» - التى كانت تتولى المفاوضة - العرض الجديد، وأخذت تقلب فى البضاعة التى يعرضها فى دكانه، إلى أن اختارت لية رُفيعة يبلغ ثمنها سبعة جنيهات ونصف، وحلقا يبلغ ثمنه ثلاثة جنيهات، وقلبا من الفضة بريالين، ثم مدت يدها إليه مطالبة بالجنيهات الخمسين، وحين حاول أن يخصم ثمن ما اشترته من مصوغات، رفضت بشدة، وأصرت على أن تأخذ النقود بالاضافة إلى ما اختارته من البضاعة... وظاهرتها «ريا» على موقفها إلى حد التهديد باسترداد المصاغ.... وبينما هم يتناقشون دخل «حسب الله» و«عبد العال» الدكان، ولأن الصائغ كان قد باع بالفعل أحد زوجى الاساور بثمانية وخمسين جنيها، ولم يكن باستطاعته أن يسترده، فقد وافق على شروط البائعين واشترى مصاغ «فردوس» بثمن نقدى وعينى بلغ مجموعه الكلى اثنين وستين جنيها، وقنع من الغنيمة، بزوج الأساور الأخر الذى احتفظ به لتكسيره وصهره، واعادة صياغته.

وعند ظهر ذلك اليوم، عادت «سكينة» وحدها إلى دكان طلاء المصوغات، الذى أودعت لديه «فردوس» قصبتى البرقع، والخاتم المضلع الذى يحمل على أحد وجوهه الحرفين الأولين من اسمها واسم الخواجا فطالبته بهما... ولما كان صاحب الدكان قد رآها مرتين بصحبة «فردوس» فقد اختلط عليه الأمر، ولم يعرف من منهما صاحبة الأشياء المودعة لديه، فقد سلمها إلى «سكينة» التى دفعت له أجره، وعادت إلى حجرتها فأخفت الخاتم بظهر أحد مساند القش، الموضوعة على كنبة بغرفتها وحرصت - منذ ذلك الحين - على ألا تظهر فى «بيت أبو المجد» إلا بشكل خاطف لكى تتوقى الأسئلة الباكية فى عيون «أم فردوس» التى تكشف احساسها بالوحدة... والغربة.

وكانت «فاطمة البربرية» - وهى عايقة سودانية الأصل فى الخمسين من عمرها، تدير عدة دكاكين للدعارة

بـ «كـوم بكيـر» - هـى التى أنقـذت جارتها ومواطنتها «خديجة السودانية» من الاحساس بالضياع، ومدت لها يد العون، فلم تكتف بتعزيتها عن غياب «فـردوس» - التى كـانت بحكم الجيرة والزمـالة، تعـرفـهـا وتحـبـهـا - بل وصـحـبـتـهـا- طوال يوم الأحـد ١٤ نوفمبـر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ - فى جـولة على المستشفيات وأقسام الشرطة، لتبحثا عن الفتاة الغائبة... ولما لم تعثرا لها على أثر، صحبت الأم إلى «قسم شرطة اللبان» لكى تبلغ عن اختفاء ابنتها....

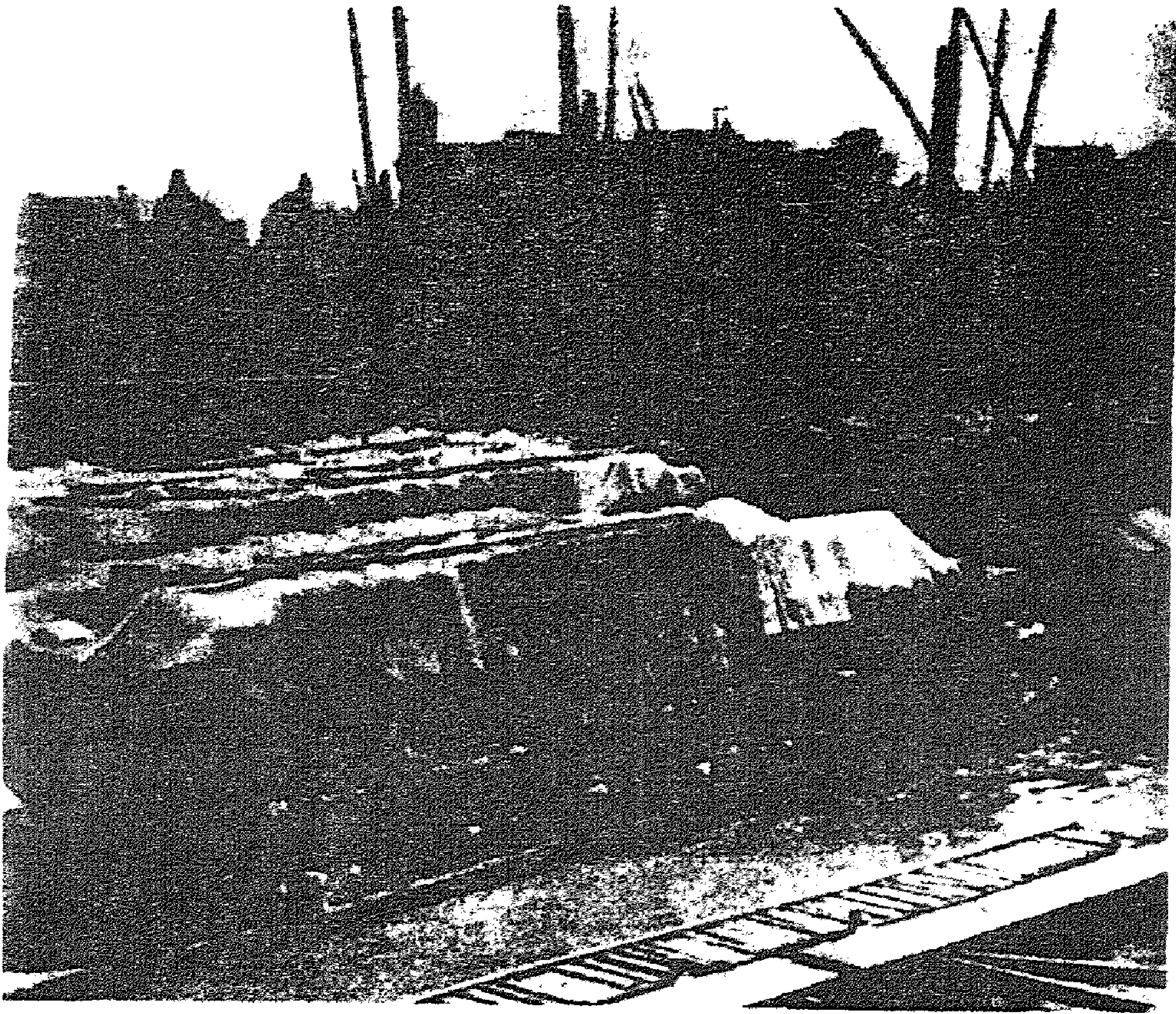
وفى السابعة من مساء ذلك اليوم، بدأ اليـوزباشى ـ النقـيب ـ «ابراهيم حـمدى» - نائب مأمور قسم شرطة اللبان - التحقيق فى بلاغ اختـفـاء «فردوس بنت فضل عبد الله»، فاستمع إلى أقوال أمها، التى روت واقعة خروج ابنتها مع خادمتها «قنوع»، ووصفت ما كانت ترتديه وتتزين به، وأكدت أنها لم تخرج غاضبة، وأنه ليس لديها أى دافع لكى تهجر المنزل ونفت كل احتمال لأن تكون قد سافرت خارج الاسكندرية، ولم تشر إلى «سكينة» التى ورد اسمها واسم «سيد عبد الرحمن» على لسان «قنوع».

ولما استدعاهما المحقق أصر كل منهما على القول بأنه ترك «فردوس» مع الآخر، واستشهدت «سكينة» على صحة روايتها بـ «على الفرنساوى»، بينما لم يستطع «سيد» أن يجد شاهدا يؤيد روايته بأن «سكينة» قد صحبتها إلى المصبغة، وأنه ترك الفتاة - بعد ذلك معها، وعاد إلى دكانه... ومع أن صاحب البار أيد أقوال «سكينة» بأنها غادرت المكان أولا. وقبل أن يغادره «سيد» و«فردوس» بدقيقتين، إلا أنه لم يستطع أن يحسم التضارب بين أقوالهما حول ما حدث بعد ذلك قائلا أنه لا يعرف ما إذا كان ثلاثتهم قد التقوا بعد ذلك فى الخارج أم لا.

ولم تضف أقـوال الكابورال «وليم جولدنج» كثيرا إلى التحقيق... إلا أنه أبدى اهتماما بالبحث عن «فردوس»، وأعلن استعداده لدفع الرسوم المطلوبة لنشر صورتها بالصحف... وختم اليوزباشى «ابراهيم حمدى» التحقيق، بنفس العبارات الديوانية الباردة التى انتهى به غيره، فكتب «كلفنا البوليس السرى... بالبحث عن الغائبة، وأمرنا بالنشر عنها... وصار تحصيل مبلغ ثلاثين قرش صاغ من خليلها لنشر الصورة كرغبته، وقفل المحضر على ذلك فى تاريخه وساعته، لحين ظهور نتيجة البحث».

ولم تكن «سكينة» تعلم حين غادرت قسم الشرطة فى تلك الليلة، أن نتيجة البحث كانت قد ظهرت عصر اليوم نفسه، وأن الأوان كان قد حان لفتح كل المحاضر - وكل المقابر - المقفلة.

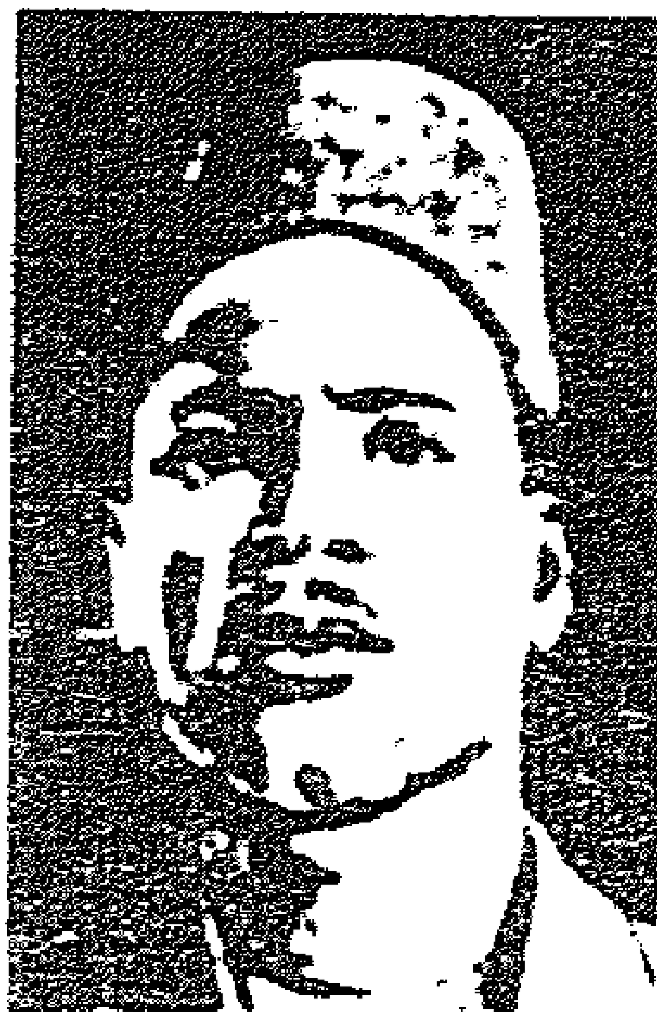




السفن النيلية تحمل الاقطان عبر ترعة المحمودية من عواصم الجنوب إلى الاسكندرية وهي التي سجعت الصعايدة على الهجرة على متنها إلى الاسكندرية

الفصل السادس

مرويات آل همام





مع أن المنزل رقم ٥ بـ «حارة ماكوريس» - المعروف بين الناس باسم «بيت الجمال» نسبة إلى الأسرة التى تملكه- كان قد أصبح خاليا من السكان، منذ طرد «سكينة» وجيرانها منه فى ٣٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٠، فإن ذلك لم يغير شيئا من عادات «أحمد مرسى عبده» الذى ظل يرابط أمام بابه طوال ساعات النهار. ليس فقط لأنه كان عاطلا عن العمل، بحكم الضعف الشديد فى بصره، ولكن لأنه كان يعتبر نفسه مندوبا مفوضا عن «آل الجمال» فى إدارته، إذ كانت جدته لأمه، قد أوقفت البيت على أولادها من الإناث، وعليه هو نفسه، وعينت أمه ناظرة على هذا الوقف، فأصبح صاحب النصيب الأكبر من دخله.

وبهذه الصفة وضع لافتة تدل على أن المنزل، معروض للإيجار وكلف أحد السماسرة بالبحث عن أسرة محترمة يفضل أن تكون أفرنجية، بعد أن استقر رأى الأسرة على ألا تكرر التجربة المريرة السابقة، بتأجيره لمن يحوله إلى وكر للفواحش والقوادين واللصوص.. واتخذ مندوب «آل الجمال» من قهوة «زكية جعفر» المواجهة له، مكانا يراقب منه الموقف، ويستقبل الراغبين فى تفقد المنزل، ويرد على استفساراتهم، ويعرض عليهم شروطه.

وكان سكان الطابق الأرضى من البيت. الذين أكرهوا على مغادرته. قد تركوه لأماكن ليست بعيدة عنه، وفيما عدا «محمد السمنى»، الذى سافر إلى القاهرة قبل أيام من تنفيذ حكم الطرد، ليعمل سائسا لخيول الخواجا «ميخالى بنانى» بالمطرية، وابنه «أحمد» الذى وجد عملا على باخرة تجارية سافرت به إلى «مارسيليا»، فقد توزع الباقون على الحارات القريبة، فانتقلت «سيدة سليمان» -زوجة السمنى- إلى منزل اختها «مباركة» خلف مقام «سيدى عماد» القريب، وعاد «محمد سليمان شكير» إلى منزله الأصلى بـ «جنينة العيونى» وانتقل «صالح العدنى» للإقامة بفندق بـ «شارع انسطاسى». وكانت «سكينة» هى الوحيدة من بين سكان الطابق الأرضى التى ظلت تقيم بـ «حارة ماكوريس» نفسها، فانتقلت من المنزل رقم ٥ إلى المنزل رقم ٦، ومن «بيت الجمال» إلى «بيت أبو المجد» المواجه له، والملاصق للمقهى الذى كان «أحمد العاجز» يتخذ منه مركزا للمراقبة فكانت تعابثه فى غدوها ورواحها، وتطلب منه أن يؤجر لها الطابق الأرضى بدلا من أن يترك المنزل خاليا تمرح فيه العفاريت..

ومع أنه لم يكن يأخذ كلامها مأخذ الجد، إلا أنه كان حريصا كذلك، على ألا يترك البيت خاليا من السكان ليلا، خشية أن يتسلل إليه «عفريت» يقيم فيه، أو أن ترتكب به خطيئة، أو تسرق نوافذه أو أبوابه الداخلية.. وبدلا من أن يستأجر خفيرا خصوصيا لحراسته، أو يعطى رشوة

لخفير الدرك المعين رسميا لحراسة المنطقة لكى يشمله برعاية خاصة، رأى أن يوفر نقوده، وأن يحصل - فوق ذلك - على ثواب من الله، فعرض على الشيخ «محمد البريرى» - وهو متسول عجوز فى السبعين من عمره لا مأوى له- أن يبيت فى المنزل. فأصبح الرجل يعود من سرحته مغرب كل يوم، ليتسلم مفتاح المنزل، ولا يغادره فى الصباح، إلا حين ينادى عليه «أحمد العاجز» من مكانه على مقهى «زكية جعفر» فى بداية نوبة الحراسة النهارية، فيعيد إليه المفتاح، ويغادر الحارة ليتسول من المارة.

ولأن «الشيخ محمد» كان أضعف من أن يقاوم أى سطو محتمل فقد قبل «أحمد مرسى» -بعد يومين- أن يؤجر إحدى غرف المنزل لصياد اسمه «حميدو» لكنه رفض أن يحرر له عقد إيجار، واشترط عليه أن يغادرها فى الوقت الذى يصل فيه المستأجر الجديد.

والواقع أن «بيت الجمال» لم يكن يخلو من مزايا كثيرة. وكان عيبه الأساسى هو سكان الطابق الأرضى الذين لم تكن سمعتهم تشجع أحدا على جيرتهم، وهكذا لم يظل خاليا سوى خمسة أيام فقط، بعد طردهم منه، ففى الرابع من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ جاء أحد السماسرة بخواجا إيطالى تفقد المنزل، فأعجبه، وقرر أن يستأجره بطابقيه ليقيم فيه مع أسرته.

ولدهشة «أحمد العاجز» فإن الخواجا لم يتوقف طويلا عندما حدد له إيجار المنزل بثلاثة جنيهات شهريا، وهو ما يوازى ضعف القيمة التى كان السكان السابقون يدفعونها، فقبل على الفور ومن دون مناقشة، مع أنه كان قد بالغ فى مطالبه ليترك هامشا للمساومة. ولكن فرحته انقلبت إلى إحباط عندما اشترط الخواجا مقابل ذلك، أن يقوم أصحاب المنزل بإدخال الصنابير إلى المطابخ والحمامات ودورات المياه، إذ هو لا يستطيع أن يشرب من أزيار الفخار، أو أن يعيش فى منزل تتصاعد منه الروائح الكريهة بسبب ذلك.

وفى المفاوضات التى جرت خلال الأيام التالية، وقام بها خاله الشيخ «محمد عبدالسلام الجمال» مع المسؤولين فى البلدية، اشترطوا لإدخال المياه إلى البيت، أن يتم إيصال بئر الفضلات به بشبكة المجارى العمومية. وأسفرت المقايسة التى قامت بها «كومبانية - أى شركة - المياه» للعملية بشقيها، عن أنها سوف تتكلف أربعة وعشرين جنيها، على أن يقوم المالك -على نفقته- بالكشف عن مكان البئر التى يتم فيها التصريف.. وكادت التكلفة الباهظة تثنى أصحاب البيت عن قبول المشروع، لولا أن الخواجا عرض عليهم أن يتحمل نصفها، وقبل أن يدفع من جيبه نصيبهم على أن يخصمه من الإيجار. ولأن الفوائد الجمة التى تعود على «آل الجمال» من مشروع سيمول من الزيادة غير المتوقعة فى الإيجار، لم تكن خافية عليهم، فقد وقعت «زينب محمد الجمال» -والدة «أحمد العاجز» وناظرة الوقف -على عقد الإيجار-.. ودفع الخواجا النقود وانصرف

على أن يعـود فى أول ديسـمـبـر (كـانون الأول) ١٩٢٠، ليقيم فى البيت..

ولأن كشف مسار المواسير التى تقود إلى بئر التصريف، كان الخطوة الأولى فى الإصلاح، كما كان من بين التزامات المالك، فقد قرر الشيخ «محمد عبدالسلام الجمال» توفيرا للنفقات أن يكلف ابن شقيقته «أحمد مرسى عبده» بهذه المهمة. ولم يحل دون ذلك علمه بأن الشاب يكاد يكون كفيفا، إذ لم تكن العملية تتطلب قدرة كبيرة على الإبصار، بقدر ما كانت تتطلب قدرة بدنية متوسطة، وهو ما كان يتوفر لدى الشاب الذى كان فى السابعة والعشرين من عمره. وقد تحمس لأدائها، كما هو متوقع من إنسان يرغب بقوة فى البرهنة للآخرين أنه ليس عاجزا كما يصفونه.. لكن الخال -مع ذلك- لم يتركه من دون مساعدة أو إشراف.

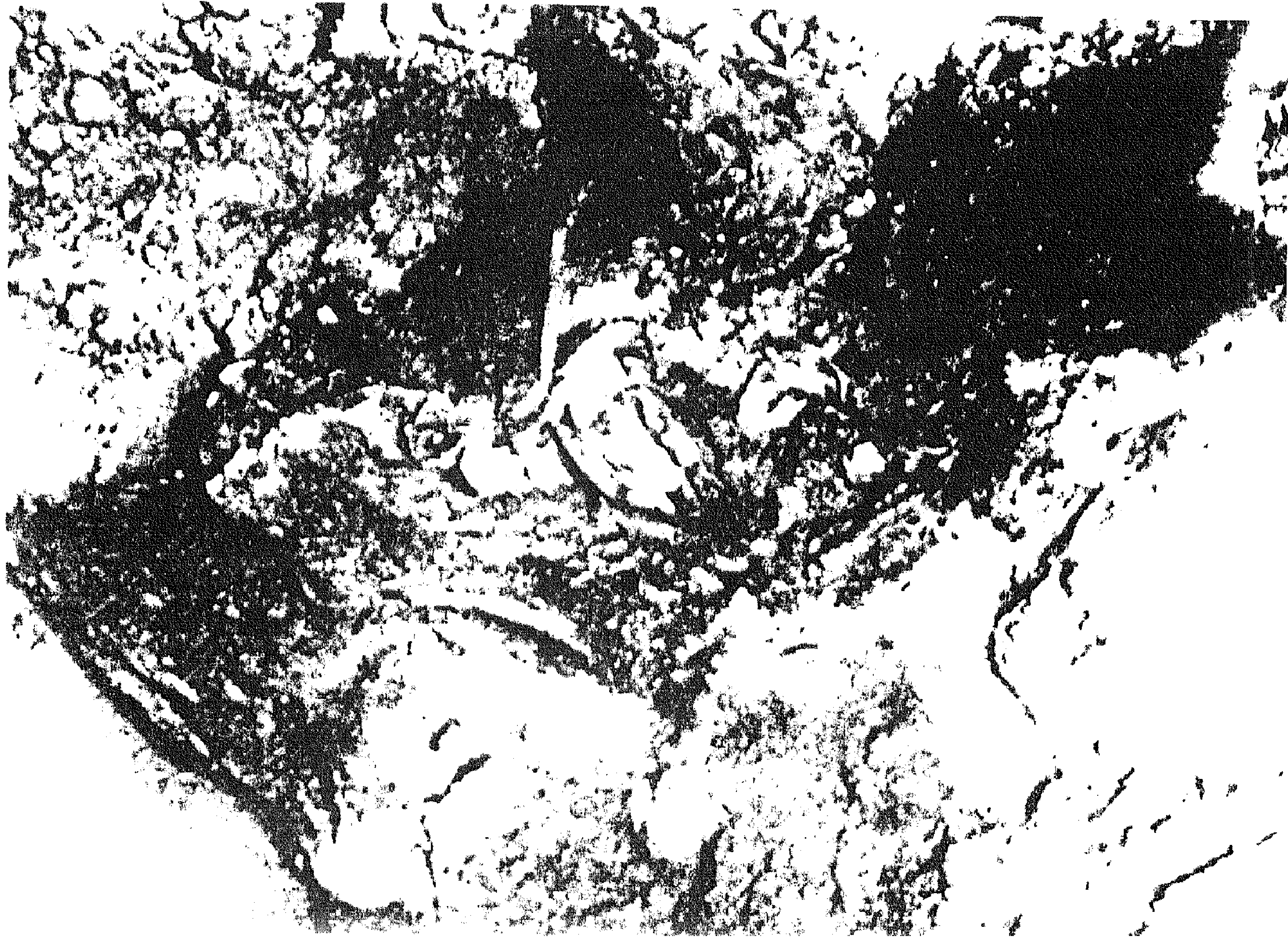
وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة من بعد ظهر يوم الأحد ١٤ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، حين ظهر الشيخ «عبدالسلام» فى المنزل رقم ٥ بـ «حارة ماكوريس»، حيث صعد إلى الدور الثانى، وتفقد دورة المياه، وتتبع مسار المواسير الهابطة منها، إلى أن اكتشف أنها تمر بأرضية الغرفة التى تقع أسفلها مباشرة، فاقتاد ابن اخته -الذى كان ينتظره بالطابق الأرضى- إلى تلك الغرفة، وحدد له مكانا بحذاء الحائط تحت النافذة، طلب إليه أن يحفر فيه بعرض بلاطتين، وبطول الغرفة. وإلى العمق الذى يشعر معه بأن المواسير قد تكشفت. وحتى يسهل عليه الأمر تناول منه الفأس الصغيرة، التى كان قد أحضرها معه واستخدم حافتها المدببة، فى خلع أول البلاطات وقد دهش قليلا حين لم يتطلب ذلك مجهودا، مما شجعه على مواصلة العمل، حتى خلع ثمانى بلاطات، ثم ترك الفأس لابن شقيقته، وغادر المكان..

ولم يشرع «أحمد العاجز» فى العمل إلا فى الثالثة، وبعد أن تناول غداءه وصلى العصر.. ولكنه عمل بهمة لمدة تزيد على ساعة، نجح خلالها فى أن يزيل طبقة الجير المدكوك بالحصى، بطول مترين. ولم يتطلب ذلك منه مجهودا، إذ لم تكن الأرض بالصلابة التى توقعها. وبظهور طبقة التراب التى تلى ذلك، بدأ فى تعميق الحفر، وكان يضع المتخلف عنه فى مقطف من الخوص المجدول، فإذا امتلأ قام بتفريغه فى أحد أركان الغرفة، ثم عاد به ليملأه من جديد، وكان يواصل العمل حين دخل «حميدو» الذى قال له:

- خل عنه.

ثم دخل إلى غرفته المواجهة للغرفة. التى كان «العاجز» يحفر فيها ليستريح قليلا.. وواصل هو العمل، وأخذت الرائحة النتنة تفوح من التراب وتتصاعد تدريجيا كلما تعمق فى الحفر، لكنه تحمل بصبر.

وفى إحدى ضربات الفأس خيل إليه أنه سمع صوت اصطدامها بجسم صلب.. وحين حاول أن يستردها احتاج إلى قوة غير عادية لكى يجذبها إليه.. ولما قرب سلاحها من عينيه، ليحاول رؤية ما حدث، فوجىء برائحة نتنة لم يستطع أن يتحملها



صورة الجثة الأولى التى عثر عليها أحمد العاجز أثناء حفر فى غرفة سكينة وقد صورها محل عزيز ودورس بالإسكندرية بتكليف من النيابة

فتبادر إلى ذهنه أن الضربة قد كسرت إحدى مواسير المجارى، وأن ذلك هو مصدر الرائحة الكريهة التى تصاعدت على أثرها.. فانحنى فى موضع الحفر، وأخذ يتحسسه بأصابعه محاولا أن يكتشف الأمر إلى أن غاصت فى لحم طرى، ثم اصطدمت بجسم صلب، شده فلم يستجب له فظل يحاول معه حتى انخلع، ولما قربه من عينيه شك فى أنه ذراع إنسان فلم يصدق نفسه.. ونادى على «حميدو» الذى ما كاد يراه حتى أكد له أن ظنونه صحيحة، وأن ما يمسك به، هو بالفعل ذراع إنسان، وتناول الفأس وأزاح جانبا آخر من التراب، فإذا بهما أمام هيكل عظمى لجثة لم يكن هناك شك فى أنها جثة امرأة.

لم يعرف «أحمد العاجز»، إلا فيما بعد، أن الفأس كانت قد انفرست فى ذراع «نبوية بنت على» قهوجية «كوم بكير» التى استدعتها «سكينة» منذ ثلاثة شهور لكى تقوم بعلاجها من نزلة برد أصابتها بـ «التكسير» لها على ظهرها بـ «كاسات الهواء» فدخلت المنزل ولم تخرج منه. ولم يهتم لحظتها إلا بشىء واحد هو أن يعيد إهالة جانب من التراب فوق الجثة، وأن يطلب من «حميدو» أن يكتم الأمر عن كل إنسان، إلى أن يبلغه إلى خاله، ليقرر ما يراه بشأنه.. ولم يكن «حميدو» بحاجة إلى توصية، إذ كان لديه فيما يبدو ما يدعوه لأن ينأى بنفسه عن الدخول فى مزيد من المشاكل مع الشرطة، فلم يبد فحسب حماسا لتنفيذ ما طلب منه «أحمد العاجز»، بل ورجاه كذلك أن يغفل ذكر اسمه فى كل ما يتعلق بهذا الأمر، وما كاد الاثنان يغادران المنزل، حتى اختفى «حميدو» عن الأنظار ولم يظهر منذ ذلك الحين.

وظل «أحمد العاجز» يقف على ناصية الحارة فى انتظار أن يمر خاله الذى كان قد وعده بأن يعود إليه قبل الغروب، لكى يتفقد ما أنجزه من عمل.. ولأن اليوم كان الثانى من شهر ربيع الأول، الذى تبدأ فيه الاحتفالات بالمولد النبوى الشريف فإنه ما كاد يسمع آذان العشاء من مسجد «سيدى عماد» القريب، حتى أدرك أن خاله -الذى كان يعمل قارئا للقرآن الكريم ومنشدا للتواشيح الدينية- قد انشغل بعمله فى تلك الأيام التى يزداد فيها الطلب على أمثاله. فأغلق البيت وترك مفتاحه للشيخ «محمد البربرى» الذى كان قد عاد من سرحته للتسول فى شوارع المدينة، ولكنه لم يقل له شيئا، خاصة وأنه كان ينام فى إحدى الغرفتين المطلتين على واجهة البيت، بعيدا عن الغرفة التى عثر فيها على الجثة.

وهكذا غادر «أحمد العاجز» مكانه على ناصية الحارة، بالقرب من الباب الرئيسى لقسم شرطة اللبان فى اللحظة التى كانت «سكينة» تدلف فيها من باب القسم، لكى تدلى بأقوالها فى التحقيق الذى كان اليوزباشى - الرائد - «إبراهيم حمدى» - نائب مأمور القسم - يجريه فى قضية اختفاء «فردوس» فعاد إلى منزله ليروى حكايته المثيرة لأمه التى لم تصدقه، وقالت له:

- أنت أعمى.. هو إيه اللى راح يجيب لك عظم ولحم بنى آدم فى التراب جوه الأوضة؟!.

فلما أكد لها أن «حميدو» -وهو قوى الإبصار- قد جزم بذلك قالت له:

- ازعق على خالك من على القهوة.

وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة حين ظهر الخال ليستمع إلى القصة، فلا يصدقها، ولا يجد تفسيرا لها إلا الشك فى قدرة ابن اخته على تمييز ما يشاهده.

وكان صبر «أحمد العاجز» على تحمل الإهانات قد نفد، فقال لهما بتحد:

- تعالوا شوفوا بنفسكم.

فى السابعة من صباح اليوم التالى - الاثنين ١٥ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، وصل الشيخ «محمد عبدالسلام الجمال» وبصحبته شقيقته «زينب محمد الجمال» وابنها «أحمد مرسى عبده» إلى البيت الذى يملكونه بـ «حارة ماكوريس».. ولأن الشيخ «محمد البربرى» لم يكن يتوقع وصول أحد من أصحاب المنزل فى هذا الوقت المبكر فقد غادره وأغلقه خلفه قبل وصولهم بدقائق، وتوجه إلى «مسجد سيدى عماد» القريب، لكى يصلى الصبح.. فاضطروا للانتظار بعض الوقت، إلى أن عاد من المسجد، ففتح لهم الباب، ودخل معهم إلى الغرفة. وما كاد «أحمد العاجز» يكشف عن جانب من التراب، حتى تأكد الجميع من صدقه، ولم يتحملوا الوقوف طويلا أمام القبر، المفتوح الذى تفوح منه الروائح الكريهة، فهرولوا إلى الخارج، وما أن لحق بهم، بعد أن أهال التراب من جديد على الجثة، حتى سأل خاله:

- تشور بإيه يا خالى؟.

واستفز السؤال الشيخ «عبدالسلام» الذى كان المشهد قد زلزل أعصابه، فانفجر فى وجهه قائلا:

- يلعن أبو البعيد، على اللى جابوه.. هى دى عايزه شورة؟.. القسم جنبك.. تعالى نبلغ..

ولم يكن أحد من الضباط العاملين بقسم شرطة اللبان، قد وصل بعد إلى مكتبه فى ذلك الوقت المبكر من الصباح، إذ كان نائب المأمور اليوزباشى - الرائد - «إبراهيم حمدى» قد توجه من منزله إلى القنصلية البريطانية ليدلى بشهادته فى قضية تتعلق بمتهم من رعاياها المشمولين بالامتيازات الأجنبية، بينما كان الملازم ثان «عبدالغفار أحمد» -ملاحظ القسم- قد خرج على حصانه فى مقدمة رأس فرقة من الجنود السوارى، ليقوم بتشريفة الصباح. ولما كان القائم بعمل الضابط النوبتجى هو «الهيد كونستابل جون فيلبس»، فقد تلقى البلاغ الذى اقتصر على واقعة عثور «أحمد مرسى عبده» على «ذراع بنى آدم.. ولحوم ظاهرة من الأتربة، أثناء حفره داخل أودة بالمنزل ملكه للكشف عن موقع المجرور». وكانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف حين انتهى من تدوين البلاغ، وعاد الملازم «عبدالغفار أفندى» من التشريفة، فسلمه الكونستابل المحضر، وأبلغ المحافظة تليفونيا بالواقعة.

وما كاد الملازم ثان «عبدالغفار أفندى

أحمد» ينتهى من قراءة البلاغ حتى اصطحب المبلغين الثلاثة إلى المنزل لمعاينته، حيث قادوه إلى المكان الذى عثر فيه على الجثة. وللمرة الثالثة واستجابة لطلب ملاحظ الشرطة، كشف «أحمد العاجز» عن جانب من التراب، رأى فيه الضابط عظاما وأشلاء من جثة بشرية فاكتفى بذلك، وغادر المنزل بعد أن عين الجندى «عبدالعاطى إبراهيم» حارسا عليه، وأمره بعدم السماح لأحد بالدخول أو الخروج منه.

وبعودته ثانية إلى القسم، اتصل الملازم «عبدالغفار أفندى» تليفونيا بالقنصلية البريطانية وأبلغ نائب المأمور اليوزباشى (النقيب) «إبراهيم حمدى» -الذى كان مايزال ينتظر دوره للإدلاء بشهادته- بما انتهت إليه المعاينة، فكلفه بالشروع فى التحقيق، الذى بدأ فى التاسعة وعشر دقائق.. وانتهى بعد أربع ساعات.

ونفى المتسول العجوز الشيخ «محمد البربرى» معرفته بشىء، وقال:

- «أنا راجل غلبان.. وكنت بواب عند صالح أفندى.. ومن مرضى تركت الخدمة ودايرعلى باب الله.. وساكن فى البيت حسنة لوجه الله».

ولم تفد أقواله التحقيق فى شىء إلا تأكيده بأن أحدا لم يكن يتردد على المنزل، خلال الأسبوعين اللذين أقامهما به، بعد إخلائه، سواء هو و«حميدو»، وعلى العكس من ذلك فإن أقوال «أحمد مرسى عبده» و«الشيخ محمد عبدالسلام» قدمت صورة كابوسية لحياة السكان الأربعة الذين كانوا يقيمون به إلى أن طردوا منه لأنهم -على حد تعبيراتهما- كانوا يجمعون اللصوص والقوادين والمومسات ويديرون البيت للبغاء السرى.

ولم تكن الصورة جديدة على «عبدالغفار أفندى» الذى كان - كغيره من العاملين بقسم شرطة اللبان- يعرف معظمهم، بحكم ترددهم الدائم على القسم لتقديم البلاغات الكيدية ضد بعضهم البعض أو لاتهامهم فى قضايا مشاجرات ونصب وسكر وعربدة. ومع أنه لم يستبعد شبهة أن تكون الجريمة قد ارتكبت بعد إخلاء المنزل، فقد ركز أسئلته حول السكان الذين أخلوه منذ أسبوعين، وخاصة من كان منهم يسكن فى الغرفة التى وجدت فيها الجثة، وهى «سكينة بنت على همام» التى ذكر «أحمد العاجز» بأنها متزوجة.. «ولكنها دايرة على كيفها، وجوزها سايبها» وقال خاله إنه سمع من الجيران أنها كانت «تحضر مومسات فى المنزل مع أنفار هنود، وهى نفسها كانت من بين الذين يدخلون معهم».

وبينما كانت معلومات الخال سماعية، وغير محددة المصدر فقد كانت معلومات ابن شقيقته أكثر تحديدا، إذ ذكر أسماء السكان، وحدد من بين المومسات المترددات عليهم أسماء «بطة العزب» ووالدتها «أسماء المصرى» ومع أنه لم يستطع أن يستنتج اسم صاحبة الجثة، فقد قطع بأنه لا تفسير لوجودها فى المكان الذى عثر عليها فيه إلا أن تكون «سكينة» و«السمنى» و«شكير» «عملوا فيها شىء بطال..

وموتوها .. ودفنوها».

ولابد أن العثور على الجثة فى غرفة «سكينة» قد أنعش ذاكرة الملازم «عبدالغفار أفندى» أو غيره من العاملين بالقسم، مثل الصول ـ المساعد ـ «محمد عبدالعليم» الذين تذكروا فجأة اسم «سكينة» قد ورد فى تحقيقين أجريا حول غياب نساء، لم يكن قد مضى على أقدمهن سوى ستة أسابيع، وهو محضر غياب «زنوبة الفرارجية». بينما لم يكن قد مضى على التحقيق معها فى الثانى - وهو محضر غياب «فردوس بنت فضل الله» - سوى ساعات قليلة. وفى الحالتين كانت «سكينة» آخر من شوهد مع المرأتين قبل اختفائهما مباشرة، فدون «عبدالغفار أفندى» ذلك فى محضره، وسأل صاحبى البيت عما إذا كان أحدهما قد شاهد «زنوبة» أو «فردوس» من بين المترددات على المنزل، فلما نفيا معرفتهما بهما، اكتفى بذلك القدر من أقوالهما، وامر باستدعاء سكان الطابق الارضى الاربعة، الذين وردت اسماؤهم فى تلك الاقوال.

وكان من سوء حظ «محمد سليمان شكير» - الذى لم تكن قد مرت على عودته من القاهرة سوى ساعة واحدة - أنه كان فى طريقه إلى مقهاه بـ«كوم بكير» حين سمع الناس يتحدثون عن اكتشاف جثة مدفونة بأرض الغرفة التى كانت تقيم بها «سكينة» جارته السابقة بـ «بيت الجمال» فانضم إلى الحشود التى احاطت بالبيت تستطلع الخبر، إلى أن رآه أحد المخبرين الذين يعرفونه، فكان أول من قبض عليه، وحقق معه من السكان. وبينما اهتم «عبد الغفار أفندى» بسؤاله عن صلة «سكينة» بكل من «زنوبة الفرارجية» و«فردوس»، وهو ما لم يكن يعرف عنه شيئا... اهتم «شكير» بالتأكيد على صلته الواهية بالبيت الذى لم يسكن به سوى أقل من شهرين، لم يكن يمكث فيه خلالهما أكثر من نصف ساعة فى اليوم.

وقطع وصول «محمد كامل أبو ستيت» - وكيل نيابة المنشية - إلى قسم شرطة اللبان، استجواب الشرطة لـ«شكير» إذ لم يكد يصل، حتى أوقف «عبد الغفار افندى» تحقيقه، وأغلق محضره، وسلمه إليه بصفته وكيل النائب العام المنتدب للتحقيق فى الواقعة، وانتقل هو وبعض زملائه بصحبته إلى «بيت الجمال» ليعيد المعاينة.

وكان أول ما لاحظه وكيل النيابة هو أن الغرفة التى عثر بها على الرفات، كانت مظلمة، ولا يمكن رؤية ما بها، مع أن الساعة لم تكن قد وصلت إلى الواحدة ظهرا... فأمر باستحضار لمبة نمرة عشرة مما تضاء بالبترول وبتدبير عمال يواصلون الحفر، إلى المدى الذى وجده كافيا لتمييز الجثة التى تأكد له أنها جثة امرأة، إذ كان شعرها الطويل ما يزال ملتصقا بجلد الجمجمة، وقد اضاف اليوزباشى «ابراهيم حمدى» - الذى قام بمناظرتها بعد نقلها إلى المستشفى - أنها كما قال فى محضره «هيكل عظمى كامل لامرأة، وخط الشيب شعرها، ترتدى فانلة حريمى بيضاء». وقبل أن يغادر «أبو ستيت بك» البيت، كلف الملازم «أحمد عبد الله» - أحد ضباط

البوليس السرى الذين أوفدتهم المحافظة للمعاونة فى اجراء التحريات - بالاشراف على مواصلة البحث لاحتمال وجود جثث أخرى. كما كلف الملازم ثانى «عبد الغفار أحمد» بتفتيش الغرفتين العلويتين المغلقتين فوق سطح المنزل، بعد الحصول على مفتاحيهما من صاحب البيت «أحمد العاجز» الذى كان ما يزال محجوزا بقسم الشرطة. وبعودته مرة أخرى إلى القسم، وجد نائب المأمور قد عاد بعد انتهاء جلسة المحكمة القنصلية، فكلفه باحضار جميع سكان المنزل وملاكه لجلسة التحقيق الذى قرر استئنافه فى المساء...

ولابد أن «سكينة» قد عرفت بخبر افتضاح أمر المقبرة، كما عرف به كل سكان الحارة، والحارات المجاورة، منذ اللحظة الأولى التى اندفع فيها الشيخ «محمد عبد السلام» من باب المنزل، وهو يسب ويلعن، ويعلن للناس خبر الجثة التى عثر عليها فى ارض الغرفة التى كانت تسكنها، ما لم تكن قد عرفت به فى الليلة السابقة على ذلك، وفى اعقاب انتهائها من الادلاء بأقوالها فى محضر اختفاء «فردوس»، لكنها - بالقطع - لم تكن من بين الزحام الذى قاده الفضول والفراغ للاحتشاد أمام «بيت الجمال» فى انتظار اخبار جديدة عن القتيلة والقتلة، وإلا لما كان «شكير» أول الذين جرى التحقيق معهم من سكان المنزل فى محضر الشرطة.

والحقيقة أن الغموض ما يزال يحيط بالمكان الذى أمضت به «سكينة» الفترة بين خروجها من قسم الشرطة فى مساء يوم الأحد ١٤ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠..... وظهورها فيه فى مساء اليوم التالى..

لكن شواهد كثيرة - تتالت بعد ذلك - ترجح بأنها أمضته فى مشاورات مع شركائها - وأقاربها الثلاثة الرئيسيين... الذين لابد وأنهم قد شعروا ببعض القلق نتيجة لتكاثف الشبهات حولها، فى قضية اختفاء «فردوس»، تحول إلى انزعاج بالغ، لنبش المقبرة الفرعية التى كانت تحتوى على جثث ثلاث من ضحاياهم. والغالب أن هذه المشاورات قد جرت بعيدا عن «حارة على بك الكبير»، إذ لم يكن الامر فى حاجة إلى ذكاء كبير، ليدرك الجميع أن بيت «ريا» هو أول الاماكن التى سوف تفكر الشرطة فى البحث فيها عن «سكينة» إذا طلبتها فلم تجدها فى بيتها....

أما المؤكد فهو أن كيفية التصرف فى حالة اكتشاف أمرهم، والقبض عليهم، كانت قد نوقشت فيما بينهم مرات عديدة، وفى مناسبات مختلفة، وخاصة حين كانت الاقاويل تثور من حولهم فى اعقاب اختفاء إحدى النساء، وتشير إليهم بأصابع الاتهام، كما حدث فى حالات اختفاء «نظلة أبو الليل» التى قامت أمها بتحقيق واسع معهم ومن حولهم، و«أنيسة رضوان» التى أثارت صديقتها «عديلة الكحكية» كثيرا من الغبار فى اعقاب اختفائها، و«نبوية القهوجية» التى ثارت شكوك صديقتها «زكية جعفر» فى «سكينة»، حين رأتها ترتدى جلبابها. أو حين كانت الشبهات تصل إلى حد استدعاء

احدى الشقيقتين أوكليهما للاستماع إلى أقوالهما أمام الشرطة أو النيابة، وهو ما حدث مرتين فقط، الأولى فى تحقيق بلاغ اختفاء «زنوبة محمد موسى» - المشهورة باسم «حجازية» - والثانية فى تحقيق قضية اختفاء «فردوس»....

ومع أنهم كانوا أميين، إلا أن خبرتهم بالتحقيقات الجنائية لم تكن منقطعة تماما، إذ كانوا جميعا - فيما عدا، «محمد عبد العال» - قد حوكموا أو حقق معهم فى قضايا مختلفة تشمل السرقة والضرب واحراز المخدرات وادارة بيوت للدعارة. وفضلا عن أنهم كانوا - بحكم المهنة - يتابعون انباء الجرائم والقضايا ويسمعون تفاصيلها ممن يتصلون به من كتبة المحامين والعاملين فى الشرطة، فقد أمضى الرجال منهم جانبا من سنوات الحرب، يشتغلون فى السلطة العسكرية البريطانية سافروا خلالها إلى بلاد بعيدة، وخضعوا للنظام القانونى الصارم.. الذى تطبقه الجيوش، خاصة فى أوقات الحرب. وقد أتاح لهم ذلك كله، أن يتعرفوا بشكل مشوش -على القاعدة القانونية التى تقول بأن الاعتراف هو سيد الأدلة، وأن المتهم الذى يعترف يفرق نفسه بنفسه، فلا تجدى أية محاولة لانقاذه، أما الذى ينكر - مهما كانت الأدلة التى تساق ضده - فباستطاعة محام متمكن أن يحصل له على البراءة، أو على الاقل ينقذه من حبل المشنقة. وكانت تلك المناقشات قد انتهت بهم إلى التعاهد بألا يشى من ينكشف أمره منهم بالآخرين، أو يعترف على نفسه أو عليهم، وأن يتمسك بالانكار التام، وأن يشيع الاتهام بين كثيرين - غيرهم - بحيث لا يثبت على أحد بالتحديد لتصبح التهمة شائعة، ويحصل الجميع على البراءة لعدم كفاية الأدلة....

والغالب أن الثقة المبالغ فيها فى تلك المعلومات القانونية المشوشة، وفى مدى قدرة كل منهم على التمسك بالعهد الذى قطعه على نفسه، والتفاؤل الساذج بالنتائج الطيبة التى اسفرت عنها التحقيقات السابقة، كانت من بين أسباب القرار الذى أتخذه اجتماع قمة «آل همام» الذى استمر طوال ذلك اليوم بأن تسلم «سكينة» نفسها، خاصة وأن هربها كان سيثبت التهمة ضدها، على أن يتم - قبل ذلك - التخلص من بقايا تركة آخر الضحايا.

وهكذا وضعت «ريا» ملابس «فردوس» التى كانت ما تزال تحتفظ بها لديها، فى «بقجة» وأرسلتها مع ابنتها «بديعة» إلى جارتها وصديقتها «أم رجب» التى تسكن فى الطابق الثانى من المنزل نفسه.. وطلبت إليها الاحتفاظ بها لديها... أما اللبة والحلق الذهبيين والقلب المصنوع من الفضة، الذين حصلت عليهم «سكينة» مقابل نصيبها من تركة «فردوس» فقد أودعتهم - فى الغالب - لدى صديقتها «مريم الشامية»، ومزقت فواتير الشراء التى كانت قد حصلت عليها من على الصائغ.

وبعد الخامسة بقليل.. وصلت «سكينة» إلى منزلها بـ «حارة ماكوريس» ... لتجد فى انتظارها على بابه، شرطيا اقتادها إلى

مبنى قسم شرطة اللبان الذى اختاره وكيل النيابة، مكانا لاجراء تحقيقه بدلا من سراى النيابة. ليكون قريبا من الموقع الذى استنتج أنه يضم كل ابطال المأساة.



ولأن اكتشاف جثة مجهولة ثانية فى دائرة قسم شرطة اللبان، بعد شهرين فقط من العثور على الجثة الأولى، بخرابة شارع الواسطى، كان قد أزعج ضباط القسم، إذ كان مستحيلا عليهم أن يزعموا - أمام رؤسائهم بـ «حكمدارية بوليس الاسكندرية» - بأنها ربما تكون قد قتلت فى دائرة عمل قسم آخر، ثم ألقيت فى المكان الذى عثر عليها فيه، كما فعلوا عند اكتشاف الجثة الأولى، فقد نشطوا لمحاولة حل لغز جثة «بيت الجمال»....

وخلال الساعات الأربع التى أعقبت انصراف وكيل نيابة المنشية، كانت أوامره كلها قد نفذت: فقام الملازم ثان «عبد الغفار أحمد» بتفتيش الغرفتين العلويتين المغلقتين فوق سطح المنزل، فلم يجد باحداهما سوى حصيرة ولحاف ومخدة، ولم يجد بالثانية سوى بعض المخلفات، وعثر الصول «الشحات محمد» - الذى كان يتابع عملية الحفر لاحتمال العثور على جثث أخرى - على صرة وجدها معلقة على مسمار بجدار الغرفة، وبتفتيشها وجد بها ملابس رجالية قديمة، وخمسة كتب فى الفقه والشريعة والقانون، من بينها «شرح الاربعين حديث النووية» و«الرسالة القشيرية» و«الطرق القانونية فى اشغال المحاكم الشرعية»، قالت «سكينة» - فيما بعد - أنها كتب جارها الشيخ «محمد السمنى»... بينما قام عدد من المخبرين السريين باحضار جميع سكان المنزل وملاكه.

وهكذا لم تكد «سكينة» تدخل غرفة الحريم بـ «تخشيبة قسم شرطة اللبان» - حيث المكان المحدد لحجز المتهمين والمشتبه فيهم - حتى وجدت فيها أربع نساء أخريات من جاراتها السابقات فى «بيت أبو المجد»، هن «سيدة سليمان» - زوجة «محمد احمد السمنى»- و«بطة محمد العزب» وأمها وشقيقتها، اللواتى كن يقمن فى المنزل، خلال الشهور السبعة التى تركته فيها لتقيم فى «بيت الصابونجية» ثم فى «بيت حارة النجاة»... وكان من دلائل نشاط الشرطة، أنها نجحت - كذلك - فى تجميع السكان الذين كانوا قد انتقلوا للاقامة فى أماكن بعيدة نسبيا عن «حارة ماكوريس»، إذ كانت الحجرة المقابلة من التخشيبة - المخصصة للرجال- تضم «محمد سليمان شكير» - أول من احتجز من السكان - وبعد قليل سيق إليها «صالح العدنى» - الذى ضبط بالفندق الذى انتقل للاقامة به بـ «شارع انسطاسى» - و«سلامة محمد الكبت» الذى ماكاد يصل إلى منزله بالعطارين، بعد انتهاء يوم العمل، حتى وجد رجال الشرطة بانتظاره.

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف حين استأنف «محمد كامل أبو ستيت» التحقيق، بعد أن أرسل اخطارا تلغرافيا بالواقعة إلى سعادة النائب العمومي- «محمد ابراهيم باشا» - بالقاهرة، ليكتشف فى بدايته، أن الحماس قد دفع معاونيه، لاساءة تفسير أوامره، إذ تقدم إليه اليوزباشى (النقيب) «ابراهيم حمدى» - الذى كان مكلفا بالاشراف على مواصلة الحفر - ليقول له، بأنه لم يعثر على بقايا اجسام أخرى بالمنزل، غير الجثة التى عثر عليها أولا، وأنه أرسلها إلى الاسبتالية الأميرية للاستعراف عليها، وطلب ابقاءها تحت تصرف النيابة. ولم يتنبه المحقق آنذاك إلا لخطأ واحد وقع فيه نائب المأمور- والقائم بعمله لغيابه فى اجازة- وهو أنه أرسل الجثة من دون أن يقوم باثبات حالتها، ووصف ما كان عليها من ملابس، ظنا منه أن وكيل النيابة قد فعل ذلك، فكلفه بأن يستدرك الخطأ فى اليوم التالى.

وجاء حبس المشتبه فيهم فى مكان واحد، ليكون الخطأ الكبير الثانى الذى وقع فيه ضابط القسم، فى دفقة الحماس الأولى، إذ أتاح ذلك لـ «سكينة» أن تؤثر على الآخرين، إن لم يكن بطريقة مباشرة، فبأسلوب غير مباشر، وهو ما بدت آثاره على أقوالهم فيما بعد، إذ سعى كل منهم لدفع التهمة عن نفسه، من دون أن يحاول ذكر معلومات قد تسيء إلى موقف الآخرين...

وفيما عدا تكرار ملامح الصورة الكابوسية للحياة داخل المنزل، فإن «أحمد مرسى عبده» - وخاله الشيخ «محمد عبد السلام» - لم يضيفا إلى ما قالاه فى محضر الشرطة، سوى تحديد تواريخ حركة السكن فى غرف الطابق الأرضى وخاصة الغرفة التى عثر فيها على الجثة وكشفت أقوالهما عن أن «سكينة» هى التى كانت تستأجرها منذ ابريل (نيسان) ١٩١٩، إلى آخر اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٠، فيما عدا سبعة أشهر بين اكتوبر (تشرين أول) ١٩١٩وآخر مايو (أيار) ١٩٢٠، لكنهما أخطآ فى تحديد اسم الساكن الذى حل محلها خلال فترة الانقطاع، إذ ذكرا بأنها «بطة» التى نفت ذلك وقالت أنها كانت تسكن - مع امها واختها - فى الحجرتين الشرقيتين الخشبيتين - وأن التى حلت محل «سكينة» فى الفترة التى غادرت فيها الغرفة، هى مومس أخرى اسمها «مريم»، اقامت بها لمدة أربعة أشهر، ثم نقلت إلى المستشفى فظلت تعالج به لمدة ثلاثة اشهر، كانت الغرفة خلالها مغلقة على منقولاتها، إلى أن غادرت هى المنزل، بينما «مريم» ما تزال فى المستشفى، فأخذت معها تلك المنقولات، وبذلك خلت الغرفة، وعادت «سكينة»، فاستأجرتها مرة أخرى... وهى رواية أيدتها «سيدة سليمان» التى كانت أكثر معرفة من أصحاب البيت بحركة السكن فى الغرفة، بحكم أن السكان كانوا يستأجرون غرفهم من باطنها....

وبعد دقائق من دخول «سكينة» إلى التخشيبة، نجح الصول - المساعد - «الشحات محمد» فى الحصول على أول

مصلحة التلغرافات المصرية EGYPTIAN STATE TELEGRAPHS

2136V

سكينة

التلغراف الذى أرسلته «ريا» إلى أخيها «أبو العلا» بكفر الزيات تطلب سفر أمها إليها فورا فى أعقاب القبض على «سكينة»

معلومات تشير إليها باصابع الاتهام... وكانت «زكية جعفر» - صاحبة المقهى الذى يقع أمام «بيت الجمال» - هى مصدر تلك المعلومات، إذ روت له قصة اختفاء صديقتها وجارتها القهوجية «نبوية بنت على»، وظهور «سكينة» وهى ترتدى جلبابها بعد اسبوع من اختفائها. والغالب أنها كانت - كذلك - المصدر الذى دل الصول «الشحات» على محل رهونات «خريستو مورجان» بـ «باب الكراستة»، فعثر به على ساعة يد ذهبية صغيرة، وجلباب أسود مزين ببقع بيضاء، كانت «سكينة» قد رهنتهما لديه، فعاد بهما، وبدفتر الأشياء المرهونة، وقدم ذلك كله إلى المحقق، الذى أمر على الفور بتفتيش غرفة «سكينة» بحثا عن جلباب «نبوية القهوجية»، وكل ما يشتبه فى أن له صلة بالتحقيق.

وأسفر التفتيش عن العثور على ستة جلابيب نسائية ملونة، يغلب عليها اللونان الأبيض والأحمر وثلاثة مناديل للرأس، وضفائر شعر مستعار، وبعض ملابس للرجال كان من بينها صديرى شاهى، وبنطلون كاكى أصفر قديم. ولم يتنبه اليوزباشى «ابراهيم حمدى» - الذى كلف باجراء ذلك التفتيش - إلى أهمية البحث داخل المساند المحشوة بالقش، وإلا لوجد الخاتم الذى أهداه الكابورال «وليم جولدنج» إلى «فردوس» ونقش عليه الحرفين اللاتينيين الأولين من اسمه واسمها، والذى كانت «سكينة» قد أخفته داخل أحد تلك المساند. لكنه ركز بحثه على الجلابيب، فما كاد يعثر عليها حتى

أعاد اغلاق باب الغرفة بمفتاحها، وختم عليها بالشمع الأحمر. وكان من حظ «سكينة» - كذلك - أن نائب المأمور ما كاد يخرج من «بيت أبو المجد» حتى فكر فى أن يختم بالشمع الأحمر على الباب الرئيسى لـ «بيت الجمال» المواجه له، وبذلك توقفت الحفريات فى الغرفة التى عثر فيها على الجثة، لمدة يومين آخرين.

لكن «ريا»- التى توقت أن تظهر فى «حارة ماكوريس»، ولم تحم كعادتها فى مثل تلك الاحوال، حول مبنى قسم الشرطة- ما كادت تعرف من الجيران بأمر تفتيش غرفة شقيقتها وختمها بالشمع الأحمر، حتى أدركت أن الوضع هذه المرة يختلف عن المرات السابقة، التى كانت الشرطة تكتفى فيها بسماع أقوالها أو أقوال شقيقتها، من دون تفتيش أو تشميع. ولأنها كانت قليلة الثقة فى قدرة «سكينة» على الصمود، فقد بدأت - منذ ذلك الحين- تستعد لما اعتبرته مصيرها المحتوم، وكان قلقها البالغ على ابنتها الوحيدة، هو الذى دفعها للتفكير فى استدعاء أمها لكى تقوم برعاية «بديعة » فى حالة القبض عليها.

وقبل السابعة بدقائق، كانت تقف فى مكتب بريد «الباب الجديد»، حيث أرسلت برقية إلى شقيقها «أبو العلا همام» - القهوجى بملك البك بكفر الزيات - تقول له فيها «عرفوا زينب أم مصطفى بالحضور حالا». وقعتها باسمها. ويبدو أنها خشيت أن تكون البرقية دليلا يقود الشرطة إلى مكان اقامتها الحالى بـ «حارة على بك الكبير» فتعمدت أن تذكر عنوانها السابق بـ «حارة النجاة».

وحتى ذلك الحين لم يكن التحقيق قد أسفر عن شىء ذى بال، فيما عدا ما ورد على لسان «بطة» التى ذكرت أنها طلبت من «سكينة» - فى صباح اليوم التالى لاختفاء «فردوس» - أن تقودها إلى دكان المكوجى - «سيد عبد الرحمن» - لكى تسألاه عنها، فزعمت بأنها لا تعرفه، ثم علمت بعد ذلك من «قنوع» - خادمة «فردوس» - أنها تعرفه جيدا. وبعودة اليوزباشى «ابراهيم حمدى» إلى القسم ومعه المضبوطات التى عثر عليها فى غرفة «سكينة» استدعى المحقق «زكية جعفر» واستمع منها إلى قصة اختفاء صديقتها « نبوية القهوجية»، التى اضافت إليها معلومة جديدة هامة، إذ ذكرت - لأول مرة - أنها رأت «نبوية» قبل، اختفائها بيوم ، تجلس مع «سكينة» على عتبة باب «بيت الجمال»، وأن الأخيرة سألتها عنها فى اليوم التالى لاختفائها، ثم ظهرت وهى ترتدى جلبابها بعد ذلك بنحو اسبوع أو عشرة أيام، ووصفت الجلباب بدقة، وتعرفت عليه حين عرض عليها المحقق الجلابيب التى عثر عليها بغرفة «سكينة»...

وتذكر نائب المأمور - الذى كان يتابع التحقيق - البلاغ الذى كان «حسن الشناوى» - زوج «نبوية القهوجية» - قد تقدم به إلى القسم عن غيابها ، فاستخرجه وقدمه إلى المحقق الذى أرفقه بالمحضر...

وهكذا تكثفت الشبهات حول «سكينة» التى أصبحت الاوراق الرسمية - بعد

شهادة «زكية» - تضم ثلاثة بلاغات تشير إلى أنها كانت آخر من شوهد مع ثلاث من النساء المختفيات - «زنوبة الفرارجية» و«فردوس» و«نبوية» - لكنها مع ذلك صمدت أمام أسئلة المحقق، وكشفت اجاباتها عن ذكاء طبيعي، وخبرة فطرية بالتحقيقات الجنائية، ولأنها كانت واثقة بأن أحدا - سواها - لا يعرف شيئا تفصيليا ومحددا، عن ظروف دفن الجثة التي عثر عليها في أرضية الغرفة، فقد ركزت جهدها كله، على تبديد تلك الشبهات، أو تعميمها باشاعة التهمة بين الجميع، بحيث لا تثبت على أحد بعينه.... فكانت تجيب باختصار وعلى قدر السؤال، ولا تستفيض في اجابتها فتتطرق إلى ذكر اسماء أو وقائع لم ترد به. ولم تحاول أن تكذب أقوال الشهود الآخرين، بل درجت على الاعتراف بها.. مع تأويلها على نحو يبدو منطقيا، ويوحي بأنها وقائع تقبل أكثر من تفسير...

وفي هذا السياق نفت أن تكون اقامتها في البيت قد اقتصرت على الغرفة التي عثر فيها على الجثة، مؤكدة بأنها تنقلت خلال الفترتين اللتين سكنت فيهما به بين غرف الطابق الارضي جميعها، وأن آخرين غيرها من السكان، كانوا يستأجرون الغرفة نفسها، اثناء اقامتها في البيت، أو بعد خروجها منه، ذكرت من بينهم «أم جابر» و «بطة» و« مريم» و«صالح». وحين سئلت عن المصدر الذي تتعيش منه، لم تكذب ما جاء بأقوال «احمد العاجز» من أنها تدير الغرفة للدعارة السرية، بل قالت:

- «ساعات ابيع شوية بطاطس.. أو يوسف أفندي وساعات واحد بيجي مع واحدة، يستأجروا الأودة.. ساعة أو نص ساعة.. أو حتى ليلة.. ويعطوني قرشين.

ومنذ بداية التحقيق كانت الفكرة الثابتة في دوائر الشرطة والنيابة، تنطلق من يقين - يستند إلى خبرات سابقة - بأن «سكينة»، على الرغم من تكاثف الشبهات حولها، ليست هي القاتلة، ولكنها قد تكون شريكة القاتل، أو لمجموعة من القتلة. ففضلا عن أن ارتكاب النساء لجرائم القتل لم يكن شائعا آنذاك، كما هو شائع اليوم، فإن الحالة التي وجدت عليها الجثة، كانت تجزم بأن الجريمة ليست من ارتكاب فرد واحد، ناهيك عن أن يكون امرأة، لا تستطيع أن تقوم وحدها بكل الخطوات التي يتطلبها تنفيذها بالشكل الذي تشير إليه كل الدلائل، فتقتل الضحية من دون أن يشعر بها أحد، وتحفر لها قبرا بهذا العمق، ثم تحمل الجثة لتوسدها به، وتهيل عليها التراب، وتعيد تبليط أرض الغرفة.

ولم تكن العصابة في حاجة إلى ذكاء كبير، لكي تستنتج الاتجاه الذي ستتجه نحوه شكوك المحققين، ولأن «سكينة» كانت تعلم ذلك، فقد فهمت منذ البداية الهدف الذي يرمي إليه المحقق بأسئلته. وتوقت تماما الاشارة إلى أن هناك رجالا كانوا يقيمون معها بالغرفة، ليس خوفا عليهم فقط، بل خوفا على نفسها أساسا... وحرصت على أن تقدم نفسها في البداية باعتبارها «كانت متزوجة... والآن مطلقة»، وحين جوبهت بأقوال الشهود، بأن زوجها

كان يتردد عليها فى المنزل نفسه، خلطت بين التواريخ، لتؤكد بأن ذلك حدث فى فترة اقامتها الأولى وقبل طلاقهما. لكنها - على سبيل الاحتياط - اعترفت بأنه كان يزورها بين الحين والآخر، ليمضى معها ساعة أو نصف ساعة. ولم تشر إلى «سلامة» إلا بعد أن سألها المحقق عنه، فقالت بأنها «لافت عليه»، بعد سفر طليقها، وكان يزورها أحيانا بالمنزل....

أما وهى تدرك الهدف الذى يسعى إليه المحقق من سؤاله لها عن الرجال الآخرين الذين يصطحبون نساء إلى غرفتها ويبيتون معهن فيها، فقد أجابته الإجابة التى تحقق لها هدفها فى توسيع نطاق المشتبه فيهم واشاعة التهمة فيما بينهم، فذكرت أن من بينهم اثنين من جيرانها، هما «شكير» و«أحمد السمنى» - ابن المستأجر الأصلى للطابق الأرضى - وهو ما دهش له المحقق، الذى جابهها بأن كلا منهما يستأجر غرفة بالمنزل، تغنيه عن استئجار غرفتها لهذا الغرض. ففسرت ما نسبته إليهما بأسباب تبدو منطقية، قائلة إن «شكير» كان يخشى من أن تضبطه شقيقة رفيقته المسجونة، وبأن «السمنى الابن»، لم يكن يستطيع أن يصطحب امرأة إلى الغرفة التى يقيم فيها مع أمه، وبالتالى فقد اضطرا لاستئجار غرفتها. ولأن تركيز الاتهام فى أحدهما، أو غيرهما لم يكن من بين اهدافها، فإنها حين سئلت عما إذا كانت قد لاحظت تغييرا فى الغرفة حين عادت فى الصباح لاستلامها منهما، نفت ذلك.

وبتلك الطريقة الماكرة فى الدفاع، أجابت «سكينة» عن الأسئلة التى وجهها إليها المحقق، حول صلتها بالنساء الثلاث الغائبات، فحين سئلت عن «زنوبة الفرارجية»، لم تنف معرفتها بها، وقالت باختصار شديد:

- «دى راحت الابراهيمية... وما رجعتش تانى».

أما «فردوس» فقد ذكرت - بخبث شديد - أنها تركتها مع «رفيقها» المكوجى فى الخمارة... ولما بدأ المحقق يسألها عن «نبوية القهوجية» أدركت أن «زكية» قد باحت له بشكوكها، لكنها لم تفاجأ، ولم تفقد سيطرتها على نفسها، وعلى غير عادتها، أخذت تستطرد فى اجاباتها على اسئلته لتعترف بما ورد فى أقوال «زكية» من وقائع، قبل أن يجابهها بها، وتحاول تأويلها على نحو يبعد عنها الشبهة. فاعترفت - من دون سؤال مباشر - بأنها جلست مع «زكية» مرة على باب «بيت الجمال» الذى كانت تسكن به، لمدة نصف ساعة. لكنها قدمت تاريخ الواقعة بحث يتلو اختفاء «نبوية» بشهر على الأقل. وقالت بأن علاقتها بها كانت طيبة، حتى أنهما كانتا تأكلان معا - فى المقهى لا فى البيت - واحيانا تتبادلان الجلابيب، وبادرت بالاعتراف بأنها أخذت من «نبوية» جلبابا أسود مزينا بدوائر بيضاء، واعطتها بدلا منه جلبابا لبنيا من جلابيبها، وحين عرض عليها المحقق الجلباب الذى ضبط فى غرفتها، قالت بلهجة الواثق من براءته:

- صحيح... دى جلابية «نبوية» اللى بادلتنى عليها..

وكان مما ساعد «سكينة» على تنفيذ خطتها أن الجميع، التزموا موقف الدفاع عن انفسهم، ولم يحاول أحد منهم ذكر ما يعرفه عن سلوك الآخرين، حتى لا يشجعهم ذلك على فضح بعض ما يرغب فى ستره من اسراره، وهو المنهج الذى اتبعه «شكير»، الذى كان أول من استدعى محام - هو «مصطفى امير أفندى» - ليحضر معه التحقيق أمام النيابة، حيث أعاد تأكيد أقواله فى تحقيق الشرطة، ونفى تماما أن يكون قد استأجر غرفة «سكينة» فى بعض الليالى لينفرد فيها بنساء.

ومع أن «سلامة» قد أقر بأنه يعرف «سكينة» وبأنها كانت رفيقته، إلا أنه أصر على القول بأنه لم يكن يتردد عليها فى «بيت الجمال» وتلاعب فى تاريخ بدء ونهاية علاقته بها، فذكر بأنه قطع تلك العلاقة، منذ أربعة أشهر - وهى الفترة التى وقعت فيها الجرائم- لكى يلتفت لمعاشه.

وانكرت «سيدة سليمان» علمها بشىء مما كان يجرى بالمنزل قائلة بأنها كانت تخرج منذ الصباح الباكر لتبيع البيض ولا تعود إلا ليلا، كما دفعت كل شبهة فى أن يكون لزوجها أو ابنها أية صلة بالمنزل أو علم بما يجرى فيه، قائلة أن الأول كان يبيت بالاسطبل الذى يعمل به بـ «سيدى جابر» قبل أن يسافر إلى القاهرة ليعمل بها، وأن الثانى كان يبيت فى منزل خالته، قبل أن يسافر إلى «مارسيليا» على ظهر الباخرة التى وجد عملا بين طاقمها.

ولم تخرج أقوال «صالح العدنى» عن هذا الاطار، إذ ذكر أنه كان يمضى معظم أوقات النهار والليل فى عمله، ولا يعرف شيئا عما يجرى بالمنزل.

واتفق الجميع على أنهم لا يعرفون شيئا عن الجثة التى عثر عليها فى غرفة «سكينة»، وعلى أنهم لم يشتموا رائحة كريهة تتصاعد منها. وبرروا ذلك، بأن الروائح النفاذة التى كانت تتصاعد من دورة المياه الواقعة فى فناء المنزل غير المسقوف، والتى كانت أقرب إلى دورة مياه عمومية، كانت تغطى على غيرها من الروائح.

لكن أقوالهم لم تخل - مع ذلك - من تناقض...

وكان منطقيا أن تكون «سكينة» هى القاسم المشترك الاعظم فى المواجهات التى أجراها المحقق لحسم التناقض بين أقوالها وأقوال الاخرين.

فواجهها بـ «زكية جعفر» التى أكدت بأن «سكينة» زعمت فى البداية بأن الجلباب لها، وأنها اشترته منذ عام، ولم تعترف بأنه جلباب «نبوية» أو تؤلف قصة البدل، إلا عندما جابهتها بما تعرفه... لكن «سكينة» نفت ذلك، وقالت أنه لم يكن لديها أى مبرر لكى تدعى ذلك.

وفى المواجهة التى جرت بينها وبين «شكير» أصرت على أنه استأجر منها الغرفة ليلتين مقابل عشرين قرشا عن الليلة الأولى وثلاثين عن الليلة الثانية. وتمسك هو بتكذيب الواقعة، وحسم اللجاج

حول الأمر، فسألها أمام المحقق عما إذا كانت المرأتان اللتان تدعى بأنه اصطحبهما فى هاتين اللتين، قد غادرتا الغرفة فى كل مرة أم لا؟. فأمسكت بالعصا من المنتصف، وقالت بأنها عادت فى المرة الأولى مبكرة، فأيقظتهما من النوم وغادرت المرأة البيت أمامها، ولكنها حين عادت فى المرة الثانية لم تجد أحدا فى الغرفة، وإن كانت لم تلاحظ أى تغيير فيها يدعو للريبة.

وبسبب حرصها على توسيع دائرة الرجال المشتبه فيهم، فقد أصرت - فى المواجهة التى جرت بينها وبين «سيدة سليمان» - على التأكيد بأن زوجها - «محمد السمنى» وابنها - «احمد السمنى» - كانا يبيتان فى المنزل كل ليلة...

لكن ذلك، لم يكن كافيا لتبديد الشبهات القوية التى أحاطت بـ«سكينة»، ودفعت اليوزباشى «إبراهيم حمدى» لكى يعيد - فى منتصف تلك الليلة - فتح محضر التحقيق الذى كان قد أجراه فى اليوم السابق، حول اختفاء «فردوس» لكى يختتمه بهذه العبارات.

«اليوم وجدت رفات جثه حرمة يظهر أنها للمدعوة نبوية القهوجية - المتغيبة منذ بضعة أسابيع - مدفونة بأرضية أودة، كانت تسكنها الحرمة سكينة، وظهر أن أغلب النساء الغائبات من دائرة القسم كن يظهرن قبل اختفائهن مع هذه الحرمة. وحيث تبين من هذا التحقيق، ومن اعترافها، أن فردوس شوهدت معها فى آخر لحظة قبل اختفائها، وعليها من المصاغ ما تزيد قيمته عن مائة جنيه تقريباً، فقد تبادر إلى ذهننا أن اختفاء «فردوس» جنائى، والشبهة تحوم حول «سكينة». لذلك عرضنا هذا المحضر على حضرة وكيل النيابة الجارى تحقيق قضية وجود هذه الرفات، وسلمنا حضرته التحقيق».

وكان إرفاق محضر تحقيق الشرطة فى غياب «فردوس»، بتحقيقات القضية، هو آخر ما فعله «محمد كامل أبو ستيت» فى تلك الليلة، بعد تسع ساعات من التحقيق المتواصل انتهت فى الثانية صباحاً، بقرار بالقبض على الدفعة الأولى من المتهمين، وكانت تضم خمسة هم «سكينه» و«سيدة» و «صالح» و «شكير» و «سلامة»، وبتكليف الشرطة بأن تواصل التحريات عن الحادث، وأن تنبه على أربعة آخرين بالمثول أمام المحقق فى اليوم التالى هم : «محمد عبد العال» - زوج «سكينة» - والخواجا «خريستومورجان» - الذى رهنت عنده «سكينة» الساعة والجلباب - و«محمد السمنى» وابنه «أحمد السمنى».

ولأن «محمد السمنى» وابنه، كانا قد اختفيا منذ ذلك الحين، ولم يظهرا إلا بعد انتهاء التحقيق، فضلا عن أن الشرطة لم تكن قد توصلت بعد إلى معرفة محل اقامة «محمد عبد العال»، فقد كان الخواجا «خريستومورجان» هو الوحيد بين هؤلاء الأربعة، الذى مثل بين يدى المحقق، الذى استأنف التحقيق فى الواحدة من بعد ظهر اليوم التالى- الثلاثاء ١٦ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ - بسراى النيابة بالمنشية - وقد ذكر فى أقواله بأن «سكينة» تعودت أن

ترهن لديه بعض ملابسها ومنقولاتها، ثم تعود لتسدد ما اقترضته وتسترد ما رهنته بعد قليل، وأنها رهنت لديه الجلباب والمنديل الأسود الحرير، منذ أكثر من شهر. أما الساعة الذهبية، فقد رهنتها لديه منذ ثلاثة أيام فقط، مقابل خمسة وثمانين قرشا..

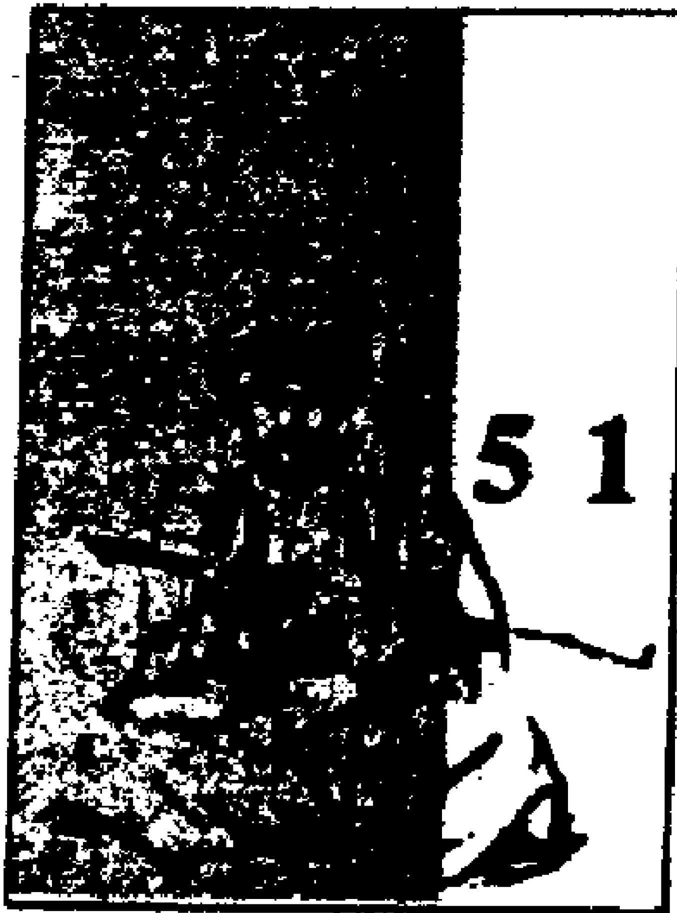
وكان المحقق قد طلب فى صباح اليوم نفسه - وبعد مراجعة التحقيق الذى أجراه فى الليلة السابقة - استدعاء «بطة» لإعادة استجوابها، و«سيد عبد الرحمن» لأخذ أقواله. وقد حضرا وبصحبة كل منهما محام.

واعترفت «بطة» بأنها كانت تحتفظ معها بمفتاح الغرفة أثناء غياب «مريم» بالمستشفى، لكنها أنكرت صلتها بالجثة التى عثر عليها فيها. وكرر «سيد عبد الرحمن» أقواله فى محضر الشرطة، ونفى أن تكون له صلة حميمة بـ «فردوس» وقال بأنها أخذت الخاتم من إصبعه رهنا للمعطف، وظنا منها بأنه ربما يكون قد باعه.

وواجهه المحقق بـ «سكينة» التى أصرت على أنها تركت «فردوس» معه، وعلى أن الفتاة أخذت منه الخاتم «منحبة» .. بينما طلب محاميه - الأستاذ محمد حسيب - سؤال المومستين «حكمت» و«حميدة» اللتين تقيمان وتعملان بنقطة المومسات بـ «شارع وجه البركة» بـ «حى الأزبكية» بالقاهرة، قائلاً بأنهما قريبتان لـ «فردوس» وصديقتان لها، وبأنها تعودت أن تسافر إلى القاهرة بين الحين والآخر لكى تلتقى بهما وتمضى معهما بعض الأيام، وبأن احتمال سفرها لزيارتهما قائم وينبغى التثبت منه. واستجاب المحقق لطلبه، وأرسل - فى نفس اليوم- يستعلم عن الأمر، وبعد ثلاثة أسابيع - جرت خلالها فى النهر مياه كثيرة - جاء الرد من مأمور قسم شرطة «قنطرة الدكة» ليقول بأنه:

- «سأل كل مومس تدعى حميدة وكل مومس تدعى حكمت فى شارع وجه البركة، عن حرمة تدعى فردوس لها قرابة بهم.. فلم يتعرف عليها أحد».

ولأن الشرطة، لم تكن قد توصلت - بعد - إلى معلومات جديدة، فقد أنهى المحقق جلسة التحقيق الثالثة بعد نصف ساعة من بدايتها، وأصدر أمراً بالقبض على الدفعة الثانية من المتهمين التى ضمت: «بطة» و«سيد عبدالرحمن» ليرتفع عدد المقبوض عليهم إلى سبعة..



اضطر «حسب الله» - منذ استدعاء «سكينة» للتحقيق فى قضية اختفاء «فردوس»، عصر يوم الأحد ١٤ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠- لقطع أجازة شهر العسل، لكى يتابع الموقف الذى أخذ يتعقد منذ ذلك الحين.وكانت ابنته «بديعة»، هى التى ذهبت إليه فى منزل زوجته الجديدة «زنوبة بنت هلال» لتستدعيه لحضور القمة الرباعية، التى

عقدت فى أعقاب شيوع أنباء اكتشاف مقبرة «بيت الجمال».

ومع أن التوقف عن مواصلة الحفر - بعد العثور على الجثة الأولى - وتشميع البيت بالشمع الأحمر - دفع الثلاثة إلى شىء من التفاؤل بأن التحقيق قد لا يتسع فيصل إليهم. إلا أنهم - أخذا بالأحوط - واصلوا التشاور فيما بينهم، بعد تسليم «سكينة» نفسها، لدراسة كل احتمالات الموقف..

ولأن أفكاراً مثل التخلص من الجثث التى تثوى فى المقبرة الرئيسية بالقائها فى إحدى الخرابات البعيدة، كما حدث مع الجثة التى القيت فى خرابة «شارع الواسطى» كانت مستحيلة التنفيذ فى جو مسمم بالريب والشكوك، استيقظت فيه الشرطة ، من نومها العميق، لترهف آذانها وتتشمم بأنوفها، بحثا عن روائح كريهة، فقد دارت المشاورات الثنائية - وأحيانا الثلاثية - بين «حسب الله» وكل من «محمد عبدالعال» و«ريا» حول إجراءات الأمن الإضافية التى يتوجب عليهم أن يقوموا بها للحيلولة دون كشف أمرهم.

وكان أول ما اتفقوا عليه هو تفتيش غرفة المقبرة الرئيسية تفتيشا دقيقا للتخلص من كل أثر قد يدفع الشرطة للشك فى أمرهم، وتعطير جوها للتغلب على رائحة قدَ تدعو للحفر فى أرضها. وإبعاد ملابس «فردوس» - التى كانت «ريا» قد أودعتها لدى جارتها «أم رجب» - عن المنزل كله.

وتنفيذا لذلك غادر «حسب الله» مسكن زوجته الجديدة، فى الخامسة من صباح يوم الثلاثاء ١٦ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ إلى مسكن «ريا» حيث قام بتفقد المقبرة تحت الصندرة. بعين وأنف شرطيه كشفت له عن تخلخل بعض البلاطات التى تغطيها وانخفاض مستوى بعضها عما يجاوره فأعاد خلعها وتثبيتها بالجبس، محاولا -بقدر الإمكان- أن يحتفظ لسطح المقبرة باستوائه، وأن يلغى التباين بين مستواه ومستوى بقية أرض الغرفة، لتبدو فى وضع طبيعى لا يثير ريبة أحد وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة والنصف حين أنهى مهمته من دون أن يظهر «محمد عبدالعال» الذى كان قد وعده بالحضور لمساعدته. وحتى يتوقى أية مفاجأة فقد فضل أن ينتظر بالخارج، فارتدى معطفه ووضع «القادوم» الذى كانوا يحفرون به المقبرة، مع ملابس «فردوس» فى صرة حملها تحت إبطه، وغادر المنزل ليقف على بعد قليل من بابه، ينتظر وصول صديقه، وهو يتفحص مدخل الحارة القريب.

وكان يجول ببصره فى أنحائها حتى لا يؤخذ على غرة، حين تنبه فجأة إلى أن أبواب دكان التجارة الذى يملكه «محمد أحمد رمضان» -زوج شيخة المخدمين- مفتوحة على مصاريعها، والرجل يجلس صامتا فى مدخله.. فلم يستطع أن يتجاهله، إذ لم تكن تفصله عنه سوى أمتار قليلة.. وكانا شبه وحيدين فى الحارة التى لم يكن احد من سكانها قد استيقظ بعد، فحياه بتحية الصباح، ورد الرجل التحية، وبدا وكأن «حسب الله» يبرر له وقفته أمام

مجسم للحجرة التى كانت تقيم فيها «سكينة» بحارة ماكوريس

الصالة الداخلية

نوافذ على الحارة

منزل سكينة فى حارة ماكوريس

باب بيته. أو يبحث عن أى كلام يتبادله معه، حين سأله:

- هى «الكهربة» مشيت واللا لسه؟!.

ومع أن صوت عجلات الترام الذى يسير بالشارع الرئيسى قد تناهى إلى أسماعهما آنذاك، فقد أجاب «رمضان»:

- مشيت من نص ساعة.

وشجع السؤال النجار على التفكير فى مبادلته الحديث. وكاد يهم بسؤاله عن الجثة التى عثر عليها بأرضية الغرفة التى كانت تسكن فيها شقيقة زوجته، وأن يروى له المغامرة التى قام بها، حين أذن له نائب المأمور -عصر اليوم السابق- بدخول الحجرة. ومعاينة الجثة- ضمن عدد آخر من أهالى الغائبات- لعلها تكون زوجته. وكيف حمد الله لأنه اكتشف -من طول قامتها- أنها ليست شيخة المخدمين. وقبل أن يشرع فى الحديث، ظهر «محمد عبدالعال» على باب الحارة، وبدا أنه الرجل الذى كان «حسب الله» ينتظر وصوله بالترام، إذ اتجه نحوه وصحبه عائدين إلى المنزل.. وبعد ربع الساعة خرجا معا. وكان «حسب الله» ما يزال يحمل صرة الملابس تحت إبطه، ودهش النجار حين لاحظ أن يدا اسطوانية من الخشب. -تبدو كما لو كانت يد «قادوم»- تبرز منها..

وبعد قليل كان الاثنان يهبطان السلالم القليلة التى تقود إلى البدروم الذى يقيم «حسب الله» بإحدى حجراته.. وفوجئت «زنوبة» بأن زوجها يصحب معه رجلا غريبا قدمه لها قائلا:

- ده اسمه «محمد عبدالعال».. وإذا جه وأنا غايب.. خليه يدخل ولا تتغطيش عليه..

ثم جلس الاثنان على كنبة بالغرفة. وفتح «حسب الله» الصرة، فأخرج منها فانلة «فردوس» البيضاء -التى كان مزادها قد رسى على «محمد عبدالعال» - فسلمها له. ثم أعاد ربطها من جديد، وقال لزوجته:

- شيلى الحاجات دى بره البيت.. وإذا جه «محمد عبدالعال» يطلبهم.. اعطيهم له.

وحين لاحظ علامات الدهشة على وجهها، روى لها قصة ملفقة عن خلاف بين «عبدالعال» وزوجته، اضطره لأخذ ملابسها وفاء لقرض يدينها به، فشحنه إلى الشرطة وصدقت «زنوبة» القصة.. وخرجت بصرة الملابس.. فأودعتها لدى إحدى جاراتها..

ولم تمكث «ريا» طويلا بحجرتها، بعد أن غادرها الرجلان، بل أسرعت تقوم بدورها المحدد فى خطة الأمن. فقامت بإلقاء كمية من الماء تحت الصندرة لكى تساعد على تماسك الجبس، وأشعلت بعض أعواد البخور، لكى تتغلب على رائحة العفونة التى بدأت تتكثف فى جو الغرفة، بعد مرور أربعة أيام على دفن «فردوس».

وما كادت تنتهى من ذلك حتى غادرتها وأغلقت بابها، واختفت من البيت ومن الحارة كلها، لكى تتوقى استقبال جاراتها

التى توقعت أن يقمن بزيارتها متظاهرات بالرغبة فى الاطمئنان على أحوال «سكينة»، لكى يشبعن فضولهن فى معرفة مزيد من الأخبار، تتفحص عيونهن محتويات الغرفة، وتشم أنوفهن ما بها من روائح قد تدعوهن للريبة أو للثرثرة فتصل همساتهن إلى آذان رجال الشرطة السريين الذين انتشروا فى أنحاء الحى يجمعون الأخبار..

والأرجح أن لقاء أو أكثر قد حدث خلال ذلك اليوم، تبادل خلاله ثلاثتهم ما وصل إلى آذانهم من أنباء التحقيق الذى جرى مع «سكينة»، وأخذ الناس يتداولونها -نقلا عمن استمع المحقق إلى أقوالهم فى الليلة السابقة ولم يجد ضرورة للقبض عليهم- مختلطة بتكهناتهم عن صاحبة الجثة التى عرضت على بعض أقارب الغائبات فجزمت «أم إبراهيم بنت على الحيثى» بأنها لأمها «زنوبة الفرارجية» بينما لم تستطع «زكية جعفر» أن تجزم بأنها جثة صديقتها «نبوية القهوجية».

والغالب أن «تقدير الموقف»، الذى قام به رجال ريا وسكينة فى ذلك الوقت العصيب، قد انتهى إلى أن «محمد عبدالعال» -بسبب غيابه عن مسرح الحوادث وعيون الشهود، خلال الشهور الخمسة السابقة - سيكون أبعدهم عن شبهات الشرطة، وأن «ريا» ستكون أقربهم إلى تلك الشبهات. بينما يقف «حسب الله» فى المنتصف من حيث احتمال الاشتباه فيه. ولأن موقفه كان يرتبط -أساسا- بموقف «ريا» فقد حاول طوال اليوم، أن يلقنها ويلقن ابنته «بديعة» خطة الدفاع التى أوهمها بأن من مصلحتها أن تتبعها، فى حالة اكتشاف ما تحويه المقبرة الرئيسية من جثث. وهى تقوم على إنكار كل صلة لها، أو له بالأمر، والزعم بأنهما مطلقين، وبأنه لا يقيم بالمنزل، أو يتردد عليه. وبذلك تبدد الشكوك من حولها، إذ يصعب على المحقق أن يصدق أن امرأة وحيدة، يمكن أن تقتل كل هؤلاء النساء. وترك لها «حسب الله» خارج نطاق هذا السيناريو حرية التصرف بعد ذلك فى إلصاق التهم بآخرين، تختارهم طبقا للظروف ممن يحيطون بها.. ولم يستثن من هؤلاء حتى «سكينة» و«محمد عبدالعال».

وفيما بعد اعترفت «بديعة» بأنها منذ اطلعت على أسرار ما يجرى فى المنزل، كانت تتلقى تحذيرات من أبيها الذى كان يقول لها - بين الحين والآخر.

- أوعى تقولى حاجة.. وإن حد سألك قولى ماشفتش حاجة.. ولا أعرف شىء.. وإلا أدبحك وأعمل فيك زيهم..

أما بعد اكتشاف الجثة فى بيت «سكينة» فقد قال لها:

- إذا حد سألك.. قولى إن اللى عمل كده «عرابى» أو «أحمد الجدر» و«عديلة الكحكية» وجوز خالتك وماتقوليش علىّ أو على أمك.

والغالب أن «حسب الله» الذى كان يحتفظ بذكريات سيئة حول البلاغات التى سبق أن قدمتها «سكينة» إلى أقسام

الشرطة، ضده، وضد زوجته، كان قليل الثقة -بشكل عام- فى أنها تحمل مشاعر ودودة تجاهه. ولعله كان يتوقع أن تعترف عليهما فى أى لحظة، إن لم يكن على سبيل الكيد، فنتيجة لما قد تتعرض له من ضغوط، أو بسبب حرمانها من الخمر التى كانت قد أدمنتها.. وقد نقل تقديره ذلك للموقف إلى «ريا» - التى كانت أكثر الجميع إحساسا بمدى الخطر الذى يهدد حريتها وحياتها وما تبقى من استقرار أسرتها، بل ويقترب بأعناقهم من حبل المشنقة.. وبتلك الحالة من التوتر العصبى الشديد، استقبلت شكوك «حسب الله» فى «سكينة» كحقيقة لا تقبل المراجعة.. وكقدر لا فكاك منه.

والحقيقة أن «سكينة» كانت قد توقفت - حتى ذلك الحين- أية إشارة إلى اسم «ريا» أو «حسب الله»، كما كان مستحيلا أن تعترف عليهما إلا إذا اعترفت على نفسها.. ولم يكن الشك فى صلة «ريا» بالجثة التى عثر عليها فى بيت شقيقتها يتطلب ذلك الاعتراف إذ دفع اكتشاف الجثة كثيرين وكثيرات ممن يعرفونهما، إلى تذكر عدد من الوقائع التى اكتسبت دلالة جديدة فى ضوء ما استجد من تطورات، بل إن كثيرين من أهالى الغائبات، قد تنبهوا فى ضوئه إلى احتمال لم يسبق لهم البحث فيه كسبب لاختفائهن.

ولابد أن بعضا من تلك المناقشات والتكهنات قد تسرب -بقصد أو من دون قصد- إلى الأومباشى «أحمد البرقى» الذى كان قد كلف -كغيره من أفراد الشرطة السرية العاملين بقسم اللبان والمنتدبين لمعاونتهم من حكمدارية شرطة الإسكندرية - بإجراء التحريات حول مصير النساء اللواتى تقدم أقاربهن ببلاغات عن غيابهن لتحديد صاحبة الجثة التى عثر عليها بغرفة «سكينة» ولمعرفة مصير الأخريات.

وكان البحث فى ظروف اختفاء «نظلة أبو الليل» هو الذى قاده إلى الغرفة التى تستأجرها «ريا» ليعيد مناقشتها فيما أدلت به من أقوال حول ظروف اختفاء الفتاة، فلم يجدها بها. وأدهشته رائحة البخور التى كانت تتسرب من ثقوب فى نافذتها.. فظل يترصدها إلى أن عادت فدخل خلفها ليجدها تعيد تبخير الغرفة، ولما عرفت أنه من رجال الشرطة السرية، ارتبكت.. ولما سألها عن «نظلة أبو الليل» أيقنت بأن أمرها قد انكشف، وبأن «سكينة» قد اعترفت عليها.. فبدأت فى إدارة الاسطوانة التى كانت قد حفظتها، وقالت إنها لا تعرف شيئا، وأن بعض الرجال كانوا يستأجرون منها الغرفة، ويصطحبون إليها نساء يختفين بعد ذلك.

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة من مساء ذلك اليوم - الثلاثاء ١٦ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ -حين وصل الخبر إلى اليوزباشى «إبراهيم حمدى» فأرسل الصول -المساعد- «محمد عبدالعليم» إلى منزل «ريا» حتى ينتهى من عمل عاجل بين يديه.. ثم لحق به -قبل السادسة بقليل- فوجدها تعترف له بأن من بين هؤلاء الرجال «عرابى» و«أحمد الجدر» فأمر

بالقبض عليهما.. ثم دخل الغرفة وجال ببصره فيها..

وسألها:

- فين «نظلة» يا «ريا»؟.

ولدهشته البالغة.. ردت قائلة:

- عندك تحت الصندرة.



والغالب أن اليوزباشي «إبراهيم حمدي» لم يصدق - لأول وهلة - ما قالته «ريا» ولعله ظنها تسخر منه، أو تتحداه. لكنه ما كاد ينحني ليلقي نظرة على ما يقع أسفل الصندرة، حتى شم رائحة عفونة، تغلبت على رائحة البخور الزكية التي كانت تتصاعد في أنحاء الغرفة. ولاحظ على الفور، أن البلاط الذي يغطي أرض المكان، ينشع برطوبة تدل على أنه سقي حديثا بالماء، وأن به آثارا واضحة لتراكيب حديثة، تدل على أنه قد خلع وأعيد تثبيته بمواد لاصقة غير المواد التي استخدمت في لصق بقية البلاط الذي يغطي أرض الغرفة، فأمر بنزع خشب الصندرة، وبإخراج ما كان تحتها من أدوات منزلية، وشرع في خلع عدد من البلاطات. وفضلا عن أن نزعها لم يتطلب مجهودا، فإنها ما كادت تغادر مكانها حتى تكشفت رائحة العفونة. وما كاد نائب المأمور ينبش في التراب أسفلها، بقطعة من الخشب، حتى ظهر جزء من جلباب، أعقبه ظهور جثة..

وخلال نصف الساعة التالية، كان الخبر قد طار إلى المحافظة، والحكمدارية، فازدحمت باحة البيت بعدد من كبار ضباط الشرطة في الإسكندرية، وجاء «المستر وايت» - رئيس قلم الضبط - على رأس مجموعة من مفتشي الضبط، ومفتشي الإدارة السرية، ليستطلعوا الأمر بأنفسهم.. وكانت الغرفة قد أخليت من كل ما بها، بينما يواصل عدد من جنود الشرطة الحفر بحضور «ريا» التي كانت تجلس واجمة أمام بابها، تحاول أن تجمع أفكارها المشوشة لكي تستعيد خطة الدفاع.

وبعد أن انتهى «المستر وايت» ومرافقوه من معاينة البيت، نصحوا بنقل المتهمة إلى قسم الشرطة، ليبدأ التحقيق معها، على أن يتواصل الحفر في أرض الغرفة أثناء ذلك.. فاصطحبها اليوزباشي «إبراهيم حمدي» معه. وعندما وصل إلى مكتبه اتصل هاتفيا بوكيل نيابة اللبان، وأبلغه بالأمر، ونبهه إلى صلة الأخوة التي تجمع الحرمة «سكينة» التي عثرت الشرطة -في اليوم السابق على جثة امرأة في أرض غرفة كانت تسكنها، فأحالتها إلى وكيل نيابة المنشية الذي يحقق معها - وبين الحرمة «ريا» صاحبة الغرفة التي عثر بها على المقبرة الجديدة. فكلفه وكيل النيابة بأن يستكمل إجراءاته، ويشرع في تحقيقاته، إلى أن يصل إليه.

وكان الملازم ثاني «أحمد عبدالفتاح» هو الذي كلف بالإشراف على متابعة الحفر، الذي كان يقوم به عدد من جنود القسم.

لكنهم لم يتحملوا رائحة التعفن الرِّمى التى كانت تشيع فى جو المكان، واعتذروا -بعد قليل- عن مواصلة العمل، فتوقف الحفر. إلى أن قبل أربعة من العمال العاطلين الذين يقومون بأعمال موسمية لحساب المجلس البلدى، مواصلته نظير أجر. فكلفهم بذلك.

وبعد قليل أخرجوا جثة عارية لامرأة ضخمة الجسم، لا يغطيها سوى قميص بحمَّالة على الكتفين، ووجدوا تحتها جمجمة قديمة وعظاما لاتزال بها آثار لحم بشرى متحلل.. كما كشفوا التراب عن جثة امرأة ثالثة ترقد على جانبها، فضل الملازم «عبدالغفار» تركها كما هى، حتى لا تتبعثر، ثم عاد إلى القسم ليخطر نائب المأمور -الذى كان يستمع إلى أقوال «ريا»- بأنه لم يستطع أن يواصل الحفر لاشتداد الرائحة وحلول الظلام، وأنه فضل أن يؤجله إلى الصباح، وترك المنزل فى حراسة قوة من الجنود برئاسة الجاويش «إبراهيم نصر»..

وفى أثناء ذلك، كان الملازم ثانى «أحمد عبدالله» -من قوة بوليس سرى المحافظة- قد صحب معه الصول «الشحات محمد» والباشجاويش «يوسف أبو رماح» والأمباشى «أحمد البرقى»، لتنفيذ الأمر الذى أصدره له نائب المأمور بالقبض على كل من «عرابى حسان» و«أحمد الجدر». اللذين اعترفت «ريا» بأنهما كانا يصحبان النساء إلى غرفتها، ثم يخرجان من دونهن. والغالب أن رجال الشرطة كانوا قد توصلوا -فى هذا الوقت المبكر من التحقيق، واستنادا إلى خبراتهم السابقة. وبعد مراجعة ما لديهم من بلاغات عن النساء المختفيات- إلى افتراض بأن جرائم قتل النساء تتم بهدف السرقة. وانطلاقا من هذا الافتراض، اهتم الضابط ومعاونوه بالتفتيش عن المشغولات الذهبية. وعن كل ما يدل على ثراء المتهمين، فعثروا فى بيت «عرابى» على كتينة ذهبية يتدلى منها جنيه من الذهب، وساعة معدنية، ولم يجدوا فى منزل «الجدر» ما يفيد التحقيق فاصطحبوهما معهم، وعادوا بهما إلى القسم..

وكانت الساعة قد اقتربت من الثامنة، عندما وصل «محمد بك حافظ» -وكيل نيابة اللبان- إلى مبنى القسم، ليجد عددا كبيرا من سكان الحى، يحيطون به. وعندما سأل عن سبب احتشادهم، عرف من الضباط أن معظمهم من المتطفلين الذين دفعهم الفضول إلى محاولة معرفة ما حدث، وكان من بينهم بعض جيران المتهمة وأقاربها، وبعض أقارب الغائبات.. فأمرهم بالتحفظ على من قد يتطلب التحقيق الاستماع إلى أقوالهم، وإبعاد الباقين عن المبنى.

بالاستعانة بشيخ الحارة عثر المخبرون بين الزحام، على «زينب أم مصطفى» - والدة «ريا» و«سكينة»- التى كانت قد وصلت إلى محطة قطارات الإسكندرية قادمة من «كفر الزيات». فلما لم تجد أحدا فى انتظارها، توجهت إلى حارة «على بك الكبير» وهناك عرفت من الجيران، بما حدث لابنتها، فصحبت حفيدتها «بديعة»



الجثث الخمس التي وجدت فى طبقة واحدة من مدفن ال همام بالمنزل رقم ٣٨ بحارة على بك الكبير

إلى مبنى القسم، فى محاولة لاستطلاع الأمر. وكان من بين الذين تم التحفظ عليهم -كذلك- «خديجة السودانية»، التى حملها قلبها الواجف إلى هناك، لعلها تعرف شيئا عن مصير ابنتها «فردوس»، آملة ألا تسمع ما يسيئها فيها.. وما كادت تمثل أمام وكيل النيابة، حتى أمر بأن تعرض عليها الجثث الثلاث التى تم الكشف عنها حتى ذلك الحين.

وبدأ وكيل النيابة تحقيقه بالاستماع إلى الطبعة الأولى من أقوال «ريا» التى ظلت على امتداد الأيام العشرين التالية، تصدر منها طبعات جديدة، تحذف منها بعض الوقائع وتضيف إليها وقائع أخرى، وأشخاصا آخرين، يتناسب عددهم طرديا مع الجثث التى يتم العثور عليها فى المقبرة، ومع ما كانت تواجه به من أقوال الشهود والمتهمين حتى تضخم ملف التحقيق معها، وازدحم بأقوال متناقضة تمثل فى مجملها، نموذجا للخيال الركيك، وافتقاد المنطق، تتفق طبعاتها المتعددة فى شىء هو انعدام صلتها بالحقيقة..

ولأنها كانت تدلى بأقوالها -فى تحقيق الشرطة الذى أجراه معها اليوزباشى «إبراهيم حمدى»- حين وصل الملازم «عبدالغفار» ليخطره بأنه عثر على ثلاث جثث فقط، فقد قصرت الطبعة الأولى من أقوالها أمام النيابة، على تبرير دفن هذه الجثث الثلاث تحت صندرتها.. فى سياق قدمت فيه نفسها باعتبارها امرأة ضعيفة مكسورة الجناح خضعت لسطوة إنسان شرير اسمه «عرابى حسان» قدمته للتحقيق بصفته «جدع صعيدى وعامل فتوة وكل الجهة تخاف منه»، تعرفت إليه، وإلى صديقه «أحمد الجدر» منذ ثلاث سنوات، إذ كانا من بين جيرانها. فى حى «المسكوبية» الذى كانت تقيم به، وكان «عرابى» يمر عليها -آنذاك- ويقول لها «أوعى تخافى.. إذا حد زعلك أنا أزعله.. أنا عرابى الصوامعى».

ثم استطردت قائلة إنها كانت تسير بـ«الشارع الإبراهيمى» -ذات ظهيرة منذ سبعة شهور- فقابلت «عرابى» وبصحبته رفيقته «نظلة أبو الليل».. فقال لها «يا بت يا ريا.. أنا عاوز أروح بيتك مع نظلة»، فلما اعتذرت له قائلة «أنا جوزى بيزعل لما يشوفك عندى» رد عليها بفظاظة «ملعون أبوك وملعون أبو جوزك» فلم تستطع أن تواصل اعتراضها. وما كاد يستقر فى غرفتها مع رفيقته، حتى قال لها «خدى نصف الريال ده وهاتى لنا أكل.. وغيبى شوية». وعندما عادت بالطعام - بعد ساعتين - وجدته ينتظرها فى مكان قريب من البيت فأعطاها مفتاح الغرفة. ولما سألته عن «نظلة» قال لها: جتها القرف.. دى مستعجلة.. ومشيت على طول.. وبعد ثمانية أيام من ذلك، بدأت تشم رائحة كريهة، تنبعث من تحت الصندرة، فلما استشارت صاحبة المنزل، نصحتها بأن تبخر الغرفة بالمستكة، فظلت تفعل ذلك لمدة يومين إلى أن انقطعت الرائحة.

وبعد أربعة شهور أخرى، قابلها «عرابى» للمرة الثانية مصادفة. وكان بصحبته هذه المرة صديقه «أحمد الجدر»

فطلب إليها أن تعود إلى البيت لتنتظر حضوره، فقالت له: يا عرابى مرة على مرة.. جوزى يطلقنى.. وبعدين مين يربى بنتى؟!. فقال لها: والله يا بنت الكلب إن ما كنت تطاوعينى على فكرى.. أخزق عينيكى.. فاستسلمت لإرادته، وسبقتهما إلى المنزل. وبعد قليل فوجئت بفتاة تدخل عليها عرفت أن اسمها «فاطمة» وأنها ابنة خالة «أحمد الجدر»، ثم تبعها الرجلان، فلما احتجت على ذلك صارخة فيهم: «ايه الخايلة الكدابة دى.. هو بيتى كرخانة؟» أمسكها «عرابى» من ذراعها فثناه، وخبطها فى الحائط وقال لها: لو قلت لأ.. أنا أحط صباعى فى عينك» رضخت لأمره، وتركت لهم الغرفة وخرجت لكى تشترى لهم الطعام، وعادت لتجد الرجلين يقفان أمام باب البيت، فلما سألتهما عن المرأة قال لها «عرابى»: دى فضلت ترتعش.. وتقول البيت وسخ وضلمة ويخوف.. فطردناها.

أما الحادثة الثالثة فقد وقعت منذ أسبوعين فقط، عندما عادت من الخارج فوجدت ابنتها الصغيرة تبكى فلما سألتها عن السبب، علمت منها أن «عرابى» قد ظهر فجأة وضربها، واقتحم الغرفة لينام فيها. فلما دخلت عليه محتجة بأن غرفتها ليست لوكاندة، قال لها: والله العظيم يا بنت الكلب.. لازم أخرب بيتك.. ثم طردها، وأغلق الباب على نفسه، بينما نامت هى وابنتها فى فناء المنزل، ولما استيقظت عند العصر، وجدته قد غادر الغرفة، ولم تعرف ماذا كان يفعل بها، أو من زاره خلال الساعات الثلاث التى أمضاها بها..

وأضافت «ريا» أن زوجها كان قد هددها بالطلاق، إذا رأى «عرابى» يدخل البيت مرة أخرى. ولأنها لم تستطع أن تمنعه من التردد عليها، فقد اضطرت لاستئجار غرفة أخرى بـ «باب سدرة» لكى تسكن بها مع زوجها، وكانت تمضى بها معظم ساعات النهار، فلا تعود إلى الغرفة التى عثر فيها على الجثث، إلا عند الليل لتنام.. ومع ذلك فقد طلقها زوجها -منذ ثلاثة شهور- عندما لاحظ أن «عرابى» ما يزال يتردد عليها..

وكانت القصة -فيما تصورت «ريا»- كافية لكى تحقق أركان دفاعها، ولكى تقدم تفسيرا ظنته منطقيا لوجود الجثث الثلاث، التى توهمت فيما يبدو أن البحث سيتوقف عندها: فهى امرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، تعيش وحيدة بلا رجل، بعد أن طلقها زوجها. تسلط عليها اثنان من الفتوات، كانا يصحبان النساء إلى غرفتها، ويبعدانها عنها، ثم تعود فى كل مرة من هذه المرات الثلاث، فلا تجد المرأة، ولا تعرف شيئا عن مصيرها.

ولأن المحور الرئيسى لدفاعها -كان يقوم -فى تلك المرحلة- على التنصل من مسؤوليتها، هى وجميع «آل همام» من وجود الجثث، فإنها لم تكتف بالتركيز على أنها لم تكن تقيم بغرفتها بـ«حارة على بك الكبير» على الرغم من احتفاظها بها، مما يوحى بأن الغرفة كانت تتخذ -فى غيابها ومن دون علمها- مكانا لتلك الجرائم، أو بالتشديد على تطليق زوجها لها، أو بالذكاء فى اختيار «عرابى» استثمارا للشبهات التى

أحاطت به منذ اختفاء رفيقته، أو اصطناع شريك له، هو «أحمد الجدر» الذى تربطه به صلة صداقة فضلا عن عملهما معا بين حمالى الجمرك، بل وحرصت كذلك -على إخفاء الأسماء الحقيقية لصاحبات الجثث الثلاث، حتى لا يكتشف المحقق، صلتها - أو أحد من أقاربها- بهن. وفيما عدا «نظلة» -التى ذكرت اسمها من باب تأكيد اتهامها لـ«عرابى» -فقد منحت الضحية الثانية اسما حركيا. ولأنها كانت تعرف أن صاحبة الجثة الثالثة هى «فردوس» فقد تعمدت أن تتجاهل ذكر أى شىء عنها، فيما عدا التاريخ الذى يحتمل أن تكون قد دفنت فيه، بل إنها لم تجزم بأن أحدا قد دخل الغرفة مع «عرابى» فى ذلك اليوم، وبالتالى فهى لا تستطيع أن تصف صاحبة الجثة، أو تعرف اسمها.. أما السبب، فلأن ظهور جثة «فردوس» فى منزل «ريا» بعد الشبهات التى حامت حول دور «سكينة» فى إخفائها كان كفيلا بتدمير خطة الدفاع من أساسها..

لكن أسئلة المحقق، ما لبثت أن كشفت كثيرا من الثقوب غير المنطقية، فى السيناريو الذى ظنته «ريا» محبوكا، وكان أول ما لاحظه وكيل النيابة وسألها عنه هو التناقض بين أقوالها أمامه وبين ما قالته -قبل ساعة واحدة- فى محضر تحقيق الشرطة.. إذ كانت قد بررت صلتها بـ«عرابى» بأنه كان صديقا لأخيها «أبو العلا» وبأنها تعرفت عليه عن هذا الطريق. وكانت شكوكها المتسلطة بأن اكتشاف أمرها، جاء نتيجة لاعتراف شقيقتها عليها، وخشيتها من التعرف على جثة «فردوس» وراء محاولتها -فى تحقيق الشرطة- لخلق صلة مستقلة بين «سكينة» وبين «عرابى»، بحيث إذا ووجهت باعترافها عليها، أقحمتها معه فى الاتهام.. فزعمت بأنها عندما ضاقت بضغوط «عرابى» عليها توجهت إلى شقيقتها وقالت لها: مش تبعدى عنى «عرابى» يا «سكينة». وأن الأخرى ردت عليها قائلة: ده ولد مؤذى وأحسن طريقة تعزلى من البيت.. والغالب أنها -حين لم تواجه بأية أقوال لـ«سكينة» ضدها- تنبهت إلى أنها بالغت فى شكوكها، فأغفلت -فى أقوالها أمام النيابة- ذكر الواقعتين.. وحين ذكرها المحقق بهما، أدركت أنه يريد أن يتخذ منهما دليلا على أن هناك صلة تربط بين «عرابى» وبين أولاد همام الثلاثة. وأنها توشك أن تثبت التهمة على نفسها وعلى شقيقتها وشقيقها.. ومع أنها لم تنكر ما قالته، إلا أنها خففت من أثره قائلة بأن علاقتها بـ«عرابى» هى علاقة سكك.. وبأن معرفته بشقيقيها كانت عابرة.

ولعل «ريا» لم تكن تتصور أن كل كلمة مما قالته، ستكون محل استجواب فبوغتت بسيل الأسئلة التفصيلية التى أخذ المحقق يوجهها إليها، فكانت تجيب عليها بالنفى أو بالإيجاب، ثم تكتشف -على ضوء السؤال التالى- أن الإجابة غير موفقة، فتعود لتصححها، لتوقعها الإجابة الجديدة فى مأزق آخر، تضطر معه للكذب، الذى يقودها إلى مزيد من الكذب. فقد سئلت عن مبرر تصاعد البخور من حجرتها طوال



الاطلال والمهجورة

اليوم الذى قبض عليها فى مسائه، فأنكرت أنها فعلت ذلك. وقالت إنها لم تكن تقيم فى الغرفة منذ القبض على اختها «سكينة» بعد أن سمعت «كلاما من الناس فى السكك بأن اختها قد اعترفت عليها» مما دفع المحقق إلى سؤالها عما يدعوها للخوف طالما أنها لا صلة لها بالقضية التى اتهمت فيها أختها..

وحين سئلت عن حلق من الذهب ضبط لديها، ادعت أن زوجها اشتراه لها منذ شهر واحد بثلاثة جنيهات ونصف، ثم تذكرت حكاية طلاقها الذى تم منذ ثلاثة شهور، فعادت لتؤكد أنها اشترته من صائغ زعمت أنها لا تعرف اسمه، وأن الفاتورة التى تدل على ذلك قد فقدت منها. وأنكرت معرفتها بأحد من أهل «نظلة» ثم نسيت ذلك، وعادت لتقول -فى معرض تثبيت التهمة ضد «عرابى»- بأنها سمعت «أم نظلة» تحمله مسؤولية اختفاء ابنتها مما اضطرها إلى تكذيب ما قالته من قبل والإقرار بأنها تعرف «أم نظلة».

وعلى الرغم مما نالته روايتها من ضربات فى الصميم، فإنها لم تعدل عن خطوطها الأساسية. وأصرت على أنها مطلقة وعلى أن «عرابى» و«الجدر» هما المسؤولان وحدهما عن الجثث التى وجدت فى غرفتها. وأنها لم تشترك معهما، ولم تتقاض منهما ثمنا لهذا الاستغلال السيء لغرفتها. واعتذرت بضعف ذاكرتها عما ورد بها من تضارب وتناقض. وكانت تكذب بجسارة ومن دون خجل، فإذا ووجهت بأكاذيبها قالت: أنا عقلى مش دفتر.. ولما سئلت عن تفسيرها للمصادفة الغريبة التى قضت بالعثور على جثث النساء فى غرفتها وغرفة شقيقتها قالت: ربنا هو العالم..

واكتفى المحقق بذلك القدر من أقوال «ريا»، وأمر بإخراجها من غرفة التحقيق. وكلف الملازم «أحمد عبدالله» بإحضار زوجها «حسب الله سعيد» ثم استدعى «بديعة» ليحاول التثبت من صحة الوقائع التى ذكرت أمها بأنها كانت طرفا فيها. لكن الفتاة -بسبب صغر سنها- أساءت تفسير الأوامر التى أعطتها لها أمها بالإنكار التام، فكان أول ما أنكرته هو أقوال الأم نفسها، فقد نفت أنها تعرف «عرابى» أو «أحمد الجدر» ونفت أن يكون الأول قد ضربها منذ خمسة عشر يوما، كما ذكرت أمها، قائلة أن الذى ضربها هو أبوها..

واتخذ «عرابى» -الذى استجوبه المحقق بعد ذلك - خط الإنكار التام الذى التزم به منذ تلك اللحظة، وإلى أن التفت حبل المشنقة حول عنقه، فهو لا يعرف «ريا» أو «سكينة» أو «نظلة أبو الليل» بل وهو لا يسكن بـ«المسكوبية». مما اضطر المحقق إلى استدعاء «ريا» لكى يعرضها عليه. فتظاهر بالتحديق فيها، ثم قال أنه تذكر الآن، أن المرأة الماثلة أمامه، كانت تسكن فى زقاق مواز للزقاق الذى يسكن فيه، وأنها لم تمض به سوى أحد عشر يوما، طردها الجيران بعده، لسوء سلوكها.

فصححت «ريا» روايته قائلة أنها أقامت بذلك الزقاق أربعة أشهر. وتشجعت

«بديعة» بما قالته أمها، فأشارت نحوه قائلة: أنا عارفه ده. لكن «عرابى» تمسك بما تبقى من أقواله، فنفى معرفته بـ «نظلة» أو امها وأوحى بأن علاقته بـ «أحمد الجدر» لا تسمح لهما بالاشتراك معا فى ارتكاب الجرائم، لأنها فترت منذ ستة شهور.. وكذب إدعاءها بأنه ضرب ابنتها واقتحم غرفتها وأمضى بها فترة القيلولة ذات يوم من أسبوعين، قائلا إنه كان -آنذاك- محبوسا على ذمة الاتهام فى جريمة سرقة، ولم يفرج عنه -بعد الحكم ببراءته- إلا من أسبوع واحد فقط...

وفى تلك اللحظة، حدثت أولى مفاجآت تلك الليلة الطويلة، فقد عادت «خديجة السودانية» من غرفة «ريا» بعد أن تعرفت على الجثة التى عثر عليها وهى ترقد على أحد جانبيها، وأكدت للضابط الذى صحبها، بأنها جثة ابنتها «فردوس». واضطربت «ريا» حين استدعاها المحقق ليواجهها بذلك.. إذ كانت ما تزال تمنى نفسها بأن تكون معالم الجثة قد تغيرت.. ولعلها توهمت للحظة أن باستطاعتها أن تعيد الكرة إلى ملعب «عرابى» وتؤكد ذلك الجزء من روايتها الذى دلل على كذبه، بأن تقدم تاريخ قتل صاحبة الجثة، إلى الموعد الحقيقى الذى قتلت فيه، وهو يوم الجمعة السابق مباشرة، الذى لا يستطيع «عرابى» أن يدعى فيه أنه كان ما يزال مسجونا.

فاندفعت دون ترو تقول بأنه قد زارها فى ذلك اليوم، وبصحبته «الجدر» وفتاة طويلة القامة سمراء اللون، ترتدى جلبابا أبيض ويرقعا أبيض وتتلفح بملاءة، وأنهما أرسلاها لتحضر طعاما.. وعندما سألها المحقق عما إذا كانت تلك هى المرة التى عادت فيها من الخارج فوجدت ابنتها تبكى قالت «لا.. المرة دى كانت قبل حادث فردوس» وحين تنبهت إلى أن اندفاعها فى محاولة إثبات التهمة على «عرابى» كاد يقودها إلى إثباتها على شقيقتها، وعلى نفسها، تراجعت بغير انتظام، فنفت أن الفتاة اسمها «فردوس» بل ونفت أن يكون أحد قد زارها فى يوم الجمعة ذاك. ولابد أن المحقق قد احتاج إلى قدرة هائلة لكى يتحكم فى أعصابه حين قالت له بوقاحة: أنا ماقلتش الكلام ده.



وكان التحقيق مايزال يجرى مع «ريا» فى مبنى قسم شرطة اللبان، من دون أن يعرف «حسب الله» شيئا مما وقع، إذ كان قد قام بآخر زيارة له لبيته بـ «حارة على بك الكبير» عصر اليوم نفسه، لكى يلقى نظرة عامة على الغرفة ويتثبت من أنها تخلو من كل مايدعو للاشتباه فيها. والأهم من ذلك، لكى يبحث عن الختم الذى يوقع به وكان قد فقد منه، ويأخذ بقية ملابسه، ليتخذ من عدم وجود شىء يتعلق به بالغرفة التى تقيم بها «ريا» دليلا عن أنه قد طلقها، ولم يعد يتردد عليها، وليس مسؤولا عن كل ما يتعلق بها...

ولم تكن «ريا»- آنذاك- فى الغرفة، إذ كانت قد توجهت إلى محطة السكةالحديد

لتنتظر حضور أمها من «كفر الزيات». ولم يمكث «حسب الله» طويلا فى الغرفة، فقد مر عليه «عبد العال»، وبعد قليل من خروجهما من المنزل دخله الأومباشى «أحمد البرقى».

وكانت الساعة قد اقتربت من العاشرة، حين عاد «عبد العال» - الذى كان يعلم بأن الشرطة تبحث عنه بعد القبض على «سكينة» وجيرانها والمترددين عليها- إلى المسكن الذى يقيم فيه «حسب الله» مع زوجته الجديدة، لكى يمضى الليل به، بعد أن قدر كلاهما أن البيت - الذى لا تعرف الشرطة عنوانه- هو المكان الأكثر ملاءمة لكى يختفى فيه عن أعين مطارديه. وكان «حسب الله» يتناول العشاء مع زوجته، فدعاه لمشاركتهما فيه. وبعد انتهائه استسلم ثلاثتهم للنوم... بعد يوم شاق من القلق والتوتر، فنام الرجلان متجاورين على السرير، ونامت الزوجة على كنبة فى ركن الغرفة.

وكما توقعا، فقد وجد الملازم «أحمد عبد الله» صعوبة فى الوصول إلى المسكن، اعتمادا على العنوان العام وغير المحدد، الذى ذكرته «ريا» فى محضر تحقيق الشرطة، فعاد إلى القسم، واستأذن المحقق فى اصطحابها معه، لتدله عليه.

وبعد منتصف الليل بقليل، استيقظ «حسب الله» من النوم، على طرقات ضابط الشرطة، الذى دهش حين وجد معه شخصا آخر، سأله عن اسمه فعرف أنه «محمد عبد العال» الذى طلب «محمد كامل أبو ستيت بك» وكيل نيابة المنشية - فى الليلة السابقة- استحضاره لأخذ أقواله فى التحقيق الذى كان يجرى مع «سكينة»، فقبض على الاثنين، واصطحب معه «زنوبة بنت هلال» - زوجة «حسب الله» الجديدة - على سبيل الاحتياط.

وأثناء ذلك، كان المحقق يستجوب «أحمد الجدر» الذى ذكر بأنه يعرف «ريا» منذ كانت جارة له قبل سنوات، ويعرف «عرابى» لأنهما ينتميان إلى محافظة واحدة هى «أسيوط» فضلا عن أنهما جاران فى السكن بـ «المسكوبية». لكنه نفى - بعبارات موجزة وقاطعة - كل ما نسبته إليه «ريا».

وما كاد «محمد بك حافظ» ينتهى من استجوابه له، حتى وصل الملازم «أحمد عبد الله» إلى مبنى القسم، ومعه «حسب الله» الذى كان لفرط سذاجته، قد جاء إلى القسم وهو فى قمة قيافته، فارتدى أحد جلابيبه الغزليه، ومعطفه الجديد. ولم ينس لاثته - ومناديله- الحريرية، ظنا منه أن ذلك سيعلى من مكانته أمام المحقق، الذى لم يفت عليه، التناقض الواضح بين أناقة مظهره، وبين اعتراف «ريا» بأن زوجها مجرد «فاعل يشيل الحجارة فى البنايات»، فقام بتفتيشه بنفسه، ليعثر على بقية شواهد جنون العظمة الذى تسلط عليه: ساعة فضية وكتينة ذهب بدلاية ذهب ومحفظة من الجلد الشاموا بها ثلاثة جنيهات ونصف، فضلا عن مجموعة من الأوراق بينها وثيقة زواجه من زوجته الجديدة، على صداق قدره سبعة جنيهات، وحوالة بريدية تدل على أنه أرسل جنيهين

إلى شقيقه «حسين سعيد مرعى» على عنوانه بـ «دراو». والأهم من ذلك أنه وجد معه ثلاثة فواتير تدل على شرائه مصوغات، واحدة منها تعود إلى ٢١ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠، عن شراء لبة ذهب ودلاية بثلاثة عشر جنيها، بينما تحمل الاخريتان تاريخ اليوم نفسه الذى أرسل فيه الحوالة إلى شقيقته وهو ٢١ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠ - اليوم التالى لاختفاء شيخة المخدمين - إحداهما بخمسة جنيهات عن شراء خاتم ودبلة فضة وحجر ياقوت والاخرى عن شراء حلق غوازى بثلاثة جنيهات ونصف....

وأسفر تفتيش «محمد عبد العال» عن العثور معه على ساعة فضية، ومحفظة جلدية بها جنيه واحد وعدة قروش فضلا عن ايصالات تدل على أنه أرسل - إلى بلدته «موشا» - حوالات بريدية قيمتها أربعة جنيهات باسم صهره «عبد الفتاح سويفى» على مرتين... الأولى فى ١٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠، والثانية فى ١٥ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٢٠...

وفضل المحقق أن يؤجل استجواب الاثنين لحين تفتيش منزليهما.. وعاد لاستكمال البحث فى النقطة التى كانت تشغله، وهى التثبت من صحة زعم «ريا» بأنها قد طلقت من زوجها، إذ كان واثقا من أنه ادعاء كاذب، اصطنعته دفاعا عن نفسها وعن زوجها... فأمر باستدعاء جيرانهما فى المنزل رقم ٣٨ بـ «حارة على بك الكبير» والمنازل المجاورة له.

وكانت «أم رجب» - صديقة «ريا» الحميمة - هى أول الجارات اللواتى استمع المحقق إلى شهاداتهن حول هذا الموضوع، وقد قالت بوضوح أن «ريا» متزوجة وليست مطلقة، وأن «جوزها معاها»، لكن «ريا» - التى كانت تحضر التحقيق - قالت لها بصوت عال وأمام المحقق: لأ... هو مش معايا. فاضطربت «أم رجب»، وغيرت شهادتها على الفور لتعود فتقول بأنها لا تعرف شيئا عن ذلك الأمر.

وأدرك المحقق أنه سيواجه مصاعب فى تبديد الغموض الذى يحيط بتلك النقطة الحاسمة فى مجرى التحقيق، وأنه سيتعامل مع نساء من الفئات الشعبية ممن ينظرن إلى قول الحقيقة أمام السلطات العامة، باعتباره لونا من ألوان «الفتنة» التى ينهى عنها الدين، وينظر إليها المجتمع باحتقار. فضلا عن أن من بينهن كثيرات تفضلن ألا تقحمن انفسهن فيما لا يعنيهن. ومع أنه حرص على اخراج «ريا» من غرفة التحقيق قبل أن يستمع إلى الشاهدة الثانية «أم حسن» - وهى نوبية تسكن بغرفة بالطابق الثانى من المنزل - فقد أنكرت معرفتها بأحد من جيرانها أو علمها بشىء مما يجرى بالمنزل، وبررت ذلك بأن زوجها يغلق عليها باب غرفتهما بالمفتاح قبل أن يغادر البيت فى الصباح إلى عمله..

مع أن الشاهدة الثالثة «أم حسين» - صاحبة المنزل - قد ذكرت أنها «تسمع» أن «ريا» متزوجة من شخص يسمى «حسب

الله».. وأنه ما يزال يقيم معها فى المنزل، فإن ذلك لم يكن كافيا للبرهنة على كذب الادعاء، خاصة بعد أن اعترفت «أم حسين» بأن معلوماتها سماعية، وبأنها لا تغادر مسكنها بالطابق الثالث من المنزل بسبب تقدم سنها ومرضها...

وعاد جنود الشرطة الذين أرسلهم وكيل النيابة إلى المنزل ليستدعوا بقية جيران «ريا» ليقولوا بأنهم لم يجدوا أحدا منهم، وبأنهم غادروه جميعا هربا من الروائح الكريهة التى كانت تتصاعد من الجثث... وعاد الملازم «أحمد عبد الله» ليعلن له بأن تفتيش بيت «حسب الله» الجديد، لم يسفر عن العثور على شيء يدل على تورطه مع «ريا» فى الأمر، ومع ذلك فلم ييأس المحقق، واستدعى «حسب الله» وبدأ استجوابه له بسؤاله عن النقطة التى كانت تشغله، فنفى بجسارة، أن «ريا» ما تزال على ذمته، وقال بأنه طلقها منذ سبعة شهور على الأقل، وأنه لم يسكن معها على الاطلاق فى المنزل الواقع بحارة على بك الكبير»، وبرر ذلك بأنه لاحظ أن كثيرين من الرجال كانوا يترددون على المنزل لكى يشربوا الخمر، وأن الناس أصبحوا ينظرون إليه باعتباره «كرخانة»، فلم يقبل ذلك على رجولته... وحين ووجه بأن زوجته تقيم فى ذلك المنزل منذ أكثر من عام ونصف العام، قال أنه هجرها منذ ذلك التاريخ، إلا أن الطلاق - الذى نفى أنه استخرج قسيمة به - لم يقع إلا منذ سبعة شهور... وحين جوبه بزعم زوجته بأن الطلاق قدوقع منذ ثلاثة شهور فقط، قال: هى غلطانة..

وكانت تلك هى اللحظة التى اختارها وكيل النيابة «محمد بك حافظ» لكى يتناول من بين الاوراق التى عثر عليها فى محفظة «حسب الله»، فاتورة «حلق الفوازى» الذى لم يكن قد مضى على شرائه سوى ثلاثة اسابيع فقط، والتى كانت تحمل اسم الصائغ «على محمد»، ليلوح بها فى وجهه ويسأله:

- هل اشتريت حلق لزوجتك «ريا»؟!..

وما كاد «حسب الله» يرى الفاتورة.. ويسمع السؤال حتى سقط مغشيا عليه.

ولم يكن لما حدث معنى، إلا أن «حسب الله» قد تنبه -بعد فوات الأوان- إلى أنه، رغم ما بذله من مجهود لتأمين نفسه، والتخلص من أى دليل قد يثير الشبهة حوله - قد نسى، فاحتفظ فى جيبه، بدليل يهدم أساس دفاعه، ويكذب ادعاءه وادعاء «ريا» بأنهما مطلقان.

ومع أن «محمد حافظ بك» قد أوقف التحقيق فى أعقاب سقوطه مغشيا عليه، وأرسل يستدعى له الاسعاف، فقد أفاق بعد دقائق من دون حاجة إلى معونة طبية.. وأبدى استعداده لمواصلة الاستجواب، مما دفع المحقق للشك فى أنه كان يتظاهر بالإغماء لكى يفكر فى وسيلة يخرج بها من المأزق.. فلما توهم أنه عثر عليها أجاب قائلا:

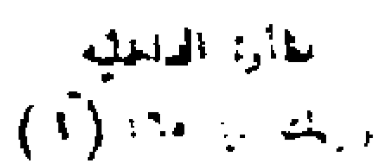
- إزاى أكون مطلق «ريا» من سبع شهور وأشترى لها حلق من شهر؟.

وعندما رد له المحقق السؤال، أنكر تماما أنه الذى اشترى الحلق، قائلا: إنه لم

يره، ولا يعرف «على محمد» الصائغ الذى باعه، وأن «ريا» هى التى اشترت الحلق لنفسها بنفسها.. وبرر وجود الفاتورة معه، بأن «ريا» جاءته لتأخذ منه النفقة الشرعية التى اتفقا -بعد طلاقهما- على أن يعطيها لها، لكى تنفق منها على ابنتهما، فوجد معها الفاتورة، فأخذها منها ليعرف ثمنه، وعرضها على عابر سبيل قرأها له.

لكن الرواية الجديدة، لم تصمد أمام سيل الأسئلة التى لاحقه بها وكيل النيابة. عن مبرر تدوين اسمه على الفاتورة بصفته المشترى، وعن تفسيره لصدورها فى ذات التاريخ الذى اشترى فيه لنفسه ولزوجته الجديدة خاتما ودبلة ومحبسا، من نفس الصائغ «على محمد» الذى ينكر معرفته به. فلم يجد ما يرد به على هذا السيل من الأسئلة سوى الإحالة على المصادفة: فقد تصادف أن ذهبت «ريا» فى نفس اليوم الذى اشترى فيه، إلى نفس الصائغ الذى اشترى منه، لتشترى الحلق وتستخرج الفاتورة باسمه، وتصادف أن رأى الفاتورة معها، فاحتفظ بها.

ودعمت «ريا» هذه الرواية، عندما استدعاها المحقق ليسألها عنها، فأدخلت تعديلات على أقوالها الأولى، وأضافت إليها تفصيلات أخرى، لكى تتواءم مع رواية «حسب الله» -التى يبدو أنها قد علمت بها منه، أثناء انتظارهما معا للتحقيق -فذكرت بأن زوجها أعطاها نفقتها -وهى جنيه- ودفعت هى بقية الثمن- وهو جنيهان ونصف- من نقودها.



أغسطس ١٩١٨: فاتورة شراء مصوغات تثبت أن العلاقة بين «آل همام» والصائغ «على محمد» قديمة

وأنها اشترت الحلق بنفسها واستخرجت الفاتورة باسمه بناء على طلبه، ثم أعطتها له لكى يحتفظ بها فى مكان حرصت على أن تقول أنه «محفظته»، لكيلا تضيع منها.

ولم يكن التباين بين الروايتين قائما فقط، والاتفاق على ترتيب الأقوال مفضوحا فحسب، بل وتذكر الملازم ثان «عبدالغفار محمد» -الذى كان يحضر التحقيق- كذلك، دليلا جديدا على كذب واقعة الطلاق، وهو محضر تحقيق الشرطة

فى المشاجرة، التى جرت بين «حسب الله» و«سلامة» وتدخل فيها جيرانه النوبيون، إذ كانت «ريا» و«سكينة» من بين الذين حضروا إلى قسم الشرطة فى تلك الليلة. وقد تخلص «حسب الله» من الدليل الجديد قائلا إنها حضرت من أجل أختها.. لكن «ريا» لم تنكر أنها حضرت من أجله، وعلى الرغم من طلاقهما وقالت: هوا برضه أبو عيالى..

وعلى العكس من «ريا» التى سعت لدعم دفاع «حسب الله» فأيدت روايته عن طلاقهما، وساعدته على إعادة بناء أركانه التى كادت تتهاوى بعد أن عثر المحقق فى جيبه على دليل يكفى لتقويضها، فقد تخلى هو عنها بنذالة منقطعة النظير، ورفض أن يؤيد الركن الأساسى فى دفاعها، وأنكر تماما أنه قابل عندها شخصين باسم «عرابى حسان» و«أحمد الجدر»، أو أنه طلب منها الابتعاد عنهما، أو هددها بالطلاق إذا رآهما فى زيارتها، ثم نفذ تهديده.

وعندما عرض المحقق عليه الاثنين، قال إنه لا يعرفهما، ولم تسبق له رؤيتهما.. وقد أدهش ذلك «ريا» التى أكدت أن زوجها يعرف الاثنين، ورآهما عندها، وأنهما -وخاصة الأول- سبب الخلافات التى انتهت بطلاقهما.. ولعلها ظنت أن المحقق يحاول الإيقاع بينهما، أو أن «حسب الله» قد نسى ما اتفقا عليه، فطالبت بمواجهتها به، لعله يتنبه حين يراها -إلى أهمية تأييده لهذه الواقعة، لأن تكذيبه لها، يهدم أركان دفاعها عن نفسها. لكنها فوجئت أثناء المواجهة بإصراره على أنه لا يعرف الرجلين، ولم يرهما عندها، أو يختلف معها بسببهما.

ويبدو أن ذلك، كان من بين العوامل التى شككتها فى صواب خطة إبعاده عن دائرة الاشتباه تماما.. ونبهتها إلى حقيقة خطيرة وهو أنه يسخرها لكى تهىء له سبل الإفلات من المسؤولية، ولا يعنيه أن يبذل نفس المجهود لكى يساعدها بنفس الدرجة. بل إنه -على الرغم من اتفاقهما المسبق- قد اتخذ لنفسه خطة للدفاع تتناقض مع الخطة التى اتخذتها. وقدرت أن إفلاته وحده سينتهى بتحملها المسؤولية وحدها.. فبدأت -منذ تلك اللحظة- تفكر فى مصلحتها وحدها، لكنها لم تكن تستطيع أن تفصم التحالف بينهما نهائيا واكتفت بأن قبضت يدها جزئيا عن مساعدته على الإفلات من مصائد التحقيق وخاصة إذا ما تعلق الأمر بوقائع تتناقض مع خطتها للدفاع عن نفسها، فأصرت على ألا تعدل أقوالها، لكى تتواءم مع أقواله، فى واقعة، اعتبرها جوهرية، وأقام عليها أساس دفاعه وظنها تبعده تماما عن دائرة الاتهام، بل مجرد الاشتباه، وهى زعمه بأنه لم يسكن يوما واحدا مع «ريا» فى الغرفة التى عثر فيها على الجثث، وأنه هجرها منذ قررت الانتقال من «المسكوبية» إلى «حارة على بك الكبير» قبل عام ونصف العام، ثم طلقها منذ سبعة أشهر، وهو ما رفضت «ريا» أن تصادقه عليه، إذ كان يتناقض مع أساس دفاعها، ويخرج عن نص اتفاقية الدفاع المشترك

التى أبرماها معا، ولا يحقق سوى مصلحة «حسب الله» وحده، فأصرت على أنه أقام معها فى تلك الغرفة، ما يزيد عن عام، وأنه لم يطلقها إلا منذ ثلاثة شهور وليس سبعة، وحين واجه المحقق بينهما، تمسك كل منهما بروايته، وقال «حسب الله»: يمكن هى ما تعرفش تحسب.

والحقيقة أن «حسب الله» هو الذى لم يكن يعرف كيف يحسب، وإلا لما تمسك بروايته التى كانت من الغباء الإصرار عليها، بينما هناك عشرات من سكان الحارة والبيت يمكن أن يشهدوا على كذبها. ولما حرص على أن يمثل أمام المحقق وهو فى قمة قيافته، أثار ريبته فيه، فكان منطقيا أن يتخذ من مظاهر الثراء التى وجد أدلتها فوق جسده، وعثر عليها فى محفظته، محورا ثانيا -بعد مسألة الطلاق- يدير حوله الجزء الثانى من استجوابه له: ففى خلال شهرين فقط اشترى «حسب الله» -الذى يعمل فاعلا فى البنايات يشيل التراب والأتربة ويتقاضى يومية لا تزيد عن سبعة عشر قرشا- معطفا يبلغ ثمنه -طبقا لتقديره هو نفسه- سبعة جنيهات. ودفع مثلها مهرا لزوجته الجديدة. وعثر فى جيبه على ساعة فضية. وفى محفظته على فواتير تدل على شرائه لكتينة ودلاية وخاتم ودبلة لنفسه، وحلق لزوجته الأولى ومحبس للزوجة الثانية. فضلا عن النقود السائلة. وقد قدر وكيل النيابة قيمة ذلك كله، بستين جنيها، زعم «حسب الله». فى إجابته على سؤال المحقق. أنه ادخرها من يوميته بواقع عشرة قروش فى اليوم، وعلى امتداد ثمانية شهور.

وبعملية حسابية بسيطة، أثبت له المحقق، أنه لا يستطيع أن يوفر خلال تلك الفترة أكثر من واحد وعشرين جنيها، وهى أقل من نصف ثمن الأشياء التى اشتراها، فكيف ينفق ستين جنيها خلال شهرين على أشياء كمالية، ومن أين له هذا؟..

وأجاب «حسب الله» ببلادة: من شغلى.. ومن ربنا..



وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل، حيث وصل الملازم ثان «عبدالغفار محمد» بصحبة «محمد عبدالعال» إلى المنزل الذى يقيم فيه -مع شقيقه وزوجته- فقام بتفتيشه ليعثر فى أحد أدراج «البوريه» على كمبيالة تتعهد بمقتضاها «سكينة بنت على همام» - التى بصمت عليها بخاتمها - بدفع مبلغ سبعمائة قرش صاغ عملة ميرى، لشخص لم يذكر اسمه، وفى تاريخ لم يتفقا على تحديده.. وعثر فى درج آخر على أول دليل يشير إلى الصلة بين «آل همام» والجريمة: فانلة «فردوس» الصوفية البيضاء التى خرجت وهى ترتديها فوق الجلباب الأسود، ولم تعد منذ ذلك الحين.

ولأن «محمد عبدالعال» كان يتوقع ذلك، منذ اللحظة التى تحرك فيها مع

«عبدالغفار أفندى» ليرشده عن المنزل الذى يقيم فيه، فقد انتهز فرصة انشغال الضابط ومعاونيه بالتفتيش، وهمس فى أذن زوجة أخيه، بما ينبغى عليها أن تقوله هى وزوجها، إذا استدعاهما المحقق لسماع أقوالهما..

وما كاد «محمد بك حافظ» - الذى كان ما يزال يواصل تحقيقه مع «حسب الله» يرى الفانلة - بين المضبوطات التى أسفر عنها تفتيش منزل «محمد عبدالعال» - حتى أدرك على الفور أنها فانلة «فردوس» التى وصفتها أمها، كما وصفها آخرون من الشهود الذين أدلوا بأقوالهم أمامه، فاستدعى والدتها «خديجة السودانية» -التى كانت ماتزال بالقسم- وعرضها عليها، وبمجرد أن رأتها، قالت من دون تردد إنها الفانلة التى كانت ابنتها ترتديها عند خروجها مع «سكينة» فى يوم الجمعة السابق..

وبالعثور على هذا الدليل، اتخذت العلاقة بين «حسب الله» - الذى وجدت جثة «فردوس» مدفونة فى منزله - و«محمد عبدالعال» -الذى وجدت فانلتها لديه- أهمية قصوى فى مجرى التحقيق.. فشرع وكيل النيابة فى استجوابهما حول ظروف التقائهما فى ذلك اليوم.

ولم تكن خطة دفاع «عبدالعال» التى انطلق منها فى إجاباته على أسئلة المحقق، تختلف كثيرا عن خطة دفاع «حسب الله»، فهى تقوم مثلها على وقائع بعضها صحيح، يتلاعب فى تواريخ حدوثها، لكى يبعد نفسه عن اية صلة بالبيوت التى عثر فيها على الجثث، او بالنساء اللواتى يقمن فيها: فقد كان زوجا لـ «سكينة» ثم طلقها منذ ثلاث سنوات. وفى تلك الفترة عرف «ريا» و«حسب الله» بحكم صلتهما بالمرأة التى كانت زوجته. ثم انقطعت العلاقة بينه وبينهم جميعا، خاصة وانه كان قد سافر الى قريته وامضى بها الشهور الخمسة الاخيرة، ولم يعد الى الاسكندرية الا منذ شهر واحد، الى ان التقى مصادفة، منذ ساعات قليلة، بعديله السابق «حسب الله» على احد المقاهى، فدعاه لكى يتناول فنجانا من القهوة فى بيته وبمناسبة زواجه، فصحبه الى هناك، وتأخر الوقت بهما، ففضل ان يمضى الليل عنده.

وعندما سئل عن مصدر الفانلة الصوفية البيضاء التى ضبطت لديه، قال انه اشتراها منذ خمسة شهور، عندما غادر القطار فى محطة اسيوط، ونزل الى شوارعها ليبحث عن مواصلة تحمله الى قريته القريبة منها، اذ التقى مصادفة ببائع جوال، يدفع أمامه عربة يضع فوقها ملابس مستعملة، مما يباع فى كانتينات معسكرات الجيش الانجليزى، ويسرح بها فى شوارع المدينة، فاشترى منه الفانلة، وبطانية وقميص ودفع ثمانين قرشا ثمنا لها جميعا، وعلم بعد ذلك ان البائع اسمه «يوسف محمد».

ومع أن روايته بدت له محبوكة، إلا أن المحقق عثر على ثغرات كثيرة فيها، صحيح ان «محمد حافظ بك»، لم يتنبه الى ان من بين المضبوطات التى عثر عليها فى حافظة نقود «عبد العال»، وثيقة تكذب ادعاءه، بانه قد عاد الى الاسكندرية منذ شهر واحد، وهى الحوالة البريدية التى ارسلها الى

صهره فى ١٨ سبتمبر (ايلول) ١٩٢٠، والتى تؤكد بأن عودته كانت منذ شهرين على الاقل. الا انه استفاد من هذه الحوالات، بنفس الطريقة التى استفاد بها من العثور على فواتير شراء المصوغات فى حافظة «حسب الله»، فسأله عن مصدر الجنيهات الاربعة التى ارسلها الى صهره، بينما لم يعمل - منذ عودته - الا عدة ايام، تقاضى عنها - كما قال - جنيها واحدا.. ولما رد على ذلك - بأنه كان قد احضر معه من قريته، صفيحتين من عسل النحل، باعهما بجنيهين ونصف، نبهه المحقق إلى أن مجمل ما كسبه من نقود يظل مع ذلك اقل مما ارسله، حتى بفرض انه لم ينفق مليما واحدا منها على نفسه..

ومع انه كان قد اتفق مع «حسب الله» على ما يقولانه تبريرا لوجودهما معا عند القبض عليهما، فإن اقوالهما فى هذا الصدد، لم تتطابق، اذ كان لدى كل منهما دوافع لا يعرفها الآخر، حتمت عليه الخروج عن النص. وكان «حسب الله» متوترا منذ واجهه المحقق بفاتورة الحلق، واستجوبه حول مظاهر ثرائه، فاندفع - بعناد لا يخلو من غباء - وراء رغبته الأنانية فى ابعاد نفسه عن كل الشبهات، وانكر كل شيء، فهو لا يعرف «نظلة» او «فردوس» أو حتى «سكينة»، ثم تنبه لسخافة ادعائه الاخير فقال وكأنه يرد على نفسه: لأ.. «سكينة» دى اخت «ريا».

والحقيقة أن أنانية «حسب الله» المفرطة، ورغبته فى انقاذ نفسه حتى لو غرق الجميع، كانت هى التى أفسدت خطط ترتيب الاقوال التى اتفق عليها معهم، ودفعتهم الى معاملته بالمثل وادت فى النهاية الى انهيار دفاعهم.

أما وقد علم - عند مثوله امام المحقق - ان جثة «فردوس» من بين الجثث التى عثر عليها، فقد كان حريصا على أن يؤكد بأنه لم يغادر مسكنه منذ زف الى زوجته الجديدة، قبل اختفاء «فردوس» بيوم، ليبتعد بذلك عن كل شبهة بأنه اشترك فى قتلها. وهو ما فرض عليه، ادخال تعديل على الرواية التى كان قد اتفق عليها مع «عبد العال» تبريرا لوجودهما معا ساعة القبض عليهما.. فقال انه هو الذى زاره من دون دعوة، لكى يبلغه بأن هناك فرصة عمل تصلح له فى محلج القبارى الذى يشتغل فيه. لكن «عبد العال» الذى كان حريصا على التأكيد بأنه قطع صلته بزوجته السابقة وكل اقاربها، تمسك بأنهما التقيا صدفة على المقهى. مما اضطر «حسب الله» - عند مواجهته بذلك - الى ادخال تعديل على اقواله، لكى يوفق بين الروايتين، فقال انه رآه صدفة يجلس فى أحد المقاهى القريبة من مسكنه، فدعاه الى زيارته.

ولان «زنوبة بنت هلال» - زوجة «حسب الله» - لم تحط علما بذلك التعديل، فقد تمسكت بالنص الذى كان قد اتفق عليه معها، فأنكرت ان زوجها قد غادر البيت، أو ان الرجلين قد جاءا معا من الخارج، وقالت بأنها كانت تتعشى مع زوجها حين طرق الباب ودخل «محمد عبد العال» الذى لم تكن قد رأته قبل ذلك.

ولم تكن حصيلة الجلسة الأولى من التحقيق قليلة، فقد استمع المحقق - على امتداد عشر ساعات - الى اقوال اثنى عشر شخصا، بينهم اربعة سيصبحون، بعد قليل، من المتهمين هم - «ريا» و«حسب الله» و«عبد العال» و«عرابى» - وثلاثة من أقاربهم - هم «بديعة» ابنة «ريا»، و«زينب ام مصطفى» امها، و«زنوبة بنت هلال» زوجة «حسب الله» الجديدة - وواحدة من اهالى الضحايا - هى «خديجة السودانية» والدة «فردوس» - واربعة من جيران «ريا».

وفضلا عن ان المحقق، كان قد نجح فى خلخلة دفاع المتهمين، وفضح كثير من التناقضات فى اقوالهم، وكشف عن اصطناعها - فقد عثر - كذلك - على ادلة وقرائن، لا تدعو فحسب للاسترابة فيهم، كمظاهر الثراء التى بدت على «حسب الله» و«عبد العال»، بل وتؤكد أن لبعضهم صلة مباشرة بالجثث، كالعثور على فانلة «فردوس» فى بيت «عبد العال».

ومع ان تلك الحصيلة لم تكن كافية لحسم الامر، أو لتحديد مراكز المتهمين بشكل دقيق، فقد كانت مبررا لكى يتخذ «محمد بك حافظ»، قرارا بالقبض على خمسة من المتهمين - هم «ريا» و«حسب الله» و«عبد العال» و«عرابى» و«احمد الجدر» - وحبس كل منهم، حبسا انفراديا لمدة اربعة ايام على ذمة التحقيق. وبإضافة هؤلاء، الى السبعة الذين قرر «محمد كامل ابو ستيت» القبض عليهم فى اعقاب التحقيق مع «سكينة» ارتفع عدد المقبوض عليهم، الى اثنى عشر متهما، بينهم اربع نساء..



كانت الساعة، قد بلغت السادسة من صباح يوم الاربعاء ١٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، عندما انتهى «محمد بك حافظ» من جلسة التحقيق الأولى، واصطحب اليوزباشى «ابراهيم حمدى» - نائب المأمور - الى حجرة «ريا» فعاين الجثث التى كان قد كشف عنها حتى ذلك الحين.. وأمر قبل ان ينصرف بنقل الجثث التى تم العثور عليها الى المستشفى لفحصها وعرضها على اهالى الغائبات، وبمواصلة عملية الحفر التى كانت قد توقفت فى الليلة السابقة، بسبب حلول الظلام واشتداد الرائحة.

وفضلا عن ان الظلام الحالك، كان - كالعادة - يطبق على غرفة «ريا»، فقد اعتذر الجنود الذين قاموا بالحفر فى الليلة السابقة عن مواصلة العمل، بسبب عجزهم عن تحمل الروائح الكريهة. ولمواجهة ذلك أمر نائب المأمور باستحضار عدد من الفوانيس الكبيرة، لاضاءة مسرح العمليات، وباستئجار سبعة من العاطلين، لم يوافقوا على العمل الا بعد ان زود الشيخ «محمد عمر» - شيخ حارة كوم بكير والمشرف المباشر على الحفر - بزجاجة صغيرة من محلول النوشادر، ليضع نقاطا منها، بين الحين والآخر، على مناديلهم، التى حولوها الى كمامات، احاطو بها انوفهم، ليخففوا من اثر الرائحة.

وفى التاسعة والنصف، وبعد قليل من بداية الحفر، داس أحد العمال الذين كانوا يقومون بنقل الاتربة المتخلفة عنه الى خارج المنزل، على جسم معدنى على عتبة باب غرفة «ريا»، فانحنى على الأرض، واخذ يتحسس باصابعه طبقة من الاتربة التى تتسرب منه ومن زملائه اثناء العمل، الى ان وجد خاتما نحاسيا مربوطا بفتلة، فسلمه الى شيخ الحارة الذى احتفظ به، الى ان جاء اليوزباشى «ابراهيم حمدى» ليشرف على نقل الجثث الثلاث الاولى الى المستشفى الاميرى، فقدمه اليه، وكانت دهشة نائب المأمور شديدة، حين قرأه فوجده باسم «حسب الله سعيد مرعى».

ولم يكن هناك شك لدى الذين شاهدوا هذه الجثث الثلاث، ممن يعرفون «فردوس» أو رأوا صورتها الفوتوغرافية فى أن الحديثة منها، هى جثتها. فضلا عن أن امها كانت قد تعرفت عليها بعد قليل من اخراجها، فقد ظلت تحتفظ بجانب من ملامحها حتى بعد ان نقلت الى المستشفى. واكدت الممرضات اللواتى تعملن فى غرفة التشريح ذلك، عندما عرض عليهن المحقق صورتها الفوتوغرافية. إلا ان هيئتها كانت قد تغيرت تماما عندما قام الدكتور «وهبة نظمى» بالكشف عليها، بعد ساعات من وصولها الى المشرحة، وقد وجدها - كما جاء فى تقريره - جثة لامرأة متوسطة العمر، فى حالة تعفن رمى متقدم، ترتدى فانلة بيضاء ولباسا ابيض، ذات شعر قصير أسود ومتجعد يدل على انها ايضا كانت سوداء اللون او حبشية، مفتوحة الفم،، وقد انزوى لسانها الى داخله، ووجد أحد أسنانها - وهو القاطع الجانبى الأيمن - مكسوا بالذهب. يحيط بعنقها برقع من شاش حرير اسود. ووجد على ظهر جلد اليد اليمنى - الذى لم يكن قد تحلل بعد - وشم بشكل ترس وحوله عدة نقاط، قالت امها - فيما بعد - انها كانت قد دقته على كفها، علاجا لآلام كانت تعاودها بين الحين والآخر، بسبب وقوعها عليها. ووجد الطبيب آثار طعام مهضوم فى معدتها، قام بأخذ عينة منه، وارسلها الى معامل وزارة الصحة لتحليلها، بحثا عن اثار سموم او مخدرات او مسكرات. وجزم بأنها قتلت بعد ثلاث ساعات من تناول الطعام، وقبل خمسة او ستة ايام من تاريخ الفحص، وهى شواهد تتفق مع ظروف اختفاء «فردوس».

وكانت الجثة الثانية عبارة عن هيكل عظمى أكثره مغطى بانسجة رخوة وجافة، وخاصة عند الصدر والبطن، وهى لامرأة ذات شعر طويل، يكسو الذهب القاطع الأيمن من اسنان فكها العلوى. كما لاحظ الطبيب وجود تسوس فى الضرس الاخير من هذا الفك، وقدر الزمن الذى مضى على وفاتها بأكثر من ستة اشهر. وقد تعرفت عليها «زينب بنت حسن» - «والدة نظلة ابو الليل» - وقالت انها لابنتها التى كانت قد خلعت احدى اسنان الفك العلوى واستبدلتها بأخرى ذهبية كما كانت تعانى من آلام مستمرة فى ضرس بنفس الفك..

فى الواحدة ظهرا، عاد اليوزباشى

«ابراهيم حمدى» من المستشفى الى حارة «على بك الكبير» ليجد الملازم ثانى «عبد الغفار احمد» . الذى كان مكلفا بالاشراف على الحفر . يقف امام باب البيت، بعد ان عجز عن تحمل الرائحة.

واثناء استماعه الى تقرير موجز منه، اعلن الحفارون الذين كانوا يواصلون العمل فى غرفة «ريا» تحت ملاحظة الجاويش «ابراهيم نصير»، عن ظهور جثة رابعة، فأصدر اليهم نائب المأمور تعليمات بالعمل ببطء وبحرص لاخلاء ما عليها وما يحيط بها من اتربة، حتى لا تتفتت. وبعد اكثر من ساعة اخرى، اتضح للجميع انهم امام طبقة اخرى من المقبرة، تضم سبع جثث.. وكان الجاويش «ابراهيم نصير» يتابع اخلاء التراب المحيط بثلاث منها، بينها اثنتين متشابكتين، حين برز من بينه طرف ورقة بيضاء مقواة، التقطها ليكتشف انها صورة فوتوغرافية لامرأة جالسة تقف الى جوارها طفلة صغيرة، تلتصق بها . فضلا عن الاتربة . بعض قطع من انسجة الضحايا المتحللة، فقدمها للملازم ثان «عبد الغفار محمد» الذى قام بغسلها بالماء، فإذا بالصورة تجمع بين «ريا» وابنتها «بديعة».

وكان «كامل بك عزيز» . رئيس نيابة الاسكندرية . يراجع التحقيق الذى اجراه «محمد كامل ابو ستيت» . وكيل نيابة المنشية . فى واقعة العثور على رفات جثة مدفونة فى أرض الغرفة التى كانت تسكنها الحرمة «سكينة بنت على»، والتحقيق الذى اجراه «محمد بك حافظ . وكيل نيابة اللبان» فى واقعة العثور على ثلاث جثث فى ارضية الغرفة التى تسكنها شقيقتها الحرمة «ريا بنت على»، حين دق جرس الهاتف، ليجد على الطرف الآخر، اليوزباشى «ابراهيم حمدى»، الذى ابلغه بنبأ العثور على سبع جثث أخرى، فى طابق يتلو الطابق الذى عثر فيه على الجثث الثلاث الأولى بمقبرة «حارة على بك الكبير»، واستأذنه فى أن ينقلها إلى المستشفى كما فعل بالجثث الثلاث الأولى، ولكن رئيس النيابة اعترض وكلفه بإبقائها فى مكانها، وعدم نقلها من موضعها، لحين حضوره لمشاهدتها .

ولم يعد لدى رئيس النيابة شك فى أنه أمام عصابة واحدة، تقوم بقتل النساء ودفنهن، وتضم أشخاصا على صلة وثيقة بالشقيقتين.. فقرر دمج التحقيقين فى قضية واحدة، يتولى بنفسه تحقيقها . وكان هذا هو المعنى الذى هاتف به معاونيه اللذين قاما بالتحقيق الأولى، وطلب منهما فى نهاية حديثه أن يكونا فى انتظاره بمقر قسم شرطة اللبان فى الرابعة من بعد ظهر اليوم نفسه، لكى يتدارس معهما خطة التحقيق.

وحين وصل رئيس نيابة الإسكندرية، إلى ديوان القسم فى الموعد المحدد، علم أن «محمد بك حافظ» -وكيل نيابة اللبان قد اعتذر عن الحضور لحاجته الشديدة إلى النوم، بعد ليلة مجهدة أمضاها فى التحقيق مع «ريا». فاصطحب معه وكيل نيابة المنشية «محمد كامل أبو ستيت»، ومأمور القسم الصاغ «محمد كمال نامى» -الذى كان قد قطع إجازته وعاد إلى

منزل «٩» حارة النجاة

مجسم
للمنزل
٩
بحارة
النجاة

مباشرة عمله بعد لفت رؤساؤه فى الحكمدارية نظره إلى ذلك- وتوجه الثلاثة إلى غرفة «ريا»، التى كان الحفر قد توقف فيها، بعد أن وصل إلى عمق يقترب من المتر.

ووجد «كامل بك عزيز» خمسا من الجثث السبع، قد صفت إلى جوار بعضها البعض فى أحد أركان الغرفة، بينهم جثتان تتشابك سيقانهما، بينما كانت الجثة السادسة، على بعد قليل منها، وعليها ملابس بيضاء، أما الجثة السابعة، فكان الحفارون قد أخرجوها إلى فناء المنزل. ولم يكن هناك شك فى أن الجثث جميعها لنساء، إذ كانت شعورهن الطويلة، هى الشىء المشترك بينهن جميعا .

وانتقل الجميع -بعد ذلك- إلى «بيت الجمال» بـ «حارة ماكوريس» الذى كان بابه مغلقا ومختوما بالشمع الأحمر، فى أعقاب القبض على «سكينة» مساء يوم الاثنين ١٦ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠- فأمر رئيس النيابة بإزالة الأختام، وبعد أن تفقد الغرفة، أمر -كذلك- بمواصلة الحفر فيها، بل وبحفر بقية غرف الطابق الأرضى، لاحتمال العثور على جثث أخرى فى إحداها . وكانوا فى طريق عودتهم إلى قسم الشرطة، حين جاء الصول (المساعد) «الشحات محمد» يهمس فى أذن مأمور القسم بأنه علم من تحرياته، بأن الحرمة «سكينة» وأختها «ريا» كانتا تسكنان فى حجرتان بالمنزل رقم ٨ بـ «حارة النجاة». وبعد مداولة قصيرة، اصطحب المأمور معه، نائبه، وتوجها إلى المنزل، وبعد أن سأل بعض الجيران وتعرف من خلال أقوالهم على الغرفة التى كانت «ريا» تستأجرها، وتستخدم كمحششة، دخلها، واستأذن من ساكنتها، وأمرها بنقل محتوياتها إلى خارج البيت، ثم أحضر عددا من العمال، وكلفهم بمواصلة الحفر تحت الصندرة بعد أن أدرك -بحاسته الشرطية- أن العصابة لديها من المبررات ما يدفعها لدفن ضحاياهم فى مثل هذا المكان، وتركهم يعملون تحت إشراف نائبه اليوزباشى «إبراهيم حمدى»..

وكان يتحدث مع رئيس النيابة، حول مجريات التحقيق، حيث عاد نائب المأمور إلى ديوان القسم -بعد ساعة- ليقول بأن الحفارين قد عثروا- فى أرضية غرفة المحششة على جثتين لامرأتين أخرتين.

وبهذا أضيفت غرفة المحششة - بالطابق الارضى من المنزل رقم ٩ بـ «حارة النجاة» - إلى الأماكن التى أمر رئيس النيابة «بمواصلة الحفر فيها بكل عناية ودقة، وتحت إشراف ضباط البوليس، وبمنع الدخول إليها اثناء الحفر، أو تغيير شىء من معالم الجثث التى يتم العثور عليها» إلى أن يصل- من القاهرة- الطبيب الشرعى الأول - الذى أرسل إليه برقية يطلب فيها منه الحضور إلى الاسكندرية فى أول قطار - فيقوم بفحصها فى أماكن الكشف عنها.

وفى تلك الاثناء وصل «محمد بك حافظ» - وكيل نيابة اللبان - إلى ديوان القسم، ليجد فى انتظاره سبعة شهود، كان قد طلب استدعاءهم ليستكمل البحث فى

حقيقة إدعاء «ريا» و«حسب الله» بأنهما مطلقان، فضلا عن رئيس النيابة «كامل بك عزيز» الذى اجتمع به على انفراد بمجرد وصوله، واستعرض معه التحقيقات التى أجراها فى الليلة السابقة. ثم رأى أن يتركه لكى يستوفى النقاط التى ما تزال غامضة فى تحقيقه، ويستمع إلى الشهود الذين طلبهم لهذه الغاية، على أن يتسلم منه التحقيق فى قضية «ريا» فى اليوم التالى، ليضمه إلى التحقيق فى قضية «سكينة» - الذى كان قد تسلمه بالفعل - فيتولى تحقيقهما معا...

ومع أن الشرطة كانت قد نجحت فى العثور على أربعة من جيران «ريا» فى بيت «أم حسين» بـ «حارة على بك الكبير» ممن كانوا قد هربوا من المنزل فرارا من رائحة التعفن - إلا أن أقوالهم، لم تفد المحقق بشىء. إذ كانوا من ذلك النمط الشائع بين الفئات الشعبية الذين يعزفون عن اقحام انفسهم فى الأمور التى تكون الشرطة طرفا فيها، حتى لا يطولهم من ذلك رذاذ يسىء إليهم. ومع أن شبهات الشرطة التى طالت جيران «سكينة» لم تكن قد طالت جيران «ريا» إلا أن القبض على الأولين، قد ألقى بظله القوى على أقوال الجيران الأربعة، فدفعهم الخوف إلى انكار علمهم بشىء: فهم يخرجون من البيت فى الصباح المبكر، ويعودون إليه فى المساء المتأخر، فلا يلتقون بأحد من الجيران. وهم لا يعرفون بعضهم البعض، ولا يعرفون «ريا» أو «حسب الله». وغاية ما يعرفه أكثرهم علما بأحوال البيت، هو أن هناك امرأة تسكن بالغرفة الداخلية من الطابق الارضى، لا يعرفون اسمها أو شيئا عن أحوالها.

ولم تبدد شهادة الصائغ «على محمد» - الذى لم تكن حقيقة علاقته بالعصابة قد تكشفت بعد - إلا القليل من الغموض الذى كان مايزال يحيط بطبيعة العلاقة بين «ريا» و«حسب الله»، إذ اعتذر بأنه يبيع ويشترى كثيرا، فلا يستطيع أن يتذكر اسماء أو وجوه الذين يتعامل معهم، بما فى ذلك «حسب الله» - الذى عرضه عليه المحقق فقال إنه لا يعرفه - ولكن طالما أنه يحمل فواتير صادرة عن محله، فلابد وأنه اشترى منه. وأضاف أن الفواتير لا يمكن أن تصدر باسم أحد آخر غير المشترى، ونفى أن تكون «ريا» - التى عرضت عليه فنفى معرفته بها - قد اشترت حلق الفوازى، واستصدرت الفاتورة باسم آخر غير اسمها، وطالما أن الفاتورة باسم «حسب الله» فلابد وأنه هو الذى اشترى الحلق بنفسه، ودفع ثمنه.

ولكن اثنين من الجيران، هما «عوف» العجوز وزوجته «فاطمة» - اللذين يتخذان من الرصيف المقابل لمنزل «أم حسين» محلا لبيع القصب وحلويات الأطفال - خرجا عن القاعدة التى اتبعها الباقون، فشهدا بأن العلاقة الزوجية بين «حسب الله» و«ريا» ما تزال قائمة، وبأنهما يقيمان معا فى الغرفة منذ سكنا به. ووصف «عوف» العجوز، ادعاء «حسب الله» بأنه لم يسكن بالبيت، أو يتردد عليه يوما، بأنه كذب فى كذب. وقال إنه كان يلقى عليه

تحية الصباح والمساء فى خروجه وعودته طوال الشهور السابقة، وأنه لم ينقطع عن التردد على البيت إلا منذ يومين فقط... كما كذب ادعاء «محمد عبد العال» بأنه لا يعرف بيت «ريا» أو يتردد عليه، وقال إنه يعرفه بصفته زوجا لـ «سكينة» شقيقة «ريا» وأنه رآه كثيرا يدخل المنزل سواء بصحبة زوجته أو عديله.

ومع أن الزوجين العجوزين، قد نفيا معرفتهما بـ «عرابى» و«أحمد الجدر» أو رؤيتهما لهما يدخلان البيت سواء وحدهما أو بصحبة نساء، إلا أنهما كشفا الستار عن حقيقة هامة، خلخلت ركنا اساسيا من أركان دفاع المتهمين الثلاثة، إذ ذكر «عوف» العجوز أنه رأى «محمد عبد العال» وهو يدخل منزل «ريا» منذ ثلاثة أيام فقط - أى فى يوم الاثنين الذى ضبطت «سكينة» فى مسائه - وأيدته زوجته، التى أضافت أن «عبد العال» مر، فى اليوم التالى - كذلك - وسألها عن «حسب الله» ثم دخل إلى المنزل، وغاب قليلا وخرج الاثنان بعد ذلك معا...

وهكذا اضطر «عبد العال» ـ بعد مواجهته بهما ـ إلى إدخال تعديل طفيف على أقواله، لكى تتسق مع اقوالهما. فاعترف بأن «حسب الله» كان يقيم مع «ريا» فى بيت «أم حسين»، وبأنه كان يتردد عليه فيه، إلى أن سافر إلى قريته قبل خمسة شهور، وبأنه بعد عودته إلى الاسكندرية ـ الذى تلاعب للمرة الثانية فى تاريخها فجعلها منذ عشرة أيام فقط، قد مر عليه بهذا البيت مرتين، احداهما فى يوم الاحد، فالتقى به وهو فى طريقه إلى الخروج، وغادرا البيت معا، والثانية فى يوم الثلاثاء - وقبل ساعات من القبض على «ريا» - فلم يجده هناك. وفى تبريره لسبب هاتين الزيارتين، قال بأن «حسب الله» كان قد دعاه ليزوره فى بيت زوجته الجديدة، وضرب له موعدا على مقهى قريب من «باب سدرة» ولما تأخر عن الموعد المتفق عليه ظن أنه قد يجده فى منزل زوجته الأولى، فلما لم يجده عاد إلى المقهى، فوجده فى انتظاره ليصحبه إلى منزل «زنوبة».

وأدركت «ريا» الضرورة التى دفعت «عبد العال» لتغيير أقواله. ولم تجد فائدة من وراء انكار وقائع كانت تعلم أن «عوف» العجوز وزوجته، ليسا الشاهدين الوحيدين عليها، فاضطرت إلى الاقرار بجانب من الحقيقة، واعترفت بأن زوجها - على الرغم من طلاقهما - كان يتردد عليها فى بيت «أم حسين» بشكل شبه منتظم، بل إنه يتناول طعامه عندها، ولكن لا يبيت بالمنزل، إذ كان يبيت فى منزل «زنوبة» حتى قبل زواجه منها. وأقرت بأنه قد زارها فى يوم الأحد السابق، لكى يطمئن على ابنته، وأنه اعطاها خمسة قروش، وأن جارتها وصديقتها «أم رجب» رأته عندها يومذاك..

لكن «حسب الله» - الذى كان أقل مرونة، وأقل ذكاء - لم يتنبه مثلهما إلى اهمية تعديل أقواله لتستقيم مع أقوال الشهود، وتنسجم مع أقوال شركائه، وأصر على أنه لم يدخل فى حياته بيت «أم

حسين». ولجأ إلى اسلوب ساذج لتفنيد أقوال الاخرين، باتهام الشهود بالتحامل عليه، فقال بأن عوف العجوز وزوجته قد انحازا إلى «ريا» عندما اختلف معها وطلقها. واتهم «عبد العال» بأنه مغتاظ منه، بسبب خلاف قديم بينهما.

مما اضطر المحقق لمواجهته بدليل آخر على أنه ما يزال يتردد على البيت... هو العثور على الختم الخاص به فى غرفة «ريا». فلم يجد ما يبرر به ذلك، إلا الزعم بأنها قد احتجزت الختم لديها مع ملابسه على سبيل الكيد له بعد أن طلقها منذ سبعة شهور. ولما سئل عن الختم الذى بصم به على وثيقة زواجه من «زنوبة» قبل أقل من ثلاثة أسابيع، ارتبك وتخبط، وألف قصة غير محبوكة، خلاصتها أنه التقى بـ«ريا» عند «وابور النور» - القريب من المنزل - واسترد منها الختم بدعوى أنه يريده لأمور تتعلق بعمله، ثم أعاده إليها بعد أن بصم به على وثيقة الزواج، فقال له المحقق الذى كان يعلم أنه يكذب:

- وما رأيك إذا حضرت «ريا» الآن... وكذبتك؟.

فرد على الفور:

- تبقى مغتاظة منى عشان طلقتها واتجوزت عليها.

وحدث ما توقعه المحقق، إذ ما كاد يواجه كلا منهما بالآخر، حتى كذبت «ريا» قصة احتجازها للختم، التى بدت لها سخيفة وغير قابلة للتصديق، فقالت له بلهجة لا تخلو من سخرية:

- أحوش ختمك ليه... هوا أنا ح أختمك ع الابعادية؟.

وحاولت أن توحى إليه من طرف خفى بأن هناك شهودا آخرين قد رأوه عندها يوم الاحد، وأن من الحماقة أن ينكر ذلك.. فقالت له:

- انت كنت عندى يوم الاحد ساعة «أم رجب» ما سلمت عليك.

فاستجاب لايحائها، واعترف بأنه قد زارها بالفعل فى ذلك اليوم، ويبدو أنه عاد فشك فى أن «ريا» تتواطأ عليه، لكى يعترف بما يسىء إلى موقفه، إذ ما كاد المحقق يسأله عن سبب تلك الزيارة، حتى تراجع على الفور، وأنكر الواقعة، حتى بعد أن نبهه المحقق إلى أن «أم رجب» قد رأته، بل قال:

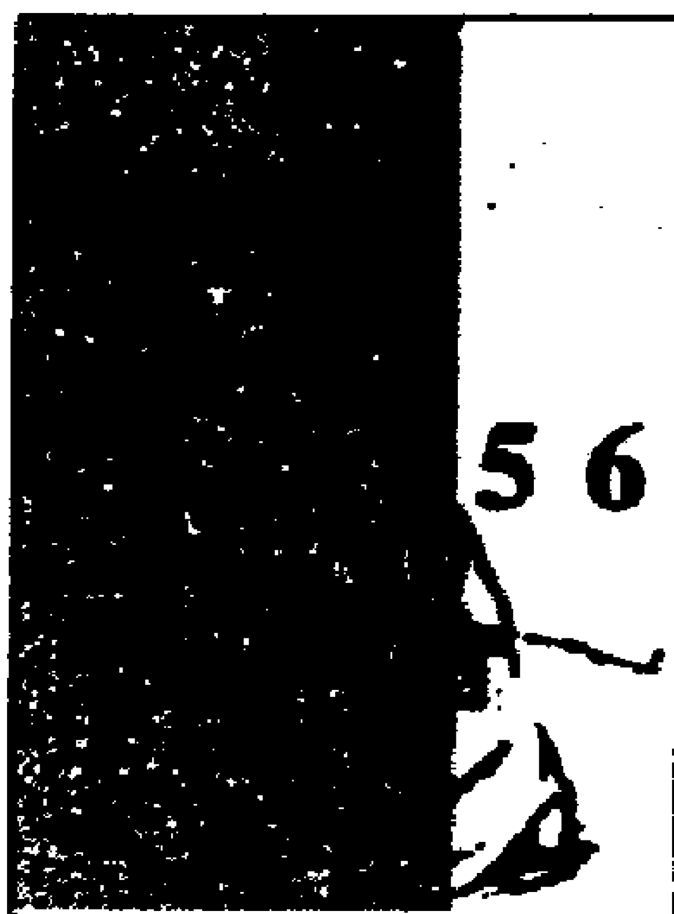
- لما تشهد «أم رجب» إنى زرتها... يبقى أمرى لله... ومطرح ما تودونى... ودونى.

ولم يترك له المحقق فرصة لكى يشعر بالنجاة، بل قال له ملخصا موقفه التعيس:

- مفيش فايدة من الكذب يا «حسب الله»... «عوف» وزوجته و«عبد العال» شهدوا بأنك ما تزال تقيم مع «ريا» وختمك وجد بمنزلها، واشتريت لها حلق باسمك من شهر... وهذه كلها دلائل تشير بصفة قاطعة إلى أنك مقيم معها فى منزلها فالافضل أن تقول الحقيقة.

ورد «حسب الله» بعناد:

- ما عنديش كلام خلاف اللى قلته.



ولأن ثقة كل منهم بالآخرين لم تكن تقوم على تقديره لما يتمتعون به من أخلاق حميدة، بل على



صورة ريا مع ابنتها التى عثر عليها الحفارون بين الجثث لتكون دليلا علي أن القتل حدث أثناء سكنها بالحجرة

إدراكـه بأن أحـدا منهم لا يسـتطيع أن يكشف سـرهم المشـترك، إذ سيكون أول المتضررين من ذلك الكشف، فإن السر ما كاد يفتضح بالمصادفة حتى انهدم أساس تلك الثقـة، واختل «ميـزان الرعب» الذى كـانت تقـوم عليـه، وقـدر كل منهم أن كل واحد من الاخرين، سنيسعى لكى يبحث لنفسه عن منفذ يمهد له سبيل الهرب من أدلة الاتهـام التى تطبق على عنقـه... وصحيح أن «حسب الله» كان أكثر الجميع خوفا وأنانية وشكا، واسبقهم إلى محاولة انقاذ نفسه على حسابهم جميعا، إلا أنه لم يكن الوحـيـد الذى بدأ فى هذا الوقت المبكر، يشك فى دوافع الآخـرين، إذ مـا لبثت هذه الشكوك أن انتقلت إليهم واحدا بعد الآخر.....

ولابد أن ضبـاط الشـرطة الذين كـانوا يشـتركون فى جمع الأدلة، وعلى رأسـهم الصـاغ ـ الرائد ـ «محمد كمـال نامى» ـ مأمور قسم شرطة اللبان ـ قد أدركوا منذ تكشفت أمامهم الخطوط العامة للجرائم، أنهم امام عصابة محدودة العدد، ومغلقة على نفسهـا، وأن المنفذ الوحيد أمامهم للكشف عن اعضائها، ومعرفة أسرارها، هما الشقيقتان «ريا» و«سكينة»، فاستغلوا موقفهما القانونى الصعب باعتبارهما الوحيدتين بين أفراد العصابة اللتين عثرت الشرطة حتى ذلك الحين، على دلائل كافية لادانتهمـا، وكثفـوا ضغـوطهم النفسيـة عليهمـا، لتشكيك كل منهمـا فى الأخـرى، والتلويح لهما بأنهم واثقون بأن كلا منهما، يستحيل أن تكون قد قتلت ودفنت بنفسها، وأن الذين قاموا بذلك لابد وأن يكونوا عدة رجال، وبأن اعترافهما على شركائهما الآخرين من الرجال، سوف يحدد نطاق مسؤوليتهما ويخفف عنهما العقاب، وأنه ليس من العدل أن تتحملا وحدهما عقوبة عمل كان دورهما فيه هامشيا... لارباكهما نفسيا ودفعهما دفعا للافصاح عما تعرفانه عن أفـراد العصابة وأسمـاء الضحـايا.. وظروف عمليات القتل.

ولأن «ريا» كانت ـ من الناحية النفسية ـ أكثـر هشاشة من «سكينة»، كمـا كـانت رغبتها فى النجاة من حبل المشنقة أقوى، إن لم يكن من أجل نفسهـا، فمن أجل ابنتها، فضلا عن أن موقفها القانونى، كان اسوأ من موقف شقيقتها بعد العثور على عشر جثث فى أرضية غرفتها، فقد وجد فيها رجال الشرطة تربة صالحة لكى تنبت فيهـا بذور الشك، والغـالب أنهم كـانوا مصدر الشائعة التى زعمت بأن «سكينة» قد اعـترفت عليهـا، مما جعلهـا تندفع فتعترف لهم بأمر المقبرة التى تقع تحت صندرتها.

ومن المؤكد أنهم قد ساقوا إليها خبر افتضاح أمر المقبرة التى عثروا عليها فى غرفـة المحشـة ـ وكـانت تستأجرها باسمها ـ على نحو دفعها للشك من جديد فى أن شقـيقـتهـا «سكينة» أو شريكتها السابقة «أم أحمد النص» هما اللتان قادتا الشـرطة إلى الكشف الجـديد، وأنهـمـا تعمـلان على تكثيف أدلة الاتهام ضدها، فقررت أن تقحمهما فى الاتهام، وأن ترد إليهما الصاع صاعين...

وهكذا ما كاد «محمد بك حافظ» - وكيل نيابة اللبان - يواجه «ريا» فى تلك الليلة بخبر العثور، على سبع جثث أخرى، فى طبقة ثانية من المقبرة التى كشف عنها فى غرفتها بمنزل «أم حسين» بـ «حارة على بك الكبير»، ويسألها - لمجرد استيفاء التحقيق - تفسيرا لوجودها، حتى بدأت تبث الطبعة الثانية من اعترافاتها، التى لم تختلف - من حيث المنهج - عن الطبعة الأولى - فهى - وزوجها - ليسا مسؤولين عن وجود الجثث فى غرفتهما، ولكن المسؤولين عن ذلك هم نساء أخريات، ورجال آخرون....

وانطلاقا من ذلك، ذكرت بأنها كانت قد اشتركت - منذ شهور - مع شقيقتها «سكينة» ومع حرمة تدعى «أم أحمد النص» - زوجة «محمد على القدوسى» الشهير بـ «أبو أحمد النص» - فى إدارة بيت للبغاء ومحششة، بمنزل يقع بـ«حارة النجاة» وكانت تمضى معظم أوقات النهار فى ذلك البيت... ولا تعود إلى منزلها الحر بـ «حارة على بك الكبير» إلا فى وقت متأخر من الليل... وخلال تلك الفترة، كانت شقيقتها «سكينة» وشريكتها «أم أحمد النص» تستعيران منها مفتاح منزلها الحر، لكى تصطحبا إليه بعض الفتيات يختلين فيه ببعض الرجال ثم يختفين بعد ذلك، ولا يظهر لهن أثر... وفى هذا السياق رصدت واقعتين:

الواقعة الاولى: حدثت منذ خمسة شهور - أى فى حوالى شهر يونيو (حزيران) ١٩٢٠ - إذ اصطحبت «سكينة» و« أم أحمد» فتاة من المومسات اللواتى كن يعملن بـ «بيت حارة النجاة» تدعى «خديجة» كانت تتزين بستة غوايش من الذهب وحلق من المعدن المطلى بالذهب، إلى بيت «ريا» الحر، لكى تختلى فيه بنجار يدعى «عبد الله الكوبجى». وبعد عدة ساعات، عاد الثلاثة من دون «خديجة»، ولما سألتهم عنها قالوا بإنها انصرفت إلى منزلها. ولأن الفتاة كانت قد تعودت على التردد بشكل منتظم ويومى، على«بيت حارة النجاة»، فقد استرابت فى اختفائها منذ ذلك اليوم، فألحت فى سؤالهم عنها إلى أن قالوا لها بأنها ربما تكون قد وجدت عملا فى بيت آخر.

الواقعة الثانية: حدثت بعد ذلك التاريخ بشهرين - أى حوالى شهر اغسطس (آب) ١٩٢٠ - إذ كانت تمر بـ «خمارة جورجى» ذات ضحى، فوجدت «عبد الله الكوبجى» يجلس بالخمارة، فدعاها إلى احتساء كأس من الكونياك على حسابه. وبينما هى تجلس معه، دخلت «عائشة عبد المجيد»- مقطورة شقيقتها «سكينة» - وبصحبتها مومس من المتعاملات مع البيت، اسمها «هانم» - كانت تتزين بخاتم وحلق ودبلة من الذهب وخلخال من الفضة - وبعد قليل، أبدى «الكوبجى» رغبته بأن ينفرد بـ «هانم» فى حجرة «ريا» بـ «حارة على بك الكبير». فأعطت المفتاح لـ «عائشة» وكلفتها بأن تصطحبهما إلى هناك، على أن تقوم بغسيل ملابسها وملابس ابنتها «بديعة» اثناء الفترة التى يختلى فيها «الكوبجى» بـ «خديجة». وبعد ساعات، ضاقت

بانتظارهم فى الخمارة، فتوجهت إلى المنزل، فالتقت فى الطريق بـ«عائشة» التى اعطتها المفتاح. ومنذ ذلك الحين لم تظهر «هانم» ولما سألت عنها «عائشة» قالت لها إن زوجها قد صالحها.... وعادت إليه... واعتزلت المهنة.

ويبدو أن خيال «ريا» لم يسعفها لتأليف مزيد من الوقائع لتبرير وجود بقية الجثث فى غرفتها، فتوقفت عن الحديث فجأة، مما جعل المحقق يسألها:

- وجدت بمنزلك عشر جثث... بينما لم تقولى لنا - أمس واليوم- إلا عن اسماء صاحبات خمس جثث... فمن هن صاحبات الجثث الخمس الأخرى؟.

وحتى لا تترك «ريا» أمام المحقق فرصة لتفسير أقوالها على غير ما قصدته منها، قالت:

- أنا لا أعرف غير دول... يجوز أختى «سكينة» أخذت ناس وراحت بيهم البيت من غير ما اعرف.

ثم استطردت - من دون سؤال - فى رواية الواقعة الثالثة التى أرادت منها أن تكثف الاتهام ضد «أم أحمد النص» فقالت إنه حدث منذ شهر واحد - أى فى اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٠ - أن شخصا زعمت أن اسمه «ابراهيم» أحضر فتاة تدعى «أنيسة» وأراد أن يختلى بها فى الغرفة المخصصة لذلك، بمنزلها بـ «حارة النجاة». ولأن الغرفة كانت مشغولة بزبائن آخرين، فقد عرضت عليه «أم أحمد» أن يستأجر غرفتها بالمنزل المقابل له، وذهبت معهما.

وغاب الثلاثة وقتا طويلا، عادت بعده «أم أحمد النص» وحدها... ولم تخرج «أنيسة» من المنزل، بل واختفت تماما منذ ذلك الحين.....

ولم تكن الوقائع الثلاث صحيحة، ولكنها لم تكن - كذلك - مختلقة بالكامل... إذ كانت كل واحدة منها، تتركب من مجموعة من الوقائع التفصيلية التى حدثت بالفعل، انتزعت «ريا» كلا منها، من سياقها ومن زمنها، وأضافتها إلى غيرها، لتتركب منها واقعة جديدة، كاذبة من الأساس:

فقد حدث فعلا أن اصطحبت «أم أحمد» ذات يوم «عبد الله الكويجى» إلى بيت «ريا» الحر، لكى يختلى هناك بامرأة. ولكنها انصرفت بعد أن قادتهما إلى البيت، وانصرف هو بعد الخلوة، وترك المرأة مع «ريا» التى احتالت عليها لتبقى معها بعض الوقت إلى أن جاء بقية أفراد العصابة فقتلوها.

وحدث فعلا أنه ذهب مرة أخرى إلى البيت بصحبة «عائشة عبد المجيد» ليختلى هناك بفتاة صغيرة اسمها «هانم»، ثبت فيما بعد أنها ما تزال على قيد الحياة، لكن «ريا» اختارت اسمها لتمنحه لاحدى الجثث التى عثر عليها فى مقبرتها. واضافت إلى واقعة قيام «عائشة» بغسل ملابسها، التى حدثت فى يوم آخر، لم يذهب فيه «الكويجى» ولم تقتل العصابة فيه أحدا، لتضفى عليه مصداقية، ولتجد شاهدا يشهد على صحتها، هى جارتها وصديقتها «أم رجب» التى رأت «عائشة»

رسم
مجسم
لبيت
ريا
بشارع
علي
بك
الكبير

الصندرة حيث يتم تحتها دفن جثث الضحايا
غرفة ريا
سلم داخلي
غرفة
غرفة
غرفة
صالة
ممر
دورة مياه
سلم خارجي يؤدي للطوابق العليا
غرفتان خارجيتان على واجهة البيت
باب
نافذة
نافذة
مدخل
حارة علي بك الكبير

رسم تخطيطي للطابق الأرضي من المنزل رقم ٣٨ بحارة علي بك الكبير الذي كانت ريا تقيم مع حسب الله في إحدى حجرات الطابق الأرضي منه منذ نوفمبر ١٩١٨. وفي تلك الحجرة ١٢ جريمة قتل.. وتم دفن الضحايا في أرض الغرفة نفسها.. الرسم قام بإعداده أحد مهندسي بلدية الإسكندرية بناء على تكليف من النيابة العامة.

ذات يوم وهى تغسل الملابس فى فناء المنزل.

وصحيح أن «أنيسة» قد دخلت بيت «أم أحمد النص»، واختلت فيه برجل، ولكن الرجل لم يكن اسمه «ابراهيم» بل «عبد الرازق يوسف» - أحد أركان العصابة - ثم إنها خرجت حية فى ذلك اليوم لتقتل بعد ذلك فى بيت «ريا». أما التى دخلت بيت «أم أحمد» ولم تخرج، قبل ذلك التاريخ بأربعة أشهر، فكانت «زنوبة بنت جمعة» زوجة الحاج «حسين على وفيق» الزيات بـ «سوق العامود».

ولابد أن المحقق قد أعجب بقدرة «ريا» الفذة - وهى امرأة أمية وبلا خبرة - على أن تخلط مجموعة من الحقائق لكى تصنع منها أكذوبة... ولأنه كان قد بدأ يكتشف أسلوبها فى الدفاع، فإنه لم يناقشها فى أكاذيبها الثلاث، التى كانت مليئة بالتناقض بل توقف عند خطوطها العامة، واستدعى «حسب الله» لكى يسأله عن معلوماته عن بيت «حارة النجاة».

ولأنه لم يكن يقيم فى هذا البيت، ولعله لم يكن يعرف بعد بخبر الجثة التى عثر عليها قبل ساعتين فقط فى أرضية غرفة المحششة، فقد اعترف ببساطة أن «سكينة» و«محمد عبد العال» هما أول من سكن بذلك البيت فى غرفة كانا يستأجرانها من باطن «أم أحمد النص»، وأن «ريا» قد لحقت بهما بعد ذلك، أما هو فلم يكن يتردد عليه، إلا لكى يدخل المحششة التى كان يديرها «محمود أبو زكاك»... اعترض «عبد العال» الذى جرى الاستجواب بحضوره قائلا:

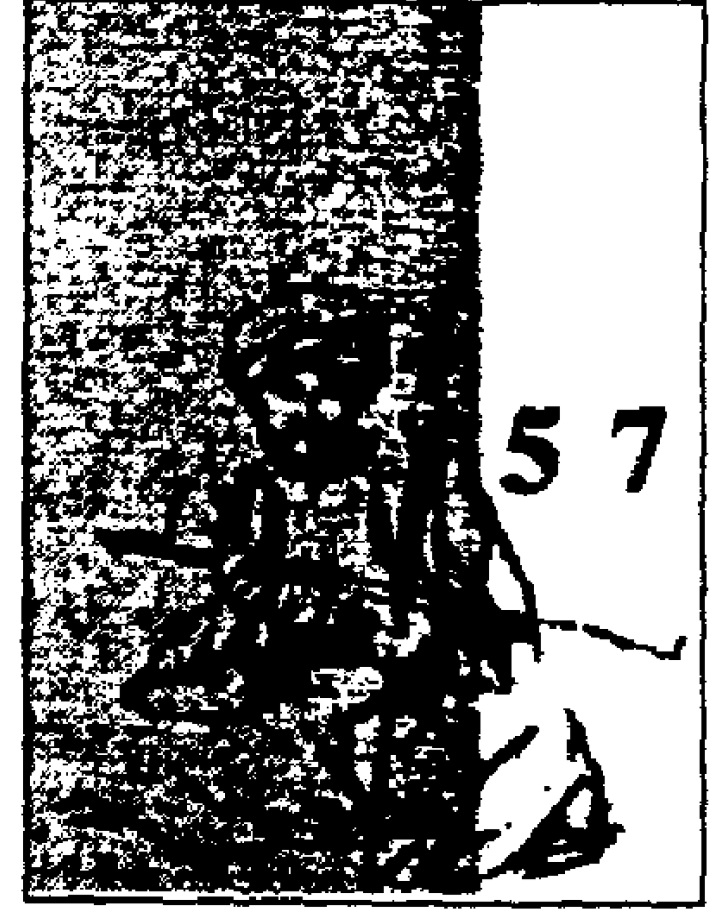
- لأ... أنا ماكنتش ساكن هناك..

ولأن «حسب الله» كان ما يزال يذكر اعتراف «عبد العال» عليه، وتأكيده بأنه كان يسكن مع «ريا» فى بيت «أم حسين» فقد رد عليه قائلا بعصبية وتشف:

- لأ... أنت كنت ساكن هناك...

وفى ختام التحقيق - الذى استمر خمس ساعات وانتهى بعد منتصف الليل بنصف ساعة - أمر المحقق بضبط واحضار ستة اشخاص، هم: «أم أحمد النص» وزوجها «أبو أحمد النص» و «عبد الله الكوبجى». وقد نص الامر بالنسبة لثلاثتهم - كذلك - على حفر أرضية المنازل التى يسكنون بها. أما الثلاثة الآخرون فهم: «محمود الزكاك» و«عائشة» و«ابراهيم». وقد نص الامر بالنسبة للجميع على تفتيشهم تفتيشا دقيقا، وضبط ما يوجد بها من ملابس ومصوغات ونقود.

وفى الساعة الاولى من صباح يوم الخميس ١٨ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩٢٠، نجح اليوزباشى «ابراهيم حمدى» فى الاستدلال على منازل الاربعة الاول، وقام بتفتيشها تفتيشا دقيقا، ولما لم يجد بها ما يفيد التحقيق، اكتفى بالقاء القبض عليهم وساقهم إلى ديوان القسم، أما الاثنان الآخران - «عائشة» و«ابراهيم» - فإنه لم يستطع التوصل إليهما، إذ لم تكن «ريا» قد ذكرت لقبيهما أو عنوانيهما.... فأجل تنفيذ قرار ضبطهما، وتنفيذ قرار الحفر فى المنازل الثلاثة إلى الصباح .



فى الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس ١٨ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، وصل «كامل بك عزيز» - وكيل النيابة الأول والقائم بأعمال رئيس نيابة الاسكندرية - إلى مكتبه بسراى النيابة.. وكان أول مافعله، أن اتصل هاتفياً بمكتب الطبيب الشرعى الأول الدكتور «سيدنى سميث» بالقاهرة، لكى يستفسر منه عن موعد حضوره لفحص الإثنتى عشرة جثة التى كان قد تم الكشف عنها حتى ذلك الحين. لكنه لم يجده فى مكتبه، فتحدث إلى نائبه المصرى الدكتور «عبد الحميد عمار» الذى ابلغه أن ظروف العمل بمصلحة الطب الشرعى، لا تسمح لهما بالسفر قبل يوم السبت، وأنه يفضل أن تنقل الجثث إلى المستشفى الحكومى على أن يتم ذلك بحرص يبقى عليها بحالتها لحظة الكشف عنها.

وعندما لفت رئيس النيابة نظره إلى أن معظم أجزاء تلك الجثث منفصلة عن بعضها البعض، وأنه لا يستطيع أن يضمن نقلها بحالتها، ترك له الدكتور «عمار» حرية تقدير الموقف، على أن تبقى الجثث التى لا يمكن ضمان نقلها سليمة فى أماكنها الحالية.

وفضل «كامل بك عزيز» ألاّ ينفرد وحده بتقدير الموقف، وأن يستعين فى ذلك برأى متخصص، فاتصل هاتفيا بحكيمباشى بوليس الاسكندرية - بصفته رئيس الادارة الطبية التابعة للشرطة - وشرح له الأمر، وطلب إليه أن يصحبه فى جولة بين البيوت التى عثر فيها على الجثث لكى يعاينها معه، ويشير عليه بما يمكن نقله منها، وما لابد من إبقائه فى مكانه حتى لا تتغير معالمه.

وعندما وصل رئيس النيابة إلى ديوان قسم شرطة اللبان فى الحادية عشرة وجد الحكيمباشى فى انتظاره، فضلاً عن أربعة اخرين كان قد قرر أن يصطحبهم معه لمعاينة البيوت الأربعة هم: «محمد حافظ» - وكيل النيابة الذى كان يحقق فى قضية «ريا» - و«عبد الجليل سعد» - المهندس بالبلدية - ومصور فوتوغرافى يعمل بمحل «عزيز ودوريس» - اكبر محلات التصوير بالاسكندرية - والصاغ «محمد كمال نامى» مأمور قسم شرطة اللبان..

ولأن بيت «أبو المجد» - رقم ٥ بـ «شارع ماكوريس» - كان أقرب تلك البيوت إلى قسم الشرطة، فقد بدأوا جولتهم به. وكان عدد من العمال قد استأنفوا منذ قليل الحفر بالغرفة التى كانت «سكينة» تقيم بها، بينما شرع آخرون فى حفر أرضيات بقية غرف الطابق الأرضى. وصح ما توقعه «كامل بك عزيز» عندما أمر - فى مساء اليوم السابق - بفض الأختام عن البيت، ومواصلة الحفر به، لاحتمال العثور على جثث أخرى، إذ كان ما يزال يتجول ببقية الغرف بصحبة المهندس الذى كلفه برسم تخطيط للطابق كله، يوضح به مكان العثور على الجثث، عندما أبلغه الجاويش

«ابراهيم نصير» الذى كان يتابع الحفر فى غرفة «سكينة» بالعثور على جثة ثانية فى مكان قريب من المكان الذى عثر فيه على الجثة الأولى، وعلى عمق ربع متر، فانتقل معه، إلى الغرفة، وظل يتابع الحفر إلى أن اتضحت معالم الجثة، فتأكد أنها جثة إمرأة.. ليس عليها من الملابس سوى قميص داخلى أبيض ولباس زفير مقلم باللونين الأحمر والرصاصى.

وعلى الرغم من انتفاخ وجهها، فقد كانت ملامحها لا تزال واضحة، وقد تعرف عليها الجاويش «ابراهيم نصير»، وقال أنها جثة شيخة المخدمين «فاطمة بنت عبد ربه»، التى اختفت منذ أربعة أسابيع. وأضاف - رداً على سؤال من رئيس النيابة - أنه يعرفها جيداً لكثرة ترددها على مكاتب المحافظة، لاستخراج الرخص للخادمات التى تتولى الحاقهن بالعمل..

وأرسل المأمور شرطيا ليستدعى «محمد أحمد رمضان» زوج «فاطمة بنت عبد ربه» من دكان النجارة الذى يديره بحارة على بك الكبير، فما كاد النجار يرى الجثة، حتى تعرف عليها، وأقر بأنها جثة زوجته المختفية، وانهار باكياً إلى جوارها إلى أن أخرجه رجال الشرطة من المكان بصعوبة. لكن ملامح الجثة كانت قد انمحت تماما عندما فحصها الطبيب الشرعى بعد ذلك بيومين، إذ كانت قد تحللت، فتحولت العضلات والانسجة الرخوة إلى مادة عجينية حمراء، وتكون دهن شمعى على الانسجة السطحية، ولم يعد لها من صفات شيخة المخدمين، سوى ملابسها، وعمرها الذى قدره الطبيب بأكثر من خمسين عاما.. وتاريخ وفاتها الذى قدره بأقل من شهرين.. ولأن حكيمباشى الشرطة، أوصى بعدم نقل الجثة حتى لا تتغير معالمها، فقد أمر رئيس النيابة بابقائها فى مكانها، وطلب من المصور الفوتوغرافى التقاط صورة لها..

ومن «حارة ماكوريس» انتقل رئيس النيابة، إلى «حارة النجاه» ليدخل مع مرافقيه، الطابق الأرضى من المنزل رقم٩، الذى شرع الحفارون فى العمل بأرضيات غرفه الثلاث، وبعد أن تفقد العمل بها، وكلف المهندس برسم تخطيط لها، دخل إلى «غرفة المحششة»، فوجد أن الحفر قد شمل كل أرضها، وقد تكومت فى أحد أركانها جمجمة يلتصق بها شعر قصير أسود متجعد، وتحيط به مجموعة من العظام، قال الحفارون أنها كانت مدفونة تحت الصندرة.. وكان عليها بقايا من قميص داخلى أبيض. وقال الصاغ ـ الرائد ـ «محمد كمال نامى» لرئيس النيابة، أن تفكك عظام الجثة، هو الذى أوحى لنائبه اليوزباشى «ابراهيم حمدى» مساء اليوم السابق- بأنها جثتين، لكنهم لم يعثروا - بعد الانتهاء من حفر بقية أرض الغرفة - إلاّ على جمجمة واحدة.

ولأن الجثث كانت قد تفككت بالفعل، ولم تعد هناك فائدة من إبقائها فى مكانها، فقد استجاب رئيس النيابة لمشورة الحكيمباشى وأمر بنقلها إلى المستشفى بعد تصويرها.. وفيما بعد أكد تقرير الطبيب الشرعى، أن العظام لجثة واحدة،

لامرأة متوسطة الطول تبلغ من العمر اكثر من ٣٠سنة، زالت أجزاء جسمها الرخوة تماما، ولم تبق منه سوى عظام نظيفة وجافة وهشه، واستنتج من ذلك، أنها واحدة من أوائل النساء المقتولات، إذ دفنت قبل حوالى سبعة شهور، وهو استنتاج اكدته اعترافات أفراد العصابة فيما بعد، إذ كانت الجثة هى جثة «زنوبه محمد موسى» - الشهيرة بـ «حجازيه» - وهى الوحيدة التى دفنت فى أرضية غرفة المحششه، بعد قتلها فى١٩مارس (آذار) ١٩٢٠.

وكانت غرفة الطابق الأرضى بالمنزل المواجه - رقم ٨ بـ «حارة النجاه» - هى أحدث الأماكن التى بدىء فى الحفر بها، فى صباح ذلك اليوم، بعد أن اعترفت «ريا» - فى الليلة السابقة - بأن «أم أحمد النص» قد اصطحبت إليه «أنيسه» ولم تخرج منه، ولم تظهر بعد ذلك.. ولابد أن الشرطة كانت قد نجحت خلال الليل فى دفع «ريا» لتحديد الغرفة التى دخلتها «أنيسه» مع الرجل المجهول الذى أعطته اسما حركيا هو «ابراهيم»، إذ لم يكد رئيس النيابة يدخل إلى تلك الغرفة، حتى شاهد ساقا من جسم آدمى تظهر فى مكان الحفر.. فأمر باستمرار الحفر، وكلف المصور بالتقاط صورتها.

وبعد ساعتين انتهى الكشف عن الجثة، ليتضح - كما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى - أنها جثة إمرأة متوسطة القامة، ترتدى لباساً وقميصاً داخليا أصفر اللون ومطرزا بخرز أحمر، ولها شعر كستنائى قصير، ذات أسنان عريضة، صفحت إحداها بالذهب، زالت جميع أعضائها فيما عدا أنسجة البطن التى كانت بحالة متوسطة. لكن الشواهد الأخرى، وخاصة عدم نمو ضرس العقل.. وتسوس أحد أضراسها فى الفك السفلى، كانت كافية لكى يتعرف عليها الحاج «على وفيق الزيات»، على جثة زوجته الغائبة «نبوية بنت جمعه»..

ومع أن الحفر كان ما يزال يجرى فى المقبرة الرئيسية بالمنزل رقم ٣٨ بـ«حارة على بك الكبير»، فانه لم يكن قد تكشف عن جديد، بعد الجثث العشر التى عثر عليها بها خلال اليومين السابقين... فاستجاب رئيس النيابة إلى مشورة حكيمباشى الشرطة بعدم نقلها إلى المستشفى حتى لا تتفتت، وأمر بالابقاء عليها فى مكانها. وكان فى طريقه إلى الانصراف، عندما اقترب منه الصاغ - الرائد - «محمد كمال نامى» ليبلغه بأنه قد علم من شيخ الحارة، بأن «ريا» كانت تسكن خلال العامين السابقين بعدّة منازل بـ«حى كرموز»، واستأذنه فى أن يجرى الحفر بها، لاحتمال العثور على جثث أخرى.. فأذن له بذلك.. على أن يحصل أولاً على موافقة سكانها الحاليين.. وما كاد يعود إلى ديوان القسم فى الخامسة من مساء ذلك اليوم، حتى وجد أمامه محضراً من الملازم ثان «عبد الغفار محمد» يقول فيه، أنه أجرى الحفر فى منزل بـ «حارة زاوية القطن» كانت «ريا» تستأجر غرفتين بالطابق الأرضى منه، فعثر فى أرضية أحداهما

على عظام قديمة، اكتشف انها عظام انسان.

وللمرة الثانية، أجل رئيس النيابة ـ «كامل بك عزيز» ـ إلى اليوم التالي، تنفيذ قراره باستلام محاضر التحقيق في قضية «ريا» من وكيل نيابة اللبان ـ «محمد بك حافظ» ـ واذن له بمواصلة التحقيق لاستيفاء النقاط التي ماتزال غامضة فيه، والاستماع إلى أقوال المتهمين الأربعة، الذين كان قد أمر بضبطهم وتفتيش منازلهم في الليلة السابقة، ومواجهتهم بالتهمة، وبالاستماع ـ كذلك ـ إلى اقوال اثنتين من أقارب اثنتين من الغائبات كان قد تم التعرف على جثتيهما، وهما «نظلة أبوالليل» و«فردوس بنت فضل الله».

وفي أقوالها ـ أمام المحقق ـ أكدت «زينب بنت حسن على» ـ والدة «نظلة أبو الليل» ـ وجود صلة وثيقة بين ابنتها الغائبة، وبين كل من «ريا» و«حسب الله» اللذين كانا ينكران ـ حتى ذلك الحين ـ كل صلة لهما بالفتاة وأمها.. كما أكدت كذلك، أن «حسب الله» يعرف «عرابى»، بل هو صديق له، وهو الأمر الذي كان «حسب الله» مايزال يصر على انكاره. واضافت ان العلاقة بين ابنتها وبين «ريا» وزوجها، قد نشأت وتوثقت منذ زمن، إذ كانت «نظلة» تعمل حائكة للثياب، وتتردد كثيرا على بيت «ريا» لكي تحيك لها ثيابها وثياب زوجها وابنتها. وكشفت ـ لأول مرة في محضر رسمي ـ عن انهما كانا أول هدف اتجهت إليه شكوكها حين فوجئت باختفاء ابنتها، بعد ان علمت من احدى جارات «نظلة» أن ابنتها «بديعة» قد حملت إلى الفتاة الغائبة رسالة من أمها خرجت على اثر تلقيها لها بملابس المنزل، ولم تظهر منذ ذلك الحين، فتوجهت إلى منزلهما به حارة على بك الكبير» وهددتهما بابلاغ الشرطة عنهما، لكنهما خدعتاها، وتظاهرتا بالتعاطف معها ووجها شبهاتهما نحو «عبدالرحيم الشريتلى»، وهو ما فعله ـ كذلك ـ «عرابى» الذي سرب إليها خبرا كاذبا، بأنه تلقى خطابا من «نظلة» تقول فيه ان «عبدالرحيم» قد خطفها وسافر بها إلى قريته «أم دومة» مركز «طهطا».

وعندما واجه المحقق بينها وبين «حسب الله» تمسك ـ بغباء ـ بانكاره، مؤكدا انه لا يعرف المرأة أو ابنتها، إذ كانت الرواية تضرب أركان دفاعه في الصميم، فهي لا تكشف فحسب، عن انه كان يعرف «نظلة» و«عرابى» بل وعن انه كان ـ كذلك ـ يكذب عندما ادعى انه هجر «ريا» بعد أن انتقلت من «باب سدرة» لتقيم في «حارة على بك الكبير» وانه لم يسكن معها يوما واحدا في البيت الذي عثر فيه على الجثث..

لكن «ريا» ـ التي أثبتت أثناء التحقيق انها أكثر مرونة وذكاء منه ـ لم تجد فائدة في انكار الوقائع التي يستطيع آخرون ان يشهدوا بصحتها، فادخلت تعديلا طفيفا على أقوالها، لكي تتواءم مع ما قالته «ام نظلة». فلم تقر ـ فحسب ـ بأنها وزوجها كانا يعرفان الفتاة معرفة وثيقة، بل وصورت ـ كذلك ـ عواطفها نحوها، في صورة تجعلها اقرب إلى علاقة أم بابنتها، فقالت بأن «نظلة» كانت تتردد على بيتهما،

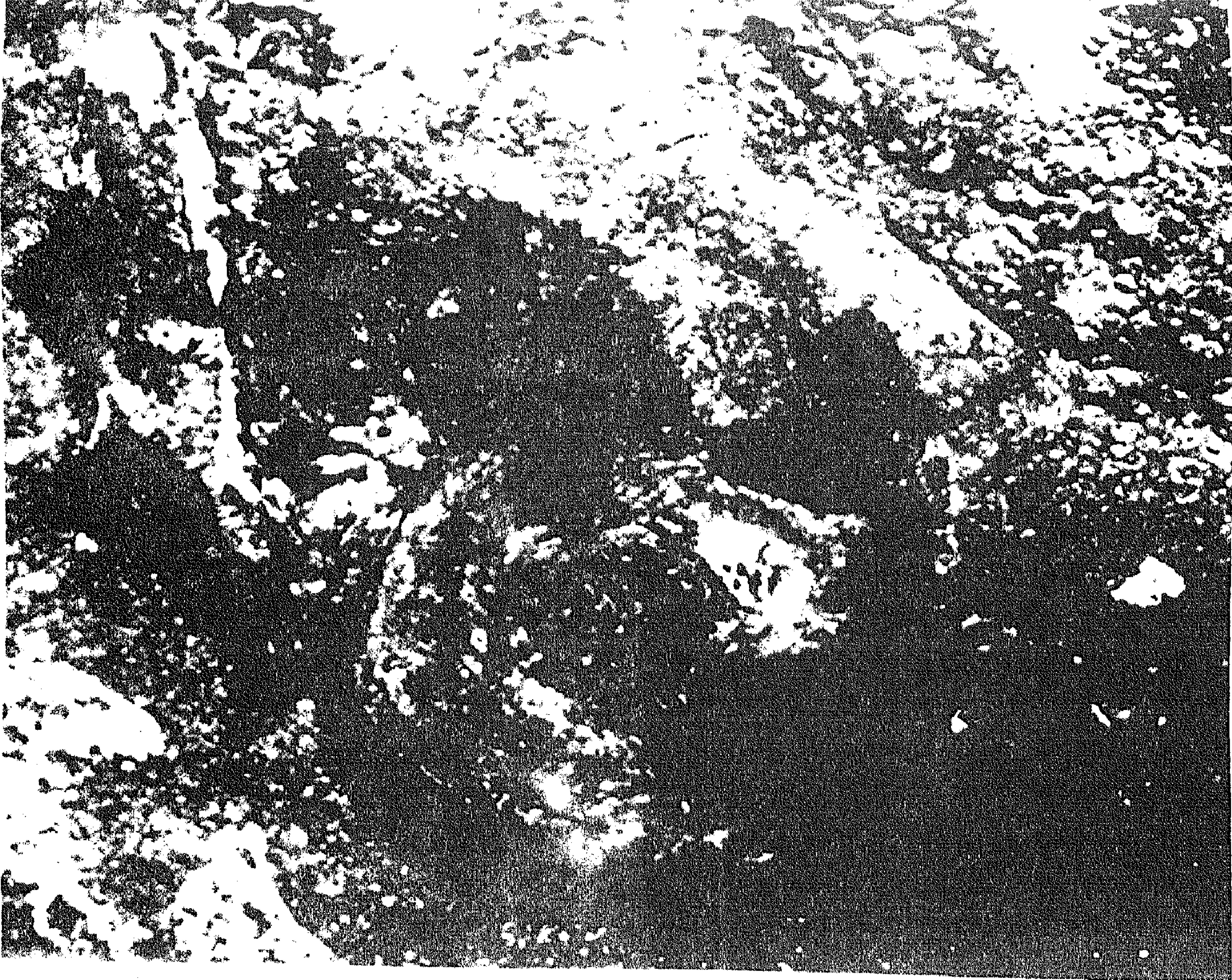
بل وتقيم فيه احيانا شهورا متواصلة، وأنها كانت تعاملها، كما تعامل ابنتها «بديعة»، حتى انها كانت فى أحيان كثيرة، تنام فى الغرفة نفسها، معها ومع زوجها وابنتها. واضافت انها هى التى قامت بشراء المصوغات التى كانت الفتاة تزين بها معصميها واذنيها وكاحليها. كما اقرت - كذلك - بأنها ارسلت ابنتها «بديعة» إلى «نظلة» لكى تسترد منها صينية من البلاستيك، كانت تركتها عندها، لكى ترسلها إلى من يصلحها. لكنها حرصت على ان تؤكد بأن صلتها الوثيقة بالفتاة، تعود إلى الفترة التى كانت فيها جارة لها بـ«باب سدرة» وقبل انتقالها للاقامة فى «حارة على بك الكبير»، وبأنها ارسلت ابنتها لتسترد منها الصينية قبل اختفائها بأربعة شهور، وليس فى اليوم الذى اختفت فيه.

ولم يجد «حسب الله» - الذى عرف بهذا التعديل - ما يدعوه لمواصلة انكار معرفته بـ«نظلة» فما كاد المحقق يعيد سؤاله عنها، حتى قال: أنا اسمع ان واحدة اسمها «نظلة» تحب «عبدالرحيم» و«عرابى». وعندما اعاد المحقق عرض الأم عليه تعرف عليها.. واضاف انه كان قد سافر لكى يعمل فى خدمة السلطة العسكرية البريطانية فى «ليمنوس» ولما عاد، وجد زوجته قد استأجرت البيت الذى عرف باسم «الكامب» وكانت «نظلة» تتردد عليه بصحبة رفقائها، فلما انتقلا للإقامة فى «باب سدرة» كانت تكثر - كذلك - من التردد عليهما.. لكنه أنكر أن الأم قد سألته عن ابنتها بعد اختفائها، ولما سأله المحقق عن مبرر إنكاره لمعرفته بـ«نظلة» وبأمها، على الرغم من عرضها عليه.. قال بغباء:

- أنا ما كنتش واخد بالى منها.. والدنيا مليانة بنات ونسوان اسمهم «نظلة»!

وانتقل المحقق - بعد ذلك - إلى «الكابورال وليم جولدنج» - رفيق «فردوس» - فاستمع إلى أقواله عن علاقته بها، ثم عرض عليه الفانلة الصوفية البيضاء التى ضبطت بمنزل «محمد عبدالعال» فتعرف عليها، وقال انها إحدى فانلتين كان قد اشتراهما لها خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة. وعندما واجه المحقق «عبدالعال» بأن هذا هو الشاهد الثانى الذى يتعرف على الفانلة - بعد «أم فردوس» - أصر على القول بأنه قد اشتراها من بائع متجول بأسيوط، قال إن اسمه «مرسى محمد». فلما واجهه المحقق بأنه ذكر قبل ذلك بأن اسمه «يوسف محمد»، أكد أن ذلك هو اسمه الحقيقى.

واكتفى «محمد بك حافظ» بمواجهة خمسة من المتهمين الجدد - هم «أمينة منصور» وزوجها «محمد على القادوسى» - المشهورين باسم «أم أحمد النص» و«أبو أحمد النص» - و«محمود أبو زكاك» و«عبدالله الكوبجى» و«عائشة عبدالمجيد».. بالتهمة التى نسبتها «ريا» لكل منهم، وهى الاشتراك فى قتل امرأة أو اكثر من النساء اللواتى عثر على جثثهن فى المقبرة الرئيسية، فلما أنكروها لم يناقش أحدا منهم فى إنكاره، أو يواجهه بتفاصيل



جثة نبوية بنت جمعة التى عثر عليها بالمنزل رقم ٨ بحارة النجاة.. ورأسها إلى الزاوية اليمنى للصورة

الوقائع التى وردت فى اعترافات «ريا» أو بغيرها من الأدلة، حتى لا يستطرد فى تحقيق كان يعلم أن مسئوليته سوف تنتقل إلى غيره بعد ساعات.. وكانت «عائشة عبدالمجيد» هى الوحيد التى دافعت عن نفسها قائلة: إن «هانم» - التى تتهمها «ريا» بالاشتراك مع «عبدالله الكوبجى» فى قتلها، ماتزال على قيد الحياة، وختمت دفاعها قائلة:

- أنا ما عملتش حاجة.. و«سكينة» أخت «ريا» هى اللى أخذت «زنوبة» بتاعة الفراخ من دكانها قدامى، ومن يومها ما رجعتش.

ولأن «ريا» كانت تتبع خطة دفاعية تقوم على إشاعة التهمة بين أكبر عدد ممكن من المتهمين، وإقحام كل الذين يحتمل أن يشهدوا ضدها - وضد زوجها - فى الاتهام، فإنها لم تتنبه إلى الطريقة الآلية التى كان «محمد بك حافظ» يجرى بها تحقيقه فى تلك الليلة، ولم تعطف على رغبته فى الانتهاء منه بأى شكل لكى يسلمه إلى رئيسه فى اليوم التالى.. فما كاد يسألها عن أسماء بقية الضحايا اللواتى عثر على جثثهن فى أرضية غرفتها، وظروف زيارة كل منهن لها.. حتى اندفعت فى إعادة بث الطبعة الثانية من أكاذيبها التى يصعب تتبعها أو فهمها، بسبب إصرارها على تجهيل أسماء الأبطال، والخلط بين الأماكن والأزمنة، فهناك فتاة بيضاء على عينها اليسرى نقطة، أى سحابة صغيرة، وأخرى قمحية ولكن النقطة على عينها اليمنى، وثالثة سمراء، ذات نقطة على عينها اليمنى ايضا، وكفها صغيرة «قد العدساية» وقد جاءت كل منهن بصحبة «الجدر» أو «عرابى» أو بصحبتهما معا، فضلا عن «خديجة» التى ذهبت إلى البيت بصحبة «أم أحمد النص» و«سكينة» و«عائشة عبدالمجيد» و«هانم» التى ذهبت إليه بصحبة «عائشة» و«الكوبجى».

وكان المحقق يحاول توزيع النقط على عيون الضحايا الذين وردت أسماؤهن فى الطبعتين الأولى والثانية من اعترافات «ريا» حين فوجىء بها، تنتقل من دون تمهيد إلى بث الطبعة الثالثة من أكاذيبها، وتضيف إلى المتهمين اثنين آخرين.. فذكرت أن من بين الجثث الموجودة فى مقبرتها، جثة فتاة زعمت أن اسمها «أمينة» حضرت بصحبة عربجى كارو اسمه «عبدالرازق» وامرأة اسمها «عديلة الكحكية».

ولما طلب إليها المحقق - الذى كان قد ضاق فى الغالب بأكاذيبها التى يصعب فهمها أو مناقشتها - تفصيلات عن تلك الواقعة، ذكرت أنها - ذات يوم منذ ثلاثة شهور - عادت من الخارج، فوجدت الثلاثة يجلسون فى فناء المنزل على بساط أحضرته لهم جارتها «أم رجب» بعد أن أوهمتها «عديلة» بأنها زوجة «أبو العلا» شقيق «ريا» وما كادت تفتح لهم باب الغرفة، حتى قالت لها «عديلة»:

- احنا عاوزين نتغدى سمك يا حظ.

وأعطاها «عبدالرازق» ريالا لتشترى السمك. وشدد عليها بشرائه من الملاحة

التى تقع على مبعدة ساعة من البيت.. فلما عادت، لم تجد سوى «عديلة» التى قالت لها إن «عبدالرازق» اصحب «أمينة» إلى منزل «سنية» - شقيقة «عديلة» - ثم تركت لها مفتاح الغرفة وانصرفت..

ولم تكن الطبعة الجديدة سوى إعادة صياغة لنفس الواقعة التى بثتها «ريا» فى الطبعة الثانية من اعترافاتها، حول مقتل «أنيسة» بعد إدخال تعديلات جوهرية عليها، انتقلت بمقتضاها جثة الفتاة، من بيت «أم أحمد النص» إلى بيت «ريا» - وهو ما يتفق مع الواقع - وبدلا من إخفاء اسم «عبدالرازق» التى اعطت له فى الطبعة السابقة اسما مستعارا هو «ابراهيم» - أخفت الاسم الحقيقى للضحية وأعطتها اسما مستعارا هو «أمينة».

ومع أن تفاصيل القصة كانت لا تخلو من الاضطراب والتناقض، إلا أن المحقق، لم يناقشها فيها، واكتفى بأن عرض عليها شخصا اسمه «ابراهيم» قبضت عليه الشرطة، باعتباره أنه الشخص الذى ذكرت «ريا» - فى الليلة السابقة - انه دخل مع «أنيسة» فى بيت «أم أحمد النص» وخرج من دونها. فقالت إنها لا تعرفه وأن الشخص الذى قالت عنه «إبراهيم» هو نفسه «عبدالرازق» عربجى الكارو الذى أشارت إليه فى الطبعة الثالثة من أقوالها، فأخلى وكيل النيابة سبيله، وختم محضره - بعد ثمانى ساعات من التحقيق المتواصل - فى الثانية والنصف من صباح يوم الجمعة ١٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، بقرار بحبس خمسة متهمين آخرين، أربعة أيام هم: «أم أحمد النص» وزوجها «محمد على القادوسى» وابن شقيقتها «محمود أبوزكاك» و«عائشة عبدالمجيد» و«عبدالله الكويجى». وبهذا ارتفع عدد المحبوسين على ذمة التحقيق إلى سبعة عشر شخصاً.. كما أمر - كذلك - بضبط وإحضار «عبدالرازق يوسف» و«عديلة الكحكية».

وكان قرار القبض على «عبدالرازق يوسف» وتفتيش منزله، قد نفذ قبل خمس ساعات من صدوره، وبمجرد أن ذكرت «ريا» اسمه فى الطبعة الثالثة من اعترافاتها، إذ كلف الصاغ - الرائد - «محمد كمال نامى» - مأمور قسم اللبان - الملازم ثان «أحمد عبدالله» - الضابط بالإدارة السرية بالمحافظة بذلك. فاصطحب معه عدداً من أفراد الشرطة السرية، إلى حيث يسكن فى «بيت الحرمة الرحالة» بـ «حارة النجع الجديدة»، وقام بتفتيشه فلم يجد شيئاً يفيد التحقيق. ومع أنه كان محبوساً فى تخشيبة القسم منذ التاسعة والنصف إلا أن المحقق لم ير ضرورة للاستماع إلى أقواله فى نفس الليلة.

والغالب أن «عديلة الكحكية» قد فوجئت بالقبض عليها، على الرغم مما بذلته من محاولات لتظل بمنأى عن هذه الفضيحة.. فمع أنها كانت قد عرفت، كما عرف جميع الناس فى الإسكندرية بخبر العثور على الجثث فى بيتى «حارة النجاة» التى كانت تتردد عليهما بصحبة «أنيسة» فتأكدت - أخيراً - أن صديقتها الغائبة قد

لقيت حتفها، إلا أنها لم تفكر فى إبلاغ أسرة الفتاة، أو الشرطة بما تعرفه.. ولم تجسر على الاقتراب من المكان الذى كانت تجرى فيه الحفريات، لعلها تتعرف على جثة «أنيسة» بين الضحايا المجهولات اللواتى عثر عليهن فيما كانت تطلق عليه الصحف آنذاك وصف «بيوت الهلاك». بل انها، على العكس من ذلك، تعمدت أن تنفى كل استنتاج قد يرد إلى ذهن من يعرفون بأمر غياب الفتاة، بوجود صلة بين هذا الغياب وبين ما كان يتداوله الناس عن أسماء صاحبات الجثث التى عثر عليها فى تلك البيوت، ومن بينهن صديقة مشتركة لهما هى «ندى بنت محمد عوض» التى التقت بـ «عديلة» فى تلك الأثناء، وسألتها عما يشاع عن أن «أنيسة» ربما تكون من بين النساء اللواتى قتلتهن عصابة «ريا» و«سكينة» فنفت ذلك بشدة، وقالت لها: ما تصدقيش الكلام ده.. دى بخير.. واتجوزت واحد فى الصعيد وسافرت معاه..

وعلى عكس ما كان يحدث عادة، فإن العاملين بقسم شرطة اللبان، لم يتخذوا من يوم العطلة الأسبوعية - الجمعة - مبررا لكى يؤجلوا تحرياتهم فى القضية. إذ كانوا يشعرون بوطأة نظرات الاتهام بالتقصير التى تركزت عليهم.. ولم يكن القبض على «عديلة الكحكية» أو الإشراف علي مواصلة الحفر فى كل غرف الطوابق الأرضية، من المنازل الأربعة التى عثر فيها على الجثث، هو المظهر الوحيد لنشاطهم فى ذلك اليوم.. ففى العاشرة من صباحه، اتصل الصاغ «محمد كمال نامى» - مأمور القسم - هاتفياً برئيس النيابة فى منزله، وأبلغه بأنه علم من تحرياته، بأن «ريا» كانت تسكن فى منزلين آخرين بجهة «سوق الفنم» التابعة إدارة بـ «قسم شرطة كرموز» واستأذنه بأن يقوم بالحفر فى أرضية تلك الغرف لاحتمال العثور على جثث أخرى، فأذن له بذلك على أن يستأذن أولا من السكان الذين يشغلونها الآن.

ونشط المأمور لتنفيذ المهمة، فانتقل على الفور إلى ديوان «قسم شرطة كرموز» وأرسل يستدعى «عبدالله حسين» - شيخ حارة سوق الفنم - الذى أكد المعلومات، وقال بأنه يعلم بأن «ريا» كانت تسكن مع زوجها «حسب الله» بتلك المنطقة فاتصل المأمور هاتفياً بالملازم ثان «عبدالغفار احمد» وطلب إليه أن يحضر «ريا» من تخشيبة القسم، ويلحق به إلى مبنى قسم كرموز.. فلما وصلت إلى هناك، طلب إليها أن تدلهم على موقعى المنزلين. وقد قادتهم أولاً إلى المنزل رقم ٤٦ بـ «شارع جامع الحاج محمد ناصر» بـ «باب سدرة»، وهو يتكون من طابقين قالت «ريا» إنها كانت تسكن فى حجرتين مظلمتين من الحجرات الأربع التى يتكون منها الطابق الأرضى. وكلف المأمورا لملازم «عبدالغفار» بالإشراف على عملية الحفر، التى لم تسفر عن العثور على شىء.. وانتقل الجميع بعد ذلك، إلى المنزل رقم ٢٠٩ بـ «شارع الاسناوى» - القريب من «باب عمر باشا» على مبعدة ٣٠٠ متر من المنزل الأول - حيث كانت «ريا» تقيم فى شقة من ثلاث غرف وصالة. وكشف الحفر فى أرضية

إحداها عن مجرور مهجور مبنى بالحجر، عثر الحفارون فيه على عظام قديمة، قال الصاغ «نامى» فى محضره إنه «تبين له انها عظام آدمية».

وفى أثناء ذلك كان «محمد بك حافظ» قد توجه إلى بيت رئيس النيابة، فسلمه محاضر جلسات التحقيق التى أجراها خلال الأيام الثلاثة السابقة فى قضية «ريا»، وتناقش فيها معه. وبمجرد انصرافه عكف «كامل بك عزيز» على دراسة ملف القضية كوحدة واحدة، فلم يكتف بقراءة التحقيقات الجديدة، بل وأعاد كذلك قراءة محاضر التحقيقات التى كان «محمد كامل ابوستيت» وكيل نيابة المنشية قد أجراها مع «سكينة» ووضع خطة جديدة للتحقيق.

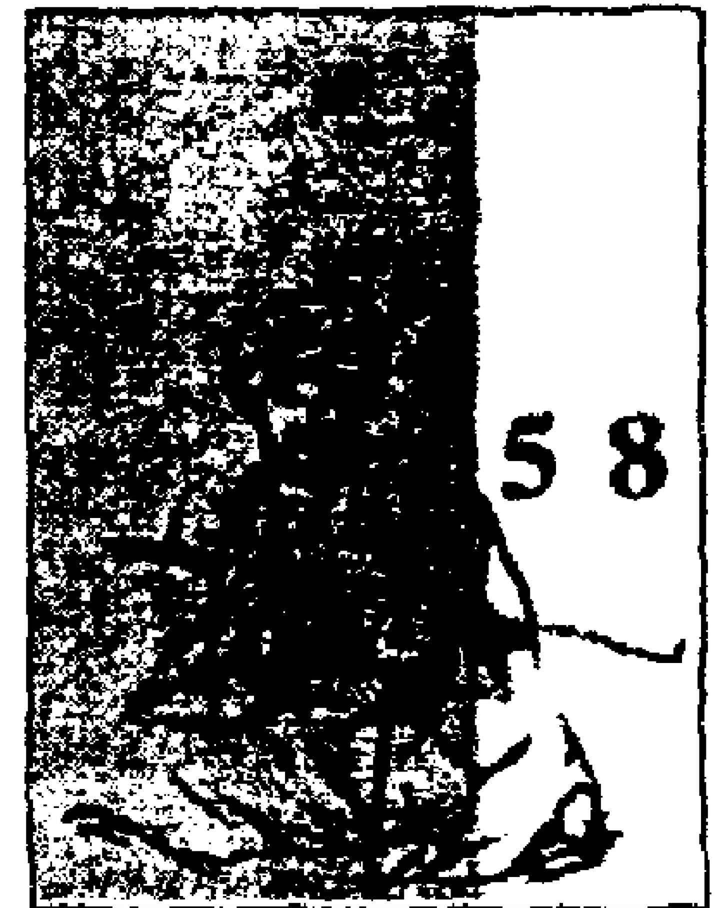
وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم - الجمعة ١٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ - وصل إلى ديوان قسم شرطة اللبان، فاجتمع بالمأمور، وتسلم منه المحضر الذى كان قد حرره عن العظام البشرية التى عثر عليها فى «شارع الاسناوى»، ووافق على وجهة نظره، بنقلها هى والعظام التى عثر عليها فى اليوم السابق بمنزل «حارة زاوية القطن»، إلى المستشفى لكى يقوم الطبيب الشرعى بفحصها هناك.. ثم سلمه قائمة باسماء الشهود الذين قرر أن يبدأ التحقيق - فى اليوم التالى - بالاستماع إلى أقوالهم.

لم يكن «كامل بك عزيز» قد قطع شوطاً طوياً فى تحقيقه - الذى افتتحه فى التاسعة والنصف من صباح يوم السبت ٢٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ - حين وصل من القاهرة الطبيب الشرعى الأول الدكتور «سيدنى سميث» ومساعده المصرى الدكتور «عبدالحميد عمار» فاضطر إلى تأجيل التحقيق إلى مساء اليوم نفسه، وانتقل هو ومأمور القسم وعدد من ضباطه وجنوده معهما فى جولة على المنازل الأربعة التى عثر على الجثث بإحدى الغرف المجاورة لتلك الغرف قد انتهى من دون العثور على مقابر جديدة.

وكان «بيت الجمال» بـ «حارة ماكوريس» هو أول البيوت التى تفقدها الطبيبان الشرعيان، حيث فحصاً جثة «فاطمة شيخة المخدمين».. التى كانت ماتزال فى مكانها من الحفرة التى كشف عنها فيها.. وأمرا بنقلها إلى المستشفى.. واتجه الموكب بعد ذلك إلى بيت «أم أحمد النص» بـ «حارة النجاة» المواجه له، حيث فحص الطبيبان جثة «نبوية بنت جمعة»، وأمرا بنقلها إلى المستشفى، وألقيا نظرة عابرة على «بيت المحششة» المواجه له، إذ كانت الجثة التى عثر عليها به، قد نقلت إلى المستشفى - قبل يومين - تنفيذاً لتوصية حكيمباشى الشرطة.. وانتهت الجولة بالمقبرة الرئيسية بـ «بيت ريا» حيث كانت الجثث السبع التى تضمها الطبقة الثانية من المقبرة ماتزال بمكانها.. وبعد أن قام الطبيبان بفحصها فحصاً ظاهريا، أشرفا على نقلها إلى المستشفى.

وأثناء نقل آخرها من مكانها بالحفرة اكتشفوا وجود جثة أخرى تحتها.. وبذلك ارتفع عدد الجثث التى عثر عليها بغرفة «ريا» إلى إحدى عشرة جثة.

وفى المستشفى حضر «كامل بك عزيز» عمليات الفحص الإضافية التى أجريت على الجثث. وكان الانطباع الأول الذى كونه الطبيبان هو أن معظمها فى حالة تعفن رمى متقدم، يصعب معه التعرف عليها. وقد نصحا رئيس النيابة، بعدم الاعتماد على أقارب الضحايا فى التعرف على جثثهن، إذ يستحيل أن يميزوا بينها وهى فى هذه الحالة. واقترحا عليه بدلا من ذلك، الاعتماد على شواهد أخرى مثل طول القامة، وشكل الأسنان - وخاصة المصفح منها بالذهب أو البارز إلى الأمام أو المصاب بأمراض كالتسوس، والتعفن - ولون وطبيعة الشعر، وما عثر على الجثث من ملابس.. ووعدا بأن يضمنا تقريرهما ما قد يجدانه من تلك الشواهد.. وقاما بقص شعور الجثث وبخلع ما كان عليها من بقايا الملابس. وأشرف رئيس النيابة بنفسه على وضع شعر وملابس كل جثة فى حرز خاص، حتى لا تختلط بغيرها، وسلمها إلى الصاغ «محمد كمال نامى» وكلفه بأن يشرف بنفسه على غسل الملابس من الأتربة تمهيداً لتنظيم عملية عرضها على أقارب الضحايا.. وهى مهمة انتدب لأدائها أحد مساعديه من وكلاء النيابة، وهو «على أفندى بدوى».



وفى مساء اليوم نفسه بدأ «كامل بك عزيز» تحقيقه الذى استمر لمدة أربعة أيام فقط، كان يعقد خلالها جلستين فى اليوم، واحدة فى الصباح وأخرى فى المساء. وقد استغرقت هذه الجلسات الثمانى ما يقرب من ثلاثين ساعة، فضلاً عن خمس جلسات أخرى، استغرقت ما يقرب من عشرين ساعة، عقدها مساعده «على بك بدوى» الذى كلفه - فضلاً عن عرض ملابس الضحايا وشعورهن على أقاربهن بالاستماع إلى أقوال ضباط وصف ضباط وجنود الشرطة الذين قاموا بعمليات الضبط والتفتيش أو تولوا الإشراف على الحفر، وبتحقيق بعض الوقائع التفصيلية التى يثيرها المتهمون دفاعاً عن أنفسهم. كما استعان خلال تلك الفترة - كذلك - باثنين آخرين من وكلاء النيابة هما «محمد كامل أبوستيت» - الذى قام بالتحقيقات الأولية مع «سكينة» - و«إبراهيم يحيى» الذى كلفه بإعادة تفتيش منازل المتهمين الرئيسيين.

ومنذ البداية كان واضحاً أن «كامل بك عزيز» قد رسم لنفسه خطة تقوم على الانتقال بالتحقيق من المستوى الأفقى الذى كان يسير فيه حتى ذلك الحين، إلى المستوى الرأسى، بالتوقف عند واقعة أساسية منه، والتعمق فى تحقيقها لاستكشاف كل الظروف المحيطة بها. وقد اختار واقعة اختفاء «فردوس بنت فضل الله»، ليس فقط لأنها كانت آخر الضحايا، التى لم يمض على اختفائها سوى أسبوع واحد، والتى ماتزال ملابسات ذلك الاختفاء فى أذهان الشهود، أو لأنها كانت الضحية الوحيدة، التى يمكن الجزم بأن الشهود لم يخطئوا حين تعرفوا على جثتها لحظة العثور عليها فى الطبقة الأولى من

مقبرة «ريا» بل لأنها كانت - فضلاً عن ذلك كله - همزة الوصل بين شطرى القضية بحكم أن الشبهات كانت تحيط بـ «سكينة» باعتبارها آخر من شوهد معها قبل اختفائها، بينما عثر على جثتها فى غرفة «ريا».

وتنفيذاً لتلك الخطة، أعاد «كامل عزيز» التحقيق إلى نقطة البداية، طارحاً كل الفروض والاحتمالات والشكوك للبحث من جديد، بما فى ذلك ما قد يبدو مستقراً ويقينيا ولا يحتمل أى لبس. فبدأ بمحاولة للبرهنة - أولا وقبل أى شىء آخر - على أن «فردوس» قد قتلت، وعلى أن الجثة التى عثر عليها فى غرفة «ريا» هى جثتها وليست جثة امرأة أخرى. فلم يكتف بتعرف أمها على الجثة فور الكشف عنها، بل عرض صورتها الفوتوغرافية على رفيقها الإنجليزى، ثم على «على الفرنساوى» - صاحب الخمارة التى كانت تجلس عليها قبل اختفائها مباشرة - وعلى «سكينة» و«سيد عبدالرحمن» - اللذين كانا يجلسان معها - فأقر الجميع بأن الصورة صورتها. ثم عرضها - كذلك - على ممرضات غرفة التشريح بالمستشفى الأميرى اللواتى استقبلن الجثة حيث نقلت إليها، فأكدن بأن ملامح الجثة - التى كانت ماتزال ظاهرة آنذاك - هى لصاحبة الصورة.. وعرض الملابس التى دفنت بها - وهى لباس وفانلة داخلية وعراقة (أى حمالة صدر)، بعد غسلها وكيها على الأم، فأكدت بأنها ملابس ابنتها، ودللت على ذلك باحضار نسخ أخرى من تلك القطع، كانت بدولاب ملابس «فردوس» فتبين للمحقق أنها من نفس نوع القماش ولونه وطريقة تفصيله. وسأل الذين يعرفونها عن ملامح معينة بها، تبين بعد ذلك أن الطبيب الشرعى قد وجدها فى بقايا الجثة، ومن بينها شعرها المجعد القصير، والوشم على ظاهر كفها اليمنى والسنة الذهبية فى الجانب الأيمن من فكها الأعلى. وقد شهد بوجود تلك العلامات بها، فضلاً عن أمها، رفيقها الإنجليزى الكابورال «وليم جولدنج»، وختم تحقيقه لتلك النقطة بالاستماع إلى شهادة الدكتور«وهبه نظمى» - وهو الطبيب الذى فحص الجثة عند نقلها إلى المستشفى - الذى لم يستبعد أن تكون صاحبتها قد توفيت فى نفس اليوم الذى اختفت فيه «فردوس».

وجاء تحديد شكل ونوع الملابس التى خرجت بها «فردوس» فى يوم اختفائها، ليكون النقطة الثانية التى ركز عليها المحقق. فلم يعتمد على أقوال الأم، التى كانت - على وجه الإجمال - دقيقة، بل سأل كذلك كل الذين رأوها خلال الفترة القصيرة التى فصلت بين مغادرتها للمنزل واختفائها، ومنهم خادمتها «قنوع» و«على الفرنساوى» - صاحب الخمارة - والكواء «سيد عبدالرحمن»، بل و«سكينة» نفسها. كما سأل أيضاً رفيقها الإنجليزى، الذى يعرف ملابسها، وخاصة «الفانلة البيضاء» التى اشتراها لها، وعثر عليها فى منزل «محمد عبدالعال»، وقد أعاد الكابورال

التعرف عليها حين عرضت عليه، كما تعرفت عليها الأم، التى برهنت على صحة أقوالها، باحضار نسخة ثانية من نفس طراز الفانلة، كان الخواجا قد أهداها . كذلك ـ إلى «فردوس». وقد أثبتت «سكينة» حصافتها وذكاءها، إذ لم يكد المحقق يعرض عليها تلك الفانلة، حتى أدركت على الفور بأنها قد ضبطت لدى «محمد عبدالعال» أو «ريا» وقدرت أن إنكار معرفتها بها، مع وجود شهود آخرين يستطيعون التعرف عليها، لا جدوى من ورائه إلا التشكيك فى صدق الجانب الأكثر أهمية من أقوالها، فأقرت من دون تردد . بأنها الفانلة التى خرجت بها «فردوس» معها .

وأضاف «الكابورال» «وليم جو ولدنج» إضافة كيفية إلى محاولات التحقق من النقطة الثالثة وهى عدد ونوع المصوغات التى كانت «فردوس» تتزين بها عندما خرجت بصحبة «قنوع» و«سكينة»، فمع أنه لم يشاهدها آنذاك، إلا أنه انفرد بالإشارة إلى الخاتم ذى الأضلاع الستة الذى أهداه لها فى بداية علاقتهما ونقش عليه الحرفين اللاتينيين الأولين من اسمه واسمها "F.G" ولم تكن الأم قد وجدته بين مخلفات ابنتها، مما خلق الظن بأنه كان بين المصوغات التى تزينت بها عند خروجها .

ولابد أن العثور على جثة «فردوس» ـ كغيرها من الضحايا الأخريات ـ وهى لا ترتدى سوى ملابسها الداخلية وحدها، مع أنها خرجت بملابس غالية الثمن، فضلا عن ضبط فانلتها الصوفية لدى «محمد عبدالعال» كان من بين ما لفت نظر المحقق. وجعله يستنتج أن افراد العصابة كانوا يستولون . فضلاً عن المصوغات ـ على ملابس الضحايا، فيبيعونها . وهو ما قاده لمراجعة محاضر ضبطهم وتفتيشهم، أملاً أن تكون الشرطة قد ضبطت قطعاً أخرى من ملابس «فردوس» . غير الفانلة ـ لدى أحدهم، ليكتشف أن من بين المتهمين اثنان حبستهم النيابة، من دون أن تصدر قراراً ـ قبل ذلك أو بعده ـ بتفتيش منازلهم:

أولهم هى «ريا» التى قامت الشرطة بإخراج محتويات غرفتها إلى فناء المنزل، لتحفر أرضها من دون أن تفتش ما كان بها من منقولات ومفروشات وأوراق.. وكان من بين ما لفت نظره إلى ذلك، التضارب بين أقوال ضباط الشرطة. وصف الضباط والحفارين ـ الذين أدلوا بها أمام مساعده «على بدوى» ـ حول المكان الذى عثر فيه على ختم «حسب الله» إذ لم يجزم أحدهم بأنه قد عثر عليه بين الجثث، بينما أصرت «ريا» على أن الختم كان فى صندوق على رف معلق على حائط بالغرفة .

وكان المتهم الثانى الذى لم يفتش أحد منزله هو «سيد عبدالرحمن» مع أنه أحد اثنين تحيط بهما شبهات قوية فى قضية اختفاء «فردوس».

بل وبدا غريباً أن التفتيش الذى أجرى فى منزل متهمين آخرين، من بينها المسكن الذى يقيم به «حسب الله» مع زوجته الجديدة، لم يسفر عن ضبط أى نوع من الملابس، وخاصة النسائية منها، مع أهمية ذلك للتحقيق.

وكانت «سيدة سليمان» زوجة «محمد السمنى». المستأجر الأصلى للطابق الأرضى بـ«بيت الجمال». قد طلب فجأة. مساء السبت ٢٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠. الادلاء بمعلومات جديدة، فكلف رئيس النيابة معاونة «محمد كامل أبو ستيت» - الذى كان يتابع التحقيق إلى جواره - بالاستماع إلى تلك الأقوال، بحكم أنها من بين المتهمين فى قضية «سكينة» التى قام بتحقيقاتها الأولية.. وقد روت له واقعتين:

حدثت الأولى منذ شهر ونصف، عندما عادت ذات غروب من جولتها لبيع البيض، فوجدت «زنوبة الفرارجية» تجلس مع «سكينة» فى غرفتها، ومعهما مجموعة رجال هم مطلقها «محمد عبدالعال» ورفيقها «سلامة خضر» وزوج شقيقتها «حسب الله»، واثنان من أصدقائها، تعودا أن يترددا عليها، هما «خميس» وهو منجد و«شعبان» وهو سائس، وكان الجميع يحتسون الخمر، فتركتهم وذهبت إلى حجرتها لتنام.. ثم استيقظت عند الفجر على صوت صرخة. وعثرت فى عصر اليوم التالى على خرق ملوثة بالدماء فى المنور الذى تطل عليه نافذة غرفة «سكينة».

وحدثت الواقعة الثانية بعد أسبوعين من ذلك، إذ عادت من سرحتها عند الغروب أيضا، فوجدت مع «سكينة» امرأة عوراء لا تعرفها، ورجلان -هما «حسب الله» و«شعبان» المنجد- وبعد قليل غادرت «سكينة» الغرفة، وأغلقت بابها على المرأة العوراء والرجلين. ولما سألتها «سيدة» عن ضيوفها أجابتها بأنهم انصرفوا، فيما عدا زوج شقيقتها الذى يرتاح قليلا فى الغرفة. ولأنها لم تكن قد رأت أحدا يخرج من المنزل، فقد دفعها الفضول للتلصص على ما يجرى فى الغرفة، عبر نافذتها المطلة على المنور، فرأت «حسب الله» وهو «مجموع» مع المرأة العوراء. وعند الفجر سمعت صوت صرخة وفى عصر اليوم التالى دخلت غرفة «سكينة» لتشرب من الزير فلاحظت وجود دماء على المرتبة التى تنام عليها. وأضافت أن «سكينة» قد أنكرت فى المرتين، أن هناك من يصرخ فى غرفتها، وفسرت وجود الدماء بأن «عليها الحرمانية»..

ومع أن القصة -التى خلطت فيها «سيدة» بعض الوقائع الصحيحة بشىء من الخيال الركيك- كانت مليئة بالتناقض، إلا أن أحدا لم يناقشها فيها، إذ كان التركيز كله منصبا -آنذاك- على حل مسألة «فردوس».

وبهذا لم تسفر تلك الأقوال إلا عن صدور أمر بالقبض على «خميس» و«شعبان»- ليرتفع عدد المقبوض عليهم على ذمة القضية، بعد القبض كذلك على «عديلة الكحكية» و«عبدالرازق يوسف»، إلى واحد وعشرين متهما بينهم سبع نساء لكنها - مع ما سبقها - دفعت «كامل بك عزيز» لإصدار أوامره بإعادة تفتيش منازل المتهمين جميعا، للبحث -بدقة- عن الملابس وخاصة النسائية والملوثة بالدماء فضلا عن المصوغات. وأصدر - كذلك -

أوامـره لاثنين من وكـلاء النيـابة بإعـادة معاينة المنازل التى عثر فيها على الجثث..

وهكذا عاد ضباط الشرطة بتلال من الملابس النسائية جاء القسم الأكبر منها من منزل «سيد عبدالرحمن» ومن المسكن الذى يقيم فيه «حسب الله» مع زوجته الجديدة، لم يكن من بينها قطعة واحدة من ملابس «فردوس»، إذ كانت كلها ملابس لزوجات أشقاء «سيد عبدالرحمن» أو زوجة «حسب الله»، وجاءت معظم الملابس والمفروشات الملوثة بالدم من مسكنى «ريا» و«سكينة»، وثبت فيما بعد من تقرير الطبيب الشرعى أن التفسير الذى ذكرته «سكينة» لوجود هذه البقع عليها، صحيح، وأن الدماء عليها هى من آثار الحيض.. كما عادوا بقطع من المصوغات، عرضت على «أم فردوس» فلم تتعرف فيها على شىء من مصوغاتها..

وعلى الرغم من ذلك، فإن المحقق، لم يخرج من تلك الحمْلة خالى الوفاض، إذ لفت نظره، من بين الأوراق التى كانت مبعثرة فى الفناء المواجه لغرفة «ريا» وعادت بها الحملة، ورقة صغيرة عبارة عن «علم خبر عن وزن مصوغات» تدل على أن «حسب الله» قد اشترى -فى أغسطس (آب) ١٩١٨- مصوغات من الصائغ «على محمد».

ولأن أوراقا من هذا النوع، تحمل اسم نفس الصائغ، كانت قد ضبطت فى حافظة نقود «حسب الله» عند تفتيشه على أثر القبض عليه.. مما يدل على أن العلاقة بين العصابة وبين الصائغ قديمة، فقد أصدر «كامل بك عزيز» أمره إلى مأمور القسم الصاغ - الرائد - «محمد كمال نامى» بأن يقوم بتفتيش دكان الصائغ ومنزله للبحث عما به من مصوغات مستعملة. وبهذا عاد صائغ العصابة الخصوصى - وهو الوحيد من المتهمين فى القضية الذى كان ما يزال مطلق السراح- ليدخل من جديد فى دائرة الاشتباه لكنه لم يستقر بها طويلا. فمع أن التفتيش كان قد أسفر عن عثور المأمور على كمية كبيرة من المصوغات المستعملة، قال فى تقريره إنها تشكل معظم معروضاته مما يدل على أن صاحبه يتاجر أساسا فى المصوغات المستعملة، إلا أن والدة «فردوس» وخليلها الإنجليزى لم يجدا بين تلك المصوغات، شيئا مما كانت تتزين به فى اليوم الذى اختفت فيه. وقد تبين فيما بعد، أن «على محمد» قد قام بتكسير وصهر ما كان قد تبقى لديه من مصاغ «فردوس» عقب الإعلان عن العثور على جثتها فى مقبرة «حارة على بك الكبير».

ولم يسفر تفتيش منازل بقية المتهمين عن العثور على شىء من مصوغات «فردوس» أو على قطع أخرى من ملابسها، وعندما عرض المحقق المحبس الذى عثر عليه لدى «زنوبة» -زوجة «حسب الله» الجديدة- على «سيد عبدالرحمن» وسأله عما إذا كان هو المحبس الذى أخذته «فردوس» من اصبعه، أثناء جلوسهما معا فى الخمارة، قال إنه يشبهه، لكن قياسه له، كشف عن أنه أوسع قليلا من حجم إصبعه..

وبتحقيق هذه النقاط الثلاث ركز المحقق اهتمامه على وقائع الساعات القليلة التى سبقت اختفاء «فردوس» لينتهى من ذلك كله إلى أنها قد اختفت بعد الساعة الثالثة من عصر يوم الجمعة ١٢ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩٢٠، وقتلت خلال الساعات القليلة التى تلت ذلك، وليحصر شبهته فى خمسة أشخاص، رتبهم ترتيبا تنازليا طبقا لما كان لديه من أدلة مادية ضد كل منهم: فاحتلت «ريا» و«حسب الله» المرتبة الأولى، باعتبارهما ساكنا الغرفة التى عثر على جثة الفتاة فى أرضيتها، وتلاهما «محمد عبدالعال» الذى ضبطت فى منزله قطعة من ملابسها، وأخيرا «سكينة» و«سيد عبدالرحمن» اللذين كانا آخر من شوهدت «فردوس» معهما..

وانتقل المحقق من ذلك، إلى محاولة اثبات الصلة بين الخمسة المشتبه فيهم، فأعاد الاستماع إلى أقوال الشهود الذين أكدوا أن العلاقة الزوجية بين «ريا» و«حسب الله» ماتزال قائمة. وأن الصلة بين «سكينة» و«محمد عبدالعال» ما تزال قائمة كذلك على الرغم من طلاقهما. وعرض «سيد عبدالرحمن» على الأربعة، فلم يتعرف عليه أحد منهم سوى «سكينة» التى قالت بأنها لم تلتق به سوى فى اليوم الذى اختفت فيه «فردوس»، وقد أيدها فى ذلك، وأضاف أنه لا يعرف الثلاثة الآخرين..

ومع أن «فاطمة بنت محمد على» - زوجة عوف العجوز- كانت تجلس فى موقعها تحت فانوس الإضاءة، أمام منزل «ريا» فى اللحظة التى دخلت فيها «فردوس» إلى المنزل بصحبة «سكينة» -كما اعترفت «ريا» بذلك فيما بعد- إلا أنها لم تتعرف على صورة الفتاة عندما عرضها عليها المحقق، سائلا إياها عما إذا كانت قد رأتها تدخل المنزل، عصر اليوم الذى قتلت فيه، كما لم تستطع أن تتذكر ما إذا كانت قد رأت «حسب الله» أو «محمد عبدالعال» وهما يدخلانه فى ذلك الوقت، قائلة بأنها تعودت على رؤيتهما وهما يدخلان البيت ويخرجان منه، مما يجعلها عاجزة عن الجزم بذلك.. بينما اعتذر زوجها بأنه يترك لها تجارته عند الظهر، ويدخل إلى منزله لينام، بسبب شيخوخته ومرضه، وبالتالى فإنه لم يكن يجلس فى موقعه أمام باب منزل «ريا» فى الوقت الذى دخلت فيه «فردوس» إليه، فلا يستطيع أن يشهد بأنه رآها وهى تدخل، ولا يستطيع أن يجزم بأن كلا من «حسب الله» و«محمد عبدالعال» قد ظهرا بمنزل «ريا» فى ذلك الوقت..

أما وقد عجز المحقق عن العثور على شهود يشهدون بوجود الضحية، أو أحد من الخمسة المشتبه فيهم، على مسرح الجريمة فى لحظة وقوعها، فقد كان منطقيا، أن يطلب من كل منهم، أن يحدد المكان الذى كان به فى اللحظة التى قتلت فيها «فردوس». وفى هذا السياق بدا «حسب الله» أحسن الجميع حظا، إذ وجد مكانا بعيدا عن مسرح الجريمة، يستطيع أن يجد مبررا منطقيا لادعائه بأنه لم يغادره طوال

ذلك اليوم، وهى الغرفة التى استأجرها ليقيم فيها مع زوجته الجديدة، والتى بدا معقولا ألا يغادرها طوال اليوم التالى لزفافه... بينما بدا موقف «ريا» هو أكثر المواقف سوءا، خاصة حين وجدت التحقيق يتركز حول الجثة الوحيدة التى أمكن - عن غير طريقها - التعرف على اسم صاحبتها..

ولأن مسرح الجريمة، كان هو ذاته الغرفة التى تسكنها ولا تستطيع أن تتنصل من اقامتها بها، فقد كان عليها أن تجد مكانا تثبت وجودها به لحظة وقوعها، وأن تجد - فضلا عن ذلك - مبررا لاختيار غرفتها من دون غيرها لاتمامها بها... أما وقد فاجأها المحقق بسؤالها عما فعلته طوال يوم الجمعة الذى قتلت «فردوس» وبالذات بين عصره ومغربه، فإنها لم تجد مخرجا من هذا المأزق إلا بالعودة للتأليف الفورى الذى يمليه خيال ركيك يتوهم أن المحقق سيصدق ما تقوله من دون محاولة التثبت منه، فادعت أنها ما كادت تغادر المنزل مع ابنتها - فى التاسعة من صباح ذلك اليوم - حتى قابلت رجلا لا تعرفه، عرض عليها أن تقوم بغسل ملابسه، فتوجهت معه إلى حنفية الصدقة القريبة من بنك «خوريمى» وقامت بالمهمة التى كلفها بها مقابل أربعة قروش ثم عادت عند الظهر إلى غرفتها فلم تلبث بها، إلا ريثما تناولت طعام الغداء، ثم أغلقت بابها، وغادرتها مع ابنتها إلى خمارة «ايدا بكونو» فأمضت الوقت بين العصر والمغرب، مع صنيقة لها تعمل خادمة بها، هى «زينب بنت ابراهيم».

ولم تصمد هذه الرواية طويلا بل انهارت فور اتمام بثها، إذ ما كاد المحقق يستمع إليها حتى أرسل فى استدعاء «زينب» التى أكدت أنها تعرف «ريا» وشقيقتها «سكينة» بحكم ترددهما على الخمارة التى تعمل بها. لكنها نفت أن تكون قد رأتها أو جلست معها كل تلك الساعات يوم الجمعة السابق مباشرة. وقالت بأنها لم ترها هى أو شقيقتها منذ أربعة اسابيع. وحين واجه المحقق بينهما، أصرت «ريا» على أقوالها، وحاولت أن توحى لـ «زينب» من طرف خفى بأن تؤيدها. لكن المرأة تجاهلت اشاراتها وقالت لها أمام المحقق:

- وأنا ح انكر ليه؟... لو كنتى جيتى... كنت اقول.

وللمرة الثانية - منذ بداية التحقيق - كذبت «بديعة» أمها، ليس فقط لأن «ريا» كانت قد أوصتها بأن تنكر كل شىء، فعجزت - بسبب صغر سنها - عن أن تميز بين ما يستحق الانكار، وما يستوجب التأييد، واعتمدت خط انكار كل شىء، بما فى ذلك أقوال الأم نفسها... ولكن لأنها اعتبرت كذلك القول بأن أمها تقوم بغسل ملابس الآخرين، فى الميادين العامة وعند حنفية الصدقة، ومقابل أجر، إهانة للأم، فقالت لرئيس النيابة عندما واجهها بالواقعة:

- لأ ياافندى... أمى مش بتغسل هدوم حد.

وحتى تلك اللحظة، لم يكن التحقيق قد حسم التضارب بين رواية «سكينة» التى قالت بأنها تركت «فردوس» مع «سيد عبد

الرحمن» بالخمارة، وعادت إلى منزلها. وبين روايته التى تقول بأنها كانت تنتظرهما خارج الخمارة، وصحبتهما إلى المصبغة، ثم انصرفت مع «فردوس» وعاد هو إلى دكانه... ومع أن العثور على جثة الفتاة فى غرفة «ريا» كان كفيلا بتركيز الشبهات حول «سكينة»، فإن المحقق لم يكن قد استبعد بعد احتمال أن يكون «سيد عبد الرحمن» يعرف «ريا»، أو أن يكون هو الذى قاد الفتاة إلى منزلها - بعلم «سكينة» أو من دون علمها أو مشاركتها - فكان عليه أن يثبت صدق قوله بأنه ترك الفتاة مع «سكينة»، وأن يبرهن على صدق ادعائه بأنه كان فى دكانه فى الوقت الذى ارتكبت فيه الجريمة. وقد استشهد على صحة الواقعة الأولى بترجمان يعرفه، ذكر أنه قابله وهو فى طريقه إلى المصبغة بصحبة «سكينة» و«فردوس»، فتبادل معه التحية، واستشهد على الواقعة الثانية باصحاب الدكاكين المجاورة لدكانه. لكن الترجمان الذى استشهد به، خذله وقال أنه لا يذكر بأنه قد قابله فى ذلك اليوم. ومع أن اصحاب تلك الدكاكين قد اكدوا بأنه تعود أن يمضى الفترة بين عصر كل يوم ومغربه فى دكانه، إلا أن أحدا منهم لم يستطع أن يجزم بأنه رآه فى ذلك اليوم تحديدا.

ولم تكن «سكينة» أسعد حظا منه أو من «ريا» إذ لم تكن تتوقع أن يسألها المحقق عما فعلته بعد أن تركت «فردوس» مع «سيد عبد الرحمن»، خاصة بعد أن شهدت أم الفتاة الغائبة بأنها لم تعد إلا عند الغروب، ولم تمكث فى غرفتها سوى دقائق غادرتها بعدها، فلم تعد إليها مرة أخرى إلا عند منتصف الليل، مما اضطرها لتأليف قصة مضطربة من النوع الذى يمليه خيال «آل همام» الركيك.... وفى ايحاء خفى بأنه كان لدى الشاب والفتاة برامج خاصة بهما دفعتها للتخلص منهما قالت أنها غادرت الخمارة بعد أن لاحظت أنهما لا يريدان الانصراف، لتعود إلى غرفتها فتتناول طعام الفداء، ثم تصعد إلى الطابق الثانى فتمضى بعض الوقت مع «نظلة أبو المجد» - صاحبة المنزل - التى ارسلتها لكى تشترى لها أقة بطاطة، وبعد أن عادت لها بها غادرت البيت إلى خمارة «سبيرو» فظلت بها إلى المغرب، وعلى أثر ذلك عادت إلى غرفتها فنامت إلى صباح اليوم التالى.

وهى رواية سرعان ما تبددت - كالعادة - فور انتهاء بثها، فقد كذبت صاحبة المنزل ادعاءها بأنها قد صعدت إلى مسكنها فى ذلك الوقت أو فى أى يوم آخر، كما نفت الادعاء بأنها كلفتها بشراء بطاطة.. ولم يستطع «قسطنطين بكسس» - مدير خمارة «سبيرو» - أن يجزم بأنه قد رآها فى تلك الليلة. وعلى عكس ما قدرت، فقد كشفت شهادته الشبهات ضدها، إذ كشفت عن الطريقة السفيهة التى كانت تبدد بها النقود على طلب الخمر وشراء الطعام لها ولأصدقائها، وعندما سألها المحقق عن مصدر ما كانت تنفقه قالت:

- «هو ربنا يخلق بنى آدم وينساه».

وكان «عبد العال» قد بنى دفاعه على

الادعاء بأنه غادر الاسكندرية إلى قريته، عقب طلاقه من «سكينة» قبل اربعة عشر شهرا، ولم يعد إليها إلا منذ خمسة وعشرين يوما، لكى يصبح بذلك بعيدا عن مسرح الجرائم التى وقعت خلال تلك الفترة، فيما عدا جريمة مقتل «فردوس» التى لم يستطع أن ينكر وجوده بالمدينة وقت وقوعها، فضلا عن أنه كان عليه أن يجد تفسيرا للعثور على فانلتها فى منزله.

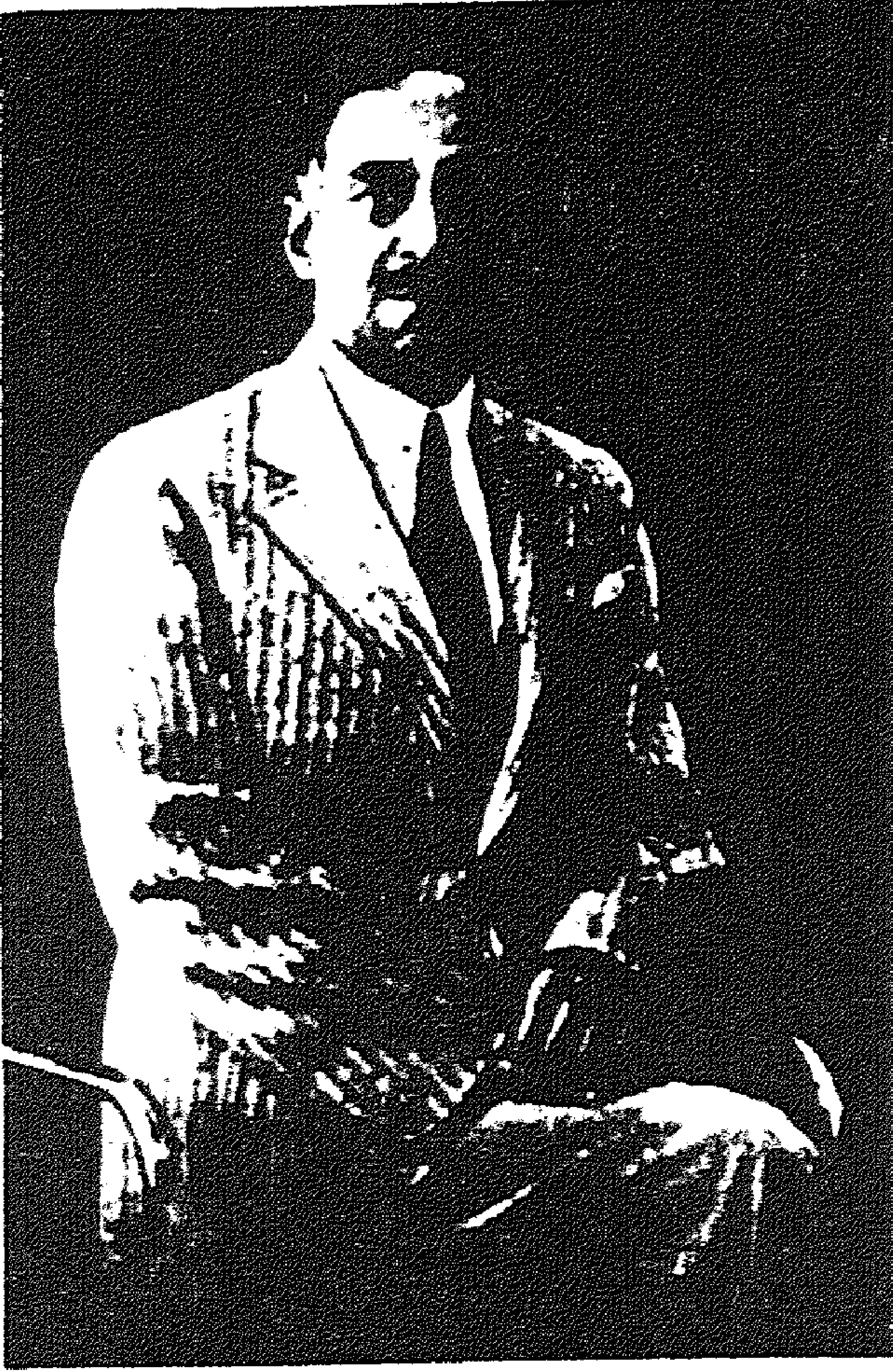
والغالب أنه كان قد اتفق مع شقيقه - اثناء تفتيش المنزل - على الادعاء بأنه اشترى الفانلة من «سوق الجمعة» بالاسكندرية فى العام الماضى، وقبل سفره إلى قريته، وأخذها معه، ثم عاد بها عند عودته... لكنه اضطر إلى تغيير هذه القصة عند سؤاله فى التحقيقات، بعد أن تنبه إلى أن المحقق سيطالبه بتحديد اسم البائع التى اشتراها منه، وقد يستطيع التوصل إلى دلائل يثبت بها كذبه، فاستبدلها - من دون أن يخطر شقيقه - بقصة بائع اسيوط الجوال الذى اشترى منه الفانلة وقميصا وبطانية - كلها من الملابس والمفروشات المستعملة فى الجيش الانجليزى - منذ خمسة شهور..

وهكذا وقع التناقض بين أقواله وأقوال شقيقه الذى تمسك بالرواية المتفق عليها فيما بينهما. ووقع التناقض بين اقوالهما وأقوال «نظلة بنت حسن» - زوجة الأخ- التى ذكرت أن شقيق زوجها لم يغب فى قريته سوى ثلاثة أشهر فقط، عاد بعدها إلى الاسكندرية منذ شهرين ونصف الشهر... واضافت أنها لم تر الفانلة إلا منذ خمسة أيام فقط. وأن «عبد العال» قد عاد بها من الخارج، وقال لها أنه اشتراها من «سوق الأحد»، فلما لاحظت أن أحد أكمامها، وجزء من ظهرها مبلل بالماء، سألته عن السبب. فقال لها أنه كان يعرضها على زميل له فوقعت منه وتلوثت بالاتربة، مما اضطره إلى شطف الأماكن التى تلوثت بالماء. واضافت أنها اعادت غسلها، واحتفظت بها فى درج «البوريه» إلى أن عثرت الشرطة عليها عند تفتيش المنزل.

وكان طبيعيا أن تستفز تلك الاقوال «محمد عبد العال»، إذ كانت تهدم أركان دفاعه، فما كاد المحقق يواجهه بها، حتى شن هجوما ضاريا على زوجة شقيقه، وقال للمحقق:

- دى كذابة... وعيانة بدماغها... وكلامها مايمشيش على.

وازاء اصرار «محمد عبد العال» على روايته، لم يجد «كامل بك عزيز» مفرا من تحقيق دفاعه، بالبحث عن البائع الجوال الذى يدعى أنه اشترى منه الفانلة، والبحث عن البطانية التى يقول أنه اشتراها من نفس البائع. وبعد أن حصل منه على البيانات التى تسهل هذا البحث، أرسل برقيتين إلى مدينة اسيوط، الأولى إلى مأمور شرطة البندر - المسؤول عن الأمن فى المدينة ذاتها - وقد أرسلها فى ٢١ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ - يطلب فيها «البحث عن يوسف محمد المقيم بسيدى جلال أو بجهة أخرى بالبندر، وهو بياع سريح عمره ٣٠ سنة، متوسط الطول، رفيع، قمحى اللون، له شارب أسود يقال


كامل عزيز

أنه يبيع فانلات وخلافها. وارساله مع مخصوص. وارسال جميع ما عنده من الفانلات الصوف» أما البرقية الثانية التى أرسلت فى اليوم التالى- فكانت موجهة إلى مأمور شرطة المركز - المسؤول عن الأمن فى القرى التابعة له - وقد طلب إليه فيها، أن يأمر فورا «بقيام أحد حضرات الضباط لمنزل ليلة بنت عيد - والدة محمد عبد العال المتهم فى قضية اختفاء النسوة بالاسكندرية - ومنزل زوجته نور عبد الفتاح سويفى، بناحية قرية موشا، لضبط ما قد يوجد بالمنزلين من الملابس والبطاطين والمصوغات وارسال الاشياء المذكورة والحرمتين مع مخصوص إلى نيابة الاسكندرية»....

ولأن «يوسف محمد» كان شخصية وهمية، ابتكرها خيال «محمد عبد العال»، فقد عجزت شرطة «اسيوط» عن العثور عليه. ولأن قصة البطانية التى اشتراها مع الفانلة، كانت هى الاخرى قصة وهمية، فإن تفتيش منزل «أم عبد العال» ومنزل صهره - الذى كانت زوجته قد انتقلت للاقامة فيه بعد سفر زوجها - لم يسفر إلا عن العثور على غطاء رخيص من صوف الاغنام مما يغزل وينسج على مغازل وأنوال يدوية، ويشيع استخدامه فى الصعيد... فضلا عن كمية من الملابس التى زفت بها «نور» إلى زوجها قبل أقل من شهرين، وصورة زفاف «محمد عبد العال» إلى «سكينة»... ومع أن مظاهر الفقر التى واجهت اليوزباشى «محمد صادق كمال» - معاون شرطة مركز «اسيوط» الذى قام بالتفتيش - كانت كافية لكى يقتنع بأن السؤال عما تحوزه الحرمتين من مصوغات، أمر مضحك، فإنه حين لم يجد شيئا منها، أمر بحفر أرض المنزلين، ظنا منه أنهما قد أخفتا مظاهر الثراء، وأدلة الاتهام، فى باطن الأرض فلما لم يجد شيئا. أمر بترحيل

الحـــرمـــتـــين مع مـــخـــصـــوص إلى «الاسكندرية»...

وبهذا انهار دفاع «محمد عبد العال»، كـمـا انهـارت دفـاعـات الأربعـة الآخـرين المشتبه فيهم، حتى البرىء منهم وهو «سيد عبد الرحمن».

لكن ذلك لم يكن يكفى من وجـهـة نظر المحقق لاثبات التهمة ضدهم فى قضية مقتل «فردوس»، بل كان يكفى فحسب...، لتكثيف تلك الشبهات ضدهم. والحقيقة أن الاسلوب الذى اتبعه «كامل عزيز» فى تحقيقاته، كان قد نجح فى نقل سلطات التحقيق إلى موقف الفعل بدلا من موقف رد الفعل الذى كان سائدا فى التحقيقات التى جرت قبل ذلك. فقد انقذه التركيز على «قضية فردوس» من مرويات «ريا» التى أعطت جميع الضحايا اسما حركيا واحدا هو «فاطمة»، وأخذت تميز بينهن بالنقاط البيضاء على عيونهن. وبذلك وضعها - لأول مرة منذ بداية التحقيق - فى موقف الدفاع، كما نجح - كذلك - فى كشف كثير من تناقض الاقوال والمصالح بين المتهمين، وخاصة الشقيقتين «ريا» و«سكينة» اللتين لم تجد كل منهما مفرا من الدفاع عن نفسها، حتى لو أدى ذلك إلى توجيه الشبهات نحو الأخرى، او الاعتراف بأمور كانت تعلم أنها سوف تسىء إلى موقفها القانونى.

والغالب أن «ريا» كانت ترى أنها قد تحملت فوق ما تطيق من المسؤولية بالجثث الاحدى عشرة التى عثر عليها فى حجرتها. لذلك وجدت من العدل أن تحمل «سكينة» مسؤولية عملية «فردوس»، خاصة وأنها كانت اكثر النقاط سوءا فى موقفها القانونى،... فما كاد المحقق يسألها تفسيرا لوجود جثة الفتاة مدفونة فى غرفتها، حتى قالت له:

- اسأل «سكينة» عليها... لأنها اللى جابتها.

ثم أضافت ردا على اسئلته، بأنها لا تعرف الفتاة ولم تكن موجودة فى غرفتها حين اصطحبتها «سكينة» إليها ولكنها سمعت كل الناس تقول بأن «فردوس» خرجت مع «سكينة» ثم اختفت بعد ذلك... وحين حاصرها المحقق بأسئلته لينتزع منها اعترافا صريحا بأن «سكينة» هى التى سحبت الفتاة إلى حجرتها، تراجعت فجأة، مكتفية بما أثارته فى نفسه من شكوك ضد شقيقتها، وعندما واجهها بأقوالها... قالت له بوقاحة:

- يابيه حرام عليك.... بقى بذمتك أنا قلت الكلام ده؟!.

ويبدو أن ذلك هو ما دفع «سكينة» لأن ترد عليها التحية بأحسن منها، إذ جزمت بأن شقيقتها تعرف «فردوس» بحكم تردد «ريا» عليها كل يوم فى «بيت أبو المجد»، وأنهما تعودتا أن تتبادلا الاحاديث كلما التقتا، ولما ذكر لها المحقق أن «ريا» تنكر تماما، كل معرفة أو صلة لها بالفتاة، تساءلت باستنكار بالغ: ما تعرفهاش إزاى؟

ومع أن الخيوط التى استطاع «كامل عزيز» التوصل إليها، لم تكن تكفى لحسم

القضية التى كانت ماتزال مفتوحة على مصراعيها إلا أنها كانت قد جعلتها أكثر تحديدا، خاصة بعد أن وصل تقرير الطبيب الشرعى، الذى حدد المجال الزمنى لوقوع الجرائم بين يناير (كانون الثانى) ونوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، وحدد أعمار معظم الضحايا، اللواتى كان قد عثر على جثثهن حتى ذلك الحين بين العشرين والثلاثين. وأكد أن العظام التى عثر عليها فى المنازل السابقة التى كانت تسكن بها «ريا» ليست عظاما بشرية، ولكنها عظام حيوانات.

وكان حرصه على اعادة تفتيش البيوت الاربعة التى عثر بها على الجثث، بمعرفة مساعدين له من وكلاء النيابة - هو الذى قاد إلى الكشف عن الجثة الثالثة والأخيرة فى أرضية الغرفة التى كانت تسكنها «سكينة» بـ «بيت الجمال» رقم ٥ حارة ماكوريس.

وكان «ابراهيم يحيى» - أحد هؤلاء المساعدين - يقوم باعادة تفتيش الغرفة، حين لاحظ بروز قطع من القماش الاسود، من بين الاتربة، فشك فى الأمر، وأمر العمال بمواصلة الحفر فإذا به أمام جثة، كاملة هى جثة «سليمة ابراهيم الفقى» - أو «أم فرحات» - بائعة الجاز التى كانت أول الضحايا اللائى قتلن فى غرفة «سكينة»... وآخر من عثر على جثته ممن دفن بها. وكانت جثة «أم فرحات»، التى عاشت وماتت من دون أن تلتقى وجها لوجه بأحد الباشاوات، أسعد ... من صاحبتها،

فقد كشف عنها فى اللحظة التى دلف فيها حضرت صاحب السعادة «محمد ابراهيم باشا» - النائب العمومى - إلى ديوان قسم شرطة اللبان، لكى يشرف بنفسه على التحقيق، فانتقل بصحبة «كامل بك عزيز» - وكيل أول نيابة الاسكندرية والقائم بعمل رئيس نيابتها ومحقق القضية - إلى حجرة سكينة بـ «حارة ماكوريس» وعاين بنفسه جثة «أم فرحات»، ثم انتقل بعد ذلك إلى بقية البيوت، قبل أن يعود مرة أخرى إلى ديوان القسم ليراجع التحقيق مع المحقق ومساعديه.

ولابد أن سوء تفاهم ما، قد حدث اثناء تلك المراجعة، بين النائب العام ووكيله الأول، انتهى باعتكاف «كامل بك عزيز»، وعدم عودته لاستئناف التحقيق فى الموعد الذى كان قد حدده لذلك، وهو الثالثة والنصف من عصر نفس اليوم.

وبعد ساعة اتصل به «محمود صادق يونس» - رئيس نيابة الاسكندرية - بالمنزل، فاعتذر له بأنه مجهد ولا يستطيع مواصلة التحقيق. وعلى الفور انتدب النائب العام «سليمان بك عزت» - وكيل أول نيابة القاهرة - الذى جاء بصحبته، لإتمام تحقيق القضية.

وهكذا حدثت المفاجأة الدراماتيكية.... ولكن على جبهة النيابة.. وليس على جبهة المتهمين.





من خفراء الدرك الذين يقومون بحماية الأرواح والأموال .. وقد تعرضوا لهجوم عنيف بعد الكشف عن الجرائم واكتشاف أن بعضهم كان متواطئاً

الفصل السابع

انهيار خط الإنكار التام











بانتقال قضية «ريا وسكينة» إلى يد «سليمان بك عزت» - وكيل أول نيابة القاهرة - استقرت القضية في يد الرجل الذى سيعيد تحقيقها منذ البداية وحتى النهاية، والذى سينجح في فك طلاسمها، فيدفع المتهمين إلى الاعتراف بجرائمهم، ويسعى لإثبات التهمة على الذين أصروا على الانكار منهم، ويترافع ضد الجميع في جلسات المعارضة في قرارات الحبس، ثم يصدر تدريجيا قرارات الإفراج عن المحبوسين ممن اتضح انه لا صلة لهم بالجرائم، ويوقع على قرار الاتهام الذى شمل أسماء المتهمين الحقيقيين، ويترافع ضدهم أمام قاضى الاحالة، ثم أمام محكمة جنايات الاسكندرية، إلى أن يصدر الحكم باعدام ستة منهم..

ولأن القضية - التى تعرف فى الأوراق القضائية بالقضية رقم ٤٣ جنايات اللبان لسنة ١٩٢٠ - كانت تجمع بين الوضوح التام، بحكم سهولة استنتاج اسماء المتهمين فيها، والغموض التام بحكم صعوبة اقامة الدليل عليهم، فقد كان مستحيلا أن ينفرد «سليمان عزت» بتحقيقها، ولذلك احتفظ بتقسيم العمل الذى قام به سلفه «كامل بك عزيز» فأحال الوقائع التفصيلية على نفس المعاونين الأكفاء الذين كانوا يساعدون سلفه، وفى مقدمتهم الأساتذة «على بدوى» و«إبراهيم يحيى» و«حسن فريد» وكلفهم بعرض شعور الضحايا وما عثر على جثثهن من ملابس، فضلا عما ضبط فى منازل المتهمين والمشتبه فيهم من ملابس ومصوغات على أسر الضحايا، لعلهم يتعرفون على الجثث أو على شىء من متعلقات أصحابها، وبتحقيق ما قد يسوقه المتهمون من دفاع عن أنفسهم، واختص نفسه بالتحقيق فى الوقائع الرئيسية، ومع المتهمين الرئيسيين..

والحقيقة أنه لم يكد يبدأ التحقيق، حتى أدرك مدى العناء الذى سيواجهه فى التعامل مع متهمين من النوع الذى ليس لديه ما يدافع به عن نفسه، سوى سلسلة من الأكاذيب غير المحبوكة التى يفرض عليه واجبه أن يقوم بتحقيقها على الرغم من ثقته فى كذبها. وكان قد اطلع بسرعة على أقوال «ريا» التى أدلت بها خلال الأسبوع الأول من التحقيق، قبل أن يستدعيها - فى الرابعة والنصف من عصر الثلاثاء ٢٣ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩٢٠ - ليفتح تحقيقه للقضية باعادة استجوابها، فإذا بها تكرر نفس الأكاذيب التى ظلت تسوقها منذ بداية التحقيق، فتواصل لعبة تجهيل اسماء الضحايا - فيما عدا «نظلة» - باستخدام اسمائهم الأولى، وبمنح الأسم الواحد لأكثر من ضحية، وتركز اتهامها فى كل من «عرابى» و «الجدر» و«الكويجى» و«عبد الرازق».

ولم يكن الجديد فى جلسة التحقيق الأولى هو مرويات «ريا» المكررة، بل اسئلة المحقق، الذى توقف عند الثغرات المنطقية

فى تلك المرويات، وخاصة إدعاءها بأنها كانت تترك الغرفة لأحد الرجال الثلاثة لينفرد بها مع امرأة، ثم تعود فلا تجدهما، مع أن المنطقى - كما قال لها المحقق - أن تظل قريبة منهم، لتلبى طلباتهم، ولتحصل فى نهاية المدة، على إيجار الغرفة، واستنتاجها بأن القتل كان يتم خلال تلك الفترة، مع أنها لم تر بعينيها مثلا، ولم تجد بالغرفة فى كل مرة أثرا يدل على حدوثه، بل ولم تكن - طبقا لرواياتها - تدخل إلى الغرفة عقب انصرافهم، بل كانت تتجه إلى منزل شقيقتها «سكينة» بعض الوقت، ثم تعود لتفرش حصيرة تنام عليها فى الفناء.. وهى ثغرات حاولت «ريا» أن تبررها بمرويات جديدة، لم يكن منطقها أقل اختلالا، وعندما حاصرها المحقق بالأسئلة، لم تجد وسيلة تهرب بها، إلا بتشتيت انتباهه عنها، بالتركيز على إتهام «عديلة الكحكية» التى وصفتها بأنها «واحدة من النسوان الماشيين» وأدعت بأنها صاحبة الفكرة فى تأسيس بيت «حارة النجاة»، وأنها كانت ترتب مواعيد لرجال يدخلون مع نساء، ثم يخرجون وحدهم، ولما أبدت لها ملاحظة حول ذلك قالت لها «عديلة» :

- اسكتى يامره... أوعى تجيبى سيرة كلام من ده... لأن «عرابى» و«عبد الرازق» قتالين قتلة... ويعدين يموتوكى زيهم...!

وعند هذا الحد، أدرك المحقق أن «ريا» قد عادت - مرة ثانية - لتقود التحقيق إلى مسارات فرعية، تحقق لها هدفها فى ملء صفحاته بالاكاذيب والثرثرات، وفى إشاعة المسئولية بين كثيرين، بحيث لا تستقر على أحد بذاته فقرر التوقف عن الاستمرار فيه، وأجله إلى صباح اليوم التالى، بعد أن يعيد قراءة ملف القضية، ويطلع على محاضر التحقيقات السابقة، سواء تلك التى أجرتها الشرطة، أو التى أجراها وكلاء النيابة السابقون. وقد كشفت له تلك القراءة، عن خطة الدفاع التى يتبعها المتهمون، وفضحت ما بها من ثغرات، ومكنته من وضع خطة مضادة، تضع قيادة التحقيق - بمقتضاها- بين يديه، وتقوده إلى اكتشاف الحقيقة...

وهكذا استأنف «سليمان عزت» التحقيق فى صباح اليوم التالى، باعادة فتح ملف «سكينة» الذى كان شبه مغلق منذ قبض على «ريا» على إثر الكشف عن المقبرة الرئيسية فى غرفتها. وكان مما شجعه على ذلك، الاقوال الاضافية التى أدلت بها «سيدة سليمان» - زوجة «محمد السمنى» - مساء يوم السبت ٢٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، والتى لم يكن أحد قد ناقشها فيها، بسبب الكشف المتوالى عن المقابر الاربعة، وانشغال المحققين بالاستماع إلى الطبعات المختلفة من أقوال «ريا»... وبالقبض على من تتهمهم بالمسؤولية عن قتل ودفن ما عثر عليه بتلك المقابر من جثث.....

وكان اختيار «سليمان بك عزت» لأقوال «سيدة سليمان» لتكون البداية الفعلية لتحقيقاته، اختيارا صحيحا من الناحية الفنية، إذ كانت أول شاهد رؤية فى القضية، تقول بأنها رأت بعينيها اثنتين من

الضحايا - هما «زنوبة الفرارجية» و«فاطمة العورة» - تجلسان فى غرفة جارتها «سكينة» مع فريق من الرجال، ثم سمعت بعد ذلك صوت صرخات عند الفجر، وعثرت على خرق ملوثة بالدماء فى الغرفة وإلى جوارها.

وكانت المخاوف قد بدأت تحاصر «سيدة سليمان» منذ اللحظة التى اقتيدت فيها إلى قسم الشرطة، بعد الكشف عن الجثة الأولى، إذ أدركت على الفور أن «حسب الله» لم يكن يضاجع المرأة العوراء - كما توهمت حين اطلت عليهما، يومذاك، من المنور، عبر نافذة غرفة «سكينة» - بل كان يستعد لدفنها... ولأنها كانت قد حصلت على جنيهين مقابل كتمان ما رأته، فقد دفعها الخوف من افتضاح الأمر، والخشية من اقحام اسمها فى الاتهام، إلى الإدلاء بأقوالها الأولى التى نأت فيها بنفسها عن البيت تماما، فزعمت بأنها كانت تغادره فى الصباح، لتبيع بضاعتها من البيض، فلا تعود إليه، إلا بعد الغروب، بل وأكدت بأنها لم تر امرأة غريبة تدخل غرفة «سكينة»، مع أن «سكينة» نفسها، كانت قد اعترفت بأنها تؤجر غرفتها للعشاق.

وقد استثمر الصاغ «كمال نامى» - مأمور قسم شرطة اللبان - هذه المخاوف، التى ازدادت وطأتها عليها، بعد صدور قرار النيابة بحبسها على ذمة التحقيق فى تخشيبة القسم، وعمل على تنميتها فلفت نظرها إلى أن مسؤوليتها القانونية ستكون أفدح من مسؤولية المجرمين الحقيقيين، بحكم أن زوجها هو المستأجر الأصلى للطابق الذى عثر على ثلاث جثث بأرضية إحدى غرفه... ونبهها إلى اشارات «سكينة» الخبيثة فى أقوالها أمام المحقق، إلى أن ابنها «أحمد السمنى» كان من بين الذين استأجروا منها الغرفة، فأثار بذلك مخاوفها على نفسها، وعلى ابنها، ودفعها إلى محاولة القفز من السفينة الغارقة، وما كادت تعترف له بما شاهدته وسمعته، حتى قادها إلى المحقق لتدلى أمامه بأقوالها، التى لم يكن أحد قد ناقشها فيها، منذ أدلت بها مساء يوم السبت، حتى استدعاها «سليمان بك عزت» لهذا الغرض صباح يوم الأربعاء..

ولم تضف «سيدة سليمان» إلى تلك الأقوال، عندما أكدتها من جديد على مسامع المحقق، سوى بعض التفصيلات القليلة التى لم تغير من جوهرها، فوجهت بذلك ضربة عنيفة إلى دفاعات «سكينة» التى كانت تظنها حصينة. إذ لم تشهد - فحسب - بأنها رأت اثنتين من الضحايا فى زيارتها، مما يكذب ادعاء «سكينة» بأنها لا تعرف أسماء الضحايا أو أوصافهن، بل حددت - كذلك - أسماء ستة من الرجال قالت أنهم يترددون عليها، وأنها رأتهم يجالسون الضحيتين فى غرفتها.. كان على رأسهم زوج شقيقتها «حسب الله» وزوجها «محمد عبد العال» فضلا عن رفيقها «سلامة» وأصدقاءها الثلاثة الذين تعودت أن تزين بهم مجلسها فى «خمارة سبيرو»، فهدمت بذلك ادعاء «سكينة» بأنها امرأة وحيدة، لا رجل لها،

وكشفت عن أن لديها مددا من الرجال يستطيع أن يقتل ويحفر ويدفن..

وكانت «سكينة» - حتى ذلك الحين - تصر على أن مطلقها «محمد عبد العال»، لم يتردد عليها أثناء إقامتها بـ «بيت الجمال» إذ سافر إلى قريته قبل أن تنتقل إليه من «حارة النجاة»، ولم يعد إلى الإسكندرية إلا بعد انتقالها منه لتقيم بـ «بيت أبو المجد» المواجه له. فجاءت أقوال «سيدة» لتكذب هذا الادعاء، ولتكشف عن أن «عبد العال» قد أقام معها، بذلك البيت لمدة شهرين، قبل طردها منه، فهدمت بذلك ركنا أساسيا من أركان دفاعهما المشترك.. وهو ما استفز «سكينة» التى لم يكد المحقق يواجهها بأقوال «سيدة» حتى ثارت ثورة عارمة فى وجهها، وفرشت لها الملاءة أمام المحقق، وقالت لها:

- وطليقى وجوز أختى مالهم.. تجيبى سيرتهم ليه؟.. تحبى نجيبوا لك جوزك.. وابنك.. ونحكوا ع المستخبى؟. مش أنت اللى قفلت باب أودتك على «خضرة» والجدع اللى جابته م الخمارة.. وقاسمتيها فى النص ريال اللى اعطاه لها.. وبالأمارة كان خمسة تعريفه؟

ولم يجد المحقق وسيلة للحيلولة دون اشتباك المرأتين فى عراك بدنى أمامه، إلا بإبعاد «سيدة» عن غرفة التحقيق، لينفرد بـ «سكينة» فيستجوبها عن الواقعتين اللتين وردتا فى أقوال جارتها. وكما كان متوقعا فقد انكرتهما تماما، ونفت أن تكون «زنوبة الفرارجية» قد دخلت إلى حجرتها، أو تناولت بها طعاما، قائلة بأن «سيدة» لم تكن فى حاجة لأن تسألها عن «زنوبة» إذ هى تعرفها بحكم الجيرة، وبحكم عملهما فى نفس المجال، فإحداهما فرارجية والثانية بائعة بيض. وأضافت أنها كانت تقلى سمكا ذات يوم فى فناء المنزل، عندما دخل عليها صديقها «خميس المنجد»، فدعته لتناول الغداء معها ومع مطلقها «محمد عبد العال». وفى أثناء ذلك عادت «سيدة» من الخارج، فدعتها للانضمام إليهم، ولم يكن هناك أحد آخر من الرجال أو من النساء. وعادت لتركز على ادعائها بأنها ليست الوحيدة التى سكنت بالغرفة. فقد أقام بها قبلها «أم جابر» و«بطة» و«صالح»، وانها لم تسكن بها سوى عشرة أيام فقط.. ولتركز شبهات المحقق حول «محمد سليمان شكير» و«أحمد السمنى» باعتبارهما الوحيدين اللذين استأجر كل منهما الغرفة ليلة، واصطحب إليها امراة لم ترها وهى تغادرها..

ولم تكتف «سكينة» - هذه المرة - بتكثيف الشبهات حول «أحمد السمنى»، بل وسعت كذلك لاثارة الشبهات حول «سيدة» نفسها، ولتلويث سمعتها، فادعت بأنها كانت تدير غرفتها للدعارة السرية، وبأنها كانت شريكة لها فى ايراد الغرفتين، وفضلا عن ذلك فقد كانت «سيدة» - كما زعمت - تدير منزلا خاصا بها لهذا الغرض فى «محطة الرمل»..

وأنكر «محمد سليمان شكير» - للمرة الثانية - إدعاء «سكينة» واصفا إياه بأنه «كلام كذب من أوله لآخره». ودلل على ذلك بأنه لم يكن فى حاجة لاستئجار غرفتها،

ولديه غرفة بنفس المنزل. وفسر اتهامها له قائلا بأنها تحاول انقاذ نفسها من الورطة التى وقعت فيها، وبأنها اغتاظت منه، لأنه شهد بأن مطلقها «محمد عبد العال» مايزال يقيم معها. بينما تزلزلت «سيدة» حين ووجهت بأقوال «سكينة» عنها، ليس فقط لتشهيرها بأخلاقها، ولكن كذلك لما أثارته حول ابنها من شبهات، وما كاد المحقق يواجه بينهما حتى قالت لها:

- انت خبأصة.. خباصة.. وعاوزه تجرجرى ابنى ومفيش حاجة من دى حصلت.

فقالت «سكينة» باستهانة:

- خبأصة.. خبأصة.. هو ابنك بيشتغل فى ايه؟.

ولم يكن المحقق فى حاجة إلى من يبرهن له، على كذب ادعاءات «سكينة» أو يكشف له عن الخطة الدفاعية التى تقف وراء تلك الادعاءات، إذ لم يكن سعيها لاتهام «شكير» و«السمنى الابن» سوى تنويعة على نفس اللحن الذى دفع شقيقتها لاتهام «عرابى» و«الجدر» و«الكويجى» و«عبد الرازق».. وكان تشهيرها بـ «سيدة» واتهامها بأنها شريكة لها، صورة طبق الأصل مما فعلته «ريا» التى نسبت إلى «عديلة الكحكية» نفس الاتهامات، فالهدف فى الحالتين واحد، هو استغلال رعبهما - كسيدتين من الأحرار - من الاتهامات الاخلاقية، وارهابهما لكيلا تشهدا بما تعرفانه من حقائق. فلم يتردد فى مواجهتها بأنه كشف خطتها، وقال لها:

- «يظهر أنك تريدين أن توجهى الشبهة ضد السمنى الصغير لأن أمه شهدت بوجود نسوة عندك مع رجال، وبأنها سمعت صراخا آخر الليل، كما شهدت بأن «شكير» يعرف بدخول نسوة عندك.. فأردت أن تتهميهما كما اتهماك».

وجاء اكتشاف الجثة الثالثة فى غرفة «سكينة» ليهدم جانبا آخر من دفاعها، فقد فوجئت تماما حين قال لها المحقق على اثر ذلك : إذا سلمنا بأن الجثتين اللتين عثر عليهما فى غرفتك لامرأتين جاءت إحداهما بصحبة «شكير» والأخرى بصحبة «السمنى الصغير».. فمن الذى جاء بالمرأة الثالثة؟!. وكانت تلك المرة الأولى منذ بداية التحقيق، التى يرتج فيها عليها، فتعجز عن العثور على إجابة، وتلتزم الصمت التام للحظات، سألت المحقق بعدها:

- وجدتم واحدة جديدة؟.

فلما أجابها بالايجاب، قالت بعد لحظة صمت:

- يعلم ربنا!!

وكان المحقق قد لاحظ - عند مراجعته للملف القضية - أن أحداً من زملائه السابقين، لم يقم بعرض الجثث التى يتم العثور عليها، على سكان الغرف التى عثر عليها فيها، فقرر أن يستكمل هذا النقص فى التحقيق، فيعرض على «سكينة» الجثة الجديدة التى كشف عنها ظهر اليوم نفسه فى غرفتها، لكى يكشف من الأثر النفسى للمفاجأة. ويرى- كما قال فى محضره - «مايكون من أمرها عند هذه المواجهة» -



سليمان بك عزت رئيس نيابة القاهرة الذى حقق المرحلة الثانية من قضية ريا وسكينة

ومع أنها كانت قد حصنت نفسها للأمر. فلم يبد في عينيها أي أثر وهي تتأمل - على ضوء مصباحين قويين - جثة «أم فرحات» - بائعة الجاز التي تتوسد الحفرة - بنظرة جامدة، إلاّ أن لونها قد شحب تماما. وحين وضع المحقق أذنه على صدرها، لاحظ أن قلبها يدق بقوة، ولأن وجه «أم فرحات» كان مغطى بنسيج لم يستطع المحقق أن يتبين ماإذا كان من أثر ذوبان جلد الوجه أو نتيجة لالتصاق غطاء شفاف للرأس به، فقد سألها عن ذلك فأجابت:

- ده شاش.

ثم تنبهت لتسرعها في الاجابة، عندما سألها عما يدفعها للجزم بذلك، فادعت أنها سمعت الجندي الذي كان يحمل المصباح. يقول ذلك، فرددت ما قاله... واضافت مدافعة عن نفسها:

- دي محفور لها غويط.... ومش معقول أقدر أحفر كل ده.

وفي سياق دفاعها عن نفسها وعن ابنها، اضطرت «سيدة سليمان» لاستدعاء اشخاص آخرين، ولذكر حوادث أخرى لم تكن قد أشارت إليها في أقوالها الأولية، كان من أهمهم «عائشة عبد المجيد» - مقطورة «سكينة» التي كانت تقيم معها في المنزل - وقد وصفتها بأنها موطن سر معلمتها، وأكثر الناس معرفة بنشاطها في مجال الدعارة السرية. وكانت الفتاة قد حبست على ذمة التحقيق منذ ذكرت «ريا» في الطبعة الثانية من اعترافاتها، بأنها هي التي صحبت احدى البغايا إلى حجرتها بـ«حارة على بك الكبير» لكي تختلي فيه بـ «عبد الله الكوبجي»، ولم تظهر منذ ذلك الحين. ومع أن هدف «ريا» الرئيسي من هذا الادعاء كان محاولة دفعها لكي تؤيد روايتها الكاذبة في اتهام «الكوبجي»، وعلى سبيل الاحتياط، ارهابها لكي لا تدلي بمعلومات عما كانت تعرفه عن الشقيقتين، فإن الرسالة لم تكن قد وصلت إلى «عائشة» التي دفعها الخوف من اقحامها في الاتهام للمواجهة وليس للتراجع. فما كاد المحقق يستدعيها ليسألها عن طبيعة علاقتها بالشقيقتين، حتى ركزت على واقعتين كانت لديها شكوك قوية بأن وراء كل منهما جريمة ارتكبتاها.

الأولى: هي واقعة اختفاء «أنيسة رضوان»، أحد أضلاع الرباعي العاشق الذي كان يضم رفيقها «عبد الرازق» وصديقتها «عديلة الكحكية» وقد اضاء ما روته من تفاصيل عن تلك العلاقة الفموض المتعمد الذي ساقتها بها «ريا»، فضلا عن أن تلك كانت أول مرة يرد فيها ذكر اسم «محمد خفاجة» في التحقيق.

والثانية هي واقعة اختفاء «زنوبة الفرارجية» التي رأت «سكينة» وهي تأخذها من دكانها لتختفي منذ ذلك الحين، ثم رأت الشبشب الذي كانت ترتديه عند غيابها في أقدامها، بعد اختفاء الفرارجية باسابيع قليلة.

وكانت أقوال «عائشة» هي التي دفعت «سليمان بك عزت» إلى الانتقال بالتحقيق مرة أخرى من المستوى الأفقي إلى المستوى

الراسى، فقرر أن يتوقف عند واقعة اختفاء «أنيسة» ليتعمق فى تحقيقها لعله يستكشف الظروف المحيطة بالأمر. وقد بدأ هذا الانتقال بالاستماع إلى أقوال «عديلة الكحكية»، التى لم يكن أحد قد استمع إلى أقوالها بعد.

وككل امرأة من المحصنات، تمارس فى السر ما تخجل من معرفة الناس به، فقد حرصت «عديلة» فى الطبعة الأولى من أقوالها، على اخفاء كل ما قد يسىء إلى سمعتها، فتجاهلت الاشارة إلى علاقتها الخاصة بـ «محمد خفاجة» وأخفت كل ما يتعلق باللقاءات التى كانت تجمع بين الرباعى العاشق. وبعد ايماءة سريعة إلى ما صورته بأنه مصادفة جمعت بينها هى وصديقتها «أنيسة» و«ريا» تحدثت عن تردد «ريا» عليهما بالمنزل، لكى تخيط «أنيسة» جلبابين لها ولابنتها ونشأت بين المرأتين، نتيجة لذلك، علاقة خاصة لم تكن تعرف تفاصيلها حتى فوجئت بعد يومين من دخولها المستشفى بخبر غيابها، فغادرتها لتشارك فى البحث عنها، إلى أن علمت أن طفلة صغيرة حملت إليها رسالة فى الليلة التى اختفت فى صباحها، فاستنتجت من ذلك بأنها ابنة «ريا» فتوجهت إلى بيتها لتسألها عنها. وبعد أن هددتها «ريا» بفضحها دلتها على عريجى اسمه «عبد الرازق» قالت لها أنه عشيق «أنيسة» وربما تكون قد هربت معه، فلما التقت به، نفى لها ذلك، وقال لها إنه متزوج ولديه أولاد، ولا يعرف صديقتها ولم يسبق له أن رآها...

وكان منطقيا أن يجرى المحقق مواجهات عديدة، بينها وبين «عائشة» ثم بينها وبين «ريا»، ليتكشف من ذلك كله، الوجه الآخر للحقيقة، وتضطر «ريا» لأول مرة، منذ أقحمت «عديلة» فى الاتهام، إلى الكشف عن طبيعة العلاقة التى كانت تجمع بين أضلاع الرباعى العاشق، واذاعة سر سهرة العيد التى انتهت بسرقة «عبد الرازق» لكيس نقود «أنيسة» وفردة حلقها، والزيارة التى قامت بها «عديلة» لبيت «ريا» لكى تتوسط فى استرداد تلك المسروقات. وعلى الرغم من تأييد «عائشة» لأقوال «ريا» فى هذا الصدد، فقد أصرت «عديلة» على روايتها، وأنكرت هذا الجانب من الواقعة، إذ لم تكن قد قررت بعد فضح نفسها، والاعتراف بعلاقتها بـ «محمد خفاجة»

وكان من حسن حظها أن المحقق قد استمع لأقوال أقارب «أنيسة» الذين أكدوا بأن الفتاة، اختفت فى اليوم التالى لدخول «عديلة» إلى المستشفى، وهو ما كذب اتهام «ريا» بأنها التى سحبتها إلى المنزل الذى قتلت فيه، والذى كانت تصر - حتى ذلك الحين - على أنه منزل «أم أحمد النص»، وخفف من وطأة الشبهات التى كانت تحيط بها، لكنه لم يكن كافيا - بعد - لتبرئة ساحتها.

وكان من سوء حظ «ريا» أن المحقق قرر أن يستمع إلى أقوال «هانم» - ابنة «أنيسة» الصغيرة- على سبيل الاستدلال، وبعبارات متعثرة وغير مترابطة، قالت الفتاة التى لم يكن عمرها يتجاوز السادسة، انها تعرف

«بديعة» التى كانت أمها تصحبها، عند زيارتها لهم. فتكلفها «عديلة الكحكية» بالنزول إلى تحت السرير، لاحضار السكر، لتصنع القهوة، وتقدمها إلى «ريا» ثم تدعوهما إلى تناول الطعام. وبذلك كذبت ادعاء «ريا» بأنها تعرفت إلى «عديلة» عن طريق «عبد الرازق» وليس العكس.

وجاء الأوان لاستجواب «عبد الرازق» الذى لم يكن أحد قد استمع لأقواله بعد، على الرغم من مرور ما يزيد على عشرة أيام على القبض عليه.

وقد ملأ صفحات التحقيق بأكاذيب من الدرجة العاشرة، لم يعن بأن يضمنها أى ذرة من المنطق، فزعم بأنه لا يعرف «ريا» ولم يرها فى حياته سوى مرة واحدة، حين دخل - ذات يوم - الى المحششة، التى كان يديرها «محمود أبو زكاك» فوجدها تجلس فى فناء المنزل مع عدة نساء يساعدنها فى نتف ريش عدد من الأوز فى طشت من الصاج، وسمعهم ينادونها باسمها. ولما اكتشف أن الأوز ميت لعن آباءهن، لأنهن يأكلن الفطيس. وبرر اتهام «ريا» له بأنها ربما تحنق عليه منذ ذلك الحين.

وحين عرضت عليه «عديلة» قال أنه لا يعرفها، ولكنه رآها تجلس حول طشت الفطيس فى ذلك اليوم. ثم تذكر فجأة أنه رأى «ريا» مرة أخرى وهى تجلس فى خمارة مع اثنين من الصعايدة، وسمع أحدهما يحدثها عن بلاغ قدم ضدها بتهمة اخفاء امرأة... فلما سأله المحقق عما يقصده من رواية هذه الواقعة قال ببلادة:

- مش عارف والبنى آدم منا، الكلمة تطلع من حنكه.. تتكتب على جبينه!

وعندما انتقل «سليمان عزت» - بعد ذلك- إلى التحقيق بالعمق فى قضية مقتل «نظلة» أصر «عرابى» على انكار كل شىء: فهو لا يعرف «نظلة» أو أمها، أو «ريا»، أو «حسب الله»، وكرر تبريره لاتهام «ريا» له، بنفس الذريعة التافهة التى قالها فى بداية التحقيق، وهى أنها تحنق عليه، منذ كانت جارة له، واكتشف أنها تدير منزلها للدعارة السرية، وفضح أمرها بين الجيران، وسلط عليها الاطفال الذين ظلوا يشهرون بها إلى أن غادرت المنطقة. وهو تبرير لم يصمد أمام الحقائق التى كشف عنها التحقيق، خاصة بعد أن عدلت «أم نظلة» عن تحفظها فى الحديث عنه، الذى كان مصدره فى الغالب الخوف من بأسه، والرغبة فى ستر عرض ابنتها الراحلة، فأفاضت فى ذكر ما تعرفه عن صلته بالفتاة، واعترفت بأنه كان الجهة الثانية التى توجهت إليها للسؤال عنها بعد «ريا» وزوجها «حسب الله»، وفى مواجهة اصراره على الانكار، قال له المحقق:

- يستحيل أن تكون «ريا» هى التى تقتل وتدفن بنفسها... ولابد أن يكون معها رجال يقومون بالقتل والدفن...

رد عليه قائلا:

- يابيه دى معاها جوزها... وهو رجل لامؤاخذة زى الثور..

ولما طالبه بأن يجد مبررا آخر - أكثر منطقية- لاتهام «ريا» له... قال:

- دى مره بطالة... وشهادتها لا تمشى على... لأنها بهدلت أولاد الناس. ربنا يخلص الخالص.. ويشبك المشبوك..

ومع تقدم التحقيق ضاقت حلقات الحصار حول «ريا» التى كانت حتى ذلك الحين - تتحمل مع شقيقتها، المسؤولية الرئيسية عما عثر عليه فى غرفتيهما من جثث. فأخذت تتخبط فى أقوالها، وتتكر كل يوم ما قالته بالأمس، ثم تعود لانكاره طبقا للظروف والأحوال، لكن دفاعها مع ذلك احتفظ بنقاط ارتكاز ثابتة، تقوم على التضحية بحلفاء آل همام، وتعليق فأس المسؤولية عن ارتكاب الجرائم فى اعناقهم، فى سبيل انقاذ اعناق الاسرة من حبل المشنقة. فإذا ضاقت الحلقة من حولها ضحت بـ«سكينة» وزوجها، فى سبيل انقاذ اسرتها الضيقة التى تقتصر عليها وعلى «حسب الله».

وتطبيقا لذلك، أصرت - حتى آخر لحظة وعلى الرغم من الشواهد القوية - على اخفاء اسم «فردوس» وانكار معرفتها بها، أو بظروف العثور على جثتها فى ارضية غرفتها، وهو ما أدركه المحقق الذى قال لها بصراحة:

- انت تنكرين كل ما يتعلق بـ«فردوس» لأن اختك هى التى أخذتها من منزلها، ولان فانلتها وجدت مع زوج أختك، ولأن ختم زوجك وجد مع جثتها، فالمسئولية عن قتلها تتركز فيكم أنتم الاربعة، بعكس الآخرين اللواتى يسهل عليك اتهام آخرين بقتلهن.

لكن الالتزام بهذا المبدأ، لم يحل بينها وبين اتهام «سكينة» اتهاما صريحاً بالاشتراك مع «عبدالله الكوبجى» و«أم أحمد النص» فى قتل إحدى الفتيات، حين لم تجد مفراً من ذلك..

وجاء اتهام كل امرأة تشهد ضدها، أو ضد زوجها بأنها تعمل فى الدعارة، أو تشارك فى القتل، أو بالامرين معاً، إرهاباً لهن وطعناً فى مصداقية شهادتهن، ليكون نقطة الارتكاز الثانية التى اعتمد عليها دفاع «ريا»، وقد وجهت الاتهام الاول إلى «أم نظلة» التى وصفتها بأنها «تعمل فى نفس الكار» فهى مثلها «سحابة» وإن كانت «لا تشتغل إلا على النسوان اللاتى يمسكن الشنط»، ووجهت الاتهامين معاً لـ «عديلة الكحكية» التى أصرت على أنها كانت شريكة لها فى إدارة بيت «حارة النجاة» وبأنها اشتركت مع «عبد الرازق» فى قتل «أنيسة» وهو مالم يفت على ذكاء المحقق الذى قال لها:

- من الغريب أن كل من يكون فى أقواله دليل عليك، أو على زوجك تجعلين منه شريكا لك فى صناعتك.. أو فى جرائمك..

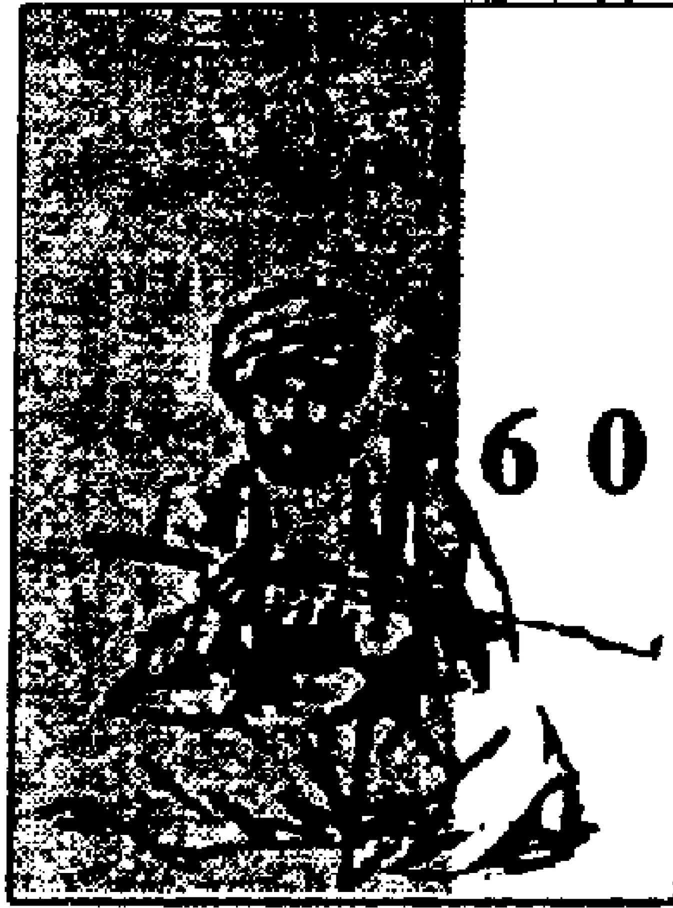
وعلى الرغم من تلك الثوابت - وربما بسببها - فإن محاولات «ريا» للفرار من الحصار، قد حولت أقوالها الى كومة من الأكاذيب غير المتقنة. جاءت فى مجملها ضد مصلحتها هى نفسها. وهو ما ركز عليه المحقق الذى ظل يكشف أمامها ما تحفل به مروياتها من ثغرات تجعلها غير منطقية مما يضعف دفاعها، ويزيد من وطأة مسئوليتها مؤكدا لها بأن كل ما قالته

- بفرض صحته - ليس دليلاً كافياً على أن «عرابى» و«الجدر» و«الكوبجى» و«عبد الرازق» كانوا يقتلون النساء، إذ لم تقل أنها رأت أحداً منهم وهو يقوم بذلك، أو بغيره. وهو ما أزعجها واضطرها الى اضافة تفاصيل اخرى، بهدف تكثيف الاتهام ضدهم وابعاده عنها، فاعترفت بأنها رأت آثار حفر فى أرضية الغرفة، وبأنها تأكدت - بعد الحادثة الثالثة، أنهم كانوا يقتلون النساء، ولكنها اضطرت للاستسلام الى ارادتهم، بسبب خوفها منهم، وبالذات «عرابى» الذى تعود أن يسبها ويضربها ويضرب ابنتها، فوقعت معظم حوادث القتل التالية ولكن من دون موافقتها، بل واعترفت - كذلك بأنها رأت عملية دفن «أنيسة» التى زعمت أن «عبد الرازق» و«عرابى» قد قاما بها.

واستفاد المحقق من رغبتها فى ابعاد شبح الاتهام عن نفسها، فحصل منها على اعتراف آخر بأنها استنتجت من شواهد عديدة، أن القتل كان يتم بهدف سرقة مصوغات الضحايا. وأنها رأت «عبد الرازق» وهو ينزع الغوايش من معصم «أنيسة». ومع أنها نفت أن تكون قد اشتركت فى القتل أو الدفن، أو قامت ببيع مصوغات الضحايا، فقد اعترفت بأن القتلة كانوا يعطونها نصف جنيه، فى اليوم التالى لتنفيذ كل عملية..

شىء واحد فشل فيه المحقق، هو انتزاع اعتراف منها، حول دور «حسب الله» فى جرائم القتل، إذ أصرت على تبرئته على الرغم من شكواها المرة من خيانته لها وتخليه عنها وعن ابنتها «بديعة»، الى الدرجة التى كان يتركهما احيانا دون طعام ليمضى اوقاته وينفق نقوده فى الكرخانات..

وبعد خمسة أيام من التحقيق المتواصل، بدا فى نهايتها، كأن ذلك هو كل ما يستطيع «سليمان عزت» أن يخرج به من تحقيقاته، وأن اقامة الدليل ضد المتهمين قد أصبحت أمراً ميئوساً منه، وقعت المفاجأة التى لم يكن يتوقعها أحد، وتكلمت «بديعة» لتهتك كل الاسرار، وتقود أمها وأباها وخالتها وزوج خالتها واثنين آخرين إلى حبل المشنقة.



ولا أحد يعرف - على وجه التحديد- العوامل التى دفعت «بديعة» لأن تزيح الستار عن بعض ما تعرفه من اسرار، وهى التى أصرت، فى كل أقوالها السابقة، على انكار معرفتها بأى شىء، وعلى تكذيب كل الوقائع التى سئلت عنها، حتى تلك التى كان الاعتراف بها فى مصلحة أمها..

وكان رئيس النيابة قد أمر بنقلها إلى «الملجأ العباسى»، بعد يومين من القبض عليها، إذ لم يكن لها أقارب آخرون بالاسكندرية، بعد حبس أمها وأبيها وخالتها. ولم يكن منطقيا أن تأمر النيابة بنقلها إلى «سجن الحضرة للنساء» الذى نقلت إليه أمها ضمن المتهمات السبع

المحبوسات على ذمة القضية. ليس فقط لأنها لم تكن ـ من الناحية القانونية - متهمة في القضية، بل لأن القانون كان ـ كذلك - يحظر حبس الاحداث في الاماكن المخصصة لحبس الكبار.

والغالب أن رجال الشرطة، كانوا قد تنبهوا منذ بداية التحقيقات إلى أهمية ما قد تكون «بديعة» قد رأته أو سمعته بحكم اقامتها مع أفراد العصابة، واختلاطها بهم. وكان ذلك وراء قرار التحفظ عليها في نفس الليلة التي قبض فيها على أمها، حيث أودعت معها بحجرة النساء بتخشيبة قسم شرطة اللبان. ولأن «ريا» كانت تتوقع ما سوف تتعرض له الطفلة من استجوابات، فقد خشيت أن تعجز عن استيعاب ما قد تلقنها به من أقوال تؤيد خطتها في الدفاع، خاصة وأنها هي نفسها، كانت تقوم بتعديل هذه الاقوال طبقا لتطورات التحقيق، فاكتفت - خلال اليومين اللذين أمضتهما معها في التخشيبة - بتكرار وصاياها السابقة لها، بأن تدّعى عدم معرفتها بشيء، وأن تنكر كل ما قد تواجه به من وقائع أو أقوال.

وبانتقال «بديعة» للاقامة بـ «الملجأ العباسي» بعيدا عن تأثير أمها، استطاع رجال الشرطة التأثير عليها في الاتجاه المضاد، واستعانوا على فك عقدة لسانها، بما ذكره المتهمون والشهود الآخرون من وقائع كانت طرفا فيها، وفي مقدمتهم أمها التي دفعها الخوف على «بديعة» - ومنها - إلى تكرار ذكر اسمها فيما كانت تدلي به من أقوال، بالتأكيد المستمر، على أنهما كانتا معا، بعيدتين عن مسرح الجرائم حين وقوعها. كما دفعتها الرغبة في اثبات الاتهام ضد «عرابي» إلى التركيز على واقعة ضربه لابنتها، فضلا عما ذكرته «أم نظلة» من أن «بديعة» كانت رسول أمها إلى «نظلة» في اليوم الذي اختفت فيه، وما ذكرته «عديلة الكحكية» من أن الفتاة نفسها، كانت رسول أمها إلى «أنيسة» مساء اليوم السابق على اختفائها...

ومع أن «بديعة» لم تكن تتجاوز العاشرة من عمرها، إلا أن مداركها وخبراتها، كانت اكبر بكثير من عمرها، وهو ما شهدت به خالتها «سكينة» التي قالت بأن ابنة شقيقتها مع «أنها بنت صغيرة، لكنها شيطانة وواعية وعارفة كل حاجة». والحقيقة أن صورة «بديعة» كما تتخلق أمامنا عبر تحقيقات القضية، تبدو شخصية شديدة التعقيد، وباعثة على الحيرة، وهو المتوقع من طفلة ولدت وتربت في بيوت تدار للدعارة وتعاطي المخدرات، ويتردد عليها، كما قالت «سكينة» الفتوة والفلاح والصعيدي والنصراني والصياد، لا تختلف كثيرا عن الخمارات التي كانت تتردد عليها مع أمها، أو عن الحواري والازقة التي أمضت فيها معظم سنوات عمرها، تلعب مع اترابها، وتقذف المارة بالحجارة أو تتسول منهم برتقالة، أو عقلة من القصب، ثم تعود في الليل، لتنام في حضن أمها....

وكما كانت وفاة شقيق «حسب الله» الأكبر، هي التي دفعته للزواج من أرملته «ريا» لكي يقوم بواجبه في تربية ابن اخيه

الراحل. فقد كان ميلاد «بديعة» فى مقدمة الدوافع التى حالت دون انفصام العلاقة الزوجية بين أبيها وأمها، بعد أن لحق ابن الاخ بأبيه. وكان استمرارها على قيد الحياة. هو الذى جعل «حسب الله»- الشهوانى. ذو النوازع الجنسية العارمة - يصبر على البقاء مع امرأة تكبره بخمسة عشر عاما، مصابة بعيب خلقى ينتهى بها إلى الاجهاض قبل أن يكتمل نمو الجنين. وهو الذى جعل «ريا» تصبر على عيوبه الواضحة: كسله عن العمل. وتعاليه عليه. وميله للمظاهر. وخياناته المتكررة لها، التى كان يمارسها بشكل علنى، حتى مع مقطوراتها من البغايا وفى غرفة شقيقتها «سكينة».



بديعة: اعترافاتها فى ... التحقيق

ومع أن «بديعة» كانت ما تزال تحتفظ من طفولتها ببعض البراءة، وشىء من السذاجة، إلا أن المناخ الذى تربت فى ظله كان قد اغتال الجانب الاكبر من هذه وتلك، إذ لم تكن - فحسب - نبتة برية، لم يتعهدها أحد بالرعاية، بل وكان الكبار المحيطون بها، قد دربوها - كذلك- على الكذب والكراهية وعلى الخوف والشر. وكان «سليمان بك عزت» يستمع - ضمن تحقيقه الموسع فى قضية مقتل «نظلة أبو الليل» - إلى أقوال «عرابى» الذى كان ما يزال يواصل انكار معرفته بالفتاة أو بأمها أو بـ «ريا» نفسها، إلى أن ضاق المحقق ذرعا بإنكاره، فاستند إلى ما كان يعرفه عن أقوال «بديعة» الجديدة أمام الشرطة، وسأله فجأة عما إذا كان يعرفها، فلما انكر «عرابى» كالعادة، تحداه قائلا:

ـ وما رأيك إذا جاءت بديعة الآن وذكرت لك حوادث تؤيد أقوال أمها بأنك كنت تتردد على البيت؟!.

فرد الآخر قائلا، باستهزاء:

- ابعت هاتها... وأدينى موجود.

وهكذا مثلت طبعة الملجأ العباسى من «بديعة» أمام المحقق - ظهر يوم الأحد ٢٨ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، وبعد حوالى اسبوعين من بدء التحقيقات، التى كانت قد وصلت لطريق مسدود- لتفتح أول طاقة فى جدار الاكاذيب يطل منها الجميع، على حقيقة ما كان يجرى فى بيوت الهلاك التى كانت أمها وخالتها، تقومان بادارتها....

وخلال الجلسات الثلاث التى استمع فيها المحقق إلى أقوالها، تكشف الجانب الآخر من مأساة «بديعة» التى كانت تبدو ظاهريا، كالقطة الأليفة، لا تتميز عمن هم فى مثل سنها من الاطفال، فإذا بالجانب الآخر من شخصيتها، يتخلق عبر أقوالها فى التحقيق، لتبدو على حقيقتها: طفلة مذعورة خائفة، تعانى من أحاسيس عميقة بالترك والوحدة، لا يخفف اهتمام أمها المحدود بها، من آلامها النفسية المضنية لعدم اهتمام الآخرين - وخاصة أبيها - بها، وبخلهم عليها، بكل ما تحتاج إليه طفلة فى مثل عمرها، من عواطف الحب والرعاية والاهتمام، إلى الملابس والطعام والاحترام. والأرجح أن رجال الشرطة قد تسللوا إليها عبر هذه الثغرة فى شخصيتها، وأن مشاعر الابوة والعطف التى أحاطوها بها اثناء اقامتها فى الملجأ، كانت هى التى فكت عقدة لسانها. والحقيقة أنها لم تترك لأحد فرصة لكى يستنتج مبرر اعترافها، إذ كان لديها دافع - غير واع - لتقديم هذا المبرر فى ثنايا أقوالها.... إذ ما كاد المحقق يبدأ استجوابه لها، حتى قالت له:

- أنا خايفة..

فلما سألها:

- خايفة من إيه؟.

قالت:

- أنا خايفة من أمى، وجوز أمى - تعنى أباها- و«سكينة»، وأهلى كلهم، لأنهم كل ما يقعدوا ياكلوا، يدولى لقمة حاف، ولما أطلب غموس يضربونى ويشتمونى ويقولوا لى: اطلعى بره يابنت الشرموطة... فأخاف وأجر نفسى زى الكلبة، وأخرج على الحارة، اتفرج على الزار، والعب مع العيال... وبالليل.... يقفلوا على الباب بالمفتاح، والدنيا ضلمة فأخاف وأخرى على روحى... ومرة لما فتحوا على الباب الصبح، كنت رايحة أهرب... وأروح اتشعلق فى الوابور... واسافر «كفر الزيات»... عند خالى... لكن ما عرفتش...

... أنى ما نحبوش حد من أهلى غير أمى، لأنها بتصرف على... ابويا لما أبص عليهم من الشباك وهما بياكلوا ويغمسوا يطلع لى الخيزرانة من الشباك ويهزها... اطلع أجرى وأجر روحى زى الكلبة وأشخ تانى على نفسى. ولما أطلب منه عشرين فضة اشترى بها حاجة يلعن أبويا..

و«سكينة» دايما سكرانة، وكنت ساعات أخش بيتها أزعق عليها وأرمى باب أودتها

بالطوب واطلع أجرى... ولما اطلب منها حتة سمك، أغمس بها، ولا قرش تقول لى: سيبينا فى حالنا... هو احنا لاقيين نفطر... وتخبى الفلوس من أمى عشان ماتسلفهاش... وكنت عاوزة اشترى «مدورة» ألبسها على رأسى زى بقية البنات ماحدش منهم رضى يشتريها لى... حتى «سكينة» كانت عاوزة تدينى «المدورة» بتاعة واحدة من النسوان اللى قتلوهم... لكن أنى ما رضيتش... وفضلت بالمدورة القديمة المقطعة اللى على راسى... لأنى خفت حد يشوف المدورة الجديدة، يعرف إنها بتاعة واحدة من النسوان المقتولين اروح فى داهية.....

أمى كانت دايما تقول لى: سيبك منهم... دول قشلانين وميتين ع القرش... ولما تعوزى حاجة قولى لى واحنا نجيبوها لك من تحت الارض، وتشترى لى بقرش أو بقرشين برتقال... وساعات كانت تقول: احنا رايحين نسافروا أنا وانتى ونسيبهم... بس ما سافرناش..

أم أحمد النص؟... دى صاحبة أمى وحبيبتها وكنا نقولوا لها: ياخالتى... وكنت أقعد فى دكان الطبيخ اللى فاتحاه اختها «ستوتة»، يفوت واحد يشترى منها تقول له: هات قرش للبنت الغلبانة دى تاخد ليها بيه صحن طبيخ. وتعطينى الصحن، أروح به على أمى، وناكلوه مع بعض.

وكان الاصرار على اقصاء «بديعة» عن مجالس الكبار، وخاصة تلك التى تمتد فيها موائد الطعام الشهى كطقس من طقوس القتل، هو الذى دفعها لتحدى هؤلاء الكبار، والتحايل عليهم، بالتظاهر بالخروج إلى الشارع، لتعود فتتسلل إلى المنور، وتتلصص على ما يجرى بينهم عبر نافذة الغرفة المطلة عليه... وهو ما أتاح لها أن ترى مشاهد عديدة من عمليات مقتل خمس من الضحايا... هن «نظلة أبو الليل» و«نبوية بنت على» - قهوجية «كوم بكير» - و«زنوبة الفرارجية» و«فاطمة العورة» - شيخة المخدمين - و«فردوس بنت فضل الله»....

وكانت تحتفظ فى ذاكرتها بتفاصيل كثيرة عن بعض تلك العمليات، ومنها عملية مقتل «نظلة» التى ذكرت أهم ما وقع يوم مقتلها منذ اللحظة التى أرسلتها فيها أمها - عند الظهر - لتحضر منها الصينية، ولتدعوها للحضور للقاء «عرابى»، إلى أن أطلت بعد المغرب من نافذة المنور، فرأت الرجال وهم يحفرون لها القبر تحت الصندرة. وعملية مقتل «فردوس» التى رأتها وهى تدخل عند العصر مع «سكينة» وظلت تتابع ما يجرى فى الغرفة، إلى أن رأت أباها وهو يدعك معصميها بقطعة من الصابون حتى تمكن من خلع ما كانت تتزين به من غوايش وأساور، بينما كان «محمد عبد العال» - زوج خالتها - يقوم بحفر الارض تحت الصندرة، وعملية مقتل «فاطمة العورة» - شيخة المخدمين - التى اقتصر ما رأته من تفاصيلها، على المشهد الافتتاحى، وهو الذى صحبت فيه «سكينة» - التى تنكرت يومها بالملاءة والبرقع - إلى دكان الضحية، ثم إلى منزلها إلى أن عادت معها إلى «بيت

الجمـال» حيث تقيم «سكينة»، بينما لم تذكر شيئا من تفاصيل بقية العمليات الخمس غير اسماء الضحايا...

ولم يكن ما روته «بديعة» من وقائع هو كل ما تعرفه، كما أنها لم تكن صادقة تماما فيما اعترفت به من وقائع. والغالب أنها لم تكن قد نسيت بعد، تلقينات أمها وأبيها، لذلك جاءت روايتها خليطا من الوقائع الصحيحة التى رأتها بعينيها، والوقائع المتخيلة التى استنتجتها- بعقلها الطفل - مما رأته أو سمعته... والوقائع المكذوبة التى لقنها لها أبواها... وكان حرصها على أن تبرىء أمها من المشاركة فى الجرائم، هو الذى دفعها إلى شطب دورها فى كل العمليات ونسبته - أحيانا - إلى «عديلة الكحكية»، التى زعمت بأنها كانت ممن يقومون بالقتل والدفن، وبأنها رأتها داخل غرفة العمليات بمنزل أمها أو منزل خالتها، فى ثلاث من العمليات الخمس هن «نظلة» و«شيخة المخدمين» و«فردوس».

وفى أحيان أخرى كانت «بديعة» تنسب الدور الذى قامت به أمها إلى خالتها، وهو ما فعلته عندما ادعت أن التى صحبتها الى بيت شيخة المخدمين هى «سكينة» ثم ثبت - بعد ذلك- أنها ذهبت بصحبة أمها، التى قامت باستدراج المرأة الى «بيت الجمال» لتقتل فيه. وقد حرصت دائما على التأكيد بأن أمها لاشأن لها بالأمر، ولم تشترك فى قتل أية امرأة، ولم تكن توجد على مسرح الجريمة أثناء ارتكابها، وقالت «أمى كل ما تشوفهم جايبين حدّ م النسوان عشان يقتلوه.. وشها يصفر.. وتخاف.. وتطلع تجرى برة البيت».

وكان حرص «بديعة» على تبرئة أمها، وتأثرها بمروياتها، هو المصدر الرئيسى لما حفلت به اقوالها من ثغرات. كان من بينها- كذلك-اصرارها على اتهام «احمد الجدر» بالمشاركة فى الجرائم، وادعاؤها بأن «زنوبة الفرارجية» - التى عثر على جثتها فى غرفة «ريا» - قتلت فى غرفة «سكينة» وزعمها بأنها لا تعرف «عبد الرازق» أو «أنيسة». وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت أقوالها على جانب كبير من الاهمية، ليس فقط بحكم طفولتها وصلة الدم التى تربطها بمن اعترفت عليهم، او لانها كانت - بعد «سيدة سليمان» - ثانية شهود الرؤية فى القضية، وهى كلها عوامل أعطت اقوالها درجة عالية من المصداقية دعمت أدلة الاتهام ضد اربعة من المتهمين هم «حسب الله » و«محمد عبدالعال» و«عرابى » و«سكينة»، بل لانها اضافت فى تلك الاقوال واقعتين جديدتين تماما على التحقيق:

الاولى: تتعلق بالوسيلة التى كانت تتبعها العصابة فى تخدير الضحايا، اذ قالت بأنهم كانوا يقدمون للضحية كوبا من النبيذ يضعون لها فيه شيئا كانوا يسمونه «سطل». وكان «حسب الله» - طبقا لاقوال «بديعة» - هو المنوط به تجهيز هذا الكوب، فيملأه بالنبيذ، ثم يغادر به الغرفة، وتحت منحنى السلالم التى تقود الى الدور الاعلى، يخرج من جيبه السُطل الذى كان- عادة- على صورتين.. إحداهما جامدة،

قاتمة اللون تلف فى ورق سلوفان، من نوع كان يتعاطاه «حسب الله» نفسه يوميا، يقضم منه باسنانه قطعة صغيرة جدا يضيفها الى الكوب، والأخرى على صورة سائل تضمه زجاجة صغيرة، يصب منها قطرات فى الكوب، ثم يعود الى الضحية، فما تكاد تحتسى منه رشفة أو رشفتين، حتى تدوخ وتتبرز على نفسها، فيقوم الرجال بخنقها.

وقد شغلت قصة السُطَل المحقق، خاصة بعد ان نفاها جميع المتهمين، حتى بعد ان اعترفوا بكل شيء، وأصروا على انهم كانوا يكتفون فى معظم الحالات بما قد تكون الضحايا قد احتسينه من خمور. وأضافت «سكينة» بأنهم كانوا يحرصون على أن يقدموا لهن كئوسا من كوكتيل رخيص يتكون من خمور متعددة يتم تجميعها من القطرات القليلة التى يتركها السكارى فى قاع كئوسهم، يعرف باسم «السيكولانس».. ومع ذلك فقد اصرت «بديعة» على قصة السُطَل. والغالب ان السطل الذى كان على صورة جامدة، كان قطعاً من الافيون او المنزول - وهو خليط يجمع بين الافيون والحشيش وعدة نباتات مخدرة اخرى - الذى كان «حسب الله» يدمن تعاطيها، على نحو كان يؤدى كما قالت «بديعة» الى عودته كل ليلة محمولاً على اكتاف الندامى الذين يمضى معهم سهراته فى المحاشش والخمارات. أما صورة السائلة فقد ظلت لغزا الى ان كشف عنه «حسب الله» بعد انتهاء التحقيق والمحاكمة وقبل تنفيذ حكم الاعدام فيه. اذ اعترف بأنه كان يبحث عن مخدر قوى، يكفل لهم تنفيذ عمليات القتل دون ان تصدر عن الضحايا أصوات تثير انتباه الجيران، فزعم لصديق له من الصعايدة. بأنه على علاقة بامرأة اشترى لها مصوغات كثيرة، ثم خانته ورافقت غيره، وانه يبحث عن مشروب قوى، يقدمه لها، فتفقد وعيها، ويستطيع استرداد هداياه منها. فأحضر له زجاجة من «عَرَقْ الخيل» ونصحه بأن يمزج قطرات منها بكوب من الكونياك، فينتج عنه كوكتيل قوى التأثير، لا يتحمله حتى العتاة من مدمنى الخمر. ولما فعل ذلك، وجد أمامه سائلا ثقيلا، تتصاعد منه رغاوى وكأنما أذيب فيه صابون، كانوا يقدمون منه للضحايا.. ولم تكن واحدة منهن تتحمل أكثر من كأسين أو ثلاثة..

وكانت الواقعة الجديدة الثانية التى كشفت أقوال «بديعة» غموضها، هى اسم الصائغ الذى كانت العصابة تبيع له مصوغات الضحايا. ومع أن «على الصائغ» كان قد مثل - حتى ذلك الحين - أمام المحقق مرتين، مرة بعد العثور على «علم خبر عن وزن مصوغات» صادر عنه، فى حافظة «حسب الله» عند القبض عليه، وأخرى بعد العثور على علم آخر بنفس المواصفات بين الأوراق التى عثر عليها فى حجرة «ريا»، بل وكان دكانه قد فتش وتم التحفظ على كل ما كان به من مصوغات مستعملة، إلا أن جميع المحققين كانوا يتعاملون معه، حتى ذلك الحين، باعتباره شاهدا، يستطيع أن يؤكد قيام العلاقة

الزوجية بين «ريا» و«حسب الله» إذا تذكر الظروف التى باع لهما فيها حلق الغوازى الذى ضبط عند الزوجة، وضبطت فاتورته فى حافظة نقود الزوج، مع أنهما يزعمان بأنهما مطلقان. لكنه لم يتذكرهما ونفى معرفته بهما عندما عرضنا عليه، ولم يتعرف أحد من أقارب الضحايا على شىء من المصوغات المستعملة التى ضبطت فى دكانه. وعلى كثرة الرجال الذين أقحمتهم «ريا» فى الاتهام.. فقد تجاهلت اسمه. وزعمت أنها لا تعرفه، إذ لم تكن تستطيع أن تعترف عليه، إلا إذا اعترفت بدورها.. فضلا عن أنها كانت تدرك مدى الضرر القانونى الذى يستطيع أن يلحقه بموقفها، فيما لو قرر الاعتراف على نفسه وعليها.

وجاءت أقوال «بديعة» لتنقل الصائغ «على محمد» من قائمة الشهود إلى جدول المتهمين، إذ ذكرت أن «سكينة» كانت تتسلم مصوغات الضحايا من أبيها «حسب الله»، فتتوجه بها عقب القتل مباشرة، أو فى صباح اليوم التالى، إلى دكان «على الصائغ» لتبيعها له، وقالت إنها عرفت ذلك، لأنها كانت تحرص فى كل مرة، على أن تتبعها دون أن تدرى.. ومع أنها تعمدت أن تغفل ذكر اسم امها -التى كانت تشارك «سكينة» فى القيام بتلك المهمة- فقد وصفت موقع الدكان وصفا دقيقا، ونقلت عن الآخرين ما كانوا يتداولونه من أحاديث حول الثمن البخس الذى كان «على محمد» يشترى به تلك المصوغات.

ولم تكن مشكلة الطبعة الأولى من أقاويل «بديعة» تكمن فقط فى التناقض بين بعض تفاصيلها والبعض الآخر، وبينها وبين الحقائق الأخرى التى كانت قد تجمعت بين يدى المحقق حتى ذلك الحين، بل كانت تكمن كذلك فى عجزه عن إتمام المواجهة بينها وبين بقية المتهمين الذين شهدت ضدهم. وهى عقبة كان من الصعب التغلب عليها خاصة وأن الفتاة ظلت تتهرب من الإجابة على أسئلة المحقق، أو تجيب بكلمات مرسلة لا صلة لها بالسؤال، على نحو كان يصعب تكراره، ولولا صبره الطويل عليها، وما غمرها به من مشاعر الود والتفهم لما اعترفت بشىء.

وكان أول الخيوط التى أمسك بها من أقوالها التى كانت تتدافع على لسانها دون انتظام، هو قولها بأنها فكرت فى الهرب إلى خالها فى «كفر الزيات» إذ أدرك أنها لابد وقد رأت شيئا أخافها ودفعها إلى الرغبة فى الهرب، فلما سألها عنه، قالت:

- شفت ريحة نتنة.. وشفت منام فيه قط كبير بيبص لى، فخفت.

لكنه لم يقتنع بهذه الإجابة التى كانت واضحة الاصطناع، فعاد يواصل إلحاحه عليها، وهى تتلفت طوال الوقت حولها، لتركز بصرها على باب غرفة التحقيق، بخوف بالغ، خشية أن يسمعها أحد، مما دفعه إلى المبالغة فى طمأنتها مؤكدا لها بأن أحدا لن يسمع أو يعرف بما سوف تقوله له، ومع ذلك ظلت تردد بأنها رأت «حاجة سودة متغطية» وأبت أن تضيف إلى ذلك شيئا، إلى أن كف المحقق عن محاولة دفعها لوصف ما رأته، أو تجسيد الرمز الذى استخدمته، وتعامل معها على أساس

أن هذا الرمز متفق عليه فيما بينهما، فسألها عن الأشخاص الذين كانوا موجودين إلى جوار تلك «الحاجة» وعما كانوا يفعلون.. وبذلك حصل منها على كل المعلومات بل واعترفت فى سياق ذلك بأن تلك «الحاجة» كانت جثة «نظلة أبو الليل».. لكنها أكدت أنها لا تستطيع تعيد حرفا واحدا مما قالته له فى مواجهة أبيها، وخالتها وزوج خالتها و«عرابى» و«الجدر» وقالت للمحقق حين سألها عن مدى استعدادها لذلك:

- لأ.. أنا أخاف منهم لأن أبويا قال لى: أوعى تقرى بشىء.. وإلا أقتلك زيهم.

ولا شك فى أن المحقق قد قدر مدى الرعب الذى يمكن أن تسببه تلك المواجهة للفتاة الصغيرة المتخمة بمخاوف لا حد لها.. ولعله قد خشى -كذلك- أن تسفر المواجهة عن تأثير أقاربها عليها، أو إخافتهم لها، فتتراجع عن كل ما اعترفت به.. فاستغنى عن تلك المواجهة على الرغم من أنها كانت من الشروط الفنية للتحقيق.. واستبدلها بنقل أقوال الفتاة إلى من يعنيهم أمرها من المتهمين، بدلا من استدعائها لتواجههم بشخصها.

وكانت «سكينة» هى أول المتهمين الذين واجههم بما قالته «بديعة»، فما كادت تعرف بأن ابنة شقيقتها قد شهدت بأنها رأتها تدخل بيت «حارة على بك الكبير» بصحبة «فردوس»، حتى قدرت خطورة هذه الأقوال، التى كانت أول دليل على أنها -وليس «سيد عبدالرحمن»- التى قادت الفتاة إلى المكان الذى عثر فيه على جثتها، وعلى اشتراكها فى قتلها، فصاحت فى غضب:

- العيلة تشهد ع الواحدة توديها فى داهية.

ولم تكن مخاوف «بديعة» أمرا جديدا على المحقق، الذى كان يعانى -منذ بداية تحقيقه فى قضيتى «نظلة» و«فردوس»- من حالة الذعر الشاملة التى تلبست معظم الشهود، بما فى ذلك أقارب الضحايا أنفسهم- فدفعتهم لإنكار كل ما يعرفونه من معلومات حتى الشائع منها، الذى يصعب تصديق عدم معرفتهم له. فقد أنكرت «أم رجب» -جارة «ريا»- معرفتها بشىء مما كان يجرى بالبيت، أو رؤيتها لنساء يترددن عليه. مما استفز المحقق الذى صاح فى وجهها:

- بقى لك سنة فى البيت ومش عارفة أنه كرخانة؟!!.

وكان صيت «عرابى» -كفتوة وقاتل قتلة- أهم العقبات التى حالت دون حصول المحقق على معلومات تثبت صلة العشق التى كانت تربطه بـ «نظلة»، والتى ظل ينكرها طوال الوقت حتى بعد أن اعترفت بها أمها التى اضطرت إلى الإقرار بوجود تلك العلاقة، بعد أن أخفتها وموهت عليها فى المرحلة الأولى من التحقيق. فقد تهربت «توتو» -زوجة «عبدالرحيم الشربتلى»- من الإجابة على سؤاله بهذا الشأن، مع أن الاثنين كانا من جيرانها، ومع أن الفتاة كانت تسكن بمنزلها، ومع أن زوجها هى نفسها كان متهما بخطف «نظلة» وقتلها، وفى تبريرها

لذلك قالت للمحقق:

- ربنا يستر على الولايا.. ودول ناس أقويا.. وأنا ولية وعندى ولايا وعديمة الرجال.. ربنا لا يغلب لكم ولية..

ولم تعترف بالحقيقة إلا عندما صاح المحقق فى وجهها لافتا نظرها إلى أن الحكومة لا تستطيع أن تعاقب هؤلاء الأقوياء على ما يرتكبونه من جرائم، طالما يتواطأ الجميع على إخفاء الحقائق عنها ويجبنون عن الشهادة ضدهم..

وتكرر هذا الموقف بنفس تفاصيله، مع زوجين عجوزين من الجيران، كانت «أم نظلة» قد ذكرت بأنهما رأياها وهى تسأل «عرابى» عن ابنتها عقب غيابها، وسمعاه وهو يشاركها الأسف، بل ويبكى معها بالدموع، لاختفاء الفتاة، فلما استدعيا للشهادة أنكر الزوج معرفته بـ «عرابى» فاضطر المحقق إلى مواجهته بـ «أم نظلة» التى قالت له:

- إزاى ما تعرفش «عرابى» وهو جارك من سنين.. ومعروف فى كل الحتة.. ومفيش بين بيتك وبيته إلا أربعة أمتار؟.

فأيد أقوالها، وبرر إنكاره فى البداية قائلا:

- أنا خفت أحسن «عرابى» يخرج من السجن ويضربنى وأنا راجل مسكين.. وده راجل شضلى.. واللى يعمل عمايل زى دى مايرحمش اللى زيى.

وعلى العكس من أقوال مثل هؤلاء الشهود. فقد كانت أقوال بعض المتهمين، ذات فائدة كبيرة للتحقيق، صحيح أنهم كانوا جميعا - حتى ذلك الحين- ينكرون كل صلة لهم بالجرائم، إلا أن التناقض بين مواقفهم القانونية، كان يدفع كلا منهم، إلى محاولة القاء مسؤولية الجرائم على الآخرين. وهكذا استفاد المحقق من هذا التناقض الذى كان ينعكس - احيانا - فى وصلات من الردح والتشليق تتبادلها المتهمات أمامه، أثناء المواجهات التى كان يجريها بينهن. ولأن ريا كانت تدرك بأن هناك كثيرين يمكن أن يشهدوا على صلتها بـ«أنيسة»، منهم «عديلة الكحكية» و«محمد خفاجة»، فقد استغلت عدم تعرف أحد على جثة الفتاة التى استخرجت من أرضية غرفتها بـ«حارة على بك الكبير»، وقررت - ضمن خطتها الدفاعية القائمة على التلاعب فى المكان والزمان وعلى اشاعة التهمة بين كثيرين - أن تحمّل «أم أحمد النص» المسئولية عن مقتل «أنيسة»، فادعت أن جثة «نبوية بنت جمعة»، التى عثر عليها بمنزل زوجة «النص»، هى جثة «أنيسة»، وقالت بأن «عبد الرازق يوسف» قد استأجر الغرفة من صاحبتها، ودخل بالفتاة إليها وخرج من دونها، وألمحت إلى أن ذلك قد حدث بتواطؤ واتفاق مع «أم أحمد النص» التى أنكرت التهمة استنادا إلى أنها درة مصونة وجوهرة مكنونة، وربة بيت من صاحبات الشرف والعفاف، لا يمكن أن تؤجر منزلها لمثل تلك الاعمال القذرة التى تمارسها «ريا» وشقيقتها، إذ هى - والعياذ بالله- ليست مثلهما قوّادة.. ولا يمكن أن تكون.

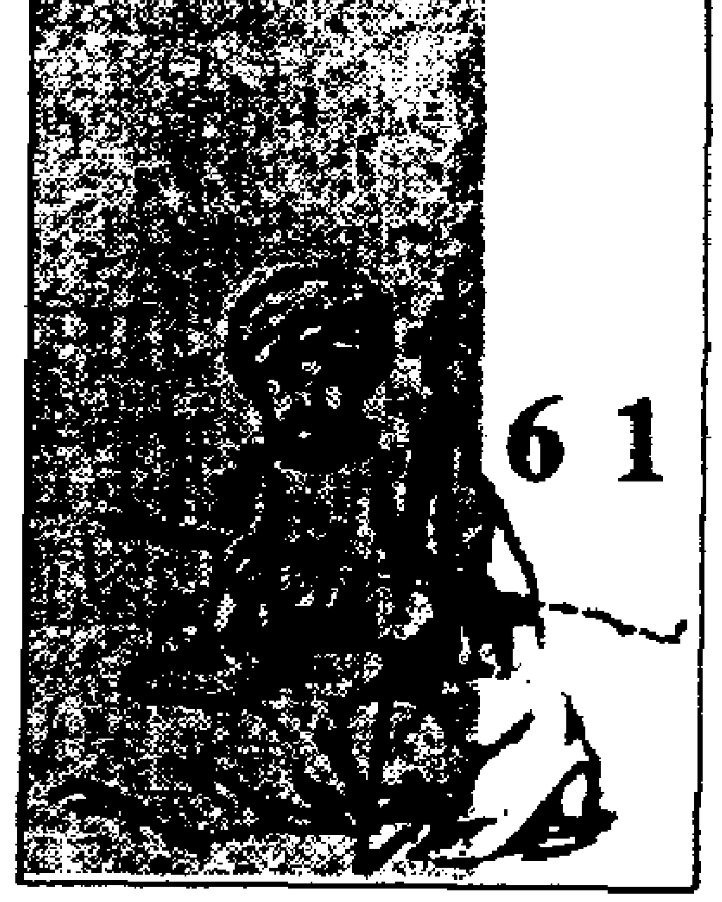
وما كادت «ريا» تسمع منها هذا الادعاء، خلال المواجهة التى أجراها المحقق بينهما، حتى استفزها تعالى «أم أحمد النص» وتفاخرها عليها بأنها امرأة حرة، وليست قوادة أو كرخانجية، ففرشت لها الملاءة، وذكرتها بتاريخها الاسود فى هذا المجال. ألست أنت يا «أم أحمد» التى بعت البنت «عائشة»... والبنت «سمارة» إلى «حسنة العايقة» فى «دمنهور» ثم عدت فبعتهما إلى «باسقة العايقة» فى «الهماميل»؟... ألم يكن زوجك يؤجر صندرة دكانه للجنود الانجليز يختلون فيها بالنساء؟... ألم يكن ابن اختك يدير المحششة؟... وكيف تنكرين أن «عبد الرازق» قد اصطحب «أنيسة» واستأجر منك الحجرة ليختلى فيها بها، ثم خرج أمامك ولم تخرج هى؟... ألم تأخذيه يومها أمام البنت «عائشة» على صدرك، وقلت له: الاودة تحت أمرك بس ورينا الانسانية... فاعطاك سيجارة... ووزع مثلها على كل المحيطات بكما ومن بينهن «عائشة»؟!

ومع أن «ريا» توقت خلال تلك المواجهة العاصفة، أن تذكر اسم «محمد خفاجة» الذى لم تكن قد اشارت إليه فى أقوالها السابقة حول موضوع «أنيسة» إلا بشكل عابر تماما، فإن «عائشة» - التى استدعاها المحقق ليواجهها بـ «أم أحمد» - قد كررت الاشارة إلى الاسم، ثم جاءت «سكينة» لتضعه - لأول مرة - فى دائرة الضوء، على الرغم من علمها بأن استدعاءه سوف يضر بموقف شقيقتها.

والغالب أنها فعلت ذلك عامدة، بعد أن واجهها المحقق بشهادة «بديعة» بأنها التى اصطحبت «فردوس» إلى منزل «ريا»، كما واجهها - لأول مرة- باتهام «ريا» لها، بأنها قد صحبت «عبد الله الكويجى» وفتاة تدعى «خديجة» و«أم أحمد النص» إلى حجرة شقيقتها بـ «حارة على بك الكبير» ثم اختفت الفتاة منذ ذلك الحين. ومع أنها تعاملت مع ما قاله لها المحقق بحذر وذكاء، فطلبت منه أن يستدعى «ريا» لكى تقول هذا الكلام فى وجهها، إلا أن أثر ما سمعته قد بدا على أقوالها التالية فى نفس جلسة التحقيق. إذ ما كادت تعرف بأن «أم أحمد» تدعى أن بيتها حر وشريف وتنكر كل علاقة لها بها أو بشقيقتها، حتى اندفعت تتحدث بافاضة عن نشأة العلاقة بين شقيقتها، وبين كل من «عديلة» و«أنيسة»، التى تطورت إلى علاقة عشق بين الأولى و« محمد خفاجة» والثانية و«عبد الرازق».

وهكذا تنبه المحقق لأول مرة، إلى أن هناك شبحا هائما بين أوراق التحقيق يتكرر ذكره على استحياء، على ألسنة المتهمين، اسمه «محمد خفاجة»، لم يعن أحد حتى ذلك الحين، بأن يستمع إلى أقواله، فقرر أن يستدعيه للإدلاء بها ولم

يكن يعرف آنذاك، أنه سيغير - بأقواله- مجرى التحقيق، ولن يفك فقط عقدة لسان «عديلة الكحكية»... بل وسيفك كذلك عقدة لسان «ريا».



كانت الساعة قد بلغت التاسعة من صباح يوم الثلاثاء ٣٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، حين وصل «سليمان بك عزت» إلى ديوان قسم شرطة اللبان، فوجد فى انتظاره خمسة من الشهود، ممن كانوا طرفا فى علاقة مع الرياعى العاشق، كان قد أمر باستدعائهم، ليستكمل ملامح العلاقة بين أضلاعه، قبل أن يستدعى «محمد خفاجة» - الضلع الغائب والغامض منه - ليستمع إلى أقواله...

وما كاد يجلس خلف مكتب مأمور القسم، الذى كان قد تنازل له عنه ليجرى فيه تحقيقاته، وينتهى من املاء ديباجة المحضر على كاتب التحقيق، حتى دخل الصاغ «محمد كمال نامى» ليخطره بأن قسم شرطة العطارين قد تلقى بلاغا بأن امرأة تسمى «فرح بنت عبد الواحد» لديها معلومات هامة فى القضية، فقبض عليها وأرسلها هى والمرشد الذى أبلغ عنها إلى قسم شرطة اللبان، وأن مركز شرطة كفر الزيات قد تلقى بلاغا من مرشد آخر، عن وقائع تتعلق بعضو فى العصابة لم يتم القبض عليه هى «زينب بنت مصطفى» والدة «ريا» و«سكينة»، فقبض عليها وأرسلها مع المرشد الذى ابلغ عنها للاستماع إلى أقوالهما...

وبعد مناقشة سريعة مع المرشدين والمتهمين، أدرك المحقق أنه ليس هناك فى الأمر جديد يدعوه لاهمال الشهود الذين كانوا فى انتظاره، أو للخروج عن الخطة التى كان قد رسمها لتحقيقه فى ذلك اليوم، فأحال البلاغ الأول إلى الملازم ثان «عبد الغفار أحمد» - ملاحظ القسم- وأحال الثانى للصاغ «نامى» نفسه، لكى يحققا فيهما، حتى يتفرغ هو لحل لغز «محمد خفاجة» الشبح الهائم بين أوراق القضية....

وكانت الواقعتان عينتين نموذجيتين للحالة السيكولوجية العامة التى أحاطت بالكشف عن جرائم «ريا وسكينة» التى لم يكن للمصريين- فى تلك الايام- حديث سواها... فمع أن التحقيق كان سريا، بعد أن منع رئيس النيابة المحامين عن المتهمين من حضور جلساته، إلا أن مراسلى الصحف بالاسكندرية، كانوا يحصلون على أهم اخباره من ضباط الشرطة وكتبة النيابة والشهود، وخاصة أهالى الضحايا، فينشرونها فى صحفهم، فضلا عن أن وزارة الداخلية، كانت تصدر - كل عدة أيام - بيانا موجزا عن أهم تطوراته.

لكن ذلك كله لم يكن كافيا لاشباع تلك الحالة من الفضول العام، والعارم، التى أثارتها جرائم «ريا» و«سكينة» فى نفوس المصريين لغرابتها ووحشيتها وخروجها عن

النمط العام الذى كان شائعا آنذاك للجرائم، وخاصة التى ترتكبها النساء، فكان لابد وأن يغطى الخيال الشعبى تلك الفجوات التى لم يكن قد كشف عنها التحقيق حتى ذلك الحين، بوقائع يؤلفها المؤرخ الشعبى المجهول، ويقوم بنشرها، لتتواتر بين الناس، فيضيف كل منهم إليها من خياله تفاصيل أخرى يذيعها، وهو يعلم أنها كاذبة أو وهو يتوهم أنها صادقة، لكنها تشبع لديه شيئا ما، قد يكون الرغبة فى اثارة اهتمام الآخرين به، حين يجدونه يعرف مالا يعرفونه من الأسرار والخفايا، أو الرغبة فى التوحد مع أحد طرفى الجريمة، بتقمص دور المجرمين - كما كان «فؤاد الشامى» يفعل - أو يتقمص دور الضحايا - كما كانت «لطيفة الزيات» تفعل - أو لمجرد العثور على تبرير لما يتعرض له من اضطهاد وقهر، وهو ما فعلته «فرح بنت عبد الواحد»

وكانت «فرح» امرأة ريفية فى العقد السادس من عمرها... هاجرت مع زوجها من قريتهما فى محافظة الغربية إلى الاسكندرية، بحثا عن حياة أكثر بهجة وفرحا من تلك التى كانا يعيشانها فى قريتهما الصغيرة.

لكن الرياح جاءت بما لا تشتهى السفن، فاضطرت للنزول إلى سوق العمل، لكى تخدم فى البيوت. وبسبب تقدم سنها، وربما عدم كفاءتها، فقد عجزت عن الحصول على عمل ثابت كخادمة مقيمة، يكفل لها مرتبا مجزيا... وظلت تقوم باعمال متقطعة من النوع الشاق الذى لا يستطيع الخدم الدائمون انجازه دون معونة خارجية: تكنس البيوت المهجورة، وتخبز وتغسل الملابس وتغربل خزينها من القمح والسمسم والدقيق... وتتعرض اثناء ذلك لتعالى سيدات البيوت التى لم تكن تتعامل معهن مباشرة، بل عبر وسيطات من الخادمات المقيمات، يشرفن على عملها، ويعاملنها بقسوة تفوق قسوة السيدة التى يتقمصن دورها، ويسعين للانتقاص من أجرها لحسابهن أو لكى يبرهن لسيداتهن على اخلاصهن لهن، وحرصهن على اموالهن، والغالب أنها كانت تحلم بأن يرضى عنها زمانها فتجد عملا دائما كطباخة مقيمة تتقاضى أجرا نقديا ثابتا، وتتناول - بحكم المهنة- طعاما فاخرا من النوع الذى يتناوله السادة...

وكان الحديث يدور فى ترام الرمل بين عدد من الركاب عن جرائم «ريا» و«سكينة» والجميع يتبارون فى استعراض ما يعرفونه من معلومات قرأوها فى الصحف، أو سمعوها من قريب لهم يحرصون على وصفه بأنه «مستوظف كبير فى المحافظة»، وهى تستمع إليهم صامتة. وأمام نظرات الاعجاب التى كان الركاب يحيطون بها المتحدثين، لم تملك «فرح بنت عبد الواحد» - الجائعة لاحترام الآخرين وتقديرهم - نفسها، فارتفع صوتها لتروى لهم قصة، لابد وأنها قد دهشت لها هى نفسها، إذ قالت أنها كانت تعمل طباخة فى قصر أحد الباشوات بـ «شارع منشه» وتتقاضى أجرا زعمت أنه كان يصل إلى عشرة جنيهات فى الشهر. وبعد فترة شعرت بأن

الأجر لا يتناسب مع ما تبذله من مجهود في تجويد عملها، ولا يتوازى مع اعجاب الباشا وضيوفه من الباشاوات والذوات والخواجات بطريقة طهوها حتى أن الكثيرين منهم أخذوا يعرضون عليها العمل في قصورهم بأجر يصل إلى ضعف ما كانت تتقاضاه، فبدأت تلح على الهانم في رفع أجرها. ولما لم تف بوعودها الكثيرة لها بالاستجابة لطلبها، ضاقت بهذا التسويف، فرفعت صوتها ذات يوم تحتج وتهدد بترك العمل. فلما سمعت الهانم، أرسلت إليها وصيفتها الخاصة، فاصطحبتها معها إلى الطابق الثالث من القصر الذي لم تكن قد دخلته..

وبعد جولة طويلة بين ممراته، قادتها إلى غرفة مظلمة كانت تحتفظ بمفتاحها معها، فما كادت تدخل إليها حتى وجدت نفسها أمام حفرة عميقة، أشارت إليها الوصيفة قائلة: عارفة دي إيه؟... دي ترية بندفن فيها اللي يقول عاوز علاوة ونردم عليه.

فغادرت القصر دون عودة..

ولعل كثيرين من ركاب ترام الرمل الذين استمعوا إلى القصة لم يصدقوها لعدم منطقيتها، فالمدافن التي تؤسس في البيوت، لا تقام في الطوابق العليا، التي لا عمق لها يمكن الحفر - والدفن - فيه. ولعل بعضهم قد أدرك أن حكاية الدفن، هي مجرد ذريعة تعللت بها المرأة، لكي تتحدث عن نفسها، فتتباهى أمامهم بأنها طباخة محترمة تتقاضى عشرة جنيهات في الشهر ويتنافس الباشاوات على الاستمتاع بطعامها، وتملك شجاعة الاحتجاج على اهمال مطلبها برفع أجرها، فتتفس - بذلك - عن احلامها المجهضة، وعن احساسها الداخلي العميق بالعجز عن مواجهة ما تلقاه من هوان في البيوت التي تخدم فيها....

لكن شابا في الثامنة عشرة من عمره، يعمل مخزنجيا في أحد محالج القطن، لم يكد يستمع إلى القصة حتى صدقها. ولعله ظن أنه يستطيع أن يكسب بعض المال لو أنه أبلغ الشرطة بما سمعه منها، فما كادت «فرح بنت عبد الواحد» تنتهي من رواية قصتها، حتى بدد سعادتها بنظرات الاعجاب التي أحاطت بها، حين اقترح عليها أن تبلغ الحكومة بما لديها من معلومات، لعل هناك علاقة بين المدفن الذي رأته في «قصر شارع منشه» وبين المدافن التي كشفت عنها الشرطة في بيوت «ريا» و«سكينة»، أو أن تذكر له عنوان البيت واسم صاحبه لكي يقوم هو بالابلاغ عنها، إذا كان هناك ما يخيفها في الأمر.

ولحظتها فقط تنبهت «فرح» للمأزق الذي قادتها إليه رغبتها في التفاخر، وحبها للاستعراض، فتراجعت بخطوات غير منتظمة قائلة أنها لا تخاف شيئا، وانها سوف تقوم - بإذن الله - بالابلاغ بنفسها... ثم انسحبت من المناقشة والتزمت الصمت التام فيما تبقى من الطريق، إلى أن وصل الترام إلى «محطة الرمل» فنزلت منه، لكنها لم تكد تسير خطوات على رصيف المحطة حتى فوجئت

بالشاب يطلب إليها أن تصحبه إلى قسم الشرطة لكى تبلغه بما لديها، فلما حاولت التنصل منه، قائلة بأنها ستفعل ذلك فى وقت لاحق، ظل يحاصرها، إلى أن تحول الأمر إلى مشادة بينهما، تدخل فيها أحد جنود الشرطة، واصطحبهما معا إلى قسم شرطة العطارين..

وهكذا وجدت «فرح» نفسها فى موقف لا تحسد عليه، إذ كان عليها - عندما مثلت أمام الملازم «عبد الغفار أحمد» بصفته ضابط مباحث قسم شرطة اللبان، الذى حولها إليه قسم شرطة العطارين - أن تكذب بنفسها أول مؤلفاتها الروائية، وأن تستنكر كل وقائعها، وأن تحول قصيدة المدح التى قالتها لنفسها إلى قصيدة هجاء، فتعترف بأنها امرأة فقيرة ومسكينة، لم يسبق لها أن دخلت بيوت باشاوات، أو عملت طباخة بها أو بغيرها.. ولكنها مجرد خادمة تعمل بالمياومة وبلقمتها وليس بشكل دائم أو بأجر نقدى، وأن الشاب الذى أبلغ عنها كان يطاردها بصحبة شابين آخرين، أخذوا يغازلونها حتى ضاقت ببذاءتهم فاشتبكت معهم، فجاء الشرطى وقبض عليها وعليه.

ولم يصدق الملازم «عبد الغفار» ما قالته، إذ لم تكن صغيرة أو جميلة لتغرى أحدا بمطاردتها، وعندما عرض الأمر على رئيس النيابة، كلفه باصطحابها إلى «شارع منشه» وعرضها على اصحاب القصور به. وهكذا اتسع نطاق الفضيحة، فدخلت «فرح» الشارع الذى كان مرفأ اشواقها فى موكب من رجال الشرطة، ظل لمدة ثلاثة أيام يعرضها على أصحاب الفيلات والقصور، وحتى على اصحاب البيوت المتوسطة والفقيرة، والدكاكين الصغيرة. وكان من حسن حظها أن أحدا منهم لم يتعرف عليها، فاطلق المحقق سراحها، لتكف منذ ذلك الحين، وربما إلى آخر عمرها، عن حلمها المستحيل بأن تعمل طباخة فى أحد قصور «شارع منشه» وأن ترفع صوتها بالاحتجاج فى وجه أسيادها...!

وكان حلم «حسن الفار» - نجار الطبالى الفاشل بمدينة «كفر الزيات» - بأن يعين مخبرا فى الشرطة، هو الذى قاد «زينب بنت مصطفى» - والدة «ريا» و«سكينة» - إلى المثول مرة أخرى أمام المحقق..

والحقيقة أنه لم يكن - منذ البداية - سعيدا بمهنته، إذ كان يعتقد أنها لا تليق به كرجل متعلم.... صحيح أنه كان قد غادر المدرسة الابتدائية، بعد عامين من التحاقه بها، لكنه كان يعرف القراءة والكتابة، وهى ميزة لا تتوفر لأحد من زملائه النجارين الذين كان يحتقرهم ويتعالى عليهم وعلى امثالهم من الحرفيين، فاعتزل المهنة، وأخذ يمطر المسؤولين فى محافظة الغربية - التى تتبعها مدينة كفر الزيات - بطلبات التوظف، حريصا على أن يؤكد فى كل منها، أنه من المتعلمين الذين يعرفون القراءة والكتابة. والغالب أن ما يتمتع به المخبر من هيبة ومكانة اجتماعية، بسبب عمله فى جهاز الشرطة، واختلاطه برجال وزارة الداخلية، ذوى النفوذ المادى والمعنوى

الواسع، وخاصة فى تلك المدن الصغيرة التى تبدو أقرب إلى القرى، كان هو الذى شكل حلمه، بأن يأتى الزمن السعيد الذى يصبح فيه مخبرا محترما يعمل له الناس ألف حساب، فيخافون منه، وينافقونه، فيشبع بذلك رغبته الدفينة فى أن يسيطر عليهم، ويذلهم، ويقطع السنتهم التى كانت تهزأ من بطالته وتعاليه وتفاخره الكاذب بأنه متعلم..

وكانت «زينب بنت مصطفى» - والدة «ريا» و«سكينة» - قد عادت إلى «كفر الزيات» لتواصل عملها فى المقهى الصغير الذى كانت تديره بمعونة ابنها الاكبر «أبو العلا»، بعد يومين قضتهما فى الاسكندرية عقب القبض على ابنتيها وعلى زوجيهما، أدركت بعدهما أنه لا جدوى من اقامتها فى المدينة، وابنتاها فى السجن، لا تستطيع أن تفعل لهما شيئا. وفضلا عن أنها لم تكن تستطيع تحمل نفقات تلك الاقامة، فقد تعرضت - بعد ساعات من وصولها - لموقف صعب، عندما التقطها شيخ الحارة، من بين الزحام الذى كان يحيط بمبنى قسم شرطة اللبان، لتمثل أمام المحقق، الذى أخذ يستجوبها عن صلتها بابنتيها، وعن نص التلغراف الذى أرسلته إليها ابنتها «ريا» عقب القبض على شقيقتها «سكينة»، وما كاد يخلى سبيلها - فى نفس الليلة - حتى غادرت الاسكندرية فى اليوم التالى، إلى «كفر الزيات» حتى تتوقى المزيد من شبهات المحققين.

وما لبثت أن أصبحت محط أنظار الناس فى المدينة الصغيرة، بعد أن ذاع بينهم أنها أم المجرمتين الرهيبتين اللتين تتحدث عنهما الالسنة والمجالس والصحف. وكان اكثرهم اهتماما بالأمر، وبالمرأة، هو «حسن الفار» الذى أخذ يتابع أخبار القضية فى الصحف، ليغرق فى أحلام يقظة تصور له أنه استطاع أن يحل لغز «ريا» و«سكينة» الذى يحير الشرطة والنيابة والحكومة ويهتم به الناس فى كل انحاء البلاد، فتنشر الصحف اسمه ورسمه، ويستقبله سعادة الباشا مدير مديرية الغربية، أو ربما صاحب المعالى ناظر الداخلية، وقد يستقبله عظمة السلطان «أحمد فؤاد» ذات نفسه، فى قصر عابدين ليشكر له مجهوده فى خدمة الوطن والعرش، وقد ينعم عليه بوسام، أما المؤكد فإنه سوف يعينه مخبرا فى مركز شرطة كفر الزيات....

وهكذا سافر إلى مدينة «طنطا» - عاصمة مديرية الغربية - ذات يوم، لكى يشترى خصيصا صورتى «ريا» و«سكينة» التى أخذت المطابع فى الاسكندرية والقاهرة وعواصم المحافظات، تطبع عشرات الألوف من نسختها وتحتها اسماهما بالعربية والفرنسية، ثم أشعار وأزجال تفضح اعمالهما، وتندد بهما وتصفهما باشنع الأوصاف، وتبيعها بخمسة مليمات للنسخة الواحدة.

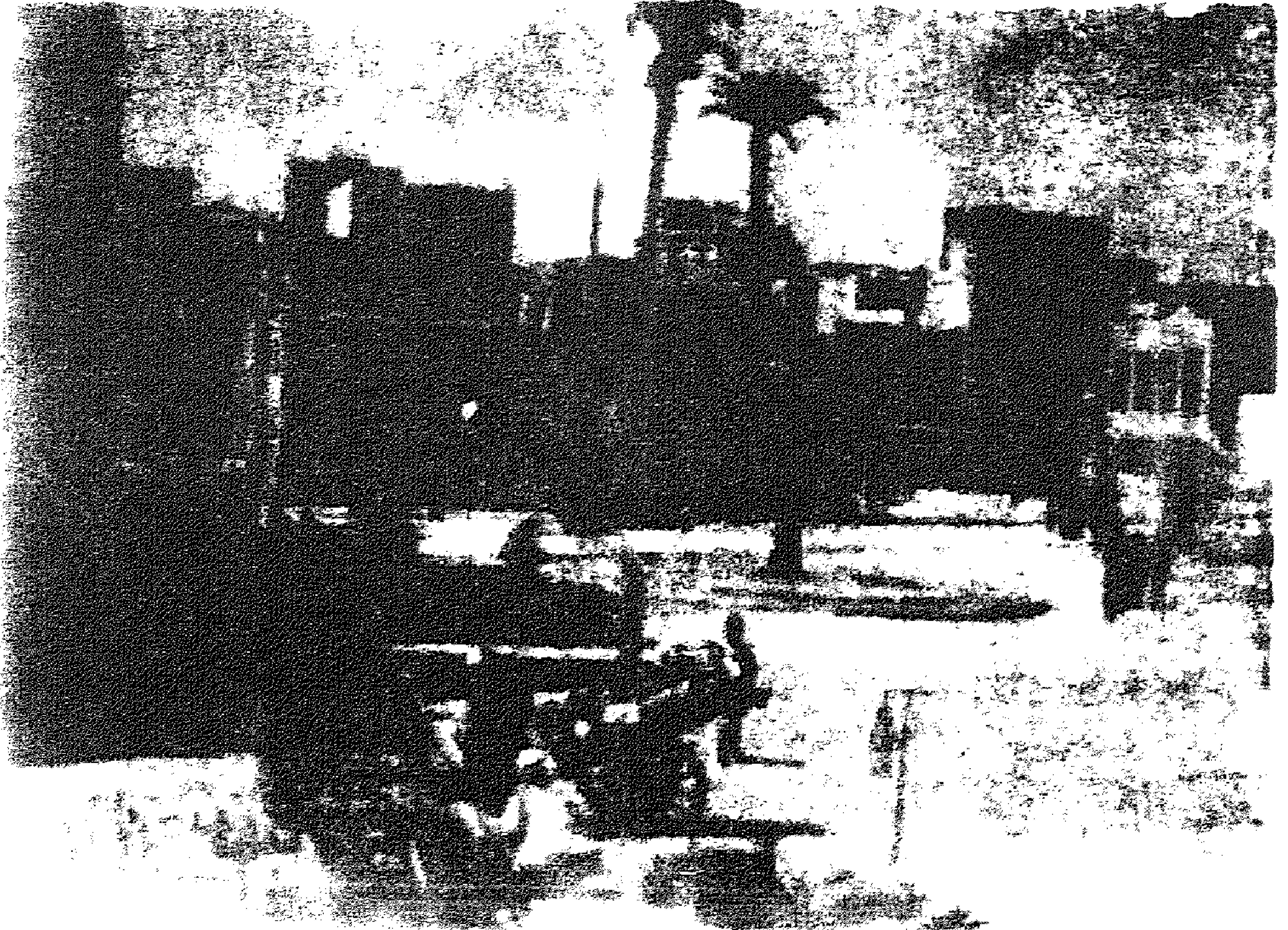
واثناء تجواله بشوارع المدينة، التقى مصادفة، بـ «عثمان فوزى» وهو أحد اهالى «كفر الزيات» الذين فتح الله عليهم، فعين مخبرا بحكمدارية شرطة مديرية الغربية، فدعاه إلى فنجان قهوة على حسابه، لكى

يشبع فضوله لمعرفة أخبار الجرائم وأحوال الحكمدارية، ويوثق علاقته به، باعتباره الواسطة التى كان يعول عليها فى تحقيق أمله بالعمل كمخبر.

وفى مساء اليوم نفسه، كان «حسن الفار» يعرض صور «ريا» و«سكينة» على رواد مقهى «على الجندى» الذى تعود التردد عليه، ويستعرض أمامهم آخر اخبار التحقيق التى أسر له بها أصدقاؤه من ضباط قلم المباحث السرية. وكما حدث فى ترام الرمل، فقد أخذ الجميع يتبادلون ذكر ما يعرفونه من معلومات، عن «ريا» و«سكينة» باعتبارهما نجمى الموسم. ولأن «على الجندى» - صاحب المقهى - كان يعمل بنفس المهنة التى تعمل بها والدتهما «زينب بنت مصطفى»، فقد أخذ يتباهى بما يعرفه عنها. فكان مما قاله أنها كانت، تكثر من السفر إلى الاسكندرية خلال الشهور القليلة السابقة، وتعود فى كل مرة، بقفف ضخمة مليئة بالملابس النسائية المستعملة، فتعطيها للخواجا «عبده حليتو» الترزى الذى تستأجر منه المقهى، ليقوم ببيعها لحسابها فى دكانه. وأن من بين ما عادت به قبل افتضاح أمر ابنتيها جلبابا وطرحة، باعهما الخواجا لامرأة تعمل حارسة على حظيرة الخنازير التى يملكها بخمسين قرشا.

وفى صباح اليوم التالى، وبفضل غريزة «حسن الفار» الشرطية النشطة، كانت المعلومات أمام المخبر «عثمان فوزى» الذى نقلها إلى مفتش مباحث المديرية، فاهتم

ميدان سيدى المرسى أبو العباس بالاسكندرية



بها، وحرص على أن يسمعها بنفسه من المرشد الموهوب، ويناقشه فيها. وفى عصر اليوم نفسه، ألقى القبض على «زينب بنت مصطفى»، وقضت ليلتها فى مركز شرطة «كفر الزيات»، وفى الفجر تم ترحيلها- تحت الحراسة- إلى «الاسكندرية» بصحبة «الفار» الذى روى قصته - بالتفصيل الممل- للصاغ «كمال نامى»، وختمها قائلا أنه سبق أن ساعد شرطة «كفر الزيات» على التوصل إلى الجناة فى كثير من الجرائم الغامضة، كان آخرها جريمة سرقة مواشى وقعت منذ اسابيع، وأنه سيواصل مجهوده فى قضية «ريا» و«سكينة» واضاف:

ــ أنا ح أعس ع الحكاية دى... وإذا وصلت لشىء ح ابلغه لسعادتك... أو للداخلية فى مصر...

وعلى العكس من قصة «فرح بنت عبد الواحد»، التى لم يكن لها صلة بأحد من المتهمين، فقد اهتم رئيس النيابة بأقوال «حسن الفار». وكلف الصاغ «كمال نامى» بأن يصحبه هو و«زينب بنت مصطفى» إلى «كفر الزيات» ليقوم بتفتيش مقهى ومسكن المرأة وابنها... ودكان «عبده حليتو» بحثا عن قفف الملابس النسائية المستعملة.

ولم يجد المأمور شيئا مما يبحث عنه فى مقهى «زينب»، سوى جلباب نسائى أسود، وآخر رجالى ممزق... ولم يجد لها أو لابنها مسكنا، إذ كانا يبيتان فى المقهى... ومع أن دكان الخواجا «عبده حليتو» - الملاصق للمقهى - كان مليئا بالملابس المستعملة، إلا إنه لم يجد من بينها ملابس نسائية، إذ كان معظمها ملابس أطفال يجرى تفصيلها، فضلا عن كمية من الملابس والاحذية العسكرية، مما يباع بالجملة من مرتجعات الجيشين المصرى والانجليزى.

وبعد تحقيق استمر طوال اليوم، اكتشف الصاغ «كمال نامى» أن البلاغ يقوم على استنتاج توصل إليه عقل متخم بالريب والشكوك، انطلق من افتراض مسبق باستحالة أن يكون أحدا من «آل همام» بعيدا عن الاشتراك فى الجرائم... وبالذات أم «ريا» و«سكينة» وشقيقهما، فقاده انحيازه إلى قراءة خاطئة لشواهد عادية، إذ كان الخواجا «عبده حليتو» مهاجرا شاميا ترك مسقط رأسه فى مدينة «حمص» السورية، قبل الحرب بعشر سنوات ليستقر فى «كفر الزيات»، فيفتح دكانا للخياطة وهى مهنته الأصلية. واثناء الحرب بدأ يتوسع فى انشطته التجارية فدخل فى عمليات شراء الملابس المستعملة من باعة الروبابكيا ومن سوق الكانتو، ثم من مخلفات الجيش ليعيد بيعها بعد اصلاحها وصبغها ونشط - على نطاق ضيق - فى مجال الاقراض بفائدة، ثم شارك أحد أهالى المدينة فى انشاء حظيرة لتربية الخنازير..

وكانت المقهى هى آخر مشروعاته، ولما لم تكن هذه المشروعات تدر عليه دخلا يوازى ما يتحمله من عبء فى ادارتها، فقد قرر أن يتفرغ لتجارة الخنازير، وترك ادارة دكان الخياطة لأحد صبيانه مقابل نسبة من الربح، أما المقهى فقد أجرها من

المنيا في ٢٧ نوفمبر ٦١

حضرة صاحب العزة نائب العموم

مقدمه الشيخ عبد الرحيم من حملة القرآن الشريف

حيث اني اوجدت خبر من مصر البنايات التي وجدت

باسكندرية وبلغنا نيابة اسكندرية تفصيلا

ولا يكون بيني وبين الناس دي نظرا للضغائن

التي بيني وبينهم اذا لم يكن بيني وبينهم ضغائن

فلتتم التحقيق واواجههم مواجهتا لانني اعلم

بالمنازل التي كانت فيها هذه الجثث وشبهت

بناء على مكانهم واستشهد بالله والحمد لله

ان اعلم احد منهم لاني من حملة القرآن الشريف

وانا افضحت لنيابة اسكندرية

ملحوظة فرجو اتفتيش منزل

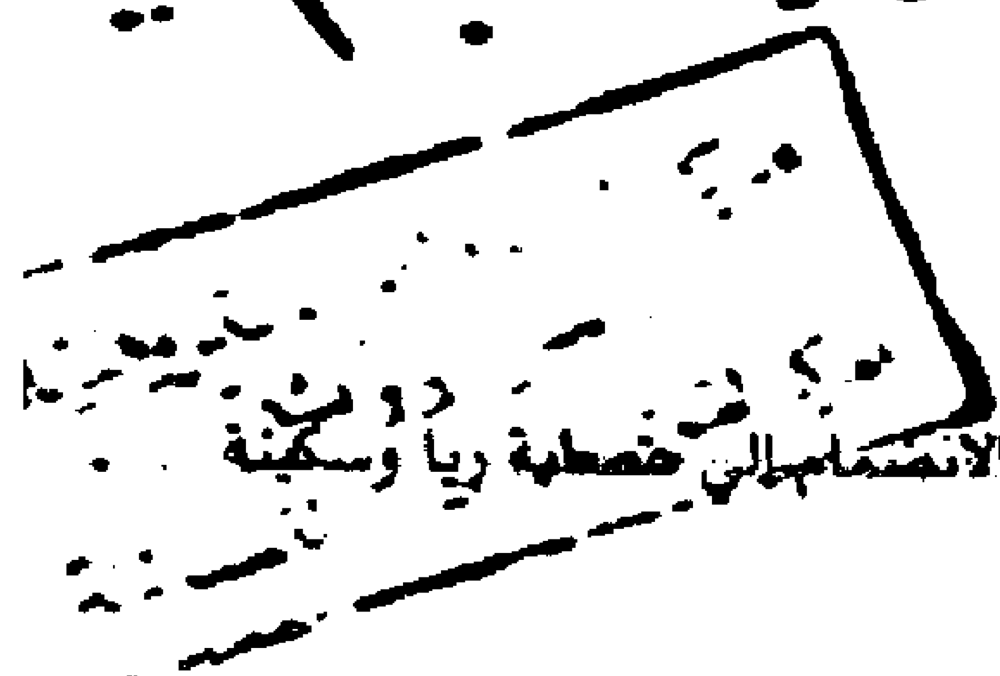
محمد الصباغ لانه يوجد فيه سكاكين الذين كانوا

يفعلوا فيها هذا الفعل وهذه شبهتي رمت في

هذا الفعل نظرا للسيدات الذين يحضروا من

اسكندرية الي المنيا ويحضر رجال اخرين

والراجي انه يحفظ في دوسيه القضية ويخص علي الله



نماذج من البلاغات الكيدية والوهمية التى انهالت على النيابة العامة تتهم آخرين بالانضمام الي عصابة ريا وسكينة

الباطن لـ «أبو العلا همام» - الذى كان يعمل صبيا بها - مقابل إيجار يومى قدره عشرة قروش، فضلا عن حقه فى أن يتناول مشروباته بلا مقابل...

وكان الربط بين ما نشرته الصحف حول قيام المتهمين فى قضية «ريا» و«سكينة» بالاستيلاء على ملابس الضحايا لبيعها أو استعمالها، وبين علاقة أمهما بالخواجا «عبده حليتو» - تاجر الملابس المستعملة - هو الذى انتج تلك القصة المكذوبة التى تنازل «على الجندى» عن حقوق تأليفها، ونفى كل صلة له بها. وأنكر أن يكون قد شاهد «زينب» وهى تعود من الاسكندرية بقفف من الملابس النسائية المستعملة، كما نفاها كذلك الخواجا «حليتو» الذى أضاف بأن الجلباب والطرحة اللذين باعهما لحارسة الحظيرة، كانا ضمن صفقة من الملابس القديمة اشتراهما من سوق الكانتو بالقاهرة.

ولم يكن «أبو العلا همام» فى حاجة للتدليل على كذب البلاغ، إذ كان فقره ظاهرا وليس فى حاجة إلى مزيد من الادلة وعندما واجهه المحقق بقصة قفف الملابس التى جاءت بها أمه، قال بصوت ذليل:

- كان بان علينا ياأفندى... آنى ما احتكمش إلا على جلابيتين مقطعين زى ما انت شايف، وأمى ما عندها ش غير الجلابية اللى لابساها، والجلابية اللى لقيتوها فى القهوة، شحتاهم من تاجر قماش اسمه الحاج صالح بيطلعهم زكاة ماله.

وهكذا تأكد للصاغ «كمال نامى» أن زميله معاون شرطة مركز «كفر الزيات» كان على حق عندما وصف «حسن الفار» بأنه شخص لا صناعة له، ولا عمل يتعيش منه يحترف الخبص والنميمة وازعاج السلطات، فأغلق محضره، وعاد به ومعه «زينب بنت مصطفى» إلى الاسكندرية، ليعرضهما على رئيس النيابة الذى أمر بحفظ التحقيق، وبالافراج عن المرأة..

والحقيقة أن «حسن الفار» و«فرح بنت عبد الواحد» لم يكونا الوحيدين اللذين احترفا الخبص والنميمة وازعاج السلطات فى تلك الايام التى لم يكن للناس حديث فيها إلا عن جرائم «ريا» و«سكينة» فقد استغل كثيرون اهتمام الشرطة بالتحقيق، واستعدادها للجرى وراء كل خيط قد يقودها للقبض على مزيد من المتهمين أو يفيدها فى اثبات التهمة ضد المشتبه فيهم، فامطروا سلطات التحقيق بوابل من الشكاوى الكيدية والبلاغات مجهولة المصدر يعبرون بها عن شكوكهم التى لا تقوم على أى اساس، أو يثأرون بها من خصومهم، أو يرسلونها لمجرد العبث والسخرية، وفى أحيان أخرى للتنفيس عما يعانونه من اهتزازات عصبية ونفسية.

وكان من أول تلك البلاغات، بلاغ يؤكد اتهام «محمد سليمان شكير» - جار

«سكينة» فى «بيت الجمال» - بالاشتراك فى الجرائم. وقد وصل إلى المحقق، بعد ثلاثة أيام فقط من القبض عليه. والغالب أن محرر البلاغ قد استغل اسم «شكير» لكى يوحى بصحة اتهامه لشخص آخر يدعى «مصطفى الكحكى»، يعمل حمالا بالجمرك، وصفه بأنه «من ضمن المجرمين الذين ارتكبوا الحوادث التى حصلت فى قسم اللبان» وطلب «سرعة القبض عليه والتحقيق معه، وسوف يدل على الآخرين ومن ضمنهم محمد شكير»..

وبعد ثلاثة أيام أخرى تلقى مأمور الضبط بحكمدارية شرطة الاسكندرية بلاغا بتوقيع «مفهوم» أحاطه فيه علما بأن «من يدعى محمود الجرم الساكن بجهة الحارة الواسعة بحدود قسم اللبان هو من جمعية ريا وسكينة، وكان دايما يلازم منزلها هو ومحمد شكير».

واكتفى محررو بعض البلاغات الأخرى بإثارة الشبهات حول آخرين، من دون أن يجزموا بأن لهم صلة مباشرة. بالجرائم ومن بينها بلاغ وصف كاتبه نفسه بأنه «ثقة»، لفت فيه نظر الحكمدار إلى «أحد البيوت السرية التى يكثر تردد الرجال عليها» قائلا أنه واثق بأن «هذا المنزل الذى تديره عايقة تدعى أم بكر بحارة البلقطرية - لا يخلو من عمل مثل هذه الجرائم»... وهو الاتجاه الذى أخذ به بلاغ آخر وقعه صاحبه باسم «عبدكم الخائف» أثار الشكوك حول امرأة تدعى «شمس بنت الحاج نافع» قال «إنها كانت على صلة متينة بمن تدعى ريا صاحبة الجناية الشهيرة، التى كانت تتردد عليها حتى شهر مضى». وبرر شكوكه بأن «شمس» مع أنها لا تملك شيئا بالمرة، فإنها «تلبس ملابس ثمينة لا تقدر على شرائها، وتأكل أكل نظيف وثمين جدا.... وخلاف ذلك يوجد عندها مصاغ ثمين».

ولم يكن البلاغ الذى أرسله «الشيخ عبد الرحيم» - من مدينة «المنيا» يختلف كثيرا عن قصة «فرح بنت عبد الواحد». ولعل الدوافع التى قادته لإملائه لا تختلف كثيرا عن الدوافع التى دفعتها لتأليف قصتها الوهمية. ولما كان من غير المنطقى أن يقع رجل وصف نفسه فى ديباجة البلاغ بأنه «من حملة القرآن الشريف» فى كل تلك الاخطاء الاملائية التى يحفل بها، فالغالب أن الشيخ «عبد الرحيم» كان مقرئا كفيف البصر من قراء القرآن الكريم فى المقابر والبيوت، وأنه أملى البلاغ على أحد جيرانه، لكى يوحى له - ويشيع عن نفسه من خلاله - أنه على صلة وثيقة بكبار المسؤولين فى الحكومة، وأنه صاحب الفضل فى اكتشاف جرائم «ريا» و«سكينة». فوجه خطابه إلى النائب العام مباشرة، مقدما نفسه له بأنه هو الذى أبلغ نيابة الاسكندرية من قبل بكل التفصيلات عن المنازل التى عثر فيها على الجثث، وعن اسماء افراد العصابة، محذرا النائب العام من تصديق ادعائهم بأن هناك ضغائن بينه وبينهم مؤكدا أنه لم يظلم أحدا منهم، ومبديا استعداده لمواجهتهم، بما سمعه على لسانهم من وقائع واعترافات. ثم طلب من النائب العام أن يأمر بتفتيش منزل شخص

يدعى «أحمد الصباح» قال إنه كان يستقبل فى منزله بالمنيا ضيوفا من الرجال والنساء كانوا يأتون لزيارته من «الاسكندرية» مؤكدا له أن التفتيش سوف يسفر عن السكاكين التى كانت تستخدم فى ذبح النساء، وبعد أن نصح النائب العام بضم بلاغه الجديد إلى دوسيه القضية، مؤكدا بأن لديه معلومات أخرى لن يدلى بها إلا اثناء المحاكمة، ختم خطابه بقوله إن أفراد العصابة قد عرضوا عليه أمس مبلغ خمسين جنيها ليتراجع عن أقواله ضدهم، ولكنه رفض قبولها لأن ما يريده هو ظهور الحق.

ومع أن النائب العام، أحال خطاب «الشيخ عبد الرحيم» إلى رئيس نيابة الاسكندرية «للتصرف ودوام موافاتنا بما يسفر عنه التحقيق» فقد أدرك «سليمان بك عزت» أنه ليس أكثر من مجموعة من الاكاذيب، أملاها رجل مقهور تحت وطأة العجز والفقر، ينفس عن إحساسه بالهوان بالتفاخر بأمجاد لم تقع.

ولأن حرب التشويش وتشتيت الانتباه، واستنزاف القوى، التى شنها المتهمون - وفى مقدمتهم «ريا» - ضد المحقق، كانت فى ذروتها آنذاك، فإنه آثر ألا يهدر طاقته فى تحقيق تلك البلاغات المجهولة التى انهالت عليه، ولم يقبض على أحد ممن وردت اسماؤهم بها، وأحالها إلى الشرطة لكى تتحرى عن مدى صحتها.... ليتفرغ للبحث عن لغز «محمد خفاجة».



كانت صفحات التحقيق قد ازدحمت - خلال اسبوعين متواصلين - بتلال من الاكاذيب، حتى كاد المحقق يختنق تحتها.. حين مثل «محمد خفاجة» أمامه، ليكون أول شاهد لا ينكر الوقائع الواضحة التى يستحيل إنكارها ليستبدلها بوقائع رديئة السبك ركيكة المنطق..

ولعله كان الوحيد من بين المشتبه فيهم الذى لم يكن لدى المحقق وقائع كثيرة يستجوبه بشأنها.

فمع أن اسمه كان قد تردد على لسان «ريا» و«سكينة» و«عائشة» فى معرض الاشارة إلى إنه رفيق «عديلة الكحكية»، إلا أن أحدا من المتهمين الآخرين لم يكن قد أشار إليه، بل ونفت «عديلة الكحكية» نفسها كل معرفة لها به، وحصر «عبد الرازق» صلته به فى نطاق معرفته لاسمه فقط.. ولم تكتف «أم أحمد النص» بانكار كل علاقة لها به، بل وحاولت أن تنبهه إلى ذلك قبل الادلاء بأقواله، لتدفعه للانكار هو الآخر، فما كاد يدلف من باب القسم حتى أطلت عليه من نافذة الغرفة التى كانت محتجزة بها، ووضعت سبابتها اليمنى على شفتيها وهزتها عدة مرات، فى اشارة واضحة له، بأنها لم تتكلم، وبأن عليه أن يحذو حذوها وينكر كل شىء.

وفضلا عن أن «محمد خفاجة» - بحكم ثرائه ومكانته - كان شديد الثقة بنفسه والاعتداد بها. فقد استنتج بذكائه وخبرته، أن طبيعة صلته بالمتهمين فى القضية، التى يعرفها كثيرون سوف تتكشف مهما حاول انكارها. ولما لم يكن لديه ما يدعوه للخوف من الاقرار بهذه الصلة. فقد أدرك أن الاعتراف بها سيدعو المحقق للثقة به، ويبدد ما قد يثيره الانكار من شكوكه فيه. واسترابته فى موقفه...

وهكذا لم يكد «محمد خفاجة» يمثل أمام المحقق - ضحى يوم الاربعاء أول ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠ - ليسأله عن صلته بالمتهمين، حتى أفاض فى رواية تفاصيل علاقته بهم، منذ اللحظة التى جاءته «ستوتة بنت منصور»، تشكو إليه صديقه - أو محسوبه - «عبد الرازق يوسف»، الذى أمضى ليلته مع البنت «برج»، إحدى الفتيات العاملات بالبيت الذى كانت «ريا» تديره للدعارة السرية فى «حارة النجاة»، حيث توجد حظيرة المواشى التى يملكها، ثم ألقى بها فى الشارع من دون أن يعطيها أجرها، إلى اليوم الذى جاءت فيه «عديلة الكحكية» بصحبة «ريا» لكى تروى له قصة اختفاء «أنيسة» وتطلب إليه التدخل لدى رفيقها «عبد الرازق» لشكها فى أنه هو الذى حرضها على الهروب معه.

وبذلك سدت رواية «خفاجة» كثيرا من الثغرات المنطقية فى مرويات الآخرين، وخاصة «ريا» التى اضطرت إلى الاقرار بأنها هى التى عرفت كلا من «خفاجة» و«عبد الرازق» بـ «عديلة» و«أنيسة»، من دون أن تسحب اتهامها لـ «الكحكية» بأنها كانت تشارك فى عمليات القتل. وفضلا عن أن اقوال «خفاجة» قد أكدت صلة «عرابى» و«الجدر» بـ «آل همام» -وهو ما كانا ينكرانه حتى ذلك الحين - فقد وضعت ثلاثة من المتهمين فى مأزق حرج..

كان أولهم هو «عبد الرازق يوسف» الذى أصر فى المواجهة بينه وبين صديقه، على تكذيب كل ما قاله عن علاقته بـ«أنيسة»، وأنكر كل الوقائع التى تتعلق بها، بما فى ذلك واقعة نزهة يوم العيد التى أكد بأنها اقتصرت عليهما دون أن يكون معهما نساء..

وهو ما فعلته «عديلة الكحكية» التى أصرت على أنها لا تعرفه ولم تكن رفيقة له، ولم يسبق لها أن رأته أو تنزهت معه.

أما الثالثة وهى «أم أحمد النص» فقد استنكرت بشدة ادعاءه بأنه استأجر منها غرفتها ليمارس فيها الفحشاء.

ولم يكن «خفاجة» فى حاجة إلى شهود على صحة ما ذكره عن واقعة تردده على بيتى «آل همام» و«آل النص» بـ «حارة النجاة» بعد أن اعترفت بها كل من «ريا» و«سكينة» و«عائشة» لذلك ركز جهوده فى التدليل على صحة ما ذكره عن وقائع سهرة العيد وما تلاها، فطلب الاستماع إلى أقوال كل الذين عرفوا باستعداده لتلك السهرة، أو شاركوه فيها، أو كانوا طرفا فى الوقائع التى ترتبت عليها وخاصة المفاوضات التى جرت بينه وبين «عبد الرازق» بعد أن اتهمته «أنيسة» بسرقة فردة حلقها وكيس نقودها... ومن بينهم

صديقيه «محمد هليل» - الدخاخنى الذى بدأت الرحلة من أمام دكانه- و«محمود عبد الرحيم» - العطار الذى شاركهم جانبا من السهرة فى المقهى - و«فاطمة القرعة» - العايقة التى أمضى الأربعة ما تبقى من الليلة فى المنزل الذى تؤجر غرفه للعشاق- فأيد الرجلان روايته فى أجزائها الاساسية، لكن الأول منهما لم يكن قد رأى المرأتين إذ كانتا تختفيان داخل الحانطور، بينما زعم الثانى أن الفرصة لم تتح له لكى يتعرف على وجهيهما مع أنه أمضى معهما - فى المقهى ثم فى النزهة التى أعقبتها - وقتا طويلا. والغالب أنه قد فعل ذلك ايمانا منه، بأن الستر على الولايا وعدم فضحهن هو من الواجبات الدينية والأخلاقية التى لا يجوز له الخروج عنها...

وكان المطرب الضرير الشيخ «أحمد ابراهيم» - الشهير بالشيخ «أحمد العاجز» - هو الذى حسم الخلاف لصالح رواية «محمد خفاجة»، وجعل المحقق يستغنى عن شهادة «فاطمة القرعة»، فقد روى التفاصيل الكاملة لما وقع فى سهرة العيد، التى بدأت من أمام دكان «محمد هليل» فى السابعة، وانتهت أمام بيت «فاطمة القرعة» فى الرابعة من فجر اليوم التالى..

وذكر أن السهرة كانت تضم «عبد الرازق» و«محمود عبد الرحيم» - اللذين يعرفهما من قبل - واثنتين من السيدات كانت احداهما تصطحب معها ابنتها، وأضاف أنه لا يعرفهما، ولم يسمع أحدا من الرجال يناديهما باسمائهما، لكنه يستطيع التعرف عليهما من صوتيهما إذا سمعه مرة أخرى، إذ تعود أن يعرف الناس من أصواتهم حتى لو لم يكن قد استمع إليهم سوى مرة واحدة.

وأثار تأكيده فضول المحقق الذى لم يجد أمامه وسيلة للتثبت من صحة أقواله، إلا القيام بعرض أصوات المتهمين عليه، فأمر باستدعاء مجموعة من الرجال من بينهم «عبد الرازق»، وأمر كل منهم بأن يتحدث على مسمع من المطرب الضرير، فتعرف على أصوات من يعرفهم منهم، ومن بينهم «عبد الرازق»، الذى تلبسته نوبة غباء، فمع أنه كان قد اعترف من قبل بأنه قد شارك في سهرة العيد، إلا أنه ثار ثورة عارمة عندما تعرف الشيخ «أحمد العاجز» على صوته، فاندفع يهاجم «محمد خفاجة» ويحاول تشكيك المحقق فيه، مؤكدا بأنه صديق «ريا» الصدوق، وأنه يمضى معظم وقته معها فى الخمارات وفى دور البغاء.....

وفى القسم الثانى من «الاستعراف الصوتى» وضع المحقق «عديلة الكحكية» بين فريق من النساء، وطلب إلى كل منهن، أن تسمع «الشيخ أحمد» صوتها، فكان يشيح بيده كلما سمع واحدة منهم، إلى أن سألته «عديلة»:

- انت تعرفنى ياخويا؟... أنا كنت معاك ليلة العيد ياعم؟

فقال على الفور:

- هى دى..

ثم اسـتطرد يذكـر «عـديلة» بما دار بينهما فى العربة، عندما حاولت أن تغريه بأن يأمر سائق الحانطور بالعودة بها إلى بيتها، عندما غادر «محمد خفاجة» العربة أمام «أوتيل جوانى» ليحاول استئجار غرفة يمضيان بها ما تبقى من ساعات الليل، وهى تستمع إليه صامتة.. وعقب المحقق قائلاً:

- الأعمى عرفك من صوتك، والانكار مافيش منه فايدة.. اتكلمى أحسن لك..

فأزاحت الستار لأول مرّة، عن جانب من مبررات التزامها الصمت ورفضها للدفاع عن نفسها أو تفنيد التهمة التى وجهتها إليها «ريا» - وايدتها ابنتها «بديعة» - بانها كانت شريكة فى كل عمليات القتل. وقالت فى صوت مشحون بالبكاء:

- عـاوزنى اتكلم عـشـان تودونى مستشفى المومسات؟!.

وبعد لحظة صمت قالت للمحقق:

- احنا رايحين نقولوا لك كل اللى حصل من الأول للآخر..

وكان ذلك ما فعلته «عديلة الكحكية» التى لم تعترف بالحقيقة كاملة، إلا ظهر يوم السبت ٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠، بعد عشرة أيام من القبض عليها فى اعقاب اتهام «ريا» لها. فروت قصة الصداقة المميتة التى جمعت بينها وبين قريبتها المطلقة «أنيسة رضوان» والتى توثقت بعد أن استأجرت الفتاة غرفة فى المنزل الذى تملكه، وازدادت وثوقاً بعد أن طلقت «عديلة» هى الأخرى، فكانتا تكثران من الخروج معاً، إلى أن التقتا مصادفة فى «سوق الجمعة» بـ «ريا» - التى كانت تعرفها منذ كانت جارة لشقيقتها الراحلة - فدعتهما لزيارتها فى منزلها بـ«حارة النجاة» حيث تعرفت إلى «خفاجة» أولاً، ثم اصطحبت معها «أنيسة» فى الزيارة التالية لتتعرف على «عبد الرازق».

واستطردت «عـديلة» تروى - بالتفصيل - وقائع اللقاءات التى جمعت بين الرباعى العاشق، خلال الاسابيع العشرة التى استغرقتها العلاقة بين أطرافه، والتى وصلت إلى ذروتها فى سهرة العيد التعيسة التى انتهت بسرقة «عبد الرازق» للحلق وكيس النقود، وما قامت به من جهود لاستردادهما من العاشق اللص، إلى أن اختفت «أنيسة»- فى اليوم التالى من دخولها المستشفى - مما اضطرها لتأجيل العملية الجراحية التى كانت تعتزم إجراءها، ومغادرة المستشفى لكى تبحث عنها لدى الذين اتجهت شكوكها بأن لهم صلة بهذا الاختفاء، فقابلت «ريا» التى هددتها بأن تفضحها و«تلفها فى ملاية»، ثم اصطحبتها إلى «محمد خفاجة» الذى لم يبد حماساً للبحث عن الفتاة الغائبة، وعندما عثرت أخيراً على «عبد الرازق» نهرها أمام أهل الحارة، مما جعلها تتوقف عن البحث..

وعندما سألها المحقق فى ختام أقوالها عن مبرر اخفائها لكل تلك الوقائع، قالت

بصوت كسير:

ــ أنا في الأول كنت مش عــــــاوزه تتكلموا .. لأني فرّطت في عرضي، ورحت بيوت وسخة مع ناس واطيين فاختشيت.. وخفت تودوني مستشفى المومسات.

ولأن اعترافات «عديلة الكحكية» قد تطابقت مع أقوال بقية الشهود في واقعة مقتل «أنيسة رضوان» فقد مال المحقق لتصديقها خاصة بعد أن وصله خطاب رسمي من المستشفى الأميري يفيد بأنها دخلته يوم ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٢٠، وهو ما ينفي أي احتمال لوجود علاقة بينها وبين مقتل «أنيسة» التي اختفت في اليوم التالي . لكنه أراد قبل أن يصفي موقفها نهائياً في القضية، أن يتحقق من صحة الاتهامات التي نسبتها إليها «ريا» بأنها اشتركت في قتل امرأتين آخريين غير «أنيسة» وايدتها في ذلك ابنتها «بديعة». فبدأ استدعاء الأخيرة من «الملجأ العباسي»، وواجهها - في صباح اليوم التالي - باجماع الشهود على أن «عديلة» لم تكن تظهر إلا بصحبة «خفاجة» و«عبد الرازق» و«أنيسة» وسألها عن الحقيقة، فعدلت عن جانب من أقوالها السابقة، وقالت أن الذين كانوا يقتلون النساء هم ثلاثة فقط: أبوها وخالتها «سكينة» وزوج خالتها «محمد عبد العال». وبعد أن أكدت من جديد أن أمها لم تعرف بالقتل أو تشترك فيه، وأن الأب كان يتعمد أبعادها عن المنزل كلما جاءوا بامرأة لقتلها، نفت كل ما ذكرته في أقوالها السابقة عن اشتراك «عديلة الكحكية» و«عرابي» و«الجدر» في القتل. وبررت اتهامها لهم بأن أباها هو الذي نصحها بذلك عقب اكتشاف الجثة الأولى في منزل «سكينة». وأقسمت بـ «تربة أخوها» وبـ «مقام سيدي عماد» بأن ما تقوله - هذه المرّة - هو الحقيقة..

ولأن تبرئة «عديلة الكحكية» لم تكن أمراً سهلاً على «ريا»، التي كانت - فيما يبدو - تكن لها كراهية عميقة، لأسباب تتجاوز خطتها للدفاع عن نفسها، فإن المحقق - الذي كان قد أدرك ذلك - لم يسألها عن الأمر مباشرة، حتى لا تقوده إلى متاهة من أكاذيبها التي لا تنفد، بل بدأ بسؤالها عن تاريخ علاقتها بـ«عديلة»، فاندفعت تؤرخ لسيرتها الشائنة، منذ تعرفت بها خلال الفترة التي كانت تسكن فيها إلى جوار شقيقتها، مشيرة إلى خلاعتها وتهتكها وشرهها للرجال والمال.

والغالب أن حالة الكراهية المحمومة التي كانت تتلبسها كلما ذكر اسم الفتاة أمامها، قد أنستها ما كانت قد ذكرته من قبل عن اشتراكها في القتل، كما أن حرصها على نفي واقعة قتل «أنيسة» في بيتها بـ «حارة على بك الكبير»، قد دفعتها في اجاباتها على أسئلة المحقق التالية لان تتوقى ذكر كل ما يتعلق بتردد «أنيسة» على ذلك البيت، وقد بدت لها الأسئلة - التي صيغت بمهارة وتتابعت في سياق مقصود سلفا - بعيدة الصلة عن الموضوع، مثل تواريخ سكنها في بيت حارة «على بك الكبير»، وكيفية وصول «عديلة» اليه يوم

جاءت بصحبة «أنيسة» لتطلب إليها التدخل لاسترداد فردة الحلق وكيس النقود، وهل كانت تلك هى المرة الأولى التى ترددتا فيها على هذا البيت؟. ومتى كانت المرّة الثانية؟.

ولم تتنبه إلى ما يقصد إليه المحقق إلا عندما فاجأها بقوله:

- معنى كلامك إن «عديلة» لم تزرك فى المنزل الذى عثر فيه على الجثث إلا مرتين.. الأولى مع «أنيسة» والثانية لتسألك عنها بعد اختفائها.. فكيف تقولين إذن أنها كانت تحضر فى كل حادثة قتل تقع ببيتك!

وأسقط فى يد «ريا» التى تذكرت - آنذاك فقط - مروياتها السابقة عن اشتراك «عديلة» فى عمليات القتل، فاستدركت قائلة:

- لأ هىّ برضه كانت بتيجى..

وعادت لتكرر ما قالته من قبل، ثم لتعدل عنه وتتقع فيه، بعد أن تتنبه إلى تناقضه مع أقوالها فى نفس الجلسة، أو لاقترابه من المحظور الثانى التى كانت تحرص على ألا تقع فيه، وهو الاعتراف بتردد «أنيسة» على بيتها.. وظلت تتخبط فى أقوالها حتى حين فاجأها المحقق بأن ابنتها «بديعة» قد اعترفت بأن «عديلة» لم تكن تشارك فى القتل، بل وواجه فيما بينهما لأول مرّة منذ بدأ التحقيق، ومع أن مشاعر «ريا» الأمومية، كانت تدفعها فى كل مرّة تواجه فيها بأقوال منسوبة إلى «بديعة» لأن تقول:

- دى صغار وما تعرفش حاجة.

فإنها لم تتحمل - فيما يبدو - تطوع الفتاة للشهادة فى صف عدوتها اللدودة، التى ظلت على امتداد الاسبوعين السابقين تحاول اثبات التهمة ضدها، فصاحت: دى كدابة.

ولما لم يكن المحقق فى حاجة إلى مزيد من الأدلة على أنها اتهمت «عديلة الكحكية» بالمشاركة فى القتل، على سبيل الكيد. فقد اكتفى بما تحفل به أقوالها من تناقض، وأصدر قراره بالافراج عن «عديلة» لتكون ثانى الذين يفرج عنهم ممن سبق حبسهم على ذمة القضية، بعد «بطة محمد العزب» التى أفرج عنها، فى الثانى من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠، بعد أن تأكد له من تقرير الطب الشرعى، أن الجثث الثلاث التى عثر عليها فى أرضية الغرفة التى كانت تقيم بها «سكينة» قد دفنت جميعها، بعد أن غادرت «بطة» بيت الجمال لتقيم فى بيت «ابوالمجد» المواجه له....

وكان «عبد الرازق» هو أول الذين فكت أقوال «عديلة الكحكية» عقدة لسانه، إذ لم يكد المحقق يصدر قراره بالافراج عنها، حتى طلب مقابلته، ليعلن له أن سيقول له الحقيقة... ويبدو أنه أدرك لخطتها - فى نوبة ذكاء طارئة - أن انكاره لكل الوقائع التى اعترف بها الجميع، لاجدوى منه إلا تشكيك المحقق فيه، واسترابته فى موقفه... فحاول -فى أقواله الجديدة - أن يوائم بين موقفه، وما كان التحقيق قد

أسفر عنه من حقائق ثابتة، وأن يتخذ من ذلك وسيلة لتوجيه الشكوك نحو صديقه «محمد خفاجة» باعتباره المسؤول عن اختفاء «أنيسة».

وأقر لأول مرة بأنه يعرف كلا من «ريا» و«خفاجة» و«عديلة»، وأنه عرف «أنيسة» عن طريقهم، ومع أنه حذف كثيرا من التفاصيل عن علاقته بها لتظل فى اطار العلاقة السطحية العابرة، فإنه لم ينكر واقعة نزهة ليلة العيد، ولم يحذف منها إلا خاتمتها.

واضاف أنه فوجىء عندما أبلغه «خفاجة» - بعد العيد بيومين - بأن «أنيسة» تتهمه بسرقة حلقها وكيس نقودها، فعز عليه أن يتهم بتلك التهمة الشائنة، فالرجل الذى ينفق ثلاثة جنيهات على مزاجه فى ليلة واحدة كما فعل فى سهرة العيد، لا يطمع فى فردة حلق وريالين، ولو كان يريد أن يسرق لسرق الغوايش التى كانت تتزين بها. وأضاف أنه قرر منذ ذلك الحين أن يقطع صلته بها. وبعد أربعة أيام، واثناء عبوره مصادفة بحارة النجاة» رأته «عديلة» التى كانت تقف مع «أم أحمد النص» أمام منزلها، فنادت عليه، وسألته عن «خفاجة» الذى جاءت لتطلب منه مساعدتها فى البحث عن «أنيسة» التى اختفت، وكانت تلك أول مرة يعرف باختفاء الفتاة.

ونفى «عبد الرازق» تماما أن يكون قد التقى بـ «أنيسة» على انفراد، ومن دون وجود «خفاجة» و«عديلة» قائلا إن «خفاجة» هو الذى كان يرتب كل اللقاءات، ويصدر أوامره بشأنها إلى «ريا»، ثم يبلغه بها، وأنه لم يكن يتصل بـ «أنيسة» أو يلتقى بها إلا معه ومن خلاله. واستغل اصرار «ريا» على أن «أنيسة» هى صاحبة الجثة التى عثر عليها فى بيت «أم أحمد» فى التدليل على براءته، إذ لوكان هو الذى قتلها، لأخذها إلى بيت «ريا» الذى يعرفه، بدلا من استدراجها إلى بيت غريب.

وفى تبريره لاتهام «ريا» له، بالمشاركة فى قتل النساء الأخريات قال «عبد الرازق»:

- لأنى كنت مشهور زمان بالفتونة والشقاوة... ولأن البلوى ضبطت عندها... فلازم توزعها على معارفها.

ثم انتقل من توجيه شبهات المحقق نحو «خفاجة» - الذى حرص على أن يؤكد بأن صلته بـ «ريا» كانت وثيقة، وبأنه كان يراهما دائما معا - إلى توجيهها نحو «حسب الله» الذى كان سجينا معه فى زنزانة واحدة، تضم معهما - كذلك - «أحمد الجدر» - فتطوع، من دون سؤال من المحقق، ليقول بأن زوجة «حسب الله» الجديدة»، تعودت أن تنادى عليه من الشارع الذى تطل عليه نافذة الزنزانة، فيتبادلان الحديث بصوت عال. وأنه سمعه منذ يومين يطلب إليها أن تذهب إلى شخص سماه لها، وذكر لها أنه مدين له بسبعة جنيهات، لكى يقوم بـ «شد واحد افوكاتو» وتعطيه المبلغ، مقابل دفاعه عنه فى المحكمة... وبعد انصرافها دارت مناقشة بين ثلاثتهم سأله «أحمد الجدر»

خلالها عن مصدر حصوله على تلك النقود، فلما ادعى أنه ادخرها من أجره، قال له:

- انت بتقول إن يوميتك ١٧ قرشا... دول ح تصرف منهم ع الأكل والشرب والجواز وتشترى منهم دبل ذهب وكتاين فضة... وتوفر منهم كمان...

وأضاف «عبدالرازق» أن المناقشة فيما بينهم تصاعدت حتى كادت تتحول إلى مشادة.

ولأن الواقعة كانت شاهدا جديدا على ثراء «حسب الله» غير معروف المصدر، فقد استدعى المحقق «أحمد الجدر» الذى أيدها مع اختلاف قليل في التفاصيل، كشف عن أن التعليق الذى نسبه إليه «عبد الرازق» لم يصدر عنه، وأن الاخير وضعه على لسانه ليكون بمثابة مذكرة تفسيرية لواقعة الجنيهات السبعة، تنبه المحقق إلى دلالتها وتركز شكوكه فى «حسب الله».

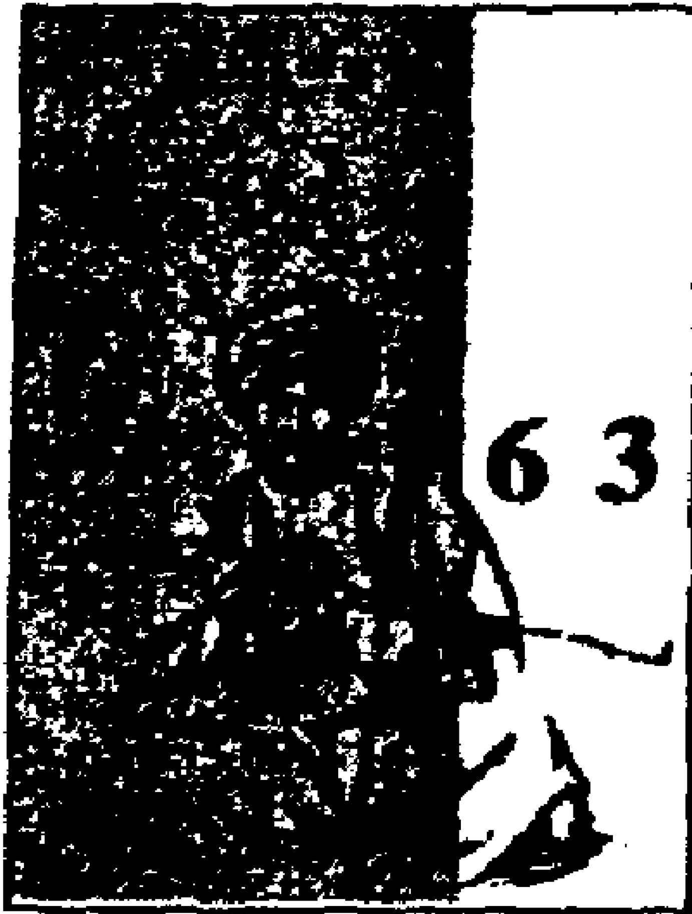
وفى العاشرة من صباح الاثنين ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠ - واصل المحقق الاستماع إلى أقوال «الجدر» لتصفية موقفه فى القضية، بعد أن نفت «بديعة» كل ما وجهته إليه أمها من اتهامات، وقد تمسك بأقواله السابقة. وأصر على أنه لم يعرف «ريا» إلا خلال الفترة القصيرة التى سكنت فيها إلى جواره فى «المسكوبية» وبرر اتهامها له بأنه كان يشترك مع «عرابى» فى استدراج النساء إلى منزلها ليقوموا بقتلهم، بنقمتها عليه، ورغبتها فى الثأر منه، بسبب تحريضه أطفال المسكوبية على التشهير بها وتجريسها باعتبارها كرخانجية تدير بيتا للدعارة، بين بيوت الاحرار مما اضطرها إلى مغادرة المنطقة، ولم يرها منذ ذلك الحين، أو يتردد على بيتها، أو يصحب إليه نساء، أو يقتلهن أمامها، وبعد أن أفاض فى تفنيد لا منطقية أقوالها، علق على ادعائها بأنهما كانا يهددانها حتى لا تفشى سرهما قائلا:

- القاتل ما يديش سره لامرأة... فازاى أدى سرى لواحدة كرخانجية زى دى.

واستدعى المحقق «ريا» ليواجه فيما بينهما... وما كاد يقول لها: «أحمد الجدر» ينكر ما تتهمينه به.....

حتى ردت عليه قائلة: اخرجه بره... وأنا أقول لك الحق.

وأمر المحقق على الفور، بإخراج «أحمد الجدر» من غرفة التحقيق.



لا أحد يعرف - على وجه التحديد - الظروف التى دفعت «ريا»، لأن تقرر فجأة، وبعد ثلاثة اسابيع متصلة من الإنكار وإرباك التحقيق أن تدلى بالحقيقة، لكن أوراق التحقيق تكشف عن أن حالتها النفسية، كانت قد بدأت فى التدهور السريع خلال الاسبوع الاخير، وأنها عادت إلى الحالة النفسية المضطربة

التي كادت تدفعها للاعتراف بكل شيء لحظة القبض عليها، بسبب شكها في أن شقيقتها «سكينة» هي التي أبلغت عنها.

وقد ظلت «ريا» - منذ ذلك الحين- صامدة في خط الدفاع الثابت الذي اتخذته، حريصة على التضحية بالجميع، من أجل انقاذ رقاب «آل همام»، وعلى التضحية برقاب «آل همام» من أجل انقاذ «حسب الله»، وهو ما عبرت عنه ابنتها «بديعة» حين قالت للمحقق:

- أمي عاوزة تطلع أبويا بأي شكل... حتى لو ماتت هيه.

ولم يكن هذا الخط في الدفاع بعيدا عن إدراك ضباط الشرطة الذين كانوا يتولون جمع الأدلة ضد المتهمين. ولابد أنهم لم يكفوا عن محاولة إحداث ثغرة به، تدفع «ريا» للعدول عن موقفها، وكثفوا هذه المحاولات بعد أن أثبتت نجاحها مع «بديعة»، ودفعتها للخروج عن النص الذي تلقنته... بل إن «سليمان بك عزت» - رئيس نيابة القاهرة الذي كان يتولى تحقيق القضية - لم يملك نفسه أمام إصرار «ريا» على إبعاد «حسب الله» عن كل شبهة، فحاول - في إحدى جلسات التحقيق - أن يحرضها عليه وأبدى لها دهشته من إصرارها على الدفاع عنه بعد أن طلقها وهجرها إلى غيرها، لكنها رفضت - آنذاك - أن تبلع الطعم، وقالت له: أنا ما بدافعش عن حد...

والغالب أن «ريا» كان قد أدركت بعد تشعب التحقيق، وتوسعه، أن الذين رسموا لها خطة الدفاع - وفي مقدمتهم «حسب الله»- قد خدعوها، وأوهموها بأن المحققين سيأخذون اتهاماتها للآخرين قضية مسلم بها، وسيصدقون كل ما تنسبه إليهم. وحين فوجئت بأن كل كلمة تقولها تخضع للسؤال والفحص وتناقش مع كل الشهود الذين كانوا يكذبونها عادة، بدأت ثقتها في صواب هذه الخطة تتزعزع، وشكها في أنها تحقق مصالح الذين اقنعوها بها وحدهم، يتصاعد، ومخاوفها من أن تتحمل وحدها المسؤولية عن الجثث التي عثر عليها في مسكنها تتفاقم...

وكانت تلك هي الفرصة التي انتهزها الصاغ «كمال نامي» واليوزباشي «ابراهيم حمدي» لكي يكثفوا لديها الرغبة في انقاذ نفسها بالاعتراف على شركائها، انطلاقا من أن هذا الاعتراف لن يسيء إلى موقفها القانوني في القضية بل سوف يحسنه، فالمحققون - وبالتالي القضاة - يعلمون أن الذي قام بالقتل وبالدفن، هم رجال، ويثقون بأنها لم تقم بالقتل بنفسها، وبأن دورها قد اقتصر على سحب النساء وبيع المصوغات، وهي كلها تهم بسيطة لن تعاقب عليها إلا بالحبس لعدة سنوات، وربما شهور، بينما قد يقودها إصرارها على اخفاء اسماء شركائها إلى حبل المشنقة.

وقد بدأت بشائر التغيير في موقف «ريا» في يوم الاحد ٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠، حين كذبت اعتراف ابنتها «بديعة» بأن «حسب الله» كان من بين الذين يشتركون في القتل... فلما سألها المحقق عن المبرر الذي يدفع طفلة صغيرة

لاتهام أبيها كذبا... قالت:

- أبوها مش نافعها... دا راجل زى عدمه... ولا حد خلانى مشيت فى الهم ده... إلا هو..

ورحب المحقق بهذا التطوير فى الحديث الذى دل على أنها تنوى رفع الحماية عن «حسب الله»، فطلب إليها أن تفسر ما تقصده، لكنها - فيما يبدو- ترددت فجأة، فغيرت مجرى الحديث وتهربت من الاجابة... وقالت:

- لوكنت فتحت لى «كرخانة» زى ماكنت فاتحة فى الأول، كانت الفلوس تبقى فى جيبى كتير، وماكانش حصل ده كله، لكن هو اللى فضل يقول لى: خدى لك بيت واقعدى فيه... فكنت اقعد معه، وبعد شويه ما لاقيش فى البيت أكل... أروح افتح لى بيت سر.

وكانت وقائع العذاب الذى لقيته فى حياتها الزوجية مع «حسب الله»، هى النقطة التى استهلت بها «ريا» - فى اليوم التالى- الجزء الأول من اعترافاتها، منذ هرب من «كفر الزيات»، بعد القبض على شركائه فى عصابة السرقة وتركها لتسجن بتهمة اخفاء ما عثر عليه ببيتهما من مسروقات العصابة لتصل إلى الاسكندرية، وهى - كما قالت - «كالقطة العمياء»، لا تستطيع أن تفتح عينيها فى رجل، فتجد شقيقتها «سكينة» تدير منزلها للبغاء السرى، وتضطر لمشاركتها فى نشاطها بسبب كسل «حسب الله» وتعطله الدائم عن العمل، فلم يعترض على ذلك واكتفى بمراقبة ما يجرى، والاستيلاء على ما كانت تربحه من إدارة بيوت الدعارة لكى ينفقها على مزاجه، وعلى من كان يرافقهن من النساء...

وبعد تلك الفذلكة التاريخية التى لم تطل، انتقلت «ريا» فجأة للحديث عن جرائم القتل التى وقعت فى بيتها، لكنها - فيما يبدو- كانت تجد صعوبة بالغة فى الاعتراف بالحقيقة.. لذلك ظلت تدور حول الموضوع، من دون أن تقتحمه مباشرة. وتركها المحقق تسترسل من دون مقاطعة، وبلا تعليق أو استفهام أو مناقشة، إلى أن داخت، ولعلها تكون قد خجلت من محاولاتها الساذجة للتمويه عليه، فبدأت اعترافها.

ولأول مرة، منذ بدأت «ريا» تبث مروياتها، اعترفت بأن «حسب الله» لم يطلقها عمليا أو رسميا. ولكنه ذكر لها فقط -فى أعقاب مشاجرة بينهما- أنها طالق منه، دون أن يوثق هذا الطلاق، أو أن يترتب عليه أى تغيير فى حياتهما المشتركة، فقد ظل -بعدها- يقيم معها، ويمضى لياليه فى مسكنها بـ «حارة على بك الكبير» حيث كانت توجد كل ملابسه، بل إنها لم تكن تعلم -حتى اليوم الذى قتلت فيه «فردوس»- بأنه قد عقد قرانه على غيرها.

ولم تكتف «ريا» بهذا الاعتراف الصريح الذى هدم أساس دفاع «حسب الله» القائم على عدم مسؤوليته عن الجثث التى عثر عليها فى مسكن الزوجية، بل واعترفت

كذلك -وهذا هو الأهم- بأنه كان أحد أربعة رجال يشاركون فى القتل والدفن مع «عبدالعال» و«عرابى» و«عبدالرازق»..

صحيح أنها حرصت على أن تؤكد بأنها لم تشاهد بعينها عمليات القتل التى اتهمته بالمشاركة فيها، لكن الشواهد التى ذكرتها كانت تؤكد التهمة التى حرصت على أن تنسبها إليه بعبارات صريحة لا تحتمل أى لبس. ولم يكن إنكارها لرؤية العمليات، سوى محاولة ساذجة لكى تنأى بنفسها عن الاتهام، بعد أن قررت التضحية بالجميع فى سبيل إنقاذ نفسها، فاحتفظت لنفسها بالدور الذى خصصته لها منذ بداية مروياتها: دور المرأة الساذجة البريئة التى يستغل الرجال الأشرار ضعفها، وطيبة قلبها. فيصطحبون النساء إلى غرفتها، ويقتلوهن ويدفنونهن فيها من دون مشاركتها أو حتى علمها. أما التى كانت تعلم وتشارك فهى شقيقتها «سكينة» التى اتهمتها لأول مرة، بصراحة ووضوح، ومن دون أن تترك أى فرصة للتأويل، بأنها كانت تقوم بدور المنظم لعمليات القتل، إذ كانت تطلب منها فى كل مرة -مفتاح غرفتها بـ «حارة على بك الكبير»، بدعوى أنها فى حاجة إلى موقد النفط لتطبخ عليه، فإذا ما مرت على البيت- ودائما ما كانت تمر- وجدت الرجال الأربعة، وبصحبتهم- غير «سكينة»- امرأة لا تعرفها، يتحلقون حول مائدة عامرة بالطعام والشراب، وما أن تدخل عليهم، حتى يبعدونها عن المكان بأى ذريعة، وفى صباح اليوم التالى، تخرج لها «سكينة» من جيب جلبابها عددا من الغوايش والأساور وتطلب إليها أن تصحبها إلى دكان «على الصائغ» لكى تبيعانها، وما تكادان تغادران الدكان، حتى تجدا الرجال الأربعة، أو بعضهم فى انتظارهما فيقتسموا ثمن المصوغات المباعة فيما بينهم، ويعطونها نصيبها الذى لم يكن يزيد فى كل مرة عن عدة ريالات.

وعلى عكس مروياتها السابقة، التى كانت تتسم بالتفصيلات المملة، فقد غلبت العمومية والتركيز على اعترافات «ريا» الحقيقية الأولى، التى لم تستطرد إلى رواية التفاصيل، أو تميز بين كل واقعة والأخرى، فيما عدا عملية قتل «فردوس» - التى استثنتها من هذا الاختصار المخل- إذ اعترفت بأن «سكينة» هى التى استدرجتها إلى منزلها، وبأنها اشتركت -كذلك- مع «حسب الله» و«عبدالعال» فى قتلها، أما هى، فقد زعمت بأن شقيقتها قد أعطتها ربع ريال وطلبت إليها أن تذهب إلى الخمارة. وعندما عادت -بعد ساعتين- وجدتها تنتظرها على باب البيت وعرفت منها أن الرجلين ما يزالان يقومان بعملية دفن «فردوس» التى قاومتهما بضراوة، حتى كاد أمرهما يفتضح. ثم صحبتها إلى دكان «على الصائغ» الذى أخذ منهما مصوغات الفتاة، وأعطاهما جنيها واحدا، وطلب إليهما أن تعودا فى اليوم التالى لإتمام الصفقة.

وكان قرار «ريا» بأن تضحى بالجميع، بما فى ذلك شقيقتها «سكينة»، فى سبيل إنقاذ رأسها من المشنقة وراء اعترافها

بالتفاصيل الكاملة لعملية قتل «فردوس» التى ظلت تتكر كل شىء عنها، بما فى ذلك معرفتها بالفتاة، منذ بداية التحقيق.. وفضلا عن اعترافها بأن الفانلة المضبوطة لدى «محمد عبدالعال» هى فانلة «فردوس»، فقد كشفت لأول مرة، عن المكان الذى اختفت فيه بقية ملابس الضحية الأخيرة، فزعمت بأن «حسب الله» قد عاد فى الساعة العاشرة من مساء نفس اليوم الذى قتلت فيه «فردوس» ومعه فتاة صغيرة، عرفت فيما بعد أنها ضرتها «زنوبة» وامرأة أخرى طويلة القامة، وقال لها إنهما ستشتريان الملابس وسلمها لهما..

وكانت معرفة «زنوبة» بالمكان الذى أخفيت فيه بقية ملابس «فردوس» هى الحقيقة الوحيدة فى تلك القصة المكذوبة وغير المنطقية، التى أدرك منها المحقق أن «ريا» تريد منها أن تكيد لضرتها فتقحمها فى الاتهام. وهو ما تحقق له، عندما استدعى «زنوبة» فاعترفت -بعد تردد- بالحقيقة، منذ اللحظة التى دخل فيها عليها «حسب الله» صباح يوم الأحد -وبعد يومين من مقتل «فردوس»- وبصحبته «محمد عبدالعال» الذى كان يحمل فى يده صرّة ملابس، أحصاهازوجها أمامها وأمرها بأن تحتفظ بها فى صندوق ملابسها، ثم طلب منها عصر اليوم التالى، أن تحتفظ بها خارج البيت زاعما أنها موضوع نزاع بين «عبدالعال» وزوجته، فاحتفظت بها لدى إحدى جاراتها، ثم رهنتها لديها مقابل ريال، كانت فى حاجة إليه لتطعم نفسها، بعد القبض على «حسب الله».

واصطحبت «زنوبة» أحد ضباط الشرطة إلى منزل الجارة، ليعود بالملابس التى ما كادت «أم فردوس» تراها حتى عرفت فيها الملابس التى خرجت بها ابنتها..

ولم تكن «زنوبة» هى الوحيدة التى حاولت «ريا» أن تكيد لها بعد أن قررت أن تعترف بالحقيقة، فقد أصرت على أن تكرر اتهامها لـ «عديلة الكحكية» بالمشاركة فى القتل. وعندما ذكّرها المحقق، بأنها أقرت من قبل بأن «عديلة» لم تتردد على البيت الذى اكتشفت فيه الجثث، سوى مرتين فقط، مرة بصحبة «أنيسة» والأخرى لتسأل عنها، قالت بحقد لم تحاول إخفاءه:

- دى داخلة خارجة فى البيت.. وعارفه كل حاجة.. اشمعنى سبتوها.

وهو تعبير عن كراهية شديدة قد توحى بتصديق أقوال «سكينة» التى ذكرت -فى مجال التدليل على تهتك «عديلة»- أنها اختلت مرة بـ «أبو أحمد النص» وأخرى بـ «حسب الله» أثناء غياب «ريا» عن بيت «حارة النجاة»..

وعلى العكس من «الكويجى» و«الجدر» اللذين لم تستطع «ريا» أن تجزم ببراءتهما، بدعوى أنها كانت تراهما أحيانا، وهما يجالسان الرجال الأربعة الذين كانوا يقومون بالقتل، فقد جزمت ببراءة «سيد عبدالرحمن» ونفت أن يكون قد اشترك فى قتل «فردوس» وقالت:

- أنى مانظلموش حد.. هو صاحب

«فردوس».. وكان معاها فى الخمارة.. لكن لم يدخل عندى أبدا فى البيت.

وكان ذلك كافيا -فى نظر المحقق- لكى يأمر بالإفراج فورا عن «سيد عبدالرحمن».. بعد أسبوعين تعيسين قضاهما محبوسا على ذمة التحقيق.. .

ولأن «سليمان بك عزت» كان يدرك -من خبرته فى التعامل مع «ريا»- أن أقوالها الإجمالية هى أقصى ما تستطيع أن تعترف به فى هذه المرحلة من التحقيق، وأن محاولة استدراجها لكى تروى التفاصيل ستدفعها لإغراقه بسيل جديد من أكاذيبها الركيكة، وقد تنتهى بها لإنكار ما اعترفت به قبل لحظات، فقد توقف عن مناقشتها فى تلك الأقوال، ليستدعى شقيقتها «سكينة» فيواجهها بما ذكرته عنها فى اعترافها. وخاصة ما يتعلق منه بدورها فى استدراج «فردوس».

ولابد أن «سكينة» كانت تعرف -قبل مثولها أمام المحقق- بما اعترفت به شقيقتها.. والغالب أنها كانت قد وصلت مثلها - وربما قبلها - إلى نفس النتيجة، وأدركت أنه لا فائدة من الإنكار، ولا جدوى من تأليف قصص كاذبة، لا يصدق عليها أحد، واقتنعت بالمنطق الذى كان المحققون يحاولون إقناعها به منذ بداية التحقيق، وهو أن تعترف بدورها لكى تتحدد مسؤوليتها وتنال عقوبتها على ما قامت به من أفعال بسيطة مهدت لإتمام الجريمة، بدلا من أن تتحمل أوزار الآخرين، وتعاقب على ما ارتكبوه، بحكم العثور على الجثث فى غرفتها. التى ثبت الآن -من تقارير الطبيب الشرعى- أنها دفنت بها خلال الفترة التى كانت تشغلها فيها.

والحقيقة أن مشهد المواجهة بين «ريا» و«سكينة» الذى جرى فى صباح يوم الثلاثاء ٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠- يلفت النظر بدلالته على العلاقة بين الشقيقتين، كما يشير -كذلك- إلى أن علاقة كل منهما بالرجل الذى تحبه، ورغبتها فى حمايته، كان من بين أهم العوامل التى دفعت كلا منهما إلى اتباع خط الإنكار التام، طوال الأسابيع الثلاثة الأولى من التحقيق، ولعل المحقق قد دهش، حين استقبلت «سكينة» اعتراف شقيقتها عليها، من دون أى غضب، كما لو كانت تتوقعه أو تعرفه، ودون أن تنكر - صراحة - ما نسبته إليها أختها. بل نظرت إليها قائلة:

- يا أختى أنا كنت سكرانة.. ودائما سكرانة.

ثم التفتت إلى المحقق لتقول له:

- أختى أكبر منى.. ودائما فايقة وتفهم أكتر منى.. وكلامى زى كلامها.. واللى تقوله هى ماشى.

ولم تفت دلالة هذه العبارات على «ريا» التى أدركت منها، أن شقيقتها قررت أن تتخذ موقف التأييد السلبى لما تعترف به هى، مما يعطيها ميزة التراجع عن أقوالها حينما تريد، ويحملها وحدها «المسؤولية التاريخية» عن الاعتراف فضلاً عن ادعائها بأنها كانت دائماً فى حالة سكر بيّن يعفيها من المسئولية. فاستفزها مكر «سكينة»

ودفعها لأن تتقمص شخصية المحقق، فتبدأ باستجوابها تفصيليا عن الوقائع التى ذكرتها عنها فى غيابها. فسألتها:

- نهار ما أخذت المفتاح منى.. وقلت إنك رايحة تجيبى الوابور من بيت «على بك الكبير».. فاكراه؟

فأجابت «سكينة»:

- فاكراه.. ورجعت لك بالمفتاح بعد دقيقة.

وتجاهلت «ريا» نفى «سكينة» الصريح للواقعة، وعادت تسألها:

- أنا يومها مش جيت لقيتكم انت و«حسب الله» و«عبد العال» و«عبد الرازق» و«عرابى» ومعاكم مَرَة.. قتلوها الرجالة وادونا المصاغ بعناه بتمانتاشر جنيه.. وأنا أخذت ثلاثة ريال بس؟.

وتناست «سكينة» إنكارها، وردت على السؤال بسؤال يحمل اعترافا ضمنيا بصحة الواقعة، فقالت:

- وأنا مش خدت يومها ريالين بس؟.

فقالت «ريا»:

- طيب . ما تقولى.. انت خايفة على «عبد العال»؟.. أنا قلت على جوزى.. قولى على جوزك.

فقالت «سكينة»:

- ماهم كلهم كانوا مع بعض.. وكانوا دائما على القهوة، ومعاهم «عرابى» وإذا كان جوزى يغيب يروح جوزك يجيبه من على القهوة.. أمال يعنى «حسب الله» كان بيجيب فلوس منين يشترى بها الكتاين والدبل والخواتم والبنشات اللى بيلبسها.. وكان بيتفنجر ويسكر منين؟.

وردت «ريا»:

- يا أختى ما أنا قلت.. هوا أنا ناكرة؟. ونهار «فردوس» مش أنتى دخلت بها وأعطيتنى ربع ريال أسكر بيه.. والرجالة قتلوها.. وجوزك خد الفانلة.

فأكملت «سكينة»:

- وضبطوها عند أخوه.. هوا أنا ناكرة؟.

وعند ذلك تدخل المحقق، ليوقف الحوار بينهما، ويطلب إلى «سكينة» أن توضح له معنى ما تقول.. فقالت:

- أنى راح نقولوا كل حاجة.



أما الذى يلفت النظر فى اعترافات «سكينة» فكان هو ذاته الذى لفت النظر فى اعترافات «ريا» فقد حرصت كل منهما أن تستهل اعترافاتها الموسعة، بتلك الفذلكة التاريخية، عن ظروف نشأتهما.. وما لم يكن المحقق هو الذى طلب منهما ذلك، خضوعا لإغراء فنى -لم يستطع أن يقاومه- فى أن يعرف الظروف التى تخلق منها نموذجهما الإنسانى.. أو لمجرد استكمال التحقيق بالتعرف على التاريخ الإجرامى السابق لكل منهما، فلا شك أن ابنتى «على همام» كانتا تمتلكان حسا تاريخيا، دفعهما لذلك الحرص على

ومـوهـبـة فـطـريـة فـى اختيار المهم والدال من وقائعه وأحداثه، وحــرص بـالـغ على أن تتـرافـعـا أمـام مـحـكـمـة التـاريخ، فـتـدفـعـا عن نفـسـيـهـمـا حكمه الجائر ضدهما..

وبهـذا الفـهـم استـهـلت «سكينة» اعتـرافـهـا بفـذلكة تاريخية مختصرة، عن مـرارة الحـيـاة التى عـاشـتـهـا، منذ دفع بهـا الفـقـر والجـوع إلـى الطرقات، لكى تبيع البـيـض والدجـاج والخـضـروات، وتتـعـرض لإغـواء الرجـال، وهـى مـا تزال طفلة غـريرة، إلـى أن تـزوجـت رجلا لم تكن تحبه، ولم تطل عـشـرتهـا



«سكينة» تقف فى مدخل قسم اللبان عقب ضبطها

معـه، ولم تعش ابنتـهـا منه. حـدث ذلك كله قبل أن تدخل «فى الوعد والمكتوب» فتصبح «مومسا»، ولأنها تؤمن بأن كل شىء مقدر ومكتوب على الجبين منذ الأزل وإلى الأزل، فـإنهـا لم تقـاوم الاغـواء الذى تعـرضت له بعـد طلاقـهـا، و«دخلت فى الوعـد» على سبيل الهواية أولا فى كفر الزيات، ثم على

أن تؤصلا مـأساتهما، وتمتدا بجذورها إلى مـا هو أبعـد من تلك اللحظة التى ظهـرتا فيها على مسرح الحياة، لتصبحا نموذجا للشـر المجـرد. وحـتى لو كـان المحـقق هو الذى طلب إليهما ذلك، فإن السيرة الذاتية الشفهية التى أرخت بها كل منهما لحياتها، تدل على قـدرة غـيـر عـادية على التـأريخ،

سبيل الاحتراف بعد ذلك فى طنطا.. وبعد شهور كانت تدخل استبالية المومسات لتعالج من مرض سرى.. وفيها التقت بالوعد والمكتوب الذى يحمل اسم «أحمد رجب» فأحبها، وأغواها بالتوبة وتزوجها، وهرب بها إلى الإسكندرية.

لكنه كان رجلا ضعيفا، مكسور الجناح، فى زمن كانت مصر فيه، وطنا ضعيفا وبلا جناح. وعندما عجز عن إعالتها وإعالة نفسه، تركها وحيدة فى «الإسكندرية» وسافر ليعمل مع السلطة العسكرية البريطانية على ضفتى قناة السويس، يمهد الطرق ويشق الترع ويحفر الخنادق ويقيم قضبان السكك الحديدية، ويعمل ممرضا فى فيلق الخدمات الطبية.. وحين عاد بعد شهور من الغيبة، وجدها قد عادت -أثناء غيبته- إلى وعدها الأول، فكشفت ذيل جلبابها لكل عابر سبيل لكى تجد ما تطعم به نفسها.. فلم يغضب ولم يطلقها ولم يقرر البقاء إلي جوارها ليحميها من كلاب السكك، بل أقام معها أياما قليلة، ترك لها على اثرها نقودا، وعاد هو الآخر إلى وعده المكتوب على جبينه فى جيش الحلفاء..

ولم تختلف الفصول التالية من سيرتها الذاتية عن هذا الفصل الأول من حياتها، التى سارت على نفس المنوال من دون أن يكون لها فيما جرى رأى أو اختيار.. فقد كانت «ريا» وعداً، وكان «حسب الله» مكتوبا، لم تستطع أن تهرب منهما، حين هربا من كفر الزيات، ليلحقا بها فى «الإسكندرية»، ومعهما أولادهما الصغار، وخلفهما الشرطة، تطارد «حسب الله» اللص التافه الذى كان يسرق أكواز السكر، وأقراص الحلاوة الطحينية وعلب البولوبيف ليأكلها.. وبعد أسابيع يصل إلى «الإسكندرية» ماكان قد تبقى بـ «كفر الزيات» من وعد «آل همام» المكتوب على جبينها -أمها «زنيب» وشقيقها «أبو العلا» -ليقع على كاهلها عبء إطعام الجميع فى زمن شح فيه القوت، وتعطلت الأشغال، ولم تعد هناك فرصة عمل إلا لمن تستسلم للوعد مثلها، فتبيع جسدها أو أجساد الأخريات..

وكما كان «حسب الله» مصدرا لتعاسة «ريا» باعتباره -كما قالت- رجلا كعدمه، فقد كان -كذلك- مصدرا لتعاسة «سكينة» باعتباره رجل الأسرة الذى يملك سلطة أدبية عليها، مارسها ضدها بطريقة ذاقت منها الأمرين، فعانت من تنطعه وتبطله وبلادته وشراهته واستمرائه العيش على حسابها، وإنكاره للجميل الذى وصل إلى حد تحريض شقيقها على مشاركته فى السطو على ملابسها ونقودها، وخسته التى كانت تدفعه لطردها، كلما نجح أحد مشروعاتهما المشتركة، لينفرد وحده بأرباحه، حتى ليبدو وكأن «حسب الله»، كان شر ما فى الوعد المكتوب على جبين الشقيقتين.

وكان قتل النساء بعضا من الوعد المكتوب على جبين «سكينة» منذ الأزل وإلى الأزل، فهى لم تختره، ولم تقرره، ولم تشترك فيه بإرادتها، لكنها دفعت إليه دفعا، فلم تقاومه، إيمانا منها بأن

«المكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين».

أما البداية فكانت فى ساعة غبراء من يوم أسود، دعتها فيها شقيقتها «ريا» لمصاحبتها إلى بيتها فى حارة «على بك الكبير» لتخطرها فى الطريق بأن «خضرة محمد اللامى» قد خدعتهما وأخفت عنهما حقيقة الأجر الذى كانت تحصل عليه من الرجال، عندما كانت تعمل عندها فى بيت الكامب، وأنها ظلت -على امتداد سنوات- تختلس لنفسها الجانب الأكبر من نسبة النصف التى تستحقانها إلى أن اشترت زوجا من المباريم، وأن الحكم قد صدر بإعدامها والاستيلاء على مصاغها لكى تستردا حقهما المشروع، والمهضوم.. وحين وصلتا إلى البيت، كان القضاء قد نفذ، وتكومت جثة «خضرة» تحت الصندرة، بينما كان الرجال الأربعة يقومون بحفر قبرها..

وبهذا المنهج القدرى فى التأريخ الذى يفسر كل ظواهره باعتبارها وعدا ومكتوبا لا دخل لإرادة الإنسان فيه، وبالتالى فلا مسؤولية عليه، استطردت «سكينة» تروى -بالتفصيل- كما ما تعرفه عن عمليات قتل عشر من الضحايا، بينهن ستة قتلن ودفن فى حجرة شقيقتها «ريا» بـ «حارة على بك الكبير» والثلاثة اللواتى قتلن ودفن فى مسكنها بـ «حارة ماكوريس» و«حجازية» التى قتلت فى بيت «حارة النجاة» وعثر على جثتها فى غرفة المحششة. وعندما لفت المحقق نظرها، إلى أن هناك خمس جثث أخرى لم تذكر شيئا عن ظروف قتلهن، بينهن أربع فى بيت «ريا وواحدة فى بيت «أم أحمد النص».

قالت إنها لا تعرف شيئا عن صاحبات تلك الجثث، وقد تكون لنساء قتلن فى غيابها ومن دون علمها، وفى الفترات التى كانت تخاصم فيها شقيقتها وتكف عن التردد على بيتها.. ودللت على ذلك بواقعة جوال لحمة الانجليز الذى حملته مقطورتها «عزيزة عبدالعزيز» من بيت «ريا»، وألقته فى خرابة «شارع الواسطى» ثم تبين فى اليوم التالى أنه جثة امرأة، مما جعلها تستنتج أنها إحدى الجثث القديمة التى كانت مدفونة فى بيت شقيقتها، أخرجت من القبر لتحل محلها جثة لامرأة قتلت فى نفس اليوم، ولم تجد العصابة فى المقبرة مكانا لدفنها . وهو ما عاتبت بسببه شقيقتها لإخفائها الأمر عنها، وتواطئها مع بقية أفراد العصابة على هضم نصيبها ولكن «ريا» أصرت على أن الجوال لم يكن يحتوى إلا على «لحمة إنجليزى».

والحقيقة أن اعترافات «سكينة» كانت تتسم بدرجة من الدقة، تدل على قوة ذاكرتها، وتؤكد ما ذهب إليه رفيقها «سلامة» من أنها لم تكن تغيب عن الوعى مهما أفرطت فى شرب الخمر، إذ استطاع المحقق بمجهود قليل أن ينشط ذاكرتها لتعترف بظروف مقتل الضحية الحادية عشرة، وهى «فاطمة»، مومس «كوم بكير» التى التقت بها «ريا» أمام دكان «زنوبة

الفرارجية» واستدرجتها إلى منزلها بدعوى أن «حسب الله» سيقرأ لها الطالع، ومع أنها -كما قالت- كانت فى ذلك اليوم «سكرانة سكرة حامدة».. فقد تذكرت تفاصيل الواقعة، ومفردات ما كانت تتزين به الفتاة من مصاغ.

ولم تكن واقعة «جثة شارع الواسطى» هى اللغز الوحيد من ألغاز التحقيق التى أماطت اعترافات «سكينة» الأولى اللثام عنه، ففضلا عن أن التفاصيل التى أدلت بها حول أسماء صاحبات الجثث، قد أزاحت جانبا كبيرا من الارتباك الذى أوقعته «ريا» بالتحقيق، نتيجة لإصرارها على تجهيل تلك الأسماء أو استبدالها بغيرها، فقد صححت وقائع كثيرة، كانت تحتاج إلى تصويب، من بينها اعترافها بأن «زنوبة الفرارجية» قد قتلت فى بيت شقيقتها وليس فى بيتها، على عكس ما جاء بأقوال ابنة شقيقتها «بديعة» وجارتها «سيدة سليمان»، وهو ما أتاح للمحقق الفرصة لتدقيق الواقعة، فاستدعى «سيدة سليمان» وواجهها بما قالته «سكينة»، فصححت أقوالها السابقة، ونفت كل ما ذكرته من قبل حول رؤيتها لـ «زنوبة» وسماعها لصرخات فى الليل، وحصرت شهادتها فى واقعة المرأة العوراء التى عادت عند العصر لتجدها تجلس فى غرفة «سكينة» بين «حسب الله» ورجل آخر وصفته بأنه «أبيض وقصير وممتلىء الجسم»، وعندما غادر البيت دون أن تغادره المرأة أو «حسب الله» دفعها الفضول للتلصص على ما يجرى بغرفة «سكينة» عبر نافذتها المطلة على المنور، فرأت «حسب الله» ينحنى على المرأة فى وضع دعاها للشك فى أنه يرتكب معها الفحشاء ولما واجهت «سكينة» بذلك وبأن المرأة لم تخرج من غرفتها شككها «حسب الله» فيما رأته، وأعطاها جنيهين، لكى تتكتم على ما رأته، لأن المرأة زوجة صديق له..

وكان من بين ما تطوعت «سكينة» للاعتراف به، من دون أن يسألها أحد، اعترافها بأنها قد توجهت فى اليوم التالى لمقتل «فردوس» إلى الصائغ حيث كانت بصحبة الفتاة، حين أودعت لديه الخاتم الذى أهداه لها رفيقها الإنجليزى وقصبتين من قصبات البراقع لكى يطليها لها، فدفعت له ثمن الطلاء واستردتها منه، واحتفظت بها لنفسها، وأخفتها فى مسند قش فى حجرتها، وأبدت استعدادها لإرشاد المحقق إلى المكان الذى أخفتها فيه، وحين نسى المحقق الأمر، بسبب انشغاله بمحاولة الحصول على اعترافات مماثلة من بقية المتهمين، أصرت على تذكيره به، وروت الواقعة للصاغ «كمال نامى» الذى استأذن المحقق، قبل أن يكلف اليوزباشى «إبراهيم حمدى» بمصاحبتها إلى غرفتها، ليعثر -بإرشادها- على آخر ما كان مختفيا من تركة «فردوس».

وعلى نحو ما، فقد بدا من الاعترفات التى أدلت بها «سكينة» فى تلك الجلسة، وفى جلسات تالية، من التحقيق، وكأن هناك هاتفا خفيا أو دافعا داخليا قويا، يدفعها للاعتراف بكل شىء قد يكون رغبة دفينة تسلطت عليها فى تلك اللحظة

الفاصلة من حياتها، بأن تتطهر بالاعتراف، وتتخلص من عبء أسرار كانت تجثم على أنفاسها حتى لتكاد تخنقها. والغالب أنها نظرت إلى اعترافها، باعتباره -ككل شيء فى حياتها- مجرد وعد ومكتوب على الجبين هو الآخر، فاستسلمت لأقدارها من دون مقاومة، وبلا خوف من العاقبة، التى أدركت -آنذاك- أنها الجزاء المكتوب عليها منذ البداية.

ولابد أنها كانت تتأمل فى محبسها تلك السلسة من مصادفات القدر التى بدأت بفضح ما ظل مستورا من جرائمهم على امتداد عام كامل، بواسطة «أحمد العاجز» -ابن صاحبة «بيت الجمال»- الذى لا يرى أبعد من كف يده، بل وكان يمكن ألا يكتشف شيئا لو أنهم كانوا قد دفنوا جثة «نبوية القهوجية» تحت الصندرة، وليس بجوار دورة المياه، وانتهت بنجاح عاجز آخر -يحمل نفس الاسم- هو «الشيخ أحمد» المغنى الضرير فى اكتشاف صوت «عديلة الكحكية» لتعترف الفتاة، بما جعل مواصلة «ريا» للإنكار عبثا لا طائل من ورائه.. وجعلها هى نفسها تدرك أن الله الذى أمهلهم، لم يهملهم.

ولو لم يكن شيء من ذلك هو ما دفع «سكينة» للإدلاء باعترافاتها - التى حرصت على أن تكون صادقة ودقيقة، وكأنها مؤرخ منصف حريص على تحرى الحقيقة، وتوزيع المسؤولية بالعدل والقسطاس - لما حدث ذلك الانقلاب فى حالتها النفسية، الذى لاحظه ضباط الشرطة، ونقلته عنهم صحيفة «وادى النيل» فقالت إنها «ساقت اعترافها وهى هادئة تماما، ومطمئنة، ومن دون أن تظهر عليها أية علامات للخوف أو التردد، وأنها ما كادت تنتهى منه، حتى استردت روحها المرحة، وأصبحت أكثر ميلا إلى الضحك وإلقاء النكات والهزل، وتفتحت شهيتها فجأة للطعام، فأصبحت تأكل بشراهة متناهية رغيفين من الخبز وطبقا من الفول وعدة أقراص من الطعمية، فضلا عن الزيتون المخلل».

وكان حرصها على العدل، هو الذى دفعها لأن تحصر المسؤولية عن عمليات القتل والدفن فى الرجال الأربعة -«حسب الله» و«عبدالعال» و«عرابى» و«عبدالرازق»- من دون غيرهم، وجعلها حريصة على أن تذكر -على سبيل التحديد- العمليات التى اشترك فيها كل منهم، فضلا عن «سلامة» الذى ذكرت أنه حضر بالمصادفة - ومن دون أن يشارك، فى عملية مقتل «أم فرحات» بائعة الجاز وحصل على نصيب من ثمن بيع مصاغها، لكنه لم يحضر ولم يشترك -قبل ذلك أو بعده- فى أية عملية أخرى.

كما كان هذا الحرص هو الذى دفعها لتبرئة معظم الذين اتهمتهم هى أو شقيقتها، أو أثارت حولهم شكوكا أخرى، وعلى رأسهم «عديلة الكحكية» التى نفت كل ما نسبته إليها «ريا» من وقائع كاذبة؛ وإن كانت لم تستطع أن تبرر سبب تحامل شقيقتها عليها، كما دفعتها لتبرئة جيرانها الأربعة من سكان بيت الجمال فتراجعت عن اتهاماتها لهم، وقالت بأنها فعلت ذلك

بسبب خوفها، وأن شهادة «سيدة سليمان» ضدها، وذكرها لأسماء «عبدالعال» و«خميس» و«فهمى» و«شعبان المنجد» - جلسائها الثلاثة فى خمارة سبيرو- هو الذى دفعها لاتهام ابنها «أحمد السمنى»، وللزعم بأنها كانت شريكة لها، فى حين أنه لا صلة لها، أو للندامى الثلاثة بالموضوع.. وقد نفت -فى إجابتها على سؤال من المحقق- أن تكون صداقتها بهم، وراء تبرئتها لهم، قائلة بأنها لو أرادت أن تبرىء أحدا، لبرأت زوجها أو برأت رفيقها «سلامة»، كما نفت أن تكون قد تعمدت تخفيف المسئولية عن «سلامة»، بسبب حبها له، وقالت: أنا لغاية الآن.. ما أزال أحب «محمد عبدالعال».

ولأن الإنسان يستحيل أن يكون موضوعيا مع نفسه، فقد كان منطقيا أن تحاول «سكينة» -فى اعترافها- التخفيف من مسؤوليتها عما جرى، سواء بإبراز الحقائق التى تبرهن على ذلك، أو بإخفاء المعلومات التى تدل على عكسه، وفى أحيان قليلة، باصطناع وقائع لم تحدث..

وفى هذا السياق حرصت على أن تؤكد بأنها لم تشترك فى المداولات التى انتهت بوضع خطة قتل النساء لسرقة حليهن، ولم تعلم بها إلا من «ريا» وقبل دقائق من قتل «خضرة محمد اللامى» أولى الضحايا. وأضافت أنها اعترضت على الأسباب التى ساقتها شقيقتها لتبرير مشروعية قتل المرأة، بدعوى استرداد حقوقهما التى استحلتها «خضرة» لنفسها، واكتنزتها على قلبها، فى صورة مصوغات. بل ودافعت عن «خضرة» قائلة إنها امرأة «غلبانة» وأن ما ادخرته هو من «عرق فخذيها» وأضافت تقول: إن أحدا لم يأخذ بالاعتراض، إذ ما كادتا تصلان إلى المنزل، حتى وجدتا التنفيذ قد تم، وزعمت أنها لم تكف عن مواصلة الاعتراض فى كل عملية تالية، لينتهى إلى نفس النتيجة، إذ كان بقية أفراد العصابة يتعمدون إخفاء موعد التنفيذ عنها، ويفاجئونها به بغتة، ليفقد اعتراضها جدواه، ويأتى بعد فوات الأوان.

وحتى فى المرات التى كانت كل الشواهد تجزم بأنها المسؤولة مباشرة عن سحب النساء إلى المقتلة - كما هو الحال مع «زنوبة الفرارجية» - فقد تنصلت «سكينة» من المسؤولية عن ذلك لتلقيها على عاتق بقية أفراد العصابة، فمع أنها أقرت بأنها التى اقترحت على «زنوبة الفرارجية» أن تصحبها إلى بيت «على بك الكبير» لكى تحصّل من «ريا» بعض النقود التى كانت تدينها بها، إلا أنها حرصت على التأكيد بأنها لم تكن تتصور أن يقتلها الرجال، بحكم الصداقة العميقة والقديمة التى تربطها بـ «آل همام».

وحين حدث ذلك، فوجئت به واحتجت عليه، خاصة وأنه يثير الشبهات من حولها، بعد أن رآها الناس بصحبة «زنوبة» قبل اختفائها.. وأضافت أن ذلك تكرر مع اثنتين من الضحايا الثلاث اللواتى عثر

على جثثهن فى أرضية غرفتها هما «نبوية القهوجية» و«أم فرحات» بائعة الجاز، إذ اقتحم أفراد العصابة غرفتها وقتلوا كلا منهما، قبل أن تجد فرصة لتعترض على ما يفعلونه أو لتحول دونه.

ولم يكن القتل - كما قالت - هو الهدف من استدراج الضحية الثالثة - «فاطمة العورة» شيخة المخدمين - بل مجرد «كسر عينيها» وإذلالها انتقاما مما وجهه زوجها «رمضان» النجار، لـ «حسب الله» من إهانات.. ومع ذلك فقد فشلت محاولتها لاستدراجها فقامت «ريا» بالمهمة..

أما «فردوس» فقد أكدت «سكينة» أنها بريئة من دمها، لأن الفتاة هى التى سعت بنفسها إلى مصيرها، وهى التى اقترحت أن تذهب إلى بيت «على بك الكبير» لكى تزور العراف الذى سمعت من «ريا» عن مهارته، وقد حاولت أن تثنيها عن الفكرة، حتى لا تتحمل المسؤولية عن غيابها خاصة وأن كثيرين كانوا يعرفون بأنها صحبتها عند خروجها من البيت، لكن «فردوس» أصرت على أن تذهب، فاضطرت لموافقتها بعد أن عجزت عن العثور على سبب وجيه لإثنائها عن عزمها أو للاعتذار عن مرافقتها.

وكان منطقيا فى هذا السياق ذاته أن تستطرد «سكينة» لتروى أدق التفاصيل عن العمليات التى اعتبرت نفسها غير مشاركة فيها أو مسئولة عنها. وأن تتوقف طويلا لتصف مشاعر الحزن التى أمضتها حين كانت تفاجأ بأن من بين الضحايا صديقات مقربات لها، وأن تلجأ إلى الاختصار المخل، فى سرد وقائع العمليات التى ثبت فيما بعد أنها شاركت فيها، أو كانت المسؤولة الرئيسية عنها، إلى الحد الذى تجاهلت فيه تماما الإشارة إلى كل ما يتعلق بالجثة التى عثر عليها بغرفة المحششة، إلى أن ذكرها المحقق فاعترفت بأنها جثة «حجازية» وادعت أنها دهشت حين علمت بأن «حسب الله» و«عبدالعال» قد قتلاها، واعترضت على ذلك، لأن الفتاة لم تكن تتزين بمصاغ له قيمة، إلا أن السيف كان -كالعادة- قد سبق العزل.. وقد تبين فيما بعد -من اعترافات الرجلين- أن «سكينة» هى التى اتخذت قرار قتل «حجازية» وأصرت على تنفيذه على الرغم من معارضتهم ولنفس السبب الذى انتحلته لنفسها، أما السبب الحقيقى لإصرارها على قتل الفتاة مما اضطرهما إلى الاستجابة لها حتى لا تثير فضيحة، فهو أنها كانت «مغتاظة منها».

ولم تخرج محاولة «سكينة» للتنصل من المسؤولية عن سياق المنهج الذى أرخت به لسيرتها الذاتية، ذلك أنها لم تختر شيئا فى حياتها، ولم تفعل شيئا بإرادتها، فمنذ البداية وحتى النهاية، كانت تخضع للوعد المكتوب على جبينها، وتتساق إلى إرادات خفية أو ظاهرة، تدفعها لكى تفعل ما فعلت. أما الأشرار حقا فهم بقية أفراد العصابة، الذين تعمدوا أن يستدرجوها لكى تشهد بنفسها عملية قتل أولى الضحايا لكى يورطوها معهم، ويجبروها على أن تكون شريكة لهم، ويلزموها

الصـمت على مـا يفـعلونه، إلى درجـة التهديد بقتلها إذا رفضت هذه المشاركة، وهو مـا زعمت أن «عـرابى» و«عـبدالرازق» قد قـالاه لها صـراحة، إذ مـا كـادت تدخل غـرفـة شـقـيـقـتـهـا فى ذلك النهـار الأسـود، لتجـد جثـة «خضـرة» تحت الصندرة، حتى قالا لها:

- أنت شـــايفـــه أهـو.. إن اتكلمت ح نعملوا فيك زيها.. ولا من شـاف.. ولا من درى.

وهكذا ألقت بها يد القدر فى الخطيئة، وظلت تدفعها على الرغم من كل محاولاتها للتـــراجع أو الفـــرار، فـــضــــاعت هبـــاء اعـتراضـاتهـا علـى مـا كـان يجـرى، ووجـدت دائما من يبرره لها باعتباره قضاء لا مفر منه، ولا فـائدة من التراجع عنه، وذات يوم دعتهـا أخـتهـا «ريا» لشهـود مقـتل ضحية جديدة، وكانت كالعادة سكرانة، فقالت لها فى الطريق:

- كل شىء وله آخر يا «ريا»..

فردت عليها قائلة:

- هو احنا بنروح نجيبهم ولاد الكلب؟.. مـا همـه اللى بيتحدفوا علينا زى الدبان.. والصيغة اللى معاهم دى من عرقنا.. واحنا مش بنعملوا حاجة.. الرجالة اللى بتعمل.. وقـتل واحـدة زى قـتل عـشـرين، والفـاس خـلاص وقـعت فى الراس .. وإذا وقـعنا ح تكونى معانا.. ح تسيبى حقك لمين؟..

وكان هذا المنطق الذى كررته «ريا» وكرره الآخرون، هو الذى دفعهـا ـ كمـا زعمت ـ للاسـتـمـرار مـعـهـم على الرغم منهـا، بل وقـادها للحرص على أن توجـد فى مسـرح العمليات فى كل مرة، وعلى أن تشارك فى بيع المصـاغ، بعـد أن لاحظت أنهم يخفـون عنهـا بعض العمليات أو بعض المصـوغات، لكى يقتسموا نصيبها فيما بينهم.

لكن هذه المحاولة المشروعة للدفاع عن النفس، لم تقلل من الأهمـيـة القـصـوى لأقوال «سكينة» التى كانت أول اعتـرافات تفصيلية وحقيقية يدلى بها أحد المتهمين فـى القـضـيـــة، لتـزيل ركــام الأكــاذيب والتـشـويشـات والتـمـويهـات التى مـلأت صـفـحـاته، وتصـفى مـراكـز كـثـيـرين من المشـتبـه فـيـهم، وتصلح أسـاسـا لإعـادة التحقيق منذ البداية، وحصره فى نطاقه المحدود والمحدد..

وكـان لابد وأن يحـصـل المحـقق على إقـرار من «ريا» بصـحـة مـا اعـتـرفت به شـقـيـقـتـهـا عليـهـا، وعلى الآخـرين، فـاسـتـدعـاها فى صـبـاح اليـوم التـالى - الأربعـاء ٨ ديسمـبـر (كـانون الأول) ١٩٢٠- وواجهها بـ«سكينة» التى قالت لها:

ـ أنا قلت كل حــاجـــة يا أخـــتى .. والأحسن تقولى الحق زى ما قلته.

فقالت «ريا»:

ـ أنا كمان قلت.

وهنا تدخل المحــقق ليلفت نظر «ريا» إلى أن مـا قـالته كان عـامـا وغـيـر محـدد ويكاد يخلو من التـفـاصـيل الكـثـيـرة التى ذكــرتهـــا «سكينة» ولأن «ريا» كـــانت هـى الأخـرى حـريصـة على تحـمـيل «سكينة» المسـؤولية التـاريخـيـة عن الاعـتـرافـات

التفصيلية، اكتفاء بالمسؤولية عن الاعتراف العام، فقد تمسكت بموقفها السلبى، وطلبت أن تستمع أولا إلى أقوال شقيقتها، فاستجاب المحقق لطلبها، وأذن لـ «سكينة» بأن تكرر على مسمع من شقيقتها روايتها عن مقتل الضحايا واحدة بعد أخرى، منذ «خضرة محمد اللامى» وحتى «فردوس بنت فضل الله»، وكانت «ريا» تصدق على كل منها على حدة قائلة:

ـ مضبوط كده.. هو ده اللى حصل.



وكان «محمد عبدالعال» هو الضلع الثالث من رباعى «آل همام» الذى استدعاه المحقق ليواجهه بالاعتراف المشترك، الذى أدلت به الشقيقتان..

وكانت «ريا» و«سكينة» لاتزالان فى غرفة التحقيق حين دلف إليها. وقبل أن يواصل إنكاره، دهمه المحقق بخبر اعترافهما بكل شىء.. ولخص له موقفه القانونى، لكى يبين له عبث مواصلته للإنكار، فقد ضبطت لديه فانلة صوفية، أكد كل الشهود بأنها الفانلة التى كانت ترتديها «فردوس» قبل اختفائها، وثبت - كذلك- أنه كذب فى ادعائه بأنه قد اشتراها من بائع جوال بمدينة أسيوط، إذ لم تعثر شرطة أسيوط على بائع بالصفات والاسم الذى ذكره.. وفضلا عن أن «سكينة» قد شهدت فى البداية بأن الفانلة هى فانلة «فردوس» فقد اعترفت - وصادقتها «ريا» على ذلك - بأنه اشترك فى قتلها ورسا عليه مزاد شراء فانلتها، أما وقد ثبتت التهمة عليه، فمن واجبه أن يعترف بالحقيقة، حتى لا يظلم أحدا معه.

وكما فعل الآخرون، فقد بدأ «عبدالعال» اعترافه بفذلكة تاريخية، عن الظروف التى قادته للتعرف على «آل همام»، بعد أن لاحظ -ذات ليلة من عام ١٩١٣- أن صديقه «محمد سداد» يتردد على البيت الذى كانت الشقيقتان تديرانه للدعارة السرية فى نفس الحى الذى كان يسكن به، فظل يبحث ويتقصى، إلى أن عرف أنه يرافق «سكينة» وظل يخطط إلى أن نجح فى طرده من البيت ليحل محله فى قلب «سكينة» وفراشها. وروى ما ترتب على ذلك من مشاكل وصراعات بسبب اعتراض «حسب الله» على علاقة «سكينة» به، ظنا منه أنه يحرضها على التمرد عليه، ويدفعها للمطالبة بنصيبها من دخل البيوت السرية التى كانت تديرها مع شقيقتها، مما اضطرهما للزواج حتى يوقفا تدخله فى شؤونهما وتهجمه عليهما، لكن أمه اعترضت على هذا الزواج، وأجبرته على تطليق «سكينة» التى لم تهتم بالأمر، وأصرت على الاحتفاظ بعلاقتها به، حتى ولو كانت غير شرعية..

وانتقل «عبدالعال» ـ بعد تلك الفذلكة ـ إلى الاعتراف بوقائع القتل التى اشترك فيها، فحددها -من حيث العدد- بسبع عمليات فقط، وقعت -من حيث الزمن-

خلال أقل من عام، وبدأت بمقتل «خضرة محمد اللامى» -فى ديسمبر (كانون أول) ١٩١٩- وانتهت بمقتل «فردوس بنت فضل عبد الله» -فى ١٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠- وفسر عدم مشاركته فى قتل بقية الضحايا، بسفره إلى قريته، الذى فصل بين مقتل الضحايا الستّ الأول، ومقتل الضحية الأخيرة، واستغرق أربعة شهور ونصف الشهر، بين ٥ مايو (آيار) و٢٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٢٠. وبذلك لم يشترك فى قتل كل الضحايا اللواتى قتلن خلال تلك الفترة ومن بينهن «أنيسة رضوان» والنساء الثلاث اللواتى قتلن فى بيت «سكينة».

وكان «محمد عبدالعال» أول من أضاف إلى التحقيق -ومنه إلى التاريخ- أول تفاصيل عن كيفية تنفيذ عمليات القتل والدفن، ليكذب كل ما أشيع -قبل ذلك وبعده- عن أن العصابة كانت تذبح النساء أو تخنقهن، عندما تطابقت أقواله مع تقارير الأطباء الشرعيين الذين جزموا بأن القتل كان يتم بواسطة «كتم النفس» وليس بأى وسيلة أخرى..

وكان -كذلك- أول من كشف عن طريقة تقسيم العمل بين أفراد العصابة الأربعة، قائلا أن دوره -فى معظم العمليات- كان شل قدمى الضحية، بينما يتولى آخر شل ذراعيها، ويقوم الثالث بتثبيت رأسها، ليتمكن الأخير من كتم أنفاسها بمنديل مبلل بالماء.

وكما كانت «سكينة» صاحبة الفضل فى تحديد أسماء عشر من الضحايا، ونسبة كل منهن إلى مكان دفنها، وفى الكشف عن أن «حجازية» هى صاحبة الجثة التى عثر عليها مدفونة فى غرفة المحششة، فقد كان «عبدالعال» هو صاحب الفضل فى تأكيد ما ذكرته، وفى تحديد اسم صاحبة الجثة التى عثر عليها فى غرفة بالطابق الأرضى، بالمنزل الذى كانت تسكنه «أم أحمد النص» بـ «حارة النجاة». وهى الجثة التى كانت «ريا» حتى ذلك الحين تصر على أنها جثة «أنيسة رضوان» فجاءت البيانات التى ذكرها عنها «عبدالعال» فى اعترافه، من حيث عمرها وتاريخ قتلها ومفردات مصاغها لتؤكد أنها ليست «أنيسة» التى قتلت أثناء غيابه فى قريته، إذ كانت أكبر سنا وأكثر امتلاء، والأهم من ذلك أنها كانت -كما سمعهم «عبدالعال» يقولون -من «كوم الشقافة»، كما كان من بين مصاغها خاتم رجالى، نقش عليه اسم رجل.

وكان لابد وأن يتوقف المحقق أمام هذه الأوصاف التى تطابقت مع ما ذكره الحاج «حسين على وفيق» -الزيات بـ «كوم الشقافة»- عن أوصاف زوجته «نبوية بنت جمعة» ربة المنزل المصونة، التى خرجت من منزلها فى صباح يوم الجمعة ١٣ فبراير (شباط) ١٩٢٠، وهى تتزين بمصاغ كان من بينه خاتمه المنقوش باسمه، ولم تعد منذ ذلك الحين.. خاصة وأن الرجل كان قد دلل على أن تلك الجثة بالذات، هى جثة زوجته، إذ ما كاد «على أفندى بدوى» -مساعد المحقق المكلف باستكمال التحقيق- يعرض عليه بقايا الملابس التى عثر عليها فوقها- وهى قطعة ممزقة من قماش أحمر

مبطن بالبفتة وأخرى من قماش بنفسجى- حتى انهار باكيا ومؤكدا بأن الأولى هى قطعة من لباس المرأة الغائبة، ثم انصرف ليعود بعد قليل مع شقيقة زوجته، التى ماكادت ترى القطعة الحمراء حتى ولولت صارخة، تنعى أختها، وقالت للمحقق إن الحاج «حسين» قد أصاب حين قال بأنها من ملابس زوجته، لكنه -بسبب عدم خبرته بملابس النساء- أخطأ فى تحديد نوعها، إذ هى قطعة من «عراقة» -أى حمالة صدر - كانت قد فصلتها وخاطتها لشقيقتها، وأن القطعة البنفسجية هى ما تبقى من السروال الذى كانت ترتديه، ودللت على ذلك بإحضار نسخة أخرى من عرّاقة، قالت إنها كانت قد فصلتها لنفسها من بقايا القماش الذى أحضرته شقيقتها، فتبين للمحقق أنهما من نفس القماش ونفس الالوان ونفس طريقة التفصيل.

ولم يكد الحاج «حسين» يتمالك نفسه، ليكف عن البكاء على زوجته التى لم يتأكد من موتها إلا فى تلك اللحظة، حتى طلب من المحقق أن يعرض عليه المتهمين جميعا.. ولما سأله عن السبب روى له قصة الرجل الصعيدى الغامض الذى رآه، عند عودته من دكانه - قبل ليلتين من الصباح الذى غابت فيه زوجته - يتجول بشكل مريب فى الزقاق الذى يقع به منزله، وكان يرتدى معطفا وبنشا، قائلا أنه ظنه ليلتها أحد خفراء شونة القطن التى تقع على رأس الزقاق، لكن الشكوك ظلت تناوشه - منذ غابت زوجته- بأنها كانت على صلة بهذا الرجل، وأنه الذى أغواها على الهروب من زوجها وأولادها، إذ المعروف - كما قال - أن كيدهن عظيم، أما وقد عثر على جثتها فهو يطالب بعرض المتهمين عليه، فقد يكون من بينهم.

واستجاب المحقق لرغبته، واصطحبه إلى تخشيبة قسم شرطة اللبان، ودخل معه إلى غرفة كانت تضم ثلاثة من المتهمين - هم «عبدالعال» و«عرابى» و«سيد عبد الرحمن»- فلم يتعرف على أحد منهم. لكنه لم يكد يدخل إلى الغرفة الأخرى التى كانت تضم «الجدر» و«عبدالرازق» و«حسب الله» حتى قفز ليطبق بيديه على عنق الأخير، وهو يصيح فى غضب هائل:

- هو ده.. والله ما حد جايب عمرك غيرى.. وقدام الحكومة كمان.

ولأن العثور على هذه الجثة بالمنزل رقم ٨ بـ «حارة النجاة» - الذى كانت «أم أحمد النص» تعمل وكيلة لمالكه وتقوم بتأجير غرفه من الباطن -كان من بين شواهد الاتهام القوية ضدها، وضد زوجها، خاصة بعد إصرار «ريا» على أنها رأت المرأة، وهى تدخل دون أن تخرج، فقد حرص المحقق على أن يسأل «عبدالعال» حول تلك النقطة تحديدا، فاستبعد فى إجابته أن يكون «النص» -الذى كان يجلس داخل دكانه- قد لاحظ أن المرأة قد دخلت دون أن تخرج.. ولكنه لم يستبعد ذلك على «أم أحمد النص» - التى كانت تجلس فى الشارع وتراقب مدخل البيت..

وكان كل ما يتعلق بهذه الواقعة غائبا عن ذاكرة «سكينة» عندما استدعاها المحقق ليواجهها بـ «عبدالعال» بشأنها..



محمد عبد العال....

فلم تتذكر شيئا عنها، حتى بعد أن حاول «عبدالعال» تنشيط ذاكرتها قائلا «يوم ما أكلتم الفسيخ»، إذ اعتذرت بأنها كانت فى ذلك اليوم «سكرانة سكرة جامدة» . ولكن «ريا» كانت تحتفظ فى ذاكرتها بكل التفاصيل فتذكرت اسم المرأة، وأوصافها ومفردات ما كانت تتزين به من مصوغات، وروت تاريخ علاقتها بها ووقائع ما حدث يوم مقتلها، وجزمت فى النهاية بأن «أم أحمد النص» قد شاهدت المرأة وهى تدخل دون أن تخرج، وقد نشط ما ذكرته من تفاصيل ذاكرة «سكينة» التى أضافت إليها، وأيدتها خاصة اتهامها لـ«أم أحمد النص» بالتواطؤ معهم والتستر على الجريمة. وفى المواجهة التى أجراها المحقق بين ثلاثتهم وبين «أم أحمد» التى أصرت على إنكار معرفتها بأى شىء عادت «ريا» لتقول:

ـ الحّق أحسن.. وربنا قال ولا نظلم أحدا.

واستطردت تقول: إن الغرفة التى قتلت فيها «نبوية بنت جمعة» كانت مؤجرة لشخص اسمه «العطار» وأن «سكينة» استأجرتها منه بنصف «ريال» حين أعجب عبد الرازق» بـ «نبوية بنت جمعة» وطلب أن يختلى بها، وأثناء ذلك نشأت فكرة قتل «نبوية» ونفذت دون أن يعلم «العطار» بذلك، أو تعلم به «أم أحمد النص» أو زوجها.

أما وقد اعترفت «ريا» بأن الجثة التى عثر عليها فى حجرة «العطار» بمنزل «أم أحمد النص» ليست جثة «أنيسة» فقد كان منطقيا أن تقوم بإزالة الارتباك والتشوش الذى أحدثته فى التحقيق، وأن تحدد الظروف التى قتلت فيها الفتاة، فاعترفت -لأول مرة- بأن «عبدالرازق» و«عرابى» هما اللذان استدرجا «أنيسة» إلى بيتها فى «حارة على بك الكبير» فى اليوم التالى لدخول «عديلة الكحكية» إلى المستشفى، لينضم إليهم «حسب الله» ويقوم الثلاثة بقتلها ودفنها.. وسلموها مصاغها -ست غوايش وحلق وخلخال- فباعتهم إلى «على الصائغ» بعشرين جنيها، قسمت على خمس حصص متساوية، حصلت «سكينة» على إحداها، على الرغم من أنها لم تحضر قتل الفتاة، ولم تعلم عنه شيئا..

ومع أن «ريا» لم تقل ذلك صراحة فإن اعترافها المتأخر كشف عن أن الانتقام من «عديلة الكحكية» والكيد لها، كان وراء إصرارها على القول بأن «أنيسة» هى صاحبة الجثة التى عثر عليها فى بيت «أم أحمد النص» لتستفيد من شهادة الشهود الذين رأوا الفتاتين وهما تدخلان إلى هذا البيت، فى إثارة الشبهات حول «عديلة» واتهامها بالتواطؤ على قتل «أنيسة».. أما وقد أفلتت «الكحكية» من قفص الاتهام.. وأفرج عنها المحقق، وتكشفت كل الحقائق، فقد أصابتها نوبة طارئة من الإنصاف دفعتها لتبرئة الجميع، فعدلت عن اتهامها لكل من «الكوبجى» و«الجدر» وقالت إنهما لم يشتركا فى القتل، ولم يعلما به، وأن الأول منهما كان يتردد فقط على منزلها لكى يختلى بالنساء.. وأضافت:

- إحنا ما يصحش نتمسح فى أولاد الناس.. و«عديلة» لا حضرت قتل «أنيسة» ولا غيرها.

وكما فعلت «سكينة» فقد عزّ على «عبدالعال» أن يكون موضوعيا مع نفسه، وأن يعترف بالحقيقة من دون أن يدس فى ثناياها ما ظنه يصلح لأن يكون ظروفا مخففة، تفيد المحامى الذى سيتولى الدفاع عنه فى المطالبة بإنقاذ رأسه من المشنقة، وهكذا اختار لنفسه فى اعترافه دور الواعظ الخائب، الذى انتحلته «سكينة» لنفسها، فهو لم يكف عن محاولة إثناء الأشرار عن الوقوع فى الإثم، لكنهم غلبوه على أمره، واضطروه إلى مشاركتهم فى هذا الإثم. فهو لم يكن صاحب فكرة قتل النساء، ولم يشترك فى التخطيط الذى سبق تنفيذها، بل ولم يعلم بالأمر كله، إلا حين فاتحه «حسب الله» بذلك قبل لحظات من تنفيذ أولى العمليات، فاعترض عليه قائلا «مش حرام نقتل نفس عشان شىء زى ده»، لكن أحدا لم يأخذ باعتراضه الذى تكرر فى كل العمليات التالية..

ولأنه كان الوحيد من بينهم الذى يعمل بانتظام، فقد كان يفاجأ بهم فى كل مرة، ينتظرونه أمام باب المحلج، الذى يعمل به، ليطلبوا إليه مصاحبتهم إلى المقتلة، فيرفض ويصر على الرفض، لأنه يعمل وليس فى حاجة إلى المال الحرام، الذى تغله تلك العمليات.. فإذا ما قال لهم «يا جدعان ما تيجوا تشتغلوا معى وتأكلوا من الرزق المقسوم لأن مشيكم فى الحكاية دى يقصر عمركم» اعتذروا بأنهم لم يتعودوا على العمل، ولا يتقنون غير ذلك العمل.. فإذا ما غلبوه على أمره، واقتادوه إلى مسرح العمليات، وجد دائما ما يثير اعتراضه على قتل الضحية المختارة، خاصة حين يتضح له، أنها أم وصاحبة أولاد، ولا قيمة لما تتزين به من مصوغات، تدفعهم لتحمل مسئولية إزهاق روحها أمام رب العزة جل جلاله.

وطبقا لمزاعمه، فقد وصل به الغضب يوم مقتل «حجازية» -وهى آخر عملية اشترك فيها قبل سفره إلى قريته -إلى ذروة غير مسبوقة، فما كادت «ريا» تبلغه بأن الرأى قد استقر على قتل الفتاة، التى لم تكن تتحلى بشىء له قيمة يدعوهم لتحمل وزر قتلها أمام الله، حتى ثار فى وجهها قائلا لها:

- يا ناس حرام عليكم.. توبوا لكم يوم.. حتى الخاتمين اللى البت شارياهم ولسه ما فرحتش بيهم عاوزين تاخدوهم وتموتوها.. إنتوا ايه مش بنى آدمين؟!.

ثم غادر البيت مصمما على عدم العودة، لكن «حسب الله» و«عبدالرازق» لحقا به، فى محاولة لإثنائه عن موقفه، فقال لهم:

- أنا راجل باشتغل وأخاف الله رب العالمين.. وحيث أنكم مقطوعين لشىء زى ده، وبتغضبوا ربنا.. أنا مش عاوز لا أقعد معاكم.. ولا أمشى معاكم فى شىء زى ده.

لكنه اضطر -للمرة السابعة- للعدول عن موقفه، وابتلاع احتجاجه، ولنفس

السبب الذى كان يضطره للمشاركة فى الإثم الذى يرفضه، ففى المرة الأولى قال له «حسب الله» بلهجة تجمع بين الإغراء والتهديد:

- إذا اشتركت معانا رايح تاخد نصيبك.. وإذا ما اشتركتش وحصل لنا خطر رايحين نتهموك ونجرجروك معانا.

أما فى المرة الأخيرة فقد هدده «حسب الله» بأنهم سوف يهجمون على «حجازية» بطريقة تدفعها للاستغاثة، فيحتشد الناس ويقودونهم إلى قسم الشرطة، فيعترفون على أنفسهم وعليه، فانصاع لما أرادوه على الرغم منه.

وكان أول الذين استفادوا من اعتراف «عبدالعال» -الذى صدق به على أقوال «ريا» و«سكينة»- هم أربعة من المحبوسين احتياطيا على ذمة التحقيق، أفرج عنهم المحقق فور استماعه إلى الاعتراف هم «محمد سليمان شكير» و«صالح العجمى» و«سيدة سليمان» و«محمد أحمد الجدر»- أما هو، فلم يستفد -آنذاك أو بعد ذاك- من دور الواعظ الخائب الذى اصطنعه لنفسه، فقد بدت الشخصية باهتة كما ينبغى لدور رسمه كاتب دراما مبتدئ وركيك الخيال، وفضلا عن ذلك فإن أحدا من المتهمين الآخرين لم يصدق على أقواله فى هذا الصدد، بل -على العكس من ذلك- تقدم «حسب الله» لينافسه عليه، ويحاول انتزاعه منه، مدعيا أنه هو، وليس غيره، الذي كان يقوم بدور الواعظ الخائب، والذى أكره على أن يكون قاتلا رغم أنفه..



ولابد أن خبرة المحقق بسيكولوجية المتهمين الرئيسيين كانت على رأس العوامل التى جعلته يحتفظ لـ «حسب الله» بالمرتبة الرابعة بين المعترفين، إذ كان يعرف أنه لا يملك ذرة من الشجاعة الأدبية، وأنه أجبن رجال «ريا وسكينة» وأكثرهم أنانية وحبا لنفسه، ورغبة فى إنقاذها على حساب كل شيء وكل قيمة، وهى صفات تجعل اعترافه بما فعل أمرا مستحيلا..

وكان «حسب الله» حتى ذلك الحين، ما يزال يلتزم خط الإنكار التام. وعندما عرض عليه المحقق ملابس «فردوس» التى أحضرتها زوجته الجديدة من المكان الذى كانت قد أخفته فيه، أصر على أنه لم ير تلك الملابس من قبل ولا يعرف صاحبتها، مما اضطر المحقق لمواجهته بـ«زنوبة» التى قالت بأنه هو الذى طلب إليها الاحتفاظ بالملابس فى البيت، ثم طلب إليها نقلها منه فى اليوم التالى، ثم واجهه بـ «ريا» و«سكينة» اللتين أكدتا بأنه اشترك فى قتل «فردوس» وأخذ الملابس ليخفيها بمعرفته. فعاد المحقق ليلفت نظره إلى أدلة الاتهام التى تجمعت ضده، قائلا له:

- إن الأدلة التى قامت ضدك، كافية لثبوت التهمة عليك، إذ أن زوجتك «ريا» وأختها «سكينة» وزوجها «محمد عبدالعال» اعترفوا عليك، كما أن زوجتك الجديدة، التى ليس لـ [illegible] ـها إلاشهر واحد، قررت

أمامك بأنك أنت الذى أحضرت الملابس مع «محمد عبدالعال».. وشهدت «عزيزة» بأنك «شيّلتها» الجثة التى ألقت بها فى خرابة «شارع الواسطى» ولا يعقل أن تدفن فى منزلك عشر جثث ولا تعلم بها، والغرض أن نعرف من هم شركاؤك فى هذه الجريمة لكى لا يظلم أحد!

واستفز ذلك «حسب الله» فقال للمحقق متحديا:

- أنا قتلت.. قتلت.. واكتب كده.. وهات «ريا» و«سكينة» يقولوا كده.. وأنا أصادق على كلامهم.

وفى هدوء رد عليه المحقق قائلا:

- ليس الغرض أن تصادق على كلامهم، بل الغرض أن تقول من نفسك كل ما رأيته وفعلته. وما حصل أمامك وبمعرفتك حتى نطابق أقوالك على أقوال من اعترفوا قبلك فتظهر لنا الحقيقة..

لكن «حسب الله» الذى كان فى الغالب يريد أن يعرف الوقائع التى تخصه فى اعترافات الشقيقتين ليعترف فى حدودها، أصر على استدعائهما لكى تذكراه بأسماء القتلى من النساء اللواتى لا يعرف معظمهن وهو ما رفضه المحقق الذى قال له بحسم:

- لا حاجة لتذكيرك.. ولا لكونك تذكر أسماء النسوان إذا كنت لا تعرفهم.. والغرض أن تحكى ما حصل منك لكى نعرف شركاءك.

وهكذا بدأ «حسب الله اعترافاته.

وكما كان متوقعاً، فقد جاءت أقواله أقرب إلى أن تكون مذكرة دفاع خائبة، تهتم بالبحث عن الذرائع التافهة وغير المنطقية، وتوشى بعجز صاحبها عن تحمل مسئولية ما فعل، منها إلى اعتراف يسرد الوقائع ويتسم صاحبه بشجاعة أدبية تدفعه لتحمل نصيبيه من المسئولية عما فعل، حتى لو سعى للتخفيف منه.. فمع أنه لم ينكر وقوع جرائم القتل على النحو الذى جاء فى اعترافات الثلاثة الآخرين إلا أن اهتمامه الرئيسى ـ وربما الوحيد ـ انصب على اثبات التهمة ضدهم، ونفيها عن نفسه، بإبراز الضغوط الشديدة، التى زعم بأنهم مارسوها عليه، حتى أكرهوه على الاشتراك معهم فى ارتكاب الجرائم، على الرغم من المحاولات المضنية والمتواصلة، التى أدعى أنه قام بها لإثنائهم عن مواصلة الوقوع فى الحرام..

ولا شك فى أن «حسب الله» كان يتمتع بتلك المواهبة الفذة التى جزم المؤرخ «هيرولد» بأن كل صناع التاريخ يتمتعون بها، وهى روايتهم لوقائعه بطريقة تختلف تماماً عما حدث بالفعل، لذلك جاءت الفذلكة التاريخية التى قدم بها لاعترافه، لترسم لشخصيته ملامح تختلف تماماً عن الصورة التى رسمتها له أقوال الشقيقتين «ريا» و«سكينة».

فهو يرى نفسه رجل طيب وشريف وصاحب واجب، تزوج من أرملة شقيقه لكى يربى ابنه اليتيم، وظل يعمل بجد واجتهاد، دفعاه لمغادرة «كفر الزيات» بعد أن سدت أمامه سبل الرزق فيها، إلى الاسكندرية، بحثاً عن عمل يكفل له رعاية

أسرته، وليس هرباً من مطاردة الشرطة التى كانت تجد فى أثره، بسبب سرقته للمساكن والدكاكين. وهو رجل وفى لم يترك زوجته تتحمل عنه عقوبة السجن، بل أرسل فى استدعائها لكى تلحق به، وتكون فى رعايته.. أما المجرم الزنيم المسئول عن التدهور الذى أصاب الأسرة فهى «سكينة»، التى بادلها «حسب الله» مشاعر الكراهية العنيفة التى تكنها له، ولم يقصر فى اثبات التهمة عليها، كما تحمست لاثباتها ضده، وكما بدا «حسب الله» فى أقوالها كما لو كان قضاء الأسرة الذى قادها إلى مصيرها التعس، فقد بدت «سكينة» فى أقواله وعد «آل همام» المكتوب على جبينهم، فبسبب اسرافها، وليس بسبب إسرافه هو، وكسله وعزوفه عن العمل وإدمانه للكيوف. انهارت المعيشة المشتركة بينهما واضطر للاقامة مع زوجته وابنته فى مسكن مستقل، وللانفاق ـ كذلك ـ على حماته وصهره اللذين لحقا بهما إلى «الاسكندرية»، وبسبب تهتكها، وضعفها أمام رغبتها فى الرجال ـ ومن بينهم «محمد سداد» ثم «عبدالعال» ـ وجريها وراءهم على الرغم من انها كانت متزوجة، اضطر للدخول فى معارك ضارية غضباً لشرف الأسرة وليس رغبة فى ابقائها أسيرة لهيمنته وحرصاً على سمعة العائلة التى مرغتها فى الوحل وليس دفاعاً عما كان ينهبه من عرقها.

ولأن منهج «حسب الله» فى التأريخ لسيرته الذاتية، وما يرتبط بها من تواريخ الآخرين كان يقتضى إبدال الأدوار، فضلاً عن إبدال الوقائع، فقد خلع شخصيته الحقيقية على «ريا» وتقمص دورها: دور الرجل الطيب المسكين، الذى تتسلط عليه امرأتان قويتان، حديديتا الارادة، فما كاد يعود من العمل فى السلطة العسكرية البريطانية، وقد كسب ما يكفى أسرته، حتى اكتشف أن «سكينة» قد أفسدت «ريا» وأغرتها على العمل معها فى مجال تنظيم الدعارة السرية، وما كاد يعترض على ذلك قائلاً لها:

- إن كنت عاوزة كل يوم نصف ريال أو اكتر.. أعطيه لك، لكن بلاش الشىء البطال ده.

حتى قالت له بشراسة:

- مش شغلك.. إذا كان يرضيك كده.. كان بها.. والا أعرف شغلك.

ومع أنه لم يذكر مبررات معقولة لخنوعه لهذا الوضع، الذى يزرى بكرامته كرجل وكصعيدى، إلا القول بأن الشقيقتين من النوع المزاجى المتسلط الذى يتميز بأن «عقله على كيفه» و«رأيه من كيفه» وكان ذلك فى تقديره مبررا لكى يكف بعد تلك المرة عن الاحتجاج على تحول زوجته من ربة بيت مصونة، إلى «كرخانجية» مشهورة، مكتفياً ككل زوج يؤمن بالحرية المطلقة للمرأة ـ بتسجيل اعتراضه على ذلك النوع من النشاط الاستثمارى واعتبره شأناً خاصاً من شئون زوجته لا دخل له به، ورفض ـ بإباء وشمم ـ ان يحصل على شىء من عائده، واشترط عليها ـ كما يليق برجل يقف الصقر على شاربيه ـ أن تمارسه بعيداً عن مسكن الزوجية..



اليوزباشى إبراهيم حمدى . نائب قسم شرطة اللبان ـ الذى قام بالمجهود الرئيسى فى الإيقاع بين رجال «ريا وسكينة» ودفعهم للاعتراف

وبهــذا التــصــوير المقلوب لأدوار الشخصيات الرئيسية التى صنعت «سيرة آل همام» استطرد «حسب الله» يروى قصة «تورطه» فى «مشـاهدة» الجـرائم التى ارتكبوها، بحكم علاقة القرابة التى تربطه بالشقيقتين اللتين اشتركتا فى وضع مشروع القتل، وخططه التفصيلية، وقامتا بتنفيذه مع شركائهما الثلاثة - «عبدالعال» و«عرابى» و«عبدالرازق» - أما هو، فإنه لم يشترك فى وضع الخطة، ولم يعرف بها إلا قبل التنفيذ، وما كاد يسمع بها - من «عبدالعال» - حتى اعترض عليه قائلاً له:

- لأ يا «محـمـد».. تعـال نروح فى الجمرك نشتغل أحسن من الحاجات دى.. دى حاجات فالصو وحرام.. الواحد راح يتحمل روح علشان إيه؟.. احنا رايحين ناخد من وراها البيت الملك؟..

وما كاد «عبدالعال» يرد عليه قائلاً:

- قـال على رأى المثل.. احيينى النهارده.. وموتنى بكره.. تعال يا شيخ سيبك.

حتى تبعه إلى الغرفة ليجد المرأة - التى عرف أن اسمها «هانم» - وتبين بعد ذلك أن اسمها الحقيقى هو «خضرة اللامى» تجلس مع «ريا» و«سكينة» وليكتشف أن الآخر قد دعاه لكى يتفرج عليه وهو يقوم بالقتل، الذى نفذه «عبدالعال» وحده فهو الذى أرسل «سكينة» لتشترى الخمر، وهو الذى قدمه إلى المرأة، وأخذ يسامرها إلى أن غافلها وقفز وحده ليحيط عنقها بكفيه، وهو الذى أرسل «سكينة» لكى تحضر فأساً صغيرة يحفر لها به قبراً..

وفيما عدا مساهمته الخيرية التطوعية فى نقل الأتربة من داخل الحجرة إلى خارجها، فإن «حسب الله» لم يمد يده لشىء، لا إلى الشراب، ولا إلى المرأة، ولا إلى مصاغها الذى لم يعرف مفرداته، ولم يمد يده إلى ثمنه، الذى عادت به «سكينة» - ودائماً «سكينة» - بعد أن قامت مع «ريا» ببيعه، ولم يعرف قيمة الثمن الذى قسم إلى نصفين، أخذ «عبدالعال» أحدهما باعتباره نصيبه، ونصيب «سكينة» وأخذت «ريا» النصف الثانى باعتباره نصيبها ونصيبه، أما هو فقد كان حزيناً جداً، كما ينبغى لرجل فاضل وساذج وطيب، فقال لهم:

- حرام عليكم..

فرد عليه «عبدالعال» قائلاً:

- حرام أكلناه.. حلال أكلناه.

وعلى هذا النحو الكوميدى الذى يبعث على الضحك لا على التصديق، روى المؤرخ النزيه «حسب الله سعيد مرعى» وقائع مقتل ثمانى نساء، ويبدو أنه خضع لفكرة تسلطت عليه بأن اعترافه بالجرائم التى وقعت فى مسكنه بحارة على بك الكبير» يترتب عليه مسئولية أكثر من تلك التى تترتب عليه إذا اعترف بالجرائم التى ارتكبت فى بيوت الآخرين، لذلك اختصر عدد النساء اللاتى شاهد مقتلهن فى مسكنه إلى ثلاث فقط، هن «هانم» – أو «خضرة اللامى» – و«نظلة» و«أنيسة» بينما اعترف بمشاهدته، بل ومساعدته، فى مقتل النساء الثلاث اللواتى عثر على جثثهن فى منزل «سكينة» فضلاً عن «نبوية بنت جمعة» التى قتلت ودفنت فى بيت «أم

أحمد النص»، و«حجازية» التى دفنت فى غرفة المحششة. وهى الواقعة الوحيدة التى أفاض فى ذكر تفاصيلها لكى يشبع نوازع الثأر التى تناوشه تجاه «سكينة» مؤكدا بأنها هى التى اتخذت قرار القتل وأصرت على تنفيذه، على الرغم من معارضتهم جميعاً له، بسبب تفاهة قيمة ما كانت تتزين به الفتاة من مصاغ.

وفى الحوادث الثمانى - التى اعترف بها - كان اختيار الضحية ووضع خطة قتلها يتم بعيداً عنه، ومن دون علمه، وباتفاق بين الرجال الثلاثة الآخرين والمرأتين اللتين كانتا تقومان عادة بسحب الضحية وبيع المصوغات - وبالطبع فقد كان نشاط «سكينة» فى هذا المجال اكثر وفرة. أما هو فكان يستدعى فى كل مرة قبل دقائق من التنفيذ، أو بعده بدقائق فيدخل ليجدهم يخنقونها بالفعل، أو ليجد الاستعداد لدفنها قائماً على قدم وساق، فيحزن ويعاتب، ولكنه لا يغضب أو يحتج أو يثور، ويقول لهم:

- يا جماعة عيب.. ما يصحش كده.. هى دى وكالة من غير بواب.. ما تشوفوا لكم محل غير بيتى تعملوا فيه الحاجات دى.

فيرد عليه «عرابى»:

- ابقى عزل منه.

ويقول له «عبدالرازق»:

- وأنت خايف من مين؟ احنا مع بعض.. ولا حدش مننا.. ح يقول ع التانى.

ويقول «عبدالعال».

- اللى ح يتكلم ح نموتوه زيها.

فيسكت ويستسلم - ويوم قتل بائعة الجاز دعته «ريا» لكى يصحبها إلى بيت «سكينة» حيث كان مقرراً أن تنفذ العملية، فقال لها:

- انتم ربنا مش ح يهديكم وتعتقونى من الكلام ده؟.

فقالت له:

- إن ما كنتش ح تروح، «سكينة» ح تزعق وتفضح الدنيا.

فخاف وصحبها إلى هناك - أما فى يوم مقتل «أنيسة» فقد فتح عينيه فى الصباح ليجد «عرابى» و«عبدالرازق» فى غرفته، وبعد قليل نادته «ريا» فلما خرج إليها همست فى أذنه:

- ده عاوز «أنيسة»؟.

فثار فى وجهها قائلاً بأنه ليس قواداً حتى يقوم بتلك المهمة، ثم أضاف:

- إذا كنت عايزه تجيبيها له روحى هاتيها له بره..

فقالت له:

- إن ما كنتش رايحه أجيبها له.. هم عارفين فى أرضية الأودة إيه..

فلم يستطع أن يواصل الكلام.

وكما حرص «حسب الله» على التنصل من المسئولية عن مشروع القتل وتطبيقاته العملية، فقد حرص على القول بأنه لم يكن يعلم شيئاً عن مصاغ الضحايا، وبأنه لم يتقاض قرشاً واحداً لنفسه من ثمن

بيعه، مؤكداً - على عكس الحقيقة التى اعترف بها الثلاثة الآخرون - بأن «ريا» هى التى كانت تستولى على نصيبهما، بعد أن عزفت نفسه العفيفة الزاهدة عن هذا المال الحرام، لكنه ككل مؤرخ يتظاهر بالموضوعية - لم ينكر أنه ربما يكون قد احتاج إلى نقود، فى فترة تعطله عن العمل، فاقترض منها جنيها أو أكثر، مرة أو مرتين وقد تكون أعطته بعضا من تلك النقود دون أن يعرف مصدرها الحقيقى.

ولابد أن «حسب الله» قد أدرك، بعد أن عاد إلى سجنه، أن الذرائع التى ذكرها لا تكفى لتخفيف العقوبة عنه، خاصة حين استدعاه المحقق - بعد ثلاثة أسابيع من اعترافه - ليناقشه فيها، مبدياً دهشته لأنه استنام لتلك التهديدات التافهة، مع أنه كان يستطيع أن يبلغ الشرطة، عن القتلة بعد الحادثة الأولى التى ادعى أنه لم يشترك فيها، كما كان يستطيع أن يقطع صلته بهم، وأن ينتقل من مسكنه إلى مسكن آخر، أو من الاسكندرية إلى غيرها من المدن، إذا كان جاداً فى رفضه للقتل، واعتراضه عليه، فعاد ليكرر زعمه بأنهم - بعد العملية الأولى - كانوا يهددونه بالإبلاغ عنه، وأن «عرابى» قال له:

- الشيء، أهو عندك فى بيتك.. وفى رقبتك.

ولم يجد مفراً - فى النهاية - من تعليق فأس المسئولية فى رقبة «ريا» قائلاً بأنه كان على الرغم من طلاقه لها، واعتراضه على سلوكها، حريصاً على إرضائها، حتى أنها كانت «تغصبنى أروح معاها.. وتأخذنى بالعافية.. وتجيبهم يشيلونى شيل يودونى مطرح ما بيقتلوا»!

ثم أجهش فى بكاء طويل..

ولولا ذلك المنهج الذرائعى الذى لم يفد «حسب الله» بشيء، ولم ينقذ رقبته من حبل المشنقة، لكان اعترافه أهم المصادر الموثوق بها عند التاريخ لسيرة «آل همام»، إذ كان - مع «ريا» أو قبلها - أكثر أفراد العصابة معرفة بالظروف التى نشأت فيها فكرة القتل، وبالمناقشات التى انتهت بوضع مشروع «آل همام» التاريخى لقتل البغايا وبالتفاصيل الدقيقة لتنفيذ كل عملية، بما فى ذلك الأسماء الحقيقية للضحايا، والأدوار التى قام بها كل فرد من أفراد العصابة أثناء التنفيذ.

لكن عجزه عن تحمل المسئولية التاريخية عن أعماله، لم يدفعه فحسب إلى إنكار صلته بسبع من عمليات القتل التى وقعت بمنزله، بل وكادت تدفعه إلى التراجع عن اعترافه، والتوقف عنه بعد الواقعتين الأوليين معتذراً بضعف الذاكرة، مطالباً المحقق بأن يستدعى «ريا» أو «سكينة» لكى تنشط ذاكرته، وخاصة فيما يتعلق بأسماء الضحايا، لولا أن المحقق ناب عنهما فى ذلك الأمر، وأخذ يسرد له أماكن العثور على الجثث، بدلاً من أسماء صاحباتها، مما شجعه على الاستطراد فى رواية «وقائعه» أو بمعنى أدق، مواصلة سرد «ذرائعه».

أما وقد اعتمد «حسب الله» هذا المنهج الذرائعى فى التأريخ لسيرته الذاتية، فقد كان طبيعياً أن ينكر كل واقعة تكذب الصورة التى رسمها لنفسه، باعتباره عنصراً خاملاً، لا

يقوم بأى «نشاط» فى عمليات القتل، ولكن الآخرين يجدون متعة خاصة فى إجباره على مشاهدتهم وهم يقتلون.. وفى هذا السياق أصر على إنكار واقعة وقوفه بالقرب من بيت «نبوية بنت جمعة» فى الليلة السابقة على الليلة التى اختفت فى صباحها، على الرغم من تعرف زوجها عليها، أثناء العرض القانونى الذى أجراه «على أفندى بدوى» مساعد المحقق، لأن إقراره بذلك، اعتراف بأنه يقوم بدور فى «سحب» الضحايا إلى المقتلة، وهو من الأدوار «النشطة» التى لا تتناسب مع عنصر خامل مثله.

كما أصر على إنكار صلته بالجثة التى عثر عليها فى خرابة «شارع الواسطى» على الرغم من تأكيد كل من «ريا» و«سكينة» بأنه الذى قام بتحميل «عزيزة عبدالعزيز» الجوال الذى يضم الجثة، بعد أن أوهمها بأنه يحتوى على لحم فاسد من لحم الانجليز، ثم صحبها إلى أن قامت ـ بإرشاده وتحت إشرافه ـ بإلقائه فى الخرابة.. لإدراكه بأن الإقرار بها سيقود المحقق إلى البحث عن المناطق النشطة من سلوكه.. فيسقط قناع العنصر الخامل الذى اختفى وراءه..

وفى هذا السياق نفسه، أنكر كل صلة له بمقتل «فردوس» مؤكداً بأن الذى قتلها هو «محمد عبدالعال» وحده، لأن مغادرته لأحضان زوجته الجديدة، فى صباح ليلة زفافهما، ليقتل امرأة أخرى، تصرف لا يمكن أن يصدر عن عنصر خامل، تعود الآخرون أن يستغلوا سذاجته فيستدرجونه إلى المسرح لكى يشاهد عروضهم الدموية.

ولأن زوجته الجديدة، كانت قد عادت قبل لحظات بملابس «فردوس» التى كانت تخفيها ـ بناء على أمره ـ لدى إحدى جاراتها، فقد استفز إنكاره المحقق فطلب إليه تفسيراً لوصول الملابس إلى منزله، ثم تهريبها منه، فزعم بأن «محمد عبدالعال» هو الذى احضرها معه وتركها «أمانة» عنده، لكنه لم يستطع أن يبرر الأمر الذى أصدره لزوجته بإخفائها خارج المنزل.. وحين واجهه المحقق باعتراف «ريا» و«سكينة» بأنه شارك فى قتل الفتاة، قال له بتحد «هاتهم هنا يقولوا لى عشان يبقى كلامهم ماشى على».

ومع أنهما قالتا له ذلك فى وجهه فقد تمسك بإنكاره.. وهو ما دفع المحقق لسؤاله تفصيلياً عما فعله فى يوم الجمعة ١٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، الذى قتلت فيه «فردوس» فأصر على أنه لم يغادر منزله إلا فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم إلى مقهى قريب ليحتسى فيه فنجاناً من القهوة ويدخن نرجيلة، عاد بعدها إلى البيت.

ومع أن زوجته كانت قد ذكرت للصاغ «محمد كمال نامى» ـ مأمور قسم الشرطة ـ بأن فتاة صغيرة، عرفت فيما بعد بأنها ابنته «بديعة»، جاءت إليه قبل صلاة الجمعة، فخرج معها، ولم يعد إلا فى المساء، إلا أنها لم تكد تمثل أمام المحقق حتى أنكرت ذلك، وصادقت على ادعاء «حسب الله» بأنه لم يغادر البيت إلا عند الغروب، وبعد فترة طويلة من تناولهما لطعام الغداء، وهو ما جعل المحقق يستنتج بأنهما قد رتبا أقوالهما بحيث يثبت

«حسب الله» أنه كان فى منزله فى الوقت الذى قتلت فيه «فردوس».. ودفعه إلى سؤال كل منهما على حدة، عن مفردات الطعام الذى تناولاه فى الوجبات الثلاث فى ذلك اليوم، فتضاربت أقوالهما، مما أكد - مع غيره من الشواهد - أن ما ذكرته الزوجة للصاغ «محمد كمال نامى» هو ما حدث بالفعل.

ومع أن اعترافات «حسب الله» لم تضىء شيئاً من المناطق المعتمة فى التحقيق، فقد كانت كافية لتأكيد الخطوط العامة لاعترافات الثلاثة الآخرين.. وبذلك تحقق - بعد عشرين يوماً من التحقيق المتواصل - أول انجاز ملموس فى قضية عصابة «ريا» و«سكينة» التى كان استمرارها فى ارتكاب جرائمهما لمدة عام كامل واكتشافها بالصدفة، ثم التأخر فى الاعلان عن نتيجة التحقيق مثار تعليقات عنيفة من الصحف وفى دوائر الرأى العام.. وهو ما دفع «سليمان بك عزت» لإيقاف التحقيق لمدة أربعة أيام، سافر خلالها إلى القاهرة، ليعرض نتيجة ما كان قد توصل إليه حتى ذلك الحين، على النائب العام «محمد باشا إبراهيم» ويتدارس معه الخطوات التالية من التحقيق.. وليحصل منه على قرار بأن تتحمل النيابة العامة، نفقات القيام بدعم جدران البيوت الأربعة التى عثر فيها على الجثث حتى لا تتداعى نتيجة للحفر، بعد أن رفض المجلس البلدى بالاسكندرية تحمل تلك النفقات، مما أدى إلى توقف الحفر، مع أهميته البالغة - فى رأى المحقق - لاكتشاف العدد الحقيقى للضحايا، الذى لم تحسمه اعترافات المتهمين الأربعة..

وكان «بيت الجمال» بـ«حارة ماكوريس» - هو أول البيوت التى اتخذت فيها احتياطات هندسية تحول دون تداعيه.. وما كاد العمال يستأنفون الحفر فى الغرفة التى كانت تقيم فيها «سكينة» حتى عثروا على عظام آدمية، جاء فى تقرير المحقق أنها «عبارة عن عظم ساق كاملة وعظم حوض كامل وعظام أخرى».. وقد أمر بوضعها فى صفيحة، قام بلحمها وأرسلها إلى الطبيب الشرعى بالقاهرة، طالبا منه «معرفة ما إذا كانت هذه العظام من بقايا الجثث الثلاث التى وجدت بالحجرة نفسها من قبل، أم هى لجثة أخرى منفصلة عن تلك الجثث»، وبعد أقل من أسبوع وصله رد الطبيب الشرعى، الذى قسم تلك العظام إلى ثلاث أقسام، يتكون الأول من الساق السفلى اليمنى وشظية الساق اليسرى وعظمة الحوض، وعظمة عجز وقطع من العمود الفقرى، وهى كلها العظام المفقودة من جثة «نبوية القهوجية».. ويتكون القسم الثانى من عظمة زند، هى العظمة الناقصة من جثة «فاطمة العورة» شيخة المخدمين.. أما القسم الثالث، فقد تبين أنه عظام حيوانات مختلفة النوع..

وبعد عشرة أيام من العثور على هذه العظام، وفى يوم الجمعة ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠ - عثر العمال الذين كانوا قد استأنفوا الحفر فى بيت «ريا» بـ«حارة على بك الكبير» على جثة جديدة، على عمق يصل إلى أكثر من متر ليرتفع

بذلك عدد الجثث التي عثر عليها في الحجرة التي يسكنها «حسب الله» و«ريا» إلى إحدى عشر جثة، وليرتفع العدد الاجمالي للضحايا اللواتي عثر على جثثهن إلى ستة عشرة جثة. وكانت الجثة الجديدة - وهي الأخيرة - لامرأة قدر تقرير الشرعي عمرها بما لا يزيد عن ٤٥ عاماً، وتاريخ دفنها بما لا يتجاوز عاماً واحداً، عثر عليها ملقاة على ظهرها بغير انتظام، وقد انثنت الساقان على الفخذين، بينما نفر الساعدان بعيداً على الجنبين وترك الفم مفتوحاً، وهو ما يدل على أنها ماتت وهي تجلس القرفصاء، وتركت على حالتها تلك، من دون دفن لعدة ساعات، تخشب خلالها جسدها على الوضع الذى قتلت فيه. وفي مقبمة شعرها الأسود - الذى دعمته بضفيرة صناعية مكونة من ثلاثة أفرع بطول يصل إلى ٤٠سم - آثار شيب صبغ بالحناء - وكانت ترتدى جلباباً من القماش الأسود، وقميصاً داخلياً من قماش أبيض خفيف تزينه خطوط صفراء رفيعة، وبعنقها عقد من المرجان الأحمر، ولم يعثر الطبيب الشرعى على أية آثار تدل على استخدام العنف، إذ كان العظم اللامى سليماً مما يدل على أن الخنق لم يكن الوسيلة التى قتلت بها، كما خلت الجمجمة من أية آثار للكسر أو الرضوض..

وقبل أن تنقل الجثة إلى المستشفى، استدعى المحقق الشقيقتين «ريا» و«سكينة» من السجن، واصطحبهما - على التوالى - إلى المكان الذى عثر عليها فيه، وعرضها عليهما.. فقالت «ريا» بلا اهتمام:

- أهي واحدة والسلام.. يعنى أنا عقلى دفتر..

وقالت «سكينة» - التى لاحظ المحقق أنها بدت أثناء نظرها للجثة أكثر خوفاً من «ريا» - أنها لا تستطيع أن تميزها بعد ضياع معالم وجهها. وهو ما قاله - كذلك - كل من «حسب الله» و«عبدالعال».

لكن «ريا» اعترفت في اليوم التالي - وأيدتها في ذلك «سكينة» - بأن الجثة هي جثة «خضرة محمد اللامى»، أولى الضحايا، التى قتلت فى ٢٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٩، وأعادت رواية قصة قتلها، فأزاحت - لأول مرة - الستار عن الظروف التى نشأ فيها مشروع القتل، ومنحت «عبدالرازق» شرف وضع اللبنة الأولى فيه، وختمت هذه الاضافة التاريخية الثمينة بدموع غزيرة ذرفتها وهى تقول:

- أنا كل ما أجي أحوشهم يضربوني.. ومرة «عبدالرازق» تف فى وشى وقال لي: يا مرة يا بنت الكلب أنت ح تفضلى تزنّى لغاية ما تودينا فى داهية.. ويوم حادثة «عزيزة» اتصدرت لهم وقلت لهم: حرام دى بنت مسكينة وزبونة المحل.. ضربنى «حسب الله» بالجزمة فى بطنى.. كنت حبلة فى أربعين يوم.. سقطت وفضل الدم ينزل على ثلاث شهور..!

ولعل اعتراف الشقيقتين بالاسم الحقيقى لصاحبة الجثة الأخيرة، كان أحد تداعيات المفاجأة المذهلة التى وجداها فى انتظارهما عندما اقتادهما المحقق ليعرضها عليهما.. إذ ما كاد

العمال يعثرون على الجثة صباح يوم الجمعة حتى تحمسوا لمواصل الحفر فى المنطقة المجاورة للمكان الذى عثروا عليها فيه.. وفى ظنهم أنه سيعثرون على جثث أخرى.. وكانوا قد تعمقوا فى الحفر إلى عمق ٦٠سم عن المستوى الذى عثروا فيه على الجثة، حين وجدوا أنفسهم فجأة أمام فوهة بئر بها مياه غزيرة على بعد نحو مترين من أرض الغرفة بعد حفرها، وقد تبين للمحقق أن المنزل كله، والمنازل المجاورة له قد أقيمت فوق صهاريج قديمة مما كان يستخدم عند إنشاء الاسكندرية لتخزين مياه الامطار فى موسم الشتاء، ليستخدمها سكان المدينة فى الشرب، وأن حوائط تلك المنازل جميعها قد أقيمت فوق العقد والجدران التى بنيت بها الصهاريج..

وقال مندوب جريدة «الأخبار» القاهرية، تعليقاً على هذا الخبر «ولو أن ريا وشركاءها كانوا يعرفون بأمر الصهريج.. لو أنهم قد تعمقوا فى الحفر لمسافة نصف متر أخرى حتى يصلوا إليه، لوجدوا مكاناً يدفنون جثث ضحاياهم، من دون أن يعثر عليها أحد.. ولبقيت جرائمهم مستورة عن العيون إلى الأبد».



وباعتراف أربعة من المتهمين الرئيسيين، وطبقاً للخطة التى كان قد اتفق عليها مع النائب العام، انتقل المحقق، ليحاول ـ بمساندة نشطة من «آل همام» ـ اثبات التهمة ضد المتهمين الرئيسيين الثلاثة الآخرين، الذين التزموا خط الانكار التام منذ بداية التحقيق، وهم «عرابى» و«عبدالرازق» و«سلامة».

وكان «عرابى» ـ حتى ذلك الحين ـ هو أكثر الجميع تشدداً فى الالتزام بخط الانكار التام انطلاقا من إيمانه بأن الاعتراف هو سيد الأدلة، ويليه «عبدالرازق».. وقد برر «حسب الله» اصرارهما على الإنكار قائلاً بأنهم كانوا جميعاً قد اتفقوا على ذلك منذ بداية العمليات، وبأن «عرابى» و«عبدالرازق» كانا لا يكفان عن التأكيد على هذا الاتفاق فى أعقاب كل عملية، ويعلنان بأنهما ـ فى حالة افتضاح الأمر – لن يعترفا على نفسيهما، أو على الآخرين، حتى لو ضربا بالرصاص، ويحذران الباقين من ذلك بقولهما أن الاعتراف لا يضر سوى صاحبه، وأن المحاكم لا تأخذ باعتراف متهم.. على آخر.

وككل معلومات «آل همام» القانونية، فقد كان ذلك نصف حقيقة، صحيح أن المحاكم كانت، ومازال حتى الآن، لا تأخذ باعتراف متهم على آخر، لاحتمال ان يكون صادراً عن رغبة فى الانتقام، أو فى التنصل من المسئولية بالقائها على عاتق آخرين، أما نصف الحقيقة الآخر، الذى جهله ـ أو تجاهله ـ «عرابى» و«عبدالرازق» فهو أن المحاكم تأخذ بهذا الاعتراف، إذا ما تأيد بأدلة وقرائن أخرى.

وكان المحقق قد شغل ـ منذ بداية التحقيق ـ بالبحث عن هذه الأدلة والقرائن

ضد كل المتهمين، عندما كانوا جميعاً يلتزمون خط الإنكار التام، ثم ركز بحثه فى الأدلة التى تثبت الصلة بين المتهمين المنكرين والمتهمين المعترفين، وتدل - كذلك - على صلتهم بالضحايا أو ببعضهن، بعد أن أصر الرجال الثلاثة «عرابى» و«عبدالرازق» و«سلامة» على انكار كل صلة لهم بـ«ريا» أو «سكينة» أو زوجيهما، أو أحد من ضحاياهم.

وعلى العكس من «عبدالرازق»، الذى اضطر بعد إدلاء «محمد خفاجة» و«عديلة الكحكحية» بأقوالهما، إلى التراجع عن إنكاره، والاعتراف بصلته بـ«أنيسة»، وبتردده على بيت «ريا» للالتقاء بها، فإن «عرابى» ظل يتمسك بالإنكار التام، فكل ما يعرفه عن «ريا» هو أنها المرأة التى اعترض على إدارتها لبيت للدعارة السرية إلى جوار بيته، فظل يضايقها إلى أن أجبرها على الرحيل من الحى، لكنه لا يعرف أحداً من الآخرين، ولم تكن له علاقة من أى نوع بـ«نظلة أبو الليل».. وعندما واجهه المحقق باعتراف الأربعة عليه، قال:

- أنا مظلوم.. منهم لله - وإذا كنت خنقت حد.. ربنا يخنقنى زى ما خنقتهم..

وقد اثبتت اجراءات الأمن المشددة التى كان «عرابى» يتخذها عند تنفيذ العمليات - بتعمده التخفى أثناء تردده على بيت «ريا» - فاعليتها، كما تكفلت سمعته كفتوه يشاع بين الناس أن له أتباع ومشاديد، بإرهاب الآخرين الذين كانت لديهم معلومات مؤكدة عن صلته بـ«آل همام» وعن علاقته بـ«نظلة أبو الليل»، فامتنعوا عن الادلاء بها أمام المحقق، بما فى ذلك «أبو أحمد النص» الذى أنكر تماماً معرفته بـ«عرابى» و«عبدالرازق» أو ترددهما على دكانه بـ«حارة النجاة». مما دفع «حسب الله» لأن يقول له أمام المحقق:

- إنت تعرفهم كويس قوى.. لكن أنت لسه خايف منهم لأنهم فتوات، وكانوا بيخشوا دكانك يمصوا قصب ويسكروا ويحششوا ببلاش ويضربوك فوق البيعة.. بقى مش فاكر اليوم اللى دخل فيه «عبدالرازق» عليك، وقلب لك الدفاية، ومراتك كانت بتقول لك: خده يا «نص» بالرقة.. ده فتوة الحتة.

وكانت «سيدة سليمان» - جارة «سكينة» وزوجة «محمد السمنى» - أول الذين شهدوا ضد «عرابى» فى واقعة أخرى غير واقعة «نظلة أبوالليل»، إذ ذكرت - فى أقوالها النهائية - بأنها رأت رجلاً ابيض الوجه، قصير القامة، ممتلىء الجسم يرتدى جلباباً أزرق، يجلس مع «حسب الله» فى غرفة «سكينة» وبينهما المرأة العوراء - التى عرفت فيما بعد بأنها «فاطمة عبد ربه» شيخة المخدمين - وأكدت بأنها تستطيع أن تتعرف عليه إذا رأته مرة أخرى.. وعندما عرض عليها المحقق «عرابى» بين ثمانية أشخاص يماثلونه فى طول القامة والهيئة استخرجته من بينهم على الفور. ومع ذلك فقد أنكر الواقعة وكعادته مع كل من يشهدون بما يدينه نسب شهادة «سيده» ضده، إلى ضغائن قديمة بينهما، وزعم بأنه كان قد تشاجر معها مرة، حول ثمن عدة بيضات أراد أن يشتريها منها،

فزغدها وزغدته..

ولأن «حسب الله» كان مشغولاً بذرائعه فإنه لم يفد المحقق بشيء عندما استدعاه ليسأله عن كيفية نشوء وتطور علاقته بـ«عرابى».. فمع أنه لم يقصر فى تأكيد صلته بالجرائم، وفى سرد الضغوط التى كان يمارسها عليه ليجبره على مشاهدتهم وهم يقومون بتنفيذها، إلا انه لم يستطع أن يدل المحقق على واقعة واحدة جمعت بينهما، يمكن العثور على شاهد يشهد بأنه رآهما معاً، ويثبت أن هناك صلة ما، بين «عرابى» و«آل همام».

وما كاد المحقق يبلغ «محمد عبدالعال»، بأن «عرابى» ينكر معرفته به، حتى تحمس لمساعدته فى إثبات الصلة بينهما، وقال إن لديه شهوداً على أنه كان صديقاً له، وأضاف أنه كان يسكن بمنزل بـ«شارع عبدالمنعم» أمام «قهوة الصوامعة» تملكه أرملة عجوز تسمى الحاجة «عويشة لاشين» وتسكن فيه مع ابنين لها يعملان بالجزارة.. وأن «عرابى» كان يتردد عليه كثيراً فى هذا البيت خلال الشهور الثلاثة التى أقام فيها مع «سكينة» فيلتقى بصاحبة البيت وابنيها.. بل إنه طلب من أحدهما أن يعلمه المحادثة الإنجليزية، ليستعين بها فى التفاهم مع العاملين بالبواخر الأجنبية الذين يتعامل معهم بحكم عمله كحمال فى الميناء، وأنه اشتبك مرَّة أخرى فى عراك مع جار لهم، وصرخ فى وجهه:

- أنا لو مسكت خشبة ح أجرى الشارع كله.

ويومها تعاون «عبدالعال» مع الابن الآخر فى فض الاشتباك بينهما..

ويبدو أن «عرابى» لم يكن - حتى ذلك الحين - يتوقع أن يتجاوز «عبدالعال» حد الاعتراف على نفسه، وعليه ليتحول إلى مساعد للمحقق، يعاونه فى إثبات التهمة ضده.. فلم يكتف - حين واجهه المحقق بالواقعة - بإنكارها، بل وألقى فى وجهه بواحدة من محفوظاته المضحكة، الذى كان يتوهم أنها تتضمن زبدة الحكمة وخلاصة الفلسفة، والتى لم تكن لها - فى الغالب - صلة بالاسئلة التى توجه إليه، فقال:

- «عبدالعال» ده مزور.. والحق يعلو ولا يعلى عليه.

وعلى إثر ذلك قام بمحاولة لرد التحية لـ«محمد عبدالعال» بأحسن منها، ساعيا لتثبيت الاتهام ضده من ناحية، والتشكيك فى دوافعه لاتهامه من ناحية أخرى، فقال للمحقق:

- أنا متخانق مع «محمد عبدالعال» فى السجن، وخليه يطلع بره وأنا أقول لك..

فلما نفذ له المحقق ما طلبه، قال «عرابى للمحقق: إن «محمود» - شقيق «عبدالعال» الأصغر - كان يحادث أخاه بصوت عال من خارج السجن، ولأن «عرابى» يقيم معه فى زنزانة واحدة، فقد استمع إلى حوار الشقيقين، فعلم منه أن «عبدالعال» يدخر ٤٥ جنيها لدى عمه، وسمعه يكلف شقيقه بأن يستردها منه وأن يخصص منها عشرة جنيهات لتوكيل محام



حسب الله بكامل قيافته يقف فى حوش قسم شرطة اللبان

يقوم بحضور التحقيق معه، وقد أثار ذلك فضوله، فسأل «عبدالعال»:

ـ أنت جايب الفلوس كلها دي منين؟..

فرد عليه:

ـ وأنت مالك يا بارد.

ونشبت ـ على إثر ذلك ـ مشادة بينهما.

ولم تكن الواقعة جديدة على المحقق، إذ كانت تكاد تتشابه مع الواقعة التى نسبها «عبدالرازق» إلى «حسب الله» حين ووجه باعترافه عليه، فزعم ـ كذلك ـ بأنه سمعه يكلف زوجته الجديدة، باسترداد نقود أودعها لدى عمه، لتشد له محامياً يحضر التحقيق معه. وهو تشابه أدرك منه المحقق أن إحدى الواقعتين ـ أو كلتيهما ـ مؤلفة، وأن المنكرين من أفراد العصابة يستخدمون معلومات، أو شكوكاً قديمة، لديهم لتأكيد التهمة ضد المعترفين، وإثارة الشكوك حول أقاربهم، ليرهبوهم، ويحولوا بينهم وبين مساعدة المحقق على إثبات التهمة ضدهم..

لكن المحقق لم يبلع الطعم وقال لـ«عرابى»:

ـ هذا أمر غير مهم.. لأن «عبدالعال» اعترف بأنه كان يقتل النساء معك ومع آخرين.. ويأخذ المصاغ ويبيعه.. ثم أنه لغاية الآن لم يوكل عنه محامياً.. ولو كان هناك محام لحضر أمامنا..

وكان من حسن حظ «عرابى» أن الشهود الذين استشهد بهم «عبدالعال» كانوا من النوع المسالم الحريص ـ إلى درجة الجبن ـ على ألا يطوله رذاذ من الشبهات التى كانت تحيط بكل من يرد اسمه فى التحقيق، لذلك لم تنف الأرملة العجوز الواقعة فحسب، بل وأنكرت أن يكون «عبدالعال» قد سكن فى منزلها فى أى

وقت من الأوقـات. وقـالت: ولا حـد من ريحـتـهم.. ومع أن الإبنين قـد أقـرا بأن «عبدالعال» كان يسكن بمنزلهما، وبأنهما يعرفان «عرابى»، إلا أنهما نفيا بأن هناك صـداقـة تجـمع بين الاثنين وأنكرا تردد «عـرابى» على منزلهـمـا، ولابد أن صـوته وهو يهـدد بأن فى استطاعـتـه أن يسـوق الحارة كلها أمامه، بعصا من الخشب، كان وراء إصرارهـمـا على إنكار كل الوقـائع التى سـاقـهـا «عـبـدالعـال» لكى ينشط بهـا ذاكرتهما، مما جعله يقول بتسليم:

- كل واحد يعرف أنه يشهد فى قضية «ريا» و«سكينة» يخاف وينكر كل حاجة.

لكن «عبدالعال» - مع ذلك - لم ييأس، فاستـشـهد بزميل له، اسمه «محـمد الكيـال» كـان يعـمل مـعـه فى «وابور خـوريمى» قـال إنه كـان يرى «عـرابى» عندمـا كـان يتردد عليـه فى مكان عمله، وأنهما زاراه مرة معاً اثناء إقامته فى بيت «عويشة». ومع أن «الكيال» لم ينكر زمالته لـ«عـبـدالعـال» فى العـمل، أو مـعـرفـتـه بـ«عرابى» بل واعترف بأنه كان يتردد مع زمـلاء له على «بيت الكامب» - الذى كانت تديره الشـقـيـقـتـان «ريا» و«سـكينة» - فـيسكرون ويهـيّصـون مع النسـوان، فـقـد أنكر أن يكون قـد رأى «عـرابى» فى «بيت الكامب» أو فى «بيت الحـاجـة عـويشـة». ولم يتذكر أية واقعة تدل على وجود صلة بينه وبين «عبدالعال» الذى استـمـات فى مـحـاولة تنشـيط ذاكـرته برواية وقـائع عديدة جمعت بين ثلاثتهم على نحو أحرج «الكيـال» فـاضطر - بعـد مـداورة طويلة - للاعـتـراف بأنه كـان فى طريقـه ذات يوم لمقابلة شقيقه فى أحد المقاهى، فالتقى بـ«عـرابى» صـدفـة فى الطريق، وعلم منه أنه فى طريقـه إلى نفس المقـهى، ليـقـابل صـديقـاً له، وعندمـا وصـلا إلى المقـهى، عـرف أن هذا الصـديق هـو «مـحـمـد عبدالعال» زميله فى «الوابور».

ولأن الواقعة - كما حرص «طلبة» على أن يؤكـد - كـانت تعـود إلى ثلاث سنوات مضت، فـقـد سـعى المحـقق للبـحث عن آخرين، يشهدون بامتداد هذه العلاقة إلى الفترة التى وقعت فيها جرائم القتل، وكانت «سكينة» هى التى تذكـرت واقـعـة يعـود تاريخهـا إلى مـا بعد مقتل «أنيسة» بأيام، هى المشاجرة التى وقعت بين «حسب الله» و«محسن السقا» وتدخل «عبدالرازق» لكى يصلح بينهـمـا، فـأبلغتهـا للمـحـقق، ولأن مـعلومـات «سكينة» حـول الواقـعـة كـانت مـهـوشـة، وإلى حد مـا غـير دقـيقـة، فـقـد استـدعى المحقق «حسب الله» لكى يسأله عنهـا، فـحـاول أن يموه عليـه، إذ كان يدرك أن للواقعة جانباً يثبت التهمة ضده، ويدل على أنه - على عكس ادعائه - كان يقيم مع «ريـا» طـوال الـوقـت فـى «بـيـت عـلـى بك الكبـيـر». ولكنه اضطر أخيراً للاعـتـراف بهـا، بعـد أن أدخل عليهـا تعـديلاً سـاذجـاً، يتواءم مع مـا اعتبره مصلحـتـه، فذكر أنه كـان فى زيارة لـ«مطلقـتـه ريا» لكى يعطى ابنته نقوداً. فتشبت بينهما مـلاسنة، تدخل فـيـهـا «مـحـسن» فـانقلبت إلى اشـتـبـاك بالأيدى بينه وبين «السـقـا» الذى توعـده باستئجار «عبد أسود» ليقوم بتأديبه، وهو

مـا أدى لتـدخل «عـبـدالرازق» ليـوقف «محسن» عند حده..

وهكذا مـثل «مـحـسـن السـقـا» أمـام المحقق، ليكون نموذجاً نادراً للشاهد القوى الواثق من نفسـه، الذى لا يخشى أحداً.. وليـروى قـصـة الشـهـرين اللذين سكن خلالهما فى حجرة بالطابق الثانى من بيت «أم حسين» بـ«حارة على بك الكبير» - بين منتـصـف يونيـو (حـزيران) ومنتـصـف أغسطس (آب) ١٩٢٠ - حيث اكتشف بعد قليل بأن «ريا» تدير الغرفة التى تسكنها مع زوجها «حسب الله» بالطابق الأرضى، للدعارة السرية، فاحتج على ذلك، وحين لم يهتم الزوج المحترم باحتجاجه، قرر أن يأخذ الأمر على عاتقه، وسعى لتطفيش الزبائن بالعمل على ضبطهم متلبسين بممـارسـة الفـحـشـاء، وهو مـا انتـهى بمشاجرة بينه وبين «حسب الله» فوجىء على إثرها بـ«عرابى حسـان»، - الذى قال بأنه يعرفه - يستدعيه إلى المقهى ليقول له بأن «ريا» و«حسب الله» من أقاربه، ويحذره من التـدخل فى شـئـونهـمـا، أو مـضـايقـة ضيوفهما. وإلا فسوف «يزعله».

وبعـد سـاعتين، ارسل له «عبدالرازق» رسولاً يستدعيه للقائه فى خمارة قريبة، ليكرر تعنيفـه له على تدخله فى شـئـون الزوجين. ويحذره - أمام «حسب الله» الذى كان يجلس معه - قائلاً له:

- أنت مش عارف إن أنا فتوة الحتة.

ولابد أن أقـوال «مـحـسـن السـقـا» قـد أسـعـدت المحقق، لأنها اصابت فى مقتل - عدة عصافير - بحجر واحد، ولم تؤكد فـحـسـب الصلة بين «عـرابى» - بل و«عبدالرازق» أيضا - وبين «حسب الله» بل وأكدت كذلك الصلة بين الاثنين وبينهـما وبين بقية «آل همام»، بل وكشفت كذلك عن الدور الحقيقى الذى كان يقومان به. باعتبـارهمـا فتوتى «آل همام»، وحاميا نشاطهم غير المشروع، فضلا عن اثباتها لقيام العلاقة الزوجية بين «حسب الله» و«ريا»..

ولأن المصـائب لا تأتى فـرادى، فـإن المحقق ما كاد ينتهى من العثور على شاهد يثبت العلاقة بين «عـرابى» و«آل همام» حتى وجد شاهدين آخرين يؤكدان الصلة بينه وبين «نظلة أبوالليل»، ويعـود الفـضل فى العـثـور على هذن الشـاهـدين، إلى «زينب» بنت حـسـن» - والدة «نظلة» - التى أشـارت فى أقـوالهـا إلى أن حكمـدارية شرطة الاسكندرية كانت قد كلفت مخبراً سرياً يدعى «محمد حسين» بالتحرى عن غـيـاب ابنتـهـا فى أعـقـاب الشكوى التى تقدمت بها إليها، فاستدعاه المحقق ليستمع إلى نتيجة تحرياته التى جاءت مفاجأة كاملة له، إذ ذكر أنه ما كاد يبدأ فى جمع المعلومـات عن عـلاقـات «نظلة» حـتـى اصطدم باسم «عرابى» الذى كان شائعاً بين جميع الجيران بأنه رفيقها.. بينما كانت الأم تصر على اتهام «عبدالرحيم الشريتلى» باختطافها - ولما واجهها بذلك اعتذرت بأنها لا تستطيع أن تتهم «عرابى» خوفاً من بطشه، وأكد المخبر أن «عرابى» لم ينكر علاقته بـ«نظلة» – حين التقى به

فى المقهى الذى تعود الجلوس به، وعرفه بنفسه وبوظيفته وبمهمته وأطلعه على صورتها الفوتوغرافية - ولكنه زعم بأنه قطع صلته بها قبل عامين.

واستطرد المخبر يقول إن فتاة تدعى «شفيقة بنت فتيان نمر» قالت لـ«أم نظلة» بأن ابنتها ماتزال على قيد الحياة، ودللت على ذلك بأن «نظلة» أرسلت خطابا لـ«عرابى» تخطره فيه بأن «عبدالرحيم الشريتلى» قد اختطفها ويخفيها فى إحدى قرى الجيزة.. فلما نقلت إليه الأم الخبر، طلب إليها أن تستوقف الفتاة عند دكان «خضرة» بائعة البرتقال - حيث تعودت «أم نظلة» أن تجلس - وأن تستدرجها فى الحديث لتعيد رواية الواقعة على مسمع منه، وهو ما حدث بالفعل، لكن الفتاة استرابت فى اسئلته وفى الطريقة التى تدخل بها فى الحديث باعتباره من أقرباء الأم، فلم تسترسل فى رواية مزيد من التفاصيل، ثم اعتذرت عن استمرار المناقشة وانصرفت..

وأنكرت «شفيقة» - فى البداية - الواقعة، ولما واجهها المحقق بالمخبر و«أم نظلة» وبائعة البرتقال، ولفت نظرها إلى أن شهادتها تكفى لإدانتها بتهمة التستر على جريمة - بترويجها لواقعة هروب «نظلة» مع «عبدالرحيم» لتتجه نحوه الشبهات ويفلت «عرابى» بجريمته - عدلت عن إنكارها، قائلة إن قصة الخطاب الذى أرسلته «نظلة» إلى «عرابى» من تأليفها.. وأنها اختلقتها بهدف استغلال قلق الأم على ابنتها والاستيلاء على عدة جنيهات منها مقابل تسليمها ذلك الخطاب الوهمى..

ولكن القصة الجديدة لم تصمد إلا لمدة يوم واحد، عرض المحقق «شفيقة» بعده على «ريا» التى تعرفت عليها بمجرد أن رأتها، وقالت إنها من البغايا التى كن يتعاملن مع «بيت الكامب» وأنها تعرف «عرابى» وتعلم أنه رفيق «نظلة» منذ ذلك الحين.. وأنها كانت تتردد كذلك على بيت «حارة النجاة»، حيث تعرفت على «عبدالرازق».. وهو ما أيدته «سكينة» التى أضافت أن «شفيقة» اختلت بكل من الرجلين اكثر من مرة.. ثم التفتت إليها «ريا» قائلة:

- إزاى ما تعرفيهمش يا «شفيقة».. إذا كنت قايلة لى بعظمة لسانك: «عرابى» قتل «نظلة» يا خالتى «ريا».

ولم تجد «شفيقة» - بعد أن استحكمت حلقات الحصار من حولها - مفرا من الاعتراف بالحقيقة، وبررت أكاذيبها السابقة بخوفها من أن يخرج «عرابى» من السجن فيقتلها.. وأقرت بكل ما ذكره الشهود، وأبدت استعدادها لأن تقول ذلك كله لـ«عرابى» فى وجهه، لأن ذلك هو الحق.. ولأنها لم تعد تخاف شيئاً أو تخشى أحداً.

وهكذا كان على «عرابى» أن يواجه فى يومين متتاليين شاهدين يختلفان عن ذلك النمط الخائف المرتجف الذى يخشى سطوته ويخاف من هالة الرعب التى تحيط به، فيجبن عن الإدلاء بأية معلومات

عنه، فما كاد يرى المخبر «محمد حسين» فى غرفة التحقيق.. حتى ارتج عليه، فأقر بأنه يعرفه، وبأنه التقى به فى المقهى لكى يسأله عن «نظلة». ثم عدل بسرعة عن ذلك ليقول بأن المخبر كان يسأل شخصاً آخر يجلس إلى جواره، لكنه لا ينكر الموضوع الذى كانا يتكلمان فيه، وأنكر أنه اعترف للمخبر بأن «نظلة» كانت رفيقته.. وأضاف:

- هى الواحدة اللى ماشية على كيفها يبقى لها رفيق مخصوص..!

وعلى الرغم مما جرى، فقد أسعده أن المحقق لم يواجهه بـ«شفيقة» التى رآها تقف على باب غرفة التحقيق، فاستنتج أنها لم تشهد ضده، واطمأن على أن هيبته ماتزال قادرة على إلزام كثيرين حد الأدب والصمت.. لكنه فوجىء فى اليوم التالى، بوجود «شفيقة» - مع «ريا» و«سكينة» فى غرفة التحقيق. والغالب أن «سليمان بك عزت» - محقق القضية - كان يتمتع بحس فنى، جعله يحتفظ فى محضره بالنص الكامل لعدد من المشاهد الدرامية التى دارت أمامه من بينها مشهد المواجهة بين «شفيقة فتيان» و«عرابى حسان» الذى جاء فضلاً عن أهميته فى إثبات التهمة على «عرابى» من الناحية القانونية ودلالته على طبيعة شخصيات أبطال المأساة من الناحية الإنسانية، أقرب - من الناحية الفنية - إلى مشهد متقن من مسرحية تنتمى إلى عالم الكوميديا السوداء.

ولابد أن «عرابى» لم يكن يتوقع ذلك الانقلاب المفاجئ فى شخصية «شفيقة بنت فتيان نمر» التى يعرفها فتاة ذليلة كسيرة، تبيع جسدها لتعيش فإذا لم تجد من يشتريه باعت البصل والفجل.. ولم يترك له المحقق فرصة لكى يستنتج من ملامح الوجوه ونظرات العيون، شيئاً مما سوف يجرى أمامه، إذ لم يكد يدخل الغرفة، حتى أشار لها عليه، وقال كما لو كان يخرج نصا مسرحياً مرتجلاً:

- عاوزة تقولى إيه يا «شفيقة»؟

وهكذا وجد «عرابى» نفسه، أمام طبعة أخرى من «شفيقة» التى يعرفها.. طبعة قوية وجريئة إلى حد الطيش.. تتدافع الكلمات من فمها بلا توقف، وبنبرات قوية لا ترتعش ولا تتلجلج وكأنها تثار من سنوات القهر والتجبر والإذلال، وتعلن للدنيا كلها سعادتها باسترداد إنسانيتها وبقدرتها على أن تقول الحق. خاطبته قائلة:

- أنت «عرابى».. وأنا أعرفك لأنك نمت معى ثلاث مرات.. وأول مرة كنت داخلة بيت «ريا» لقيتك قاعد على كرسى وفى ايدك خيزرانه، فلما شفتك غطيت وشى بالطرحة فضربتنى وسحبتنى من أيدى ودخلت بى الأوضة.. ونمت معى على الكنبة.. والمرة الثانية كنت داخل بالليل قابلتنى خارجة جرجرتنى ورجعت بى، والثالثة زى اللى قبلها بس بالنهار.. وأنت رفيق «نظلة» وكنت بتيجى معاها كتير عند «ريا».. ولما غابت قابلتك فى «سوق السبتية» قلت لك: «أم نظلة» بتدور عليها. قلت لى: دى فى الصعيد وجانى منها جواب.

وزلزلت هذه المانشتات السريعة والمركزة، التى أكدت كل التهم المنسوبة إلى «عرابى» أعصابه، وأخرجته عن البرود التقليدى الذى كان يرد به - عادة - على أسئلة المحقق، ويواجه به غيرها من الشهود - وكان رد فعله على المفاجأة غريباً، إذ اندفع يضحك، ثم تجاهل الرد عليها، وقال للمحقق فى ارتباك وهو يشير إلى «ريا» و«سكينة»:

- دى مقطورة عندهم.. وشهادتها ما تجوزشى على.. وأنا ما أنامش مع واحدة زى دى.. واسألها الكلام ده حصل امتى؟!

وردت «شفيقة»:

- من تسع شهور.

وللمرة الثانية تجاهلها تماماً، وقال للمحقق:

- تبقى كذابة، لأنى كنت فى الوقت ده باشتغل مع الجيش الانجليزى فى «بيروت» ورجعت من ست شهور بس. واسألوا القلفاط اللى سفرنى واسمه «محمود سليمان».

وعندما سأله المحقق عما إذا إذا كان لديه أوراق رسمية تدل على تاريخ سفره وعودته قال:

- لما فتشوا بيتى ضبطوا عندى شهادة من الجيش الأنجليزى فى «بيروت» بمدة شغلى وبأن سيرى وسلوكى حميد.

فأمر المحقق بالبحث عن هذه الشهادة بين المضبوطات.

ولأن «عرابى» كان يعلم أنه يكذب، وأنه لا وجود لمثل هذه الشهادة، التى لم تظهر ولم يقدمها الدفاع أثناء المحاكمة، فقد كف عن التركيز على هذه النقطة فى دفاعه، وعاد إلى طريقته المفضلة فى تجريح الشهود، وخاصة إذا كانوا من نوع «شفيقة».. إذ كان هو و«عبد الرازق» يعتقدان أنهما - بحكم كونهما رجالا - أفضل من أى امرأة، مهما كانت مكانتها وأن المحقق لا يجوز له أن يكذبهما ويصدق امرأة، فإذا كانت هذه المرأة «كرخانجية» فمن واجب وكيل النيابة أن يتجاهل تماماً أقوالها الساقطة مثلها، إذ أن مجرد مواجهتهما بهذه الأقوال، هو إهانة. أما وقد وصل الأمر إلى الحد الذى ملكت فيه «شفيقة» وقاحة مواجهته والتلويح فى وجهه، فضلاً عن خطورة ما شهدت به ضده، فإنه لم يجد مفراً من التعامل معها بخشونة، لإرهابها، ودفعها للعدول عن أقوالها.. فقال لها بازدراء أمام المحقق:

- أنا أنام مع واحدة زيك.. ليه عميت؟!

وعلى عكس ما كان يتوقع، فقد استفز تكراره العبارة «شفيقة» فانبرت للدفاع عن أنوثتها، وقال له بتحد:

- لأ... نمت معى.. وصاحبك «عبد الرازق» نام معى مرة واحدة.. وكنت قاعدة فى الدور الثانى فى البيت اللى كانت فيه المحششة، أنظف وزة ذبحتها «ريا» لأن الليلة كانت موسم نص شعبان.. فدخل وشدنى ودخل معى الأوضة.. وخرج من غير ما يدينى ولا مليم.

وكما يحدث حين تستفز النملة فيلاً فتدفعه لأرتكاب حماقة لا يتوقعها منه

أحد، فقد اندفع «عرابى» وراء رغبته فى تجريح «شفيقة»، فقد حذره.. وقال لها:

- «عبد الرازق» ينام معاك أنت.. ده متجوز ست مليحة.. وزى القمر.

ولم يتنبه الفيل إلى الخطأ الذى أوقعته فيه رغبته فى سحق النملة إلا حين اتخذ المحقق من هذه العبارة، دليلاً على أن «عرابى» يعرف «عبد الرازق» - على الرغم من إصرار كل منهما على إنكار صلته بالآخر - معرفة جيدة وعائلية، وحاول «عرابى» أن يبعد عن ذهن المحقق هذا الأستنتاج، قائلاً إنه كان ينزل من العربة التى اقلته من السجن إلى مكان التحقيق به قسم شرطة اللبان» حين شاهد امرأة جميلة تنادى على «عبد الرازق» فاستنتج انها زوجته، ولكن المحقق لم يقتنع بذلك، إذ لم يكن «عبد الرازق» من بين الذين استدعاهم للتحقيق فى هذا اليوم، لتنتظره زوجته أمام باب القسم، كما أنها لم تكن بحاجة لكى تنادى عليه، إذ كان باستطاعتها أن تنتظر حتى ينزل الجميع فتعرف إذا كان زوجها من بينهم أم لا، وحتى لو كان ذلك هو ما حدث فليس فيه ما يدعو «عرابى» للجزم بأنها زوجة «عبد الرازق» إلا إذا كان يعرفها، إذ لماذا لا تكون أمه أو أخته؟!

وفى مواجهة هذا السيل من الأسئلة، اضطر «عرابى» للتوقف عن محاولاته لتجريح أنوثة «شفيقة» بعد أن فشلت فى إلزامها موقف الدفاع بل جعلتها تشدد الهجوم، وأخذ يهرش رأسه بحثاً عن ثغرات منطقة فى أقوالها، تشكك المحقق فى شهادتها فسأله:

- إذا كانت «شفيقة» تعرفنى ماقالتش كده امبارح ليه؟.

ومع أنه لم يواجه إليها السؤال، فقد أجابت عليه قائلة:

- أنا كنت خايفة منك.. ومن رجالتك.

ولأول مرة منذ بدأت المواجهة بين «الفيل» و«النملة» خاطبها «عرابى» مباشرة، بطريقة دلت على أن الفيل، تعب وداخ من المواجهة، وأصيب بحالة من الغباء وبلادة الذهن، ودفعته لتهديدها بعبارات صريحة قائلاً لها أمام المحقق:

- امال.. أنا وارايا رجالة.. هو أنت فاهمه إنى ماوراييش رجالة.

وعلى عكس ما كان يتوقع الفيل، لم تخف النملة من تهديداته الصريحة، بل قالت له بقوة:

- أنا دلوقتى لا خايفة منك.. ولا من رجالتك ولا من «عبد الرازق» ولا من رجالته واحط صوابعى فى عينيك وعينيه أخزقهم لكم.

ومع أنها كانت تقف بعيدة عنه، فقد تراجع أمام يدها الممدودة بإصبعيها المشرعتين لتخزيق عينيه، كما تراجع عن مواصلة تهديداته، وعاد ليبحث عن دليل يثبت أنها لا تعرفه فسألها:

- طيب إذا كنت تعرفينى صحيح. أنا ساكن فين؟.

ولدهشته الشديدة أجابت على السؤال

بأنه يسكن فى « سوق السبتية». ومع أن الإجابة كانت صحيحة، إلا أنه تظاهر بالفرح وطلب الاستماع إلى شهادة الأومباشى - الرقيب أول - «أحمد البرقى» - البوليس السرى الذى شارك فى القبض عليه وفى تفتيش بيته، فإذا بـ«البرقى» يؤيد أقوال النملة ويضيف موضحاً، أن «عرابى» يقيم مع صهره «محمود العوام» وأن بيته يقع أمام «سوق السبتية» ولا يفصله عنه سوى شارع واحد.. وانتهزت «شفيقة» الفرصة فواصلت هجومها على الفيل، وقالت للمحقق:

ـ تعال يا «بيه» وأنا أوريك بيته.. وبالأمارة جنب البيت واحدة بتبيع سمك.

ولم يجد «عرابى» وسيلة للخروج من هذا المطب، إلا بالوقوع فى مطب آخر، فقال:

ـ صحيح حماتى بتبيع سمك جنب البيت.. أصل البنت دى دايره.. ولازم تكون تعرف بيتى لأنها طوال النهار تلف فى الشوارع تبيع بصل وفجل..

وقالت «شفيقة»:

ـ أنا صحيح أبيع بصل وفجل.

وهكذا أراد الفيل أن يكذب النملة، فإذا بالمحقق يمسك بتلابيبه متخذاً مما قاله دليلاً على أنه يعرف «شفيقة» وإلا فكيف عرف أنها تبيع البصل والفجل، بينما أصر هو على منطقة المقلوب، قائلاً:

ـ مادام تعرف بيتى لازم تكون بتبيع بصل وفجل؟..

فقال له المحقق ساخراً وحانقاً:

ـ وليه ما تكونش بتبيع جرجير وكرات؟!.

وبسبب إصرار «الفيل» على ألا ينسحب من المواجهة مع «النملة» قبل أن يسجل عليها انتصاراً ساحقاً، فقد اندفع «عرابى» بحماقة يحاول أن يفسر للمحقق سبب تعرف «شفيقة» على منزله فقال:

ـ جايز لما كانت «ريا» ساكنة عندنا فى الحتة.. كانت «شفيقة» بتروح عندها فشافتنى..

ولم يتركه المحقق يستمتع بالتفسير الذى توهم أنه سينقذه من ورطته، بل أسرع يلفت نظره إلى أنه - كالعادة - قد أوقع نفسه فى مطب جديد، فقال له:

ـ إذن هى تعرفك من هذا التاريخ وتعرف أنك كنت تتردد على بيت «ريا»..

وقال «عرابى» كأنما يحدث نفسه:

ـ الولية «أم نظلة» دى ولية معرصة (قوادة) وتقدر كل يوم تجيب أربعة يشهدوا ضدى.. امبارح واحد.. والنهاردة واحدة.

ولما لفت المحقق نظره إلى أن شاهد الأمس مخبر سرى بالشرطة قال:

ـ ده كان بيبيع فانلات مسروقة من الجيش الإنجليزى.. وأنا سلطت عليه واحد بوليس ضبط عنده فانلات وكانت دموعه نازلة... وترجى البوليس ساب له الفانلات ومشى..

ثم التفت إلى «ريا» وقال لها:

ـ بذمة النبى أنا قتلت؟..

وردت «ريا» على السؤال بآخر فسألته:

ـ بذمة النبى انت ماجيتش مع «نظلة» فى بيت «على بك الكبيـــر» وفى «بيت الكامب» قبل كده.. و«شفيقة» كانت بتشوفكم مع بعض هنا.. وهنا؟.

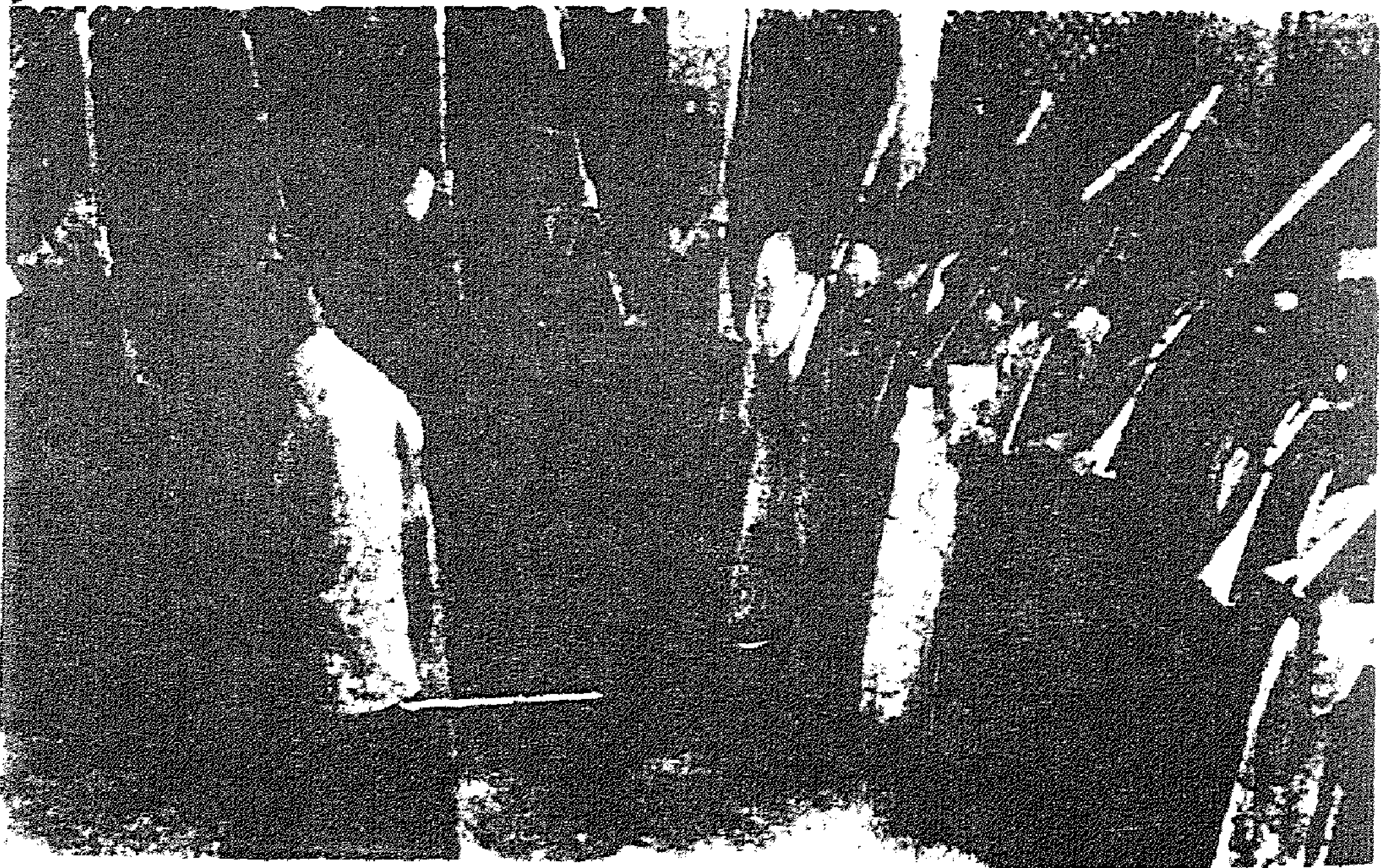
ويبـــدو أن «ريا» التى لم تكن قـد ساهمت حتى ذلك الحين بمجهود فى المساعدة على إثبات التهمة ضد «عـرابى» قـررت فى تلك اللحظة أن تنضم إلى فريق «آل همـام لمساعدة العدالة» فلفتت نظر المحقق إلى أن «عبد المعبود» ـ وهو خفير نظامى كان «قسم شرطة اللبان» قد عينه لحراسة المنطقة التى يقع فيها «بيت الكامب» واتخذ من مكان يواجهه مركزاً لدركه ـ كان يشاهد «عرابى» وهو يصحب «نظلة» كل ليلة إلى البيت..

ولأن «عـرابى» كـان يعـرف أن الاسم الحقيقى للخفير هو «عبدالموجود» وليس «عبدالمعبود» فقد رحب بالمواجهة وقال بتحد:

ـ إذا جه «عبدالمعبود» وقال إنه كان بيشوفنى داخل هناك.. يبقى اللى تقولوه على جايز..

ومع أن «عبدالموجود عبدالرحيم» كان ـ من الناحية الرسمية ـ أحد العاملين فى الشرطة، الذين يفترض فيهم العمل على مقاومة الجريمة وإقرار الأمن ومساعدة العدالة، فقد تصرف منذ البداية بمكر ريفى، دل على أن لديه ما يدعوه لعدم إقحام نفسه فى الأمر.. إذ كان مايزال

خفراء الدرك الذين كانوا يحفظون الأمن فى المدن..



يقوم بالعمل فى نفس المكان الذى كان يقع فيه «بيت الكامب» ومع ذلك فقد تظاهر بالغباء ـ عندما استدعاه المحقق ليسأله عن الواقعة ـ وتهرب من الإدلاء بأقواله عما يعرفه بشأنها واستفاد من الالتباس الذى وقعت فيه «ريا» فى تضليل المحقق فدله على زميل له، يحمل اسم «عبدالمعبود» كان قد ترك الخدمة، وعاد إلى قريته بالصعيد.

وتطلب الأمر عدة أيام حتى أمكن إزالة هذا اللبس، وحين مثل «عبدالموجود» أخيراً أمام المحقق، أجاب على أسئلته بطريقة دلت على أن «عرابى» كان لديه ما يبرر ثقته فى أنه لن يشهد ضده، وفضلاً عن أنه لم يجد ما يبرر به تضليله للمحقق، بإنكاره أنه الخفير المقصود، فقد كان واضحاً أنه لقن أقوالاً لا تتناقض مع ما قالته «ريا» ولا تثبت ـ مع ذلك ـ شيئاً ضد «عرابى»، إذا ذكر أنه أمضى فى النقطة التى كان يقع بها «بيت الكامب» أربعة شهور ثم تركها وعاد إليها، وكان يرى ـ خلال الفترة الأولى ـ كثيرين من الصعايدة والعربجية وجنود الانجليز يترددون على البيت، وأن بعض هؤلاء الصعايدة يأتون كل ليلة، ويقفون تحت البيت وينادون على صديق لهم اسمه «عرابى» لكنه لم ير هذا الشخص ولم يلتق به، ولا يعرف من هو على وجه التحديد، كما لا يعرف أحدا من النساء اللواتى كن يترددون على البيت.. ولم يسمع اسم «نظلة» على لسان أحد.

فأدرك المحقق أن الخفير ـ ككثيرين من العاملين فى المستوى الأدنى من جهاز الشرطة آنذاك ـ أضعف وأفقر من أن يؤدى واجبات وظيفته بأمانة ونزاهة، وهو ما أكدته أقوال «ريا» و«سكينة» حين واجه بينهما وبينه، إذ لم تجزما فقط بأنه يعرف أن «عرابى» و«نظلة» رفيقان، وأنه أكل وشرب معهما فى المنزل بل وأضافتا أن لديهما شهوداً على أن «عبدالموجود» كان يعمل ـ فى أوقات العمل الرسمية ـ بوظيفة مساعد فتوة للبيت، فيقوم بطرد الزبائن المشاغبين، وحمل السكارى الذين تغلبهم الخمر فيثيرون الضجيج إلى خارجه، نظير أجر نقدى كان يتقاضاه منهما، ويتقاسمه مع رئيسه «عبدالعال» ـ نقيب الخفراء ـ فضلاً عن العطايا العينية من الطعام.. وأحياناً النساء.

وأرسل المحقق يستدعى هؤلاء الشهود، وكان منطقياً ألا يكونوا أكثر شجاعة من خفير الدرك ورجل الأمن الذى خاف من «عرابى» وجبن عن الشهادة ضده. فضلا عن أنهم كانوا متورطين بالفعل فى علاقات غير قانونية بـ«آل همام» و«عرابى». ومع أنهم أقروا بمعرفتهم بالخفير، إلا أنهم انكروا معرفتهم بالعمل الإضافى الذى كان يقوم به فى «بيت الكامب» أو بالعلاقة الخاصة التى كانت تربطة بـ«عرابى». ولم يجد المحقق فائدة من مناقشتهم فى هذا الإنكار، ولم يلجأ لفريق «آل همام للمساعدة القضائية» لكى يطلب إليهم مزيداً من الشهود، إذ كان قد حصل بالفعل على ثمانية شهود، أكدوا، أن «عرابى» كان على صلة وثيقة بـ«آل همام» وجزموا بأنه كان رفيقاً لـ«نظلة أبو الليل»، هم «سيدة

سليمان» ـ التى شهدت بأنها رأته فى بيت «سكينة» يوم مقتل «فاطمة شيخة المخدمين» ـ و«أم نظلة» ـ التى شهدت بصلته بابنتها، وبسؤالها له عنها بعد غيابها فى حضور اثنين آخرين من جيرانها صادقاها على أقوالها ـ فضلاً عن «توته» - زوجة عبد الرحيم الشريتلى ـ والمخبر «أحمد حسين» «وشفيقة بنت فتيان نمر» وخضرة بائعة البرتقال.. وهى قرائن وجدها كافية لإثبات صحة الأقوال التى أدلى بها المتهمون الأربعة المعترفون بشأن اشتراكه معهم فى جرائم القتل.

وعلى العكس من «عرابى» الذى تمسك حتى النهاية بخط الأنكار التام بما فى ذلك انكار معرفته بكل الشهود، وتكذيب كل أقوالهم. فقد غير «عبد الرازق» من أسلوب دفاعه عن نفسه، منذ أدلى «خفاجة» بأقواله، فأصبح يعترف بما لا يدينه من تلك الأقوال، ويعمل على تأويلها بحيث لا تثبت عليه اتهاماً، ويطعن ـ على سبيل الاحتياط ـ فى ذمة الشاهد، ويصطنع وقائع توحى بأن بينهما ضغائن.. وهو ما فعله عندما واجهه المحقق بواقعة انذاره لـ«محسن السقا» بأن «يزعله» إذا لم يكف عن مضايقة «حسب الله» فبدأ بـ«التشكيك» فى شهادة «أحمد عدس» ـ الرسول الذى صحب «محسن» لكى يلتقى بهما فى الخمارة ـ قائلاً:

ـ الرجل ده ممشى القهوة حشيش.. وأنا ضربته علشان كده هو بيشهد على.

وزعم بأنه تضارب مع «محسن» لسبب آخر، لا صلة له «ريا» أو «حسب الله» إذ كان قد اعتدى على أحد أبناء الحى الذى استجار به، فاضطر لتأديب «محسن». وهو ما علق عليه المحقق قائلاً له:

ـ وما شأنك أنت حتى إذا كان واحد فاتح قهوة حشيش تروح تضربه.. مما يدل على أنك عامل «فتوة» وتتدخل فيما لا يعنيك.

وما لبثت إجابات «عبد الرازق» على أسئلة المحقق ـ التى انهالت على رأسه كالمطارق ـ أن قادته لرواية تفاصيل، كذبت أقوالاً سابقة له، وأكدت أنه كان بالفعل «فتوة». ففى محاولة للبرهنة على تحامل «أحمد عدس» عليه، ذكر أنه دخل مرة المقهى الذى كان يديره لتدخين الحشيش، وبعد أن دخن خمس تعميرات، غالطه فى الحساب، فاشتبك معه فى ملاسنة، سرعان ما تحولت إلى مضاربة، انتهت بتحطيم كل ما كان بالمكان من أدوات التحشيش، وهرب بقية الرواد دون أن يسددوا لـ«عدس» ثمن ما دخنوه.. وفى تعليله للأسباب التى تدعو «ريا» و«سكينة» لاتهامه بالمشاركة فى ارتكاب جرائم القتل قال:

ـ لأن أنا رزيل.. ومن رزالتى اتهمونى.. ولما يدخل زبون عندهم، مع واحدة من النسوان ينفعهم لكن أنى كنا بنعطوا عليهم، ونأخذوا المرة من الزبون، وندخلوا معاها، ونطلع وما نعطيهمش ولا مليم.

وهكذا لم تؤت خطة دفاع «عبد الرازق» الجديدة ثمارها المطلوبة. بسبب عجزه عن

السيطرة على كل دلالاتها. وعلى عكس ما كان يقدر فإن المحقق لم يجد فيما ذكره من مزاعم دليلاً يقنعه بتحامل الشهود عليه، بل وجد فيه قرائن على صحة كل ما نسبوه ونسبه إليه غيرهم من وقائع، تؤكد أنه كان يقوم بدور «الفتوة» الذى يفرض نفسه بالقوة والبلطجة على الناس، وأنه بدأ علاقته بـ«آل همام» بالعدوان عليهم، ثم تحول إلى شريك لهم، وتخصص فى حمايتهم وارهاب كل من يتدخل فى شؤون تجارتهم.. بل إنه لم يكف عن أعمال «الفتونة» حتى بعد القبض عليه، إذ ما كاد «محسن السقا» يدلى بشهادته ضده، حتى اتصل به عدد من أقارب «عبد الرازق» وهددوه بالانتقام منه، إذا لم يعدل عن شهادته. وقد طمأنه المحقق، وطلب إليه أن يبلغ قسم الشرطة إذا تعرض له أحد منهم.

ولم يكن المحقق - بعد ذلك كله - فى حاجة إلى المزيد من الأدلة والقرائن، التى تدل على صحة ما نسبه المتهمون الأربعة المعترفون إلى «عبد الرازق».. لكنه وجد من واجبه أن يزيل الالتباس الذى احدثته «بديعة» حين حددت - فى آخر أقوال أدلت بها أمامه - الذين كانوا يقومون بالقتل، بأبيها وزوج خالتها فقط، ونفت أن يكون «عبد الرازق» أو «عرابى» قد اشتركا معهما فى قتل أى امرأة. فاستدعاها من الملجأ، وناقشها فى التناقض بين ما جاء فى أقوالها، وما جاء فى اعترافات بقية «آل همام» بشأن هذه النقطة، فترددت قليلاً ثم قالت:

- وحياة ربنا «عرابى» و«عبد الرازق» كانوا معاهم.

....

....

وكان منطقياً أن تقوم «سكينة» بالجهد الرئيسى فى مساعدة المحقق للحصول على أدلة وقرائن تثبت صحة اعترافها واعتراف الآخرين بمشاركة «سلامة محمد خضر» فى عملية قتل «أم فرحات». بائعة الجاز.. بحكم علاقتها الخاصة به، وبحكم أنها كانت أول من اتهمه بذلك، ثم أيدتها «ريا» و«حسب الله» الذى استكمل روايتها للواقعة مؤكداً أن دور «سلامة» لم يقتصر على مشاهدة الهجوم المباغت الذى شنه هو و«عرابى» على بائعة الجاز، بل اشترك كذلك فى القتل وفى الدفن، وحصل على نصيبه من الغنيمة.

بينما قال «عبد العال» إنه لم يشترك فى العملية التى تمت أثناء وجوده فى قريته، وبالتالى فهو لا يستطيع تأييد أو نفى ما نسبه الآخرون إلى «سلامة».

وحتى ذلك الحين، كان «سلامة» هو الوحيد من بين سكان «بيت الجمال» والمترددين عليه، الذى مايزال رهن الحبس الاحتياطى مع أن أحداً ممن تداولوا التحقيق فى القضية، لم يكن قد استدعاه ليناقشه فى أقواله الأولى التى أدلى بها أمام «محمد كامل أبو ستيت» مساء يوم ١٥ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، وبعد ساعات من اكتشاف الجثة الأولى.

وكان قد مضى عليه شهر كامل فى محبسه، حين استدعاه المحقق ليواجهه باعتراف ثلاثة من «آل همام» بأنه قد شارك فى قتل بائعة الجاز، فلم ينكر الواقعة فحسب، بل وانكر كذلك ما كان قد أقر به فى أقواله الأولى، وذكر بأنه لا يعرف «سكينة» من الأساس، ولم يسبق له التردد على «بيت الجمال» أو المبيت به.. وهى حقيقة شهد بها كثيرون، اكتفى المحقق بالأقوال لتى أدلى بها بعضهم فى المراحل الأولى من التحقيق، واستدعى آخرين منهم ليعيد الاستماع إلى أقوالهم، كأن من بينهم «كرياكو ياكومو» - صاحب الخمارة القبرصى - الذى أكد بأن «سلامة» كان يتردد على خمارته مع «سكينة» وأنه رآهما أكثر من مرة وهما يسيران معاً فى الشارع، كما أخبرته - ذات مرّة - أنها اشترت له صندلاً وقفطاناً.. و«سيدة سليمان» التى شهدت بأنه «كان دايما قايم نايم فى البيت».

ولم يجد «سلامة» ما يبرر به أقوالها إلا بسرد قصة رديئة السبك ظنها تكفى للتدليل على أن هناك ضغائن بينهم، دفعتها للشهادة ضده، ونقلها فى الغالب عن شريكه فى الزنزانة، «عرابى» الذى سبق له أن استخدم أصلها للتشكيك فى شهادة «سيدة» ضده، فقال بأنه كان قد اشترى منها ثلاث بيضات ثم تبين له، أن اثنتين منهما فاسدة، فقلب لها سلة البيض ثم ترك لها نصف ريال ثمناً له ومضى.

وفى مواجهة هذه الرواية الساذجة وأمثالها، نشطت «سكينة» - التى يبدو أنها كانت تشعر باستفزاز بالغ من انكار «سلامة» لعلاقته بها - لاثبات أنه كان رفيقها الذى كان يعيش على حسابها وينفق من جيبها.. وللتدليل على أن العلاقة بينهما كانت حميمة إلى الدرجة التى اصطحبها معه أكثر من مرة إلى منزل أسرته، فتعرفت على اخوته الثلاثة، وسردت أسماءهم فى مواجهته، وقالت أنه اصطحب أحدهم مرة إلى منزلها الذى يدعى أنه لم يدخله، فتناول العشاء معهما ووصفت البيت الذى يقيم فيه مع أسرته قائلة أنه دعاها لزيارتها لتلتقى بأمه التى وصفتها.

لكنه أصر - مع ذلك - على إنكار معرفته بـ«سكينة».. فتصاعد استفزازها منه إلى الذروة، وقالت للمحقق:

- ولو أنه عيب.. لكن راح نقول لك على علامة فيه عشان تصدق إنه كان رفيقى.

وذكرت أن هناك آثار التئام جرح قديم في مكان حساس من جسده، وصفته بدقة بالغة.

وسأله المحقق:

- الجرح ده فى جسمك.

فقال باستهذاء:

- أيوه ده جرح من زمان.

وكان «سلامة» هو الوحيد بين المتهمين الثلاثة المنكرين الذى توفرت لدى المحقق، فضلاً عن شهادات الشهود، مستندات رسمية تثبت علاقته بـ«سكينة» وصلته بـ«آل همام» هى أوراق التحقيق فى قضية المشاجرة، التى بدأت بمشادة بينه وبين

«حسب الله» بسبب خلاف بينهما فى حساب نصيب «سلامة» فى تركة «أم فرحات» بائعة الجاز، ثم تحولت إلى مشاجرة بينهما من جانب وبين النوبيين من جيران «حسب الله» الذين تدخلوا لفض الاشتباك بينهما من الجانب الآخر. وكانت «سكينة» هى التى أرشدت المحقق إلى أن هذه المشاجرة قد انتهت بتحقيق أجرى فى قسم شرطة اللبان نفسه، وأن «سلامة» قد انتحل فى هذا المحضر اسم زوجها «محمد عبد العال» - الذى كان غائباً فى قريته آنذاك - ليتواءم ذلك مع ادعائه فى المحضر بأنه ذهب إلى منزل «حسب الله» ليصالح زوجته الغضبى، ولكن عديله - أى «حسب الله» - لم يوافق فنشبت بينهما ملاسنة تدخل فيها النوبيون بشكل غير حميد، فتحولت إلى مشاجرة بينهما وبينهم.

وعندما حاول «سلامة» أن يفلت من هذا الدليل القوى، مدعياً بأن المشاجرة وقعت بينه وبين «حسب الله» - الذى لا يعرفه - فى الطريق العام سدت «سكينة» أمامه سبل الإفلات فاستشهدت بشيخ الحارة الذى تذكر الواقعة، وقال بأن «سكينة» طلبت إليه أن يضمن زوجها ليمكن الأفراج عنه، فاستجاب لرجائها، وعندما عرض عليه المحقق الأثنين، أشار إلى «سلامة» وقال أنه هو الزوج الذى ضمنه.

ومع أن المحقق كان قد لاحظ عند قراءته لمحضر التحقيق فى المشاجرة، أن الصفات التى ذكرتها «ورقة التشبيه» عن «زوج سكينة» أقرب إلى صفات «سلامة» منها إلى صفات «محمد عبد العال» الا أنه آثر أن يحسم الأمر بتقرير فنى، فطلب من مصلحة تحقيق الشخصية، مضاهاة بصمة الإبهام، التى وقع بها «زوج سكينة» فى محضر المشاجرة ببصمة كل من «محمد عبد العال» و«سلامة محمد خضر».. وجاءت النتيجة بعد أيام لتضع النقط على الحروف، وتجزم بأن الذى انتحل اسم «محمد عبد العال» ادعى أنه زوج «سكينة» وتشاجر مع «حسب الله» هو «سلامة محمد خضر».

ولم تكتف «سكينة» بذلك، بل نبهت المحقق - كذلك - إلى المحاولة التى قام بها «سلامة» لكسر دكان «الخواجة عزعوزى» ودلته على حشد من الشهود ضم «سيدة سليمان» و«عزيزة عبد العزيز» ونقيب الخفراء «قاسم حسن» شهدوا جميعاً بأن «سلامة» هرب بعد فشل المحاولة إلى «بيت الجمال» وقبض عليه فيه، وهو ما أكده محضر التحقيق فى الواقعة، الذى قرر فيه «سلامة» بأنه يسكن فى المنزل رقم ٥ بـ«حارة ماكوريس» طرف «سيدة سليمان».

....

....

وكان «على محمد» - صائغ العصابة - هو الوحيد الذى وفر على المحقق مجهود اثبات الصلة بينه وبين «آل همام» إذ لم يكد يواجهه باعترافاتهم حتى عدل عن إنكاره، واعترف بأنهم كانوا من زبائنة، ولكنه نفى معرفته بمصدر حصولهم على المصوغات التى كانوا يبيعونها له، أو علمه بأنهم كانوا

يقتلون صاحباتها، وطبقاً لأقواله، فقد كان «حسب الله» أول من عرفه منهم، عندما اشترى منه دبلة ذهبية ثقيلة يصل ثمنها إلى أربعة جنيهات.. ثم عاد بعد أيام ليطلب إليه إصلاحها، قائلاً إنها ـ على الرغم من ثقلها ـ لم تتحمل كثرة مشاجراته.. وعن طريقه عرف الثلاثة الآخرين ـ «ريا» و«سكينة» و«عبد العال» – فأخذوا يترددن على دكانه، يبيعون ويشترون.. وأضاف أن الشقيقتين هما اللتان كانتا تعرضان عليه شراء المصوغات وتزعمان بأنها مصوغات أمهما أو جدتهما، وبعد مساومة مجهدة في الثمن، تتسلمانه، وبعد انصرافهما يأتي الرجلان فيسألانه عن مفردات المصاغ الذي اشتراه من زوجتيهما، وعن الثمن الذي دفعه فيه، وهي عملية تكررت ـ حسب قوله ـ أربع أو خمس مرات فقط.

وعلى الرغم من حرص الصائغ على التأكيد بأنه كان يقوم بعمل تجارى مشروع، إلا أنه فشل فى تبرير تجاهله لكثير من العوامل التى كان لابد وأن تدعوه للشك فى مصدر المصوغات، إذ كان المظهر العام للمرأتين ـ كما قال له المحقق ـ يدل على تواضع مستواهما الاجتماعى، وعلى فقرهما، وعلى استحالة أن تكونا قد ورثتا شيئاً عن أمهما أو جدتهما وكانت المصوغات نفسها ذات مقاسات مختلفة مما يدل أنها ملك لنساء متعددات، وفضلاً عن أنه كان يستجيب لرغبتهما فى وزن المصوغات بميزان دكانه، وليس لدى الوزانين الرسميين للصاغة، فقد كان يشتريها منهما بثمن بخس يصل إلى نصف ثمنها الحقيقى، وهى كلها دلائل تدل على أنه كان يعلم بأن المصوغات ليست ملكهما وأنهما حصلتا عليها عن طريق غير مشروع.

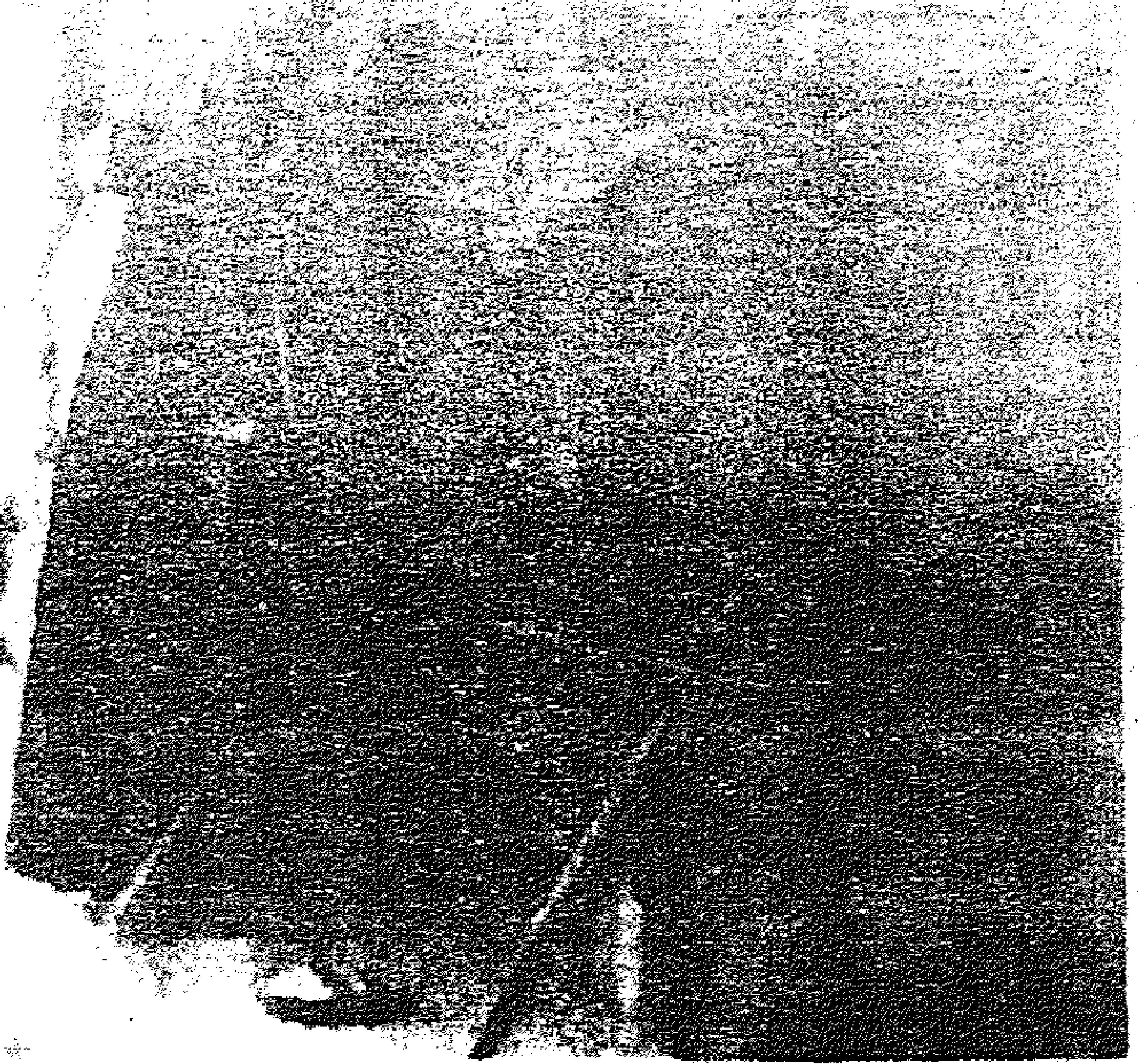
وكان من بين الأقوال التى أساءت لموقفه فى التحقيق، اعترافه بأنه قام بتكسير زوج المباريم الثانى الذى بقى لديه من مصاغ «فردوس» بعد شرائه له بأربعة أيام، وفى أعقاب اكتشاف الجثة الأولى فى بيت «سكينة» وإنكار معرفته بأحد من «آل همام» عندما استجوب لأول مرة فى أعقاب العثور على فاتورة باسمه فى حافظة نقود «حسب الله» عند تفتيشه فور القبض عليه وفى تبريره لذلك قال:

ـ أنا أول ما جابونى القسم وشفت «ريا» و«سكينة» وسمعت أنهم قاتلين دستة نسوان مصارينى اتحاشت فى وسطى.. وارتعبت فأنكرت.

وهكذا وقع صائغ العصابة، الذى كان آخر من قبض عليه من المتهمين، إذ لم يصدر القرار بحبسه احتياطياً على ذمة التحقيق إلا فى يوم الجمعة ١٠ ديسمبر (كانون أول) ١٩٢٠.. وبعد ثلاثة أيام من اعترافات «ريا» و«سكينة» وبعد ثلاثة أسابيع، كان خلالها يعامل باعتباره شاهداً على جريمة.. وليس متهماً بارتكابها.



ولعل المحقق لم يكن يتصور، حين شرع فى تصفية موقف «محمد على القادوسى» وزوجته «أمينة بنت منصور»



طابور النساء أمام محل الرهونات

- المعروفين بـ«أبو أحمد النص» و«أم أحمد النص» - مدى الصعوبات التى سوف يواجهها فى غربلة ما كان يحيط بهما من شبهات.

وكان الانطباع الأول الذى تكون لدى «سليمان بك عزت» - عندما تسلم التحقيق من سلفه، وطالع أوراقه - هو أن موقف «آل النص» - وخصوصاً الزوجة - لا يكاد يختلف عن موقف الذين اتهمتهم «ريا» فى الطبعات الأولى من أقوالها، مثل «عديلة الكحكية» و«أحمد الجدر» و«عبد الله الكويجى» مع فارق واحد، هو العثور على الجثة التى كانت «ريا» تزعم فى البداية بانها جثة «انيسة» بغرفة بالطابق الأرضى من المنزل الذى يسكنه «آل النص» وتنوب الزوجة عن مالكته فى تأجير غرفة..

وكان من حسن حظ «أبو أحمد النص» أن الشبهات التى أحاطت بها أخذت تتبدد تدريجياً بعد أسبوع واحد من القبض عليها هى وزوجها، فعدلت «ريا» عن اتهامها، بأنها كانت تصطحب بعض الفتيات إلى حجرتها بـ«حارة على بك الكبير» ليلتقين برجال، ثم يختفين بعد ذلك، وتعرف الحاج «حسين على وفيق» على الملابس التى عثر عليها فوق الجثة، وقال بأنها لزوجته «نبوية بنت جمعة»، واتهم «حسب الله» بأنه كان «يخايلها» إلى أن أغواها على الهرب.

ولكن بقاء «آل النص» ضمن قائمة المشتبه فيهم ظل رهيناً بالحالة المزاجية لابنتى على همام، على نحو يكشف عن أن العلاقة بين النساء الثلاث، كانت تتسم بدرجة عالية من التعقيد، فقد كانت «سكينة» أسبق الشقيقتين إلى التعرف إلى«أمينة بنت منصور»، حين كانتا تسكنان معاً فى «بيت الصابونجية» فنشأت بينهما رابطة مهنية سرعان ما تحولت إلى صداقة قوية، فقد كانت كل منهما مطلقة تعيش وحيدة على الرغم من أن الرجل الذى تهواه لم يكن بعيداً عنها.

وكانت «سكينة» تحتفظ بدرجة من الإعجاب الخفى بـ«أم أحمد النص»، وقد وصفتها - فى أقوالها أمام المحقق - بأنها «مرة ناعمة.. تقدر تسحب أجدع مرة فى

البلد لأن أصلها دلالة، ولما تشوفها فى بيتها.. لابسة ومتخططة وفاردة شعرها يتهيأ لك أنها بنت بنوت عندها أربعتاشر سنة.. ولما يخش عليها حد لا تقف ولا تهتم.. وتسلم وهى قاعدة زى السنيورة».

وما لبث ظهور «ريا» على ساحة العلاقة بين الصديقتين، أن عكر صفو هذه الصداقة، إذ استطاعت بروحها العملية ومواهبها الاستثمارية - أن تخاطب الطابع الغالب على شخصية «أم أحمد» وأن تجتذبها إليها، فتوثقت العلاقة بينهما، وتحولت إلى صداقة حميمة، جعلت «بديعة» تصف زوجة «النص» بأنها «صاحبة أمى الروح بالروح.. ومخاوياها بالعيش والملح»، وكانت خيانة «أم أحمد» لصديقتها «سكينة» - التى كانت تغار من أختها - هى السبب الخفى وراء تحرش «سكينة» المتواصل بها، الذى انتهى بشجار حاد بينهما، أدى - مع عوامل أخرى - إلى فض الشراكة بين «آل همام» و«آل النص».. واغلاق «بيت حارة النجاة» قبل ستة شهور من افتضاح أمر العصابة.

ولابد أن شيئاً ما، قد حدث بين «ريا» و«أم أحمد النص» خلال هذه الشهور الستة، دفعها لمحاولة توريط «أختها بالعيش والملح» فى القضية، بإرشاد الشرطة إلى الجثة المدفونة فى منزلها، والايحاء بأن «أم أحمد» شاركت فى قتلها ودفنها.. بينما أظهرت «سكينة» وفاء نادراً، ولم تحاول توريط صديقتها، بل وأصدرت بحقها «إعلان براءة» فى الجلسة الأولى من اعترافاتها، لكنها عدلت عن هذا الموقف فى جلسة تالية من جلسات التحقيق، ضمتها هى وزوجها وشقيقتها لتحقيق واقعة مقتل «نبوية بنت جمعة» فأيدت ادعاء «ريا» بأن «أم أحمد النص» كانت تجلس أمام باب البيت، ورأت المرأة وهى تدخله، ولم ترها وهى تخرج منه. وكررت نص العبارة التى قالتها فى هذا الشأن، فجزمت أن «أم أحمد عرفت طبعاً أن المرأة قتلت».. لكن المحقق لم يكد يستدعى «أم أحمد» لتواجه الشقيقتين، حتى عدلت «ريا» فجأة عن كل ما اتهمتها به، وأعلنت براءتهما منه، فلم تعترض «سكينة» على الإعلان.

وكان من سوء حظ «أم أحمد النص» أن إعلان البراءة، قد صدر - يوم الخميس ٩ ديسمبر (كانون أول) ١٩٢٠ - متأخراً عن موعده اسبوعاً كاملاً، وبعد أن عثر مساعد المحقق - بالصدفة المحضة - على دليل آخر - غير أقوال «ريا» - يثير الشبهات حول صلتها بالعصابة. وكان «على أفندى بدوى» - وكيل النيابة المكلف بإجراء التحقيقات التكميلية - يقوم - يوم الخميس ٢ ديسمبر (كانون أول) ١٩٢٠ - بعرض ما ضبط لدى المتهمين من ملابس ومصوغات على أهالى الضحايا لعلهم يتعرفون على شئ منه، حين تعرف «حسن الشناوى» - زوج «نبوية القهوجية» - على خلخال من النحاس ضبط فى الحجرة التى تسكنها «أم أحمد النص» وقال بأنه يشتبه فى أن هذا الخلخال هو خلخال زوجته، ومع أن البحث انتهى إلى أنه خلخال «عائشة عبد المجيد» الذى أخذته منها «أم أحمد» حين قررت بيعها

اللامى» - أولى الضحايا - يتعرفان عليه، ويقولان بأنه لوالدتهما، وبأنهما تعودا أن يشاهداه فى قدميها منذ طفولتهما، ويجزمان بأنها كانت تتزين به، فى اليوم الذى خرجت فيه بلا عودة.

وذعرت «أم أحمد» عندما واجهها المحقق بأقوالهما، وقالت له: لأ وحياتك.. ده من مالى.. ولما أعاد سؤالها عن مصدره، حاولت أن تتهرب من الإجابة، وقالت له:

- هو اللى عنده حاجة يقولوا له أنت جايبها منين؟.

فكرر عليها السؤال بلهجة زاجرة، أنستها إجابتها السابقة عليه، وقالت:

- أنا اشتريته من أربع سنين من صايغ شامى له دكان فى أول الصاغة الصغيرة فى ظهر الجامع.

ويبدو أنها توهمت انها تستطيع ان تنجو بكذبتها إذا حشدت فيها أكبر قدر من التفاصيل، فأضافت: إنها اشترت الخلخال بستة ريالات ونصف، وأنها دفعت للصائغ جنيها من ثمنه، ولم تتسلم منه سوى فردة واحدة من الخلخال، ثم عادت فى اليوم التالى.. فسددت له بقية الثمن، وتسلمت الفردة الأخرى، من دون أن تحصل منه على فاتورة الشراء.. وذكرت أن الخوف والارتباك والمفاجأة، كانت وراء زعمها بأن والدها هو الذى اشترى لها الخلخال..



فاتورة شراء خضرة محمد اللامى المباريم قبل وفاتها بقليل

إلى «حسنة العايقة» فى «دمنهور» فإن المحقق تنبه فجأة، إلى أن «أم أحمد» تحيط كاحليها بخلخال فضى، فطلب إليها أن تخلعه، فعارضت فى ذلك على نحو أثار ريبته، ثم خلعته بعد تردد شديد، وعلى نحو دعاه للشك فى أن وراءه سراً، وبعرضه على «حسن الشناوى» نفى أنه لزوجته، وقالت «أم أحمد» - رداً على سؤال المحقق حول مصدره - إنه خلخال قديم جداً، كان والدها الراحل اشتراه لها وهى طفلة صغيرة.. وهو مازاد من ريبة المحقق الذى لاحظ أن الخلخال حديث، فأمر بضمه إلى بقية مضبوطات «أم أحمد» وأرسل يستدعى أهالى الضحايا، ليعرضه عليهم، فإذا باثنين من أبناء «خضرة محمد

وحين طلب إليها المحقق أن تدله على شهود يعرفون بأن الخلخال ملك لها طالما أنها لا تحمل فاتورة تدل على شرائها له، ذكرت له اسم جارة لها، قالت بأنها اصطحبتها معها فى ذلك اليوم، لتستعين بخبرتها أثناء الشراء، وأن هذه الجارة، هى التى دفعت للصائغ مقدم الثمن من جيبها، بل وكانت معها عندما عادا فى اليوم التالى لتسديد القسط الثانى والأخير منه، واستشهدت بجارة أخرى، ذكرت أنها رأت الخلخال فى قدميها، حين اشترته قبل أربع سنوات..

لكن الجارتين اللتين استشهدت بهما كذبتاها، ونفت الأولى واقعة مصاحبتها لها عند الشراء.. وحين حاولت «أم أحمد» أن تستحثها للمصادقة على روايتها، قالت لها أمام المحقق:

- أنا ما أشهدش زور.. حرام ما حصلش..

ونفت الثانية أن تكون قد رأت الخلخال فى قدميها فى الوقت الذى تدعيه. وتخلى عنها الصائغ الذى ادعت أنها اشترت منه الخلخال، قائلاً انه يتعامل مع مئات من النساء كل يوم، ولا يستطيع أن يتذكر واقعة شراء يعود تاريخها إلى أربع سنوات مضت.. كما لا يستطيع أن يميز ما إذا كان هذا الخلخال قد بيع من دكانه، أو من دكان غيره، لتشابه كل الخلاخيل الفضية، بحكم أن هناك صائغين فقط تخصصا فى صناعتها، وفى توريدها إلى دكاكين كل الصياغ فى الاسكندرية.. ونفى ادعاء «أم أحمد» بأنه باع لها الخلخال من دون فاتورة شراء، قائلاً إن ذلك مستحيل، لأن المشترى يصر دائما على وزن ما يشتريه من مصوغات فضية وذهبية، لدى الوزانين الرسميين، لكى يطمئن إلى أن الصائغ لن يغشه فى الميزان، وبالتالى فى الثمن، وأن الورقة التى يحصل عليها من هؤلاء الوزانين، تقوم مقام الفاتورة. ولما كررت «أم أحمد» ادعاءها بأنه لم يعطها فاتورة، قال لها: أنت كذابة.

وبعد يومين من الاستماع إلى أقوال الشهود، انتقلت التحقيقات حول خلخال «خضرة محمد اللامى» من المحضر الفرعى إلى المحضر الرئيسى، ومن وكيل النيابة «على أفندى بدوى» إلى رئيسها «سليمان بك عزت» الذى احتفظ بها، إلى المرحلة النهائية للتحقيق، خاصة بعد أن أشار «محمد عبدالعال» - أثناء اعترافه - إلى أن مصاغ «خضرة» كان يتكون من زوج من الأساور وخلخال من الفضة.

وفى اليوم التالى لإعلان براءة «أم أحمد».. استدعى المحقق الشقيقتين، وعرض عليهما الخلخال فتمسكتا بالإعلان، وأنكرتا معرفتهما بالخلخال أو بصاحبته حتى بعد أن نبه المحقق «ريا» إلى ان ابنى «خضرة» قد تعرفا عليه وقالا بأنه لأمهما. ونفت «سكينة» أن تكون قد أعطت «أم أحمد» خلاخيل على سبيل البيع أو الهدية.. وحين استدعى «أم أحمد» ليواجهها بالواقعة، أصرت على أقوالها وأعادت تنسيقها لتزيل ما بينها من تضارب فذكرت أنها باعت الخلخال الذى اشتراه لها أبوها، وأضافت إلى ثمنه، واشترت الخلخال المضبوط، وبررت عدم تأييد

جارتيها لروايتها بخوفهما ورهبتهما من الموقف، وادعت ان الصائغ لم يكذبها، قائلة بأنه لم يتذكر الواقعة فحسب.

وحاول زوجها «محمد على القدوسى» أن يخرجها من عثرتها، فشهد بأنها قد اشترت هذا الخلخال بعد عودتها من القاهرة، حيث أمضت عدة شهور تعمل خادمة فى بيت أحد اليهود، وأضاف بأنها - بحكم عملها كدلالة - تشترى وتبيع أشياء من هذا النوع، بناء على طلب زبوناتها المتعاملات معها ومعظمهن من البغايا.. ودلل على ذلك بأن شرطياً يعمل بقسم شرطة المنشية، كان قد كلفها بشراء خلخال ليهديه لرفيقته، وأن فاتورة الشراء كانت بحافظة نقوده عند القبض عليه، ويمكن الرجوع إليها للتأكد من ذلك.

واختفت قصة الخلخال من أوراق التحقيق لمدة تزيد على أسبوعين، ساد الظن خلالها بأن المحقق قد فقد اهتمامه بها، خاصة وقد كانت هناك دلائل كثيرة بين أوراق التحقيق، تدل على أن أقارب الضحايا، يخطئون فى التعرف على ما عثر عليه فوق جثثهن من ملابس، لعدم معرفتهم الدقيقة لها، كما يخطئون - لنفس السبب - فيتعرفون على أشياء مما ضبط لدى المتهمين، ويجزمون بأنها تخص أقاربهم ثم يكتشف المحقق بعد ذلك، دلائل مادية تدل على عدم دقتهم، وعلى أن أوهامهم، تضللهم..

وجاء اكتشاف آخر جثة - فى يوم ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠ - ليثير اهتمام المحقق بقصة الخلخال من جديد، إذ ما كادت «ريا» تعترف - بعد يومين - بأنها جثة «خضرة محمد اللامى» حتى تشكك المحقق تماماً فى صحة أقوال ابنيها حول الخلخال، إذ كانا قد تعرفا - قبل شهر كامل - على ملابس إحدى الجثث العشر الأولى وشعر صاحبتها، وجزما بأنها جثة امهما. لكن «ريا» فاجأته، حيث ختمت هذا الجزء الجديد من اعترافها، بقولها انها ذهبت مع شقيقتها - صباح اليوم التالى لمقتل «خضرة» - لتبيعا مصاغها، فباعتا زوج الاساور، أما الخلخال، فقد تركته مع «سكينة» التى اعطته بعد ذلك لـ«أم أحمد النص»..

وأضافت «سكينة» انها كانت قد اقترضت القادوم الذى حفر به الرجال قبر «خضرة» من «أم أحمد» فلما ذهبت به إليها بعد عودتها من الصاغة، رأت الخلخال معها، فأخذته منها وتفحصته قليلاً، ثم احاطت به كاحلها وقالت لها: ده فالصو، فأكدت لها «سكينة» انه من الفضة.. وسألتها: ح تدفعى فيه كام ريال؟.. فقالت لها مازحة: أنت ح تأخدى منى فلوس.

ومع أن «سكينة» اكدت بان «أم أحمد» لم تكن تعرف - آنذاك - بأن صاحبة الخلخال قد قتلت، فقد جزمت بأنها عرفت هذه الحقيقة، أو على الأقل استنتجتها بعد ذلك التاريخ بأقل من شهرين، حين دخلت «نبوية بنت جمعة» بيتها مع الرجال، ولم تخرج منه، ولما سألت عنها «سكينة» قالت لها: اهى عندك تحت

الصندرة، فتجاهلت ذلك كله، ومدت يدها فأخذت ملاءة المرأة وبرقعها، الذى ضبط لديها.

ودهش المحقق حين ابدت «ريا» كل ذلك، فلما سألها عن «اعلان البراءة» الذى اصدرته قبل أسبوعين بحق «أم أحمد» قالت:

- أنا قلت الكلام ده، لانها وطت على رجلى باستها.. وقالت لى: أنا عندى ولدين ابرينى.. وربنا يساعدك على براءتك علشان بنتك.. فصعبت على.

وما كادت «ريا» تسحب إعلان البراءة الذى أصدرته بحق «أم أحمد» حتى تبعتها «سكينة» فعادت لتؤكد بأن زوجة «النص» قد تواطأت على إخفاء عملية مقتل «نبوية بنت جمعة» فى منزلها وأنها حصلت على برقع الضحية وملاءتها ثمناً لسكوتها، بل وتعرفت «سكينة» - كذلك - على أحد البراقع التى ضبطت بمنزل «أم أحمد» مؤكدة أنه برقع «نبوية» وأنها لابد وقد باعت الملاءة، أو بادلت عليها. وعندما واجه المحقق بين النساء الثلاث قالت «أم أحمد» للشقيقتين:

- ابرونى فى عرضكم.. أنا ما أخدتش منكم حاجة.

فردت عليها «ريا»:

- إنتْ مش بنت أكابر عشان ندّعوا عليكى بالزور.

وقالت «سكينة»:

- انت مش ح تبرينا عشان نشهدوا عليكى كذب.. واشمعنى ما اتهمتش «سيدة» جارتى.. هى صحيح أخدت اثنين جنيه من «حسب الله» يوم «فاطمة العورة» لكن ماشافتش حاجة.. أما انتى فأخذت وأنت شايفة وفاهمة أخدت ليه.

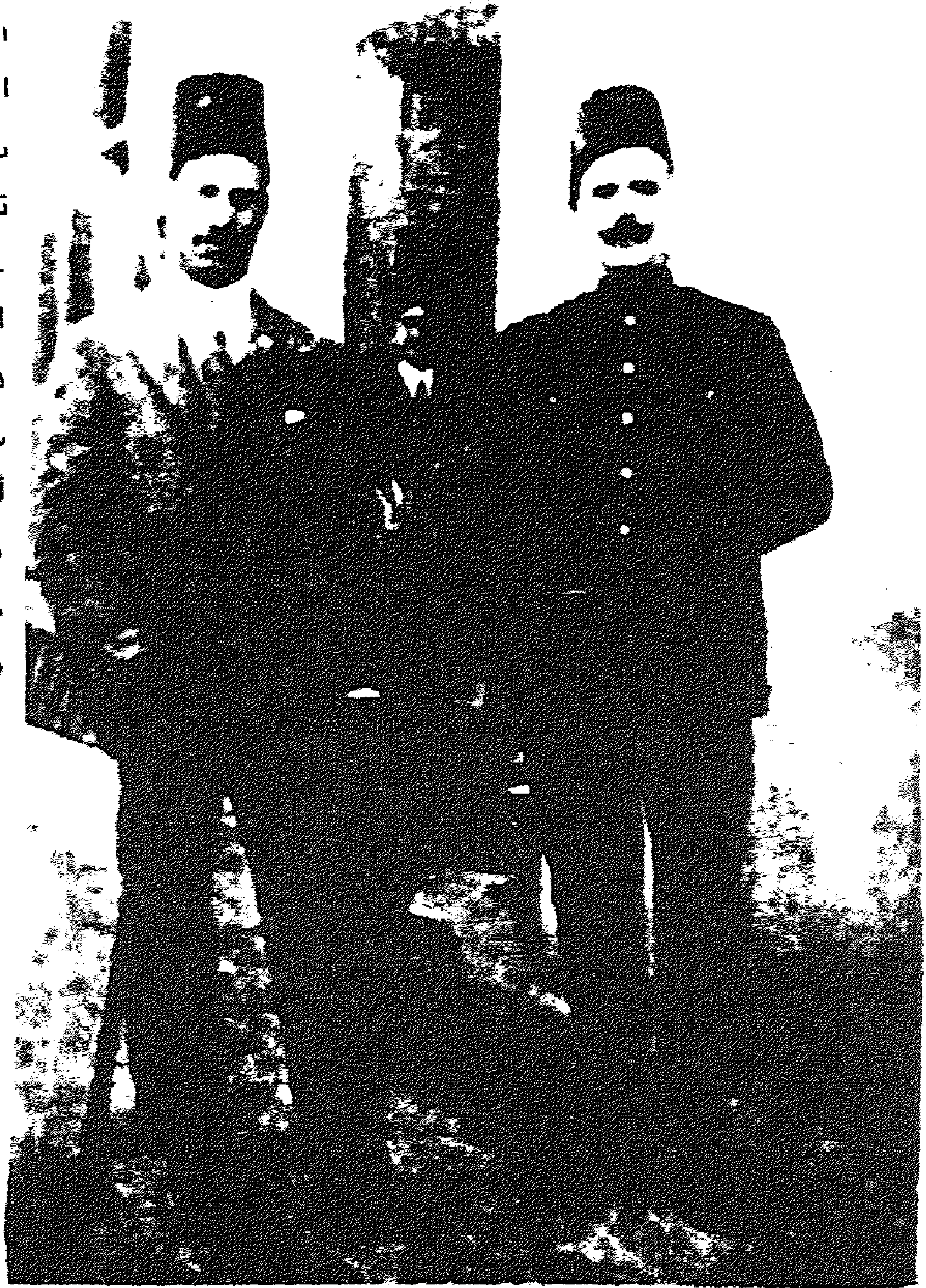
وللمرة الثانية حاولت زوجة «النص»، أن تعتمد على شهامة إحدى جاراتها من البغايا الساكنات فى «حارة النجاة» فادعت أن البرقع لها، وأنها رهنته لديها، لكن الجارة تخلت عنها ونفت أن يكون بينها وبين «أم أحمد» معاملات من أى نوع وختمت شهادتها قائلة:

- احلف بسورة براءة، وبالمصحف الشريف، انى ما رهنت عندك شىء.

وكان من حسن حظ «أم أحمد» أن زوج «نبوية بنت جمعة» لم يتعرف على البرقع حين عرض عليه. وقالت شقيقة القتيلة، بأنها لا تعرف شيئاً عنه. وبذلك لم يعد البرقع يصلح لأن يكون دليلاً على صحة الاتهام الذى وجهته إليها الشقيقتان بشأنه. لكن الأمر لم يكن - كذلك - فيما يتعلق بخلخال «خضرة محمد اللامى» الذى ضبط فى قدميها، وتعرف عليه أبناء القتيلة وأكدوا بأنه الخلخال الذى كانت تتزين به أمهم فى اليوم الذى خرجت فيه بلا عودة.

وهكذا بات محتماً على «أمينة بنت منصور» أن تتخبط كالطير الذبيح وهى تحاول العثور على شاهد يؤكد ادعاءها بأن الخلخال خلخالها وليس خلخال «خضرة». أما وقد تخلت عنها جاراتها وصديقاتها، فقد حاولت أن تستعين بشقيقاتها، لكنهن

ابواب قلوب إخوتها الذكور، خاصة بعد أن نشرت الصحف أنباء تؤكد أن الدليل الوحيد على اتهامها هو الخلخال المضبوط فى قدميها، فضغطوا على شقيقاتهن فوافقن - أخيراً - على التواطؤ معها، وعلى تأييد رواية ساذجة ألفتها، تقول بأن الخلخال هو ملك لابنة واحدة منهن، وأن الفتاة قد بادلت خالتها عليه، بخلخال آخر، بل وحاولن الحصول على فاتورة مصطنعة تدل على شراء الخلخال باسم ابنة الأخت.. فذهب وفد منهن إلى الصائغ الذى يتعاملن معه، وحاولن إيهامه بأنه قد باع للفتاة خلخالاً، ثم ضاعت فاتورته منها، وطلبن منه أن يستخرج لهن صورة منها، لكن الصائغ - كغيره من باعة المشغولات الذهبية فى الاسكندرية التزم جانب الحذر، واعتذر بأنه لا يستطيع أن يستجيب لطلبهن قبل أن يعود إلى دفاتره ليتأكد أولاً أن الفاتورة مسجلة بها، وأضاف أن حكمدارية الشرطة قد جمعت كل دفاتر الصياغ فى المدينة، تخلين عنها، ورفضن أن يؤيدن تفسيراتها المتضاربة لسبب حيازتها لهذا الخلخال.. وأكدن جميعاً بأنهن قد قطعن كل علاقة بينهن وبينها، بسبب «مشيها البطال» وسمعتها السيئة وما ترتكبه من مساخر، وتديره من محاشش وبيوت دعارة.


كمال نامى مأمور قسم شرطة اللبان، وعلى بك بدوى وكيل النيابة

ويبدو أن استغاثات «أمينة بنت منصور» المتواصلة، قد طرقت - أخيراً -

لكى تستخرج منها قائمة بمشتروات ومبيعات أفراد عصابة «ريا» و«سكينة» من المشغولات الذهبية والفضية، وبالتالى فلابد من الانتظار حتى تعود الدفاتر إليه، أو طلب صورة من حكمدارية الشرطة، التى تحوذ الدفاتر..

وفى اليوم المحدد لاستئناف التحقيق مع «أم أحمد» وجدت شقيقاتها ينتظرنها . لأول مرة منذ حبسها . فى باحة قسم شرطة اللبان، وقد جئن معهن بإفطار تناولنه سوياً، وتداولن أثناء ذلك فى التنسيق بين أقوالهن حول الواقعة الجديدة. لكن الرياح أتت بما لا تشتهى السفن، إذ كان المحقق قد أرسل يستدعى «ريا» و«سكينة» لكى يعرض عليهما «شفيقة بنت فتيان نمر» . التى كانت ماتزال تنكر معرفتها بـ«عرابى» . ومع أنهما توقعتا أن تتجاهلهما «أم أحمد النص» بسبب تراجعهما عن إعلان البراءة، فقد خيبت المرأة توقعاتهما، وتصرفت كما يليق بـ«دلالة» لا تريد أن تخسر أحداً، ولا تيأس من استجلاب ود الآخرين، فلم تكتف بالسلام عليهما، بل وأعطتهما ما كان قد تبقى من الفطائر التى جاءت بها شقيقاتها، ودعتهما لاحتساء كوبين من الشاى على حسابها، لعل ذلك يخجلهما فتكفان عن سعيها لإثبات التهمة ضدها..

وحين مثلت أمام المحقق فأعاد سؤالها حول الخلخال الذى ذكرت «سكينة» بأنه خلخال «خضرة» وبأنها أعطته لها فى اليوم التالى لمقتل صاحبته، أنكرت «أم أحمد» ذلك، وبدأت على الفور تبث الطبعة الجديدة من أقوالها التى ظنتها عصية على التكذيب، فقالت انه خلخال ابنة اختها، وانها بادلتها عليه بخلخال آخر كانت تملكه. ومع أن المحقق عبر لها عن دهشته لأنها لم تقل ذلك منذ بداية التحقيق، فقد أرسل يستدعى «سكينة» لكى يواجهها بها.

وما كادت ابنة «على همام» تسمع الادعاء الجديد جتى استنتجت بذكائها اللماح موضوع الاجتماع الطارىء الذى عقدته «أم أحمد» مع شقيقاتها قبل دخولها على المحقق. ولم تضع أى اعتبار لكوب الشاى وقطعة الفطير، وأبلغت المحقق بما شاهدته.. وبعد دقائق كان أحد الجنود يدفع أمامه شقيقات «أمينة» اللواتى فوجئن بطلبهن للادلاء بأقوالهن قبل أن يحفظن نص الشهادة، ولم يستطعن أن يبررن وجودهن فى ديوان قسم الشرطة فى ذلك اليوم.. وعندما باغتهن المحقق بالسؤال عن قصة الخلخال، تناقضت رواية كل منهن مع رواية الأخرى، أو مع رواية «أم أحمد» نفسها، وما لبث الصائغ الذى ذكرن اسمه أن روى المحاولة التى بذلنها للحصول على فاتورة مصطنعة تثبت شراء الخلخال باسم ابنة الاخت، وبذلك انكشف الملعوب كاملاً أمام المحقق الذى قال لهن فى ختام التحقيق:

ـ يظهر أنكم قريتم الجرائد وافتكرتم أن الدليل الوحيد على «أمينة» هو الخلخال.. فاتفقتم على تلفيق هذه الرواية.. لكن كلامكم كله مش ماشى مع بعضه.

....

....

ومع أن موقف «أبو أحمد النص» فى التحقيق، كان أفضل من موقف زوجته، إذ لم يتهمه أحد بالحصول على شىء من متعلقات الضحايا مقابل الصمت على جرائم القتل، بل وجزم المعترفون الأربعة من «آل همام» بأنه لم يتنبه إلى شىء مما جرى يوم مقتل «نبوية بنت جمعة»، فقد كان عليه أن يدفع ثمن حالة الريبة التى شاعت بين كل الذين يتعاملون مع المتهمين فى قضية «ريا» و«سكينة» فدفعتهم إلى اعادة تفسير كل سلوكهم، السابق على ضوء ما تكشف من جرائمهم، وأن يدفع ـ كذلك ـ ثمن رغبته العارمة فى التفاخر، لكى يتغلب على احساسه العميق بالفشل.

وهكذا ما كاد «محمد على القدوسى» يدخل السجن، حتى تذكر صاحب مخبز من جيرانه يدعى «على فهمى» أنه كان يحاول إغراءه خلال الأسبوعين السابقين بالتردد على محششته وحده بعد منتصف الليل. فأعاد تفسير الواقعة، على ضوء اكتشاف جثتين، واحدة فى المنزل الذى يقع فيه دكان «النص» وتسكن فيه مطلقته، والثانية فى المحششة التى كانا يديرانها.. وجزم بأن «النص» كان يخطط لاستدراجه إلى المحششة، لقتله والاستيلاء على نقوده وما كان يتزين به من مصوغات ذهبية.

واذاع استنتاجه ذلك بين أقاربه وأصدقائه وجيرانه، حتى وصلت الواقعة إلى أحد محررى جريدة «الأهالى» . وهى جريدة يومية كانت تصدر بالإسكندرية آنذاك . فنشرتها فى يوم الأربعاء ١٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠..

ولفت نشر الواقعة بالصحف نظر الصاغ «محمد كمال نامى» ـ مأمور قسم شرطة اللبان ـ الذى كان يقوم باجراء التحريات عن جرائم «ريا» و«سكينة» فاستدعى صاحب المخبز وسأله عن تفاصيلها، وناقشه فيها، ثم أقنعه بأهمية أن يدلى بأقواله بشأنها أمام رئيس النيابة «سليمان بك عزت».

وكان «على فهمى» رجلاً فى الأربعين من عمره، ونموذجاً لنمط اجتماعى يبرز عادة فى أعقاب الحروب. فمنذ كان فى الخامسة عشرة من عمره وهو يعمل مع أبيه فى المخبز الصغير الذى كان يملكه فى شارع «سيدى اسكندر» فى قلب حى البغاء.. فاندفع منذ مطلع مراهقته يصادق البغايا وينفق عليهن كل ما يكسبه، ويتردد مع أصدقائه على الخمارات والمحاشش، إلى أن مات أبوه على مشارف الحرب، وورث عنه المخبز، فشعر بالمسئولية، وأخذ يهتم بعمله، وقلص من نشاطه على «جبهة الخبص».

وما لبثت سنوات الحرب أن اثبتت أنها كانت ـ بالنسبة له ولأمثاله ـ سنوات عز ورخاء. فقد قل ما كانت البلاد تستورده من أوروبا من الغلال، فارتفعت أسعارها

فى الأسواق إلى أرقام فلكية، حتى وصل سعر أردب القمح إلى خمسة جنيهات، وهى ثمن قنطار القطن قبل الحرب. وارتفع سعر أقة الدقيق إلى ثمانية قروش واستفاد الطحانون وأصحاب المخابز من الأزمة، فأخذوا يخلطون الدقيق بالنخالة ثم بالذرة والشعير والفول والأرز، وأخيراً أصبحوا يخلطونه بالبطاطا..

وهكذا ما كادت سنوات الحرب تنتهى حتى ارتفع رأسمال «على فهمى» إلى ثلاث آلاف جنيه، وارتفع متوسط ما يربحه إلى مائة جنيه، وهو ما أغراه بالعودة تدريجياً لاستئناف نشاطه فى مجال «الخبص» مع تغيير يتناسب مع مكانته الجديدة فاتجه إلى أحياء البغاء الراقية فى «المنشية» و«العطارين». وحرص دائماً على أن يرتدى ملابس أنيقة، ويتزين بمصوغات كثيرة، فاشترى ساعة وكتينه وخاتماً من الذهب، وآخر من الماس، وحرص على ألا يفرط فيما يتزين به من الذهب، فلم يبعه أو يرهنه، حتى فى المرات القليلة التى تعرض فيها لأزمات مالية، إذ كان لشغفه الشديد بالنساء، يعتقد أن تزينه بالذهب، إعلان عن ثرائه، يساعده على مشاغلتهن، وييسر عليه سبل اقتناصهن.

ولم تفت دلائل الثروة التى يتمتع بها «على فهمى» على «أبو أحمد النص» الذى تعرف عليه، وتعامل معه، منذ انتقل للسكن بـ«حارة النجاة»، التى يقع الفرن على ناصيتها. وعندما هجر



الكونستابل الإنجليزي ليز الذي أشرف على حفر بيوت آل همام

«النص» مهنته الأصلية كـ«عربجى» وفتح دكانه، بدأ يستورد الخبز الذى يبيعه به من الفرن. وعندما توسع فافتتح المحششة بدأ يلح على «على فهمى» بأن يشرفه بزيارة مؤكداً له أن لديه أفخر أصناف الحشيش. فاستجاب الرجل لإلحاحه، ولكنه فضل أن تكون زياراته فى وقت متأخر من الليل، بعد أن ينفض سيل الرواد، حفاظاً على مكانته الاجتماعية، وحتى تقتصر الجلسة عليه، وعلى أصدقائه الحميمين.

ومع أن المكان بدا له مقبضاً وقذراً وسيء التهوية، على نحو لا يشجع على مواصلة التردد عليه، فقد كان «على فهمى» سخياً مع «النص» وأعطاه بقشيشاً يصل

إلى نصف ثمن الحشيش الذى دخنه، وهو ما دفعه لمواصلة الالحاح عليه، لكى يستمر فى زياراته الكريمة للمحششة، فاستجاب له عدة مرات.

ولما طال انقطاعه استأنف «النص» الحاحه، ولكن مع تغيير طفيف فى نغمته، فكان يقول له:

ـ يا أخى انت بطلت تيجى عندنا ليه؟.. احنا بيجينا نسوان كويسة.. بس تعال انت بعد نص الليل لوحدك.. واحنا نبسطوك..

ولأن المكان كان مقبضاً وعاطلا عن الزينة التى تعوّد أن تحيط به منذ عرف «الخبص» فى بيوت الدعارة التى يديرها الأجانب، فإن «على فهمى» لم يستجب للدعوة، ولم يسترب فيها، ولم يتوقف طويلاً أمام اصرار «النص» بأن يأتى وحده، من دون أن يصطحب أحد من أصدقائه، وفسر إلحاحه برغبة فى خدمته، وطمعه فى كرمه.. إلى ان انفضح المستور، وظهرت الجثث وبدأت الاشاعات تتردد بين الناس حول أساليب العصابة فى اقتناص ضحاياها، فأيقن أن دعوة الرجل لم تكن بريئة، وأن اصراره على أن يكون وحده دون أحد من أصدقائه كان في محاولة لاستدراجه، تمهيداً لقتله والاستيلاء على ما يتزين به من مصوغات..

وكان يمكن أن يهمل المحقق الواقعة التى استمع إلى تفاصيلها من صاحبها، خاصة بعد أن نفى «على فهمى» ـ رداً على سؤال منه ـ أن يكون قد التقى ـ أثناء تردده على المحششة ـ بأحد من المتهمين الستة الرئيسيين الذين كانوا يقومون بالقتل، ولأن التحقيق كان قد أوشك على الانتهاء وثبت منه أن العصابة كانت تختار ضحاياها من النساء لا من الرجال، ولأن أحدا من المتهمين المعترفين لم يكن قد اتهم «النص» بالمشاركة فى القتل، الذى لا يستطيع أن يقوم به وحده، بسبب قصر قامته وضآلة حجمه وهو ما دفع الناس لتسميته بـ«النص».. لكن عقد النقص التى كانت تقود «النص» إلى التباهى والاستعراض الكاذب، دفعته إلى تصرف أحمق، أكد استنتاج صاحب المخبز بأن له صلة بعملية القتل، وأدخله لأول مرة ـ منذ القبض عليه ـ فى دائرة الشك.

ولأن المحقق لم ينظر بجدية إلى بلاغ صاحب المخبز فإنه لم يجد ضرورة لسرعة استدعاء «النص» من السجن، لكى يواجهه بأقواله، وأجل ذلك إلى يوم الأحد ١٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠، الذى كان محددا من قبل لنظر معارضته فى أمر النيابة بحبسه احتياطياً، أمام قاضى محكمة اللبان الجزئية.. وما كادت الجلسة تنتهى بموافقة القاضى على مد حبسه لمدة أربعة عشر يوماً أخرى، حتى طلب رئيس النيابة من الشرطة، اقتياده إلى ديوان قسم شرطة اللبان، لكى يحقق معه فى البلاغ، وليواجهه بصاحبه. ولأن المسافة بين المكانين لم تكن كبيرة، فقد اصطحبه الشرطى المكلف بحراسته إلى القسم سيراً على الأقدام.. وما كادا يصلان إلى «البياصة» على مبعدة قليلة من «حارة على

بك الكبير» حتى التف حولهما الأطفال يصيحون «النص اهو.. النص اهو» وتوقف «النص» امام «قهوة الحصرى»، وارسل ابنه الصغير الذى لحق به عقب مغادرته المحكمة - لكى يشترى له عدة أقراص من الطعمية وبعض أرغفة الخبز لكى يتناول افطاره..

واثناء ذلك غادر أحد جيرانه، مكانه من المقهى، وتوجه نحوه ليسأله - على سبيل المجاملة والفضول - عن أحواله. ولابد أن «النص» كان آنذاك فى ذروة احساسه بالعظمة، بسبب ما حققته له القضية من شهرة مدوية، جعلته محط الانظار، ودفعت كثيرين ممّن كانوا يستصغرون شأنه للاهتمام به، وللسعى إليه، والاحتشاد حوله، فما كاد الرجل يسأله:

- ازيك يا «نص»؟.. عملت ايه فى المحكمة.

حتى قال له بغموض متعمد، يوحى بأنه يعرف الكثير:

- أنا لسه مصمم ع الانكار.. إذا كانوا سابوا الرؤوس الكبيرة بتاعة العصابة.. أنا كمان مش راح نقولوا حاجة عشان نطلعوا نربوا العيال..

ولم يكن «النص» - حين قال ذلك - يعرف السبب الذى جعل رئيس النيابة يعيد استدعاءه للتحقيق معه. أما وقد عرفه، فقد بذل مجهوداً كبيرا لمحاولة إثناء «سى على» - صاحب المخبز - عن شهادته ضده، مؤكداً أن المحششة كانت قد أغلقت لعدة أسابيع، بعد أن هاجمتها الشرطة، ثم أعيد افتتاحها، فأراد أن يلفت نظر «سى على» - باعتباره من زبائنها - إلى أنها قد استأنفت نشاطها - ونفى أن يكون قد ذكر له شيئاً عن النساء، إذ كانت «ريا» و«سكينة» قد غادرتا «حارة النجاة» فى تلك الفترة، فكفت البغايا عن التردد على البيت المواجه لبيته، ولم يعد هناك مجال للحديث عن النساء. ولكن صاحب المخبز أصر على روايته، وشهد أصدقاء له، بأنهم سمعوها منه، فى أعقاب اكتشاف الجثث بمنزلى حارة النجاة، وأنه كان يحمد الله الذى ألهمه رفض دعوة «النص» والا لدفن إلى جوار «حجازية» فى أرضية غرفة المحششة.

وحين فشل «النص» فى استجلاب عطف صاحب المخبز عليه، ندد به أمام المحقق، وزعم بأن هناك ضغائن قديمة بينهما، لأنه كان على رأس الذين هاجموا - قبل ثلاثة أعوام - المخبز الذى يملكه، حين أخفى الدقيق الذى يحصل عليه من مصلحة التموين لكى يتلاعب فى سعر الخبز..

وكان لايزال يواصل الدفاع عن نفسه أمام رئيس النيابة حين دخل «أحمد العاجز» - عصر اليوم نفسه - إلى «قهوة الحصرى» حيث تعود أن يمضى وقته بها، فوجد الرواد يتحدثون عن التصريحات الخطيرة التى أدلى بها «النص» فى الصباح، ويتناقلون قصة محاولته استدراج صاحب المخبز، التى كانت جريدة «الأهالى» قد نشرتها قبل ثلاثة أيام.

ولأن معظم رواد المقهى، كانوا من العربجية، فقد كان كثيرون منهم، يعرفون «النص» باعتباره زميلاً سابقاً لهم فى المهنة، أو جليساً سابقاً فى المقهى نفسه، فاتخذوه موضوعاً لسمرهم، وتحدث واحد منهم عن الصعايدة الغامضين الذين اجتمعوا مع «النص» يوماً، وتهامسوا معه، ثم علت أصواتهم واشتبكوا معه فى مشادة لا يعرف أحد - على وجه الدقة - سببها، انتهت بتحطيم عدد من الأكواب والفناجين.. وحين احتج صاحب المقهى، أخرج أحدهم من جيبه خمسة جنيهات كاملة، وترك له نصف جنيه منها ثمناً لعدة أكواب لا يتجاوز ثمنها قروشاً قليلة.

وتحدث آخرون عن إعلانه فى أحدى جلساته بالمقهى قبل القبض عليه بأسابيع قليلة، بأنه سيشترى عربتى حانطور، وستة خيول ويستأجر اثنين من العربجية لكى يعملا عليهما، وأن النقود التى تكفى لشراء ذلك، بل ولشراء «رشمة» ذهب للخيول الستة، جاهزة الآن فى محفظته.. وقال عربجى يدعى «حنا يعقوب حكيم» انه كان يبيت فى نفس المنزل، الذى يقيم به «النص» وزوجته، وشاء حظه العاثر أن يرى بعينيه اللتين سيأكلهما الدود، المرأة التى قتلت فى البيت ورأى الذى قاموا بقتلها، ولكنه يخشى أن يتكلم بما يعرف حتى لا «تمطرقه» العصابة.

ولم يكن للناس حديث فى تلك الأيام سوى وقائع «ريا» و«سكينة» فكانوا يعيدون رواية ما تنشره الصحف منها، ويتبادلون ما يعرفونه عن أفراد العصابة، وخاصة فى مقاهى حى اللبان التى جرت الأحداث على مسرحه، فإذا نفذ مخزونهم من الروايات، وفقدت ما بها من إثارة، أضافوا إليها من خيالهم ما يجعلها أكثر تشويقاً، وما يشد إليها آذان السامعين.

وشاء سوء حظ «أحمد النص» أن يكون «أحمد العاجز» من بين الذين استمعوا إلى مسامرة رواد مقهى «الحصرى» فى ذلك اليوم، فكان منطقياً أن يكون الوحيد من بينهم الذى أخذ الكلام مأخذ الجد، ووجد فيه فرصة نادرة لكى يستكمل دوره التاريخى باعتباره صاحب أول حفرية أسفرت عن اكتشاف أول ضحية من ضحايا «ريا» و«سكينة»، خاصة وأن الأضواء كانت قد خفتت من حوله، بعد أن توالى اكتشاف الجثث، فحاول أن يستدرج «حنا» لكى يروى له تفاصيل مشهد القتل الذى رآه، لكن الرجل كان قد تنبه إلى أنه قد تكلم أكثر مما ينبغى، فتهرب من الإجابة على أسئلته.

وفى اليوم التالى كان «أحمد العاجز» يعيد رواية كل ما سمعه فى المقهى أمام رئيس النيابة الذى سجل أقواله فى محضر التحقيق، ثم أرسل يستدعى صاحب المقهى الذى أعاد رواية الوقائع على النحو الذى يليق بمحضر تحقيق جنائى، فجردها من المبالغات والأكاذيب، ونفى أنه سمع الكلام الذى نقل عن لسان «النص» وهو فى طريقه من المحكمة إلى القسم. وأضاف أن «النص» معروف فى المقهى بنفخته الكاذبة، وبأنه كان يغطى فقره بادعاء الثراء، وفسر ادعاءه بأنه سيشترى عربتين وستة

لحصته، بالغيرة من زميله «حنا يعقوب» الذى كان قد باع آنذاك عربة قديمة وحصاناً عجوزاً تمهيداً لاستبدالهما بآخرين أكثر جدة وشباباً..

وهو ما أيده «حنا» الذى قال بأن «النص» كان يحسده، لأنه كان لايزال يعمل بنجاح بالمهنة التى فشل فيها واعتزلها، ويقول له كلما رآه:

- امتى نشوفك مفلس وتقعد قعدتنا.

ونفى «حنا» تماماً أن يكون قد سكن فى بيته، أو رأى واقعة مقتل المرأة التى عثر على جثتها فيه، لكنه أضاف واقعة تشبه الواقعة التى رواها صاحب المخبز، فقال بأن «النص» أخذ يتقرب إليه، فى الفترة التى باع فيها حصانه وعربته، ويحاول استدراجه إلى بيته، وانه كان يقول له بينما هما يلعبان الطاولة فى المقهى:

- يا أخى نفعنا بحاجة.. أنت كده زى القرع.. عروقه دايما بره..

فقرر أن يجامله بزيارة المحششة واصطحب صديقاً له، وذهبا إليه. وكانت الساعة لم تتجاوز الثامنة، فاعتذر لهما بأنه اطفأ النار.. وفى اليوم التالى قابله فى مدخل الحارة، ومع أن الساعة كانت قد اقتربت من منتصف الليل، فإنه ما كاد يتأكد أنه وحده، حتى ألح عليه فى زيارة المحششة، مبدياً استعداده لكى يشعل النار خصيصاً من أجله.. ولكن شيئاً خفيا ألهمه أن يرفض الدعوة.

وهكذا احاطت علامة استفهام كبيرة بالدوافع التى تقف وراء محاولة «النص» استدراج الرجال الاثرياء إلى المحششة منفردين بعد منتصف الليل.. ما لبثت أن قادته إلى قفص الاتهام.



وأخيراً - وبعد شهرين.. من التحقيق المتواصل - صدر فى ١٣ يناير (كانون الثانى) ١٩٢١، قرار الاتهام فى قضية الجناية نمرة ٤٣ لسنة ١٩٢٠ قسم شرطة اللبان، ليشمل عشرة متهمين فقط من بين أكثر من عشرين متهماً، قبض عليهم وحبسوا على ذمة التحقيق، وليوجه تهمتى القتل العمد مع سبق الإصرار والسرقة، إلى سبعة منهم هم «ريا على همام» و«سكينة على همام» و«حسب الله سعيد مرعى» و«محمد عبدالعال» و«عرابى حسان» و«عبدالرازق يوسف» و«سلامة محمد الكبت» وتهمة الاشتراك بالقتل عن طريق التسهيل والمساعدة، إلى «أمينة بنت منصور» وزوجها «محمد على القادوسى» - الشهيرين بـ«أبو أحمد وأم أحمد النص» - وأخيراً تهمة اخفاء مصوغات مسروقة مع العلم بذلك إلى المتهم العاشر «على محمد حسن» صائغ العصابة.

وأرفق رئيس النيابة بتقرير الاتهام قائمة بأسماء ٣٤ من شهود الاثبات، تضم كل الذين استطاع المحقق أن يجد فى أقوالهم دليلاً أو قرينة على واحد أو أكثر من المتهمين، بينهم سبعة شهود من أقارب

وأصدقاء الضحايا وواحدة فقط من أهالى المتهمين، هى «زنوبة بنت أحمد هلال»ـ زوجة «حسب الله» ـ التى شهدت ضده وضد «عبدالعال».

ومع أن المتهمين الأربعة الرئيسيين كانوا قد اعترفوا بارتكاب الجرائم، فقد اتخذ المحقق احتياطاته لاحتمال ان يتراجعوا عن اعترافاتهم أثناء المحاكمة، فاحتفظ باسماء ستة شهود ضد كل من «حسب الله» و«سكينة» وشاهد ضد «عبدالعال» وثلاثة شهود ضد «ريا»، بينما كان نصيب المتهمين المنكرين من الشهود أوفر، إذ كان هناك عشرة شهود ضد «عرابى» وستة ضد «عبدالرازق» وأربعة ضد «سلامة» وأربعة ضد «أبو أحمد النص».

والغالب أن المحقق، قد وقع تحت ضغط من رؤسائه، لكى يحيل القضية بحالتها إلى المحكمة، لاغلاق ملف «ريا» و«سكينة» بعد أن فاحت روائح زكمت كثيراً من الأنوف، وفتحت ملفات أخرى كثيرة حول كفاءة جهاز الشرطة، ومدى انتشار الرشوة والفساد والأهمال والتسيب بين العاملين فيه، وحتى تتوقف حالة الرعب التى ملأت أنحاء البلاد فى أعقاب العثور على الجثث. ولعله هو نفسه كان قد سئم من مواصلة التحقيق فى قضية اضطرته لنبش القبور وللاقتراب من روائح نتنة لحياة نتنة وممات نتن، فوافق على أن يطوى الملف من دون أن يستكمل تحقيق بعض النقاط الهامة به.

وكان من بين هذه النقاط أنه لم يحاول تدقيق اسماء الضحايا، بل وتعامل معهن باهمال لا يخلو من الازدراء وباعتبارهن مجرد دليل فى قضية، من دون أن تكون لهن أهمية فى حد ذاتهن، فسرد قرار الاتهام الاسماء الأولى لخمس منهن مقرونة بصفة «مجهولة اللقب» استناداً إلى اعترافات «ريا» و«سكينة» عنهن.

وصحيح أن معظم الضحايا كن من المهاجرات الفقيرات الهاربات من أهاليهن. واللواتى لا يعرف أحد لهن أسرة، أو بلداً، وأن بعض أسر الضحايا اللواتى عرفت اسماؤهن الكاملة، قد تنصلت منهن بعد اكتشاف جثثهن، اتقاء للفضيحة وازدراء لميتتهن الخالية من أى شرف أو كرامة، ولكن من الصحيح كذلك أنه كان باستطاعة المحقق، بمجهود أضافى ان يتوصل إلى معلومات تكشف عن اسمائهن الحقيقية فسواء كان الموت فى الكرخانة، أو كان فى ساحات القتال فإن اثباته قانوناً هو واجب على السلطات النظامية.

ولعل الرغبة فى انهاء التحقيق، والتسرع فى ذلك، هى التى أدت إلى وقوع خطأ مادى فاحش فى صياغة قرار الاتهام لم ينتبه إليه أحد فى كافة مراحل التقاضى التالية، فقد أحصى القرار عدد الضحايا بسبع عشرة ضحية، وهو رقم صحيح، تؤكده تقارير الطب الشرعى، التى جزمت بالعثور على اثنتى عشرة جثة فى منزل «ريا» وثلاث فى منزل «سكينة» وواحدة فى كل من غرفة «المحششة» ومنزل «أم أحمد».. لكن القرار أخطأ حين اعتبر «زنوبة» و«حجازية» اسمين لامرأتين

مختلفتين، مع أن الثابت فى التحقيق، هو أن «حجازية» هو اسم الشهرة لـ«زنوبة»، أما الضحية السابعة عشرة، التى لم يرد اسمها فى قرار الاتهام، فهى امرأة مجهولة الاسم ومجهولة اللقب قالت «ريا» فى اعترافاتها، أن «عرابى» جاء بها ذات صباح من «سوق السبتية»، وكانت تحمل معها مقطفاً مليئاً بالفلفل الأخضر، التهمه الرجال اثناء احتسائهم الخمر، قبل أن ينقضوا على المرأة فيقتلونها..

وإذا كان يمكن تبرير هذا الخطأ بالسهو، فإن اهمال ادراج اسم «بديعة حسب الله» ضمن قائمة الشهود، لم يكن - بالقطع - سهواً، وعلى عكس الخطأ الأول، فقد تنبه محامو الدفاع عن «عرابى» و«عبدالرازق» إلى الخطأ الثانى، واتخذوا منه - فيما بعد - ذريعة للطعن أمام محكمة النقض على الحكم الذى صدر فى القضية.

والغالب أن المحقق قد استبعد اسم «بديعة» من قائمة شهود الإثبات لخشيته من أن تغير الفتاة أقوالها أمام المحكمة، كما فعلت، أكثر من مرة، أثناء التحقيقات.. خاصة حين تشاهد أمها وأباها فى قفص الاتهام.. وتجد نفسها وجهاً لوجه أمامهما، وهو ما كان المحقق حريصاً على توقيه، حتى لا يؤثر ذلك على الفتاة فيدفعها للعدول عن شهادتها، ولعله قدر أن اعتراف بقية «آل همام» بما ورد فى أقوال «بديعة» يعطيه الحق فى استبعادها من القائمة، وهو تقدير كان يمكن أن يكون صحيحاً لولا أن شهادة الفتاة قد شملت اثنين من المتهمين المنكرين. هما «عبدالرازق» و«عرابى». فضلاً عن أنه تجاهل الاحتمال الذى كان قائماً بقوة، بأن يعود المتهمون المعترفون إلى إنكار اعترافاتهم أمام المحكمة.

وجاء إهمال التحقيق فى قائمة حركة تداول المتهمين للمصوغات وقائمة الحوالات المالية التى أرسلوها - بالبريد - من الاسكندرية، إلى أقاربهم بمختلف بلاد القطر، ليكون الخطأ الثالث والكبير، الذى ترتب على الرغبة فى التعجيل بإغلاق ملف القضية.

وكان «سليمان بك عزت»، قد أمر - بمجرد إحالة التحقيق فى القضية إليه - بالتحفظ على دفاتر وزانى المصوغات المتداولة فى الصاغتين الكبرى والصغرى بالاسكندرية. وكلف فريقاً من موظفى المحافظة، بالبحث فيها عن أسماء المتهمين، واستخراج بيان بما قام كل منهم ببيعه أو شرائه من المصوغات، يشمل نوع المصاغ ووزنه وثمنه وتاريخ بيع المتهم أو شرائه له، خلال الفترة الواقعة بين بداية عام ١٩١٨ وحتى اكتشاف الجرائم والقبض على المتهمين فى النصف الثانى من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠، ليضاهى بين بيانات البيع وبين ما لديه من بيانات عن أوصاف ما كانت تتزين به الضحايا من مصوغات، وليكتشف من بيانات الشراء حجم ثراء المتهمين.. وهو ما دفعه - كذلك - لكى يطلب من مصلحة «البوستة» بياناً بالحوالات المالية، التى قام المتهمون

بتصديرها من مكاتب البريد بالاسكندرية، إلى مختلف بلاد القطر، يشمل - فضلاً عن اسم المرسل وتاريخ الإرسال - قيمة النقود، واسم المرسل إليه وبلده.

ولعل المحقق، لم يكن يقدر مدى صعوبة المهمة، التى تطلبت - لتنفيذ شقها الأول - فحص ثلاثة آلاف دفتر من دفاتر وزانى المصوغات ومراجعة ما يزيد على ٣٢٢ ألف اسم ما بين بائع ومشتر، وانتهت - بعد ذلك كله - إلى قائمة طويلة، يصعب الأخذ بها كدليل اتهام، إذ كان العمل بالصاغة يجرى على اعتبار «علم الخبر» عن وزن المصوغات من المستندات التى يطلبها المشترى أو البائع لإثبات حقه، فهى تحرر على مسئوليته واستناداً إلى البيانات التى يدلى بها للوزان، ومن دون أن يتحقق أحد من صحتها، ونتيجة لذلك، فإن القائمة لم تشمل فحسب اسماء المتهمين، بل وشملت كذلك الأسماء القريبة من اسمائهم، أو المشابهة لها، لاحتمال ان يكون الوزان قد أخطأ فى سماع الاسم - أو فى كتابته - تحت ضغط العمل، أو ان يكون الخطأ قد وقع من طالب المستند نفسه، وهكذا ورد اسم «سكينة» مرة باسم «سكينة بنت على» وأخرى «سكينة أم على» وثالثة «سكينة بنت همام»، من دون أى دليل إضافى، يمكن الاستناد إليه، للجزم بأن المتهمة، هى المقصودة بأحد الأسماء الثلاثة، أو بها جميعاً..

ولأن وثائق إثبات الشخصية، لم يكن معمولاً بها آنذاك، فقد فقدت قائمة الحوالات البريدية - هى الأخرى - جانباً كبيراً من أهميتها كدليل للاتهام، بسبب تشابه الأسماء.. إذ وصل عدد الحوالات المصدرة باسم «محمد عبدالعال» إلى ٩٠ حوالة، خلال عامين أرسلها بأسماء أشخاص يقيمون فى بلاد مختلفة، لا يوجد فى أوراق القضية، ما يدل على معرفته بأحد منهم، أو تعامله مع تلك البلاد التى تجاوزت قيمة بعض الحوالات المرسلة إلى بعضها المائة جنيه، مما قطع بأن مرسلها لا يمكن أن يكون «محمد عبدالعال» - الشغال فى وابور خوريمى - حتى لو كان عضوا فى فريق «رجال ريا وسكينة» وأنه، فى الغالب، تاجر يحمل نفس الاسم.

وأحال المحقق قائمة تداول المصوغات إلى مساعدة «على أفندى بدوى» وكلفه بعرض المتهمين الذين وردت أسماؤهم أو أسماء مشابهة لأسمائهم على تجار المصوغات لتدقيق بيانات القائمة، مع تكليف هؤلاء التجار بإحضار المصوغات التى باعها المتهمون لهم، إذا كانت ماتزال لديهم، لتدقيق بيانات القائمة على أهالى المجنى عليهن.

لكن مساعد المحقق لم يواصل تنفيذ المهمة، بسبب العوائق التى قامت أمامه، فقد نفت «سكينة» - مثلاً - أن تكون قد اشترت أو باعت شيئاً من المصوغات التى وردت فى القائمة قرين اسمها.. واعتذر تجار المصوغات بأنهم يتعاملون مع مئات

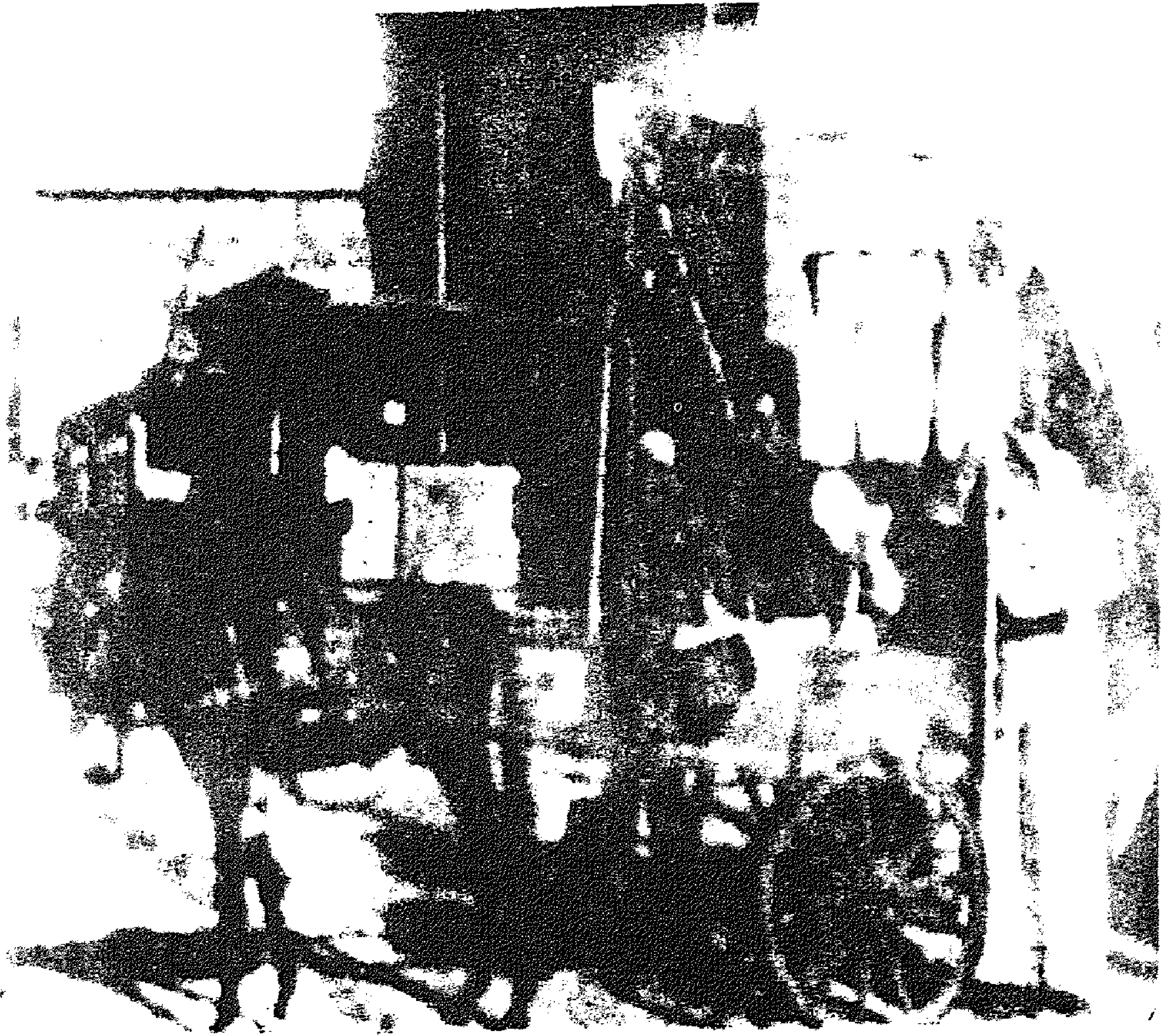
النساء كل يوم فلا يستطيعون تمييز وجه «سكينة» بين وجوههن، وبأنهم يقومون بصهر ما يشترونه من مصوغات مستعملة لإعادة صياغتها فلا يستطيعون رد ما باعته لهم، حتى لو جزموا بأنهم قد اشتروه منها.

وفى مواجهة تلك الصعوبات، اكتفى المحقق باعتراف أفراد العصابة، بأنهم كانوا يبيعون معظم مصوغات الضحايا للصائغ «على محمد»، وكف عن محاولة تدقيق البيانات الواردة فى قائمة حركة تداول المتهمين للمصوغات، لكنه اعتبر تلك القائمة من بين أدلة الاتهام، كما اعتبر قائمة الحوالات البريدية من بين تلك الأدلة، على الرغم من أن «محمد عبدالعال» - مثلاً - نفى كل ما ورد بها من بيانات قرين اسمه، مؤكداً بأنه لم يرسل سوى حوالتين فقط، إلى بلدته «موشا» باسم صهره «عبدالفتاح سويفى»، ولم يرد بالقائمة سوى واحدة منهما فقط، مما اثار الشكوك حول مدى دقتها..

وإذا كان من الإنصاف للمحقق، أن نعترف بأنه بذل مجهوداً فوق الطاقة لتحديد المسئولية عن جرائم قتل كان يستحيل الكشف عن غموضها. من دون أن يعترف كل واحد ممن كانوا يقومون بارتكابها بدوره، وتعامل مع شهود يقعدهم الخوف من بأس المتهمين عن الإدلاء بما يعرفونه من حقائق، وتحت ضغط رأى عام ساوره إحساس بعدم الأمن، حين تبين له أن القتلة كانوا يمارسون جرائمهم على مبعدة قليلة من قسم الشرطة، وأنهم ظلوا يمارسونها على امتداد عام كامل من دون أن يكتشف أحد أمرهم، فمن الإنصاف للحقيقة أن نقول بأن التحقيق قد دار فى جو من التحامل على المتهمين، كشف عن أن المحقق لم يكن بعيداً عن التأثر بحالة السخط التى سادت بين الرأى العام ضد المتهمين، وأنه لم يستطع - فى كثير من الأحيان - أن يتخلص من ازدرائه لنمط الحياة غير الأخلاقية التى كانوا يعيشونها، ليحتفظ للتحقيق بحيدته وموضوعيته.

وفضلاً عن أن كثرة المحققين الذى تداولوا تحقيق القضية، قد أحدثت ارتباكات كثيرة فى مجراه، فقد اتسمت الإجراءات بكثير من الأخطاء الفنية، كان من أبرزها إجراء التحقيق - فى معظم الأحيان - بشكل جماعى وبحضور كل المتهمين، أو معظمهم، وهو ما أتاح لكل منهم فرصاً ثمينة لترتيب «أكاذيبهم» بحيث تتواءم مع أكاذيب الآخرين، أو تفندها طبقاً لمصلحته، كان من نتيجتها إرباك المحقق، الذى لم يتنبه إلى هذا الخطأ الفنى إلا متأخراً. فبدأ يستجوب كلا منهم على حدة، ولولا ذلك لما توصل إلى كشف أكاذيبهم، ولما استطاع دفع المتهمين الأربعة الرئيسيين إلى الاعتراف بالحقيقة، أو بجانب منها.





لهفة الصحف للحصول على صور ريا وسكينة

الفصل الثامن

نفوس ميتة











ولعله كـان عسيراً على «سليمان بك عزت» أن ينسلخ تماماً عن التأثر بنظرة الرأى العام إلى ما ارتكبته عصابة «ريا» و«سكينة» من جرائم، وصفها بعد ذلك فى مرافعته أمام محكمة الجنايات بأنها «أول جرائم من نوعها تعرض على القضاء». وأضاف «إن الجمهور ما كاد يعلم بها حتى استفظع شناعتها وتمنى لو أنه قام بتمزيق الجناة إرباً.. إرباً.. قبل مثولهم أمام القضاء».

ولم يكن رئيس النيابة يبالغ، لكنه كان يسرد حقيقة يعرفها الجميع وسجلتها أنباء الصحف وتعليقاتها التى عكست - خلال الأيام الأولى لاكتشاف الجرائم - مدى صدمة الناس بفظاعتها، حتى أنهم - كما ذكرت جريدة «الأخبار» - كانوا يزدحمون بالعشرات والمئات، حول مخفر البلدية حيث كان المتهمون يحبسون خلال الفترة الأولى من التحقيق، وهم يودون لو تيسر لهم أن ينفذوا فيهم العقوبة بأيديهم.

وكان ذلك هو ما دفع جريدة «وادى النيل» - اليومية السكندرية - لنشر صورتى «ريا» و«سكينة» بعد أن لاحظت أن الجمهور يحسب كل امرأة اسميهما مزوداً باللعنات والشتائم، متمنياً لو أنه ظفر بهما ليمثل بهما كما مثلتا بالضحايا» فاستصويت «وادى النيل» - لذلك - نشر صورتيهما حتى يتعرف الجمهور على الهدف الذى يتوجه إليه بلعناته.

وكانت الرغبة فى تفحص صورتى «ريا» و«سكينة» وراء قيام عدد من مطابع الاسكندرية وغيرها من مدن الأقاليم، بطبع الصورتين وعليهما اسميهما بالعربية والأفرنجية وأشعار وأزجال تفضح أعمالهما، وتصفهما بأشنع الأوصاف، وقالت «اللطائف المصورة» ان باعة الجرائد يسعون لترويج بضاعتهم، بالنداء على هذه الصور والأزجال، التى بيع منها ألوف النسخ.

ومع أن تعليقات الصحف على جرائم عصابة «ريا» و«سكينة» لم تكن تتطابق - بالضرورة - مع نظرة الرأى العام إلى تلك الجرائم، فقد كشف تصاعد اهتمامها بنشر وقائع التحقيق، عن تصاعد مماثل فى اهتمام الناس به، كما غذى - كذلك - هذا الاهتمام.. إذ بدأ النشر عن الواقعة بخبر من سطرين، عن عثور شخص على جثة فى مجرى، نشرته معظم الصحف من دون عنوان فى ذيل العمود الذى تخصصه لنشر أخبار الاسكندرية والأقاليم. ثم ظل يتوسع تدريجياً إلى أن خصصت معظم الصحف، مساحة ثابتة فى رأس إحدى صفحاتها المهمة لأخبار التحقيق، أخذت تنشرها - فى الغالب - بعنوان ثابت، يعكس موقفها من القضية والمتهمين فيها.

بل أن «الأهرام» لم تملك نفسها، إزاء شناعة الجرائم، فخرجت عن تقليدها الراسخ، فى نشر الأخبار بصياغة - وعناوين - محايدة، وبدأت تنشر أنباء القضية تحت عنوان ثابت هو «مجزرة نساء

اللبان» ثم غيرته - بعد أسبوعين - إلى «قضية اغتيال النسوة»، حين اتضح من تقارير الطب الشرعى أن القتل لم يكن يتم بواسطة الذبح. ووصفت بيت «ريا» بأنه «المغارة السوداء» وجزمت بأن النساء اللواتى كن يؤخذن إلى تلك المغارة، «لم يكن يذهبن إلى زيارة اجتماعية، بل للانغماس فى أشنع المفاسد».

ومنذ اليوم الرابع لاكتشاف الجرائم، بدأت «وادى النيل» - وهى إحدى جريدتين يوميتين كانتا تصدران فى الاسكندرية آنذاك - فى نشر أخبارها تحت عنوان «بيوت الهلاك» فى إشارة إلى أن بيوت الدعارة، والفسق التى كانت مسرحاً لجرائم «ريا» و«سكينة»، هى بيوت للموت. وقالت فى تفسير ذلك «إن الذى يعتدى على الشرف، وهو حياة معنوية، ليس بعيداً

الأخبار الأولى عن جرائم ريا وسكينة كما نشرتها الصحف

اخبار الاسكندرية

الاسكندرية في ١٦ نوفمبر — (لمراسل الأهرام الخصوصي) وصل الينا امس من المجلس البوليس نبأ مؤداه ان شخصاً يدعى احمد عبده كان يحفر مجرى امام منزله في قسم اللبان لوجد في المجرى جثة شخص مجهول وقد غلبت جثته التراب واهتمت السلطة القضائية فشرعت في التحقيق وقد كتبنا بوصلة امس كل ما كان لدينا من الاخبار قبل هذا الخبر ثم المقتلة بالرسالة ونحن لا [illegible]

عليه أن يعتدى على الحياة، لأن كلتا الجنايتين صادرتان من قلب تحجر، فلم يتجمل بالمروءة التى تمنعه من الفساد الأدبى، ولم تسقه عاطفة مرحمة تحجزه عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.. وقد يحق أن تكون حوادث القتل التى وقعت فى قسم اللبان ذات موعظة للذين يتورطون فى شرور العبث بالأعراض، فقد حدثت تلك الجنايات فى شر البيوت.. فكانت ظلمات بعضها فوق بعض، ولهذا يجوز لنا أن نسمى بيوت الفسق.. ببيوت الهلاك».

ولم تقتصر حالة الانزعاج الأخلاقى مما جرى فى «بيوت الهلاك» على كتّاب صحيفة «وادى النيل» وحدهم، بل كانت قاسماً مشتركاً فى تعليقات كل كتاب الصحف الأخرى، وبدرجات متفاوتة من الحدة، إذ كانت جرائم «ريا» و«سكينة» واحداً من أهم وأول الشواهد التى نبهت المصريين إلى مدى ما تركته الحرب العالمية من آثار سلبية بشعة على الأخلاق العامة.

صحيح أنهم كانوا يعاينون كل يوم مظاهر التحلل الذى أصاب تلك الأخلاق فى انتشار الخمارات وبؤر تدخين المخدرات، وخاصة الأنواع الوافدة منها - كالكوكايين والهيروين - والزيادة المضطردة فى عدد الذين يدمنون ألعاب القمار بأشكالها المتعددة، بما فى ذلك المراهنات على سباق الخيل وعلى صيد الحمام، وفى عدد بؤر الدعارة السرية والرسمية التى اجتذبت للعمل فيها كثيرات من بنات الأسر المستورة، لكن الكشف عما كان يجرى فى

«بيوت الهلاك» جاء ليكون بمثابة تجسيد للمدى الذى وصل إليه هذا التدهور، كان طبيعياً أن يثير حالة من الذعر الأخلاقى بين الجميع، فى مجتمع كان - ولايزال - محافظاً.

ومع أن ما جرى فى «بيوت الهلاك» كان المصدر الرئيسى لحالة الانزعاج الاخلاقى التى سرت فى المجتمع، إلا أنه لم يكن مصدرها الوحيد.

فقبل افتضاح أمر عصابة «ريا» و«سكينة» بعدة شهور، اكتشفت الشرطة سلسلة من جرائم قتل المومسات وسرقة حليهن، وقعت فى مدينة «طنطا»، وارتكبها رجل يدعى «محمود علام»، قدم إلى محكمة جنايات طنطا، فحكمت باعدامه.. لكن السلطات أوقفت تنفيذ حكم الإعدام، بعد أن أبدى «علام» استعداده للإدلاء بمعلومات جديدة، سرعان ما قادت إلى ساحة التحقيق، أحد عشر ممن اعترف عليهم باعتبارهم شركاء له فى استغواء النساء وقتلهن، مؤكداً أن جرائم القتل كانت تنفذ فى ثلاثة منازل أرشد عنها، وأن ما كانت تحوزه الضحايا من نقود، أو تتزين به من مصوغات وملابس، كان يوزع على كل المشتركين فى الجريمة، مع تخصيص حصة للمنزل.

وأقسم «علام» أنه لم يكن يشترك - بنفسه - فى القتل، وأن دوره كان يقتصر على إغواء النساء بالتظاهر بأنه من أعيان الريف الأثرياء ثم استدراجهن إلى حيث يقوم غيره بقتلهن. واعترف بأنه كان يقلد السفاح الفرنسى الشهير «لاندرو» فيقوم بحرق جثث بعضهن فى فرن بمنزله فيما عدا الرأس، فكان يتخلص منه بدفنه أو إلقائه فى ترعة الجعفرية، حيث كان يلقى أحياناً بجثث بعض الضحايا، ممن يصعب عليه حرقها.

ولأن استئناف التحقيق فى جرائم «لاندرو المصرى» قد تواكب مع الكشف عن جرائم «ريا» و«سكينة» والتحقيق فيها، فقد كان طبيعيا أن تربط تعليقات الصحف بينهما، وأن تتخذ منهما معاً مؤشراً خطيرا على «انحطاط الأخلاق العامة».

لكن هذه النظرة الأخلاقية الاجتماعية، لم تنظر إلى سلوك الجناة فى القضيتين باعتباره أثراً من آثار تلك الموجة الانحلالية، التى جاءت بها ظروف الحرب. ولم تنظر إلى اللواتى قتلن فى «بيوت الهلاك» باعتبارهن بعض ضحايا تلك الظروف، بل اعتبرتهن كائنات لا صلة لها بالجنس البشرى.. فوصفت «الأهرام» الأختين «ريا» و«سكينة» بـ«الشقيقتين المتوحشتين». وحكمت «وادى النيل» بأن أطراف المجزرة - الجناة والمجنى عليهن - قد «انسلخوا عن الطبائع الإنسانية بجملتها وتقمصتهم أرواح شيطانية أو وحشية، لا تخضع لوازع من الوازعات التى توقف الإنسان عند حده». وأضافت «إن النفوس فى تلك البؤر الخبيثة لم تستشعر الرحمة ولم تهب عليها نسمة من نسمات الحنان الإنسانى فى يوم من الأيام».

ومع أن محرر «وادى النيل» قد نظر باستخفاف إلى أمر الضحايا، قائلاً: «إن قتل عشرات أو مئات من النساء، ممن

تعاف النفس أخلاقهن، لا يؤثر فى أمة»، إلا أنه توقف عند الجانب الآخر من المسألة، وهو «قيام عصابة من القتلة مقام الحاكم المتسلط، وسط مدن آهله بالسكان، وفى بلاد يعيش أهلها فى ظل السلم الذى ينشره البوليس» واعتبر ذلك من الأمور التى لابد من بحثها للوصول إلى جذورها، وإلا كان العمل يجرى بالحظ».



فكرى أباظة

وهكذا فتحت قضية «ريا» و«سكينة» ملف كفاءة جهاز الأمن فى القيام بواجباته. ولم تصمد طويلا المحاولات التى بذلتها دوائر الشرطة - بعد الكشف عن أول جثة - للإيحاء بأن مجهوداتها هى التى أسفرت عن هذه النتيجة. بل وطالب محرر «الاكسبريس»، كتاب الصحف الذين يكتبون عن جرائم «ريا» و«سكينة» أن «يختصروا فى مديحهم لرجال البوليس الذين يلحون عليهم فى نشر آيات هذا المديح والإطراء، فلا ينسب أحد منهم الفضل فى اكتشاف هذه الجرائم لفلان وفلان، بل ليقل إن الفضل فى اكتشافها للصدفة».

وردت «المقطم» على ادعاء رجال الشرطة بأنهم الذين كشفوا سرّ الجرائم قائلة: «إنه بفرض صحته لا يعنى شيئاً، ذلك أن البوليس ينشأ لتدارك الخطر قبل وقوعه إذ لو كان وجوده لضبط الجرائم بعد وقوعها، لاستغنت الحكومات عن بوليسها النظامى».

وكان طبيعياً ان يتوقف الجميع، أمام دلالة وقوع الجرائم على مبعدة أمتار قليلة من أحد مراكز الشرطة، ثم الكشف عنها بالصدفة، وهى الحقيقة التى لفتت أنظار الرأى العام بقوة، فاتخذ منها دليلاً - كما ذكرت «الأخبار» - على «قلة يقظة البوليس»، وعلى «تقصيره». كما قالت «الأهرام» - التى اضافت «انه - أى البوليس - أظهر ضعفاً مدهشاً بقدر ما أظهرت ريا وسكينة قوة وثباتا غريبين فى ارتكاب الجرائم منذ شهور من وراء ظهر البوليس مع أنه متعارف عليه أن المرأة، لا تقدر على كتمان السر طويلاً».

وشارك «فكرى أباظة» الجمهور فى تساؤله الاستنكارى قائلا: أين سيف الحكومة المسلول على رقاب المجرمين السفاكين؟.. أين عين العدالة اليقظة التى يجب ألا تنام؟.. أين حارس الأرواح والأجسام؟.

ولأن الشرطة المصرية - وخاصة منذ الاحتلال - وحتى ذلك الحين - كانت تخضع لسيطرة بريطانية مباشرة، كما كانت الصحف لاتزال - منذ بداية الحرب - تخضع للرقابة العسكرية البريطانية، فإن الصحف لم تكن حرة تماماً فى الاجابة

على تساؤلات «فكرى أباظة». ولكنها لم تعدم الوسيلة التى تشير بها إلى أسباب الخلل فى قدرة الشرطة على ضبط الأمن العام، كما تبين من عجزها عن اكتشاف جرائم «طنطا» والاسكندرية، فرصدت «وادى النيل» من بينها «قلة عدد رجال البوليس، وإثقال كاهلهم بالأعمال وعدم تأهيلهم للقيام بوظائف الإرشاد الاجتماعى وعدم كفاءتهم بحيث يرهبون المجرمين ويشعرونهم أنهم يعرفون من أعمالهم، أكثر مما يعرفون عن أنفسهم، كما هو شأن الشرطة فى البلاد الأوروبية، ولجوء بعضهم إلى الشدة فى معاملة المجرمين، بما يخرج عن الحد، مما يفرض ضرورة تقييد ضباط البوليس بقيود اخلاقية تقرب من الارتقاء الاجتماعى».

ثم توقفت الصحف عند نقطتين فنيتين تتعلقان بمدى كفاءة جهاز الشرطة لأداء عمله، الأولى هى طريقة أدائه لدوره فى حفظ الآداب العامة، بعد أن تبين أن أغلبية النساء المقتولات من الساقطات. إذ لاحظت «وادى النيل» أن الشرطة لا تمارس دورها فى هذا المجال فى إطار تنظيم موحد، ففى حين أنشأت حكمدارية شرطة الاسكندرية، قسما متخصصاً يعرف باسم «قلم حفظ الآداب» فقد ظلت مراقبة دور البغاء فى غيرها من المحافظات من اختصاص أقسام أخرى من الشرطة، وفى الحالتين ثبت أن هناك تقصيراً فى متابعتهن، «إذ كان ينبغى على الشرطة أن تلاحظ غياب المحترفات منهن عن الكشف الطبى الذى يوقع عليهن دورياً لضمان عدم إصابتهن بأمراض سرية، وأن تبذل مجهوداً للكشف عن أسباب غيابهن ليس خوفاً عليهن، بل قياماً بواجبها القاضى بالمحافظة على الصحة العامة من الفساد.. وعلى الآداب العامة من طروء الخلل عليها».

ورصدت «وادى النيل» أن معظم الضحايا فى جرائم «طنطا» و«الاسكندرية» من النساء المتعاملات مع بيوت البغاء السرية، واستنتجت من ذلك أن البوليس لا يقوم بدوره فى مراقبة تلك البيوت. ونقل مراسل «المقطم» السكندرى، عن أحد الخفراء قوله «إن البيوت السرية منتشرة حتى فى أحسن أحياء المدينة». وجزمت «وادى النيل» بأن عدد تلك البيوت يفوق عدد البيوت العلنية ويزيد عنها فى خطورته على الأمن. وانتقد مواطن اسمه «محمد عبدالقادر القط» فى رسالة نشرتها له جريدة «الاكسبريس»، البوليس السرى وقلم حفظ الآداب لأنه «لايزال غافلاً أو متغافلا عن البيوت السرية ومحلات حرق الحشيش فى حى العطارين»، وأضاف فى لهجة مبطنة بالتقريع «إذا كان رجال البوليس عاجزين عن معرفة هذه البيوت، فإن الأهالى - وأنا منهم - على استعداد لإرشادهم إليها».

وفسرت «وادى النيل» إهمال الشرطة فى ضبط تلك البيوت، بالتضارب فى الاختصاصات، وقالت إن الشكاوى من وجود البيوت السرية بين بيوت الأحرار، تقدم إلى أقسام الشرطة التى تعتذر بأنها لا تستطيع ضبطها قبل عرض الشكوى

على بوليس حفظ الآداب، فإذا احيلت إليه، سارت الإجراءات على مهل، حتى تقف دون الغاية التى ينشدها الأهالى». وطالبت بإعطاء أقسام الشرطة فى الاسكندرية، سلطة مساوية لشرطة حفظ الآداب فى ضبط تلك البيوت. بينما طالبت «المقطم» بتأليف فرق مخصصة من شرطيين وطنيين يقظين، تتلقى شكاوى المواطنين منها، تتخذ إجراءات فورية لإغلاقها»، ونقلت «وادى النيل» عن أحد الشاكين قوله مهدداً «لقد عولنا على اتخاذ التدابير بأنفسنا مراعاة لشرفنا وشرف أسرنا ومحافظة على أنفسنا وذوينا، وسوف نعمل على إقفال المنازل السرية، حتى لو أدى الأمر إلى استخدام القوة، وحينئذ يكون هناك مجال لتدخل البوليس المسئول».

وقبل أن تصل الأمور إلى هذا المدى، استجابت محافظة الاسكندرية لإلحاح الرأى العام، فأصدرت أوامرها إلى أقسام الشرطة، باتخاذ التدابير اللازمة الشديدة ضد البيوت السرية ومهاجمتها فى أى وقت، والعمل على إغلاقها وإخراج أهلها منها وكتابة المحاضر ضد من لم يخضع ولم يعدل عن طريق الفساد. وتعليقاً على ذلك قالت «وادى النيل» إنها ترجو «أن تتحقق هذه التعليمات وتنفذ، إذ العبرة بتطبيق الأنظمة والقوانين، لا بإصدارها ثم إغماض الجفن عنها».

وجاءت الطريقة التى تعودت الشرطة أن تتعامل بها مع البلاغات التى تقدم إليها عن غياب أو فقد أحد المواطنين لتكون النقطة الفنية الثانية التى توقفت أمامها الصحف، لتندد بما وصفه رئيس النيابة نفسه فيما بعد بأنه «الطريقة العقيمة» التى تعودت الإدارة أن تتبعها فى البحث والتحرى عن الغائبين.

وكانت «الأهرام» قد ذكرت أن عدد النساء المفقودات من أحياء الاسكندرية منذ شهر مايو (آيار) ١٩٢٠، حتى الكشف عن جرائم عصابة «ريا» و«سكينة» فى نوفمبر (تشرين الثانى) من نفس السنة، قد وصل إلى ٤٣ امرأة وفتاة، وأن العثور على ١٧ جثة فى مغاور القتل التى كانت تديرها الشقيقتان، يعنى أن هناك ٢٦ ضحية أخرى لم يعثر على جثثهن. ومع أن «الأهرام» عادت، بعد أيام فصححت الخبر قائلة إن الرقم الذى نشرته، يغطى الفترة التى تبدأ بشهر مايو (آيار) ١٩١٩، إلى حين ضبط العصابة، وأضافت «ولا شك أن بعض هؤلاء الأشخاص رجعوا إلى منازلهم أو أعيدوا إليها ولاسيما الأطفال، لذلك لا يعرف حتى الآن تماماً عدد المفقودات من النساء فى منطقة الاسكندرية».

لكن نقص العدد أو زيادته لم يقلل من حالة القلق، التى تلبست الرأى العام ولم يحل بين الصحف وبين الحكم بأن هناك تقصيراً فى عمل الشرطة، وهو ما جزمت به «وادى النيل» التى قالت «إن كثرة عدد الغائبات تدل على نقص فى البحث، إذ ليس من المنطقى، أن كل النساء المفقودات قد اختفين فى أماكن لا يصل إليها أحد، إذ كان من الممكن التوصل إلى نتيجة فعلية، إذا ما اهتمت إدارة الأمن العام بوزارة

الداخلية بأمر المتغيبين والمتغيبات فى جميع البلاد وبحثت بطريقة مختلفة عن الطريقة العقيمة التى يتبعها البوليس

وسرعان ما اعترفت وزارة الداخلية بأن هناك نقصاً فى التحرى والبحث عن الغائبين. فقررت أن تنشىء قلماً جديداً فى إدارة الأمن العام يسمى «قلم المباحث الجنائية»، على أن يعين به ضابطان برتبة اليوزباشى (النقيب) وأربعة من صف الضباط برتبة صول (مساعد) و١٦ من رجال البوليس السرى.

وأرسلت محافظة الاسكندرية تعليمات جديدة إلى رجال البوليس للسير عليها فى التعامل مع بلاغات الغياب، تنص على أن يتولى قسم الشرطة الذى يتلقى بلاغاً من هذا النوع التحقيق بدقة، ثم يحيله إلى قلم السوابق للبحث عما إذا كان لديه معلومات مدونة عن هذا الغائب ثم يعود المحضر إلى القسم مرة ثانية فيرسله إلى النيابة.

وكان من بين الإجراءات ـ الأخرى ـ التى اتخذتها شرطة الاسكندرية ـ ورصدتها الصحف ـ شروعها فى الاهتمام بمسألة أرباب السوابق والمتشردين والقوادين ووضع بيان شامل للبيوت السرية فى المدينة.

لكن نقد الصحف لجهاز الأمن، لم يتوقف عند توجيه تهم التقصير وعدم الكفاءة وسوء التنظيم. بل تجاوز ذلك إلى الاتهام بتواطؤ بعض عناصره مع المجرمين. وهى تهمة لم تكن صحيحة تماماً. كما لم تكن كاذبة تماماً إذ كان

فساد جهاز الشرطة، وانتشار الرشوة بين أفراده، من الظواهر التى شاعت خلال سنوات الحرب. فبسبب خضوع مصر لقانون الاحكام العرفية آنذاك، تتالت القرارات الإدارية التى تضع قيوداً على أسعار السلع، وتحدد مواعيد للسهر فى الحانات، وتمنح الشرطة سلطة اعتقال المشتبه فيهم من المشتغلين بالسياسة، ومعتادى الإجرام، ومن بينهم المتجرون بالأعراض. وبسبب الأزمة الاقتصادية، بدأ بعض رجال الشرطة يتربحون من وظائفهم، فيطلبون من عتاة المجرمين رشاوى مقابل التغاضى عن تنفيذ القوانين أو التستر على الجرائم، فإذا ما رفضوا الدفع تعنتوا فى معاملتهم.

وكان ذلك ما فعله «جورج فليبيدس»

مأمور ضبط محافظة القاهرة ورئيس المكتب السياسي - وهو يوناني الأصل، تجنس بالجنسية المصرية، وتولى رئاسة المكتب السياسي بوزارة الداخلية منذ تأسيسه عام ١٩١٠، فازداد نفوذه، بسبب الدور الذي لعبه في الإيقاع بالعناصر الوطنية. وما كادت الحرب تنشب حتى استغل هذا النفوذ في الإثراء عن طريق الحصول على الرشاوى والإتاوات من المعتقلين السياسيين وتجار الرقيق الأبيض، بل وضباط الشرطة الراغبين في الترقية، والساعين للعودة للخدمة بعد فصلهم حتى أنه أوصى باعتقال ابن «إبراهيم الغربي» - زعيم طائفة المخنثين وصاحب عدد كبير من بيوت البغاء بحى الأزبكية - ثم كلف أحد مساعديه باستدعاء الأب، حيث هدده صراحة باعتقاله، إذا لم يدفع له مائتي جنيه - فلما رفض «الغربي» الدفع اعتقله هو وعددا من انصاره، ليعود «فليبيدس» فيطلب من زوجته دفع ثلاثمائة جنيه، مقابل الإفراج عن الاثنين، فاضطرت للإذعان ودفعت له الرشوة التي طلبها، ولكنه عجز عن استصدار قرار الإفراج، وأعاد لها المبلغ، بعد أن احتجز لنفسه عشرين جنيهاً.

وما لبثت رائحة «جورج فيليبيدس» أن فاحت، بسبب صراع بينه وبين زملائه، فقبض عليه في ربيع ١٩١٦. وكشف التحقيق معه عن أنه تقاضى رشاوى مقابل الإفراج عن عدد من المعتقلين السياسيين والمتجرين بالأعراض، وإعادة بعض ضباط الشرطة الذين فصلوا لخروجهم عن قواعد الانضباط، إلى أعمالهم، وقدم للمحاكمة مع ستة من شركائه بينهم مساعد حكمدار شرطة العاصمة، واثنين من مأموري أقسام الشرطة بها، فأصدرت حكماً بحبسه خمسة أعوام وفصله هو وشركائه من الخدمة.

وفي أثناء محاكمة «فيليبيدس بك» - في يونيو (حزيران) ١٩١٧ - أذيعت لأول مرة تفاصيل رسمية عن سبب إقالة «إسماعيل صدقي باشا» - وزير الأوقاف في وزارة «حسين رشدي باشا» الثانية، بعد ستة شهور فقط من توليه الوزارة.. وكانت الشائعات التي انطلقت في كل أنحاء البلاد، قبل عامين تقول بأن الوزير قد أقيل بعد أن هاجم رجال الشرطة العائمات التي تقف على الشاطىء الغربي للنيل ناحية إمبابة للتحقق من صحة البلاغات التي وصلتهم بوقوع أمور منافية للآداب العامة بها، فوجدوا «إسماعيل صدقي باشا» في حالة مريبة مع سيدة شابة، وقيل بأنهما كانا عاريين..

ولما كان مستحيلاً عليهم القبض على الوزير، فقد اكتفوا باعتقال السيدة التي رفضت الكشف عن اسمها، مما دفعهم للظن بأنها من البغايا المحترفات. وفي قسم شرطة عابدين - الذي اقتيدت إليه للتحقيق معها - اضطرت للاعلان عن اسمها، فلما تبين للشرطة أنها ابنة «يحيى ابراهيم باشا» - أحد رجال الدولة - وقد تولى رئاسة الوزارة بعد ذلك - أفرجوا عنها، ولكنها انتحرت في اليوم التالي.. وكان «إسماعيل صدقي» من [illegible] الذين شاركوا في تشييع جنازتها..

واستفز ما حدث السلطان «حسين كامل» ـ الذى كان معروفاً بتشدده فى مسائل الأخلاق ـ فاستدعى إليه الوزير وسبه سباباً مقذعاً ـ وأشيع أنه ركله، وطلب إليه أن يقدم استقالته. وقد ورد بها عبارة لفتت النظر عند نشرها بعد تقديمها بأسبوع، يقول فيها «عرفت بأننى لست حائزاً للرعاية التى تعودتها من عظمة السلطان، وقد حاولت نفى المزاعم الفاسدة التى وجهت إلى فلم أمكّن من ذلك». وهى عبارة علق عليها «سعد زغلول» فى مذكراته قائلاً إن وصف «صدقى» لما وجه إليه بأنه «مزاعم فاسدة» لا يعدو إلا أن يكون «تبجحاً واستخفافاً بالرأى العام، لأن المقرر فى أذهان الكافة أن هذه المزاعم أقل من الحقيقة».

وأشيع بين الناس ـ كما يضيف «سعد زغلول» فى مذكراته ـ أن «إسماعيل صدقى» هدد بأن يبلغ السلطان خبر العلاقة التى تجمع بين وزير الحقانية ـ العدل ـ «عبدالخالق ثروت باشا» وسيدة متزوجة، وانه سعى لتعيين زوجها فى منصب كبير، إذا لم يتدخل رئيس الوزراء «رشدى باشا» لإقناع السلطان بعدم قبول استقالته. ولكن السلطان رفض كل الضغوط والوساطات وقبل استقالة «صدقى» وعين «إبراهيم فتحى باشا» فى المكان الذى خلا باستقالته. لكن ذلك ـ كما يقول «سعد زغلول» ـ لم يلق ارتياحاً من الناس الذين قالوا « إن ابتذال إبراهيم فتحى فى الأولاد.. لا يقل عن تهتك صدقى فى النساء.. وأن السلطان أراد أن يكحل عين المريض.. فأعماها»!

وبعد هذا التاريخ بعامين، وأثناء محاكمة «فيليبيدس» قال مساعد الحكمدار ـ المتهم معه فى القضية ـ إنه سمع منه أن هناك أمور غير شريفة تحدث فى العائمة التى يملكها «صدقى باشا»، لكنه لم يذكر له تفاصيل.. وأنكر «صدقى» ـ الذى كان من شهود الإثبات فى القضية ـ واقعة وجوده مع السيدة التى انتحرت. وذكر أنه كان مع اثنين من زملائه الوزراء ـ هما «اسماعيل سرى باشا» و«عبدالخالق ثروت باشا» فى عائمته حين اتصلت به سيدة طالبة لقاءه لكى ترجوه فى إعادة ابن لها لوظيفته. وما كادت تدخل حيث فوجىء بهجوم الشرطة على العائمة، واتهم «فيليبيدس» بأنه دبر هذا الهجوم لأسباب سياسية..

ولم تكن «قضية فيليبيدس» ـ بما كشفت عنه من فساد مالى وخلقى يضرب بجذوره فى جهاز الدولة من قمة رأسه إلى قدميه ـ قد غادرت الذاكرة بعد، حين قادت اعترافات «محمود علام» ـ أو «لاندرو المصرى» ـ خمسة من رجال الشرطة، إلى قفص الاتهام، بتهمة الاشتراك معه فى قتل النساء وحرق جثتهن، فتجدد الحديث عن تواطؤ جهاز الأمن مع عصابات اغتيال النساء، وأن بعض العاملين به، كانوا يشتركون فى إدارة بيوت الهلاك. وكتب مراسل «وادى النيل» فى العاصمة يقول بأنه علم من مصدر ثقة، أن جندى المراسلة الذى يعمل مع حكمدار شرطة الغربية، له صلة بالمتهمين فى قضية طنطا وأن سيارة من سيارات مصلحة الرى، كانت تستخدم لنقل



محمد توفيق نسيم باشا وزير الداخلية

محمد حداية باشا محافظ الإسكندرية

الشقيقتان فلم تذكرا اسمه فى اعترافتهما تقديراً منهما لما أداه لهما من خدمات.

وسرعان ما انتقلت هذه الوقائع إلى محضر التحقيق فى قضية «ريا» و«سكينة» وتبين أنها من نوع الأقوال المرسلة التى لا يوجد دليل علها، لكن ذلك لم يوقف سريان الإشاعات التى أكدت صحة الواقعة، بل ووصل إلى حد القول بأن «الشحات أفندى» قد قبض عليه. وقالت «الأهرام» - فى معرض تكذيبها للشائعة - إنها «تدل على شئ واحد لا يمكن نكرانه، هى أن الجمهور يتهم البوليس السرى بالتقصير فى هذه المسألة»، ويقول كثيرون - قولا لا يرتكز على أى أساس - إن بعض عماله كانوا يعرفون ما يجرى فى بيوت ريا ويغضون النظر لقاء منافع يحصلون عليها من أجل ذلك الإغضاء».

وكان محرر صحيفة «الإكسبريس»، أكثر صراحة وقسوة فى نقده لسلوك رجال الشرطة العاملين فى الأقسام سواء كانوا من المأمورين أو الضباط، فقد أشار إلى أن الروايات عن السلوك غير المشرف لبعضهم تملأ أنحاء البلاد، بسبب تطرفهم فى السلوك المزرى بشرفهم العسكرى. ودلل على ذلك بوقوف بعضهم وهم بملابسهم العسكرية أمام محطة ترام الرمل لمغازلة السيدات، ومثول آخرين منهم أمام محكمة

الجثث، ووعد بنشر التفاصيل فى اليوم التالى.

ومع أنه لم يفعل، إلا أن أحد المتهمين فى القضية ذاتها، اعترف لمسجون فى قضية نصب وتزوير التقى به فى السجن مصادفة أن عصابة «محمود علام» كانت تضم بين أفرادها عدداً من رجال الشرطة، وتحتمى بآخرين وأن جندى المراسلة الذى كان يعمل مع حكمدار شرطة طنطا كان هو الذى يحمل جثث القتلى ويدفنها. وأضاف قائلاً: إن «ريا وسكينة» كانتا تعتمدان على شرطى بالبوليس السرى، هو الصول - المساعد - «الشحات أفندى محمد» وأنه لم يكن يشترك فى القتل فحسب، بل وكان يضفى حمايته على العصابة، ويتقاضى النصيب الأكبر من غنائمها، وأنه أثرى من وراء ذلك، فاشترى أربع عمارات بالإسكندرية، وقد حمته

الجنايات يحاكمون على جنايات ارتكبوها منها الرشوة والاختلاس والتزوير وتمزيق أثواب العفة والفضيلة. وصدور أحكام من مجلس تأديب الشرطة بحبس أحد الضباط ثلاثة شهور لضبطه وهو بالملابس الرسمية، سكراناً فى غرزة حشيش، وفصل أحد الكونستابلات الأجانب لأنه - وهو من بوليس حفظ الآداب - كان يتستر على امرأة وطنية، تدير منزلاً للبغاء لعلاقة بينهما، فلما انقطعت تلك العلاقة، استغل سلطته فى مضايقتها مما اضطرها لشكواه إلى رؤسائه.

ولفت محرر «الإكسبريس» النظر إلى أن هؤلاء الضباط لا يساوون بين المواطنين الذين يترددون على أقسام الشرطة أمام القانون، فيهينون بعضهم بلا مبرر، ويكرمون آخرين إلى حد التعظيم، وخاصة النساء، «لأن الجنس اللطيف محترم ومبجل فى أقسام الشرطة مهما أذنب أو خالف». وأضاف: «إن العاملين بالشرطة يعلمون جيداً ما يجرى فى جهات الدعارة والفجور، ويعرفون الأشرار الذين لا مورد رزق لهم، ولا عملاً معروفاً وشريفاً والذين ينتشرون فى تلك الجهات، ومنهم زوجا «ريا» و«سكينة». ومن غير المتصور ألا يكون أحد منهم قد لاحظ أنهما ينفقان عن سمعه مع انه لا عمل لهما يربحان منه».

وفى تفسيره لسبب اختلال الأمن العام، لم يقبل محرر «الإكسبريس» الاعتذار بالحرب لتبرير تلك الحالة، كما لم يأخذ شكوى البوليس من قلة عدد أفراده، مع اتساع نطاق العمران على علاتها.. بل ركز على أن هناك «بيئة شرطية فاسدة» تتطلب تغييرات جذرية فى تنظيم هيئة الشرطة، وفى اختيار أفرادها. ودلل على ذلك بأن الشبان الذين يتخرجون من مدرسة البوليس - التى وصفها بأنها لا تعدو أن تكون مدرسة تحضيرية، أعجز من أن تعد شرطياً لائقاً للعمل - ما يكادون يندمجون فى سلك الشرطة ويحتكون بالمرتشين وغير المستقيمين من رؤسائهم، حتى يتحولوا إلى صورة أخرى منهم.

ولذلك طالب بتغيير شامل فى نظم الشرطة، يبدأ ببتر العناصر الفاسدة، وانتخاب شبان أكفاء عن طريق خبراء فنيين من رجال بوليس لندن المشهورين بتدريبتهم ومهارتهم، وارسال بعثات منهم إلى «سكوتلانديارد» لكى يتعلموا ويدرسوا..

ولم تحل مطالبة محرر «الإكسبريس» بالاستعانة بالخبرة الأجنبية، وخاصة البريطانية، فى إصلاح أحوال الشرطة بينها وبين نشر رسالة لأحد قرائها، يعترض فيها على التفكير فى ترشيح وكيل اجنبى لحكمدار شرطة الاسكندرية، قائلاً: «إذا كانت رئاسة البوليس فى العاصمة والاسكندرية قد خصصت للسادة الإنجليز لأسباب سياسية وعسكرية أو نظامية قضت بذلك فهل من العدل ان يستأثر السادة الانجليز أيضاً بوكالة الحكمدارية.

ثم تساءل: «لماذا لا تكون هذه الوكالة لأحد الضباط المصريين ليعاون رئيسه الانجليزى فى أعماله الكثيرة؟.. إن خبرته بحالة بلاده ومعارفه الشخصية وكفاءاته

الذاتيــة، كل هـذه تؤهله فـى المســتــقـبل للاستـقـلال بإدارة شئون الضبط والربط بلا وصاية، ما دامت انجلترا تدعى أنها ما احتلت مصر، إلا لتعليم وتدريب المصريين على القيام بشئون حكومتهم وبلادهم».

وحـين تحـقق جـانب من هذا المطلب، فـصـدر التنظيم الجـديد لـ«حكمـدارية شرطة الإسكندرية» ليقضى بتعيين ثلاثة من مفتشى الشرطة المصريين، يشرف كل منهم على قـسـمـين من أقـسام الشـرطة بالمدينة، ويرجع فى شـئـون وظيـفـتـه إلى مسـاعـد للحكمـدار، الذى يرجع إلى وكـيل الحكمـدار، وصـفـتـه «الإكسـبـريس» بأنه إصـلاح مـزعـوم، واعـتـرضت عليـه لأنه «يجـعل بين مـأمور القسم، ورئيسـه - وهو الحكمدار - أربع درجات».

وتسـاءلت «لماذا كل هذا وما الفائدة من تعـدد الوظائف والاخـتـصـاصـات مـادام الجندى المنوط بـه حـفظ النظام وتنفـيـذ القـانـون فـى الشـارع والحـارة، والخـفـيـر الموكل به حـفظ الأمن بالليل همـا .. همـا المشكو من جهلهما وأخلاقهما وسلوكهما، وكـان واجـبـاً بدلاً من إنشـاء هذه الوظائف أن تزاد رواتـب هـؤلاء الجنـود والحـــراس ويستبدلون بشبان متعلمين أكفاء».

وتوقـف مـحـرر «الإكـسـبـريس» أمـام ظاهرة اخـتـلال العـدل فى توزيـع مـرتبـات العاملين فى جهاز الشرطة بين المصريين والمصـريين، وبيـن المصـريين والأجـانب. قـارن بين المرتبـات التى يحـصل عليـهـا القـابعـون فى سـفـح الهـرم الشـرطى، من الجنـود والخـفـراء، الذين يعـملون إحـدى عشرة ساعة فى اليوم، يطوفون حول الدور والمخـازن، ويلبـون اسـتـغـاثات أصـحـابهـا ويـتـعـرضـون لأخـطار المجـرمـين والأشـقـيـاء والسكارى والمعربدين ولا يزيد مـا يتقاضاه الواحد منهم عن خمسين قرشاً فى الشهر، وبين المرتبات التى يتقاضاها الجالسون فى منتـصف هذا الهـرم من ضـبـاط الشـرطة المصريين، ولم يكن معظمهم يتجاوز رتبة الصـاغ (الرائد) أو وظيـفـة مـأمـور القـسم، ولا يزيد مـا يتقاضاه عن ستة عشـر جنيهـا فى الشـهـر، بينمـا يجلس ضـبـاط الشـرطة الأجانب - وخاصة البريطانيين - على قـمـة الهــرم، تقــتـصــر عليـهم رتب البكبــاشى (المقدم) والقائمقام (العقيد) والأمـيـرالاى (لعـمــيــد) واللواء، ويحــتـكرون وظائف الحكمـدار ووكـيله ومـسـاعـده والمفـتش ووكيله، ويتقـاضون مرتبات تصل إلى مـائة وخمسين جنيهاً فى الشهر.

وعلقت جريدة «الإكسـبريس» على ذلك قـائلة: إن مـرتبـات الجنود والخـفـراء لا توازى ربع مـا يسـتحـقـونه، ومـا يحـتـاجونه، ولا تكفـيـهم خـبـزاً وزيتـونـاً. وربط بين ذلك وبين اخــتـــلال الأمن العـــام، إذ أن هـذه المرتبـات الضـعـيـفـة هى التى تضطـرهم «لبـسط أكفهم للنـاس» فهم «يعيشـون على البقـشيش ويتصـيدون الفرنكات والشلنات من القـهـاوى والحـانات ومن المتـضـاربين والمتشـاجـرين بل، ويقـاسـمـون المجـرمـين غنائمـهم ويتسـتـرون عليهم ويشـهـدون فى صفـهم». وأشـار إلى أن مـرتبـات الضـبـاط المصـريين تجـعلهم «مـهضـومى الحق لعـدم مسـاواتهم بالضبـاط الأجـانب». وحكم بأنه

«لا عدالة فى الدنيا تقبل أن يكون مرتب الكونستابل الأجنبى فى البوليس المصرى . وهو مرؤوس للضابط المصرى . أرقى من راتب الضابط رئيسه»..


يحيى إبراهيم باشا


البكباشى (المقدم) طه علام

وكان ضعف مرتبات العاملين فى الشرطة من الظواهر التى لفتت نظر الصحف . حتى قبل الكشف عن جرائم «ريا» و«سكينة» . والتى اعتبرتها من بين أهم أسباب اختلال الأمن العام.

فقالت «الإكسبريس» فى مقال لها «إذا رأيت ضابطاً من ضباط البوليس بردائه العسكرى وحذائه اللامع وطربوشه اللطيف، ونجومه الزاهية، وشريطه الأحمر أو جاكتته الكاكى وهو يمشى فى الطريق، لرثيت لحاله، إذا علمت أنه يعيش بمرتب زهيد.. فالملازم ثان لا يتقاضى سوى ستة جنيهات فى الشهر، تزيد إلى سبعة إذا رقى للرتبة التالية، فإن إصبح معاوناً يحمل رتباً اليوزباشى (النقيب) . ارتفع المرتب إلى عشرة جنيهات، فإذا أصبح مأموراً، برتبة صاغ (رائد) وصل مرتبه إلى ١٨ جنيهاً والرتب التى تزيد عن ذلك عددها قليل فى البوليس المصرى، لأن أكثرها للإنجليز «السعداء».. ثم تساءلت فى استنكار: «كيف تكفى ستة جنيهات شاباً يمثل الحكومة فى مركز الضبط والربط، يحتاج إلى كساء نظيف وإلى منزل صحى وإلى غذاء حسن، هذا إذا كان بلا زوج ولا أولاد.. أما إذا كان متزوجاً فمستحيل أن يشتغل فى وظيفته بكرامة، ومستحيل أن يحافظ على استقامته بهذا المرتب الزهيد».

وما لبثت قضية مرتبات ضباط الشرطة أن برزت بقوة، وفرضت نفسها عليهم وعلى الرأى العام، عندما صدر . فى ٢٠ اكتوبر (تشرين) ١٩٢٠ . مرسوم سلطانى برفع مرتبات الضباط وصف الضباط والعساكر البرية والبحرية فى الجيش المصرى، ليصل مرتب الملازم ثان إلى ١٢ جنيهاً شهرياً، ترتفع إلى ١٤ جنيها إذا رقى إلى رتبة الملازم أول وإلى ٢٠ جنيها حين يحصل على رتبة اليوزباشى (النقيب) وإلى ٤١ جنيها لرتبة الصاغ (الرائد) و٤٥ جنيها لرتبة البكباشى (المقدم) ثم إلى ٧٣ و٧٥ لرتبتى القائمقام (العقيد) والأميرالاى (العميد)، ومائة جنيه عند وصوله إلى رتبة اللواء.. وما كاد

المرسوم ينشر حتى لاحظ ضباط الشرطة أن مرتباتهم لا تتجاوز - فى الغالب - نصف مرتبات الدرجات المناظرة لدرجاتهم فى الجيش، فبدأت بين صفوفهم، حركة شبه منظمة للمطالبة بإنصافهم، أخذت فى البداية شكل سيل من الشكاوى البرقية أرسلها بعضهم إلى الصحف، فنشرتها، ونشرت دعوتهم لزملائهم، بأن يعززوا مطالبهم بشكاوى يرسلونها إلى المسئولين، فاستجاب الجميع، وانهالت الشكاوى على رئيس الوزراء ووزير الداخلية «توفيق نسيم باشا» ووزير المالية «محمود فخرى باشا» ومستشار الداخلية الإنجليزى المستر «جلبرت كليتون»، ومدير قسم المستخدمين والمحاسبة بالوزارة..

وبعد أيام اتخذت الحركة شكلاً أكثر تنظيماً، فعقد العاملون بالشرطة عدة اجتماعات ناقشوا فيها مطالبهم. واستقر الرأى بينهم على انتداب وفود يمثل كل منها، أحد فروع الوزارة، لكى يرفع إلى المسئولين مطالبهم. وتدل كل الشواهد على ان هذا التحرك قد شمل جميع العاملين المصريين فى جهاز الشرطة على اختلاف درجاتهم، من بلوك الخفر إلى الحكمداريين، ومن المخبرين السريين إلى مأمورى مراكز الشرطة فى الأقاليم الذين انتدبوا وفداً يمثلهم يضم بين أعضائه اثنين من الحكمداريين يمثل أحدهما الوجه البحرى، ويمثل الثانى الوجه القبلى، لمقابلة الأميرالاى - العميد - «ويزيك» - والمدير الانجليزى لقسم الخفر والنظام بوزارة الداخلية - حيث سلموه مذكرة بمطالبهم. وهو ما فعله ضباط شرطة الاسكندرية الذين انتدبوا وفدا منهم لمقابلة حكمدارها الانجليزى، وضباط شرطة القاهرة الذين قدم وفد منهم مذكرة بمطالبهم لحكمدارها اللواء «رسل باشا». بينما رفع رجال فرقة البوليس السرى فى الحكمدارية عريضة إلى رئيسهم شكوا فيها من عدم مساواتهم فى الراتب والترقية برجال البوليس النظامى، مع أنهم يخضعون لنفس النظام، أما جنود بلوك الخفر - الذين كانوا يختارون من بين المقترعين للخدمة العسكرية - فقد فوضوا قائدهم البكباشى - المقدم - «طه أفندى علام» لرفع مطالبهم بمساواة مرتباتهم بمرتبات صف ضباط وجنود الجيش، باعتبارهم من أفراده، وسائرون على نظامه، على الرغم من انتدابهم للعمل فى الشرطة..

ولم تبخل الصحف بمساندتها على رجال الشرطة، فتوجهت «الاخبار» بالرجاء إلى الحكومة بأن تعجل بإنصافهم، لأنهم يطلبون حقاً من حقوقهم المشروعة» ولأن «عظم المسئولية الملقاة عليهم وكثرة المشقات التى يتحملونها تبرر إنصافهم». ودعت «المقطم» الحكومة، إلى النظر بجدية إلى شكواهم إذ لا يصح فى شرعة الإنصاف أن تقيم حارساً على أعز ما عندك، وأثمن ما تملك، وتشترط عليه السهر والعناية والنشاط والنزاهة وتنتقده إذا قصر، وتعاقبه إذا أهمل ثم تبخل عليه بما يكفيه لمعاشه ومعاش عائلته فى الدرجة التى هو فيها فى الهيئة

الاجـتـمـاعـيـة»، بل وطالب مـراسلهـا الاسكندرى، بأن يشـمـل الاصـلاح والإنصاف طائفة أخرى تساعد البوليس فى أعماله، هى «طائفة مشايخ الحارات». وقال «إن نفراً منهم قد كتب إليه، يشكون سوء حالهم. ويلتمسون من الحكومة أن تبر بوعدها فتقرر لهم رواتب شهرية لتزويدهم نشاطاً واستقامة».

ولابد أن السلطات العامة قد نظرت بعين القلق إلى حركة ضباط الشرطة، بسبب اتساعها وتنظيمها، فلم تستطع أن تتجاهلها فى الظروف الحساسة التى كانت تجتازها مصر آنذاك. فما كاد وفد ضباط شرطة الأقاليم يخطر وزارة الداخلية بموعد وصوله إلى القاهرة، حتى أسرع الأميرالاى «ويز بك» - رئيس قسم النظام والخفر - بالسفر إلى الاسكندرية ليلتقى برئيس الوزراء ووزير الداخلية «محمد توفيق نسيم باشا» حيث تباحث معه فى الموضوع. ثم عاد فى اليوم التالى ليكون فى استقبالهم فى الموعد الذى حدده، فأحسن وفادتهم وبالغ فى اكرامهم. وأكد لهم أن «نسيم باشا» مهتم بأمرهم كل الاهتمام. ونقل إليهم عن لسانه قوله بأن مرتباتهم ستعدل بحيث لا تقل عن مرتبات إخوانهم فى الجيش، وأن هذا التعديل سيتم فى أقرب فرصة.

ولكن الأمر يتطلب بعض الصبر، لأن رفع مرتباتهم - وهم يعملون فى هيئة مدنية - سوف يدفع الموظفين الملكيين إلى المطالبة بالمعاملة بالمثل، وهو مالا تتحمله ميزانية الدولة، ومع ذلك فإن الحكومة لن تعدم الوسيلة التى تمكنها من مساواة مرتباتهم بزملائهم فى الجيش من دون أن تفتح على نفسها هذا الباب.

وكان ذلك هو نفس الكلام الذى نقله حكمدار القاهرة والاسكندرية عن لسان رئيس الوزراء إلى الوفود الأخرى التى تمثل شرطة المدينتين، مما كشف عن أن الحكومة، آثرت أن تتعامل مع حركة ضباط الشرطة باللين. وألا تواجه ما كان يمكن اعتباره فى ظروف أخرى تمرداً منهم، بالشدة الواجبة. وقد حاول مأمورو مراكز الشرطة فى الأقاليم، أن يستفيدوا من رفع مرتبات ضباط الجيش، الذين كان معظمهم يعمل به، قبل نقلهم للعمل بالبوليس، فاقترحوا إعادتهم إلى عملهم الأصلى ثم إعادة انتدابهم للعمل بالبوليس..

ولكن الحكومة تحفظت على الاقتراح للسبب نفسه وهو ما احتجت عليه «المقطم» التى قالت «إن الاعتذار بالخوف من وقوع التفاوت بين مرتبات العاملين بالشرطة ورواتب أمثالهم من الموظفين الملكيين، حجة لا يقبلها إلا الذين يعبدون حروف القانون، ويضربون بروحه عرض الحائط، فالذى سن القانون يستطيع تعديله، وما خلق الناس ليكونوا عبيد القانون، وإنما وضعت القوانين لإراحة الناس».

وتنفيذاً للوعد الذى قطعته الحكومة على نفسها، شكلت لجنة للنظر فى تعديل الدرجات ومرتبات العاملين المدنيين بالدولة، ومن بينهم العاملون بالشرطة، كان

مبررات هذا التقصير، فعادت الصحف تلح على الحكومة فى تنفيذ وعدها، وطالبت «المقطم» بمنح ضباط البوليس «إعانة يحسنون بها رواتبهم، ريثما تتمم لجنة تعديل الدرجات أعمالها»، واستأنفت الوفود التى تمثل ضباط الشرطة نشاطها للالتقاء بالمسئولين والإلحاح عليهم فى سرعة إنجاز التعديل.

وكشف أحد ضباط الشرطة فى رسالة أرسلها إلى «الإكسبريس» ووقعها باسم «ف.ع»، الستار عن وجود لجنة سرية باسم «لجنة الضباط» ترسل - بالبريد - منشورات إلى ضباط الشرطة تحثهم فيها على التمسك بمطالبهم والتحرك من أجل تنفيذها. كان آخرها منشور وزع فى بداية نوفمبر (تشرين ثان) ١٩٢١ - يرسم خطة متدرجة للإضراب عن العمل. تبدأ بحملة برقيات يرسلها ضباط الشرطة إلى وزير الداخلية - وكانت الوزارة قد تغيرت وحل «عدلى يكن» محل «توفيق نسيم» فى رئاستها، بينما حل «عبدالخالق ثروت» محله فى وزارة الداخلية - وإلى مستشار الوزارة الإنجليزى - المستر «جلبرت كلايتون» - فى اليوم الحادى عشر من الشهر، يستعجلون فيها تحسين حالتهم. وبعد عشرة أيام أخرى، يرسلون تلغرافاً ثانياً بأن حالتهم قد ساءت، ويهددون فيه بأن ذلك قد «يدفعهم للوقوف وقفة تأباها نفوسهم، ولا ترضاها حكومتهم»، فإذا لم يتم شىء حتى آخر الشهر توقف الضابط عن قبض مرتبه إذا كان يستطيع الاستغناء عنه، فإذا لم يجد ذلك نفعا قر القرار على الإضراب العام».



إبراهيم الغربى زعيم طائفة المخنثين فى ملابس النساء

أول ما أنجزته هو الموافقة على رفع مرتبات صف وضباط بلوك الخفر ليتساووا مع نظرائهم فى الجيش.

وما لبث اكتشاف جرائم قتل النساء فى «طنطا» و«الاسكندرية» أن قلل من تعاطف الرأى العام مع مطلب رجال الشرطة برفع مرتباتهم ليركز على التنديد بتقصيرهم فى القيام بواجبات أعمالهم. لكنه عاد بعد قليل ليجد فى قلة هذه المرتبات، أحد

ولابد أن الذين أصدروا المنشور، كانو فريقاً من ضباط الشرطة الذين تأثروا بمناخ ثورة ١٩١٩ الذى لم يكن قد تبدد أثره، وخاصة إضراب موظفى الحكومة فى ابريل (نيسان) ١٩١٩، ولكنهم فيما يبدو لم يجدوا استجابة لطريقتهم التى وصفها الضابط «ف.ع» بأنها «خطيرة ومستهجنة».

وفيما عدا الحديث عن التمييز بين مكانة ومرتبات الموظفين الأجانب العاملين فى الشرطة ونظرائهم المصريين، فقد بدت الصحف، وهى تتحدث عن بقية الجوانب المتعلقة بنقص كفاءة، بل وفساد، جهاز الأمن، وكأنها تمشى على الشوك. إذ كان الاعتراف بتلك الحقيقة يعطى للمحتلين البريطانيين حجة يستخدمونها للتدليل على عدم كفاءة المصريين لحكم أنفسهم بأنفسهم، وهو ما دفع معظم الصحف إلى فتح ملف الإصلاح الاجتماعى باعتباره العمل الوقائى الذى يحول دون تكرار تلك الجرائم، بل وركز بعضها على هذا المطلب دون غيره.

فربط مقال لـ«وادى النيل» بين «الجهل» وجرائم «ريا» و«سكينة»، فقال إنه «لو كان للعلم سيطرة على النفوس وللتهذيب نفوذ على الأخلاق، لما وصلت بنا الحال إلى ما نرى.. حتى لكأن مصر تتخبط فى ظلمات الجاهلية الأولى». وانتقد سياسة التعليم قائلاً «إن العلم الذى تنشره المدارس ليس هو الذى يهذب النفوس ويمنع ارتكاب الذنوب لأنه خال من غرس العقائد الدينية الصحيحة المحترمة فى القلوب».

ولفت أحد قرائها النظر إلى أن عصابة «ريا» و«سكينة» كانت تستدرج بعض ضحاياها إلى «بيوت الهلاك» بحجة قراءة البخت والزار. وأشار إلى منشور كان الأزهر قد أصدره قبل عامين ينهى به عن هذه المخازى، قبل أن يضيف: «إن العرافين لايزالون - على الرغم من ذلك - يملأون القطر، وحفلات الزار تقام على مرأى ومسمع من رجال البوليس» مطالبا بضرورة «ضرب المنجمين والمشعوذين ومنع الزار».

وكان من بين مظاهر التحلل الاجتماعى والأخلاقى التى طالب محرر «وادى النيل» بالتصدى لها «جلوس النساء الساقطات فى الشوارع وعلى مشارب المقاهى يتناولن المغيبات علانية، ويرشقن المارة بألفاظ الفحش، مما يثير كوامن الشرور الأدبية وغيرها، ويجر إلى حوادث اعتداء بسبب المزاحمات النسائية». وطالب - كذلك - بالتصدى لـ «ما تعرضه السينما من تمثيل للفظائع المنكرة كالتفنن فى اصطياد النساء واحداث الجرائم، فتكون هذه المناظر دروساً إجرامية لهم بدلاً من أن يتعظوا بما تحويه من العبر». بينما أشارت «اللطائف المصورة» إلى مئات الأطفال المشردين فى الشوارع، دون ملجأ يرعاهم، وقالت: إن كل واحد منهم سيكون يوماً «ريا» أو «سكينة» أو «حسب الله» أو «عبدالعال».

واعتبرت «اللطائف المصورة» الأمة كلها - وليس الحكومة وحدها - مسئولة عن جرائم «ريا» و«سكينة» و«علام»، وخصصت صفحتها الأولى، لكاريكاتير يصور الحكومة وهى تسحب من «بحر الجرائم

عشرون صورة لجريمة الاسكندرية الهائلة



العدد الخاص الذى أصدرته مجلة «اللطائف المصورة» عن جرائم ريا وسكينة

الذى لا قرار له» شبكة تضم عدداً من المجرمين الذين اصطادتهم من أفراد عصابتى قتل البغايا فى طنطا والاسكندرية، بينما لايزال البحر مليئاً بعشرات غيرهم.

وفى تعليقها على الرسم قالت «إن اجتهاد الحكومة لاصطياد المجرمين لا يكفى مادام السواد الأعظم من الأمة لا يمد إليها يد المساعدة». ودعت الأمة بأن تقوم قومة واحدة لتدرأ عنها الاخطار التى تهدد أبناءها ومستقبلها فى أمورها الاجتماعية وشئونها الأخلاقية والعمرانية كما هبت أخيراً للدفاع عن مصالحها السياسية». ودعت - كذلك - إلى «تعليم طبقات الأمة الفقيرة تعليماً أوليا، وجمع الفقراء المشردين فى ملجأ يعلمهم الصنائع الصغيرة، وإبعاد النساء الشريرات عن المدن، فلا يقمن بين العائلات، وتقييدهن بقيود شديدة كالأصفاد تغلل بها الاعناق، وفرض المراقبة الشديدة على دور التمثيل الهزلى ومحال السينما توغراف ومصادرة المطبوعات البذيئة والصور الدنيئة». واقترحت لتنفيذ هذه المهام إنشاء وزارة باسم «وزارة الآداب» أو جمعية كبيرة «لاستنباط السلاح الفعال لمحاربة أمراضنا الاجتماعية».

وكان طبيعياً أن تستثمر الجمعيات القليلة التى تنشط فى مجال الخدمة الاجتماعية جرائم «ريا» و«سكينة» لتذكير الرأى العام بأنها فى حاجة إلى الدعم المادى لكى تقوم بدورها. فنشرت «جمعية مقاومة الاتجار بالرقيق الأبيض» بياناً مفصلاً عما انجزته فى مجال رعاية البغايا التائبات، وفى توفير المأوى للمهاجرات الفقيرات لحمايتهن من السقوط. وناشدت ذوى القلوب الرحيمة التبرع لها، لكى تستطيع إنشاء ملجأ لها بالاسكندرية، بعد أن ضاق ملجأ القاهرة بمن فيه.

وكان طبيعيا - كذلك - أن تحفز هذه

الجرائم «نجيب شقرا» - المحامى اللبنانى الأصل وصاحب مجلة «الاستقلال» - إلى التفكير فى إنشاء جمعية باسم «جيش الخلاص» على مثال الجمعية التى أسسها - بالاسم نفسه - فى انجلترا المبشر الإنجيلى «وليم بوث» عام ١٨٧٦، واستمرت بعد ذلك بقيادة زوجته ثم ابنه، للدعوة للأخلاق الحميدة فوجه - على صفحات «المقطم» - نداء لأنصار الفضيلة وأشار فى مقدمته إلى أن سلسلة جرائم طنطا والاسكندرية، هى «مجرد حلقة صغيرة من سلسلة الرذائل التى انتشرت فى العالم كله.. كثمرة من ثمار الإلحاد والانصراف للشهوات».

ودعا «شقرا» كل من فى صدره عاطفة دينية شريفة لتشكيل «جيش من رجال الفضل على مثال جيش الخلاص فى انجلترا، يقسم إلى فرق تتولى إحداها محاربة الدعارة والزنا والبغاء والثانية لمحاربة الخمور والمسكرات وتهاجم الثالثة الميسر وتتصدى الرابعة لدور الخلاعة والملاهى، فتقاوم التهتك والخلاعة فى الملابس والمغازلة والتعرض للنساء فى الطرق العمومية، وسادسة تراقب غرس التعليم الدينى الصحيح فى أذهان الفتيات والفتيان على أن يكون لكل جيش قائد وفرق، وأقسام وضباط»، وناشد «أئمة الدين الكرام من جميع الأديان والمذاهب، وكل من صفت نفسه من أدران الأنغماس فى اللذات البهيمية، ولا تزال فى صدره عاطفة الدين الشريفة، إلى اجتماع عام لوضع الحجر الأساسى لهذا البناء الشريف، الذى يمكن أن يبنى استقلال مصر الحقيقى»..

ولا يبدو أن دعوة «نجيب شقرا» قد لقيت استجابة أو ترحيباً، إذ لم تكن الدعوة لتأسيس جيش مصرى، سواء كان رسمياً لمحاربة الأعداء.. أو شعبياً لمحاربة الرذيلة، مما يمكن قبوله فى تلك السنوات، حتى بعد اكتشاف جرائم «ريا» و«سكينة» و«علام».



ماتزال الصورة الاسطورية لشخصيتى «ريا وسكينة» التى سمعها جيل «لطيفة الزيات»، والأجيال التى تلته فى طفولتهم، قائمة حتى الآن، ربما لأن أحدا لم يحاول أن يبددها، استناداً إلى الحقيقة التاريخية، وربما لأن أحدا لا يريد أن يعرف هذه الحقيقة، حتى لا يهتز يقينه، بأنهما كانتا رمزاً للشر المجرد، أو تسوق هذه الحقيقة إليه ما يمكن اعتباره، ظرفا مخففاً، يبرر خيانتهما لعلاقة العيش والملح التى يقدسها المصريون..

وكانت مسرحية «ريا وسكينة» التى كتبها «بديع خيرى» - واشترك معه فى كتابتها واخرجها، وقام ببطولتها «نجيب الريحانى» امام «بديعة مصابنى» - هى أول عمل درامى، يقدم عن شخصيتهما فقد عرضت لأول مرة، على مسرح «برينتانيا»

فى فبراير (شباط) ١٩٢٢، أى بعد حوالى شهرين من اعدامهما. كما كانت المحاولة الوحيدة آنذاك، لتفسير جرائمهما، استناداً إلى دوافع شخصية، تحولت إلى دوافع اخلاقية عامة، لدى زعيم هذه العصابة، وهو شخصية متخيلة، أطلق عليها المؤلفان، اسم «مرزوق» اشتقاه فى الغالب من اسم «عبدالرازق يوسف»، أحد أفراد العصابة..

ولابد أن الاهتمام الجماهيرى الواسع، بجرائم «ريا وسكينة»، كان وراء تفكير «نجيب الريحانى» - الذى كان آنذاك صاحب فرقة مسرحية تقدم بنجاح كبير، ومنذ سبع سنوات سابقة، الكوميديا الاستعراضية الغنائية - فى استثمار هذا الاهتمام لتقديم عمل مضمون الرواج من الناحية التجارية، خاصة إذا ما لعب على وتر النزعة الأخلاقية المحافظة لدى الجمهور، فأدان الضحايا لتبذلهن الأخلاقى، بنفس الدرجة التى يدين بها القتلة.

أما المبرر الذى يعلنه «الريحانى» فى مذكراته - وتؤكده شواهد أخرى. فهو أنه كان لديه دائما رغبة فى اثبات موهبته كممثل تراجيدى، وأنه اختار أن يقدم مسرحية عن هذه الحوادث الدامية، اشباعا لرغبته الدفينة فى تقديم هذا النوع من الأدوار، التى كان الجمهور بل والنقاد ينظران إليها - آنذاك - باعتبارها الدليل على تمكن الممثل.. وموهبته..

رمع أن الوقائع الحقيقية، لقضية «ريا وسكينة» كانت ماتزال حاضرة فى الذهن بقوة، عندما قدم «الريحانى» مسرحيته، فإن احداثها لا صلة لها بتلك الوقائع، فيما عدا بعض المشابهات التى تلجأ إليها معظم الأعمال الدرامية، التى تعتمد على وقائع حقيقية للإيهام بواقعيتها..

فقد اختار المؤلفان، ثلاث من الشخصيات الحقيقية لأفراد العصابة، هم «ريا» و«سكينة» و«حسب الله»، وأضافا إليهم شخصيتين متخيلتين هما «درغام»، الذى تقتصر مهمته فى العصابة على الوقوف عند الباب الخارجى للمراقبة أثناء تنفيذها لعملية خنق الضحايا، وتنهشه مشاعر الذنب لما يقومون به، مختلطة بالخوف من العاقبة، و«مرزوق» وهو بطل المسرحية ومحور أحداثها، وقد قام بدوره «نجيب الريحانى» واختارا من بين الضحايا الحقيقيين، آخرهم وهى «فردوس»، لكى يقدما لنا - فى فصل واحد - الساعات الأخيرة من حياتها..

وتدور الأحداث - طبقا للنص المطبوع الذى عثر عليه ونشره المؤرخ المسرحى «سمير عوض» - فى بهو بمنزل العصابة. وتبدأ بأصوات غناء مرتفع يأتى من خارج المسرح، نفهم من تعليق «درغام» - الذى كان يقف فى البهو وحيداً لمراقبة الحالة - أنها اصطنعت للتغطية على أصوات استغاثة امرأة، يجرى قتلها فى الداخل.

ثم يدخل «حسب الله» فيدور بينه وبين «درغام» حديث، نفهم منه أن تلك هى الضحية الخامسة عشرة للعصابة. وأن «مرزوق» يمارس عادته فى تعذيب الفريسة قبل قتلها، وأنه هو الذى وجه العصابة إلى القتل بدلاً من الاكتفاء بسرقة حليهن، كما كانت تفعل من قبل. فهو يجد متعة خاصة

فى القتل ببطء، وعلى مهل: ينشب أسنانه وأظافره فى عنق الضحية، ويشدد قبضته ويرخيها على رقبتها ليتلذذ بمشهد تعذيبه لها، قبل أن يذبحها فى النهاية..

ويدخل «مرزوق» وعيناه تقدحان شرراً، ويلفت «درغام» نظر «حسب الله» هامساً، إلى أن الموت يلمع فى عينيه.. ويعامله الاثنان بخوف واحترام، باعتباره زعيم العصابة.. ويتمنى عليه «درغام» أن يبحث عن وسيلة اخرى لقتل الضحايا، بدلاً من أسلوب القتل البطىء الذى يعذب الضحية، ويعذب كذلك الذين يشهدون طقوس القتل.. مطالبا إياه ببعض الرحمة..

ويثور «مرزوق» ويعلن انه لن تأخذه شفقة بأية امرأة، لأن أحداً لم يرحمه: فقد كان شابا مستقيماً، يعود إلى منزله بعد العشاء، ويعيش مع زوجته التى أحبها، ومع ابنته الجميلة «فردوس» التى كانت كل آماله وسعادته فى الدنيا. ولكنه عاد إلى منزله يوما، ليجد هذه الزوجة تخونه مع رجل آخر فى فراش الزوجية. وعندما هم بالدفاع عن عرضه، تصدت له المرأة الخائنة، وتعاونت مع عشيقها على ضربه، فأغشى عليه، وأفاق ليجدهما قد هربا وأخذا معهما ابنته.

ومن يومها عرف الطريق إلى الخمر والحشيش، اللذين زادا من همه، فأقسم ان يثأر من كل النساء الخائنات اللواتى يخدعن أزواجهن، ويبعن اعراضهن، وألا يكتفى بأن يقتل من تقع بين براثنه منهن، قبل أن يعذبها كما عذبته زوجته، فهو يقاوم المدنية الكاذبة والخيانة.. والنفاق..

ويخرج «مرزوق» لتدخل «سكينة». التى



نجيب الريحانى فى دور السفاح مرزوق وبديعة مصابنى فى دور فردوس

نفهم أنها كانت تشترك مع «مرزوق» فى عملية القتل - فتؤنب «درغام» لأنه ارتجف حين فاجأته بظهورها، وتسخر من جبنه الزائد، ومن مخاوفه التى لا أساس لها، معبرة عن استهانتها بكل شيء بالدنيا والآخرة.. وبالشرطة والحكومة.. وتعطى «حسب الله» غوايش الضحية التى تم قتلها وتطلب إليه أن يدرك الصائغ قبل أن يغلق محله، وأن يعود بثمنها.. وعندما يتساءل «حسب الله» بتشكك، ولكن بحذر، عما إذا كان ذلك هو كل ما كانت الضحية تتزين به من مصاغ، تقرعه بشدة، لاسترابته فى ذمتها، فيتراجع بخنوع، ويستمع إلى أوامرها، التى تكشف لنا عن مكانتها المتدهورة فى العصابة، وتؤكد أن «سكينة» هى الشخصية الثانية، بعد «مرزوق» فهى تأمر «حسب الله» - الذى يبدو أقرب إلى الخادم منه إلى عضو العصابة - بأن يشترى لها بطيخة و«كام درهم حشيش» وبعض البخور لأنها لم تعد تتحمل رائحة تحلل الجثث المدفونة فى المنزل..

لكن «حسب الله» ما يكاد يخرج، حتى يعود مرة أخرى، ليخطرها بأن «ريا» قد عادت ومعها الفتاة التى كانت قد تحدثت عنها البارحة، وينصرف ثانية لتنفيذ ما كلفته به..

وتدخل «ريا» وبصحبتها «فردوس» - «بديعة مصابنى» - التى جاءت لتلتقى مع أحد «البكوات» فى موعد غرامى، بناء على ترتيب سابق.. لكن صدرها ينقبض بسبب الجو الذى يحيط بها، فتحاول الانصراف على أن تعود فيما بعد. إلا أن «ريا» و«سكينة» تحاصرانها، وتغلقان الأبواب، وتقومان بتجريدها من حليها وملابسها. ويدخل «مرزوق» فيطلب من بقية أفراد العصابة الخروج، ويهجم على الضحية ويبدأ فى خنقها، وهو يعلنها بحيثيات الحكم باعدامها: فهى زانية، جاءت لتبيع شرف زوجها بعد أن خدعته كما فعلت زوجة «مرزوق» معه فى الماضى البعيد، وعندما تتوسل إليه متشفعة بالنبى يقول لها: نبى مين؟ محمد؟ موسى؟ داوود؟ عيسى؟.. انهى فى دول يا منجوسة قال لك تكونى زانية؟ عليك منهم ميت لعنة.. دوقى الطعنة (ثم يطعنها ويقول) مجوس... رافضة... دروز.. فراعنة.. متبرين م اللى عملتيه!..

وتعرض عليه «فردوس» أن تترك له ولأفراد العصابة مصوغاتها، ولكنه يرفضه مؤكدا ان الحلى ليست هدفه، وأن حياتها تكفيه، وأنه لو عرض عليه مال الدنيا جميعه، لما عوضه عن عرضه، وأن المصاغ، هو هدف بقية أفراد العصابة، لأنهم لصوص.. ولكنه أشرف من ذلك..

ويترك مرزوق الضحية، لبقية أفراد العصابة، ليكملوا عملية القتل. وتصحبها «ريا» و«سكينة» و«حسب الله» إلى داخل المنزل، ويعود «درغام» لمعاتبة «مرزوق» مذكرا إياه، بأن له ابنة، ويسأله: ألا تخاف يوماً يسلط فيه عليك الله، من يخلص ذنب اللواتى تقتلهن من النساء فى ابنتك؟. ويدور بين الاثنين حوار نعلم منه ان ابنة «مرزوق» قد غادرته مع أمها الخائنة وهى فى الثانية من عمرها وأنه لو التقاها لما عرفها، إذ لا توجد علامة يمكن أن يتعرف

بها عليها، إلا حجاب من الفضة، كانت والدته قد أهدته لحفيدتها عند مولدها، ولابد أنها قد تخلصت منه، بعد كل تلك السنوات، كما هو المتوقع من فتاة ربتها أم فاجرة فى بيوت الفواجر، ولابد انها قد تحولت الآن من وردة غضه، وملاك برىء إلى شجرة شوك يمرغ عرضه فى التراب، وإلى شيطان يضل العباد..

وتتصاعد صرخات «فردوس» من الداخل وهى تطلب الرحمة من «ريا» و«سكينة» اللتان تقومان بخنقها.. ويتلذذ «مرزوق» بصرخات الاستغاثة ويصفها بأنها أحلى نغم سمعته آذانه.. ويتجاوب معها فيزعق على «ريا» بأن تعذب الفتاة، وتبرك على قلبها، وتغزها فى عينيها، وتؤذيها وتقطع بالسكين لحمها، ويدخل «حسب الله» ليطلب إليه أن يتقى الله، مضيفاً أن العملية غير مربحة، وأن ما تتحلى به الفتاة من مصوغات ليس ثمينا، إذ هى لا تزيد عن ست غوايش وحجاب من الفضة..

ويتوقف «مرزوق» ذاهلاً أمام اشارة «حسب الله» إلى الحجاب الفضة، ويطلب بلهفة ان يراه، ليتأكد بمجرد رؤيته له ان الفتاة التى يجرى خنقها، وقد خفت صوتها وأصبحت فى النزع الأخير، هى ابنته، وحين يعلن هذه الحقيقة صارخا فى «ريا» و«سكينة» أن ترفعا ايديهما عن «روحه» ويهم بالدخول لإنقاذ الفتاة يتوهم «حسب الله» و«درغام» انه يريد الدخول ليزيد من عذاب الفتاة، فيمنعانه، وحين يتخلص منهما أخيراً، تكون الفتاة قد ماتت، فيعود بجثتها وينهار مغشياً عليه.

ولم تقتصر المشابهة الشكلية بين أحداث مسرحية «نجيب الريحانى»، وبين الوقائع التاريخية. على الشخصيات الحقيقية الأربع «ريا» و«سكينة» و«حسب الله» و«فردوس». بل امتدت كذلك إلى المنطق الذى بنيت عليه أحداثها. إذ استند إلى دفاع «حسب الله» الأخير عن نفسه، الذى لم يقل به فى مختلف اطوار التحقيق والمحاكمة، ولم يذعه إلا وهو تحت أعواد المشنقة وكأنه يقدم دفاعا أمام الرأى العام، أو تفسيراً يريد أن يسجله فى مدونات التاريخ، حين قال تعليقا على منطوق الحكم الذى تلى عليه قبل التنفيذ أنه لو كان قد عاش عاماً آخر، لقطع دابر العواهر من المدينة، لأنهن يستغفلن أزواجهن، ويبحن اعراضهن بقروش قليلة، واحتج على شنقه لمجرد انه قتل «شوية عواهر».

بديع خيرى

وكان هذا هو المنطق الذى رسمت على أساسه شخصية «مرزوق» ليبدو فى صورة القاتل الذى تدفعه إلى القتل دوافع نفسية تولدت عن ظروفه الشخصية، فقد خانته زوجته، على الرغم من حبه لها إلى حد العبادة، ومن استقامته وأخلاقه الطيبة،

وتواطأت مع عشيقها للاعتداء عليه، وخطفت ابنته منه، ثم تحولت إلى دوافع أخلاقية عامة، فقرر أن يقتل بهدف تطهير الكون من النساء الخائنات اللواتى يخن أزواجهن، يغدرن بهم، ويخدعنهم..

ولأن «الريحانى» كان متشككا فى نجاح المسرحية، فقد حرص على أن يقدمها من فصل واحد، كان يعرض عادة مع مسرحية أخرى من النوع الكوميدى الاستعراضى الذى يفضله جمهوره. ومع انه يقول - فى مذكراته - ان المسرحية قد نجحت نجاحاً باهراً، فإن كثير من الشواهد تدل على العكس. ليس فقط لأن قياس مدى الاقبال الجماهيرى على مشاهدة مسرحية ما، يتطلب أن تعرض وحدها، أو لأنه قد اعترف بأن نزواته لأداء الأدوار التراجيدية، كانت تنتهى دائما بانصراف الجمهور عنه من دون أن يستثنى من ذلك، هذه المسرحية بالذات، ولكن - كذلك - لأن الشواهد التى ذكرها على هذا النجاح، تدل على العكس، إذ كانت أصوات البكاء وصرخات المطالبة بالتوقف عن قتل الضحية، تتصاعد من مقاعد المتفرجين، بل ووصل الحال، بأحد المتفرجين، إلى حد أطلق فيه الرصاص نحوه، طالباً منه ان يتوقف عن قتل البطلة، وهو ما يؤكد ان الجمهور، قد تعاطف مع الضحايا، ولم يتعاطف مع القتلة، ولم يقتنع بأن هناك دوافع شخصية، أو مبررات أخلاقية عامة، لما ارتكبوه من جرائم، بعد أن استقر فى يقينه، تلك الصورة الأسطورية التى تتحدى وقائع التاريخ، وتنظر إلى ريا وسكينة ورجالهما، باعتبارهم رمزاً للشر المجرد، الذى لا دافع له، ولا عذر يمكن أن يبرره، أو يعتبر ظرفا مخففا، فى الموازين التاريخية للمؤرخين الفولكوريين.

ولعل عجز مسرحية «ريا وسكينة» - طبعة الريحانى لسنة ١٩٢٢ - فى اجتذاب اقبال الجمهور، أو تعاطفه، كانت الدافع وراء عودة «صلاح أبوسيف» لاستلهام الصورة الأسطورية لهما، فى الفيلم الذى اخرجه بنفس الاسم، وعرض لأول مرة فى ٢٣ فبراير (شباط) ١٩٥٣، ليصورهما بالصورة نفسها، التى انطبعت فى أذهان الذين عاصروهما: مجرد رمز للشر المجرد الذى لا يبرر وليس هناك عذر له.

ومع ان الفيلم يشير إلى انه قد استند إلى تحقيق صحفى كتبه الأستاذ «لطفى عثمان» - وكان أيامها محرراً قضائيا لجريدة «الأهرام» - فإنه يكاد يكون منقطع الصلة بالحقيقة التاريخية - التى سجلتها الصحف المعاصرة للأحداث، بما فى ذلك ما نشر فى صحيفة «الأهرام» ذاتها، بصرف النظر عن عدم دقتها.. ومع أن الروائى الكبير «نجيب محفوظ»، قد اشترك فى كتابة السيناريو مع المخرج، فإن الفيلم يكاد يكون خروجاً عن السياق العام لرؤية الاثنين، اللذين عرفا بالاهتمام بأثر الدوافع الاجتماعية على سلوك الأفراد، على النحو الذى يتضح فى أعمال المرحلة الواقعية فى أدب «نجيب محفوظ»، التى كتبت كلها، ونشرت - فيما عدا الثلاثية - قبل مشاركته فى كتابه هذا السيناريو، كما يتضح - كذلك - فى أعمال المرحلة الواقعية

فى سينما «صلاح أبو سيف»، التى بدأها بفيلم «الأسطى حسن»، وقد عرض قبل ثلاث سنوات من عرض فيلم «ريا وسكينة»..

ويبدأ الفيلم بسيدة تدخل مبنى قسم الشرطة اللبان بمدينة الاسكندرية، وهى تولول صارخة بأن ابنتها «بسيمة» قد اختفت. ويثير ذلك حواراً بين العاملين بالقسم، وبين المواطنين نفهم منه، ومن مانشتات الصحف التى تتالى على الشاشة، أن هذه هى المرأة رقم ٢٦ التى تختفى فى مدينة الاسكندرية، خلال شهر ونصف الشهر، مما أثار الرعب بين السكان، فانهالت الصحف تقريعا على حفظة الأمن، وتوالت الضغوط على قسم شرطة اللبان، للبحث عن اسباب اختفاء الفتيات..

ويبدأ الملازم «أحمد يسرى» ـ الذى قام بدوره ممثل مصر الأول أيامها «أنور وجدى» -معاون مباحث القسم المنقول إليه حديثا، التحقيق فى حادث اختفاء «بسيمة» فيعلم من سؤال أسرتها انها غادرت مشغل الخياطة الذى تعمل به، لتدرك ميعاداً مع اثنتين من صديقاتها هن «سعاد» (سميرة أحمد) التى تقول للضابط انها انصرفت مع صديقتها الاخرى دلال (برلنتى عبدالحميد) لأنهما كانتا على موعد مع سيدتين لا تعرفهما، لكى تصحبهما إلى صائغ تعرفه، يمكن أن يستبدل لهما مصوغاتهما القديمة بأخرى جديدة، على أن تدفعا له الفارق فى الثمن، على أقساط.

وبعد تردد قصير تعترف «دلال» بأنها تركت «بسيمة» مع المرأتين، بعد أن أشار إليها «أمين مرعى» (شكرى سرحان) - الكاتب الذى يعمل مع أبيها المعلم القللى الجزار بالسلخانة - فتوجهت للقائه.. ويؤيد «أمين» روايتها، ويضيف انه على علاقة عاطفية، بالفتاة وينوى أن يتقدم لخطبتها لولا خشيته من شراسة الأب..

ويتجه اهتمام الضابط نحو الصاغة بحثاً عن المرأتين المجهولتين، ويقوده البحث للقبض على لص يبيع مصاغ «بسيمة»، يزعم أنه عثر عليه فى الطريق، ثم يضطر للاعتراف، حين يعرف أنه لاحدى النساء المختفيات يعترف بأنه سرقة من دكان «فرغلى» الفرارجى.. فيقرر «أحمد يسرى» مهاجمة الدكان. لكن «فرغلى» يهرب إلى منطقة المقابر، واثناء اشتباكه مع الضباط، يطلق أحد رجال الشرطة عليه الرصاص، فيسقط قتيلاً، وبذلك ينقطع الخيط مرة أخرى.

أما وقد كشفت المعلومات، عن أن الفرارجى القتيل، كان يمضى أوقاته فى خمارة «سناره» فإن الضابط «أحمد يسرى» يقرر، أن يتنكر فى شخصية فتوة من أبناء البلد، يحمل اسم «دحروج» ويتردد على الخمارة التى غلب على ظنه أن أفراد العصابة يترددون عليها.. ويساهم «حسنين» - أحد المخبرين السريين العاملين فى القسم ـ فى اشاعة الاعتقاد لدى الجميع بأن «دحروج» شخصية حقيقية لمجرم وصاحب سوابق، فيعامله بشراسة، ويهدده أمامهم، بإعادته إلى

السجن الذى خرج منه. إذا لم يرتدع وخاصة وأنه مايزال تحت رقابة الشرطة.

ويظهر «أمين مرعى» فى الخمارة. ليلقى بشباكه حول الراقصة البدوية «وردة» بعد أن لاحظ أفراد العصابة. ما تتحلى به من مصاغ. ويواعدها همساً على الالتقاء بها بعد انتهاء رقصتها. وفى المكان الذى ضرب لها فيه الموعد، تجد فى انتظارها امرأتين، هما «ريا». نجمة إبراهيم. و«سكينة». زوزو حمدى الحكيم. تقودانها إلى منزلهما، خلف قسم شرطة اللبان، حيث تتعرف إلى زوج الأولى «حسب الله» (رياض القصبجى). وزوج الثانية «عبدالعال». (سعيد خليل). وإلى عدد آخر من أفراد العصابة.

وفى انتظار وصول «أمين» الذى تأخر لعذر طارىء تقدم إليها «ريا» كوبا من النبيذ دست لها فيه مخدراً، وتدعوها للرقص، وما أن يدور رأسها حتى يهجم عليها أفراد العصابة. فيكتمون أنفاسها، ويقومون بدفنها فى حجرة مخصصة لذلك فى المنزل..

ويفلت «أمين فرج» من الشبهات التى أحاطت به بعد إبلاغ أسرة «وردة» عن اختفائها قائلاً أنه غادر الخمارة. ليسافر فى الليلة ذاتها إلى دمنهور، بصحبة المعلم القللى، لكى يتعاقدا على صفقة مواشى، ويؤيد «القللى» روايته، ويضيف أنه هو الذى ألح عليه للسفر فوراً..

ويقرر الضابط «أحمد يسرى» تطوير شخصية «دحروج» على نحو يغرى العصابة بضمه إليها. فما يكاد المخبر «حسنين»



الإعلانات التى نشرتها الصحف عن فيلم «ريا وسكينة».

يعاود التحرش به، حتى يتابعه إلى مكان مهجور، ويتظاهر بأنه قد قتله، ويراه أحد أفراد العصابة، وهو «الأعور» (فريد شوقى) الذى كان قد تعقبه، حين رأى امارات الشر على وجهه وهو يخرج ثائراً وراء المخبر، فيساعده على الافلات من مطاردة الشرطة، ويقترح عليه أن يتنكر فى شخصية بائع سجائر متجول اسمه «الشيخ جلال» ويستأجر له غرفة فى لوكاندة السلام..

ويعرض «الأعور» على العصابة، ضم «دحروج» - أو الشيخ جلال - إليها، لكى يحل محل «فرغلى الفرارجى»، فى القيام بدور المراسلة، الذى يحمل مصوغات الضحايا، إلى الصائغ الذى يقوم ببيعها لحساب العصابة، ويوافق الجميع، وتقرر «ريا» التى تتولى القيادة أن يقتصر اتصال «الشيخ جلال» على «الأعور» وحده، فلا يتعرف على أحد سواه من أفراد العصابة.

ويكون تسليم مصوغات الراقصة وردة، إلى الصائغ «عريضه» هو أول مهمة يكلف «الأعور» بها «الشيخ جلال» - أو الضابط «أحمد يسرى» -، الذى يصدر أوامره إلى معاونيه بأن يقوموا بهجوم شامل على الصاغة، اثناء تسليمه المصوغات، حتى لا يشك أحد فى أن «عويضه» هو الهدف، ليمكن القبض عليه لمعرفة شركائه. ولكن الخطة تفشل، إذ ما تكاد الشرطة تقبض على «عويضه» حتى يعاجله «الأعور» الذى كان يراقب العملية، برصاصة تقضى عليه لينقطع الخيط من جديد..

ويتكرر الأمر حين يكلف «الأعور» «الشيخ جلال» بالتواجد فى زنقة الستات - أو سوق الخيط - وإخطاره إذا ما رأى أحداً من رجال الشرطة. وعلى الرغم من وجود المخبرين فى كل مكان من السوق، تنجح «ريا» و«سكينة» فى إغراء إحدى السيدات المترددات عليه، بمصاحبتهما إلى منزلهما، لكى تعرضا عليها ما لديهما من أقمشة جيدة ونادرة، ويحول الحصار الذى فرضته العصابة على «الشيخ جلال» بينه وبين اصدار أوامره إلى معاونيه بمتابعة النساء الثلاث.. فتساق المرأة إلى بيت العصابة، لتقوم بخنقها والاستيلاء على مصوغاتها، واثناء دفنهم لها تستيقظ «نفيسة» - ابنة «ريا» - فتشاهد ما يجرى، وتصرخ فزعة، وتعنف «حسب الله» زوجها لأنه اهمل فى إعطاء الفتاة - الدواء المنوم الذى تعود أن يقدمه لها، حتى لا تعرف شيئاً مما يجرى فى البيت..

ويثير اختفاء الضحية الجديدة - التى وصفتها الصحف بأنها سيدة من أسرة كبيرة - الحملة من جديد على الشرطة، لتقصيرها فى معرفة مصير السيدات المختفيات.. ويطلب «أحمد يسرى» الذى كان لايزال متنكرا فى شخصية «الشيخ جلال» من معاونيه القبض على من تأكد له أنه من اعضاء العصابة، أو اشتبه فى عضويته بها، وفى مقدمتهم «الأعور» الذى يهرب من الشرطة، ويتوجه إلى «الشيخ جلال» فى الحجرة التى يقيم بها فى لوكاندة السلام، لكى يختفى عنده، ولكن الشرطة تنجح - بارشاد «أحمد يسرى» - فى

القبض عليه، بعد أن فضح تنكر الضابط..

ويدفع القبض على هؤلاء العصابة إلى محاولة سد النقص فى قوتها البشرية، فتقرر ترقية «الشيخ جلال» من مجرد مراسلة إلى عضو أصيل، ويسعى «حسب الله» للتعرف إليه، ويفاتحه فى الأمر، ويكلفه بأن يتوجه فى اليوم التالى إلى حدائق النزهة، فإذا ما وجد ثلاث سيدات يصف له اثنتين منهن، فعليه أن يتبعهن إلى المنزل الذى سيدخلن فيه، ثم يطرق بابه ليجد «حسب الله» فى انتظاره.. ويكلف الضابط معاونيه باعداد كمين فى حدائق النزهة، لمتابعة الموكب، ومهاجمة المنزل الذى يصل إليه، والذى استنتج أنه وكر العصابة..

وفى اليوم التالى، تحدث مفاجأة، تؤدى إلى ارتباك الخطة، فقد تقدم «أمين فرج» إلى «المعلم القللى» طالبا يدا ابنته «دلال»، فيرفض المعلم، ويفصله من العمل. وردا على ذلك يقرر «أمين» استدراج الفتاة إلى منزل العصابة لقتلها والاستيلاد على مصوغاتها، ويتوجه «حسب الله» إلى «الشيخ جلال» ليبلغه بالتغيير الذى ادخل على الخطة، ويطلب إليه أن يصحبه إلى منزل العصابة، لأنها عثرت على فريسة بديلة عن فتاة النزهة، فيضطر للاستجابة له، والخروج معه، وينقطع الاتصال بينه وبين معاونيه الذين كانوا ينتظرونه فى المكان المتفق عليه.

ويذهل «أحمد يسرى» عندما يكتشف أن وكر العصابة الذى كان يبحث عنه، يقع فى ظهر مبنى قسم شرطة اللبان، وعلى بعد أمتار قليلة من مكتبه. وفى داخل الوكر يتعرف على بقية أعضاء العصابة التى أصبح عضوا فيها، ويتطوع بأن يتولى نيابة عن «حسب الله» مساعدة ابنته «نفيسة» لكى تأوى إلى فراشها. ويتبادل الحديث مع الطفلة، فتروى له وقائع قتل النساء التى شاهدت بعضها، وتدله على مكان غرفة الدفن.

وفى اثناء ذلك تصل «دلال» بصحبة «أمين» الذى يقدم إليها أفراد العصابة، باعتبارهم أسرته. وتكتشف «ريا» أن الفتاة قد اخطرت صديقتها «سعاد» بنيتها على الهرب مع «أمين». فتمنفه، وتكلفه بأن يستدرج «سعاد» حتى لا تشهد ضده، وينجح «أمين» فى خديعة الفتاة فتخرج معه، بعد أن تزعم لأمها بأنها فى طريقها لزيارة احدى جاراتها، لكن الأم تصر على أن تصطحب معها شقيقها الصغير..

وعندما تهم العصابة بالوثوب على الفتاتين والطفل لقتلهم يكشف «الشيخ جلال» عن شخصيته الحقيقية، ويشهر مسدسه فى وجوههم، وتدور بينه وبين الرجال الثلاثة معركة، كما تشتبك الفتاتين مع «ريا» و«سكينة» فى معركة اخرى، وينجح الطفل الصغير فى التسلل من البيت، ليعود ويصحبته «المعلم القللى» واتباعه من العاملين فى السلخانة، حيث يحاصرون المنزل، ويمنعون من الهروب بقية أفراد العصابة، إلى أن تصل قوات الشرطة، فتقبض عليهم، بالتعاون مع الجماهير، ليساقوا إلى المشنقة.

وعلى العكس من مسرحية «نجيب الريحاني» و«بديع خيرى»، التى حاولت أن تصطنع دافعا ذاتيا وأخلاقيا، لدى «مرزوق» - أو عبد الرازق يوسف- باعتباره كان ضحية لخيانة زوجته له، مما دفعه لكى ينذر نفسه لتخليص البلاد والعباد من شر النساء الخائنات فإن فيلم «صلاح أبو سيف»، لم يعن بأن يفسر مأساة رجال ريا وسكينة، أو يبحث عن الدوافع التى تقف وراء سلوكها الإجرامى البشع، وانطلق من التسليم بأنهم كانوا أشرارا بالفطره، لتبدأ أحداثه بالذعر الذى أشاعته ظاهرة اختفاء النساء، ولتدور كلها حول مغامرات ضابط الشرطة «أحمد يسرى» للقبض على العصابة، إلى أن تنتهى أحداثه بالقبض عليهم واقتيادهم إلى حبل المشنقة.

ولأن الصدقة- وليست الشرطة- هى التى كشفت عن جرائم رجال ريا وسكينة، فإن سيناريو الفيلم، لم يكتف بما أضافه من وقائع متخيلة، استهدفت تمجيد الدور الوهمى الذى قامت به الشرطة، بل وحذف كذلك شخصيات رئيسية مثل شخصية «عرابى» و«عبد الرازق» ليستبدلهما بشخصية «أمين مرعى» و«الأعور» ليشكلا مع «ريا» القطب الرئيسى الآخر فى المواجهة مع ضابط الشرطة، فالأول هو الشاب الدون جوان الذى يجتذب النساء بوسامته ويخدعهن بوعد الزواج، والثانى هو منسق أنشطة العصابة، وضابط الاتصال بين أفرادها وبينهم وبين الصائغ الذى يبيعون له المصوغات.

وفى حين بهت دور كل من «سكينة» و«عبد العال» و«حسب الله» فى الأحداث، وبدت شخصياتهم غير محددة المعالم، ولا ضرورة لوجودها أصلا، الا لمجرد الإيهام بتاريخية الأحداث.. فقد بالغ السيناريو فى دور «ريا» لتصبح- على عكس الحقائق التاريخية- زعيمة العصابة، التى يعنو الجميع لإرادتها، فهى التى ترأس مجلس إدارتها، وهى التى تتابع خطة الأمن، وهى التى تعنف الرجال على تقصيرهم وغفلتهم إلى الحدّ الذى تصفعهم فيه، وتبصق فى وجوههم.

ومع أن فيلم «صلاح أبو سيف» حرص على أن يقدم بعض ملامح المكان الذى وقعت فيه الأحداث، فتعاون المخرج مع مصمم الديكور «ولى الدين سامح» على إعادة تخليق بعضها، إلا أنه- بسبب اتخاذه لمغامرات ضابط الشرطة محورا لأحداثه وفى سياق تهميش دور العصابة ذاتها- اختصر الأماكن المتعددة التى كانت تقيم فيها العصابة، وترتكب فيها جرائمها، إلى مكان واحد، هو المنزل الذى كانت «سكينة» تقيم به، بـ«شارع ماكوريس» خلف قسم شرطة اللبان، وأحاله إلى مقر للعصابة، تستأجره كله، وتقيم فى طابقيه، وتستخدم سطحه فى محاولة الهرب، وبدورمه مدفنا للضحايا، على عكس الحقائق التاريخية، التى تقول بأن «سكينة» وحدها هى التى كانت تقيم فى حجرة من هذا المنزل، بينما كانت «ريا» وزوجها «حسب الله» يقيمان فى حجرة أخرى من منزل آخر يقع فى حارة على بك الكبير، هى الحجرة التى وقعت

فيها معظم الجرائم، ودفنت فى أرضيتها معظم الجثث.

أما الذى غاب تماما عن سيناريو فيلم «صلاح أبو سيف»، فهو زمن الأحداث، صحيح أنه حرص على أن تكون ملابس الشخصيات مناظرة لما كان شائعا فى أحياء الإسكندرية الشعبية فى بدايات القرن العشرين، وأنه وضع صورة السلطان فؤاد فى المكاتب الحكومية، وصورة الزعيم التركى «كمال أتاتورك»، فى منزل «سعاد»، - وكان المصريون يحيطونه آنذاك بمشاعر إعجاب جارفة، بسبب قيادته للمقاومة التركية للغزو الأجنبى - ولكنه تجاهل تماما أن الأحداث كانت تقع فى ذروة ثورة ١٩١٩ فاختفت صورة سعد زغلول، ولم يجرِ أى حوار بين أبطال الفيلم، يشير إلى الأحداث السياسية المواكبة لها، على نحو بدت فيه، وكأنها انسخلت عن الزمن التى جرت فيه وجعل الإشارات إلى الأماكن لا قيمة لها، إلاّ خدمة التناقض بين الشرطة والقتلة، الذين كانوا يرتكبون جرائمهم فى منزل يقع خلف أحد مقارها.

وكان ذلك هو ما دفع النقاد للنظر إلى المعالجة التى قدمها «صلاح أبو سيف» لسيرة رجال ريا وسكينة باعتبارها «معالجة أمريكية»، تركت- كما قال القاص والروائى «سعد مكاوى» فى مقال كتبه عن الفيلم عند عرضه، صلب العمل الفنى وراء ظهرها لتأتى بـ«أنور وجدى» وتلبس بدلة ضابط بوليس وخلائق المهرجين وتدفع به إلى الشاشة ليصول فوقها ويجول».

ويرى المخرج السينمائى «سمير سيف» فى دراسته «أفلام الحركة فى السينما المصرية»، أن التكوين الدرامى لفيلم «ريا وسكينة» قد تأثر بنموذج فيلم رجال العصابات الشائع فى السينما الأمريكية، فاستخدم حيلة شائعة فى هذا النمط من الأفلام، هى حيلة الضابط المتخفى الذى يندس وسط العصابة للايقاع بها، ونقل عنها شخصية «الأعور» الذى يضع عصابة سوداء على عينيه، وهى شخصية غير معروفة فى المجتمع المصرى، وفضلا عن أن استخدام الأسلحة النارية فى الأماكن المسكونة والسواتر، واستخدام المقاعدفى المواجهة بين أفراد العصابة ورجال الشرطة، من ملامح هذا النوع من الأفلام، فإن النهاية القائمة على القطع المتوازى بين معركة الضابط مع أربعة من أفراد العصابة وذهاب الطفل لاحضار نجدة من السلخانة، تكاد تكون ملمحا أساسيا فى فيلم الحركة الأمريكى.

وهكذا خفت التعليق الاجتماعى فى الفيلم، مما دفع الناقد «هاشم النحاس» إلى اعتباره منتميا إلى المذهب الطبيعى الذى يمثل المستوى الأولى من مستويات الاتجاه الواقعى، حيث يبدو الشرير مجرما بطبعه، بينما رصد «سعد الدين توفيق» أن الفيلم لم يقدم تفسيرا نفسيا أو اجتماعيا للظاهرة الإجرامية .. وقال «سعد مكاوى» أنه ظل طوال مشاهدته للفيلم يحاول التعرف على حقيقة «عبد العال» أو «حسب الله» أو «سكينة».. وتساءل » من هو حسب الله؟.. ما هى الظروفة البيئية التى بزغ

منها إلى شهرة الجريمة المدوية، وكيف غدا أحد أبناء البلد خانق نساء وحافر قبور الضحايا.. وريا؟.. ما هى حكايتها؟.. كيف تحولت امرأة أمية من نساء الشعب إلى قاتلة محترفة باردة الأعصاب ميتة الروح؟.. ما الذى أمات روحها؟.. أى مجتمع هذا الذى نجمت منه تلك الأشواك الآدمية المروعة .. من أى مستنقع خرجت؟.. وما الذى كان من أمر شبابها حتى غدت وحشا من الوحوش؟.. ما هو السرّ الحقيقى للجماعة البشرية التسعه التى عاشت فى بيت خلف قسم بوليس اللبان؟».. وختم مقاله قائلا «إن الجريمة حين تكون موضوعا للفن، فلابد أن يعرض لصلتها الدقيقة بيئتها فى إطار الحالة الاجتماعية التى حملتها كالجنين ولفظتها: أى حياة الجموع».

ولا يبدو أن الأسئلة التى طرحها النقاد، قد شغلت منتج الفيلم «بطرس زربانللى» بقدر ما شغله النجاح التجارى الذى حققه، باعتباره واحدا من أفلام الحركة المتقنة. ولولا ذلك، لما قدم، بعد عامين، فيلماً آخر عن شخصيتى «ريا» و«سكينة» ليكرر فيه نفس الأخطاء، بل ربما ما هو أسوأ منها، هو فيلم «إسماعيل ياسين يقابل ريا وسكينة» ليكون ثانى الأفلام التى تحمل فى عنوانها اسم نجم الكوميديا الصاعد آنذاك «إسماعيل ياسين» والتى تتالت حتى بلغت ١٤ فيلماً. وهى سلسلة، استلهمت، كذلك الأفلام الأمريكية التى حملت فى عناوينها أسماء كوميديانات هوليوود الكبار ورصدت المفارقات الساخرة التى تقع حين تتعرض شخصياتهم الهزلية، لموقف يتسم بالصرامة أو المخاطرة أو يثير الرعب، ومن بينها «لوريل وهاردى فى الجيش» و«بود أبوت ولوكاستو يقابلان فرانكشتين».



نموذج للإعلانات التى نشرتها الصحف عن فيلم «إسماعيل ياسين يقابل ريا وسكينة»

وتبدأ أحداث فيلم «إسماعيل ياسين يقابل ريا وسكينة» الذى كتبه «أبو السعود الإبيارى» وأخرجه «حمادة عبدالوهاب» وعرض فى مارس «آذار» ١٩٥٥ بالمشهد نفسه الذى بدأ به فيلم «صلاح أبو سيف»

حيث تدخل سيدة إلى مبنى قسم شرطة اللبان، وهى تولول معلنة اختفاء ابنتها، وشكها فى أن تكون العصابة التى تخطف النساء قد قتلتها.. فيطمئنها المسئولون فى الشرطة بأنهم سوف يبذلون جهدهم للبحث عنها.

وما تكاد السيدة تستدير حتى نعرف أنها «ريا» التى جاءت بصحبة شقيقتها «سكينة» وزوجيهما «حسب الله» و«عبدالعال» لتقديم البلاغ بهدف إبعاد الشبهة عنها، وبمجرد مغادرة العصابة لقسم الشرطة، تقرر إيفاد «عبدالعال» و«الأعور» لاستدعاء الضحية التالية، وهى راقصة فى إحدى المقاهى، كانوا قد اتفقوا معها على إحياء عرس وهمى.

فى المقهى تنهى الراقصة «سنية عجمية» عملها وتستأذن من صاحبته فى الانصراف، لأن لديها عملاً آخر فى أحد الأفراح لكن المعلمة تشك فيها فتكلف المونولوجست السكير (فلفل)- «إسماعيل ياسين»- بأن يتابعها للتأكد من أنها لا تنصرف لكى تعمل فى مقهى آخر.

ويخرج «عبدالعال» و«الأعور» من المقهى بصحبة الراقصة، ويتوجهان فى عربة حنطور إلى منزل العصابة، ويتابعهم «فلفل» جالساً على المقعد الخلفى للعربة، ويتسلل خلفهم إلى المنزل، حيث يرى بعينه «حسب الله» و«عبدالعال» وهما يضيفان المخدر إلى الشراب الذى سوف يقدمانه للراقصة، ويستمع إليهما وهما يرتبان لخنقها وسرقة مصوغاتها، فيتسلل من المنزل إلى قسم شرطة اللبان القريب، حيث يبلغ الشاويش القائم بالعمل بأن هناك جريمة قتل يجرى تنفيذها فى المنزل المجاور.

ومع أن رجل الشرطة تشكك فى البلاغ، خاصة بعد أن شم رائحة الخمر تتصاعد من فمه، إلا أنه يصحبه إلى المنزل ليجد أصحابه، الذين كانوا قد قتلوا الراقصة بالفعل يتظاهرون بتقبل العزاء فى ابنتهم المختفية، فيقرر إيداعه فى سجن القسم، بتهمة السكر والبلاغ الكاذب وإزعاج السلطات فى الوقت الذى تقرر فيه العصابة بزعامة «ريا» - أقوى شخصياتها وأكثرهم سيطرة على أعضائها - قتله بعد أن اكتشف سرها، وتكلف «الأعور» بمتابعته لتنفيذ القرار.

وما يكاد «فلفل» يغادر مبنى قسم الشرطة فى صباح اليوم التالى حتى يبدأ «الأعور» (نظيم شعراوى) فى مطاردته، محاولاً قتله أكثر من مرة، لكن الحظ الحسن يخدمه فيتمكن من الإفلات منه كل مرة، بينما يشك المحيطون به- وفى مقدمتهم خطيبته «ناو ناو» (ثريا حلمى)- أن ما يرويه عن محاولات الرجل «الأعور» لاغتياله، هى مجرد هلاوس بسبب إدمانه للخمر.

وفى أثناء زيارة له، قام بها «عبدالفتاح القصرى»- لص المنازل الذى كان قد تعرف إليه أثناء سجنهما معاً فى تخشيبة قسم شرطة اللبان- يعثر اللص على منظار مكبر يستخدمه فى التلصص عبر شرفة المنزل

على جيران «فلفل» فيشاهد «ريا» و«سكينة» وهما يتفقدان ثروتهما من مصوغات الضحايا، فيقرر التسلل إلى منزلهما لسرقتها، ويعرض على «فلفل» مشاركته. ولكنه يرفض داعياً إياه إلى التوبة والاعتماد على الرزق الحلال.

وفى مواجهة فشله المتكرر فى قتل المونولوجست السكير ينضم «حسب الله» إلى «الأعور» فى مطاردة «فلفل» وينتهزان فرصة مشاجرة جرت فى المقهى بين اثنين من السكارى فيفصل أحدهما الكهرباء، ويقذفه الآخر بسكين تخطئه وتصيب أحد الرواد، فتقضى عليه ويتهم «فلفل» بقتله، مما يضطره إلى الهرب، ليتلقفه «حسب الله» ويعرض عليه أن يقوم بإخفائه من الشرطة، ويقوده إلى منزل العصابة، حيث تجرى أكثر من محاولة لقتله لكنه يستطيع الإفلات منها، بمساعدة اللص «عبدالفتاح القصرى» الذى كان قد تسلل إلى المنزل ليسرق المصوغات.. ويعود «فلفل» إلى منزل خطيبته «ناو.. ناو» ويتناول دواء منوما ليغط فى نوم عميق.

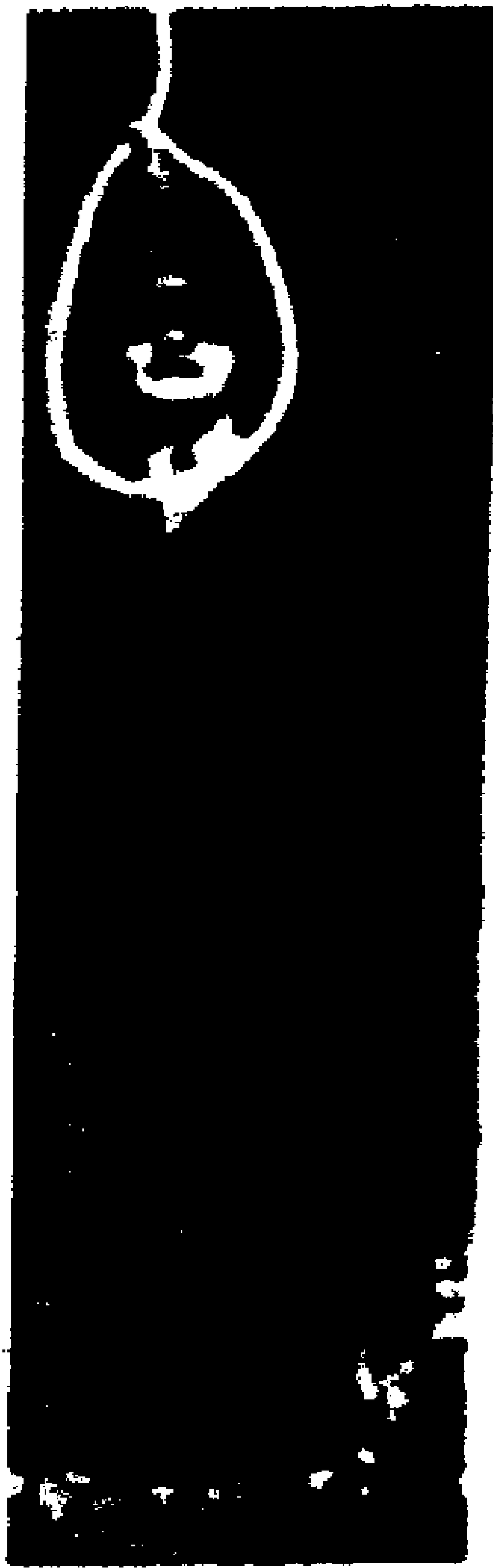
وفى أثناء نومه تزور «ريا» و«سكينة» منزل خطيبته، وتزعم الأولى أنها أمه، وتدعى الثانية أنها خالته، وتنجحان فى خديعة «ناو ناو» وأمها، فتوافقان على نقله إلى منزل الأم وتصاحبانه إليه، بعد أن زعمت الأم المزيفة بأنها سوف تقيم به زاراً، يشفيه من الهلاوس التى يعانى منها، ليفاجأ الجميع عند وصولهم بأنهم فى وكر العصابة، وليسوا فى بيت أسرة «فلفل».

وينجح «فلفل» مرة أخرى فى الهرب، ويحاول استدعاء قوات الشرطة لكى تنقذ خطيبته وأمها اللتين كانتا لا تزالان فى قبضة العصابة. لكن رجال الشرطة الذين كانوا يتعاملون معه باعتباره سكيرا يتخيل أشياء لا تحدث، يأمرون بحبسه فى تخشيبة القسم، وهناك يلتقى مرة أخرى بصديقه اللص «عبد الفتاح القصرى» الذى كان قد حاول الإبلاغ عن العصابة، فقبضت عليه الشرطة باعتباره من معتادى السرقة.. ومرة أخرى ينجحان فى الهروب، ويتوجهان إلى منزل العصابة، بعد أن خطفا بندقية أحد رجال الشرطة، التى طاردتهما لاستردادها، وبهذه الحيلة، يدفعانها لاقتحام منزل العصابة خلفهما، فتكتشف الحقيقة وتقوم بالقبض على أعضائها بعد اشتباكات هزلية، بينما يتزوج «فلفل» - الذى يقرر الاقلاع عن الخمر- من «ناو» «ناو»، ويقرر اللص التوبة عن السرقة.

ولأن الرغبة فى استثمار النجاح التجارى لفيلم «صلاح أبو سيف» كانت الدافع الوحيد لتقديم فيلم «إسماعيل ياسين يقابل ريا وسكينة»، فقد حرص صناعه على الاحتفاظ بأدوار أفراد العصابة فى الفيلم الأول لنفس طاقم الممثلين، كمحاولة لاجتذاب الجمهور، فمثلت «نجمة إبراهيم» و«زوزو حمدى الحكيم» دورى «ريا» و«سكينة» ومثل «رياض القصبجى» و«سعيد خليل» دورى «حسب الله» و«عبد العال»، كما احتفظوا - كذلك - بشخصية «الأعور» المتخيلة، وقام

بأدائها الممثل «نظيم شعراوى» بدلا من «فريد شوقى» الذى كان قد تحول خلال هذين العامين إلى نجم سينمائى، وفضلا عن الاحتفاظ لهذه الشخصيات بملابسها واكسسوارها، فقد احتفظ الفيلم كذلك، ببعض ديكورات الفيلم الأول، وخاصة بهو منزل العصابة.

وفيما عدا حلول «إسماعيل ياسين» محل «أنور وجدى» فى بطولة الفيلم - بحكم التناول الكوميدى للموضوع - فإن الطابع العام للفيلمين واحد، فهما يقومان على المطاردة بين ضابط الشرطة «أحمد يسرى» والعصابة فى الفيلم الأول، وبين العصابة والمونولوجست «فلفل»- الذى اكتشف سرها صدفة- فى الثانى، ويعتمد التشويق فى كل منهما على فشل محاولات الضابط المتكررة للقبض على العصابة، وفشل محاولات العصابة المتكررة للقضاء على «فلفل».



إعلان مسرحية «سر السفاحة ريا»

وكان طبيعيا أن يقع الفيلم الثانى فيما وقع فيه الفيلم الأول من أخطاء، فيهمش دور الشخصيات الحقيقية لصالح الشخصيات المتخيلة، وأن يبدو الرباعى «ريا» و«سكينة» و«عبد العال» و«حسب الله» كما لو كانوا فريقا من الكومبارس المتكلم، لا تكاد ملامح شخصية كل منهم تتميز عن ملامح الآخر، وأن يبتعد مثله عن الحقائق التاريخية التى تتعلق بالواقعة، مكررا التصور نفسه الذى قدمه فيلم «صلاح أبو سيف»، فـ «ريا» هى زعيمة العصابة والمتصرف فى شئونها، والشقيقتين تقومان بكل العمل، فتستدرجان الضحايا وتقتلانهم، بينما يقتصر دور الرجال على حفر القبر ودفن الضحايا اللواتى يتجاهل الفيلم كل صلة لهن بأفراد العصابة.

وليس هناك ما يدعو للحديث عن رؤية

الفيلم، إذ أن الذين صنعوه لم يهتموا بأن تكون لهم رؤية، بل إن الموعظة الأخلاقية السطحية التى حرص صناعه على إنهائه بها، بإعلان لص المنازل توبته عن السرقة وإعلان فلفل إقلاعه عن شرب الخمر، بدت غير مبررة ولا صلة لها بالأحداث، ولا يبدو أن الفيلم قد حقق حتى الهدف التجارى من صنعه، بسبب تفكك سياقه وعدم منطقية أحداثه.. فضلا عن خفوت الفكاهة فيه إلى الحد الأدنى.

لكن الأسئلة التى طرحها فيلم «صلاح أبو سيف» لم تمض من دون تأثير.. ففى نوفمبر «تشرين ثان» من العام نفسه، ١٩٥٥، شكلت «نجمة إبراهيم» -التى لعبت فى الفيلمين دور «ريا» أمام «أنور وجدى» و«إسماعيل ياسين»- فرقة لكى تقدم مسرحية «سر السفاحة ريا» التى كتبها وأخرجها زوجها «عباس يونس» ولم يستمر عرضها سوى أسابيع قليلة.

ومن سوء الحظ أننا لم نستطع أن نعثر على نص المسرحية، ولم نجد فى الصحف المعاصرة لعرضها ما يكفى لإعادة تركيب أحداثها، أو حتى لمعرفة كل أبطالها.

على أن القليل الذى عثرنا عليه، يكشف عن أنها كانت عملا تجريبياً، لعله كان الأكثر جدية، وعمقاً فى تناول الواقعة، فإعلانات المسرحية، تشير إلى أن النص الذى كتبه «عباس يونس» قد استند إلى بحث نفسى، كتبه الدكتور «محمد فتحى» أحد أكبر علماء النفس فى ذلك الحين.

ويكشف مقال كتبه «ألفريد فرج» - الكاتب المسرحى الشهير بعد ذاك والذى عرضت مسرحيته الأولى «سقوط فرعون» فى الموسم ذاته- عن بعض مشاهد المسرحية، التى ربما تفيد فى تصور الجو الذى دارت فيه أحداثها، فهو يقول: «إنك لترى مثلاً أبو «ريا» وهو يساوم رجلاً ليتزوجها مقابل مائة جنيه فى مشهد مستقل، ثم تراه فى مشهد آخر وهو يؤنب الرجل بعد أن أعطاه المائة جنيه ثم لم يتزوج بابنته فيغلظ له الرجل فى القول ثم ترى الأب فى بيته بعد ذلك فى مشهد ثالث يموت كدا وغيظا وحسرة على ابنته «ريا» الدميمة».

ويرى «ألفريد فرج» فى مقاله -الذى نشرته مجلة «التحرير» فى ١٦ نوفمبر «تشرين ثان» ١٩٥٥- أن مسرحية «سر السفاحة ريا» هى «أقرب إلى السيرة منها إلى الدراما»، فالمشاهد فيها «تتنقل بسرعة وفى تتابع من الصعيد إلى كفر الزيات إلى الإسكندرية خلال فترة عشرين عاماً»، ويضيف أن «سر (السفاحة) ريا» الذى تعرض له المسرحية، يكمن فى «دمامتها وفقرها وفشلها فى الحياة لأنها دميمة وفقيرة.. وهذا الفشل مما يملأ قلبها بالحقد على الحسناوات واللعوبات و بالكراهية والعطش إلى العدوان عليهم».

وفى نقده للمسرحية من الناحية الفنية أشار «ألفريد فرج» إلى أنها «ليست مسرحية نفسية كما أراد لها المؤلف أن تكون.. لأن الكشف عما تبطنه نفس «ريا» لم تقم به مجموعة الممثلين ولم يدل عليه تطور الحوادث.. وإنما قاله الميكروفون

بصوته الرخيم»، فى تفصيله لذلك قال: «إن البطل فى المسرحية هو الراوى فى الميكرفون والستار مسدله، الذى أخذ يسرد الأحداث، ويربط فيما بينها» وهو ما يجعل الأصل فيها «ليس الموقف المسرحى.. ولكنه الميكروفون.. والمشهد المسرحى يقدم للمتفرج صوراً من الحدوتة تقديماً مؤثراً»..

وانتهى «ألفريد فرج» إلى أن «سر السفاحة ريا» ليست مسرحية ولكنها «نمط آخر من الفن أشبه بالسيرة أو الراوية». ومع إقراره بأن هذا النمط من الفن «ليس معيباً فى حد ذاته، إذ لا يستطيع أحد أن يرغم فناناً على أن يلتزم بالأسلوب التقليدى للفن» إلا أنه اعتبر أن «التجديد» فى شكل المسرحية كان مفاجأة للجمهور خيب أمله «فقد ذهب الناس ليشاهدوا مسرحية كالمسرحيات التى ألفوا مشاهدتها فصدمتهم تجربة «عباس يونس» التى تقدم لأول مرة». وهو ما أدى -كما أضاف- إلى انصرف الجمهور عنها- وأضاف أن شكل المسرحية القائم على السرد، يجعلها أقرب إلى «الموال الشعبى والملحمة الشعبية وخيال الضل وصندوق الدنيا» وحكم بأنها «لو عرضت فى الريف، لكان من المحتمل أن تنجح»، ولكن عرضها فى القاهرة جعل الجمهور يعرض عنها إعراضاً قاسياً ظالماً».

أما المؤكد فهو أن العثور على نص مسرحية «سر السفاحة ريا» ليس مهما فقط لاستكمال تقييم الرؤية الفنية لحالة «ريا وسكينة» بل هو مهم -كذلك- لاستكمال فهم تطور المسرح العربى، إذ يبدو من الإشارات التى قدمها «ألفريد

. لافتة تحمل اسم شارع محمد يوسف فخر «ماكوريس سابقا»



فرج» فى مقاله- ومن بينها الإشارة إلى أن الأحداث تجرى بين الصعيد وكفر الزيات والإسكندرية- أنها كانت أشبه بمسرحية تسجيلية على النحو الذى جربه «ألفريد فرج» نفسه بعد ذلك فى مسرحيته الوثائقية «النار والزيتون» التى عرضت فى العام ١٩٦٩، فضلاً عن احتمال أن تكون أول تجربة للأسلوب الذى اتبعه «توفيق الحكيم» بعد ذلك، فيما أطلق عليه «مسرواية»، أى النص الذى يجمع بين الرواية والمسرحية.

على أن الإشارات القليلة التى وصلتنا عن النص، فضلاً عن استعانة مؤلفه ببحث لأحد علماء النفس، يكشف عن أنه قد فسر نزوع «ريا» الإجرامى بعقدة نفسية تولدت من قبحها ودمامتها ونفور الرجال منها، وهو ما دفعها للحقد على النساء الجميلات وسعيها لقتلهن بسبب الشعور بالنقص الذى تملكها تجاههم، وهو يقترب من التفسير الذى قدمته مسرحية «نجيب الريحانى» و«بديع خيرى» التى بررت إجرام «مرزوق» «بخيانة زوجته له، وهربها منه مع عشيقها، مما أفقده الثقة بالنساء ودفعه للحكم بخيانتهن وبالتالى استحقاقهن للقتل.. وفى الحالتين فإن التفسير يستبعد تماماً الدوافع الاجتماعية، كالفقر والبطالة وما أحدثته سنوات الحرب الأولى من شروخ فى المنظومة الخلقية الفردية والجماعية وخاصة لدى الفئات الدنيا من المصريين.

ويبدو أن الفشل التجارى الذريع الذى حققه فيلم «إسماعيل ياسين يقابل ريا وسكينة» ومسرحية «سر السفاحة ريا» كان وراء غياب الشخصيتين عن خشبة المسرح وشاشة السينما طوال الأعوام الثلاثين التالية، إلى أن عادت الدراما المصرية لتناولهما مرة رابعة، فى عرض يجمع بين الكوميديا الغنائية ومحاولة التفسير النفسى للسلوك الإجرامى «لآل همام»، وهو العرض المسرحى «ريا وسكينة» الذى قدمه فرقة الفنانين المتحدين -عام ١٩٨٢- وقامت ببطولته «شادية» و«سهير البابلى» وكتبه «بهجت قمر» وأخرجه «حسين كمال».

ويلخص المشهد الافتتاحى الاستعراضى الذى كتبه الشاعر «عبدالوهاب محمد» الرؤية التى يقدمها النص فى عبارة «ريا وسكينة/ اثنين من المشاهير/ لهم ضحايا كتير/ لكن محدش قال/ هما ضحية مين؟» وهو سؤال يوحى بأن المسرحية محاولة ثالثة- بعد مسرحية «بديع خيرى» و«نجيب الريحانى» ومسرحية «عباس يونس»- لكشف الدوافع الاجتماعية والنفسية التى قادت ابنتى «على همام» لارتكاب جرائمهما.. تجمع بين الكوميديا والتراجيديا.. وبين مسرحية «نجيب الريحانى» وفيلم «إسماعيل ياسين».

مع فتح الستار، نجد أنفسنا فى «كراكون- أو قسم شرطة- اللبان» ذات صباح من أحد أيام العشرينيات خلال حكم «الملك فؤاد» التى تتصدر صورته الحائط الذى يقع خلف مكتب الضابط النوبتجى. وهو الأومباشى «عبدالعال الجرجاوى عوف عبدالعال» الذى نقل للعمل بالكراكون

قبل أربعة شهور، وهو الآن، الذى يدير القسم بعد قيام رؤسائه وزملاءه بإجازاتهم الصيفة.

وما يكاد «عبدالعال» -أحمد بدير- يدخل إلى مكتبه، حتى تدخل «سكينة» وهى أرملة شابة فى الثلاثين من عمره



إعلان مسرحية «ريا وسكينة» لفرقة المتحدين

تعمل دلالة وتسكن فى الدور الأرضى المنزل المجاور للقسم، وهى تحمل له كوب شاى الصباح، كما تعودت أن تفعل منذ انتدب للعمل فى القسم، فى إطار خطة رسمتها لاقتناصه كزوج، بعد أن علمت أنه أعزب، تلك الخطة التى تشمل -فضلاً عن الغزل العلنى- إغراقه بأطباق الطعام، وبأكواب الشاى والقهوة والمثلجات، لكن «عبدالعال» لم ينتبه إلى هدفها، إذ لم يكن يظن أنه يمكن أن يكون مطمعاً لامرأة فى جمالها، وهو شاب صعيدى ساذج على الفطرة.

وما تكاد «سكينة» تخرج حتى تدخل «أم بدوى» سميحة توفيق صاحبة المنزل رقم ٥ بحارة على بك الكبير، الذى تستأجر «سكينة» وشقيقتها «ريا» شقة فى الطابق الأرضى منه، لتتقدم بشكوى ضدهما، لكثرة تردد الرجال عليهما، مما يسيئ إلى سمعة البيت، وتضيف بأن هناك عازف بيانولا متجول، لا يكف عن الوقوف تحت نافذتهما ليتغزل فيهما.. ويستدعى «عبدالعال» المشكو فى حقها ويدهش حين يعرف أنها «سكينة» التى تنفى الإتهام، قائلة إنها وشقيقتها تعملان بالدلالة، وأن الرجال الذين يترددون عليهما، هم تجار يوردون لهما الأقمشة والإكسسوارات النسائية اللتان تقومان بتوزيعها على النساء فى البيوت.

وتنتقل الأحداث إلى مسكن الشقيقتين، حيث تتواصل الاحتكاكات بين «ريا» (شادية) وبين «أم بدوى» بسبب عازف البيانولا المتجول «حسب الله» (عبدالمنعم مدبولى) الذى يهواها، ويرغب فى الزواج منها، لكنها تصر على الرفض، بسبب ذكريات سيئة تعود إلى فترة طفولتها، فقد أغوت «خالة أمونة» ابنة عم أمها- أباهما، وتآمرت معه على قتل الأم، مما جعلتها تفقد الثقة بالرجال.. وكانت الأم، قد أصيبت بحمى، فتطوعت «أمونة» لكى ترعاها أثناء مرضها، واستيقظت «ريا»

ذات ليلة لتشاهد ابنة العم وهى تبلل منديلاً بالماء، وبدلاً من أن تضعه على جبهة المرأة المحمومة، وضعته على فمها، فكتمت أنفاسها، وماتت.

ومع أن «ريا» الصغيرة، أبلغت الأب بما شاهدته، إلا أنه رفض تصديقها، وشهد لصالح المرأة، ولم تفهم موقف الاثنين إلا عندما تزوج الأب، ابنة عم زوجته المتوفاة بعد أربعين يوماً من رحيلها، لتعيش -هى وشقيقتها «سكينة»- معهما، حياة شقية، تفاقمت تعاستهما بعد وفاة الأب، إذ أصرت «خالة أمونة» على تزويج «سكينة» من رجل فى السبعين، ودفعت بـ«ريا» لكى تعمل خادمة فى قصر أحد الأمراء، وهو ما دفعهما للهرب منها قبل خمس سنوات.

وتدخل «خالة أمونة» فتستقبلانها بفتور، ولكنها تعاتبهما على هربهما منها، مؤكدة أنها ظلت طوال السنين الخمس الماضية تبحث عنهما، حتى عرفت عنوانهما، وانتظرت حتى باعت المحصول وجاءت للإسكندرية لكى تشترى بعض المصوغات، ولكى تلتقى بهما، فهى تحمل لهما نبأ ساراً، إذ فوضها عمدة القرية فى أن تختار له عروساً، فرشحت له إحداهما، وأنها جاءت لتصحبهما معها، لتعرضهما عليه، ليختار منهما العروس. وترفض الاثنتان، وتذكرانها بما ارتكبته فى حقهما من جرائم، من قتلها لأمهما، إلى تعذيبها لهما، وتزويجها «سكينة» على غير إرادتهامن عجوز فى عمر جدها، وعندما تفشل زوجة الأب فى إقناعهما بالسفر معها، تهددهما بأن تدل أقاربهما فى القرية إلى مكان وجودهما، وبأنهما تقيمان علاقات غير شريفة بالرجال، وآنذاك فسوف ينهال الرصاص عليهما.

ومع تصاعد التهديدات، تقرر «ريا» التخلص منها بالطريقة ذاتها، التى تخلصت بها «أمونة» من أمهما، فتبلل منديلاً بالماء، وتكتم أنفاسها، حتى تموت.. وكانت لا تزال تتناقش مع شقيقتها حول وسيلة التخلص من الجثة، حين تصاعد عزف «حسب الله» على البيانولا، فتستدعيه «ريا» وتغريه باستعدادها للزواج منه، مشترطة أن تكون العصمة بيدها، ثم تطلب إليه بعد عقد قرانهما، أن يحمل الجثة لدفنها فى البدروم، وعندما يتردد، تهدده «سكينة» باتهامه بأنه الذى خنق زوجة الأب، بسبب رفضها الموافقة على زواجه من «ريا» فيضطر إلى مساعدتهما ويهبط بالجثة إلى بدروم المنزل.

وتدخل صاحبة المنزل «أم بدوى» وبصحبتها الأومباشى «عبدالعال» الذى جاء ليستكمل تحقيقه فى البلاغ الذى تقدمت به المرأة ضدهما، بعد أن أبلغته بأنهما تستضيفان رجلاً. وتعلن «ريا» أن الرجل هو زوجها «حسبو» الذى يصعد فى تلك اللحظة قادماً من البدروم وهو يحمل مصوغات «الخالة أمونة» وتدعى «ريا» أنها الشبكة التى قدمها لها زوجها. وينصرف الأومباشى «عبدالعال» بينما تتشكك «أم بدوى» فى أن صعلوكاً مثل «حسبو» يمكن أن يقدم لزوجته شبكة بهذه القيمة، وتصر على تفتيش البدروم، لكى تتأكد من أن السكان لم يعثروا فى أرضيته على كنز



: هكذا يبدو «شارع كراكون اللبان» اليوم

كانت قد سمعت فى طفولتها أن أحد أجدادها قد دفنه به، وأمام إصرارها، تقرر العصابة أن تكتم أنفاسها بالطريقة ذاتها، وأن تدفنها فى البدروم وتستولى على مصوغاتها.

فإذا كان المشهد الثالث فنحن فى «زنقة الستات» - السوق الشعبية للأقمشة والإكسسوارات النسائية بالإسكندرية - حيث يشيع الحديث بين المترددات عليه حول وجود عصابة تستدرج النساء وتقتلهن، وأن عدد النساء المختفيات قد ارتفع إلى خمسة، وتظهر «ألفت» وهى فتاة فى الثامنة عشر، مع والدها «البرنس شريف بك» فى إطار جولتهما بالسوق لكى تختار الفتاة، بعض لوازم عرسها الوشيك، ويتوقفان أمام محل صديق للأب من تجار الزنقة، فتواصل الفتاة جولتها بينما يجلس الأب مع صديقه «جميل عكاوى» ونفهم من الحوار الذى دار بينهما، أن «البرنس شريف» كان قد أغرم وهو فى مقبل شبابه، بخادمة كانت تعمل فى منزل أسرته، وأنجب منها طفلة، ولكن والدته رفضت فكرة زواجه بها، وطردتها من المنزل، بعد أن أوهمتها أن الطفلة التى أنجبتها قد ماتت، وأجبرته على الزواج من امرأة أخرى، سافر معها ومع الطفلة إلى باريس، حيث غاب لسنوات.. وعندما ماتت زوجته حاول أن يبحث عن أم الطفلة التى لا يزال يحبها، ولكن محاولاته فشلت، أما الطفلة فهى نفسها «ألفت» التى تستعد الآن للزواج.

وتظهر «ريا» و«سكينة» فى الزنقة فهى

المجال الذى تصطادان منه النساء اللواتى يمتلكن مصوغات ذات قيمة، لقتلهن، وتدفنانهن فى البدروم، بعد أن أصبحتا بسبب ذلك تعيشان فى حياة رغدة.. وتنجحان فى استدراج إحدى السيدات من الزنقة حيث تقودانها إلى المنزل وتقومان بخنقها، بينما يقوم «حسب الله» بدفنها.

وفى أثناء قيامه بذلك، يدخل الأومباشى «عبدالعال» فجأة، لكى يطلب معاينة المنزل، تطبيقاً لتعليمات الأمن التى تقضى بتنبيه السكان إلى أن فى البلد عصابة تقتل النساء، وبعد أن يفعل، يطلب إليهم أن يحصنوا النوافذ بأسياخ حديدية، لكى يتقوا هجوم تلك العصابة، خاصة وأنهما سيدتان تمتلكان مصوغات يمكن أن تغرى العصابة باتخاذهما هدفا لها، وتقترح «ريا» على شقيقتها «سكينة» أن تستدرج «عبدالعال» لكى يتزوج منها، كما فعلت هى مع «حسب الله» لكى يكون هذا الزواج ساتراً يبعد عنهما شكوك الشرطة.. وهو ما يحدث بالفعل.

وبعد أيام من الزواج، تكلف «سكينة» زوجها بأن يبيع ما تجمع لديهما من مصوغات الضحايا، متذرعة بأن زوجة أبيها مريضة، وتحتاج إلى النقود ويعجب «عبدالعال» بتضحيتها من أجل زوجة أبيها فيقبل القيام بالمهمة، فى الوقت الذى تعلن فيه الشرطة أنها قد أصدرت تعليمات لمحلات بيع الذهب بمواصفات مصوغات العصابة، وعندما يعود «عبدالعال» من دون أن يبيع المصوغات، تتصور الشقيقتين و«حسب الله» أنه فضح أمرهم، ثم يتضح أنه قد عاد، بعد أن تبادر إلى ذهنه أن «سكينة» تريد أن تبيع المصوغات لكى تنفق عليه وعلى المنزل.

وفى زنقة الستات التى تعود إليها الأحداث بعد مرور أسابيع، يواصل «البرنس» وابنته «ألفت» التجول بين المحلات لاستكمال شراء ما تحتاج إليه من أقمشة لجهاز عرسها الوشيك، فى الوقت الذى يتحدث فيه الجميع عن زيادة عدد الضحايا إلى ٢٠ امرأة، وتتعرف «سكينة» المتنكرة باسم «قشطة»، إلى «ألفت» وتغريها بأن تصحبها إلى منزلها لكى تعرض عليها أقمشة نادرة غير معروضة للبيع فى السوق.. لكن الأب الذى يدركهما قبل الانصراف، يعترض لشكه فى أن تكون «سكينة» عضو بالعصابة لولا تدخل صديقه «جميل عكاوى» التاجر بالزنقة، الذى يفض الاشتباك بين الطرفين، ويستضيف الأب، ويدور بينهما حديث نفهم منه أن «ألفت» هى ابنة «ريا» خادمة القصر التى طردت منه، بعد أن أفهمتها أم «الأمير شريف» أنها ولدت ميتة، وأن زوجته قد تبنتها وقبلت أن تنسبها إليها.

وبظهور «ريا» فى «الزنقة» تلتقى بشقيقتها وتنجحان فيما فشلت «سكينة» فى القيام به وحدها، فتتمكنان من استدراج «ألفت» إلى منزلهما، لكى تعرضا عليها ما لن تستطيع أن تعثر عليه فى الأسواق من أقمشة.. وما تكاد الفتاة تبدأ فى تفقد البضاعة، حتى يقدم إليها «حسب الله» شراباً مخدراً، وقبل أن يقوم الثلاثة بدفنها، يدق الباب فيسرعون بإخفائها ويدخل

«عبدالعال» ليخطرهم بأنه كان فى جولة تفتيشية فى الزنقة وسمع باختفاء فتاة شابة والتقى بأبيها، واستمع إلى أقواله، ويضيف أنه توصل لاستنتاجات تجعله يرجح أن العصابة التى تخطف النساء وتقتلهن تتكون من امرأتين شقيقتين، يتعاونان فى إغراء الضحية، ويقتسمان الأدوار فيما بينهما، وأن هناك رجلاً، لابد أنه زوج أحدهما، يساعدهما على قتل الضحية ودفن جثتها.



شريهان ويونس شلبى فى ملابس ريا وسكينة

وتستشعر «ريا» خطورة استنتاجات «عبدالعال» التى تجعله قاب قوسين أو أدنى من التوصل إلى الحقيقة فتهم بكتم أنفاسه، ولكن «سكينة» التى تحبه تعارض فى ذلك، وما يكاد «عبدالعال» يغادر البيت إلى قسم الشرطة، حتى ينشب صراع عنيف بين «ريا» و«حسب الله» من جانب، و«سكينة» من الجانب الآخر حول اتخاذ قرار بقتل «عبدالعال» ويحسم «حسب الله» الصراع لصالح قرار قتل «عبدالعال» ويعلنهما بأنه سوف يهبط إلى البدروم، لكى يحفر قبرين، أحدهما لـ«ألفت» ابنة «البرنس»، والثانى لـ«عبدالعال».

وما يكاد ينصرف حتى يدور حوار صاخب بين الشقيقتين تقطعه عودة «عبدالعال» ومعه والد الفتاة المختفية قائلاً إنه قرر استضافته ختى يقدم له فنجان من القهوة، وما يكاد يلتقى بـ«ريا» حتى تعرفه على الفور، فإذا به «شريف» ابن «البرنس»، الذى أغواها وحملت منه، ثم طردتها أمه من القصر، وبعد حوار قصير بينهما يعترف لها بأن ابنتهما لم تولد ميتة كما أوهمتها أمه، وتعرف أنها هى ذاتها الفتاة التى استدرجتها من الزنقة فتنادى «سكينة» من الداخل لتخطرها بالخبر، لتفاجأ أنها قد قتلتها، لتتعالى صرخة الاثنين وتتهاوى «ريا» على الأرض، بعد أن اكتشفت أنها قتلت ابنتها ويسدل الستار عن الأحداث.

ولايبدو أن صناع المسرحية، قد اهتموا أدنى اهتمام بالحقائق التاريخية، التى تكاد تغيب عن أحداثها، على نحو يوحى بأن النص كان محاولة لإعادة صياغة المسرحيات والأفلام التى قدمت من قبل عن الحدث من دون أدنى اهتمام بالعودة إلى المعلومات التاريخية، فقد تحول «عبدالعال» من أحد أفراد العصابة، إلى أحد رجال الشرطة، مع بقائه زوجاً لـ«سكينة»، واقتصر دور «حسب الله»- الذى انضم إلى العصابة بعد أن هددته باتهامه بالمشاركة فى قتل زوجة الأب» واغرته بالزواج من «ريا» التى يحبها - على دفن

الجثث، أما الذى يستدرج الضحايا ويقتلهن فهى «ريا» وأحياناً «سكينة» بينما لا يفعل الرجال شيئاً.. إلخ.

من حيث الرؤية تبدو مسرحية «الفنانين المتحدين» أقرب إلى المسرحية التى كتبها «بديع خيرى» و«نجيب الريحانى» وهى لا تختلف كثيراً عن الرؤية التى قدمتها مسرحية «نجمة إبراهيم» و«عباس يونس» وكما كان الدافع لزعيم العصابة فى مسرحية «الريحانى» هو خيانة زوجته له، وكما كان دافع «ريا» فى مسرحية «سر السفاحة» هو التنفيس عن غيرتها من النساء الجميلات، فإن دافع «ريا» التى وضعت مشروع القتل، كان الانتقام من زوجة أبيها، التى قتلت أمها، وتسببت فى تعاستها هى وشقيقتها. فتكونت لديها عقدة تجاه النساء بسبب ما فعلته بهما امرأة أبيهما.

وفى حين يبدو أن هناك صلة بين خيانة زوجة «مرزوق» له وبين قتله للنساء البغايا اللواتى يخن أزواجهن ويبعن أجسادهن. على النحو الذى قدمته مسرحية «الريحانى» ويتضح أن هناك صلة بين قبح «ريا» وانصراف الرجال عنها، وبين تحمسها لقتل النساء الجميلات اللواتى يقبل عليهن الرجال فى مسرحية نجمة إبراهيم، فإن الصلة بين اضطهاد زوجة الأب لهما، وبين قتلهما للنساء. لا تبدو واضحة على الإطلاق فى مسرحية الفنانين المتحدين..

والحقيقة أن مسرحية فرقة «الفنانين المتحدين»، تبدو اقتباساً واضحاً من مسرحية «نجيب الريحانى»، فالمحور الدرامى الذى تقوم عليه كل منهما يكاد يكون واحدا فالأحداث فى مسرحيه «الريحانى» تنتهى بأن يقوم «مرزوق» بقتل ابنته التى هربت بها زوجته الخائنة. وتنتهى فى المسرحية الثانيه بأن تستدرج «ريا» ابنتها التى هرب بها أبوها إلى حيث تقتلها خالتها «سكينة».

وكان نجاح التناول الكوميدى لقضية «ريا» و«سكينة» الذى قدمته مسرحية «الفنانين المتحدين»، هو الذى أغرى أفلام «جمال الليثى» بتقديم تناول سينمائى كوميدى آخر للقضية فى فيلم «ريا وسكينة» الذى ألفه «أحمد فؤاد» و«شريف المنياوى» وقام ببطولته «يونس شلبى» و«شريهان» و«حسن عابدين» وأخرجه «أحمد فؤاد» وعرض عام ١٩٨٣.

وبطل الفيلم «عزوز» - «يونس شلبى» - ممثل مغمور يحلم بأن يحقق مجداً فى فن التمثيل، بينما تعمل خطيبته «قلة» - (شريهان) - خادمة فى منزل حكمدار الشرطة الذى كان مشغولاً آنذاك بمطاردة عصابة «ريا» و«سكينة» وهو ما يغرى «عزوز» بالتنكر فى زى «سكينة» بينما تتنكر خطيبته فى زى «ريا» ليقوما باستدراج النساء والاستيلاء على مصوغاتهن من دون قتلهن، لكى يدخرا نفقات إنشاء مسرح خاص، يمارس «عزوز» على خشبته موهبته التمثيلية المحبطة.

ويتعرض الاثنان أثناء ذلك لمآزق متعددة، مع رجال الشرطة، ومع الحكمدار، ومع ضحاياهما. يفترض أنها تبعث على الضحك، وهى مآزق تتصاعد حين يلتقيا بضحية شرسة، لا يعجزان عن سرقتها فقط. بل وتستولى منهما على ما

سبق لهما أن جمعاه من مصوغات ضحاياهما.. وتصل الأحداث إلى ذروتهما حين يلتقيا بـ«ريا» و«سكينة» الحقيقتين، وتقعان فى أسرهما، لكنهما يستطيعان الهرب فى آخر لحظة، ليدلا الشرطة عليهما، وبذلك يفوزا بالجائزة المقررة للقبض عليهما وهى خمسة آلاف جنيه، فيجدا التمويل اللازم لتأسيس المسرح الذى يحلمان به.

ذلك فيلم لم يشغل صناعه أنفسهم بأن يكون له رؤية، اكتفاء بالمواعظ الأخلاقية التى كانت «قلة» توجهها إلى خطيبها «عزوز» معترضة على تحمسه لفكرة اللجوء إلى السرقة لكى يمول مشروع المسرح الذى يحلم ببنائه، داعياً إياه لكى يجد ويجتهد ليحقق حلمه، وهى مواعظ تذكرنا بالنصائح التى كان يوجهها المونولوجست «فلفل» إلى صديقه لص المساكن «عبدالفتاح القصرى» فى فيلم «إسماعيل ياسين يقابل ريا وسكينة» ولم كن غريباً أن ينتهى الفيلم بإقلاع «عزوز» عن السرقة، كما تاب عنها «عبدالفتاح القصرى» تأكيداً بأن فيلم عام ١٩٨٣ هو نفسه فيلم ١٩٥٥، وبأن مرور السنوات لم يدفع صناع الفيلم، للتفكير لحظة واحدة، فى السبب الذى حال بين «ريا» و«سكينة» وبين الانصياع لمواعظ أخلاقية مماثلة، لابد أنهما قد ناوشتهما أو سيقت إليهما..

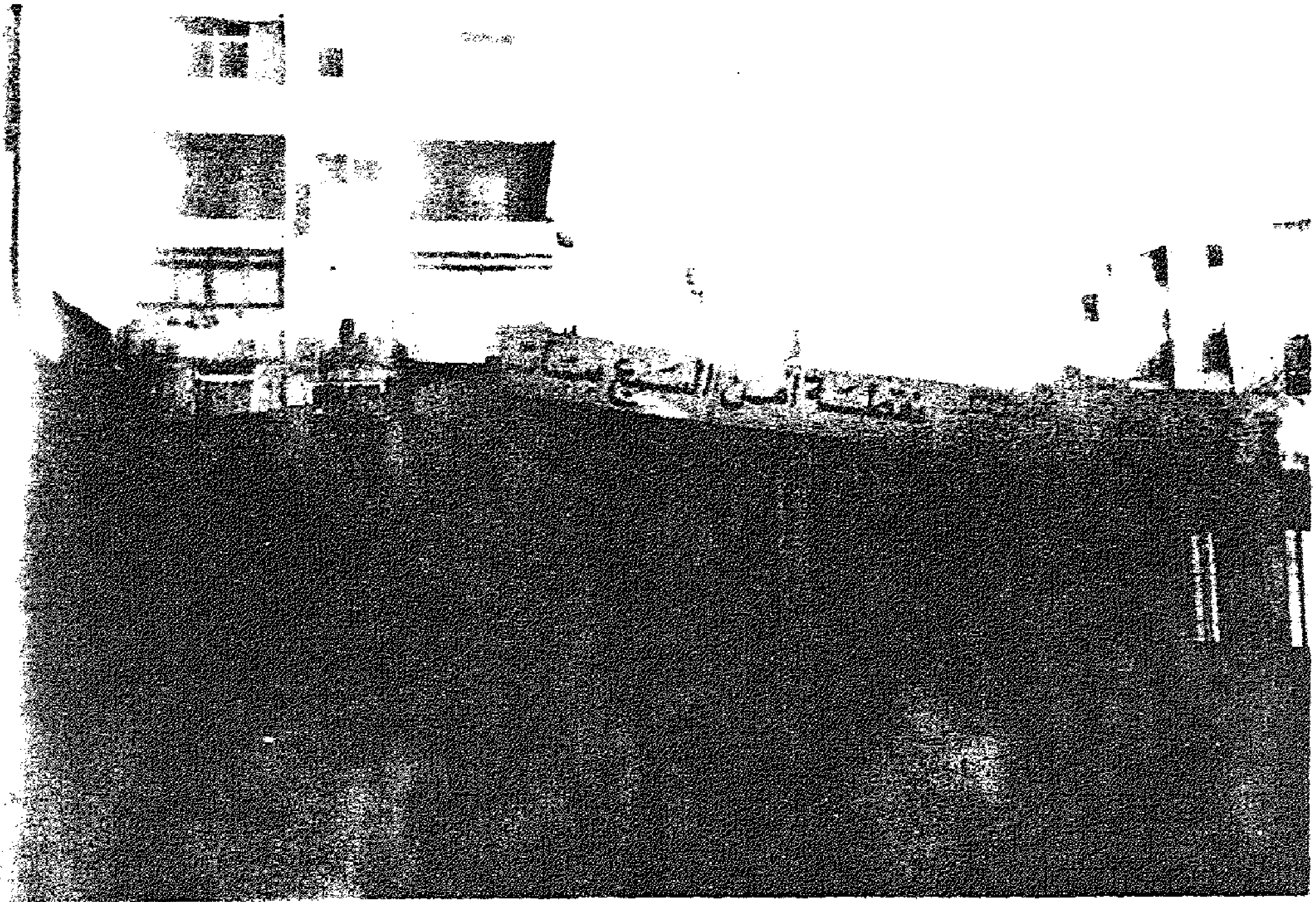
تلك ظاهرة شائعة فى كل الأعمال الفنية التى تناولت شخصيتى «ريا» و«سكينة» ذلك لأن أحداً لم يحاول أن يتفهم الدوافع الحقيقية التى قادتهما إلى ما فعلتاه، اكتفاءاً بتلك الصورة العامة التى تخلو من التفاصيل ومن الملامح، التى دخلتا بها التاريخ، والفن، باعتبارهما رمزا للشر المجرد.

وهكذا يبدو وكأن الجميع ظلوا على امتداد العقود الثمانية التى انقضت منذ اكتشاف جرائم رجال «ريا» و«سكينة» ينطلقون من نظرة ثابتة لا تجد أى مبرر لما ارتكبوه من جرائم، فهم «مجرمون بالفطرة» أو «بحكم تكوينهم الطبيعى».

تلك نظرة، لم تكن بعيدة، عن الاتجاه العام فى نظريات علم نفس الجريمة، التى كانت لا تزال حديثة آنذاك، وخاصة نظرية العالم الإيطالى «لمبروزو»، وهى نظرية كانت تذهب إلى أن أنماط السلوك والصفات النفسية تولد مع الإنسان، ولا يكتسبها من بيئته وأن للمجرمين -كما للعباقرة- سمات جسدية ونفسية، يمكن من خلالها تمييز كل منهما عن الآخر.

وكان ذلك هو ما توقف أمامه «عباس محمود العقاد» فى مقال نشرته له «الأهرام» فى ٣٠ نوفمبر «تشرين الثانى» ١٩٢٠، أى بعد أسبوعين من الكشف عن جرائم «رجال ريا وسكينة» التى وصفها بأنها «جرائم لم تسمع مصر ما هو أبشع منها».

وفى هذا المقال يتأمل «العقاد» صور أركان العصابة الأربعة، التى كانت تطبع بكميات كبيرة، لتعابث رغبة الناس فى التعرف عليهم، استناداً إلى نظرية «لمبروزو»، ويتوقف أمام ظاهرة إقبال الناس على شراء صور أركان العصابة الأربعة، كما يتهافتون على شراء صور العظماء مؤكداً أن ذلك لم يحدث إعجاباً بهم ولكن «لكى يروا كيف تكون تلك الوجوه التى تخفى وراءها قلوباً تعبث فيها شياطين الجرائم وتستقر فيها



٣٠٠٢: نقطة أمن السبع بنات التى أقيمت على جزء من مبنى قسم شرطة اللبان

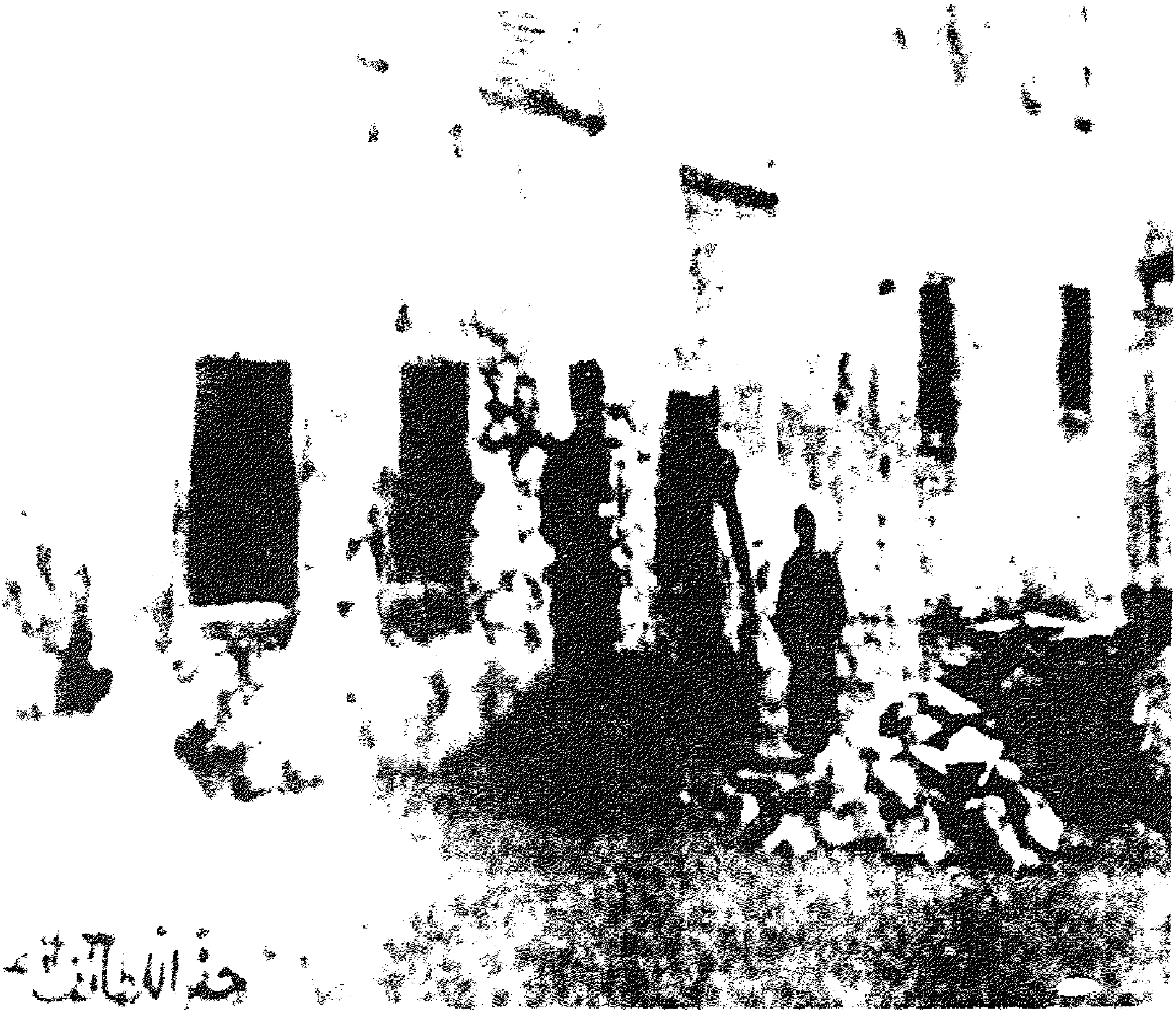
الجرائم فى هاوية عميقة من الشرور».

وفيما يمكن اعتباره تحفظاً على بعض جوانب نظرية «لمبروزو» حذر «العقاد» الناس من الظن بأنهم سوف يجدون لوجوه المجرمين أشكالاً خاصة «فقد يقترف المجرم أشنع الكبائر.. ومع ذلك لا نجد فى صورته ما يبعث على الرعب أو الهلع»، إذ يكفى -كما أضاف- «أن تكون نفس هذا المجرم ميتة، يمر بها الناظر فينقبض لمرآه كما ينقبض لمرأى العظام النخره والجثث المشوهة ٣.

وفى تطبيق ذلك على صور أركان العصابة الأربعة، قال «العقاد» أنها «لا تشف عن طمع قوى أو غيظ سريع أو حيوية ضالة، وإنما تشف عن بلادة الموت وخمود العقل». وأشار إلى أن عدم تميز أشكال المجرمين عن أشكال غيرهم ربما جعل كثيرين لا يلتفتون إلى ما ارتكبوا من جرائم.. وخاصة صورتى الرجلين -«حسب الله» و«عبدالعال»- ذلك أن بلادة الهر -كما أضاف- تظهر على وجهى المرأتين أكثر مما تظهر على وجهى زوجيهما وأثر الإدمان فيما أقبح وأبلغ، لم يشك فيه «العقاد» فهو أن «بلادة الحس ظاهرة على وجوههم جميعاً ظهوراً لا يتخطاه النظر أحياناً إلا لأن البلادة من طبيعتها أن لا تلفت الأنظار .

أما وقد اعتبرهم الجميع أصحاب «نفوس ميتة» فقد كان طبيعياً ألا يهتم أحد بالتأريخ لسيرتهم الاجتماعية والسياسية، أو يعنى حتى بالتعامل معهم بصدق.. أو يعول.. وأن يصدر العدل الذى يلبس الطرابيش الحكم ضدهم، قبل المداولة.





الفصل التاسع

العدل يلبس الطرابيش








وحدث ما توقعه «سليمان بك عزت» ودفعه لإغفال ذكر اسم «بديعة حسب الله» ضمن قائمة الشهود، إذ لم يكد المتهمون العشرة فى قضية «ريا وسكينة» يمثلون أمام «كامل بك شكرى» - قاضى الإحالة بمحكمة الاسكندرية الأهلية - يوم الأحد٥ فبراير (شباط) ١٩٢١، وبعد ثلاثة أسابيع فقط من صدور قرار الاتهام، حتى أنكر الرجال السبعة - أمام القاضى - كل التهم الموجهة إليهم، بما فى ذلك «حسب الله» و«محمد عبدالعال» اللذين نفيا كل ما ورد فى الاعترافات المطولة التى أدليا بها أمامه على امتداد أيام متواصلة، والتى بذل مجهوداً مضنياً فى تحقيق ما ورد بها من وقائع، قبل أن يواجههما بها فيعترفا.

وكانت الجلسة قد بدأت باستماع القاضى لأقوال «ريا» ثم أقوال «سكينة» فاعترفتا بأن الرجال الأربعة، هم الذين كانوا يختارون الضحايا ويستدرجونهن، ويقوموا بقتلهن ثم يدفنونهن. وقصرت كل منهما دورها على «العلم» فقط بجرائم القتل، وتنفيذ أوامر زوجيهما ببيع مصوغات الضحايا. وعلى العكس من «سكينة» التى اكتفت بتجاهل دورها فى سحب الضحايا. فقد اتهمت «ريا» القتلة الأربعة، بأنهم هددوها بأن تلقى مصير الضحايا، إذا فتحت فمها بكلمة.

وأنكر «حسب الله» التهمة ببساطة، فلما واجهه القاضى بأنه أدلى - أمام النيابة - باعترافات مفصلة استمرت عدة أيام واستغرقت عدداً كبيراً من صفحات التحقيق، قال:

- دول قلعونى عريان والكلبشات - القيود الحديدية - كانت فى رجليه.. وجوعونى.

ولما واجهه القاضى بالعثور على «ختمه» بين الجثث، انكر الواقعة، وقال إن الختم كان فى جيبه، وان المخبر السرى «الشحات أفندى» أخذه منه عند تفتيشه له لحظة القبض عليه.. ونفى ما جاء بأقوال ابنته «بديعة» عن اشتراكه فى القتل، وقال «دى بنت صغيرة.. وهم اللى أغروها». وفسر شهادة زوجته «ريا» ضده، بغيظها منه، لأنه طلقها وتزوج من غيرها، بعد أن أفسدتها أختها «سكينة» وجرجرتها معها فى أمور المسخرة.

والغالب أن «حسب الله» ظل حتى آخر لحظة يتوهم أنه لايزال - بعد كل ما جرى - يملك رصيداً من الحب فى قلب «ريا» لذلك حاول أن يدفعها لتأييد روايته التى عاد لترديدها، بأنه لم يكن يقيم معها فى المنزل الذى عثر فيه على الجثث، فطلب من القاضى أن يواجهه بها.

لكنها تجاهلت النظر إليه، فى قفص الاتهام الذى يضمهما مع بقية المتهمين، كما تجاهلت موضوع الطلاق. وخاطبت القاضى مؤكدة بأن «حسب الله» اشترك مع الرجال الثلاثة فى قتل جميع الضحايا. ونفت ادعاءه بأن أحداً قد ضربه أثناء إدلائه باعترافاته أمام النيابة. وذكرت أنها سمعت فقط من أناس لم تسمهم بأنه

ضرب فى «القرد قول». وحاول «حسب الله» أن يستفيد من أقوالها تلك. فقال:

- هما ضربونى فى «القرة قول» علشان لما أروح أمام النيابة، أعترف.. وواحد جاويش طويل اسمه إبراهيم ضربنى بالقلم.

واتخذ «محمد عبدالعال» الموقف نفسه، فأنكر أمام القاضى اعترافاته، وزعم بأن رجال الشرطة هم الذين أملوها عليه. وطعن فى شهادة «بديعة» قائلاً إن «بتوع القرة قول اللى ما يخافوش ربنا هما اللى قالوا لها تقول كده».. وبرر اتهام الشقيقتين له، بتشاجره معهما. واتهم «سكينة» بأنها هى التى أخفت قاتلة «فردوس» فى منزل أخيه «علشان تجيب رجلى لأنى مطلقها».. وثارت «سكينة» فى وجهه وقالت له:

- هوا إحنا كنا بنتطوا ع الأرض تطلع جثث نسوان.. أمال مين اللى قتلهم؟. انت دافن سبعة منهم.

ورد عبدالعال قائلاً للقاضى:

- كلام النسوان ما يمشيش على.

وردت عليه «سكينة»:

- والنبى تفضها سيرة.. انتوا بعتوا ملاية «فردوس» وقسمتوها عليكم.. وأنا طلعت باطة.

وكان طبيعياً أن يتمسك «عرابى» و«عبدالرازق» بإنكارهما، خاصة بعد أن عدل كل من «حسب الله» و«عبدالعال» عن اعترافاتهما، التى كانت تشملهما. وركز كل منهما فى إجاباته على أسئلة قاضى الإحالة على الطعن فى شهادتى «ريا» و«سكينة» ضدهما، وفسراهما بأنهما وليدة خصومة نشأت بين كل منهما وبين الشقيقتين فى ظروف ولأسباب مختلفة.

ولم يستطع «عرابى» أن يتحكم فى أعصابه، عندما واجه القاضى بينه وبين «ريا» و«سكينة» فأكدتا اتهامهما له بالمشاركة فى القتل، فصاح فيهما:

- مضبوط.. أصل إحنا بناكل لحم انجليزى من بتاع الخيل زى حالتكم.

وهى عبارة ليس لها هدف إلا تجريح الشقيقتين وتعييرهما بمسلك كان «عرابى» يراه دليلاً على انهما من مستوى اجتماعى أدنى منه بكثير. ولكن القاضى اتخذ من العبارة دليلاً على معرفته بالشقيقتين اللتين كان ينكر صلته بهما.

وأصرت «أم أحمد النص» على إنكارها. وبررت شهادة الشقيقتين ضدها، بأنها قد طردتهما من «حارة النجاة» فأصبحتا خصمين لها. وطعن زوجها «محمد على القادوسى» على شهادة صاحب المخبز ضده ووصفه بأنه «خباص وكذاب». وتوقى «سلامة» - بذكاء - استفزاز «سكينة»، فمع أنه أنكر انه كان رفيقها، أو تردد على منزلها، أو اشترك فى قتل بائعة الجاز، إلا أنه نفى علمه بدوافعها لاتهامه. وكرر الصائغ «على محمد» دفاعه الذى يقوم على أنه لم يكن يعلم بمصدر المصوغات التى كان يبيعها له المتهمون، وأكد أنه لم يلاحظ ما يدفعه للشك فى أنها مسروقة. وأن ظواهر الحال كانت تدل على أنها ملك لهم، وأنه كان يشتريها منهم طبقاً للثمن

السائد فى الصاغة يوم البيع.

ومن بين المتهمين العشرة، لم يوكل سوى ثلاثة فقط محامين للدفاع عنهم أمام قاضى الإحالة. فترافع «عثمان نور الدين» المحامى عن «عرابى» وترافع «شفيق حلابه» عن «عبدالرازق». وبسبب التشابه بين موقف الاثنين فى التحقيقات، فقد ركز الدفاع عنهما على أن المتهمين الحقيقيين الذين قاموا بارتكاب القتل، هم «ريا» و«سكينة» وزوجاهما. وقال إن «حسب الله» و«عبدالعال» رجلان قويان لم يكونا فى حاجة إلى معونة أحد لكى يشترك معهما فى قتل النساء ليقاسم «آل همام» أرباح العملية، خاصة وأن زوجتيهما هما اللتان تسحبان الضحايا.

وأضاف الدفاع: إن سعى «ريا» و«سكينة» لإقحام كل من «عرابى» و«عبدالرازق» كان على سبيل الكيد والرغبة فى الانتقام، وظنا منهما بأن ذلك قد يخفف العقاب عنهما وعن زوجيهما.. ودلل على ذلك بالشبهات التى ألقتها «سكينة» على المكوجى فى واقعة مقتل «فردوس» والاتهامات الكاذبة التى وجهتها «ريا» فى بداية التحقيق إلى «أحمد الجدر» و«عبدالله الكويجى» ثم تبين بعد ذلك براءة الجميع.

وطالب الدفاع عن «عرابى» و«عبدالرازق» بالحكم بأنه لا وجه لإقامة الدعوى ضد كل منهما، وإخراجهما من قرار الاتهام قبل إحالة القضية إلى محكمة الجنايات.

وانفرد «على محمد» صائغ العصابة بتوكيل اثنين من المحامين، طالب أولهما - وهو «إسماعيل بك حمزة» - باخلائه من التهمة مؤكداً على أنه كان يشترى المصوغات بحسن نية وبثمنها الحقيقى، مدللاً على ذلك بما ورد فى اعترافات المتهمين حول نصيب كل منهم من ثمن بيعها. وختم مرافعته بالمطالبة بالإفراج عن الصائغ بكفالة مالية إذا رأى القاضى أن هناك داعياً لمحاكمته، مع استعداده لدفع الكفالة.. وهو ما أكد عليه المحامى الثانى، وهو «عبدالرحمن أفندى الرافعى» - المؤرخ الشهير بعد ذلك - الذى أضاف إلى ما قاله زميله أن كلا من «ريا» و«سكينة» كانتا تعملان فى مجال البغاء، وأنه من المعروف أن البغايا تكثرن من شراء وبيع المصوغات، وهو أمر يعلمه جميع الصياغ، فلا يستريبون فى مصدر المصوغات إذا كانت البائعة من تلك الفئة، ولا يلفت نظرهم التناقض بين مظهرها الفقير وقيمة ما تعرضه للبيع من مصوغا لأن كثيرات منهن يقترن على أنفسهن، ويكتنزن أرباحهن على شكل مصوغات.

ولم يستجب قاضى الإحالة إلى طلبات المحامين الأربعة، ولم يحذف أحداً من قرار الاتهام، وأصدر أمره بإحالة المتهمين العشرة إلى محكمة جنايات الاسكندرية دور مارس (آذار) ١٩٢١، ولم يستجب - كذلك - لطلب الدفاع عن «على الصائغ» بالإفراج عنه على ذمة القضية، لكنه أفرج عن «محمد على القادوسى» - الشهير بـ«النص» - الذى لم يكن له محام.. والذى لم يطلب ذلك.



لم تبدأ محكمة جنايات الاسكندرية فى نظر القضية إلا بعد شهرين من الموعد الذى حدده قاضى الإحالة.

وكانت المحكمة قد عقدت جلستها الأولى، يوم الأربعاء ١٦ مارس (آذار) ١٩٢١، برئاسة «أحمد عرفان بك» وعضوية اثنين من مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية، هما «مستر هل» و«واصف سميكة بك»، وعندما تبين لها عدم حضور أحد من المتهمين أو الشهود لعدم إعلانهم أجلت نظر القضية، إلى يوم السبت ٩ ابريل (نيسان) ١٩٢١. وفى تلك الجلسة حل «أحمد موسى باشا» محل «عرفان بك» فى رئاستها بعد أن تفرغ الأخير لغيرها من القضايا. وقررت المحكمة تأجيل القضية - للمرة الثانية - لمدة شهر، لعدم حضور أحد من المتهمين وغياب أكثر من نصف الشهود.

وكان «محمد أحمد رمضان» - زوج شيخه المخدمين - هو الوحيد من شهود القضية الذى حضر جميع هذه الجلسات على الرغم من عدم إعلانه رسمياً بالحضور، إذ كان يعرف مواعيد الجلسات من الصحف. وكان قد عاد لممارسة عمله فى دكان النجارة الذى يملكه بالمنزل رقم ٣٠ بـ«حارة على بك الكبير» - المجاور للمنزل الذى كانت تسكنه «ريا» - ولأنه كاد يكون الوحيد بين أسر الضحايا الذى اقتصرت مأساته على مقتل زوجته، من دون أن يكون ذلك مصحوباً بفضيحة أخلاقية، تدفعه للخجل أو التوارى عن الناس بعد أن ثبت من التحقيق أن شيخة المخدمين قتلت على سبيل الانتقام منه، فقد كان - منذ البداية - أكثر من الجميع اهتماما بالتحقيق الذى تجريه النيابة فى القضية، وبلغ به الحماس أنه كان يتطوع للاتصال تليفونياً بمندوبى الصحف بالاسكندرية لإبلاغهم ما يصل إلى علمه من أخبار نشاط الشرطة فى البحث عن الضحايا.. والقبض على المتهمين.

وبحكم اطلاعه المستمر على الصحف، فقد استنتج أن من حقه المطالبة بتعويض مالى عن مقتل زوجته، وعما كانت تتزين به من مصاغ وتحمله من نقود عند قتلها. وتأكد له ذلك عندما استشار بعض معارفه من وكلاء المحامين. وتنفيذاً لنصيحتهم، أسرع يستخرج إعلان وراثة من محكمة الاسكندرية الكلية الشرعية، يفيد وفاة زوجته وانحصار إرثها فيه، وفى ابنة شقيقتها «بخيته إبراهيم» من غير شريك، ولا وارث لها سواهما.

وعلى الفور أقام دعوى أمام القضاء المدنى يطلب فيها الحكم على المتهمين العشرة فى القضية بالتضامن مع وزارة الداخلية المصرية، بأن يدفعوا له تعويضاً قدره ٣٠٠ جنيه عن مقتل زوجته، فضلاً عن مائة وخمسين جنيها أخرى قيمة ما كانت تتزين به من مصوغات. ويطلب - كذلك - إعفاءه من رسوم التقاضى، وانتداب محام للدفاع عنه لفقره. فطلب

مندوب الحكومة إيقاف نظر دعوى التعويض إلى حين الانتهاء من الفصل فى الدعوى الجنائية، إذ لم يكن قد ثبت، حتى ذلك الحين، أن مقتل الزوجة كان بسبب إهمال الشرطة، فى أداء واجبها. لكن المحكمة استجابت لطلب «رمضان النجار» فأعفته من رسوم التقاضى، وانتدبت له محامياً للدفاع عنه، هو «محمد أفندى حسيب»، الذى أسرع يعلن «عبدالخالق باشا ثروت» بالمثول أمام محكمة جنايات الاسكندرية بصفته وزيراً للداخلية ورئيساً أعلى للبوليس الذى ثبت من التحقيق فى «قضية ريا وسكينة» إهماله وعدم يقظته، مما شجع وقوى عزائم أفراد العصابة على التمادى فى جرائم القتل، التى كانت زوجة موكله - رمضان النجار - ضحية لها. مما يجعل وزارة الداخلية بصفتها المكلفة بالمحافظة على الأرواح والأموال والأمن العام مسئولة مدنياً بالتضامن مع المتهمين عن تعويضه عما لحق به من ضرر بسبب التراخى وعدم اليقظة.

وكان على المحكمة - خلال فترة التأجيل - أن تنظم أمر الدفاع عن المتهمين، بعد أن لاحظت أن ثلاثة منهم فقط هم «عرابى» و«عبدالرازق» و«على الصائغ» - هم الذين وكلوا عنهم محامين حضروا معهم أمام قاضى الإحالة بينما لم يبد السبعة الآخرون، أو أحد أقاربهم أو أصدقائهم، أى اهتمام بأمر الدفاع عنهم، ربما بسبب الفقر أو اليأس.. فقررت المحكمة صوناً لحقهم فى الدفاع وبعد دراسة القضية انتداب محام واحد - هو «أحمد أفندى المدنى» - للدفاع عن كل من «ريا» و«سكينة» لعدم وجود تناقض بين مصلحتيهما فى القضية. ولنفس السبب انتدبت - ايضا - محامياً واحداً هو «أحمد أفندى حلمى» - للدفاع عن كل من «حسب الله سعيد» و«محمد عبدالعال» بينما انتدبت محامياً لكل واحد من الثلاثة الآخرين فاختير «فريد أفندى جرجس» للدفاع عن «سلامة» و«أحمد مرسى بدر» للدفاع عن «أمينة بنت منصور» و«مصطفى الخادم بك» للدفاع عن «محمد على القادوسى»، بينما احتفظ الثلاثة الآخرون بنفس المحامين الموكلين الذين حضروا معهم أمام قاضى الإحالة.

وعلى الرغم من أن انتداب محام للدفاع عن متهم فى قضية، من العمليات التى تتحكم فيها الصدفة، إذ يتم اختيار من يحل عليه الدور، من قائمة تضم أسماء المحامين الذين يحق لهم الترافع أمام درجة التقاضى التى تحال إليها القضية، طبقا لأقدمية اكتسابهم لعضوية النقابة، فان هذه الصدفة جمعت فى هيئة الدفاع عن المتهمين فى هذه القضية - سواء فى



عبد الخالق ثروت باشا

ذلك المنتدبين أو الموكلين عن المتهمين أو عن المدعى بالحق المدنى - عدداً من أبرز المحامين أو ممن لمعوا بعد ذلك فى الحياة العامة، إذ كان من بينهم أربعة يحملون - آنذاك - لقب البيكوية. كما كان من بينهم اثنان أصبحا فيما بعد من الوزراء، هما «أحمد أفندى مرسى بدر»، الذى تولى وزارة العدل، ثم المعارف خلال عام ١٩٤٩،



سعيد طليمات بك: رئيس الحزب الوطنى بالإسكندرية

والمؤرخ الشهير «عبدالرحمن الرافعى» - الذى تولى وزارة التموين لعدة شهور فى السنة ذاتها - وكان من بينهم «محمد بك أبو شادى» - وكيل نقابة المحامين الذى أصبح نقيباً لهم بعد سنوات - وقد وكله «رمضان» النجار عنه، بالإضافة للمحامى الذى انتدبته له المحكمة - و«سعيد بك طليمات»، أحد أشهر محاميى الاسكندرية ووكيل «الحزب الوطنى» بها. أما أكثرهم مدعاة للتوقف عند اسمه، فهو «أحمد أفندى المدنى» الذى عبر هو نفسه فى مرافعته عن دهشته لاختياره دون غيره للدفاع عن «ريا» و«سكينة» إذ كان الدفاع فى القضايا السياسية والعمالية، هو المعروف عنه، فضلاً عن أنه كان من نشطاء لجنة الحزب الوطنى بالاسكندرية، فقد كان أيامها مشغولاً فى مناقشة برنامج الحزب الشيوعى المصرى الأول، الذى أصبح بعد ذلك بشهور، أميناً لصندوقه ثم سكرتيراً عاماً له.

وفى يوم الأحد ٩ مايو (آيار) ١٩٢١، وقبل يومين من بدء المحاكمة، وصل إلى الاسكندرية «سليمان بك عزت» - رئيس النيابة الذى حقق القضية - لكى يلقى نظرة أخرى على التحقيقات التى كانت قد مضت أربعة شهور على إنهائه لها، ولكي يعد - كذلك - مرافعته ضد المتهمين.

وعلى الرغم من الاهتمام البالغ، الذى أحاط به الرأى العام القضية وربما بسببه، فقد كان واضحاً منذ البداية أن هناك اتفاقاً بين كل الأطراف المؤثرة فى الدعوى على الانتهاء من نظرها بأسرع وقت ممكن على العكس ما كان - ولايزال - شائعاً فى مثل هذا النوع من القضايا الجنائية الكبرى، التى يتعدد فيها عدد المتهمين، وعدد المجنى عليهم.. ويتضخم فيها ملف القضية، الذى وصل عدد صفحاته إلى أكثر من ألف وخمسمائة صفحة، وهو الاتفاق الذى كشف عنه مراسل «الأهرام»

الخصوصى، فى الاسكندرية الذى ذكر قبل بدء المحاكمة، أنه «تقرر أن يستغرق نظر القضية ثلاث أيام فقط، تستمع المحكمة فى اليوم الأول منها إلى أقوال الشهود - وعددهم ٣٦ شاهداً - وتستمع فى اليوم الثانى إلى مرافعة النيابة والدفاع عن المتهمين والمدعى بالحق المدنى، ثم تصدر حكمها فى اليوم الثالث».

وهو قرار استند فى الغالب - على تقدير المحكمة بأن إدانة المتهمين ثابتة، ولا تحتاج إلى جدل طويل. وعلى إدراكها بأنهم - وهم أصحاب المصلحة فى اطالة أمد نظر القضية - يجهلون الألاعيب القانونية التى تمكنهم من البقاء أحياء عدة شهور، قبل أن يقفوا تحت أعواد المشنقة. وتأكدها من أن هيئة الدفاع عنهم، التى تتقن تلك الألاعيب، وتستطيع أن تؤجل الحكم فى القضية لسنوات، بتقديم الدفوع، ورد المحكمة والطعن على تقارير الخبراء وطلب مناقشتهم أو استبدالهم بغيرهم لا مصلحة لها فى ذلك، بل لعل لها مصلحة فى الاسراع بانهاء القضية، إذ كان معظم أعضائها منتدبين يتقاضون أجوراً رمزية تافهة تقدرها لهم المحكمة.

ولأن حكمدارية شرطة الاسكندرية كانت تتوقع، إقبالاً شديدا من الناس على شهود المحاكمة، فقد طلبت أن يكون حضورها مقصوراً على الذين يحملون تصريحات بذلك من المحكمة ممن تتطلب الضرورة وجودهم، كالشهود والمحامين والصحفيين وأقارب المتهمين والضحايا، لكى تستطيع أن تضمن نظام الجلسة، وتحول دون ازدحام قاعة المحكمة بالمتطفلين وهواة مشاهدة عجائب الطبيعة، والراغبين فى التفرج على من وصفهم مراسل «الأهرام» السكندرى بأنهم «العصابة الوحشية الشريرة». ولم تكتف الشرطة بذلك، بل قامت بوضع حواجز خشبية أمام الباب الرئيسى للمحكمة، وفى مدخل الطرقات التى تقود إلى قاعة الجلسة لكى تستطيع التحكم فى حركة المترددين عليها، فلا يسمح إلا لمن يحملون تصريحات رسمية من المحكمة بدخولها.

ومع أن اليوم المحدد لبدء المحاكمة - الثلاثاء ١٠ مايو (آيار) ١٩٢١ - كان يوافق اليوم الثانى من شهر رمضان، الذى لا يبدأ العمل فيه قبل العاشرة، فقد قررت المحكمة أن تعقد الجلسة كالمعتاد فى الساعة التاسعة صباحاً، لكى تستطيع أن تنهى المحاكمة فى خلال الأيام الثلاثة التى حددتها ولكى تبدأ عملها قبل ازدحام مبنى المحكمة بالمتقاضين الآخرين. بل وحرصت قوات الشرطة على أن تنقل المتهمين العشرة، من «سجن الحضرة» حيث كانوا يقيمون، فى وقت مبكر من الصباح، وقبل أن تدب الحركة فى الشوارع المحيطة بالمحكمة.

لكن السيارة التى تقلهم ما كادت تصل - فى السابعة صباحاً - إلى «سراى زغيب» - التى تتخذ منها المحكمة مقراً لها - حتى فوجئت قوة الحراسة بمئات من الناس يقفون حولها، وكأن الأرض قد انشقت عنهم فجأة.. وأخذوا يتدافعون بقوة حتى اقتلعوا الحواجز الخشبية. وتطلب الأمر

بعض الوقت حتى استطاعت الشرطة أن تعيد النظام، وأن تقود المتهمين إلى المكان المحدد لاحتجازهم إلى أن يحل موعد انعقاد الجلسة.



قبل التاسعة بقليل، اقتيد «محمد على القادوسى». وهو المتهم الوحيد الذى أفرج عنه قاضى الاحالة - إلى المكان الذى احتجز فيه زملاؤه.. وانتهت كل الترتيبات الضرورية لبدء المحاكمة: حضر ٣١ من شهود الاثبات، ولم يتغيب منهم سوى ثلاثة فقط، هم الكابورال «وليم جولدنج» - رفيق «فردوس» الانجليزى - والكابورال «عبدالموجود عبدالرحيم» خفير النقطة التى كان يقع بها «بيت الكامب» - و«أحمد أفندى نصار» - ملاحظ بوليس قسم شرطة اللبان - وقد أجلسوا جميعا فى قاعة مجاورة للقاعة التى سوف تجرى فيها المحاكمة، ومنفصلة عن القاعة التى جلس فيها شهود النفى الذين حضروا، على الرغم من أن اليوم لم يكن محدداً للاستماع إلى أقوالهم..

وفى التاسعة تماماً، نقل المتهمون العشرة من غرفة الحجز إلى قفص الاتهام ليجلسوا به طبقاً لترتيب اسمائهم فى قرار الإحالة، ووقف خلف كل منهم حارس من جنود الشرطة.. وقال مندوب «الأهرام» أن منظرهم «كان يدل على عدم التهيب..

وكان أكثرهم تهيبا هو الصائغ «على محمد».. أما «ريا» و«سكينة» فكانا بحالة عادية جداً، وإن كانت «سكينة» أكثر من شقيقتها حركة، وأقل اكتراثا.

ومع اقتراب دخول هيئة المحكمة استدعى الحاجب المحامين العشرة - الموكلين والمنتدبين عن المتهمين وعن المدعى بالحق المدنى - من غرفة المحامين، إلى قاعة الجلسة، التى لم يعد فيها موطأ لقدم، بعد أن إزدحمت بالصحفيين وبأهالى وأصدقاء المتهمين وكثيرين من المحامين وضباط الشرطة الذين استغلوا صلتهم بالدوائر القضائية، فى الحصول على تصريحات لمتابعة المحاكمة على سبيل الفضول المهنى.

وفى التاسعة والربع، خرج الحاجب من باب غرفة المداولة، وصاح وهو يضع يده على مقبضه: محكمة. فكف كل الذين كانوا فى القاعة وفى قفص الاتهام عن الحديث.. وأطفأوا لفائفهم المشتعلة، ووقفوا وكأن على رؤوسهم الطير.. وعندما اطمأن الحاجب إلى أن كل شىء على مايرام، فتح الباب لتدخل هيئة المحكمة يتقدمها رئيسها المستشار «أحمد مرسى باشا» يتبعه عضو اليمين «المستر هل» ثم عضو اليسار «واصف سميكة بك» - وكان ثلاثتهم من مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية - وأخيراً «سليمان بك عزت» رئيس النيابة.

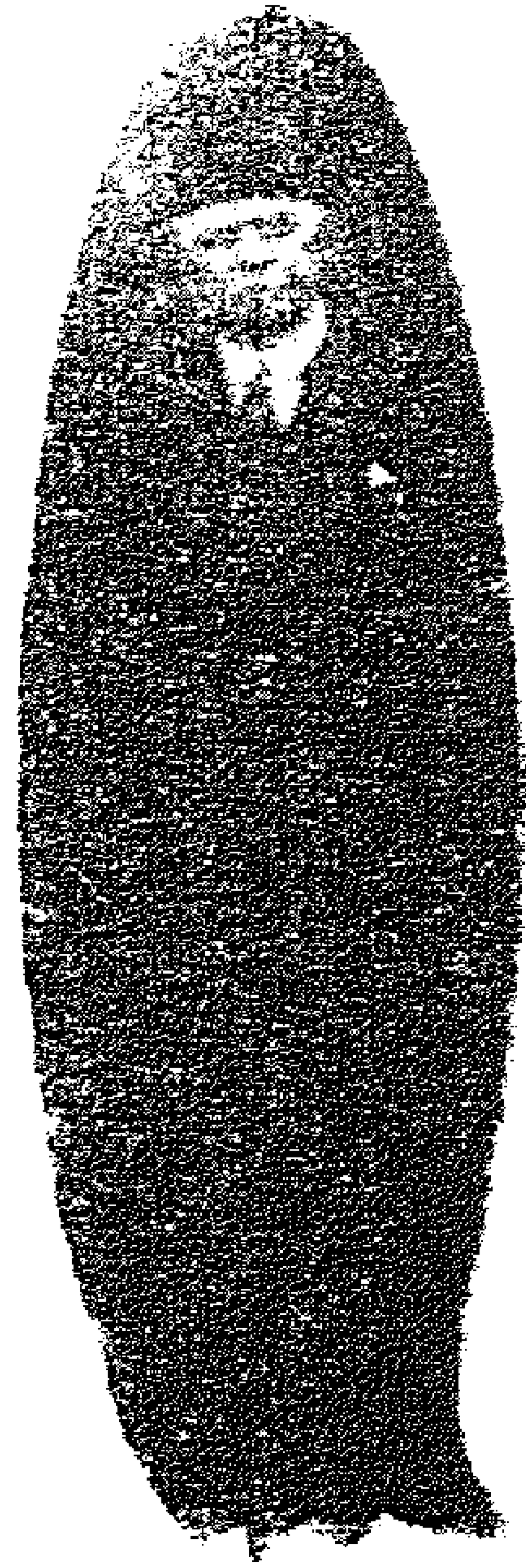
وبمجرد أن استقر الجميع فى أماكنهم خلف المنضدة، أشار رئيس المحكمة إلى الواقفين فى القاعة، فجلسوا فى هدوء..

ونادى كـاتب الجلسـة - «على أفندى فهمى» - على المتهمين العشرة، لتتثبت المحكمة من حضورهم جميعاً. وسأل الرئيس كل واحد منهم عن اسمه ولقبه وعمره وصنعته ومحل إقامته واسم المحامى الذى سوف يترافع عنه، فأكدوا البيانات الواردة فى قرار الاتهام. واثبت كل محام حضوره عن المتهم الذى وكّل أو انتدب للدفاع عنه - ثم تلا الكاتب الأمر الذى أصدره قاضى الاحالة بتقديمهم إلى محكمة الجنايات، وطلب رئيس النيابة معاقبتهم بالمواد القانونية الواردة فيه.

وكان أول المتحدثين هو «محمد افندى حسيب» - المحامى المنتدب عن المدعى بالحق المدنى «محمد أحمد رمضان» - زوج شيخة المخدمين «فاطمة بنت عبدربه» - فقدم لرئيس المحكمة إعلان الدعوى المدنية ضد المتهمين جميعاً وضد وزارة الداخلية، فأمر «موسى باشا» بضمها إلى الأوراق. وطلب «فؤاد افندى عريضه» - محامى وزارة الداخلية - تسجيل اعتراضه على ذلك، قائلاً أن لديه دفعاً فرعياً يحتفظ لنفسه بالحق فى ابدائه عند المرافعة.

وباستثناء «ريا» و«سكينة» اللتين اعترفتا بالتهمة - عندما واجههما بها رئيس المحكمة - وأقرتا بصحة الاعترافات التى صدرت عنهما، مؤكدتين بأن دورهما كان يقتصر على إحضار الأكل والخمر، وحضور عملية القتل، دون أن تباشرا القتل بنفسيهما، فقد أنكر الثمانية الآخرون التهمة، وأصر «حسب الله» و«عبدالعال» على بطلان ما صدر عنهما من اعترافات..

وخلال أقل من خمس ساعات استمعت المحكمة إلى ٣١ من شهود الاثبات، بمتوسط يقل عن عشر دقائق للشاهد الواحد، بما فى ذلك الوقت الذى يستغرقه استدعاؤه وانصرافه. ولم يتجاوز هذا المتوسط سوى عدد قليل من الشهود كان من بينهم «سيدة سليمان» و«أم نظلة» و«عديلة الكحكية» و«خديجة السودانية» أم فردوس. وكان منطقياً أن يكرر شهود



واصف سميكة باشا

الاثبات فى أقوالهم نفس الوقائع التى شهدوا بها فى تحقيقات النيابة، والتى أرادت منها أن تؤكد للمحكمة صحة اعترافات المتهمين الأربعة الرئيسيين، وتثبت الصلة بين المتهمين بعضهم البعض، وبينهم وبين الضحايا..

وهكذا تتالت أقوال الشهود تؤكد أن «حسب الله» كان يعيش مع «ريا» حتى قبل

أيام قليلة من افتضاح أمر العصابة. وأن «محمد عبدالعال» كان يعيش مع «سكينة» حتى سافر إلى قريته فى شهر مايو (آيار) ليحل محله «سلامة». وأن «عرابى» و«عبدالرازق» كانا يعرفان «آل همام» معرفة وثيقة، ويقومان بحماية البيوت السرية التى كانوا يديرونها، ويترددان عليها بصحبة رفيقتيها «نظلة» و«أنيسة»..

ولم تحدث مفاجآت غير متوقعة، أثناء إدلاء الشهود بأقوالهم باستثناء واقعتين، الأولى - والأقل أهمية - عندما أخطأ الشاهد السادس «محمد محمد خليفة»، زميل «عبدالعال» فى العمل بدوابور خوريمى» - فى التمييز بين الشقيقتين «ريا» و«سكينة»، ومنح كل منهما اسم الأخرى، على الرغم من إدعائه بأنه يعرفهما معرفة جيدة، وهو ما ألقى ببعض الظلال على الجزء الأهم من شهادته، التى دارت حول الصلة بين «عرابى» و«عبدالعال».

أما المفاجأة الثانية، والأكثر أهمية، فتمثلت فى عدول الشقيقين «شعبان الطرابيشى» و«عبدالمطلب» - العربجى - ابنى «خضرة محمد اللامى» أولى ضحايا العصابة عن أقوالهما فى التحقيق. إذ لم يتعرف أحد منهما على الخلخال الذى ضبط فى قدمى «أمينة بنت منصور»، وقالت «سكينة» أنه خلخال أمهما، وأنها أعطته لـ«أم أحمد النص» التى عرفت بعد ذلك أن صاحبته قد قتلت. وقد اعتذر أولهما - للمحكمة - بأنه لا يعرف الخلخال من الأساس، واعتذر الثانى بأنه لا يستطيع الجزم بأن الخلخال كان لأمهما..

وبذلك انهار ركن رئيسى من أركان التهمة الموجودة إلى «أمينة بنت منصور»، والتى كيفتها النيابة فى قرار الاتهام بأنها «الاشترك مع الفاعلين الأصليين بالاتفاق والتسهيل فى ارتكاب جرائم القتل»، ولم تعد فى حاجة إلى البحث عن شهود غير عدول، يشهدون زوراً - أمام المحكمة - بأنهم كانوا بصحبتها عندما اشترت الخلخال، أو بأنهم باعوه لها. وانتفت حاجتها إلى معونة شقيقاتها وبناتهن اللواتى رفضن - على الرغم من توسلاتها لهن - أن يتطوعن لانقاذها، بعد أن تطوع لذلك أبناء المجنى عليها.

ويصعب تصديق أن هذا التطوع قد تم بمبادرة من ابنى «خضره محمد اللامى» ودون تدخل من الاستاذ «أحمد مرسى بدر» المحامى الموكل عن «أم أحمد النص» الذى أدرك فى الغالب أن أسهل الحلول لهدم الاتهام الذى وجهته «سكينة» لموكلته - وبالتالى انقاذها منه - هو أن ينكر «أولاد خضرة» صلة الخلخال المضبوط فى قدميها بأمهم. ولعله وجه أقارب «أمينة» إلى محاولة التفاهم معهما، باستشارة عطفهما على موكلته، التى لم يثبت أنها اشتركت فى قتل أمهما، أو باغرائهما بتعويض مالى رمزى عن فقدها.. ولابد أن هذا التفاهم كان قد انتهى إلى اتفاق بين الطرفين قبل بدء المحاكمة، دفع المحامى للتنازل عن حقه فى استدعاء شهود نفى يشهدون لصالح موكلته..

وقد يبدو لافتا للنظر أن المحامى المنتدب للدفاع عن «عرابى حسان» - وهو «عثمان أفندى نور الدين» - لم يصر على

تسجيل واقعة عجز الشاهد السادس «محمد خليفة» عن التمييز بين «ريا» و«سكينة» فى محضر الجلسة، على الرغم من أهميتها للدفاع عن موكله، ولم يشر إليها ـ بعد ذلك ـ فى مرافعته عنه ـ بل إن محضر الجلسة قد أغفل ذكرها تماماً، بينما ذكرها مندوب «الأهرام» فى تغطيته لوقائعها.

كما يلفت النظر ـ كذلك ـ أن رئيس النيابة «سليمان بك عزت» لم يحاول مناقشة ابنى «خضرة محمد اللامى» فى عجزهما عن التعرف على خلخال أمهما ـ مع أنهما كانا قد تعرفا عليه، أكثر من مرة ـ أمامه، وأمام مساعديه أثناء التحقيق.

والحقيقة أن المقارنة بين المحاضر الرسمية لجلسات المحاكمة، وبين ما نشرته «الأهرام» ـ وغيرها من الصحف ـ عن وقائعها، لا يكشف ـ فحسب ـ عن عدم دقة تلك المحاضر، وعن الإهمال فى تدوينها، بل يدل ـ كذلك ـ على أن هذا الإهمال، لم يكن سوى أحد مظاهر نظرة الاحتقار والاستخفاف التى كان الجميع ـ بما فى ذلك هيئة المحكمة وممثل الاتهام بل وهيئة الدفاع ـ ينظرون بها إلى المتهمين. ويكشف عن أنهم كانوا جميعا يتعاملون معهم انطلاقا من فكرة مسبقة وراسخة بأنهم مدانين. وربما لهذا السبب، عزف معظم المحامين عن أداء واجبهم فلم يمارسوا حقهم فى مناقشة شهود الاثبات..

وعلى عكس المعتاد فى المحاكمات الجنائية، التى يلجأ المحامون فيها عادة إلى «عصر» هؤلاء الشهود، واستدراجهم للادلاء بأقوال توحى أو تدل على تحاملهم ضد المتهمين، أو تتناقض مع بعضها البعض، أو تكشف عن أنهم «شهود سماع» وليسوا «شهود رؤية» مما ينتهى بتشكيك المحكمة فى صدقهم فإن «شفيق أفندى حلابه» ـ المحامى المنتدب عن «عبدالرازق يوسف» ـ كان الوحيد ـ بين المحامين العشرة عن المتهمين فى قضية «ريا وسكينة» ـ الذى وجه سؤالين، لشاهد واحد ـ بين ٣١ شاهد أثبات استمعت إليهم المحكمة ـ هو «محمد خفاجة» اللبان، أراد منهما أن يثبت للمحكمة أن موكله «عبدالرازق» لم يكن يعرف «أنيسة» وأن «ريا» هى التى قدمتها إليه، وأن ينفى الصلة بين «عبدالرازق» وبين تردد الفتاة على «بيت ريا» التى عثر على جثتها فيه..

وكان «محمد أفندى حسيب» ـ محامى المدعى بالحق المدنى «رمضان النجار» ـ هو المحامى الثانى الذى أثبت أنه قرأ ملف القضية، واستخرج منه، ما ظنه يفيد موكله، حين تصدى لمناقشة الشاهد «محسن السقا» واستدرجه ليعيد رواية الحوار الذى دار بينه وبين شيخ الحارة، حين ذهب إليه يشكو من قيام «ريا» بادارة بيت للدعارة السرية بين بيوت الأحرار وما تعرض له من تهديد «عبدالرازق» و«عرابى»، فنصحه بعدم التعرض لهم، وقال له: الحكومة عارفة وساكتة ـ وأنت مالكش صالح. ليثبت المحامى بذلك تواطؤ رجال الشرطة مع المتهمين..

أما وقد استمع الدفاع إلى أقوال شهود الاثبات من دون تعليق، فقد كان طبيعياً أن يلتزم المتهمون الصمت، وألا يحاول أحد

منهم مناقشة هؤلاء الشهود، باستثناء «سكينة» التى دفعها توترها، وقادتها نوازعها الاستعراضية، للدخول فى ملاسنات كلامية مع الشهود، تهدف إلى تجريح النساء منهن. وقد بدأت بتكرار اتهامها لجارتها «سيدة سليمان» - الشاهدة الأولى - بأن «كل الخبص اللى كان بيجرى فى البيت كان بعلمها»، وهو ما أغرى «ريا» بمشاركتها فى الهجوم على الشاهدة الثانية «أم نظلة»، فعيرتاها بأنها كانت قوادة، وبأنها كانت تعلم بتردد ابنتها على منزلهما لممارسة الدعارة. وقد ردت عليهما المرأة، مما رفع من حدة المناقشة التى كادت تتحول إلى شجار بين النساء الثلاث فى ساحة المحكمة، لولا تدخل «أحمد موسى باشا» الذى أمر الشقيقتين بالتزام الصمت.. وأمر الشاهدة بالانصراف.. لكن الموقف ما لبث أن عادل إلى الإشتعال، عندما وجهت «سكينة» نفس تهمة العمل بالدعارة إلى الشاهدة الثالثة «توته» - زوجة «عبدالرحيم الشريتلى».

وعلى العكس من تدخلات الشقيقتين التى لم تكن ذات فائدة تذكر فى الدفاع عنهما بعد أن أقرتا - أمام المحكمة - بالتهمة. واعتمدتا اعترافاتهما فى تحقيقات النيابة، والتى لم يكن الهدف منها - فى الغالب - سوى الانتقام من الشهود، فقد حاول «حسب الله» أن يوظف المرتين اللتين ناقش فيهما شاهدين من شهود الاثبات، لصالح الدفاع عنه، وهو ما فات على محاميه.. فعلق على شهادة «أحمد عدس»، بأنه اصطحب «محسن السقا» إلى الخمارة التى كان «حسب الله» يجلس فيها مع «عبدالرازق»، قائلاً:

- الشاهد ده كان فاتح قهوة حشيش جنب بيت «ريا».. وكان يستنفع منها.. وهى اللى جايباه يشهد على..

وعلق على شهادة «عزيزة بنت عبدالعزيز» التى حملت الجثة التى ألقيت فى خرابة شارع الواسطى قائلاً:

- هوه ده معقول؟ أروح معاها ليه؟ مش كان أحسن لى أنقل الشوال بنفسى وأوفر الربع ريال؟..

ولأن الجميع كان فى عجلة للانتهاء من نظر القضية التى لم تكن وقائعها مما يستريح الإنسان للاستماع إليه، أو المناقشة حوله فى شهر الصيام، فما كادت الساعة تصل إلى الواحدة والنصف، حتى انتهت المحكمة من الاستماع إلى أقوال كل شهود الاثبات ماعدا الثلاثة الذين تغيبوا - وهم «الكابورال» وليم جولدنج والخفير «عبدالموجود عبدالرحيم» والضابط «أحمد نصار» - ولم يتردد الجميع فى التعبير عن حماسهم للالتزام بالوقت المحدد للفراغ من المحاكمة، فوقف رئيس النيابة «سليمان بك عزت»، ليعلن تنازله عن حقه فى الاستماع إلى أقوالهم، لتوفير الوقت اللازم لاعادة إعلانهم بالحضور، ولكى يتاح للمحكمة أن تنتقل - فى اليوم التالى - إلى الاستماع لشهود النفى.

ولم يتمسك أحد من المحامين بحقه فى الاستماع إلى أقوال كل شهود الاثبات، أو بحقه فى مناقشتهم وتفنيد أقوالهم، بما

فى ذلك محامى «عرابى حسان» الذى كان يستطيع ـ بمجهود قليل فى المناقشة ـ أن يستغل عزوف الخفير «عبدالموجود» عن الشهادة ضد ابن بلده، ليحوله من شاهد اثبات إلى شاهد نفى.

ولم يكتف المحامون بالعزوف عن مناقشة شهود الاثبات، أو بالتنازل عن حقهم فى إعادة إعلان من تغيب منهم، بل وتنازلوا كذلك ـ وبمنتهى الأريحية ـ عن معظم شهود النفى. وكان دفاع اثنين من المتهمين فقط ـ هما «عرابى حسان» و«عبدالرازق يوسف» ـ هو الذى أستأذن المحكمة فى إعلان شهود نفى، فأذنت لهما بذلك.

وعندما انعقدت الجلسة الثانية ـ فى التاسعة والربع من صباح اليوم التالى ـ وتبين أن ثلاثة فقط من شهود النفى الخمسة الذين طلبهم دفاع «عبدالرازق»، هم الذين حضروا بينما تغيب الشاهدان الآخران، وكل شهود «عرابى» الأربعة، تنازل الدفاع ـ ببساطة ـ عمن لم يحضروا من شهود النفى.

والحقيقة أن أقوال شهود النفى الثلاثة، الذين ناقشتهم الدفاع، لم تكن ذات فائدة تذكر.. وكان من بينهم واحدة من جارات «أنيسة» رأت واقعة المشاجرة التى جرت بينها وبين حماة أخيها، وانتهت بضياع إحدى فردتى الحلق الذى كانت تتزين به.. وكان واضحاً ـ كما ذكر مندوب «الأهرام» فى تغطيته للجلسة ـ أن الدفاع يريد أن يوحى بأن فردة الحلق قد سرقت من «أنيسة» قبل تعرفها بـ«عبدالرازق»، وأنه لم يسرق منها شيئاً، وبالتالى فإنها لم تشهر به ليكون ذلك مبرراً يدفعه لقتلها. ولأن واقعة السرقة المنسوبة لـ«عبدالرازق» كانت تتعلق بفردة الحلق الثانية وليست الأولى، التى لم يذكرها أحد من شهود الاثبات، فإن رئيس النيابة لم يجد مبرراً لمناقشة الشاهدة وهو ما فعله مع شاهدين آخرين، وهما من أصحاب عربات الكارو الذين عمل معهم «عبدالرازق»، إذ كانت شهادتهما له بالاستقامة وحسن السير والسلوك، اثناء عمله معهما، تنصب على الماضى، لا على الحاضر، بعد أن أقر بأنه ترك العمل لديهما، مع بداية سنوات الحرب، وانتقل للعمل بالسلطة العسكرية..

ورأى رئيس المحكمة أن يستغل الوقت الذى توفر لها، بسبب غياب بقية شهود النفى، فى اعادة استجواب «آل همام» لعل أحد منهم يقدم دليلاً أو شاهداً ينفى التهمة عنه. لكن أحداً منهم لم يضف جديداً إلى ما قاله فى اليوم السابق، فيما عدا «سكينة» التى اتهمت «أم أحمد النص» بأنها «أس كل المصائب، وأنها أول من أوحى لـ«عبدالرازق» بأن يسكر «هانم» ليستولى على زوج المباريم الذى كانت تتزين به، فلما فشلت المحاولة، فكر الرجال فى مشروع القتل.

وفيما عدا «عبدالعال» الذى استدرك ما فاته فى أقواله السابقة، فاتهم الصاغ (الرائد) «محمد كمال نامى» ـ مأمور قسم شرطة اللبان ـ بضربه ومنع الطعام عنه، لكى يعترف على نفسه وعلى غيره.

واستشهد على ذلك بـ«عرابى» قائلاً انه عــذّب فى حــضــوره، فكشف بذلك عن تحالف جديد تم بين الاثنين، ستكون له آثاره البالغة فيما بعد..



وفى أعــقـــاب ذلك، بدأ «سليمان بك عــزت» - رئيس النيابة - مرافعته ضــد المتــهــمــين، فاستهلها بالتدليل على مدى فظاعة وشذوذ الجرائم التى ارتكبوها، باعتبارها أكثر الجرائم التى نظرها القضاء المصرى - حتى ذلك الحين - وحشية وجنونا، على كثرة ما عرض عليه من جرائم وحشية. وفى تعليله للحكم بتفرد هذه الجرائم، ذكر لذلك خمسة أسباب..

الأول: أن الضحـــايا كن من النســـاء الضعيفات البائسات اللواتى يبعن أجسادهن ويدخرن جانباً من الدخل الذى يعود عليهن من هذا العمل على شكل مصوغات، فجاءت العصابة لتسلبهن ما ادخرنه ليتغلبن به على تقلبات الزمن، من دون أن تسىء واحدة منهن لفرد من أفرادها، أو تكون فى الموقع الذى يتيح لها أن تسىء إليهم، أو تملك من القوة ما يمكنها من الدفاع عن نفسها.. إذ كان الفقر والضعف الذى يصل إلى حد الذل، وانعدام الأهل والنصير هى المزايا التى رشحتهن للقتل.

الثانى: أن الضحايا، كن على العكس من ذلك، من المتعاملات مع أفراد العصابة، وممن أقمن معهم، علاقات عمل وصداقة، وصلت أحياناً إلى حد الحب والعشق، فاستغلوا ثقتهن فيهم، واطمئنانهن إليهم، للغدر بهن.

الثالث: أن المتهمين لم يكتفوا بقتل واحدة، أو اثنين، بل قتلوا سبعة عشر امرأة، وتفرغوا - طوال عام كامل - لهذا العمل، ولم يسع أحد منهم للبحث عن عمل يتعيش منه، حتى بدا وكأنهم قد احترفوه، ولم يعودوا يستطيعون القيام بسواه..

الرابع: أن المتهمين فى حوادث القتل يجدون عادة مبرراً أو دافعاً لما فعلوه - كالأخذ بالثأر أو الغيرة أو غسل العار أو الانتقام أو حتى السرقة - يتذرعون به لطلب الرأفه بهم، فيما عدا الجرائم التى ارتكبتها هذه العصابة، التى يعز فيها وجود ذرائع من هذا القبيل.

الخامس: أن الطريقة التى اتبعتها العصابة فى قتل ضحاياها بكتم أنفاسهن، قد تبدو أقل قسوة من غيرها من طرق القتل، إلا أن الوسيلة التى اتبعوها فى اخفاء الجثث تكشف عن غلظة قلوبهم، وتبلد أحاسيسهم إذ كانوا يدفنون الجثث فى المكان الذى يعيشون فيه، فيأكلون ويشربون ويتضاجعون، بل ويحششون ويسكرون ويتسامرون ويزنون فوق الجثث، وكأن ذلك كله شىء عادى.. وبذلك تجاوزوا حدود الطبيعة البشرية إلى التصرفات - البربرية التى لا حد لشرها..

واستطرد «سليمان بك عزت» يقول أن

هذه الطبيعة المتفردة لجرائم العصابة، التى خرجت بها عن إطار النزعات البشرية، كانت وراء غضب واشمئزاز الرأى العام، فلم تدفع الناس فحسب للالحاح على طلب الحكم على المتهمين فى القضية بأقصى العقاب، بل وتمنى كثيرون منهم، أن يقوموا بتمزيقهم بأيديهم، قبل أن يصلوا إلى ساحة القضاء.

وانتقل رئيس النيابة من ذلك لاستعراض التاريخ الاجرامى لـ«آل همام» منذ نزحوا من «بنى سويف» إلى «كفرالزيات» ثم إلى «الاسكندرية» ليحترفوا إدارة بيوت البغاء ويتعرفوا على «محمد عبدالعال» ثم على «عرابى» الذى وضع نشاطهم الآثم تحت حمايته، ثم انتقلوا إلى «حارة النجاة» ليتوسع نشاطهم الآثم، بمشاركة «أم أحمد النص» وزوجها «محمد على القادوسى» لهم، وتتدعم قوتهم بانضمام «عبدالرازق» إليهم، ليصبح للعصابة فتوتين بدلاً من واحد.. ثم استعرض بداية التفكير فى اغتيال النسوة الساقطات، وتطور العمليات واحدة بعد أخرى، قبل أن ينتقل لتحليل موقف كل متهم على حده أثناء التحقيق. وما كاد ينتهى من شرح الطريقة التى مكنته حصار أكاذيب «ريا» حتى دفعها للاعتراف الذى كان طرف الخيط الذى قاد بعد ذلك إلى اعتراف بقية المتهمين، حتى صاح «حسب الله» قائلاً:

- حرام عليك.. دمنا فى رقبتك.

فرد عليه رئيس النيابة قائلاً بحسم:

- نعم دمك فى رقبتى.. وأنا أشهد انك كاذب فيما تدعيه من سوء المعاملة.. واشهد انك اعترفت أمامى بإرادتك ودون أى ضغط.. وأنا بعد ٢٢ سنة من العمل بالنيابة.. لا أخالف النظام والواجب من أجلك.

والتزم المتهمون الصمت التام، بينما كان رئيس النيابة يسرد الأدلة ضد كل متهم، ولم يعلق أحد سوى «أم أحمد النص» التى ما كادت تسمع الأدلة ضدها، حتى قالت:

- مظلومة..

فردت عليها «سكينة» قائلة بعنف:

- مظلومة إيه؟ وأنت أس المصايب كلها.

وقدم رئيس النيابة لطلباته، بابداء ملاحظة حول القول بأن القضاء المصرى قد استقر على عدم الحكم باعدام النساء، فقال: إن قانون العقوبات لا يفرق بين المرأة والرجل واستدل على ذلك بالنص على تأجيل تنفيذ الحكم بالاعدام على المرأة الحامل إلى ان تضع حملها، واضاف ان عدم صدور أحكام بالاعدام ضد النساء قبل ذلك كان يعود إلى سببين:

الأول: أن معظم جنايات القتل التى يرتكبها النساء، كانت من النوع الذى تنطوى وقائعه على مبررات للرأفة، كأن تكون المرأة قد قتلت ضرتها، أو دست السم لشخص يؤذيها، وهى حالة غير متوفرة فى قضية «ريا» و«سكينة» التى تكاد تخلو من أى مبرر للرأفة.

والثانى: لأن الإعدام كان ينفذ قبل ذلك علنا فى الميادين العامة، مما كان يدفع القضاة لتوقى الحكم بالإعدام على النساء رأفة بهن، وحرصاً على عدم تنفيذه فيهن

علناً، أما وقد أصبح الاعدام ينفذ داخل السجون، فلم يعد هناك مبرر لاستثنائهن من الحكم بالاعدام.

ثم انتقل من ذلك، إلى المطالبة بالحكم بإعدام سبعة من المتهمين هم: «ريا» «وسكينة» و«حسب الله سعيد» و«محمد عبدالعال» و«عرابى حسان» و«عبدالرازق يوسف» و«سلامة محمد»، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على «أمينة بنت منصور» وزوجها «محمد على القادوسى» وبحبس الصائغ «على محمد» مع الشغل لمدة ست سنوات.



محمد أبو شادى.. محامى رمضان النجار

ومع أن «محمد بك أبو شادى» ـ أحد المحامين عن المدعى بالحق المدنى «رمضان النجار» ـ أيد طلب النيابة، بأعدام «ريا» و«سكينة» قائلاً أن عدم صدور أحكام بالأعدام ضد النساء ـ فيما عدا حكم واحد صدر فى بداية انشاء المحاكم الأهلية عام ١٨٨٣ ـ أدى إلى تشجيع النساء على ارتكاب جرائم القتل، إلا أن ذلك لم يحل دون مساندة رئيس النيابة لمطلب محامى الحكومة ـ «توفيق افندى عريضه» ـ برفض دعوى التعويض من حيث الشكل، لعدم اختصاص محكمة الجنايات ينظر الطلب الذى يدخل فى نطاق عمل المحاكم المدنية، ولأن «رمضان» لم يطلب ذلك التعويض منذ بداية التحقيق، ولم يطلبه أمام قاضى الاحالة.

وبعد مناوشة قانونية استغرقت بعض الوقت، أمر رئيس المحكمة بضم الدفع إلى الموضوع، وطلب من الدفاع عن الطرفين التحدث فيهما معا.. فركز الدفاع عن «رمضان النجار» على حجم الخسارة المادية التى وقعت به نتيجة لفقد زوجته، التى كانت تعمل شيخة للمخدمين، وتربح من صناعتها عدة جنيهات كل شهر، والتى كانت تحمل معها عند قتلها أكثر من خمسين جنيها أعطاهم لها فضلاً عن الخسارة الأدبية والعاطفية التى لحقت به لفقده شريكة حياته، التى كانت تعينه على احتمال مصاعب الحياة.

ثم دلل على إهمال وزارة الداخلية قائلاً أن شياخة العيونى التى وقعت فيها جرائم القتل، منطقة ذات سمعة معروفة لكل أهالى الاسكندرية، بأنها محطة للخارجين على القانون، ومركز لارتكاب العديد من الجرائم، من بيوت الدعارة غير القانونية إلى الحاشش والخمارات غير المرخص بها، وانه كان يستحيل على المتهمين ارتكاب جرائمهم، لو كان رجال الشرطة يقومون بواجبهم وينفذون القانون فى هذه المنطقة

وما يشابهها.. واتخذ من الطريقة التى تعامل بها رجال الشرطة مع البلاغات التى تقدم بها إليهم، أقارب الضحايا عن غيابهن، دليلاً على الاهمال الجسيم، وأضاف «إن هذا الاهمال هو الذى أدى إلى تمادى المتهمين فى ارتكاب الجرائم.. وهو الذى تسبب فى مقتل شيخة المخدمين.. ولولا الصدفة التى كشفت عن جرائمهم.. لاغتيلت أرواح كثيرة».

ولأن الجمهور - كما قال مندوب «الأهرام» - كان يشارك محامى المدعى بالحق المدنى، رأيه فى أن «إهمال البوليس كان عظيماً»، فقد بدا محامى الحكومة غير مقنع، وهو يحاول أن يؤكد العكس، مدللاً على ذلك بأن النيابة لم تتهم أحداً من رجال الشرطة بالاشتراك فى القتل أو بالتواطؤ مع المتهمين، وبأن ما اتخذته جهات الادارة من اجراءات، بشأن ما تلقته من بلاغات حول غياب الضحايا، هو ما ينص عليه قانون تحقيق الجنايات بلا زيادة ولا نقصان، ثم يختم دفاعه مطالبا برفض دعوى التعويض قبل وزارة الداخلية..

ولم يكن لدى معظم المحامين عن المتهمين ما يقولونه بل وحرص أكثر من واحد منهم على أن يعتذر - فى مطلع مرافعته - عن دفاعه عنهم..

وكان «أحمد افندى المدنى» - محامى «ريا» و«سكينة» - هو أكثرهم حرجاً على الصعيدين السياسى والقانونى.. إذ عز عليه - وهو أحد الوجوه اللامعة فى لجنة الحزب الوطنى بالاسكندرية والمحامى العمالى الشهير - أن يبدو أمام الرأى العام، وكأنه يبرر لابنتى «على همام» ما ارتكبتاه من فظائع. ثم أنه لم يجد من الناحية القانونية المحضه - ما يقوله.. لذلك توقف عند أقوال شهود الاثبات ليلاحظ بأن أحدا منهم، لم يقل بأنه قد رآهما وهما تشتركان فى القتل وبيع المصوغات، وحتى فى هذا الإطار فقد كانتا مسوقتين تحت تأثير زوجيهما وتأثير الرجال الاشداء الذين يحيطون بهما ويضغطون عليهما ويهددونهما بنفس المصير.. وهى عوامل تدعو لتخفيف العقوبة عنهما، خاصة وأن حكم الاعدام قد أصبح من العقوبات الممقوتة فى البلاد المتقدمة، وأن الفضل فى كشف الستار عن المجرمين يعود إلى اعترافاتهما المفصلة، التى لولاها لما توصل التحقيق إليهم، وأن الأجدر بالمحكمة أن تستعمل الرأفة مع المتهمتين.. ثم ختم مرافعته قائلا:

- اننى أعلم ان الجمهور ساخط على «ريا» و«سكينة» وقد تعجبت من انتدابى للدفاع عنهما.. وقبلته مرغماً.. طوعاً لواجبى وطوعاً لأمر القانون.

وبدأ «أحمد أفندى حلمى» مرافعته بالتنويه إلى أنه انتدب للدفاع عن «حسب الله سعيد» و«محمد عبدالعال» انطلاقا من أن مصلحتهما واحدة. أما وقد تبين له - بعد الاطلاع على التحقيقات - أن الأمر ليس كذلك، فسوف يقصر دفاعه على الأول. وقد بدأه بهجوم شديد على ممثل الاتهام، فانتقد إشارته إلى موقف الرأى العام من المتهمين قائلا:

- إن تحامل الناس على متهم لا يمنع المحكمة من تقدير الأدلة المقدمة إليه ضده، بعيداً عن تشنيع الجمهور وعن تحريض النيابة..

وانتقد إصرار المحقق على إجراء التحقيق في سرية، ومن دون حضور الدفاع عن المتهمين، مما حال دون وزن الاعترافات التى جاءت على لسان بعضهم، وتقدير الظروف التى أحاطت بهم أثناء الادلاء بتلك الاعترافات التى افترض انها انتزعت بالاكراه، وبذلك استبعد اعتراف «حسب الله». وانتقل لتفنيد أدلة الاتهام الأخرى ضده، فالختم الخاص به الذى عثر عليه بين الجثث، كان قد تركه أمانة لدى مطلقته. ومحبس «فردوس» الذى عثر عليه معه، ليس دليلاً إذ لا يبعد أن تكون «فردوس» قد باعته لصائغ واشتراه هو منه كما قال. أما اعتراف «ريا» و«سكينة» عليه، فهو لا ينهض دليلاً ضده، إذ لا يؤخذ باعتراف متهم على متهم إلا إذا تعزز بأقوال - أو بأحوال - أخرى..

وبعكس ما كانت البداية قوية، فقد ختم محامى «حسب الله» دفاعه عنه، بمفاجأة جاءت متناقضة مع بدايتها وكشفت عن أنه لم يكن يصدق كلمة مما ساقه فى مرافعته، إذ قال:

- عندما وقعت هذه الجرائم الشنيعة وشرفتنى المحكمة بانتدابى للدفاع فيها عن هذا المتهم، أخذت على نفسى أن أطلب الكشف على عقول هؤلاء المتهمين بما فيهم «حسب الله»، لأن ارتكابهم لهذه الجرائم الوحشية، يدل على خلل مؤكد فى قواهم العقلية، ينبغى التثبت منه، قبل الحكم بمسئوليته عن ارتكابها.. وقد قدمت فعلاً طلباً بذلك لحضرة رئيس النيابة، الذى اعتذر بأن القضية قد خرجت من يده، وأن المحكمة هى صاحبة الرأى فى ذلك، وهو ما يدعونى لأن التمس من عدالتكم إحالة «حسب الله سعيد» إلى مستشفى الأمراض العقلية، لتفحص قواه، وتحدد درجة مسئوليته عن أفعاله، قبل صدور الحكم..

وعلى العكس من الهجوم على النيابة العامة الذى استهل به محامى «حسب الله» دفاعه عنه، فإن «جميل افندى حبيب» - المحامى المنتدب عن «محمد عبدالعال» - بدأ مرافعته بالهجوم على موكله، فكذب ادعاءه أمام قاضى الإحالة وأمام المحكمة بأن اعترافه فى محضر التحقيقات قد انتزع منه بالاغراء والترغيب، أو بالإرهاب والتعذيب، وقال أنه لا يطعن على الاعتراف، بل يطالب المحكمة بأن تأخذ «عبدالعال» به، وأن تحاسبه على أساس كل ما ورد به، وأضاف:

- إن الأخذ بهذا الاعتراف - الذى نقر بصحته ونطالب بالأخذ به برمته وعلى علاقته - لا يفضى إلى اتهام موكله بالقتل مع سبق الإصرار، وهى تهمة عقوبتها الاعدام الذى تسعى الدول المتحضرة لإلغائه من قوانينها، لأن التكييف الصحيح للتهمة هو «تسهيل» القتل وليس «ارتكابه» إذ لم يكن دور «عبدالعال» - طبقاً لاعترافه، ولاعترافات بقية المتهمين - يتعدى الامساك باقدام المجنى عليهن، ليقوم غيره بكتم

انفاسهن، وهو ما يقضى بتغيير تكييف التهمة، إلى تسهيل الجريمة، وهى تهمة عقوبتها الاشغال الشاقة المؤبدة، وليس الإعدام..

وسهل إنكار «عرابى حسان» لكل التهم التى وجهت إليه من بداية التحقيق وحتى نهايته، على محاميه مهمة الدفاع عنه، فاستهل محاميه «عثمان أفندى نور الدين»، مرافعته بتنبيه المحكمة إلى أن التهمة الموجهة إلى موكله، يقضى فيها إما بالإعدام، أو بالبراءة، وليس هناك إحتمال ثالث، وهو ما يتطلب وزن أدلة الاتهام قبل كل متهم للاطمئنان إلى أنها تكفى لادانته بصورة لا تقبل الشك الذى يفسر لصالح المتهم.

ثم استعرض أقوال شهود الاثبات ضد موكله، مؤكداً بأنها - بفرض صحتها - لا تكفى لاقناع المحكمة بإدانة «عرابى» وهى مستريحة الضمير، وهو ما ينطبق على ما ورد بشأنه فى اعترافات «آل همام» لتناقض الطبعات المختلفة لاعترافات كل منهم، وتناقض صورته الأخيرة، مع الصورة النهائية لاعترافات شركائه، وختم مرافعته بطلب البراءة.. ورفض دعوى التعويض ضده..

وفى الثانية والنصف - وبعد انتهاء الدفاع عن «عرابى» من مرافعته - أعلن رئيس المحكمة تأجيل الجلسة إلى اليوم التالى.. ونبه على المحامين الخمسة الذين لم يترافعوا بعد بالاستعداد، وبعدم التخلف، لأن المحكمة قررت الانتهاء من نظر القضية فى تلك الجلسة.



وكانت آثار الاجهاد ظاهرة على وجوه المتهمين العشرة، وهم يدلفون فى التاسعة من صباح اليوم الأخير للمحاكمة إلى قفص الاتهام.. على نحو دل بوضوح على أنهم قضوا ليلة مجهدة بلا نوم، يفكرون فى المجهول الذى ينتظرهم بين شفتى القاضى.

وعلى عكس ما كان يحدث فى اليومين السابقين، فقد جلسوا جميعاً واجمين، يحيون أقاربهم بعقل غائب وذهن شارد فيما عدا «سكينة» التى عبرت عن توترها واجهادها العصبى بكثرة الحركة والكلام بصوت عال، وحين قال لها أحد الحاضرين معاتبا: هس.

قالت له بصوت عال:

- هس على إيه؟.. الواحدة رايحة المشنقة.. خلونا نتكلموا على كيفنا..

ولابد أن «ريا» كان لديها أسباباً تدعوها للإعتقاد بأن رئيس النيابة، لن يطالب - فى مرافعته أمام المحكمة - باعدامها، ولعله كان قد ألمح لها بذلك ليشجعها على الاعتراف، فما كادت تراه يتقدم نحو كاتب الجلسة ليطمئن على تمام إجراءات انعقادها، حتى قالت له معلقة على مرافعته:

- برضه كده؟!..

ثم انهمرت دموعها لأول مرة منذ بدأت

المحاكمة. واستثار بكاؤها «عبدالرازق» الذى فقد سيطرته على نفسه، وغلبه البكاء وأخفى وجهه بين كفيه، حتى لا يرى أقاربه - الذين كانوا يتابعون الجلسات - دموعه. لكن اهتزاز جسده، وارتفاع صوت نشيجه فضح ما أراد أن يستره.

وكالغريق الذى يتعلق بالقشة، فقد توهم «عبدالرازق» أن المجهود الكبير الذى بذلته اسرته لاحضار شاهدى النفى اللذين تخلفا عن حضور جلسة الأمس - يمثل دعماً قوياً لدفاعه، ومع أن محاميه - «شفيق أفندى حلابه» - لم يكن يشاركه مبالغته فى أهمية أقوالهما، إذ كانا قد أدليا بها من قبل فى تحقيقات النيابة، فضلاً عن أنه كان قد تنازل أمام المحكمة فى جلسة الأمس عن شهادتهما، إلا أنه استجاب لإلحاحه واستأذن المحكم فى استدعائهما، فأذنت له. ولم تضف أقوال الاثنين جديد إذ كانا كزملائهم الثلاثة الذين استمعت إليهم المحكمة فى اليوم السابق، يعملان فى توكيل إحدى شركات الشحن والتفريغ فى ميناء الاسكندرية.. وقد شهدا بأن «عبدالرازق» كان يعمل تحت إشرافهما بوظيفة ملاحظ على «عربجية الكارو» - طوال الفترة بين أول يوليو (تموز) و١٨ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩٢٠- وأن عمله كان يتواصل بين السابعة صباحاً والثامنة مساء، وكان يتقاضى عنه أجراً يومياً يصل إلى ثلاثين قرشاً، وأضافا - رداً على أسئلة الدفاع - بأنهما لم يلاحظا أنه كان يتغيب عن العمل خلال تلك الفترة. ولكنهما استدركا - رداً على سؤال آخر من رئيس النيابة - أنهما لا يستطيعان الجزم بأنه لم يكن يغادر مكان العمل أو ينقطع عنه فى بعض الأيام.. وقد علق رئيس النيابة على شهادتهما قائلاً أن جرائم القتل بدأت قبل التاريخ الذى ذكره الشاهدان بسبعة شهور، فضلاً عن أنهما لم ينفيا أحتمال تسلله من العمل خلال الفترة التى كان يعمل بها بانتظام معهما.

وانطلق محامى «عبد الرازق» فى دفاعه عنه من افتراض أساسى، هو أن كل الشواهد التى تحفل بها أوراق القضية تحصر الاتهام فى «ريا» و«سكينة» وزوجيهما: فالمكان الذى عثر فيه على الجثث يخصهم والعلاقات بينهم وبين الضحايا قديمة ووثيقة، وعددهم - رجالاً ونساء - يكفى للقيام بكل خطوات الجريمة من السحب إلى القتل ومن الدفن إلى تصريف المسروقات، وعلى ذلك فلا يجوز اقحام متهم آخر معهم، إلا إذا قامت على ذلك أدلة يقينية حاسمة.

ثم أخذ يستعرض الأدلة التى ساقتها النيابة على اشتراك موكله فى الجريمة فقال أن الدليل الأول - وهو ما ورد بشأنه فى اعترافات «آل همام» - لا يمكن الأخذ به.. إذ لم تذكر «ريا» اسمه إلا فى الطبعة الثالثة بعد العثور على جثة «فهيمة» فى بيت «أم أحمد» وتناقضت - بعد ذلك - اعترافات الأربعة بشأنه، فلم يتفقوا جميعاً على اسماء الضحايا التى اشترك فى قتلهم ولم يرد اسمه على لسان أحد من الشهود فى ست حوادث على الأقل.

وتوقفت أمام الضلع الخامس فى مربع «آل همام» وهى «بديعة» ابنة «حسب الله» و«ريا» فقال:

ـ هذه البنت شهدت بأنها رأت عمليات قتل أربع من الضحايا، وذكرت اسماء الذين رأتهم يقومون بالقتل أو بالدفن.. ولم يكن اسم «عبد الرازق» من بين الأسماء التى ذكرتها.. ولم تشر إليه إلا بعد أن اختلط بها البوليس السرى». وأبدى دهشته لأن النيابة لم تدرج اسم «بديعة» من بين الشهود وطالب المحكمة بأن تأمر باستدعاء الفتاة للاستماع لأقوالها، التى قد تكون شهادة اثبات على المتهمين الأربعة الأولين، لكنها تعتبر شهادة نفى قاطعة بالنسبة لموكله.

واعترض رئيس النيابة على الطلب قائلاً: انه من الفظاعة أن نأتى بطفلة صغيرة لتشهد على أمها وأبيها.. ففوض الدفاع الأمر للمحكمة.

ثم انتقل إلى الدليل الثانى، وهو إنكار «عبدالرازق» ـ فى البداية ـ تردده على بيت «حارة النجاه» أو معرفته بأصحابه، وانكاره معرفته بـ«أنيسة» أو رؤيته لها.. ثم اعترافه بذلك، فقال:

ـ إنه لا يجوز مؤاخذة المتهم على سلوك غريزى ظن أنه يخليه من المسئولية، إذ لا يعدو ذلك أن يكون سوء دفاع منه، وقد عدل عنه عندما استقر نفسياً واعترف بعلاقته بالمتهمين والضحية، وهى علاقة لا يوجد ما يحول دون تصديق تصويره لها، ولا يوجد ما يدل على أنها قد تطرقت إلى المشاركة فى القتل، إذ لم يكن كل الذين يعرفون «ريا» و«سكينة» أو يترددون على منزلهما بالضرورة أعضاء بالعصابة.. ولو كان هو الذى خطط لقتل «أنيسة»، أو كان عضواً بالعصابة، لفعل ذلك عند أول لقاء جمع بينهما، ولو أراد قتلها انتقاماً مما يقال عن تشهيرها به، لفعل ذلك وحده، ومن دون مشاركة من أحد، طالما أنه ـ كما يدعون ـ فتوة الحتة.

وفى رده على دليل الاتهام الثالث، قال «حلابه افندى»: ان الثابت من قائمة تداول المتهمين للمصوغات، أن «عبدالرازق» لم يشتر مصوغات منذ أغسطس (آب) ١٩١٩، أى قبل بدء جرائم القتل بثلاثة



عبد الرحمن رضا بك

شهور على الأقل. وختم مرافعته قائلاً: إن «عبدالرازق» رجل طيب من أصل طيب ووالده عالم، واخوه ذو ثروة، وفى غير احتياج، ولهذا تكون الأدلة غير كافية، والتمس الحكم ببراءته، ورفض الدعوى المدنية قبله.

وقال «زكى راغب» المحامى عن «أمينة بنت منصور» أنه بحث فى أوراق القضية عن مبرر لتوجيه تهمة الاشتراك فى القتل - بالاتفاق والمساعدة - لموكلته، فلم يجد شيئاً يدل على أنه كان هناك اتفاق أو مساعدة، بما فى ذلك اعترافات المتهمتين الرئيسيتين، وهى الأساس الوحيد لتوجيه التهم لـ«أم أحمد». إذ لم تقطع «ريا» ولم تجزم «سكينة» بأن «أم أحمد» كانت تعلم بأن المرأة التى دخلت حجرة فى منزلها قد قتلت ولم يدر بينها وبين إحداهما حديث صريح حول ذلك، وكل ما قالتاه فى هذا الصدد هو استنتاج منهما، بأن موكلته لابد وقد خمنت بأن المرأة قد قتلت. وفضلاً عن المتهمة لم تكن تقيم فى الغرفة التى وقع فيها القتل، فإن الضحية لم تنتقل إليها بتخطيط مسبق أو باتفاق بينها وبين المجرمين، ولكن لأن غرفة المحششة وملحقاتها كانت مشغولة فى ذلك اليوم.

وأضاف: إن البرقع الذى ضبط عند «أمينة بنت منصور» وزعمت «سكينة» - أمام المحكمة - أنه برقع «فهيمه» سبق أن تعرفت عليه «أم فردوس» وقالت أنه برقع ابنتها.. والملاءة التى ادعت أنها أعطتها لـ«أم أحمد» لم يعثر عليها لدى أحد، وختم «زكى راغب» مرافعته مطالبا بالبراءة لموكلته، ويرفض الدعوى المدنية قبلها..

وسلم «فريد أفندى إبراهيم» - المحامى عن «سلامة محمد خضر الشهير بـ«الكبت» - فى بداية مرافعته، بصحة كل الوقائع التى كشف عنها التحقيق بشأنه، قائلاً أن صحتها، ليست دليلاً على صحة التهمة الموجهة إليه بالاشتراك فى مقتل بائعة الجاز.. فقد كان يقيم مع «سكينة» بالفعل، وانتحل شخصية زوجها الغائب «عبدالعال» فى محضر تحقيق الشرطة - ثم أمام النيابة والمحكمة - فى قضية الخناقة مع النوبيين الذين يجاورون «ريا» و«حسب الله» فى المسكن.. وكان ينام فى منزل «حارة ماكوريس» عندما ضبط فى قضية كسر دكان «الخواجة عزوزى» التى برىء منها.. ولكن ذلك كله لا علاقة له باتهام النيابة له بالاشتراك فى قتل بائعة الجاز.. التى انفردت «سكينة» باتهامه بالاشتراك فيها، ولم يؤيدها فى ذلك سوى «حسب الله».

وفضلاً عن أن اعترافات «سكينة» قد تعززت بأدلة أخرى فى كل الوقائع، إلا فى هذه الواقعة بالذات، فإن الواقعة كما روتها لا تدل على اشتراك «سلامة» فى القتل، إذ كان - طبقاً لادعائها - نائماً فى الغرفة، حين دخلت بائعة الجاز، وورائها كل من «حسب الله» و«عبدالعال» اللذين انقضا عليها مما دفع «سلامة» للنهوض من نومه فزعاً، ليفاجأ بما يجرى أمامه، وهو مالا يمكن اعتباره اشتراكاً، حتى لو صح بأنه قد أخذ نقوداً مقابل صمته، ولو كان الأمر قد وقع كما صورته «سكينة» لما استبعدت

المصابة «سلامة» من المشاركة فى العمليات التالية، وخاصة عملية «نبوية القهوجية» التى نفذت فى اليوم التالى مباشرة لمقتل بائعة الجاز، ولما طلبت إليه «سكينة» عدم دخول المنزل، فى اللحظة التى كان يتم فيها التنفيذ.. وختم «فريد أفندى إبراهيم» مرافعته بالتماس الحكم ببراءة «سلامة».. ورفض الدعوة المدنية ضده..

ولم يكن لدى «عبدالحميد افندى يوسف» - المحامى عن «محمد على القادوسى» - الكثير ليقوله، إذ لم يكن لإفراج قاضى الإحالة عنه معنى إلا اقتناعه بضعف الأدلة على صحة التهمة الموجهة إليه، وهو ما ركز عليه الدفاع عنه الذى دلل على أن صلته بالمتهمين لم تكن تتعد بيع الخمور والطعام لهم، وعلى أن صلته بمطلقته وأم أولاده «أمينة بنت منصور» كانت واهية بحيث لا يجوز أن تلحقه الشبهات التى لحقت بها، فضلاً عن أنه كان يقيم فى دكانه، ولا صلة له بالغرفة التى عثر فيها على الجثة، ولذلك طالب ببراءته ورفض الدعوى المدنية ضده.

وركز «إسماعيل بك حمزة» المحامى عن الصائغ «على محمد» مرافعته عنه، على بالقول بأنه كان يشترى المصوغات من «ريا» و«سكينة» بحسن نية، ومن دون أن يعلم بأنها مسروقة، واعتماداً على أن النساء من نوعهن يكتنزن مدخراتهم - عادة - على شكل مصوغات، ويكثرن من البيع والشراء فضلاً عن أن زوجيهما اللذين كانا يصحبانهما، كانا يبدوان على جانب من الثراء..

ولفت الدفاع عن الصائغ نظر المحكمة إلى تضارب أقوال المتهمين المعترفين فى تحديد النصيب النقدى الذى خص كل فرد من المشتركين فى القتل من ثمن بيع مصوغات كل ضحية على حده، وإلى اتهام «سكينة» لبقية شركائها بأنهم كانوا يهضمون حقها، ويخفون عنها قطع من مصوغات الضحايا، واستنتج من ذلك أن الصائغ كان يشترى ما يعرض عليه بثمنه الحقيقى السائد فى الصاغة يوم الشراء، وأن المتهمين هم الذين كانوا يسرقون بعضهم البعض، وأن هذا هو السبب فى شيوع الظن بأنه كان يشترى المصوغات بثمن أقل من ثمنها لعلمه بأنها مسروقة، وختم مرافعته بطلب براءة موكله، ويرفض الدعوى المدنية ضده.

وكانت الساعة قد اقتربت من الواحدة ظهراً، حين انتهت المرافعات فى القضية، ورفع رئيس المحكمة الجلسة للاستراحة، وانسحبت هيئتها إلى غرفة المداولة. وبعد أقل من نصف ساعة، عادت المحكمة للانعقاد مرة أخرى، وأذن رئيسها لمصورى الصحف، بالتقاط صورة لهيئة المحكمة وللمتهمين. ووسط سكون شامل فتح ملفا أمامه، وقرأ منه:

قررت المحكمة ارسال أوراق هذه القضية إلى حضرة صاحب الفضيلة مفتى ثغر الاسكندرية لابداء رأيه طبقا للمادة ٤٩ من قانون تشكيل محاكم الجنايات، وحددت لصدور الحكم فى الدعوى يوم الاثنين الموافق ١٦ مايو الحالى..

وما كادت هيئة المحكمة تغادر القاعة

حتى ارتفع اللغط بين المتهمين وأقاربهم، يتساءلون عن معنى القرار الذى أصدرته، وتهرب معظم المحامين من الاجابة على السؤال، واكتفوا بالقول بأن الحكم فى القضية قد تأجل إلى يوم الاثنين التالى.

لكن الاجابة عما يتساءلون عنه، كانت تنتظرهم فى سجن الحضرة على لسان المخضرمين من زملائهم المسجونين، ذوى الخبرة بالمصطلحات القانونية وبالاجراءات القضائية، الذين أكدوا لهم أنه لا معنى للقرار، إلا أن المحكمة سوف تقضى باعدام كل الذين طالبت النيابة باعدامهم، أو بعضهم.. لذلك أرسلت تطلب رأى المفتى فى استحقاقهم للقصاص طبقاً للشريعة الإسلامية، ولأن القرار لم يطلب رأى المفتى فى متهم بعينه من المتهمين السبعة المطلوب شنقهم، فقد سادهم القلق خلال الأيام الأربعة التى فصلت بين إحالة الأوراق إليه، وبين يوم صدور الحكم.

ولم يكن لدى «آل همام» شك فى أن الحكم بالاعدام سوف يشملهم جميعاً.

ولم يكن لدى «سلامة الكبت» شك فى أن حكماً بالأعدام لن يصدر ضده.. وإن كان احتمال الحكم عليه بالسجن وارداً.

وكان التكهن بنوع الحكم الذى سوف يصدر ضد «عرابى» و«عبدالرازق» من رابع المستحيلات.. ولابد أن مناقشات واسعة حول تلك الاحتمالات، قد دارت بين الرجال الأربعة المرشحين للشنق، انتهت إلى عهود ومواثيق بدت آثارها فيما بعد.

وفى اليوم نفسه، كان ملف القضية - الذى يقترب عدد صفحاته من ألف وخمسمائة صفحة - ينتقل من مبنى محكمة الجنايات إلى مبنى المحكمة الشرعية التى كان فضيلة الشيخ «محمد على» يجمع بين رئاستها، وبين منصبه كمفتى المدينة، ومعه خطاب يشير إلى الموعد الذى حدد للنطق بالحكم. ولأن تفحص أدلة الاتهام ضد كل منهم على حده، لم يكن من مهمة المفتى فضلاً عن أن الأيام الثلاثة التى فضلت بين إحالة الملف للمفتى والموعد المحدد للنطق للحكم لم تكن تكفى إلا لمجرد تصفح الأوراق فإن الملف ما لبث أن عاد إلى محكمة الجنايات قبل ساعات من النطق بالحكم، مرفقاً بخطاب لا يتضمن سوى القاعدة الأصولية التى تقول أنه «متى ثبت شرعاً القتل العمد الموجب للقصاص.. يقتص من القاتل».



على الرغم من الاجراءات الاستثنائية التى اتخذتها قوات الأمن تحسباً للزحام الشديد، الذى توقعت أن تشهده جلسة النطق بالحكم، فقد فاق الزحام كل توقع، وامتلأت القاعة بعشرات من أقارب المتهمين وجيرانهم وبلدياتهم من الصعايدة الذين جاءوا يتضامنون معهم، وفى الثامنة والنصف اكتمل وصول هيئة المحكمة، التى عقدت اجتماعاً أخيراً لمراجعة منطوق الأحكام وحيثيات الحكم.

وفى التاسعة والربع، دخل المتهمون قاعة الجلسة، فأوقف الرجال السبعة داخل القفص، واقتيدت النسوة الثلاث . «ريا» و«سكينة» و«أمينة منصور» . إلى الناحية الأخرى من القاعة بين منصة المحكمة.. ومنصة النيابة..

وما كادت هيئة المحكمة تدخل . حتى اختل النظام داخل القاعة، واقترب كثيرون من المنصة . خاصة الصحفيون والمحامون . ليستطيعوا الاستماع إلى حيثيات الحكم.

وما لبث صوت «أحمد موسى باشا» الهادىء الرصين أن ارتفع يتلو حيثيات الحكم، فسيطر على القاعة بجرسه الهادىء العميق، والتزم الجميع الصمت حتى هؤلاء الذين لم يستطيعوا فهم دلالة ما كانت تحفل به الحيثيات من مصطلحات قانونية..

واستعرضت حيثيات الحكم . التى تقع فى ١٥ صفحة من قطع الفولسكاب . وقائع القضية كما استخلصتها المحكمة من أقوال الشهود فى تحقيقات النيابة وأمام المحكمة، ثم توقفت أمام أدلة الاتهام التى اقتنعت بها ضد كل منهم على حده، فأخذت بالاعترافات التى أدلى بها «آل همام»، ورفضت الاعتداد بادعاء «حسب الله» بأن اعترافه قد انتزع منه بالاكراه، ليس فقط لأن هذا الاعتراف قد تكرر منه مراراً فى التحقيقات، واحتوى على وقائع مطوله وظروف مختلفة، لا يمكن ذكرها إلا إذا كان الاعتراف صادر منه بمحض إرادته، ولكن . كذلك . لأن هناك خمسة أدلة تؤكد ما ورد فى هذا الاعتراف هى:

ـ ملازمته لزوجته فى البيوت التى وقعت فيها الجرائم ملازمة لا تجعلها تتداخل فيها إلا باشتراكه معها وقيامه بالأعمال العنيفة التى لا تقوى عليها النساء.



أحمد موسى باشا: رئيس محكمة جنايات الإسكندرية

ـ شهادة «سيدة سليمان» بأنها رأته مع شيخة المخدمين فى بيت «سكينة» فى اليوم الذى اختفت فيه.

ـ وجود ختمه بين الجثث.

ـ وقيامه بالقاء إحدى الجثث فى خرابة شارع الواسطى.

ـ فضلا عن ضبط ملابس «فردوس»

فى منزل زوجته الجديدة.

ورفضت المحكمة - الاعتداد بادعاء «عبدالعال»، بأنه اعترف لأن رجال البوليس قد أغروه وأرهبوه، لنفس السبب الذى رفضت به إدعاء «حسب الله»، فضلاً عن الأدلة الأخرى التى تؤيده، ومنها:

- ضبط فانلة «فردوس» لديه.

- وملازمته لزوجته «سكينة» واختها وزوجها.

- واقرار الصائغ بأنه كان من بين الذين يحضرون إليه لبيع مصوغات الضحايا.

- وشهادة زوجة «حسب الله الجديدة»، بأنه جاء إليها مع زوجها ومعهما ما ضبط لديها من ملابس ثبت أنها مما كانت ترتديه آخر الضحايا.

وبعد أن أضافت المحكمة إلى ما سبق دليلين عامين يخصان المتهمين الأربعة من «آل همام»..

أولهما: ما أثبتته التقارير الطبية من أن جثث الضحايا قد دفنت فى البيوت التى عثر عليها فيها، خلال فترة إقامتهم بها.

وثانيهما: أنهم اشتروا مصوغات ما كانوا يستطيعون شراءها إلا من ثمن ما سرقوه من حلى الضحايا.

خلصت من ذلك كله إلى القول بأنها لم تقتنع فحسب باعتراف «سكينة» بأنها اشتركت فى قتل عشرة وباعتراف «ريا» و«عبدالعال» بأن كل منهما اشترك فى قتل ست منهن، وباعتراف «حسب الله» بأنه اشترك فى قتل ثمانية، بل وتستنتج من وقائع الدعوى بأن المتهمين الأربعة قد قتلوا - كذلك بقية النسوة السبع عشر الواردة اسماءهم فى أمر الاحالة..

وواصل «أحمد موسى باشا» قراءة حيثيات الحكم بأدانة «عرابى حسان» استناداً إلى رؤية «سيدة سليمان» له يوم مقتل شيخة المخدمين وإلى صلته بصديقته «نظلة» التى شهدت كثيرون بأنه كان خليلها.

وإدانة «عبدالرازق» استنادا إلى صلته بـ«أنيسة» وسرقته لقرطها واعتزامه الانتقام منها لفضحها له.

وفضلاً عما ثبت من شهادة الشهود من أن الاثنين كانا يختلطان بـ«ريا» و«سكينة» فى بحر المدة التى ارتكبت فيها الجرائم وكانا يحميان نشاطهما، فقد ثبت كذلك أنهما اشتريا، خلال المدة نفسها، مصوغات بمبالغ لا يمكنهما الحصول عليها من المكاسب التى كانت تأتيهما بالوسائل المباحة.. وهو ما حمل المحكمة «على الاعتقاد بصحة اعترافات المتهمين الأربعة، بشأن اشتراكهما معهم فى قتل السبعة عشر امرأة».

خلصت المحكمة من ذلك إلى أن كل من «حسب الله سعيد» و«محمد عبدالعال» و«عرابى حسان» و«عبدالرازق يوسف» يستحقون عقاب الفاعل الأصلى.. لقيامهم بسفك دماء سبعة عشر إمرأة عمداً مع سبق الإصرار واستباحتهم لأموالهن وتبديدهم لها فى المنكرات وارتكابهم لآثام لم يسبق لها مثيل فى القسوة والفظاعة منذ عهد تأسيس المحاكم للآن.

وإلى أن كــــلاً مـن «ريا» و«سـكينة» يستحقان عقوبة الاشتراك فى ارتكاب تلك الجـرائم بطريق الاتفـاق والمسـاعـدة فى الأعـمـال المسهلة لارتكابهـا، بأن أحضـرتا المجنى عليهن إلى محـلاتهمـا وأسكرتاهن لتـمكين الفـاعلين الأصليـين من خنقـهن بدون أدنى مقـاومـة، فوقعت جرائم القتل بناء على هذا الاتفاق وتلك المساعدة..

وكـان مـا فـهـمـه المتـهـمـون السـتـة من حيثيات الحكم على قلته - كافياً لأن يتيقنوا بأن الحكم عليهم سيصدر بالأعدام وذوى الأمل الذى ناوشـهم فى أن تكون المحكمـة قد وجـدت مبـرراً للرأفـة بهم، حين انتقل رئيسها على - الفور - لقـراءة حيثيات الحكم بالنسبـة للمتـهـمـين الثـلاثة التـاليين - وهم «سـلامـة» و«أم أحـمـد» و«مـحـمـد على القـادوسى» - التى لم تستغرق سوى سطور قليلة انتهت إلى أن الأدلة التى وصلت إليها التحقيقات لا تكفى لاثبات التهمة الموجودة إليهم ثبـوتاً كـافـيـاً، بعكس المتهم العـاشـر والأخـيـر «على مـحـمـد» الذى اقـتنعت المحكمـة بادانتـه بتـهـمـة شـراء مـصـوغـات مسروقة مع علمه بسرقتها.

وبعد ان استعرضت الحيثيات وقائع دعـوى التـعـويض، اختـتم أحـمـد مـوسى تلاوته قائلاً:

- فلهـذه الأسـبـاب حكمت المحكمـة حـضـوريا على كل من «ريا وسكينة» بنتى «على همام» و«حسب الله سعيد» و«محمد عبدالعال» و«عرابى حسان» و«عبدالرازق يوسف» بعقـوبة الاعـدام، وبالزامـهم بأن يدفعوا بطريق التضامن لـ«محـمد أحمد رمضان» مبلغ مائة وخمسين جنيها على سـبـيل التـعـويض مع مـصـاريف الدعـوى المدنيـة. ورفـضت مـاعـدا ذلك من طلبـات المدعى المدنى قبلهم.

وبالحكم على «على مـحـمـد حـسن» - الصائغ - بالحبس لمدة خمس سنوات.

وببـراءة كل من «سلامة محمد خضر الكبت» والحرمة «أمينة بنت منصور» الشهيرة بـ«أم أحمد» وزوجها «محمد على القادوسى» الشـهـيـر بـ«النص» مما أسند إليهم فى هذه الدعوى ورفض الدعوى المدنية الموجهة قبلهم وقبل «على محمد حسن» الصائغ.

وبعدم قبول الدعوى المقامة من «محمد أحمد رمضان» ضد الحكومة.

ورفض طلب توقيع الكشف الطبى على «حسب الله سعيد».

اشتد الضجيج فى قاعة المحكمة، حتى قـبل أن ينتهى رئيسهـا من تـلاوة الأحكام، واخـتلطت زغـاريد قـريبـات الذين حكم ببـراءتهم بولولات قـريبـات الذين حكم باعدامهم. ورفـعت «أمينة منصور» يديها للسـمـاء شكراً لله الذى انقـذهـا من حـبل المشنقة، فنظرت إليها «سكينة» التى كانت تقف إلى جـوارها نظرة قـاسـيـة، بينمـا جلست «ريا» على أرض القاعة تبكى..

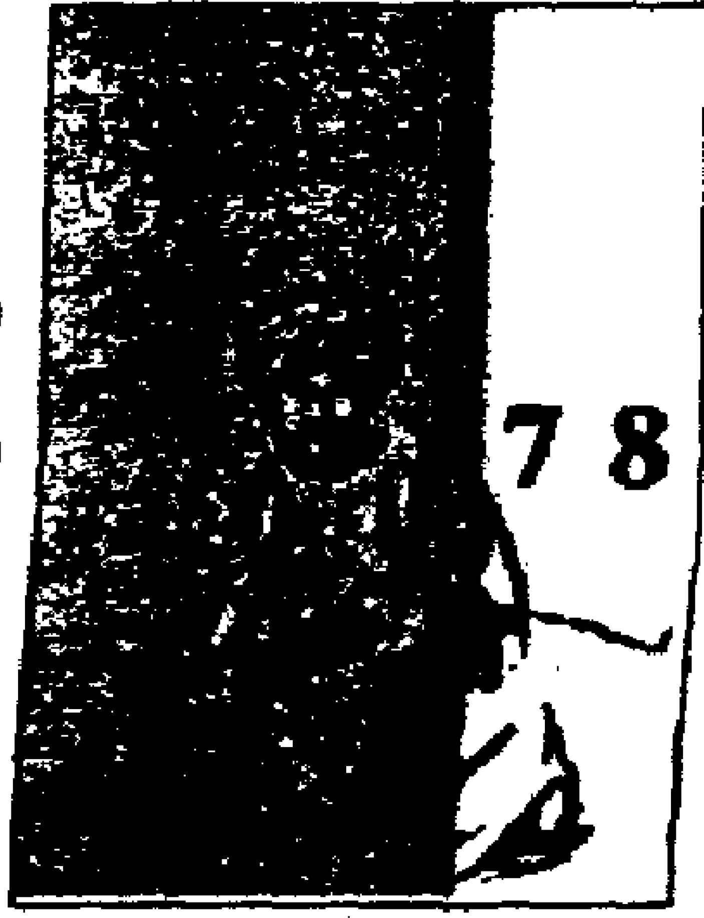
وكـان رئيس المحكمـة مـايزال يطوى أوراقه استعداداً لمغادرة المكان، حين ارتفع صوت «عبدالعال» من قفص الاتهام يقول:

- يا سعادة الباشا.. أنا عندى كلام سر عاوزين نقولوه لسعادتك..

وأشار رئيس المحكمة ـ قبل أن يدلف إلى غرفة المداولة ـ لقائد الحرس فأخرج «عبدالعال» من القفص، وصعد به الدرجات القليلة التى تقود إلى المنصة، وما كاد يصل إلى آخرها، حتى التفت إلى قفص الاتهام ـ وضم كفيه معاً فوق رأسه ملوحاً بها لكل من «عرابى» و«عبدالرازق» اللذين ظلا يتابعانه باهتمام إلى أن اختفى وراء باب غرفة المداولة. وذهل «أحمد موسى باشا» حين قال له «عبدالعال»:

ـ أنا عاوز نبروا نفسينا.. ونقابلوا ربنا واحنا نضاف.. عشان كده عاوز نقول لسعادتك إن «عرابى» و«عبدالرازق» مالهمش يد فى شىء من اللى حصل.. ولا قتلوا.. ولا شافوا قتل.

لم يدهش «أحمد موسى باشا» لما سمعه من «محمد عبدالعال»، فقد كانت أوراق التحقيق حافلة باتهامات الإدانة، وباعلانات البراءة يصدرها «آل همام» على التعاقب بحق شركائهم. ومع ذلك فقد انتظر حتى انتهى «محمد عبد العال» من كلامه، ثم أحاله إلى «سليمان بك عزت» ـ رئيس النيابة ـ الذى لفت نظره ـ كما قال مندوب «الأهرام» ـ إلى أن الفرصة الوحيدة للادلاء بهذه الأقوال، كانت متاحة له أثناء التحقيق أمام النيابة ثم أمام قاضى الاحالة، وأخيراً أمام جلسات المحكمة، حيث كان ايضاح الحقيقة يقدر بقدره.. أما الآن ـ وبعد صدور الحكم بالقضية ـ فقد فلتت الفرصة، ولم تعد هناك وسيلة لتعديل الحكم إلا بالطعن عليه أمام محكمة النقض..



وكانت العلاقة بين «رجال ريا وسكينة» قد تعرضت لحالة من التوتر الشديد، منذ أذاعت «بديعة» ـ فى أقوالها أمام النيابة ـ تعليمات أبيها لها، ولأمها بأن تنسبا مسئولية وجود الجثث فى بيت «على بك الكبير» إلى «عرابى» و«عبدالعال» فكشفت بذلك عن أن مبادرة «ريا» باتهام «عرابى» بمجرد القبض عليها، كانت تنفيذاً لهذا الاتفاق. ثم تحول هذا التوتر إلى خصام شديد منذ اعترف «عبدالعال» ثم «حسب الله» على نفسيهما وعلى الآخرين..

لكن الثلوج التى تراكمت على العلاقة بينهم، أخذت تذوب يوماً بعد آخر، منذ عدل كل من «حسب الله» و«عبدالعال» عن إعترافه أمام قاضى الإحالة، وتمسكا بهذا العدول أثناء المحاكمة، مما خلق لدى «عُرابى» و«عبدالرازق» أملاً فى أن يفلتا من العقاب، بحكم أن اعترافات «آل همام» كانت الدليل الأساسى ضدهما ـ وجاءت إحالة أوراق القضية إلى المفتى، بما تحمله من مؤشرات، لتدفع الجميع إلى إعادة تقدير للموقف، انطلاقاً من أن المحكمة ستأخذ ـ فى الغالب ـ كلاً من «حسب الله» و«عبدالعال» باعترافاتهما، وباعتراف «ريا» و«سكينة» عليهما، وبالقرائن الأخرى المتوفرة ضدهما، فتحكم عليهما بالأعدام. أما وقد انقطع الأمل فى انقاذهما من حبل

المشنقة، فمن واجبهما أن يسعيا لانقاذ الاثنين الآخرين، ليس فقط لأنهما مسئولان عن الورطة التى وقع فيها الجميع، بل لأنه من الظلم أن يضيع أربعة رجال مقابل حفنة من النساء الخاطئات، ولأن ذلك هو ما يليق برجولة الرجال، وبتقاليد الفتونة..

ولا أحد يدرى هل كانت الشهامة وحدها وراء تحمس «محمد عبدالعال» لإعلان براءة «عرابى» و«عبدالرازق» فور النطق بالحكم، أم أن الاتفاق وبينهما، كان يشمل - كذلك - تعويض مالى يدفع لأهله. أما الذى يلفت النظر فهو أن «حسب الله» لم يتخذ نفس هذا الموقف الذى كان يسد أمامه آخر أبواب الأمل هو الطعن على الحكم أمام محكمة النقض، إذ كان تكذيبه لاعترافه على «عرابى» و«عبدالرازق» يعنى تأكيد هذا الاعتراف على نفسه..

وما لبث «عبدالعال» أن عدل عن شهامته بعد أيام قليلة، فاشترك مع جميع المحكوم عليهم فى القضية، فى تقديم نقض على الحكم.. ولم يكن لدى أحد منهم أمل فى قبول النقض، ومع ذلك فقد قدموه لمجرد استفاد فرصة بمنحها لهم القانون، وتؤدى إلى تأجيل تنفيذ حكم الاعدام.. وقد بدا ذلك واضحاً حين لم يقدم الدفاع عن خمسة منهم - هم «ريا» و«سكينة» و«حسب الله» و«عبدالعال» و«عرابى» - أسبابا للطعن فى المواعيد التى يحددها القانون. وهو ما كان يعنى رفضه من حيث الشكل.

وكان «عبدالرازق» هو الوحيد من بين المحكوم عليهم بالاعدام - الذى قدم محاميه مذكرة طعن فيها على الحكم لسببين:

الأول: أنه عند مرافعته عنه أمام المحكمة طلب سماع شهادة «بديعة» ابنة «ريا» و«حسب الله» باعتبارها من شهود الرؤية.. ولأن شهادتها، وإن كانت شهادة اثبات ضد أقاربها إلا أنها فى الواقع شهادة نفى قاطعة بالنسبة للمتهم «عبدالرازق يوسف» إذ قررت أنها لم تره يرتكب الجرائم، أو يشارك فى ارتكابها.. ولكن المحكمة لم تبت فى هذا الطلب..

والثانى: أن «عبدالعال» أقر صراحة عقب النطق بالحكم بأن «عبدالرازق» برىء مما أسند إليه وأنه لم يعترف عليه أمام النيابة إلا بايعاز من رجال الشرطة وليخفف عن نفسه مسئولية الجرم بتعدد الفاعلين.. وهو ما أكدته - كما أضافت مذكرة الطعن - عريضة قدمتها المتهمون الأربعة الأولين لحضرة مأمور السجن، موقعاً عليها ببصمة أصابعهم، يعترفون فيها صراحة بارتكابهم الجرائم المذكورة، دون أن يكون لـ«عبدالرازق يوسف» اشتراك أو يد فيها، وقد أحيلت هذه العريضة إلى نيابة الاسكندرية للتحقيق فيها..

وكان الصائغ «على محمد» هو المحكوم عليه الثانى، الذى قدم محاميه عريضة بأسباب طعنه على الحكم، وقد بناها على خطأ المحكمة فى تطبيق القانون، إذ اعتبرت أنه كان يعلم فى كل مرة من المرات التى اشترى فيها المصوغات بأنها مسروقة مع أنه لا يوجد فى أوراق القضية ما يدل على هذا التعدد فى العلم، مما يفرض معاقبته بعقوبة

العلم مرة واحدة، ويخفف الحكم الذى صدر ضده من السجن لمدة ست سنوات إلى الحبس لمدة أقصاها ثلاث.

وعلى العكس من «ريا» و«سكينة» اللتين تقبلتا فيما يبدو الحكم بإعدامهما بتسليم العاجز عن مواجهة الأقدار، فقد شن الرجال الأربعة حرب العرائض لمحاولة انقاذ


كامل بك عزيز

أعناقهم، والغالب أن العريضة التى ذكر محامى «عبدالرازق» أن «آل همام» قد نفوا فيها التهم التى وجهوها لموكله، وبصموا عليها بأصابعهم، لم تكتب ولم توقع. وأنها لم تكن سوى أكذوبة سربها أحدهم لـ«عبدالرازق» فصدقها ونقلها إلى محاميه.

إذ أننا لم نجد عريضة بهذه الصيغة بين أوراق القضية، أما العرائض الموجودة بالفعل، فهى تكشف عن حالة التوتر الشديد التى كانت يعانى منها المتهمون فى خلال الشهور السبعة التى فصلت بين صدور الحكم ونظر الطعن فيه.

ففى يوم واحد وهو الخميس ١٦ يونيو (حزيران) ١٩٢١ تلقت إدارة السجن أربع عرائض قدمها رجال «ريا» و«سكينة» كرر كل من «عرابى» و«عبدالرازق» فى عريضتيهما الدفاع الخائب الذى قاله أثناء التحقيق والمحاكمة، وطالب «حسب الله» فى عريضته بتسليم الجنيهات الثلاثة والساعة الفضية، والكتينة الذهب ـ وقد حرص على أن يؤكد بأن ثمنها ثلاث عشر جنيها ـ والمحفظة، التى كانت جميعها معه عند القبض عليه، إلى والدته «حواء بنت حسن مرعى».

وكانت عريضة «محمد عبدالعال» هى أكثر العرائض إثارة، إذ ذكر فيها أن لديه معلومات عن متهم جديد، لم يقبض عليه ولم يحقق معه، اشترك فى قتل النساء.

ولأن واقعة اعتراف «محمود علام» ـ سفاح النساء بطنطا ـ على شركاء جدد له، بعد الحكم عليه بالأعدام، لم تكن قد غادرت الذاكرة بعد، فقد أثارت العريضة اهتمام النائب العام، كما أثارت كذلك اهتمام «كامل بك عزيز» ـ رئيس نيابة الاسكندرية السابق وأول الذين حققوا فى القضية، وكان قد نقل إلى نيابة أسيوط ـ فكتب رسالة إلى النائب العام، يلفت فيها

نظره إلى أهمية البلاغ، الذى يحتمل أن يسفر التحقيق فيه عن القبض على عدد جديد من أفراد العصابة ويتطوع ـ بحكم معرفته السابقة بشخصيات المتهمين، وبوقائع القضية ـ للقيام بذلك التحقيق، خاصة وأنه كان يمضى أجازته السنوية آنذاك بالاسكندرية. وعندما وافق النائب العام على ذلك.. انتقل «كامل عزيز» إلى سجن الحضرة، ليستمع إلى أقوال «محمد عبدالعال».

وكان الشريك الجديد الذى حاول «عبد العال» أقحامه فى القضية هو «حسين سعيد مرعى» ـ شقيق «حسب الله» الأكبر ـ ولم تكن لديه دلائل ضده، سوى مرويات قال أنه سمع بعضها من جارة «ريا» ثم من «ريا» نفسها، تؤكد أن «الشقيقين مرعى» قد اشتركا فى قتل امرأة، قبل أن تبدأ العصابة نشاطها.. وقد كذبه جميع الذين استشهد بهم من الجيران، وما كادت «ريا» تسمع الواقعة من المحقق، حتى نظرت إلى «عبدالعال» وقالت له:

ـ حرام توقع فى حق الناس.. مش بزيادة اللى جرى لنا.

ولما سألها المحقق عن تقدير لها للسبب الذى دفعه للاصطناع الواقعة، قالت فى عبارة موحية:

ـ بده يلم ناس من بره.

فكشفت بذلك عن أن «عبد العال» يسعى لفتح التحقيق فى القضية من جديد، مما يؤدى إلى تأجيل تنفيذ حكم الإعدام إلى أطول مدة ممكنة، حتى ينتهى التحقيق فى الواقعة الجديدة.

ولم يكن الطلب الذى قدمه «حسب الله» باسترداد ما ضبط معه عند القبض عليه، بعيداً عن محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه من عرض الدنيا الفانية التى ايقن أنه على وشك أن يغادرها.. لكن «رمضان» النجار، وقف له بالمرصاد للحيلولة بينه وبين أن يورث أمه، ما ورثه ـ دون وجه حق ـ عن ضحاياه.

ولم يكن «رمضان» راضياً عن الحكم تمام الرضا، إذ رفضت المحكمة ـ من حيث الشكل ـ دعواه بطلب تعويض من وزارة الداخلية، بعد أن ثبت لها أنه ليس بين المتهمين أحد من مستخدمى الحكومة، ورأت أن هذا الشق من الدعوى، هو «بمثابة دعوى مسئولية سياسية تتعلق بوجه عام بما يجب على الحكومة اتخاذه من الاحتياطات لاستتباب الأمن فى البلاد، وملافاة وقوع الجرائم فيها، وهو بذلك يخرج عن اختصاص المحكمة. ولكنها قبلت الشق الثانى من الدعوى، واعتبرت المتهمين مسئولين عن حرمانه من زوجته التى كانت تشركه فى مكاسبها، وحكمت عليهم بأن يدفعوا له تعويضاً قدرته بمائة وخمسين جنيها.. فلم يهبط الحكم بالتعويض الذى طلبه ـ وهو ٤٥٠ جنيها ـ إلى الثلث فحسب بل وأحاله ـ كذلك ـ إلى جيوب المتهمين الخاوية، بدلا من خزينة الحكومة العامرة.

ولكن عدم رضائه عن الحكم لم يحل بينه وبين السعى الحثيث لتنفيذه. وما كاد يتخذ الخطوة الأولى، وهى إعلان المحكوم عليهم فى القضية بالجانب الذى يخصه من الحكم، حتى أوعز «محمد عبدالعال»

إلى والدته بأن تطلب استرداد ما ضبطته الشرطة من ملابسها وملابس زوجته الجديدة، عند تفتيش منزله بقرية «موشا». وأسرع «حسب الله» يطلب تسليم مضبوطاته إلى أمه، بما فى ذلك المحبس الذهب الذى ضبط فى يد زوجته الجديدة، «زنوبة بنت هلال» إذ كانت الزوجة قد تقدمت بطلب إلى رئيس المحكمة تطلب فيه استرداد عقد زواجها من «حسب الله» الذى كان يحتفظ به، لرغبتها فى أن تتزوج بآخر يستر عليها.

وحدث ما كان متوقعاً، إذ لم يسفر الطعن على الحكم بالنقض، إلا عن فائدتين. الأولى: هى تأجيل تنفيذ حكم الأعدام لمدة تزيد على سبعة شهور.. والثانية: هى رحلة قام بها المتهمون السبعة يوم السبت ٢٩ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢١، من «سجن الحضرة» بالاسكندرية إلى سجن الاستئناف «بالقاهرة»، حيث أمضوا ليلتهم.

وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى غادروا السجن إلى مبنى محكمة الاستئناف المجاور له، ليمثلوا أمام محكمة النقض والابرام التى انعقدت برئاسة «عبدالرحمن رضا باشا» وعضوية «المسيو سودان» و«أبو بكر يحيى باشا» و«المستر هل» و«أحمد زكى أبو السعود باشا» المستشارين بمحكمة الاستئناف الأهلية. ومثل النيابة «أحمد محمد خشبة بك»، وكيل نيابة الاستئناف - وقد اصبح فيما بعد وزيراً لأكثر من مرة. ولم يحضر من المحامين سوى أربعة فقط، مثل واحد منهم هو «عثمان نور الدين - اثنان من المتهمين - هما «عبدالرازق يوسف» و«عرابى حسان». بينما دافع عن الثانى - وهو الصائغ «على محمد». اثنان من المحامين هما «اسماعيل حمزة» و«مصطفى الخادم».. وكان الرابع هو «محمد أبو شادى بك» المحامى عن المدعى بالحق المدنى.. «محمد أحمد رمضان».

١٩٥٦: نماذج من الأساطير التى نشرتها الصحف

ولكن «رمضان» النجار، اسرع يقطع عليهم الطريق.. وطلب من النيابة الحجز على كل المضبوطات التى كانت معهم، أو ضبطت فى منازلهم، والمودعة بخزينة المحكمة، وتسليمها له، وفاء بالمبلغ المحكوم به له..

وقـد بدأت الجلسـة بمرافـعـة ممثل النيابة الذى طلب الحكم بعدم قبول الطعن المقـدم من «ريا» و«سكينة» و«حسب الله» و«عبـدالعـال» و«عرابى» من حيث الشكل لأنهم لم يقدموا أسبابا لطعنهم، ويرفض الطعن المقدم من «عبـدالرازق» من حيث الموضوع، إذ لم يثبت فى محاضر جلسات المحاكمة، أن الدفاع عنه قد طلب سماع شهادة «بديعة» خاصة أنه كان باستطاعته أن يعلنها بنفسه، وأن يستدعيها للشهادة، باعتبارها شاهد نفى، لكنه لم يفعل.

وكـان باعـثـاً على الدهشـة أن ممثل النيابة قد نفى - رداً على سؤال من رئيس المحكمة - أن تكون النيـابة قـد أجـرت أى تحقيق، فى مسألة عدول «عبدالعال» عن اعـتـرافـه عـقب النطق بالحكم أو تلقت العريضة التى يقول الدفـاع أن «آل همام» قد اعلنوا فيها براءة «عبدالرازق»، ووقعوا عليها ببصمات أصـابعهم وقدموها إلى إدارة سجن الحضرة، إذ لا علم لها بشىء من ذلك كله. كما طلب رفض الطعن المقدم من الصائغ «على محمد» قائلاً بأن الحكم الذى أصدرته محكمة الجنايات، يتضمن أسبابا كافية للعقوبة التى وقعت عليه.

ودعم «محمد بك أبو شادى» - محامى المدعى بالحق المدنى - دفاع النيابة قائلاً إن عدول أحد المتهمين عن اعترافه، هو أقل مـا يمكن توقـعـه من المحكوم عليهم فى قضـيـة «ريا» و«سكينة» وأن هـذا العدول - بفـرض حـدوثه - هو مـجـرد مـحـاولة من المتهمين لتعويق تنفيذ الحكم، ولمجاملة بعضهم البعض على حساب العدالة.. ورد الدفاع عن «عبدالرازق» على ما قاله رئيس النيـابة فـأكد أنه قد طلب أثناء مرافعته الاستماع إلى شهادة «بديعة» وأن محضر الجلسة قد تضمن الفقرة الأولى مما قاله فى هذا الصدد. ولكنه - بسبب السهـو - خـلا من الجزء الأخير، والأهم منه، وهو مطالبته باستدعائها للشهادة. ودلل على ذلك بفقرة من تغطية جريدة «وادى النيل» لوقائع الجلسة فى اليوم التالى، جاءت بها اشـارة صـريحـة إلى ذلك. ورد على الاعـتـراض الثـانى قـائلاً انه لم يكن باستطاعته استدعاء «بديعة» للشهادة، لأنه لا يعرف لها محل إقامة، إذ أمرت النيابة، منذ بداية التحقيق، بإيداعها فى أحد الملاجىء غير المعروفة اسمها أو عنوانها.

وأضـاف: أن من حق موكله الثـانى «عـرابى حسـان» - الذى لم يقـدم أسبابا لطعنه - أن يستفيد من الأسباب التى قدمها «عبدالرازق».. وختم مرافعته مطالباً بقبول النقض شكلا وموضوعاً، وإلغاء الحكم، وإحالة القضية على دائرة أخرى من دوائر محكم الجنايات للفصل فيها من جديد..

ولكن المحكمـة رفـضـت - فى نفس الجلسة - قبول نقض «آل همام» و«عرابى» شكلاً.. ورفضت قبول نقض «عبدالرازق» والصائغ من حيث المضمون.

وبعد أسبوع واحد من رفض النقض، الذى كان يعنى اقتراب أوان تنفيذ حكم الاعدام، وصل توتر من أصبحوا يوصفون فى الأوراق الرسمية بدرجال ريا وسكينة»

إلى ذروته، فتقدموا إلى مأمور «سجن الحضرة» يطلبون منه ابلاغ وكيل النيابة برغبتهم فى الأدلاء بأقوال جديدة، وهددوا بإثارة الشغب فى السجن إذا لم ترسل إليهم النيابة من يستمع إلى أقوالهم..

وفى الرابعة من بعد ظهر اليوم نفسه - الاثنين ٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢١ - انتقل «زكى خير الأبوتجى» - وكيل النيابة - إلى «سجن الحضرة» للاستماع إلى تلك الأقوال، التى لم يكن فيها جديد، سوى تكرار دفاعهم الخائب عن أنفسهم، الذى



الضحية الأخيرة: فردوس بنت فضل عبد الله

سبق لهم أن ذكروه فى المحكمة. وكان «عبدالعال» هو الوحيد الذى عاد ليكرر محاولته لتبرئة «عرابى» و«عبدالرازق» مدعياً بأنه قال للصاغ - الرائد - «كمال نامى» - مأمور قسم شرطة اللبان - أثناء التحقيقات، أنهما مظلومان، فبصق فى وجهه، وطلب الاستماع إلى شهادة المأمور، والمخبر «أحمد البرقى» الذى كان حاضراً حين قال له ذلك. كما طلب الاستماع إلى شهادة زملائه فى «وابور القبارى»، حول واقعة استدعاء «سكينة» له، يوم قتل «فردوس» مدللاً بذلك على عدم اشتراك «عرابى» و«عبدالرازق» فى قتلها، إذ لو كانا موجودين، لما كانت هناك حاجة لاستدعائه..

أما «حسب الله» - الذى كان الأمل مايزال يناوشه فى الافلات من حبل المشنقة - فقد عاد لتكرار زعمه بأنه طلق «ريا» منذ سنة ١٩١٣، وأن رفضه إعادتها إلى عصمته، وزواجه من أخرى، كان وراء اتهامها له. وطالب بالكشف فى دفتر الطلاق للتأكد من هذه الحقيقة..

وكرر «عرابى» و«عبدالرازق» موقفهما الثابت منذ بداية التحقيق، فنفيا اشتراكهما فى الجرائم.. أو علمهما بها..

ولم يشارك «حسب الله» فى محاولة انقاذ «عرابى» و«عبدالرازق» إلا فى الأسبوع الذى تقرر فيه تنفيذ الأعدام، وبعد أن كتب النائب العام - فى ١٣ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١ - إلى وزارة الداخلية باتخاذ اجراءات التنفيذ، وهو خبر لابد وأنه قد وصل إلى إدارة السجن. وتسرب منها إلى من يعنيهم الأمر.. فما كاد

«حسب الله» يعلم به، حتى كتب - فى ١٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١ - طلبا إلى مأمور سجن الحضرة صاغه بالطريقة التى يعرف أنها تثير فضول النيابة، ذاكراً أن لديه «أقوال سرية بخصوص قضيته وقضية أخرى، وأنه لا يستطيع ابداءها لمأمور السجن ويرغب فى عرضها على سعادة رئيس النيابة الكلية شخصياً».

ولأن سلطات الشرطة والتحقيق، كان لديها فيما يبدو، احساس عميق، بأن ما تكشف من جرائم عصابة «ريا وسكينة» ليس هو كل الحقيقة، فقد استجاب «كامل عزيز» وكيل النيابة، الذى حقق القضية منذ البداية، إلى الطلب بسرعة غير معهودة. وتوجه فى اليوم التالى - الأحد ١٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١ - إلى السجن، ليستمع إلى أقوال «حسب الله» الذى أعلن لأول مرة براءة «عرابى» و«عبدالرازق» مؤكداً أنهما لم يشتركا فى القتل. وعندما سأله عن المبرر الذى دفعه للاعتراف عليهما، أنكر بجسارة أن يكون قد فعل ذلك مؤكداً أن الذين اعترفوا عليهما، هم «ريا» و«سكينة» و«عبدالعال» فقط، وانتهز الفرصة ليحاول التخفيف من مسئوليته، فاستطرد يقول أن الثلاثة، هم أصل المسألة كلها، وأنهم هم الذين ورطوه، فاشترك معهم فى القتل مرة واثنين وثلاثة، وأنه حاول اثناءهم عن الاستمرار فى ذلك، فلم يقبلوا..

ولم يهتم المحقق بمناقشته فى إدعاءاته، خاصة بعد أن انتقل فجأة، للحديث عن قصة الرجل الذى نصحه باستخدام «كوكتيل» من النبيذ وعرق الخيل، لتخدير الضحايا. ولما سأله المحقق عما إذا كان يريد أن يتهمه بمشاركتهم فى الجرائم، تراجع على الفور، وذكر أن الرجل لا يعلم شيئاً. وأنه كان قد سأله فقط، عن الوسيلة التى يستطيع بها أن يسكر امرأة، اخذت منه نقوداً، ليستردها منها، فدله على تلك الطريقة، التى لم يجربها هو نفسه، ولا يعرف مدى تأثيرها..

ومع أن «حسب الله» كان الوحيد الذى طلب الادلاء بأقواله، فقد استجاب «كامل بك عزيز» لرغبة بقية أفراد العصابة فى الالتقاء به واستمع إلى ما ارادوا قوله. وسجله لهم فى محضره: فكشف «محمد عبدالعال» عن مبرر اعترافه، وعدوله عن الاعتراف على «عرابى» و«عبدالرازق» قائلاً أن مأمور قسم اللبان، قد أوعز إليه بأن يعترف عليهما، لكى يكون ذلك سبباً فى أن يعترفا على نفسيهما، فلما لم يعترفا، أراد العدول عن أقواله. وطلب من المأمور أن يدخله على وكيل النيابة، ولكنه صفعه، وحال بينه وبين ذلك، وبذلك أكد - من دون أن يقصد - أن ما ورد فى اعترافه بشأنهما، كان صحيحاً، وأنه عدل عنه، بعد أن صمد الاثنان، واصرا على الانكار فى كل مراحل التحقيق.

وكشفت كل من «ريا» و«سكينة» عن أن «حسب الله» و«عبدالعال» قد اتفقا على محاولة انقاذ «عرابى» و«عبدالرازق» من حبل المشنقة بالزعم بأنهما مظلومين، أما الحقيقة، فهى ما سبق أن قالتاه فى التحقيق، وهى أنهما كانا شريكين فى ارتكاب الجرائم..

وعندما طوى «كامل عزيز» آخر أوراق التحقيق فى القضية، فى الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم، كان العد التنازلى لتنفيذ الحكم قد بدأ، ولم يكن قد بقى من أعمار رجال «ريا» و«سكينة» سوى أقل من أربعة أيام.



لم تكد شمس يوم الاربعاء ـ ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١ تشرق، حتى رفعت الراية السوداء على سارية «سجن الحضرة»، اعلانا بأن حكما بالأعدام سيتم تنفيذه..

وقبل السابعة بقليل، بدأ أعضاء هيئة تنفيذ حكم الاعدام، يتوافدون على السجن. وكان تشكيل الهيئة استثنائياً، كما ينبغى لجريمة استثنائية، فلم يقتصر على سلطات السجن المحلية، بل ضم ـ كذلك ـ حضرة صاحب السعادة «محمد حداية باشا» ـ محافظ الاسكندرية ـ والاميرالاى «جرانت بك» حكمدار البوليس (مدير الأمن)، و«مورلى بك» محافظ السجون (مدير المصلحة) والمسيو «جوانى» رئيس البوليس السرى، وطبيب البوليس «الدكتور نجار»، فضلاً عن سلطات السجن، وكانت تضم القائمقام (العقيد) «عبدالفتاح صالح» مأمور السجن، وضباطه وطبيبه «الدكتور عبدالله عزت»، ومندوبو الصحف اليومية، العربية والافرنجية بالاسكندرية.

وفى السابعة والنصف، اصطفت هيئة التنفيذ امام غرفة الاعدام، وجاء حراس السجن بـ«ريا».. وقال مندوب «الأهرام» انها كانت ترتدى ملابس الاعدام الحمراء، وعلى رأسها طاقية بيضاء، تسير بأقدام ثابتة إلا أنها كانت ممتقعة اللون، خائرة القوى، وقد استمعت بصمت إلى حكم الاعدام الذى تلاه عليها مأمور السجن، ثم سألها المحافظ، إذا كانت تحتاج إلى شىء، فقالت أنها تريد أن ترى ابنتها «بديعة»، فالتفت إلى المأمور الذى قال، بأن ابنتها قد زارتها قبل يومين.. فقالت:

ـ يعنى ما شوفش بنتى؟!.

ثم ادخلت إلى غرفة الأعدام..

وطبقا للبيانات التى وردت فى أورنيك السجون رقم ١٦٩، الذى يتضمن تقرير الطبيب عن المسجونين المنفذ عليهم بالاعدام شنقا، فقد كان وزنها عند دخول السجن ٤٢ كيلو جراما، ارتفع عند تنفيذ الحكم إلى خمسين كيلو جراما ونصف، بزيادة قدرها ثمانية كيلو جرامات ونصف، خلال ما يقرب من عام. وكانت حالتها الصحية جيدة عند دخولها، أما قبل التنفيذ فقد كانت باهتة لون الوجه، وخائرة القوى، وكانت آخر عبارة قالتها هى:

ـ أودعتك يا بديعة يا بنتى بيد الله.

ثم نطقت بالشهادتين..

واستمر نبضها دقيقتين.

وظلت معلقة لمدة نصف ساعة..

وبعد الثامنة بقليل، اقتيدت «سكينة» إلى ساحة التنفيذ.. وقال مندوب «الأهرام»

انها اكثرت من الحركة والكلام بينما كان المأمور يقرأ عليها نص الحكم، وكانت تتمتم بعبارات تعلق بها على ما تسمعه، فعندما ذكر الحكم أنها قتلت ١٧ امرأة، قالت:

ـ هو أنا قتلتهم بأيدي؟!.

ثم قالت بتحد:

ـ أيوه قتلت واستغفلت بوليس اللبان.. والشنق ما يهمنيش.. أنا جدعة..

وعندما دخلت إلى غرفة المشنقة، قالت للجلاد وهو يوثق يديها خلف ظهرها:

ـ هوا أنا رايحة اهرب والا امنع الشنق بأيدي.. حاسب.. أنا صحيح وليه.. ولكن جدعة.. والموت حق..

ولما كانت تحت الحبال قالت:

ـ سامحونا.. يمكن عبنا فيكم..

ثم تلت الشهادتين.

وأضاف مندوب الأهرام «وكانت من اشجع الأشخاص الذين يقفون موقف الأعدام.. ومن اثبتهم جنانا»..

وقال تقرير الدكتور «عبدالله عزت» طبيب السجن الذي حرره على الأورنيك رقم ١٦٩، أن «سكينة بنت على همام»، دخلت السجن ووزنها ٤٧ كيلو جراما، ارتفعت إلى ٥٢ قبل التنفيذ، وأنها دخلت وهي بصحة جيدة، ولم تكن تعاني من شيء، إلا من جرب في انحاء جسدها. وكانت عند التنفيذ جريئة ورابطة الجأش، وأن آخر عبارة فاهت بها هي:

ـ أنا جدعة وح اتشنق محل الجدعان، وقتلت ١٧ وغفلت الحكومة.

ثم نطقت بالشهادتين.

واستمر نبضها أربع دقائق.

وظلت معلقة لمدة نصف ساعة..

وفي حوالي التاسعة، جاءوا بـ«حسب الله سعيد».. وكان رابط الجأش هو الآخر، لكنه علق على منطوق الحكم باعدامه قائلاً:

ـ بتقولوا إني قتلت ١٧.. الحقيقة هما ١٥ بس.. ولو عاوزين اعدهم واحدة واحدة.. واسميهم.. ولو كنت عشت سنة واحدة كمان، لكنت قطعت لكم دابر العواهر، وحرمتهم يمشوا في الشوارع.. دول بيستغفلوا رجالتهم، وبيبيعوا اعراضهم بربع ريال.. تشنقونا عشان شوية عواهر.. وعندما دخل إلى غرفة الاعدام، قال للشنّاق:

ـ شوف شغلك كويس.. شد واربط زي ما انت عاوز.. كله موت..

وقال مندوب الأهرام «وكانت ألفاظه عن العواهر وبيع العرض خشنة لا تكتب.. وقد ظل يكررها ويتكلم بصوت عال صريح إلى أن هوى في حفرة الاعدام، وكان آخر ما قاله طعنا في مأمور قسم اللبان.. وقد ذكرته سكينة أيضا في كلامها».

وذكر الأورنيك ١٦٩، انه كان بصحة جيدة عندما دخل السجن، فيما عدا سجحات سطحية بالظهر، وكان وزنه ٧٠ كيلو جراما، ارتفعت إلى ٧٢ قبل التنفيذ، وان كان جريئاً جداً ورابط الجأش، أما



«ريا» تجلس فى فناء قسم شرطة اللبان

آخر ما قاله، فهو اعترافه بأنه قتل خمسة عشر امرأة وليس سبعة عشر.

وقد استمر نبضه لمدة ثلاثة دقائق، وظل معلقا لمدة نصف ساعة.

وفى اليوم التالى ـ الخميس ٢٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١ ـ نفذ حكم الإعدام فيمن تبقى من «رجال ريا وسكينة».

وكان أول الذين اعدموا فى هذا اليوم، هو «عبدالرازق يوسف».. الذى قاوم الحراس اثناء اقتيادهم له إلى ساحة التنفيذ، ثم إلى غرفة الاعدام، مما اضطرهم إلى سحبه بالقوة على الأرض، ثم إلى تكبيل يديه بالحديد وراء ظهره، وظل اثناء تلاوة الحكم يتأوه ويصرخ معلنا أنه برىء، ويستشهد على ذلك بـ«عبدالعال»..

وقال التقرير الطبى، انه كان يزن ٧٨ كيلو جراما عند دخول السجن ارتفعت إلى ٨١ كيلو عند التنفيذ. وكان بذلك اثقل رجال ريا وسكينة وزنا، وكانت حالته الصحية جيدة، ماعدا أثر حك بالإليتين. وكان باهت لون الوجه وخائر القوى عند التنفيذ.. وآخر ما نطق به، هو «مظلوم» ثم نطق بالشهادتين.

واستمر نبضه لمدة ثلاث دقائق.

وظل معلقا لمدة نصف ساعة..

وفى الثامنة جاءوا بـ«محمد عبدالعال».. وكان ـ طبقا لما ذكره مندوب الأهرام ـ رابط الجأش صلب العود.. ولما تلى عليه الحكم قال:

ـ صلى ع النبى.. أنا قتلت سبعة مش سبعتاشر..

وكان الثانى بعد «ريا» الذى زاد وزنه زيادة ملحوظة فى السجن، إذ ارتفع من ٦٧ إلى ٧٤ كيلو جراما.. وقال الأورنيك رقم ٩٦٩ انه كان عند التنفيذ جريئا جداً ورابط الجأش وبحالته الطبيعية، وكان آخر ما قاله، قبل أن ينطق بالشهادتين:

ـ كتف.. شد حيلك..

واستمر نبضه خمس دقائق.

وظل معلقا لمدة نصف ساعة.

وفى الثامنة و٤٠ دقيقة، جىء بالأخير «عرابى حسان» وقد اكثر ـ كما ذكر مندوب «الأهرام» ـ من التبرؤ من الجرم، وقال أنه سيلقى ربه طاهر اليدين.. وكان ـ طبقا لما ورد فى الأورنيك ١٦٩ الخاص به ـ خائر القوى، وكان آخر ما طلبه، شربة ماء، وآخر ما قاله قبل أن ينطق الشهادتين هو:

ـ مظلوم.

واستمر نبضه لمدة دقيقتين.

وظل معلقا على حبل المشنقة لمدة نصف ساعة.

وجاءت نتيجة تشريح الجثث متطابقة بالنسبة للستة الذين اعدموا.. فيما عدا استثناءات طفيفة:

من الناحية الظاهرية، قال التقرير عن كل منهم «احتقان بالوجه وغدد بالحدقتين، وحز بشكل حبل المشنقة بأعلى حول العنق، وسحجات منتظمة بأسفل الفك الاسفل من الجهة اليسرى، وورم بأسفل الأذن من الجهة اليمنى».

وكان «عبدالرازق» هو الوحيد، الذى

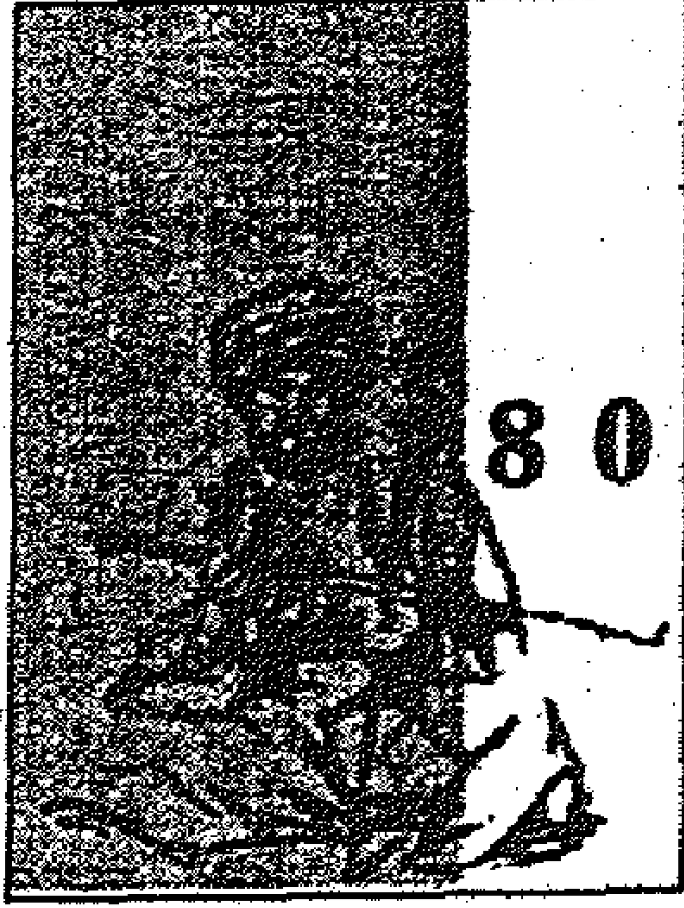
كشف الفحص الظاهرى لجثته، عن وجود «سجحات أرضية حديثة بمقدمة الركبتين وخلف المرفقين، وخلف الاليتين اليمنى من الجهة الوحشية نتيجة احتكاك الاجزاء المذكورة، باجسام صلبة راضه، وهو ما نتج - فى الغالب - عن سحبه على الأرض، للتغلب على حالة الرعب التى أصابته، ودفعته لرفض السير معهم فى الطريق إلى ساحة الاعدام..

أما نتيجة شق العنق، فقد كشفت - كما جاء بتقرير الصفة التشريحية عن كل منهم - عن وجود «نزيف دموى اسود اللون، مع تمزق بالعضل الحلمى القصبى من الجهتين، وتمزق ببعض الأوردة، وانفصال الحنجرة عن العظم اللامى مع كسر كامل بالعمود الفقرى العظمى بين العظمتين الأولى والثانية، وانفصال تام بالنخاع الشوكى فى مقابلة الكسر المذكور».

وفيما عدا المرأتين - «ريا» و«سكينة» - «وحسب الله»، فقد لاحظ تقرير الطبيب الشرعى وجود منى بقضيب كل واحد من الرجال الثلاثة الآخرين: «عبدالعال» و«عرابى» و«عبدالرازق».

فى اليوم الأول لتنفيذ أحكام الأعدام، أحاطت بالسجن، مجموعة من نساء منطقة «جنينة العيونى» بحى اللبان، يهتفن ويزغردن.. وكانت احداهن تغنى «خمارة يا أمّ بابين.. وديتى السكارى فين» والباقيات يرددن المطلع خلفها.. وعندما خرج المحافظ، بعد انتهاء التنفيذ هتفن: عاش اللى شنق «ريا».. عاش اللى شنق «سكينة».

أما فى اليوم الثانى، فقد احتشد أمام باب السجن فى الساعات الأولى من الصباح، واثناء تنفيذ الحكم، عدد كبير من النسوة، من أقارب «عبدالرازق» و«عرابى» و«عبدالعال» وكن يصرخن، ويولولن، ويلطمن خدودهم فى جنون..



لم يغلق اعدام «ريا وسكينة» ورجالهما الأربعة، ملف القضية الذى ظل مفتوحاً بعد ذلك، ما يقرب من عشر سنوات.

وكما يحدث عادة، فسرعان ما نسى أهل الضحايا اللواتى اغتالهن العصابة، ميتتهم الفاجعة، وكفكف أهل المشنوقين الست دموع الأسى التى ذرفوها عليهم. وانشغل الجميع بالبحث عن أعراض الدنيا الفانية، والسعى من أجل الحصول على تركاتهم، والبرهنة على أنهم من ورثتهم الشرعيين.

وكانت سلطات التحقيق قد توسعت فى بدايته، فى القبض على المشتبه فيهم، حتى وصل عددهم يوم ١٦ نوفمبر (تشرين ثانى) ١٩٢٠، إلى ثلاثين شخصا، بينهم عشرة نساء. ولأنها كانت تعرف أن سرقة ما كانت ترتديه الضحايا من ملابس ومصوغات، كان الهدف من القتل، فقد عادت حملات التفتيش والقبض بكميات كبيرة من الملابس - والاكسسوارات والمصوغات النسائية، وصل عددها فى ذروة التحقيق إلى ٥٦ قطعة. وبلغ ثمنها - طبقا لمحضر الجرد والتثمين الذى حرره

شيخ صاغة المنشية إلى ١١٩ جنيها و١١٥ مليما.

وكما كانت «بطة محمد العزب» - جارة «سكينة» السابقة فى منزل «آل أبوالمجد» - هى أول الذين تم القبض عليهم، بعد اكتشاف الجثة الأولى فى أرضية الغرفة التى كانت تسكنها «سكينة»، فقد كانت أول الذين أفرجت عنهم النيابة، عندما تخلقت ملامح القضية، وبدأ «آل همام» اعترافاتهم، وقد أفرج عنها فى ٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠، وبعد أقل من اسبوعين، وتسلمت ملابسها ومصوغاتها.

وبعدها بثلاثة أيام، أفرج عن «عديلة الكحكية» بعد أن سحبت «ريا» و«سكينة» اتهامهما لها، بالمشاركة فى قتل النساء، وتسلمت مصاغها الذى كان يتكون من ٧ غوايش وحلق طاره وكردان ذهب وخلخال فضه، قدر شيخ الصياغ ثمنها جميعا، بأربعة وعشرين جنيها ومائة مليم..

وفى اليوم التالى - ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠ - أفرج عن المكوجى «سيد عبدالرحمن»، بعد أن تبين انه كان قد ترك «فردوس» بالفعل مع «سكينة» وكانت زوجة شقيقه قد استردت ملابسها التى تحفظت عليها الشرطة قبل الافراج عنه بأسبوع، وبعد أن اكدت «أم فردوس» أنها ليست ملابس ابنتها. ثم استردت زوجة الأخ، بعد الافراج عنه، «لبه» كانت تعلقها فى رقبتها اثناء التفتيش، فتحفظت عليها الشرطة، لاحتمال ان تكون من بين مصوغات الضحايا .. ولم يبق للمكوجى المسكين من مضبوطاته، سوى سرواله الداخلى، الذى وجدت عليه بقع حمراء، ذكر انها من آثار احتسائه النبيذ، وقد ظل ضمن احراز القضية، ولم يحاول - فيما بعد - المطالبة به.

وبعد ثلاثة أيام أخرى، وفى ٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠ - افرجت النيابة عن بقية جيران «سكينة» فى منزل «أبوالمجد»، وهم «محمد سليمان شكير» و«السيدة بنت سليمان» و«صالح المدنى» ولم تكن قد ضبطت عندهم شيئاً.. أما «أحمد الجدر» الذى أفرج عنه فى اليوم نفسه، فقد استردت أسرته ما ضبط لديها من ملابس ومصوغات، وكانت تخص أمه وزوجته..

وكان «عبده حليتو» - ترزى كفر الزيات - هو أقل الذين قبض عليهم - ولم يشملهم قرار الاتهام فى القضية - اهتماما باسترداد مضبوطاته، إذ لم يطالب بها، إلا فى ٢١ فبراير (شباط) ١٩٢١، فأمرت النيابة بردها إليه، وكانت تتكون من كمية كبيرة من الملابس، فضلاً عن ملابس زوجته ومصوغاتها، وكانت تتكون من زوج من الأساور، وزوج من الفوايش، بلغ ثمنها - طبقا لتقدير شيخ الصياغ - ثلاثة وثلاثون جنيها و١٥ قرشا.

واثبتت «ستوتة بنت على» - شقيقة «نبوية بنت على» قهوجية كوم بكير - أنها اكثر أهالى الضحايا عملية وواقعية، إذ ما كادت تتأكد من وفاة شقيقتها، حتى اسرعت باتخاذ اجراءات استخراج إعلام وراثة، يثبت انها وزوج شقيقتها المتوفاة «حسن الشناوى» هما الوارثان الوحيدان لها بدون شريك. واستناداً إلى ذلك تقدمت للنيابة العامة فى ٩ يناير (كانون الثانى) ١٩٢١، بعريضة

ذكرت فيها أن الدكان الذى كانت تقيم فيه شقيقتها المتوفاة، مايزال مغلقاً منذ قررت النيابة ذلك عقب اكتشاف جثه فى خرابة شارع الواسطى.. وتعبر عن خشيتها من أن يتراكم الإيجار، فيقوم ملاك الدكان ببيع محتوياته بالمزاد العلنى، للحصول على متجمد الايجار، وتطالب بفض الاختام التى وضعتها النيابة على أبوابه، وتسليمها المنقولات التى يحتويها..

وبعد أسابيع، وفى ٢١ فبراير (شباط) ١٩٢١، تشكلت لجنة ضمت مندوبا عن قسم الشرطة وشيخ الحارة، برفع الأختام، وقامت بتسليم محتويات الدكان إلى «ستوتة» و«حسن الشناوى». ولم يكن به، سوى سرير من الحديد ومرتبة ولحاف ووسائد من القطن والقش وحصيرة، وزير ومدفأة من الفخار، وقفة من الخوص، فضلاً عن ملابسها وقليل من أدوات المطبخ ومبلغ خمسة وستون قرشا..

وبمجرد صدور الحكم فى القضية - ١٦ مايو (أيار) ١٩٢١ - تقدمت «أمينة بنت منصور» الشهيرة بـ«أم أحمد النص» بعريضة إلى النيابة، تشير فيها إلى الحكم ببراءتها. وتستند إليه فى المطالبة باسترداد مضبوطاتها، التى حددتها بأنها ثلاث قصبات فضية، ومحبس وخاتم ذهب، وخلخال فضة وجملة ملابس.. فلم توافق النيابة، إلا على رد الملابس، أما المصوغات - التى قدر شيخ الصياغ ثمنها بأربعة جنيهات وتسعة قروش - فقد رفضت النيابة إعادتها إليها.

ومن زنزانته بسجن الحضرة، تقدم الصائغ «على محمد» فى ٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١، وقبل أيام من اعدام زملائه - بعريضة إلى مأمور سجن الحضرة يقول فيها أنه أمضى ما يقرب من ١٣ شهرا فى السجن، وأنه يعول عائلة فقيرة تعانى من الحاجة، ويطلب احضار المصوغات التى ضبطت فى دكانه إلى السجن، لكى يقوم بتسليمها إلى عائلته من أجل الصرف على «أولاده القصر»، وذكر أن هذه الأشياء، هى عشر سلاسل بالانصاص جنيهات.. وخاتمان من الذهب، ودلاية جنيه مصرى، ونظارة بلور بدون أسلاك، و٣ غوايش ذهب، وبعض من الذهب الكسر.. ورفضت النيابة الطلب.. وكان شيخ الصياغ قد ثمن قيمة المصوغات التى ضبطت لديه، بثمانية عشر جنيها و٢٥٠ مليما..

ولأن «عبدالرازق يوسف»، كان الوحيد من بين الذين اعدموا، الذى لم يضبط لديه شىء، ولم تكن هناك احراز باسمه، فإنه لم يطالب - لا هو ولا ورثته - بشىء.

وكان ذلك ايضا ما فعلته «ريا» التى كانت احرازها تتكون من لبة ذهب بانصاص وجوز حلق، هى التى اشتراها لها «حسب الله» بنصيبها من بيع مصوغات «فردوس» وبلغ ثمنهما معا - طبقا لتقدير شيخ الصياغ - سبعة جنيهات، و٩٥٠ مليما، لكنها لم تطالب باستردادها.

وانضمت «سكينة» إلى قائمة الزاهدين فى اعراض الدنيا، من المحكوم عليهم بالإعدام. وكانت الاحراز المضبوطة باسمها، تتكون من ساعة يد بها ظرف

واحـد ذهب، وخـاتم ذهب مـزخـرف بالحـرفـين G.F، هو الخـاتم الذى كـان «الكابورال جـولدون» قـد أهداه إلى «فـردوس»، وأودعـتـه لدى أحـد الصـياغ لتلميـعـه، وقـامت «سكينة» باسـترداده فى اليوم التالى لمقتلها، وقد قدر شيخ الصياغ، ثمنهما معاً بجنيه ومائة وأربعون مليما..

ومع أن «محمد عبدالعال» لم يتقدم بطلب الحرز الخاص به، والذى كان يتكون من ساعة فضية من غير تمفه، قدر ثمنها بنصف جنيه، إلا أن الحكم ما كاد يصدر باحالة أوراقه إلى المفتى، حتى تقدمت والدته «ليلى بنت عيد» بعريضة تطلب فيها إعادة الملابس التى تم ضبطها فى منزلها بموشا، وفى منزل شقيقه «محمود» بالاسكندرية، لأنها تخصها وتخص زوجته، وزوجة شقيقه، وقد تسلمتها بالفعل فى ٩ يونيو (حزيران) ١٩٢١.

وذلك ما فعله «عرابى» الذى لم يطلب شيئاً ولم تتقدم أسرته بطلب لاسترداد أحرازه، إلا بعد أسبوع من تنفيذ الحكم فيه، ففى أول يناير (كانون الثانى) ١٩٢٢، تقدمت أرملته الحرمة «مسعودة بنت محمد إبراهيم» بطلب لاسترداد ما ضبط لديها من ملابس، لأنها تخصها وتخص والدتها، فضلاً عن ملاءة فرش محلاوى، اعطتها لزوجها حين كان بقسم شرطة اللبان لغطائه، وظلت تكرر الطلب بعد أن أضافت إليه طلباً آخر، هو تسليمها الكتينة الذهب التى ضبطت مع زوجها، لكى تبيعها وتتفق على نفسها، وعلى ولدها القاصر اليتيم، لأن زوجها لم يترك لها شىء مطلقا.

وبعد تسعة اشهر من تقديم العرائض، وافقت النيابة فى سبتمبر (ايلول) ١٩٢١ - على تسليمها الملابس لكنها لم توافق على تسليمها الكتينة. وكانت أحراز «عرابى» من المصوغات، تشمل فضلاً عن الكتينة الذهبية، كتينة وسلسلة من النحاس، وقدر شيخ الصياغ ثمن الثلاثة بسبعة عشر جنيها و٧٠٠ مليم..

وكان «حسب الله» هو الوحيد من بين المحكوم عليهم بالاعدام، الذى شغلته تركته، إذ لم يكد الحكم باعدامه يصدر حتى كتب عريضة لمأمور السجن، يقول له فيها بأن له فى قسم شرطة اللبان، مبلغ ١٦ ريال ونصف، وساعة فضة بفطاء وكتينة ذهب ثمنها ١٢ جنيها، ومحفظة كاوتش، ولاسه ومحبس ذهب، وطالب بتسليمها إلى والدته «حوا بنت حسن مرعى» المقيمة بجهة «الرقة» مركز «دراو» بـ«أسوان» لكن النيابة لم توافق على الطلب، إذ كان «حسب الله» من بين الذين طعنوا على الحكم بالنقض.

ولابد أن تفكير «حسب الله»، فى التنازل عن ميراثه لأمه، وليس لزوجته الجديدة، «زنوبة» التى لم يمض معها سوى ليلة واحدة، يعود إلى انها قد تخلت عنه بمجرد أن تبين لها المصير الذى سينتهى إليه.

ففى ١٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠، وقبل يومين من تنفيذ حكم الاعدام، تقدمت إلى النيابة بعريضة، تقول فيها أن الشرطة استولت على ملابسها، وكل متاعها، وايضا على خاتم ذهب يخصها

ولحاف ومخده، وأضافت «وحيث اننى عارية الجسم، وليس لدي ما يسترنى، ويستر عورتى، خصوصاً وأننى لا عائل يعولنى سوى الله. وها أنا أمامكم وتكفيكم حالة منظرى عن مخبرى، فضلاً عن أن هذه الملابس هى لى ومن كدى ولم يأت زوجى بشىء منها، وما نالنى من زواجه إلا هتك الستر، فلعنة الله على من يوقع أمثالى من البؤساء فى شركهم».

وبعد خمسة أيام من اعدام «حسب الله».. أذن لها رئيس النيابة باستلام احرازها..

ولأن الحكم الذى صدر ضد المتهمين فى القضية، لم يكن يتضمن نصا بمصادرة المضبوطات فقد كان منطقياً أن تسلم إلى المحكوم عليهم، أو إلى ورثتهم.. لكن الحكم، كان يتضمن - كذلك - شقا مدنيا، يقضى بإلزام المتهمين الستة المحكوم باعدامهم، بأن يدفعوا - بطريق التضامن - إلى «محمد أحمد رمضان» مبلغ مائة وخمسون جنيها تعويضا له عن قتلهم لزوجته «فاطمة بنت عبد ربه» شيخة المخدمين.

وقد أسرع «رمضان» بمجرد صدور حكم محكمة جنايات الاسكندرية فى القضية فاستصدر حكما قضائياً أخر بتوقيع الحجز على المصوغات المحرزة على ذمة القضية سواء كانت تخص المحكوم عليهم بالاعدام، أو سواهم. وبذلك حال دون استرداد كل من «أمينة بنت منصور»، والصائغ «على محمد» للمصوغات المضبوطة لديهم. على الرغم من أن الحكم كان ينص صراحة على رفض الدعوى المدنية ضد الصائغ، إذ لم يثبت أن الأشياء التى أخفاها كانت تتضمن مصوغات الحرمة «فاطمة بنت عبد ربه»، كلها أو بعضها..

ويبدو أن الجميع فى النيابة العامة، كانوا يتعاملون مع كل ما يتصل بقضية «ريا» و«سكينة» بشىء من الاشمئزاز، دفعهم لعدم حسم ملكية حرز المصوغات الذى حجز عليه «محمد أحمد رمضان». خاصة وأن المحقق الرئيسى للقضية - «سليمان بك عزت» - كان منتدبا من نيابة القاهرة، وعاد إليها بعد انتهاء التحقيق، ثم ما لبث ان أحيل إلى المعاش. ولم يكن لدى أحد من العاملين بنيابة الاسكندرية، علم كاف بمجريات التحقيق، وخاصة ما يتعلق منه بملكية احراز القضية من المصوغات.

وساهمت «خديجة السودانية»، والدة «فردوس بنت فضل عبدالله»، آخر ضحايا العصابة، فى تعقيد الموقف، حين تقدمت فى وقت متأخر جدا، وفى صيف ١٩٣٤، أى بعد اكثر من ثلاثين شهرا على اعدام المتهمين، تطلب الأشياء التى عثرت عليها النيابة فى منازل المتهمين، مما كان يخص ابنتها. وذكرت أن من بينها زوج أساور ثمنه ٣٥ جنيها، وآخر ثمنه ٨٠ جنيها، وحلق طاره ثمنه ثلاث جنيهات و٤ خواتم ذهب وقلبين ذهب وسلسلتهم قدرت ثمنهم بأحد عشر جنيها، وطرحه حرير ثمنها ثمانين جنيها، وثلاثة فانلات صوف، ثمنهم ستة جنيهات، بثمن اجمالى قدرته بمائتى جنيه، وختمت عريضتها قائلة «ان بنتى المتوفاة

كانت تجرى على، واننى مسنة وفقيرة الحال.. وقد تركت لى ابنتى ابنة فقيرة الحال جدا، تسمى «حسنة» وأنا متكفلة بها واقوم بالصرف عليها» وطلبت تمكينها من الحصول على تلك الأشياء..

ورفضت النيابة البحث فى الموضوع من أساسه، مالم تقدم «خديجة» حكما شرعياً بأنها وحفيدتها الوارثتين الوحيدتين لابنتها المقتولة.

ولابد ان عقبات اجرائية وقانونية كثيرة، قد حالت بين «خديجة السودانية» وبين استرداد مصوغات ابنتها، فقد عجزت عن استخراج اعلام وراثة، باسمها وباسم حفيدتها «حسنة»، التى يلفت ظهورها اسمها فى هذه المريضة النظر، إذ لم يسبق للأم، أن ذكرت فى أى دور من أدوار التحقيق، أنه كان لـ«فردوس» ابنة. وفضلاً عن ذلك فلم يكن من بين حرز المصاغ الخاص بالمتهمين، مصوغات بالعدد والمواصفات التى ذكرتها، والتى يبدو أنها بالغت فى إحصاء عددها، وفى تثمينها، إذ كان الصائغ «على محمد» - كما اعترف فيما بعد - قد قام بتكسير مصوغات «فردوس» وصهرها بمجرد علمه باكتشاف جثة فى أرضية الغرفة التى كانت «سكينة» تستأجرها فى منزل «آل أبوالمجد».. وبذلك لم تكن من بين ما ضبط فى دكانه، حين تم تفتيشه فى مرحلة متقدمة من التحقيق، وبعد اسبوعين من بدئه، على اثر اعتراف «ريا» عليه.

والشىء الوحيد من أحراز القضية، الذى يمكن الجزم بانه من مصوغات «فردوس» هو

١٦٠ مليما.. نفقات إطعام الحرمة ريا وزوجها وابنتها على حساب الحكومة

الخاتم المطرز بالحرفين G.F، الذى اهداه لها «الكابورال جولدن»، وكانت «سكينة» تخفيه فى مسند قش بغرفتها، وكان شيخ الصياغ قد قدر ثمنه بـ٩٠ قرشا.

وكان رأى النيابة قد اتجه فى البداية إلى أن الاحراز، هى من الناحية القانونية، ملك ورثة المحكوم عليهم بالاعدام. وأن على «محمد أحمد رمضان» أن يقاضيهم، ليحصل على حكم باقتضاء التعويض من تركتهم قبل تسليمها للورثة.. وطلبت بالفعل من قسم الشرطة، ان يجرى تحريات لمعرفة أسماء هؤلاء الورثة.

وكشفت هذه التحريات، عن أن كل من «سكينة» و«عبدالعال» لا وارث لهما. وأن «ريا» و«حسب الله» لا وريث لهما غير ابنتهما «بديعة» المودعة بملجأ الأيتام. وترك «عرابى حسان» ثلاثة من الورثة هم والدته «خضرة بنت على» وزوجته «مسعودة محمود إبراهيم» وابنه القاصر «عباس عرابى».. أما «عبدالرازق يوسف» الذى لم يترك تركة فقد ترك أربعة من الورثة هم أرملته «مرزوقة على العدوى» وولدان «عبدالحليم» - ٩ سنوات - و«سلامة» - ٣ سنوات - و«فتحية» - ٥ سنوات - وهى بيانات غير دقيقة، لأن البحث اقتصر على الورثة فى دائرة قسم شرطة اللبان، وغيره من أقسام الشرطة التى كان يسكن بها المحكوم عليهم بالاعدام، ولم تتطرق إلى غيرها.. وبذلك اغفلت آخرين من الورثة، ممن يقيمون فى الاسكندرية ذاتها، أو فى كفر الزيات أو فى الرقه، ومن بينهم «زوجة عبدالعال» وأمه، وأبيه وشقيقه، ووالدة «ريا» و«سكينة» وشقيقهم «أبو العلا»، وزوجة «حسب الله» الثانية، ووالدته وشقيقه.

وفى ١٣ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٦، تقدم «محمد أحمد رمضان» بعريضة جديدة ضمن سلسلة عرائضه التى لا حصر لها، لرئيس نيابة الاسكندرية الأهلية، طالب فيها بصرف المبلغ النقدى المودع بالخزانة لحساب المتهمين - وهو ثلاث ريالات ونصف ضبطت مع «حسب الله» - كما طالب ببيع المصوغات المحجوز عليها، قائلاً ان الربط بين صرف التعويض المستحق له، وبين تقديم اعلام شرعى بأسماء ورثة المحكوم عليهم، ليس له ما يبرره، إذ انه لا يعرف لهم ورثة، غير «ريا» التى كانت لها ابنة هى «بديعة» أودعت بالملجأ العباسى وتوفيت منذ سنتين - أى فى عام ١٩٢٤.

وبعد ستة شهور وفى ١٥ مارس (آذار) ١٩٢٧ وافقت النيابة على أن تباع المصوغات وأن يتم التنفيذ على تركة المحكوم عليهم بالاعدام، وهى ثمانية قطع، منها قطعتان (لبه وحلق) ملك «ريا» وقطعتان (ساعة يد بها ظرف واحد ذهب وخاتم الذهب المزخرف بالحرفين G.F) ملك «سكينة».. وقطعة واحدة ملك «عبدالعال» (ساعة فضة من غير دمغة) وقطعتان ملك «حسب الله» (كتينة ذهبية وساعة فضة) وثلاثة قطع ملك «عرابى» (كتينة ذهب وساعة وكتينة كأس).. واستندت فى ذلك إلى سببين:

الأول: أنه ليس بين المصوغات ما تعود ملكيته إلى «فردوس بنت فضل الله» آخر ضحايا العصابة، مما يجعل طلب والدتها «خديجة السودانية» غير ذى موضوع.. وهو ما يكشف عن أن رئيس النيابة الذى اتخذ القرار، لم يراجع ملف القضية جيداً، وإلا لتنبه إلى أن الخاتم المزخرف بالحرفين G.F هو من مصوغات «فردوس».

الثانى: ان احدا من ورثة المحكوم عليهم لم يتقدم بحكم قضائى يثبت ملكيته لشىء منها.

وفى ١٩ يناير (كانون الثانى) ١٩٢٨

اكتشفت النيابة، أن هناك حرزين من الملابس، تخصان المتهمين والمجنى عليهم فى قضية «ريا» و«سكينة» الأول صرة كبيرة، والاخرى صغيرة - هى ملابس «فردوس» التى ضبطت فى منزل «حسب الله» و«عبدالعال» - فأمرت بإرسالها إلى قسم شرطة اللبان للبحث عن أهلية المتوفين وتسليمها إليهم، فإذا لم يعثر عليهم تباع ويورد ثمنها للخزينة.

والغالب ان احداً لم يبحث عن «أهلية المتهمين» ففى نفس الأسبوع، أقيم مزاد لبيع هذه الملابس، التى كانت تشمل الفانلات الصوفية الثلاث التى احضرتهم «أم فردوس» من منزلها، فضلاً عن الفانلة الرابعة التى ضبطت بمنزل «عبدالعال»، وبقية ملابسها، وقد بيعت مع غيرها بخمسين قرشا، فى مزاد صورى، اشترك فيه خمسة من تجار الملابس المستعملة فى سوق الجملة.

وتم توريد المبلغ إلى خزينة المحكمة ليضاف إلى ثمن المصاغ، الذى اعيد تثمينه، فانخفضت قيمته إلى ثلاثون جنيها وثلاثة وستون قرشا، وهو أقل من نصف الثمن الذى قيمه به شيخ الصياغ فى يناير (كانون الثانى) ١٩٢١ وإلى النقود التى ضبطت فى جيب «حسب الله»، لتصل الجملة إلى أربعة وثلاثون جنيها ونصف جنيه..

وعلى امتداد العامين التاليين، استأنف «محمد أحمد رمضان» نضاله للحصول على هذا المبلغ، لكن النيابة اعترضت ـ أولا على صرفه كله له، استناداً إلى الحكم الصادر لصالحه بالتعويض، لا يشمل مضبوطات كل المتهمين فى القضية، ولكنه يقتصر على المتهمين الستة الذين اعدموا، وبالتالى فإنه لا يستحق سوى ثمن المصوغات التى ضبطت لديهم فقط. وهكذا استثنت ثمن ما كان مضبوطا لدى الصائغ «على محمد» وأم «أحمد النص» لينخفض المبلغ إلى سبعة عشر جنيها وخمسة قروش، ثم طالبته ثانيا، بدفع رسوم القضية التى قدرت بسبعة عشر جنيها، فاستأنف المطالبة باعفائه من تلك الرسوم، استناداً إلى أنه كان قد حصل على قرار من المحكمة باعفائه من رسوم قضية التعويض، لفقره.. ولأن خصم الرسوم المطلوبة من المبلغ المستحق له، لا معنى له إلا حصوله على خمسة قروش فقط..

وكان آخر ما كتبه فى هذا الصدد، عريضة قدمها للنيابة فى ٤ مايو (أيار) ١٩٣١ قال فيها انه فى احتياج شديد إلى المال «وعلى الخصوص فى هذه الأيام الضنك التى عمت جميع القطر، خاصة واننى فقير وذو عائلة، وغير كسوب، لكبر سنى وضعف بصرى»..

وأثارت مرارة الكلمات عطف رئيس نيابة الاسكندرية، فأشر على العريضة باعفائه من الرسوم، ويبدو أن أحداً لفت نظره، إلى أن الملف يتضمن قراراً لأحد اسلافه من رؤساء النيابة، برفض طلب الاعفاء، وتحصيل الرسوم، فقام بشطب تأشيرته.

وكانت تلك آخر ورقة فى ملف قضية «ريا» و«سكينة».



كتب «صلاح عيسى»

١ ـ **الثورة العرابية**: الطبعة الأولى/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت ١٩٧٢. الطبعة الثانية/ دار المستقبل العربي/ القاهرة ١٩٨٢.

٢ ـ **حكايات من مصر**: الطبعة الأولى/ دار الوطن العربي/ بيروت ١٩٧٤.

٣ ـ **الأخوان المسلمون، مشكلة الماضى ومأساة المستقبل**: (دراسة نشرت كمقدمة للترجمة العربية لكتاب ريتشارد ميتشل «الأخوان المسلمون») ـ الطبعة الأولى / مكتبة مدبولى/ القاهرة ١٩٧٧/ الطبعة الثانية / نشرت كفصل من كتاب «الكارثة التى تهددنا»/ مكتبة مدبولي ١٩٨٧.

٤ ـ **البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة**: الطبعة الأولى/ دار بن خلدون/ بيروت ١٩٧٩. الطبعة الثانية/ مطبوعات الثقافة الوطنية/ القاهرة ١٩٨٠.

٥ ـ **مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا (رواية)** ـ الطبعة الأولى/ دار بن رشد/ بيروت ١٩٨٠ـ الطبعة الثانية (الكاملة) دار عيون / الدار البيضاء ١٩٨٨.

٦ ـ **فلسطين: الأرض والمقاومة** (بالاشتراك مع خيرية قاسمية وحسناء مكداشى)/ الطبعة الأولى: دار الفتى العربى/ بيروت ١٩٨١/ الطبعة الثانية: دار الفتى العربي/ القاهرة ١٩٨١.

٧ ـ **محاكمة فؤاد سراج الدين باشا (دراسة ووثيقة)** ـ الطبعة الأولى: مكتبة مدبولي/ القاهرة ١٩٨٣ ـ الطبعة الثانية: مقدمة المؤلف لنصوص المحاكمة وقد صدرت مستقلة تحت عنوان «البرجوازية المصرية ولعبة الطرد خارج الحلبة»/ دار التنوير ـ بيروت ١٩٨٢.

٨ ـ **هوامش المقريزى: (المجموعة الأولى)** ـ الطبعة الأولى: دار القاهرة ١٩٨٣.

٩ ـ **رجال مرج دابق (قصة الفتح العثمانى لمصر والشام)** ـ الطبعة الأولى: دار الفتى العربى/ بيروت ١٩٨٣.

١٠ ـ **مثقفون وعسكر** (مراجعات وشهادات وتجارب عن حالة المثقفين في عهد عبد الناصر والسادات): الطبعة الأولى: مكتبة مدبولي ـ القاهرة ١٩٨٦.

١١ ـ **الكارثة التي تهددنا** ـ الطبعة الأولى: مكتبة مدبولى/ القاهرة ١٩٨٧ ـ الطبعة الثانية/ دار عيون/ الدار البيضاء ١٩٨٨.

١٢ ـ **تباريح جريح** (خواطر وذكريات) ـ مكتبة مدبولي/ القاهرة ١٩٨٨.

١٣ ـ **أربعة وجوه لوعد باطل** (قصة وعد بلفور)/ بالاشتراك مع جميل عطية إبراهيم/ الطبعة الأولى: دار الفتي العربى/ بيروت/ ١٩٩١.

١٤ ـ **حكايات من دفتر الوطن** ـ الطبعة الأولى: كتاب الأهالى/ القاهرة/ ١٩٩٢ ـ الطبعة الثانية: صدرت فى جزئين عن مكتبة الأسرة ١٩٩٩، و٢٠٠٢.

١٥ ـ **بيان مشترك ضد الزمن** ـ قصص وروايات قصيرة ـ الطبعة الأولى: دار سينا للنشر/ القاهرة ١٩٩٢م.

١٦ ـ **دستور فى صندوق القمامة:** قصة مشروع دستور ١٩٥٤ (دراسة ووثيقة)/ الطبعة الأولى: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان/ القاهرة ـ ٢٠٠١.

١٧ ـ **رجال ريا وسكينة:** سيرة اجتماعية وسياسية (حكايات من دفتر الوطن) الطبعة الأولى: دار الأحمدى للنشر/ القاهرة ٢٠٠٢.

تحت الطبع

١ ـ **البرنسيسة والأفندى** (قصة غرام الأميرة فتحية ورياض أفندي غالى).

٢ ـ **الملفات القضائية للشاعر أحمد فؤاد نجم**/ دراسة ووثائق.

٣ ـ **مأساة مدام فهمى** (حكايات من دفتر الوطن)/ نشر مسلسلا بمجلة «كلام الناس»/ ١٩٩٤.

٤ ـ **أفيون وبنادق** (ظاهرة العنف الجنائى والسياسى فى مصر في الأربعينيات ـ نشرت مسلسلة بمجلة «٢٣ يوليو» ـ لندن ١٩٧٩).

٥ ـ **هكذا تكلم شكري مصطفى.**

٦ ـ **الموت في تشريفة الحليف الوطني:** (حكايات من دفتر الوطن): وقائع اغتيال شهدى عطية الشافعى.

٧ـ **خرافة فرج الله الحلو:** (حكايات من دفتر الوطن)/ (وثائق التحقيق فى قضية خطف وتعذيب وقتل وإتلاف جثة فرج الله الحلو سكرتير عام الحزب الشيوعى السورى اللبنانى عام ١٩٥٩ مع دراسة عن حملة عبد الناصر ضد الشيوعية).

٨ ـ **اغتيال مصطفي خميس** (الصدام الأول بين البروليتاريا والعسكريتاريا).

٩ ـ **الصحافة المصرية في معركة الديمقراطية** (١٩٥٠ ـ ١٩٥٤).

١٠ـ **مذكرات عرابي باشا وأوراقه** (تحقيق وتوثق ـ ثلاثة مجلدات).

١١ ـ **عبد الرحمن الجبرتي**: الانتجلنسيا المصرية فى عصر القومية.

١٢ ـ **وثائق الحركة الشيوعية المصرية** (المجلد الأول)..

١٣ ـ **محاكمة فؤاد سراج الدين** (الجزء الثانى ـ بقية شهادات الشهود).

١٤ ـ **محاكمة فؤاد سراج الدين** (الجزء الثالث ـ مرافعة النيابة والدفاع).

١٥ـ **هوامش المقريزى**: المجموعة الثانية.

المحتويات

رجال ريّا وسكينة

سيرة سياسية واجتماعية

فى عام ١٩٢١ وصف الكاتب الكبير «عباس محمود العقاد» الشقيقتين «ريَا» و«سكينة» بانهما من أصحاب النفوس الميتة.. ومنذ ذلك الحين دخلت الإثنتان التاريخ، باعتبارهما رمزاً للشرّ المجرد، ولم يعن أحد من المؤرخين بتقصى حقيقة ما نسب إليهما من جرائم، أو بالبحث عن الدوافع التى قادتهما لارتكابها.



وهذا الكتاب هو محاولة لرواية السيرة الحقيقية لـ «ريَا» و«سكينة» ولكل من أحاط بهما من رجال ونساء وظروف سياسية واقتصادية عامة، وهو يستند إلى وثائق التاريخ، وليس إلى مرويات الخيال الشعبى الذى أسقط عليهما كل كراهيته وازدرائه لمن يخون علاقة العيش والملح التى يقدسها المصريون.

مؤلف الكتاب «صلاح عيسى» كاتب وصحفى وباحث فى التاريخ ولد عام ١٩٣٩، وشارك فى إصدار، وأدار، ورأس تحرير عدّة صحف مصرية، نشرت مقالاته وأبحاثه فى معظم الصحف العربية. نشر ١٧ كتاباً فى التاريخ والفكر السياسى والاجتماعى من أبرزها «الثورة العرابية» و«حكايات من دفتر الوطن» و«مثقفون وعسكر» و«البرجوازية المصرية واسلوب المفاوضة» و«دستور فى صندوق القمامة».

دار الأحمدى للنشر